

الله

وُجُودِهِ • صُرفَانِهِ • طَرِيقُ الْاِتِّصَالِ بِهِ

بِقِسْمَةِ

سَالِمِ الْحَبَابِي

مَدِينَةِ عِلْمِ اَلْاَزْدِيَّانِ الْمَقَاتِلَةِ

Bibliotheca Alexandrina

0127952

الله

جلّ جلاله

وجوده • عرفانه • طريق الإتصال به

بقلم

سليم الجابي

ماجستير في علم الأديان المقارن

الله
جلّ جلاله

وجوده * عرفانه * طريق الإتصال به

الطبعة الأولى ١٩٩٨ - عدد النسخ المطبوعة ٢٠٠٠
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

عنوان المؤلف : دمشق - تلفون : ٧٧٧٤١١٣ - ص.ب : ٥٤٢٥
تصميم الغلاف والتنضيد والإخراج الفني :
النبلاء للخدمات الإعلانية - دمشق - تليفاكس : ٢٢٤٨٠٨٢
الطباعة : مطبعة نضر لفنون الطباعة الحديثة - دمشق - تلفون : ٢٣١٢٣٦٣

■ صدر للمؤلف :

- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء اول)
- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء ثاني)
- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء ثالث)
- نظرية جذور الأخلاق . (مترجم الى الفرنسية ويترجم الى الإنكليزية)
- النظرية القرآنية حول خلق العالم .
- القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة .
- الرأي في المرأة والحرية والتراث حول حوار داليوطي وأغياض .
- فن الإختزال في القرآن الكريم .
- هل مات المسيح على الصليب ؟ (مترجم الى البولندية)
- في ظلال دلالات سورة الكهف وبيمنظور جديد معاصر .
- في ظلال دلالات سورة الاسراء وبيمنظور جديد معاصر .
- الصوم في الإسلام .

■ يصدر قريباً :

- أصول تفسير القرآن العظيم
- خلق الإنسان

كلمة إهداء وشكر

أهدي هذا "السفر" الغنيّ بما يُبرز روح
الدين الإسلامي الحنيف، إلى الله خالقي ومالكي
وربّ الأرباب والذي له ما في السماوات وما في
الأرض وما بينهما، والذي إليه يرجع الأمر كلّهُ،
والذي إليه المصير.

كما أشكر جميع إخواني وأحبائي الذين
ساهموا في إنجازه تنضيداً، وطباعة، وبالتبرّع مالياً.
وأدعوه جلّ شأنه أن يجزيهم أحسن الجزاء.

المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

من المعلوم تاريخياً أنه كان لكتاب الله نزولان وأن دعوة الإسلام قد مرّرها الله عزّ وجلّ بدورين ، قبل أن يُكمل مُحمّد بن عبد الله ﷺ تبليغها للناس . فقد قدّر تعالى أن يرى الناس وجهه الإسلام وهو في دوره المكيّ تابعاً لحكومة قريش الجاهليّة . كما قدّر تعالى أن يرى العالم هذا الوجه الإسلاميّ ، وفي أيدي أتباعه زمام الحكم ، وله السّيادة ، وهو في دوره في المدينة المنوّرة بعد الهجرة إليها إثر تقبّل أهلها الإسلام ديناً . ولا يُعقل أن يُقدّر الله الحكيم الخبير كلّ ذلك دون حكمةٍ بالغةٍ وهو علام الغيوب .

ولطالما فكّرت في هذا الأمر ملياً . وقد لفت نظري أنّ الدور المكيّ أثبت خلاله كلّ مَنْ آمن ثباتاً عليّ العقيدة ، وتقديماً لكلّ تضحيةٍ مطلوبةٍ منه ، فلم تحدث ظاهرة ارتدادٍ ولا ظاهرة نفاق . على حين أنه قد ظهرت في الدور المدنيّ طبقة من المنافقين وهي في لباس إسلامي .

كما لفت نظري أيضاً أنّ ما أنزله الله العزيز من سور في مكّة المكرّمة كانت مضامينها لا تتناول ما أنزله تعالى في المدينة المنوّرة من مضامين . ولا شك أنّ مثل هذا التصرف لا يخلو أيضاً من حكمةٍ تُلفت نظر المتدبّرين .

والنتيجة التي استقيتها من ذلك كله ، والتي توصلت إليها ،
هو أنّ الله عزّ وجلّ قد أراد إعطاء درسٍ عظيمٍ للذين يرفعون
شعاراً في زماننا من أنّ الإسلام دينٌ ودولةٌ ويسعون لاستعادة مجد
الإسلام وهو أن يتذكروا هذين التورين المكّي والمدنيّ ، وملاحظتهما
التي ذكرناها ، ليدركوا من خلال ذلك أنّ الدين الإسلامي الحنيف
يشكل في حقيقة أمره كيانه له استقلالته . وأنّه مخلوق ومُصاغ من
جسدٍ وروح . فالإسلام كدين يُمثله الدور المكّي والإسلام كدولةٍ
يمثله الدور المدنيّ . بمعنى أنّ التعاليم التي كان الله تعالى قد أنزلها في
مكة هي بمثابة الروح لكيان الإسلام . وأنّ التعاليم التي أنزلت في
المدينة هي بمثابة الجسد لكيان الإسلام . وإنّه لشيءٌ بديهيٌّ أنّ
لاقيمة لجسدٍ بدون روح . فلو وعى هؤلاء الذين يرفعون الشعار
المذكور ويسعون لاستعادة مجد الإسلام هذا الدرس العظيم وتلك
الحقيقة ، لاحتلوا حذور مافعله ربهم عزّ وجلّ ، ولكانوا سعوا
لإحياء تعاليم هذه الروح ووفق مشيئة ربهم ، وليس وفق ماشاؤوه .
وبناءً عليه كان لزاماً عليّ أن أؤلف "سفرًا" أي كتاباً كبيراً
يُعين المسلم البعيد عن العقل التقليدي على تبين ملامح تلك الروح
الإسلامية التي نفخها محمد خاتم النبيين ﷺ في أصحابه في مكة
المكرمة ، حتى إذا عاد بإمكانهم حمل مشعل الإسلام وتقلد زمام
الأمر إذا ما سعى الحكم إليهم بتقدير من رب العالمين .
وأقدمت على هذه الخطوة المباركة ، من بعد أن تبين لي
خُلُوق مکتباتنا من كتابٍ مماثل ينظر مؤلفه بنفس المنظار الذي عاد
طوع بناني . والحق أنني وجدت تأييداً كبيراً من جانب ربي على
هذا الطريق السويّ.

وبهذه المناسبة أقول : إنني وقد سبق لي أن تصدّيت للقراءة المعاصرة التي طلع بها الدكتور محمد شحرور على قُرّائه قبل عدّة سنوات . وكان ينبغي أن يقرّن ردّي في ذاك الوقت بمثل هذا الكتاب ومن باب أنّ تلك القراءة المعاصرة قد خلت من هذه الروح . لكنّ الذي حدث أنّي كنت ملتزماً بنهج واضح المعالم ، سرّ عليه إلى آخر هذا الرّد . وانتهيت منه وأنا على مضضٍ وتحفّزٍ لكتابة هذا "السفر" الغني بالمعلومات ، والذي كان من المستحيل إنجازَه في وقتٍ قصير ، فاكتفيت وقتئذٍ بإبراز معالمٍ ماقام به المذكور من عمليّات تمزيقٍ وتفزيّمٍ لكتاب الله ، وإسقاطٍ لأفكار الماركسيّة على آياته عن قصديٍّ وعن غير قصد . الأمر الذي أغضب الله تعالى الذي كان أنزل هذا الذّكر ووعد بالمحافظة عليه .

ألا لا ينبغي لأحدٍ أن يغرب عن ذهنه ، بعد الذي ذكرته ، أنّ الله عزّ وجلّ كان غرضه الأساسي من إنزال كتابه العزيز ، هو لتعريف عباده على نفسه ، ليتّبعوا وجه ربّهم الذي لا إله إلا هو ، فيتّبعوا وجه جماله ووجه جلاله وحُسنه وإحسانه ، لينجذب الطّالبون إليه فيطلبوا محبّته وقربه ورضوانه ، ولتتوطّد اللّحمة ما بين العبد وربّه ويصبح من عابديه الحقيقيّين . وليبوء الفاسق بشرّ أعماله ويستحقّ العقاب .

لذلك أدعو إلهنا المحبوب أن يتقبّل ما أقوم به ، وليحقّق ما بَشّرني به على طريق هذا المسعى ، وإنّه ذو الفضل العظيم . وأنا في السّبعين من عمري ، ولا حول ولا قوّة لي إلا بما آيدني به من لدنه .

وليُعلم القارئ العزيز أنّي التزمت خلال تألّيفي هذا السّيفر المبارك بمنهجٍ ماخُذتُ عنه يتحدّد في الأمور التالية :

أولاً : قرّرت ألا أستقي معلومات هذا الكتاب إلا من ضمن النصوص القرآنية نفسها ، وليس من القيل والقال .
ثانياً : وأن ألتزم بأصول تفسير القرآن الكريم ، ووفق معطيات مفرداته وتراكيبه وذلك بالرجوع إلى ما بلغنا من معاجم اللغويين العرب .

ثالثاً : وأن أقلل من الاستشهاد والاستدلال بالأقوال من خارج هذا القرآن العظيم ، إلا بما يفيد توثيق مصداقيته .
رابعاً : وأن أتجنب العقلية التقليدية ما استطعت ، ولأكتب بأسلوب علمي معاصر .

وانطلاقاً من هذا المنهج المذكور ، فقد رُحِت ، وأنا أبرز معالم روح التعاليم الإسلامية الحنيفية ، فقسمت المواضيع إلى ثلاثة بحوث . ففي المبحث الأول ألقيت الضوء على مصداقية وجود ذات الله عز وجل ومصداقية كتابه العزيز . وفي المبحث الثاني تكلمت عن أهم ما يساعد المسلم ليتعرّف إلى ربه عز وجل ، ويساعده على الفوز بمحبته وقربه ورضوانه . وفي المبحث الثالث ألقيت الضوء على تاريخ اتصال الله تعالى بمخلوقاته . هذا الاتصال الذي حدّده القرآن العظيم ، والذي لن ينقطع في يوم من الأيام .

علماً بأنني قسمت المبحث الأول إلى أربعة أبواب . وقد تضمّن الباب الأول فصلاً ثلاثة اشتملت على ما للعقل والفكر من منزلة في كتاب الله العزيز ، وعلى أنّ الوحي قديم ، وقد ناقشت ما وضعوا بصده من نظريات . كما وضّحت ما في التوراة والإنجيل المعاصرين من تحريفات ، الأمر الذي يُسقطهما من الميزان ، فلا يُعدّان مرجعاً موثقاً .

وقد تضمّن الباب الثاني أربعة فصول دارت مضامينها حول إثبات مصداقية القرآن الكريم كمرجع موثوق للمحققين.

أمّا الباب الثالث فقد تضمّن خمسة فصول دارت مضامينها جميعها حول وجود الله عزّ وجلّ ، وعلى أدلّة وجوده ، وعلى المنهج القرآنيّ في هذا الخصوص . علماً بأنّي استقيت الأدلة من القرآن الكريم نفسه ، متجاوزاً في ذلك الأسلوب التقليديّ المعروف .

وأمّا الباب الرابع فقد اشتمل على فصلين اثنين . فبحثت في الفصل الأوّل فيهما موضوع الشّرك الخفيّ خاصّة ، ومايمتّ إلى هذا الشّرك الخفيّ من أمور .

وعلى هذه الشاكلة فقد قسّمت المبحث الثاني إلى أربعة أبواب . فالباب الأوّل منها اشتمل على فصلين . وقد تضمّن الفصل الثاني قوانين المحبة الإلهيّة ، ومقاماتها المختلفة .

وأمّا الباب الثاني من تلك الأبواب فقد اشتمل على ثلاثة فصول . وقد بحثت في الفصل الأوّل منها الآثار الروحيّة التي تتأتّى عن العبادات . وبحثت في الفصل الثاني منها كيفة تحصيل المحبة الإلهيّة وكسبها . وبحثت في الفصل الثالث مراحل السير الروحاني التي يقطعها السالك على طريق التعرّف إلى ربّه عزّ وجلّ والوسائل العائدة إليها .

وأمّا الباب الثالث من تلك الأبواب فقد اشتمل على فصلين اثنين بحثت في الفصل الأوّل منهما موضوع الذكر الإلهي الذي يتطلبه السير الروحاني : تعريفه ، فلسفته ، وأشكاله وكيفيّته .

وبحثتُ في الفصل الثاني منهما البركات والثمار الروحية التي تنجم عن الذكر الإلهي بالدعاء.

وأما الباب الرابع من تلك الأبواب فقد اشتمل على ثلاثة فصول . وقد عدّدت في الفصل الأول من هذه الفصول تلك الصفات الذميمة التي تحول دون العبد ودون فوزه بمحبة ربه عز وجل . كذلك عدّدت في الفصل الثاني من هذه الفصول تلك الصفات الحسنة التي إذا ماتحلى بها العبد السالك درب عرفان ربه ، تجذب محبة ربه عز وجل إليه ، ويفوز بالتالي بمحبة خالقه وقربه ورضوانه . وقد خصّصت الفصل الثالث من هذه الفصول للكلام عن حُسن الله وإحسانه وجماله وجلاله .

وأخيراً فقد خصّصت المبحث الثالث للكلام عن موضوع الإتصال بالله تعالى . وقسمته إلى ثلاثة أبواب :

فالباب الأول من هذه الأبواب اشتمل على ثلاثة فصول . وقد بحثت في الفصل الأول من هذه الفصول إمكانية الاتصال بالله جلّ شأنه . وبحثت في الفصل الثاني من هذه الفصول أسماء الذات الإلهية الحسنى ، ومضامينها ، وتجلياتها . وبحثت في الفصل الثالث من هذه الفصول علاقة البشر بهذا الخالق العظيم قبل آدم عليه السلام وبعده .

وأما الباب الثاني من تلك الأبواب فقد اشتمل على فصلين اثنين . بحثت في الفصل الأول منهما ماواجه المفسرين من إشكالات بما يتعلق بموضوع آدم عليه السلام ، وبخصوص جنته التي أسكنه ربه عز وجل فيها ، وكونه أول رسول بعثه الله تعالى لنقل البشر نقلة نوعية . وبحثت في الفصل الثاني منهما حقيقة قصة آدم

عليه السلام الوارد ذكرها في القرآن الكريم ، والمقاصد الهامة
المرجوة من ذكرها .

وأما الباب الثالث من تلك الأبواب فقد اشتمل على ستة
فصول . تناولت في التلخيص في الفصل الأول من هذه الفصول ،
تلك الحركات المادية التي أعقبت بعثة آدم عليه السلام .
واستعرضت في الفصل الثاني من هذه الفصول حقيقة النقلة النوعية
التي أسفرت عن بعثة آدم عليه السلام في حياة الجنس
البشري . وألقيت الضوء في الفصل الثالث على كيفية بروز روح
الشرك بالله تعالى من بعد بعثة آدم عليه السلام ، ومراحل تطوّر
الشرك إلى نوعين : شرك جلي وشرك خفي . وتناولت في الفصل
الرابع من هذه الفصول الكلام عمّا أحدثه الله عزّ وجلّ في الأرض
من انقلاباتٍ روحيةٍ أعقبت بعثة آدم عليه السلام لمعالجة أنواع
الشرك التي ذكرناها ، ولترسيخ جذور توحيد الذات الإلهية في نفوس
البشر ، وأعلامها ورموزها . وتكلّمت في الفصل الخامس من هذه
الفصول عمّا يُحدثه الله تعالى في وقتنا الحاضر من انقلابٍ روحيّ .
وأما الفصل السادس والأخير من هذه الفصول فقد خصّصته للكلام
عن موضوع إمكانية اتصال البشر على الدوام بخالقهم ، ومنهجية ،
وطرقه ، ودوامه ، وعلاقته بحقيقة الدعاء بين يديّ الله عزّ وجلّ .

وأتمّجه بعد هذا الذي شرحته لأقول لقارئ هذا "السفر"
الغني بالمعلومات ، أن يُطالع مضامينه بإمعان وتدبّر لينظر ويتحسّس
ماعلق في نفسه من أثر محسوس يتحسّسه في نفسه . فإن تراءت
لأعينه من خلاله معالم الروح الدنيوية التي اشتمل عليها الإسلام
الحنيف ، والتي سبق أن ذكرت وقلت أنّ ماعدا هذه الروح الدنيوية
من تعاليم سياسية واقتصادية وغيرها إنما أنزلت من لدنّ الله تعالى

لتشكل جسد هذا الدين الحنيف . فإن تراءى لهذا القارئ مصداقية ما ذكرت ، فليطالع بعده "القراءة المعاصرة" التي تباهى بها الدكتور محمد شحرور ، ولينظر كيف أنه من خلالها قد أفرغ الإسلام من هذه الروح الدينية ، لئيسخره لصالح ما أسقطه من آراء ماركسيّة على آيات هذا الكتاب المقدّس والمبارك والمتّصف بالنماء والدوام . وبكلمة مختصرة أخيرة أقول : إنّ المسلم المثقف ، إذا ابتعد عن فهم روح هذه التعاليم التي تناولتها في هذا الكتاب الكبير ، فكراً وسلوكاً ، يكون كالذي يُفرغ إسلامه من روحه التي كان قد نفخها محمد خاتم النبيين ﷺ في أصحابه في مكّة المكرمة . عن تلك الروح التي منحهم ديناميكيّة سادوا من جرّائها على كلّ من واجههم ، وفي كلّ مكان وزمان .

ولا يظنّ ظانٌّ أنّي أدفع بالقارئ ليصبح متصوّفاً ، وليبتعد عن مجال خدمة أمته ووطنه . كلا ، بل أدفعه ليتسلّح بهذه الروح الدينيّة الإسلاميّة التي لولاها ما استطاع محمد عليه السلام توحيد أفتدة أمته بالرّغم من تفرّقها وتشرذمها في زمانه ، والتي لولاها ما كان باستطاعة أصحابه رضوان الله عليهم من إنجاز ما أنجزوه من بعده .

فالإنسان المسلم إذا كان مهتماً أن ينقل أمته إلى مصاف الدول المتقدّمة علمياً وتقنيّاً ، وفي وقت لا يكون فيه متقمّصاً هذه الروح الدينيّة الإسلاميّة كما وضّحتها فكراً وعملاً ، ويدأب على التفكير بأسلوب التفكير الماديّ ، بعيداً عنها ، وهو يضغّ جُبة الإسلام على كتفيه ، فإنني لعلى يقين تامّ أنّه لن يُفلح فيما هو ساع إليه ، وسيكون مصيره إلى الخيبة والفشل الذريع . من منطلق أنّه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلّح به أوّلها .

ولا ينبغي لأحد أن ينسى أو يتناسى أنّ الله الذي كان وما يزال يسمع ويرى ما يجري على هذه الأرض ، يسمع ويرى في أيّامنا هذه مايكيدّه الظالمون للقضاء على دينه الحنيف . وكان قد أنبأ قبل أربعة عشر قرناً عن ذلك كلّه في أكثر من سورة من سور كتابه العزيز وكنت قد كشفت الغطاء عن تلك الأنباء الرهيبة في مؤلفي "فن الاختزال في القرآن الكريم" وغيره من المؤلفات ، من أنّه سيهلك هؤلاء الظالمين . وهأنّي وضّحت لهذا القارئ البعيد عن العقل التقليديّ في هذا "السفر" الذي هو بين يديه معالم الانقلاب الروحي الذي ابتدأه الله عزّ وجلّ في عصرنا الحاضر . وهو الانقلاب الروحي الذي ستمتدّ آثاره المستقبلية ألوف السنوات إنشاء الله العزيز . وهل يتناسى هذا القارئ المسلم وعد ربّه الذي بشرّ فيه وقال : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ ؟ فعش رجلاً ترى عجباً .

وأخيراً أحمد الله الذي له الأسماء الحسنى والذي لا شريك له في ملكه ، أنّه أعانني على كتابة هذه المقدمة التي قدّمت بها لهذا السفر الغنيّ بالمعلومات التي تبرز روح تعاليم هذا الدين الحنيف إلى الوجود ، وعلى الانتهاء من كتابتها ليلة ذكرى مولد محمد بن عبد الله نبيّ الإسلام وخاتم النبيّين . اللهم صلّ على هذا الرّسول الصادق الأمين كلّما طلعت على هذا الكون من حولنا شمسٌ وكلّما غربت ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

١٢ ربيع الأوّل ١٤١٩ هـ الموافق ٦ تموز ١٩٩٨

سليم الجابري

المبحث الأول
مصادقية وجود الله عز وجل
الباب الأول
المدخل إلى البحث



تمهيد ضروري

في لغتنا العربية، كلمة الحياة تقيض كلمة المات. فالحي ضد الميت. وكلمة الحيوان مصدر، سُمي به جنس الحيّ ممّا به حياةٌ وحسّ، كالإنسان والفريس وسواهما من المخلوقات الحيّة، ويُعرّف الكائن الحيوان بأنّه جسمٌ حيّ نام حسّاسٌ مُتحرّكٌ بالإرادة أو الغريزة. ويُطلق الحيوان كذلك على ذي الرّوح غير النّاطق، ويُجمع على حيوانات. والنسبة إليه حيّواني. أما الحيوان بمعنى الحياة، فقد قال صاحب الكلّيات : (الحيوان أبلغ من الحياة، لما في بناء وزن فعّال من الحركة والاضطراب اللّازم للحياة، والحيوان في الجنّة، والحياة في الدنيا). أي أنّ الحيوان يعني الحياة التي لا يعقبها موت.

فالحياة إذاً، تعني قوّة مزاجيّة تقتضي الحسّ والحركة. والنسبة إلى الحياة حيويّ. ولذلك نلاحظ أنّ المُنادي إذا كان عربيّاً، ونادى ذا حياة به حسّ وحركة، أراد أن أسرع اليّ، يُناديه أن "هلم". وننادي في الأذان "حيّ على الصّلاة"، و "حيّ على الفلاح".

والملاحظ أنّ الإنسان، وإن شابه الفرس من حيث المزاجيّة والحسّ والحركة، فهو يفتزق عنه بالفكر والنطق والإرادة، فالإنسان يميّز عن سائر مخلوقات الله بهذه المزايا.

دونكم السّبع الذي يسمّونه سيّد الغابة، وهو سيّد الغابة بلا مُنازع. فالملاحظ أنّه كان، ولا يزال يتمتّع بهذا اللّقب فلم يؤثّر في منزلته هذه كَرّ السّنين، أو تعاقب الدّهور.

على حين أنّ الإنسان لم تكن له السّيادة على ماحوله من الكائنات في بدء تاريخه، فقد كان يعيش حياة هي أقرب إلى حياة الحيوانات، بل دون منزلة السّبع، إلا أنّ هذا الإنسان ارتقى وتطوّر، وعاد في عصرنا يُهيمن على سيّد الغابة وسائر الكائنات. وعادت له السّيادة على الأنهار وسطوح البحار. وركب

أجواز الفضاء. وعاد يقلب نظره فيما حوله من عالمنا الفسيح، متسائلاً عن كيفية نشأة هذا الكون ومن أنشأه. وعن الكون أهو موجود أزلياً، أم أنّ له خالقاً أبدعه وأوجده، ومتسائلاً عن وجود الله تعالى نفسه : من هو، وأين هو، وكيف؟

ولابد أن يلاحظ كلّ فردٍ منا أنّ جسده قد جُهِزَ بحواس عديدة، أطلقوا عليها اصطلاح (الحواس الخمس) : السمع والبصر واللمس والشمّ والذوق، ولم يُدخلوا العقل ضمن مُصطلحهم المذكور. ذلك أنّهم لاحظوا أنّ العقل يعمل على مستوياتٍ ثلاثة من الزمن، هي الماضي والحاضر والمستقبل إلى جانب أنه يستقبل معطيات هذه الحواس الخمس التي لاتعمل إلا على مستوى وصعيدٍ واحدٍ هو الزمن الحاضر.

والحقيقة، هو أنّ العقل جهازٌ متطورٌ في غاية التطور، وهو من ماهية غير مادية وخالد خلود النفس ولايعمل إلا بعوامل مساعدة ثلاثة تساعده في العمل على تلك الصُّعد، وهذا الأمر شبيه ببقية حواس الإنسان، فهي عاجزة عن العمل إلا بمساعدة عوامل مساعدة. فالعين على عظمة تكوينها، فإنها لاترى إلا بمساعدة الضوء. والأذن على عظمة تكوينها، لاتسمع إلا إذا توفّر لها الهواء. والأنف بالرغم من عظمة تكوينه، لايشم إلا بمساعدة الروائح، واللسان على عظمة تكوينه، لايتذوق إلا بمساعدة الأطعمة المختلفة، والجلد بالرغم من عظمة تكوينه، لايشعر باللمس إلا إذا صادف شيئاً مادياً، على هذه الشاكلة، فإنّ العقل على عظمة تكوينه، لايعمل على صعيد الزمن الماضي إلا بمساعدة اللقى القديمة والآثار والمخطوطات والمستحاثات، ولايعمل على صعيد الزمن الحاضر إلا بمساعدة ملاحظة الإنسان لما يراه من الأشياء، وبإجراء التجارب على هذه الأشياء، والقيام بعمليات استنتاج واستخلاص للمعلومات وبدون الاستعانة بهذه العوامل المساعدة يعسر على العقل اتخاذ قرارات صحيحة.

ولايعمل هذا العقل على صعيد الزمن المستقبل، فيما يتعلّق بأمور الغيب وماوراء هذا الكون، إلا بمساعدة وحي السّماء، أي بمساعدة وحي وكلام الخالق نفسه، الذي كلّم ويكلّم به عباده، وإنه لولا تلقّي الإنسان هذا الوحي الإلهي، ماكان للبشر أن يعلموا عن خالقهم شيئاً، ولأن يعلموا عن عالم ما بعد الموت أمراً يقينياً أبداً.

فالعقل والحال هذه، حاسةٌ سادسةٌ، لكنّها أكثر تطوّراً من بقية حواس الإنسان. يؤكّد هذا دلالاته اللغوية أيضاً. تقول العرب : عَقَلَ الدَّواءُ بمعنى أمسكه. وعقل الدّابة بمعنى ربطها. وعقل الغلامُ بمعنى أدرك وأصبح عاقلاً مُدركاً. وعقل فلانٌ بعد الصّبا : عرف الخطأ الذي كان عليه قبل صباه. وعقل الأمر تدبّره وفهمه. وهذه دلالاتٌ على شاكلة ما أعطى العرب الحواس من دلالات. وعليه فما العقل إلّا حاسةٌ سادسة، لكنّها أكثر تطوّراً من بقية حواس الجسم، وأعظم تقنيّة وتستنعين معطيات الحواس الخمس. فهو أشبه ما يكون بالحاسوب أي الكمبيوتر في عصرنا، وإن جاء الفارق ما بين العقل والحاسوب كبيراً جدّاً، يكاد لا يُقاس.

المهم من جميع ما ذكرته هو أنّ الإنسان، وإنّ شابه السّبع وغيره من الحيوانات، من حيث مزاجيّته وحسّه وحركته، إلّا أنّ هذا الإنسان امتاز عنها بهذه الحاسة السادسة المتطوّرة ذات التقنيّة الخارقة، التي أطلق العرب عليها اسم العقل^(١).



(١) - سيأتي الكلام عن العقل مفصلاً وعلمياً فيما بعد

الفصل الأول

١- منزلة العقل والفكر

والخالق إذ جهّز جسم الإنسان بجهاز العقل، الذي تميّز به هذا الإنسان على سائر مخلوقات الله عز وجلّ. لم يشرفه به عبثاً، ودون حكمة بالغة. وأقلّ ما يقال هو أنه تعالى ميّز الإنسان بهذا العقل لينقله نقلة تطوّر، لم تتأتّ لمخلوقٍ آخر سواه في هذا الكون. /

ذلك أن الإنسان يأكل ويشرب كما تأكل بقيّة المخلوقات وتشرب، والإنسان ينجب أطفالاً، وسائر المخلوقات تلد، والإنسان يسعى لتحصيل رزقه، كذلك تفعل بقيّة مخلوقات الله تعالى، فمن هذه الظواهر يتجلى لنا أنّ الله لم يشرف الإنسان بجهاز العقل بقصد أن يستعمله لتحصيل رزقه وضمان نسله، فهذه أمور غريزيّة تتحصّل للإنسان بالسّعي وتحقّق للإنسان غريزيّاً، علي شاكلة ماتتحقّق للحيوان غير العاقل، بدليل أن من فقد عقله وأصبح مجنوناً، نلاحظه يسعى إلى غذائه وتحقّق نسله أيضاً وبصورة غريزية. وهذا الأمر يدعونا إلى أن نحزم بالضرورة، بأنّ هبة العقل، قد قصد بها أن تكون أداة للإنسان يعي به ماحوله، ويتعرّف به خالفه.

والملاحظ أيضاً، هو أنّ البشر لم يختلفوا فيما بينهم في أمر مادّي وعوه من الأشياء من حولهم، فما اختلف الناس يوماً في أنّ الماء يُطفئ العطش مثلاً، هنا وإنّ سرّ إجماعهم هذا، هو في تكوين الأشياء من حولهم، تكويناً مادياً، مكنتهم من هذا التوحّد في الإدراك والوعي المادي للأشياء من حولهم فتوحّدت إدراكات البشر جميعاً.

أما الأمر الذي لايزال الناس فيه في غمّة واختلافٍ وتباينٍ في الآراء والمعتقدات، فهو موضوع وجود الذات الالهية المقدسة والذي خصّصت كتابي هذا من أجله، من أجل التعريف بهذه الذات التي لا ترى ولا تنظر ولا تسمع ولا تُشم ولا تُلمس، التعريف بهذا الخالق الذي بادر من جانبه لإعلامنا بوجوده،

منذ أن اكتمل وعي الإنسان لما حوله من أشياء، وأضحى مُوهلاً للتعرف على خالقه ومعبوده، وقد حمل إلينا مُبادرته جلّ شأنه ودعوته هذه إيانا للتعرف عليه والتقرب إليه، أنبياء الله ورسله، بما أوحى إليهم من شرائع ومأطلعهم عليه من حقائق وأسماء وصفات اتّصفت بها ذاته عز وجل.

أما كيف أوحى الله تعالى إلى الذين اصطفاهم من عباده، وكيف كلمهم، هذا الأمر سيأتي بيانه في موضعه من هذا الكتاب.

وقصارى القول، هو أن العقل هو أداة الفكر الذي شرف الله الإنسان به من أجل أن يساعد للتعرف على خالقه فلا يضل قصارى فكره، في تحصيل مأكله ومشربه وملبسه واشباع ميوله وشهواته، بل يضل قصارى فكره في التفكير في خفايا هذا الكون ومعرفة قوانينه، والتعرف إلى خالقه والتقرب إليه، وإلاّ يكون كمن استعمل أداة من الأدوات في غير ما صُنعت له، فهو كمن يتخذ من الصحن الذي صنع للطعام، أداة يقاتل فيها ويثير الشجار، على سبيل المثال.

من هنا ندرك أنّ من واجب كل إنسان تخصيص وقتٍ للتفكير في آيات الإبداع من حوله، وتدبر ما بلغه من وحي ربه. وإلاّ فهو يُغمر هبة العقل والفكر حقها ويظلم بذلك نفسه، لأن صلاتنا وصيامنا قد شُرعا لمساعدتنا أصلاً لدفعنا على طريق التفكير، وهما أداتان تساعداننا على التعرف إلى خالقنا والاتصال به واكتساب رضاه.

ثم إنّ التفكير فيما وراء المادة، يستلزم ضرب الأمثال ممّا هو كائن في عالمنا المادّي، ولهذا ورد في البيان الإلهي قوله تعالى في سورة ابراهيم ، الآية (٢٥) : ﴿...ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾. وورد قوله تعالى في سورة العنكبوت ، الآية (٤٢) ﴿وتلك الأمثال تضربها للناس، وما يعقلها إلاّ العالمون﴾.

على حين أنّ التفكير في الذات الإلهية المقدسة نفسها، لا يُجدي فيه ضرب الأمثال المادية، ومن أجل بيان هذه الحقيقة ورد قوله تعالى في سورة الشورى ، الآية (١٠) : ﴿ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير﴾. أي أنّ حقيقة ذات الله الخالقة، خافية على الإنسان المخلوق، وإن كان لهذه الذات من الصفات ما يشابه صفات الإنسان في الظاهر، كالسمع والبصر. فإنّ الفارق بين

صفات الذات الالهية وصفات الإنسان، مما لا يُقاسُ بمعاييرنا الماديّة، ذلك أنّ ذات الله ليس كمثلهما شيءٌ ماديّ.

وعليه فإن بحث مؤلّفي هذا، وإن كان يتعلق بوجود الله تعالى، صاحب الذات التي ليس كمثلهما شيء. إلاّ أنّي سأكون مضطراً أحياناً، للاستعانة بضرب الأمثال الماديّة، لأبرهن من خلال ذلك على ما لله من صفاتٍ وعلمٍ وقدرات. ومادام التفكير في حقائق المادة والكون ووجود الخالق، وهو أسمي مايفعله الإنسان العاقل الذي أنعم عليه ربّه بنعمة عقله وتفكيره، يستلزم ذلك منا مراجعته دلالات كلمة (فكر) في معاجم اللغويين.

قال صاحب معجم محيط المحيط : فكر في الشيء، معناه أعمل النظر فيه وتأمّله، والاسم الفكر، ويجمع على أفكار، وقال في الكلّيات : الفكر حركة النفس نحو المبادئ، والرجوع عنها إلى المطالب والنظر هو ملاحظة المعلومات الواقعة في ضمن تلك الحركة. والفكر، هو كثير التفكير.

وبمعاني الفكر هذه نزل قول الله تعالى في سورة البقرة (٢١٩) : ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. وقال في سورة آل عمران (١٩١) : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾. وقال في سورة الأعراف (١٧٦) : ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وقال في سورة الحشر (٢١) : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبِهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وهذه الآيات جميعها تشعّرنا بما للفكر في نظر الخالق من شأن في طلب الحقيقة وابتغاء الهداية والإيمان، ومن ثمّ كان لابدّ لمطالع كتابي هذا، من إعمال فكره ماوسعه ذلك، لأنني، إنّما أخطب فيما أكتبه الفكر قبل كلّ شيء، وأنّ ماأطرحه في هذا الكتاب، هو مجرد أفكار تستدعي من قارئها، تقليب نظره فيها، والعمل على وعيها وإدراك أبعادها، وإنّما يستجيب الذين يستمعون، وموتى النفوس يبعثهم الله عز وجلّ.

فموضوع كتابي هذا يدور إذن حول الذات الالهية المقدسة وماتتّصف به من صفات، والتي قالوا عنها ومصطلحنا اللّغوي أنّها ذات غير محدودة بحدود، قالوا ذلك بمقاييس عقولنا، وفي حدود تصوّراتنا، ومهما قالوا، فلا يغيّر هذا من الحقيقة شيئاً فالحقيقة أنّ الذات الإلهية مستقلة عنا بوجودها على كل حال. وقد

أشكل هذا الأمر على كثير ممن قالوا مقولتهم هذه، خصوصاً وأنهم قرؤوا في كتاب الله القرآن الكريم قوله تعالى في سورة (ق) ١٦ : ﴿وَلَمَّا أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ جِبِلٍّ الْوَرِيدِ﴾. فذهب ذهن بعضهم إلى عقيدة وحدة الوجود، على حين أننا نجد تعالى يقول في سورة المعارج (٤) : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

والعروج هو الارتقاء، فلو صحّت نظرية وحدة الوجود، ما كان للملائكة من حاجة إلى العروج، ثم إنّ الله عز وجل قال في سورة الزمر (٦٧) : ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ولا يكون في قبضة القابض، إلّا ما هو مستقل عنه وخارج كيانه.

ولسائل أن يسأل : من أين استقيت معلوماتك حول الذات الإلهية المقدسة؟ وأسارع لأجيب السائل وأقول : استقيت معلومات كتابي هذا من مصدرين اثنين : الأوّل ممّا تضمّنه وحي الله القرآني. والمصدر الثاني هو حصيلة عرفاني للذات الإلهية وتعاملي معها، أي من حصيلة ما تحقّق لي من صلوات مع خالقي. هذا الخالق القريب على بُعد، والبعيد على قرّبه، من خلال محبتي المتولّدة لذاته عز وجلّ، وانقيادي في طاعته، واستعاني بقدراته، وتوكّلي عليه جلّ شأنه. وليس هذا السبيل في التعامل مع الذات الإلهية المقدسة بأمر مغاير لما انطوى عليه القرآن الكريم من علوم وتعاليم. بل هو سبيل من السبيل الرئيسيّة السلوكيّة للرّاعيين.

وسيلاحظ قارئ هذا المؤلّف، أيّاً كان، أنّي، وإن استقيت أكثر معلوماته من القرآن الكريم نفسه، فإنّي لم أنهج فيما استقيته من معلومات، نهج المقلّدين لمن سبق من العلماء. بل اتخذت نهجاً مختلفاً، ذلك أنّي أعمل الفكر في فهم أيّ الذكر الحكيم، مُستعيناً بقواعد لغة الضّاد، وبأصول تفسير القرآن، وبما استجدّ على السّاحة من علوم، وقد بذلت جهدي، وعلى نسق أسلوب القرآن الكريم نفسه، ألاّ آتي برأي حتى أسنده إلى دليل وأبنيه على برهان يستسيغه أهل عصرنا، خلافاً لفئة ممن سبق من المجتهدين.

والمعلوم أنّ عصرنا هذا، هو عصر العقلانيّة والعلم، بعيداً عن الخرافات والأساطير. فلا يتقبّل عاقلٌ معاصر ما لا يستسيغه عقله، ولا ما يخالف مبادئه من علوم، فلا يفاجئ مطالع كتابي هذا إن أكذت له أنّي استقيت معلوماتي

من كتاب الله العزيز. وليتوجه بكلّيته متفحصاً ما يحمله كل طرح قرآني استشهد به، من أدلة وبراهين.

٢ - اسم الذات الإلهية الأعظم :

ومادامت أبحاث الكتاب ستدور حول الذات الإلهية المقدسة، فلا بدّ للمرء أن يتساءل في حديث نفسه : وهل لهذه الذات الخالقة إسمٌ أعظم تمايز به عن سائر الأسماء؟

والجواب هو أن وحي القرآن الكريم قد أتى لنا بالاسم الأعظم للذات الإلهية المقدسة، وهو لفظ الجلالة (الله)، والذي يطالع معاجم اللغويين العرب، يُدرك أنّ لفظ الجلالة (الله)، هو اسمٌ امتازت باستعماله لغة الضّاد. وهو على القول المبحول عليه، اسمٌ غير مشتق، ويحمل في جنباته جميع ما أتى به القرآن الكريم من أسماء الله الحسنى، ودلالاتها على الذات الإلهية المقدسة، موضوع هذا الكتاب.



الفصل الثاني

١ - قِدَم الوحي والتّوحيد

وقد سبق لي أن قلت، إن الله الخالق هو الذي بادر إلى اصطفاء بعض عبيده، وكلمهم، وأوحى إليهم بما أتوا للبشر من شرائع وتعاليم، وعلى هذا فقد وجب عليّ أن أعرض هذا الطرح الفكري مؤيداً بالأدلة والبراهين المقبولة عقلاً ومنطقاً وعلماً.

وقد بات معلوماً، من خلال كتابات أصحاب نهج التفكير المادّي في القرنين الأخيرين، أنّهم زعموا أنّ فكرة وجود الله لم تنشأ عند الإنسان عن طريق مبادرة الوحي السّماوي، بل نشأت هذه الفكرة تدريجياً لديه.

فالبشر الأوائل في زعمهم، ركعوا أمام ما أخافهم منذ بدء تاريخهم، كما يركع الطّفل حين يواجه ما يخيفه. وترسّخت على مرّ الأيام وكرّ السنين فكرة الخوف من بعض ظواهر الطبيعة، وانقلبت هذه إلى فكرة تأليه لهذه الظواهر الطبيعية، ومن ثمّ كانت هذه الفكرة ترتقي وتتطور في أذهان الناس كلّما ازدادوا علماً، فاستبدلت هذه الفكرة بالاعتقاد بوجود ذوات إلهيّة سامية، اتّخذت لنفسها مظاهر تجلّت في أشياء كثيرة.

ثم أتى طورٌ، على زعمهم، تنزّهت فيه هذه الدّوات الإلهيّة المختلفة فكرياً في نظر أصحابها، عن مظاهرها المادية، فانتهت البشرية إلى وحدانية الله في الدّات والصفّات، وهكذا تكوّنت فكرة الله ووجوده عند الإنسان على هذه الصورة، ولم تتأتّ فكرة وجود الله عن وحي الخالق نفسه كما يزعم المؤمنون بوجوده.

هذه هي خلاصة نظريّة أصحاب الفكر المادّي، ويمكن أن نركن إلى القوا أنّها ارتكزت إلى عنصريّن أساسيين :

أولهما : أنّ الخوف شكّل الأساس الأول لنشوء تصوّر عن وجود الله عز وجل.

ثانيهما : أنَّ هذا التصور قد تكامل بالتدرّج.

٢ . مناقشة النظرية المادية منطقياً وتاريخياً

ونحن إذا افترضنا صحّة هذين العنصرين، وجب علينا البحث عن أوّل شيء أخاف الإنسان، فدفعه إلى عبادته، ويبدو ببساطة أنّه الحيوان الذي كان يُعاش الإنسان في فجر تاريخه، فهو الوجود الذي أخاف الإنسان منطقياً، على اعتبار أنّ الإنسان لم يكن يملك من وسائل الدّفاع عن نفسه، ما يحميه، مما اضطرّه إلى اتّخاذ مسكن يلوذ به من هجمات الوحوش التي كانت مصدر خوفه قبل أن يتحضّر. فالوحوش الكاسرة كانت أخطر ماواجهه الإنسان في بدايات حياته البدائية الأولى.

وإننا إذا تفحصنا ما كشفت عنه آثار تلك الفترة الزمنية من حياة البشرية، فلانجد أن الإنسان ألّه أو عبد الوحوش المفترسة إلا ما ندر. بل كانت تغلب عليه عبادة الأفاعي، ولم تكن لعبادة الأسود والذئاب من مكان يُذكر في حياته.

فلو صحّ كلام هؤلاء المفكرين، أصحاب النهج المادي، لكان الإنسان الأول قد عبّد السّباع والذئاب، فالغضنفر هو أكثر إخافة للإنسان من الأفعى، على اعتبار أنّه يهاجم فريسته جهاراً ومواجهةً.. بينما تتخفى الأفعى، متربّصة لاغتتيال فريستها، ثم إنّ للسّبع زئيراً مُرعباً، يوهن الأعصاب، سماعه. وليس للأفعى إلاّ الفحيح. وجثّة الغضنفر، مُخيفة ويهلع الإنسان لرؤيتها، وتخور قواه. ولا تملك الأفاعي أجساماً مخيفة على شاكلته. وقيسوا على ذلك بقية الوحوش، نسبة إلى الأفاعي، كالذئاب والدّبة وسواها، فهي باعث للإنسان على الجزع والخوف أكثر من الأفاعي.

هذا ولم نعر في لُقى وآثار الإنسان القديم ما يدلّ على أنّ ذاك الإنسان كان يعبد السّباع والذئاب، بل لاحظنا غلبة عبادته للأفاعي، وهذه المعلومات تُسقط في نظري عنصر الخوف الذي أقام الماديّون عليه حُجّتهم حين زعموا نشوء فكرة وجود الله بالتدرّج.

وإذا عُذنا إلى التاريخ، وجدنا قدماء المصريين أكثر الشعوب عبادة للحيوان، وكانت الكثرة منهم تعتقد أنّ روح إله الخير المسمّى (أوزيريس) توجد في عجل يسمّونه (ألبيس)، لذلك كان العجل من أشهر معبوداتهم. وقد عبدوا لذلك (الثور الأسود)، معتقدين أنّه صورة (أوزيريس).

وإذا كان بعضهم قد عبد الأسد والذئب، فإنّ ثمة من عبد الكلب والقطّ والماعز والكبش والضأن، وكانوا يحنّطون ما يموت منها، فأين عامل الخوف في عبادة المصريين لهذه الحيوانات؟

وعنصر الخوف هذا قد يؤخذ به مُطلقاً لهذه النظرية، لو كان الإنسان قد خلّق على الأرض خلقاً جديداً، وفوجئ بما حوله من المخلوقات، خلافاً لنظرية النشوء والإرتقاء، ذلك أنّ ظهوره فجأة بين الوحوش، سيخيفه ولاشك، إنّما كان على هؤلاء المادّيين، إذا صحّ هذا الأمر لديهم، أن يؤمنوا بوجود الله الذي خلق الإنسان خلقاً جديداً، لعلّ علاقة له بنظريتهم في النشوء والإرتقاء، والتي أتى بها (دارون) وزعم فيها إنّ الإنسان كان قرداً وتطوّر وأصبح إنساناً. فإذا صحّ زعم دارون هذا، فكيف يخاف الإنسان ماحوله من حيوانات، إذا سبق له أن عايش هذه الحيوانات الكاسرة في مرحلة حياته التي سبقت صيرورته إنساناً؟ فلو صحّ أن البشر ثمرّة تطوّر عن قرد ما كانت السباع والذئب والأفاعي، ولا الشمس والقمر والكواكب بأشياء جديدة طارئة على حياته. ذلك على اعتبار أنّه سبق أن رآها وعاشها قبل ذلك، إن صحّ ماأنت به نظرية دارون من أمور. بل لا بد أن القرد كان قد قاتل الأفاعي وسواها أيضاً.

وكيف بإمكاننا التّسليم أنّ هذا الإنسان، قد سيطر عليه الخوف من هذه الحيوانات، بعد ترقّيه وبلوغه مرحلة إنسانيّته ونضجه، فأصبح يخشى جميع ماحوله من الأشياء، فرّكع بين يديها يؤلّها ويعبّدها؟ وبهذا التحليل الذي أوردناه، نصل إلى القول بيّطلان نظرية أصحاب الرأى المادّي التي أوردناها.

ثم إنّ الدّليل الأبلغ والأقوى على خطأ نظرية هؤلاء، وهو الأمر الذي يبطّل معه العنصر الثاني لنظرية المادّيين، من أنّ تصوّر وجود الله تعالى قد تكامل لدى البشر بالتدرّج، هو هذا الدّليل الذي يتبلور في أذهاننا، من خلال استقراءنا لتاريخ مُختلف شعوب الكوكب الأرضي.

فالملاحظ هو أنَّ اللقي والآثار القديمة، بل الغارقة في القدم، والمتعلقة بمختلف شعوب القارات الخمس. يلاحظ الباحث والدارس لها، أنها لا تؤيد تدرج عقيدة وحدانية الله عز وجل. بل إنه ثبت من خلال ما احتوته تلك اللقى والآثار القديمة أنه كان بين سُكَّان مختلف القارات من كانوا يؤمنون بوجود إله واحد خالق لهذا الكون. وأنه يحيط بهذا الكون أيضاً، وذلك منذ فجر تاريخ هذا الإنسان. بل وكان ثمة شعوبٌ عريقة في القدم قالت بالوحي السماوي، واعتقدت أنَّ الإله السماوي كان يوحى لأفراد اصطفاهم من بينهم.

نتناول قبائل قارة أفريقيا العريقة في القدم، فمن قبائلهم الشهيرة، قبيلة (الزولو) Zulu مثلاً، وهي تعدُّ من القبائل المتوحشة. وقد كشفت آثار منطقته، أنَّ أقدم أجدادهم كانوا يعتقدون بوجود إله غير مرئي، وهو أبٌ لجميع البشر، وكانوا يسمُّونه (أنكو لنكو Inkulunkils)، وهو الذي أوحى إليهم بكونه تعالى موجوداً، وغير مرئي أيضاً.

ونتناول قبائل قارة أستراليا. هذه القبائل التي لبثت مُنْعزلة عن العالم، إلى أن اكتشفت قارتهم منذ قرون ليست بعيدة.

هذه القبائل الأسترالية قد تبين بعد اكتشاف قارتهم، أنها كانت على درجة كبيرة من التوحش والافتتال فيما بين أبنائها، حتى كادت تنقرض قبائلها بسبب هذا الإفتتال.

فمن هذه القبائل، قبيلة (أرنتا Arinta). وقد تبين من آثارها القديمة أنَّ الأقدمين كانوا يعتقدون بوجود إله يقطن السماء، وأنه إلهٌ واحد لا شريك له، وكانوا يسمُّونه (ألتجيرا : Aljira) وأنه كان يتَّصف بالحلم، حتى كاد لأيعاقب أحداً من عباده. من كثرة حلمه وقد كانوا لذلك لا يرون ضرورة لعبادته، وكانوا يعتقدون أنَّ الإله الذي أوحى إلى أقدم أجدادهم.

وهذه قبائل القارة الآسيوية قديماً. فقد تبين من آثارها أنَّ القدامى قد اعتقدوا بوجود إله لا تحده حدود، وهو عالم الغيب، قادر على كل شيء. وكانوا يسمُّونه (درونا Drona) فإذا كان ثمة شخصٌ ماشٍ أو مُختفٍ أو مضطجع أو قائم، أو كان ثمة شخصان يتسارَّان، علم الإله ما يُسرُّه كلُّ منهما، لأنه يكون ثالثهم. وهو مالك الأرض والسماء بفضائها الواسع، وأنه إذا حاول إنسانٌ تجاوز هذا الكون، فلا يستطيع تجاوز مملكة الإله (درونا) وحدودها. >

وفي تاريخ البابليين، في جوارنا، أن أحد ملوكهم كان يدعو دُعاءً يكشف عن اعتقاده بوحداية الله عز وجل. وهذه الفاظ دعائه : (أيها الملك الأبدى، مالك جميع المخلوقات، أنت خالقي. أدعوك برحمتك أيها الملك ياسيدي بأرحم الرّاحمين. برحمة ومرحمة جميع مملكتك الواسعة، أكتب بحبة عبادتك في فؤادي، وقبض لي كل ماتراه خيراً، لأنك أنت الذي صنعت حياتي على هذه الشاكلة.).

أعظم به من دُعاء، ومما شبه هذا الدُعاء بدُعاء المؤمنين الموحدين، فكأنه يريد أن يقول : قد أطلب شيئاً فيكون شراً عليّ، لذلك هب لي أنت ماتراه خيراً لي.

وهذه قارة أمريكية. فمن المعلوم أن شعب المكسيك فيها من أقدم شعوبها. بل تبين من خلال الدراسات التاريخية أن شعب المكسيك، يُعتبر من أقدم شعوب الكرة الأرضية، وعقائد المكسيكيين متوارثة جيلاً بعد جيل. وقد ثبت أنهم كانوا، منذ القدم، يعتقدون بوجود الله ووحدايته، فقد عبدوا إلهاً أطلقوا عليه اسم : (أوونا ولونا Awona Wilona) وأنه خالق كل شيء في هذا الوجود، ومحيط بهذا الكون وأبو جميع الآباء، وكان هذا الإله، وحيداً، فتخيّل، وتولّد من تخيّل قوة، أخذت تنمو رويداً رويداً، وإذا بها تكوّن هذا الفضاء الفسيح، ولا يلبث أن يتجلّى هذا الإله بنوره على هذا الفضاء، ثم لا يلبث هذا الفضاء أن يتقلّص، فتتكوّن منه الشمس والقمر والنجوم.

والآن لننعم النظر في هذه الأفكار التي كانت لأقدم المكسيكيين فيما يتعلّق بوجود الله ووحدايته، أفلا تشبه أحدث تصوّرات إنسان عصرنا حول ذات الله عز وجل : مسيحياً كان أم مسلماً، مع فارقي لا يذكر. وهي أقرب ماتكون إلى أفكار أصحاب نظرية الانفجار العظيم؟

إنّ هذه الشهادات جميعها، تُجمع على قِدَم عقيدة توحيد الله، وقدم عقيدة الوحي الإلهي. وهي تنقض بذلك نظرية أصحاب الرأي المادي، القائلة بتولّد عقيدة وجود الله وتوحيده تدريجياً، بدءاً من سيطرة الخوف على البشر البدائيين ممّا حولهم من المخلوقات المخيفة، واندفاعهم للركوع أمامها، ثم عبادتهم إياها.

هذه الشهادات وسواها، مما عُرف من اللقى والآثار القديمة، تثبت ظهور رجال مُلهمين، تلقوا وحي السماء، في كل أمة من الأمم الغابرة، وفي مختلف القارّات الأرضية، وفقاً لقول القرآن الصريح : ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾. علماً بأنّ اتصال شعوب هذه القارات بعضهم ببعض، كان شبه معدوم. إذ لم يثبت وجود اتصال ما بين شعوب إفريقية وأسترالية، ولا بين الآسيويين والأستراليين.

من هذا ندرك أنّ الذين يروّجون النظرية المادية المذكورة، يقيمون أفكار نظريّتهم على أساس من الظنّون والتخيّلات غير العلمية، بعيدين عن مُعطيات اللقى والآثار القديمة المكتشفة والمخطوطات، ولذا فإنّ نظريّة هؤلاء لاترقى إلى مرتبة القبول علمياً.

٣ - مناقشة النظرية عقلياً

ولنناقش نظرية هؤلاء من وجهة عقلية، فالقاعدة المسلّم بها هي أن الناس يُقبلون على كلّ شيء جديد، ويؤثرونه عادة على الأشياء القديمة، وذلك بعد أن تتولّد عندهم قناعة به، وهذه القاعدة تقتضي أن يسود التوحيد في عصرنا، ويكون مذهب الشّرك وتعدّد الآلهة قد انقرض منذ زمان بعيد، وذلك إن صحّ أنّ عقيدة التوحيد نشأت لدى الإنسان بالتدريج. على حين أنّ اللقى والآثار التي أتينا على ذكرها، إلى جانب واقع ملموس لكثير من شعوب الأرض الحاليين، يدلّ على عكس ذلك تماماً. فقد دلّ على أن عقيدة توحيد الله تعالى هي قديمة جدّ عريقة في تاريخ أمم الأرض.

وهناك البّحاثَة (ميكر Megr) الذي حقّق في تاريخ الصين، فقد بيّن له أنّ شعب الصين كان موجداً في فجر تاريخه، على حين لاحظ من جهة أخرى أنّ الصين في عصرنا الحاضر، تفوق شعب الهند شركاً وتعداداً للآلهة، وقد سعى "ماوتسي تونغ" أن يحو فكرة وجود إله خالق من أذهان الصينيين أيضاً. فقد روى لي شابّ مسلم صينيّ أنّ ماوتسي تونغ ألقي آخر خطبه في شمال الصين، فيما يُسمّى بالمنطقة الصناعيّة، فأمر قبل القاء خطابه أن يوضع تمثال

في السّاحة العامّة يمثّل الله عز وجلّ، ثم أوعز أن يطلق الجنود نيرانهم على التمثال أمام أعين الجماهير الصّينية المحتشدة هناك. وقال إثر إطلاق النّيران على التمثال المذكور : ها نحن أولاء قتلنا عقيدة وجود إله تجاه أعينكم، وقتلنا الإله إلى أبد الأبد، لكنه لم يمحض على خطاب ماوتسي تونغ شهر ونصف، حتى حدث زلزال عظيم دمر المنطقة الصّناعية تلك، تدميراً شاملاً ورهيئاً. وأصيب ماوتسي تونغ أثر هذا الزلزال بفالج لم يُمهله طويلاً. فقضى نحبّه خلال أشهر. وقد علم العالم بما جرى بعد موته.

فواقع الأمر أنّ الشعوب التي تعبدُ في عصرنا آلهة عديدة، هي من أعرق شعوب الأرض قديماً ووجوداً. وقد لاحظ الباحثون أنّ هذه الشعوب كانت موحدة في تاريخها المُوغل في القدم. بل كانت تعتقد بوجود الإله الواحد وراء هذا الكون، والذي كان يصطفي من عباده من يُوحى إليهم بتعاليم من عنده. فلو سلّمنا بنظرية التدرّج الذي أدّى إلى تبلور عقيدة التوحيد، لكان يُنبغي أن يسود التوحيد شعوب عصرنا. فهذا ما يقتضيه منطق عقولنا، ولكن ندرّ اليوم وجود فكرة تعدّد الآلهة لدى الناس قاطبة.

هذا وقد قُمت بزيارة الهند في الخمسينيات : ولاحظت وجود معبد بوذي وسط مدينة (كالكت) وسط الهند. وقد رتب كهنته ثلاثمائة تمثال فوق سطحه القرميدي المتدرّج. وقد أجابني كاهن المعبد، ردّاً على سؤالني عن أسماء هذه التماثيل. فأجاب : إنها آلهتنا التي نعبدّها.

فما لهؤلاء الهنود المعاصرين يعبدون مئات الآلهة، وقد كان أسلافهم القدامى من الموحدين، كما ثبت ذلك من آثار أجدادهم؟ وهكذا فإنّ الواقع المعاصر يثبت بطلان نظرية المادّيين التي تزعم نشوء عقيدة التوحيد بالتدريج. وناقش هذه النظرية من زاوية جديدة، وهي واقع أمّتنا الإسلامية المعاصرة، التي قامت تعاليم دينها الإسلاميّ على التوحيد الخالص من شوائب الشّرك، بلا خلاف.

أفلا يلاحظ أحدنا كيف يتعدّد كثير من المسلمين المعاصرين عن الوحدانيّة، من الوجهة العمليّة، حيث يقلّس بعضهم القبور والأشجار والجنّ وبعض النّجوم؟ هذه الظواهر تبدو عمليّاً، لا يقرّها الإسلام ولا تتفق مع توحيد ذات الله عز وجلّ.

وإنّ الذي يُلاحظ هذه الظواهر في مُجتمعات المسلمين، لا يذهب ظنّه
البتّة إلى قدم الشرك عند المسلمين، أو إلى أنّ القرآن الكريم قد حصّهم على
ذلك. لأنّ الدّارس لتعاليم القرآن يجزم، وهو على يقين، أنّ تعاليم الإسلام، قد
قامت على التوحيد الخالص من جميع شوائب الشّرك.
فمن واقع المسلمين المعاصرين، وواقع أمم كثيرة أخرى عريقة في القدم،
نستنتج أنّ عقيدة التّوحيد كانت موجودة دوماً أولاً، ومن ثمّ تتحول إلى الشّرك،
في مُختلف أحقاب التاريخ، ولم يحدث عكس ذلك، كما يزعم أصحاب نظريّة
التدرُّج في ظهور عقيدة التوحيد، هذه النظريّة التي لاتستند إلى وقائع صحيحة،
ولاتقوم على أساسٍ ثابتٍ علمي.



الفصل الثالث

١. الطرح القرآني

وهذه الحقيقة التي أثبتنا صحتها بمختلف الأساليب والأدلة لم يغفل القرآن عن تناولها بعمق ، وقد طرحها طرحاً واقعياً، فقد صرّح القرآن الكريم بذلك قبل أربعة عشر قرناً، من خلال ما أورده في سورة فاطر (٢٦/٢٥/٢٤) قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ. وَإِنْ يَكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ، ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ؟ ﴾.

كما نبهنا القرآن الكريم في ذاك الزمان الغابر إلى أنه لم يأت الله على ذكر أسماء جميع رسله وأنبيائه الذين اصطفاهم لأداء رسالاته. مُنَوِّهاً إلى أن أسماء المذكورين منهم، والوارد ذكرهم في كتاب الله، ما هم إلا أسماء من بعثهم الله تعالى في منطقة الشرق الأوسط، والمتعلقين بسلسلة الهدايات السماوية التي ابتدأت ببعثة آدم عليه السلام وانتهت ببعثة محمد خاتم النبيين. فهذه الحقيقة تبينها إليها ربنا في سورة غافر (المؤمن) ٧٨، من خلال قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فِإِذَا جَاءَ أَمْرًا لِلَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ. ﴾.

وإضافة إلى ذلك، فنحن إذ نتلو أوّل آية من آيات سورة الفاتحة، هذه السورة التي لاتصحّ صلاة دون قراءتها في جميع ركعات الصلاة، وهذه الآية هي : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. ﴾ نتلو هذه الآية الكريمة، وقد وضعنا نصب أعيننا أنها تشير إلى الحقيقة التي وضحناها آنفاً، والتي يثبت منها بطلان نظرية الماديين المذكورة، حول تدرّج ظهور عقيدة التوحيد إلى الوجود. ذلك أنّ كلمة (ربّ) في اللغة العربية تعني الذي يُنشئ الشيء حالاً بعد حال حتى يصل به مرتبة الكمال والتمام (اقرب الموارد). وعليه فمعنى (رب العالمين)، الله الخالق الذي أنشأ هذا الكون وأبدعه، وهو يطرّره بوحيه وبالشرائع التي يحلمها أنبيأؤه ورسله إلى عباده، وهو يطرّره هذا الكون، طوراً بعد طور، ليكمل إنشأه، ويُتمّ إبداعه.

أي أنه لو لا إنزال الله القرآن الكريم هدى ورحمة للناس، لظلت البشرية تتيه في دبابير الظلمات التي عرفتها أوربة في القرون الوسطى، كما هو معلوم من صفحات التاريخ.

فهذا هو الطرح القرآني الذي طرحه قبل أربعة عشر قرناً، ولا بد أن لاحظ القارئ مما عُثر عليه من آثار مختلف شعوب الأرض تأييده لهذا الطرح القرآني. ومن المؤسف حقاً أن يتجاهل أصحاب النهج المادي هذه الحقائق. في وقت يزعمون فيه أن العقل سبيلهم إلى الحكم، وأن العلم دليلهم إلى المعرفة. أجل، لم يخالف القرآن الكريم ما اعتقده الأقدمون، من أن ذات الله تعالى، هي خارج إطار عالنا المادي، وهي بعيدة عنه أيضاً أمداً بعيداً، هذا الأمر أشارت إليه سورة المعارج، من خلال قوله تعالى: ﴿.. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.﴾ ٤/٣.

كما نبه القرآن الكريم أذهاننا أيضاً، إلى أن الذات الإلهية المقدسة يستحيل أن يطولها تصوُّرنا ويتبينها فكرنا، فالإنسان لم يزوده خالقه ببصيرة تساعد على الإحاطة بذات الله الخالق عز وجل. فإلى هذه الحقيقة أشار قوله تعالى في سورة الشورى (١٠): ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.﴾ وقوله تعالى في سورة الأنعام ١٠٣: ﴿لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.﴾ وقد قصد بالبصر هنا (البصيرة)، وبالإدراك معرفة أو بلوغ أقصى الشيء. وهذا هو سر سكوت القرآن الكريم عن الكلام على الذات الإلهية، وسر اكتفائه بالكلام على أسماء الله وصفاته. وسر سكوت القرآن عن بيان المالات الله من صفات خارج إطار أسمائه الحسنى، وهي المتعلقة بعوالم غير عالنا.

ولأقصد أننا لا نملك أي بصيرة على هذا الصعيد، فنحن نملك من القدرات ما يمكن فكرنا وخیالنا بلوغ إدراك أن لذات الله من العظمة ما يفوق مدى هذا الفكر وهذا الخيال، وليس أكثر من ذلك، وهذه القدرات يوفرها لنا ويطورها، التقدم العلمي ورقية على مدى الزمان. على اعتبار أن الصنعة تدل على صانعها. وأن البراعة والحذق في الصنعة، يدلان على عظمة الإبداع عند الصانع أيضاً. وعليه كان لا بد لنا من متابعة ما كشفت عنه علوم عصرنا من

معارف وأسرار، بل وأن نجد لتطويع هذه العلوم والمكتشفات، وسأحاول تلخيص ماجد من معارف وعلوم ذلك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

في الزمن الماضي، وفي القرن التاسع عشر بالذات، دار جدلٌ عقيمٌ حول كوننا: أهو أزيٌّ أم هو مخلوق. ونظر (نيوتن) العالم الفيزيائي الشهير، بل أبو الفيزياء، إلى عالمنا على أنه يحوي حقائق ثلاثاً، وهذه الحقائق هي المادة والمكان والزمان.

فقد وصف (نيوتن) المكان بقوله : (إنَّ المكان مُطلقٌ بطبيعة ذاته، ودون علاقة له بأيّ شيء خارج عنه، وهو يظلُّ مُتماثلاً وغير متحرك.) ووصف الزمان بقوله : (إنَّ الزمان المطلق والصحيح والرياضي بذاته وبحكم طبيعته، يتدفق باطراد، من غير أن تكون له علاقة بأيّ شيء خارج عنه.).

وأهلُّ القرن العشرون بعلومه واكتشافاته، فأطاح بفيزياء نيوتن المذكورة، إذ أنَّ نظريَّة النسبيَّة الخاصة التي أتى بها أينشتاين قادت علم الفيزياء إلى التخلّي إلى الأبد عمّا زعمه نيوتن وسماه حقيقيّ الزمان والمكان. بعدما أثبت أن علاقات الزمان والمكان وقوانين الحركة، لا يمكن تعريفها، إلّا بوصفها الموقف الشخصي للذي يُراقب الأشياء الماديّة، ولظروفها الماديّة ذاتها.

وعندما تمَّ اكتشاف التركيب الذريّ، انتهى ذلك بعلماء القرن العشرين إلى التخلّي نهائياً عن فيزياء نيوتن ونظريته الكونية، وبدأ بذلك عصر الدّرة، وتغيّرت نظرة العلم إلى عقل الإنسان نفسه.

فبينما كان علماء القرن التاسع عشر ينظرون إلى العقل على أنه يعمل بصورة آليّة ضمن إطار المادة، تبين لعلماء عصر الدّرة أن العقل لا يعمل عملاً آلياً. وأنّه لا يوجد له في الدّماغ مقرٌّ ولا مركز. وحتى إرادة الإنسان لا مقرّ لها فيه أيضاً ولا مركز. وثبت أنَّ العقل والإرادة مستقلّان عن الدّماغ، وأنهما خارجاه، أي خارج إطار المادة، وليس داخلها، وهذه الاكتشافات قد أثبتت صحّة الطّرح القرآني.

وعلى صعيد علم الفلك تبين أنَّ سرعة الضوء تبلغ ٣٠٠,٠٠٠ كم في الثانية، أي أنَّ الموجة الضوئية التي تصدر عن الشمس تصلنا بعد ثمانين دقائق من انبعاثها عن الشمس، لبعدها هذه عن كوكبنا الأرضي مايقارب (١٥٠) مليون

كم، وعلى أساس ذلك بدأ علماء الفلك يقيسون ما بين أجرام السّماء وشموسه ومجراته بسرعة الضوء.

وقد اكتشفوا وجود شمس تبعد عن شمسنا المعروفة أضعاف أضعاف بُعدها عنا. ولا يزال هؤلاء العلماء يكتشفون شمساً ومجراتٍ، على قدر ماتكشف عنه مراصدهم الفلكيّة وأجهزة رصدهم.

وقد كاد يُسلّم بعض علماء عصرنا أنّ عالمنا المادي لانهاية له ولاحدود. لولا أن طلع عليهم العالم الفيزيائي (جورج غاموف : georg gamoa) بنظرية الانفجار العظيم التي وضّح فيها، عن طريق الفيزياء النوويّة، أنّ الجسيمات دون الذريّة قد انتجت في مراحلها الأولى ذات الكون الحديث النشأة، وهكذا أفادت هذه النظرية أنّ مادة كوننا مخلوقة أيضاً، وأنّ الذي خلقها، إنّما هو عقلٌ مُطلق، وذلك منذ (١٢ - ٢٠) مليار عام. لكنّه استحال على صاحب هذه النظرية تقدير ما بقي من عُمر هذا الكون.

فالعالم قادنا إذن إلى أنّ لعالمنا بداية ونهاية وأنّه مخلوق، وبطل بذلك زعم علماء القرن التاسع عشر من أنّ المادّة أزليّة الوجود. وقد برهن هذا التقدير العلمي أيضاً على صحّة الطرح القرآني. هذا بالرغم من أنّ الوسائل العلمية لم تمكّن العلماء المعاصرين بعد من اكتشاف حدود هذا الكون المادي الذي نعيش في ظلاله.

والعلم قد أثبت لنا أيضاً، أنّ هذا الكون على سعته ورحابته، خاضعٌ في جميع أرجائه إلى قوانين واحدة، تحلّي وحدانية الإله الصانع المُبدع.

وهكذا ساعد الرقي العلمي المعاصر في فهم مضمون الآية الكريمة التي استهلّ الله بها سورة الملّك، وهي قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ، الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا، مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾. ففي قوله تعالى ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ؟﴾ تنبيه للأذهان العلميّة المعاصرة خاصّة إلى أنّ هذا الكون لا يبدؤ إلاّ أن يكون مُخطّطاً له ومتكاملاً، لأنّغرة فيه ولاصدع.

ثم إن قوله تعالى : ﴿ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ ينبّه أذهان هؤلاء العلماء إلى وجود نظام كامل وشامل في هذا الكون، مُنزّه عن كل نقص، يضمُّ سلسلة طويلة من القوانين المنسجمة التي لاتتضادّ ولا تتصادم.

وينفي الله تعالى أن يكون قد حدث كلّ ذلك اتفاقاً ومصادفة. فلا مناص من يشكل هذا الكون الكامل الشامل الحجة القاطعة التي يثبت منها وجود الله الأحد الخالق لهذا الكون بإرادة وتصميم، وأنّه تعالى لم يخلق هذا الكون اتفاقاً وعيباً، وأنّ ظاهرة الموت والحياة التي تتجلّى في أرجاء هذا الكون، كان القصد منها ابتلاء الإنسان في هذه العاجلة وامتحانه. وهذا ما أشار إليه قوله تعالى في نفس الآية : ﴿.. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور﴾ أي أنّ الذي أوجد ظاهرة الموت والحياة، أوجدها من مُنطلق كونه الإله الخالق (العزيز) أي الملك الغالب على أمره، والقادر الذي لا يُغالب.

وكونه (الغفور) أي ستار عيوب وضعف عباده وفقاً لقانون الاحتياج العام. فالخالق أخذ على نفسه ستر ضعف مخلوقه، وحثّه بالترغيب والتحذير على العودة إلى رشده والرجوع إلى خالقه.

ومن المؤسف أنّ علماء القرن التاسع عشر أصحاب نهج التفكير المادّي، وقد طغت المادّة ومُغرياتِها على أفكارهم، وأخذت بمجامع قلوبهم، لم يفكروا بنهج روحانيّ، بل انطلقوا يشكّكون في القصد الأساس لظاهرة وجود الإنسان وموته وحياته، فيزعمون أنّها ظاهرة طبيعيّة من ظواهر المادّة، وليست هي جزءاً من نظام كونيّ شامل وكامل صادرٍ عن ذاتٍ خالقة ومُبدعة لقانون الموت والحياة ولتحقيق هدفٍ منشود.

وقد تسرّعوا، فزعموا أنّ وجود العقارب والأنعام والدواب المؤذية والحشرات والديدان والزلازل وما ينجم عنها من كوارث، جميع هذه الأشياء لا تخضع لقانون. وأنّ وجودها عبث، لاصلة له بهدفٍ مقصود لهذا النظام الكوني.

وما يُطمئننا هو أنّ تقدّم العلوم قد كشفت عن زيف هذا الزعم والتشكيك. وقد ثبت وجود توازن طبيعيّ، وأنّ ما خلق الله من أشياء إنّما هو

كنوزٌ مُخبَّأةٌ لمصلحة البشرية نفسها، ويُستفاد منها حين تدعو الضرورة إلى هذه الأشياء، وعلى قدر تنامي المعرفة وتقدّم العلوم. ومن هذه الأشياء ما أودعه الخالق جوف الأرض، ومنها ما أودعه باطن الأرض وأعماق البحار. وحتى الزلازل لها من الفوائد ما لا يخطر ببال. ولا يزال العلماء يرصدون ما ينجم عن هذه الزلازل من آثار. ولست بصدد التوسّع في هذا المجال.

أعود إلى القول إنّ الرقي العلمي الذي شهده القرن العشرون كشف عن عظمة صنّيع الصّانع، من خلال الكشف عن وحدة القوانين النّاطمة لمخلوقات هذا الكون الفسيح الذي لم ينته العلم من كشف مداه وحدوده بعد. بالرغم من أنّه كشف عن أنّه مخلوق منذ ما يقارب (١٢-٢٠) مليار عام، كما كشف عن أنّ نهاية هذا الكون آتية لا ريب فيها، وإن لم تتوفّر الوسائل العلمية لتحديد زمان هذه النهاية.

هذا وإنّ (نظرية جذور الأخلاق) التي تضمّنها كتابي، كشفت عن وحدة تركيب أشياء هذا العالم أيضاً، وأنّ كلّ شيء قد تكوّن من خليطة خاصة من الذرّات المادية وقواها، ولأيسّثنى الإنسان من وحدة هذا التركيب الذريّ، فقد خلقه الصّانع أيضاً من نقطة أمشاج.

والمهمّ في الأمر، هو أنّي قصدت ممّا ذكرته حتى اللحظة عن هذا الكون وعظمته وتركيبه وقوانينه النّاطمة الشاملة، قصدت نقل تصوّرات وتخيّلات المرء إلى المدى الذي يُعيّنه على تصوّر عظمة ذات الله الخالق قدر إمكاني، هذه الذات التي هي خارج إطار هذا الكون، الذي لم يكتشف العلم مداه حتى الآن وإنّ ممّا لاشكّ فيه هو أنّ هذه المعلومات تساعد على تبين ما تحمله هذه الذات الإلهية المقدسة من أسماء وصفات كانت وراء خلق هذا الكون العجيب.

٢ - مثال من الواقع

وسبق لي أن ذكرت أن لا بُدّ لي من ضرب الأمثال المادّية الموضّحة لهذا الموضوع الذي يدور كتابي حوله، ليكون قريباً من الأفهام، وها أنّي أضرب للقارئ أوّل مثل مادّي من واقعنا المعاصر، على أن يظّل في حُسبان المرء أنّه مجرد مثال مع الفارق الكبير جدّاً بينه وبين ما أردت التنبيه إليه. ذلك أنّ الله عز وجلّ ليس كمثله شيء.

وقد بات معلوماً لدى كلّ متابع لما يجري في العالم أنّ المؤسسات العلمية في الدول الكبرى المتقدمة علمياً، تنافست في مضمار كشف الفضاء بمختلف الوسائل، ومنها هذه المركبات الفضائية التي امتطاها رؤاد الفضاء. أو لم نلاحظ أنّ هذه المركبات الفضائية، إنما تقوم برصد كلّ حركة من حركاتها، قيادةً أرضيةً على شاشات التلفاز أمام أعينهم. وقد زودوا هذه المركبات بأجهزة تبتّ جميع ما يجري داخلها وخارجها وما تكشفه من مشاهد للكواكب المارة بها؟ دون أن يكون بين القيادة والمركبات أيّ اتصال بأسلاك ظاهرة، وفي وقت فإنّ القيادة التي صنعت هذه المركبات قائمة خارج هذه المركبات ترصدها وهي بعيدة عنها ملايين الكيلو مترات؟

هذا المثال الحيّ من واقعنا المعاصر، إن أخذته المرء بعين اعتباره أمكنه أن يعمّ استقلالية الذات الإلهية الخالقة عن ذات هذا الكون المخلوق وما يحتوي عليه من مخلوقات، إنّما ينبغي أن يظلّ راسخاً في ذهن المرء أنّ هذا مجرد مثال لفتّ الأنظار إليه، وهو مثال مع الفارق الشاسع بينه وبين الذات الإلهية المشبهة به. وقد كان القصد من هذا المثال نقل مخيلة الإنسان ليتصوّر عظمة الذات الإلهية التي أبدعت هذا الكون الرّحب الذي لا تُعرف له حدود.

وقد أحاط علماء الأرض بما لدى هذه القيادة الأرضية من خبرات وامكانيات، بل تتسابق الدول الكبرى شرقاً وغرباً لصنع المركبات الفضائية الشبيهة بها، بل تتنافس في قيادتها، وفي إصلاح ما يطرأ عليها من أعطال، وهي بعيدة عنهم هذا البعد الشاسع. فإذا شئنا أن نتعرّف على الله الخالق الذي يسيّر هذا الكون، فلا نملك من مُعطيات المعرفة مدى علم هذه الذات الإلهية وقدراتها إلّا ما يفيدنا به هذا القرآن الكريم الذي هو بين أيدينا، والذي له مصداقيته.

ثمّ إنه إن تأقت أنفسنا إلى التعامل مع هذه الذات الإلهية المقدسة، تعامل محبةً وعرفان و اتصال، فلا نملك من مُعطيات علوم ذلك ومبادئه سوى ما يخبرنا به هذا القرآن الكريم أيضاً.

كما أنّ الإنسان إذا راح يبحث عن فطرته وتكوينه الروحي لإدراك معالمها الحقيقية، وطريقة وأسلوب صيانتها وتطويرهما، ويبحث عمّا يختصّ بعقله وأدواته صيانتها، صيانةً تليق بمكانته ومنزلته في مقابل بقية حواس جسم

الإنسان وأجهزته، فلا يملك هذا الإنسان الباحث إلا مرجعاً وحيداً مطمئناً
 مُعتمداً موثقاً، وهو هذا القرآن العظيم أيضاً.
 ذلك أنّ مآلدي البشر من مراجع وكتب سماوية، قد فرغ الباحثون من
 الجزم أنّ الأيدي قد عثت بها، فحرّفتها. فلم يبق كتاب منها تطمئن نفس
 الباحث إلى مصداقيته، على أنّه تنزيلٌ من خالق هذا الكون ومدبره، فقد ثبتت
 عدم مصداقية هذه الكتب بأدلة ومُحاكمات، من ضمنها ومن خارجها أيضاً.
 فلم يُعد أصحاب وأتباع هذه الكتب يملكون أيّ دليلٍ علمي أو عقلي أو منطقيّ
 يدعم مصداقية أيّ كتاب من كتبهم الدينية.
 ولما كان على الباحث ألاّ يُلقي كلامه جُرّافاً، فقد وجب عليّ تقديم
 أهم ماأملكه من أدلة تؤيد كلامي وتثبت، ولو بإيجاز.

٣ - التّوراة والإنجيل المعاصران محرّفان

إن الكتاب المقدس، الذي هو بين أيدي المسيحيين واليهود الذي له
 أصلٌ سماويّ، وهم مايسمونه بالعهدين القديم والجديد. وهو الكتاب الذي
 يتضمّن في العهد القديم منه تعاليم الديانة اليهودية، وفي العهد الجديد منه تعاليم
 المسيح وحواريّه. يزعم هؤلاء أنّه كتابٌ سماويّ نصّاً ومعنى، ومنهم من يزعم أنّه
 معنى فقط، أي أنّ رجالاً متدينين قد كتبوه.

وأنا أسأل : وما أدراني أنّ تعاليم هذا الكتاب هي حقيقة كما يزعمون؟
 يكفيّ أن أعلم أنّها لم تُكتب في الأزمنة التي نُسبت إليها هذه الكتب وتعاليمها،
 لتكون في نظري محلّ ريب وشك. فما نسبة العهد القديم إلى موسى، أقرّ كاتبه
 ضمن أسفاره، أنّه كتب ماكتبه بعد زمن موسى بقرون عديدة، ولُيْمَعن القارئ
 نظرة في هذا الدليل المأخوذ من سفر التثنية، وهو السّفر الخامس من العهد
 القديم، ينسب ألفاظ هذا السّفر إلى موسى نفسه أيضاً. فقد ورد في الاصحاح
 ٧/٣٤ منه:

(كان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات، ولم تكلّ عينه ولا ذهبت
 نضارته. فبكى بنو اسرائيل موسى في عَرَبَات مَوَاب ثلاثين يوماً. فكلمت أيام
 موسى). فهل يُعقل أن يكون هذا النصّ قد كتبه موسى، وكتب في زمنه؟
 لا يُعقل إلا أن يكون قد كتب بعد مماته.

والسؤال الأهم هو : هل أن هذا النص كتبه كاتب بعد موت موسى مباشرة ؟

الجواب عن ذلك يأتي من ضمن الإصحاح نفسه، ذلك أن الجملة التي سبقت ألفاظ هذا النص تقول : (فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب. ودفنه في الجواء، في أرض مؤاب مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم).

يتساءل الباحث : وأي يوم وأي تاريخ هو المقصود من (ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم)؟ فكم كان قد مضى على موت موسى، وعلى اندثار قبره من قرون، قبل أن يُدَوَّنَ كاتب النص هذه السطور؟ أوليس هذا دليل ضمني من العهد القديم نفسه، استقرأناه، وهو شهد أن التوراة هذه لم تُكتب في عهد موسى ولا بعد مماته مباشرة، بل كتبه كاتبه بعد مضي قرون عديدة من الزمان على موت موسى، وعن غيب وسماع، ودون أي سند يمكن أن يشير إليه كاتبه؟

نتناول العهد الجديد، الأناجيل وتعاليمها، المنسوبة إلى المسيح بن مريم، ولنلاحظ مااستهل به كاتب إنجيل لوقا، إنجيله المسمي باسمه، فقد كتب يقول : (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصّة في الأمور المتيقنة عندنا، كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء مُعانيين وخُدّاماً للكلمة. رأيت أنا أيضاً، إذ قد تتبعت كلّ شيء من الأوّل بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيّها العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذي علّمت به. كان في أيام هيرودس ملك اليهودية، كاهن اسمه.. ١/١ لوقا. وهذا النص الذي استهل به إنجيل لوقا يشهد ضمناً بالأمور التالية:

الأوّل - قوله (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصّة..) يشهد أن الإنجيل وتعاليم المسيح بن مريم لم تُدَوَّنَ في حياة المسيح بن مريم نفسه، بل نقشت تعاليمه في ذاكرة أتباعه، فكانوا يروونها الواحد منهم عن الآخر.

ثم إن المستوى الوثائقي لهذه الروايات، يرتبط بمستوى شخصية الرواة أنفسهم ومستوى ذاكرتهم، وبمبلغ علمهم وإخلاصهم للمسيح نفسه، والذي يتبين من الأناجيل نفسها أن حواربي المسيح الإثني عشر كانوا يترأّسون ما بين حمال إلى صياد أسماك، وقد خانه يهوذا الإسخريوطي، وأنكره بطرس فلم يكن بين حواربي المسيح أي مثقف يُوثق بعلمه وذاكرته وكمال إخلاصه.

الثاني - وهذا القول يعني أيضاً أنّ الأناجيل، ومن بينها إنجيل لوقا، هي مجرد حكايات، استندت إلى رُواةٍ لم تدرج أسماءهم في الأناجيل ولا ذكر شيء عن سيرتهم الدنيوية، ولا أثبت رُواة الأناجيل تواتر أخبار تعاليم حكاياتهم بأسلوب علمي. وبألفاظٍ أخرى نقول إنّ هذه الحكايات لم تستوف الشروط الموضوعية التي توثق ماحكّوه لنا فيها، ولا يكفي الباحث قول كاتب إنجيل لوقا : (إذ قد تتبعت كلّ شيء من الأوّل بتدقيق..) فهذا مجرد ادّعاء لم يسنده أيّ دليل.

الثالث : ثمّ إنّ لا يتّضح للباحث من خلال هذه الحكاية، كم من السّنّوات مضت على دعوة المسيح التي يُنسب إليه ماورد فيها، ويكفي الباحث قول كاتب إنجيل لوقا : (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصّة في الأمور المتّيقنة عندنا كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء مُعائنين وخُدّاماً للكلمة..) تكفي هذه الجُمْلُ ليستدلّ منها أنّ الباحث لوقا لم يكن من جُمْلَة حواربي المسيح، وأنّه جلس يكتب (قصّة)، وأنّه وُجد بعد المسيح بزمان لا يُعرف مداه، لقوله: (كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء مُعائنين وخُدّاماً للكلمة..) فما هي أسماء الذين كانوا منذ البدء مُعائنين وخُدّاماً للكلمة، وكيف أمكنهم حفظ جميع مارووه، وكم بين هؤلاء وهؤلاء من وُسطاء؟

والخلاصة، هي أنّ الباحث المدّقق يكتفي بهذين الدليلين اللذين أوردهما ومن ضمن مُعطيات العهدين القديم والجديد، والبرهنة على أنّ التوراة والأناجيل التي هي بين أيدينا، لاتصلح كمرجع يقينيّ يطمئنّ إليه المرء للتعرف من خلالها على خالق هذا الكون ومُبدعه، ومعرفة مدى علمه وقُدّراته، بل لاتصلح أيضاً كمرجع مُطمئنّ للإحاطة بتعاليم موسى والمسيح عليهما السّلام.

وبإمكان المرء أيضاً أن يقيس على هذا الكتاب المقدّس المذكور، مالمدى بقية أتباع الديانات من كُتّاب يُقدّسونها، لاترقى إلى مستوى مرجع حقيقي موثوق به ومُعتمد، قد أنزله خالق هذا الكون لتعريفنا أسمائه وصفاته.

فلا يعرف الباحثون في عصرنا مرجعاً مُعتمداً سوى القرآن الكريم، والذي حُوطب فيه النَّاس جميعهم في أوّل سورة من سوره وهي سورة البقرة (٢٢)، قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. فكلّمة الناس في هذه الآية وردت مُعرّفة بالألف واللام لتشمل جميع البشر. وورد الخطاب نفسه في سورة الأعراف (١٥٨) على لسان

رسول الله (ص) ومأموراً : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، الذي له ملك السماوات والأرض، لا إله إلا هو يحيي ويميت، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، واتبعوه لعلكم تهتدون. ﴾. فصيغة إليكم جميعاً، جيء بها للدلالة على أن القرآن الكريم نزل يحمل تعاليم ذات صبغة عالمية، وليست هي بتعاليم قومية، وإلى قوم مخصوصين. هذه الصيغة التي لم يتسم بها أي كتاب سماوي أنزل قبل القرآن الكريم.

فالذي يتفحص مضامين العهدين القديم والجديد لا يلاحظ ورود آية صيغة فيهما تفيد أن موسى وعيسى، بعثهما ربهما إلى الناس جميعاً، فكل ماسيحه المرء هو أنهما مبعوثان إلى قوم بذاته، وهم قوم بني اسرائيل.

فقد ورد في العهد القديم صراحة، في سفر الخروج ٧/٣ : (فقال الرب إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر، وسمعت صراخهم من أجل مُسَخِّرِيهِمْ. إني علمت أوجاعهم. فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين، وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جديدة وواسعة). وهذه العبارات إن دلت على شيء، فإنما تدل على أن تعاليم التوراة لا تتصف بالصفة العالمية، بل بالصفة القومية.

وإذا تصفح المرء العهد الجديد، تقع عينه في الانجيل متى ١٠/٥ على قول المسيح صراحة : (هؤلاء الإثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا. بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة..). فما معنى أن يوصي المسيح تلاميذه بذلك إن كان الله قد بعثه رسولاً عالمياً؟

وفي الانجيل متى نفسه ١٥/١٢، يذكر لنا أن امرأة كنعانية عرضت للمسيح وهو وتلاميذه في طريقهم : (صرخت إليه قائلة ارحمني يا ابن داوود. ابني مجنونة جداً، فلم يُجِبها بكلمة. فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا. فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة..). فهذا النص وارد حرقاً في العهد الجديد، ثم إن (الإلا) هي أداة حصر في اللغة العربية، ودلالاتها أنها تحصر رسالة المسيح ببني اسرائيل وحدهم. ولا استفاد من ألفاظ هذا النص أي معنى آخر، سوى الذي فهمناه.

وزبدة الكلام، هو أنّ البشرية قاطبة، لا تملك في عصرنا مرجعاً سليماً
من التحريف، ومُعتمداً يُعرفهم خالقهم الذي يُسير هذا الكون من حولهم إلا
القرآن الكريم. ومن واجب الباحث، قبل الرجوع إلى هذا الكتاب السماوي أن
يتدبر مصداقية هذا الكتاب السماوي بأسلوبٍ علميٍّ ووفق الأصول التي تضمنها
هذا الكتاب السماوي نفسه.



الباب الثاني

مصادقية القرآن الكريم
ومرجعيته

الفصل الأول

١ - القرآن ومزاياه كمرجع موثوق

أقول، الذي يشدُّنا ويدفعنا إلى تدبُّر مصداقية القرآن بأسلوبٍ علميٍّ، إعجاز هذا الكتاب وتعدُّد مزاياه. هذه المزايا التي يتسمُّ بها هذا القرآن العظيم. فللقرآن الكريم مزيَّتان لاخلاف عليهما وهما :

١ - المزية القرآنية الأولى : أن القرآن نصٌّ بين دفتيه على كونه مُنزلاً من الله تعالى بلسان عربيٍّ مُبين. فقد ورد في سورة يوسف (٢) قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وقوله (عربيًّا) أي بلغة العرب. والإعراب في الأصل هو الإبانة والإفصاح. والتعريب هو التبيين.

فقوله تعالى في الآية ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، يفيد أنَّ القرآن يُعرب عن المعاني والدلالات إلى حدِّ الكمال وغاية الإفصاح، ومُبرراً من كلِّ نقص، هذا ماأفاده صاحب معجم أقرب الموارد. وجاء في المفردات : العربيُّ المُفصِّحُ، والإعراب البيان. ثم إنَّ إضافة كلمة (قرآناً) إلى (عربيًّا)، أضاف معني جديداً، وهو أنَّ هذا الكتاب السماويَّ أنزله مُنزله ليقرأه الناس ويتلوه دوماً في جميع أحوالهم. وهذه مزيةٌ لم يتسمَّ بها كتاب سماويٍّ من قبل. فالتوراة والأنجيل وإن كانت تطبع بكثرة، فإنَّ أتباعها ومريديها لا يكادون يقرؤونها بالكثرة التي يُقرأ بها هذا الكتاب السماوي العظيم، للنبوءة التي حملتها إلينا هذه الآية الكريمة المذكورة، بالرَّغم من أن القرآن كان آخر الكتب المنزلة، ولا يزال أتباعه أقلَّ من سواهم عدداً.

فإذا أتجهنا إلى رأي الأوربيين، وهم بأكثريةهم لا يدينون بالدين الذي أتى به هذا المرجع القرآن. فالملاحظ أنَّ هؤلاء يغبطون العرب على عظمة ماتمتع به لغتهم العربيَّة من مزايا.

فالعالم الأوربي (لين بول)، وهو العالم الذي قام بترجمة معجم (تاج العروس) إلى لغته الأوربية، نلاحظه وقد أعلن في مقدّمته وبكلّ حسرة أنه لم يجد بين لغات العالم قاطبة، لغة هي على مستوى اللغة العربية، من حيث سعة مصادرها ومفرداتها ودلالاتها، إضافة إلى بيانها لحكمة دلالاتها وأصولها. ثم إن أدباء اللسان العربي أنفسهم وعوّا هذه الحقيقة، وأدركوها. فهذا اللغوي الشهير (ابن جنّي) تحدّث عن خصائص العربية.

وتما قاله في كتابه الشهير (الخصائص) أنّه روى عن أستاذه أبي علي الفارسي أنّ أحرف الكلمة الثلاثية، مهما دارت وتبدّلت مواضعها، فهي تظلّ تدور حول معنى أساسي واحد وأصل واحد. وقد ضرب على ذلك مثلاً، الأحرف (الكاف واللام والميم) مهما تغيّرت مواضعها وترتيبها، فهي تفيد معنى القوة في جميع الأحوال، كذلك لفظ (عرب) وهو المؤلّف من أحرف (العين والراء والباء) مهما تغيّر ترتيب هذه الأحرف، فهي تدلّ على الإمتلاء وغلبة الشيء.

ومادامت الآية التي ذكرناها، قد ذيلها منزّلها بقوله ﴿لعلكم تعقلون﴾، فقد وضّح لنا بذلك الحكمة من إنزال هذا القرآن بلسان عربي مبين. أي أنّ حكمة ذلك تتمثل في سعة دلالات ألفاظ هذه اللغة وكثرة تراكيبها، إذ يساعد هذا عقلاء الناس على الإحاطة بخفايا أحكام الله ودقائق تعاليمه.

وعليه، فلا أكون مُحطّاً إذا نظرت إلى لغة القرآن الكريم على أنّها مزية بارزة من مزاياه. ويؤيد هذا الإتجاه الآية (١٩٥) من سورة الشعراء : ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾. وصيغة (رب العالمين) قصد بها إعلامنا أنّ تعاليم القرآن الكريم موجهة إلى الناس كافة، هذا الأمر الذي اقتضته ربوبية (رب العالمين) وهو أن تختار لتحقيق هذا المقصد اللسان العربي المبين أداة لنقل هذه التعاليم إلى البشر، من بين لغات العالم قاطبة، لا تصاف اللغة العربية بمزايا الإبانة والإفصاح والسعة في الدلالة، الأمر الذي لم تتصّف به لغة أخرى سواها، فهي تساعد لعظمتها على إيصال تعاليم رب العالمين إلى البشر كافة، تحقيقاً للمقصد من إنزال هذه التعاليم. ويكفي محمداً (ص) فخراً، وهو الأمّي الذي كان يجهل

لغات العالم في عصره، أن يحمل رسالة هذا التنزيل، وقد لاحظنا أن كلمات العالم الأوربي (لين بول) تصدق هذه المقولة.

كذلك يؤيد اتجاهنا هذا ماورد في سورة الرعد الآية (٣٧) قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا...﴾، أي أن حكم الله تعالى ورد عربيًا، بمعنى مُفَصَّلًا وفصيحًا ومُبينًا، وليس مُجَمَّلًا.

من هنا يدرك الباحث مزية هذا المرجع العظيم الوحيد القرآن الكريم، أصدق وسيلة لمعرفة خالق هذا الكون، الذي لم يتوصل علماء عصرنا بعد إلى معرفته، بالرغم من تقدمهم العلمي الكبير.

٢ - المزية القرآنية الثانية :

والمزية الثانية للقرآن كمرجع، أن هذا الكتاب السماوي نص في سورة الحجر (٩/٨) على كون الله الذي أنزله قد وعد بالمحافظة عليه إلى أبد الأبد، من خلال قوله عز وجل : ﴿مَّا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ. إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. أي أن الله تعالى لا ينزل ملائكته إلى عباده إلا بالحق، وهو الأمر المقضي به من الله عز وجل، هذا الأمر الذي يتصف بالعدل والثبات واليقين. وهذه الصفات هي دلالات كلمة (الحق) لغة (أقرب الموارد). ثم إن الله تعالى يصف هذا القرآن بصفة (الذكر). والذكر لغة يفيد الشرف والرفعة والسمو. يقول إنه تعالى أنزل هذا القرآن "الذكر" بتوسط ملائكته الذين لا ينزلهم إلا بالحق، إشارة إلى أن تعاليم القرآن تتصف بصفات العدل والثبات واليقين، كما يتصف بالحفظ والصون، تصديقاً لقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

هذا وإن وعد الله تعالى بالمحافظة على وحي القرآن الكريم وصونه، لا ينبغي للباحث أن يتلقاه بنظرة سطحية تقليدية، بل ينبغي أن يُقبل عليه بنظرة علمية فاحصة ولا يكفي أن نقف عند تواتر وصوله إلينا سالمًا، كما يفعل المُقلِّدون، الذين يقولون إننا وجدنا آباءنا على ملة، وإننا على آثارهم مُقتدون. أوليس عجيباً بعد هذا، أن يسبقنا إلى هذا الأسلوب العلمي في البحث والتحقيق، للتوثق من سلامة وحي القرآن الذي هو بين أيدينا، أن يسبقنا إلى هذا

علماء لا يمتنون إلى الاسلام بصلّة من الصلّات، وهم من تشحنهم الكنيسة المسيحية أيضاً بنقمة على هذا القرآن بصورة عفوية؟

لا شك أن المستشرقين، منهم المتطرفون ومنهم المعتدلون. والمستشرق البريطاني (سير وليم ميور) من هؤلاء المستشرقين المعتدلين. فقد كان ألف كتاباً أسماه (حياة محمد) وبلغته الانكليزية. وإليك ترجمة بعض المقاطع الواردة فيه، فقد كتب على الصفحة (٣٨) يقول: (بالرغم من احتمال أن يكون محمد هو الذي ألف القرآن، فإن القرآن الموجود في زماننا هو الذي طلع به محمد على العالم). وهذه ألفاظه بالإنجليزية :

(What we now have though possibly corrected and modified himself is still his own.)

وقد كتب على الصفحة (٥٦١) يقول : (إضافة إلى ذلك، فإننا نملك من مختلف الأدلة، الداخلية منها، والخارجية، ما يثبت أن الكتاب الموجود لدينا هو نفس الكتاب الذي طلع به محمد على العالم، وقد كان يعمل بموجب تعاليمه). وهذه ألفاظه بالإنجليزية :

(There is otherwise every security. Internal and external that we possess a text the same as that which Mohammad himself gave forth and used).

وكتب على الصفحة (٥٦٢) يقول : (وقد انتهيا إلى النتيجة التي توصل إليها (وان هيمر)، فإذا لم تنته إليها في سائر جوانبها، ففي معظم هذه الجوانب. وهي ثبوت أن القرآن الموجود في زماننا، هو القرآن نفسه الذي جاء به محمد دون أي تحريف. ونحن من ذلك على يقين، كيقين المسلمين أنفسهم، بأنه وحي الله المقدس، الذي لم يُحرّف ولم يُبدّل). وهذه ألفاظه بالإنجليزية :

(And we conclude with atleast a close approximation to the verdict a Von Hammer that we hold the quran to be as surely Mohammad's Waro as the Mohammadans hald it to be the word of good.)

وأضاف المستشرق ميور على الصفحة (٥٦٣) قوله: (ونحن نصّرح إستناداً إلى أدلة دافعة، بأن كل آية من آيات القرآن أصيلة، وقد وصلتنا من محمد دون أي تحريف).

وهذه ألفاظه بالإنجليزية :

(We may upon the strongest presumption offirm that every vere in the quran is genrime and unoclerd composition of Mohammad himself).

هذا ماشهد به مستشرق منصفٌ حول وصول هذا المرجع القرآني إلينا سالمًا، بريئاً من أيّ تبديل أو تحريف، بعد أن تقصّى هذه الحقيقة بأسلوبٍ علمي رصين، والفضل ماشهدت به الأعداء.

والمستشرق الألماني (نولدكه) كتب يقول أيضاً : (ويمكن أن تكون قد

وقعت بعض

الأخطاء الكتابية، لكن القرآن الذي قدّمه عثمان للعالم، هو نفس القرآن الذي جاء به محمد، بالرغم من كون ترتيبه عجيباً.

وهذه ألفاظه بالإنجليزية :

(S.light clerical errors there may have been but the quran of othan contains more but genuine elements).

مع الملاحظة أنّ الذي يرغب بالإحاطة بترتيب القرآن الموضوعي، بإمكانه مراجعة مؤلّفي (فنّ الاختزال في القرآن الكريم).



الفصل الثاني

١ - دليل من ضمن القرآن على مصداقية القرآن :

ولنعتمد نحن، وبأسلوبنا العلمي، لإدراك مدى مصداقية القرآن الكريم. نتناول ما نلاحظه فيما نصّت عليه سورة القيامة (١٨/١٧/١٦) من آيات، جسّدت لنا معالم هذا الدليل الداخلي الضمني، من القرآن نفسه. فالله تعالى يقول : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، وهذه الآيات قد انطوت على وعدٍ إلهي واضح المعالم. وكأن الله عز وجل يقول لرسوله الكريم بألفاظٍ أخرى : وهل يستسيغ عقلك أن تُنبئك عن المستقبل، دون أن نكون قد أعددنا أسباب ووسائل تحقيق هذا المستقبل؟ لذلك فاعلم أننا قد أخذنا على أنفسنا عبء جمع هذا الوحي القرآني الذي نوحيه إليك، وقرآنه على ترتيب تلاوته. فإذا فرغت من هذه التلاوة ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، بمعنى أن مسؤوليتك مقصورة على تنفيذ نهجنا هذا واتباع أوامرنا. وهذا ما أفاده تعالى بقوله في مقام آخر : ﴿مَاعَلَى الرَّسُولِ إِلَّا

البلاغ﴾. المائدة ٩٩ -

فهذه معالم دليل ضمني من داخل القرآن نفسه. وهو على غاية الأهمية، بسبب أن هذا الدليل الضمني وضح لنا أن هناك وعداً إلهياً بالمحافظة على وحي القرآن الكريم، وهذا الوعد يشمل ترتيب تلاوة القرآن الكريم أيضاً. وقد بقي السؤال هنا عن حكمة إنزال القرآن الكريم على ترتيبين : ترتيب إنزاله مُنجمًا، وترتيب تلاوته، وهو ما تتوق النفس إلى معرفته.

ونحن كباحثين، نعثر على الإجابة ضمن القرآن، وفي سورة الفرقان (٣٢) من خلال قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾. وكلمة (كذلك) تعني أننا أنزلناه مُنجمًا على هذا النهج ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، أي أنزلناه كذلك لتحقيق مقصدين هامين : تحفيظك آيات القرآن على مراحل إلى جانب تعريفك دلالات

هذه الآيات ومعانيها، وتثبيت هذه الآيات في (فؤادك). ذلك أنه إذا ثبت الشيء في المكان، دام واستقر. وأثبتته : جعله ثابتاً، وعرفه حق المعرفة. (اقرب الموارد)

وإن الإنسان الذي يرجع إلى كُتب السيرة المحمدية، لابد أن يلاحظ تحقق هذين المعلمين لهذين المقصدين الهاميين. فقد كان محمد رسول الله (ص) يحدث في شخصيات أصحابه، التبديل الضروري لإجراؤه تبعاً لما كان ينزل عليه من وحي ربه الذي كان يتلقاه مُنحماً أي متفرقاً. فكان رسول الله (ص) يعي معانيه ويتدبرها، ويصرف أمور الدعوة على أساس ما استوعبه من معاني هذه الآيات النازلة عليه. وقد لاحظنا كيف أن المستشرق (سير وليم ميور) قد لاحظ ذلك، لذلك قال آخر كلامه الذي اقتبسناه من كتابه (حياة محمد) صفحة (٥٦١)، قوله بحق محمد : (وقد كان يعمل بموجب تعاليمه). Mohammad himself gave forth and used.

على هذه الصورة أكون قد وضعت بين يدي المرء ملامح دليل من داخل القرآن الكريم، يؤكد مصداقيته.

٢ - دليل من خارج القرآن على مصداقية القرآن

وأنقل بالقارىء خطوة أخرى، لأكمل خطواتي هذه التي خطوتها، ولأضع بين يديه الدليل من خارج القرآن الكريم، هذا الدليل الذي يثبت من خلاله تحقق المقصدين الهاميين اللذين قصد تحقيقهما الوعد الإلهي الذي تضمنته آية سورة الفرقان. هذين المقصدين اللذين استدعيا منه عز وجل أن يُنزل وحي القرآن الكريم مُنحماً.

فمن خلال تقصينا لتطورات الأحداث التي حدثت في فترة نزول وحي القرآن مُنحماً. تتجلى لأعيننا ظواهر ثلاث قد برزت إلى مسرح الأحداث : الظاهرة الأولى استمرار نزول جبريل عليه السلام بالوحي القرآني مُنحماً على رسول الله (ص)، وتحفيظه إياه ما ينزل به من وحي قرآني، بل ومراجعته إياه

بجميع ما نزل به من وحي بين حين وآخر. والظاهرة الثانية تتجلى بظهور طبقة من حُفَاط هذا الوحي النازل مُنْجَمًا، وبترتيب ما يشير به جبريل على محمد رسول الله (ص) ثم إنَّ عدد أفراد طبقة الحُفَاط هذه، قد تجاوز عشرات الألوف من أصحابه (ص). والظاهرة الثالثة التي تتجلى لأعيننا هو تعيين محمد رسول الله (ص) كتبة يكتبون له ما يوحى إليه ربّه على فتراتٍ، من وحي قرآني، على الرقاع والعظام، ووفقاً لما يُعلمه عليهم الرسوم الكريم لفظاً وترتيباً.

هذا، وإنَّ الباحث الذي أحاط بمعالم مُعطيات الدليل الداخلي الذي ذكرناه، والمتضمن الوعد الإلهي، لا يستعزب ظهور هذه الظواهر الثلاث التي لاحظناها. بل ولا يخطر بباله أن يعتبرها قد حدثت مُصادفةً واتِّفاقاً، بل يربط بين هذه الظواهر وبروزها إلى سطح الأحداث، وبين الوعد الإلهي المذكور بصورة لاشعورية وتلقائية. فيرى من خلالها وجه تدخل المشيئة والإرادة الإلهية التي سيق أن وعدت بجمع القرآن وقُرْآنه.

على هذا النسق نسير ببحثنا العلمي عن مصداقية القرآن الكريم، فمن شدّد عن هذا المسار، كان في نظري مُخطئاً، ولا ينطلق ببحثه من مُنطلقٍ علميٍّ صحيح.

والآن، أقول، والحق يُقال، وهو لو أننا تَنَتَّنا في ذاك الزّمان، وسط أمة أمية، وهي عرب الجاهلية، الأمة التي اعتمدت ذاكرة أبنائها، لحفظ كلِّ ما تراه مناسباً للحفظ من تراثها التاريخي وأدب أديانها وشعرائها. فلو كنّا في وسط الجوّ المذكور، وكان طلب منا أن ننهج أسلوباً علمياً في حفظ ما كان ينزل من وحي القرآن على قلب محمد رسول الله (ص)، فماذا كنّا يومئذٍ فاعلين؟

وجوابي كمفكّر وباحث، لأرى أسلوباً أرقى من أن نعهد إلى تلك الوسائل الثلاث المذكورة وبصورة علمية، يوم لم يكن الورق قد اكتشف، ولا كانت وسائل الطباعة قد ظهرت إلى حيّز الوجود. فلم يكن متوفراً بين أيدينا إلا أعدادٌ متزايدة من مؤمنين أميين، لا يملكون من متاع الأمن من ذاكرتهم النامية بشكل ملحوظ.

فإن كنت مُخطئاً فيما قلته وقدمته من رأي، فليتفضل الباحثون
يُصحّحونه. وإنّي لأتوقّ لسماع رأي أصوب مما قدّمت.
وبذلك تتجلّى لي معالم تجلّيات الله عز وجلّ الذي أنزل وحي القرآن
الكريم، إلى جانب خلقه الأسباب التي أدّت إلى ظهور هذه الظواهر الثلاث التي
لاحظنا ظهورها على مسرح الأحداث، وذلك حفظاً منه جلّ شأنه لوحيه،
وأسلوباً منه تعالى أيضاً لجمع هذا الوحي القرآنيّ، وقرآنه على ترتيب تلاوته،
وهو الوحي النازل مُنحّماً لتحقيق المقصدين الهامين اللذين سبق أن فهمناهما من
آية سورة الفرقان.

فهذه البيئة الأميّة، وهذا الرسول الأميّ، قد استدعيا من الله عز وجلّ
أن يعد، ويحقّق وعده، بهذه الوسائل الثلاث التي كان يستحيل اعتماد وسائل
غيرها، أضف إلى ذلك قيمة وأهميّة أوقات رسول الله (ص)، والتي كان عليه أن
يبدّلها لتأدية رسالة ربّه. فما كان مسؤولاً عن إضاعة أوقاته في أمور خارج هذا
الإطار. فقد تحدّدت مسؤوليته من خلال قوله تعالى : ﴿... ماعلى الرسول إلاّ
البلاغ﴾.

والذي نخلص إليه من بحثنا ودراستنا هذه، هو أنّ طبقة حفّاظ القرآن
الكريم، كانت تؤلّف العنصر الأساسي لجمع القرآن وقرآنه. وتأتي الرّقاع
المكتوبة في الدّرجة الثانية أهميّة، فما كانت الرّقاع إلاّ بمثابة صمّام أمان، يُعتمد
إليه في الوقت الذي يعود الاعتماد فيه على طبقة الحفّاظ خطراً لا أهميّة له من
الوجهة التوثيقية.

هذا على شاكلة ما كان يجري عند العرب بشأن أشعار أدبائهم
البارزين، إذ كانت مُعلّقات أشعارهم، ليست هي المرجع الأهم، بقدر ما كان
لحفّاظ تلك المُعلّقات من دورٍ يؤدّونه على هذا الصّعيد. مع فارق ما بين المثالين،
وأيّ فارق.



الفصل الثالث جمع القرآن الكريم

١- واقعة اليمامة وجمع الرقاع : توفي محمد رسول الله ﷺ، ووحى القرآن الكريم يعمر ألفة عشرات ألوف الحفاظ، من جهة، وقد دُونَ من جهة أخرى على العُشْب (جرائد النخل)، وعلى اللّخاف (حجارة بيض رقاق). وأتبع الذي حدث بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، بنفس الأسلوب العلمي. فقد سارت الأمور، في عهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه، على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ.

لولا أن حدثت معركة اليمامة، التي استشهد فيها مائونف على خمسة آلاف من حفاظ القرآن الكريم، دفعة واحدة. وتركت هذه المأساة صدىً كبيراً في نفوس كبار مسؤولي الدولة الإسلامية، في المدينة المنورة، العاصمة آنذاك، وتجلّت هذه الحقيقة لأعيُننا، من خلال مارواه البخاريّ في صحيحه، وقد دفعت هذه الحادثة هؤلاء المسؤولين الكبار للتفكير بجدٍ وعزيمة ماضية، في أمر معالجة موضوع جَمْع الرّقاع، وترتيبها، وتهيتها، تحسباً من تكرار حادثة اليمامة واستشهاد أكثرية الحفاظ، فلا تعود طبقة الحفاظ مُعوّلاً عليها في الحفاظ على القرآن الكريم نفسه.

والذي رواه لنا البخاريّ رضي الله عنه قال : (حدثنا موسى بن اسماعيل عن ابراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب عن عُبَيْد بن السَّبَّاق : أنّ زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أُرْسِلْتُ إلى أبي بكر الصديق مُقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده.

قال أبو بكر رضي الله عنه : إنّ عُمَرَ أتاني فقال : إنّ القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن - واستحرّ معناه اشتدّ - وإنّي أخشى إن استحرّ القتل بالقراء بالمواطن، أن يذهب كثير من القرآن - وهذا القول يؤيد أهمية ومنزلة وجود الحفاظ وسلامة كتاب الله من أي تحريف كان - وإنّي أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر - والكلام لأبي بكر - كيف يفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر : هذا والله خير - ويضيف أبو بكر قوله - فلم يزل عُمَر

يُراجعي، حتى شرح الله صدرى لذلك - يقصد أخذه برأى عمر في ضرورة
جَمْعِ رِقَاعِ الْقُرْآن - وأضاف :

ورأيت في ذلك الذي رأى عمر - والآن يعود الكلام للراوي زيد بن
ثابت، قال زيد : قال أبو بكر - موجهًا كلامه إلى زيد بعد أن استدعاه وحضر
بين يديه - : إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، لَا تَتَّهَمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ
اللَّهِ ﷺ فَتَتَّبِعُ الْقُرْآنَ، فَاجْمَعْهُ. قال زيد : فوالله لو كلفوني نقلَ جبلٍ من
الجبال، ما كان أثقلَ عليَّ ممَّا أُمِرَني به من جمع القرآن. قلت - والكلام لا يزال
لزيد ومخاطباً أبا بكر : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال -
والكلام لأبي بكر - : هو والله خير.

ويضيف زيدٌ قوله : فلم يزل أبو بكر يُراجعي، حتى شرح الله صدرى
للذي شُرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. فتتبع القرآن، أجمعه من
العُسْبِ ومن اللِّحَافِ وصدور الرجال - أي وفقاً لترتيب تلاوته عند حُفَافِ
القرآن الكريم - حتى وجدتُ آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم
أجدْها مع أحدٍ غيره : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ
مَاعَنْتُمْ..﴾ حَتَّى خَاتَمَ بَرَاءةً. فكانت الصُّحُفُ عند أبي بكرٍ حتى تَوَفَّاهُ اللَّهُ. ثُمَّ
عند عُمر حياته - أي طوال حياته - ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه).

هذه الرواية التي رواها لنا البخاري، تُعتبر في نظري من أوثق وأصحَّ
مارواه. فهي ألقت للباحث الضَّوءَ المُبهر على هذه الأحداث الهامة ومجرياتها فيما
يتعلَّق بالتبديل الطارئ بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

والذي يُستدلُّ من هذه الرواية، هو أنَّ خشية الله تعالى كانت تعمّر
أفئدة هؤلاء المسؤولين الكبار في الدولة الإسلامية. فهذا عمر الفاروق يرى في
حادثة مقتل عددٍ كبير من حُفَافِ الْقُرْآن خطراً داهماً على القرآن الكريم نفسه.
بسبب أنه كان يعلم يقيناً أنَّ طبقة الحُفَافِ، كانوا عماد "جمع القرآن وقرآنه".
وبسبب أنَّ الأمة المبعوث فيها هذا الرسول الكريم الأمين اشتهرت بكونها أُمَّةً
أُمِّيَّةً لَا تَكْتُبُ وَلَا تَحْسِبُ عَلَى الْوَرَقِ. وَنَدَرَ من يعرف القراءة والكتابة من أبنائها.
فقد كانت تستظهر كُلَّ تاريخها وعلومها وأشعارها عن ظهر قلب.

وهذا أبو بكر الصديق، يرى أخيراً رأى عمر الفاروق، بعد أن شرح
الله تعالى صدره لرأيه. فقد كان يُدرِكُ إذن أيضاً أنَّ طبقة حُفَافِ الْقُرْآن هم

عماد "جمعه وقرآنه". فقد اقتنع أنه لابد أن تفعل هذه الحقيقة فعلها، إذا تكرر في معركة من المعارك ما حدث في معركة اليمامة. لذلك لاحظناه استدعى أحد أبرز الذين كانوا كتاباً لوحي القرآن في زمن نزوله، وهو زيد بن ثابت رضي الله عنه، وكلفه مهمة جمع الرقاع المولفة من العُسب واللحاف، أي من جرائد النخل ورقائق الحجارة البيضاء. يجمعها ويرتبها وفقاً لما في صدور حفاظ القرآن من ترتيب أيضاً.

وهذا زيد بن ثابت، وقد شرح الله تعالى له صدره لرأي هذين الصحابين المسؤولين العظام، وأدى مهمته على أحسن وجه وبكل أمانة. وقد احتفظ أبو بكر الصديق برقاع هذا القرآن الملتون، والمرتب على وفق ترتيب محافظ محمد ﷺ. الحفاظ إياه. أي على ترتيب التلاوة الذي كانوا يتلون به كل آن في حياة محمد رسول الله ﷺ. وقد تسلم عمر بن الخطاب رقاد هذا القرآن الملتون أيضاً، بعد أن تسلمه من بيت أبي بكر بعد أن توفاه الله عز وجل. فلما توفى الله عمر بن الخطاب، احتفظت ابنته حفصة برقاع هذا القرآن الملتون المرتب بترتيب تلاوته. علماً بأن حفصة رضي الله عنها، لم تكن ابنة عمر وحسب، بل وأم المؤمنين.

٢. نسخ الرقاع في زمن خلافة عثمان (رضي):

وانتخب المسلمون عثمان بن عفان خليفة ثالثاً لرسول الله ﷺ ورئيساً لدولتهم الإسلامية. فلننظر ماذا حدث زمن خلافته، وكيف تطورت الأحداث، وأثرها الذي تركته على طبقة الحفاظ وسلامة القرآن الكريم؟ لابد أن يكون قد رسخ في ذهن القارئ إلى الآن أن دراستنا وأسلوبنا العلمي، قد أوصلنا إلى حقيقة تاريخية لا غبار عليها، هي أن القرآن الكريم، الذي يعد مرجعنا الوحيد لتقصي صفات خالقنا وأسمائه الحسنى قد وصل عهد خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه مجموعاً ومرتباً وفق ترتيب تلاوته في صدور الحفاظ، سالماً من كل تحريف وتبديل.

هذه الحقيقة تدحض زعم ما يزعمه بعض المغرضين من أن الخليفة الثالث عثمان بن عفان هو الذي جمع القرآن الكريم. فقد ثبت لنا بالأسلوب العلمي وصوله مجموعاً ومرتباً إلى عهد خلافته، بل وفي يدي حفصة أم المؤمنين.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : ماهي التطورات التي حدثت في عهد هذا الخليفة الثالث، والتي دفعته لنسخ القرآن على سبع نسخ كما هو معلوم؟ خصوصاً أن أكثر تلك النسخ لاتزال موجودة في متاحف أعظم الدول المعاصرة؟ إذا كانت حادثة اليمامة التي جرى خلالها مقتل عدد كبير من حفاظ القرآن قد استدعت ذلك من الخليفة الأول أبي بكر الصديق جمع وترتيب القرآن على نفس ترتيب تلاوة الحفاظ.

فقد حدثت في عهد الخلافة الثالثة تحولات جذرية وتطورات، بالإمكان تتبعها ومعرفة معالمها وأبعادها من خلال ماوصلنا بما وثقه المؤرخون لتلك الفترة من الزمان، هذه التحولات الجذرية والتطورات هي التي دفعت عثمان بن عفان رضي الله عنه لقلب أو يعكس مُعادلة الحفاظ على القرآن الكريم، التي ذكرناها وتحويلها من الاعتماد على الحفاظ، إلى الاعتماد على رقاع القرآن المجموعة والمرتبة بترتيب تلاوتها، فينسخها إلى سبع نسخ ويوزعها على الأمصار. وذلك لتحتل النسخة المدونة والمنسوخة هذه المكانة الأولى كصمام أمان وحسب، ولتحل محل الحفاظ مصدراً لحفظ هذا القرآن العظيم.

نلاحظ معالم هذه التحولات الجذرية والتطورات المستحدثة من خلال أسطر رواية أخرى نقلها لنا البخاري رحمه الله في صميمه. إذ قال : (عن أنس بن مالك أنَّ حذيفة بن اليمان قديم على عثمان، وكان يُغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان، مع أهل العراق، فأفرع حذيفة اختلافهم في القراءة. فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب، اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصّحف ننسخها في المصاحف ونرُدّها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان. فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام. فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرّهط القرشيّين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصّحف في المصاحف ردّ عثمان الصّحف إلى حفصة. فأرسل إلى كلّ أُنق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفة أو مصحف أن يُحرق.).

ولتندبر الآن مضمون هذه الرواية، وما حملته إلينا من معلومات :

أولاً - يتزاعى من خلال هذه الرواية أن حذيفة بن التَّعْمان كان قائداً لجيش المسلمين المتوجّه لفتح أرمينية وأذربيجان، وكان جنود جيشه مؤلفين من شاميّين وعراقيّين.

ثانياً - لاحظ حذيفة أن المسلمين من غير العرب يلحنون في حفظ القرآن الكريم، فلا يحفظونه على نسق وفصاحة الحُفّاظ من العرب. يقول الراوي : (فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة) ولاشك أن ملاحظة هذا القائد المسلم التقى الواعي لمسؤوليته، كانت في محلّها.

ذلك أن العرب أنفسهم كانوا مختلفين في القراءات، تقرأ كل قبيلة القرآن بلهجتها، فما بالنا بالأعاجم الذين يصعبُ عليهم إحسان النطق بكثير من أحرف العربية لاسيّما حرف الضاد؟ وهذه الملاحظة تقتضي أن يُصبح بين متناول أيدي من يُريد تلاوة أو حفظ القرآن قرآنٌ منسوخ على أوراقٍ بين يديه، دفعاً لهذا الاختلاف بين القراءات.

ثالثاً - وقد عاد هذا القائد إلى القائد العام خليفة المسلمين عثمان بن عفّان (رضي) . وحرّى به أن يعود إلى خليفته فيحذّره مما حدث. وقال لعثمان فزعاً : (أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب، اختلاف اليهود والنصارى). وإنّها لكلماتٌ معبرةٌ جداً. فاليهود والنصارى لم يُسعدْهم الحفظ بتوثيق تعاليم رُسُلهم في أزمنة أصحاب هذه التعاليم أنفسهم. فكان نتيجة لذلك ماكان. وهذه الكلمات تعبّر عن ثقافةٍ ناضجةٍ، ووعيٍ لتاريخ الأديان.

رابعاً - ماذا كان ردّ عثمان على قائده؟ لم يُجادله، بل وعى ملاحظته تماماً، وتقبّلها، وأرسل إلى حفصة (رضي) يطلب منها نسخة القرآن التي جمعها أبو بكر الصديق (رضي) في حياة خلافته وفق تلاوة الحُفّاظ. ثمّ أُلّف عثمان (رضي) لُجّةً من أربعة رجال ثقاتٍ. على رأسهم زيد بن ثابت الذي تمّ جمع القرآن على يديه من قبل. إلى جانب عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام. وكان هؤلاء الأربعة من حُفّاظ القرآن أيضاً، كما هو ثابت من التاريخ. بل كانوا رهطاً من قريش، يتكلّمون بلهجة قريش أيضاً، علماً بأنّ القرآن الكريم نزل بلغة قريش، كما هو معلوم، فلا مجال للخطأ في التّلوين.

ثم إن تأليف هذه اللجنة من هؤلاء الرجال أنفسهم، يدل على حكمة عثمان (رضي) وبعد نظره. ويزيد رأيه هذا رفعةً وسُموً إشارته على هؤلاء الرجال بأنهم، إذا اختلفوا، هم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، أن يكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل القرآن بلسانهم، ففعلوا. وقد نسخوا القرآن الكريم على سبع نسخ، فأرسل عثمان إلى كل قطرٍ من أقطار الدولة الإسلامية نسخةً من هذه النسخ، لينسخ المسلمون بموجبها، فلا يختلفون في شيء من القرآن الكريم.

خامساً - والذي فعله عثمان (رضي)، بعد أن فرغت اللجنة من أداء مهمتها (رد عثمان الصحف إلى حفصة (رضي)) سالمة دون زيادة أو نقصان، ودون أن يحرق منها شيئاً (وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة عنده، أو مُصحفٍ أن يحرق) أي أنه أمر المسلمين أن يحرق كل واحدٍ منهم، ما استنسخه من صحيفة عنده أو كتبها من قبل، خشية أن يكون فيها نقص أو خطأ. ولم يأمر بإحراق النسخة الأصلية التي احتفظت بها حفصة لديها بعد موت والدها عمر بن الخطاب (رضي)، بل أعادها إليها سالمة، على حسب ماورد في الرواية المذكورة.

وهكذا نكون قد توصلنا بالأسلوب العلمي، إلى نفس ماوصل إليه المستشرق ولیم میور، الباحث المحايد المنصف، الذي أقر إقراراً جازماً أن القرآن الذي بين أيدينا، هو نفسه الكتاب الذي أنزله الله عز وجل على رسوله الأمين. على هذه الصبورة تطمئن نفوسنا بعد الإيمان، إلى أن القرآن الكريم الذي نتلوه ليل نهار، في كل مكان، هو مرجع تاريخي ثقة، بإمكاننا الرجوع إليه، لتعرف من خلال آياته الكريمة ما للذات الإلهية الخالقة لهذا الكون، من

صفاتٍ وأسماءٍ حُسنِي. ولانكون مُغالين إذا قلنا إنّ هذا القرآن المعتمد الموثوق به
قد وصل إلينا سالمًا، وفقاً لما نصّر عليه قوله تعالى في سورة الحجر :
﴿ إِنَّا لَنَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. ﴾. هذا الدليل الدّاخلي من
ضمن القرآن نفسه الذي تأيّد بالدليل الخارجي الذي أوردناه.



الفصل الرابع ١. هل اختلق محمد ﷺ القرآن ؟

فإذا وصلنا إلى هذا الحدّ من البيان، طرح أعداء الإسلام علينا سؤالاً هو: وما أدراكنا أنّ هذا القرآن الذي وصلنا عن محمد ﷺ سالماً هو تنزيل رب العالمين؟ وليس من وضع محمد بن عبد الله نفسه؟

والذي وُلِدَ مسلماً مؤمناً برسالة محمد رسول الله ﷺ، يردّ على هذا السؤال، ويُجيب إجابة تقليدية. على شاكلة من سبق أن قالوا: إنّنا وجدنا آباءنا على ملّة، وإنّا على آثارهم مُقتدون.

أما نحن، وقد انتهجنا الأسلوب العلميّ أسلوباً لفهمنا وإدراكنا، فلا سبيل أمامنا إلا الإجابة عن هذا السؤال بالأسلوب العلمي، دون الطّريق التقليدي.

والذي أرغب فيه هو الكلام أولاً عن الذات البشريّة مجردة عن أيّ أمرٍ روحي، ومنطقي تاريخي أصيل وثابت وبالأسلوب العلمي.

فالذي يستعرض تاريخ الأفيذاذ من الرّجال، هؤلاء الذين تركوا بصماتهم على صفحات تاريخ الإنسان، وبرزوا على مستوى عالمي، بين قائدي عسكري، وفيلسوف، وعالم، في فرعٍ من فروع العلوم. فقد لمعت أسماء الاسكندر المقدوني وهتلر ونابليون مثلاً قوّاداً عسكريين.

وبرقت أسماء سقراط وأفلاطون وهيغل والغزالي، مثلاً فلاسفة مفكرين، واشتهرت أسماء نيوتن وأنشتاين وابن سينا والفارابي علماء في مختلف فروع العلوم.

فإنّ نحن استعرضنا هؤلاء الأفيذاذ من الرّجال فرداً فرداً، لاحظنا نبوغ عبقريتهم في اتجاه واحد، وليس على جميع المستويات هذا ما أثبتته عشرات الكتب التي بحثت جوانب حياة هؤلاء الرّجال الأفيذاذ. ولم يزعم واحدٌ منهم أنّه تلقّى مواهبه أو علومه من طرفٍ خفي وطريقٍ غيبي. وكانت تتجمّع عوامل مختلفة، وأسباب عديدة، تدفع إلى ظهور هذه الشخصيات. فمن هذه العوامل،

أن يسبق ظهور هذا القائد أو ذاك مثلاً، دخوله الكلية العسكرية، وترقيته في مختلف مراتبها. فهذه خلفيات القواد العسكريين. كما جرى أن سبق ظهور عالم من العلماء الذين اشتهروا ولمعت أسمائهم، دخولهم كلية علمية مُحَدَّدة، وترقيتهم في تلقّي علمهم من خلالها. وذلك بعد أن يمرّوا بمراحل دراسية متوالية. فهذه خلفيات العلماء النوابع أمثال نيوتن وآنشتاين وسواهما من العلماء البارزين. كما جرى أن يسبق ظهور فيلسوفٍ شهير لمع اسمه في تاريخ البشرية، متابعتة للعلوم الفلسفية، وترقيته إثر ذلك، واشتهار مايطرحه من أفكارٍ مُضافةٍ جديدة. فهذه خلفيات الفلاسفة في التاريخ.

والذي يلاحظه المرء من خلال متابعتة لسجلّ حياة هذه الشخصيات اللامعة جميعاً، أنه كانت لاتمرّ فترة من الزّمان إلّا وتهتّزّ صورتهم من جوانب عديدة في أعين الباحثين. بل تهتّزّ كثيرٌ من آرائهم وعلومهم على مرّ الزّمان. فهذه هي ملامح الذات البشرية المجردة عن أيّ دعمٍ روحيٍّ، ولا يختلف في هذا الأمر إلّا من جانب الأسلوب العلميّ في بحوثه ودراساته.

فمن هذا المنطلق العلميّ المبصّر، تعالوا تناول هذه الذات البشرية التي طلعت علينا بهذا القرآن العظيم الذي وصلنا عنه سالماً، بلا أدنى تحريف. تناول ذات محمد بن عبد الله بالبحث والدراسة وننظر : هل يتأتّى أن تكون هذه الذات البشرية هي التي اختلفت هذا القرآن وأبدعته، أم أنّ محمداً ﷺ قد تلقى وحي القرآن حقاً من جهة خالق هذا الكون ومُبدعه، لتتمكّن بذلك من الإجابة على هؤلاء الذين اعتادوا أن يوجّهوا، على فتراتٍ، مثل هذا السؤال؟

ولست أول من يتصدّى لهذا السؤال ولأوّل من أجاب. فالمكتبات عامرة بعشرات الكتب في هذا المجال. وإنّ جميع مَنْ كتبوا من الأصدقاء ومن الأعداء، أجمعوا على أنّ محمداً رسول الله ﷺ كان على رأس عباقرة تاريخ الإنسانية وأفذاذهم، وإن اختلفوا فيما طلع على الناس به من كتاب.

وأنقل بعضاً ممّا كتبه الأب حداد الذي كتب كتابه الضخم المؤلّف من عدّة أجزاء، محاولاً تحريف الآيات القرآنية عن مواضعها، وتضليل القراء بأحط أسلوب. ويدرس مؤلفه هذا في معهد تخريج الخوارنة في بيروت عاصمة القطر الشقيّق لبنان. وقد اضطرّ الأب حداد مُكرهاً، وذلك عندما تناول شخصية النبي

العربي محمد رسول الله ﷺ، بالكلام على مزاياه. يُلاحظه القارئ يكتب وفؤاده يقطر دماً من جراء تعصبه وعداوته. قال وهو يناقض نفسه ص ١٠٦٤ : (كانت شخصية محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي، النبي العربي، مجموعة عبقریات، مكنته من تأسيس أمة ودين ودولة من لاشيء. وهذا لم يجتمع لأحد من عظماء البشرية : كان محمد عبقرية دينية.. وكان محمد عبقرية سياسية.. وكان محمد عبقرية دبلوماسية.. وكان محمد عبقرية عسكرية.. وكان محمد عبقرية إدارية.. وكان محمد عبقرية تشريعية.. أخيراً كان محمد عبقرية أدبية.. فقد كان النبي العربي رجل دين ورجل دولة ورجل أدب، قلّما عرف العالم له مثيلاً). وهل تخرج مثل هذه الأوصاف من قلم عدوٍ إلاّ كرهاً، وإقراراً لواقع لا ينكره إلاّ أعمى أو مجنون؟

وأعود إلى مانحن بصدده، من دراسة هذه الذات البشرية التي أنجبتها أرضٌ غير ذات زرع، لم تشع فيها من المعارف، اللهم إلاّ حديث القوم عن الشعر والتفاخر.

وهكذا توصلنا إلى أنّ جميع عباقرة البشر، استندت عبقرياتهم إلى خلفيات ومعطيات علمية وفلسفية وعسكرية وسواها. ودون هذه الخلفيات والمعطيات العلمية والفلسفية والعسكرية يستحيل أن ينمو وعي أيّ إنسان كان. هذه حقيقة تشاهدونها يومياً. وهذه الحقيقة الناصعة هي سرّ تبأين مستويات بعضها عن بعض. بل إنّ هذه الحقيقة الناصعة تشكّل ظاهرة قانون طبيعي أيضاً، لا مجال للاختلاف فيه. إذ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، بل هل تستوي الظلمات والنور، أو هل يستوي الصيف والشتاء، أو يستوي الأخضر واليابس؟

وعلى ضوء هذه الحقيقة الناصعة، يتناول الباحث بأسلوبٍ علمي، شخصية محمد بن عبد الله ﷺ. فإذا كان هذا الباحث مُنصفاً. يبحث أول ما يبحث في خلفيّة شخصية هذا الرسول ومعطياتها العسكرية والعلمية والفلسفية، فإذا أتم هذا الأمر، تساءل أول الأمر : هل كان محمد ﷺ يقرأ ويكتب؟ فإذا كان يقرأ ويكتب، فأين تعلّم ودرج في سلّم العلوم؟

ولست أدعي أنني أول من يحاول تتبع شخصية محمد رسول الله ﷺ بهذا الأسلوب العلمي، وبهذا التدرج في البحث. فهذا هو الأب حدّاد وسواه من أعداء الإسلام، قد تتبّعوا الأمر من نفس الزاوية، وبنفس الأسلوب العلمي، فذهلوا بما تبين لهم من حقيقة ناصعة، هي أنّ محمّداً ﷺ كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب ولم ينتسب إلى أيّ معهد علمي. فقد أذهلهم مع ذلك أن يكون محمد بن عبد الله ﷺ عبقرية دينياً.. وعبقرية سياسياً.. وعبقرية دبلوماسياً.. وعبقرية عسكرياً.. وعبقرية إدارياً.. وعبقرية تشريعياً.. وعبقرية أدبياً.. فيشذّب بذلك عن جميع عباقرّة التاريخ، ولا يكون لوعيه العظيم هذا خلفيّة علميّة ومعطيات اجتماعيّة وسواها من المعطيات.

أي أنّ الأب حدّاد وسواه من أعداء الإسلام، قد أذهلهم مخالفة شخصيّة محمد بن عبد الله، للحقيقة الطبيعيّة المألوفة لنمو الوعي الإنساني وهذا القانون الطبيعيّ. فماذا يفعلون تجاه هذا الواقع الذي لا ينكر تاريخياً، ولا قرآنيّاً؟

إنهم إن سلّموا بحقيقة كون محمد رسول الله ﷺ أمياً، وجب عليهم الإقرار بأنّ معجزة القرآن هي معجزة سماويّة، ليست هي من صنع أو عطاء أو إفتراء محمّد نفسه. أمّا إذا أرادوا أن يضلّلوا الناس، ويوهوهم أنهم درسوا شخصيّة محمّد ﷺ دراسة علميّة موضوعيّة، وثبتت لهم عبقرية على جميع الصّعد، فلن يجدوا إلى ذلك سبيلاً. إلّا قلب الحقائق التاريخيّة والقرآنيّة، لتضليل الناس، وإقرار مافي قلوبهم من زيغ..

٢. أعداء الإسلام اعتبروا محمّداً ﷺ عبقرية:

أعود أقول: إنّ الأب حدّاد وسواه من أعداء محمّد قد أذهلهم مخالفة شخصيّة محمّد للحقيقة الطبيعيّة المألوفة والمتعلّقة بنمو الوعي الإنساني وهم ثمن تناولوا دراسة شخصيّة محمد ﷺ بالأسلوب العلمي. وقد لاحظ القاريء من خلال ما اقتبسته من كتاب الأب حدّاد، اعترافه بعبقرية محمّد ﷺ على جميع

الصَّعد. وهذه ظاهرة إعجاز لا تتأتى بطريق طبيعيّ. فهل يعترف الأب حدّاد بهذه المعجزة الإنسانيّة المنسوب إتيانها إلى الله الخالق، ويُلزم بالتّالي الإيمان بنبوّة محمّد بن عبد الله ورسالته. أم يقوم بحركة التفافٍ حول هذه الحقيقة إنقاذاً لسمعته كباحث بالأسلوب العلميّ، فيرضي من حوله من أتباعه وإن تسبّب ذلك في إغضاب الله في عليائه؟ أي أنّه وقع في مأزق من يرفض قطعة النقود التي أضحت بين يديه أملاً في مبلغ كبير بعيد التناول منه.

وأقول والأسف يعتصر فؤادي هو أنّ الأب حدّاد حاول الالتفاف على هذه الحقيقة الطبيعيّة المألوفة، تضليلاً للناس، وتشويهاً للحقائق التاريخيّة، وساءت عاقبته، وإليك البرهان على ماقلته وأدعيتّه :

ذلك أنّ الأب حدّاد هذا، قبل اعترافه بعقريّات محمد بن عبد الله على الصفحة (١٠٦٤). أي قبل ذلك بصفحات، قام، وهو الرّجل المسيحيّ الدّين، الذي يُفترض فيه خشية الله خالقه، والصّدق فيما يكتب ويقول. قام بمحاولة الالتفاف على موضوع حقيقة كون محمد عبد الله ﷺ أمياً. محاولاً طرح هذه العُرة، والصخرة الرّاسية جانباً، والقيام بحركة التفافٍ من حولها ليُكمل طريقه في التّضليل. وكتب على الصفحة (١٠٥٨) وبالحرف الواحد، وتحت شعار (فهل كان محمّد أمياً؟)، مع ملاحظة أنّ كلمات هذا الشّعار الذي طرحه، يثبت منه تلقائياً أنّ كون محمّد أمياً لا يقرأ ولا يكتب، سيكون عقبةً كأداء في طريق بحث الأب حدّاد نفسه.

قال : (وقد آن لنا أن نتخلّص نهائياً من الأسطورة الرّائجة والخرافة الشّائعة عن أميّة محمّد). فهو اعتبر هذه الحقيقة التاريخيّة والقرآنيّة أسطورة رائجة، وخرافة شائعة. وأضاف يقول : (درج القوم على اسناد تلك الأميّة المزعومة إلى أساس من القرآن مغلوط. حيث يُسمّى محمّداً - النبيّ الأميّ - أعراف ١٥٦).

وأنيّ قوم أراد الحدّاد، إلا جميع المسلمين؟ فلم يصّرح بذلك، كسي يتجاوز من الناحية النفسيّة، جرح مشاعر المسلمين بصورة مباشرة، وأضاف يقول : (وقد فاتهم - أي فات المسلمين أجمعين ومؤرخيهم وعلماءهم - أنّ القرآن يأخذ هذه الصّفة هنا، لاعمناها اللغويّة، بل بمعناها الإصطلاحيّ الذي

أشاعه اليهود في مهاجرهم والحجاز. فكلّ ماعداهم من الناس "أميون" أي من "الأمم" الذين لا كتاب منزل لهم، فالعرب كتابيون وأميون :

﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أسلمتُم﴾. آل عمران ٢٠.

لذلك فمحمّد نبيّ "أمي" أي العربي. ويشهد القرآن على سعة ثقافة محمّد وأطّاعه على سائر معارف بيته. وأسطورة الأميّة روجها كتاب (إعجاز القرآن) ليسندوا إليه معجزة الإعجاز. كأنّ الثقافة والنّبوة لا يجتمعان. وأكثر أنبياء بني إسرائيل كانوا على ثقافة عالية، وسيدهم موسى الكليم قد تتقّف قبل بعثته في قصر فرعون بكلّ ثقافة المصريين. وكذلك محمّد فقد تتقّف بكلّ ثقافة الأرسطراطية القرشيّة، مثل ابن عمّه علي بن أبي طالب تربّيه في نشأته. والسيرة النبويّة تشهد بأنّ محمداً قبل بعثته كان تاجراً دوليّاً مابين اليمن والشّام، وتاجراً ناجحاً، ممّا حمل السيّدة الثريّة خديجة على الزواج منه. وقيادة تجارة كبيرة دوليّة ناجحة زمناً طويلاً تقتضي من صاحبها ثقافة وافرة. والسيرة تشهد أيضاً بأنّ محمداً قبل بعثته كان حنيفاً كبيراً يستطلع أخبار الدّين والتّوحيد، ويطلبها عند أهلها في حلّه وترحاله، ويتحنّف مثل الحنفاء والرّهبان، يتأمّل في الوجود درب الوجود. وليست هذه حال الأميين، بل حال أهل الثقافة والصّوفيّة. فقد كان النبيّ بحأثة دينيّاً، واسع الإطلاع شامل الإطلاع).

لا بدّ أن يعلم كلّ ضليع في لغة الضّاد، أنّه لا يجوز الانتقال باللفظ من معناه الحقيقي إلى معناه المجازي أو الاصطلاحي إلّا بتوفّر قرينة تبرّر ذلك. ولم يأت الأب حداد بأية قرينه هنا تنقل لفظ "الأمي" من معنى لا يقرأ ولا يكتب، إلى المعنى الاصطلاحي المزعوم. أضف إلى ذلك أنّ كلّ مؤرّخ يعلم بأنّ العرب كانوا "أميين". بمعنى لا يقرؤون ولا يكتبون، ولذلك اعتمدوا ذاكرة أبنائهم لحفظ تراثهم الشعري. ومحمّد ﷺ هو من هؤلاء الأميين الذي لم يكن يقرأ ولا يكتب، وإلى هذا أشار قوله تعالى : ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾.

على هذه الصّورة تكون قد أدركنا حركة الالتفاف التي قام بها الأب حداد، حول حقيقة كون محمد بن عبد الله أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولا انتسب إلى أيّ معهد علمي، زاعماً : (أنّ القرآن يأخذ هذه الصّفة هنا، لاعمناها

اللغوي، بل معناها الاصطلاحيّ الذي أشاعه اليهود في مهاجرهم والحجاز..
فمحمّد نبيّ "أمّي"، أي من الأميين العرب..).

هذه النقطة التي أثارها هذا الأب المسيحيّ الرّوحي، تولّف عمليّة التفافٍ ومجرّد ادّعاء، ولا ينجح الالتفاف علميّاً إلا بعد تقديم الدليل القاطع والبرهان الساطع على صحّة الادّعاء. وإلاّ باءت عمليّة الالتفاف هذه بالفشل التّريع.

والدليل المطلوب تقديمه هنا، هو تبيان :
أولاً - أنّ كلمة أمّي تعني لغةً عدم القراءة والكتابة.
ثانياً - وأنّ لكلمة أمّي اصطلاحاً لغويّاً، أتى على بيانه أصحاب معاجم اللغة.

ثالثاً - وتقديم قرينة لغوية تنقل لفظ الأمّي في الآية القرآنية من معناه اللغوي، إلى معناه الإصطلاحي، خصوصاً وأنّ الله الذي أنزل القرآن قال : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يوسف ٢ - وقد سبق أن شرحت معنى العربيّ أيضاً.

نسأل : هل تنقل هذا الأب الرّوحيّ المسيحيّ خلال هذه الخطوات الثلاثة في بحثه العلمي، أم أنّه تجاوزها، مُفسحاً لنا مجال اتّهامه بالتّضليل، ومحاولة الالتفاف على كلمة "أمّي"، بأسلوبٍ فاشلٍ ودنيء؟

وأقول، والإمتعاض يعتصر فؤادي من هذا الأب حدّاد الذي يواجه الآن في عالم البزخ ماقدّمت يدها. أقول : إنه لم يلتزم بهذه الأمور الثلاث المذكورة، بل تجاوزها. وأثبت بتجاوزه فشله الذريع فيما زعمه وادّعاءه. وهكذا باءت عمليّة التفافه المذكورة بالفشل الذريع المُشين يقيناً. وثبت من خلال ذلك أنّه كان لا يحسب لآخرفته أيّ حساب. وأنّه كان جُلّ همّه أن يُخاطب بالأب حدّاد. وهاقد مضى على طبع مؤلّف الأب حدّاد أكثر من نصف قرن من الزّمان، فلم يابه له أيّ مفكّر عربيّ مُحايد. حتّى طلع علينا صاحب القراءة المعاصرة، ينهج نهجه، بل يُزأيد عليه أيضاً. وقد كشفت عن حقيقة ماذهب إليه في الجزء الثاني الذي رددت به عليه.

أقول نهج صاحب القراءة المعاصرة نهج الأب المسيحيّ في دعواه، دون تقديم دليل قاطع وبرهان ساطع. ولاندرى هل أراد هذا أن يرتدي لباس الإسلام

وحسب، فيكتب ماكتب لغرضٍ في نفسه، فانتحل صفةً ليست له، وخاص غمار مُعزّكٍ لا قبل له فيه؟

ألا وإنّ الأب حدّاد، قد أقرّ من حيث لا يريد، بأنّ كلمة أمّي تعني في اللغة العربية عدم القراءة والكتاب، حين قال : (.. هذه الصّفة هنا، لا بمعناها اللّغوي، بل بمعناها الإصطلاحي..) فكأنه قال بالفاظٍ أخرى : إنّ الأمّي لغةً هو الشخص الذي على فطرة أمّه لا يقرأ ولا يحسب على حسب ما ذكر اللّغويون. ولا تدرى كيف نقل المعنى اللّغوي إلى المعنى الإصطلاحي بلا مررٍ يترره؟ والمهمّ من جميع ما ذكرناه، هو أنّ الذي أوصل إلينا هذا الكتاب المنزل وهو القرآن الكريم، كان رجلاً أميّاً لا يقرأ ولا يحسب، ومن أمّة أميّة أيضاً، اعتمدت ذاكرة أبنائها لحفظ أنسابها وأشعار أبنائها ورواياتهم، بسبب عدم انتشار القراءة والكتابة بين أبنائها. هذا الأمر الذي أضحى بديهيّةً من المسلّمات لدى المسلمين، بل دليل ما أورده المؤرخون، وما عرفه من عايش سكّان شبه جزيرة العرب من الشعوب المجاورة لهم.

ومادام أصدقاء محمد بن عبد الله وأعداؤه، قد شهدوا بتعدّد عبقرياته، خلافاً لجميع من برز في تاريخ البشر من العباقرة. وأنّ عبقریات محمد هذه لم تستند إلى خلفياتٍ دراسية ومُعطيات علمية، فقد دانتهم شهادتهم هذه الفريدة، فالزمتهم الإقرار بما صرّح به محمد نفسه من أنّ هذا القرآن قد كان يُوحى به إليه من قبل خالقه، وليس هو من افترائه وإبداعه. إذ لا يقبل العلم ولا العقل ولا المنطق أن يبدو محمدٌ ﷺ عبقرياً في جميع نواحي حياته وعطاءاته، ولا تكون له خلفيّة دراسيّة ومُعطيات علميّة قد أكسبته هذا العلم بل هذا الإدراك الواسع الذي لا مثيل له في تاريخ البشر قاطبةً، فمن عمي أو تعامى عن هذه الحقيقة، لا يُسمع له قول، فقد ضلّ في نظر العلماء والباحثين، عن هذه الحقيقة العلمية ذات الشّعْب والأصول.

وبناءً على ما ذكرناه نقول : لم يكن محمد بن عبد الله عبقرياً دينياً، ولا كان عبقرياً سياسياً، أو كان عبقرياً دبلوماسياً، وهو لم يكن عبقرياً عسكرياً أو عبقرياً إدارياً أو عبقرياً تشريعياً، أو كان عبقرياً أدبياً، بل كان يتيماً، أميّاً، رسول ربّ العالمين. فإذا تجلّت مظاهر هذه العبقریات على يديه، فبفضل من ربّه

عليه، الذي اصطفاه لرسالته، وبتعليم من ربه الذي أنزل عليه آي الذكر الحكيم على قلبه. ولا يتقص من ذلك كون محمد بن عبد الله شعله من الذكاء، ناضج الرأي، بعيد الغور، كريم الخلق والشمائل، وأنه القدوة في المروءة.

ونحن لو سلّمنا مع الأب حداد، بسعة اطلاع محمد على معارف بيئته، وأنه تنقّف بثقافة بيئته الأرستقراطية القرشيّة، وأنه تاجر ما بين اليمن والشّام، وكان تاجراً ناجحاً خبيراً، وأنه كان قبل بعثته حنيفاً متقدّماً، يستطلع أخبار الدّين والتّوحيد ويطلبها عند أهلها، في جلّه وترحاله، ويتحنّف كما يتحنّف الحنفاء والرّهبان، ويتأمّل الوجود وربّ الوجود. فجميع هذه الأمور التي ذكرها الأب حداد، يستحيل أن ترقي بيتيم أمّي إلى مُستوى يكون فيه عبقرياً دينياً وسياسياً ودبلوماسياً وعسكرياً وإدارياً وتشريعياً وأديباً، أهلاً لأن يأتي بمثل هذا الكتاب المسمّى لقرآن الكريم.

ولأسوق كلامي هذا دعوى بلا دليل، فلديّ أكثر من دليل قاطع، سأتّي به من القرآن نفسه، فلقد احتوى هذا القرآن العظيم على أمورٍ يستحيل أن يأتي بها محمد بن عبد الله ﷺ ولو اتّصف بجميع ما وصفه به الأب حداد وسواه من صفات، ونسب إليه من مؤهّلات.

وقبل تقديم هذه الأدلة، لابدّ لنا من الرجوع إلى معاجم اللغويين.

٣ - ما معنى "عبقري"؟

فما معنى عبقري؟ قال في الكليات كلّ جليل فاخر من الرّجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقريّ. وقال صاحب محيط المحيط : عبقر موضع زعموا أنّه كثير الجنّ، ونسبوا إليه كلّ شيء تعجّبوا من حدّقه أو جودة صنّعه وقوّته، فقالوا عبقري، والأنثى عبقريّة.

وعليه فالعبقريّ في اللّغة، هو من بلغ حدّقه وجودة صنّعه وقوّته حدّ السّيادة والكمال. هذا وإنّ الأب حداد ومن كان على شاكلته، وقد تملّكتهم الدهشة ممّا تحقّق على أيدي محمد بن عبد الله ﷺ بعد الأربعين من عمره، ممّا لم يتحقّق على أيدي أيّ إنسانٍ أو نبيّ قبله، وضعهم هذا الواقع أمام خيارين

لثالث لهما : إما الاعتراف بنبوة هذا اليتيم الأتمي، وإما الذهاب بعيداً عنها بالالتفاف حولها، بدافع من تعصبهم المقيت وزيف قلوبهم عن الحق.

وقد اختار هؤلاء الخيار الثاني، وصرح الأب حداد بما خطت يده، ومسبق أن نقلته للقراء : أن محمداً كان عبقرياً على جميع الصعد، وأن هذا (النبي العربي رجل دين ورجل دولة ورجل أدب، قلما عرب العالم له مثيلاً). وهو لم يقصد بأوصافه هذه التي وصف بها محمداً، أنه يؤمن بنبوته. بل قصد شيئاً آخر وهو أن محمداً كان يقرأ ويكتب ويصوغ تعاليم التوراة والإنجيل بلسان عربي مبين، وهو نبي للعرب وحسب.

ويؤيد قوله على الصفحة (١٠٦٩) من مؤلفه : (يشهد القرآن العربي عن نفسه أنه نسخة عربية عن التوحيد الكتابي. فالقرآن يقول ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ شعراء ١٩٦ - أي كتبهم كالتوراة والإنجيل). وقد قصد من قوله هذا أن محمداً ﷺ عرض عقيدة التوحيد التوراتية بلسان عربي، فلم يأت بشيء جديد. بينما لا تفيد الآية ماذهب إليه (الحداد) من قريب أو بعيد. بل الذي تفيدته هو الأنباء عن أن زبر الأولين كانت قد أنبأت عن نزول هذا القرآن وحسب. بدليل قوله جل شأنه بعد هذه الآية مباشرة : ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾. فالعلم في تعريفات الجرجاني : صفة راسخة ندرك بها الكليات والجزئيات خلافاً للمعرفة. فأنت تقول : عرفت الله، ولا تقول علمت الله. فالعلم ضد الجهل. وربما أطلق العلم مجازاً على مجموع مسائل وأصول كلية متعلقة بموضوع ما، مرتبة على نظام مخصوص : كعلم الكلام والنحو وغيرها. فالآية الكريمة : ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾، تفيد أن علم علماء بني إسرائيل راسخ بنبوءات، كتبهم المتعلقة بنزول القرآن الكريم، وهو دليل على صدق القرآن من أنه موحى به من الله الذي سبق أن أنزل التوراة والإنجيل.

فأين مازعمه (الحداد)، وأين دلالة الآية الكريمة التي استدلت بها خطأ؟ لذلك تعتبر خطوة الحداد هذه، محاولة التفاف مكشوفة حول نبوة خاتم النبيين ﷺ، ذلك أن الإنسان العبقرى، مهما بلغ من الحذق والقوة وجودة الصنعة، سيادة وكمالاً، فإنه يستحيل عليه أن يأتي بمثل ما احتواه القرآن الكريم من أمور. فإلى أدلة مصداقية القرآن الكريم :

٤ . أدلة مصداقية القرآن الكريم

١ . دليل المصداقية الأول :

سبق لي أن بينت أن القرآن الكريم امتاز بلسانه العربيّ المبين، لكنّ هذه المزيّة اقترنت بتحدٍ عظيم يستحيل أن يتحدّاه أيّ عبقرٍ مهما بلغ من السيادة والكمال. اقترن بتحدّي محمد بن عبد الله ﷺ الأنس والجنّ أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. فهل يستسيغ عقلنا أن يتفرد محمد ﷺ بعبقرية لغوية يتحدّى بها البشر إلى يوم الدين؟ ولا يكون هذا التحديّ في اللغة وحدها، بل يشمل المضمون أيضاً وفي آن واحد.

أجل، لربّما يستسيغ عقلنا أن سيتحدّى محمد ﷺ أهل عصره. أمّا أن يتحدّى اللاحقين بهم إلى يوم الدين أيضاً، فإنّ مثل خطوته هذه، لا يمكن أن تتأتّى إلّا بمنّ اطلع على غيب المستقبل. ولا يتحدّى بمثل هذا التحديّ من قال : ﴿إنّما أنا بشرٌ مثلكم...﴾. وهذا التحديّ قد ضمّ اللغة والمضمون معاً، وهو مانصّت عليه الآية (٨٨) من سورة الإسراء : ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كلّ مَثَلٍ فأبى أكثر الناس إلّا كفّوراً.﴾. فقد شمل التحديّ أن يأتوا ﴿... بمثل هذا القرآن...﴾ فصاحة وبلاغة ومعاني. خلّو النصّ وسياقه وسياقه من أيّ قيدٍ يقصره على اللغة وحدها.

والمعلوم هو أنّ القرآن الكريم بحث المعتقدات وأسماء الله الحُسنى وتجلياتها والعبادات والأخلاق والمعاملات وفلسفاتها جميعاً. كما تطرّق إلى بحث القوانين المدنية والاقتصادية والسياسية وماوراء الطبيعة والحياة الآخرة وماشابه ذلك من معارف وعلوم. وقد شرحها القرآن جميعها شرحاً مستفيضاً، وجاء منها بما يصلح لكلّ زمان ومكان. مع بيان الفوائد المرجوة منها. فمن أراد التّصدي للتحديّ القرآني، وجب عليه الجميع بين فصاحة اللّغة وبلاغتها، وتقصّي العلم وكمال المعرفة.

فكيف استساغ عقل الحداد ومن على شاكلته، والحال هذه، أن ينتحلوا لمحمد اليتيم الأمّي صفة العبقرية، وهم يعلمون أنّ العبقرية هو من كان حاذقاً في

صنعتة، مجيداً لها إلى حدّ الكمال. وقد عاش محمد بن عبد الله ﷺ لا يعرف القراءة والكتابة، ولم تكن تعاليم التوراة والإنجيل صالحة لكل زمان ومكان، حتى يصوغها صياغةً عربيّةً ويعرضها بمثل هذا الخدق؟ إلا أن يكون الأب حدّاد ومن على شاكلته قد حاول بهذا الوصف الذي وصف به محمداً ﷺ، أن يقوم بمحاولة التفافٍ حول معجزة القرآن نفسها، قاصداً إجهاضها أيضاً؟

ومن المؤسف أن تعمى أبصار هؤلاء الأعداء عن كلمة (قل) التي استُهلّت بها آية التحدي التي أوردناها. فكلمة (قل) استعملت هنا بمعنى تلفظ. أي أن (قل) نُبّهت أذهاننا إلى أن مايتلفظه محمد رسول الله ﷺ، ليس من إبداعه وصياغته، على حسب ماوضح ذلك صاحب معجم محيط المحيط. أي أن التحدي الذي تضمّنته آية سورة الإسراء، لم ينسب إلى محمّد نفسه، بل نسب إلى سواه. وهل ينسب عبقرى ماأبجته عبقرية إلى سواه؟ وماجدواه من مثل هذه الخطوة، إلا أن يحصد نقمة الله ونقمة العباد؟ وهل تتفق مثل هذه الخطوة، وخذق الإنسان لصنعتة؟

وعليه، فما دامت مزية القرآن الكريم أنه مصوغٌ بلسان عربي مبين. ومادامت هذه المزية قد قرنت بهذا التحدي : اللغة إلى المضمون، فذلك في حدّ ذاته دليلٌ قاطعٌ على أن القرآن الكريم لم يكن من افتراء محمد ﷺ نفسه، بل كان تنزيلاً من ربّ العالمين، الذي بعث محمداً رسول الله داعياً بإذنه وسراجاً منيراً. وليس القرآن الكريم دليل عبقرية هذا الرسول العظيم.

٢. دليل المصادقية الثاني :

وسبق أن بينت أن القرآن الكريم امتاز بكونه وصل إلينا سالماً من كلّ تحريفٍ وتبديل. فلو فرضنا والعياذ بالله أنه من اختلاق محمد ﷺ نفسه، وهو العبقرى لوقعنا في تناقض رهيب. فأنى لعبقرى اختلق كتاباً مثل القرآن الكريم وتحدى به الإنس والجان، أتى له أن يقول بلسان ربّه : ﴿ إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ثم يترك هذا الكتاب مُوزّعاً على رقاعٍ من صحف النخيل ورقيق الحجارة؟ فكيف يكون عبقرى، ويترك هذه الثلثة في أمر جمع الرقاع في كتابٍ

منسوخ عنها؟ هذا الأمر الذي أنجزه عثمان بن عفان؟ خصوصاً وأنه وأثق أصحابه على ألا يقدموا على أمر لم يفعله رسولهم الكريم؟
أو لم يخطر على بال هذا "العبري" إمكان أن يضيع القرآن من بعده، إذا هو أهمل القيام بجمعه وقرآنه؟

أقول : مادام هذا الرسول العظيم قد ترك رقاع القرآن الكريم دون استنساخ لها رضوخاً لقول ربه ﴿وما على الرسول إلاّ البلاغ﴾ وقول ربه أيضاً : ﴿إنّ علينا جمعه وقرآنه﴾. إنّ خطوة محمد ﷺ هذه فيها كلّ الدلالة القاطعة على أنّه ﷺ لم يخلق القرآن ولم يتدعه من عند نفسه، بل كان يتلقاه عن طريق وحي ربه عز وجل، وأنه ﷺ كان من اليقين بوحي ربه بحيث قعد عن استنساخ القرآن الكريم على شكل كتاب، يستنسخ عنه جميع المسلمين. ويُعدّ موقفه ﷺ هذا في حدّ ذاته دليلاً قاطعاً على أنّ القرآن لم يتدعه عبقرية محمد بن عبد الله إطلاقاً.

٣ - دليل المصادقية الثالث :

ثم تعالوا إلى هذا القرآن الكريم الذي طلع به علينا محمد اليتيم الأمي، فإذا كانت جميع بحوثه ومضامينه لا تتجاوز علوم ومعارف عصره ﷺ، فلا بدّ لعلوم عصرنا، وقد تقدّمت تقدّماً ملحوظاً، أن تناقض وأن تخالف معطياتها، مُعطيات القرآن، فيبدو هذا القرآن باهتاً، لاحياة فيه. ويميل إنسان عصرنا حينئذٍ إلى اعتقاد أنّ القرآن قد يكون من نسج محمد ﷺ نفسه.

ونحن لو عُدنا إلى سنوات عصر النبوة المحمدية، أي إلى ما قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وسألنا ورقة بن نوفل الذي ترجم بعض صحف الكتاب المقدّس المؤلّف من التوراة والإنجيل. كما سألنا بُحيرا الرّاهب الذي يزعمون أنّ محمداً استقى منه كثيراً من علوم القرآن الكريم. أقول: لو أننا عُدنا فسألناهما سؤالاً مُحدّداً، وهو بيان ما ذكرته التوراة حول خلق هذا العالم؟

فسيتناول أحدهما أو كلاهما أوّل سفر من التوراة، وهو سفر التكوين، ليُجدا فيه، ومن أوّله الجواب، فيتلوانه بكل وقار وجلال لتقديسهما إيّاه، ليُجدا فيه : (في البدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية،

وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرفّ على وجه الماء. وقال الله ليكن نور فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن. وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساءً وكان صباح يوماً واحداً).

وهنا يتذكر كل واحد من الناس أنّ ألفاظ هذا النصّ التوراتي قد أتت في الكتاب المقدّس المطبوع في عصرنا. هذا النصّ الذي يُغايّر ما كشف عنه العلم، بل وسخر منه العلماء المعاصرون، بما حقّقوه من اكتشافاتٍ معاصرة. فلا يُفيدنا هذا النصّ التوراتي في شيء عن كيفية خلق الله لهذا العالم الذي نعيش في ظلاله، إذ ورد هذا النصّ مُجَمَّلاً ومُغايِراً للعلم أيضاً.

ويستوقفنا قوله: ﴿وروح الله يرفّ على وجه الماء...﴾، فقد فصل هذا النصّ بين ذات الله وروحه بلا مبرّر. كما يُذكرنا هذا النصّ بما أورده بعض المفسّرين عند تفسيرهم لقوله تعالى: (كُنْ فَيَكُونُ). فما فسّروه بسداحة، كانت أوحى لهم به التوراة إذن. فهذا النصّ يقول: (وقال الله ليكن نور فكان نور). فمن جهةٍ كانت (روح الله ترفّ على وجه الماء). ومن جهةٍ أخرى أبرز النصّ التوراتي الله بذاته وروحه فجأة، ودون مقدّمات ليقول: (ليكن نور فكان نور).

فالإله التوراتي تلفّظ من جهته بأمر، فتحقّق هذا الأمر مرّةً واحدة ودون توسّط قوانين ناظمة، وفي غفلةٍ من ملائكة الله، ودون خلق شمس يصدر عنها هذا النور: (وفصل الله بين النور والظلمة) أي أنّ النور الذي وُجد بأمره، اختلط بالظلمة التي كانت (على وجه الغمر)، فعمد الإله التوراتي إلى الفصل بين النور والظلمة هاتين. أمّا كيف قام بعملية الفصل هذه بين النور والظلمة، فلا شأن - كما يبدو - للتوراة ببيان ذلك من قريب أو بعيد. (ودعا الله النور نهاراً، والظلمة دعاها ليلاً).

فنور النهار اليوم إذاً ليس هو من عطاء ضوء الشمس التي نشاهدها في كبد السّماء. هذا النور الذي يطلع مع طلوعها ويغرب مع غروبها، بل إن هذا النور على حدّ زعم سفر التكوين، هو كما أورده لنا حرفياً، هو النور الذي صدر عن أمر الإله التوراتي وهذا يُناقض ما أثبتته العلم.

ونستريد الرَّاهِبَ بِحِيرا وورقة بن نوفل علماً عن خلق العالم. فلا يحيران جواباً، بل يميلان لتكفيرنا أيضاً، إن نحن ناقشناهما فيما أسمعا لإياه من سفر التكوين.

فإذا كان محمد بن عبد الله اليتيم الأمي قد صاحب الرهبان قبل بعثته، فأنتى هؤلاء الرهبان أن يزيدوه علماً عما ذكرناه؟ وحتى إذا سألنا رأس الكنيسة (البابا) اليوم في روما، فأنتى لهذا البابا أن يزيد على هذا النص التوراتي شيئاً من عنده؟

فإذا قام محمد ﷺ اليتيم الأمي يصوغ القرآن من عند نفسه، في ذاك التاريخ، على أساس ماسمعه من بحيرا ونوفل وغيرهما، فلن يزيد الناس علماً، فوق ما أتت به التوراة، بما ذكرناه.

وَهَبْ أَنَّا كُنَّا فِي أَرْقَةَ مَكَّةَ، نَسْمَعُ مَنْ يَتْلُو بَعْضاً مِنْ آيَاتِ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي مَكَّةَ (٣٠ - ٣١) : ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا، فَفَتَقْنَاهُمَا، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ، وَجَعَلْنَا فِيهَا فُجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ. وَجَعَلْنَا سَقَافًا مُحْفُوظًا، وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ.﴾. ورحنا نتدبر ألفاظ هذه الآيات الكريمة، فبدا لنا أنَّ الفتق ضدَّ الرِّق، أيَّ أنَّ السماوات والأرض لم تُخلق على ماهي عليه الآن، بل كانت كتلةً واحدةً ماديةً. ولم تذكر الآيات جميعها وزنها أو شكل كتلتها. فتكون هذه الآيات قد زادتنا معلومة جديدة هامة لم يأت بها النص التوراتي المذكور فتتساءل بالبدهة : من أين استقى محمد اليتيم الأمي هذه المعلومة العلمية الهامة التي تتفق مع نظرية الانفجار العظيم؟

ونلاحظ أيضاً قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وهذه معلومة أخرى لا نجد لها أصلاً في التوراة. ثم إنَّ الدَّوَابَّ الَّتِي تَدْبُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَتَحْتَ الْمَاءِ، لا يبدو لنا من ظاهرها المادي أنها من أصلٍ مائي، بل من أصلٍ متأكله من النباتات واللحوم.

فما هي حقيقة هذه المعلومة الثانية التي نصَّت عليها هذه الآيات ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ.﴾. وهذه المعلومة الثانية - كما

يبدو من ألفاظ الآية - قد كشف عنها قائلها، لجذب الناس للإيمان، فهذا مادل عليه قوله (أفلا يؤمنون؟).

ونلاحظ من خلال تدبرنا لهذه الآيات معلومة ثالثة يفيدها قوله : ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تعمد بهم..﴾.

أي أنّ الأرض كان مُنسطة قبل ظهور الجبال الرّواسي فوقها، والتي كان المقصود من إحداثها، منع الأرض أن تعمد بالناس، أي التخفيف من تعرّضها للزلازل نتيجة ثوران الكتلة اللاهبة الكبيرة في بطن الأرض.

والمعلومة الرابعة التي نلاحظها من خلال تدبرنا قوله : ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون.﴾ هو أنّ توزيع الجبال الرّاسيات، وتقسيم الأرض إلى قارات وإلى مشارق ومغارب، وترك فجاج وأودية وتمرّات جبلية بينها ليفسح المجال للناس للتنقل بينها من مكان إلى آخر ومن أقطار إلى أخرى، كانت نابعة من مشيئة الله وإرادته وتخطيطه شأناً في ذلك كله.

والمعلومة الخامسة التي نلاحظها من خلال تدبرنا قوله : ﴿وجعلنا سقفاً محفوظاً، وهم عن آياتها معرضون.﴾ هي معلومة جديدة وهامة جداً. فالذي خلق هذه الكرة الأرضية جعل من حولها سقفاً محفوظاً من قبله لتأدية مهمّة محدّدة. كما يعتبر هذا السّقف المحفوظ في حدّ ذاته آية ودليلاً على عظمة من أنشأه. وأنّ الناس في غفلة يومئذٍ عن عظمة وشأن وتبيين هذا السّقف المحفوظ. وها أن علماء عصرنا قد اكتشفوا وجود هذا السقف المحفوظ، وهو طبقة الأوزون التي تصون سكان الأرض من خطر أشعة الشمس فوق البنفسجية. وهو السّقف الذي أشار إليه حديث رسول الله ﷺ والوارد في تفسير ابن كثير تحت هذه الآية بالذات وهو قوله : (موجّ يكفّك عنكم).

فهذه المعلومات القيّمة أفادتنا بها هذه الآيات من سورة الأنبياء، والتي استمعنا إليها تتلى في أزقة مكّة المكرّمة على السنة أناس ملاً قلوبهم بالإيمان بكون هذه الآيات وحي الله وليس من افتراء محمد النبي ﷺ، وقد شجّ الهدى من أعين هؤلاء وبرق، وكأنه مصابيح تنير الطريق. فمن أين استقى محمد النبي ﷺ هذه المعلومات يا أصحاب العقول إن كنتم من المتفكرين؟

وإذا عُذنا إلى الرَّاهِبِ بُحيرا، نستوضحه أمر هذه المعلومات، فلن يجد لها أساساً في التوراة التي بين يديه، فإذا قرأ على مسامعنا الاصحاح الأول من سفر التكوين بأكمله، لم نلاحظ فيه شيئاً مما سمعناه من آيات هذا القرآن وعلمناه في أزقة مكة.

ثم إذا عمد الرَّاهِبُ بحيرا إلى الاصحاح الثاني، يقرأ لنا ماجاء فيه، لنلا علينا : (فَأَكْمَلَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَكُلَّ جُنْدِهَا. وَفَرَغَ اللَّهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. فَاسْتَرَحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. وَبَارَكَ اللَّهُ الْيَوْمَ السَّابِعَ وَقَدَّسَهُ. لِأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللَّهُ خَالِقاً. هَذِهِ مَبَادِئُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حِينَ خُلِقَتْ. يَوْمَ عَمِلَ الرَّبُّ الْإِلَهَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ، كُلُّ شَجَرِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ فِي الْأَرْضِ، وَكُلُّ عُشْبِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يُنْبِتْ بَعْدَ...).

ونكتفي هنا بما تلاه وماطلعنا عليه مما أوردته التوراة عن خلق العالم. ويُراودنا في ذلك سؤال هام، هو : مادام قد جاء في التوراة : (قال الله ليكن نور فكان نور) أي أن الله لا يحتاج إلى بذل جهدٍ من نوع ما، لإيجاد أو خلق شيء من الأشياء، حتى ولا إلى مساعدة ملائكته، ولا إلى أي شيء آخر، فكيف تنص التوراة نفسها فنقول : (فاستراح في اليوم السابع) وبين القولين تناقض رهيب؟ فإذا عُذنا من فورنا إلى أزقة مكة، ننصت إلى مايتلى فيها من آيات قرآنية، سمعنا من يتلو علينا آية من سورة ق (٣٨)، فنعلم أن (ق) مختزلة من قادر، ثم نستمع إلى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۖ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ الْغُرُوبِ ۖ﴾. وإذا تبينا معنى كلمة (لُغُوب) وجدنا أن لُغِبَ الرَّجُلُ لُغُوباً، بمعنى تعب وأعبأ أشد الإعياء. فادهشنا أن ينفي القرآن الكريم ماأوردته التوراة من أن الله استراح في اليوم السابع. فكيف خالف محمد اليتيم الأمي مااستقاه من توراة على يد الرَّاهِبِ بُحيرا وسواه، إذا كان قد افترى هذا القرآن الكريم؟ أوليس المعقول أن يكون التنزيل العزيز، قد جاء يصحح ماعيشت به الأيدي في نصوص التوراة؟ وهنا نتمنى على الله أن يُصلح المسلمين، فكيف قصرُوا في تدبر القرآن، وتركوا لمسيحيي أوربة وأمريكا أن تزدهر على أيديهم مختلف العلوم؟

ولننضم برحلة إلى بلاد الغرب، نستطلع ماتوصل إليه علماءهم من معلومات في زماننا، خلافاً لتعاليم التوراة التي هي لاتزال بين أيديهم، والتي يدعون أنها كانت هي نفسها بين أيدي ورقة بن نوفل والراهب بحيرا وسواه، في عصر نبوة محمد وآيام ظهور دعوة الإسلام، فماذا نجد؟ نجد أن العالم الفيزيائي جورج غاموف طلع عليهم بنظرية الانفجار العظيم، فوضح لهم عن طريق الفيزياء النووية أن الكون بأجمعه كان قد نشأ عن تمدد مادة أولية مضغوطة، حدث لها ماسماه بالانفجار العظيم. وأن عالمنا هذا قد تولد في أعقاب تمدد هائل في المادة، منذ حقبة تراوح بين (١٢ - ٢٠) مليار عام. وأن مادة هذا الكون كانت مخبأة آنذاك في مساحة أصغر كثيراً، من الحيز الذي يشغله بروتون واحد. وأن كثافة مادة العالم كانت في تلك المرحلة تهول الخيال. فتمدت تلك المادة بالانفجار العظيم الذي حدث لها. وقد ثبت لدى بعض العلماء ومن خلال رصد الكواكب والسيارات أنها لاتزال تتمدد. فتباعد النجوم بعضها عن بعض بما لا يتصوره خيال الإنسان. فيدهشنا هنا أن نسمع تفسيراً علمياً معاصراً، لما سمعناه من آي القرآن في أزقة مكة : ﴿أولم ير الذين كفروا أن السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...﴾. فما الانفجار العظيم إلا عملية فتق لمادة السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ التي كان الله تعالى قد خلقها مضغوطة هذا الضغط الذي يفوق الخيال. أما كيف جعلها تنفجر، فتتكون منها السماوات والأرض؟ فهذه أسئلة، جاء في القرآن الكريم بشأنها قوله تعالى في سورة الكهف (٥١) : ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾.

وقد تبين لنا أن العلماء في أوربة اكتشفوا غلافاً غازياً يحيط بالأرض غير سميك. وهو يتألف من ذرات غاز الأوزون. وأن هذه الطبقة الغازية المحيطة بالأرض، تحمي سكانها من أشعة الشمس فوق البنفسجية، هذه الأشعة المؤذية لأنسجة أجسامهم. ولم يستطع أي عالم من هؤلاء حتى الآن أن يهتدي إلى طريقة تكون هذه الطبقة الأوزونية حول جو الأرض، وأصلها ومنشئها. ولا لاحظوا وجود مثلها حول جو أي من أجواء الكواكب الأخرى التي اكتشفوا وجودها. وقد أضحي وجود هذا الغلاف

الأوزوني آيةً كونيّةً مدهشةً لعقولهم، ولما توصّلوا إليه من علوم. ووجدنا فيما قرأناه في أوربة تفسيراً لما كان يُتلى من آي القرآن الكريم في أزقة مكّة المكرّمة، وهو قوله تعالى :

﴿وجعلنا سقفاً محفوظاً، وهم عن آياتها مُعرضون﴾. فانظر يا قارئ العزيز إلى الذين كفروا بهذا القرآن وزعموا أنّه من افتراء محمد اليتيم الأمي، كيف آيدت كشوفهم العلمية ما أتى به محمد رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، ممّا لا أساس له في جميع صُحفهم المقدّسة وغير المقدّسة ماضياً وحاضراً، والتي كان يتداولها الرّاهب بحيرا وأمّاله من الرّهبان. فهاهم أولاء الذين كفروا يروّون نفس ما بينه القرآن المبين، ومع ذلك يزعم هؤلاء أنّ عبقرية محمّد الدّينيّة قد افترت هذا القرآن وأبدعته. وهل يصحّ في اللّغة أن يُسمّى من أوتي مثل هذه المعارف قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، أن يُسمّى "عبقرياً".

والعبقرية تعجز عن أن تتنبّأ، فتصدق نبوءاتها، كما تصدّق نبوءات الرّسالة السماوية. وهي تعجز عن أن تفسّر كلّ ماضيتها الرّسالة من معارف. وإذا لم تؤدّ العبقرية ما أدّته الرّسالة، فقد بطلت تسميته محمّد ﷺ بالعبقري، ولم يبق إلا أن يكون الرّسول الموحى إليه.

ولنعد إلى ما أورده الآية (٥٣) من سورة السّجدة، قوله تعالى : ﴿قل أرأيتم إن كان من عند غير الله، ثم كفرتم به، من أضلّ لمن هو في شقاق بعيد. سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنّه الحقّ، وأولم يكف بربّك أنّه علي كلّ شيء شهيد﴾. فالخطاب هنا في هذه الآية الكريم موجّه إلى الذين يكذبون برّسالة محمد اليتيم الأمي ونبؤته وبرّسالته، وزعموا أنّ القرآن الكريم الذي طلع به محمد ﷺ على العالم، افتراء من عند نفسه، وسرقة من تعاليم التّوراة والإنجيل، وليس من عند الله عزّ وجلّ.

والخطاب في هذه الآية الكريمة ينبيء أيضاً عن أنّ التطوّر العلميّ الذي سيبلغه علم هؤلاء المكذّبين، سيكشف لهم عن صدق آيات القرآن المبين، وإعجاز قوله تعالى وصنعه في الآفاق وفي أنفسهم يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة،

حتى يتبين لهم أنه الحق. ليثبت لهم أيضاً أن الله جل شأنه على كل شيء شهيد.
صدق الله العظيم.

فهذا هو دليلنا القاطع من أي القرآن المبين نفسه، نرد على الذين
يسألوننا أوليس القرآن من افتراء محمد ﷺ نفسه.

٤ - دليل المصادقية الرابع :

ومادامت التوراة المتداولة في عصرنا، هي نفسها التي كان يتداولها
الراهب بحيرا وسواه من قبل، فلا حاجة بنا إلى أكثر من أن نتصفح مائت به
هذه التوراة عن قصة آدم التي تحدث عنها القرآن الكريم، ثم نحكم بعد ذلك :
هل صاغ محمد اليتيم الأمي ما احتوته التوراة حول موضوع آدم بلسان عربي
مبين؟

ففي السّفر الأول التكوين، الإصحاح الثاني ورد : (وجبل الربّ الإله
آدم تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حيّة. وغرس
الإله جنة في عدن شرقاً. ووضع هناك آدم الذي جبله. وأنبت الربّ الإله من
الأرض كلّ شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل. وشجرة الحياة في وسط الجنة
وشجرة معرفة الخير والشر. وأخذ الربّ الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها
ويحفظها. وأوصى الربّ الإله آدم قائلاً : من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً.. وأما
شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها. لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت. وقال
الربّ الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده. فأصنع له مُعيناً نظيره.. فأوقع الربّ
الإله سُبّاتاً على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه، وملاً مكانها لحماً. وبنى
الربّ الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة واحضرها إلى آدم. فقال آدم هذه
الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي.. وكانا كلاهما عُريّين آدم وامرأته وهما
يُخجلان.).

ولابدّ أن تأخذنا الدهشة ممزوجة بالأسى حين نرى ما استهلّت به التوراة
المعاصرة من التناقضات. فكيف يُقال إنّ الله جبل آدم تراباً من الأرض؟ فهل
كان إله التوراة فناناً نحّاتاً، يجبل التراب طيناً، وينحت من الطين كهيئة إنسان، ثم
ينفخ فيه نسمة حياة؟ وإذا كان الإله قد نحت آدم فجعله أبيض اللون، فمن نحت

العرق الأصفر والأحمر والأسود من البشر؟ فهل يستسيغ العلم أن تأتي هذه العُروق المختلفة من عرق أبيض بذاته؟

ثم هل من المنطوق أن يخلق الله آدم قبل أن يُهيىء له مسكنًا يؤويه، ومزرعة يأكل منها؟ فالنص التوراتي يعكس هذه المعادلة : جَبَلْ آدم ثم غرس له جنة. وأين قدرة الله التي تجلّت من خلال قوله (ليكن نور فكان نور).؟ فلم لم يقل هنا "ليكن آدم ومزرعته، فيكون آدم ومزرعته، دون كدّ من الإله التوراتي أو عناء؟

وأغرب من هذا وذلك أن يزرع إله التوراة شجرة معرفة الخير والشر، وينهي آدم وحواء عن الاقتراب منها والأكل من ثمرها، ثم يمضي فيهددهما بقوله : (لأنك - يا آدم - يوم تأكل منها موتاً تموت).

ولايأبه آدم لو صيّه ربّه، ولاحواء ويأكلان من هذه الشجرة، فيتبيّن لهما أنّهما عريانان كما خلقهما ربّهما (فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر). هذا هو ماروته التوراة. بل أضافت التوراة أنّه بعد زوال العمليّة الإلهيّة المزعومة، عاد الربّ الإله فصنع لآدم وامرأته (أقمصةً من جلدٍ وألبسهما) ٢٠/٣. فهل كان إله التوراة مغنيًا بأن يظلّ آدم وحواء عريانين أصلاً، فمنعهما من أن يأكلا من ثمر شجرة معرفة الخير والشر؟ ولو إلى حين.

والتوراة هذه تصوّر لنا الإله الرب عاجزاً عن خلق حواء، حتّى اضطر لتخدير آدم، واستئصال أحد أضلاعه، ولاندري كيف صاغ حواء من هذا الضلع الذي لايزيد عن ستيّمزات؟ فهل يستسيغ عقلنا وعلّمنا أن تصنع حواء من ضلع آدم، وأضلاع آدم ترى كاملة على مرّ العصور؟

ونحن إذ نكتفي بما كشفنا عنه من قصّة آدم وحواء التوراتيّة، وعن مجموعة التناقضات التي انطوت عليها هذه القصّة بل الأسطورة، التي لا ترقى إلى منطق أو علم. هذه القصّة التي زعم الأب حداد ومن على شاكلته أنّ عبقرية محمد اليتيم الأميّ الدينيّة صاغتها في القرآن المبين بلسان عربيّ مبين.

ونحن إذ نكتفي بما أوردناه منها، نتقل إلى آيات القرآن الكريم نندبّرها وننظر : هل ثمة وجه لما يزعمون، أم أنّهم يهرفون بما لا يعرفون؟

ولنبداً بالآية (٣٣) من سورة آل عمران. قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾. فمنطوق هذه

الآية الكريمة يُناقض القصة التوراتية التي تُصوّر آدم أنه أوّل مخلوق من بني البشر. ذلك أنّ فعل اصطفي واستصفي إصفاءً واستصفاً ، معناه أخذه صفوة واختاره، على حسب ماأورد صاحب معجم محيط المحيط. ثم إنّ هذه الآية لاتفرّق بين آدم وبين نوح وآل ابراهيم وآل عمران من حيث اصطفاء الله تعالى هؤلاء جميعهم أي أنّ القرآن المبين يعتبر آدم نبياً من أنبياء الله الكرام، وليس أوّل إنسان مخلوق. بل ويعتبره أوّل نبي من حيث ترتيب ذكره في الآية القرآنية.

فشتان ما بين ماأوردته التوراة عن آدم، وبين ما بينه القرآن الكريم؟ فهذه أوّل معلومة أساسية يختلف القرآن بها عن بيان التوراة.

ونأتي إلى الآية (٣٠) من سورة البقرة : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .﴾

وقد استعمل القرآن في هذه الآية لفظ (خليفة). ولا يكون الإنسان خليفة إلا إذا وُجد بين الذين يُستخلف فيهم، أي كان هناك بشرٌ واستخلف آدم من بينهم. ثم إنّ قوله : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ لا يفيد خلق آدم من حيث دلالته، بل جعله خليفة على البشر الذين اصطفاه الله منهم. وهكذا تكون الآية قد أتت بما يغيّر ماأفادته التوراة من معلومات.

أضف إلى ذلك أن هذه المعلومة القرآنية اقترن بها ذكر الملائكة للدلالة على وجود المملكة السماوية، على حين لم تأت القصة التوراتية على أي ذكر لملائكة الله عز وجلّ. وكان الله خلق آدم بمعزلٍ عن علم ملائكته.

والأمر اللافت لنظرنا، هو أنّ القرآن الكريم لم يأت على ذكر كلمة حواء في جميع آياته، وكلّ ماأورده هو : ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .﴾ دون الكلام عن خلق زوجة آدم أو اصطفاء الله إياها من بين النساء. الأمر الذي يعني أنّ المقصود هو أمر الله تعالى إياه أن يتخذ مسكناً، وأن يبدأ تأسيس نظام أسرويّ. أي أنّ البشر قبل آدم، ماكانوا يعلمون عن هذين الأمرين شيئاً. والأغلب أنهم كانوا يقطنون الكهوف قبل بعثة آدم عليه السّلام. ونحن إذ تدبّرنا هذا القرآن، وأدركنا أنه اعتبر آدم أوّل نبي، وليس أوّل بشر. كما أدركنا أنه أتى بمعالم نظام له معالمة وحدوده.

نتوقف عن الاستمرار في بحثنا هذا، وتكفيها هذه الفروق الجوهرية التي تبينها، هذه الفروق الجذرية التي يخالف بها القرآن الكريم هذه التوراة المعاصرة، والتي كانت بين يديّ الرّاهب بھيرا وسواه زمن بعثة محمد رسول الله ﷺ. ونكون بذلك قد أثبتنا أنّ محمّداً لم يعتمد على المعلومات التوراتية فيصغى بها بلسان عربي مبين، على حسب ما زعم الأب حدّاد وسواه من القساوسة المتعصبين، بل أتى محمد اليتيم الأمي بما لم يأت به الأوّلون، وبوحي من الله ربّ العالمين، الله الذي سبق أن بعث آدم وأنزل عليه هذه التعاليم التي تطابق المعطيات العلمية التي كشفت عنها آثار تاريخ البشر الحضاريّ في هذه المنطقة من العالم بالذات.

٥ - دليل المصادقية الخامس :

ولنتناول موضوع الذات الإلهية وصفاتها، على حسب ماتناولته التوراة. ولنقتطف بعضاً من نصوصها بهذا الخصوص. فقد ورد في سفر التكوين ٢/١ : (قال : الله ليكن نور فكان نور). كما ورد : (وقال الله لتجتمع المياه تحت السّماء إلى مكان واحد لتظهر اليابسة، وكان كذلك.) ١/٩ وقال (وقال الله لتنبث الأرض عُشباً وبقلاً يئذّر بذراً وشجراً ذا ثمر، يعمل ثمراً كجنسه، بذره فيه على الأرض، وكان كذلك.) ١/١١. يُستفاد من هذه المقتطفات الأمور التالية :

أولاً - أنّ الله قُدرةٌ سحريةٌ فوق تصور الخيال.

ثانياً - أنّ ما أقدم الله على فعله، يُنافي ما كشف عنه العلم المعاصر، من أنّ هذا الكون لم يُخلق ولم يتبلور على شكله الحالي، إلّا بعد مرور مليارات الأعوام.

ثالثاً - وأن خلق الله لجميع الأشياء لا يحتاج منه إلى جهدٍ وقوانين.

وتبدأ التناقضات التوراتية من خلال هذه المقتطفات، وماتلاها. إذ جاء في التوراة بعد ذلك : (وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا.. فخلق الله الإنسان على صورته.. ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم الله، وقال لهم، اثمروا وأكثروا واملئوا الأرض وأخضعوها.) تكوين ١/٢٦ (فأكملت السّماوات

والأرض وكلّ جُنْدِها. وفرغ الله في اليوم السّابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السّابع من جميع عمله الذي عمل.) تكوين ٣/١/٢.
ويُستفاد من هذه النّصوص الأمور التالية:
أولاً - أنّ الله يستعمل قدرته السّحرية تارة، ويجهد نفسه تارة أخرى.
ثانياً - وأنّ الله قد يجهد نفسه في عمله، ويتجنّب قدرته السّحرية، فيحتاج بعدها للراحة.

ثالثاً - وأنّ صورة الإنسان شبيهة بصورة الله خالقه، مع اختلافهما في القوَى.

ونلاحظ كيف تصوّر لنا التوراة الله مُتخلياً عن قدرته السحرية، ويعمل بيديه: (وجبل الرّب الإله آدم تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حيّة..) تكوين ٧/٢.
وهذا النصّ يستفاد منه أنّ الله في التّوراة "فنان" قد حدّق النّحت، كما يحذّقه الفنانون. ويزيد عليهم قدرته على نفخ نسمة حياة في أنف ماينحته من طين.

وقد ورد في التوراة قبل قليل : (فخلق الله الإنسان على صورته.. فأكملت السّماوات والأرض وكلّ جُنْدِها. وفرغ الله في اليوم السّابع من عمله الذي عمل. فاستراح..). فعمد النصّ الجديد إلى الدّخول في تفاصيل خلق الإنسان، فهل حدث هذا قبل اكتمال خلق السّماوات والأرض، واستراحة الله من عمله، أم أنّ عمليّة خلق آدم حدثت بعد فترة راحة الله واستجمامه؟ فالأمر هنا مُهم ومُتداخل.

المهمّ هو أنّ التوراة قد صوّرت للقارئ أنّ الله خلق الإنسان على شبهه. وآدم هو إنسان، فهو على شَبّه الله إذاً. فلم يقل الله ليكن آدم وحواء، بل نحت آدم وعمل من ضلعه حواء (وأنبت الرّب الإله من الأرض كلّ شجرة شهية للنّظر وجيدة للأكل. كما أنبت شجرة الحياة في وسط الجنة وأنبت شجرة معرفة الخير والشرّ). تكوين ٩/٢ ويتساءل أحدنا بعد أن يُطالع هذا النصّ:
أولاً - مادامت الجنة أرضية، فأين شجرة معرفة الخير والشرّ وأين شجرة

الحياة؟

ثانياً - هل أنبت إله التوراة هاتين الشجرتين عبثاً ولهما ليس تدرج آدم وحواء لفخ نصبه لإيقاعهما في المعصية، أم لمقصود أسمى من ذلك؟ ومضمي التوراة فتصوّر لنا الحيّة تغوي حواء. وحواء تغوي آدم. ويأكلان من شجرة معرفة الخير والشر. ويعصيان الله ولا يلبثان أن يريا نفسيهما عريانين. وتروي التوراة عن آدم وحواء، في حديثها عنهما فتقول : (وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة. فنادى الرب الإله آدم وقال له : أين أنت؟ فقال : سمعت صوتك في الجنة، فخشيت لأنني عريان، فاختبأت. فقال الرب الإله : من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟ فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت. فقال الرب الإله للمرأة : ماهذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة : الحيّة غرتني فأكلت. فقال الرب الإله للحيّة : لأنك فعلت هذا، ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وتراًباً تأكلين كل أيام حياتك. وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها..). تكوين ٣/٨-١٥.

ويستفاد من هذا النص الأمور التالية :

أولاً - أنّ ماؤكد شبه الإنسان بإله التوراة المعاصرة، هو أنه كان يمشي ويسمع آدم وقع أقدامه.

ثانياً - وأنّ الإله التوراتي لا يعلم الغيب، ولا تخترق رؤيته الحجب، بدليل أنه لم يستطع رؤية آدم وحواء وهما مختبئان.

ثالثاً - وأنّ صوت الله يختلف عن صوت آدم، لكن لغته لاختلف عن لغته.

رابعاً - وأنّ إله التوراة المعاصرة كان يؤثر أن يرى آدم وحواء وهما عريانان. وأنه كان يأمل أن يظلّ الإنسان عرياناً طوال حياته، بدليل غضبه على آدم وحواء أنّهما أكلا من شجرة معرفة الخير والشر، وأدركا أنّهما عريانان. وقد خاطأ أزرأ من ورق التين ليستترا عن أعين الإله الذي عملهما من تراب. وبدليل غضب إله التوراة أيضاً على الحيّة التي أغوت حواء بذلك.

خامساً - وأن الحية ما كانت تمشي على بطنها، قبل أن يلعنها الذي صنعها أيضاً.

سادساً - وأن هناك عداوة بين الحية ونسلها والمرأة ونسلها، لانتبين معالمها في عصرنا الحاضر.

وأغرب مما ذكرناه جميعاً، هو أن التوراة قائلة على لسان الإله الرب الذي عرضته لأنظارنا، وعلى حسب ماعرضته لأنظارنا، كما عرضته على مسامع محمد بن الله اليتيم الأتي بوساطة بحيرا الرأهب وسواه، حسب مزاعمهم تضيف قائلة : (هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً للخير والشر. والآن لعله يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها.) تكوين ٣/٢٣.

ويستفاد من هذا النص الأمور التالية أيضاً :

أولاً - أن إله التوراة كان عنده سرّ شجرة الحياة الأبدية التي كان غرسها في جنة عدن. وأنه لم يغرس تلك الشجرة، إلا بقصد أن يأكل هو منها وحده، ليحيا حياة أبدية. وضمن بذلك على آدم وحواء.

ثانياً - وأن إله التوراة ما كان باستطاعته إيجاد سور يحمي به شجرة الخلد المزعومة. لذلك طرد آدم من جنة عدن التي هي على سطح الأرض. بدليل ما سبق أن ذكرت التوراة بقولها : (وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة. ومن هناك ينقسم إلى أربعة رؤوس : اسم الواحد فيشون، وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيد. هناك المقل وحجر الجزع. واسم النهر الثاني جيحون. وهو المحيط بجميع أرض كوش. واسم النهر الثالث جدآقل، وهو الجاري شرقي آشور. والنهر الرابع الفرات.) تكوين ١٠/٢.

ثالثاً - وأن جميع ما تضمنه هذا النص يخالف معطيات العلم وواقع عصرنا. فلا أثر هناك على سطح الأرض لجنة الخلد وعند منبع نهر الفرات. ولا أثر أيضاً لشجرتي الخلد ومعرفة الخير والشر. ولا دليل لدينا على العداوة بين الحية والمرأة، وما جاء من نسلهما.

رابعاً - وأن التوراة المعاصرة تزعم أنّ الإنسان الذي يموت دون أن يأكل من ثمر شجرة الخلد، يموت ويفنى ويعود إلى أصله الترابي : فلا حياة ثانية، ولا حياة خلود.

خامساً - ولربما رسخ هذا الفهم أو الاعتقاد عند بولس الرسول، فاندفع ينتدع عقيدة فداء المسيح والخلص وحكاية قيامة المسيح من بين الأموات.

هذه العقيدة التي تُنافي أبسط مُستلزمات العدالة. فهل تستسيغ العدالة أن تقوم حواء بالإقدام على جريمة معصية الإله الرب. فلا يعاقبها الإله الرب، بل يُرسل ابنه الوحيد ليعذب بدلاً عنها، فيكون ذلك منه كفارة عن خطيئتها وخطايا جميع من توالد من نسلها من العباد؟

وخلاصة القول، فيما استخلصناه حتى الآن مما اقتبسناه من النصوص التوراتية، والتي يزعمون أنّ محمداً اليتيم الأمي اطلع عليها في زمنه، هو أنّها أقوال متضاربة مع بعضها، ومع مُعطيات العلوم، تصوّر لنا الإله تارة قادراً على كل شيء. وتارة أخرى عاجزاً عن كل شيء. وتارة ثالثة أنّه بحجم الإنسان وشبهه، ويمشي على سطح هذه الأرض، وأنّ لأقدامه وقعاً عليها أيضاً.

والآن فلننظر : ماالذي أتى به محمد اليتيم الأمي : أصاغت عبقريته للمعلومات المتناقضة المذكورة بلسان عربي مبين، أم عمد هو إلى هذه المعلومات فصّحها بوحي من رب العالمين، وأتى بما لم يأت به موسى أو سواه من أنبياء بني اسرائيل من قبل؟ وهل جاء ماصاغه من معلومات مُتفقاً مع العلم ومع واقع عصرنا بالذات، أم جاء يُنافيه ويُضاده؟

ولنعمد الآن إلى الربع الأخير من سورة البقرة، الآية (٢٥٥) وهي أوّل سُور القرآن ترتيب تلاوة وأطولها وأكثرها آيات، في مقابلة سفر التكوين الذي هو أوّل أسفار التوراة. ولتدبر معاً، مانتلوه وقرؤه فيما يتعلّق بذات الله وصفاته عز وجل. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ

من علمه إلا بما شاء، وسِعَ كرسيه السماوات والأرض، ولا يؤدُّه حفظُهُما وهو
العلِّي العظيم. ﴿١﴾

ولنلاحظ كمال وصف الله تعالى لنفسه في هذه الآيات الكريمة،
وتسلسل كلامه المنطقي والموضوعي، فسنصل في نهاية تدبرنا وملاحظتنا هذه إلى
أن الطرح القرآني يختلف اختلافا جذرياً عما طرحته التوراة التي زعموا أن
الراهب بحيرا قد تلاها على مسمع من محمد رسول الله اليتيم الأمي ﷺ.

ذلك أن الله تعالى نبّه في سورة البقرة، إلى نبوءة موسى والأنبياء من
بعده وعن بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن الكريم. ووضح للناس نهج التقوى
الذي أتى به هذا القرآن. وأكد، بعد أن استعرض تاريخ البشر، على أهمية
الدعاء الإبراهيمي المستجاب. هذا كله في سورة البقرة. ومن ثم توجه بخطابه في
الآية (٢٥٤) إلى الذين آمنوا، فحثهم على الإنفاق بما رزقهم من مال وحسن
التصرف بما أنعم الله عليهم من قوة، وزودهم به من علم، مذكراً للناس أن
عالمهم هو عالم ابتلاء وامتحان، وأنه سيأتي عليهم ﴿يوم لا بيع فيه ولا خلة
ولا شفاعة﴾ محذراً كل من ينكر هذا من الإساءة إلى نفسه وظلمها، لكفرانه
بهذه الحقيقة الكونية قائلاً: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾.

ثم يكشف الله للناس عن وجوده وعن صفاته، ويجلّي ذلك بتعابير مبيّنة
وبتسلسل منطقي ونهج علمي موضوعي ويقول:

أولاً - ﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي الله لا سواه، فهو وحده صاحب
السُّلطان، لا شريك له في ألوهيته وسلطانه.

ثانياً - ويضيف أن الدليل على ذلك مُضمّر في كونه ﴿الحَيُّ﴾. والحَيُّ
مُعَرَّفًا بالألف واللام يعني الدائم الوجود والذي لا يفنى وكامل الحياة،
فلا بداية له ولا نهاية. وهو واهب الحياة ومُحيي النفوس.

ثالثاً - والدليل الثاني على ذلك مُضمّر في كونه ﴿الْقَيُّومُ﴾. والقَيُّوم
مُعَرَّفًا بالألف واللام هو القائم الدائم بذاته والقيّم على كل شيء، فلا
ابتداء له (أقرب). فهو الحافظ لجميع أشياء هذا الكون، وهو الواهب
مالها من قوام (مفردات الراغب).

ثم إن دلالة القَيُّوم، من الوجهة العلمية على الله الذي وهب جميع
الأشياء قواها. هذه القوى التي تجمع بين ذراتها وأجزائها مايساعد على

تحقيق المقصد المرجو من إيجادها. إشارة إلى قوى الذرة وقوانين الجاذبية وما إليها، وهو جلّ شأنه إذ قدّم هذين الدليلين (الحَيّ القيوم) بقوله تعالى : ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾. فالسِّنة من الوَسْن أي النوم الثقيل. والنَّصب والتَّعب هو الذي يتسبب بضرورة النوم. فهو تعالى لفت أذهاننا إلى أنّه لا يشبه حاله حال الإنسان، فهو لا يمسه نصبٌ ولا لغوب وهو ليس كمثله شيء. فهيئات أن ينقطع رجاء المؤمن منه أو يفقد تأييده في لحظة من اللحظات. فالله هو الحافظ الرقيب الذي لا يغيب عما يحفظه، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

خامساً - فإن تصوّر امرؤ أنّ عبادته لغير الله قد تُقرِّبه زُلْفى من الله تعالى. فقد حاد عن جادة الصواب. فهو تعالى أضاف قوله : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي أنّ ملكيّته وسعت كلّ شيء، فلا سبيل لأحد أن يزعم السيادة والألوهية من دونه عز وجلّ.

سادساً - فإن مال امرؤ لتصوّر وجود من يشفع له بين يديّ الله تعالى، يسمع قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي لا يملك الشفاعة من دونه إلا من يأذن الله له بها في حينه.

سابعاً - فإن تساءل أحد عن سبب ذلك، يجد الجواب في قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي لا يخفى على الله حال إنسان، وكلُّ يُجزى الجزاء الذي يستحقّه.

ثامناً - ويربط الله عزّ وجلّ التطوّر العلمي بمشيئة ويقول : ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾.

تاسعاً - فإذا تساءل أحد عن حدود علم الله وحدود قدراته، يجيبه الله عز وجل بقوله : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي لا يغرب عن علمه وقدراته، ولا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض.

عاشراً - فإن تساءل أحد أخيراً : أأ الله هو المهيمن القابض الباسط المستغني عن الخلق بقدرته؟ ويجيبه الله عز وجلّ بقوله : ﴿وَلَا يُوْذَىٰ حِفْظُهُمَا﴾ أي أنّ إدارة السماوات والأرض لا تعجز علم الله وقدراته كيف لا ﴿وهو العليّ العظيم﴾ فهو تعالى من السّموّ والعلاء والعظمة بما لا يطاق له خيال الإنسان، ولا تحده حدود.

ولنقارن الآن بين مآنت به "آية الكرسي" هذه وأفادتنا به عن وجود الله وصفاته. وبين ماقدّمته التّوراة في سفر التكوين من معلومات في هذا الصّدّد. يتّضح لنا جليّاً أنّ محمداً رسول الله اليتيم الأمّي مااستقى معلوماته هذه عن الرّاهب بحيرا أو سواه، حتى يصوغها بلسان عربيّ مبين. فلو كان قد فعل ذلك، لاستحال عليه أن يأتي بما انطوت عليه آية الكرسي هذه، وما فيها من إحكام بيان ووصف لذات الله وصفاته من علوم.

ولابدّ أن لاحظ القارئ العزيز أنّي لم أبالغ في استنباط مااستنبطه من دلالات هذه الآية الكريمة. علماً بأن سورة الحشر عمدت إلى بيان هذه المعاني مفصّلة. حيث أوردت آخر آياتها قوله تعالى : ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم. هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عمّا يُشركون. هو الله الخالق البارئ المصور، له الأسماء الحُسنى، يسبح له ما في السّماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾.

وهكذا يكون قد ثبت أن القرآن الكريم ليس هو من إبداع محمّد ﷺ اليتيم الأمّي أو من تأليفه وافترائه، ولا من نتاج عبقرية الدينيّة المزعومة. بل هو كلام الله الذي بعث محمداً بالحقّ، وهو رب العالمين.

٦ - دليل المصادقية السادس :

وأتناول الأحكام الشرعيّة التي أتت بها التوراة والإنجيل، وما أتى به القرآن الكريم من أحكام. لنرى أبديت متطابقة متقاربة، أم أتت مختلفة متباعدة؟ لنأخذ فاحشة الزنا والخيانة الزوجيّة في التوراة على سبيل المثال، ففي سفر العدد ١١/٥ : (وكلم الربّ موسى قائلاً : كلمّ بني إسرائيل وقل لهم : إذا زاحت امرأة رجل وخانته خيانةً واضطجع معها رجلٌ اضجاع زرع، وأخفي ذلك عن عيني رجلها واستترت وهي بخسه، وليس شاهدٌ عليها، وهي لم تؤخذ. فاعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهي ليست بخسه.

يأتي الرجل بامرأته إلى الكاهن، ويأتي بقربانها معها، عُشر الإيفة من طحين شعير لا يصبّ عليه زيتاً، ولا يجعل عليه لبناً، لأنّه تقدمةٌ غيرّة، تقدمه تذكّار ذنباً. فيقدّمها الكاهن ويؤقف أمام الربّ. ويأخذ الكاهن ماءً مقدساً في

إناء خزفي، ويأخذ الكاهن من الغبار الذي في أرض المسكن ويجعل في الماء، ويوقف الكاهن المرأة أمام الرب، ويكشف رأس المرأة ويجعل في يديها مقدمة التذكار التي هي مقدمة الغيرة، وفي يد الكاهن يكون ماء اللعنة المر. ويحلف الكاهن المرأة ويقول لها: إن كان لم يضطجع معك رجل، وإن كنت لم تريغي إلى نجاسة من تحت رجلك، فكوني بريئة من ماء اللعنة هذا المر. ولكن إن كنت قد زغت من تحت رجلك وتنجست وجعل معك رجل غير رجلك مضجعه، يستحلف الكاهن المرأة بحلف اللعنة ويقول الكاهن للمرأة: يجعلك الرب لعنة وحلفاً بين شعبك بأن يجعل الرب فخذك ساقطة وبطنك وارماً. ويدخل ماء اللعنة هذا في أحشائك لورم البطن ولإسقاط الفخذ، فتقول المرأة آمين آمين. ويكتب الكاهن هذه اللعنات في الكتاب، ثم يحسوها في الماء المر. ويسقى المرأة ماء اللعنة المر، فيدخل فيها ماء اللعنة للمرارة. ويأخذ الكاهن من يد المرأة مقدمة الغيرة، ويردد التقدمة أمام الرب ويقدمها إلى المذبح، ويقبض الكاهن من التقدمة تذكارها، ويوقده على المذبح، وبعد ذلك يسقي المرأة الماء. ومتى سقاها الماء، فإن كانت قد تنجست وخانت رجلها، يدخل فيها ماء اللعنة للمرارة، فيرم بطنها، وتسقط فخذها فتصير المرأة لعنة في وسط شعبها. وإن لم تكن المرأة قد تنجست بل كانت طاهرة تنبراً وتحيل بزرع. هذه شريعة الغيرة).

ونحن نستخلص من هذا النص الأمور التالية :

أولاً - يبدو لنا حكم الزنا في التوراة عشائرياً وبدائياً، وليس حضارياً، فهو لا يصلح ليكون أساساً لنظام عالمي.

ثانياً - والحكم التوراتي هذا يمتنهن المرأة، ولا يحسب لكرامتها أي حساب. ولا يسوي بين الرجل والمرأة على صعيد الزنا والخيانة الزوجية. فهو لم يعط المرأة حق دفع زوجها إلى الكاهن إن هي ارتابت بخيانته لها، أو لاحظت ارتكابه فاحشة الزنا.

ثالثاً - وهذا التعليم يتنافى والنظافة أيضاً، ذلك أن الغبار، وإن جُمع من مكان مقدس، فهو وسخ وماوى للجراثيم على كل حال.

رابعاً - ولأيقظ أن يتحد الغبار الوسخ بماء ممزوج بمادة المر، ويشكل من امتزاجهما "أكسيرا" لكشف الزانية من البريئة، إنما يقدم على مثل هذا الأمر المشعوذون. وتستخدم مثل هذه الأساليب لتخويف الأطفال.

خامساً - ثم إنَّ هذا الماء المزوج بوسخ، إن أذى المعدة قد يُورمها، ولكن الغريب أن يُقال أنه يُسقط فخذ المرأة، ولا يُسقط فخذها معاً. وماهي العلاقة العلميّة الموضوعية بين هذين الأمرين؟ أم أنَّ لِكَهَنَةِ اليهود قوّة سحرية لا يمتلكها الإنسان؟

سادساً - وهل يستسيغ عقل الإنسان أن يفعل هذا الشراب الوسخ، فعله في امرأة، ولا يترك نفس الأثر في امرأة أخرى؟ فالواقع يكذب مثل هذا الزعم وهذا الادّعاء.

سابعاً - والملاحظ هو أنَّ ما يُمكن أن يُنسب إلى النص من عيب أو نقيص، إنّما يُنسب إلى "الرّب التوراتي" الذي شرّع هذا النص بالقول: (وكلم الرّب موسى قائلاً: كلّم بني اسرائيل وقل لهم..).

هذا ما أتت به تعاليم التوراة حول فاحشة الزنا والخيانة الزوجية. وذلك استناداً لإحدى الرصايا العشر التي تلقّاها موسى على جبل الطّور، وإحداها: (لاتزن).

ولنأت إلى الانجيل. فقد أضاف المسيح أمراً جديداً، حينما قال في انجيل متى ٢٧/٥: (قد سمعتم أنه قيل للقُدماء لاتزنوا. وأمّا أنا فأقول لكم: إنَّ كلَّ من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنا بها في قلبه. فإن كانت عينك اليمنى تعثرُك، فاقلعها وألقها عنك. لأنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يلقى جسّدك كلّهُ في جهنّم. وإنَّ كانت يدك اليمنى تعثرُك فاقطعها وألقها عنك، لأنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يلقى جسّدك كلّهُ في جهنّم).

أتى المسيح بهذا التّعليم القاسي الذي يستحيل على المرء العمل به حتّى في عصر المسيح نفسه، ولم نسمع أو نقرأ أنَّ مسيحياً قد اقتلع عينه اليمنى لمجرد أنّه نظر بشهوة إلى امرأة من النّساء. ومن يتدبر قول المسيح هذا، يتصوّر أنَّ المجتمع المسيحيّ سيبلغ درجة من العفة لاتضاهي، ومُستوى من الطّهارة والشرف لأيداني. على حين أنّه قد بلغ من التّردّي والاستهانة بالعرض حدّاً لا يُحسد عليه في هذه السنوات من القرن العشرين.

ونستخلص من هذا النصّ الإنجيلي الأمور التالية:

أولاً - إن الإضافة التي أتى بها المسيح، تُعدّ في حدّ ذاتها دليلاً على أن تعاليم التوراة كانت في نظرة ناقصة لا بدّ من استكمالها. فهاهو ذا يعتبر النّظر إلى المرأة بشهوة من الزنا، ويجعل له عقوبة هي اقتلاع العين. ثانياً - ولاندري لماذا أوجب المسيح اقتلاع العين اليمنى وحدها. فالمرء لا ينظر إلى امرأة ليشتتها بعينه اليمنى وحدها دون اليسرى. ثالثاً - ثم إنّ المسيح يخاطب الرّجل وحده. وكأنّ المرأة لا تنظر إلى الرّجل لتشتتها أصلاً - فهذا التّفريق بين الجنسين من هذه الناحية، يخالف الواقع والمنطق العلميّ. فالرّجل والمرأة في هذا الأمر سيّان. رابعاً - وإننا، ومن خلال قول المسيح المزعوم: (فاقلعها وألقها عنك، لأنّه خير لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يلقى جسدك كله في جهنم). يذهب ذهننا إلى أنّ المسيح كان يعتقد أنّ الأجساد ستُبعث يوم القيامة، وبها ينزل العذاب.

ونجمل الآن جميع ما استخلصناه من هذين النّصين : التوراتيّ والإنجيليّ، المتعلّقين بموضوع الزنا والخيانة الزوجية، فنقول : مادام هذان النّصان غير جديدين، وأنّه كان على حسب زعمهم قد اطلع عليهما محمد اليتيم الأمي، ممّا قبسه من بحيرا الراهب وسواه من الرهبان، وعلى حدّ زعم الأب حدّاد خاصة وأمثاله، فأين ما يقابل تعاليم هذين النّصين في القرآن الكريم باللسان العربيّ المبين؟ فقد كان المفترض أن تأتي تعاليم القرآن، إن صحّ زعمهم هذا، ولهذه التعاليم القرآنية صفة العشائرية أيضاً: تتمهن حقوق المرأة، فتعطي الزوج حقّ الغيرة والارتياح في عفة زوجته متى شاء، وتحرم المرأة من هذا الحقّ، وألاً يُحاسب الرّجل على زناه وخيائنه الزوجية. إذ لا يحقّ لزوجته أن تدعوه إلى الكاهن متى ما رتابت في عفته. وأن يُعطى القرآن الكريم طبقة الكهنوت منزلة لا تكون لأحد سواهم، ولا يجعل للزّناة محاكم شرعية يُحاكمون بها، وأن يقترح على طبقة الكهنوت استعمال هذا "الإكسير" المزعوم، المركّب من ماء وأوساخ ليساعدهم على كشف الزّناة، فيورّم معدّ الزّناة ويُسقط أفخاذهم، كما كان ينبغي للقرآن أن يوجب نفس ما أوجبه المسيح باقتلاع عين الناظر، إذا نظر إلى امرأة بشهوة، وأن تقوم بهذه العمليّة مؤسسات مُختصة .

والذي يُطالع القرآن الكريم يرى هذا الكتاب من جميع هذه الأمور التي تضمنها النصان التوراتي والإنجيلي. الأمر الذي يعني بالفاظٍ أخرى أنَّ محمداً ﷺ اليتيم الأمي لم يلقَ هذه الأمور عن الرَّاهب بحيرا وسواه. وإذا صحَّ أنه اطلع على مثل هذه التعاليم، فقد كان عليه ﷺ ألاَّ ليستسغها، بل أن ينبذها ويُعرض عنها. بدليل أنه لم يصنعها بلسانٍ عربي مبین.

٧ - فروق ما بين تعاليم القرآن وما بين تعاليم التوراة والانجيل

وها نحن نتقل خطوة أخرى نتدبر الفروق الجوهرية التي افرقت بها تعاليم القرآن الكريم عن تعاليم التوراة والإنجيل. فالفرق الأول الذي نلاحظه، هو أنَّ التوراة من حيث التوصية والتعليم، لم تزد أن أوردت في وصاياها العشر أمر الرب (لاتزن). في حين أنَّ التعليم القرآني أورد هذه الوصية والتعليم بأسلوبٍ مُغاير تماماً. فلم يأت القرآن الكريم بلهجة الأمر المطلق فيقول (لاتزن)، دون توطئة ولا تمهيد أو تعليل. بل قال تعالى فيه : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنا إِنَّه كان فاحشةً وساء سبيلاً﴾ (الاسراء ٣٢). فالملاحظ هو أنه تعالى استعمل فعل (لاتقربوا) الذي يعني لاتدنوا. وهو أسلوب التحذير من شيء مؤذٍ وضار جداً. ذلك أنَّ مجرد اقتراب الإنسان من الفاحشة، يكاد يوقعه فيها. وقد عمدت الآية إلى توضيح ما نهى عن الذنوب منه وحكمته حين أضاف تعالى يقول فيها: ﴿إِنَّه كان فاحشةً وساء سبيلاً﴾. والفاحشة في اللغة ما عظم قبحه من الذنوب والمعاصي، كما في النهاية لابن الأثير. ثم إنَّ الفاحشة على حسب ما قال في التعريفات، هي الذنوب التي توجب الحد في الدنيا والعذاب في الآخرة. من هنا ندرك أنَّ الله تعالى لم ينهج منهج التوراة في إصدار أوامر جافة، دون تمهيد أو تعليل بذكر الحكمة، بل نهج نهجاً مُختلفاً جداً، وهو أسلوب النهي، مع بيان حكمة هذا النهي، وهو أنَّ الزنا فعلٌ قبيحٌ في نظر الخالق ويستوجب إقامة الحد على فاعله في الدنيا ردعاً له. فإن أصرَّ على فعلته واجه يوم القيامة عذاب النار. وقد علَّلت الآية حكمة قبح هذا الفعل أيضاً، حين ورد في آخرها ﴿وساء سبيلاً﴾. بمعنى أنَّ فعل الزنى يُعتبر سلوكاً وخيماً من حيث العواقب التي تتأتى عنه. فهذه هي دلالة (ساء سبيلاً).

وهكذا يتجلى لنا الفرق الواسع ما بين تعاليم التّوراة وتعاليم القرآن الكريم.

والفرق الثاني الذي نلاحظه، هو أنّ التعليم التّوراتي، في حين ورد مصطبغاً بصبغةٍ عشائريّة ضيّقة، أتى التعليم القرآني عالمي الصبغة مترفعاً عن تلك النظرة الضيّقة التي لاتصلح كتعليم عالمي. لذلك نجد القرآن الكريم يُطالب المؤمن فيه ببيعته ويلزمه التقيّد بها طوال حياته.

ولافرق أن يكون هذا المباح رجلاً أو امرأة أو أبيض أو أسود أو أصفر أو أحمر. ولا فرق أن يكون عربياً أو أعجمياً. فهاكم سورة الممتحنة (١٢) والخطاب فيها موجّه للمرأة المؤمنة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً، وَلَا يَسْرِقْنَ، وَلَا يَنْزِلْنَ، وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ، وَلَا يَأْتِينَ بِهَتَّانٍ يَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ، فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فهاهي ذي المرأة تُخاطب في هذه الآية كالرجل، على حدٍ سواء، وتُسأل عن تصرفها، وتُطالب بمبايعة الله ألاّ تقرب الزنى الذي هو فاحشة وساء سبيلاً. وهكذا يتجلى لنا الفرق الثاني ما بين التعليمين التوراثي والقرآني.

وهناك فرق ثالث. ففي حين أنّ التعليم القرآني قد كرم المرأة وسواها بالرجل، واشترط توفر أربعة شهود تؤيد التهمة الموجهة إليها. بل أوجب معاقبة من يتهمها دون احضار هؤلاء الشهود. فإنّ التعليم التوراثي قد حطّ من كرامة المرأة، وسمح لزوجه أن يتهمها متى شاء، وأوجب عليها الحضور بين يدي كاهن، والكشف عن رأسها، وسقايتها شرباً مرّاً ممزوجاً بالغبار والأوساخ بلا وازعٍ من ضمير أو احتياطٍ من تعليم سماوي.

وهاكم سورة النور (٢-٣)، ولنستمع لما ورد فيها من تعليم راعى المساواة بين الرجل والمرأة في الأحكام: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلِيَشْهَدَ عِدَّتُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. وَالَّذِينَ يُرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ، فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً، وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ، إِلَّا الَّذِينَ تابَعُوا مِنْ بَعْدِ

ذلك وأصلحوا، فإن الله غفور رحيم. والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين. والخامسة أن غضب الله عليها، إن كان من الصادقين. ﴿٣٨﴾

فالواضح من هذه الآيات الكريمة أن الزانية والزاني سيان في إقامة الحد عليهما. والجمع في نبذهما سواء. وقد فتح الله لهما فسحة إصلاح نفسيهما، من بعد إنزال الحد بهما، ذاك أن الله غفور رحيم. وهكذا يتجلى لنا الفرق الثالث ما بين التعليم التوراتي والتعليم القرآني.

وفرّق رابع، نلاحظه هو أن الله تعالى ربط في كتابه القرآن الكريم آثار فاحشة الزنا بعلاقة الحب ما بين الله وبين عباده المؤمنين. منذاً بطرق الخيانة بصورة مطلقة، سواء منها الخيانة الزوجية أو خيانة الوطن والدين وخيانة الأصدقاء. ذلك أنه تعالى اعتد طرق الخيانة بكافة أنواعها، سبباً مباشراً يقطع من جرائه محبته وتأنيده للخائن، ويفصم ما بينهما من وشائج.

فقد قال تعالى في سورة الحج (٣٨) : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾. منبهاً هنا إلى أن بين الحب ومحبيه تعاطفاً وتواصلاً وتعاوناً. فلا يكاد الحب يرى مصيبة تنزل بمحبوبه حتى يسارع إلى نجده ونصرته وتأنيده. ومادام المؤمنون الصادقون مقرّين من الله الذي آمنوا به وعبدوه، فهم أحقّ بنصرته وتأنيده. فهذا ما أفاده قوله تعالى هنا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مستدرّكاً قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾. بمعنى أن تأييد الله ونصرته هذه يفوز بها المؤمنون، مالم يخونوا عهودهم، ويدخل في ذلك عهد الزوجية وسواه. فمن خان فإن عليه خيانتة. وهذه الخيانة أول ماتقتضي خسران نصرة الله لهذا الخائن لعهوده، ومحبته إياه.

وقد نبّه القرآن الكريم في الوقت نفسه المؤمن والمؤمنة في سورة غافر (١٩) إلى أن ربهم الخبير العليم والخصي البصير ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أي ماتخون به الأعين حين تسارق النظر إلى مالا يحلّ. وقد جاء هذا التنبيه لأذهان المؤمنين، ليظلموا يقظين للفرق الشاسع الذي هو أيضاً ما بين ما بين المحب في الله والمحب في غير الله. فالمحب في غير الله قليلاً ما يتنبه إلى خائنة الأعين

وماتُخفى الصدور. أما المحبّون في الله يتملّكهم اليقين التّام في كلّ لحظة من حياتهم من أنّ محبوبهم الله ﴿يعلم خائنة الأعين وماتُخفى الصدور﴾. وهذه الحقيقة قد أغفلها التّعليم التّوراتي، بينما وضّحها التّعليم القرآني. فالتّوراة تركت باب الغيرة والشك مفتوحاً على مصراعيه أمام الزوج، كأنه وزوجته لاتربطهما رابطة إيمان بالله ولا محبة ولا احترام. وكأنهما لا يدريان أنّ الله يعلم خائنة الأعين وماتُخفى الصدور، ولا قيمة في نظرهما لنصرته وتأييده ومحبّته.

وهذا الفرق الرّابع الذي لاحظناه ما بين التّعليم التّوراتي، والتّعليم القرآني، كان من العسير جدّاً على محمد اليتيم الأمّي أن يتنبه إليه من نفسه ويبرزه للبيان في القرآن المبين، لولا أن كان قد تلقّاه عن طريق وحي ربّه، ربّ العالمين.

والفرق الخامس الملاحظ ما بين تعليمي التّوراة والإنجيل، والتّعليم القرآني هو ما يستدل عليه من النّص الإنجيلي الذي سبق أن أوردناه، وهو قول المسيح : (فاقلعها وألقها عنك، لأنّه خير لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يلقى جسدك كلّهُ في جهنم).

إذ يُستدل من هذا النّص أنّ الإنجيل يقول ببعث الأجساد التّرابيّة نفسها يوم القيامة. على حين يُستدل من التّعليم القرآني أنّ هذه الأجساد عارضة زائلة وآيلة إلى تراب. وأنّ الأنفس ستبعث يوم القيامة بأجسام غير هذه. وقد وضّحت هذه الحقيقة في مؤلّفي (الرأي) ص ١٩٦، وفي مؤلّفي (النظرية الكونية) ص ١٠٤ فليُرجع إليهما.

والعجيب أن تسكت التّوراة والإنجيل عمّا ستؤول إليه النّفس البشريّة بعد الموت. وقد أتى القرآن الكريم في هذا المجال بما يُدهش العقول النّيّة من معارف مؤيّدّة بالأدلة العلميّة والبراهين النّاطقة، وهل يُعقل أن تأتي عبقرية محمد اليتيم الأمّي بمثل هذه المعلومات، من دون مددٍ وحيٍّ أمده به ربّ العالمين الذي ستؤول إليه أنفس عباده؟

ونحن نكتفي بالكشف عن هذه الفروق الجذريّة ما بين التّعليم التّوراتي والتّعليم القرآني، في موضوع الزنا والخيانة الزوجيّة، بعد أن أثبتنا استحالة التّسليم بما زعمه الأب حدّاد وسواه، زعمهم أنّ محمداً اليتيم الأمّي قد استقى

أحكام دينه الإسلام بما تلقاه على أيدي الرهبان الذين عاصروه كالراهب بحيرا وسواه من الرهبان، وأنه صاغ ما تعلمه من هؤلاء الرهبان في القرآن الكريم بلسان عربي مبين.

فشتان ما بين تعليم عشائري مخصوص بقوم بعينه. وما بين تعليم عالمي لا يفرق بين قوم وقوم، أو لون ولون، وبين صاحب لسان ولسان، أو بين رجل وامرأة، من حيث كونهما إنسانين من طينة واحدة ونفس واحدة. وشتان ما بين تعليم يُصدر أوامره جافة، تلزم الآخرين دون إقناع، وما بين تعليم لا يكره نفساً على أمر من أوامره، وإنما يطالبه إذا آمن أن يُطيع الله تعالى يتقبل ما يلحقه به من عقاب.

هذا الأمر القائم على أساس من عقد التراضي ما بين الله وعبده المؤمن وأن يتلقاه هذا المؤمن مُعللاً بالأسباب والحكمة منه، مع تقديم الأدلة العقلية والعلمية المقتنة بصحته.

وشتان ما بين إهمال التعليم التوراتي تعرضه من قريب أو بعيد إلى الآثار التي تتركها فاحشة الزنا والخيانة الزوجية على علاقة العبد بربه. وما بين تعرض التعليم القرآني لبيان هذه الآثار، إلى جانب تنبيهه إلى ما بين الحب في الله وفي غير الله من فروق.

وشتان ما بين تعليم توراتي وإنجيلي يقول ببعث الأجساد الترابية بعد موتها : كأن يُبعث الأعمى أعمى، والأعرج أعرج، والمفقود العين أعور، وما بين تعليم القرآن الذي ينبه إلى أن هذه الأجساد الترابية هي مجرد أداة لخلق نفس الإنسان وتطويرها وربطها بخالقها. مع بيان الأدلة القاطعة التي تؤيد ذلك في كل مقام تعرض القرآن الكريم فيه لهذا الموضوع.

وهكذا نكون قد توصلنا، بما بسطنا القول فيه بأسلوب علمي، إلى أن عبقرية محمد بن عبد الله ﷺ الدينية المزعومة، يستحيل أن تأتي بهذه الفروق التي وضّحناها في مجال أحكام الزنا والخيانة الزوجية.

إلا أن يكون قد أمده الوحي الذي أنزله القرآن على قلبه ﷺ هدى ورحمة للعالمين. وهو الله الذي خلق الذكر والأنثى من نفس واحدة، وجعلهما سواء في الحقوق والواجبات. والله هو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. فهو المحاسب الحقيقي، فلا يحق للزوج اتهام زوجته بمجرد الغيرة والظن

ودون تقديم دليل قاطع وجلي، فكيف يُعقل أن يكون التعليم التوراتي الذي أوردناه سماوياً أو منطقياً، في مقابل هذا التعليم القرآني السماوي المسلم به؟

٧- دليل المصادقية السابع :

ونتناول في دليلنا السابع هذا قضية منهاج الحياة العلمي، فنقول : إنَّ الباحث في التوراة والإنجيل المعاصرين، لا تراءى له معالم أيّ منهج علمي للحياة في كليهما. بينما يراءى له معالم هذا المنهج في أوائل آيات سورة البقرة، وهي أول سورة قرآنية من حيث ترتيب تلاوة القرآن الكريم.

والمعلوم لدى العقلاء الباحثين هو أنَّ منهج الحياة، لا يُطالبُ به إلاَّ الذين بلغوا سنَّ رشدهم وتجاوزوا طفولتهم. وهذا الأمر ينطبق على الأمم كما ينطبق على الأفراد. فالوالد الذي يخاطب أطفاله، يأمرهم بالالتزام بأوامره والانتهاز عن نواهيهم. يأمرهم بالصدق والأمانة وعدم الاعتداء.

وهأنَّ موسى عليه السلام وقد تلقَّى الوصايا العشر على جبل الطور : ﴿لَا تَقْتُلْ. وَلَا تَزْنِ. وَلَا تَسْرِقْ. وَلَا تَشْهَدَ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةً زُورَ. وَلَا تَشْتَهَ امْرَأَةً قَرِيبِكَ. وَلَا تَشْتَهَ بَيْتَ قَرِيبِكَ. وَلَا حَقْلَهُ. وَلَا عِبْدَهُ. وَلَا أَمْتَهُ وَلَا ثَوْرَهُ وَلَا حِمَارَهُ وَلَا كُلَّ مَا لِقَرِيبِكَ﴾. تلقَّى هذه الوصايا التي ذكرتها التوراة وأضاف بعدها : (هذه الكلمات، كلَّم بها الرَّبُّ كلَّ جماعتكم في الجبل من وسط النَّارِ والسَّحابِ والضُّبابِ وصوتٍ عظيمٍ، ولم يزد). تثنيه ٢٢/٥.

إنَّ ألفاظ (و لم يزد) تدلُّ دلالة صريحة وقاطعة على أنَّ الله تعالى الذي حين كلَّم موسى، كان ينظر إلى عشيرة بني إسرائيل على أنَّ أفرادها لا يزالون أغراراً يُمضون دور طفولتهم العقلية. فلم يكونوا قد بلغوا سنَّ رشدهم بعد. لذلك لم يطالبهم ربُّهم بانتهاج منهج للحياة يلتزمون به. وعليه فإنَّ الوصايا العشر لا تزيد على كونها نظام سلوكٍ بشريٍّ. وقد ركَّزت الوصايا على الأعمال، ولم تلاحظ منهج العقائد والإيمانيات التي تُمتُّ في الأصل إلى الفلسفات والنظريات بصلة من الصِّلات.

من هنا، إنَّ نحن استعرضنا الفقرة التي استوطن فيها بنو إسرائيل أرض كنعان، لاحظنا أنَّهم لم يتركوا فيها أيَّ تراثٍ علميٍّ. بل كانوا في معارفهم عالية على الأمم من حولهم كالفينيقيين وسواهم. فقد استعانوا بمن حذق فنَّ البناء من

الفينيقيين على سبيل المثال، لبناء المعبد الذي شاده سليمان الحكيم. كما اعتمدوا القوة العسكرية نهجاً للدفاع عن كيانهم وأنفهم. فلم تتولد على أيديهم علوم، ولازودوا العالم من حولهم بزايد علمي. فلم يعرفوا إلا بالهيمنة وسفك الدماء. وهذه الحقيقة التاريخية التي وضحتها آنفاء، لم تأت عن اجتهاد شخصي. بل أقرّ بها مؤرخو اليهود أنفسهم. فقد كتب كوهلر في دائرة المعارف العبرية ص ٣٥ (Berry : Religion of the Word p35) يقول : (إنّ اليهودية ليست عقيدة أو نظاماً من العقائد يتوقّف على قبولها الفداء أو الخلاص في المستقبل. وكلّها نظام للسلوك البشري، وناموس البرّ الذي يتحمّس على الإنسان إتباعه. ويقرّر الفكر اليهودي بناء على ذلك أنّ الجزاء يكون حسب الأعمال، لا حسب الاعتقاد).

وهذه الحقيقة التاريخية أقرّ بها اليهود أنفسهم، حسبما دلّ عليه كلام اليهودي المؤرخ كوهلر. وهذه الحقيقة دفعت المؤرخ (ول ديورانت) ليكتب في مؤلفه الضخم "قصة الحضارة"، معتبراً هذه الحقيقة تكمن وراء سكوت التوراة عن الكلام عن الآخرة والبعث والحساب (قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤٥). وهذه الحقيقة التاريخية هي التي اضطرت المؤرخ (آرثر هيرتزبرغ Arthur Hertyberg) أيضاً، ليكتب في مؤلفه (Judaism) ص ٢٠٥ : (إنّ الكتاب المقدّس نفسه يعتبر الحياة الدّنيا وحدها، هي عالم الإنسان، وليس هناك اعتقاد بعد ذلك في بعثٍ وجنةٍ أو نارٍ).

هذا ولم يكن الناس يعلمون في هذه المنطقة أكثر مما أوردته التوراة والأنجيل من أوامر ونواهٍ وأنظمة للسلوك البشري. يوم طلع محمد اليتيم الأمّي على الناس بهذا القرآن العظيم، الذي احتوى على نهج حياتي علمي. متجاوزاً بذلك مرحلة أنظمة السلوك البشري. حدث هذا لاكتمال عقل الناس، وتأهّلهم في نظر الخالق لتلقّي مثل هذا المنهاج القرآني المختلف جذرياً عما أتت به تعاليم التوراة والإنجيل.

وكما سبق أن قلت، فإنّ هذا المنهاج الحياتي العلمي تضمنته الآيات الأوائل من سورة البقرة من خلال قوله تعالى : ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب. وقيمون الصلوة ولما رزقناهم ينفقون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾. ومن خلال هذه الآيات الكريمة

وما اشتملت عليه من منهاج ودلالات أحدث القرآن الكريم ماعجزت عن إحدائه تعاليم التوراة والإنجيل من تغيير وتبديل وتطوير في حياة الناس أجمعين. فما معنى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾؟

الإيمان من حيث دلالاته اللغوية، يشمل النظرية والتطبيق، الاعتراف بشيء والتصديق به والعمل على ما يستلزمه هذا الإيمان. أما الغيب في اللغة، فهو كل ما استتر عن الحواس وغاب عن علم الإنسان. وكل مكان لا يدري الإنسان ما فيه فهو غيب. كذلك فإن كل ما وراء أي موضع أو مكان من الأمكنة فهو غيب أيضاً. وعليه فإن الغيب، على حسب ماورد في معاجم اللغويين يشمل أولاً : كل ما لا يقع تحت الحواس، ولا تقتضيه بداية العقول. كالحقائق الثابتة التي تحدث عنها القرآن الكريم وهي الفطرة والنفس البشرية والقوانين القدريّة وحياة ما بعد الموت. فهذه حقائق نبّه القرآن الكريم المؤمنين إلى ضرورة الإيمان بها كحقائق ثابتة، من قبيل الغيب، الغائب عن الحواس. فلا يكتمل إيمان المسلم إلاّ بإيمانه بوجود هذه الحقائق، والاهتداء بتعاليم القرآن الكريم المتعلقة بهذه الأمور الغيبية.

هذا الكتاب الذي برهن على وجود هذه الحقائق الغيبية بمختلف الأدلة والبراهين. فمن يتابع تدبر آيات القرآن من هذا المنطلق المنهجيّ. تراءى له علوم لم يسبق أن عرفتها البشرية من قبل نزول القرآن. وحتى إن البشرية لاتزال دون مستوى معرفة تلك العلوم من نفسها يقيناً.

فهذا مادّل عليه قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾. وقد شاء الله عز وجل أن يُنبّهنا إلى أن الإيمان بالغيب، إنما هو أساس العروج إلى الله والتقرب منه. لذلك نلاحظ أنه أضاف قوله : ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِالصَّلَاةِ﴾. والصلاة في اللغة هي الدعاء، وقد أتى الإسلام بالدعاء بصيغة حركات الصلاة المعروفة وقراءاتها وأدعيتها. فجعل هذا هو الأسلوب المعتمد في التوسّل بين يدي الخالق، وعلى أساس من الإيمان بالغيب. فالصلاة هي معراج المؤمن إلى ربه وعماد دينه. والإسلام قد نسخ بهذا التعليم نظام الكهنوت الذي كان اليهود والنصارى قد التزموا به من قبل نزول القرآن الكريم. وقد جعلت الأرض للمسلم نتيجة لذلك مسجداً وطهوراً. بعد أن حُذفت وساطة الكهانة مابين العبد الداعي وربّه. ولم يكن ذلك ممكناً زمن موسى وعيسى وبقية أنبياء بني إسرائيل. وقد أحدث القرآن

الكريم بهذا النهج التقوي للحياة إنقلاباً جذرياً في تاريخ الأديان السماوية. فلم يكن مأتى به القرآن الكريم اختلافاً من قبل محمد اليتيم الأمي والعياذ بالله، وإنما حقق هذا التبدل الجذريّ تعليم ربّ العالمين.

من هذا لا بد أن يكون القارئ قد أدرك سرّ بطلان الصلاة دون التلاوة فيها بفاتحة الكتاب. فلم يعد هناك من محلّ للدعاء الإنجيلي : (أبانا الذي في السماوات. ليتقدّس اسمك. ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتكم كما في السماء كذلك على الأرض. خبزنا كفافاً أعطنا اليوم. واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا. ولا تدخلنا في تجربة. لكن نجنا من الشرير لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين) متى ٩/٦.

أقول : لم يعد لهذا الدعاء الإنجيلي من مكان بعد نزول قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ لأنّ مشيئة الله التي اقتضيت تعليم الناس منهاجاً حياتياً ينهجونه ويعرجون به إليه تعالى، قد باتت كذلك على الأرض. فقد أتى ملكوت الله الذي أنبىء عن نزوله في التوراة والإنجيل. ولم يعد للبشر من داع يدعوهم إلى الدعاء، بألفاظ الدعاء الإنجيلي، من بعد طلب القرآن الكريم الذي طلبه من المؤمن إقامة الصلوة الإسلامية. فهذه الصلاة الإسلامية عادت طريق التوسّل والتضرّع بين يدي الله عز وجلّ. هذه الصلوة التي شرّعت لتشكّل صلة الإنسان الضعيف المتعبّد، بالله الخالق القوي الرحيم. فعدت الصلاة جزءاً من خصوصيات الأمة الإسلامية ومن مقوّمات وحدتها وتماسكها.

وقد صيغت الصلاة الإسلامية على هيئة وقوف متأدّب ودعاء بدعاء سورة الفاتحة. وركوع بحاء عظمة الله وتنزيهه بالقول سبحان ربّي العظيم. وسجود بين يدي الله عز وجلّ، وتنزيهه بالقول سبحان ربّي الأعلى. فهذا المعراج الإسلامي قد صيغ على الصورة التي ذكرناها بأسلوب علمي، جوهره التوسّل والتضرّع بطلب الإهداء إلى سبيل الذين أنعم الله عليهم بقربه وهدايته ووصاله من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. فشتان ما بين دعاء الإنجيل، وما بين الدعاء القرآني. وقد جاء في الحديث الشريف (مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ غَمَرٌ عَلَى بَابٍ أَحَدَكُمْ، يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ).

ولما كان معراج المؤمن إلى ربه لا يكتمل دون الإحسان إلى عباد الله تعالى ومخلوقاته ومحبتهم، لذلك أتبع الله عز وجل ذلك قوله : ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ

يُنْفِقُونَ». والرزق في اللغة العربية يُراد به كلُّ ما ينتفع المرء به من مالٍ وعلمٍ وصحةٍ ومتاعٍ لمصلحة جسمه ونفسه ودنياه وآخرته.

وليس المقصود بالرزق هنا الطعام والشراب والأنعام من حيث أصل دلالة هذا اللفظ، وإن استعمل الرزق للمطر النازل من السماء على سبيل الاستعارة. فهو تعالى عندما قال: ﴿فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾، لم يقصد بقوله هذا الطعام والشراب والأنعام وخيرات الطبيعة على أنها مجموعة في السماء لتوزيعها. إنما أراد أن أسباب توفر هذه الأرزاق، يكمن في السماء، وفيما تفيض به السماء على الأرض. إشارة إلى تدخّل المشيئة السماوية في أمر توفير هذه الأسباب.

والذي يؤيد هذا المعنى، ملاحظتنا أنه تعالى أقسم بعده مباشرة وقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾. أي أنّ لربوبيته خالقكم دخلٌ في كل ما ينزل من السماء من خير. أي أنّ أسباب رزقكم مفاتيحه بأيدي ربوبيته عز وجل.

وزبدة الكلام في معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. هو أنّ الله عز وجل، وقد بلغت البشرية دور رشدّها وتكاملها، فقد بعث محمداً ﷺ اليّتم الأمّي بهذا النهج العلمي للحياة، هذا النهج الذي تضمّنته هذه الآية الكريمة من سورة البقرة، تنبيهاً لأذهان النّاس، إلى أنّه قد مضى زمن تلقّي أوامر السماء المتضمّنة نظام سلوكٍ بشريّ، وآن للنّاس أن يتفكّروا في خلق السماوات والأرض، وأن يتلقوا منهاجاً للحياة علمياً، قد أسّس على نظريّات وفلسفات. وقد أوجز خالقنا هذا المنهاج في أوّل سورة من كتابه القرآن، يدعوهم فيه للإيمان به والانطلاق في حياتهم اليومية على ضوئه ومن معطياته، هذا المنهاج الذي ارتكز إلى شُعَبٍ ثلاث هي الإيمان بوجود حقائق ثابتة لا تدركها حواسُّهم، بل تحتاج منهم لتدبّر ما نزل بشأنها من تعاليم في هذا القرآن. وهي هذه الفطرة التي فطرهم خالقهم عليها، ونفسهم البشرية التي لا بدّ من تطويرهم إياها، وهذه الحياة الآخرة التي ينبغي لهم أن يؤمنوا بوجودها ويضعوها في اعتبارهم، في كلّ ما يقومون به ويقدمون عليه من عملٍ أو تصرّف. عاقدين العزم على التقرّب من خالقهم الذي هداهم إلى هذا المنهاج، فضلاً من

ربوبيته عليهم ومنه ونعمة مقيمين هذه الصلاة التي هي الدعاء والتضرع بين يديه عز وجل.

مُتَّخِذِينَ مِنْهَا مَعْرَاجًا لَهُمْ يَرْجُونَ بِهِ إِلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ. بِأَذْلَى كُلِّ مَا تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَعِلْمٍ وَجَهْدٍ وَطَاقَةٍ، عَلَى مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ وَعِبَادِهِ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ، وَهَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ؟

وإنَّ الذي يُوَكِّدُ مَا نَبَّهَتْ إِلَيْهِ الْآيَةُ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْمُنْهَاجِ الَّذِي طَرَحَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُنَا، هُوَ أَنَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ، بَعْدَ أَنْ أُنْبَأَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ أَنَّ النَّاسَ سَيَنْقَسِمُونَ بَعْدَ إِنْزَالِ هَذَا الْقُرْآنِ إِلَى فَرِيقٍ مُؤْمِنٍ، وَآخَرٍ مُنَافِقٍ وَثَالِثٍ كَافِرٍ بِهِ، تَوَجَّهَ بِخُطَابِهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً يَدْعُوهُمْ لِلْأَخْذِ بِمَنْهَجِ الْحَيَاةِ الْعِلْمِيَّةِ هَذَا، لِيَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَحْذَرُونَ عَوَاقِبَ مَا يَقُومُونَ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ، قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة (٢١)]. وَأَكَّدَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَخْلُقْهُمْ عَبَثًا، بَلْ لِيَعْبُدُوهُ وَيَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ، وَذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ٢٩.

وَالْعِدَدُ (سَبْعٌ) لَا يَقْصِدُ بِهِ رَقْمَهُ، وَإِنَّمَا الْكَثْرَةُ فَقَدْ نَبَّهَ صَاحِبُ مَعْجَمِ لِسَانِ الْعَرَبِ إِلَى أَنَّ رَقْمِي سَبْ وَسَبْعُونَ يَسْتَعْمَلُهُمَا الْعَرَبُ لِمَجْرَدِ الْكَثْرَةِ عَمُومًا. وَالْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى فَتَحَ لِعِبَادِهِ الْمُصَلِّينَ آفَاقَ سَمَوَاتٍ لَا تَقِفُ دُونَهَا حُدُودٌ.

فَهَذِهِ هِيَ مَعَالِمُ "نَهْجِ الْمُتَّقِينَ" الْجَدِيدِ الَّذِي طَلَعَ بِهِ عَلَى النَّاسِ التَّعْلِيمِ الْقُرْآنِي، وَبَشَّرَ بِهِ مُحَمَّدٌ الْبَيْتِيمُ الْأُمِّيَّ. فَهُوَ نَهْجٌ قَائِمٌ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَعَلَى مَعْرَاجِ الصَّلَاةِ، وَعَلَى الْبَذْلِ تَمَّا رَزَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنَ مِنْ مَالٍ وَعِلْمٍ وَجَهْدٍ.

فَأَنِّي لِمُحَمَّدٍ الْبَيْتِيمِ الْأُمِّيَّ أَنْ يَأْتِيَ بِهَذَا مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَتَدَعَاهُ؟ وَلَوْ فُرِضَ أَنَّهُ اطَّلَعَ عَلَى تَعَالِيمِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ مِنْ رُهْبَانٍ عَصَرَهُ وَبَيْتُهُ، فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ مُعْطِيَّاتِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الَّتِي لَمْ تَتَجَاوَزْ تَعْلِيمَ الْإِنْسَانِ الْيَهُودِيِّ أَكْثَرَ مِنْ مَبَادِيءِ نِظَامِ سُلُوكٍ بَشَرِيٍّ، وَمَا بَيْنَ مُعْطِيَّاتِ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي أَتَى بِمَنْهَاجٍ قَائِمٍ عَلَى أُسَاسِ إِيْمَانٍ بِأُمُورٍ غَيْبِيَّةٍ لَا تَدْرِكُهَا حَوَاسِ الْإِنْسَانِ. إِضَافَةً إِلَى أَنَّهُ فَصَّلَ هَذَا الْمُنْهَاجَ وَشَرَحَهُ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْحَقَائِقِ الْغَيْبِيَّةِ تَفْصِيلًا لَا تَغِيبُ عَنْهُ مِنْهَا شَارِدَةٌ

ولاوارد. وقد أثبتت الآيات صحة ما أتى به القرآن بشأن ذلك من عظات روحية وتعاليم.

وهل كان بإمكان عبقرى ديني، مهما بلغ شأن عبقريته، أن يتحول بنظام سلوكي ما، إلى منهاج ينطوي على مالا تدركه حواسه؟ إلى منهاج لم يأت به إنسان سواء أكان هذا الإنسان عالماً أو صالحاً أو نبياً إلا عن طريق وحي ربه الذي يعلم السر وأخفى؟

وهاهم أولاء اليهود والنصارى، وبين أيديهم تعاليم التوراة والإنجيل، قد أنجبوا في القرن التاسع عشر من أسموه عبقرى زمانه، ظناً منهم إحاطته بعلم غيب النفس البشرية، وهو العالم اليهودي (فرويد). فهم هللوا يومذاك لكتبه وصفقوا لها تصفيقاً طويلاً صاحباً. لكنه ما إن أهل عليهم القرن العشرون، حتى أدرك باحثوهم خطأ جميع ما أتى به (فرويد) من تأويلات وتفسيرات للنفس البشرية. فعاد هذا اليهودي باحثاً عادياً في أعين أهله وقومه، بعد أن تبين لهم أن أشياء هذا الكون ماهي بمادة محضه، بل تحتوي على عنصر روحي غيبي، غاب عن أعين الناس وحواسهم، وقد بسطت القول في ذلك ضمن كتابي (النظرية القرآنية الكونية) فليرجع إليه.

ومادام البشر لم يحيطوا علماً حقيقياً بحقائق الغيب حتى عصرنا هذا. فكيف يزعم الأب حداد ومن على شاكلته من أعداء الإسلام أن محمداً قد صاغ معلومات التوراة والإنجيل بعبقريته الدينية الفذة ولسان عربي مبين؟

ثم إن الباحث المتدبر لا يلاحظ معالم منهج الحياة العلمي هذا في التعليم القرآني وحسب. بل يلاحظ إلى ذلك اقترانه بمنطلقات نظرية مذهبة، لا بد من اعتمادها والتركيز عليها لتوحيد العالم، على أساس هذا المنهج الروحي. فقد جاء بعد آية المنهج المذكورة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي أن القرآن الكريم أمر، إلى جانب ضرورة الأخذ بمنهج الحياة العلمي هذا، أمر بالإيمان بما أنزله الله قبل ظهور الإسلام، والاعتراف والتصديق بجميع ما نزل من كتب سماوية وتعاليم على أيدي الأنبياء والمرسلين. على اعتبار أن جميع ما أنزله الله من قبل كان يشكل حلقات توطئة وتمهيد وإرصاد لنزول

هذا القرآن العظيم. فهذا النهج، وبهذه المنطلقات بالإمكان توحيد عالمنا، وعليه يرتكز تقدمه وترقيته.

وقد كان هذا الإنجاز الذي حققه القرآن الكريم في تاريخ البشر، قفزةً فريدةً مُتميّزة، منحتَه سِمةً عالمية. ورسخت في أذهان البشر عقيدة وجود الخالق ربّ العالمين. كما أثبتت هذه القفزة من جهةٍ أخرى أنّ بعثة محمد اليتيم الأمي ﷺ كانت رحمةً للعالمين.

فشتان ما بين هذا الذي جاء به القرآن، وما جاءت به التوراة والإنجيل على هذا الصّعيد، ففي الوقت الذي أتت التوراة فيه بتعاليم نظام سلوكٍ بشريّ، لا يتعدى مجرد الأمر والنهي (لا تقتل، لاتزن.. الخ) دون منهجٍ أو بيانٍ حكميةٍ لهذه الأوامر أو النواهي. أتى هذا القرآن الكريم بنهجٍ علميٍّ للحياة ومبادئ لتوحيد العالم بأسره، على أساس وجود إله واحد خالق هو ربّ العالمين. ماراً مرور الكرام على ما أورده التوراة في سفر الخروج ١٢/١-١٠ : (أنا الربّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر بيت العبوديّة، لا يكن لك آلهةٌ أخرى أمامي.) هذا الكلام الذي يستشعر المرء من سماعه أنّ الربّ الإله مُختصٌّ ببني إسرائيل. وكأنّ ثمة آلهة أخرى سواه، لأسمٍ أخرى غير بني إسرائيل، ساكناً عن وجود ربّ العالمين.

والسؤال هو: هل يصحّ أن تكون عبقرية محمد اليتيم الأمي قد قويت على تجاوز الحواجز العنصرية والإقليمية من نفسها، وعلى ابتداع هذا النهج العلمي للحياة بمجرد اطلاع محمد رسول الله على مالدی رُهبان عصره من نصوصٍ توراتيّةٍ وإنجيليّةٍ، أو بمجرد إفادته ثمن لقي من أناسٍ خلال متاجرته بحالٍ خديجة : يهوداً كانوا أو نصارى؟

أقول : لا يستطيع عاقل، أيّ عاقل، التّسليم بهذا الزّعم وهذا الإدّعاء. إذ ليس في إمكان محمد وعبقريته أن تطلّعا على ما غاب عن الحواس. وأيّ داعٍ يدعوهُ إلى مواخاة الرّومي والفارسي، وقد كانا أمّتين تستهينان بالعرب والعربيّة، وتطمعان بالهيمنة على شبه جزيرة العرب؟

ألا إنّ هذا الطّرح المنهجي الذي لم يسبق لأحدٍ في تاريخ البشر أن طرحه. وهذا الأساس المتين الذي استعان به لتوحيد شعوب الأرض، ما كان ليأتي في الآيات الأوائل من هذا القرآن، إلا بتخطيطٍ من الله الخالق، ليكون

هذا المنهج والأساس، دليلاً قاطعاً على أنّ محمداً ﷺ اليتيم الأمي لم يفتر هذا القرآن على ربه. بل كان هذا الوحي القرآني تنزيلاً ورحمة من رب العالمين.



٨. دليل المصادقية الثامن :

والدليل الثامن والقاطع الدلالة على أنّ محمداً رسول الله ﷺ لم يفتر هذا القرآن من عند نفسه، هو معجزة الأذان الإسلامية.

نتساءل عن سرّ امتياز الإسلام بهذه الوسيلة الإعلامية؟ وتبيّن حكمة ذلك من خلال ماسلف أن أوردناه في دليلنا السّابع. وهو أنّ تعاليم التوراة المعاصرة خاطبت عشيرة بني اسرائيل الذين كانوا لا يزالون في دور طفولتهم العقلية والعلمية، لذلك أتت تلك التعاليم مجرد تعاليم لنظام سلوك بشري لطائفة محدودة من البشر حصراً، لاتتجاوزهم في الدعوة إلى الخلق عامة.

هذا وإنّ قرع النواقيس والنفخ في البوق دعوة للمصلّين، شكّلت يؤمّنز الأداة البدائية الصالحة لمن كان في المراحل الأولى من الوعي، وهذه الوسائل الإعلامية البدائية، تعدّ في حدّ ذاتها الدليل الواضح الذي يُنبّه أذهاننا إلى أنّ الله تعالى لم يبعث موسى وعيسى بدعوة وتعاليم عالمية، بل كان بعثهما إلى خراف بني اسرائيل الذين استعبدتهم فرعون مصر. خصوصاً وأنّه تعالى أطلعنا على ذلك في القرآن الكريم من أنّ قوم موسى كانوا مُستضعفين عند فرعون. كما أخبرنا أنه كان أرسل رسوله عيسى بن مريم إلى بني اسرائيل تكلمة لما جاء به موسى والأنبياء من بعده.

فهذا الفرق الحادث ما بين الإعلاميين: الإسرائيلي والإسلامي يدلّ دلالة واضحة على أنّ محمداً اليّتم الأمّي لم يتلمذ على أيدي الراهب بحيرا ولا على أيدي سواه من الرهبان. خصوصاً وأنّ الأذان الإسلامي الإعلامّي لم يوح به إلى محمّد ﷺ نفسه، بل أوحى به إلى صحابيّين من أصحابه، وأحدهما عمر بن الخطّاب الصّحابيّ المشهور.

والآن لنمعن نظرنا في كلمات الأذان نفسه. ابتداءً مما أورده أصحاب المعاجم في مفرداته. قال صاحب محيط المحيط : أذن المؤذن بالصلاة : أعلم بها. وأذن الأمر: أكثر إعلامه. والأذان معناه الإعلام مُطلقاً. والأذان في الشرع : إعلام على وجه مخصوص. وبناءً عليه فالأذان يعني الإعلام. وهو بذلك يشكّل وسيلة إعلاميّة متحضّرة لاتشبه وسيلة الإعلام البدائي، المتمثّل بقرع أجراس الكنائس، كما تفرع أجراس المدارس لتنبية الطلاب.

والذي يُريد إعلام جماعة متعبدة، إعلاماً واعياً، ليدكرهم فيه بعبادة رب العالمين، لا بدّ له أن يُخاطبهم مخاطبة ذات دلالة، وهكذا الحال في كلّ أمر هام يراد إبلاغهم آياه قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ، جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ، ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ يوسف (٧٠) فقد عمد يوسف عليه السلام إلى الأذان لإخبار القوم بأمر هام. وقد كانت وسيلته هذه وسيلةً متحضرة.

وكان الصحابة قد تشاوروا قبل فرض الأذان على أن ينصبوا علامة يعرفون به وقت الصلاة. فأشار بعضهم بالناقوس. فقال الرسول هو للنصارى وأشار بعضهم بالبوق. فقال الرسول هو لليهود. وأشار بعضهم بالدف، فقال الرسول هو للروم. وأشار بعضهم بإيقاظ النار، فقال الرسول ذلك للمجوس..

فقام رسول الله ﷺ مُهْتَمّاً بهذا الأمر، فرأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة في تلك الليلة في نومه ملكاً علّمه الأذان والإقامة. فأخبر النبي ﷺ بذلك، وأردف على ذلك عمر بن الخطاب (رضي) أنه رأى مثل ما رأى زيد في منامه. فقال رسول الله ﷺ لقد شرّع الله تعالى لنا الأذان إعلاماً وتذكيراً. وحديث عبد الله بن زيد بن ثعلبة هذا مشهور.

والذي سنّه لنا رسول الله ﷺ هو أن ندعو به بعد سماع الأذان: (اللهم ربّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آتِ مُحَمَّدًا الوسيلة والفضيلة وابعته مقاماً محموداً الذي وعدته). ليدعو المسلم بهذا الدعاء مُنْطَلِقاً بذهنه من أنّ الأذان هو (دعوة تامة). أي دعوة إعلامية احتوت على لبّ لباب التعاليم الإسلامية، وصيغت وسيلة دعوة إعلامية تامة، ناطقة، حسنة البيان، بليغة الإيجاز. فلا تحتل أن يُنقص من ألفاظها لفظاً واحداً، أو يُستبدل كلمة بأخرى، أو يُزاد على ألفاظ الأذان ألفاظاً وجُملاً. لأن الأذان جاء (دعوة تامة)، على حسب التعريف المنصوص عليه في هذا الدعاء المسنون والمتواتر عن محمد رسول الله ﷺ.

وهذا الأذان يُنبّهنا إلى حقيقة أنه مُعجزة إعلامية، وتمثّل إحدى تجليات ربّ العالمين. فهذا هو ما يُستدل من الدعاء المسنون: (اللهم رب هذه الدعوة

التامة). وقد أتت هذه الوسيلة الإعلامية متحضرة وعامة، على مستوى كمال التعاليم التي أتى بها الدين الإسلامي.

نتبين، على أساس من هذا الفهم، علاقة مُعجزة الأذان الإعلامية بعملية جمع المؤمنين للصلاة بين يدي خالقهم ومعبودهم كما نتبين أن هذه الوسيلة الإعلامية، يبدو إعجازها أيضاً، من خلال اختراقها لجميع الحواجز المادية على صعيد الواقع. فهي تقرر بالتذكير أسماع أعتى جبابرة الأرض بطشاً وتجبراً، بإيجاز بليغ جامع مانع. إلى جانب أن مُعجزة الأذان هذه اعتبرت في ديننا الإسلامي شعيرة من شعائره نصاً ومعنى.

فإذا انطلقنا الآن نتفهم الأذان على أساس من تعريفه الذي نصّ عليه دُعاء مابعد الأذان (اللهم ربّ هذه الدعوة التامة..). وعلى أنه دعوة تامة وإعلام وتذكير ونداء جاء في كمال البلاغة والإيجاز. فلا بدّ أنه احتوى على مقدّمة ومضمون وخاتمة. ذلك أن هذه الأمور من علامات كمال مثل هذه الدعوة التامة، وعليه أنطلق في شرح الأذان من هذا المنطلق الموضوعي.

ومادام الأذان في غاية البلاغة والإيجاز، فلا بدّ أن تعدّ أوّل جُمْلَةٍ (الله أكبر) مقدّمة لمضمونه. وأن تعدّ آخر جُمْلَةٍ (لا إله إلا الله) خاتمة لهذا المضمون. وما بين جمليتي المقدّمة والخاتمة مضمون الأذان نفسه.

من هذا المنطلق، نتدبّر جُمْلَتِي المقدّمة والخاتمة، بنهج علمي قائم على أساس من الملاحظة. فالذي نلاحظه هو أنه في حين تبتدئ جُمْلَةُ المقدّمة بلفظ الجلالة (الله)، تنتهي جُمْلَةُ الخاتمة بنفس اللفظ (الله). ونستنتج من ذلك أن مضمون الأذان إعلامٌ حول وجود (الله) عز وجلّ.

ونلاحظ أيضاً أنه في حين ورد لفظ (الله) في المقدّمة مُعرّفاً بصفة (أكبر). وأكبر صيغة تفضيل، أي أن فهم الناس وإدراكهم مهما عظم واتسع، فلا يتسع للإحاطة بعلم ذات الله، على اعتبار أنه تعالى أكبر من كلّ كبير يعرفونه، فقد لاحظنا أن جُمْلَةُ الخاتمة: (لا إله إلا الله) أوردت لفظ (الله) على أنه لا إله في الوجود إلا هو أي لا وجود مستحقّ من الإنسان المحبّة والعبادة إلا الله عز وجل. على اعتبار أن لفظ (إله) اشتق من الوكّله. وهذا الأمر ينطق بقدرة الله وعظمته وسعة علمه وإحاطته ورحمته.

وعليه، ومن خلال هاتين الملاحظتين، نكون قد استنتجنا أنّ مقدّمة الأذان، وخاتمته قد تناولتا وأوجزتا مضموناً واحداً، إنّما من زاويتي نظر مختلفتين. قد أوجزتا أنّ تعاليم الإسلام تدور جميعها حول ذات الله المقدّسة، وكبريائها وعظمتها.

ثم إنّ هذا الاسم (الله) الذي نادى الأذان إليه، هو اسم جامد ذاتي تفرّدت اللغة العربية به، ولم يورده أيّ دين غير الإسلام. فالله هو الإله مُعرّفاً، وكأنّ هذا الاسم قد خُصّ بذات الله جلّ ذكره.

ونتناول مضمون الأذان، أي ما بين جُمليتي مُقدّمة الأذان وخاتمته. وهو: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ مُحمّداً رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، الله أكبر). علماً بأنّ كلّ جملة منها يكرّرها المؤذّن مرّتين.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما الدّاعي ليقول المؤذّن (أشهد)، أي ما الدّاعي لشهادة المؤذّن نفسه ضمن هذه الوسيلة الإعلامية؟

ونجد الإجابة على هذا التساؤل فيما أفادته دعوى جمليتي المقدمة والخاتمة، وهي الإعلان عن وجود الله وكبريائه وعظّمته، فهي دعوى احتاجت إلى دليل وإثبات. وقد جيء بشهادة المؤذّن إثباتاً لصحّة هذه الدّعوى وتكرّر مرّتين أيضاً. فالمؤذّن يقدّم نفسه في هذه الحالة كشاهد إثبات، على أنّه بحث وآمن وتعرّف إلى الله أيضاً.

وقامت شهادة المؤذّن على إثبات أمرين اثنين تدور حولهما تعاليم الإسلام هما (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله) كأوّل جُملي مضمون الأذان.

وسؤال آخر يطرح نفسه: ما دلالة أن يُنادي المؤذّن (حيّ على الصلاة) وهو يلتفت بوجهه نحو يمينه؟

ونجد الإجابة في كتاب الله القرآن نفسه، الذي اصطلح على تسمية المؤمنين بأهل اليمين. فالمؤذّن يلتفت إلى يمينه كرمز يوحى من خلاله أنّه يحثّ المؤمنين للاجتماع للصلاة. ثم إن القرآن الكريم اصطلح لغير المؤمنين اسم أهل الشمال. والمؤذّن يلتفت إلى شماله كرمز يوحى من خلاله أنّه يحثّ المؤمنين للتحقيق في أمر الإسلام وتبيّن أنه طريق الفلاح. فالمؤذّن يقدّم نفسه شاهداً حيّاً على تبني الصّلاة الإسلامية من جهة، وتبيّنه بصورة عملية طريق الفلاح.

وكان المؤذن يقول بالفاظٍ أخرى: إن الحياة الدّنيا تتأرجح ما بين حياة خسران وحياة فوز وفلاح، وأنّ الإيمان بالله وبرسوله وتبني تعاليم الإسلام عملياً هو طريق الفوز والفلاح.

ويُنهي المؤذن مضمون أذانه بجملة (الله أكبر) أي لمرجعية للإنسان في حياته ولا سبيل لنجاته وفلاحه إلا الرجوع إلى الله الذي لا يفوقه في عظمته ووسيلة هدايته أي عظيم دونه. على اعتبار أنّ (أكبر) هي صيغة تفضيل.

هذه هي دلالات ألفاظ وسيلة الأذان الإسلامية المعجزة ورموز حركات المؤذنين. فإن أمعن المرء فيما يتركه الأذان من آثار في نفوس سامعيه، فسيعلم أنّ ألفاظ الأذان تحرك عقولهم، وتهز أوتار أفتلتهم هزاً عميقاً، لايهزها شيء آخر مثله.

وهكذا فإنّ الأذان، وعلى الصّورة التي وضّحتها، يُعدّ دعوةً تامةً موجهة إلى الناس كافة، له مقلّته ومضمونه وخاتمته.

فهو كتابٌ إعلامي موجّه إلى المؤمنين وغير المؤمنين في آنٍ واحد، وضمن خطة إعلامية متّصفة بصفة العقلانية والمنطقية والحضارية.

الأذان خطة عقلانية، لأنّها بالفاظها تقرر القلوب وتمضي إلى الأفقّة تحمل إليها نسمات الإيمان والهداية.

والأذان خطة منطقية اقتضتها دعوة الإسلام الشاملة للناس كافة، والأذان خطة حضارية، على اعتبار أنّها تمثّل تعاليم منهجية علمية مؤيدة بالأدلة والبراهين، وتصل هذه التعاليم بالإنسان مرحلة الهداية واليقين الجازم أيضاً. وعليه فقد أتت معجزة الأذان الإسلامية مؤثرة فعالة ومُشوّقة وجذابة تخترق الآذان، وتنحدر إلى القلوب، في وقت صيغت فيه سهلة على الأفهام والسماع، وإلى جانب ما احتوته من جدّة وحكمة بالغة.

والآن فهل يستسيغ عقل مفكّر أن يُوحى إلى شخصين في ليلة واحدة بالفاظ هذا الأذان الإسلامي، وعن طريق رؤى رآها هذان الشخصان ويكون لحمد اليتيم الأمّي دخلٌ في ذلك؟ فمن أين لهؤلاء الأميين أن يتدعوا وسيلة إعلامية حضارية وبهذه المتانة الموضوعية أيضاً؟

ولم لم تخطر آية وسيلة إعلامية مثلها لأذهان جميع أنبياء بني اسرائيل؟
وهم الذين اعتبروا أنفسهم الشعب المختار (ليهو) الإله الرب كما تسميه هذه
التوراة المعاصرة والتي كانت نفسها بين يدي (بُحيرا) وسواه؟
فمن أين كان ل محمد اليتيم الأمي أن يَدَّله الراهب بُحيرا على هذه
الوسيلة الإعلامية (الأذان)؟ ومن أين كان لهذا الراهب أن يتدعها، وهي خارج
إطار تعليم دينه؟ وكيف يزعم بعد ذلك الأب حدّاد ومن على شاكلته أن محمداً
رسول الله اقتبس تعاليم التوراة والإنجيل عن رُهبانهم وصاغها بلسانٍ عربي
مبين؟

ونخلص من هذا كله للقول: إن مُعجزة الأذان الإسلامية الإعلامية هي
في حدّ ذاتها الدليل القاطع على مصداقية القرآن ومصادقية نبيّه محمد ﷺ اليتيم
الأمي. هذا القرآن الذي أنزله الله على قلبه ليكون رحمة للعالمين.

٩- دليل المصادقية التاسع:

والدليل التاسع على مصداقية القرآن الكريم، وإثبات أنه لم يكن من
تأليف محمد اليتيم الأمي، هو نزوله مصدّقاً لنبوءات التوراة والإنجيل، بالرغم من
كون هذين الكتابين مُحَرِّفين.

هذا، وإنّ الذي يدعو للدهشة، هو أنّ القرآن الكريم لفت أنظار
الباحثين إلى هذا الدليل، وذلك في أوّل آية منه، من خلال قوله تعالى: ﴿الْم.
ذَلِكَ الْكِتَابُ، لَا رَيْبَ فِيهِ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. أفلم نلاحظ كيف أن الله تعالى
استبدل إسم الإشارة للقريب بإسم الإشارة للبعيد، فلم يقل في هذه الآية
المذكورة (هذا الكتاب) بل قال (ذلك الكتاب). والمعروف في علوم اللغة العربية
أنّ حكمة هذا الاستبدال، فيه الإشارة إلى عظمة شأن القرآن الكريم، إظهاراً
لحقيقة مُحْتَوَاه. وإنّه لأسلوبٌ بيّانيٌ سديدٌ وبلغ.

فماهي ناحية العظمة لشأن هذا القرآن التي أشار إليها هذا الاستبدال في
هذا المقام؟ ونجد الجواب في حكمة تعريف لفظ (الكتاب) هنا بالألف واللام.
فلم يقل الله عز وجل (هذا كتاب لاريب فيه) بل قال ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ
فِيهِ﴾. فالألف واللام العهدية التي عُرِّفَتْ بها كلمة (كتاب) هنا، كان المقصود
بها نقل ذهن القارئ إلى أمرٍ معهود في أذهان اليهود والنصارى قبل نزول

القرآن، وهو أن الله تعالى سيعث نبياً مُشرعاً مثيل موسى ويُنزل عليه كتاب تشريع أيضاً. فهذا الأمر المعهود في أذهان اليهود والنصارى هو ما أنبأت عنه التوراة والإنجيل. وعليه فإن المقصود من تعريف كلمة (كتاب) هنا كان الإعلان أن هذا القرآن الذي نزل على قلب محمد اليتيم الأمي ﷺ قد جاء تصديقاً لتلك النبوءات. لذا فهو كتاب ذو شأن عظيم.

وقد زادنا الله عز وجل إدراكاً لعظمة شأن هذا القرآن حين أضاف قوله تعالى: ﴿لَارِيبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. أي أن عظمة شأن هذا الكتاب المعهود نزوله ذهنياً عند اليهود والنصارى يتأتى أيضاً من كونه ﴿لَارِيبَ فِيهِ﴾ هو مُتَّصِفٌ بكمال الصنعة لغةً ومضموناً. كذلك فإن آياته مُبرأة عن أن يأتيها الباطل والشك من حيث صياغتها ومن حيث دلالاتها.

وإضافة إلى هذا وذاك فإن هذا الكتاب ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. أي أنه احتوى على نهج للحياة علمي خاطب عقول المؤمنين. على اعتبار أن البشر أمسوا مُؤَهَّلِينَ لتلقي مثل هذا النهج الفلسفي، متجاوزين بذلك مرحلة التعليم التوراتي الذي كان أتى على شكل نظام سلوك بشري، وفقاً لاحتياج البشر من بني إسرائيل في زمن إنزاله، علماً بأنني وضحت معالم هذا النهج في الدليل السابع سابقاً.

على هذه الصورة، ومن خلال هذا الفهم، ونجاء هذا الدليل الذي قدّمه القرآن الكريم في أول آية من سورة البقرة إثباتاً لمصداقيته، نجد أنفسنا مُلزَمين بالعودة إلى مضامين التوراة نفسها باحثين فيها عن هذه النبوءات. وإن كنا مُوقنين أن التوراة المعاصرة لاتزيد عن كونها مجموعة أسفار قصصية، وأنها تعرّضت للتحريف، لكن من واجبنا أن نعرّف في الوقت نفسه بفضل هذه التوراة، من حيث أنها زوّدتنا بمعلوماتٍ قيّمةٍ عن سير حياة أنبياء بني إسرائيل وتعاليمهم على وجه التقريب.

والذي نلاحظه هو أن التوراة تبتدىء بسفر التكوين، هذا السفر الذي يحكي لنا قصّة خلق العالم وخلق آدم، وما أنجب من أولاد حتى بعث نوح وإبراهيم، وانتهاءً بقصّة يوسف عليه السلام.

والسفر الذي يأتي بعد سفر التكوين، هو سفر الخروج، ويحكي لنا قصّة يوسف وولادة موسى في بيت فرعون ونبوته، وخروجه من مصر ببني

إسرائيل، وتخليصه إياهم من عبوديتهم، وانتقاله بهم إلى صحراء سيناء. كما يحدثنا سفر الخروج عما أوصى موسى قومه بعد الانتقال بهم إلى هناك.

والسفر الذي بعد الخروج هو سفر اللاويين. ويحتوي على الوصايا التي أوصى بها موسى قومه عند جبل سيناء. وسفر اللاويين هو عبارة عن قصة أيضاً يرويها كاتبها، بدليل أنه أنهاها بقوله: (هذه هي الوصايا والأحكام التي أوصى الرب بها موسى إلى بني إسرائيل في جبل سيناء).

ويأتي بعده سفر العدد، ليكمل به هذه الوصايا. حيث يقول كاتبه عند نهايته: (هذه هي الوصايا والأحكام التي أوصى بها الرب إلى بني إسرائيل، عن يد موسى، في عربات مؤاب، على أردن أريحا).

ويأتي بعده سفر التثنية، ويقص فيه كاتبه ما حدث في أواخر أيام موسى. كما يروي أن موسى عاش مائة وعشرين سنة ومات في أرض مؤاب، وأن آثار قبره كانت قد ضاعت، حين كتابة الكاتب هذا السفر. أي أن كاتب سفر التثنية، كتبه بعد مضي عدة قرون على وفاة موسى. والذي يؤكد ذلك أيضاً، قول الكاتب نفسه قبل أنتهاؤه من كتابه سفر التثنية المذكور: (ولم يُقم بعدُ نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه..).

والذي يهتمنا نحن هو البحث عن نبوءات جعلت بفضل الله في بطون هذه الأسفار التوراتية، مؤكدة لنا صحة الدليل الذي قدمه القرآن الكريم في أول آية من آياته، تدليلاً على مصداقيته.

ويدفعنا منطق البحث حثيثاً، لنبحث عن هذه النبوءات في سفر التثنية، بصورة خاصة. على اعتبار أنه يحكي لنا قصة آخر أيام موسى مع قومه. والمنطق يقتضي أيضاً أن يكون النبي موسى قد تلقى في آخر أيام دعوته نبوءات عن مستقبل أمته، وبما يتعلق بنزول القرآن الكريم خاصة وعن بعثة محمد سيد المرسلين. فهذا الأمر يهدي إليه منطق الأحداث وسير الأمور.

والحق أننا إذا تصفحنا سفر التثنية، ووصلنا إلى الإصحاح الثامن عشر منه، حيث يروي لنا الراوي وصايا موسى الموجهة إلى قومه والتي كان ينبغي لهم أن يعملوا بها عند اقتحامهم لأرض كنعان، واستقرارهم فيها. فإننا سنجد عند الجملة (١٥) أن موسى أوصى قومه قائلاً: (متى دخلت الأرض التي يُعطيك

الرَّبِّ إِلَهُكَ، لاَ تَتَعَلَّمُ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ رَجَسِ أَوْلَئِكَ الْأُمَمِ). وَقَدْ قَصِدَ بِأَوْلَئِكَ الْأُمَمِ الْكُتْعَانِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى الْوَثْنِيَّةِ فِي تِلْكَ الْآيَامِ.

وَهُنَا يُضَيَّفُ الرَّاوي أَنَّ مُوسَى قَدْ تَلَقَّى نَبْوءَةً فِي تِلْكَ الْآيَامِ، اسْتِجَابَةً مِنْ اللَّهِ لَطَلْبِهِ الَّذِي طَلَبَهُ فِي مَنَظِقَةِ حَوْرِيْبِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا وَدُفِنَ. وَأَنَّ هَذِهِ النَّبْوءَةَ تَتَعَلَّقُ بِمُسْتَقْبَلِ قَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَهَذِهِ هِيَ أَلْفَاظُ النَّبْوءَةِ كَمَا رَوَاهَا كَاتِبُ سَفَرِ التَّنْثِيَةِ: (لَأَعُودَ أَسْمَعُ صَوْتَ الرَّبِّ إِلَهِي، وَلَا أَرَى هَذِهِ النَّارَ الْعَظِيمَةَ أَيْضاً لَفْلاً أَمُوتَ). وَيُجِيبُهُ رَبُّهُ قَائِلاً: (أَقِيمْ لَهِمَّ نَبِيّاً مِنْ وَسْطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلْ كَلَامِي فِي فَمِهِ، فَيَكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أَوْصِيَهُ بِهِ، وَيَكُونُ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ كَلَامِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أَطَالِبُهُ، وَأَمَّا النَّبِيُّ الَّذِي يُطْعَمِي، فَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِي كَلَاماً لَمْ أَوْصِهِ أَنْ يَتَكَلَّمْ بِهِ، أَوِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ آلِهَةٍ أُخْرَى، فَيُقْتَلُ^(١) ذَلِكَ النَّبِيُّ. وَإِنْ قُلْتَ فِي قَلْبِكَ: كَيْفَ نَعْرِفُ الْكَلَامَ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ؟ فَمَا تَكَلَّمْ بِهِ النَّبِيُّ بِاسْمِ الرَّبِّ وَلَمْ يَحْدِثْ، وَلَمْ يَصِرْ. فَهُوَ الْكَلَامُ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ، بَلْ بِطُغْيَانٍ تَكَلَّمْ بِهِ النَّبِيُّ، فَلَا تَخَفْ مِنْهُ). سَفَرُ التَّنْثِيَةِ ١٨/١٨-٢٢.

وَأَنَّهَا لِنَبْوءَةٍ عَظِيمَةِ الشَّأْنِ حَقّاً، تَفْضَلُ بِهَا عَلَيْنَا رَاوِي التَّوْرَةِ، وَوُثِّقَتْهَا لَنَا لِاسْتَهَارِهَا فِي زَمَنِهِ يَقِيناً بَيْنَ أَفْرَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ النَّبْوءَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي بَشَّرَتْهُمْ بِعِثَةِ نَبِيِّ مُشْرِعٍ مِنْ إِخْوَتِهِمْ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، كَانَتْ نَبْوءَةً مَعْهُودَةً فِي أَذْهَانِهِمْ عَلَى الدَّوَامِ، لِذَلِكَ تَلَقَّاهَا رَاوِي التَّوْرَةِ وَوُثِّقَتْهَا فِي سَفَرِ التَّنْثِيَةِ الْمَذْكُورِ.

وَقَبْلَ أَنْ أَعْمِدَ إِلَى شَرْحِ هَذِهِ النَّبْوءَةِ لِأَثْبَتِ أَنَّهَا هِيَ الْمَشَارُ إِلَيْهَا ضَمِنَ أَوَّلَ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمُبِينِ.

أَعُودُ بِكُمْ بِأَدَى ذِي بَدْءٍ إِلَى قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَهُوَ الْأَبُ لِهَاتَيْنِ السَّلْسَلَتَيْنِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ: إِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ. وَأَعُودُ بِكُمْ إِلَى أَلْفَاظِ الرِّوَايَاتِ التَّوْرَاتِيَّةِ نَفْسِهَا، عَلَى حَسَبِ مَا وَرَدَتْ، وَأَرْجُو أَنْ يُلَاحِظَ الْقَارِئُ هُنَا أَنَّ أَحَدًا مِنْ رِوَاةِ التَّوْرَةِ أَوْ الْإِنْجِيلِ لَمْ يَزْعَمْ أَنَّ كِتَابَهُ السَّمَاءِي هُوَ آخِرُ الْكُتُبِ السَّمَاءِيَّةِ. أَوْ أَنَّ أَنْبِيََاءَهُ كَانُوا آخِرَ الْأَنْبِيََاءِ الْمُرْسَلِينَ. بَلِ الْعَكْسُ هُوَ الصَّحِيحُ. ذَلِكَ أَنَّ نَبْوءَةَ سَفَرِ التَّنْثِيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصُدْدِهَا تَوْكِّدُ حَقِيقَةَ أَنَّ أَنْبِيََاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَعَالِيمَهُمْ،

(١) ملاحظة: هذا لفظ الطبعة التوراتية ما قبل عام (١٨٧٠م)، وقد حُرِّفَها فاستبدلوا بكلمة (يموت)

باعترافٍ من موسى عليه السّلام نفسه، لم تكن آخر التّعاليم ولا آخر الأنبياء. فالذي يعلمه كلّ دارس لتاريخ الأديان هو أنّه لم يبعث الله تعالى من بعد موسى وأنبياء أمته أيّ نبيّ مُشرّع ومعه كتاب تشريع إلا القرآن الكريم ومحمداً خاتم النبيّين.

ويظنّ بعض السّطحيين خطأ أنّ عيسى كان نبيّاً مُشرّعاً. وكيف يكون كذلك وهو الذي قال في إنجيل متى ١٧/٥-١٩ بالحرف الواحد: (لا تظنّوا أنّي جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإنّي الحقّ أقول لكم: إلى أن تزول السّماء والأرض، لا يزول حرفٌ واحدٌ أو نقطة واحدة من الناموس، حتى يكون الكلّ، فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصّغرى وعلم الإنسان هكذا، يُدعى أصغر في ملكوت السّموات). فالمسيح بقوله هذا قصد بالناموس شريعة موسى ووصاياها ونبوءاتها. وأنكر أن يكون ربّه قد بعثه بشريعة جديدة. مؤكداً أنّ بعثته تكمل تعاليم التوراة ووصاياها ونبوءاتها.

وأعود إلى سفر التكوين لأنقل منه قسماً مما أوحاه الله تعالى إلى إبراهيم عليه السّلام. فقد ورد في الإصحاح ١٥/١٨: (في ذلك اليوم قطع الربّ مع أبرام ميثاقاً قائلاً: لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات).

وروى هذا السّفر عن هاجر زوجة إبراهيم في الإصحاح ١٦/١٠، أنّه ظهر لها ملاك الربّ، وقال لها: (هاأنت حبلى فتلدن ابناً. وتدعين اسمه اسماعيل، لأنّ الربّ قد سمع لمذلتك.. فولدت هاجر لأبرام ابناً. ودعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر، اسماعيل وتكلّم الله معه قائلاً: أمّا أنا فهو ذا عهدي معك، وتكون أباً لجمهور من الأمم. فلا يُدعى اسمك بعد أبرام، بل يكون اسمك إبراهيم، لأنّي أجعلك أباً لجمهور من الأمم. وأثرك كثيراً جدّاً، وأجعلك أمماً، وملوكاً منك يخرجون. وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم، عهداً أبديّاً.) ١٧/٥ (فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق، وأقيم عهدي معه عهداً أبديّاً لنسله من بعده، وأمّا اسماعيل فقد سمعت لك فيه، هاأنا أباركه وأثمه وأكثره كثيراً جدّاً. اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أمّة كبيرة).

ولكن عهدي أقيم مع اسحاق الذي تلده لك سارة، في هذا الوقت في السنة الآتية.. ٢١/١٧.

ونلاحظ أن الراوي في سفر التكوين يروي لنا أن هاجر وابنها اسماعيل سكنا منطقة مكة المكرمة. فقد قال: (وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية. وكان ينمو رامي قوس. وسكن في بركة فاران.) وهذا الكلام متعلق باسماعيل عليه السلام، كما يدل على ذلك سياق الكلام. علماً بأن منطقة مكة المكرمة أطلق عليها وماجاورها منطقة "فاران" وذلك لفرار هاجر واسماعيل إليها بأمر ربهم عز وجل. فقد كان مُقدراً أن يعث الله تعالى من نسلهما مُحَمَّداً رسول الله ﷺ، ويُنزل القرآن الكريم على قلبه ليكون للعالمين نذيراً.

وأنقل من هذا التمهيد الذي مهّدت به، والذي كان ضرورياً جداً ليعطي القارئ فكرة عن تسلسل الأحداث القديمة، انتقل منه إلى نبوءة سفر التثنية العظيمة التي نقلت لكم ألفاظها حرفياً، شارحاً هذه النبوءة بتفحص وتدبر. والحقيقة أن هذه النبوءة قد احتوت على أمور عديدة، وعلامات كثيرة. فكل لفظ من ألفاظها مُفعمٌ بالدلالات. علماً بأن اليهود والنصارى يعترفون بوجود هذه النبوءة كما أوردها سفر التثنية المذكور. لذلك تعتبر هذه النبوءة حجة قاطعة تُدينهم جميعهم أمام الله، وتجاه عباده المفكرين.

وأول ماورد في النبوءة: (أقيم لهم من وسط إخوتهم نبياً مثلك..). والحق أن الذي ترجم أسفاره التوراة إلى اللغة العربية، ترجمها ترجمة حرفية، بأمانة، فهو لم يستعمل هنا كلمة (أبعث) أو (أصطفى). بل استعمل كلمة (أقيم لهم). وأقام من قام. بمعنى انتصب. فأقام معناه نصّب وأدام هذا التنصيب. ذلك أن فعل أقام، يحوي ضمناً معنى الدوام، فأنت تقيم جداراً لالتهدمه، بل ليظل يحمل سقف البناء. فجملة (أقيم لهم نبياً مثلك). تعني أن الله تعالى سيبعث لهم نبياً مُشرعاً مثل موسى عليه السلام، وتلدوم نبوته أيضاً، بمعنى أنه يكون خاتم النبيين.

ويتساءل الإنسان هنا بدهشة عن القوم الذي سيصطفى الله تعالى أحد أفرادهم مصداقاً لهذا الوعد المنصوص عليه في هذه النبوءة مصداق (.. من وسط إخوتهم..). فمن هم إخوة بني إسرائيل؟ هم الفرع الثاني لنسل إبراهيم عليه السلام، وهو نسل إسماعيل، أي أن الله تعالى وعد أنه سيقيم نبياً مُشرعاً من وسط نسل إسماعيل عليه السلام، مثل موسى ويأتي معه تشريع، وهذه إشارة إلى

هذا القرآن الكريم نفسه الذي أنزله ربنا على قلب محمد بن عبد الله ﷺ الصادق الأمين.

وتضيف النبوة: (وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به.) وكأن هذه الألفاظ تعني أن هذا النبي المشرع لا ينطق عن هواه ولا من نفسه، بل ينقل إلى الناس ما يوحى إليه من ربه حرفياً. وهذا الأمر يفسر لنا حكمة ابتداء نزول القرآن الكريم بآية (اقرأ). بمعنى احمِلْ هذه الرسالة السماوية وبلغها إلى الناس كافة. على شاكلة قولك: اقرأ مني فلانا سلامي. وهذه الجملة من النبوة تفسر لنا حكمة قوله تعالى، ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين، فما من أحدٍ عنه حاجزين.﴾

المهم أن جملة: (وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به.) تعني صراحة أن هذا النبي المشرع الموعود به، سيتلقى من ربه وحياً لفظياً، ويؤمر بتبليغه للناس حرفاً بحرف، وهو أمر لم يسبق أن حدث في تاريخ جميع الديانات السماوية. وبذلك يكون هذا النبي المشرع مأموراً بوضع حجر أساس تكوين أمة جديدة غير قوم بني إسرائيل. وهذه الأمة الجديدة مكلفة بحمل رسالة الله تعالى إلى الناس كافة إلى أبد الأبد.

وتضيف النبوة: (ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه.) ولم تستثن هذه الكلمات أفراد بني إسرائيل من مسؤولية الاستجابة لصوت هذا الوحي الجديد. ولم تغفهم من مسؤولية واجب الإيمان به. بل (ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه.) فقد ورد لفظ الإنسان مُعرِّفاً ليفيد الاستغراق، ويشمل جميع الناس بما فيهم "بنو إسرائيل".

ثم إن جملة (أنا أطلبه) تفيد أن من يكفر بهذا النبي وشرعه وما ينزل عليه من وحي لابد أن يلقي عقاباً من ربه. كذلك جملة: (الذي يتكلم به باسمي) تعني أن هذا الوحي الجديد يتدبّر عموماً ببسم الله. وهذه ظاهرة اختص بها الوحي القرآني. ذلك أن جميع سور القرآن ابتدأت ببسم الله الرحمن الرحيم باستثناء سورة التوبة التابعة لما قبلها.

وأضافت النبوة: (وأما النبي الذي يطغى، فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى، فيقتل ذلك النبي.) يعني أن

النبي المشرّع المنبأ عنه، سيعصمه الله من القتل ويحميه. فلن تنجح مؤامرة في قتله والقضاء عليه.

وهذا الأمر يُذكرنا بوعد الله تعالى محمداً رسول الله في القرآن الكريم : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. والمعلوم لكل إنسان هو أن الله تعالى عصم محمداً وحماه ومكّنه من أداء رسالته كاملة، ليقول في حُجّة الوداع : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾.

وقد أضافت النبوة: (وإن قلت في قلبك : كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلّم به الرّب. فما تكلّم به النبي باسم الرّب ولم يحدث ولم يصبر، فهو الكلام الذي لم يتكلّم به الرّب، بل بطغيان تكلّم به النبي، فلا تخف منه). وقد وضحت لنا هذه الجمل بجلاء تطابق هذه النبوة وما جاء في القرآن الكريم، ومن تلقى هذا القرآن بكلّ صراحة وقوّة.

ذلك أن القرآن الكريم احتوى على مئات النبوءات التي تحقّق منها ماتعلّق بأزمته، وسيحقّق فيها ما يتعلّق بالأزمة القادمة إن شاء الله العزيز. لذلك ينبغي لليهود والنصارى أن يعوا ويدركوا دلالات ألفاظ هذه النبوءة، ويخافوا أن ينزل بهم عذاب الله، أكثر ممّا نزل بهم حتى الآن، فالله شديد العقاب. وأن يُدعّونا لما دلّتهم عليه ألفاظ نبوءة سفر التثنية هذه، فيؤمنوا بالله ورسوله وبالقرآن الكريم الذي نزل معه ليكونوا بذلك من النّاجين ومن المنعمين. وأعود لأشير إلى أن دلالات هذه النبوءة التوراتيّة يستحيل أن تنطبق على أيّ نبيّ إسرائيلي أو على المسيح بن مريم الذي لم يك نبياً مشرعاً، ولا جاء لينقض التوراة، كما صرح بذلك هو نفسه.

بل أقول : إنّ المسيح نفسه أكّد على نبي اسرائيل وحواريه في انجيل يوحنا ١٢/١٦ بقوله: (إنّ لي أموراً كثيرة لأقول لكم، ولكن لاتستطيعون أن تحتملوا الآن. وأمّا متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنّه لا يتكلّم من نفسه، بل كلّ ما يسمع يتكلّم به، ويُخبركم بأمر آتية).

فليُنظر القارىء كيف اعترف المسيح أنّ قومه في زمنه لم يكونوا على مستوى تلقّي شريعة كاملة، وكيف أنبأ عن بعثة من سمّاه (روح الحق) الذي سيرشد إلى جميع الحق. أي أنّ المسيح بن مريم قد أنبأ عن بعثة هذا النبي المشرّع

والذي ستمثل تعاليم شريعته (روح الحق) فلا يتكلم من نفسه. أي لا يأتي بشيء من لدنه. بل كل ما يتكلم الله عز وجل به يصدع له ﴿إِنَّمَا هُوَ وَحْيٌ يُوحَى﴾. كما أمر المسيح بن مريم أن يُعرضَ عن الجاهلين، وأن هذا النبي الموعود به (يُخبركم بأمور آتية) أي أن وحي كتابه حافل بالنبوءات. على هذه الصورة يتبين لكل ذي عين بصيرة أن الدليل الذي أتت به نبوءة سفر التثنية التوراتية، يُعتبر حجة ودليلاً قاطعاً على مصداقية القرآن الكريم. وهي نبوءة تدين اليهود والنصارى معاً وما يعتقدونه.

١٠. دليل المصداقية العاشر :

لابد لهذا الدليل من تمهيد. ذلك أنني سأقدم فيه اثني عشرة نبوءة قرآنية مجتمعة في سورة واحدة، مصداق نبوءة انجيل يوحنا ١٦/١٢ (.. ويخبركم بأمور آتية.) أي ينبئكم بنبوءات كثيرة. وتتأتى ضرورة هذا التمهيد مما اشتملت عليه نبوءة سفر التثنية ١٨/١٨ من أن النبي الذي يطغى يقتل. فلا بد لي في هذا الدليل العاشر من إثبات أمرين اثنين: الأول أن موت محمد رسول الله ﷺ كان موتاً طبيعياً، وقد عصمه الله ربّه من الهلاك. والأمر الثاني تقديم غاذج من نبوءات قرآنية مستقبلية انطوى عليها هذا القرآن الكريم. والحقيقة هي أن القرآن الكريم لم يُنكر على اليهود والنصارى هذين المعيارين لإثبات صدقه وصدق محمد ﷺ الذي أنزل عليه. بل وأضاف القرآن الكريم إلى هذين المعيارين، معياراً ثالثاً، وهو أن اليهود والنصارى الذين يكذبون هذا القرآن وهذا الرسول ﷺ لن يفلتوا من عذاب ربهم الذي سيُنزل بهم نتيجة لتكذيبهم إياه مصداق نبوءات كتبهم التي قدسّونها.

وهذه المعايير الثلاثة تضمّنها قول الله عز وجل في سورة الأنعام (٢١): ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افترى على الله كذباً، أو كذب بآياته، إنه لا يفلح الظالمون﴾. وهذه الآية التي احتوت على هذه المعايير الثلاثة، وردت في مواجهة أهل الكتاب ومعايير كتبهم أيضاً. فقد قال تعالى في سياق الآية : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، الَّذِينَ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أن اليهود والنصارى وقد دُعوا للإيمان، بهذا القرآن وهذا الرسول، يعرفون صدقه

كما يعرفون أبناءهم، لانطباق نبوءات كتبهم المقدسة (التوراة والانجيل) عليه وعلى من أنزل عليه انطباقاً كاملاً.

ذلك أنّ بين الآباء والأبناء صلات عاطفية أصيلة، فقد وجدت كذلك بين نبوءات كتب اليهود والنصارى وبين هذا الكتاب وهذا النبي صلات عاطفية أصيلة. وهم إذ يتصلّون من هذه المعرفة وهذه الصلة، يكونون من ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾. كخسران الوالدين لأبنائهما. هذا إذا كان اليهود والنصارى يحسبون لعاقبتهم حسابها. أما الذين لا يحسبون لها حسابها، ولا يسعون للتوقّف من هذه الحقيقة وقبولها ﴿فهم لا يؤمنون﴾ أي لا يستغرب كفرهم وتكبرهم لهذا القرآن وهذا النبي ﷺ.

وهذان المعياران النابعان من نصوص نبوءات كتب اليهود والنصارى التي يُقدّسونها، المتعلّقان بهما خاصّة، لا يؤخذ بهما إلا في حال اعتقاد المرء بوجود الله عز وجلّ، وتدخّله في أمر مدعيّ النبوءة الكاذبين بمن لم يوح الله إليهم بشيء. لذا كانت شهادة الله بحقّهم هي الأساس في الموضوع.

لذلك فقد مهّد الله تعالى لهاتين الآيتين اللتين ذكرناهما من سورة الأنعام بقوله: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله (وقف اجباري) شهيد بيني وبينكم (وقف اجباري) وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به، ومن بلغ، أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى، قل لا أشهد، قل إنما هو إله واحد، وإنني بريء مما تشركون.﴾. وقد لفتت هذه الآية الكريمة الأنظار إلى ضرورة احترام شهادة الله تعالى من جهة، ونددت بعقيدة تأليه النصارى للمسيح من جهة أخرى، ومهّدت بذلك لتقديم هذين المعيارين المذكورين.

وقد سبق أن قال الله تعالى قبل آيات التمهيد والمعايير هذه ﴿وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير.﴾ والقاهرة من قهره يقهره قهراً: غلبه. والقهر مصدر قهر. فالقاهر هو الغالب جبراً واضطراً. ومن أسماء الله "القهار" على وزن فعّال للمبالغة. فالآية تعني أن من يفترى على الله كذباً ويتحلّ صفة نبي. لا ينجو من عقاب الله وقهره إياه خصوصاً وأنّ الله تعالى حكيم وخبير، يُعاقب المفترين هؤلاء ويقهرهم بحكمته وخبرته.

ثم إنّ ما يؤكّد الذي ذهبنا إليه من دلالات هذه الآيات، قوله تعالى قبلها مباشرة أيضاً: ﴿وإن يمسسك الله بضرٍ، فلا كاشف له إلا هو، وإن يمسسك

بغير فهو على كل شيء قدير. ﴿١﴾ وألفاظ هذه الآية الكرمة مهّدت لجميع ما أعقبها من آيات. فهي أشهرت وجود الله عز وجلّ القادر على كل شيء ويرقب الذين ينتحلون صفة نبيّ والذين لا ينتحلون.

وزبدة القول هو أننا إذا كنّا قد اثبتنا في دليلنا العاشر هذا موت محمد رسول الله ﷺ موتاً طبيعياً. وأنّ الله قد حفظه من جميع ما دبره أعداؤه له من مكائد ومؤامرات لقتله والقضاء عليه وعلى دعوته. وإذا كنّا كذلك قد قدّمنا نبوءات كثيرة أتى بها محمد ﷺ من الوحي القرآني وفق نبوءة الإنجيل (ويخبركم بأمور آتية) وتحققت هذه النبوءات أيضاً. أقول إذا تحقّق لنا هذان الأمران، نكون قد أحكّمنا دليلنا العاشر إحكاماً ظاهر الدلالة على مصداقية القرآن الكريم.

أما ما تعلق بموت محمّد ﷺ موتاً طبيعياً، فيكفي أنّ الأحداث في حياته ﷺ نالت وفق ما وعده الله عز وجلّ في قوله: ﴿٢﴾ والله يعصمك من الناس. وهذه الأحداث انتهت في حُجّة الوداع يوم أن خاطب محمد ﷺ الناس قائلاً ومودّعاً: ﴿٣﴾ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً. ﴿٤﴾ ومن ثمّ تُوفّي محمد ﷺ وفاةً طبيعياً، ولم يُقتل على أيدي أحدٍ من أعدائه. وهذا الأمر لا يتطلب منّا مزيد الشرح أصلاً.

والذي يتبقى علينا إثباته، هو أنّ القرآن الكريم أخبر بأمور كثيرة آتية وفق (ويخبركم بأمور آتية). أي يتبقى الكشف عن النبوءات القرآنية المستقبلية اللافتة للأنظار، المدهشة للعقول، بل التي تفحّم اليهود والنصارى بشكلٍ واضح لا يقبل الجدل.

ولابدّ من التنويه هنا إلى أنّ مؤلّفي (فن الاختزال في القرآن الكريم) قد احتوى على تعداد نبوءاتٍ قرآنية تحققت جميعها. وأضيف هنا إيراد اثنتي عشرة نبوءة تضمّنتها سورة التكوين. لعلاقة هذه السورة بزماننا المعاصر وما أتى به من تطوّرات. ويزيد نبوءات سورة التكوين هذه عظمت نزولها في مكة المكرمة، يوم كانت دعوة الإسلام في أوائل مراحلها، وقبل أن يشتدّ عودها، يوم كان يستحيل على محمد رسول الله ﷺ نفسه أن يفكر في مستقبل أمّته، وما ستمرّ فيه من أدوار.

وسورة التَّكْوِير هذه اشتمل عليها الجزء الأخير من القرآن الكريم. فهي جزء من خلاصة القرآن الموسَّعة. وهي أنبأت عن عصر انحطاط المسلمين وتخلُّفهم وتخاذلهم في العمل على تعاليم الإسلام، وأنبأت عن علاماتٍ تتحقَّق في الوسط الإسلامي والوسط غير الإسلامي، إلى جانب التبشير بزوال ذلك وعودة المسيرة الإسلامية وانتصارها اليقيني.

وجاءت سورة التَّكْوِير مبدوءة كل آية من آياتها الأوائل بالظرف (إذا). وهو ظرف للمستقبل متضمَّن معنى الشرط. أي أنَّ الموضوع المطروح مشروطٌ بما اشترط وقوعه الظرف (إذا). وقد ابتدأ هذا الموضوع أصلاً في سورة التَّكْوِير بقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْخُنُوسِ. الْجَوَارِ الْكُنُوسِ، وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ. وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾. وقد أوجز تعالى في هذه الآيات الكريمة الحال الذي سيؤول إليها عصر تخلُّف المسلمين زمن تحقُّق النبوءات المبتدئة بالظرف (إذا). فمضمون هذه الآيات فيه تبشيرٌ أيضاً (واللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ. وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) أي لن يستمر ليل المسلمين بل ويتنفَّس الصُّبْح بعده أي بعد اكتمال ظهور جميع هذه النبوءات الاثنتي عشرة المبدوءة بالظرف (إذا).

ولقد أكَّد الله تعالى بعد ذلك على كون جميع ماأنبأ عنه سيتحقَّق يقيناً. ذلك أنَّه اصطفى رسولاً ذو قوَّة عند ذي العرش مكين. مُطاعٍ ثمَّ أمين. وماصاحبكم بمجنون. ﴿وَلَقَدْ رَآهُ فِي الْأَفْقِ الْمِينِ﴾ أي كشف الله تعالى عليه جميع ماأنبأت عنه هذه الآيات المبدوءة بظرف (إذا) الشرطي. وأنَّ ربه ﴿مَاهُو عَلَى الْغَيْبِ بَصِيرٌ﴾ على هذا النبي الكريم.

وحين انتهى جلَّ شأنه من تنبيه أذهان البشر إلى مصداقية هذا القرآن الكريم الذي اشتمل على جميع هذه النبوءات الغيبة، عاد فتوجَّه بالخطاب إلى أهل العصر الذي ستتحقق فيه جميع هذه النبوءات يؤكِّد لهم وجوده، ويهزمهم بقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ. إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ. وَمَتَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أنَّ ربوبيَّة الله تعمل لصالح مصداقية القرآن ومصداقية هذا النبي. خصوصاً وأنَّه تعالى أنزل هذا القرآن ذكرى وموعظةً لجميع الناس على اختلاف أزمتهم وأمكنتهم. ولا مجال لي هنا لزيادة التفصيل والشرح في هذا المقام.

لذلك أعود لألقي الضوء على الآيات الأرائل المبدوءة بالظرف (إذا) والمتضمنة نبوءات غيبية مستقبلية. علماً بأنها قسمان: نبوءات تتعلق بواقع مسلمي عصرنا وظواهر تخلفهم. ونبوءات تتعلق بأحداث هذا العصر وتطوراتها.

فالآيات الأرائل: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ. وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ.﴾ متعلقة بواقع المسلمين المعاصرين، وبالأسباب الرئيسية لتخلفهم وانحطاط مجتمعاتهم. والخطأ الذي وقع فيه أكثرية المفسرين هو أنهم حملوا ألفاظ هذه الآيات الكريمة على معانيها المتبادرة للأذهان. فلم تكن لديهم مُعطيات علمية صحيحة تساعدهم على الانتقال منها إلى معانيها المجازية كنبوءات. ذلك أن الشمس المعروفة لا تكوّر. والنجوم المعروفة لا تنكدر. والجبال الرواسي لا تُسِير. هذا مبلغ من العلم. فكيف تُسِير الجبال؟ وإلى أين؟ ثم إن الشمس نجم من نجوم السماء أصلاً، ولقربها من كوكبنا الأرضي الذي يدور حولها تبدو بهذا الحجم وهذا الضياء. ثم إن الشمس والنجوم جميعها مفاعلات تتحول العناصر ضمنها بطريقة معجزة لتؤدي دوراً هاماً لصالح وجود الإنسان. فلا تنكدر ولا تنكسر بل تفنى إذا اختل توازن تفاعلاتها الكيميائية.

والمراد من الشمس هنا مجازاً هو شمس الإسلام وأنوار سيد المرسلين. أما قرأنا قوله تعالى في سورة الأحزاب الآية (٤٥): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً. وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ يَازِّنُهُ وَسَاجِداً مُنِيراً.﴾؟

فالنبي ﷺ سُمِّي (سراجاً منيراً). بينما سُميت شمس كوكبنا الأرضي (سراجاً وهّاجاً) النبا ١٣ - ومعنى أوهج النار: أوقدها. فالشمس سراج وهّاج أي جُملة عناصر مادية مُتقدِّمة لها حرّها شديد الوهج، فلا تنكور، والنبي ﷺ هو سراج منير. بمعنى مجازي، أي أن تعاليمه التي احتوى عليها هذا القرآن الكريم تنير عقول الذين يعملون عليها ويستوعبونها. وعليه فالمقصود من ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ هذا الإنباء عن زمان قادم يعود فيه العمل بتعاليم القرآن الكريم من باب النافلة، لا الفرض والواجب وذلك في نظر أتباعه.

وهذه إشارة إلى زماننا بالذات حيث عاد الإسلام اسماً والقرآن رسماً والمساجد عامرة ولكنها خراب من الهدى. ولا يصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أوها.

كذلك فليس المقصود من ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ تناثر نجوم السماء الحقيقية. فلو تناثر أي نجم لاحتل النظام الكوني بأكمله. والنجوم شمسٌ حقيقية. فقد كان يكفي القول ﴿وَإِذَا الشَّمْسُ انْكَدَرَتْ﴾ ليدلّ بذلك على يوم دمار هذا العالم.

وإنما المقصود هنا فالمعنى المجازي للآية الكريمة. على اعتبار أنّ استحالة انكدار النجوم يعتبر قرينة لغوية تلزمنا بالمعنى المجازي وليس الحقيقي. وعليه فالمقصود من ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ هو الإنباء عن زمان يأتي يعود يندر فيه وجود علماء حقيقيين. أما لاحظنا قول رسول الله ﷺ (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم). فهو ﷺ اصطلاح على تسمية أصحابه بنجوماً مجازاً. ثم إنّ انعدام وجود علماء حقيقيين يؤدي أصلاً إلى جهل الناس بتعاليم دينهم جهلاً يؤدي بهم إلى التخلف والانحطاط.

كذلك فليس المقصود من ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ تسير أوتاد الأرض ورواسيها، فهي لا تسير، بل تنسف ويجعلها ربّي قاعاً صقفاً إذا شاء. فهذه الاستحالة قرينة لغوية تنقل لفظ الجبال هنا من المعنى الحقيقي المتبادر للذهن، إلى المعنى المجازي. حيث يُقال للسيد في قومه جيل. وهذه نبوءة متعلّقة بزعماء مسلمي عصر الانحطاط السياسيين ووجهاتهم أنّهم لا يعودون مستقلي الشخصية بل يغدون مُسيّرين من جهات خارجة عنهم. لذلك يفقدون بفقدانهم الحرية في اتخاذ القرارات، مصداقية الإخلاص. وهكذا تكون هذه الآيات الثلاث قد أنبأتنا عن صورة قائمة تدور حول تخلف المسلمين المعاصرين وأسبابه. وقد أنبأ جل شأنه في بقية الآيات المبدوءة بالظروف (إذا) عمّا سيطلع زمن تخلف المسلمين به من اكتشافات وتقنيات وأحداث.

وأول هذه النبوءات تضمّنه قوله تعالى : ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾. والعشار هي النوق الحوامل. والنوق سُميت قديماً بسفن الصحراء. بمعنى أنها الوسيلة الأساسية للتنقل عبر الصحراء. وعطّل الشيء: تركه ضياعاً. وعطّل الإبل: خلّاها بلا راع يرعاها. ولأيهمل الإنسان هذه الوسيلة الطبيعية للتنقل في الصحراء بحاصة إلا في حال توفر وسائل أفضل منها لديه. من هنا ندرك أن في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ الإنباء عن اكتشاف وسائل أفضل من

النوق للحمل والتنقل. وفي هذا الإنباء الإشارة إلى اختراع السيارة والقطار والطيارة والسفن البخارية. فهذه جميعها وسائل نقل أفضل من العشار، بل وعطّلت العشار عن مكانتها الطبيعية التي خلقت لها. وقد اكتشفت هذه الوسائل زمن انحطاط المسلمين.

وثاني هذه النبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ والوحوش هي حيوان البرّ، أو مالا يُستأنس من دواب البرّ (أقرب الموارد) وحشَرَ الوحوش: جمّعها. ويأتي الحشر بمعنى الموت كما جاء في الصحاح. من هذه المعاني ندرك أن هذه الآية ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أنباء عن ظاهرة من ظواهر عصرنا، وهي هذه الحداثق التي تخصص الحشر أي جمع مختلف أصناف الحيوانات البرية مأستأنس منها ومالا يُستأنس، وبأعداد محدودة، والقصد من حداثق الحيوان هذه أن تحفظ فيها هذه الأعداد من الحيوانات، خشية انقراضها، إلى جانب أغراض أخرى. والمعلوم أنه لا توجد دولة متحضّرة في عصرنا إلا ويوجد لديها حديقة للحيوان. بل وتسعى جميع الدول إلى تقليدها. وظاهرة حداثق الحيوان هذه لم يسبق في تاريخ البشر أن عمدت حكومة من الحكومات إلى التفكير فيها قديماً. فهي ظاهرة معاصرة، لعصر انحطاط المجتمعات الإسلامية.

وثالث هذه النبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾. والبحر في اللغة خلاف البرّ. وكل نهر عظيم. وكل متوسّع في شيء. فالرجل المتوسّع في العلم بحرّ، والفرس المتوسّع في جريه بحرّ (أقرب الموارد) ويجمع البحر على أبحر وبحار وبُحور، وكلمة سُجِّرَتْ، تقول سجّر الماء فجّره وسجّر التّنور ملأه بالحطب ليحمله. (أقرب الموارد).

من هذه المعاني ندرك أن هذه الآية: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، قد أنباء عن توسّع كبير في المساحات المزروعة من الأراضي البور إشارة إلى شقّ قنوات منتظمة من مختلف الأنهار الكبيرة في العالم والتي يصحّ تسميتها بالبحار، وعلى مستوى لم تعرفه البشرية من قبل. كنتيجة طبيعية لتقدم العلوم الزراعية.

ورابع هذه النبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النَّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾. من زوّج النفوس: قرنها ووصلها بعضها مع بعضها الآخر.

من هذا نُدرك أنَّ هذه الآية: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾. قد أنبأت عن الاكتشافات والاختراعات التي تقرن أي تصل النفوس بعضها مع بعضها الآخر، بالرغم من بعد مسافات الواحد عن الآخر. والحقَّ أنَّ هذه الاختراعات تميّز عصرنا بالذات. فهي الإشارة إلى اختراع جهاز الهاتف والبرق وماليهما، ممّا يمتّ إلى الخطوط السلكية واللاسلكية بصلات. وقد أصبح العالم صغيراً جداً بسبب هذه الأدوات.

وخامس هذه النبوءات، تضمّنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾. والموعودة من وأد ابنته يثدها وأداً: دفنها في القبر وهي حيّة وأنقلها بالتراب، فهي موعودة (أقرب الموارد).

إن مضمون هذه الآية الكريمة دفع بعض المفسرين الذين لم يتدبروها حقّ تدبرها، إلى اعتبار مضمونها مشيراً إلى ماسيحدث للموعودة يوم القيامة. ولم يسألوا أنفسهم: وهل تُسأل الموعودة أصلاً عمّن قتلها وبأيّ ذنب قُتِلَتْ؟ فالمقتول المجني عليه لا يُوجّه إليه سؤال عن سبب قتله. بل إنّ قاتله هو المسؤول في المحاكم ويوم القيامة.

فما معني إذن ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾؟ أقول: إنّ ماذكرته يُعدّ قرينة لغوية تنقل أذهاننا من المعنى المتبادر لها إلى معنى آخر مجازي. وهو الإشارة إلى أنّ عصر انحطاط المسلمين سيكون عصر المطالبة بتحرير المرأة من وضعها الذي آلت إليه، نتيجة انحراف المسلمين المعاصرين عن تطبيق تعاليم الإسلام المنصوص عليها في القرآن الكريم، وإخضاعهم المرأة لحجاب هو أشبه برأد الفتاة وهي حيّة. والحقّ أن عصرنا يمكن تسميته بحقّ عصر تحرير المرأة من الذين يثدونها وهي ماتزال تنبض بالحياة. فلا يفسحون لها مجالاً أن تحتلّ مكانتها كنصف المجتمعات، وأنّ تؤدي رسالتها السّامية في مجتمعاتها. فالمرأة من هذا النوع تُسأل في الصّحف والمجلات وجميع وسائل الإعلام: ﴿بأيّ ذنب قُتِلَتْ﴾ أي إنّ وضعها المعاصر كالمذنب التي حجرها المسؤولون وحالوا دون نشاطها الاجتماعي.

وعليه فلا علاقة لمضمون هذه الآية الكريمة بوأد إحدى القبائل الجاهلية بناتهم خشية العار. ولا علاقة لهذه الآية أيضاً بالآخرة ويوم الحساب.

وسادس هذه النبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾. ونشر الخير: أذاعه (أقرب الموارد). والصُّحُف جمع صحيفة، وهي قِرطاس مكتوب (محيط المحيط). ومنه اشتق لفظ (المُصحف) كاسم مفعول أي القِرطاس المكتوب المجموع والمشدود بين دفتي الكتاب القرآن، حتى صار هذا الاسم كالعلم له.

على ضوء هذه المعاني ندرك أنّ المفسّرين الذين ذهبوا في رأيهم إلى أنّ هذه الآية الكريمة تتعلّق بيوم الدّين، ما كانوا قد تدبّروها حق تدبّرها، ولا ربطوها بالتسلسل الموضوعي خصوصاً وأنّ مُعطيات عصورهم لم تكن لتساعدهم على إدراك مراميها.

والحق يُقال إن عصرنا الحاضر هو عصر الطباعة والصّحافة وإذاعة الأخبار. أي أنه عصر صحف وإعلام. هذا وإنّ الإنسان عاد يرى الصّحف معلقة ومنشورة في كل مكان يرتحل إليه. وإلى هذه الحقيقة أشار قوله تعالى إنّباءً عن عصر انحطاط المسلمين وإشارة إلى ماسيرافقه من ظواهر ومُخترعات، وهو: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾.

وسابع هذه النبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ والكشط معناه رفع الشيء عن شيء قد غشاه وتنجّته عنه. وكلُّ ماعلاك فهو سماؤك. وكيف تُكشط السّماء فوقنا إلّا أن يعني ذلك ترقّي علم الفلك إلى درجة يعود المرء معه ينظر إلى السّماء وكأنها كُشطت ورفع من دون أبصارنا ما كان قد غشاها وحجب معالمها الحقيقيّة عنا؟

من هذا ندرك أنّ هذه الآية ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ انبأت عن تقدّم علوم الفلك في عصر انحطاط المسلمين، تقدّماً ملموساً، لم يبلغ مستواه عصر من العصور السابقة، وهل يختلف أحدٌ من النّاس معنا في هذه الحقيقة التي نبهنا إليها؟ وثامن هذه النبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾. والجحيم هي النّار الشديدة التّأجّج، لذلك يستعمل هذا اللفظ لجَهَنّم أيضاً. فالجحيم اسمٌ من النّار. وسُعِرَ اشتقت من سَعَر النّار والحرب أوقدهما وأشعلهما وهيجهما (أقرب الموارد).

من هذا ندرك أنّ هذه الآية الكريمة ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ لاعلاقة لها بالآخرة أيضاً. فلا تُسَعَّر نار الآخرة ولا تُخَفّض حرارتها، والأمر فيه إنّباءً عن

عصرنا أنّ حروبه وفتنه ستكون كثيرة جداً. وأنّ هناك أطرافاً يثيرون هذه الفتن والحروب ويشعلونها ويهيّجونها. وهذا الأمر أضحي ظاهرة طبيعية من ظواهر عصرنا أيضاً.

وتاسع هذه النبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْزِلَتْ. عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أَحْضَرْتَ.﴾. وأزلت الشيء معناه قرّبه (أقرب الموارد).

فمن خلال معنى كلمة (أزلت) أي قرّبت، نستدل على أنّ نبوءة هذه الآية تتمثّل في أنّها أعطت فكرةً عن حصيلة تأثير جميع النبوءات السابقة في نفوس المفكرين، وتجذبهم بالتالي إلى ربّهم من جديد.

وتبدأ بذلك صحوة إسلامية ودينية وسعيّ لنيل الجنة التي أعدت للمتّقين. فكان الجنة بتحقيق هذه النبوءات قرّبت من الناس. وبالتالي فقوله:

﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أَحْضَرْتَ.﴾ المقصود من (نفس) الوارد فيها نفس كلّ مهمل لواجباته الدينية. وأنّ كلّ مقصّر سيدرك ويعلم مدى ما أحضرته نفسه لآخرته.

إلى هنا أكون قد كشفت الغطاء، بفضل الله تعالى، عن اثنتي عشرة نبوءة تضمنتها سورة التكويد مُجمعة. هذا وإنّ سور جزء (عمّ) مليئة بالنبوءات المذهلة للعقول، بالرغم من قلة عدد آيات كل سورة من سورته.

وإنّ ما كشفت عنه من نبوءات، يصدّق ما أنبأ عنه المسيح بن مريم في الإنجيل يوحنا ١٦/١٢: (ويخبركم بأمر آتية).

ألا إنّ سورة التكويد قد أنبأت عن تخلف المسلمين زمن تقدم العلوم والاكتشافات على أيدي أعدائهم، وقبل أربعة عشر قرناً من الزمان. فهل يتعاضى اليهود والنصارى عن هذه الحقيقة التي حملها إليهم هذا الدليل العاشر الذي قدّمناه تأكيداً لمصادقية القرآن الكريم، ومصادقية رسالة النبي محمد اليتيم الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم ومُنبأً عنه في كتبهم المقدسة؟

ولو فرضنا جدلاً أن محمداً ﷺ كان كاذباً في نبوته، وكان القرآن من افترائه واختلاقه، ومع ذلك مات موتاً طبيعياً ووفق وعد ربه ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. وأتى كتابه بهذه الأنباء الكثيرة عن المستقبل أيضاً. وتحققت نبوءاته أيضاً. يثبت بالتالي المعيار الذي قدّمته التوراة في أمر تمييز النبي الكاذب من النبي الصادق على كلّ حال.

فيا أسفاً على من يتعمى عن هذه الحقيقة، ويكون عن قبول الحقّ من المعرضين. وينبغي لهؤلاء أن يعلموا أن سورة الأنعام أشركت المنكرين ضمن إنذارها الذي تضمّنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً، أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. صدق الله العظيم.

وهكذا نخلص من هذه الأدلة العشرة التي قدّمناها، إلى التسليم بمصادقية هذا الكتاب السماوي، الذي سمّاه الله تعالى "قرآناً عربياً"، وفرقاً يُفرق به بين الحقّ والباطل. نخلص إلى التسليم بهذا الكتاب العظيم "مرجعاً" لنا في موضوع تعرّف ربّنا، ربّ العالمين.

١١. خلاصة مضامين أدلة المصادقية:

وهكذا انتهينا إلى أنّ المستشرقين النصفين أقرّوا، بعد بحثٍ وتمحيصٍ علميّين، ومن خلال الأدلة التي عثروا عليها، داخلية وخارجية (أن القرآن الموجود في زماننا هو القرآن نفسه الذي جاء به محمد دون أيّ تحريف). سير ولیم میور "حياة محمد" ص ٥٦.

بل أضاف سيرميور قوله: (ونحن من ذلك على يقين، كيقين المسلمين أنفسهم، بأنّه وحي الله المقلّس الذي لم يُحرّف ولم يُبدّل).

ونحن، وبأسلوبنا العلمي قد انتهينا إلى أنّ القرآن الكريم وقد وصلنا سالمًا. وقد تحقّقنا سلامة نصوصه، وأنّه وحي يُوحى بنفس الأسلوب. تحقّقنا ذلك من خلال ما يمتنع القرآن الكريم به من مزايا، لا يُضارعه فيها كتابٌ سماويّ آخر. كما تحقّقناه من ملاحظة مُجريات الأحداث في صدر الإسلام، زمن تكامل نزول هذا الوحي السماوي، وقامت الأدلة على أن هذا القرآن قد نزل بترتيب لم يختلط أحدهما بالآخر، وأنّ تحفيظ القرآن، كان يُركّز على ترتيب التلاوة، وفق توجيه من جبريل عليه السلام نفسه، كما قامت الأدلة على أن القرآن الكريم كان مُدَوّنًا على الرّقاع من العُشب والخفاف طوال حياة الرسول الأعظم ﷺ، وأنّ الرّقاع هذه وإن كانت موثوقة معتمدة، إلّا أنّ وضع العرب الأميّين قد اقتضى أن يُعطى المحفوظ من قبل جمهرة حُفّاظ القرآن الكريم المنزلة الأولى من الوثوق، نسبةً إلى الرّقاع. وتحقّقنا أنّ حادثة الإمامة في عهد الخلافة الأولى، دفعت المسؤولين من كبار الصحابة إلى جمع الرّقاع وترتيبها بترتيب تلاوة

حُفَاط القرآن الكريم. وأنّ هذا الأمر دام حتى الخلافة الثالثة، حيث اختلط العرب بالأعاجم، فقلّ عدد الحُفَاط، وصُعِبَ على الأعاجم حفظ القرآن الكريم دون لحن أو خطأ. فدعا ذلك عثمان بن عفّان (رضي) أن يبادر إلى استنساخ سبع نسخ، من النسخة المجموعة والمرتّبة على أيدي زيد بن ثابت كاتب وحي رسول الله ﷺ، ويوزّع هذه النسخ على الأمصار، ليستنسخ عنها المسلمون ماشاءوا، واحتفظ عثمان (رضي) بنسخة القرآن الأصلية التي اعتمدها في النسخ، ثم أعادها إلى حفصة أم المؤمنين، وأمر أن يُحرق كلّ ما هو خارج عنها.

فهذا الأسلوب العلمي لتقصّي الحقائق، ثبت لنا أنّ القرآن الكريم وصلنا سالمًا خاليًا من أيّ تحريف، وعلى ما نزل به من ترتيبت تلاوته التي كان يتلوها به رسول الله ﷺ نفسه بتوجيه وتعليم من جبريل عليه السّلام.

ولابدّ أن يكون القارئ قد لاحظ أنّنا لم نكتفِ بما حققناه بالأسلوب العلمي، من مصداقية القرآن الكريم ومرجعته، بل أدلينا إلى ذلك بعشرة أدلّة من داخل القرآن الكريم نفسه. أثبتنا بها استحالة أن يكون القرآن من اختلاق محمد ﷺ. هذا فضلًا عن أنّنا توصلنا من خلال هذه الأدلّة العشرة القاطعة، باليقين الجازم إلى أنّ هذا القرآن الكريم، إنّما هو وحي وتنزيل من رب العالمين.

ففي الدليل الأول أثبتنا وجود تحدّي إلهي للعرب والعجم أن يأتوا بمثل هذا القرآن من حيث اللغة ومن حيث المضمون في آن واحد، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلًا. وأنّ هذا التحديّ الإلهي للناس كافة لا يزال قائمًا وإلى يوم الدين. وقد عجز الإنس والجنّ أن يأتوا بمثل هذا القرآن إلى يومنا هذا أو أن يضارعه، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

وفي الدليل الثاني أثبتنا أنّ وصول القرآن الكريم سالمًا إلى زماننا الحاضر، لم يحدث اتّفاقًا ومصادفة. بل تأتي وفقًا لوعده إلهي تضمّنه القرآن الكريم نفسه. هذا بالرغم أنّ محمدًا ﷺ لم يأمره الله عز وجلّ بأكثر من تدوين القرآن على الرّقاع دون الطلب منه أن يجمعها ويرتبها، إلى جانب اعتماد طبقة موثوقة من حُفَاط هذا الوحي السّماوي العظيم. فما كان على الرّسول إلّا البلاغ.

وفي الدليل الثالث أثبتنا أنَّ القرآن الكريم أتى خلال حديثه عن موضوع خلق العالم بكشوف علمية، قلب فيها جميع مُعطيات التوراة والإنجيل. وقد جاء تطوُّر العلوم ظهيراً لها مؤيداً لمُعطياتها. بل تلاقى مع نظرية الانفجار العظيم. ويستحيل أن تتأتى مثل هذه الكشوف العلمية المتعلقة بخلق العالم، عن علم محمَّد اليتيم الأمي. بل لا بُدَّ أن تكون صادرةً عن عالم الغيب والشهادة رب العالمين.

وفي الدليل الرابع أثبتنا أنَّ القرآن الكريم قد أتى في موضوع خلق آدم بما يُغاير مُعطيات التوراة. فقلب مفاهيمها رأساً على عقب، ونَبَّه إلى أنَّ آدم عليه السلام، لم يكن أوَّل إنسان مخلوق من البشر، بل كان أوَّل نبيِّ بعثه الله تعالى على رأس سلسلة الأنبياء التي انتهت ببعثة محمَّد خاتم النبيين ﷺ.

وفي الدليل الخامس أثبتنا أنَّ القرآن الكريم أتى فيما يتعلَّق بذات الله وصفاته بما لم تأت به التوراة. أتى بحقائق مُدعّمة بالحجج والبراهين، الأمر الذي يثبت منه أنَّ هذه العلوم يستحيل أن تصدر عن رجلٍ أميٍّ كمحمد بن عبد الله ﷺ. فهي صادرة عن الله تعالى نفسه، الذي أنزل هذا القرآن العظيم.

وفي الدليل السادس أثبتنا أنَّ القرآن الكريم قد تحوَّل بأحكام نظام الحياة إلى أحكام مرنة تصلح لكلِّ زمان ومكان. فتعالى بأحكام الإسلام عن أن تكون أحكاماً مخصوصةً بقرمٍ أو عشيرةٍ بذاتها.

كما ساوى بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات. وقرن كُلَّ حُكْم شرعيٍّ بالحكمة منه مع بيان فلسفته. وإنَّ هذا التحوُّل اليبين في الأحكام ومستواها وصلاحيَّتها، يستحيل أن يكون من وضع رجلٍ أميٍّ كمحمد بن عبد الله ﷺ، الذي لم يكن يملك مثل هذه المُعطيات من آيةٍ جهةٍ من الجهات.

وفي الدليل السابع أثبتنا أنَّ القرآن الكريم أتى بمنهج علميٍّ للحياة، استند فيه إلى حقائق لم تتعرَّض لها تعاليم التوراة ولا الإنجيل، من قبل. بل لم تبلغ البشرية مستوىً سليماً علمياً يُدانيها حتى عصرنا هذا. وهذا المنهج يستحيل أن يأتي به رجلٌ أميٌّ من عند نفسه، مهما كان عبقرياً، دون سابق مُعطيات، إلا أن يكون قد صدر هذا المنهج عن الله علام الغيوب.

وفي الدليل الثامن أثبتنا أنَّ القفزة الإعلامية الرائعة، وهي مُعجزة الأذان التي أتى بها النبي الأمي ﷺ قد كشفت عن دعوة الإسلام السامية التي قامت

على أسس علمية، وقد أتت مضارعةً للطّور الذي بلغه البشر، من حيث بلوغ
نُضجه العقليّ. وهذا الإبداع الإعلامي، إن دلّ على شيء، فإنما يدل على أنّ
القرآن الكريم لم يكن من وضع محمد بن عبد الله اليتيم الأمّي يقيناً. بل هو من
عطاء ربّ العالمين.

وفي الدليل التاسع أثبتنا تطابقَ نبوءات التوراة والإنجيل، مع ما نزل به
وحي القرآن وبعثة محمد ﷺ سيّد الأنبياء. وهكذا جاء تكذيب اليهود
والنصارى القرآن ونبّه الكريم، يُعدّ في حدّ ذاته تكديماً لما جاء في كتبهم المقدّسة
نفسها، ولما احتوته من نبوءات.

وفي الدليل العاشر أثبتنا احتواء القرآن الكريم على عشرات النبوءات
الغيبية التي تحققت. الأمر الذي يجزم بأنّ الذي أنبأ بهذه النبوءات جميعها هو الله
علام الغيوب، ويستحيل أن تصدر هذه النبوءات عن محمد نفسه. فأني له، وهو
إنسان، أن يملك قوى خارقة تكشف له عن المستقبل وعمّا سيحدث فيه؟ وقد
جاء تحقّق هذه النبوءات جميعها تصديقاً لما أشار إليه المسيح بن مريم في إنجيله
حين أنبأ عن بعثة النبي "روح الحق" الذي سيأتي بعده. قائلاً (ويخبركم بأموور
آتية). يوحنا ١٦/١٢.

وها نحن أولاء لخصنا جميع ما تضمّنه الباب المتعلّق بإثبات مصداقية
القرآن الكريم ومرجعيته، لم ندع مجالاً لشك أو ريب في ذلك كلّ. وقد عاد من
واجبنا بعد هذا الذي قمنا به، أن نعود إلى القرآن الكريم، نستنطق آياته الكريمة
لتدلي لنا بالمعلومات التي يتطلّبها مؤلفي هذا. ونستوضحها عن الأدلة القاطعة
على وجود الله عز وجلّ وما تضمّنه القرآن الكريم من معلومات متعلّقة بصفات
الله وأسمائه الحسنی. ليكون كلّ ذلك عوناً لنا على تعرّف الله تعالى ووسائل
الإتصال به والتقرّب إليه مادام ربّنا حيّاً قيّوماً.

وهانحن ننتقل إلى الباب الثالث الذي خصّص للكلام على وجود الله
تعالى، وما أسعفنا القرآن الكريم به من معارف على هذا الصعيد.



الباب الثالث
أدلة وجود الله عز وجل

الفصل الأول: ١. النهج القرآني في التدليل على وجود الله تعالى:

سبق لي أن أشرت في الباب الأول من هذا الكتاب إلى أنّ فكرة وجود الله تعالى لم تتولد عند البشر تدريجيّاً، كما يزعم أصحاب نهج التفكير الماديّ الفارغ من كلّ عنصرٍ روحيّ، بل إنّ الله عز وجلّ نفسه هو الذي يبادر إلى مخلوقه، فأطلعه على وجوده، وذلك عن طريق أنبيائه ورسله الكرام. وقد أثبت صحّة هذه المقولة استناداً إلى ما جاء في القرآن الكريم نفسه الذي أثبتنا مصداقيّته ومرجعيتّه. ومن خلال ما عثر عليه من اللّقى والآثار القديمة التي خلّفتها أقدم شعوب الأرض.

ومن هنا لم تعد حاجة بالقرآن الكريم إلى تقديم الحجج والبراهين التي تثبت وجود الله عز وجلّ، مادام أنّ كلّ أمةٍ على سطح الكرة الأرضية تؤمن بوجود الله عز وجلّ من جراء ذلك، ولا خلاف بينهم إلّا في التفاصيل. ومادام أنّ زُمر الملّحين بوجود الله تعالى لا يؤلّفون نسبةً يُعتدّ بها خصوصاً زمن نزول القرآن الكريم.

وما الاختلاف الحاصل في عقيدة وجود الله تعالى في التفاصيل إلّا من جراء موجات التخلّف والانحطاط التي أتت على مُختلف الأمم، على فتراتٍ متقطّعة. وإلّا فقد كانت شعوب الأرض موحّدةً الله تعالى في فجر توارixها. وهذا أمرٌ أثبت صحّته بالأدلة والأمثلة من واقع وتاريخ أقدم شعوب الأرض.

ولّى جانب وجود هذه الحقيقة، فإنّ الإنسان الباحث الذي يتدبّر أيّ الدّكر الحكيم، لابدّ أن يرى ما رأيت من أنّ الله تعالى، وبسبب اختلاف هؤلاء جميعهم في التفاصيل، أتى بنهج جديد واضح المعالم في البرهنة على وجوده عز وجلّ. هذا النهج لم يُناف الأسلوب العلمي في الاستدلال والإثبات.

كما راعى الله تعالى عند أخذه بهذا النهج مُختلف مستويات الأفهام والإدراك عند البشر. فهو تعالى لم يدع طبقة من الناس إلا خاطبها على قدر فهمها وإدراكها، وألقى إليها بالحجة القاطعة المقنعة أيضاً.

ولنوجز معالم هذا النهج القرآني في الاستدلال على وجود الله تعالى، نقول: قدّم القرآن الكريم أدلةً تدرّجت من دليل بسيطٍ يحتوي على عنصر واحد، إلى دليل مركّب من عناصر عديدة. وكانت المناسبة والتسلسل الموضوعي يتحكّمان في نسق هذه البراهين.

وقد جاءت الأدلة بمجموعها على نمطين، الأوّل يصل بالمرء إلى مرحلة ترجيح وجود الله عزّ وجلّ. والنمط الثاني من الأدلة ينقل الإنسان إلى مرحلة الجزم واليقين في أمر وجود خالقه ومولاه. بحيث ينتفي لديه في هذه المرحلة كلّ شكٍّ وريب بوجود خالقه. على صورة يعيش هذا الإنسان بعدها حياة الاطمئنان الكامل بوجود ربّه في جو من السكينة واليقين الحازم، فلا يعود له همٌّ إلاّ التشوّق إلى تعرفه تعالى والتحرّق إلى وصله.

وأدلة النمط الأول من هذه الأدلة قسمان: الأوّل من النوع الذي يستدلّ بالبراهين الذهنية القائمة على أسس من الملاحظة والاستنتاج العلميّين. والقسم الثاني من الأدلة من النوع الذي يستدلّ بالمحسوسات، أي يستدلّ بالوقائع والأحداث على إثبات وجود الله تعالى مُسبّب الأسباب.

أمّا أدلة النمط الثالث فهي أدلة من النوع السلوكي التجريبي، يعتمد التجربة الشخصية أساساً علمياً للانتقال منها إلى الجزم بوجود الله عزّ وجلّ.

ولربّ سائل يسأل: وما فائدة الأدلة التي يقف بها الإنسان عند مرحلة الترجيح وحسب. وفي الجواب أقول: المعلوم هو أنّ الله تعالى لا تدرك الأبصار ذاته عزّ وجلّ، وليس كمثله شيء. وطبيعة البحث عن وجوده اقتضت أن يُقدّم للباحث عن وجوده تعالى نمطين من الأدلة: النمط الأول أدلة ترجيحية مستمدة من صلب قوانين العالم المادي، وهي تتناسب مع مُختلف مستويات الأفهام والإدراك.

حتّى إذا خطا الإنسان المحقّق هذه الخطوة، فرجّح لديه وجود خالقه وخالق هذا الكون من حوله. استعدّ لقبول النمط الآخر، وهي الأدلة التي لا تقوم

على أساس نظري، بل تقوم على أساس من السلوك والتجربة الشخصية. هذه الأدلة التي تنقل هذا الإنسان المحقق إلى مرحلة اليقين والاطمئنان. فطبيعة البحث عن وجود الله، والبرهنة عليه، هي التي اقتضت هذا النهج المتكامل في أسلوب إقامة البرهان، وهو النهج الذي أتى به القرآن الكريم. والمؤسف حقاً أن تغيب هذه الحقيقة وأبعاد هذا النهج وطرفاً معادلته. عن كثير من علماء الأمة الإسلامية المعاصرين. وقد ساعد ذلك على استمرار تخلف الأمم الإسلامية وتفرُّقها عن باقي أمم الأرض. بل ازدياد تردّي أحوالها وتمزُّقها وانقسامها على نفسها، وتفرُّقها إلى مذاهب وتيارات فكرية مختلفة، وتقطع ما بينها وبين الله عز وجلّ وافتقاد نصرته وتأييده. وسأبسط القول في ذلك في المقام المناسب إن شاء الله العزيز. وبهذه المناسبة أرى أنه من الضروري لي أن ألفت نظر المسلم الباحث إلى أن سورة الفاتحة تشكّل خلاصة موجزة لجميع ماتضمّنه القرآن الكريم من مواضيع. فهي أم الكتاب من هذا المنظار.

الأمر الذي يلزم كل باحث بالرجوع إلى آيات سورة الفاتحة هذه، واستلهاها مدى صحّة فهمه وإدراكه لأيّ موضوع قرآنيّ يبحثه، محالاً تبيّن معالنه. ذلك أن الفاتحة على حدّ فهمي واعتقادي، هي المفتاح لوجود كلّ موضوع قرآنيّ، وهذا الأمر يلزمني بالتالي أن أعمد في نهاية بحثي إلى التوفيق بين ماقدّمته من معلومات، وبين مادلت عليه وتكشّفت عنه آيات سورة الفاتحة.

٢. قد دين الإلحاد بأقلام أصحابه :

يزعم الملاحدة أن الشرائع السماوية والإسلام خاصة، أغفلت موضوع الإلحاد، فلم ينقده القرآن ولم يدحضه. هذا بالرغم من أن موضوع الإلحاد من أخطر الدعوات المناهضة للدين. وأضيف هؤلاء إلى زعمهم هذا، أن هذا النقص في الشرائع السماوية، مرجعه إلى عدم ذبوع مبادئ الإلحاد في العصور الغابرة.

كما يزعمون أن القرآن الكريم أغفل هذا الموضوع، فلم يوله أيّ اهتمام، لأنّ محمداً ﷺ قد ترعرع في بلاد لم يظهر فيها ملحدٌ واحد من الناس.

ويضيف هؤلاء إلى زعمهم هذا أنَّ القرآن الكريم قد شَنَّ حملةً شعواء على الشُّرك والمُشركين ولأريب، بسبب أنَّ المُشركين كانوا يعايشونه ويحيطون به من كلِّ جانب. على حين أهمل القرآن موضوع الإلحاد، بسبب عدم ذيوع مبادئه في البيئة التي نشأ فيها محمد رسول الله ﷺ.

ويخلص الملحدون من ذلك كُلِّه إلى القول: إنَّه لو كانت الأديان مُنزلةً من عند الخالق عالم الغيب، لَمَا كانت قد أغفلت موضوع الإلحاد هذا الإغفال الفاضح، وأهمَلته هذا الإهمال الميِّن.

وأنا بحكم إسلامي أعلن بصراحة: إنَّه لظُلُمٌ يَبِّينُ وتَجَنُّ أثم أن يُفترى على القرآن الكريم مثل هذا الافتراء، فيُوجَّه إليه مثل هذا الاتهام.

. فنحن إذا سألنا رموز الملحدين أينما وُجِدوا: ماهو الإلحاد؟ فسيكون جوابهم: إنَّ هذا الكون الذي هو من حولنا بما فيه، هو مادةٌ وحسب. وإنَّه كذلك من الأزل وإلى الأبد، فهو أزليٌّ أبديٌّ.

وإحباطهم هذه اشتملت على عُنصرين: الأوَّل كون هذا العالم مادةً وحسب. والعنصر الثاني هو استمرار وجود هذه المادة من الأزل إلى الأبد. وتعني هذه الإجابة بألفاظٍ أخرى إنكار وجود خالق لهذا الكون. وإعطاء موضوع إشباع الرغبات المرء وماتهُوى نفسه، المقام الأوَّل في حياته، لتصبح هذه الرغبات معبوده وإلهه الَّذي عليه أن يسعى وراء الانقياد له وتحصيل رضاه. ذلك كان حال أهل أوروبا والاتحاد السوفيتي السابق. فالناس هناك كانوا ولايزالون لا يعرفون إلَّا تلبية ماتهُوى أنفسهم وماتدفعهم إليه ميولهم وشهواتهم. فلاهم لهم هناك إلَّا عيش الرِّقاهية وتحصيل نعيم الدُّنيا.

وقد سبق أن قلت في بداية هذا الفصل إنَّ القرآن الكريم أتى بنهجٍ خاص في موضوع الاستدلال على وجود الله الخالق. وهذا النهج يقرُّ ضمناً بوجود الملحدين. وإلَّا لم يكن للقرآن الكريم داعٍ يدعوهُ لاتِّخاذ هذا النهج وماحتوى عليه من مُختلف أنماط الاستدلال على وجود الله عز وجل.

أمَّا لماذا لم تتوجَّه آي الذِّكر الحكيم إلى مخاطبة الملحدين مُواجهةً تُفرِّزهم عن سواهم من الكافرين والمُشركين، فذلك لأنَّ الإلحاد في حقيقته هو ضربٌ من ضروب الشُّرك. هذا مادَّلت عليه لغة الضَّاد. فقد قال صاحب معجم مفردات الرَّاغِب مانصُّه بالحرف الواحد: (الإلحاد ضربٌ من الشُّرك بالله). وإنَّ

كون الإلحاد شعبةً من شعب الشرك أدى إلى الكلام على الشرك عامة، وهو يشمل الإلحاد.

نلاحظ معالم هذه الحقيقة التي ذكرناها، مما تضمنه قوله تعالى في سورة الجاثية (٢٣ - ٢٤): ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ، وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ، وَمَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾. فقد جعل القرآن الكريم الإلحاد وأهله هنا مُشركين، إذا اتخذ الواحد منهم إلهه هو.

ويؤيد ذلك ما جاء في الآية وهو: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾. والدهر إذا ورد مُعرّفاً بالألف واللام، كما هو في هذه الآية الكريمة، فلا يعني إلا الزمان الأبدى، بلا خلاف، على حسب ما أورده صاحب معجم محيط المحيط. وقال في التعريفات للشريف الجرجاني: (الدهر هو الآن الدائم الذي هو امتداد الحضرة الإلهية وهو باطن الزمان، وبه يتحد الأزل والأبد). وقال في الكليات: (الدهر في الأصل اسمٌ لمُدَّة العالم منذ مبدأ وجوده إلى انقضائه).

وعليه فالله تعالى يشير في هاتين الآيتين الكريمتين إلى الإلحاد والملحدين من طرف خفي. هؤلاء الذين يُقيمون أفكارهم على أساس من الظنون، وليس على أساس علمي. فهم يتخذون هواهم إلههم، وقد ولعوا بإشباع هذا الهوى، وما تتطلبه نفس أحدهم من تحصيل الرفاهية والملذات. وهكذا يُعتبر اتباع الهوى في نظر كتاب الله القرآن ضرباً من الشرك بالله تعالى. إذ لا يتبع هواه ويتخذهُ إلهاً له إلا من قادته ظنونه، واعتقد أنَّ العالم أزلٌّ أبدي، لا ينتهي، ولا حياة ثانية من بعده.

وبناءً عليه نقول: إنَّ اتِّهام الملحدين للقرآن الكريم بأنَّه أهمل موضوع الإلحاد، فلم يتطرَّق إليه، وأثبت من خلال إهماله هذا أنَّه لم يصدر عن الله عالم الغيب، وأنَّ القرآن بالتَّالي من اختلاق محمد ﷺ نفسه، وهو الذي أمضى حياته في جورٍ ماؤُجدٍ فيه حوله مُلحدون.

إنَّ اتِّهامهم هذا، من خلال ما بيناه، هو اتِّهام باطل. وهو إن دُلَّ على شيء، فإنَّه يدلُّ على جهل أصحابه بوجود نهج قرآني في الاستدلال على وجود الله تعالى والردُّ بهذا الاستدلال على الملحدين.

كما يدلّ على جهلهم بدلالات الألفاظ العربيّة أيضاً، التي أدخلت الشرك فرعاً من الإلحاد. فالشرك لغةً ينطوي على الإلحاد لأنّ الإلحاد هو في حقيقته ضربٌ من ضروب الشرك. ومثاله إشراك الملحد الذي يتخذ إلهه هواه. وعندما قلت: إننا إذا سألنا رموز الملحدين عن مفهوم الإلحاد من منظارهم. كنت أشير إلى ماذهب إليه (هربرت سبنسر) مؤسس مذهب الإلحاد في العالم. بالرغم من أنّه لم يدّع هو نفسه أنّه رأس الملحدين. وسبنسر هذا كان طرح مبدأ عاماً وقال: (إنّ مايتفق عليه العالم أجمع، لايجوز تخطئته. إذ لابدّ أن يوجد وراء هذا الاتفاق شيءٌ من الحقيقة.) وقد صدق في المبدأ المطروح. ذلك أنّ الناس لايجمعون إلا على حقيقةٍ تبينوها جميعاً. كالماء مثلاً، إذ تبين للناس أجمعين أنّه يطفئ العطش. فلا بدّ أن يكون في إجماعهم هذا نصيب من الحقيقة.

ولقد أقرّ القرآن الكريم هذا المبدأ العام، وطرحه دليلاً، يثبت عن طريقه وجود الله عز وجلّ. وبإمكاننا تسمية هذا الدليل، بدليل الإجماع العام.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ مؤلفات سبنسر ودارون وفرويد ونيوتن وكارل ماركس، كانت قد أخذت بمجامع أفئدة الأوربيين في القرن التاسع عشر. لكن حدثت كشوف علميّة جديدة طلع بها القرن العشرون على العالم، غيرت هذه الكشوف وجهة نظر علماء الغرب. الأمر الذي دفعهم دفعاً إلى تخطيط حواجز الإلحاد تلك التي وضعها في طريقهم مؤسسوه، وعاد هؤلاء العلماء ينظرون إلى هذا الكون على أنّه مخلوق، بتأثير ماطلع به عليهم العالم الفيزيائي (غاموف) بنظريته فيما سُمّيَ بنظرية الانفجار العظيم.

واعتقادنا هو أنّ القرآن الكريم الذي أنزله ربنا منذ أربعة عشر قرناً من الزّمان. كان الله تعالى قد أنزله للناس كافة، من أجل أيّ زمان أو مكان وُجدتْ النَّاس فيه. من هنا كان لابدّ أن يكون القرآن الكريم قد تعرّض لما طلع به علماء أوربة وأمريكا في القرنين الأخيرين. إثباتاً منه جلّ وعلا على أنّه عالم الغيب والشّهادة العزيز الغفور.

الفصل الثاني : الأدلة على وجود الله تعالى أولاً : الأدلة الترجيحية الذهنية ١ - دليل الإجماع العام :

والحق الذي لامراء فيه، هو أننا بعد تدبرنا آيات سورة فاطر، تبين لنا أنه تعالى قدّم في هذه السورة دليلين واضحي العالم من القسم البسيط والمركب العناصر، في مجال التدليل على وجوده عز وجلّ، وقد استند الدليل الأول إلى مبدأ الإجماع العام الذي سلّم به روبرت سبنسر وسواه من أئمة الإلحاد. وقد ورد الدليل الثاني بالأسلوب العلمي المعاصر في التحليل والاستنتاج، وهو سمة أبحاث علماء القرن العشرين من الأوربيين. وقد اصطللحنا له اسم دليل اختلاف الألوان. علماً بأنّ هذين الدليلين وردا في سورة فاطر مُتتابعين ضمن الآيات التالية: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ. وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ. ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر ٢٣ - ٢٨).

نتناول بالبيان الدليل الأول، وهو الدليل المؤسّس على مبدأ الإجماع العام الذي طرحه روبرت سبنسر في مؤلفه الإلحاديّ. فقد تضمنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾. وكأنه تعالى يقول هنا بالفاظٍ أخرى: يامن تحترمون مبدأ الإجماع العام على أمر من الأمور، ولاتُخالفونه مُعطياته هاكم سيحوا في طول الأرض وعرضها فلا تجحدون إلّا وأنّ جميع شعوب الأرض تؤمن بوجود الله خالقها، ولايختلفون فيما بينهم إلّا في تفاصيل مايتعلّق بوجوده. فهل يُعقل أن يتأتّى هذا الإجماع تلقائيّاً وبالتدريج؟

فاعلموا أن الله تعالى هو الذي كشف نفسه على عباده وأنبأهم بوجوده. وهو تعالى ماترك أمة من الأمم إلّا وبعث فيها نذيراً من طرفه يبشّرهم

وينذرهم. وأبقى وأسعد الذين آمنوا دوماً. أما من كذبوا بوجوده وبرسله فقد قال عنهم: ﴿ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير﴾.

هذا وإني سبق أن أثبت أن كل أمة من الأمم القديمة كانت موحدة في بادئ أمرها. وكانت كلما ابتعدت عن زمن النبي الذي دعاها إلى الله خالفها، دبّت في عقائدها الانحرافات والتفسيخ، وانتهت إلى وضع من الشرك مأساوي، وإن كان الشرك بالله لا يخرج عن نطاق الاعتقاد بوجود الله عز وجل.

وهكذا فإن قوله عز وجل: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ أشار من طرف خفي إلى إجماع أمم الأرض نتيجة لذلك على الاعتقاد بوجوده تعالى. وهذا الإجماع الملاحظ لا يعني أن فكرة وجود الله تولدت عند الناس تدريجياً، بأي شكل من الأشكال. فهذه آثار الأمم التي تركوها تدل أقدم تواريخ هذه الأمم على أنهم اعتقدوا بالإله الواحد الموجود خارج هذا الكون والذي بعث برسله موصياً إياهم التبليغ بوجوده وبرسالته. وقد أثبت ذلك من قبل.

وعليه فإن قوله تعالى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ أتت بدليل الإجماع العام الذي طرحه روبرت سينسر، فهل للذين يحترمون مؤسس الإلحاد المذكور أن يحترموا بالتالي هذا الدليل الذي يدلي به القرآن الكريم لإثبات وجود الله عز وجل؟

وقد أفضت إلينا ألفاظ هذه الآية الكريمة وبأسلوب متميز، دليلاً من النمط الذهني البسيط ترجح لنا من خلاله وجود الله الخالق. وهو دليل تتقبله مختلف مستويات الأفهام. ولا يحتاج من الإنسان إجهاد نفسه كثيراً للإلمام بمعطياته. وقد جاء هذا الدليل يُفحم ببساطة واضحة رموز الإلحاد، بل ويدينهم بما خطّته أقلامهم أيضاً.

٢ - دليل التعدد اللوني:

ولما كان في علم الله تعالى أن أوربة ستجود في القرن العشرين بفتية مختلفة عن هؤلاء الملحدّين من علمائها، سيتبين لهم عن طريق مابلغوه من رقي علمي، أن هذا الكون ليس بأزلي أبدي، بل هو كونٌ مخلوق قبل (١٢ - ٢٠) مليار عام تقريباً. إشارة إلى نظرية الانفجار العظيم.

أقول: لما كان في علم الله الغيبي ذلك، أدلى جل شأنه إلى جانب دليل الإجماع العام الذي أتينا على ذكره، بتحليل آخر متعدد العناصر، وبأسلوب بحث هذه الفئة من العلماء الأوربيين العلمي القائم على أساس من الملاحظة والتحليل والاستنتاج. وقد احتوى هذا الدليل الثاني الذي اصطُلِحَتْ له اسم "دليل التعدّد اللوني"، احتواء قوله تعالى في نفس سورة غافر، وبعد آيات الدليل الأوّل مباشرة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُود. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾. والجُدَد تعني الخطوط والطرائق في الجبال. وبيضُ إشارة إلى كونها كلسيّة بيضاء اللون.

وحُمُرُ إشارة إلى الجبال الرملية التركيب وحمراء اللون. وغرابيب سود إشارة إلى الجبال البركانيّة سوداء اللون. فالغرابيب جمع غريب، أي حالك السواد، وسودُ هنا بدل من غرابيب، لتأكيد كونها حالكة السواد. علماً بأنّ توكيد الألوان في اللغة العربيّة لا يتقدّم عليها.

والآن وبعد أن شرحت معاني ألفاظ هذه الآيات الكريمة التي اشتملت على دليل التعدّد اللوني. أرى لزماً عليّ إعطاء القارئ فكرة واضحة عن أسلوب علماء أوربا المعاصرين في البحث والتحليل والاستنتاج العلميين، ليُعيّنهُ ذلك على تفهيم الأسلوب الذي انتهجه القرآن من خلال طرحه لهذا الدليل الثاني متعدّد العناصر. إثباتاً منه عز وجلّ لوجوده. فقد كان في علم الله الغيبي، كما ذكرت، أنّ القرآن الكريم وآياته ستَمُت من أمام أعين العلماء الغربيين أصحاب الأسلوب المخصوص بهم وفي القرن العشرين خاصة.

وإنّه بينما غلب على علماء القرن التاسع عشر الأوربيين الإلحاد والتفكير بنهج ماديّ بحث. إذ راحوا يفسّرون ظواهر الطبيعة وأشياءها على أساس عنصرين هما الضرورة والمصادفة. فقد لوحظ أنّ علماء القرن العشرين الأوربيين تجاوزوا هذه المرحلة الإلحادية عموماً، فتجاوزوا عنصرَي الضرورة والمصادفة إلى ماوراءهما بعدما تبيّن لهم أنّ العالم ليس بمادّة وحسب، وأنّه مخلوق، ولربّما تمّ خلقه منذ (١٢ - ٢٠) مليار عام.

دونكم أسلوب العالم الفيزيائي الشهير (هنري مارجينو)^(١) في البحث والتحليل العلمي. فقد كتب هذا العالم يقول: (فيإذا كانت المصادفة والضرورة كلتاهما عاجزتين عن تفسير الجمال في الطبيعة، فلا بد من وجود شيء غير هذين العنصرين.. تأمل لحظة جرياً يصنع سكيناً لتقطيع الخبز لاستخدامه الشخص، من الجلي بالضرورة أن تكون للسكين الجديدة هذه شفرة، إذ لا يستطيع الحرفي تقطيع الخبز دونها. أمّا تصميم مقبض السكين المزخرف والمزّصع، فلا نستطيع عزوه إلى الضرورة. لأن السكين قادر على أن يقطع الخبز بنجاح، دون حاجة إلى أي زخرفة على الإطلاق. والحرفي يختار بمحض إرادته أن يزيّن أدواته بالزخارف. ففي وسعه أن يضيف الزخارف أو لا يضيفها. فإذا اختار إضافتها، توفرت له جملة من التصميمات يتتقي منها ما يشاء.

فزخرفة السكين تقبل البدائل، ومع ذلك فهناك سبب لوجودها، وهو أنّ الفنان لا يريد سكيناً ماضية فحسب، بل يريدّها جميلة كذلك، فالزخرفة إذا ليست نتاج المصادفة والضرورة، بل هي تصرف يتسم بحرية الاختيار. والعقل يختار بحرية، إذن هو الطريق الوسيط بين المصادفة والضرورة. وعلى هذا النحو، فمادام الجمال بالغ الوفرة في الطبيعة، فلا يمكن أن يكون ناشئاً من مصادفة، فلا بد له إذاً من سبب ولكن هذا السبب لا يمكن حصره في نهج واحد. إذن ليس هناك من ضرورة مطلقة تقتضي أصلاً وجود الجمال في الحيوان والنبات والجماد.

وعلى ذلك يبدو أنّ الجمال المشاهد في الطبيعة ناشئ عن علّةٍ لاتحكمها الضرورة، ولكن لديها مع ذلك سبباً يفسّر تصرفها. وهذه العلّة هي "العقل"، ومن ثم فإنّ هناك عقلاً مسؤولاً عن جمال الطبيعة، وهذا العقل القائم وراء الطبيعة، يطلق عليه الناس جميعاً اسم "الله".

ودونكم العالم الأوربي (أميرسون)^(١) قد أقنعه منطق العالم (هنري مارجينو) الذي ذكرناه. وبعد أن أبدى قناعته برأيه، أدلى بالنصيحة التالية، تأكيداً لما ذهب إليه زميله بشأن الجمال، إذ قال: (إياك أن تفوت أي فرصة

(١) العلم في منظوره الجديد ص ٧٧ (عالم المعرفة العدد ١٣٤)

(١) المرجع نفسه

لمشاهدة أي شيء جميل، لأنّ الجمال خطّ بيد الله. إنّهُ قُدَّاسٌ يُقام على جانب الطريق. لذلك رَحَّبَ بالجمال في كلّ وجهٍ حسن، وفي كلّ سماءٍ صافية، وفي كلّ زهرةٍ جميلة، واشكر الله على ذلك، إنّهُ كأسُ بركة).

وهكذا يدرك المرء أنّ علماء القرن العشرين الأوربيين، وليس ساستهم، راحوا يُلحظون يد الله تعالى في ندفة الثلج، وفي غروب الشمس، وفي مروج الأعشاب. وأنّ عظمة الجمال الطبيعي وجلاله يحملان توقيع الله الخالق الذي لا شُبْهة في وجوده عز وجلّ. ذلك أنّ النظرة الجديدة لهؤلاء العلماء إلى الكون وأصله، وبُنيته الجمالية أفضت بهم إلى أنّ الله الخالق موجود. أمّا كيف قفزوا هذه القفزة الرائعة، فقد قفزوها بعد أن هجروا كُتب سنسبر ودارون وفرويد ونيوتن وكارل ماركس. قفز هؤلاء العلماء الجُدّد من فوق أكّداس مؤلفات هؤلاء الضُخمة، بعد أن أعملوا فكرهم في البحث عمّا يمكن أن يُتخذَ سبباً غير الضرورة والمصادفة، لِمَا يتّصف به كل موسم بالجمال في هذا الكون الجميل الأخاذ كليّاً وجُزئياً بجمال يُخلبُ الألباب. فهؤلاء العلماء الغربيون الجُدّد، والذين نَجّوا بأنفسهم من إسار الإلحاد الذي ضربه المُلحدون حول عقل الإنسان وتفكيره، اتّسع أفق رؤيتهم للأشياء، فبدت معالم الطريق أمامهم جليّةً بيّنةً لتقلّص رؤيتهم هذه إلى تعرّف وجود الله عز وجلّ. وقد عاد هؤلاء العلماء الآن بأمسّ الحاجة إلى القسم الثاني من الأدلّة السلوكية، التي تنقل الإنسان إلى مرحلة الاستيقان بوجود الله عز وجلّ، حيث تنتفي في تلك المرحلة الشكوك وتنحلي ظلماتها. فيندفع الباحث إلى يقين جازم، يخلد فيه القلب وادع النفس، هادىء البال، كطفل ظفر بوالديه بعد ضياع طويل فوجد فيهما سكينة ومأمنه، فهؤلاء العلماء الجُدّد بحاجة الآن إلى من ينقل إليهم القسم الثاني من الأدلّة السلوكية التي أدلى بها القرآن الكريم. فهم بحاجة إلى صُحبة هؤلاء الأبرار الذين قطعوا هذا الشّوط السلوكي فجنوا ثماره وليعودوا عمّا كانوا يتشّدقون به، بما لا يعرفون.

إنّ علماء أوربة المعاصرين الذين تدرّجوا في سلّم الأدلّة الموصلة إلى حقيقة وجود الله الخالق من البسيط إلى الدليل المركّب متعدد العناصر. عندما ينظر هؤلاء إلى المُجتمعات الإسلامية المعاصرة وما يجري فيها من تعصّب وتنافر وتعاذٍ وتقتيل. يصدّهم ذلك الواقع، فيحول بينهم ودون تقبّل الإسلام ودون

الإيمان بكتابه القرآن الكريم. ذلك أنهم لا يعثرون في هذه المجتمعات المتخلفة على أسوة حسنة حية، تجسم لأعينهم ثمار هذا الدين القويم، ومُعطيات هذا القرآن العظيم.

ألا إن النهج القرآني في الاستدلال على وجود الله الخالق، اعتمد على قسمين من الأدلة: الأول منها يساعد فكر الإنسان لترجيح وجود خالق لهذا الكون. وهو يتنوع ما بين دليل اشتمل على عنصر واحد، ودليل اشتمل على عناصر عديدة. وهذا القسم الأول من الأدلة اعتمد الفكر الإنساني أداة وسُلماً على هذا الطريق.

وهذه الحقيقة تبّنها إليها الله جل شأنه في أول سورة من كتابه العزيز. حين صدّم الفكر العربي الجاهلي بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا، وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ، كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ البقرة ٢١٩ - فقد حتّ جل جلاله هؤلاء السائلين على إعطاء الفكر منزلة، ليتصرفوا على هُدى منه، ويحققوا بأسلوب علمي في منافع كلّ شيء من الأشياء ومضارّه، فيتجنبوا ما غلبت مضارّه على منافعه. لذلك أضاف قوله: (كذلك) أي على هذه الشاكلة وبهذا الأسلوب تُعالج الأمور ويُميّز صالح الأشياء من طالحها. ولا يتحقق ذلك عن طريق الإكثار من طرح الأسئلة. ثم إن في طيات كلمة (كذلك) حتاً منه تعالى للمؤمنين على تأسيس مؤسسات علمية مثمرة، والاندفاع إلى الطريق العلمي في البحث والتفكير. لذلك أردف تعالى بعد كلمة (كذلك) قائلاً: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. ثم إن قوله (يُبَيِّن) أي يوضح لكم هذه العلامات. فالآية جمعها آيات ومن معانيها العلامة والدليل. أي يرسم لكم طرق حلّ معضلاتكم في حياتكم الدنيا ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي لعلكم تعملون فكركم في كلّ آية من آيات هذا الكتاب فتتدبّروا بما تعظ به الآيات وترشد إليه من وحدانية الله وعظمته وسبيله.

وعليه قلت آنفاً إن القسم الأول من أدلة إثبات وجود الله تعالى ارتكزت إلى دعامة الفكر وأساسه. على حين ارتكز القسم الثاني من هذه الأدلة على أساس سلوكي. وقد صرح تعالى بذلك في سورة البقرة الآية (١٨٦) بقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ،

فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون. ﴿١٤٠﴾، وسيأتي تفصيل ذلك في حينه إن شاء الله العزيز.

وأعود الآن إلى ما اقتبسته من الأسلوب الجديد للعلماء الغربيين المعاصرين، الذي اختطّوه في التفكير والبحث والاستنتاج. فهو جلّ شأنه، ما إن انتهى من الإدلاء بدليل الإجماع العام الوحيد والعنصر والبسيط، حتى أتبعه بالدليل المتعدد العناصر وعلى غمط هؤلاء العلماء المعاصرين. مُنطلقاً من قوله ﴿ألم تر﴾ إثارة للتعجب، ورأى بمعنى ظنّ ويتعدّى إلى مفعولين على حسب ما ذكر في الكليات، فدلالة ﴿ألم تر﴾ أي ألم تلاحظ أيها الباحث بالأسلوب العلمي: ﴿إن الله أنزل من السماء ماءً، فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جُدُودٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلف ألوانها، وغرايب سود. ومن الناس الذّواب والأنعام مختلف ألوانه، كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء، إن الله عزيزٌ غفور.﴾

فالملاحظ أن الله تعالى كرّر كلمتي "مختلفاً ألوانها" ثلاث مرّات، وقد ركّز في جميع ما ذكره على اختلاف الألوان. فهو تعالى ذكر الثمار والجبال أولاً لافتاً الأنظار إلى اختلاف ألوان كلّ منها عن الآخر. والألوان هي في حقيقة الأمر أساس من أسس الجمال، كما أنّ للشكّل شأنه في الجمال أيضاً. فهو جلّ شأنه انطلق في هذا المقام من مُنطلق الأسلوب العلمي الذي بات سمة علماء أوربة المعاصرين. انطلق من أنّ الماء هو مصدر الحياة في جميع الأشياء التي أتى على ذكرها في هذه الآيات الكريمة، والماء حقاً هو أساس الحياة في كل مخلوق على حسب ما أثبت العلم ذلك.

لكنّه تعالى أضاف متسائلاً أنّ: أُولم يُلفت نظركم أيها الباحثون هذا الاختلاف في ألوان جميع الأشياء التي ذكرناها، كيف بدت مُلوّنة ومزخرفة على صورة لا يفسرها غُنصر الضرورة والمصادفة، فلا بُدّ أن يكون الذي أنشأ هذه الأشياء، قد زخرفها بمختلف الألوان التي ابتدعها، بعقريّة الفنّان المُبدع المُصوّر؟ أُولاتلاحظون كيف أنّ هذا الجمال المتجلّي في كل شيء من هذه الأشياء، جمال الطبيعة الأخاذ الباهر للأنظار، قد أخذ بمجامع أفئدة الشعراء والأدباء فراحت ألسنتهم وأقلامهم تتغنّى بجمال الطبيعة في كلّ زمان، فتتنظّم القصائد، وتجبرّ المقالات، تعبّر بها عمّا يخالج هذه الأفئدة بمطالعة هذا الجمال.

فقد وصف الشعراء الربيع تدبُّ في أرضه الحياة بعد الموات، فتخرج الحياة متبرجة متزينة بالأزهار والرياحين بعد احتجاب. وقد وصفوا الروضة البكر بعد الغيث: نبتها ونضرتها وغمائها. صورَّ تقف الأبصار أمامها دهشة، و الألباب مُعجبة مفتونة، صورَّ تنبض بالحياة والحركة. كما أخذ الجمال بمجامع أفئدة العشاق، فراحوا يتغنَّون بحشوقهم، فيصفونه بالبدر في ثورة المتألق، وأخذ هذا الجمال بمجامع أفئدة الأدباء، فراحت أقلامهم تتنافس في إبرازه وتفتن بوصفه في صور قد بلغت من الدقة والإتقان الغاية. فتجلَّت فيها قدرة الكاتب في فنه وبراعته في التصوير.

فإذا عُذنا إلى أسلوب هذا الدليل القرآني متعدد العناصر، نجد أنه أتى مُحلِّي بأسلوب هؤلاء العلماء الأوربيين العلمِّي، إذ أتى علي ذكر الثمار. والثمار في الأرض يُرى منها عشرات الأنواع، ولكل نوع منها مزيتة اللونية الزخرفية. ثم أتى على ذكر الجبال، والجبال، وفي الأرض منها مئات ألوف، ولكل جبل من هذه الجبال مزيتة الزخرفية: فمنها ما كان من حجر كلسي، ومنها ما هو من حجر رملي أو حجر بُركاني أي بازلي. فهي تزدأى لك من بعيد بلون أبيض وأحمر وداكن أسود.

وأتى تعالى على ذكر الإنسان، ولفت الأنظار إلى أن الإنسان لم يخلُ من هذه الزخرفة اللونية، فهناك العرق الأبيض والأصفر والأحمر والأسود أيضاً. وأتى على ذكر الدواب والأنعام. وللدواب والأنعام ألوف الأنواع. وكلُّ منها لونٌ بزخارف تسلب ألباب الناظرين.

وكان الله عز وجل يخاطب القائلين بمذهب دارون في النشوء والارتقاء، فيقول: إذا نحن سلّمنا أنّ سرَّ تعدّد الأنواع وتركيبها على أشكائها المادية الحاضرة، إنما يعود إلى فاعلية عنصرَي الضرورة والمصادفة، إذا سلّمنا معكم بذلك، فكيف يمكن أن تفسّروا ظاهرة الاختلاف في الألوان، وهذه الزخارف اللونية اعتماداً على أساس من الضرورة والمصادفة، فإن عجزتم عن ذلك، لزم أن تعيدوا النظر في جميع ماتزعمون.

على أنّ العلماء المعاصرين، ممّن خالفوا أتباع دارون في نظريته، انقلبوا عليه من جهات، وأقروا صاغرين بما لفت القرآن الكريم الأذهان إليه. وسلّموا بأنَّ اختلاف ألوان كل شيء يشير إلى وجود يدٍ لفنان أعظم قد زخرف كلَّ

شيء خلقه بريشة المصور المبدع. وإنه للدليل لا يدحضه، بل يؤيده قول عالمهم (أمرسن)^(١)، قوله: (إياك أن تفوت أي فرصة لمشاهدة أي شيء جميل، لأنّ الجمال خط بيد الله..).

أقول: كان الأحرى بهؤلاء الذين أدركوا أنّ اختلاف الألوان في الطبيعة، لا تفسره الضرورة والمصادفة، بل يفسره وجود يد لفنان أعظم. كان أحرى بهؤلاء ماداموا قد مضوا في تقديس الجمال على أنّه (خط بيد الله) كان أحرى بهم أن يتعالوا عن عبادة البشر، ويعبدوا الخالق ربّ العالمين. فكان من واجبهم أن يخطوا الخطوة الثانية للتعرف على هذا الذي أبدع هذا الجمال اللوني، ويوظفوا صلاتهم به تعالى، ويرتموا على أعتابه، متوسلين متضرعين أن يهديهم إلى الصراط المستقيم، وأن يرزقهم حقّ اليقين.

وهكذا نكون قد اطلعنا على دليلين يُثبتان وجود الله عز وجلّ احتوتهما سورة فاطر في مقام واحد. الدليل الأول منهما بسيط غير متعدّد العناصر. وقد اصطللحنا له دليل الإجماع العام. والدليل الثاني منهما، المتعدّد العناصر، وقد اصطللحنا له اسم دليل التعدّد اللوني. وهذان الدليلان يعودان إلى القسم الأول النظري في الإثبات. هذا القسم من الأدلة الذي يصل بالمرء إلى حدّ ترجيح وجود الخالق المبدع المصور عز وجلّ، ولا يتجاوز ذلك، على ما يقتضيه عقل الإنسان السليم التفكير.

٣ - دليل الوجدانية في الذات وفي الصفات

وأتناول بالذكر والشرح دليلين جديدين، يُرجحان وجود الله عز وجلّ. وقد اشتملت على هذين الدليلين سورة الإخلاص التي لا يزيد عدد آياتها عن أربع آيات عدا البسملة. هذه السورة التي ورد عن رسول الله ﷺ قوله بشأنها: (من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن) وقوله: (والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن).

(١) المرجع نفسه

والغريب حقاً، هو أن كُتِبَ التفسير، بالرغم من أنها احتوت في طياتها هذه الأحاديث الشريفة، قد أخذت بروايات أسباب النزول، فذهبت إلى أن سورة الإخلاص قد اقتصرت على تعداد صفات مُحددة لله تعالى وحسب.

وبالبحث المسلم المتدبر لا يذهب مذهب ما أخذت به كتب التفسير هذه بل تحته الأحاديث الشريفة التي أوردناها، ليتدبر سورة الإخلاص بنظرة ثاقبة أعمق مما دلت عليه أسباب النزول، ولينظر من زاوية مختلفة تماماً.

ثم إن تسمية هذه السورة باسم سورة الإخلاص، تحته هذه التسمية خطأ على أن يتحجى بتفسيره منحي آخر. ذلك أن الإخلاص مصدر أخلص، وهو ترك الرِّياء في الطاعات، كما قال صاحب التعريفات من حيث الدلالة المعنوية للفظ الإخلاص. وهل يترك المرء الرِّياء في الطاعات ويتجنبه لمجرد أن يقرأ ويردد (أحد، صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد)؟

ولعل كتب التفسير قد ذهبت إلى ما ذهبت إليه، لابتداء سورة الإخلاص بفعل الأمر (قل)، فتصوّرت أنه جواب (قل) عن سؤال وجهه المشركون إلى رسول الله ﷺ. وقد يكون لهم عُذر، لو ورد هذا اللفظ ضمن سورة كثيرة الآيات. على حين كانت سور المعوذات الثلاث، ومنها سورة الإخلاص، خلاصة موجزة لجميع مضامين القرآن الكريم.

وهي على شاكلة فاتحة الكتاب، فلا يُعقل أن تنزل جواباً على سؤال مُعين. بل لأبد أن تكون مُفعمة بدلالات توازي ثلث مضامين القرآن الكريم إنما يابحاز شديد وبلغ.

ولرب سائل يسأل: فماهي حكمة ودلالة فعل الأمر (قل) هنا إذن؟

ويستنبط الجواب من التسلسل الموضوعي لسورة الإخلاص، وارتباطها موضوعياً مع السورة التي سبقتها من حيث ترتيب تلاوتها، أي بسورة (تبت)، التي سبق أن ندّد الله عز وجل فيها بأبي لهب، وبما أنبأ فيها عن زوال قوته وقوة أتباعه وعُملائه من على وجه الأرض في هذا الزمن الأخير المعاصر، زمن تخلف المسلمين وانقسامهم على أنفسهم، وزمن ظهور عملاء أبي لهب من بين صفوفهم. ولا مجال للتوسّع بذلك في هذا المقام.

فمعنى (قل) الوارد في ابتداء سورة الإخلاص، معناه الأمر بإنذار أبي لهب يوم صولته أن الله موجود، وأنه لا يقبل له مقاومة دين الإسلام والقضاء على كتابه القرآن، ذلك أن الله جلّ جلاله (أحد) لا يشاركه شيء في ذاته ولا في صفاته.

ذلك أن لفظ القول أكثر من معنى. فهو يستعمل للنطق، كما يستعمل للاعتقاد والاجتهاد. وللقرآن الكريم نهجٌ انتهجه في كلِّ مقام أورد فيه فعل الأمر (قل). وهو جلّ شأنه أتى بصيغة (قل) فيما يزيد عن ثلاثمائة وثلاثين مرة، ووفقاً للنهج التالي:

أولاً - في حال ورود كلمة (يسألونك)، يعمد إلى الإجابة، مبتدئاً بالأمر (قل). وعلى سبيل المثال، ففي الآية (١٨٩) من سورة البقرة قال تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلة، قل هي مواقيت للناس والحج﴾.

ثانياً - وفي حال التبشير والإنذار، يعمد بعده إلى التعبير بلفظ (قل) أمراً بضرورة من بشرهم وأنذرهم، أن يستعملوا نعمة العقل، فيمعنوا التفكير فيما بشرهم به وأنذر. ففي سورة الأنعام الآية (٥٠) مثلاً، قال تعالى: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذبوا بآياتنا يُعَسِّهُمْ العذاب بما كانوا يفسقون، قل هل يستوي الأعمى والبصير، أفلا تتفكرون؟﴾

ثالثاً - وفي الوقت الذي يندد به تعالى بالعقائد الفاسدة ومُعتنقيها، يعمد تعالى بعد ذلك إلى فعل الأمر (قل) ليحمّل رسوله الكريم والذين آمنوا معه رسالة تحدّ إلى أصحاب العقائد الفاسدة. كما ورد في الآية (١٩٥) من سورة الأعراف على سبيل المثال، حيث قال تعالى منذداً: ﴿إن الذين تدعون من دون الله، عبادةً أمثالكم، فادعوهم، فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين. ألهم أرجلهم يمشون بها، أم هم أيديهم يطشون بها، أم هم أعينهم يُبصرون بها، أم هم آذانهم يسمعون بها، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون﴾.

هذا ولم يسبق أن ابتدئت سور القرآن الكريم بكلمة (قل) لاعتبار (قل) التي ابتدئت بها سورة الإخلاص جواباً عن سؤال معلوم.

المهم هو أن للقرآن الكريم نهجاً يسير عليه في كلِّ أمر من أموره. ومن واجب الباحث المتدبر أن يتبين معالم هذا النهج قبل الجزم برأيه. خصوصاً بعد أن

وضّحت له معالم هذا النهج في هذا المقام. فلا بُدَّ له من التقيّد به ومراعاة السياق والتسلسل الموضوعي ودوره، عند الكلام على فعل الأمر (قل) ودلالته.

هذا وإني بينت أنّ سياق (قل) هنا هو مضمون ما اشتملت عليه سورة تبت. هذه السورة التي نددت بأبي لهب وأنذرتة فالمقصود بـ (قل) إذن مخاطبة هذا المارد المتمرد ووعظه بأن يضع نصب عينيه أنّ الله موجود، وأنه أحد في ذاته وصفاته، وأنه الحكم الأخير والفصل والمرجع في جميع الأمور، وأن أسباب النفاذ إنما هي طوع يديه عز وجلّ.

وما يؤكّد لنا المعنى الذي كشفت عنه، هو أنّ الله تعالى لم يقل هنا (قل الله هو أحد). بل قدّم الضمير (هو) على اسمه الأعظم. وإنّ لهذا التقديم دلالة البلاغية، ذلك أنّ المرء إذا شاء تعظيم مُسمّى، يقدّم الضمير العائد عليه، تعظيماً لشأنه وإكباراً له. وهذا الأمر بدا واضحاً في الآية ﴿قل هو الله أحد﴾ فالضمير (هو) في هذه الآية يعود إلى اسم الجلالة (الله) الذي لم تحتوي هذه الآية على اسم سواء. وقد قدّم ضمير (هو) على اسم الجلالة إشعاراً بعظمة الله عز وجلّ. وكأنّه تعالى بهذه الصيغة البلاغية، قد نبّه أبا لهب إلى تناسيه شأن الله فيما يفعله ويُقدّم عليه.

وبإمكاننا الآن أن ندرك احتواء الآية ﴿قل هو الله أحد﴾ على مقولتين اثنتين: الأولى تضمّنها إعلان وجود الله العظيم الشأن. وهو مادّل عليه قوله تعالى ﴿قل هو الله﴾. والمقولة الثانية تضمّنها لفظ ﴿أحد﴾. بمعنى أنّ الله عظيم الشأن ليس موجوداً وحسب، بل هو متفرّد في ذاته كما هو متفرّد في صفاته أيضاً. فقد أورد صاحب معجم أقرب الموارد أنّ الواحد هو أوّل العدد.

تقول: واحد اثنان ثلاثة.. والفرق بين الأحد والواحد، أنّ الأحد اسم لمن لا يشاركه شيء في ذاته، فهو الواحد الذي لا يشاركه شيء في صفاته أيضاً. فإذا علمنا أنّ الله تعالى اختط في كتابه العزيز نهجاً خاصاً به، وهو أنّه لا يأتي بمقولة إلّا وتُبعها بدليل يثبت صدق مضمونها. ولذا كان لزاماً علينا تجاه احتواء الآية على هاتين المقولتين: وجود الله العظيم وتفرّده في ذاته وصفاته، أن نجد في الآيات التي تعقب هذه الآية من سورة الإخلاص دليلين يُثبتان صحّة هاتين المقولتين. وإلّا نكون قد خالفنا أصلاً هاماً من أصول تفسير القرآن

الكريم. هذا الأصل الذي قلما عُثِرَ كُتِبَ التفسير به وهو أن الله تعالى لا يدعي أمراً ما إلا ويُتبع دعواه بدليل مؤيد لدعواه.

والحق الذي لا مرء فيه هو أن الله تعالى أثبت مقولته الأولى المتعلقة بوجوده، وذلك بأن قدّم عليها دليلاً من النوع البسيط، يُستساغ فهمه لدى مختلف المستويات من أفهام عباده. وقد عبّر عن دليله هذا بقوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أي أن صمدية الله تعالى تجلّت على الدوام في كلّ مكان وفي كلّ زمان. ويقتضي تدبّر كلام الله منا أن نتبين معالم هذا الدليل القرآني الذي يثبت منه وجود الله عز وجلّ.

فما معنى كلمة (الصَّمَد)؟ أورد صاحب معجم أقرب الموارد أن الصَّمَد هو السيّد الذي لا يقضى دونه أمر، والدائم والرفيع. كما أورد صاحب معجم المفردات: أن الصَّمَد هو السيّد الذي يُصمَد إليه عند الحاجة والضرورة. وأورد صاحب محيط المحيط: أن الصَّمَد هو المكان المرتفع الغليظ، والصخرة الرأسية في الأرض المستوية أو المرتفعة التي لا تطولها الخطوب والظوفانات مهما ارتفعت وعتت. فإذا بحثنا تبعاً لهذه المعاني عن معالم هذا الدليل الذي عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ تبين لنا أن الله تعالى هو دوماً مرجع عباده وضمودهم إليه. كما يبدو في مواجهة مكذّبي أنبيائه ورسله الكرام صخرة راسية تتحطّم على أعتابها الأعاصير والظوفانات.

وكأنه تعالى حثنا من خلال قوله (اللَّهُ الصَّمَد) على أن نستعرض في أذهاننا ماواجهه آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسواهم من أنبياء الله تعالى، وآخرهم محمد خاتم النبيين. حثنا أن نستعرض أمواج المقاومة الصّارخة التي ووجهوا بها من قبل مكذّبيهم وأقوامهم. وكيف صمد هؤلاء الأنبياء جميعاً إلى الله المعتقدين بوجوده، وذلك في أشدّ وأخطر تلك الساعات الحرجة من حياة دعواتهم، يوم لم تعد يبد لهم حيلة، ولم يعد لهم ملجأ يلجؤون إليه، إلا الله وحده. وكيف ولّد الله تعالى من عالم غيبه مختلف أسباب المحافظة عليهم والدفاع عنهم، بل أنزل بأعدائهم مختلف أنواع العذاب.

حثنا الله جلّ شأنه من خلال قوله تعالى ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ على أن نذكر الطوفان الذي أغرق به الذين استهزؤوا بنوح عليه السلام. ونذكر كيف أغرق فرعون وجنوده، وأن نذكر نجاة عيسى بن مريم من مكيدة مكذّبيه. وأن نذكر

كيف تحولت النار برداً وسلاماً على إبراهيم. كما نذكر إخفاق قريش في محاولتهم قتل محمد رسول الله. ثم نذكر فتح الرسول العظيم لمكة نفسها، وانكشاف أهلها أمامه، وخضوعهم له وتقبلهم لتعاليم هذا الدين الحنيف.

فإذا استعرض المفكر المتدبر جميع هذه الأحداث، فلاحظ أن لفظ (صمد) إنما ورد في قوله تعالى (الله الصمد) مُعرِّفاً بالألف واللام، دلالة على أن الله تعالى هو وحده الذي يُصمد إليه في شدائد الأمور.

فهو الوجود المعهود ذهنياً في جميع الأحداث التي ذكرناها، تجلّى له إثر ذلك معالم هذا الدليل المبرهن على وجود الله عز وجل. فعمد عقله إلى تصور وجود الله تعالى، وليس عكس ذلك. ذلك أنه لا بد له أن يقول في حديث نفسه: كيف تجري جميع هذه الأحداث والطوفانات، وتأتي هذه النتائج الإيجابية، ويكون ذلك من قبيل المصادفة، في جميع هذه الأزمان، ولمصلحة أفرادٍ جُلٍّ ما أعلنوه للناس أمثالهم، هو أن الله موجود ويُكلمهم أيضاً؟

على هذه الصورة تتجلّى لأعيننا معالم الدليل الأول على وجود الله تعالى من خلال الآية الكريمة ﴿الله الصمد﴾. ذلك أن هذه الأحداث قد كشفت وجود الإله السيد الصمد الذي لا يقضى دونه أمرٌ والدائم الرفيع، والذي يُصمد إليه عند هذه الحاجات والضرورات. فهو تعالى تلك الصخرة الراسية مجازاً والتي لاتطولها الخطوب والطوفانات مهما ارتفعت وعتت وأوهمت في كل مرةٍ هاجت بها أنها المنتصرة، ثم آتت بالخيبة والخذلان، وكانت العاقبة للمتقين.

فهذه شهادات متكررة أمام أعين الناس تصور بل تثبت وجود خالقهم وهاديتهم، وعليه فبالإمكان اصطلاح اسم دليل (الوحدانية في الذات) لهذا الدليل. ويكون الله تعالى بذلك قد أدلى من خلال قوله (الله الصمد) بأول دليل يثبت من خلاله إحدى مقولتيه اللتين اشتمل عليهما قوله تعالى (قل هو الله أحد). ومن ثم كان لا بد لنا من البحث عن معالم الدليل الثاني الذي يثبت مقولة الأحدية التي اشتمل عليها لفظ (أحد) في قوله تعالى (قل هو الله أحد)، بعد أن كشفنا عن الدليل الأول الذي أثبت وجود الله عز وجل. هذه المقولة التي اشتمل عليها قوله تعالى: (قل هو الله)، أي أعلم بوجود الله عظيم الشأن والمقام.

وقد سبق أن لاحظنا أن مقولة الأحدية ذات شقين: الأحدية في الذات والأحدية في الصفات. كما أورد تعالى قوله (ولم يكن له كفواً أحد) بمقابل

الأحدية في الصفات. كما سبق أن قلنا أن هذا الدليل الثاني جيء به على أسلوب نهجه علماء عصرنا في البرهنة والاستدلال، فكان الأسلوب العلمي المتعدد العناصر.

ويتساءل الباحث عن قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ودلالته على تفرّد الله في ذاته؟

أقول: إنه عز وجلّ نبّه أذهان عباده هنا إلى قانون الاحتياج العام. فهم يُدعّون في استمرارية وجودهم لهذا القانون الطبيعي. وهذا ما كان قد عبّر عنه تعالى في سورة فاطر (١٥) بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، وهذا يؤذن بإذعان الناس لقانون الاحتياج العام. على حين أنّ الله عز وجلّ هو الصّمد أي الرفيع الدائم الذي لا يحتاج في دوام وجوده إلى هذا القانون. وإذا كان إحدى ظواهر هذا القانون، أن يكون أحدكم والدًا ومولودًا. فالله (لم يلد ولم يولد)، لأنّه يتّصف في وجوده بالأزليّة والأبدية.

وكأنّه جلّ شأنه يقول لنا بألفاظ أخرى: مادمتم تحتاجون في وجودكم واستمرارية وجودكم إلى أن تلدوا أو أن تكونوا مولودين، فلا بدّ أن تكونوا مخلوقين من جهة، وأن يكون خالقكم مُبرأً ومُنزهاً عن هذا الاحتياج مُتصفاً بالديمومة من جهة ثانية (لم يلد ولم يولد). وهكذا تتلازم مقدّمة الدليل ونتيجته، فتقتضي أولاهما الثانية بطبيعة الحال. وهذه النتيجة إن دلّت على شيء، فإنّما تدلّ على تفرّد الله في ذاته، فهو دائم الوجود ومُستغن عن أن يلد أو يولد.

ثم يتساءل الباحث عن قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ وعن دلالته على تفرّد الله عز وجلّ في صفاته؟

أقول: الكفو في اللغة العربية معناه المماثل. تقول: هذا كُفء فلان أي مثيله. هذا مأورده صاحب معجم أقرب الموارد. وصاحب معجم المفردات أضاف أنّ الكفو هو المثل في المرتبة. وإنّ معاني الكفو هذه متعلّقة بالدلالة على تفرّد الله في صفاته أيضاً. فلم يكن كفواً له أحد يماثله فيما يتسم به من صفات وأسماء حُسنى.

والفاظ هذه الآية ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ﴾ تنقل ذهننا إلى نواح عديدة يقتضيها العقل والمنطق. فلو أننا افترضنا وجود أكثر من إله، وكانوا متكافئين ومتماثلين في صفاتهم، لاستحال استمرار العالم في تبعيته لقوانين واحدة، ولطبت على هذا العالم ريح الفساد والدمار، إذ لا يُعقل إلا أن يكون لكل إله من الآلهة خطة عمل تُغايّر خطة عمل الإله الآخر. ولا بد أن يسعى كلٌّ منهما إلى السيادة على هذا العالم دون الآخر. وإلى هذه النتيجة العقلية والمنطقية أشار الله عز وجل في سورة الأنبياء (٢١) حينما قال: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ. لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ. لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ. أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ، هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون. وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

وهكذا فإن قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ﴾ يحمل الدلالة القاطعة على أن الله الخالق لهذا الكون ليس متفرداً في ذاته وحسب بل في صفاته أيضاً. والناحية الثانية التي يوجه قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ﴾ أذهاننا إليها، ليبرهن لنا عقلاً ومنطقاً على تفردّه في صفاته عز وجلّ، هو دفعنا إلى تفقّد القوانين الطبيعية التي تهيم على مسيرة هذا الكون الذي لم يتوصّل العلماء بعد إلى معرفة حدوده. فإن كانت هذه القوانين الطبيعية واحدة في جميع ما اكتشفوه من أرجاء الكون. فالعقل والمنطق يقضيان أن تكون وحدة هذه القوانين دالة على وحدانية الله الصانع وتفرده في صفاته أيضاً. ذلك لأن وحدة هذه القوانين وهذا الكون تقتضي الوحدة في ذات الخالق الموجد وفي صفاته أيضاً.

والناحية الثالثة التي يوجهنا إليها قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ﴾. هو أن أحداً مامن العلماء لم يكتشف في هذا الكون اللانهائي شيئاً واحداً صغيراً كان أم كبيراً يتّصف بالكمال والاستغناء وعدم الحاجة.

وكانه سبحانه وتعالى في هذه الحالة يحثنا على تفحص العالم من حولنا، لنتمسّ مظهر أحديته في صفاته عز وجلّ. وليكون لنا ذلك دليلاً واضحاً على أن خالقنا الذي نعبد، لا يماثله شيء في صفاته. فهو ينبّهنا إلى أن كلّ شيء في

هذا الكون، أبعد ما يكون عن الكمال، فهو محتاج في وجوده لسواه من الأشياء. أي أنّ الذرة في أبسط أشكالها، كلّ جزء من تركيبها يؤثر في سواه، كما يتأثر بسواه. والإنسان وقد كان الملحدون يظنون أنّه كامل الشخصية، تبين أنّه محتاج في وجوده أبداً. فهو محتاج مثلاً إلى الخبز والماء والهواء. وهما قد اكتشف العلماء حقاً أنّ الشمس غير مُستغنية في وجودها أيضاً. والأرض كذلك تحتاج لتوفير توازنها إلى جاذبية سواها من السيارات، كما تحتاج إلى تحديد مواد غلافها الجويّ. أي أنّ الاحتياج صفة عامة للأشياء عامّة سواء منها العظيم والنافع الحقير. وهذا معناه أنّ الكون خاضع لقانون الاحتياج العام. وهذا الأمر يُعطي، في حدّ ذاته، دليلاً قاطعاً على أنّه أي هذا الكون لا يقوم بنفسه، بل تُسيّره قوّة خارجة عنه. ذلك لأنّه يستحيل على الذي أتصف بصفة الاحتياج أن يكون خالقاً لنفسه، أو أن يكون أزليّاً في وجوده.

ثم إنّ قوله عزّ وجلّ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ينتهنا إلى أنّ الكون المحتاج من حولنا، يكاد لا تحدّه حدود من سعة أفقه وامتداده. فلا يُعقل أن يكشف الإنسان في المستقبل كوناً آخر من خلق إلّه آخر، يكون كفوّاً ومثيلاً لهذا الكون.

ذلك أنّ علماء الفلك يقيسون المسافات ما بين الكواكب والنجوم بالسّنوات الضوئية. والسّنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها شعاعٌ من ضوءٍ ينطلق من مصدره بسرعة (١٨٦) ألف ميل في الثانية.

ولهذا فإنّ السّنة الضوئية تساوي نحو ست ملايين مليون ميل. وإنّ أقرب نجم بعد الشّمس تفصلنا عنه مسافة أربع سنّوات ضوئية وثلاث، أي نحو (٢٦) مليون مليون ميل. وإنّ إحدى الجمرات المسماة بجرّة "المرأة المسلسلة"، تبعد عنّا مليوني سنة ضوئية. أي تبعد عنّا اثني عشر مليون مليون ميل. أي تبعد عنّا بما لا يستطيع العقل مُجرّد تصوّره من الأميال.

على هذه الصّورة فإنّ ظاهرة خضوع كوننا التي نعيش فيه لقانون الاحتياج العام في كلّ ذرّة من ذراته، وفي كلّ شيء من موجوداته، وهو الكون الذي لم تراء للعلماء أبعاده، ليؤكد هذا الواقع أنّ خالق هذا الكون يتفرد يقيناً في أسمائه الحسنی وصفاته.

كما يستحيل أن يُكتشف في المستقبل وجود أي شيء مُستغنٍ في ذاته غير مُحتاجٍ إلى سواه. وهذا الأمر يصل بنا إلى اليقين الجازم بصدق هذا الدليل القرآني العظيم، ذلك الدليل الذي قدّمته لنا سورة الإخلاص من خلال قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

من هذا كله، ندرك جلياً وبكل وضوح، أنّ سورة الإخلاص التي لم تتجاوز أربع آيات، لم تجلّ كُتب التفسير مضمونها، فذهبت إلى أنّ ذكر صفات الله الواردة فيها، كان لمجرد التعداد، على حين أنّ سورة الإخلاص لخصّت لنا موضوع عقيدة التوحيد التي اشتمل عليها القرآن الكريم. وأتى هذا التلخيص على صورة مقولتين: مقولة وجود الله، ومقولة تفرّد هذا الإله في ذاته وفي صفاته. كما أثبتت آيات سورة الإخلاص هاتين المقولتين، وذلك بتقديم دليلين يُثبتان صحتهما، وبإعجاز لغوي وعلمي مابعده من إعجاز، ومن ثم احتواء ﴿قل هو الله أحد﴾ على هاتين المقولتين، كذلك احتواء ﴿الله الصمد﴾ على دليل وجود الله عز وجلّ.

والدليل على تفرّد هذه الذات اشتمل عليه قوله تعالى: (لم يلد ولم يولد). والشطر الآخر من هذا الدليل الثاني وهو تفرّد الله في الصفات، اشتمل عليه قوله عز وجلّ (ولم يكن له كفواً أحد).

فإذا قرأ المؤمن سورة الإخلاص بهذا الفهم وهذا الإدراك، فكأنما قرأ ثلث القرآن الكريم حقاً، على حسب ماورد عنه ﷺ.

فلو كانت سورة الإخلاص قد أنزلت جواباً عن سؤال من قبل المشركين موجهٍ إلى رسول الله ﷺ ليصف لهم ربّه، لكان هذا الوصف ناقصاً، ولتذكّر ماوردته سورة الحشر من وصف وصف به الله عز وجلّ حيث ورد فيها: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون. هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم﴾. فسبحان الله الذي جاءت آيات سورة الإخلاص محوراً لصفاته وأسمائه الحسنى.



٤ - دليل العلة والمعلول أو السبب والمسبب

وأدلت الآيات بدليلين اثنين في سورة ابراهيم يبرهنان على وجود الله عز وجل. أحدهما من النوع البسيط، الذي لا يعسر فهمه على أي من مستويات الأفهام. وثانيهما جاء بالأسلوب العلمي المعاصر المتعدد العناصر. وقد ارتكز تعالى فيه إلى حصيلة ما كشفت عنه العلوم المعاصرة في القرن العشرين. ونتناول أولاً توضيح الدليل الأول البسيط العنصر:

ففي سورة ابراهيم الآية (٨) قال تعالى: ﴿ألم يأتكم نبيّ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله، جاءتهم رسلهم بالبينات فردّوا أيديهم في أفواههم وقالوا: إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شكٍّ مما تدعونا إليه مريب. قالت رسلهم: أفي الله شكّ فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مُسمّى، قالوا: إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا، فأتونا بسلطانٍ مبين.﴾

ويبدو واضحاً أنّ هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على هذا الدليل. فقد كان كلّ نبيّ من أنبياء الله ورسله يدلي بهذا الدليل في مواجهة قومه، للاستدلال من خلاله على وجود الله الذي أرسله، والاعتماد عليه في إثبات صدق نبوّته. ونُقل أنّ أفهام البشر لم تكن تستسيغ سماع وفهم دليل أعقد من هذا الدليل. وهذا الدليل يُدرّكه حتى البدويّ في الصحراء.

إذ يُروى أنّ فيلسوفاً لقي بدوياً ساذجاً، فسأله: أتؤمن بوجود الله الخالق؟ فهزّ البدويّ رأسه إيجاباً. فطالبه الفيلسوف بالدليل، أجاب البدويّ: البعرة تدلّ على البعير. وآثار الأقدام على المسير، والسّماء ذات الأبراج والأرض ذات الفجاج، أفلا تدلّ على اللطيف الخبير؟

وهذا الدليل البسيط الذي أدلى به البدويّ، هو ما اصطُلح على تسميته بدليل العلة والمعلول أو السبب والمسبب. وهو الدليل الذي اشتملت عليه هذه الآيات من سورة ابراهيم. وقد دأب على طرحه والإدلاء به جميع من سبق من أنبياء الله تعالى قبل الإسلام في مواجهة أقوامهم وهيّا نتدبّر هذه الآيات الكريمة. فالملاحظ هو أنه تعالى أخبرنا عن حال أقوام هؤلاء الأنبياء بكلام بليغ وذلك حين قال: ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات فردّوا أيديهم في أفواههم.﴾

فالمقصود باليد هنا نعمة تعاليم الرسالات والأديان التي بُعث بها أنبياءهم، وليس اليد الظاهرية بقرينة قولهم بعدها: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ...﴾. وكأن أقوام الأنبياء السابقين وقفوا موقفاً واحداً من أنبياء الله تعالى، مُظهريين عدم استعدادهم لقبول دعواتهم وتعاليم رسالاتهم التي جاؤوهم بها من الله عز وجل. وكان كل قوم من تلك الأقوام قالوا لرسولهم: اذهب عنا بنعماء رسالتك وعُد إلى دارك، فلاحاجة بنا للإستماع إليك، ﴿وَأَنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾.

والمعلوم هو أنَّ كلَّ نبيٍّ دأب على دعوة قومه إلى الإيمان بوجود الله عز وجل، إلى جانب الإعلان عن أنه رسولٌ من قبله. لذلك ﴿قَالَتْ رَسُولُهُمْ: أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ولنلاحظ أنه تعالى لم يقل (فاطر السماء والأرض). ذلك لأنه أراد أن يلفت الأنظار إلى عظمة هذا البناء الشامخ العظيم المؤلف من الكواكب والشموس والسيارات والمجرات، الذي يعلو رؤوس العباد. ثم إنَّ كلمة فاطر من فَطَرَ الشيء: شَقَّه. وفطر الأمر اخترعه وابتدعه وابتدأه وانشأه (أقرب الموارد). والملاحظ هو أنَّ الله تعالى طرح هذا الدليل بأسلوب الاستفهام الإنكاري ليظهر مبلغ ظهوره ووضوحه وقربه من الحقيقة والواقع ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أي عقل أن ترتابوا بوجود خالق السموات والأرض وتجاهلوا حتمية وجود خالق لكل شيء من الأشياء وسبباً لوجوده؟ فالآباء هم علّة ثانية لوجود أبنائهم. والعلّة الأولى وجود الخالق. ثم إنَّ الأدوات المصنوعة لا بدّ لها من علّة. والعلّة صانعوها. أقبعد هذا ترتابون بوجود مُبدع هذه السموات والأرض وذاريها ومُنشئها؟

وهذا الدليل البسيط العنصر، والمستقى من واقع البشر على مرّ الزمان. لم تستسغه عقول علماء القرن التاسع عشر الأوربيين المادية، بالرغم من بساطته ومعقوليته، وخصّوه بهجوم كبير. ظنّا منهم أنَّ هذا الكون الماديّ قديمٌ جداً وأزليّ، وأنّه يتطوّر من نفسه منذ أبد الأبدين.

أما علماء القرن العشرين الذين فوجئوا بنظرية العالم الفيزيائي (غاموف) المعروفة بنظرية الانفجار العظيم، هذه النظرية التي أثبت غاموف من خلالها أنَّ عالمنا الماديّ مخلوق وليس هو بأزليّ. وقد تمّ ابتداءه وانشأؤه منذ (١٢ إلى ٢٠)

مليار عام، فقد مال هؤلاء العلماء إلى تصديق هذا الدليل القرآني، الذي دأب أنبياء الله تعالى على مواجهة أقوامهم به على الدوام.

وهاهو العالم الفيزيائي (أدموند و يتيكر) يطرح سؤالاً، مفاده: هل من مكان لإله في هذا الكون المادي من حولنا؟ ويجب هو نفسه عن السؤال فيقول: (ليس هناك ما يدعوا إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم، وأنه حدث بينهما تفاعل فجائي، فما الذي يميّز تلك اللحظة عن غيرها من اللحظات في الأزلية؟ والأبسط أن نفترض خلقاً من العدم، أي ابتداءً قامت به الإرادة الإلهية للكون من العدم).

والمهم هو أن الاتجاه العلمي المعاصر، بات يتقبل هذا الدليل القرآني البسيط. يتقبل أن تكون لكل شيء علّة وسبب للوجود. ويسلم بوجود الله الذي شاء أن يخلق هذا الكون، فأبدعه وأنشأه، فكان العلّة والسبب الأساسي لوجوده (عالم المعرفة - العدد ١٣٤).

٥ - دليل الغائية والتكامل:

وفي سورة ابراهيم نفسها، وابتداءً من الآيات (٣١) أدلت الآيات بدليل آخر متعدّد العناصر وبالأسلوب العلمي المعاصر في الاستدلال، الذي يثبت للعقل وجود الله الخالق المبدع والهادف أيضاً. أقول أدلت هذه الآيات بدليل يتجاوز أسلوبه في البرهنة والاستدلال مرحلة أسلوب الأسلاف من علماء القرن التاسع عشر، الذين كانوا يَعْزّون وجود كل شيء إلى عنصري الضرورة والمصادفة، مُنطلقين من اعتقادهم بأزلية المادة وخضوعها لقانون النشوء والارتقاء في جميع أطوارها، وقد ارتكز هذا الدليل إلى توضيح نقطتين هامتين: الأولى هي أن جميع الظواهر دالة على أن خلق كل شيء من أشياء هذا العالم كان هادفاً. والنقطة الثانية هي أن كل شيء في هذا الكون يُكمل المقصد والهدف الأصلي لخلق هذا الكون. لذلك تراني اصطلحت لهذا الدليل عنوان دليل الغائية والتكامل.

وقد أدلت الآيات بهذا الدليل العلمي الهام بعد أن فرغت من الكلام عن الأنبياء السابقين، ومواقف أقوامهم منهم، ومتابعه من أمور. وقد جاء هذا الدليل العلمي أثباتاً أيضاً كون هذا الإله الخالق هو عالم الغيب والشهادة. وليثبت من خلال الإدلاء بهذا الدليل صلاحية القرآن الكريم لكل زمان ومكان.

وهاهو قد أدلى بدليل أسلوب طرحه نفس أسلوب علماء القرن العشرين العلمى في البرهنة والاستدلال.

وقد أتى الدليل يُبرهن على وجود الله تعالى بنفس أسلوب هؤلاء العلمي المتعدد العناصر، المستند إلى مختلف مُعطيات علومهم أيضاً.

وقد جاء في الآيات من سورة ابراهيم التي اشتملت على هذا الدليل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَاسَأَلْتُمُوهُ، وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ.﴾

ولنلاحظ أوّل ما نلاحظ أنّه جلّ شأنه لم يُقل ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ﴾. بل أتى بصيغة الجمع للسماء أي (السَّمَوَاتِ). على شاكلة مافعله في الدليل الأوّل الذي قال فيه (فاطر السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ). ولم يفعل ذلك دون حكمة ومقصد. بل جاء به كذلك لتنبيه أذهان علماء عصرنا، هؤلاء الذين يَرْعُوا في علوم الفلك، إلى أنّه تعالى يتكلّم، وهو يعلم بما تشتمل عليه السَّمَاء من فوقهم، فهي ليست سماء بل سموات، أي ليست هي صفوفٌ من النجوم الظاهرة للعيون، بل هي سموات مُتراكبة ملأى بالكواكب والنجوم والمجرّات.

والله عز وجلّ، بعد أن طرح مقولته هذه من خلال قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾. بمعنى أنّ هذا الكون المادّي مخلوقٌ، وأنّ خالقه هو الله عالم الغيب والشهادة، أقول: بعد أن طرح تعالى مقولته هذه أخذ يبرهن على صحّة مقولته. فلمّا انتهى منه، أنهى دليله العلمى هذا المتعدد العناصر، بألفاظ مؤثّرة بليغة وهي: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ...﴾. تنبيهاً لعقول علماء القرن العشرين خاصة، هؤلاء الذين تكشّفت لهم مُختلف العلوم، فلم يستفيدوا منها حقّ الاستفادة، ولم يؤمنوا عن طريقها حقّ الإيمان، فيؤوبوا إلى خالقهم بصورة عمليّة. فحقّ قول الله عليهم خاصّة ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

والأمر الأوّل الذي تناوله هذا الدليل، هو التنبيه إلى أنّ خلق الله تعالى للسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ماحدث عبثاً، بل جاء يستهدف خلق الأرض وإقامة الحياة على سطحها، وخلق الإنسان فيها. وهذا التنبيه للأذهان تحقّق من خلال قوله

تعالى بعد ذلك بالتتابع ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ﴾ ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَاسَأَلْتُمُوهُ﴾. والمقصود من هذه العبارات أن وجود الإنسان، وأسباب استمرار حياته على سطح الكرة الأرضية، كان هو محور هذا الخلق كله.

وقد جاء هذا التنبيه إلى هذه الحقيقة لينقل ذهن العالم المفكر إلى أمور علمية هي أوسع وأشمل بكثير مما ينتقل إليه ذهن الإنسان العادي.

جاء هذا الأمر لينتقل ذهن علماء القرن العشرين المعاصرين، دون علماء القرن التاسع عشر الذين لم يكونوا قد اطلعوا على نظرية آينشتاين، أو عرفوا الذرة وتفاعلاتها، أو كشفوا علم تفجير الذرة وما إليها، ولا كانت للفيزياء النووية وفيزياء الكم في زمنهم من وجود.

إن الله عز وجل، وهو قد انطلق في دليله هذا من أن خلقه لهذا الكون كان هادفاً خلق الحياة والإنسان في ظلاله. هذا الأمر الذي أشار إليه من خلال تعابير (رِزْقًا لَّكُمْ) (وَسَخَّرَ لَكُمْ) (وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَاسَأَلْتُمُوهُ). أقول: إن انطلاقه تعالى من هذا المنطلق، يثبت ذهن العالم الذي يعيش في عصرنا لمراجعة ماتوقر له من معلومات حتى اللحظة، وكيف مهد الله تعالى لخلق الحياة وخلق الإنسان إبداع هذه السموات والأرض، بل سخر لتحقيق ذلك المقصد العظيم هذا الكون العظيم الذي لم تدرك نهايته بعد وحدوده.

فالله تعالى، وقد خلق هذا الكون أصلاً من عنصر واحد هو الهيدروجين على ما ثبت علمياً. فقد تطلب ذلك الأمر تحويل عنصر الهيدروجين هذا إلى عناصر متعددة. وقد اقتضى هذا التحويل، من الوجهة العلمية احتراقاً نووياً حرارياً رهيباً، أي احتاج إلى مفاعلات تحول العنصر إلى عناصر أثقل من الهيدروجين. واستدعى ذلك أن تكون هذه المفاعلات من الصخامة، بحيث تصلح لمثل هذا الاحتراق النووي الحراري.

وعلى ضوء هذه الحقائق، بإمكان عالم عصرنا أن يدرك سرّ وحكمة خلق الله تعالى لهذه الأعداد الهائلة التي لا حصر لها من النجوم والشموس، وهي تفوق في حجمها حجم شمس سمائنا المعروفة بمئات وألوف المرات.

فبإمكان عالم عصرنا أن يدرك على حسب التنبيه الذي نبّهت إليه ألفاظ هذا الدليل أن حكمة خلق الله للحياة والإنسان على سطح كوكبنا الأرضي اقتضت منه تعالى خلق هذه النجوم كمفاعلات ضخمة، تحول عنصر

الهيدروجين داخلها إلى عناصر أثقل منه كالهليوم والكربون والأوكسجين والسليكون والحديد وسائر عناصر المادة الكونية. فالعالم المعاصر يحثه علمه لإدراك واستيعاب مغزى ودلالة قوله تعالى في بداية آيات هذا الدليل العلمي ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، هذه الكلمات التي تعني أنَّ عملية خلق الله الحياة والإنسان، اقتضت منه تعالى أصلاً خلق هذه السموات والأرض على حالتها الحاضرة. وإنَّ عظمتها لتثبت أصلاً وجود خالقها الذي لا يحدُّ علمه، ولا تقف قدراته عند حدود. فالله عز وجل هو الذي خلق هذا الكون على هذه الشاكلة، ولم يُخلق هذا الكون مُصادفةً من تلقاء نفسه.

فحين يتدبّر عالم عصرنا قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ يفطن إلى أن الله عز وجل جاء يضيف إلى العنصر المذكور من دليله الذي يحاول به إثبات وجوده، عنصراً هاماً جديداً. وكأنه يقول: إن نحن افترضنا أنَّ الهيدروجين قد اتحد بالأوكسجين مُصادفةً، فتكوّن من اتحادهما كيميائياً هذا الماء السائل. أفلا تلاحظون كيف أنَّ هذا السائل قد خضِعَ لقوانين مكنته من التبخر، فالتّجمع في السماء على هيئة غيوم، لاتلبث أن تتحوّل ثانية إلى ماء، إذا مامس الأرض الموات أحيائها، فجاءت بفضله بمختلف الثمرات ﴿رِزْقًا لَكُمْ﴾؟

وهنا يستعيد هذا العالم في مخيلته مُختلف التجارب والأبحاث التي قام بها العلماء لمعرفة الأساس الذي بُنيت عليه نشأة الحياة فوق سطح كوكبنا الأرضي. هذه التجارب التي عجزت حتى اللحظة في الكشف عن هذا السرّ الدفين الذي يكشف كيف نشأت الحياة على سطح كوكبنا الأرضي. ويفسر سرّ عدم عنورهم حتى اللحظة على أثر للحياة على سطح كوكب آخر سواه. هذا السرّ الدفين الذي لو وضحَ لكان ساعد العلماء على معرفة الكيفية التي تولدت بها جميع نباتات وثمار وحيوانات هذه الأرض، وتولّد الإنسان نفسه أيضاً. هذه الأمور التي لم تفسّر حتى اللحظة تفسيراً علمياً مقنعاً.

فالله عز وجل إذ أضاف قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ كأنه قال بالفاظٍ أخرى أن افترضوا أنَّ هذا الماء السائل تبخر من نفسه، وأدّت المصادفة إلى تكوّن الأمطار وسقاية الأرض الموات نتيجة لذلك، فكيف يتأتّى للإنسان أن تستمرّ حياته ونسله دون توفير رزقه من

الثمار المحتوية على أنواع الفيتامينات والنشويات والبروتينات الضرورية لاستمرار حياته؟ أفلا يدلّ إنبات هذا الرزق المتنوع على أنّ ما حدث، إنما حدث بتخطيطٍ وقُدرةٍ وعلمٍ من خالقٍ قد قصد إلى توفير رزقكم قصداً؟ فهذه هي دلالة هذا العنصر الثاني المضاف لهذا الدليل العلمي الهام الذي صرّح به قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾. فهذا عنصرٌ جديدٌ يؤكّد وجود خالقٍ للسمّاءات والأرض، وموجدٍ لهذا النظام لتوفير رزق الإنسان وسواه. وهذا العنصر الجديد يُعين العالم المعاصر على استيعاب بقية العناصر التي اشتمل عليها هذا الدليل الذي أوردته آيات سورة إبراهيم للاستدلال على وجود الخالق عز وجلّ.

فهذا يستلّ على هذا العالم أن يدرك العنصر الجديد الذي أضافه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾، والذي يُلَفّتُ من خلاله الأذهان إلى أنّ هذا الماء السائل الذي تولّد عن اتحاد الهيدروجين بالأوكسجين، كان قد غطّى أكبر قدر من سطح الأرض، وكان يُتَوَقَّع أن تؤلّف هذه المساحات الشاسعة من الأرض المغمورة بالمياه حواجز تحول دون اتّصال الناس بعضهم ببعض الآخر، لولا أن ألهم الله الخالق خلقه أن يتخّنوا الفلك السيّ تجري في البحر بأمره. بعد أن وفرّ جلّ شأنه لهم جميع ما يدخل في صنع هذه الفلك، ذلك لتنقلّهم من مكان إلى مكان، فوق سطح هذه المساحات الشاسعة من مياه البحر، وكأنه تعالى شاء أن يقول: فهل يُعقل أن تزعموا بعد هذا كلّهُ أنّ كلّ ذلك قد حدث مصادفةً واتفاقاً؟

وبإمكان هذا العالم المعاصر أن يدرك العنصر الجديد المضاف إلى العناصر السابقة من هذا الدليل العلمي، هذا العنصر الجديد الذي تضمّنه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْيَوْمَ الْفَجْرَ﴾. فهو يُعيد إلى ذاكرته الوظيفة التي تؤدّيها الأنهار والخدمات لصالح البشر، خلال مُختلف الأزمنة والأمكنة، الأمر الذي بات معلوماً من أكثرية المثقّفين.

ولم تنشأ الحضارات أصلاً إلّا على ضفاف الأنهار. وقد مضى الشعراء والأدباء يقولون: مصر هبة النيل، ودمشق هبة بردى، وهكذا دواليك.. وكأنّه حلّ شأنه عندما أضاف قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْيَوْمَ الْفَجْرَ﴾ قد أراد أن يتساءل الخلق: كيف يمكن أن يكون الحال، لو لم تكن هذه الأنهار في عالم الأرض؟ فهل

كان تسخير الأنهار في خدمة الخلق من باب المصادفات؟ بل هل يُعقل إلا أن يُعدّ هذا ثمة عنصراً جديداً يؤكد وجود الخالق المهادف لإيجاد الحياة والإنسان، وليساعد جميع ذلك على استمرارية الحياة الإنسانية؟

وقد أضاف تعالى إلى عناصر دليله التي ذكرناها عنصراً جديداً مزيداً من خلال قوله بعد ذلك: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾. أي أوليسَ هذا النظام الشمسي أعظم برهان على وجود الله عز وجل الذي كان يهدف من إيجاده استمرار الحياة الإنسانية؟ فهل أتى هذا النظام من قبيل المصادفة أيضاً؟

وأراد الله تعالى بهذا العنصر الجديد أن يُشير عقول علماء عصرنا، ليفكّروا كيف تستمر الشمس وتداب على إضاءة كوكبنا الأرضي، لتدفئته فنكون عاملاً على بعث الحياة فيه باستمرار. بل كيف يدور القمر دورته المعروفة مُستمدداً نوره من الشمس، فيتزأى للناس بديراً فهلالاً، ثم يغيب ليعيد سيرته، فيتغنّى به العشاق والشعراء في كل زمان ومكان.

يستعيد هذا العالم المعاصر ما توصّل إليه علماء عصرنا عن الشمس، فيدرك أنما هي مفاعل نووي حراريّ عظيم، بل وعظيم جداً، يُنتج الطاقة الشمسية المستمرة الدائبة العطاء، وذلك من خلال تحوّل العناصر النووية داخله. تحوّل الهيدروجين إلى هليوم، فيولد الطاقة والضوء.

هذا في حين كان كيميائيو القرن التاسع عشر يعتبرون الشمس لغزاً من الألغاز حير العقول. فلم يكونوا يعرفون من الطاقة إلا الوقود التقليديّ. علماً بأنّ الاحتراق الكيميائي العادي لم يصلح تفسيراً لطاقة الشمس، إذ لو كانت الشمس كلّها فحماً، لاحتُرقت وفنيت في غضون ثلاثمائة عام. فقد ظلّت هذه الشمس لغزاً في أعينهم، إلى أن تمكّن الفيزيائيان (هانزيته وكارل فون فايتزساكر) عام ١٩٣٨ من تقديم تفسير كامل لكيفية توليد الشمس للطاقة والضوء، فهل يستسيغ عقلنا أن يحدث هذا النظام الشمسي مُصادفة دون تخطيطٍ من خالقٍ قدير؟

وهذا النظام الشمسيّ لأيعول عليه في توليد الطاقة والضوء وحسب. بل يُستفاد منه لإبراز نظام آخر يرتكز إليه، وهو نظام الليل والنهار. وهو عنصراً جديداً في هذا الدليل العلمي، عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾. ولا يحيط علماً بقيمة هذا النظام إلا العلماء الذين أدركوا مالهذا النظام

من مهام موكلة إليه لخدمة الإنسان والحيوان والنبات أيضاً، مما يجد المرء تفاصيله في بطون الكتب التي ألفها العلماء بما يختص بهذا النظام أيضاً.

والله عز وجل وقد أضاف هذا العنصر الجديد إلى دليله العلمي، كأنه جاء يسأل: وهل يمكن أن يحدث هذا النظام الدقيق، بفوائده المعلومة من قبيل المصادفة، أللهم إلا أن يكون هذا من تصميم خالق يعلم حاجات هذا الإنسان المخلوق التي تفيد في استمرار حياته وبالتالي تعينه على تحقيق المقصد من خلقه؟ فلما أراد جلّ شأنه أن يفهم الجاحدين لوجوده وخلق الهادف، أضاف قائلاً: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

فهذه الألفاظ المعبّرة أنهى جلّ شأنه هذا الدليل العلمي المتعدد العناصر، الذي أدلى به في سورة إبراهيم، ليواجه به علماء عصرنا، ومن ورائهم علماء الفلك الذين وكأنّ السّماء كشطت أمام أعينهم فتراكمت من جرّاء ذلك معلوماتهم، وامتازوا بذلك عمّن سبقهم من العلماء. بل عاد هؤلاء العلماء يُقرّون أنّ اجتماع هذه العناصر المؤلّف منها هذا الكون المادّي يستحيل إلا أن يدُلّ على وجود الله الخلاق. لكنّ هذا الدليل وأمثاله، المستمدّ من عناصر الطبيعة والمتعدّد العناصر، مكّن هؤلاء العلماء من القول بترجيح وجود الله الخالق فقط، لكنّه لم يهبهم اليقين الكامل للتّسليم بوجود الله عز وجلّ.

وقد سبق أن وضّحت المنهج القرآني المتعلق بالاستدلال على وجود الخالق، من أنّه ينقسم إلى أدلّة ترجيحية وأدلة سلوكيّة تهب اليقين الكامل بوجود الله عز وجلّ. وهذا النوع الثاني من الأدلة سيأتي بيانه بعد الانتهاء من تقديم نماذج من الأدلة الترجيحية إن شاء الله العزيز.

والمهمّ هو أنّ هذا القسم من الأدلة العلمية المتعدّدة العناصر والتي ترجّح وجود الله عز وجلّ، كان الغرض من الإدلاء بها مواجهة التّقدم العلميّ في جميع العصور. ويثبت هذا بلا ريب أنّ تعاليم القرآن الكريم صالحة لكلّ زمان ومكان.

٦ - دليل النظام والمنظّم:

وفي سورة الملّك أدلى الله عز وجلّ بدليل من النّوع البسيط، تدليلاً على وجوده تعالى حيث قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسنُ عملاً، وهو العزيز الغفور الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير. ﴿١٠٠﴾

ولنتدبر مفردات هذه الآيات ومعانيها، قالوا: طباق الأرض ماعلاها. والسموات طباق أي متطابقة بعضها فوق بعض. ومعنى تفاوت الشيطان: تباعد ما بينهما واختلفا. فالتفاوت هو الاختلاف وعدم التناسب، كما قال الفراء. والفطور من فطر الشيء شقه. وخاسئاً أي ذليلاً. وحسيراً من حسر البصر: كل وانقطع من طول المدى.

ويُستدل استناداً إلى هذه المعاني أَنَّ الله تعالى قد أراد بقوله: ﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً.. الخ﴾: أراد أن يتبَّه الأذهان إلى أَنَّ جميع ما في هذا الكون يخضع لنظام واحد، ذي قوانين واحدة أيضاً. أي أَنَّهُ مهما تقدّمت علوم الفلك، فلن تكشف عن آية تُلَمِّح في هذا النظام.

وقد أراد تعالى من هذا التنبيه إلى وجود هذا النظام، أراد تقديم دليل علمي أرقى وأقوى من دليل العلة والمعلول الذي سبق أن بيّناه.

فهو جلّ شأنه لا يستدل هنا على وجود الله عزوجلّ من كون كلّ شيء مخلوقاً. بل يستدل بالنظام الكوني على وجود المنظّم الأحَد. فهو تعالى يبيّنها إلى أَنَّ النجوم والكواكب والسيارات، على ضخامة كلّ منها، لاتعمل منفصلة، كلّ على نظام. بل يضمّ الجميع نظام واحد وقوانين واحدة. في وقت تنقاسم هذه الكرة الضخمة أعمالها وحركاتها، في ظلّ هذا النظام الواحد والقوانين الواحدة. بالرغم من أَنَّ كلّاً من هذه النجوم والكواكب والسيارات، تبدو مستقلة إحداهما عن الأخرى. وقد استحثّ ربُّنا عقولنا أن تقف تجاه هذه الظاهرة الكونية وقفة تدبّر ومراجعة. لتوقن من جرّاء ذلك وجود خالقٍ مُبدعٍ ومنظّم أيضاً لهذا النظام الكوني الواحد.

وهو تعالى عندما استحثّ عقولنا من خلال قوله: ﴿ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.﴾. دفع هذه العقول إلى تقليب النظر في الأمر من زوايا مختلفة، وليس من زاوية نظرٍ واحدة.

قال افترضوا أنّ هذا النظام الكوني الواحد، عَرَضَ وجوده مصادفةً واتّفاقاً. وحاولوا تحليل الكلّ إلى أجزائه، ومُتمعنين نظرهم فيه. ودونكم الإنسان مثلاً، فإنّه لا يبدو مُنفصلاً عن هذا النظام الكوني، وإن بدا مستقلاً في الوقت نفسه عن هذا النظام.

فالإنسان الذي لا يستغني في وجوده عن الشّمس وضوئها وحرارتها، ولا عن الهواء والماء والغذاء. يبدو مستقلاً من حيث أنّه أوتي عقلاً وحواسّ متلقية متناسقة القوانين والأداء، فأيدي الإنسان هي أبرع من الآلة الكاتبة في الكتابة. وعينه أعظم من جميع آلات التصوير للرؤية وتمييز الألوان والأشكال. وأنفه ولمسه وأرجله وسواها من الأعضاء والحواس، بارعة التلقّي والأداء والتناسق فيما بينها. بل وهب الخالقُ هذا الإنسان عقلاً مُفكراً يحزن به ما شاء من معلومات.

فالإنسان إذن يدور في فلكٍ كونيّ يخضع فيه لما هو حوله كالشّمس والقمر والهواء والماء والغذاء. كما يدور في فلكٍ نفسه وكيانه الجسمانيّ المؤلّف من الأعضاء والحواس والدماغ. وعلى شاكلته يُقال هذه حال الكواكب والنجوم والسيّارات. والعقل البشريّ لا يستسيغ أن يأتي هذا النظام على هذه الصّورة اتّفاقاً وعرضاً. بل يجزم أن يكون قد أتى من إبداع خالقٍ مُنظّم هو على أعلى قدرة في الخلق والتنظيم.

ثم إنّ حواس الإنسان، بالرغم من أنّها تبدو مستقلةً في حدّ ذاتها، لكنّها في حقيقة الأمر تابعة لما هو كائن في هذا الكون من أشياء. فلاترى العين إلّا بتوسط الضّوء الذي يأتيها من الشّمس من على بُعد مئات ألوف الأميال. والأذن لاتسمع إلّا بتوسط هواء الجوّ الأرضي، الذي يحمل إلى الأذن مختلف ذبذبات الأصوات، من مختلف الجهات. فحواس الجسم إذن، وإن كانت تبدو مستقلةً متناسقة فيما بينها، فإنّها في حقيقة أمرها غير مُستغنية عن النظام الكوني العالمي.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ، يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾، يحثنا أن ننظر من زاوية ثالثة أدقّ. وذلك بأن نتناول الخلايا الحيّة التي يتركّب من مجموعها جسم الإنسان. فلقد تكشف للعلماء أنّ كلّ خلية من هذه الخلايا، تؤلّف عالماً مستقلاً مُنظّماً ومتناسقاً. وهي في الوقت نفسه تخضع للنظام الجسمانيّ العام.

فلكلّ خلية من خلايا جسم الإنسان استقلالها ونظامها وتناسقها من جهة، وهي تتبع نظام الجسم الكلي من جهة ثانية، فلاهي مُستقلة استقلالاً تاماً، ولاهي تابعة بصورة مُطلقة.

والمهمّ في الأمر هو أنّ آيات سورة الملك هذه لفتت أذهاننا إلى ظاهرة النظام الكوني التي ذكرناها، لنقول لنا بالفاظ أخرى: هل تستسيغ عقولكم أن تتأتّى معالم هذا النظام الكوني مصادفةً واتفاقاً؟ أفلا تلاحظون أنّ كلّ شيء في هذا العالم إنّما يُرى حلقةً من سلسلةٍ لا تنتهي من السلاسل التابعة لنظام واحدٍ متناسقٍ لا تصادم فيه بين سلسلةٍ وأخرى؟

وبهذا التنبيه إلى هذا النظام الكوني الشامل لكلّ شيء في الوجود، يقدّم القرآن حجّةً قاطعةً الدلالة على وجود الله الخالق المنظم المبدع، وقد اصطّلح على تسمية هذا الدليل: دليل النظام والمنظّم.

وعلى شاكلة دليل العلة والمعلول أو السبب والمسبب، فإنّ هذا الدليل لم يسلم من نقد علماء القرن التاسع عشر الاوربيين الذين زعموا أنّ الكون أزليّ أبديّ. وراحوا يقولون مستهزئين: كيف تكون الشجرة في الغابة، والحيوانات السارحة في الصحراوات، والطيور المحلّقة في أجواز الفضاء، والأفاعي والعقارب والدواب المؤذية، وديدان الأشجار، كيف تكون جميع هذه الأحياء مسخرة للإنسان؟ فهذه الأحياء التي ذكرناها لم تكن تخضع في نظرهم لقانون، هذا ماكان عليه مبلغ علمهم في عصرهم.

أمّا علماء القرن العشرين الغربيون فقد تكشّفت على أيديهم ما لم يتكشّف على أيدي أسلافهم من علوم. فهم الذين تكشّفت لديهم معارف إنجلي لهم بها حتى تركيب الذرة. ووفّقوا لإرسال مركبات فضائية، كشفوا بها مجاهل الفضاء. وهكذا بدّوا يؤمنون بصحّة هذا الدليل الذي قدّمه القرآن الكريم من حيث لا يشعرون. وأخذت نظرتهم العلميّة الجديدة تكشف لهم أنّه مامن مخلوق في هذا الوجود إلا وهو يخضع للنظام الكونيّ، فهناك توازنٌ طبيعيٌّ، بإمكان الإنسان الاستفادة منه، وأنّ الإنسان نفسه هو جزء من هذا التوازن الكونيّ.

وقد عاد هؤلاء العلماء يتلمّسون عنصراً روحياً، إضافة إلى العنصر المادّي في هذا الكون، متجاوزين في فهمهم وإدراكهم، مرحلة تفسير الأمور على أساسٍ من مبدأي المصادفة والضرورة، حتى في الأمور الجماليّة أيضاً.

وأعظم دليل على اندفاعهم على هذا الطريق من الفهم والإدراك، قول أينشتاين المشهور: (لأعلم من غير الاعتقاد بوجود تناسقٍ داخلي في الكون). فأينشتاين بهذه الألفاظ المحدودة شهد بأنّ هذا الكون يخضع لنظام في جميع أشيائه، وبتناسقٍ فريد. فمن لا يرى رأيه هذا، لا يمكن أن يكون عالماً، ويبقى علمه قاصراً عن إدراك حقيقة الأشياء.

وقد ظهر من بعده علماء كثر، راحوا يرون رأي أينشتاين، كالعالم الفيزيائي (ويلر) إذ قال^(١): (إنّ كلّ قانون من قوانين الفيزياء مرده إلى شيء من التماثل والتشابه في الطبيعة). أي أنه حتى في مجال الفيزياء، فإنّ قوانينها متناسقة، تناسق سائر القوانين الطبيعيّة ونظامها الكونيّ.

وهكذا فإنّ دليل النظام والمنظم الذي طرحه القرآن الكريم في سورة الملك، من خلال قوله تعالى: ﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوتٍ، فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.﴾، يتزاعى هذا الدليل من حيث قوّة حجّته، أمضى في الإقناع من دليل العلة والمعلول، في أمر ترجيح وجود الخالق المنظم المبدع.

ولما كانت سورة الملك هي آخر سورة من كتلة السور السبع عشرة التابعة لمضمون سورة (ق) الذي يرمز إلى القادر أو القدير، فقد لوحظ أنّ الآيات هناك قد تضمّنت دليلاً علمياً من النوع المتعدّد العناصر، دليلاً يثبت وجود الله القادر على فعل كلّ شيءٍ أرادته.

٧ - دليل القدرة :

وقدّمت لنا سورة (ق) دليلاً علمياً متعدّد العناصر يثبت وجود الله القدير. واصطلحت له اسم دليل القدرة. عرضت سورة (ق) هذا الدليل من خلال قوله تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السّماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كلّ زوج بهيج. تبصرةً وذكرى لكلّ عبدٍ منيب. ونزلنا من السّماء ماءً فهاجاً

(١) - المرجع السابق

فَأَنْبَتْنَا جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ. رِزْقًا لِلْعِبَادِ، وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا، كَذَلِكَ الْخُرُوجُ. ﴿١١-٦﴾ الملك (١١-٦).

والمدخلُ إلى هذا الدليل فيه تفرُّعٌ وتوبيخٌ لأصحاب العقول من العلماء الغافلين عن حقيقة هذا الدليل. وهذا الأمر عبَّرَ عنه تعالى من خلال استهلاله هذه الآيات بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا...﴾ أي ماهؤلاء الذين يدعون العلم والفهم، يتجاهلون حقيقة ماثلة أمام أعينهم، وهي هذه السماء من فوقهم، وبهذا الأسلوب من التعبير والطرح لهذا الدليل، أكسب تعالى دليله العلمي من قوة البيان والإقناع بأساً ما كان ليتأتى بغير هذا الاستهلال.

وقد أتى ربُّنا بهذا الدليل العلمي مؤسساً على مُقدِّمات مُتعدِّدة، وفي كلِّ مُقدِّمةٍ منها نقاط مُتعدِّدة، وعلى أساسٍ علميٍّ من الملاحظة والاستنتاج. وانتهى من كلِّ ذلك إلى نتيجةٍ هي الحقيقة لأرب فيها، وهي إثبات وجود الله الخالق المبدع القادر على خلق عالمٍ آخر مثيل.

أما مُقدِّمة الدليل الأولى، فقد اشتمل عليها قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ﴾. وقد احتوت هذه المُقدِّمة على نقاطٍ ثلاث: الأولى أوردتها تعالى على جهة السؤال، مفعولاً مُطلقاً، وذلك بقوله: (كيف بنيناها..). بمعنى أفلا تلاحظون أنَّ كلَّ شيء في السماء المتزامية الأطراف، وقد جاء على نسق، فأكمل بعضه بعضاً، بحيث يؤدي مقصداً مُعيَّناً؟ وهكذا بدت السماء وهي على هذه الشاكلة تؤلِّف بناءً كاملاً لاسيلاً إلى تجزئته.

والنقطة الثانية عبَّرَ عنها تعالى بقوله: ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ أي جعلنا هذا البناء العظيم زينةً لأعين الناظرين، تستوقفهم وتخلب ألبابهم من روعة جماله وتناسق أجزائه.

وعبَّرَ عن النقطة الثالثة بقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ﴾ أي لن يجد العلماء في يومٍ من الأيام، مهما تقدَّم العلم وتطوَّر، أي خلَّل في النظام الكوني، بل سيزداد هؤلاء العلماء يقيناً، بأنَّ السماء بناءً واحداً مُتماسكاً وهادفاً أيضاً. وهذا ما تُثبَّت به وحدانية الصُّنْع والصَّانِع، ووحدانية النظام والمنظم المبدع القدير. هذه هي المُقدمة الأولى للدليل القدرة العلمي المذكور ونقاطها الثلاث.

أما المقدمة الثانية لهذا الدليل العلمي فقد اشتمل عليها قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾. وقد احتوت هذه المقدمة الثانية على ثلاث نقاط أيضاً.

النقطة الأولى احتواها قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بمعنى أفلا تلاحظون كيف بسطنا الأرض فجعلناها صالحة لحياتكم صلاحاً كاملاً؟ والنقطة الثانية عبّر عنها قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، أي أفلا تلاحظون كيف أنبتنا من هذه الأرض كل نبات مؤلف من زوج متكامل، سالب وموجب، ليتلاقح ويستمر في العطاء، ولتحقيق هدف واضح هو تبصرة المخلوق وذكرى لكل عبد منيب؟ أي عبرة وآيات لكل إنسان باحث عن الحقيقة مستعيناً ببصيرته لاستجلاء أسرارها وخفاياها. فهذه هي المقدمة الثانية للدليل ونقاطها الثلاث.

وأما المقدمة الثالثة التي يثبت منها وجود الخالق القادر على كل شيء، فقد اشتمل عليها قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا، فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ. وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾.

وقد اشتملت هذه المقدمة الثالثة لهذا الدليل العلمي على نقاط ثلاث أيضاً. النقطة الأولى احتواها قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ أي أفلا تلاحظون كيف أنزلنا ماء السماء، فأحيينا به الأرض وجعلناه مباركاً يحمل إليها الخير والخصب، فيؤلف بذلك مادة الحياة ووسيلتها؟

والنقطة الثانية احتواها قوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي أفلا تلاحظون كيف تولد عن ماء السماء المبارك هذا جنات أرضية ملتفة الأشجار، وزرع تحصدون حبه وتتفعمون بالتغذي به؟

والنقطة الثالثة احتواها قوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ أي أفلا تلاحظون أن من هذه الأشجار التي أنبتناها، أشجار النخيل الباسقات ذات الثمر النضيد أي الذي ضُم بعضه إلى بعض فكان سائغاً شهياً وقد نبت في أرض جافة جدباء.

وقد نبّه جل شأنه الأذهان أيضاً إلى أن جميع ما أنبتناه لم يكن لغواً أو عبثاً باطلاً، بل بدا ومن ورائه حكمة بالغة تجلّت في أمرين اثنين: الأول أنه قدّر

ليكون الثبوت (رزقاً للعباد). والثاني أنه قد أحيا به بلدة ميتة لم تكن تبدو فيها معالم الحياة.

وبعد أن انتهى تعالى من عرض مقدمات دليله العلمي. هذا الدليل المرتكز إلى الملاحظة العلمية، نراه قد انتقل، فاستنتج منها مقولة ثابتة وهي وجود خالق قادر على كل شيء، قادر على إبداع كون آخر بعد وعبر عن هذه النتيجة بقوله تعالى ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾. وكذلك تعني، أي على هذه الشاكلة تبعث الأنفس من بعد موتها أيضاً.

فهذا هو الدليل الثاني الذي أدلى به بأسلوب الملاحظة والاستنتاج العلميين. وقد طرح هذا الدليل، ليثبت وجود الخالق ويُجلي قدراته التي لا تقف دونها حدود.

وهكذا قدّم تعالى لنا هذا الدليل العلمي المتعدد العناصر، بعد أن مهد لطرحة بأسلوب علمي أيضاً. موجهاً أذهاننا إلى أنه لا يعقل أن تأتلف وتتساق جميع هذه العناصر مجتمعة على صورة هادفة أيضاً، وينتأى ذلك كله مُصادفةً واتفاقاً. بل لابد أن يكون لها مُبدعٌ خالقٌ قادرٌ وحكيم. خصوصاً وأنه تعالى قدّم دليله القرآني هذا على أسس العلم المعاصرة من ملاحظة واستنتاج. هذه الأسس التي باتت في عصرنا الأساس لجميع مآثره البشرية من علوم. وإنّ أساس الملاحظة العلمية، اعتمده دليلنا المذكور من خلال ما استهلّت به الآيات وأسلوبه ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾، ومن خلال الواوات العاطفة التي استهلّت بها كل نقطة من نقاط مقدمات هذا الدليل.

وهذا الدليل العلمي الذي جرى عليه علماء عصرنا في صوغ أسلوبهم، إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على أنّ الله عز وجلّ قد أنزل هذا القرآن لكل زمان ومكان. فعّل هذا قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، يوم لم يكن لهذا الأسلوب العلمي في البحث والاستدلال من وجود مشابه له في زماننا الحالي.

وقد سبق لي أن قلت: إنّ الله عز وجلّ لم يكف بتقديم أدلة نظرية تُرجّح وجوده. بل قد قدّم أدلة سلوكية أيضاً، اعتمدت التجربة الشخصية في الوقت نفسه، هذه التجربة التي تثبت لصاحبها وجود الله عز وجلّ، وتبلغ به حدّ المعرفة واليقين بوجوده أيضاً. وهذا ماسيأتي بيانه بعد استكمال تقديم عددٍ مناسبٍ من هذه الأدلة النظرية، إن شاء الله العزيز.

ثانياً . الأدلة المستمدة من أسماء الله الحسنى ١ . دليل الله الحيّ:

أدلى القرآن الكريم بسلسلة متجانسة من الأدلة التي يثبت لنا بها وجود الخالق عن طريق حسي من صلب الوقائع والأحداث، وليس بمجرد الاستدلال الذهني، على حسب ما كان الأمر في الأدلة التي سبق أن ذكرناها. وقد جاء عدد جملة الأدلة هذه مساوياً لعدد أسماء الله الحسنى. أي أكثر من مائة دليل. أمّا سبب تساوي عدد هذه الأدلة مع عدد أسماء الله الحسنى، فإنه يعود إلى أنّ كلّ دليل منها مُستمدّ من وقائع وأحداث تُجلّي كلّ صفة من هذه الصفات الإلهية. لذلك تحتلّ هذه السلسلة من الأدلة منزلة أرفع من الأدلة التي أسلفناها، على اعتبار أنّ الوقائع والأحداث تدخل في باب المحسوسات، ولاتدخل في باب الاستدلال الذهنيّ، لذلك فهي ليست محلّ شبهة أو ريب. خصوصاً وأنها تحدث وفق منهاج وقانون عام وشامل.

ومما يمتاز به القرآن الكريم أنّه زواج بين كلّ منهج وقانون، وبين كل اسم من أسماء الله الحسنى المختصّ به. إنّما في المكان المناسب لكلّ عنصر من عناصره. والذي يتبقى على الباحث المتدبّر، أن يجمع بين هذه العناصر ويبرزها للعيان.

وهاأنذا أتناول إحدى صفتين تناولتهما سورة آل عمران استدلالاً على وجود الله عزوجلّ، من خلال الوقائع والأحداث. هذه الصّفة التي تضمّنتها أوّل آيتين من هذه السورة، هما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَلِدْ وَلَإِلَهِ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. وهذه الصّفة هي اسم الله (الحيّ).

فقد استدلت سورة آل عمران على وجود الله "الحيّ" من خلال أحداث ووقائع بغثات موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، ومن خلال إنزال التوراة والإنجيل والفرقان. الأمر الذي شرحته في الجزء الأول من كتابي (حقيقة القراءة المعاصرة مجرد تنجيم).

فما معنى كلمة الحيّ؟ الحيّ مُعرّفاً بالألف واللام هو اسم من أسماء الله الحسنى، ويعني أنّ الله دائم الوجود، لم يزل موجوداً، ولا يزال فهو كامل الحيويّة والنشاط فلا تأخذه سِنَّةٌ ولا نوم. وهو أساس ومصدر الحياة في عالمنا، كما هو أساس نهضة الأمم والشعوب وتقدّمها في مسار إنسانيتها.

ذلك لأنَّ الأمم تحيا وتموت، على شاكلة الإنسان الذي يحيا ويموت، وإنَّ حياة الأمم والأفراد لفعاليَّة وتجلِّي صفة الله "الحي". هذا مأفادته عدَّة آيات قرآنيَّة. ومن هذه الآيات: ﴿تولج الليل في النهار، وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت، وتخرج الميت من الحي..﴾ آل عمران ٢٧-٣٠ وقوله تعالى في الآية (٥٨) من سورة الفرقان: ﴿وتوكَّل على الحي الذي لا يموت، وسبِّح بحمده..﴾. وقوله تعالى في الآية (١٩) من سورة الروم: ﴿يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويحيي الأرض بعد موتها..﴾. والآن ماهي معالم عناصر المنهج والقانون الذي تتجلَّى صفة الله الحي من خلالهما، بما يتعلق بإحياء الأمم والشعوب خاصَّة ومن دون بقيَّة سائر الأشياء؟

وفي الإجابة عن هذا السؤال يتبيَّن لنا من خلال تدبُّر كتاب الله الفرقان أنَّ هذا المنهج يرتكز إلى خمس نقاطٍ رئيسيَّة، هي :

أولاً - إنزال الله الحي أنظمة وتعاليم تتَّصف بالحلَّة دوماً، وتلتزم بأسلوب النقاش والحوار الخالي من أيِّ إكراه أو ضغط، بعيداً عن أسلوب العنف والقتل والتدمير.

ثانياً - كلَّ نظامٍ من هذه الأنظمة والتعاليم، ينسخ ما قبله من جهة ليأتي بأحسن ممَّا نسخته. ويحيي تعاليم تناساها البشر من جهة ثانية، مادامت هذه التعاليم تصلح لبيئة هذا النظام الجديد.

ثالثاً - ولم يستعمل القرآن الكريم لفظي (ثورة وانقلاب) تعبيراً عمَّا تحدّثه تعاليم النظام الجديد، هذان اللفظان الشائعان في عصرنا، بل استعمل كلمتي (قيامَة وساعة) تعبيراً عمَّا تحدّثه تعاليم كل نظام جديد سماوي، وهذا الأمر غفل عن الإحاطة به أكثرية المفسِّرين.

رابعاً - إذا خاض نظامٌ جديدٌ قتالاً، فلا يخوض المؤمنون به هذا القتال إلاَّ مُكرهين دفاعاً عن كيانه.

خامساً - يتحقَّق كلَّ نظامٍ جديدٍ على أيدي أشخاص يبعثهم الله تعالى لإقامة الأنظمة الجديدة المُرتجى إقامتها. يكون هؤلاء المرسلون صفوة النَّاس خلقاً وسيرةً وسلوكاً.

والذي يستعرض تاريخ الأنظمة الروحية هذه التي أسست على أيدي المبعوثين الذين أرسلهم الله "الحي". لا يلاحظ أن أي واحدة من تلكم البعثات والأنظمة، قد شذت عن هذا النهج والقانون ونقاطه الخمس التي ذكرناها.

وهذا ما يثبت وجود الله "الحي" الذي يبعث بأولئك الرسل وبالتعاليم والأنظمة التي يزودهم بها إحياء للأمم والشعوب وإنهاضاً لها من كبوتها وانقذاً لها من تخلفها وانحطاطها. فشتان ما بين عرب الجاهلية قبل الإسلام، وبين من آمن منهم بالدين الإسلامي، على سبيل المثال. والمعلوم لدى المفكرين أن كل أمة تسعى إلى النهوض والرقى والتقدم، فلا بدّ للذين يتصدّون لإنهاضها وتطويرها وترقيتها، من أن تحمل رسالتهم عنصرين أساسيين :

الأول - أن تحمل رسالتهم أفكاراً جديدة تتناسب ومرحلة الأمة التي تمرّ من خلالها. وهذا عنصراً أشار الله عزوجلّ إليه في الآية (١٧) من سورة الرعد وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾. والمعنى أن الله الحيّ ينبّه إلى ضرورة توقّف عنصراً أساسياً لإنجاح كلّ نظام وتعليم، وهو أن يشتمل هذا النظام والتعليم على مبادئ ثابتة مفيدة للناس، وإلا ذهب النظام والتعليم واضمحلاً، كما يذهب الزبد الطافي على سطح أيّ سيل من السيول.

الثاني - والعنصر الثاني الذي لا بدّ منه للنجاح، هو اللّجوء إلى إحدى وسيلتين، لا ثالث لهما. الأولى مقابلة المعارضين بالعنف، إذا كان لا بدّ من العنف كوسيلة لحماية هذا النظام والتعليم. والوسيلة الثانية اختيار الطريق السلمي لإنجاح هذا النظام الجديد وتعليمه، وذلك بالحوار الهادئ والنقاش وأسلوب الإقناع. وإلى هذا العنصر الثاني الذي لا بدّ منه جاءت الإشارة في قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مِبْشِرِينَ وَمُنْذِرِينَ. فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا يُمْسِكُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

أي أن أسلوب الله "الحي" الذي انتهجه لإحياء آية أمة من الأمم أو شعب من الشعوب. هو أن يبعث رسولاً من هؤلاء الناس أنفسهم، يؤسّس على

يديه النظام الروحي الجديد وتعاليمه بأسلوبٍ سلميٍّ، أساسه التبشير والإنذار، أي وسيلة الإقناع بطريق الحوار، تبشيراً بالنظام الجديد المناسب للمرحلة الزمنية التي بُعث الرسول فيها بهذا النظام الجديد.

إلى جانب إنذار هؤلاء أنّ النظام الروحي القديم قد استوفى أغراضه. وإلى جانب تبشير المؤمنين بالنظام الروحي الجديد الذين يصبغون حياتهم بتعاليمه، أنّ الله الحيّ سيُظلمهم بمظلة حمايته، ويتولّى الدفاع عنهم، ويؤيدهم ببشاراته ونعمائه الروحية. الأمر الذي سيدفعهم إلى ألاّ يأسفوا ويحزنوا عمّا فاتهم. وهذا هو معنى: ﴿فمن آمن وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾. وإلى جانب أنّ هذا المبعوث سينذر، وبلسان الإله "الحيّ" كلّ من يرفض قبول النظام الروحي الجديد، بأنّ الله سينزل به عذابه، ذلك تأديباً هؤلاء المنكرين، وعقاباً لهم على تصديدهم لنظام روحيّ أنزله الله "الحيّ" بغرض إحيائهم وإنهائهم من كبوتهم وتخلّفهم. ذلك أنّ الله تعالى يعتبر هؤلاء الكافرين بنظامه الروحي الجديد أحجاراً ولبناتٍ لبناءٍ قديمٍ قد تقررّ هدمه وتشيد بناءٍ جديدٍ ليحلّ محله.

وقد نبّه القرآن الكريم إلى ضرورة التزام كلّ نظام روحيّ جديد بمعطيات هذين العنصرين المذكورين. وذلك من خلال قوله تعالى في الآية (٢٨٦) من سورة البقرة: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾. بمعنى أنّ كلّ نظام روحيّ جديد يعتمد في حقيقة الأمر الأسلوب السلمي وهو يهدي إلى الرشد تمييزاً إيّاه من الغي. ولا يعتمد أسلوب العنف والإكراه الذي لا يجدي في الإقناع.

فهذه هي معالم النقطة الأولى المتعلقة بالنهج الذي اختطّه الله "الحيّ" لإحياء الأمم والشعوب.

أمّا ما يتعلق بالنقطة الثانية من هذا المنهاج وقانونه العام. فقد استوفى القرآن الكريم بيانه، وذلك من خلال قوله تعالى في الآية (١٠٥) من سورة البقرة: ﴿ما ننسخ من آيةٍ أو ننسها، نأت بخير منها أو بمثلها، ألم تعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير. ألم تعلم أنّ الله له ملك السماوات والأرض، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾. والمقصود بالآية هنا الكتاب السماوي والنظام الذي يؤسسه. يقول الله "الحيّ" أنّه إذا استنفذ أيّ كتاب روحيّ أغراضه

ومقاصده، أنزل الله الحيّ نظاماً جديداً يحلّ محلّه وينسخه. فيُحيي من خلال تعاليم النظام الجديد ما لا يزال من التعاليم صالحاً للعمل به، ومفيداً للمرحلة الجديدة. ويستبدل من التعاليم التي نسخها ما هو خيرٌ منها وأفضل. ويهدم ما ابتدعته أهواء الناس.

وقد تَبَهَّنَا الله الحيّ إلى قدراته التي تمكّنه من إحداث هذا التّغيير. خصوصاً وأنّه يملك مقاليد السّماوات والأرض، فلا تستطيع قوّة الخيلولة دون إنجاح نظامه الجديد. كما تَبَهَّ جَلَّ شأنه إلى أنّ الذين يقاومون نظامه الرّوحيّ الجديد، لا يجدون من دون الله من وُلِّيَ يتولّاهم بعنايته أو نصيرٍ ينصرهم فيما يُنصب لهم من مكاييد.

وفيما يتعلّق بالنقطة الثالثة من منهاج الإحياء الإلهي وقانونه العام الشّامل، وهو أنّه تعالى لم يصطلح كلمتي (ثورة وانقلاب) لعملية إحلال النّظام الرّوحي الجديد، بل استعمل بدلاً عنهما مُصطلح كلمتي (الآخرة والسّاعة).

فقد كان السّبب في ذلك أنّه تعالى أعرض عن طريق العنف في مجال بسط نظامه الجديد، واختار الأسلوب السّلمي والذي أداته النقاش والحوار والإقناع. متيحاً بذلك للإنسان أن يقف الموقف الذي يشاؤه من النظام الرّوحي الجديد، فيُعاقب هذا الإنسان أو يُثاب.

أقول: اختار تعالى لفظ (الآخرة)، بسبب ما تحدّثه بَعَثَات أولي العزم من رسله من تحولات اجتماعيّة جذريّة في مجتمعاتهم، وبما يشبه ما يحدث يوم القيامة من ظهور سماء جديدة وأرض جديدة وبعثٍ للنفوس من جديد. خصوصاً وأنّ كلّ نظام روحيّ جديد ينسخ النّظام السابق له، ويقيم على أنقاضه نظاماً جديداً وعالمًا جديداً أيضاً. فاصطلاح كلمة (قيامَة) تناسب هذه العمليّة المُعبّرة عن الإمامة والإحياء كلّ المناسبة.

وإشارةً إلى هذا المُصطلح القرآني، ورد قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿رُئِيَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. فليس المقصود بالحياة الدُّنْيَا هي مجرّد هذه الحياة، بل إنّ كلمة (الدُّنْيَا) قصد بها حياة التخلّف والانحطاط التي يحياها هؤلاء الذين كفروا بهذا النظام الرّوحي الجديد والذي يحمل تعاليم تفيد في إصلاح أحوالهم وترقيتهم ودفع التخلّف عنهم. ويصف

حالمهم هو أنهم يسخرون من الذين آمنوا بتعاليم هذا النظام الروحي الجديد، الذين نجوا من حياة الانحطاط والتخلف بهذا الإيمان. ويضيف الله تعالى: (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) أي وقضى الله تعالى بفوز أهل النظام الروحي الجديد الذين اتقوا أسباب تخلفهم وانحطاطهم من جراء أخذهم بتعاليمه. وتفاجيء تطورات الأحداث الذين كفروا (يوم القيامة) أي زمن قيام قيامتهم وانهزامهم على أيدي المؤمنين. وهذه إشارة كانت هنا إلى ماحلّ بأهل مكة يوم فتحها علي أيدي محمد رسول الله ومن معه من المؤمنين معه، وكيف بات هؤلاء أذلاء مقهورين. وأضاف تعالى قائلاً: ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي والله بيده النصر يرزقه من يشاء بغير حساب، على اعتبار أنّ النصر والعاقبة من قبيل الرزق الإلهي ودعماً للمؤمنين بعدما عانوه من ذلّة وضعف، ولا بد أن يجزيهم يوم القيامة أيضاً خير ما عملوه.

ومصطلح لفظ (الساعة) أورده الله تعالى في سورة القمر، حيث قال فيها: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر، وإن يروا كلّ آية يُعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾. وقد أشار بانشقاق القمر هنا إلى دُنُو ساعة وأجل الحكم العربي الجاهلي وساعة زواله. ومن شاء التوسّع في فهم ذلك فليراجع (فن الاختزال - سورة القمر).

والنقطة الرابعة من المنهج الذي اختطّه الله الحيّ لإحياء الأمم والشعوب، نبّه إليها في الآية (٢١٦) من سورة البقرة من خلال قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾. بمعنى أنّ نظامكم الروحي الجديد الذي اعتمد السبيل السلمي ولم يعتمد سبيل العنف والإكراه لنشره وتطبيقه. اعتمد النهج الذي كره القتال إلى نفوسكم. ولا يعني هذا بحال من الأحوال أن تستسلموا للذين اعتمدوا عليكم، اعتدوا عليهم بمثل ما اعتدوا عليكم، حفظاً لكيانكم، هذا بالرغم من ايثارك سبيل السلام والحوار والنقاش، وقد كتب الله تعالى أن تقاتلوا الذين يقاتلونكم، بالرغم من أنّ القتال هو كُرْهٌ لَكُمْ.

وفي الآية (٢٥٦) من نفس سورة البقرة، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾. ونبّه تعالى بذلك إلى أنّ النظام الروحي الجديد قد اختطّ عدم إكراه الناس على قبوله، بل اعتمد الحوار والحجّة والبرهان.

فهذا هو السَّبِيل الذي يَتَمَيَّز به النَّظام الرَّاشِد، عن سبيل الغيِّ. أي عن سبيل الجهل والضَّلال.

وقد وصف الله تعالى من يُخالف هذا النَّهج الإسلامي بقوله تعالى في الآية (١٤٦) من سورة الأعراف: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَخَذُوهُ سَبِيلًا...﴾ وفي الآية ٢٠٢ منها قال: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يُمَدِّوْنَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾. وقد وضع سبحانه وتعالى الغاية من الحرب والقتال هذه التي يدفع المؤمنين إلى محوضها في الآية (١٩٠) من سورة البقرة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا...﴾. وفي الآية (٣٩) من سورة الحج قال: ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. وفي الآية الثامنة من سورة الممتحنة: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَلَمْ يَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ، أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ...﴾.

وتعلّق النقطة الخامسة والأخيرة للنهج الإلهي بالمبعوثين من الناس المكلفين، بحمل رساله هذا النهج الإلهي، وإخراجها إلى حيز الواقع والتّفيذ، وقد تضمنت هذه النقطة الخامسة الآية التي سبق أن أوردناها، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾.

والسؤال المطروح هنا: كيف تتمّ عمليّة اصطفاء المرسلين؟ وقد أجاب تعالى عن هذا السؤال من خلال قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾. وقد أشار الله الحيّ في هذه الآية الكريمة إلى احتياج العقل البشريّ إلى معونة الوحي السماوي، ليستمدّ العقل عن طريقه سبيل الهدى والرشاد، ليساعد ذلك على نقل وتطوير البشر إلى حياة أفضل. فهذا الأمر استدعى منه تعالى أن يصطفي خليفته له من هؤلاء الناس ليخلفه في عمليّة إصلاحهم وتبيين نهج الهدى والرشاد.

وقد قصد من لفظ (خليفة) عدّة أمور منها :

أولاً - أنّ الذي هو مؤهّل لمنصب خلافة الله في الأرض، لا بدّ له أن يكون من صفوة الناس. وهذا هو سرّ خطابه جلّ شأنه لرسوله محمد (ﷺ) : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى...﴾. والمقصود هنا يتيم دهره، وليس يتيم الوالدين، وإنّ إيواءه، هو القيام بإسناد أرفع منصب يستحقّه وهو منصب حمل رسالة السّماء.

ثانياً - والله وهو عالم الغيب والشهادة، فقد كان في سابق علمه من ستسند إليه الرسالة، لذلك رعاه منذ نعومة أظفاره بفضله وكرمه إلى أن بلغ به المستوى اللائق لحمل هذه الرسالة. وإلى هذه الحقيقة أشار الله عز وجل من خلال خطابه إلى موسى عليه السلام بقوله: ﴿ثُمَّ جِئْتُ عَلَىٰ قَدَرٍ يَامُوسَىٰ. وَأَصْطَفَيْتُكَ لِنَفْسِي إِذْ هَبْتَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي، وَلَا تَنِيَّائِي ذِكْرِي. اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ.﴾ أي أن موسى كان مشمولاً برعاية الله وفضله الخاص قبل إسناد الرسالة إليه. وإشارة إلى هذا المعنى نفسه ورد لفظ (سُوَيْتَهُ) عن آدم في سورة الحجر. على شاكلة الأرض الزراعية التي تسوى قبل أن تغرس وتُسْتَمَر.

ثالثاً - وبعد عملية التسوية، تأتي عملية النفخ في الروح ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾. وهي مرحلة تعليمية لمبادئ الرسالة وتعاليمها التي يكلف بها هذا المبعوث السماوي. وهي مبادئ وتعاليم تأتي نابعة من احتياجات المرحلة التي يمر بها البشر أو قوم من الأقوام في فترة زمنية من الزمان. وإليه أشار قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ..﴾. لذلك تختلف درجة وأطر النفخ في الروح من مُرسَل إلى آخر تبعاً لمقتضيات الزمان والمكان. فآدم على سبيل المثال لم يتلق إلا مبادئ أولية لحياة تعاونية. على حين أن ماتلقاه محمد (ﷺ) من مبادئ وتعاليم نزل يصلح لكل زمان ومكان.

ويُلخّص دليل اسم الله (الحيّ) في أنّ الإنسان إذا نظّر بمنظار الأنظمة الروحية ومنهجها الموحد وقانونها العام. تلك الأنظمة التي تؤلف حلقات سلسلة واحدة، وصادرة عن مصدر واحد هو الله "الحيّ"، وذلك على حسب ما أفاد به جميع من بُعثوا بهذه الرسائل الروحية التي ساعدت على تطوير البشر من زمن سكنت الكهوف وبطون جذوع الأشجار، إلى زمن سكناه في السهول وإقامته وجعله متحضراً وتعرّفه خالقه وسبيل التقرب إليه.

أقول: إنّ هذا الإنسان المتأمل معالم حلقات هذه السلسلة من الرسائل التي تمتد في الماضي الغابر السحيق إلى قرابة عشرة آلاف عام. لا يسعه وهو يبحث عن الحقيقة إلا أن يقرّ بوجود الإله (الحيّ الذي لا يموت)، هذا الإله الذي يهب البشر الحياة من جديد، كلّما تقدّم بهم الزمان، وتدنت أخلاقهم وتفسّخت، وانحطّت معايير سلوكهم.

فإذا نظر الإنسان المحقق من نفس هذا المنظار إلى كل إسم من أسماء الله الحُسنى، وتتبعه وفق النقاط الخمس التي احتواها منهاج إحياء الله تعالى للشعوب المتخلفة وقانونه العام، فلا بُدَّ أن تتوفر لديه أدلة كثيرة يثبت منها وجود الله عزوجل، بقدر عدد أسمائه الحسنى التي أوردها القرآن الكريم بين ثنايا آياته المقدسة.

٢ - دليل الله العزيز

دونكم صفة الله العزيز مثلاً آخر للاستدلال الحسي على وجود الله عزوجل الذي يملك هذا الكون ويدبره بمحض إرادته ومشيقته. على اعتبار أن صفة العزيز تعني لغةً : الملك الغالب على أهل مملكته، والقوي الذي ليس فوقه قوي، والعزيز الذي ذلّ لعزته كلّ عزيز.

فلتدبر كتاب الله العزيز، وتتابع منهج عمل وتجلي صفة العزيز من خلال آي الذكر الحكيم. يتراءى لنا أن الله العزيز لا يعامل عباده على أنه مالكهم والمتصرف بهم، على شاكلة ما يفعله ملوك الأرض. فهو لا يتجلى بصفته العزيز إلا مقرونة بصفة سامية أخرى معها، ووفق منهج وقانون.

فتارةً يتجلى على أنه "العزيز الحكيم"، وهي الحالة الغالبة على تجلياته. وتارةً أنه "العزيز الرحيم" أو "العزيز الغفور" أو "العزيز الحميد" أو "عزيز ذو انتقام" بمعنى الملك الذي يُنزل بالمجرمين عقابه الشديد.

ونعود معاً إلى معاجم اللغويين، نستطلع معاني "العزيز والحكيم والحميد والغفور وذو انتقام". قال صاحب المقاييس: العزيز من عزّ أي ندر وجوده وغلب وتهر. وهي صفة تدلّ على الشدة والقوة والندرة. فالعزيز هو الذي لا تكاد توجد قوة تقدر على مغالبتة. تقول : عزّه على أمر إذا غلبه على أمره والمعازة هي المغالبة. تقول عازني فعزته، أي غالبني فغلبته، وقال تعالى (فعززنا بثالث) أي دعمنا وقوّينا الأمر بثالث.

وقال صاحب محيط المحيط، العزة مصدر تعني الغلبة والمناعة. فالعزيز هو المنيع الذي لا يُنال ولا يُغالَب ولا يُعجزه شيء ولا مثيل له. وهو الشريف والقويّ والقليل النادر والمكرم والملك لغلبته على أهل مملكته. والعزيز اسم من أسماء الله الحسنى.

أي أنّ للعزیز خمسة معانٍ رئيسية، هي : الأول: معنى النادر الذي لا يكاد يوجد له مثل. الثاني : المنيع الذي لا يُنال ولا يُغالب ولا يُعجزه شيء، فهو المقتدر. الثالث : الملك الغالب على أهل مملكته، فهو القوي الذي ليس فوقه قوي. الرابع : الشريف المُعزَّز المُكرَّم الكريم الوهاب.

والمعنى الخامس : أو العزیز إلى ذلك كله اسم من أسماء الله الحسنى. ولما كانت صفة العزیز لا تتجلى بمفردها لرهبة ما تؤدّي إليه. وكانت تتجلى مقترنة بإحدى الصفات التالية: الحكيم أو الرحيم أو الحميد أو الغفور أو ذو انتقام. فلنراجع معاني هذه الصفات في معاجم اللغويين :

الحكيم من الحكمة، وهي صفة تمنع من الجهل، وتعني العدل والعلم والحلم والكلام الموافق للحق. فالحكيم هو العالم صاحب الحكمة والمتقن للأمور. ولا يُسمّى حكيماً إلا من جمّع بين العلم والعمل. ويُجمع هذا اللفظ على حُكماء والحكيم هو صاحب الحجة القطعية، بمعنى البرهان.

والحميد من كان كامل المحامد : يُنزل كامل المبادئ والتعاليم، ويصبغ بصبغته، وينصر بتأييده، فلا أحد سواه يستحق هذا الحمد، فهو الربّ العزيز الحميد. وهو إلى ذلك اسم من أسماء الله الحسنى.

والرحيم من رحمته أي رفق له وتعطف. والرحمة هي إرادة إيصال الخير ودفع الشر. وقيل هي من صفات الفعل أي إيصال الخير ودفع الشر. وذكر الإمام الرّازي أنّ الله رحمن، على اعتبار أنّ الجود هو إفادة ما ينبغي ولا لغرض. وإنّ كل ماعدا الله يُعطي ليأخذ عوضاً. والرحيم اسم من أسماء الله الحسنى أيضاً.

وهو ذو انتقام من نقم. نقول نقم منه، وانتقم أي عاقبه. وفي سورة الأعراف : (وماتنقم منا إلا..). أي ماتنقم فينا وتقبح، والنقمة اسم من الانتقام، وهي تضمّ إلى الكراهة السُّخط، فهي المكافأة بالعقوبة. ومعنى "ذو انتقام" صاحب الأمر الذي يملك حق إنزال العقاب، وهو الله عز وجلّ.

وانطلاقاً من المنهج والقانون الذي بيّناه، والذي تتجلى صفة الله العزيز، من خلاله صفة مقترنة بصفات الحكيم والرحيم والحميد والغفور وذو انتقام، نحاول على ضوء ذلك تحسّس تجليات الله العزيز وعلى ضوء تاريخ مجريات أحداث البشر في منطقتنا بالذات.

وثمة سؤال يطرح نفسه هنا، وهو كيف يتجلى الله تعالى بصفات تبدو في ظاهرها مُضَادَّة : ففي الوقت الذي يكون الله رحيماً وغفوراً، يكون ذا انتقام أو شديد العقاب. كما يكون خلاقاً ومُمِيتاً. فما تأويل هذا التضاد الظاهري؟

وللإجابة عن هذا السؤال أقول : إنَّ من لم يُحِط علماً بمنهج وقانون تجلّي كلِّ صفة من صفات الله تعالى، يستحيل عليه تأويل مثل هذا التضاد الظاهري. ذلك أنَّ لتجلّي كلِّ صفة إلهية منهاجَ عمل وقانوناً. وهذا الأمر إن دلَّ على شيء، فإنما يدلُّ على عظمة الله وماتتصف به ذاته من صفات وأسماء، تعمل بما يُذهل العقاب الشديد.

من هذا ندرك السرَّ الكامن وراء ظهور أمرين متضادين ظاهراً. ففي حين نلاحظ عفو الله عن مُذنب، فإذا به يُنزل بمذنب آخر شديد العقاب.

ثم إنَّ القرآن الكريم أنبأنا عن قانونين رئيسيّين يُهيمنان على عمل كلِّ صفة وكل اسم من أسمائه تعالى. أما القانون الأوّل فقد تضمّنه قول الله تعالى في سورة الأعراف (١٥٦): ﴿...ورحمتي وسعت كلَّ شيء...﴾. فهذا قانون عام رئيسيّ. ففي كلِّ تجلّي لآية صفة إلهية، لا بدّ أن تغلب عليها سمة الرحمة وتجلياتها، لذلك لاحظنا أنه يقول تعالى في مقام آخر من كتابه العزيز : ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾. البقرة ٢١٦-.

والقانون الثاني الرئيسيّ الذي يُهيمن على عمل وتجلّي كل صفة من صفاته تعالى، قد تضمّنه قول الله عز وجل على لسان نوح عليه السّلام: ﴿مالكم لا ترجون الله وقاراً. وقد خلقكم أطواراً﴾. نوح ١٤ - أي مالكم لا تلاحظون الوقار والرّزانة عند الله، وهما يدلّان على الحكمة الغالبة على عمل كلِّ صفة أخرى من صفاته تعالى، فهو الحكيم في تصرفاته، ومنها خلقكم أطواراً، فطوراً نُطفة، وطوراً علقه إلى تمام خلق الإنسان، فمن واجبكم أن توقروه، وهو الله الذي تغلب حكمته على جميع تجليات أسمائه الحسنی.

والخلاصة أن كلَّ صفة إلهية تعمل وفق منهاج وقانون. وتتجلّى على كلِّ صفة إلهية صفتان رئيسيتان هما صفتا : الرحيم والحكيم.

وبعد أن أجبنا عن السؤال المذكور، ودفعنا التناقض الظاهريّ المُشار إليه، لتبصّر في تجلّي صفته تعالى العزيز، وعلى ضوء ما أفادنا به القرآن الكريم. وأوّل ما أتناوله بالبيان، هو عمل صفته العزيز، وهي مقترنة بصفته الحكيم. أي تلازم العزيز الحكيم في عمل وتجليات أسماء الله الحسنى، وصفة العزيز منها خاصّة.

تعالوا إلى سورة البقرة (١٢٩-١٣١)، حيث تحدّثت الآيات عن قصّة ابراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَاةٍ نَفْسِهِ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.﴾

ولاشك أن قصّة إبراهيم هذه حادثة حقّاً، وقد ورد ذكرها جليّاً في التوراة التي تحكي لنا تاريخ بني إسرائيل الذي ينتهي عند ابراهيم عليه السلام. أضف إلى ذلك أنّ الدّعاء الإبراهيمي، قد أشارت إليه نبوءة سفر التثنية ١٨/١٨، الذي سبق أن عرضنا لسردها وتبيانها أيضاً. ولقد تحقّق هذا الدّعاء الإبراهيمي، ببعثة سيّد المرسلين ومعه القرآن الكريم.

والقرآن يصف لنا حالة الخيرة التي تملّكت صدر إبراهيم عليه السلام، وهو قد علم باستجابة الله لدُعائه، ورد ذلك في نفس سورة البقرة (٢٦٠): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِرَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ، قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ، فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا، ثُمَّ ادْعُهُنَّ، يَأْتِينَكَ سَعْيًا، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.﴾ أي أنّ نفس إبراهيم تاقّت إلى معرفة الطّريق والأسلوب الذي سيتحقّق به دُعاؤه الذي تقبّله ربّه بالاستجابة، فطلب منه أن يفعل مايفعله مربو الحمام، فبرّتي أربعة منها ثم يجعل على كلّ جبل واحدة منها، ثم يدعوهم، فلماذا بهنّ يُلبّين نداءه ويأتينه سعيّاً، وهنا نبّه الله إبراهيم إلى أنه تعالى سيستجيب دُعاءه، على هذه الشاكلة من مُنطلق كون الله عزيزاً حكيماً. وهذه إشارة إلى

بعثة عددٍ من أنبياء الله الذين سيتحقق على أيديهم تربية المؤمنين بما يحملونه من تعاليم وذلك استجابة للدُّعاء الإبراهيمي، وهذا قد تحقق فعلياً وعملياً. وإنَّ وسيلة التربية الروحية تحققت على أيدي محمد رسول الله (ﷺ) بشكلٍ مُدهشٍ، ولولا ذلك لما كانت قد تحققت على أيديهم تلك الفتوحات التي لم تكن لتتحقق لولا هذه التربية وما استقرَّ في قلوبهم من يقين وإيمان، فأنتى لأبي بكر مثلاً، وهو ابن أبي كبشة، الرجل الناجر البسيط، أن يصبح خليفة الله ويقود أمة ناشئة إلى شاطئ الأمان، لولا أن كان أبو بكر من السابقين في الإيمان وفي صحبة محمد رسول الله (ﷺ). علماً بأنَّ المفسرين أخطؤوا حين أخذوا للكلمة (فَصُرْ مِنْ إِيَّاكَ) معنى قطعهن. فلم ينتبهوا للصلة التي أتت بعدها وهو حرف (إيَّاكَ) الذي قلب معنى قطعهن إلى معنى أمِلْهُنَّ إِيَّاكَ.

والمهم أنَّ إبراهيم عليه السلام قد استغاث في دعائه بصفتي الله العزيز الحكيم. وهأنه، وبعد مُضيَّ أُلوف السِّنَّوات على ذاك الدُّعاء المقبول، تحققت الاستجابة وفق تجلّي صفتي "العزيز الحكيم". حيث استهلَّت سورة الجمعة بقوله تعالى إشارة إلى ذلك: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.﴾ أي هانحن أولاء بعزتنا وحكمتنا قد حققنا ما وعدنا به إبراهيم، وأثبتنا بذلك أنَّ الله موجود وعزيز غالب على أهل مملكته، وقوي على تحقيق ما يشاء بحكمة، فهو صاحب الحكمة المتقن للأمور.

وهانحن أولاء كذلك قد أثبتنا أنَّه كان في سابق علمنا أنَّه سيأتي على أمة محمد (ﷺ) عصرٌ تخلف وانحطاط تتكالب فيه على المسلمين أمم الأرض، فبعثنا من هذه الأمة أيضاً، وفي هؤلاء المسلمين الآخرين، ومنهم لَمَّا يلحقوا بالمسلمين الأولين رجلاً يكون ظلاً لهذا الرسول العظيم محمد الصادق الأمين، ليصَّح مسار الأمة، ويملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً. تثبت من خلال بعثتنا إياه تجلّي صفتنا العزيز الحكيم.

وهكذا نكون قد أحطنا علماً بمشال محسوس من واقع البشر في هذه المنطقة من العالم، يثبت من خلاله وجود الله العزيز الحكيم، وذلك من خلال

تقبل هذا "العزیز الحکیم" دعاء إبراهيم وإسماعيل اللذين وجدنا في واد غير ذي زرع وقبل ألوف السنوات. هذا وفي وقت كان تحقق ذلك في أعين ابراهيم نفسه من باب شبه المستحيلات. فأين هذا الوادي غير ذي الزرع وقبائله المتجولة المتنقلة الأمية، ومابلغوه من السؤود حين سادوا العالم ببعثة محمد سيد المرسلين (ﷺ)، وهو سليل نسل ابراهيم عليه السلام أيضاً عن طريق نسل ابنه اسماعيل. وهانحن وقد وجدنا في عصر تخلف المسلمين الذي أشارت إليه سورة الجمعة، وهانحن في ظل هذا المبعوث لإحياء الذين فسبحان الله الحي القيوم العزیز الحکیم، وهل يستهين بهذا الدليل المحسوس، الذي يثبت من خلاله وجود الله العزیز الحکیم إلا من سيفه نفسه وكان من الجاهلين المكابرين؟

وعليه يكون قد ثبت من خلال تجليات صفة الله العزیز، والتي تجلّت مقترنة بصفة الحکیم أنّ الله تعالى ليس موجوداً وحسب، بل وغالباً على أهل مملكته، فلا يوجد قوياً يقوى عليه، وأنه تعالى فعّال لما يريد، وأنه يحقق مشيئته بحكمة بالغة متقنة للأمور مذهلة للعقول.

وأتناول تجلّي اسم الله العزیز، مقترناً بصفته تعالى الرحيم، وذلك من خلال التعلیم الذي بُعث به محمد رسول الله (ﷺ) نفسه، وهو تعلیم القرآن الحکیم. فقد جاء في أول سورة (يس) : ﴿يس. والقرآن الحکیم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم. تنزيل العزیز الرحيم. لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾. هذه الآي تعني : أيها الإنسان السيد، قد تأتت سيادتك على الناس من خلال ما أنزلناه عليك من آي هذا القرآن الحکیم الذي اشتمل على تعاليم متقنة فكرياً وعملاً، وصالحة للناس كافة في كل زمان ومكان، مقرونة بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة. وقد جعلناك سيداً، مصداقاً تقبلنا دعاء جدك ابراهيم. وقد زدناك بهذا القرآن الحکیم ذي التعاليم المتصفة بالكمال وجعلناك على صراط مستقيم، إثباتاً منا لوجود الله وأنّ هذا القرآن هو ﴿تنزيل العزیز الرحيم﴾، فجنّت بذلك رحمة للعالمين.

وأتناول تجلّي صفة العزیز مقترنة بصفة أخرى هي صفة "ذو انتقام". ولنتنقل إلى سورة آل عمران التي قال تعالى في أوائل آياتها : ﴿... وأنزل الفرقان. إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾. وقد علمنا أنّ معنى قوله (ذو انتقام) أي صاحب الأمر البالغ في

العقوبة، لمن ناهض وصدّ عن سبيل الله. وقد قال تعالى لقد أنزلنا هذا القرآن ليكون فرقاناً نفرق به الحقّ من الباطل. فمن يتمرّد على عزّتنا، ويتصدّ لقوتنا وهيمنتنا ننذره بالانتقام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾. أي لا ينبغي هؤلاء المكذّبين أن يتناسوا أن الله العزيز يتجلّى، فيما يتجلّى به، بصفة مُلزمة هي أنه "ذو انتقام" في الوقت المناسب. فليحذر الذين كفروا عذاب الله العزيز ذي الإنتقام. وقد رأى العالم ماحلّ بالذين كذبوا هذا القرآن المنزل على محمد (ﷺ)، وكيف ذلّوا وآلوا إلى دار البوار.

وأتناول صفة العزيز مقترنة بصفة العليم. وقد جاء ذلك التحلي في قوله تعالى من سورة غافر: ﴿حَمْدُ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾. أي أنّ الله العزيز الذي بعث محمداً استجابةً لدُعاء جدّه إبراهيم، هو العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذو الطول لا إله إلا هو إليه المصير. وصفة العليم اشتملت على جميع ماقتضته هذه الصفات، لتثبت وجود الله العزيز العليم. وهل يتّصف بهذه الصفات المذكورة إلا من كان عليمًا لا يحدّ من علمه شيء، مُحيطاً بكلّ أمرٍ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وأتناول صفة العزيز مقترنة بصفة الحميد. وإلى ذلك أشار قوله تعالى في سورة إبراهيم التي استهلّها الله تعالى بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ يُخْرِجُ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾. أي أنا الله الذي لا يغيب عن ناظره شيء، قد أنزلت عليك هذا الكتاب ليكون سبيلاً إلى الناس بما صاروا إليه من الفساد لتخرجه، إلى الصلاح والفلاح، وقد شعّنت، وأنا العزيز الحميد الغالب على الكون، المحمود بكلّ لسان وعلى كلّ حال، القادر على أن أخرج الناس من الظلمات إلى النور، تصديقاً لدُعاء إبراهيم، قد أنزلت أكمل المبادئ والتعاليم لتحقيق ذلك على أيدي محمد الصادق الأمين، الرّسول الذي سيحوّل بالناس من حالة البؤس التي هم فيها، إلى حالة العزّة والسّيادة والكرامة. يُحوّلهم عن طريق هذه المبادئ والتعاليم الكاملة، إلى عالم نوراني علمي بعيداً عن سموم الأهواء النفسية والوساوس الشيطانية. والحقّ هو أنّ العالم

شاهد ما أحدثته تعاليم القرآن الكريم الذي بُعث به محمد (ﷺ)، وتصديقاً لدُعاء جدّه إبراهيم، ما أحدثته في بيّنة العرب الجاهليّين، إضافةً إلى بيّئات سواهم من الأمم والشعوب، من يقظيّة وترقٍ ونهضةٍ في كل مكان سادت فيه هذه المبادئ والتعاليم، والتي ثبت من خلال ما أحدثته من تغييرٍ وتحولٍ، أنّ الله العزيز هو حيٌّ قيّومٌ، وأنّه تجلّى بصفته العزيز الحميد أيضاً.

وأتناول بالذكر اسم الله العزيز مُقرّناً بصفة الغفور. الأمر الذي يتضح بما استهلّ به الله تعالى سورة الملك حيث قال: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كلّ شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور. الذي خلق سبع سمواتٍ طباقاً، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوتٍ، فارجع البصر هل ترى من فطور.﴾.

والمعنى أنّ الله العزيز مالك هذا الكون والقادر على تحقيق كلّ شيءٍ أَرادَه ويريدُه، إنّما تتجلّى صفته العزيز مُقرّنة بصفته الغفور.

فهاهو ذا قد استجاب دعاء إبراهيم، وأثبت من خلال بعثة محمد أنّه العزيز. ولما كان الإنسان قد خلق مُبتليّ بين موتٍ وحياة، فقد كان لازماً أن تتجلّى صفة الله العزيز مُقرّنة بصفته الغفور أيضاً. بمعنى السّتر ضعف عباده. لذلك تجلّى، وهو العزيز الغفور الذي وسعت رحمته كلّ شيءٍ. وقد قال تعالى في مقام آخر من كتابه العزيز: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً﴾. الزّمر ٥٣ - وهكذا تجلّى الله العزيز، وهو يحث عباده على أن يكونوا من المستغفرين ومن التوابين لتشملهم تجلّيات صفّيّ العزيز الغفور بواسع ظلّهما الوارف الظليل الذي يخلب ألباب المفكرين المحقّقين.

على هذه الصّورة يكون قد تجلّى لأعيننا أنّ صفة الله العزيز وعملها وتجلّياتها عبر تاريخ البشر، قد بدّت وفق منهج وقانون، وصفة العزيز هذه دليلٌ من الأدلّة القاطعة على وجود الله العزيز الحكيم الرحيم الحميد الغفور المنتقم.

ويامكانكم أن تقيسوا على هذه الصّفة ما ذكر في القرآن الكريم ما لله تعالى من أسماء وصفاتٍ، حيث يؤلّف كل اسم وصفةٍ منها دليلاً قاطعاً يثبت وجود الله عزّ وجلّ في نظر كلّ باحثٍ عن الحقيقة، متحرّجٍ عن أهوائه، وغوايته،

وتبته، وجهاته وعنناته وسابق تصوّراته. وهكذا تلاحظون أنّ الأدلّة المستمّدة من أسماء الله الحسنی تبلغ عدد ما یُتّصف به الله عزوجلّ من أسماء قد تجلّت في كوننا الماديّ الذي تنفیّاً ظلّاله.

٣ - دليل الله المتكلّم

هنا رواية أسندتها كتب الحديث، كالترمذي وابن حيّان والبيهقي أسندتها إلى رسول الله (ﷺ) بطريق أبو هريرة. وقد عدّد صاحبها فيها تسعاً وتسعين من أسماء الله الحسنی، تناولها العلماء المقلّدون دون أيّ تمحيص. فما تساءلوا: كيف یُعقل أن يكون رسول الله (ﷺ) قد أحصى جميع أسماء الله الحسنی قبل أن يكتمل نزول القرآن الكريم؟

ألا إنّ أسماء الله الحسنی لم تجتمع في كتاب الله تعالى في مقام واحد. بل أتت في طيّات الآيات الكریمة، وذلك وفقاً لما كانت تقتضيه مضامينها. وقد تبین لنا، بنتيجة تدبّرنا كتاب الله تعالى أنّ الرواية المذكورة أغفلت عدّة أسماء من أسمائه تعالى الواردة فيه، وهذه الأسماء هي: (ذو العرش، وذو الوقار، والمنعم، والشافي، والكافي، والمتكلّم.)، ليصبح عدد أسماء الله الحسنی مائة وخمس صفات.

والمؤسف أنّ هؤلاء المقلّدين، ونتيجة لأخذهم بالرواية المذكورة، ذهبوا إلى القول بانقطاع الوحي السّماوي بعد رسول الله (ﷺ)، على حين أنّ كلّ اسم من أسماء الله تعالى، لا ينقطع عن عمله فهو مع ذات الله أزليّ وأبديّ ومستمرّ التجلّي والعطاء. فإن اتّصف الله عزوجلّ بصفة تكليمه لعباده قبل الإسلام، فكيف تصوّروا أن يصمت الله ولا يعود يكلم عباده بعد الإسلام؟ أفلم يكلم أم موسى بكلام غير تشريعي، فكيف لا يعود يكلم الصّديقات من المسلمات بكلام غير تشريعي بعد بعثة خاتم النبيين (ﷺ)؟ خصوصاً وأنّ القرآن الكريم لم ينصّ في آية آية من آياته الكریمة على أنّ الله لا يوحى ولا يكلم إلاّ النبيّين. أفلم يقرأ هؤلاء المقلّدون قول الله عزوجلّ: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم﴾ الشورى ٥١ - فلم يقل هنا ﴿وما كان لنبي أن يكلمه﴾ بل عمّم

وقال ﴿وما كان لبشر..﴾ نبيّاً كان أو غير نبيّ. ولست هنا في مجال بحث هذا الموضوع والتوسّع فيه. بل سأبحثه في آخر المبحث الثالث من هذا الكتاب.

وهكذا فإن صفة الله (المتكلّم) تشكّل في حقيقتها دليلاً حسيّاً على وجود الله عزّ وجلّ، ولم يختصّ كلام الله بأنبيائه الكرام، بل بالبشر عامة وعلى مختلف طبقاتهم، وكلّما يكلمه الله إن اقتضت الضرورة على حسب فهم هذا الإنسان ووضعه الاجتماعي والأخلاقي الروحي، وهل نسي أحدنا كيف أوحى الله إلى عزيز مصر في رؤياه المعروفة من وراء حجاب، ولم يكن العزيز مسلماً، ولم يقدر على تأويل تلك الرؤيا إلا يوسف عليه السلام. فقد اقتضى أمر الإيفاء بوعد الله تعالى التي قطعها ليوسف أن يعلمه تأويل المنام ويفعل ما فعل. وهذا من باب أشار الله تعالى إليه آخر آية سورة الشورى التي أوردناها، وهو تذييله هذه الآية بقوله: ﴿..إنه عليّ حكيم﴾. والعلّيّ هو القويّ والرفيع والشريف والشديد (محيط المحيط). كما أن الحكيم هو صاحب الحكمة المتقن للأمور، الذي يجمع بين العلم والعمل وصاحب الحجّة والبرهان، على حسب ما بين صاحب معجم محيط المحيط.

وكأنه تعالى رسم وبيّن لنا المنهج والقانون الذي التزم به عزّ وجلّ بما يتعلّق بموضوع كلامه مع البشر، فهو تعالى يكلمهم من مُنطلق كونه (العلّيّ) أي القوى الرفيع المقام والشريف الخصال والشديد العقاب. وهو تعالى حين يُكلّم بشراً ما، يُكلّمه بحكمة الذي أتقن الأمور قولاً وعملاً، إضافة إلى إحكامه تعالى في كلامه حجّته وبرهانه، فهذا هو مادّلّ عليه قوله تعالى آخر آية سورة الشورى قوله: ﴿..إنه عليّ حكيم﴾.

أقول : إذا ما أثبتنا، من خلال الوقائع والأحداث الماضية وجود أشخاص كلّمهم الله تعالى وهداهم السبيل، نكون قد أثبتنا بذلك وجود الله المتّصف بالكلام أيضاً. هذا الإله الذي يملك هذا الكون ويُسيّره بحكمة، ويكلّم مَنْ خلّقه بشراً من مُنطلق كونه العلّيّ الحكيم.

ولنبداً من نقطة التكلّم بالذات. فمجرّد ادّعاء إنسان ماأنه يكلمه ربّه فهو أمرٌ إيجابيّ على أقلّ تقدير. على حين أنّ نفي إنسان حدوث مثل هذا الكلام فهو أمرٌ سلبيّ عموماً. وإن الأمر الإيجابيّ له في الحقيقة وزنه وجاذبيّته، وأن يُطالب المدّعي بتقديم الحجّة على ادّعائه.

وإذا ما استعرضنا تاريخ البشر، لاحظنا وجود فريقين : فريق مؤمن بوجود الله المتكلم مع عباده، ويكلم الصالحين منهم خاصة، واعتقادهم هذا يشكل نقطة إيجابية - كما تلاحظون - لها جاذبيتها ومصادقيتها.

وفريق كافر بالله بين ملحد ومشرِك. وفي موقف هذا الفريق نقطة سلبية - كما تلاحظون - وهذا الفريق ملزم أصلاً بتقديم حجة وبرهان على موقفه السلبي. وهذه الحقيقة هي التي تسببت في ظهور طبقة من الفلاسفة عبر تاريخ البشر، تكابر في وجه المؤمنين ويحاول أصحابها نفى وجود الله عز وجل.

وأطرح للقارئ العزيز هذا الأمر بأسلوب آخر، فليتصور أحدكم فيلسوفاً يتحدث إليه، ويحاول تقديم البرهان على غياب فلان عن مجلسهما، على حين يجلس زيدٌ هذا بينهما وأمام ناظريهما في تلك اللحظات، أفكنت تصغي يا صاحبي إلى هذا الفيلسوف، أم تبادر إلى تسفيهه واتهامه بالحق ورميه بالخبل والسفه؟

فإن أنت أصغيت يا صاحبي إلى حديث وأقوال هذا الفيلسوف، وزيدٌ يجلس بجانبك، يكون حالك كمن يُصغي إلى فلسفات الملحد، في حال وجود أناس يكلمهم الله إلى درجة أشرفت به نفوسهم واطمأنت إليه قلوبهم.

وهل بإمكان أي مؤرخ أن ينكر وجود هذين الفريقين من البشر : فريق الأنبياء ومن آمن بهم، وبوجود الله "المتكلم"، وفريق الملحد الذين وقفوا في مقابل الفريق الأول، موقفاً سلبياً يفتقر دوماً إلى الحجج والبراهين القاطعة؟ وهذا الموقف السلبي، وقفوه في مواجهة عشرات ألوف الناس أصحاب الموقف الإيجابي، الذين يقدمون أنفسهم شهوداً على وجود الله "المتكلم".

وقد كان الفريق الأول يفوز دوماً وفق ما يعلنه، على حين يسوء الفريق الثاني باستمرار بالخيبة والخسران، على هذا نجد الفريق الأول على كلمة واحدة. بينما ينطبق على الفريق الثاني قوله تعالى: ﴿كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فُرِّقُونَ﴾.

وهل نسي المفكرون الباحثون كيف أنّ فلاسفة الماركسية قد سفهوا آراء وفلسفات جميع من سبقهم من الفلاسفة، حتى جرّوا على شعوبهم أقسى المصائب والويلات؟ وقد وصف بعض فلاسفة الماركسية هذا الدين، بأنّه أفيون الشعوب، وهل كان الدين ليصبح أفيوناً للشعوب لولا أن ظهر بين ظهراني أهله رجالٌ مكلمون من الله خالقهم، ويتلقون بشارته أيضاً وتأييده وهُداً؟

وتعالوا نتفحص سير من كلمهم الله تعالى، أولئك الذين شهدوا على وجوده عز وجل. إذ يتبين لنا أنّ أولئك القديسين الأبرار، كانوا من ذوي الأخلاق الفاضلة الحميدة. فهذا ماشهد به تاريخهم، إضافة إلى شهادة القرآن الكريم الذي أثبتنا من قبل مصداقية مرجعيته، فقد قال تعالى في الآية (٦١) من سورة هود: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً، قال يا قوم اعبدوا الله، ما لكم من إله غيرهِ. هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريبٌ مُجيب. قالوا يا صالح قد كنتَ فينا مرجوًّا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا، وإننا لفي شكٍّ مما تدعونا إليه مُريب. قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة، فمن ينصرني من الله إذا عصيته، فما تزيدوني غير تخسير.﴾ فقد أقرّوا بذلك بصلاح وأهليّة النبي صالح بما لا تهوى أنفسهم، فقد خابت آمالهم فيه، وحرّموا أنفسهم من فيض مادعاهم إليه.

وقد وصف القرآن الكريم العاقبة الحميدة التي آل إليها : صالح وقومه، وقال: ﴿فلما جاء أمرنا لنجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا، ومن خزي يومئذ، إن ربك هو القويّ العزيز.﴾ أي أنّ الله الرب الذي كلم صالحاً، أثبت أنه "القويّ العزيز". والقويّ يعني العليّ. والعزيز يعني الغالب على أهل مملكته فلا يُغالب. وكأنه تعالى قصد من قوله: ﴿إن ربك هو القويّ العزيز.﴾ ما قاله بالفاظ أخرى أنه ﴿العليّ الحكيم﴾.

ولقد أخبرنا القرآن الكريم عن النبي شعيب أيضاً، وفي الآية (٨٦) من نفس سورة هود، قال: ﴿قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء، إنك لأنت الحليم الرشيد. قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ورزقي منه رزقاً حسناً، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. ولما جاء أمرنا لنجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا، وأخذت الذين ظلموا الصيحة، فأصبحوا في ديارهم جائعين، كأن لم يغنوا فيها، ألا بعداً لمدينٍ كما بعدت ثمود.﴾ لاحظتم قول قوم شعيب ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد.﴾ وهذا إقرارٌ منهم بصلاح شعيب وبقواه ورشده. أمّا وقد فاجأهم النبي شعيب بما لا تهوى أنفسهم، فقد خابت آمالهم فيه وبذلك حرّموا أنفسهم من فيض مادعاهم إليه.

ولم نذهب بعيداً في ضرب الأمثال وذكر الوقائع؟ وهل هناك امرؤ لا يدري ببعثة محمد بن عبد الله اليتيم الأمي الذي اصطفاه الله لرسالته. فجمع قومه من أهل مكة الذين لبوا نداءه، وقال: ما بالكم إن أخبرتكم أن وراء هذا الجبل جيشاً عرمرماً أو أنتم مُصدّقون؟ فصاحوا جميعهم قائلين: (ما جرّبنا عليك كذباً) فقال (ﷺ): (إني رسول الله). فأنبرى له أبو جهل قائلاً: (تبّاً لك ألهذا جمعتنا؟) وأقبل عائداً إلى داره. وتبّ معنى هلك. فمن هلك بعد ذلك: المدّعي أم المكذب المتكرّر؟

والحقيقة التي لامراء فيها، هو أن محمداً (ﷺ) ومن خلال إعلانه المذكور أعلن بالفاظٍ أخرى عن وجود الله "المتكلّم"، وأن الله كلّمه واصطفاه لرسالته. وما كان جواب أيّ جهل، إلّا كما أحاب به قوم صالح وقوم شعيب وسواهم ممن كذبوا بما لا تهوى أنفسهم.

والجميع يعلم أن محمداً (ﷺ) اشتهر في قومه بالصّادق الأمين. فهذا أمرٌ أجمعت عليه الأخبار. وقد رُوِيَ أن زعماء قريش ممن كذبوا محمداً في ادعائه، أنهم عقدوا مجلساً في مكة بقصد أن يتداولوا أمر هذا الرّسول، ليتفقوا على كلمة يواجهون بها الوافدين من العرب إلى مكة في موسم الحجّ. وقد أشار أحد المجتمعين أن يصموا محمداً بادعائه للنّبوة افتراءً وكذباً. فقام النّضر بن الحارث يقول: وكيف يُصدّقون ذلك؟ أنصم محمداً بالكذب والافتراء، وهو الذي عرفه الجميع بصدقه وأمانته؟ ولا بد أن يقول هؤلاء الوافدون: "كان محمدٌ فيكم غلاماً حدّثاً أرضاكم قليلاً وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة. حتى إذا رأيتم في صديغيه الشّيب، وجاءكم بما جاءكم، قلتم ساحرٌ. والله ما هو بساحر" (١). على هذه الصّورة أذعن المجتمعون لرأي النّضر بن الحارث، الذي كان بعيد الغور وقد أصاب وجه الرأي حين فطن إلى أن الوافدين من العرب لم يُجرّبوا على محمد بن عبد الله (ﷺ) كذباً قطّ. فكيف يُصدّقون بعد هذا أنّه كاذبٌ أفاك والعياذ بالله؟

وهذا أبو سفيان وقد سأله هرقل الرّوم في مجلسه: هل كذب محمد قبل ادعائه النّبوة في يوم من الأيام؟ وأحباب أبو سفيان: ما جرّبنا عليه كذباً حتى

(١) - سيرة ابن هشام.

اليوم. فلما عاد أبو سفيان إلى قومه وحدثهم بما جرى، كان يقول لهم: لقد قلت
لهرقل (حتى اليوم) آخر جوابي، لأشككه في أمر محمد بن عبد الله.

إن هؤلاء القديسين البررة من النبيين والذين آمنوا معهم، ساهموا
بصورة عملية وفعليّة في ترقية العقل البشري. ساهموا مساهمة لاتعدّلها مساهمة
أي فيلسوف أو ملحد أو مكذّب منكر من الناس. وقد أجمعت شهاداتهم على
وجود الله عزوجلّ، وعلى أنّه كان يكلمهم ويهديهم السبيل.

والمعلوم في جميع أنحاء المعمورة، هو أنّ المحاكم تطالب المدّعين بتقديم
شاهدي عدل لإثبات إدّعاءاتهم. وهؤلاء القديسون البررة أجمعت شهاداتهم على
وجود الله "الكليم" الذي كلّمهم، على اختلاف أزمنهم وأمكنّتهم، وهل يحوز
أن يُستهان بشهادات هؤلاء القديسين البررة وهم يُعدّون الألف بل عشرات
الألف، إلّا من سقّة نفسه؟

وقد كان يقابل هذا العدد الهائل من الشهود على وجود الله،
والتكلّمين معه أعداد من الفلاسفة الذين توالى ظهورهم عبر تاريخ البشر
الطويل. ولا ترى هؤلاء الأخيرين قد اتفقوا على آراء واحدة في يوم من الأيام.
فلماذا؟

السبب في أنّ جميع ما طرحوه من آراء وفلسفات، اعتمد العقل، حاذفين
منه عامله المساعد الذي بدونه لايعطي العقل أحكاماً صائبةً على مستوى أمور
الغيب وما وراء الطبيعة، لذا جاءت آراء وفلسفات هؤلاء الملحدّين بمجرد أوهام
وظنون متضاربة بعضها مع بعضها الآخر. وهأنّ فلسفة المادية الماركسية تحطّمت
على أعتاب النظرية التي أتى بها العالم الفيزيائي غاموف وهي نظرية الانفجار
العظيم والتي ثبت من خلالها أنّ الكون مخلوق غير أزليّ، وقد تمّ خلقه قبل مايزيد
عن (١٢ إلى ٢٠) مليار عام. وهل عادت بعد ذلك لسفسطات كارل ماركس
وسواه أيّ وزن أو قيمة بعد هذا الكشف العلمي العظيم؟

هذا وقد أثبت هذا الكشف العلمي صدق ما طالعنا به آيات القرآن
الكريم، وهو الكشف عن وجود الخالق عزوجلّ هذا الإله المتكلّم الذي كلّم
محمدًا (ﷺ) وأوحى إليه بهذا الفرقان العظيم، والنبيّ يطالع مؤلّفي (النظرية
القرآنية الكونيّة حول خلق العالم) تتجلّى لعينه حقيقة ما بينت أنفأ وبكلّ جلاء.

وعلى هذه الصورة تتجلى معالم صدق وجود الله المتكلم، الذي كلم محمداً رسوله الأمين. كما تتجلى حقيقة صدق شهادات الأبرار القديسين من الفريق الأول المؤمن بوجود الله المتكلم. إلى جانب انكشاف سفاهة آراء الفريق الملحد من الفلاسفة والمكذّبين.

وهذه الوقائع والأحداث المحسوسة تثبت للعاقل بما لا يقبل النقاش وجود الله الخالق، وتشكل دليلاً محسوساً على اتصاف هذا الخالق بالكلام أيضاً. الله الذي اصطفى من البشر من كلمهم في مختلف الأزمنة والأمكنة. وكان كلامه تعالى إلى هؤلاء بطرق ثلاث (وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء). وضمن منهج وقانون وضّحه لنا قول الله عز وجل (.. إنه عليّ حكيم).

هذا الدليل المحسوس من الوقائع والأحداث، يُضعف الرواية المُسندة إلى رسول الله (ﷺ) عن طريق أبو هريرة، والمتعلقة بأسماء الله الحسنى والتي لم تشتمل على صفة (التكلم) ولا على الصفات التالية (ذو العرش، ذو الوقار، المنعم، الشافي والكافي).

ولما كانت أسماء الله تعالى أزليّة أبدية لا تتوقف عن تجلياتها. فقد ثبت بالتالي من خلال صفته تعالى (التكلم) أنّ باب الوحي غير التشريعي غير مسدود. ولم ينقطع إلّا نزول الوحي التشريعي. ذلك أنّ شرع القرآن الكريم اكتسب صفة الكمال لقوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ المائدة (٣) - ولوعده جلّ شأنه بحفظ هذا الذكر إلى أبد الأبد في قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ الحجر ١٠ - فالكمال لا يحتاج إلى وحي تشريعي يكمله. والحفوظ لا يعقل أن يأتي وحي تشريعي ينسخه.

ثم إنه لو كان الوحي غير التشريعي قد انقطع، فلا يعود للآية (٣٠) من سورة فصلت أي معنى كان، وهي قوله تعالى: ﴿إن الدين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون. نُزِّلَ من غفور رحيم. ومن أحسن قولاً لمن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾.

ولا للآية (٦١) من سورة يونس، قوله تعالى: ﴿إِنَّا إِنَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.﴾. والمقصود من قوله ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ في الآية أنَّ سلوك الله المذكور مع عباده المؤمنين المتقين بعد نزول القرآن سيستمر على شاكلة ما كان قبل نزوله. والمقصود من (أولياء الله) من تولاهم الله بعنايته، كونهم من ﴿الذين آمنوا وكانوا يتَّقون﴾. وهؤلاء الأبرار ﴿لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لاخوف عليهم في مستقبلهم ولا يحزنون على ما فات. ذلك أن الخوف لا يكون إلا من المستقبل. والحزن لا يكون إلا على ما فات. ومن يتولاهم الله بعنايته ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي يتلقون بشارات الله بالطرق الثلاث التي حدّدها الآية: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسل رسلاً فيوحى بإذنه ما يشاء، إنه عليّ حكيم﴾.

٤ - دليل الله الحفيظ

ويُستدل من صفة الله "الحفيظ" على وجود الله عز وجلّ. وذلك من خلال الوقائع والأحداث الملوثة التي تجلّت بها صفة "الحفيظ" هذه، عبر تاريخ البشر الطويل.

وصفة "الحفيظ" تعمل أيضاً وفق منهاج وقانون وضّحه لنا كتاب الله القرآن الكريم في ثنايا آياته الكريمة، ووفقاً للمقتضيات الموضوعية أيضاً. ونتساءل: ما دلالة كلمة (الحفيظ)؟

الحفيظ، من حفظ الشيء أي حرسه ومنعه من الضياع. وكلّ امرئ منا يعلم أنَّ الإنسان لا يحرس شيئاً ومنعه من الضياع إلا إذا كان هذا الشيء له في نظره قيمة عالية أو مكانة مرموقة. ونقول قياساً على ذلك إنَّ الله جلّ شأنه لا يُعقل أن يعد بالمحافظة على حياة إنسان ما، إلا إذا كان هذا الإنسان في نظره تعالى يعمل وفقاً لمشئته ويؤدي دوراً أساسياً لتحقيق إرادته. وإلا فإنَّ الله غني عن العالمين.

ثم إنَّ مهمّة حراسة شيء ومنعه من الضياع، ماهي بالأمر الهين. فهؤلاء الأوروبيون تفنّنوا في أساليب حراسة المجوهرات واللّوحات الفنيّة الأثريّة والمستندات الهامة. فاحترقوا أجهزة إنذار مُبكر وأقفالاً معقّدة التركيب.

وبالرغم من جميع احتياطاتهم لحراسة هذه الأشياء، فإنّنا نسمع بين حين وآخر سطو اللّصوص، وتمكّنهم من سرقة بعض الأشياء الثمينة والنادرة. وتوصّف السّلطات إثر ذلك بالضعف والإهمال. أي أنّه مهما تفنّن أولئك في أمر حراسة هذه الأشياء والحفاظ عليها، تظلّ تبدو في خططهم ووسائلهم نقاط ضعف، يستنتج منها أنّها خطط ووسائل الإنسان الضعيف.

ونحن بصدد الكلام عن موضوع ضرورة حراسة شخص محمّد رسول الله قبل أربعة عشر قرناً والذي فاجأ قومه من حوله بادعائه أنّه رسول ربّ العالمين، ودعاهم لمبايعته والانضواء تحت زعامته الرّوحية والعمل مُخلصين على تنفيذ التعاليم التي توحى إليه من ربّه. هذا في وقت كان محمّد (ﷺ) يتيماً وأميّاً ولا يملك مالا ولا اعتياداً. وقد أعلن دعوته في مواجهة من سمّاه قومه حكيماً. وبالفاء! أخرى فإنّ دعوى محمّد (ﷺ) هدّت مصالح جميع الطبقات المتنفّذة في قومه. باستثناء طبقة العبيد المملوكة لطبقة عُليا في المجتمع آنذاك.

والمعلوم أنّ من جُملة الدلائل والبراهين التي قدّمها محمّد رسول الله (ﷺ) على صدق نبوته، هو ادعاؤه أنّ الله عزّ وجلّ وعد بالمحافظة عليه وحراسته من خلال خطابه إيّاه: ﴿وَاللّٰهُ يَعْصَمُكُم مِّنَ النَّاسِ﴾ المائدة ٦٧ - هذا في وقت توعّد الله فيه الكافرين برسالة محمّد بعذابٍ شديد. فمن هنا تأتّت أهميّة تجلّي صفة الله "الحفيظ".

إنّ الحفاظ على شيء ثمين كما رأينا، يستلزم أن تتوفّر لمن يريد أن يقوم بهذه المُهمّة علمٌ واسع وكفاءاتٌ وقدرات. هذا والذي يتدبّر القرآن الكريم يُلاحظ كيف أفادنا هذا الكتاب السماوي بالنهج والقانون الذي تتجلّى من خلاله صفة الله "الحفيظ". ويدعمها قدرات الله الواسعة وعلمه الذي لا تقف دونه حدود.

ولابدّ أن تهفو نفس الإنسان لمعرفة هذا النهج والقانون الذي تتجلّى من خلاله ووفقاً لبنوده صفة (الحفيظ) هذه. خصوصاً وأنّ صاحب هذه الصفة قد

وعد بالمحافظة على محمد رسول الله وحراسته. وإليكم بنود هذا النهج الذي تضمنته الآيات التالية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ، كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ. سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ. لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ، هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ. وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾، فإلى معاني الألفاظ :

ماتغيبُ من الغيب أي الإسقاط. وماتزداد أي مازداده أيام الحمل. والكبير هو الشريف صاحب العظمة والجبروت والرفيع. المتعال هو رفيع الشأن إلى حدٍ لانسبة بينه في شأنه وبين مخلوقاته. وهذه إحدى الصفات التنزيهية الدالة على الاستغناء. فالمقصود من (الكبير المتعال) الإشارة إلى رفعة شأن الله القادر على إفشال جميع مخططات الكافرين. (وسارب بالنهار) من سرب أي مضى. مُعَقَّبَاتٌ من عقب جاء بعقبه أي أن الملائكة يتعاقبون للمحافظة على محمد رسول الله ﷺ - معجم مفردات الراغب - (من وال) من ولي الشيء: قام به، وولي فلاناً: نصره، وولي فلاناً: أحبه - معجم أقرب الموارد - فمعنى (وال) إذن النصير والرفيق والحفيظ.

وعلى أساس من هذه المعاني تتضح البنود العشرة التي تتجلى على أساسها صفة (الحفيظ)، وهذه البنود هي :

أولاً - قوله تعالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ يعني أن علمه يحيط بالأبعاد الثلاثة لكل شيء من الأشياء: الطول والعرض والارتفاع، وبالكمية والهوية والشكل أيضاً.

ثانياً - وقوله تعالى ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يعني أن علم الله تعالى يشمل المشهود من الأشياء، وما هو غيب أيضاً.

ثالثاً - وهو (الكبير) أي صاحب العظمة والجبروت، ويتجلى ذلك في حراسته وحفظه كل شيء يريد حفظه وحراسته.

رابعاً - وهو (المتعال) أي المستغني والذي لانسبة بين غناه وقدراته، وبين غنى وقدرات من سواه. ويتجلى ذلك أيضاً من خلال حراسته وحفظه لكل شيء يريده.

خامساً - وقوله تعالى ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾ بمعنى أنه تعالى لا يخشى ولا يحسب حساباً للمتآمر أهتد علناً على رؤوس الأشهاد، أو تأمر سراً أو أضمر السوء.

سادساً - وقوله تعالى ﴿لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ أي يحرس ويحافظ على من يثبت على طاعة الله فلا يغير ما في نفسه.

سابعاً - قوله تعالى : ﴿وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال﴾ أي إذا أحجم الله تعالى عن تأييد قوم وعن القيام بالحفاظة عليهم فلن يجدوا لهم من دونه نصيراً ولا قريباً ولا حفيظاً.

ثامناً - وقوله تعالى : ﴿الذي يريكم البرق خوفاً وطمئناً﴾ يعني أن على المتآمرين أن يعلموا أن أسباب كل شيء تعود إلى سلطان الله الكبير المتعال.

تاسعاً - وليعلموا أيضاً أن جلال الله مهيمن على كل شيء فالرعد والملائكة يستحيون من خيفته.

عاشراً - وقوله تعالى : ﴿وهو شديد المحال﴾ يعني أنه إن شاء معاقبة الكائدين، يعاقبهم وهم مشغولون في خصامهم ومجادلتهم حول وجوده عز وجل. فيصيبهم بصواعقه، ولا تخطئهم ضرباته، فتدبره وكيده من الثقة والقوة بمكان، بحيث يستحيل أن يحول شيء ما دون نفاذه.

ولنعد الآن بذاكرتنا إلى قصة يوسف عليه السلام. هذه القصة التي أجمعت على تفاصيلها الكتب السماوية والأخبار الأرضية، حتى راح يضرب بها الأمثال. ولنلاحظ من خلالها تجلّي الله "الحفيظ" وضمن المنهاج ذي البنود العشرة الآتية الذكر.

فيوسف رأى رؤيا في حدائنه سنّه. علماً بأن الرؤيا الصادقة وحيّ من وراء حجاب. ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين. قال يا بني لا قصص رؤياك علي إخوتك

فيكيدوا لك كيداً، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وكذلك يجتبيك ربُّك ويُعلِّمك من تأويل الأحاديث ويتمُّ نعمته عليك وعلى آلِ يعقوب، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسَّائلين. ﴿١٠﴾. وهانحن من السائلين.

ونلاحظ أنَّ الله تعالى أنبأ يوسف من خلال رؤياه التي أراه إيَّاهَا عمَّا سيصادفه من تأمر إخوته عليه، ووعده ربُّه بالمحافظة عليه من تأمرهم وشرورهم، وترقيته إلى حدٍّ يخضع معه إخوته ووالده بين يديه.

وتتملَّك الذي يتلو سورة يوسف الدهشة أن يُلقيه إخوته في بئرٍ مُعظَّلة بعيدة عن العمران. وتعثّر عليه قافلةٌ مارةٌ من هناك، وتنقذه، وتبيعه في مصر، إلى أن يستخذه العزيز في بلاطه. وتراوده زوجة العزيز عن نفسه ويأبى أن يعصي ربَّه بالغيب، ويزجُّونه في السجن ظلماً وعدواناً.

ويأخذ في تأويل أحلام السُّجناء إلى حدٍّ يطير معه صيته في التأويل، ويصل ذلك إلى مسامع العزيز، فينادي على يوسف ليؤوِّل له رؤياه المشهورة. ويقنع العزيز بتأويله ويجعله على خزانة التمرين. حيث يتعرَّف إليه إخوته أيام القحط ويأتي بهم ويضمُّهم إلى حاشيته، ليتحقَّق ما وعد الله به يوسف الذي تضمته رؤياه:

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِي سَاجِدِينَ.﴾ ليتأكَّد له أنَّ المقصود من الكواكب الأحد عشر إخوته، ومن الشمس والقمر والداه. وهكذا تبدو للعيان تجلّيات صفة الله (الحفيظ). وبالتالي يثبت من هذه الوقائع والأحداث التي احتوتها قصّة يوسف عليه السَّلام، أقول يثبت وجود الله عزوجلَّ وأنَّ من أسمائه الحُسنى "الحفيظ".

ولانذهب بعيداً في تفصُّلنا للوقائع والأحداث المتعلقة بتجليات صفة الحفيظ. فهذا القرآن الكريم الذي تلوّه يومياً، يُعتبر أكبر مثالٍ حيٍّ محسوس يثبت من خلاله وجود الله "الحفيظ".

فلنعد إلى ما قبل أربعة عشر قرناً من الزَّمان، ونُصغي إلى آيات سورة الحجر التي نزلت في السنوات الأولى للدعوة الإسلامية في مكة المكرمة، حيث يقول الله تعالى فيها: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْكَ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ. لَوْ مَا

تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين. ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين. إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون. ﴿١٩٦﴾

فإن علمنا بأن معنى الذكر في اللغة الشرف والرفعة. تبين لنا أن الله عز وجل يشير هنا إلى أن تعاليم القرآن الكريم هي أساس شرف الإنسان ورفعته. وهذه الآيات الكريمة نصت صراحة على أن الله "الحفيظ" وعدنا بالمحافظة على وحيه القرآني مهما طالت الأيام وتقلب الأحوال وتعددت السنون. وهو وعدٌ إلهيٌّ مُطلقٌ غير مُقيدٍ بقيد، على ما يبدو من ألفاظه. فما هي مناسبة هذا الوعد الإلهي؟ مناسبه مطالبه المكذّبين برسالة محمد

(ﷺ) والمستهزئين بما ينزل عليه من وحي، إلى جانب مُطالبتهم بمشاهدة الملائكة التي تنزل على محمدٍ (ﷺ) بهذا الوحي القرآني، مُطالبته هي من قبيل تعجيزه، وامتهاناً لقدرة الله الذي أرسله بهذا الوحي القرآني.

فهل كان يملك محمد (ﷺ) حق إصدار أوامره إلى ملائكة الله حتى يطالبه الذين كذبوه بمثل هذه المطالبة؟

هذا، وقد اتخذ الله تعالى "الحفيظ" مطالبه هؤلاء ذريعة ليعلن هنا للناس كافة أنه جلّ شأنه لا يُنزل ملائكته إلا بالحق. والحق يعني لغة الأمر المقضي والموجود الثابت والعدل والصدق والموت والحزم والمال والملك، وضدّ الباطل، وإلى ذلك كله فهو اسم من أسماء الله الحسنى. وعليه يكون تعالى قد وضح بقوله ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾.

بنود النهج والقانون الذي يُنزل ملائكته بمقتضاه. وهذه البنود هي:

أولاً - تنزل الملائكة لتنفيذ أمر إلهي مبرم.

ثانياً - وأن يتعلّق هذا الأمر بوجود ثابت.

ثالثاً - وأن يكون هذا الأمر الإلهي عدلاً لا إجحاف فيه.

رابعاً - وألا يتعدّى هذا الأمر نطاق الصدق.

خامساً - وأن يكون متعلّقاً أحياناً بموتٍ أو حياة.

سادساً - أو يكون متعلّقاً بمال ورزق، أو بملك فلان من العباد.

وهو تعالى وقد أوضح النهج الذي ينزل ملائكته بموجبه أضاف قائلاً:

﴿وما كانوا منظرين﴾. أي ينزلون ولا تراهم أعين الناس. كما أضاف

على ذلك وعده الصريح بالمحافظة على وحيه القرآني من خلال قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

وهاقد مضى قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان، وهذا القرآن الكريم الذي أثبت مصداقية مرجعيته في كتابي هذا، لا يزال محفوظاً من أي تحريف أو تبديل أو زيادة أو نقصان، ويتداوله جميع الناس بالتلاوة والإعجاب. هذا بالرغم من جميع الأخطار التي جابهت وجوده سالماً وهدّته بالزوال. وقد تحقّق أمر المحافظة على هذا الوحي القرآني، وذلك مصداقاً لوعده الله "الحفيظ" الكبير المتعال، الله الذي ينزل ملائكته لحراسته من جميع الأخطار التي تتهدده، وما كان ملائكة الله حين ينزلون لمهمتهم بمنظرين.

وهذا عصرنا، وقد اخترعت فيه آلة طباعة متطورة، قد ساعد على طباعة هذا القرآن العظيم بعمليات النسخ. وجميع نسخه مطبوعة على نسخة عثمان التي وزعها على الأمصار.

والمسلمون بالرغم من التخلف الذي وقعوا فيه، فهم يهتمون بطباعة هذا القرآن الكريم بأرقى وأنفس أشكال الطباعة، كما يتوازعون نسخه هدايا بينهم، بل وتباهى الفتيا بتعليقه على صدورهن، وبتزيين الجدران بآياته الكريمة. فهل حدث هذا كله ويحدث ياترى مصادفة واتفاقاً؟ أم يحدث مصداقاً لقوله ووعده عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾؟

فها أنّ الله "الحفيظ" أوفى بوعده الذي وعده في سورة الجمعة. وبعث أيضاً في ﴿الآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أعظم مُجدّدي هذه الأمة، فوضع على يديه لبنة إعادة مجد الإسلام. وأوفى بذلك بوعده الذي وعده في موضع آخر من كتابه ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ - القيامة ١٧ - على يدي هذا المجدّد أيضاً. فسبحان الله عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

وإلى مثال آخر يثبت من خلاله وجود الله "الحفيظ". وهو مثال وعد

الله فيه بحراسة وحفظ نبيّه محمد (ﷺ) ﴿وَإِلَّا لَنَمَسَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَيُفَكِّكُنَّ أَجْزَاءَ أَمْثِلِ الْعَصَمَةِ﴾. هذا الوعد الذي مكّن محمداً (ﷺ) من إتمام رسالته وتوديع أمته بخطية الوداع، ومن ثم توفى الله محمداً رسوله وفاةً طبعية، ووفق نبوءات الكتب السماوية السابقة أيضاً الواردة إحداها في سفر التثنية ١٨/١٨.

ولنطالع الآية (٦٧) من سورة السّجدة التي نصّت على الوعد بالمحافظة

على حياة محمد بن عبد الله (ﷺ)، قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الرّسول بَلِّغْ مَا أَنزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾. وهذا الوعد اشتمل على الأمور الثلاثة التالية:

الأوّل: هو أنّ هذا الوحي قد اشترط على محمد رسول الله (ﷺ) ألاّ ينكصَ على عقبه، وألاّ يتراجع عن نشر وتبليغ دعوة ربّه. وإشارة إلى هذا الأمر ورد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرّسول بَلِّغْ مَا أَنزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

الثاني: والأمر الثاني هو أنّ الله تعالى وعد محمداً في مقابل ذلك بحراسة شخصه الكريم والمحافظة على حياته. وإلى هذا الأمر أشار تعالى بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، ومعنى عَصَمَ الله فلاناً، حفظه من المكروه وروقه.

الثالث: والأمر الثالث الذي اشتملت عليه هذه الآية الكريمة، هو الإشارة إلى قانون قدري مُبرم مسنون. وهو أنّ الله تعالى لا يهدي الكافرين إلى الوسائل الناجحة التي تساعدهم على التّجّاح في محاربة الرّسل الكرام، والفوز عليهم. بل إنّ الله تعالى يُزيغ أفئدتهم وعقولهم ويعمي أبصارهم ويضلّل مُخططاتهم، فلا يدعهم يفلحون في أغراضهم.

فمن هذه الأمور التي اشتملت عليها الآية من سورة السّجدة، ندرك ورود نص صريح العبارة بحراسة شخص محمد اليتيم الأمّي والمحافظة على حياته وتوفيته وفاءً طبيعيّة.

ومن لا يدري بالمؤامرات الخطرة التي حاكها المشركون وسواهم لقتل محمّد (ﷺ) والقضاء على دعوته؟ وهل يشك باحث في أمر نجاة هذا الرّسول الكريم من جميع هذه المؤامرات؟

أفلم يتأمّر المشركون آخر سنوات الدّعوة في مكّة المكرمة، أن يقتلوا محمداً (ﷺ) ويضيّعوا دمه بين جميع القبائل العربية؟ فجمعوا لتحقيق مقصدهم

الدنيء هذا مندوباً عن كلّ قبيلة عربيّة، وأحاطوا سرّاً بدار رسول الله لينقضّوا عليه صباحاً حين يغادر منزله ويقضوا عليه؟

أفلم ترو لنا الأخبار كيف أطلع الله تعالى رسوله الكريم على خيوط مؤامرة هؤلاء، وأمره بالهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجر إليها ويرفقه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وخلال الهجرة وهما في طريقهما إلى المدينة المنورة، طاردوه بقيادة أشهر قفّاء للأثر يومذاك.

وقد كان يُفترض بالقفّاء أن يُطلّ داخل الغار، الذي كان مكشوفاً لناظريه. فلم لم يفعل، بل وتلفت يُمنّة ويُسرة، وأطلق كلمته المشهورة: (إمّا أن يكون محمد داخل هذا الغار، وإمّا أن يكون قد صعد من هنا إلى السماء). سيرة ابن هشام.

فلقد كان من أبسط ما يقتضيه العقل والمنطق في تلك اللحظات الحرجة أن يُطلّ ولو واحد من الذين يطاردون محمداً ليمسكوه ويقتلوه، أن يُطلّ إلى داخل الغار، ولو على سبيل الاطلاع. فلو أطلّ أحدهم لاكتشفوا وجود رسول الله وصاحبه داخل الغار. فمن الذي شلّ أجهزة تفكير هؤلاء المتآمرين؟ إلّا أن تكون ملائكة الله قد شلّت تفكير هؤلاء جميعهم، وأزاعّت قلوبهم وأذهانهم وأعمّت أبصارهم عن ذلك؟

من الناس العفويّين من يزعم أنّ خيوط العنكبوت كانت قد سدّت فوهة الغار. أقول: وهل كان هؤلاء المشركون يجهلون وجود العناكب الكبيرة الهرمة في مثل تلك الأمكنة المهجورة، تلك العناكب التي ما إن يخرق أحدٌ شباكها، إلّا وتسارع إلى ترميم شباكها لاصطياد فرائسها؟

ثم أو لم يقل القفّاء هؤلاء المتآمرين (إمّا أن يكون محمد داخل الغار، أو يكون قد صعد من هنا إلى السماء)؟ ففي هذه الألفاظ حتّ للنظر داخل الغار. فما هذا الجمود في التفكير الذي أصابهم، إلّا أن يحدث بتدخل من ملائكة الله عز وجل؟

وفي داخل الغار، وفي تلك اللحظات الحاسمة، سمع أبو بكر كلمات رسول الله (ﷺ) يقول له، وقد شعر بتغيّر ملامحه: (لا تحزن إنّ الله معنا).

وهل يتلفظ بمثل هذه الألفاظ إلّا من كان على يقين جازم من وعد ربه بإياه بالمحافظة على حياته. هذا الوعد الذي نصّ عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ

يعصمك من الناس». وعلى يقين جازم أيضاً أنّ ملائكة ربّه تنزل الآن لتضللّ أذهان المتأمرين وتزيغ قلوبهم وتعمي أبصارهم؟ هذا اليقين الذي نشأ عن قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾. وعليه، فإنّ دلت هذه الوقائع والأحداث وأمثالها على شيء، فإنما تثبت وجود الله (الحفيظ)، الذي إذا وعد أن يحفظ أحداً من شرور أعدائه ويحرسه، يحفظه ويحرسه بأدقّ الوسائل التي لاتدركها الأبصار. خصوصاً وأنّ الله تعالى هو عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

فمن خلال هذه الوقائع والأحداث التاريخية التي أتينا على ذكرها يتأكد لكل عاقل مفكّر وباحث أنّها جميعها تثبت وجود خالق هذا الكون ومُدبّرّه، وأنّصافه أيضاً بصفة "الحفيظ". وتكون صفة الحفيظ بذلك دليلاً محسوساً من الأدلة التي تثبت وجود الله عزّ وجلّ.



الفصل الرابع - ثالثاً: الأدلة السلوكية المطمئنة

١- دليل الانتظار والترقب

بعدما أسلفت بطرح الأدلة التي تثبت وجود الله تعالى، على شاكلة مايفعله الفلاسفة، ولا باصطلاحاتهم أيضاً. وكنت أستقي أدلتي الثبوتية تما اشتملت عليه أي الذكر الحكيم. الكتاب الذي سبق لي إثبات مصداقية مرجعيته وأنه وحي رب العالمين أوحى به إلى محمد بن عبد الله اليتيم الأمي وخاتم النبيين (ﷺ)، وليكون رحمة للناس كافة إلى يوم الدين.

أقول : إن من مظاهر كمال القرآن الكريم أنه يُمَدِّ المتدبرين في كل زمان ومكان بما يناسب عصرهم من أدلة وعلوم وبراهين مخبأة في ثنايا آياته الكريمة، وليزداد بذلك في أعين الناس مهابةً وتعظيماً. ولاتأتي أدلة القرآن هذه التي يثبت منها وجود الله تعالى الذي أنزلها، هكذا لارابطة بينها. بل سبق لي أن أثبت أنها جميعها مُنزلةٌ وفق منهاج علمي وقوانين. هذا الأمر الذي لم يسبق لأي كتاب سماويّ امتاز به من قبل إنزال القرآن الكريم.

ولأبْد أن المتابع لمواضيع هذا الكتاب قد لاحظ كيف أن نهج الاستدلال على وجود الله تعالى، قد اشتمل على ثلاثة أنواع من الأدلة :
أما النوع الأول : فهو عبارة عن أدلة ذهنية مُستقاة من عناصر طبيعية والتي تولف هذا الكون المادي من حولنا. وهي أدلة تتلاءم مع مُختلف مستويات الأفهام والإدراك. فمنها البسيط ومنها المركب من عناصر عدّة. وكان الغرض من هذا النوع الأوّل من الأدلة، مساعدة عقولنا وأفهامنا على ترجيح اعتبار هذا الكون مخلوقاً، وأنّ له خالقاً أيضاً.

وأما النوع الثاني : من هذه الأدلة، فقد أمدّتنا به الوقائع والأحداث المحسوسة التي تجلّت بها أسماء الله الحسنى، وعدد هذا النوع من الأدلة يوازي عدد أسماء الله تعالى ذاتها.

وأما النوع الثالث : من هذه الأدلة، فهو أدلة سلوكية تتطلب من الإنسان سلوك طريق مُحدّد بغاية التعرّف على خالقه وخالق هذا الكون من حوله. فمن هذه الخطوات السلوكية ماهو سليبي ومنها ماهو إيجاببي.

وهذا النوع السلوكي من الأدلة، ينقل المرء نقلة نوعيّة، وبأسلوب علمي، ليصل به إلى مرحلة الاطمئنان والتيقن بوجود ربّه عزوجل. بل وبالتالي التعرّف عليه ويصل بذلك شاطئ الأمان. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله مع المحسنين﴾ - العنكبوت ٦٩ -

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : لماذا اصطلحت أنا لهذا النوع الثالث من الأدلة اسم الأدلة السلوكية؟

أقول : إنّ كلمة (سلوكية) مشتقة من السلوك. تقول سلك المكان يسلكه سلوكاً : دخل فيه. وكذا سلك الطريق : دخله وسار فيه مُتبعاً إياه. ويُسمى الإنسان حينئذ : السالك. وسلك الشيء في شيء آخر : أدخله فيه، كما نسلك أيدينا في جيوبنا، وقد أورد القرآن الكريم هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿سلكناه في قلوب المجرمين﴾. (محيط المحيط)

وعليه فالسالك هو الإنسان الذي أقدم على خطوات إيجابيّة للوصول إلى أمر انجذب إليه وأراد بلوغه والوصول إليه. وهذا ماقصده بمصطلح الأدلة السلوكية.

وفي الحقيقة فإنّ الأدلة الترجيحية، ماهي إلّا حصيلة مُحاكمات ذهنية واستنتاجات لا يكون من شأنها أن تصل بالإنسان إلى مرحلة الاطمئنان القلبي، بل تصل به إلى مرحلة ترجيح ذهنيّة ليس إلّا.

وعلى سبيل المثال، فإن وقف أحدنا يبرهن لآخر عن وجود إنسان مافي أحد البيوت، وقدم له مئات الأدلة على ادعائه. فلا توازي أدلته هذه ماثدته مشاهدته هذا الإنسان المبرهن على وجوده ، بأمّ عينيه.

وهذا الفرق في العلم اقتضى أن يقدم الله تعالى للمحقق أدلة من نوع آخر وهو ماسمّناه بالأدلة السلوكية التي تتجاوز مرحلة المحاكمات الذهنية وتنقل إلى مرحلة الاطمئنان القلبي. علماً بأنّ الأدلة السلوكية أنواع :

فمنها ماانقده لإنسان يسعى للمعاجزة فحسب، ومنها ماانقده لإنسان كافر يطلب الحقيقة . ومنها مايلزم المؤمن بسلوكه بعد إيمانه.

ولنبداً بالكلام عن الدليل السلوكي الذي يقدم لإنسان كافر بالإسلام، ومقلد لآبائه وأجداده دون محاكمة منه لعقائدهم، والذي يريد المعاجزة في أسئلته، الذي يرى كل آية فلا يؤمن بها، ويشابر على المطالبة بمشاهدة ما ثبت وجود الله وصدق رسوله الكريم. وهذا القسم من الناس وصفهم الله تعالى في الآية (١٧٩) من سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

ومن مظاهر رحمة الله الواسعة أنه تعالى لم يهمل تقديم الدليل المناسب لهذه الفئة الكافرة المقلدة من الناس، بل قدم هؤلاء دليلاً سلوكياً، إن سعوا للاستفادة منه وهبوا البصيرة وكانوا من المؤمنين.

وخلاصة هذا الدليل السلوكي أن تطلب من هذا القسم من الناس أن يسلك الواحد منهم موقف الحياد من دعوة الحق ومن أهلها، وأن يُراقبوا تطورات الأحداث عن بُعد، فلا يلزمون جانباً دون جانب. وأن ينتظروا ظهور النتائج. فلا بد أن تكون العاقبة للمتقين. أما إذا لم يلتزموا الحياد، وانضموا إلى صفوف من يُقاتل جماعة المؤمنين أصحاب دعوة الحق ويشاققوا الرسول، فلا بد أن يُنزل الله جل شأنه العذاب بساحة هؤلاء المكذّبين المتعجلين.

والله عز وجل عندما أوصى هؤلاء بسلوك طريق هذا الدليل، فليكشف لهم عن واسع رحمته عز وجل. والمؤسف أن أكثرية هذا القسم من الناس يقفون مواقف غريزية حيوانية لأن لهم قلوباً لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ، بل هم أضلّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ.

هذا الدليل السلوكي تضمنته الآية (٢١) من سورة يونس وهو قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ، فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾. وهو تعالى أراد هنا الكلام من خلال (ويقولون) عن فئة المقلدين المعاجزين. وقصد من قولهم ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ استعجالهم للعذاب، ليكون في نظرهم دليلاً على وجود الله وصدق رسوله الكريم. ذلك أن (الآية) تعني لغة الدليل والبرهان. بمعنى أنهم يطالبون باستعمال العذاب الذي أنذرهم به رسول الله ﷺ. ولم يكن القصد من طلب إنزال

(آية)، طلب إنزال آية قرآنية. فالآيات القرآنية كانت تنزل تترى كل يوم، وتصل أخبارها إلى مسامع هؤلاء الكافرين أيضاً. والمقصود من الآية هنا تقديم دليل وبرهان من ربّه. واستعير الدليل هنا للعذاب.

بدليل قوله بعد ذلك: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي أنّ توقيت إنزال العذاب بكم هو أمرٌ غيبيّ، ولا يعلم الغيب إلا الله. ولا يُجلّيه إلا هو. وقد أتى جلّ شأنه بعدها بفاء الاستئناف وقال: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾. وهذه الألفاظ اشتملت في حقيقتها على الدليل السلوكي.

وكأنّ الله عز وجلّ يتوجّه من خلال دليله السلوكي هذا للسؤال من فئة المقلّدين هؤلاء، ويقول لهم: لماذا تستعجلون نزول العذاب؟ فإن نزل بكم العذاب يقضي عليكم وأنتم في بعدٍ عن تبيّن وجود الله وصدق رسوله.

ومن واجبك أن تعالجوا الأمر بمنطقيّ وحكمة فتسلّكوا على الأقلّ سبيل الانتظار والحياة في هذه القضية.

والانتظار في اللغة من انتظر أي ترقّب وتوقّع، أي أن تسلكوا سبيل الترقّب والتوقّع انتظاراً لظهور نتائج تطورات الأحداث، فيعود في أيديكم حينذاك دليل يبيّن واضح يثبت منه صدق الإعلان عن وجود الله الحيّ القيوم الذي بعث محمداً برسالة الحق. ويعود المجال أمامكم فسيحاً لتؤمنوا فلا تحسروا دنياكم وآخرتكم. فإن ثبت العكس فلا تكونون بانتظاركم وحياكم قد خسرت شيئاً، بأيّ حال من الأحوال.

ولم يكف جلّ شأنه بهذا الوجه من الرحمة، بل أضاف قوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾. وحرف (إنّي) أتى به تعالى هنا للتأكيد وليقول بالفاظٍ أخرى أنّ رسوله الكريم مضطربٌ لظهور نتائج الأحداث أكثر ممّا أنتم مضطربون.

والمعنى أن أيّها الحمقى، مادام رسولنا مُنتظراً لظهور النتائج والعواقب، فلماذا يثقل عليكم سلوك سبيل الترقّب والانتظار؟

المهمّ هو أن المؤمن الذي يصادف إنساناً تقليدياً لا يستعمل مواهبه ولا حواسه، ويلاحظ أن هذا الإنسان يُعاجز بطلب الدليل على صدق ما يدعوه إليه. فلا وسيلة لديه إلاّ بإلزامه بسلوك سبيل هذا الدليل السلوكي ومطابقته بالحياة والانتظار. والدعاء له من الله الهادي أن يُلهمه سبيل الرشاد.

فلو وقف أبو جهل من دعوة محمد رسول الله موقفاً محايداً، وانتظر تطورات الأحداث ونتائجها، فلربما كان صان نفسه من المصير الذي آل إليه في معركة بدر الكبرى. وهذا ابنه عكرمة الذي تحقق فتح مكة في حياته قد كتبت له عاقبة النجاة والهداية.

وهكذا فالمقلد الذي لا يستعجل العذاب ويتقرب عواقب الأمور ويسلك سبيل هذا الدليل السلوكي، تشمله رحمة الله تعالى ويكون من المهتدين.

هذا الدليل السلوكي ورد في عدة مواضع من كتاب الله العزيز اقتضاها التسلسل الموضوعي. فقد أورده تعالى في الآية (٧١) من سورة الأعراف وبتوسّع قليل عمّا رأيناه، حيث قال: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، فَأَتَانَا بِمَا تَعَدَّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ - أَيِّ بَمَا تَعَدَّنَا مِنَ الْعَذَابِ - قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ، أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ. فَأُنَجِّنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ.﴾

وأدلى تعالى بهذا الدليل السلوكي بأسلوب آخر في الآية (١٠٢) من سورة يونس حيث قال: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَاتَغْنِي الْآيَاتِ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ. فَهَلْ تَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ، قُلْ انْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ.﴾ بمعنى أن الباحث عن الحقيقة، يدأب على تقليب الأمور على أوجهها، ويراقب ماتأتي به السموات والأرض من تطورات وتقلبات، فلا يستعجل عذاب الله، إلا أن يكون كافراً مقلداً لأبائه وأجداده ويُعاجز رسل الله تعالى. ولا يعتبر بعواقب الأمم من قبله ولا عصيرهم السيء الذي آلوا إليه: ﴿فَهَلْ تَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ.﴾ ومن ثم حذر الله تعالى هؤلاء ونصحهم بالأخذ بها بسلوك هذا الدليل السلوكي رحمة بأنفسهم وقال: ﴿قُلْ انْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ.﴾

وكذلك أدلى تعالى بهذا الدليل السلوكي في الآية (١٢٢) من سورة هود، حيث قال: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَائِكُمْ، إِنْ أَعْمَلُونَ. وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ. وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.﴾ أي اعملوا على ماتعتقدونه ونحن نعمل على ماتعتقد. ﴿وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ أي والزموا

جانب الحياد وراقبوا تطورات الأحداث من بعيد، ونحن بانتظار عواقب الأمور أكثر مما أنتم فيه من لهفة واضطراب. ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ﴾ أي أنّ النتائج بيد الله تعالى يُحْلِيهَا لوقتها متى شاء. ومادام الله موجوداً، فالمعقول أن يُرجع الأمر كله لله عز وجل. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وبذلك نكون قد أحطنا علماً بالدليل السلوكي الأول الذي يهب السائل وفق مضمونه علم اليقين. والذي يواجه به الإنسان المؤمن الإنسان المكذّب المقلّد ممن يقولون إنا وجدنا آباءنا على ملّة وإنّا على آثارهم مُّقْتَدُونَ. أولئك الذين لا يستعملون عقولهم، ولا يستفتون أفئدتهم. فمن واجب المؤمن أن يطالب ويحث هؤلاء للوقوف موقف الحياد المراقب، وإلا فلا تجدي مع هؤلاء الجهود والأوقات تبذل لغير هذا السبيل.

٢ - الدليل الثاني - دليل الاستعانة بالدعاء

والدليل السلوكي الثاني الذي يثبت منه وجود الله عز وجل. هو دليل سلوك طريق الدعاء. وقد صرّحت بهذا الدليل السلوكي الآية (٦٠) من سورة غافر، من خلال قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. أي أنّ الذي يدعو الله أن يكشف له عن وجوده متذللاً ومتواضعاً، يستجيب له الله ويبلغ بعلمه في هذا المجال عين اليقين، إنّما ينبغي أن يدعو غير مستكبر، ويمجيه ربه وفق مناجاة وقانون.

وهذا المنهاج والقانون اشتمل عليه قوله تعالى في نفس الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

فما معنى الدعاء في اللغة العربية بادئ ذي بدء؟ تقول دعا الله يدعوهُ أي رغب إليه وابتهل بالسؤال بين يديه ورغب فيما عنده من خير (محيط المحيط) فالمقصود من (ادعوني) ارغبوا إليّ، وميلوا للسؤال مني، وابتهلوا بين يديّ، وارغبوا فيما عندي من خير.

والملاحظ أنه تعالى إذ قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ﴾ أتى بصفة الربوبية. والرّب في اللغة هو الذي يطرّ الشيء حالاً بعد حال حتى يصل به مرتبة الكمال

والتمام^(١) . إشعاراً منه تعالى إيانا أنه يدفعنا لسلوك طريق الدّعاء بدافع ربوبيّته . فإن استنكف المرء عن سلوك هذا السّبيل، يُعتبر في نظر ربّه عزّوجلّ مُستكبراً، ويحقّ عليه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، أي صاغرين.

والسؤال المطروح هنا: لآية فئة من النّاس وُجّه هذا الدليل السلوكي؟ وجوابه يبدو واضحاً من كلمة (ربّكم). ذلك أن من نقلناه ذهنياً إلى مرحلة ترجيح وجود الله تعالى عن طريق أدلتنا الذهنيّة التي سبق أن طرحناها. فقد أصبح هذا الإنسان بحاجة إلى دليل ينقله نقلة نوعيّة على طريق الإيمان بالله والتّثبت من وجوده عزّوجلّ.

وهذا الدليل السلوكي أي سلوك طريق الدّعاء أي الرّغبة والعودة إلى الله الرّب والابتهال بين يديه متذللاً متضرعاً، وطلب التّثبت من وجوده ونيل ماعنده من خير، هو الذي سيساعد هذا الإنسان كليل بين يديه وفي متاوله، يساعده على الانتقال النقلة النوعيّة المطلوبة.

ولنلاحظ أن الله جلّ شأنه لم يعلّمنا أن ندعو طالين رؤيته تعالى، بل علّمنا الاستفادة من ربوبيته بطريق الدّعاء. لاستحالة رؤية الله عزّوجلّ.

فهو قال: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. بمعنى أن أبصار الإنسان لا تدرك إلا الأشياء المادية ذات الحيز المنظور. بينما الله تعالى منزّه وجوده عن التحيز المادي للطافته عزّوجلّ ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. لذلك يستحيل على عين الإنسان رؤية بارئها. وهو تعالى، مع لطافته فهو يدرك هذه الأبصار لكونه (الخبير) أي الذي يملك وسائل رؤية هذا البشر المخلوق.

وكأنه تعالى يخاطبنا بقوله : لاتعجبوا إن كنت لم اعلمكم سلوك طريق رؤيتي. فذاتي لأتري مباشرة بل أكشف عن وجودي بكلامي معكم وبآثار تجلّياتي.

والحقيقة المعلومة هو أنها توجد في عالمنا المادي أشياء كثيرة لأتري إلا بآثارها. لذلك، لانستغرب أن يقول تعالى عن ذاته: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ

(١) - أقرب للوارد

يدرك الأبصار... ﴿١﴾. فالمغناطيس على سبيل المثال لا يدرك وجوده إلا من خلال جذبته لبرادة الحديد.

ثم إنَّ الحواس الخمس ليست هي وحدها وسيلة التحقق من وجود شيء ما. فهناك طريق القياس مثلاً. فنحن لاندرِك أنَّ فلاناً غاضباً بإحدى حواسنا الخمس. بل ندرِكه من خلال ما يرتسم على وجهه من قَسَمات. وقيسوا على ذلك علامات الألم والسرور وسواها من الحالات. كذلك فإنَّ الأشياء التي تدرك بالحواس، منها ماتدرِكه العيون ومنها لاتدركه العيون كالإحساس الداخلي للإنسان.

وعليه فالله جلَّ شأنه يستحيل علينا أن ندرِكه ونراه بأبصارنا. وكل مانستطيعه، فهو إدراك وجوده من خلال تجلّياته وكلامه. ولاتعتبر رؤية الذات الإلهية شرطاً للإيمان به تعالى. وإنَّ من الجهالة بمكان أن يشترط امرؤ رؤية الله تعالى للإقرار بوجود ربّه عزوجلّ. ومن هنا تتجلّى لأعيننا أهمية هذا الدليل السلوكي الذي يدور مضمونه حول الدّعاء طلباً لإثبات وجود الخلاق جلَّ شأنه للإيمان به.

ذلك أن الإنسان الذي رجّحت الأدلة الذهنية لديه وجود خالق لهذا الكون وأحبّ الانتقال من تلك المرحلة نقلةً نوعيّةً يعلم معها حقّ العلم وجود هذا الخالق، لا يجد أمامه سوى الأخذ بهذا الدليل السلوكي الثاني ونهجه وقانونه.

أن يقف بين يديّ ربّه يدعوه أن يكشف له عن وجوده تعالى، وآخذاً بحسبانه عند الدّعاء أنّه وقف بين يدي الله الحيّ القيوم الذي لاتأخذه سِنَّة ولا نوم، مالك السموات والأرض وما بينهما، وعالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. أن يتصوّر عظمة الله جلَّ شأنه وذلك على ضوء ما أطلعنا القرآن الكريم عليه من أسماء حُسنى لله. ومُعترفاً بضعفه بين يديه وباحتياجه إليه عزوجلّ. والله تعالى نفسه هو الذي علّمنا أن ندعو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فإن استوعب هذا السّالك الداعي جميع هذه التّصوّرات، معترفاً بذنوبه، ومتواضعاً مُتَهَلِّئاً، فلا بدّ أن يستجيب له ربّه دعاءه، فلا يتركه يرتدّ خائباً، إنّما على هذا الإنسان السّالك أن يضع بحسبانه أنَّ ربّه يجيبه ولكن من مُنطلق كونه حكيماً خبيراً.

فهذه هي عناصر نهج وقانون الدعاء الذي يتطلبه هذا الدليل السلوكي.
فإن سلك المرء طريقاً يغيّر هذه العناصر وهذا النهج في دعائه، ومافقد الله حق قدره عند الدعاء، فلا ينبغي له أن يتأفف من بعد ويقول هاأني دعوت، فلم أر شيئاً يذكر. ذلك لأنه حقّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

والذي يستكبر عن الدعاء متذلاً بين يدي ربه، فمن الأفضل له أن يلتزم الحياد والترقب تجاه الدعوات السماوية، ويستفيد بذلك من بركات الدليل الأول السلوكي.

٣. الدليل الثالث - دليل حقّ اليقين

إنّ من يتلو سورة التكاثر، لابدّ أن يلاحظ من خلال قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. كلاً لو تعلمون علم اليقين. لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ. ثم لترونها عين اليقين. ﴿أَنْ يَلَاظَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ اصْطِلَاحُ (عِلْمُ الْيَقِينِ، وَعَيْنُ الْيَقِينِ). وَفِي آخِرِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ قَالَ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ اصْطِلَاحُ (حَقُّ الْيَقِينِ).

إنّ هذه الاصطلاحات القرآنية تنبع عن حقائق واقعية، وهي أن هذه المصطلحات تقسّم العلم إلى ثلاثة مستويات. فكلمة (يقين) تعني إزاحة الشك والريب بطريق النظر والاستدلال في الأمور. وكلمة (علم) تفيد معنى الإدراك الإجمالي أو الجزئي بصورة عامة. ويكون معنى (علم اليقين) أي إزاحة الشك عن أمر من الأمور بطريق النظر والاستدلال بصورة إجمالية. وتعبّر آية (كلا لو تعلمون علم اليقين) في هذه الحالة الإشارة إلى أن علم اليقين هو مجرد عملية محاكمة ذهنية لأقلّ ولاأكثر. أي لو تحاكمون الأمر ذهنياً ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾. من هذا ندرك أنّ الدليل السلوكي الأول الذي دعا إلى الحياد والترقب، يكون قد دعا إلى إجراء عملية ذهنية بنتيجة هذا الترقب والحياد والانتظار للخروج بنتيجة محدّدة تكون من قبيل علم اليقين.

ثم إنّ اصطلاح علم (عين اليقين) الذي تضمّنته الآية: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّ عَيْنُ الْيَقِينِ﴾ هو مرتبة علم أسمى من مرتبة (علم اليقين) لتدخل عنصر الرؤية فيه.

وهو العلم الذي اعتمده الدليل السلوكي الثاني كنتيجة مؤكدة لسلوك طريق الدّعاء. وهو ماسيره النائم في منامه بعد الدّعاء والاستكانة إلى النّوم. وأما الدليل السلوكي الثالث الذي نحن الآن بصدد الكلام عنه فيدخل في أعلى مراتب العلم، وهو ما اصطلاح القرآن الكريم على تسميته في سورة الواقعة (علم حقّ اليقين).

ومجدّد زماننا تبّهنا إلى هذا التقسيم لمراتب العلم، وضرب لنا مثلاً على ذلك أيضاً. وهو أن المرء إذا شاهد دُخاناً من مكان بعيد. يستدل نتيجة محاكمة ذهنية، ومن خلال ملاحظته يومياً انبعاث الدّخان عن النّار، يستدلّ من ذلك وجود نار في مكان الدّخان المتصاعد وعلمه هذا علم اليقين. فإن سار هذا الشخص، واقترب من موقع الدّخان المتصاعد، وشاهد بأَم عينه النّار المشتعلة هناك، فعلمه ذو مرتبة أسمى من علم اليقين، وقد أطلق القرآن الكريم عليه مُصطلح علم (عين اليقين). ولنفرض أن هذا الإنسان شاهد النّار فمدّ إصبعه يتحسّس حرارتها ولسعته بلهيبها. فعلمه الجديد الحاصل هو أسمى مراتب العلم، وهو ما اصطلاح له القرآن الكريم مُصطلح علم (حقّ اليقين). وهو علمٌ يتقفي معه كلّ شكّ وريب. ويكسب الإنسان حين الحصول على مرتبة هذا العلم اطمئناناً كاملاً. وإنّ دليلنا السلوكي الثالث هو من قبيل الدعوة إلى تحصيل هذه المرتبة من العلم. وهي الوصول في موضوع الثبّت من وجود الله تعالى مرتبة علم (حقّ اليقين).

من هذا ندرك السّبب في توجّه الله عزّ وجلّ بتقديم هذا الدليل السلوكي الثالث في خطابه الموجه إلى عباده المؤمنين الذين قطعوا مرحلي العلم السّابقتين، وكانوا من المؤمنين بوجود الله خالقهم نتيجة مُحاكمات ذهنيّة ودُعاء ورؤية عينيّة، وعادوا بشوق إلى معرفة ربّهم معرفة (حقّ اليقين). وقد شاء الله عزّ وجلّ أن يأخذ بأيدي هذه الفئة المؤمنة ويُسبغ عليهم من عطائه ونعمائه ويجعلهم من المقرّبين لديه. وهكذا تطمئن قلوبهم برّبهم وتأنس بعطاياه ولا يعود يساورهم أي شكّ أو ريبٌ بوجوده تعالى ويكونون بالتالي من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وذلك هو الفوز المبين.

وقد اشتملت على الدليل السلوكي الثالث الآية (١٨٦) من سورة البقرة التي قال تعالى فيها، من بعد كلامه عن فريضة الصّوم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ

عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون. ﴿١﴾. فما معنى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾؟
إنّ الواو هنا هي واو العطف. بمعنى إذا صام الذين آمنوا مستجيبين
لفريضة شهر الصيام وسألوك أن تبين لهم دلالة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ هذه الألفاظ
التي ذيل تعالى بها الآية هناك، وهي تتضمن الحكمة من الصّوم، ﴿فإني قريب
أجيب دعوة الداع إذا دعان...﴾.

وسألك: من سأل أي استخير. فسألك تفيد هنا الاستخبار لتعدي
الفعل سأل إلى المفعول الأول بنفسه، وتعديّه إلى المفعول الثاني بحرف (عن).
ونبهنا اللغوّيون إلى أنّ السؤال. إذا كان السائل عبداً لله، فإنه يفيد الاستخبار في
هذه الحال إلى جانب الاستخبار بخضوع وتذلّل لله عزوجلّ، وهو طلب الأدنى
من الأعلى على حسب ماورد في معجم محيط المحيط وفي الجرحاني. أي يكون
السؤال من العبد سؤال اللاهف المحتاج والمحّبّ الباحث عن محبوبه.
وهذا المعنى الذي وضّحه اللغوّيون، أشار إليه لفظ (عبادي) الوارد في
الآية الكريمة، وهو مشتقّ من عبد الله أي أطاعه وخضع له وذلك له والتزم شرائعه
وخدم دينه ووحده (محيط المحيط).

والله تعالى لم يقل هنا (وإذا سألك عبادي عن عطائي)، بل قال ﴿وَإِذَا
سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾. وهذه مسألة لها أهميتها، فالمقصود من السؤال التعرف إلى
الله تعالى، وليس شيئاً آخر سواه، والمقصود هو الاطمئنان إلى مواصلته، وليس
القصود طلب شيء معين من الله عزوجلّ. هذا السؤال ليؤكد تعالى به لهفة المؤمن
للتعرف إلى ربه بوسيلة التعبّد بصوم شهر رمضان المبارك، صوماً حقيقياً وليس
صوماً صورياً تقليدياً. صوماً يمضي الصائم فيه خاضعاً لله، ومُلتزماً بأوامره،
ومثابراً على الدعاء والتضرّع والتذلّل بين يديه، وصابغاً سلوكه اليومي بصبغة
شرعه القويم، ومحاذراً أن يبدّر عنه في آية حركة أو لحظة من اللحظات بادرة
شرك بالله جلياً كان أو خفياً. وينطبق عليه حينئذ دلالة لفظ (عبادي) الوارد في
آية هذا الدليل. فالعبد في اللغة كما بيناه من عبد أي أطاع وخضع وذلك وخدم
والتزم الشريعة وكان من الموحّدين (محيط المحيط).

فلما انتهى جلّ شأنه من قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ أضاف
قائلاً : ﴿فإني قريب﴾. ولم يقل (بلغ عني أني قريب)، بل أتى تعالى بالفاء

الرابطة لجواب الشرط قاطعاً بها الكلام السابق، ومستأنفاً حقيقةً جديدةً وقائلاً: ﴿فإني قريب﴾.

أي أنّ هذا العبد السائل إذا توسّل وسعى إلى لقائي، فلاحاجة لوسيط يتوسّط بيني وبينه على اعتبار أنّي قريب أسمع توسّلاته وتلّهب فؤاده للقائي. فلا تفوتني همسة من همسات لسانه ولا نبضة من نبضات فؤاده، على هذه الصّورة جاء ربنا عزوجلّ يطمئن عباده المؤمنين الالاهفين للقاءه ولمعرفته من أنّه ماهو كالمحبيب أو المعشوق الذي لاتهّمّه مشاعر مُحبّية وعُشّاقه، بل إنّ الله يعزّز عليه أن تفتقدوه فلا تجدونه. (فإني قريب) من هؤلاء الالاهفين إلى معرفتي والتقرّب مني. فليحسنوا ظنّهم بي، وليسلكوا سبيلي قُدماً وهم لا يساورهم شكّ في أمر تجاؤبي معهم. وأضاف جلّ شأنه قائلاً: ﴿أجيب دعوة الدّاع إذا دعان﴾. فأنتى بفعل (أجيب)، والإجابة في اللغة العربية تعني الحوار والردّ على السؤال والإفاضة على السائلين بالعطاء الجزيل.

وعلمنا أنّ فرض صيام شهر رمضان المبارك، أتبعه الله تعالى بهذه الآية الكريمة تشرح ما ينبغي أن يكون عليه حال الصائمين حتى يستفيدوا من بركات هذا الصيام. ولذلك نلاحظ أنّه تعالى اشترط لإجابة السائلين إلى سؤالهم شرطين أساسيين هما :

الشرط الأول : بقوله تعالى : ﴿فليستجيبوا لي﴾. والاستجابة إن كانت من جانب العبد تعني الطّاعة منه لله عزوجلّ. وإن كانت من جانب الله لعبده، تعني الردّ على السؤال وإجزال العطاء. والمقصود من ﴿فليستجيبوا لي﴾ أن يُطيعوني بصورة تحقّق مشيئتي وإرادتي، كما أشار الجارو المجرور (لي) إلى ذلك. ذلك أنّ الله تعالى لم يقل (فليطيعوني)، بل قال (فليستجيبوا لي)، واللام هنا لام التّملك وهي التي قلبت المعنى إلى ما ذكرت.

ثم إنّ الطّاعة في اللّغة تعني الانقياد والموافقة، تقول : طاع له، وطاعه، أي وافقه على مشيئته ورأيه، فلم يُخالقه، والطائع اسم فاعل، وهو المتّبّع بمحض إرادته، غير مُكره في موافقته (محيط المحيط).

وعليه فإنّ شرط (فليستجيبوا لي) معناه فليطيعوني وفق إرادتي ومشيتي، ولو خالف ذلك ميولهم وعواطفهم. وأن تكون إطاعتهم لي عن قناعة وإرادة وتصميم من غير إكراه، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ طاعة العبد لربه

واستجابته له تعني من الوجهة العملية تطبيق جميع مانصّ عليه كتاب الله العزيز من وصايا وأحكام. وهذا أمرٌ يلزم هذا العبد المؤمن أيضاً بالتفقه في الدين. ولا شك أنّ إهمال أيّ عنصرٍ من العناصر التي أوردناها، غالباً ما يؤدي إلى عدم استجابة الله للطالبين.

والشرط الثاني - عبّر عنه تعالى بقوله : ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾. ومعنى الإيمان لغة الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان، أي أنّ من قطع شوط الإيمان بوجود ربه بالأدلة النظرية، وشاء أن يتعرّف على ربه بصورة عملية. فمن الضروري له أن يسأل ربه ذلك وهو موقنٌ من صميم فؤاده بوجود ربه، وليسأل سؤال العاشق الوهّان إلى لقاء محبوبه، مندفعاً إلى ذلك بكلّيته وموقناً أيضاً أنّ ربه سيستجيب له.

وانتهى تعالى من ذلك كلّه ليقول : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾. ولعلّ حرفٌ مُشَبَّهٌ بالفعل ينصب الاسم ويرفع الخبر. ومن معانيه الترجي والتوقع، وقد استعمل هنا بهذين المعنيين. أي أنّ على السّالك أن يدعو راجياً قبول سؤاله متوقّفاً أن يجد صدهاء. وكلمة (يرشدون) من رَشَدَ المرء أي اهتدى. وأرشد الغلام بلغ سنّ التمييز. واسترشد : طلب الرشد واهتدى.

أي أن (لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) جاءت للتوضيح، على شاكله الآية (٦٩) من سورة العنكبوت : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْخَسِنِينَ﴾. أي مع الذين يسعون إلينا مُحسنين سلوكهم ومجاهداتهم للتعرف إلى ربهم.

ونخلص من ذلك إلى القول : إن مجرد تلفظ المؤمن بلسانه بالإيمان بالله وإقراره بذلك في قلبه إن هو إلّا خطوة أوليّة يخطوها المؤمن وإلا فإن معرفة الله والتقرّب إليه تحتاج من هذا المؤمن أن يلتزم بشروط هذا الدليل السلوكي الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، وإلا فإنّ إيمانه هذا لا يمنحه معرفة حقّ اليقين والاطمئنان وبلوغ شاطئ الأمان.

ولابدّ لي من التنويه هنا إلى أنه لا ينبغي لنا أن نفهم من قوله تعالى (إني قريب) أنّ ذات الله عزوجلّ هي بجانبنا تلامسنا، حتى لا يتعارض ذلك مع قوله تعالى في سورة المعارج : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. ذلك أنّ الله عزوجلّ قريبٌ منا بعلمه، وليس بذاته.

وتعالت ذات الله عن ذلك. أولم نقرأ أيضاً قوله تعالى في الآية (٦٧) من سورة الزمر قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فهو تعالى قريبٌ منا بوسائل علمه التي لا تدرك والتي تمكنه من أن يعلم سرّنا وجهرنا وأخفى من ذلك أيضاً، فلا تغيب عن علمه شاردة ولا واردة. والله أعلم بحال المؤمن السائل السائل، من علم هذا السائل نفسه، لقربه منه بعلمه، وإلا لم يكن ليشترط عليه هذه الشروط.

ونخلص إلى القول أيضاً: إنّ العلم في حقيقته مراتب ثلاث هي : علم اليقين، وعلم عين اليقين، وعلم حقّ اليقين، وهذا التقسيم للعلم أتى به القرآن الكريم كحقيقة واقعية قبل أربعة عشر قرناً من الزمان. ومادام القرآن الكريم هو مرجعنا في هذه الأمور، فلنعلم أنه قسم العلم هذا التقسيم العلمي، واصطلح له هذه المصطلحات.

والأدلة القرآنية الجدلّة التي أدليت بها كانت من قبيل علم اليقين. فهي تساعد على انتفاء الشك بطريق الاستدلال الذهني العلمي وترجح وجود الله عز وجل.

ثم إنّ الأدلة القرآنية المستقاة من أسماء الله الحسنى هي من القسم الثاني من العلم وهو علم عين اليقين، لتدخل عنصر الرؤية فيما ذكرت ضمن أدلة تثبيت وجود الله عز وجل.

أمّا الدليل السلوكي الثالث فإنّ تعلّقه بالمرتبة الثالثة من العلم وهي مرتبة الحصول على علم حقّ اليقين. التي يبلغ السالك عندها حالة ماسمّاه القرآن الكريم بحالة النفس المطمئنة، التي تنساب نفس هذا المؤمن بعدها نحو ربّها انسياً لا رجعة معه للشك بوجوده بحال من الأحوال. وهي المرحلة التي عبّر عنها الله جلّ شأنه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

ولا بد أن نكون جميعاً قد أدركنا من خلال مُعطيات هذا الدليل السلوكي أنّ باب السّماء مفتوح على مصراعيه للمؤمنين السالكين دربه، السّاعين إلى معرفة ربّهم عز وجل. إنّما لا يكفي للمؤمن أن يقول أسلمت بلسانه،

وأن يوقع على بيعته. أو لم نقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا، قُلْ لَمْ تَؤْمِنُوا بَلْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ إِلَى قُلُوبِكُمْ﴾؟

كما أنَّ علينا أن نعلم أنَّ آية : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي، فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ليس المقصود بها مجرد الحث على الدعاء والطلب منه تعالى، بل المقصود جرّ هذا المؤمن إلى مرتبه علم حقّ اليقين، إلى حالة النفس المطمئنة وشاطئ الأمان.

مع الملاحظة أنَّ الله تعالى لم يشترط في الدليل السلوكي الثاني تلك الشروط الثقيلة التي اشترطها على المؤمن بوجوده في الدليل السلوكي الثالث. لاختلاف مقتضيات الدليلين والمرتبتين من العلم. ذلك أنَّ الله عزوجل يريد أن يحقق التجانس بينه وبين عبده المؤمن، وهو عنصر القداسة، يريد أن يدخل هذا المؤمن السالك في زمرة القديسين وليبلغ به مرحلة العُرفان وهي أسمى المراتب في نظر العارفين.

وهكذا فلا ينبغي أن نفهم من السؤال في ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ..﴾ أنه مجرد الاستخبار، بل الاندفاع على طريق المعرفة الإلهية اندفاع الأطفال الصغار الذين يسألون باكين مضطربين : أين أمي وأبي؟ فلا يطمئنون إلا بعد لقاء والديهم والخلود إلى أحضانهم، ليستمتوا منهم العطف والحنان.



الفصل الخامس - المقصد من خلق الإنسان

١ - محصلة الأدلة السلوكية

تبين لنا حتى الآن من خلال الأدلة السلوكية التي ثبتت منها وجود الله عزوجل، أن الدليل السلوكي الأول اعتمد في استدلاله علم اليقين، وأن الدليل السلوكي الثاني اعتمد في استدلاله علم عين اليقين. على حين اعتمد الدليل السلوكي الثالث علم حق اليقين.

وفي الوقت الذي اختص فيه الدليلان الأول والثاني بفئات غير مؤمنة، فقد اختص الدليل الثالث بصفة المؤمنين، إشعاراً منه عزوجل لهم أن مجرد التلفظ بالإيمان، ولو تأتى هذا الإيمان عن استدلال بدليل ذهني، فلا يعد هذا الإيمان كافياً في نظر الله جلّ شأنه. فلا بُد من العمل على تعاليم الله وأن يكون الهدف من ذلك معرفة الله تعالى والتقرب إليه، وليسعد المؤمن بتلقي بشاراته وأعطياته، ويبلغ بذلك في إيمانه حق اليقين.

وحينذاك فقط يشمله لفظ ليعبدون من قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ أي ليعرفوني. فالله تعالى لم يخلق الجن والإنس لمجرد طاعته والخضوع له وخدمة دينه والتزام شرائعه وتوحيده. ذلك أن الله تعالى بغنى عن ذلك كله. بل خلقهم لمقصد أسمى وهو أن يعرفوه ويعظموه ويتقربوا إليه ويواصلوه.

هذه الحقيقة حثّ المؤمن للوصول إليها آية فريضة الصوم: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان، فمن شهد منكم الشهر فليصمه، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، ولتكمّلوا العدة، ولتكبّروا الله على ما هداكم، ولعلكم تشكرون﴾. ففي هذه الآية الكريمة وضح لنا جلّ شأنه عدة أمور ضمن آية فريضة الصوم، أهمها:

أولاً - ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. والهدى ضد الضلال، ويعني الرشد والبيان. أي أن جميع ما احتوى عليه كتاب الله من وصايا وتعاليم وأحكام، إنما هي من قبيل الرشد والبيان الذي ينقذ المؤمن من الضلال. ثانياً - ﴿وَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى﴾. والبينات جمع بينة، وهي الحجة والدليل. بمعنى أن وصايا وتعاليم وأحكام القرآن الكريم مدعمة بالحجج والبراهين، فلا توجد وصية أو تعليم أو حكم إلا، ويرافقها حجة وبرهان.

ثالثاً - ومن خلال صفة (الفرقان) التي اشتملت عليها هذه الآية الكريمة، وهي تعني ما يفرق بين الحق والباطل. فقد وضح تعالى أن وصايا وتعاليم وأحكام كتابه العزيز تساعد المؤمن على تمييز الحق من الباطل وتعصمه من الضلالة وتريه سبيل الحق والرشاد.

وبعد أن وضح جل شأنه لنا هذه الأمور، قال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ، وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ومن ثم راح يوضح لنا الحكيم من فريضة الصوم، وقال: أولاً - ﴿يُرِيدُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي أنه تعالى لم يفرض الصوم تعسفاً، بل راعى حال المريض منكم والمسافر.

ثانياً - ونبه المفطر إلى ضرورة تعويض الأيام التي لا يصومها: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ كيلا يحرم هذا المريض أو المسافر من نعمة التعبّد بصوم شهر كامل سنوياً، وإلى هذا أشار تعالى بقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾.

ثالثاً - والأمر الأكثر أهمية عبر عنه تعالى بقوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وهذا ما يحتاج منا إلى الشرح والتوضيح قال: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾، فكيف نُكَبِّرُ الله؟ أنردد نهاية صوم كل يوم من أيام رمضان جملة: الله أكبر؟ أم نأخذ بالمعنى الثاني للفظ كَبَر وهو تعظيم الله واحترامه؟ وكيف يؤدي انقطاعنا عن الطعام والشراب طيلة ساعات النهار إلى التعظيم والإكبار؟

والآن لتتدبر كل كلمة وحرف واردين في هذه الجملة ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. فهو تعالى أتى أولها بالواو العاطفة فعطف بها العام على الخاص. وأضاف ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ وقد تساءلنا كيف نُكَبِّرُ الله.

واضطربنا لتدبر كل كلمة وحرف، فلم نعر على شرح وتوضيح، وهذا الأمر بالذات استدعى منه جلّ شأنه أن يزيدنا إيضاحاً، وأتى بآية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي، وَلْيُؤْمِنُوا بِي، لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾. فوضّح لنا حقيقة أنّ في فطرة الإنسان توقاً إلى معرفة خالقه، وهذا التوق، تتجلى معالمة منذ طفولة الإنسان الذي يهيم بوالديه ويبحث عنهما إن افتقدتهما. فإذا بلغ رُشدَه وشبّ عن الطوق، يعود يسأل عمّن خلقه وخلق الكون من حوله.

وإلى هذا التوق الفطريّ، وردت الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾، وليس المقصود أنه إذا تعرّض لك أحد الناس بالسؤال.

بمعنى أنّ الصائم الذي يمتنع عن الطعام والشراب، لا يمتنع لمجرد تنفيذ الأمر، بل يريد أن يحصد ثمار طاعته هذه، ويتعرّف بذلك على خالقه ويسأله القرب والوصال والعطاء، ويضيف تعالى قائلاً: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ..﴾ أي أنّ من يصوم محتسباً لله خالقه، وسائلاً إياه تعريفه على نفسه وتقريبه منه والفيض عليه بالعطاء. فليعلم هذا السائل المطيع أنّ ربّه منه قريب لا يئخل عليه بالاستجابة لتوقه إليه، بل ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، استجيب أذعيتة وأحاوره وأقرّبه وأفيض عليه من عطائي وبشاراتي، بل وأبلغه بذلك مرتبة حقّ اليقين، ليفيض فؤاده من جرّاء ذلك تعظيماً لله خالقه وإكباراً له، وعلى هذه الصورة فقد جاء مضمون آية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ..﴾ يشرح قوله تعالى ﴿وَلْتَكْبُرُوا لِلَّهِ عَلِيّ مَاهِدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وبياناً.

بهذا الأسلوب المعجز والبيان البليغ، وجّهنا ربّنا جلّ شأنه إلى المقصد الأهم من حياتنا وهو توق فطرتنا إلى معرفته تعالى والتقرب منه والاستفاضة من عطائه إلى حدّ علم حقّ اليقين.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو: لماذا أتى جلّ شأنه بحرف (إذا) الشرطية ولما يُستقبل من الزمان، ولم يأت بحرف (إنّ) التي تفيد الاستقبال أيضاً سواء أدخلت على الفعل الماضي أو دخلت على الفعل المضارع؟

نعود إلى مقاله صاحب معجم محيط المحيط، قال: إنّ حرف (إذا) الغالب أنّه ظرف متضمّن معنى الشرط، ويختصّ - كما هو في هذه الآية الكريمة -

بالدخول على الجملة الفعلية، ويكون الفعل بعدها فعلاً ماضياً على الأغلب،
ومحلها النصب أبداً على الظرفية.

ونلاحظ أن مآفاده صاحب هذا المعجم لا يُعين على الإجابة على
السؤال المطروح الذي ذكرناه.

بل وهناك سؤال آخر يطرح نفسه، وهو أن سورة البقرة التي اشتملت
على هذه الآية الكريمة، إنما أنزلها الله تعالى في السنوات الأخيرة من الدعوة في
المدينة المنورة بإجماع المفسرين والمؤرخين. هذا وإن جاء ترتيبها من حيث ترتيب
تلاوتها أول سور القرآن الكريم. فإن كانت هذه الآية قد نزلت تحت على معرفة
الله والتقرب منه والاتصال به، فلماذا لم تنزل في سنوات الدعوة الأولى ليستفيد
من مفهومها المسلمون السابقون بالإيمان؟

أقول إن الجواب على هذا السؤال يكمن في استبداله تعالى للحرف
(إذا) بالحرف (إن) في هذا المقام، وإليك تفصيل هذا الكلام :

إن هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لم
تكن هي الآية الأولى والأخيرة التي حثت على معرفة الله والتقرب منه والاتصال
به عز وجل حتى يصحّ مثل هذا الاعتراض، فسورة الفاتحة، وهي السورة التي
فرض تعالى علينا تلاوتها في كلّ ركعة من ركعات صلواتنا يومياً، والتي لاتصحّ
الصلاة دون تلاوتها، اشتملت على نفس المضمون. أفلا نلاحظ كيف أننا ندعو
فيها ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم﴾. وهذا السؤال
والطلب من الله عز وجل نكرره يومياً دون كلّ أو ملل. وهل يعني هذا السؤال
وهذا الطلب إلا نفس ما حثت على حصيلة آية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي
قَرِيبٌ﴾؟ ألا نلاحظ أننا نسأل ربنا أن يهدينا الصراط المستقيم الذي سار عليه
وسلكه من تعرفوا إلى الله خالقهم في نهاية هذه المسيرة وهذا الصراط، فعرفوا
الله وتقربوا منه وأضحوا من الواصلين ومن المنعم عليهم منه تعالى. وهم الذين
أشار إليهم الله تعالى في آية أخرى من كتابه العزيز بقوله: ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ
وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ
وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ النساء ٦٩

فنحن ندعو في سورة الفاتحة (اهدنا الصراط المستقيم) أي أرشدنا ويّسن
لنا وعرفنا على أقرب طريق مختصر مستقيم يصل بيننا وبينك، وأي صراط

نطلب؟ نسأل ونطلب الهداية إلى ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ هؤلاء الذين عرفوك وتقرّبوا إليك وواصلتهم وواصلوك ﴿من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين..﴾ وهذه هي زُمر المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان وسلكوا سبيل معرفة الله والتقرّب منه ووصاله ووصولاً إلى مرتبة حقّ اليقين.

على ضوء ذلك، ندرك أنّ الله عزوجلّ لم يؤجلّ موضوع الحثّ على سؤال وطلب معرفته والتقرّب إليه ووصاله إلى آخر أيام الدعوة في المدينة المنورة، وكيف يفعل هذا وموضوع معرفة الله قد جعله من أولويات تعاليمه على اعتبار أنّه المقصد الأساسي من وجودنا في هذا العالم؟ بل إنّ تعالٰى حثّ المؤمنين على تحصيله من أوّل سنوات الدعوة في مكة المكرمة. من خلال دُعاء سورة الفاتحة كما رأينا.

وعليه فلا بدّ لنا من أن نبحث، جادّين، عن حكمة استبداله تعالٰى للحرف (إنّ) بالحرف (إذا) في الآية التي نحن بصددّها، وهي قوله تعالٰى: ﴿وإذا سألك عبادي عني، فإني قريب..﴾.

وتعالوا معي نلقي نظرة فاحصة قبل كلّ شيء، على ما يجري في زماننا هذا من أحداث وسط مجتمعات العالم الإسلاميّ وخارجه. حيث تبدو لأنظارنا عدّة ظواهر، تكبر وتتعاظم يوماً بعد يوم، فتبدو معالمها على شكل رهيب. إنّ أوّل هذه الظواهر، هي ما نلاحظه من تخلف حادثٍ في أوساط المسلمين فكريّ وأخلاقيّ واقتصاديّ. ومع أنّنا نلاحظ أنّ الوُعاظ في المساجد يناشدون المصلّين الالتزام بتعاليم دينهم الخفيف، فإنّنا نلاحظ من طرف آخر أنّ وعظهم هذا لا يجد صداه بين المصلّين، بل يزدادون تفسّخاً وانحطاطاً وبعداً عن تعاليم الدّين. هذه الظاهرة إنّ دلّت على شيء، فإنّما تدلّ على فتور رابطة المسلمين برّبهم عزوجلّ، وإهمالهم السّعي إلى معرفة خالقهم معرفة عرّفان، وطلب قربه ووصاله، أي أنّهم نشؤوا في بيتٍ مسلم، وجاء إسلامهم إسلاماً تقليديّاً، فلم يوقنوا أنّ المقصد من وجودهم في هذه الحياة بلوغ معرفتهم لرّبهم مرتبة حقّ اليقين، ولذلك آل حالهم إلى ما آل إليه. إنّهم يقولون بالسّنتهم إنّ الله موجود وهو خالقهم أيضاً. لكنّهم يتناقضون مع أنفسهم عمليّاً بالشّرك الخفيّ. فبالله أسألك يا قارئي العزيز : هل أنّ الشّخص الذي يعلم علم حقّ اليقين وجود أفعى سامّة في ثقبٍ من جدار، هل يمرّو هذا الشّخص على وضع إصبعه في هذا

الثَّقب لينال جزاء مغامرته؟ فكيف يعصي هؤلاء المسلمون ربهم إن كانوا مُستيقنين وجوده حقّ اليقين؟

والظاهرة الثانية التي يُلاحظها كل ذي بصيرة في أيامنا هذه، هي أنّ الوطن الإسلاميّ انقسم بعد انهيار الحكم العثماني إلى أوطان ودويلات، وما يزال يزداد انقساماً، بل وأضحت هذه الأوطان والدويلات نهيةً لصراعاتٍ حدوديةٍ ومصالح شخصيةٍ، فلم تعد للأخوة الإسلامية من ظواهر وجود إلا في الأسماء والشعارات، بل وتأسست في هذه الأوطان والدويلات أحزابٌ وجمعياتٌ ومؤسساتٌ تنادي بالعودة إلى المجد الغابر وتوحيد الأوطان، ولانلاحظ أنّ هذه الأحزاب والجمعيات والمؤسسات تفلح في أغراضها، أو تجد التأييد والنصرة من الله ربّ العالمين. وهذه الظاهرة إن دلت على شيء، فإنما تدلّ على أنّ الله تعالى لم يعد ينظر إلى مُسلمي عصرنا، نفس نظره إلى مُسلمي عصر البعثة الإسلامية الأولى التي قامت على أيدي خاتم النبيين (ﷺ). ولذلك فما كان قد وعد تعالى به أولئك لا ينطبق على هؤلاء المعاصرين.

والظاهرة الثالثة التي باتت ظاهرة للعيان هي أنّ أعداء الإسلام استضعفوا المسلمين في كلّ مكان، وأوجدوا من بينهم عُملاء يُساعدونهم على استنزاف خيرات بلادهم، ثمّ زاد الطّين بلة. وماعدات ترى آية بواذر لصالح المسلمين، فهل تعني هذه الظاهرة نهاية عزّهم ووجودهم؟ وإنّ هذه الظواهر التي بات يُدركها كلّ عاقل ومُفكّر داخل الأرض الإسلامية وخارجها، عادت تدعو المُفكّر يسأل أين الله ووعوده؟

بل وإنّ عامّة المسلمين عادوا يتساءلون فيما بينهم عن وجود الله الذي يؤمنون به وبوعوده؟ وهأنّ الماركسية قامت أصلاً على أساس الجحود بوجود الله عزوجلّ. والملحدون في زماننا، لطالما لاحظنا العديد منهم يقولون مُتحدّين : هأنّي أرفع هذا القلم بأصابعي، فأين الله ليرفعه؟

هذه الظواهر وغيرها هزّت عقيدة وجود الله من جذورها، حتّى تعالت الأصوات في زماننا تسألنا : أين الله وأين وعوده؟ وسؤالهم وطلبهم هذا المرتفع من كلّ جانب في عصرنا، هو المشار إليه بالحرف (إذا) في الآية التي نزلت آخر سنوات الدعوة في المدينة المنورة ضمن سورة البقرة، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي، فَإِنِّي قَرِيبٌ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

وليؤمنوا بي لعلمهم يرشدون. ﴿١﴾ هذه الأصوات هي التي اقتضت منه جلّ شأنه لاستبدال الحرف (إن) بالحرف (إذا). فهو تعالى أنبأ هنا عن عصر تخلّف المسلمين وحالهم التي عادت تتعالى الأصوات بسببها أين الله وأين وعوده؟ أنبأ تعالى آخر أيام البعثة الأولى عن فترة انحطاط مسلمي عصرنا وتخلّفهم، وبأسلوب فريد وبلغ، لا يكشفه ولا يدركه إلا المتدبرون لكتاب الله تدبراً حقيقياً، فلا يكتشف ذلك إلا في العصر المشار إليه، وهذا هو أحد نماذج الإعجاز القرآني. علماً بأنني كشفت في مؤلّفي (فنّ الاختزال في القرآن الكريم) عمّا أنبأ به القرآن الكريم عن عصرنا بالذات، فليرجع إليه.

وكأنه تعالى قد قال من خلال استبداله الحرف (إن) بالحرف (إذا) في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي..﴾، وبألفاظٍ أخرى: يامعشرٍ مُسلمي عصر الانحطاط والتخلّف إن كنتم صادقين في طلبي والسؤال عني يومئذٍ، ﴿فليستجيبوا لي﴾ أي أنّ عليهم احترام إرادتي ومشيتي.

وهاأنّتي بعثت مجدّد زمانكم يدعوكم لتستجيبوا لصوتي، وتجدّدوا إيمانكم وتجهّدون بتوجيهه ووفق تعاليم كتابي القرآن وببذل قصارى جهدكم لاستغلال صيام شهر رمضان وتصوموا صوماً حقيقياً كما هو مطلوب منكم سائلين وطالبن أن تعرفوني معرفة حقّ اليقين فتسألون قُرْبِي ووصالي. ﴿فإنّي قريب﴾ وقد ثبت قُرْبِي من عبادي في الماضي، وهو دليل عمليّ عليّ أنّي لازلت قريباً، إنّما ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلمهم يرشدون﴾، وفي هذه الكلمات عتابٌ وتأنيب، فهو يتعالى استأنف كلامه بحرف الفاء معاتباً مُسلمي عصرنا أنّهم أعرضوا عن سلوك متطلّبات دليل (حقّ اليقين) وهو الدليل السلوكي الثالث الذي شرحناه، فنسوا الله والسعي إلى معرفته، وبالتالي ﴿أنساهم أنفسهم﴾ وهو ضرورة السعي لتحقيق المقصد من حياتهم بعد أن هداهم إلى الإيمان، وأضاف ﴿وليؤمنوا بي﴾ أي ليجدّدوا إيمانهم بي معتقدين أنّي موجود وقريب منهم أجيّب دعوة الداع إذا دعان، فلا يخشون في سبيلي أي شيء يُخوفهم من دون الله ووفق قوله تعالى: ﴿ذلّكم الشيطان يُخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافوني﴾.

وحيثلّ فقط ﴿لعلمهم يرشدون﴾ أي ليتوقعوا بعد ذلك وليرتجوا أن يهتدوا إلّاي ويعرفوني ويتقرّبوا مني ويواصلوني، ويصبحوا من عبادي الذين حقّقوا

المقصد من حياتهم في الحياة الدنيا. وحينذاك فقط حقّ لهم أن يطالبوني بإيفائي بوعودي التي قطعتها على نفسي تجاه المؤمنين الصّادقين، وتصديق بحقهم الآية ٦٩ من سورة العنكبوت: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا، لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. أي يعود الله لتأييد ونصرة من أحسن صنعا منهم.

ويأبشري من يسلك سبيل هذا الدليل السلوكي الثالث ليبلغ مرحلة علم حقّ اليقين بشأن معرفة ربّه والتّقرب منه ومواضعه والرجوع إليه.

فهذا هو طريق النّجاة لكلّ مسلم في عصرنا الذي باتت تتعالى الأصوات فيه من كلّ جانب يسألون: أين الله أين الله ووعدوه؟ ولتذكّر كلّ من اعتنق الإسلام ديناً أنّ الله لا يهدي القوم الفاسقين، ولا يغيّر ما بقوم، حتى يغيروا ما بأنفسهم، والمؤمن لا يكون إلّا مع الصّادقين.

ثانياً - أدلة تساعد على تعيين المقصد من خلق الإنسان :

لقد توصلنا من خلال آيات الذكر الحكيم التي سبق أن أثبتنا مصداقيتها ومرجعيتها، إلى أنّ الغاية من وجود الإنسان في هذا العالم، هو أن يسلك سبيل معرفة خالقه، وذلك عن طريق الالتزام بإطاعته والخضوع له والتذلّل بين يديه وخدمة دينه والتزام شرائعه والعمل وفق مشيئته وتوحيده، فلا يكون من المشركين. فهذا هو معنى العبودية لله عزّ وجلّ.

ومادّعاء الفاتحة الذي ندعو به في كلّ ركعة من ركعات صلواتنا، طالبين من خالقنا أن يهدينا سبيل الذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصّديقين والشّهداء والصّالحين. فهل وراء هذا الدّعاء المتكرّر إلّا طلب العون من خالقنا لمساعدتنا على تحصيل المقصد من حياتنا الدنيويّة، وهو التّعرّف إلى خالقنا ومحاورته والاستفاضة من عطائه ونعمائه. ودفعاً من جانبه تعالى إلينا على طريق وهو دلالة: ﴿وَلْتَكْبِرُوا لِلَّهِ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ البقرة ١٨٥ -

هذا علماً بأنّ الصّلاة الإسلامية قد صيغت أصلاً على أساس من مفهوم هذا المقصد الحيّاتي، ولتحقيق هذه النّقلة النوعيّة في حياة الإنسان. النّقلة التي تنقل المؤمن بالله من مرتبة إيمانه الذهني إلى إيمان علم حقّ اليقين.

ونحن إذ أمرنا ربنا أن ندعو في ركوعنا (سبحان ربّي العظيم) وفي سجودنا (سبحان ربّي الأعلى)، فما هذه إلا رموز تشير إلى المراحل التي ينبغي على المؤمن أن يقطعها لبلوغ حقّ اليقين على طريق معرفته ربّه عزوجلّ، ويُصبح من الذين يُعظّمون ربّهم ويكبرونه، وهذا المعنى نفسه ينطبق على دعاء محمد المصطفى (ﷺ) بين السّجدين (ربي اغفر لي، وارحمني، واهدني وارفعني وارزقني).

اغفر لي أي أسأرك ضعفي وغيوبي، وارحمني أي اشملي براسع رحمتك. واهدني أي خذ بيدي على طريق معرفتك ووصالك، وارفعني أي اجعلي من المقرّبين بين يديك. وارزقني أي أسبغ عليّ من نعمائك وعطائك الرّوحاني بعد هذا الرفع والتّقريب. وهذا الدّعاء نابغ في حقيقته من دلالات المراحل التي يقطعها السّالك تحصيلاً لمعرفة ربّه وخالقه.

ألا إنّ عمليّة خلق هذا الإنسان ودعوته والدعوة إلى عرفان خالقه، إنّ هي إلا عمليّة أشبه ما تكون بما يصدر عن فنّان أصيل يرسم ويرسم، فلا يملّ من رسم اللّوحات العظيمة المتّوّعة، ولا تكون له من غاية من ذلك كلّها إلا التعبير عن فنه الأصيل. فهذا هو ما أشار إليه الحديث القدسي من أنّ الله كنز أراد أن يُعرف فخلق الخلق، وأبدع فيما خلق وصوّر، وإلا فإنّ الله تعالى غني عن العالمين.

وهكذا فإنّ تعليم الله تعالى: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إنّ الله هو الرّزاق ذو القوّة المتين.﴾ الذاريات ٥٦ - قد نبّهنا إلى أنّه تعالى لم تكن مشيئته أن يجعل الدّنيا جُلّ همّنا، بل ﴿إنّ الله هو الرّزاق ذو القوّة المتين﴾.

أي أنّ من يلتزم سلوك طريق معرفة ربّه، يُيسّر له ربّه سبيل تحصيل رزقه على قدر احتياج هذا العبد في دنياه وآخرته.

هذا هو الطّرح القرآني فيما يتعلّق بالمقصد من حياتنا الدنيوية وهيّا نستعرض آراء علماء أوربة قُبِل القرن العشرين فيما يتعلّق بالمقصد من خلق الإنسان. فماذا قال أبو الفيزياء (نيوتن)، وهو الذي كان قد وضع أسساً لمادّيّة منهجيّة، لم يُخالقها مشاهير علماء عصره أمثال (فارادي) و (كلفتن) و (هيرشل) وأمثالهم. هذه المادّيّة المنهجية التي افترضت أنّ عالمنا الدنيوي مادّة

لأتخالطها عقل ولا روح. والتي رَسَخَ دعائمها النظرية الداروينية في النشوء والارتقاء؟

إنَّ (نيوتن) حذف وجود غاية لحياة الإنسان لاعتباره إياه مادة لاروح فيه. وقد كانت مُقَوِّمات المادة في نظره ثلاث : المادة والمكان والزمان. وأن المادة مُكوَّنة من : (جسيمات كبيرة وصلبة ومُتحرِّكة وغير قابلة للاحتراق وذات أحجام وأشكال مُختلفة.). وقد حصر خواص المادة في (خاصية التمدد والصلابة واللااحتراقية، والقصور الذاتي.). واعتبرها خواصَّ ثابتةً إلى الأبد، وأن (الذرة) المادية أصغر جسيم بإمكان الإنسان تصوُّره.). وقد تركت طروحات (نيوتن) هذه ظلالها وآثارها على العقل الأوربي حتى عادوا يسخرون من مقولة الإسلام من أنَّ لوجود الإنسان في دنياه مقصداً لحياته، ينبغي عليه السعي لتحقيقه.

ومن حُسْنِ حظنا نحن، أننا ولدنا في القرن العشرين الذي عاد علماءه من الأوربيين أنفسهم يتندَّرون بنهج نيوتن المادي وبجميع طروحاته. هؤلاء الذين تبين لهم خطأ جميع ما طرحه نيوتن من طروحات. فخيَّبوا أمله، إذ كان نيوتن وسواه من رُموز منهجه المادي يرجون أنَّ العلم في القرن العشرين يُرَسِّخ هذا المنهج وتلك الطروحات، ويكمله.

فهذا العالم آينشتاين هدم عام ١٩٠٥ رُكنين أساسيين من أركان النظام والمنهج المادي الذي ابتدعه نيوتن. أي هدم نظرة نيوتن إلى الزمان والمكان، وأُتب أنَّهما شيان نسبَّيان. وهذه ثورة فيزياء الجسيمات التي كان رائدها العالم (آرنست ذرفورد) فقد كشف هذا عام (١٩١١م) عن تركيب الذرة التي اعتقدها نيوتن أنها لا تُختَرَق. وقد عجَّل العالم (نيلزبور) وغيره بتطوير علم ميكانيكا الكم، هذا الذي أعان على إثبات أنَّ هذا الكون لا بُدَّ أن يوجد خارجه عقلٌ مُطلق، ذلك أنَّ الملاحظ هو أنَّ المادة لا تُبحث ولا تُراقب إلَّا من داخلها، وبآلات وأجهزة ميكروسكوبية أيضاً.

إنَّ جميع هذه الثورات العلمية قلبت مُعادلة نيوتن رأساً على عَقِب. بسبب أنَّ العلم انتقل أهله من دور الملاحظة إلى دور المشاركة، فتحقق بذلك قفزة نوعية، قفزها علماء القرن العشرين.

فها أن العالم الفيزيائي الشهير (يوجين فيغنر) قال مُعترفاً: (كان جلَّ العلماء الطبيعيين إلى عهدٍ غير بعيد يُنكرون بشدَّة وجود العقل أو الروح.. أمَّا

عندما تمّ توسيع نطاق النظرية الفيزيائية، ليشمل الظواهر الميكروسكوبية من خلال استحداث ميكانيكا الكم، عاد مفهوم الوعي مرّة أخرى إلى المقدمة، إذ لم يُعد مُمكنًا صياغة قوانين ميكانيكا الكم بشكل مُتسق كلياً، دون الرجوع إلى الوعي.) أي الرجوع إلى العقل^(١). وهكذا فإنّ نظريّة آينشتاين في النسبيّة وميكانيكا الكم أنقذت علماء القرن العشرين من ظلمات منهج نيوتن وطروحاته، وساعدت على إدخال عُنصر العقل والروح في المعادلة الفيزيائية. وكذلك فإنّ نظريّة الانفجار العظيم التي أتت بها العالم الفيزيائي غاموف قد أكّدت المعادلة الفيزيائية الجديدة. حيث أثبت أنّ هذا الكون مخلوق منذ مائتارب (٢٠-١٢) مليار عام.

فمن حسن طالعنا وفضل الله علينا أن وفق جلّ شأنه علماء أوربة المعاصرين هذا التوفيق الذي لاحظناه. فهذا التقدّم العلمي، رُدّت الهوّة الكبيرة التي كانت تُباعد ما بين تعاليم الإسلام وما بين العلوم الأوربيّة في القرون الماضية. ويكفي أنّ علماء هذا العصر لم يعودوا ينظرون إلى الإنسان على أنّه مُجرّد رُزمة من ردود الفعل، أو رزمة من الآليات النفسية الغريزية، بل باتوا ينظرون إليه على أنّه مخلوق يملك العقل وحرية الاختيار التي أشار إليها ربُّنا جلّ شأنه بقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾. بمعنى أنّ حرية الاختيار التي أوتيها الإنسان هي في حدّ ذاتها دليلٌ ضمنيّ يؤكد أنّ لحياة هذا الإنسان مقصداً أسمى يتوجّب عليه أن يسعى لتحقيقه، وإلا استوجب المحاسبة والعقاب من خالقه.

وإضافة إلى هذا وذاك، فقد ثبت على الصّعيد العلمي أنّ الإنسان هو محور هذا الكون. وكأنّ الكون على سعته ورحابته قد خلقه الله جلّ شأنه لصالح وخير هذا الإنسان المخلوق العاقل، وذلك مصداقاً للطّرح القرآني الذي أوردته الآية (٢٩) من سورة البقرة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

(١) - عالم المعرفة العدد ١٣٤

وإن هذه التطورات العلمية الرائعة تلزم المؤمنين بالله العزيز وبكتابه الكريم أن يوضحوا للعالم هذه الغاية من خلق الإنسان بأسلوب علمي، وأن يكونوا أسوة عملية تثبت صحة ما يوضحون وما يدعون.

وأقول، والأسف يعتصر فؤادي : إن مجتمع المسلمين المتخلف المعاصر هو أبعد شيء عما يتطلبه هذا الزمان من أفرادهِ ورُعاظهِ. بل الواقع أن من يقتنع من أعداء الإسلام بتعاليم الإسلام نظرياً. ما إن تطأ أقدامه أرض المسلمين، إلا ويصاب بالإحباط وردة فعل نفسية، لما يلاحظه من فارق كبير بين الإسلام وأهله.

ولندع الآن موضوع ماطرأ من تقدّم على العلوم في أوربة، ولنحاول إثبات صدق الطرح القرآني، بما يتعلق بالمقصد من خلق الإنسان وبأسلوب علمي، وإليك هذه الأدلة الثلاث:

١ - الدليل الأول

يستند دليلنا الأول إلى معلومة أن حواس الإنسان، يستحيل عليها أن تؤدي عملها دون عامل مساعد، فالعين لا ترى دون مساعدة النور، والأذن لا تسمع دون مساعدة الهواء، والأنف لا يعمل دون مساعدة الروائح. وحاسة اللمس لا تعمل إلا بمساعدة جسم مادي. والعقل الذي يعمل على صعيد زمنية ثلاثة : فالمخطوطات والآثار والمستحاثات تساعد المرء على معرفة الماضي. والملاحظة العلمية والتجربة والاستنتاج تؤدي إلى معرفة الحاضر. أما على صعيد المستقبل وأمور الغيب، فلا يجد الإنسان له مساعداً إلا وحي الله علام الغيوب. فهذه حقيقة علمية لا سبيل لأحدٍ إلى دحضها وإنكارها.

والمقصد من خلق الإنسان هو شيء غيبي أصلاً، الأمر الذي يدفعنا إلى القرآن الكريم وهو الوحي السماوي الذي سبق أن أثبتنا مصداقية ومرجعيته. فنعود إلى آي هذا الوحي السماوي، لنجد أن الله عز وجل قال فيه: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ أي ليعرفوني وينالوا بذلك قربي وعطائي. مؤكداً بعد ذلك قوله: ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾. ومادم القرآن الكريم قد حدّد هذا المقصد من وجودنا في هذا العالم، فنحن كمؤمنين بوجود الله عز وجل، نسعى لتحصيل معرفة الله والتقرب إليه ووصاله.

٢ - الدليل الثاني

ودليلنا الثاني الذي يثبت من خلاله صحة الطرح القرآني حول المقصد من حياتنا الدنيوية، يُحدّده سؤال يطرح نفسه نلاحظه ضمن إطار القوانين الطبيعية السائدة. وهو أنّ الإنسان لا يصنع شيئاً إلّا وله مقصد من وراء صنعه هذا الشيء. ولنضرب على ذلك مثلاً صناعة السيارات والطائرات. فلا تقوم الشركات الكبرى بصناعتها إلّا لتحقيق استخداماتها المقصد معلوم. فهذه إحدى بديهيات مجتمعاتنا البشرية.

ومادام قد ثبت لعلماء أوربية، من خلال ماأثت به نظرية الانفجار العظيم، هو أنّ عالمنا الدنيوي مخلوق، وضمن قوانين طبيعية محدّدة. أي أنّ كلّ شيء فيه مخلوق حتى الإنسان، هذا على اعتبار أنّ عمليّة الخلق هذه لا تتجزأ، حتى ولو سلّمنا بوجود الإنسان بطريق قانون النشوء والارتقاء.

فانطلاقاً من هذا المثال الذي قدّمناه، فلا بُدّ أن يكون خالق الإنسان قد جعل لحياته مقصداً، ومن واجب هذا الإنسان أن يسعى لتحقيقه، ولاسيّما إذا عرفنا أنّ الإنسان لم يأت إلى هذا العالم بإرادته، ولاهو تاركه بمرضاته. ويزيد على ذلك أنّ خالقه خصّه بأفضل الملكات مقارنة مع بقية المخلوقات، كالحَيوان والنبات.

من هنا ماكان لهذا الإنسان المخلوق أيّ حقّ في تعيين المقصد من حياته، لأنّه لم يكن مُوجد نفسه. وهذا وإنّ نعمة الإدراك التي منحه الله إياها، تُلزّمه بصورة أكيدة بالبحث عن خالقه وسؤاله عن الغاية التي خلقه من أجل تحقيقها ليلتزم بقول خالقه. ولهذا فإنّ الله تعالى نلاحظه وقد أنزل وحيه القرآني وقال فيه: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق ولا أن يطعمون. إنّ الله هو الرزاق ذو القوّة المتين﴾. الذاريات ٥٦. إذن للخالق حقّ إنزال عقابه بالذي يجيد عن تحقيق هذا المقصد من حياته أيضاً. فهذا أمرٌ طبيعيٌّ جدّاً. على شاكلة أصحاب مصانع السيّارات والطائرات الذين هم إن لاحظوا واحدة منها لم تعد صالحة، يُدخلونها في مكابس ليعيدوها كوماً من الألمنيوم والحديد.

وعليه أقول: ماالدّاعي ليمتثل الناس فيما بينهم حول تعيين المقصد من حياتهم؟ فلا يُعَدّ هذا الاختلاف إلّا خروجاً عن هذه القاعدة التي يبنّاها حول

موضوع تعيين المقصد من وجود أي شيء من الأشياء المخلوقة المصنوعة. وإن من واجب الناس الرجوع إلى الذي خلقهم يسألونه الهداية. خاصة وأن خالقهم متعهم وميزهم بملكات العقل والفكر والإرادة والإدراك. هذه الملكات التي حرم الخالق الكائنات الغريزية من التمتع بها. هذه التي تؤدي الغاية من خلقها دون أي تحمل أو أي اعتراض.

هذا وإن الله تعالى قال في القرآن الكريم صراحة، في وحيه هذا الذي أثبتنا مصداقية مرجعيته: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران (١٩) وقال أيضاً: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ روم (٣٠) وهذه الأقوال من آي الذكر الحكيم تعني صراحة أن تعاليم الإسلام هي التي تكفل المعرفة الربانية على الوجه الأكمل والأتم. وقد أنزل الله تعالى تعليمه هذا وفقاً لمقتضيات فطرتنا التي فطرنا عليها. وقد جاء هذا التعليم بحث المؤمنين على طاعة الله ومحبة والتفاني في سبيله ظاهراً وباطناً. ومحور ذلك عبادة الله ومعرفة والتفاني في سبيل مرضاته، ولذلك قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. والله تعالى من خلال قوله هذا قد وفر علينا أمر سؤاله عن المقصد من وجودنا. فهذا هو دليلنا المجمل الثاني، الذي استقيناه من ضمن القوانين الطبيعية المعروفة بين الناس.

٣ - الدليل الثالث

والدليل الثالث الذي يثبت صحة الطرح القرآني المتعلق بالمقصد من حياة الإنسان، يتحدد في أن يعمد كل مفكر إلى تعيين المقصد من حياته، وذلك من خلال قاعدة منطقية معقولة وهي تقدير أعظم ما يستطيع تأديته الإنسان من عمل والقيام به. وقياساً على هذه القاعدة بالإمكان تعيين المقصد من حياة أي مخلوق آخر غير الإنسان كالحیوان والنبات والجماد.

إن هذا الأسلوب في تقدير الغاية من خلق أي شيء هو أسلوب اقتضاه المنطق العلمي. فالذي صنع سيارة أو طائرة ليختصر بها المسافات، لا يعقل أن يستعملها كمستودع أحطاب وأعشاب.

دونكم الثور، فهل يُطالبونه بالقراءة والكتابة ونظم الأشعار؟ أم يستخدمونه للسقي والحراثة وحمل الأثقال؟ وهذا النحل على صغر حجمه، فهو

يصنع لنا من صيب الزهر عسلاً نفيساً فيه شفاء للناس. وهل يستخدم عاقل النحل للحراثة والسقي وحمل الأثقال؟ فمن هذين المثالين نستنتج أن الثور قد خلقه خالقه أصلاً ليستخدم في مجال السقي والحراثة وحمل الأثقال. على حين أن الله تعالى قد خلق النحل ليصنع لنا من صيب الزهر عسلاً لذيذاً، وقد جعل في هذا العسل شفاء للناس أيضاً.

وبدافع من هذا الأسلوب وهذا المعيار في تقدير الغاية من خلق كل شيء من الأشياء، نعود إلى أمر تقدير الغاية من خلق الإنسان. الذي يشترك مع جميع الأحياء في أمر الطعام والشراب والملبس والمسكن والحاجة إلى النوم وإلى النور والهواء. لكنه يختلف عنها بما حباه الله تعالى به من ملكات العقل والفكر والإدراك ويسأل: هل يستطيع عقل المرء ومنطقه أن يمتاز الإنسان بهذه الملكات السامية، دون أن يمتاز معها عن باقي الكائنات الغريزية بشيء؟ فلو صح ذلك لأصبحت هذه الملكات السامية دون طائل.

ثم تعالوا إلى عصرنا هذا بالذات. أفلم نلاحظ كيف استعمل الإنسان ملكاته هذه استعمالاً علمياً، فتحقق على يديه من جرّاء ذلك اختراق أجواز الفضاء، والنزول على سطح القمر، واكتشاف كثير من مجاهل الأرض والسّماء؟ بل وحتى تمكن هذا الإنسان من قياس عمر الكون، ومعرفة الأدوار التي مرّ بها، بل وإدراك أنه مخلوق.

ومادام الإنسان بانتهاجه الأسلوب العلمي، قد مكّنته ملكاته العقلية السامية من اكتشاف مجاهل هذا الكون، والسيطرة على ماحوله من أشياء. فهذه حقيقة إن كانت تعني للمفكر الباحث شيئاً، فسوف تعني له بصورة أكيدة أن أقصى ما يستطيع الإنسان تقليده والقيام به هو أن يستعمل عقله وفكره وإدراكه وبأسلوب علمي لتقصّي حقائق الكون والبحث عن المجهول، ليمتاز بذلك عن بقية مخلوقات الله تعالى.

والآن لتساءل معاً: وهل هناك من حقيقة كونية أعظم من حقيقة معرفة الله خالق هذا الكون، والتّعرف عليه ومكالمته والتّقرّب منه والوصول إليه؟ على هذه الصّورة الواضحة قدّمنا الدليل العلمي وأثبتنا بالتالي صحّة الطّرح القرآني الوارد في الآيات: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يطعمون. إنّ الله هو الرّزاق ذو القوّة المتين.

فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون. فويل للذين كفروا من يومهم الذين يوعدون. ﴿الذاريات ٥٦-٦٠﴾. هذه الآيات الكريمة التي نصّت على أنّ المقصد من خلق الإنسان هو أن يسعى جاهداً للتعرف على خالقه وليتقرب إليه وليستفيض من عطائه. وقد لاحظنا كيف أنّ الله عز وجلّ نبّه إلى أن طلب الرزق لا ينبغي أن يُصبح جُلّ همّ الإنسان، فمن يتجاهل هذا التحذير ولا يسعى لتحصيل هذا المقصد الذي ذكرناه لأبد له أن يتحمّل عاقبة أمره من ويل وثبور. وهذه إشارة منه تعالى إلى المعنى الهامّ من وجودنا، وكذلك إشارة إلى مُسلمي هذا العصر، الذين أُشير إليهم من خلال (إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي، فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾. وبهذا قد فتح لنا الله عز وجلّ طريق معرفته والتقرب منه والوصول إليه، وليبلغ علمنا على هذا الطريق حدّ علم حقّ اليقين.

وقد علمنا أن صاحب معجم محيط المحيط أورد أن لفظ عبَدَ بمعنى طاع وخضع وذلّ وخدم والتزم بالشرائع ووحد. أي كان موحداً غير مُشرك. فإن هذا المعنى الأخير، وهو موضوع التوحيد والشرك يقتضي منّا أن نفرّد له باباً خاصاً لبحثه. خصوصاً وأنّ الله عز وجلّ أكّد في كتابه الكريم على أهميّة توحيد الله تعالى وبالتالي ضرورة البُعد عن الشُّرك به. وضرورة الاحتياط لذلك، بسبب مايجمله توحيد الله تعالى من بركاتٍ، ومايسفر الشُّرك عنه من ويلاتٍ ومساوئٍ وأخطار. ألم نلاحظ ماقاله الله تعالى في حقّ إبراهيم عليه السّلام، وهو أبو الأنبياء، ﴿قُلْ بَلْ مَلَّةٌ إِبراهيم حنيفاً، وماكان من المُشركين﴾. البقرة ١٣٥ ؟



الباب الرابع
الشرك والتوحيد

الفصل الأول

حدود دلالة لفظي شرك وتوحيد

لابدّ أنّا لاحظنا أنّ من جُملة معاني العبودية لله تعالى ضرورة توحيد الباري عزوجلّ. فلا يكون المؤمن عبداً لله تعالى، إلا إذا استوفى جميع دلالات كلمة عبد. وهذا الأمر يجرّنا بصورة آلية لبحث موضوع الشرك والتوحيد. وينحصر المدخل إلى ذلك في ضرورة الإلمام بدلالات هذين اللفظين الشرك والتوحيد لغوياً. وهذا الأمر يدفعنا إلى العودة إلى معاجم اللغويين، مبتدئين بما جاء به (محيط المحيط). فما هي دلالة لفظ (توحيد)؟

نقول: (وَحَدَّ يَحْدُ فهو وحيد منفرد بنفسه). فإذا شدّت الحاء في وحده، فالمعنى جعله واحداً، أو أنت قلت: وحد الله فالمعنى آمن بالله ووحده أي اعتقد أنه واحد دون سواه، وقُلْ إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ أَحَد. ولفظ (واحد) هو المبدأ لأعداد الحساب. أمّا لفظ (أحد) فيعني الذي لا نظير ولا سميّ له، ولا يشاركه شيء في ذاته، على حين أنّ (واحد) يستعمل للذي لا يشاركه شيء في صفاته. وإن نحن أجمّلنا هذه المعاني الدالة على التوحيد، نقول: إنّ التوحيد هو عملية رجوع من العددية إلى الفردية، أو إرجاع الفروع إلى أصلها، وجمع بعد تشتت. وبألفاظٍ أخرى انتقل ذهننا إلى أصل الأشياء ومنبعها الحقيقي. أمّا كلمة (شرك)، تقول شرك ماله أي شتته بين الناس فضاع عليه. ومعنى أشرك بالله: جعل له شريكاً. ويكون الشرك في الملك، كما يكون في الذات وفي الصفات.

وإن نحن أجمّلنا هذه المعاني الدالة على الشرك، نقول: إنّ الشرك هو عكس التوحيد من حيث حقيقته، فهو عملية انتقال من الفردية إلى التعددية، كما أنه ترك للأصل وانتقال إلى الفروع، وتشتت بعد جمع. وبألفاظٍ أخرى ابتعاد بالذهن عن أصل الأشياء، وضياح بين ظواهر الفروع، ونسب الحق لغير أهله.

فمن عاود تلاوة سورة الإخلاص، وماستقيناه من آياتها من دلائل ومعلومات سابقاً، تجلّت لعينه حقيقة رائعة لألبس فيها، وهي أنّ سورة الإخلاص اعتمدت جميع هذه المعاني التي اقتبسناها من معجم محيط المحيط. فقد بحثت السّورة المذكورة وحدانية الله تعالى في ذاته وفي صفاته، والتي بلغت مائة وخمسة صفات، على حسب ما أفادنا بذلك القرآن الكريم الذي أثبتنا مصداقية مرجعيته. هذه الصفات التي بثّها ربُّنا في ثنايا آيات كتابه العزيز، وفق الضرورات الموضوعية وبأسلوب فريد في نوعه وإعجازه. وسيجد قارئنا العزيز قائمة بأسماء الله الحسنی آخر هذا الكتاب.

ولم يقتصر القرآن الكريم على إطلاعنا على أسماء الله الحسنی التنزيهية والتشبيهية. بل أعلمنا أيضاً أنّ الله عزوجلّ (ليس كمثله شيء) الشورى ١١ - لا في ذاته ولا في صفاته، أي أنّها وإن تشابه صفات الله وصفات مخلوقه، فالفارق كبير جداً بينها بما لا يقاس بمعاييرنا المادية.

والقرآن الكريم نبّهنا أيضاً إلى أنّ ذات الله تعالى موجودة خارج هذا الكون المادي، وليس ضمنه، على حسب ما يعتقد أصحاب عقيدة وحدة الوجود. فهذا ما أشارت إليه الآية الرابعة من سورة المعارج قوله تعالى: ﴿تُعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. ومعلوم أنّ العروج يعني التصعد والارتقاء، ثم إنّ صيغة الجار والمجرور في (إليه) تشير صراحة أنّ ذات الله كائنة خارج عالمنا. فالروح والملائكة تصعد بغرض الوصول إليه عزوجلّ. هذا وإن كان القرآن الكريم قد وضّح لنا أنّ الله تعالى على بُعد، فهو منّا جدّ قريب، لعظمة وسائل علمه التي تساعد أن يعلم سرّاً وجهراً، ويعلم السرّ وأخفى، وقد سبق أن قدّمت لقارئتي العزيز مثال المركبات الفضائية وهيمنة قيادتها عليها من بعيد، مع وجود الفارق بين هذا وذاك بما لا يقاس بمعاييرنا ووسائلنا المادية المتوفرة.

مع الإشارة إلى أنّ الله تعالى قد تعمد ألا يتكلّم شيئاً عن ذاته في كتابه القرآن الكريم، ولسبب وجيه جدّاً، وهو أنّ عقل الإنسان يعجز عن إدراك عظمة الذات الإلهية بوسائله ومفاهيمه المادية المعروفة. لذلك نلاحظ أنّه تعالى لم يُخبرنا في كتابه العزيز إلا عن صفاته تعالى المتعلقة بعالمنا المادي فقط. وإلا فإنّ لله عزوجلّ صفات غيرها ستجلى يوم الدين أيضاً.

وقد رأينا أنَّ كلمة (شرك) تعني عمليّة انتقال من الفردية إلى التعددية، والابتعاد عن الأصل نحو الفروع، وتشّتت بعد جمع. وإعطاء الحق لغير أهله، وإشراك غير الله في صفات الله. وأنَّ الشرك هو عكس التوحيد.

والذي نضيفه هنا هو قولنا إنَّ البشر قد وقعوا في هذه الشرك وأحاييله منذ بدء الخليقة. وانتلي الناس مؤمناً كان أم كافراً بمعرض الشرك لأسباب عديدة أهمّها ضحالة علم الإنسان القديم فيما يتعلّق بهذا الكون من حوله. فقد كان عسيراً على الإنسان أن ينسب الحمد كلّهُ لله ربّ العالمين. أما وقد أشرف علم الإنسان على التطوّر من وسائله البدائية إلى وسائله التقنيّة المتقدّمة في عصرنا. فقد نزل القرآن الكريم يُعلّمنا أن يدعو في كل ركعة من صلواتنا بدُعاء الفاتحة وهو ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾. بمعنى أنَّ جميع أنواع الحمد لا يستحقّها بالأصالة إلّا خالقنا، وهو رب العالمين الذي يُطوّرنا مرحلة بعد مرحلة، لنزداد علماً بوجوده وسعيّاً للتقرّب منه، ولنصبح أخيراً من العارفين به عز وجلّ.

فلقد كان من العسير على الإنسان القديم الذي عاش في أحد المجتمعات البشرية القديمة أن يتلقّى من أحد ملوك الأرض إنعاماً وتكريماً، ويعتقد بالتّالي أن الله خالقه يداً ودخلاً فيما أُهدي إليه. بمعنى أنَّ عقل الإنسان القديم وعلمه لم يكونا ليساعده على ربط الأسباب بمسبب الأسباب الذي هو الله تعالى الذي لا يقع تحت حواصه الخمس المعروفة.

أمّا في زماننا هذا فقد أفاد التطوّر العلمي البشر على إدراك وحدة الكون مادّةً وقوانين، كما ساعد ذلك على إدراك أنَّ هذا الكون على عظّمته مخلوقٌ من جانب خالق واحد أيضاً. فالوحدة في المادة ووحدة القوانين، تدلّان على وحدة الخالق وتفرّده. كما حلّت بذلك مُعضلة الشّرك من الوجهة العقلية، إذ لم يعد بإمكان العالم الطبيعي والفيزيائي أن يفترض وجود إلهين، إذن لتعدّدت القوانين الكونية، ولذهب كلّ إله بما خلق.

وأما الأمر الهام في موضوع الشرك وخاصة منه الشّرك الخفّي، فلم يساعد التطوّر العلميّ على حلّه حتى الآن، بسبب أنَّ التطوّر العلميّ لم يتجاوز الوسائل المادية، ولم يُحط علماً بقيمة الوسائل الروحية على هذا الصّعيد.

فإن أنت قلت لعالم فيزيائي : إنَّ خواص الماء المعروفة، ماهي بخواص ذاتية، بل هي خواص مُفَوَّضة إلى الماء تفويضاً من خالق المادة. وأنَّ الله قادر على أن يسلب الماء خواصه، إن نحن قلنا ذلك، تعلقوا بالاعتساف شفاه هذا العالم الفيزيائي وبصمت، مُعتبراً قولنا هذا مجرد ادعاء، وأنا مطالبون على إثباته بحجة وبرهان. ذلك أن حواس الإنسان أثبتت للبشر على اختلاف أزمئتهم وأمكتهم، أصالة خواص الماء واستقلاليتها، لذا فلا يزال البشر يتخبطون في مستنقع الشرك الخفي من زاوية الناحية المادية المذكورة حتى الآن.

وهكذا، فبالنظر إلى مفهوم الشُّرك الذي علمناه، فليس بإمكاننا وضع تعريفٍ مُحدِّدٍ لموضوع الشرك. ذلك أنَّ السَّجود لغير الله تعالى هو من قبيل الشرك. وإنَّ الأخذ بالأسباب المادية، دون الاعتقاد بأنَّ خواص الأسباب مُفَوَّضة إلى المواد تفويضاً، وأنَّ خالقها قادر على سلبها هذه الخواص في أيِّ وقت يشاء، هو من قبيل الشرك الخفي. ثم إنَّ ترك الأخذ بالأسباب هو من قبيل الشرك وعدم التأدب مع خالق الأسباب. كذلك فإنَّ إلصاق صفات تنزيهية بمخلوق، وهي أصلاً لله عزوجل كصفة الإحياء والإماتة فهي من قبيل الشرك أيضاً وعلى الأقل في نظرنا نحن.

هذا وإنَّ المحبة المطلقة لكائن غير الله هي من قبيل الشرك أيضاً. كذلك فإنَّ استجداء الأموات رجاء النفع أو المغفرة هو من قبيل الشرك. وإنَّ تقليد المؤمن لعادات المشركين والعمل على تقاليدهم هو من قبيل الشرك. كذلك فإنَّ تأدب الإنسان تجاه أخيه الإنسان، بمستوى تأدبه مع الله في صلته هو من قبيل الشرك. وكيف بالإمكان الجمع بين هذه الأمور كلها في تعريف واحد، إلا أن نعود إلى تعريف كلِّ نوع من أنواع الشرك على حدة؟

وأنا إذ عددت هذه الأنواع العديدة للشرك، قد أعدتُ مُغالياً في نظر بعض المفكرين. على حين أنني لم أتعسف في ذلك، بل استقيت أنواعاً من الشرك من القرآن الكريم الذي سبق أن أثبت مصداقية مرجعيته، وصدوره عن خالقنا رب العالمين، ثم أؤلم نقرأ مارؤي عن رسول الله (ﷺ) قوله: (الشرك فيكم أخفى من ديب النمل) ابن كثير؟



الفصل الثاني

١- الشُّرك الخفي

والذي توصّلت إليه، هو أنّ من أهمّ متناصد قصّة يوسف عليه السّلام، هو لفت نظر المؤمن إلى موضوع (الشُّرك الخفي).

فهو تعالى قال بعد أن انتهى من سرد قصّة يوسف: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ. أَفَأَمْنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.﴾

إنّ قصّة يوسف عليه السّلام لم يُختَصَّ الله تعالى لسردها سورة بكاملها عبثاً، بل أتى بها مُفعمّة بالعبر والعظات الإيجابية الدّالة على وجود الله عزوجلّ. وعلى تدخل الله في كل صغيرة وكبيرة من حياة الإنسان. وللدلالة على واسع علم الله وعظيم قُدْرته. وهذه الأمور جميعها تدخل ضمن موضوع التوحيد الخالص من شوائب الشُّرك الخفي. لذلك ينبغي للمؤمن ألاّ يَمُرَّ على قصّة يوسف مرور الكرام. ولا ينبغي أن يعتبرها مجرد قصّة تاريخية مسليّة ودراميّة. بل إنّ عليه أن يستقي منها مفهوم التوحيد الخالص، وأن يحذر من الشُّرك الخفي، الذي هو أخفى من ديب النمل. خصوصاً وأنّ الله عزوجلّ أتى بعد هذه القصّة بهذه الآيات الكرّيمة التي قال فيها: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ.﴾

فالله تعالى عندما قال: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ - أي من دليل - في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا - أي يتجاوزونها فلا يستدلّون منها على وجود الله مسبّب الأسباب، ولا يتعظّون بها - وهم عنها معرضون - أي صادّون عنها لا يتخذون منها الدُّروس والعظات -﴾. أقول إنّ الله تعالى عندما قال هذا، أتى بعده بواو التعليل مُلحقاً بها (ما) الحرقيّة التي لا عمل لها، وخُصَّ بذلك بكلامه إلى الزمن الحاضر مع انتفاء القرينة على حسب رأي الجمهور. فقال وعزّ من

قائل: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾. فعَلَّ مرور المشركين شركاً خفياً على الأمور الدالة على وجود جل شأنه وكونه مسبب الأسباب. عَـلَّ حالهم هذا من أنهم يفكّرون في كل شيء تفكيراً مادياً محضاً لا يخاطبه عنصر رُوحِي، على حين ينهج المؤمنون الموحّدون نهجاً حَبَاتِيّاً رُوحِيّاً مختلفاً عنهم. فالمؤمنون الموحّدون ينسبون كلّ حركة وسكنة في هذا الوجود إلى الخالق مسبب الأسباب، الأول والآخر والظاهر والباطن والقادر على كلّ شيء. وكأنه تعالى يقول هنا بالفاظ أخرى مالهؤلاء المشركين لا يفهمون من كلّ صغيرة وكبيرة الإشارة والدليل على وجود من بيده مقاليد السّموات والأرض، فهل عميت بصائرهم عن هذه الحقيقة الواضحة للعيان؟ ولذلك قال: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾. أي أن جميع تصرفاتهم، وأسلوب تفكيرهم يغلب عليها الشرك الخفّي بالله ربّ العالمين.

والله تعالى هنا قد نبّه أذهاننا من طرف آخر إلى أنّ توحيد الله توحيداً خالصاً من شوائب الشرك، يساعد على صقل حواسنا، ويكسبها نظرة وفراصة رُوحِيّة، لاتأتى للمشرك الذي يُصاب في مقابل ذلك بعمى البصيرة. فإن مات على حاله هذا، يحشره ربّه أعمى يوم القيامة كما في طه ١٢٤: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً﴾ ونحشره يوم القيامة أعمى. قال ربّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى، وكذلك لنجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربّه، ولَعَذَابُ الآخرة أشدّ وأبقى. ﴿فهذا هو مآل ومصير المشرك البعيد عن توحيد الله الخالص من شوائب الشرك. أو لنقل إنّ هذه الآيات من سورة (طه) قد صوّرت لنا عاقبة المشرك الذي انتهج في حياته نهج التفكير المادّي المحض. والذي لا يعيد الأسباب إلى مُسببها الحقيقي الذي هو الله عز وجلّ.

وأعود إلى الآي من سورة يوسف عليه السّلام. فقد انتقل جلّ شأنه بعد الآيات التي ذكرناها، انتقل من المقدمات التي لاحفلناها، إلى النتائج المترتبة على غفلة هؤلاء المشركين، وقال: ﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله، أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون﴾. بمعنى أنّ للمقدمات نتائجها. والنتيجة المترتبة عن غفلة المرء وابتعاده عن التوحيد الخالص، هي أن ينزل به عذاب

وعقاب من بارئه، أو أن تأتي نهايته، وهو لا يحس بُدْثُها لاستغراقه في شركة وغفلته.

على هذه الصورة قد كشف ربنا جلّ شأنه عن أعيننا الغطاء منبهاً ومُحذراً إيانا من الوقوع في شبك الشرك الخفي كيلا نتحمل نتائج المِرْتَبَةِ عليه. فلما انتهى جلّ شأنه من بيانه الذي ذكرناه. راح يتكلّم عن سبيل المؤمنين الموحدين، وقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. والمعنى أنني كمسلم مُوحِدٍ لا أنتهج نهج التفكير المادي الذي ينتهجه هؤلاء المشركون شركاً خفياً، بل أحلّل وأبحث في كل ما يعرض لناظري. بمنطق إعادة هذا السبب إلى المسبب الحقيقي فأدعو بذلك إلى الله مسبب الأسباب. ولذلك فسيبلي ألا أمر على الآيات من حولي مرور الكرام.

وأضاف تعالى قوله: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي...﴾ وبهذه الألفاظ وضح لنا تعالى وسيلة المسلم في دعوته، وهي الأسلوب السلمي، والحوار على أساس الحجّة والبرهان. فالمعلوم أن هنالك وسيلتين لنشر الدعوات على اختلافها، ولثالث لهما. الوسيلة الأولى انتهاج سبيل العنف والقوة، والوسيلة الثانية انتهاج السبيل السلمي واللجوء إلى الحوار والإقناع، والله عز وجل عندما قال هنا ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ نبه إلى أن سبيل المسلم لنشر دعوته، هو السبيل السلمي القائم على الحوار والإقناع بالحجّة والبرهان، ذلك أنّ كلمة (بصيرة) تعني الحجّة والعقل والفطنة. وقوله تعالى (على بصيرة) أي على أساس الحجّة والعقل والفطنة وتقديم الشواهد والأمثلة. فهذا ما وضّحه لنا صاحب معجم (أقرب الموارد) لكلمة بصيرة.

فلما انتهى جلّ شأنه من بيان وسيلة نشر دعوة المسلم الموحّد، أضاف قائلاً: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي أنزه الله الذي أعطى الإنسان حرية الاختيار، أن يأمره باتخاذ وسيلة القوة والعنف سبيلاً لنشر دعوة الإسلام. فهذا هو المعنى المقصود من (وسبحان الله) هنا وهذا هو المعنى الذي يقتضيه التسلسل الموضوعي. وليس المقصود من (وسبحان الله) هنا، أنني أنزهه عن أن يكون له شريك أو ولد.

ثم أضاف تعالى قوله ﴿وَمَا أُنَا فِي الْمَشْرِكِينَ﴾ وليس معنى قوله هذا هنا "لست مشركاً"، فليس لهذا المعنى صلة بالتسلسل الموضوعي. بل المعنى هو أنني أدعو إلى الله بالوسيلة السلمية وطريق الحوار بالحجة والبرهان على اعتبار شعوري وإيماني بمسؤولية هذه الدعوة إلى الله والتي تتطلب مني تحمل المشاق في سبيل دعوة الناس إلى معرفة خالقهم وربهم، وما أنا من المشركين الذين لا يعرفون ربهم ولا يشعرون بمسؤولية الدعوة إليه.

وبهذه الألفاظ يكون ربنا جلّ شأنه قد نّهنا إلى عظيم مسؤوليتنا في حياتنا الدنيا، وأهمية إدراكنا الدقيق لمسألة الشرك والتوحيد، وبالتالي إدراك أنّ الله تعالى بيده مقاليد السماوات والأرض وهو مسبب الأسباب وعلام الغيوب.

وإن ألفاظ ﴿وَمَا أُنَا فِي الْمَشْرِكِينَ﴾ تسلّح المؤمنين بنظرة مستقلة إلى الكون من حولهم، وتدفعهم لينتهجوا نهج التفكير الروحاني، والاطمئنان إلى عواقب الأمور ونهاياتها ونتائجها التي ستكون في صالحهم، فلا ينطبق عليهم الإنذار الذي حمّله قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. بل ويطمئنون إلى عاقبتهم الحسنة وهي الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، وعلى الله فليتكّل المتوكّلون. ونعم سبيل المؤمنين الموحدين الحذرين من جميع أنواع الشرك الخفي خاصة.

ونخلص من جميع ما شرحناه، إلى أن الآيات التي ذكرناها والتي أتى بها جلّ شأنه بعد سرده لقصة يوسف عليه السلام، قد احتوت الأمور التالية :

أولاً - نبه تعالى أذهاننا إلى انقسام البشر إلى فئتين من المؤمنين به عز وجلّ. فئة مؤمنة موحدة، لا يشوب إيمانها شرك خفي، وينهج هؤلاء نهج التفكير الروحاني يتدبرون كلّ شيء من أشياء هذا العالم من زاوية نظر أن الله خالقهم هو مسبب الأسباب. فهو الأول والآخر والظاهر والباطن. وفئة مؤمنة إيماناً سطحياً يشوبه الشرك الخفي. فلا يتدبرون ماحولهم من أشياء من نفس زاوية نظر المؤمنين الموحدين، ولا ينتهجون نهج التفكير الروحاني بل المادّي، وهؤلاء يحكمون على الأشياء حكماً ظاهرياً، فلا يتعمّقون فيها ولا يتقصّون من خلالها وجود مسبب الأسباب.

ثانياً - وأنّ الفئة المشركة شركاً خفياً، لا بدّ أن تأتيمهم غاشية من عذاب الله وقصاصه، فلا تكون عاقبتهم خيراً، على حين أن الفئة الموحدة توحيداً خالصاً

من شوائب الشرك الخفي، والذي ورد بحقه قول رسول الله ﷺ: (إِنَّ الشَّرْكَ يَدْبُ فَيْكُمْ دَيْبَ النَّمْلِ). إِنَّ أفراد هذه الفئة من المؤمنين يكونون دوماً بمتجاجة من غواشي عذاب الله تعالى، وتكتب لهم الغلبة دوماً على مخالفيهم، وتكون لهم عاقبة الدار.

ثالثاً - وأن فئة الموحدين تقع على عاتقهم مسؤوليتان : الأولى مسؤولية شكر ربهم على الدوام على ما هداهم إلى معرفته. والثانية مسؤولية إنسانية تجاه غيرهم من الناس، وهي واجب دعوتهم إلى الله خالقهم وربهم على نفس الأساس الذي ينتهجونه وبأسلوب السلمي، وهو أسلوب الحوار (على بصيرة) أي على أساس من الحجج والبراهين. وبهذه الخصائص تتميز جماعه المؤمنين الموحدين عن فئة المشركين شركاً خفياً. ويكونون مصداق قوله تعالى ﴿وَمَا نَا مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾.

ونحن إذ استخلصنا هذه الأمور من تلك الآيات الكريمة. نعود إلى ألفاظ ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ...﴾ لتتوسع في فهم دلالاتها.

فما معنى (وكاين)؟ قال صاحب معجم محيط المحيط : إنها اسم مُركَّب من كاف التشبيه، ومن (وأي) المتونة. فكلمة (وكاين) تستعمل للإيحاء بغلبة أمر من الأمور. وبالتالي فإنَّ معنى ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ﴾ أي كم وكم من آية أي من دليل يزاءى، ويمرَّ المشركون شركاً خفياً عليها جميعها وهم معرضون لذلك يصح القول بحقهم : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

والسؤال الذي ينبغي علينا الإجابة عليه بعد وصولنا إلى هذا الحد من المعرفة، هو أن نضرب مثلاً يوضح نهج الموحدين، فكيف يتميز الموحدون عمَّن سواهم من الناس؟

و أعود بالقارئ العزيز إلى مثال المركبة الفضائية الذي قدَّمته له من قبل. لئيساعدنا ذلك على هذا الطريق.

فلاشك أنَّ الذين صمَّموا المركبة الفضائية، قد وضعوا عند تصميمها عدة اعتبارات في حُسبانهم: اعتبار الحجم لتتسع المركبة لعددٍ مُحدَّد من الرُّواد، إضافة إلى ما يحتاجونه من طعام وشراب ووسائل ترفيه وهذا بالإضافة إلى التجهيزات والأدوات التي سيجهزون بها المركبة وما إلى ذلك من أشياء. ونوعية المعدن الذي يصنعون منه المركبة، والذي يساعدها على تحقيق رحلتها بسلام.

وأهم اعتبار هو كيف سيهيمنون على رحلة هذه المركبة الفضائية ويسيطرون عليها في جميع مراحل رحلتها. كيلا تضلّ طريقها وتذهب ريحها، فلا تؤدّي الغرض من تصميمها وصنعها.

والذي يتدبّر القرآن الكريم يُلاحظ أنّ خالق هذا الكون في مقابل صانع هذه المركبة الكونية والمؤلف من شمس وكواكب وسيارات لاتحصى والتي تشكّل مجموعها مايتشابه مع مثال هذه المركبة الفضائية مع الفارق بينهما بما لا يُقاس بمقاييسنا المعروفة.

أقول إن خالق هذا الكون قد أخذ بحسبانه نفس الاعتبار الثلاثة التي راعاها مُصمّمو هذه المركبة الفضائية بما يتعلّق بالحجم والمعدن والمقصد من الخلق والإبداع. وكما أنّ قيادة المركبة الفضائية الأرضية تظلّ هي مهيمنة ومحركة للمركبة من بعيد، ومن وراء ستار، وبتقنيّة تذهل الأبصار. فإنّ خالق هذا الكون قد ترك مقاليد السماوات والأرض بيده، وبتقنيّة لاندرك ماهيّتها، وهو بذلك مُسبّب الأسباب.

أفلم نقرأ قوله تعالى من سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، فَاعْبُدُوهُ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟﴾. فهما هو الله جلّ شأنه يصرّح هنا أنّ خلق هذا الكون مرّ بستّة أدوار، وأنّه هو تعالى (يدبّر الأمر) بعد أن استوى على العرش، عرش تسيير هذا الكون، فالتدبير في اللّغة هو عملية إجراء التّغيير في الأسباب، فأنت تقول دبّر الأمر أي نظري عاقبته وتفكّر واعتنى بالأمر وربّه ونظّمه. وتقول دبّر الوالي إقطاعه : أي أحسن سياسته.

كما نبّه تعالى من خلاله قوله هنا: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ إلى إمكانية الاتصال به عز وجلّ. فالشفيع من شَفَعَ أي جمع مأين طرفين مُتجانسين. تقول شفعت الجمل بقافلتة أي جمعتهم بأمثاله من الجمال. والحقّ يُقال إنّ الله تعالى جعل سلسلة الأنبياء والصالحين وسيلة هذا الاتصال فيما بينه وبين عباده ليربطهم به برابطة الحُبّة والعرفان. ولهذا السّبب أنهى الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟﴾ فهو استبدل بـ (هو) اسم الإشارة للبعيد (ذلك) تعظيماً لشأن عملية الخلق هذه والتي أنجزها (ربكم) أي الإله الذي

يشرف على تطويركم نحو التمام والكمال. ﴿فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تقبلون هذه النصيحة وهذا الإفصاح عن هذه الحقيقة وتكونون ممن يحقق المقصد من خلقه ووجوده؟

فهذا الكون مخلوقٌ إذن بنص القرآن الكريم الذي سبق أن أثبتنا مصداقيته. وهأن نظرية الانفجار العظيم التي طلع بها علينا العالم الفيزيائي غاموف آيدت ذلك، وقدّرت بالحساب التقريبي أن عملية خلق هذه المركبة الكونية قد تحقّقت قبل (١٢-٢٠) مليار عام. وهأن الفيزيائي الشهير (جون ويلر) قال: (إننا ننظر إلى الكون على أنه يستهدف الحياة والإنسان. فلماذا يكون العالمُ بهذا الاتساع؟ لأننا موجودون فيه. فرحابة الكون تعتبر سبباً في جعل الحياة مُمكنة). وأضاف يقول: (وبالرغم من أن الإنسان لايشكّل مادةً مركز الكون، فهو على ما يظهر في مركز الغاية من خلق هذا الكون).

إنّ ما ذكره القرآن الكريم، وما أيده العلم، يدور جميعه حول اعتبار تصميم الكون وحجمه بما يوازي الاعتبار الأول في مثال المركبة الفضائية والمتعلق بالتصميم والحجم.

وقد قال تعالى في سورة الأنعام مشيراً إلى الاعتبار الثاني في مثال المركبة الفضائية والمتعلق بالمعدن المصنوعة منه، فوضّح المادة التي صنع منها هذا الكون السّابح في الفضاء بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجْلاً، وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ، ثُمَّ أَنْتُمْ مَعْرُونٌ. وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ، وَمَاتَّائِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا وَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

والله تعالى أجمل في هذه الآيات الكريمة جميع مايتعلّق بمعدن هذه المركبة الفضائية وتجهيزاتها ورؤاها وصلته تعالى بها وتدخّله في كل صغيرة وكبيرة فيها وكونه مسبّب الأسباب.

فهو قال ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ فأجمل كل مايتعلّق بالمادة المصنوع منها هذا الكون، فلم يقل ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾، ليشير من خلال كلمة ﴿مِنْ طِينٍ﴾ إلى عناصر المادة المخلوق منها هذا الكون الترابية وإلى عنصري الهيدروجين والأكسجين خاصة اللّذين شكّلا الماء الذي هو أساس الحياة.

وهو تعالى قال ﴿خَلَقَكُمْ﴾ ولم يقل ﴿خَلَقَكُمْ وَالْعَالَمَ مِنْ حَوْلَكُمْ﴾ لأنَّ الإنسان قد رُكِبَ أصلاً من هذه العناصر التي رُكِبَ منها هذا الكون، ويتوقف نموه أيضاً على تغذيته بهذه العناصر أيضاً، وهو ماتنتبه الأرض. وهو تعالى حين قال ﴿ثُمَّ قَضَى أَجْلاً، وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أشار إلى أنَّه قضى ألا يعيش الإنسان إلاَّ أجلاً محدوداً، كما أنَّه قضى أن يكون لهذه المركبة الكونية (أجلٌ مُّسَمًّى عنده).

فلما أضاف تعالى قوله ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ نبّه إلى وحدة القوانين في السماوات والأرض وهيمنتها تعالى عليها. فالسماوات والأرض كلُّ مُتَكَامِلٍ لَا يَتَجَزَأُ.

وأضاف قوله ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي أنه جل شأنه صنع هذا كله مُجهَّزاً بأجهزة خافية عن الأعين بحيث تمكنه من أن ﴿يَعْلَمَ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمَ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

وهو تعالى عندما أنهى هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ نبّه إلى أن الآيات ستكشف عن أن كلَّ شيء خلق من عنصري المادة والروح، وستأتي الاكتشافات العلمية بما يؤيد ذلك، ولا يستفيد من تلك العلوم من كان تفكيره ماديّاً، لا يربط الأسباب بعسببها.

هذا وقد جاءت الاكتشافات العلمية مؤيدة لجميع ماتضمنته هذه الآيات الكريمة ولذلك فليراجع القارئ للاستزادة مؤلّفي (نظرية جذور الأخلاق) و (النظرية القرآنية الكونية حول خلق العالم) بهذا الخصوص.

وأما الاعتبار الثالث، بما يتعلق بالغاية من الصنّع والتصميم، فقد وضح لنا كلام الله المقدّس أنه كان المقصد من خلق هذا الكون كله هو خلق هذا الإنسان ليُعرفه الله على نفسه فيتّصف بصفاته عز وجلّ ويحصل بذلك على هوية التّجانس معه والتي تؤهله لحياة الخلود في مملكته التي لا تحدها حدود.

وإلى ذلك أشار تعالى بقوله في سورة الذّاريات: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ. وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون. وما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِين. فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا

ذُنُوباً مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ. فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِينَ يَوعَدُونَ ﴿١﴾. وهذه الآيات شرحناها عند بحث المقصد من خلق الإنسان، بما يغنيننا عن التفصيل فيها في هذا المقام.

ويكفي من الوجهة العلمية أن ننقل تصريح العالم الفيزيائي الشهير (ايرون شرودونغر) الذي قال فيه: (هذا الكون من دون الإنسان هو أشبه شيء بمسرحية تُتمَلُّ في قاعةٍ تخلو مقاعدها من جمهور المشاهدين).

وقد كتب العالم الفيزيائي (جون ويلر) أيضاً يقول: (بالرغم من أن الإنسان ليس مادة مركز الكون، إلا أنه على ما يظهر في مركز الغاية من خلق هذا الكون). وإن أقوال هذين العالمين وسواهما تؤيد ماأعلنه الله خالق الكون والإنسان فيما رأيناه من آيات.

وبالإمكان تلخيص ماذكرناه بالأمر التالية :

أولاً - الكون والإنسان مخلوقان. وأفلاك هذا الكون بما فيها الأرض (كلُّ في فلكٍ يسبحون) بما يشبه حال المركبة الفضائية.

ثانياً - وأن عناصر مادة هذا الكون، أساس نسيج هذا الكون كله بما فيه. بمعنى أن كل شيء من أشياء هذا العالم من مادة وروح.

ثالثاً - وأن الكون مسخرٌ جميعه لصالح الإنسان ووجوده وليتعرّف إلى خالقه ولليقترب ويستفيض من عطائه. والله (يدبر الأمر) فهو مسبب الأسباب.

والآن، أقدم لقارئ العزيز مثلاً من الأمثلة الدالة على أن الله الخالق هو مسبب الأسباب، وهو الذي بيده مقاليد السموات والأرض. وكيف أن هذا المثال يشكّل آيةٍ يمرّ عليها أصحاب التفكير المادي الذين يُخالط إيمانهم شوائب من الشُّرك الخفّي. وهذا المثال هو عقل الإنسان.

٢ - العقل ذاته دليل وجود الله مسبب الأسباب

وأضرب مثال العقل، على اعتباره مثلاً من أنفسنا. لقوله تعالى قال في سورة الذاريات (٢١). ﴿وفي الأرض آياتٌ للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون.﴾ فالآيات المبصرة لا تقتصر على الأرض بل وفي أنفسنا أيضاً. لذلك

أضاف تعالى قوله ﴿فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْتُمْ تَنْتَقِبُونَ﴾. فالآيات الدالة على وجوده تعالى تتراءى حيثما اتجه الإنسان وفي نفسه أيضاً. أي أنّ التوحيد الخالص من شوائب الشرك الخفي يثبّت الإنسان المؤمن على البحث في كل شيء بالأسلوب العلمي، لتقصّي الآيات الدالة على مسبب الأسباب.

لذلك أتناول عقل الإنسان أبحث في شأنه وبالأسلوب العلمي فالعقل كما هو معلوم، هو أئمن ملكة أوتيها الإنسان بعد أن أوتي الإرادة وحرية الاختيار.

نتساءل : هل أن الدماغ وقشرته الخارجية هي العقل نفسه، حتى إذا مات الإنسان وتلف دماغه، يتلف معه عقله أيضاً؟ أم أنّ العقل لا يخضع بالموت للتحلل الذي يطرأ على جسم الإنسان؟

هذا السؤال راود الإنسان منذ فجر تاريخه وإلى يومنا هذا. ونحن كمؤمنين وإن كنّا نعتقد من خلال هدي القرآن الكريم بخلود العقل مع نفس الإنسان، على اعتباره جزءاً منها لا يتجزأ عنها، وهذا ما يدفعنا إليه التوحيد الخالص كما ذكرت.

والمؤسف أن يقوم بهذه الأبحاث علماء الغرب في عصرنا، على حين يغطّ علماء المسلمين في شُبَاتٍ رهيب.

أقول : إن علماء أوربة، انطلقوا بنهج تفكير مادي منذ فجر نهضتهم حاذفين العامل المساعد للعقل على مستوى الغيبيات، ألا وهو الوحي السماوي. فراح علماءهم في القرن التاسع عشر ومقبله يزعمون أنّ التغيّرات المادية هي أساس أفكار الإنسان، ولا وجود لشيء مستقلّ يُسمّونه العقل، حيث كتب عالمهم الفيزيائي (هكسلي) يقول: (يبدو أنّ الوعي مُتّصلٌ بآليات الجسم كنتيجة ثانوية لعمل الجسم لأكثر، وأن ليس للعقل أيّ قدرة كانت على تعديل عمل الجسم. هذا مثلما يُلازم صغير البخار المتصاعد حركة القطار دونما ترك أيّ تأثير على آليتها).

على حين تبيّن لعلماء القرن العشرين الأوربيين عكس ماذهب إليه (هكسلي) المذكور، فهذا العالم الفيزيائي شرنغتون يقول: (وهكذا ظهر فرقٌ جوهريٌّ بين الحياة والعقل. فالحياة هي مسألة فيزياء وكيمياء، أمّا العقل فهو

يستعصي على الفيزياء والكيمياء.^(١) أي أن أنشطة العقل مستقلة عن آليات الفيزياء والكيمياء، وإن كانت هذه بالنسبة للعقل وسيلة وأداة ليس إلا.

وقد أيده العالم الفيزيائي (جون إكلس) فيما ذهب إليه. وذلك بعد أن انتبه هذان العالمان إلى أن قشرة الدماغ البصرية تتلقى النبضات عن طريق العصب البصري، هذه النبضات التي ترسلها شبكية العين، فلا تغير هذه النبضات لون هذه القشرة الدماغية البصرية. الأمر الذي دعا هذين العالمين للتساؤل : أين مكان اللون في هذه العملية؟

وهذه الملاحظة دفعت (إكلس)^(١) ليقول: (ألسنا لانزال كالأطفال في مجال التفكير في أعجوبة التجربة الواعية؟ فالبصر مثلاً يُعطينا في كل لحظة صورة ثلاثية الأبعاد، لعالم خارجي. وهو يُركَّب في هذه الصورة من سمات الالتماع والتلون مالا وجود له إلا في الإبصار الناشيء عن نشاط الدماغ. ونحن بالطبع ندرك الآن النظائر المادية لهذه التجارب المتولدة من الإدراك الحسي: كحدة المصدر المُشعّ والطول الموجي للإشعاع المنبعث. ومع ذلك فعمليات الإدراك ذاتها تنشأ بطريقةً مجهولةً تماماً عن المعلومات المنقولة بالرموز من شبكية العين إلى الدماغ). وهكذا فإن (إكلس) يرى أن العقل يُعيد تركيب الصور من أنماط النبضات المرموزة، وهو يقسم بذلك عملية الإدراك الحسي إلى مراحل ثلاث، الأولى : وجود المنبّه الذي يُنبّه عضو الحس كالصورة مثلاً. والمرحلة الثانية : يمثلها انتقال النبضات العصبية إلى الدماغ. والمرحلة الثالثة : هي مرحلة النشاط العصبي المُثار في الدماغ، وفي هذه المرحلة الثالثة تتحلّى مُعجزةً مذهلةً حيث تتم عملية ترجمة مُزدوجة لهذه النبضات العصبية، ممّا يعسر تفسيره عن طريق الفيزياء والكيمياء.

وأيد رأيّه العالم الفيزيائي (شرنغتون) حيث قال: إنَّ مُخطّط الطاقة، وهو المرحلتان الأوليتان لعملية الرؤية والإدراك الحسي، توصِلاننا فقط إلى عتبة فعل الإدراك وتودّعنا هناك ولا تُعطينا أية إشارة أخرى على المستوى المادي الفيزيائي والكيميائي.

(١) - العلم في منظوره الجديد - ترجمة كمال خلالي

(١) - المرجع نفسه

وخلّصَ هذان العالمان الفيزيائيان من ذلك كلّهُ إلى الاعتراف بوجود العقل مستقلاً عن الجسم، وأنّ الحواس جميعها، ماهي في مواجهة العقل إلاّ وسائل وأدوات. وأنّ العقل هو المرجع الأخير وصاحب الاستنتاج والفكر والقرار. وضرباً على ذلك مثلاً، الذاكرة التي لاتستحيض التجربة الماضية فحسب، بل تستحضرها بوصفها حدثاً ماضياً، ثمّ يدعو إلى الدهشة أن نتذكّر شيئاً منسياً ومرتبطاً بأمور أخرى غيره أيضاً.

كما ضرباً لنا مثلاً آخر وهو قوّة مُخيّلة الإنسان. فالخيال هو ملكة حسيةٌ داخلية، يستخدم المعلومات الواردة من الحواس الخمس الخارجة عنه بحريّة وبطريقةٍ إبداعيةٍ أيضاً. وقس على ذلك بقية الملكات الإنسانية : كإدراك حكم الأفعال، والإحساس بالعواطف كالحبّ والغضب مثلاً. ذلك أنّ العواطف ليست أفعالاً تندرج تحت الإدراك الحسيّ.

فالعقل في نظر هؤلاء العلماء يُمكنُ صاحبه من إدراك ماهية الأشياء. وهذا أمرٌ لاتستطيع الحواس القيام به. إذ أنّ الحواس تقف عند حدّ نقل الصورة الخارجية لحيوان مُعيّن، من حيث حجمه وشكله ولونه. أما العقل فيقوم بعمليةٍ أعظم تعقيداً، وهي أن يُعرّفنا على الحيوان نفسه، من خلال مُعطيات الحواس. والعقل هو الذي يصنع العلم، ويكتشف ماهية الأشياء وعِلَلها. وماالحواس في العملية إلاّ مجرد أدوات.

وقد أجرى العالم (بنفليد) تجارب جراحية على قشرة الدّماغ منذ الثلاثينات وحتى السبعينات، من هذا القرن. وكتب مؤلفاً مشهوراً (لغز العقل The Mystery of the Mind) حاول أن يثبت فيه أنّ لامركز في قشرة الدّماغ للإدراك. وأنّ عمل العقل، ليس إلاّ عمل آليّ، بمعنى أنّ الدّماغ ليس مقرّ العقل أو الإرادة، فلايستطيع تنبيه المريض كهربائياً، جعله يعتقد أو يقرّر شيئاً ما، ذلك على اعتبار أنّ العقل البشريّ والإرادة ليس لهما أعضاء جسدية. لذلك نجد أنّ الإنسان يتصرّف بحريّة الاختيار. وهذه الحقيقة التي بات يسلم بها علماء عصرنا، لاتتنافى ومفهوم الأسلوب العلمي في البحث والدراسة وتقصي الحقائق.

كذلك فإنّ العالم الفيزيائي (سري) قد أيّدت تجاربه وأبحاثه جميع المعطيات والنتائج التي ذكرناها. وانتهى من ذلك كلّهُ للقول إنّ توقع العثور على

العقل في أحد أجزاء الدماغ، هو أمرٌ أشبه ما يكون بتوقع وجود إنسانٍ يبرمج حاسبته الألكترونية داخل هذه الحاسبة.

والعالم (إكلس) قد جزم بأنَّ العقل والإرادة هما كيانان غير مادّيين، وملكتين : (لا تخضعان للتحلّل والفناء بعد موت الإنسان. هذا التحلّل والفناء الذي يطرأ على جسم الإنسان ودماغه كليهما.) أي أنَّ العالم (إكلس) أثبت وجود الجسم والروح، ككيانين مُستقلين، بأسلوبٍ علميٍّ واضح.

فهذه هي حصيلة تجارب العلماء من غير المسلمين في هذا القرن. على حين كان ينبغي أن يقوم بهذه الأبحاث والتجارب، من كان من المسلمين الموحّدين، ليستدلوا من نتائج، أبحاثهم على عظيم صدق القرآن الكريم فيما هدانا إليه. لكنّ الذي حال دونهم، ابتلاؤهم. عرض الشرك الخفيّ وتخلّفهم، وابتعادهم عن نهج التفكير الروحاني.

ولا يُغرّنّا أن توصّل علماء أوربة، أصحاب نهج التفكير المادي، إلى هذه النتائج السّارة، التي عادت تؤهلّهم لقبول الإسلام ديناً لهم، فهم لم يقطعوا إلّا نصف الشّروط المطلوب اجتيازه على هذا الطريق. فهم لم ينطلقوا من مُطلق ضرورة طاعة الله ومحاولة التعرف إليه عن طريق هذا البحث العلمي، وخسروا بذلك أمر التّقرب إلى خالقهم. وهؤلاء يصدّق عليهم قول ربّنا جلّ شأنه: ﴿قُلْ هلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ، فَحَبَّطْتُ أَعْمَالَهُمْ، فَلَا نَقِيمَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنّاً، ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَنَّهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُولاً﴾. الكهف (١٠٣).

المهمّ ممّا ذكرته، هو أن البحث في كلّ شيء في الأرض وفي أنفسنا، والغور إلى أعماقه لاكتشاف كنهه ومعرفة الأسس والقوانين النّازمة له، ومن مُطلق أنّ خالقنا هو المصمّم والمبدع الحقيقيّ ومسبّب الأسباب في هذا الكون، هو واجب كلّ مسلم مؤمن موحّد من أسلم نفسه لله خالقه وآمن بعظيم علمه وقُدّراته، وأنّه تعالى قد صمّم عالمنا على أساس أن يخلّقنا ويسخر كلّ شيء لفائدتنا، لنصبح من عباده ونسعى إلى معرفته والتّقرب منه. فكلّ شيء من حولنا يشكّل في حقيقته آية دالّة عليه عز وجلّ، ولا يمرّ بها مكتفياً بنظرة سطحيّة إلّا من كان ذا تفكير مادّي بحت، ومشركاً بالله شركاً خفياً.

ولابدّ أن لاحظ القارئ من مثال بحث العقل، كيف أنّ من بحثوا من علماء الغرب في أمره، ولو بتفكير مادي بحت، قد توصّلوا إلى نفس ماأرشدنا إليه القرآن الكريم بشأنه.

فالمسلم الذي اراد أن يكون من الموحّدين، يتقصى نفس ماتقصّاه هؤلاء الغربيين، إنما يتهج تفكير روحاني، ليزداد يقيناً بوجود ربّه على يقينه به، وطاعة له، واندفاعاً أكثر في السعي لمعرفته والتّقرب منه والتزوّد من عطاءاته. ذلك أن البحث واحدٌ في مضمونه، لكنّه مختلف في آثاره النفسية، فهأنّ الشعوب الغريبة كلّما تقدمت في مجال العلوم، ازدادت طلباً للرّفاه والانغماس في ملذات الشّهوات، وبُعداً عن خالقها.

على حين أنّ العالم الإسلامي لو انتهج نهجاً روحياً وبحث نفس الأبحاث وحصد نفس النتائج يزداد زُهداً بملذات الحياة المادية، ويزداد اندفاعاً في مجالات التقوى والإقبال على عبادة الله والتّعرف إليه. فلا يُمضي حياته بهيمياً ضالاً في بيداء هذا الكون الفسيح.

وقبل أن أنهى مثال العقل، أحذّر من أن تغيب عن ذهن القارئ حقيقة صرّح بها العالم (اكلس)^(١) وهي أنّ العقل والإرادة: (لا يخضعان بالموت للتّحلّل الذي يطرأ على الجسم والدّماغ كليهما). ذلك أنّ هذه الحقيقة التي صرّح بها هذا العالم والذي انتهت أبحاثه وأبحاث سواه من العلماء إليها، تساعد على تفهّم دلالة الآية (٤٢) من سورة الزّمر: ﴿اللّٰهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فالعقل يستمرّ في أداء مهمّته في حالة النّوم. والنائم يفكر في منامه كما يفكر في حال يقظته. وإنّ التّخبط الذي يشاهده النائم في تفكيره في حال نومه، إنّ دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على أنّ موازينه العقلية خلال فترة يقظته مهتزة غير سليمة.

ويُستنتج أيضاً أنّ العقل على حين يستعين بحواسه الخمس في يقظته، يقع في حالة النّوم تحت تأثير سيّئات أعماله ودواعي فيزيولوجيته، وما تحدّثه

(١) المرجع السابق نفسه

العوامل الخارجة عنه من آثار وردود فعل في تفكيره في منامه وتحتسّد جميع هذه الآثار فيما يراه النائم.

وكما أنّ الإنسان المؤمن اليقظان يتلقّى في يقظته بشارات ربّه وكلامه على قدر منزلته الروحية، لكن ذلك الحال في المنام يتلقّى هذا المؤمن النائم بشارات ربّه وكلامه المقدّس أيضاً، ويشكّل هذا الأمر فارقاً كبيراً بين المؤمن الموحد، وبين من لا يدين بالإسلام ديناً.

ولا ينبغي أن نفعل عن أمر هام أشار إليه قوله تعالى: ﴿... والتي لم تمت في منامها...﴾. فالإنسان في حالة النوم (مُتَوَفًى) وحالُه في نومه مؤشّر يدلّه على نوعية حياته التي سيحيها في عالم ما بعد الموت. أي أنّ النائم يكون قد دخل عالم البرزخ حقيقة. فلينظر كيف يصلح حاله في يقظته ليصلح حاله في نومه. فالحجّة ملقاة عليه يوماً من جانب الله الذي خلقه وطوره وسواه وهده.

والذي يهمُّنا هو أنّ الحقيقة التي توصّل إليها علماء أوربة المعاصرون من أنّ العقل باقٍ لا يخضع بالموت للتحلّل، إنّما هي حقيقة أيدتها الآية القرآنية المذكورة وسواها من الآيات الكريمة. وأكبر برهان على صحتها هو رؤى النائم نفسها، فالتائم يفكر في منامه كما يفكر في يقظته، فالعقل لا ينام مع نوم الحواس الخمس التي تشكّل أدواته المساعدة في يقظته.

لقد جرى الكتاب على تسمية المخلوقات من غير البشر، مخلوقات غريزية، فما معنى غريزية؟ نقول غريز فلانّ عوداً في الأرض. بمعنى أثبتته فيها. فالغريزة هي تلك الصفات المغروزة في فطرة المخلوقات من غير البشر بصورة طبيعية، وتحرك الحيوان باتجاه ما تقتضيه صفاته تلك دون وعي منه أو إرادة أو استقلالية تفكير. وهذا هو الأمر الذي دعاه عز وجلّ ليقول عن الناس الذين لا يستعملون عقولهم: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

ويكفي القول أخيراً ممّا تبيناه وعلمناه، أنّ العقل البشري هو كيان غير مادي، ولا يخضع للفيزياء والكيمياء، فهو في الأصل كيان خاضع لموجده جلّ شأنه مباشرة: يسلبه متى شاء، ويجوهره حسب مشيئته هو. لأنه جلّ شأنه وحده القادر على ذلك، ويعلم أسرارهِ وحقيقته من جهة ثانية.

ألا إن مثال بحث موضوع العقل الذي شرحت بعض جوانبه الهامة، هو مثال واحد على ما احتوت أنفسنا من آيات دالة على وجود ربنا مسبب

الأسباب. وحثاً على القيام بمثل هذه الأبحاث العلمية نزل قول الله عزوجل: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ..﴾ وإنّ أمثال هذه البحوث هي التي تصل بالمؤمن إلى تحصيل علم حقّ اليقين.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو: هل دلّنا القرآن الكريم على وسائل صيانة عقولنا من التلف المعنوي؟ أقول: نعم وسأقدم على ذلك مثلاً واحداً لضيق المقام.

٣ - أسس صيانة عقل الإنسان

أبدأ بتحديد معنى دلالة كلمة (عقل). فقد أورد صاحب معجم (محيط المحيط) أنّ العقل من عقل بمعنى ربط وأحكم، أي أنّ العقل أداة ربط وأحكام. كما بيّن أنّه بالعقل تدرك المحسوسات عن طريق مشاهدتها. كما تدرك بالعقل الغائيات عن طريق الوسائط. فالعقل تبعاً لذلك هو أداة وعي الإنسان. ويتحقّق وعيه بربطه بين الأشياء بعملية ذهنية تحكم ربطه المذكور سواء على صعيد الأشياء المادية المحسوسة، أو على صعيد الأمور الغائية الحكيمة غير المادية..

والحقّ أنّ معطيات القرآن الكريم تؤيد ما أفادنا به صاحب هذا المعجم، إنّما ينبغي لنا أن نضع نصب أعيننا أنّ محاكمات العقل الذهنية على مستوى الأمور الغيبية، يستحيل أن تأتي صحيحة إلا بمساعدة عامل الوحي المساعد الذي أشرت إليه في مؤلفي (نظرية جذور الأخلاق). فلا بدّ للعقل من عوامل مساعدة ثلاثة لأنّ العقل يعمل على مستويات ثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل.

أمّا على صعيد الماضي، فالملخطوطات والآثار والمستحاثات تشكل عاملاً مساعداً للعقل لإعطاء أحكامه الصحيحة، وإلاّ تظلّ أحكامه من قبيل التخمين والظنّ. وأمّا على صعيد الحاضر فلا بدّ للعقل من الاستعانة بالملاحظة والتجربة والاستنتاج، وأمّا على صعيد المستقبل الغيبي، فالوحي السّماوي هو الذي يساعد العقل على إصدار أحكام صحيحة .

وقبل الكلام عن أسس صيانة عقل الإنسان، لنلاحظ كيف أن الجنين حين تضعه أمّه ويُطلّ على عالمنا الدنيوي، تكون جميع تصرّفاته بدائية غريزية لاوعي فيها ولا إدراك. ومن ثمّ ينشأ وعيه ويتكوّن على حسب ما أفادنا به قول

رسول الله ﷺ من أن الطفل يولد على الفطرة، فأبواه إما يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، حائثاً المسلم على توجيه وعي مولوده توجيهاً إسلامياً صحيحاً. فهذه حقيقة ماثلة أمام أعيننا وهي أن الاختلاف في وعي الأفراد من البشر، يتأتى عن اختلاف التوجه وأساليبه. فهذه الاختلافات في اتجاهات الناس هي المعضلة التي زلزلت أركان السلم في العالم. ومن هنا تتأتى أهمية الكلام عن أسس صيانة عقل الإنسان.

والآن أعرض الوصية الأهم في هذا المجال. هذه الوصية التي زدنا بها قول الله عز وجل في سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا، أَنْ تَصِيغُوا قَوْماً بَهِالَةً فَتَصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾. والمراد من (فتتبَّعُوا) أن طالبوا بالبينّة على كلّ أمر يحدثكم به آخر. والبينّة هي الحجّة والبرهان. فإلى هذه النصيحة وردت الإشارة في قوله تعالى ﴿... أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ...﴾ والبصيرة في اللغة هي كما سبق أن بينت معناها الحجّة والبرهان.

فهذا الأسلوب التربوي السامي والمتصف بالعلمية، وجّه الله عز وجل المسلم إلى الأساس الأهم لصيانة عقله من التعقّن والتسبّب. أي وجّهه كي يبقى حذراً من التقليد الأعمى وميئاته. هذه السيئات التي تجلّت في سلوكيّة المقلّدين تقليداً أعمى لما توارثوه، وقعدوا عن المطالبة بالبينّة بأسلوب الحوار والحجّة والبرهان في تاريخ البشر على الدوام، وأقاموا عقائدهم على الظنون والأوهام.

نتناول ما حدث زمن بعثة نوح عليه السلام بينه وبين قومه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هود (٣٢) - فنوح قال لقومه إنه ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ومعنى "مبين" أي موضح دعواي وإنذاري بالبينات أي بالحجج والبراهين. فهذه وسيلتي لدعوتكم بالسلم والحوار.

ولنستمع إلى ما أجابه قومه، فهل قبلوا الحوار بالحجّة والبرهان؟ ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشِراً مَثَلُنَا، وَمَا نَرَاكَ إِلَّا كَاذِبِينَ﴾. فقوم نوح كما يبدو من هذه الآيات أولاً - تناسوا أن آدم كان نبياً وكان بشراً.

ثانياً - ولم يعمدوا إلى طلب البينة ولم يحاوروا، بسبب أنهم ماعودوا عقولهم على هذا الأسلوب في الفصل في الأمور، وأضحوا مقلدين لسواهم من المتنفذين تقليداً أعمى ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ فموازينهم الفكرية ومحاماتهم كانت مهتزة.

ثالثاً - ووفقاً لمعايير مجتمعهم ظنوه من الكاذبين، أي أنهم اعترفوا بأن أحكامهم قائمة على أساس من الظنون، وليس على أساس الحوار المستند إلى الحجة والبرهان.

من هذا المثال يدرك القارئ الكريم مدى الخطر الناتج عن ابتعاد العقل عن أسلوب الحوار بالحجة والبرهان أي هجره للبينة واعتماده الظن سبيلاً في محاماته العقلية.

إن ابتعاد البشر عن هذا الأساس الذي يصون عقولهم من الإهتزاز والتعفن، شكل السبب الرئيسي في ظهور أدوار التخلف والاضططاط التي تعاقبت عليهم خلال تاريخهم الطويل. وقد كانت بعثات الأنبياء والمرسلين هي الأداة السماوية لإعادة الإنسان إلى استعمال عقله استعمالاً صحيحاً على الدوام. فكم هو عظيم هذا التعليم الذي احتواه قوله تعالى من سورة الحجرات: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾. وفي رأيي أن نزول هذه الآية الكريمة في المدينة المنورة وليس في الدور المكّي، فليشير خطابها إلى مسلمي عصر تخلف المسلمين وانحطاطهم وهو عصرنا الحاضر، على حسب ما يفده تسلسل الآيات الموضوعي. وهو أمر بالإمكان الرجوع إليه في كتابي (فن الاختزال) عند الكلام فيه عن سورة الحجرات خاصة.



المبحث الثاني
العِرْفَانُ الإِلَهِي
الباب الأول

الفصل الأول : ١- أهمية الموضوع :

عندما يتلو مؤمن سورة الفاتحة ويقول: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ يُقرّ من خلال هذه الألفاظ أن جميع أنواع الحمد والثناء لا يستحقّها على سبيل الأصلة إلا خالقه الله عز وجل.

كما يقرّ أن ربوبية الله تشملته وتشمل كل شيء في عالمنا الدنيوي بأعطياتها وعناياتها وتفضلاتها، سواء أوعى هذا المخلوق ذلك أم لم يعه. أفلا يلاحظ المرء كيف أنّ وعي الطفل الحدث يكون محدوداً جداً، فلا يعي ما يبذله والده من سهر عليه وجهود جبّارة يبذلونها حفاظاً عليه ليشبّ ويكبر وليكون مستقبله زاهراً؟ لذلك يقرّ المؤمن بعد بيعته من خلال قوله ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هذا الإقرار ويسلم ذاك التسليم.

وليظل يدعو ﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين.﴾ يظل يدعو بهذا الدعاء أملاً في تنمية وعيه ولينمو عرفانه بالله وهو الذي آمن بوجوده نظرياً.

وعليه فإنّ المؤمن إذا لم يسلك سبيل التعرف إلى خالقه ويسرّ على طريق عرفانه، لا يكون إيمانه وبيعته تلك قد تجاوز زمن ولادته الروحانية، من هذا ندرك أن أهمية العرفان الإلهي لا تقل أهمية عن مرحلة الإيمان نفسه. ذلك أنّ الإيمان يتأتى عن محاکمات ذهنية، على حين أنّ العرفان الإلهي يتأتى عن مرحلة تعامل هذا المؤمن مع ربه على شاكلة تعامل الوليد الحدث مع أبويه ليكتمل عرفانه لهما والقيام بواجب برّهما وردّ إحسانهما الذي أحسناه إليه. ومرحلة العرفان الإلهي هذه هي التي توصل هذا السالك إلى تحقيق المقصد من خلقه والذي نصّ عليه قول الله عز وجل: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ أي ليعرفوني على حسب ما وضحت ذلك في (نظرية جذور الأخلاق).

ثم إنَّ لدرب العرفان الإلهي ومحاولة الاتصال بالله الخالق كنه الروحية ونورها المضيء وجاذبيَّتها ومغناطيسيَّتها. والمؤمن المبايع الذي لا يسلك درب هذا العرفان الإلهي، يُصاب بأمراضٍ مقيتة كالفهم الحرفي للنصوص القرآنية والتعصّب الأعمى الذي طالما فرّق بين المتديّنين، وبتشنّجات تصيب سلوكه وحركاته. وهو الأمر الذي يلاحظه المرء في أوساط أتباع مختلف الدّيانات البعيدين أصلاً عن روح الدّين.

هذا وإنَّ من يراجع تاريخ الدّيانات، وتاريخ المسلمين خاصة، يُلاحظ أنهم انقسموا إلى فريقين: فريق المتصوّفة وفريق غير المتصوّفين، وتباين هذا الانقسام إلى درجةٍ راح المرء معه يتساءل: ألكل فريق من هؤلاء دينه الخاص به أم أنّ الإسلام بالإمكان تجزئته إلى سبيلين؟ والسّر الكامن وراء هذا الانقسام الحاصل، يعود إلى جهل المسلم بحقائق وتعاليم دينه التي تتطلّب منه تحصيل معرفة ربّه بعد إذ هداه هذا الرّبّ للفتنة بوجوده وليعة رسوله، وإلى التعرّف إليه عملياً وبشكلٍ موضوعي، وإلا فما هي قيمة الصداقة عن طريق المراسلة، إن ظلّ المتزاسلون بعيدين عن بعضهم بعض ودون لقاء؟

والحقيقة التي لا مرء فيها هي أنّ متانة الصداقة لا تكون إلا على قدر معرفة الصديق لصديقه، وإلا عن طريق التعامل والتعايش بينهما.. والموظّف لا ينال المودّة عند رئيسه إلا بعد تعاملهما ووقوف كل فريق ضمن الحدود المرسومة له كموظّف.

وما أجمل وما أكمل قول الله عز وجلّ في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات (١٣) أي أن درب التعارف والتعايش بالتقوى هو روح الحياة.

ذلك أن الإنسان اجتماعي بفطرته. وهل يكون من العقل أن تتعرف وتعايش مع أخيك الإنسان، وتُهمل السعي للتعرف على خالقك الذي أبقنت بوجوده وكان له الفضل الحقيقي في وجودك ووجود سواك؟

٢ - العرفان بمفهومه اللغوي :

ثم إنّ البحث الموضوعي يقتضي من الباحث التقيّد بدلالات الألفاظ اللغوية. وإلاّ ظلّ بحثه عشوائياً لا يقوم على أساس. فإذا ما راجعنا معاجم اللغة، يتبيّن لنا قولهم : عرفه معرفة وعرفانا معناه علمه بحاسة من حواسه الخمس، وقد ورد في التعريفات : المعرفة هي إدراك الشيء على ما هو عليه. وهي مسبقة بنسيان سابق حاصل بعد العلم بخلاف العلم. (غيط المحيط).

واستناداً إلى ذلك فالإيمان هو العلم بوجود الشيء. أمّا العرفان فمرحلة تأتي بعد العلم بوجود الله والإيمان به ويفصل بينهما نسيان. أي أنّ العرفان هو مرحلة السلوك المؤدية إلى إدراك الشيء على ما هو عليه. أي التعامل مع أسماء الله الحسنى التي علمنا بها عن طريق الإيمان وما تمت إليها من علوم وقوانين.

ثم إنّ كلّ خلل أو انحراف عن طريق العرفان له نتائج الوخيمة الويلة. وأجمل القول فيما ذكرته وأقول: الإيمان والبيعة لأغنيان صاحبهما في شيء إن هو أهمل سلوك سبيل العرفان والتعرّف على هذا المحبوب الذي آمن بوجوده. إلى هذه الحقيقة ورد أمر ربنا أن ندعو بلا كلّ ولا ملل، وصباح مساء وفي كلّ حين: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ آمين. فهذا الدّعاء يحثنا أن نتضرع بين يدي خالقنا أن يعرفنا على نفسه، كما عرف الذين أنعم عليهم من قبلنا على نفسه وأوصلهم درجة العرفان الإلهي. وعصمهم من متاهات الزلل والإفراط والتفريط.

ولاحظنا قول صاحب التعريفات وهو أن المعرفة تكون مسبقة بنسيان سابق حاصل بعد العلم. وهذه الفقرة تشير أصلاً إلى المرحلة اللاحقة بمرحلة العلم والإيمان. متعلقة بمرحلة ما بعد البيعة ومعتزك الحياة العملية بعدها. أي أن الإنسان المؤمن ينسى ما يابح الله عليه بعد إيمانه وبعد انخراطه في بلبال دنياه.

والذي يريد معرفة ربه وتحصيل عرفانه، يتوجّب عليه أن يضع ربه بين عينيه فلا يغفل عنه لحظة من اللحظات، متوسّلاً أن تثمر جميع أعماله وأفعاله ثمارها الروحية التي تزيد قرباً من ربه وعرفاناً. وبألفاظ أخرى أقول إن مثل المؤمن بعد بيعته كمثّل الطفل المولود حديثاً لا بدّ أن يتعثّر ويتعثّر إلى أن تكتمل

قواه الروحية فتمنحه معرفة ووعي مايقوم به والده تجاهه وتجاه تطويره. أي أن المؤمن بعد بيعته يخضع لرؤية الله الذي هداه إلى الإيمان به وليعرفه على نفسه.

فإن تسأل المرء عن الفرق بين العلم والمعرفة من الوجهة اللغوية؟ فسيجيبه اللغويون أنه لا فرق بين العلم والمعرفة إلا فرق الخاص والعام والعموم والخصوص. فكل ما ندركه بعقولنا وعن طريق حواسنا فهو من باب العلم العام. وكل معرفة من جانبنا لهذا الشيء الذي علمنا بوجوده هو علم خاص أي معرفة. فلا يُقال للذي درس خواص الماء الفيزيائية عارفاً بل عالماً بخواص الماء. ولا يسمى عارفاً إلا بعد أن يجتاز مرحلة اختبار الماء وتحليله إلى عناصره الأولية عن طريق التعامل والتجربة الذاتية. فالعالم لا يقال له عارف. أمّا العارف فيكون عالماً. هذه هي أطراف المعادلة التي تربط ما بين العلم والعرفان، من حيث الدلالة اللغوية. وعلى أساس من هذا الفهم الموضوعي للفظي الإيمان عن علم والإيمان عن معرفة نؤسّس بحث هذا الباب من هذا الكتاب.

والآن أيّين الفرق ما بين العلم والمعرفة بأسلوب آخر، وعلى ضوء مُعطياته اللغوية، فكل مؤمن يتلو كتاب الله ويقرأ: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون. هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يستج له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ الحشر (٢١ - ٢٤).

فإن قرأ هذا المؤمن هذه الآيات يحصل له علم عام بما يتّصف الله تعالى به من صفات وأسماء - لكنه لا يسمى عارفاً بهذه الأسماء الحسنى. ولا يتحقّق له معرفة بهذه الأسماء وعرفان بالآله المتّصف بها إلا بعد قطعه أشواطاً على طريق التعامل مع هذه الأسماء الحسنى، وبأسلوب العلمي الموضوعي أيضاً.

فالعارف بالله يمتاز عمّن سواه من المؤمنين بامتيازات عظيمة. وإليك ماممتاز به أكمل إنسان عارف برّبه عزوجل وهو محمد المصطفى سيد الأنبياء وخاتمهم صلوات الله وسلامه عليه.

وَمَنْ مِنَ الَّذِينَ طَالَعُوا تَارِيخَ وَسِيْرَةِ هَذَا الرَّسُولِ الْعَظِيمِ لَمْ يَطَّلِعْ
 مَا حَدَّثَ فِي مَعْرَكَةِ حَتِّينَ يَوْمَ وَقَعَ الْجَيْشُ الْإِسْلَامِي فِي كَمِينَ، وَنَكَصَتْ الْخَيْلُ
 وَالْجَمَالُ عَلَى أَعْقَابِهَا، وَهِيَ تَحْمِلُ الْفَرَسَانَ عَلَى ظَهْرِهَا، وَلَمْ يَسْقِ فِي الْمِيدَانِ إِلَّا
 مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتْلُقَى نِبَالَ عَدُوِّهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. فَهَذَا الْعَارِفُ بِاللَّهِ ثَبَتَ فِي
 مَكَانِهِ وَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ صَيْحَةً لَا تَزَالُ هَضْبَابُ شَبِّهِ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ وَوُدْيَانُهَا
 تَرْدُّدُهَا: "صَاح: أَنَا النَّبِيُّ وَلَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ". فَهَذَا الثَّبَاتُ وَتِلْكَ
 الْجُرْأَةُ وَذَلِكَ الْيَقِينُ هُوَ أَسْمَى مَا يَفْرُزُهُ الْعِرْفَانُ الْإِلَهِيُّ مِنْ ثَمَارٍ فِي نَفْسِ صَاحِبِهِ.

وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ اسْتَعْمَلَ لَفْظَ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِرْفَانِ بِهَذِهِ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ
 وَدَلَالَتِهَا، أَوْ لَمْ نَقْرَأْ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ بِحَقِّ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٨٨): ﴿وَلَمَّا
 جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى
 الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.
 فَلَمْ يَقُلْ هُنَا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَلِمُوا كَفَرُوا بِهِ، بَلْ قَالَ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا
 كَفَرُوا بِهِ﴾. فَلَوْ قَالَ عَلِمُوا، لِمَا كَانَ قَدْ أَفَادَ مَا يَفِيدُهُ لَفْظُ "عَرَفُوا" الَّذِي يَعْنِي
 أَنَّهُمْ عَلِمُوا بِبَيْعَتِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَتَعَامَلُوا مَعَهُ وَخَبَرُوا صِدْقَهُ.

وَيَنْفَسُ هَذَا الْفَرْقُ اللَّغَوِيُّ وَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَى بِحَقِّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:
 ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَّفَهُمْ...﴾ وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَهَذِهِ الْآيَاتُ كَثِيرٌ.

٣ - الألفاظ المعبرة عن مراحل العرفان:

هناك في اللغة العربية ألفاظ كثيرة، كل واحد منها يعبر عن مرحلة من
 مراحل العرفاني الإلهي، ويتعامل بها الناس فيما بينهم أيضاً تدليلاً على ما بينهم
 من أواصر وروابط ومعرفة. وهذه الألفاظ هي: الشوق والعشق والرغبة والإنس
 والودّ والحبّة والخلة. وسأستعرض فيما يلي لكل لفظ من هذه الألفاظ من حيث
 دلالاته وأساليب استعماله. وما أورده القرآن المجيد من هذه الألفاظ في شتى
 المقامات والمناسبات:

١ - الشوق: والشوق مصدر يعني نزوع النفس وحركة الهوى.
 تقول: اشتاق إليه أي نزعت نفسه إليه. وورد في التعريفات: الشوق ارتياح
 القلب إلى لقاء المحبوب وقد سئل النحوي المعروف أبو علي الفارسي عن الفرق

ما بين الشوق والاشتياق فقال: الشَّوْقُ يَسْكُنُ باللقاء، بينما لا يسكن الاشتياق باللقاء، بل يزيد ويتضاعف.

وهذه المعاني والأقوال إن دلت على شيء، فإنما تدلّ على ضيق دلالة لفظ الشوق، وعلى محدودية دائرته. لذلك لا يصلح هذا اللفظ للتدليل به عن علاقة العبد بخالقه ولا عن علاقة الخالق بعبد. ذلك أنّ الشوق هو مجرد أمنية في الفؤاد تبعث على اللقاء. فإذا ما تحقق هذا اللقاء يطل معنى الشوق. ولذلك لا يدخل لفظ الشوق في باب موضوع العرفان الإلهي لتواضع دلالاته. خصوصاً وأنّ الله تعالى لا يعجزه شيء لتحقيق ما يريد، حتى يصحّ استعمال لفظ الشوق لموضوع عرفانه. من هذا ندرك حكمة خلوّ كتاب الله القرآن من لفظ الشوق ودلالته.

٢- العشق: ولفظ العشق يحمل معنى عَجَبَ المحبوب بمحبوبه وإفراطه في محبته. والعشق يستعمل في العفاف كما يستعمل في الدّعارة. ويُعبّر بالعشق عن عجز الحسّ عن إدراك عيوب المعشوق. وعن مرض وسواسيّ يُسلّط الفكر على استحسان بعض الصّور. وقد عدّ الأطباء العشق مرضاً من الأمراض. فقال أبقراط إنّ العشق نصف الأمراض. وقال الفارابي هو ثلث الأمراض لتعلقه بالبدن والنفس جميعاً. وقالوا إنّ غليظ الطبع. وفساد المزاج ووضع الهمّة لأى صواب. يمرض العشق من قريب ولا من بعيد.

فإذا ما أخذنا بهذه الدلالات للفظ العشق، ندرك عدم صلاحيته للتعبير به عن علاقة المخلوق بخالقه ولا بعلاقة الخالق بمخلوقه، وهذا هو سبب خلوّ القرآن الكريم من لفظ العشق بين ثنايا آياته الكريمة. ثم إن العرب كانوا يعبرون أحياناً بالعشق عن المحبة الجياشة القوية.

فبالنظر لدلالات العشق هذه لا يستسيغ عاقل أن يقول إنسان إنني أعشق الله عز وجل. كما لا يستسيغ أن يُقال أنّ الله يعشق فلاناً من الناس. من هذا كلّه ندرك أنّ لفظ العشق يحمل في أصل وضعه اللغويّ معنى غير محمود.

أجل من المتصوِّفين من أوردوا في مؤلفاتهم هذا اللفظ واستعملوه على سبيل المبالغة في المحبة، وليس على أصل وضعه اللغوي، وهذه شطحة من

شطحات المتصوّفين. وإلا فإن الله عزوجل هو مصدر الحياة، ولا يصحّ له لفظ العشق.

فلو أحبّ الله تعالى عبداً من عبيده، فلا يحبه محبة عشق، إنما يدي محبته لذلك العبد بمباركته إياه وترقيته ترقية متميزة، وهذا النوع من المحبة الإلهية تجلّى في شخص إبراهيم أبي الأنبياء، وفي شخص محمد بن عبد الله خاتم النبيين الذي اختصّه بأعظم كتاب سماوي وهو القرآن الكريم وحقق على يديه ما لم يحقّقه على يدي نبي آخر سواه.

ومادُمنا نعتقد بقوله تعالى من سورة الرحمن: ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾. فالذات التي لا يأتني عليها الفناء لا يصحّ من وجه اللغة العربية أن يُستعمل لهذه الذات الخالدة أن يستعمل لها كلمة عشق. ذلك خصوصاً وأن من دلالات لفظ العشق تسببه بفتور العقل وهُزال الجسم، والله منزّه عن أن يُصاب بمثل هذه الأمراض، وهو جلّ شأنه أنزل وحيه الذي احتواه القرآن الكريم خالياً من لفظ العشق تدليلاً منه على بلاغته.

٣- الرّغبة : والرّغبة لفظ يصحّ استعماله على درب العرفان الإلهي، فالرغبة من رغب فيه رغباً ورغبة بمعنى أحبه وأراد به بالحرص عليه، ورغب عنه: أي أعرض عنه ولم يُرده وزهد فيه وتركه. ورغب به عن غيره: فضّلّه عليه. ورغب إليه: ابتهل وتضرّع وسأل / محيط المحيط).

ودلالات الرّغبة هذه تعبّر في حقيقتها عن أدنى مستويات التعبير عن المحبة الحيّاشة. فهي تدلّ على ميل شديد تملك المحبّ للقاء محبوبه لذلك يصلح استعماله تعبيراً عن علاقة العبد بخالقه، وهو أحد الألفاظ الداخلة في موضوع العرفان الإلهي.

والقرآن الكريم استعمل لفظ الرّغبة بهذه الدلالات، أفلا نقرأ قول الله عزوجلّ في سورة الأنبياء: ﴿يَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾؟ فالله عزوجلّ يصوّر لنا من خلال ألفاظه هذه مستوى المحبة التي بلغها هؤلاء المؤمنون لرّبهم. هذا المستوى من المحبة الذي يدفعهم ليدعوا ربّهم بتضرّع وتذلّل كبيرين، تدفعهم إلى ذلك

محبتهم الشديدة لذات ربهم المقدسة. أي أنّ هؤلاء المؤمنين يسرون على درب العرفان الإلهي، وهم لا يزالون في أدنى مستويات هذا العرفان.

وفي سورة التوبة أتى الله جل شأنه على ذكر هذا القسم من المؤمنين قولهم: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾. وهل تعني هذه الألفاظ إلّا أنّ هؤلاء قد فاضت أفئدتهم بحبة الله ربهم وعلى طريق عرفانه إلى درجة ماعادوا معها يُقيمون لأيّ شيء من متاع هذه الدنيا أيّ حبة ووزن؟

وعليه فإن الذي آمن وسار على درب عرفان ربّه عزوجلّ، يبدأ تغلب على فؤاده حبة هذا الإله الذي آمن به، فتشتدّ هذه الحبة إلى درجة يعود كل شيء غير الله مُبتدلاً في عينيه ويقول: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾.

وهذه مرتبة تمثّل ظاهرة ضعفٍ في نفس هذا المؤمن، يحاول إزالتها وتجاوزها والتغلب عليها عن طريق كثرة الاستغفار وكثرة الدعاء بين يدي محبوبه عزوجلّ، إلّا أنّ هذه الحالة تعبّر في الوقت نفسه عن عمق الإيمان بالله الذي بلغه هذا المؤمن برّبّه عزوجلّ.

وهذا ما يشير إليه قوله: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ أي إنّنا نفيض بحبة لربنا الذي آمنا به ونحرص على لقائه والتعرف إليه. وإن كنّا لانزال في بداية هذا الطريق.

ولنتناول ما كتبه العلامة الأصفهاني في معجمه مفردات الرّاغِب المُعْتَبِر أقدم معاجم اللغة العربيّة، قال: الرّغبة تعني السّعة في الشيء. يُقال: رغب الشيء أي اتّسع. ويقولون: الحوض رغب أي حوض واسع، وفرس رغب العدد: أي كثير الخطى، والرّغبة هي السّعة في الإرادة، ورغب فيه وإليه يقتضي الحرص عليه.

والملاحظ أنّ جميع أقواله هذه تجسّم للقارئ هذه الأمنية القويّة التي تعمّر فؤاد السالك على درب عرفان ربّه أمنية تمثّل حبة غامرة تدفعه على هذا الدرب الطويل.

٤- الأنس : والأنس لفظ يصحّ استعماله على درب موضوع العرفان الإلهي، فقد أورد صاحب معجم (محيط المحيط) قوله: أنس به يأنس وأنس يأنس

وأنس يأنس ضدَّ توحَّش. أي ألفه وسكن قلبه به ولم ينفّر منه. ونستشعر هذا المعنى في أنفسنا عندما يأتي إلى مجلسنا أجنبي عنّا لانعرفه فلا نستسيغ مجالسته طويلاً، ونميل في قراره أنفسنا إلى ترك مجلسه. ويحدث عكس ذلك فيما إذا حضر مجلس أحدنا ابنٌ له أو صديق من أصدقائه أو أخٌ من إخوانه فهو يتمنى بقاءهم طويلاً في مجلسه، ولا يميل فواده إلى تركهم يغادرون هذا المجلس، فإذا هم أحدهم بالانصراف يرحوهم صاحب المجلس بالبقاء، إشارة إلى شعوره وإحساسه بالأنس من جهة، وبالوحشة التي تملكه من جرّاء فراقهم من جهة أخرى.

وهذا الأمر دعا صاحب معجم (أقرب الموارد) ليقول: الأنس ضدّ الوحشة. والإنس خلاف الجنّ وخلاف النفور. ويُقال لمن كثر إنس المرء به إنسيّ. كذلك يُسمّى الجانب المواجه لوجه راكب الدابة: إنسيّ الدابة أي مقدّمتها. وللسبب نفسه تُلاحظ أن صاحب معجم المفردات قد قال: إنّ كلّ مايلي الإنسان يُسمّى إنسيّ هذا الشيء.

ولنقارن الآن ما بين دلالات لفظي الرّغبة والأنس، فلا نجد بينهما من فروق في الدلالات إلّا ماللأنس من معنى القرب ومواجهة الشيء المأنوس به. أمّا من حيث المحبة الجياشة فهي واحدة في دلالات الرغبة والأنس.

أمّا إذا راجعنا دلالات لفظ الشّوق مجرداً، فلا نراه يعني إلّا نزوع المشتاق إلى المشتاق إليه. لكنّه لا يحمل ماللرّغبة والأنس من معاني المحبة الجياشة والاطمئنان بالقرب. وإن كانت الرغبة يخلو لفظها من معنى القرب أيضاً. من هذا ندرك سرّ خلوّ القرآن الكريم من اشتماله على لفظ الشّوق. واشتماله على لفظي الرّغبة والأنس.

فكما استعمل القرآن الكريم لفظ الرّغبة على حسب ماسبق أن بيّناه. فقد استعمل لفظ الأنس أيضاً. أفلم نقرأ قوله تعالى على لسان موسى في سورة القصص: ﴿إني آنست نارا...﴾. واستناداً إلى دلالات لفظ الأنس التي استقيناه من كتب النحويين يعني قول موسى هذا أنه لاحت لي نارٌ كنت تواقاً للقائها ورؤيتها والاطمئنان بها. وهأنها لاحت لي هذه النار وفزت بأمنيّتي وحصلت على حاجتي التي كنت أنشدّها ليل نهار. وهو عبّر من خلال ألفاظه هذه عن المحبة الجياشة التي كانت تجيش بها نفسه للقاء ربه عزوجل والتقرب منه والتعرف

إليه. وآية سورة القصص هذه مثالٌ رائع على دلالات لفظ الأنس في القرآن الكريم، وأداة تعبير عن أولى مراتب العرفان الإلهي.

٥- الودّ : والودّ اشتقّ من ودّه مودّةً بمعنى أحبه. وتودّده : طلب محبّته وتحبّب إليه. والودّ اسم فاعل والودّ يعني الحبّ، وكثير الحبّ، والودّ في لغة أهل نجد يعني الودّ. فكأنهم سكّنوا التاء فأدغموها في الدّال. أما الودود فصيغة مبالغة من الودّ بمعنى كثير الودّ، والمحبة، لذلك ورد أنّ من أسماء الله تعالى الودود، ويعني كثير الحبّ لأوليائه والمحبوب كثيراً من أولياء الله أيضاً. والمودّة تعني المحبة. (محيط المحيط)

ندرك من خلال دلالات كلمة ودّ أن هذا اللفظ يفيد معنى المحبة من جهة وأمنيةً ترافق هذه المحبة وهي أمل اللّقاء بالمحبوب. وكأنّ الودّ من هذه الجهة يحمل معنى (لو). فإذا أخذنا بعين نظرنا دلالة الودّ على الودد بلغة أهل نجد، ونعلم أنّ الودد يستعمل لتثبيت الدّابة بمكان معيّن. فإنّ هذه الدلالة تفيد معنى ثالثاً يمثل المحبة التي تؤدي إلى الربط بين قلوبين: قلب الحبيب وقلب المحبوب.

فإن نحن قارنا ما بين دلالات الرّغبة والأنس والودّ. لاحظنا أنّ الرّغبة فيها الدلالة على شوق من طرف واحد فقط. وأنّ الأنس فيه دلالة الشّوق من طرفين. أما لفظ الودّ فهو يجمع بين معاني الشّوق والأنس، ويزيد عن دلالتهما، دلالة على تولّد علاقة ثابتة بين طرفين اشتياق أحدهما للقاء الثاني، وأنس جهته، وتولّدت عن ذلك علاقة ثابتة به. أي أن الودّ بألفاظ أخرى يحمل معنى المحبة المتأصّلة والرّابطة ما بين العبد وخالقه.

فإذا عُدنا إلى القرآن الكريم ولاحظنا خلّوه من نسبة لفظي الرّغبة والأنس إلى الله الخالق لعدم تناسبهما مع صفاته عز وجلّ الذي لا يرغب إلّا وتحقّق مشيئته، ولا يأنس لخلوّ لفظ الأنس من معنى القرب وهو في حقيقة أقرب إلينا من جبل الوريد. أقول إذا لاحظنا خلوّ القرآن الكريم من لفظي الأنس والرّغبة منسويين لله تعالى، وقصر استعمالهما للعبد المخلوق. فإنّ القرآن لم يقف هذا الموقف من لفظ (الودّ) بل نسبته إلى الخالق كما نسبته إلى المخلوق. بل وأخبرنا القرآن الكريم أنّ من أسماء الله الحسنى "الودود" بمعنى الذات المحبوب من طرف أوليائه والمحبّ لهؤلاء الأولياء.

وصرّح القرآن الكريم عن لسان الله الرحمن بشأن المؤمنين، وعُداً عليه إن هم قرنوا إيمانهم بعمل الصالحات. فقال في سورة مريم (٩٦): ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ أي أنه جل شأنه وعد هذه الفئة من المؤمنين أنه سيفرس محبته في أفئدتهم من جهة، ومحبّتهم بعضهم لبعض الآخر، ومحبة الواحد منهم لجميع عباد الله تعالى، ألا إنّ جميع هذه الدلالات تضمنها قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾. وسرّ تعدّد دلالات هذه الآية الكريمة يكمن في أسلوب صياغتها البلاغي. فهو جل شأنه أتى بصفته الرحمن من جهة وهي التي تفيد الكرم والرحمة والعطاء دون مقابل. ومن جهة ثانية أتى باللام التي تفيد شبه التمليك والتي أدخلها على (لهم).

ومن جهة ثالثة ترك كلمة (ودّ) دون أن يعرفها بالألف واللام، فأطلقها ولم يعبّر الطرف المودود. هذا الأسلوب في صياغة هذه الجملة فتح باب تصريح معانيها ودلالاتها بمختلف الاتجاهات. وعاد يصحّح أن يكون القصد من ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ على حسب ماسبق ذكره هو أنّ الله الرحمن سيخصّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات بعطاء وكرم من جانبه وهو أن يكتب محبته في قلوبهم، ويكتب ألفتهم ومحبّتهم بعضهم لبعض الآخر في قلوبهم أيضاً وفق قوله في مقام آخر ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ إِخْوَانًا﴾. ويكتب محبة جميع خلقه في قلوب هؤلاء حتى يعودوا يُشار إليهم بالبنان لإنسانيتهم ورأفتهم على جميع الناس دون تفریق. فهذه المعاني جميعها تضمّنها قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾. والسبب في ذلك أسلوب صياغة الآية البلاغيّ.

والقرآن الكريم حثّ المؤمنين الذين يطلبون وُدّ ربهم على الإكثار من الاستغفار والتوبة ليفوزوا بهذا الودّ الإلهي. وذلك في سورة هود (٩٠) حيث قال جل شأنه هناك: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾. وأتى بصفته الودود وبصيغة المبالغة والتي تعني أنّ محبّته ليس فوقها محبة ولا تقف عند حدود. ذلك أنّ دائرة صفة الله الودود تفوق ودّ كلّ مخلوق ماهيةً وشمولية وسعة آفاق.

فلا يُدانيها محبة وودّ الوالدين لأبنائهما. ولا محبة وودّ الأبناء لأبويهما - ولا محبة وودّ الأصدقاء لأصدقائهم. ولا محبة وودّ الأساتذة لتلاميذهم.

والله ودودٌ على هذه الصورة بسبب أن ودّه لا يتكوّن بالتدرّج من الرغبة والأنس، بل إنّ ودّ الله عزوجلّ يبدأ من مقام المحبة والودّ الخالص من شوائبهما.

على هذه الصّورة أتى قوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ وذلك ليشير إلى مقام ودّه عزوجلّ الذي يردّ الودّ والمحبة بأضعافها. بينما يبدأ ودّ العبد المؤمن لربه تدريجياً من رغبته إلى الله وأنسه به فودّه لذاته عزوجلّ ومحبته إياه.

وهناك حديث شريف متداولٌ على ألسنة المحدثين رواه النسائي في كتاب النكاح - باب كراهية تزويج اليتيم - ونصّ هذا الحديث: (تزوّجوا الولود الودود، فإنّي مكاثّرٌ بكم). والمؤسف ألا يفهم قراء هذا الحديث حقيقة دلالاته بسبب أنهم لا يعرضون ما يقرؤون على كتاب الله القرآن الكريم. والذي فهمته من دلالات ألفاظ حديث رسول الله (ﷺ) هو أنّه أتى بصفة "الولود الودود" هذه الصّفة التي تفيد المبالغة ليفيدنا أن نبحت عن الفتاة الأخلاقية ذات الصفات الروحانية التي بلغت أقل درجات الرقي الروحي وهو مقام الودّ. فتخلّقت بخُلُق ربّها الودود وأصبحت تحبّ ربّها وتوادّه ويحبّها الله ويواددها. وتحبّ وتوادّ أبويها وجيرانها وجميع خلق الله تعالى. فهي أضحت شعلة ودٍ لا تختلف في ودّها أحد، أي أنّها أضحت على درجة عالية من الأخلاق والروحانية تؤهلّها لتأسيس أسرة، وترعى أولادها بمحبةٍ وعطفٍ وودٍ ظاهرين، وتكون ولوداً أي تلد أمثالها من الأخلاقين والروحانيين.

وهذه سورة الممتحنة أعطت المؤمنين دروساً في موضوع فهم مقام الودّ للعمل عليه. فقد استهلّها ربنا جلّ شأنه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ، وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ...﴾.

وكيلا يقل هذا التعليم على أفئدة المؤمنين ويضيق عليهم سلوكهم، أتبع ذلك بقوله تعالى في الآية السادسة: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً، وَاللَّهُ قَدِيرٌ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وراح جلّ شان يهون عليهم من جهة ثالثة ويقول: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿١﴾ وحائثاً إياهم أن يبرّوا غير أعدائهم من أي اتجاه أو عقيدة كانت. وأن يقسطوا إليهم أيضاً. والبرّ في اللغة يعني الاتساع في الإحسان. من برّ فلاناً فلاناً اتسع في إحسانه إليه (محيط المحيط). وبرّ والده وصله وأحسن إليه. أمّا معنى (أن تقسطوا إليهم) من قسط الوالي عدلّ ولم يحد عن الحقّ. والمعنى أن تعاملوا الذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يخرجوكم من دياركم بتوطيد علاقاتكم بهم وتقييمونها على أساس من الإحسان والعدل وعدم الحيّدان عن الحقّ.

على هذه الصّورة حدّد الله عزوجلّ للمؤمن مدى مايمكن أن يظهره من ودّ لسواه ومدى مايقيمه على أساسه من علاقات. فحدّد ذلك في السّماح بالتعامل مع غير المؤمنين إنّما على أساس من البرّ والقسط، أي على أساس من الإحسان إليهم وعدم الانتقاص من حقوقهم أي لا ضرر ولا ضرار.

والله عزوجلّ وقد حدّد مذكرته ضمن آيات سورة الممتحنة، فهو فتح باب موادة المؤمن على مصراعيه ودفعه ليوادّ ربّه ويحصل على ودّ ربّه وينال مقام الودّ عنده عزوجلّ، وعليه فإنّ مرتبة المودة الإلهية للمؤمن تعتبر إحدى مراتب العرفان الإلهي.

٦- المحبة : والمحبة مقامٌ روحيّ على طريق العرفان الإلهي أيضاً. وقد أتى القرآن الكريم على إيراد المحبة في سبعين آية من آياته الكريمة، الأمر الذي يُشعر بأهمية موضوع المحبة ومقامها على طريق سعي المؤمن لنيل قرب ربّه وعرفانه.

ونأتي إلى كلمة المحبة من الوجهة اللغوية لنحيط علماً بدلالاتها . تقول: حبه يُحبه حبّاً وحبّاً بمعنى ودّه فهو محبوب (محيط المحيط)، وفي القاموس: حُبّب إليه صار حبيباً له. وحبّب الزرع صار ذا حب. وشربت الإبل حتّى حبّت أي امتلأت من الرّي، وأحبّ فلانٌ: برىء من مرضه، وحابّه: وادده، وتحابوا: تواددوا وأحب بعضهم بعضاً. وحَبَاب الماء فقاقيعه التي تطفو على سطحه كأنها القوارير. والحَبَب: الفقاقيع. والحَبّ مصدر وجمع حبّ. ويعني الجرّة الضخمة

أيضاً. والحبيب هو المحبّ المحبوب. يُقال هو حبيبي أي محبوبي، وأنا حبيبيكم أي محبّكم.

فهذا ماورد في معاجم اللغويين، ومن خلال هذه الأقوال جميعها نستدلّ على أنّ لفظ الحبّ في أصل وضعه رُكِبَتْ أحرفه الثلاثة على أصل وهو التعبير عن تداخل شيء في شيء وانحشاره فيه، أفلم نلاحظ قولهم: شربت الإبل حتى حَبَّت أي امتلأت من الرّي. وقولهم عن انحشار الهواء ضمن فقايع الماء يشكّل حُبَاب الماء؟ فالحبة تعبر مجازاً عن كيفية تداخل مودّة طرف في فؤاد طرف آخر. أي أنّ مجرد الودّ يعبر عن علاقة وطيدة بين طرفين ليس إلا. أما كلمة الحبّ فيعبر بها عن تجاوز الطرفين لحدود هذه العلاقة الخارجية، وانسياب وتداخل الودّ في أعماق فؤادي كلّ من هذين الطرفين. أي ينمو ودّ الطرف في فؤاد محبّيه فينمو ويعطي ثماره أيضاً. أفلا نلاحظ كيف أن البزرة، أي بزرّة، إذا مادّفت في باطن الأرض تتفاعل وتنمو إلى أن تصبح شجرة غناء تنجب نفس البزر ليقوم في الجوّ المناسب بعملية النمو والإثمار؟ وعلى هذا الأساس أطلقوا على الجرة الضخمة اسم الحبّ أيضاً. وهذا التداخل بين طرفين وهذه النتيجة الحاصلة عن هذا التداخل وهو كيفية النمو والإثمار، لاتتضمنها كلمات الرّغبة والأنس والودّ من قريب ولابعيد، وهذا يعني أنّ من واجب المؤمن السالك درب عرفان ربّه والتعامل معه، من واجبه ألاّ تخدعه عواطف رغبته الشديدة للقاء ربّه، ولاتنقله إلى مرحلة الأنس برّبّه وبظواهر إعجازه وعظمته، ولابعواطف الودّ التي تترسّخ في فؤاده على طريق عرفان ربّه.

فمن واجب المؤمن وهو يقطع هذه الأشواط من السلوك العرفاني أن يظلّ حذراً فلا يتملكه شعور الانتصار والفوز ببيغته، ومن واجبه العمل والاستعانة بالرياضيات الروحية وهي هذه العبادات التي شرّعها لنا القرآن الكريم، وبالتضحيات المعنوية والمادية، إلى أن يبدأ هذا التداخل من الودّ الذي وصل مرتبة المحبة وأن يتلمّس نمو هذه المحبة وليجني ثمارها أيضاً. وهناك فقط يحقّ له أن يبدأ يحطّ رحاله وينتظر أوامر محبّيه بعد الذي قطع من هذه الأشواط على طريق عرفانه كما يتلذّذ بعطايا لقائه وثمار هذا التداخل والمحبة التي ربطت فؤاده بخالقه المحبّ والودود.

الفصل الثاني

٣. قانون المحبة الطبيعي :

ومن أعجب العجائب أن هذا الإنسان، يُراقب ظواهر القوانين الطبيعية المادية ولا يقيس عليها القوانين المُشابهة الروحية. يلاحظ الفلاح يغرس حبوبه في مزرعته، و ينتظر أشهراً، وإذا بهذه البذور تنمو في باطن الأرض لتُصبح أخيراً نباتات أو أشجاراً باسقة، وهذا الفلاح يحتاط أشد الحيطه ليخرج من هذه البذور بهذه النباتات وثمارها. فلا يُلقِيها إلا في أرضٍ صالحة للإنبات، ويُسمِّدها ويسقيها، ويعشِّبها ويمجد أشهراً طويلة، وهو ينتظر ثمار جهده وعرقه وبذله وتضحياته.

وهذا الإنسان نفسه يُطالع في الكتب قصص الحبِّ وما أثمرت عنه من صلوات وتضحيات كقصه قيس وليلى على سبيل المثال. فيقرأ هذه القصة ولا يملُّ من قراءتها فيلاحظ كيف وقع الحبِّ بين هذين القلبين وكيف نما وتطور على مرِّ الأيام وما أثمر عنه من مصائر للطرفين.

أقول: إن من أعجب العجائب أن يلاحظ الإنسان هذه القوانين الطبيعية التي تلعب هذه الأدوار أمام ناظره. ولا يتدبَّر القرآن الكريم وهو معتقداً أنه كلام الله عز وجل، فلا يتدبَّر هذه الألفاظ المعبرة التي ذكرتها من رغبة وأنس وودِّ ومحبة، ولا يتدبَّر استعمالات القرآن الكريم لكلِّ لفظ منها، ولا يفكر في حكمة تلك الاستعمالات، ويظنُّ أنَّ تعاليم الدين الإسلامي ماهي إلا أُنْقَالٌ تثقل كاهله، متناسياً هذه القوانين الطبيعية التي ذكرتها، ومتجاهلاً أصوات العارفين بالله التي تعالت في غابر الأزمان، وتعالت على لسان سيِّد المرسلين وهي ماورد في الحديث القدسي لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أعود سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ومتناسياً قول ربِّه في كتابه العزيز: ﴿إِنَّا إِنَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم. ﴿يونس ٦٤﴾

فلقد استهّل ربنا جلّ شأنه هذه الآيات بحرف التنبيه (ألا) ليقول أيها الناس اسمعوا وعوا جيّداً ما أقول، وأنهى ربنا جلّ شأنه هذه الآيات بجملة ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ أي أنّ ما أورده القرآن من معارف في هذه الآيات يدور موضوعها حول ارتباط العبد برّبّه إلى درجة يعود ربّ هذا المؤمن هو وليّ أمره في الدنيا والآخرة، وهو سلّوانه، وهو مصدر ما يتلقاه من أعطيات وبشارات، فإذا فاز هذا المؤمن بولاية ربّه لشؤونه على هذا المستوى من الولاية فقد فاز الفوز العظيم الذي نزلت تعاليم هذا الدين الخفيف لتمنح هذا المؤمن إيّاه.

ومضامين هذه الآيات تشكّل وثيقة تعهّد إلهية في حدّ ذاتها يتعهّد فيها للذين احتسبوه ربّاً أن يتولّاهم بعنايته ورعايته، فيقيهم شرور الماضي وآثاره الضارة بهم، ويحفظهم من أخطار المستقبل المجهول وآثاره ومفاجآته، أفلا يفكّر قارئ هذه الآيات وتعهداتها وينظر: هل لا يكون لله الذي تعهّد هذا التعهّد الفريد من نوعه في شؤوننا وشؤون الناس أجمعين أي دخل أو تدخل وهيمنة على الأحداث وأسبابها؟ وهل يتعهّد هذا التعهّد إلا من يكون علمه وقدرته لا تنفد دونها حدود، الله الذي له الأسماء الحسنى ويسبّح له مافي السموات ومافي الأرض؟

فالحجّة الإلهية مقام زرع حبة الحبّة في فؤاد هذا العبد المؤمن، لتنمو وتصبح شجرة غناء باسقة تثمر وتؤتي أكلها كل حين، على شاكلة البذرة المادية نغرسها في التربة الصالحة لنموها وتصبح شجرة مثمرة وغير مثمرة. فهاتان ظاهرتان إحداهما مادية والأخرى روحية وتخضعان لقانون طبيعيّ واحد وتمثّلان وحدانية الله عزوجلّ. ثم إن التشبيه بشجرة ليس من اختلاقي، بل هو تشبيه الذي أنزل القرآن وقال فيه: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء. تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة

الدنيا وفي الآخرة، ويضلّ الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء. ﴿إبراهيم (٢٤) - (٢٦).

٢. المحبة في القرآن الكريم :

وانتقل الآن إلى القرآن الكريم الذي استعمل كلمة المحبة بهذه الدلالات، وسلاحظ القارئ أنّ هذا القرآن استعمل كلمة المحبة للمخلوق والمخلوق على حدٍ سواء. وأعطى بذلك موضوع المحبة مكانته وأهميته، فوضّح قوانينه وأسسها، وألقى الضوء على حالة المؤمنين الذين يقطعون أشواط مراحل مقامات الرغبة والأنس والودّ ويبلغون مرتبة المحبة لله ربهم، حيث يغرس الله ربهم في أفئدتهم حينذاك بذرة محبته التي تأخذ في النمو في سويداء أفئدتهم ولتصبح شجرة غناء يقطف من ثمارها الرّوحية ولتجعله رجالاً ربّاناً بكل ما لهذه الكلمة من معنى.

وهيّا بالقارئ إلى سورة المائدة (٥٤)، إلى الآية التي راح جلّ شأنه يهدّد من خلالها ضعاف الإيمان مرضى القلوب الذين يثقل عليهم انتظار تجاوز مراتب الرغبة والأنس والودّ ويظنّون بالله الظنون، فالله جلّ شأنه هدّد هؤلاء في الآية المذكورة وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ، يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.﴾

وليلاحظ القارئ هذه الرعود التي تضمنتها هذه الآية الكريمة وهي أنّه تعالى وعد في حال ارتداد أي مؤمن عن دينه:

أولاً - لا يأتي في مقابل المرتدّ واحد بل بقوم ، ولا يأمر بقتل هذا المرتدّ على اعتبار أنّه تعالى أعلن في مقام آخر من كتابه العزيز: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ.﴾

ثانياً - وينعم الله تعالى على محبوبيه الذين يحبّونه، بعد أن يغرس في أفئدتهم بذرة محبته ودون كسبٍ من هؤلاء.

ثالثاً - وهذه المرتبة التي يهبهم إياها من علاماتها تواضعهم تجاه الذين سبقوهم بالإيمان، في وقت يكونون هم فيه أعزّة إنما على الكافرين.

رابعاً - يجاهدون في سبيل الله، والجهاد في اللغة بذل الطاقة مادياً ومعنوياً، ولم يقل يقاتلون.

خامساً - ومرتبة المحبة الوهية هذه التي يمنحهم إياها، فمن علاماتها أنهم يجاهدون ولا يخافون لومة لائم.

سادساً - ثم أتى تعالى باسم الإشارة للبعد بدل هذا ليرفع من شأن عطائه المذكور.

سابعاً - وصرّح جل شأنه من خلال قوله ﴿يُؤْتِيهِ مِنْ يَشَاءُ﴾ بأنّ مرتبة المحبة الإلهية تكون كسبية وتكون وهبية يؤتيها الله من يشاء من عباده.

ثامناً - وأنهى الآية بقوله ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي أن هذا الفضل يتجلى عن طريقه اسم الله الواسع أي كثير العطاء ويتجلى عن طريقه اسم الله العليم الذي يميّزه المستحق لهذا الفضل من غير المستحق، وليس عطاء لمن لا يستحقّه.

المهم أن الله تعالى قال في هذه الآية الكريمة: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فوصف نفسه بالحبّ ووصف عبده بالحبّ أيضاً. الأمر الذي يميّز مقام المحبة عن مقامات الرغبة والأنس والودّ التي ذكرناها، والتي لا يصحّ القول عندها أن الله يحب هذا العبد.

ولا ينبغي حمل هذه الآية الكريمة على محمل المبالغة الكلامية لصالح صدمة الارتداد، فلو كان الأمر كذلك لمّا كان من داعٍ لتضمّن الآية كلّ هذه البنود وتفصيلاتها. ثم إن تجاربنا تؤكد صدق ما أورده الله عز وجل فيها من وعود، ممّا لا يتسع سرده في هذا المقام.

والله جلّ شأنه وضّح لنا مقام المحبة وشروط كسبه في سورة التوبة (٢٤) حيث قال تعالى هناك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ، فَأُولَئِكَ هُم

الظالمون، قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترَفتُموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحبُّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فترَبُّصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لايهدي القوم الفاسقين. ﴿١٠٦﴾ أي أن من يبلغ مقام الولاية عند الله ربه يُشترط عليه إذا شاء أن يفوز بمقام المحبة الإلهي شروطاً تميّزه عن سواه من المؤمنين، وهذه الشروط تضمنتها هذه الآية الكريمة، فنبّه إلى أن طريق العرفان الإلهي وسبيل السعي لنيل مقام المحبة عند الله تعالى، لا يشترط عليه ألا يُحبّ أحداً سوى الله تعالى، بل إنّ تعاليم القرآن حثت على التوادد والتحابب في الله مع جميع خلق الله التي أتت هذه الآية على ذكرهم من أبوين إلى إخوان وأصدقاء إلى أزواج وعشيرة وأموال وإلى مساكن ترضونها. فالذي يسعى لنيل محبة ربه يُطالبه هذا المقام أن يكون حبه لربه أعظم من محبته لأي شيء آخر سواه، فإذا تصادمت محبته لأي شيء مع محبته لله ربه فمن واجبه حينئذٍ أن يُبدي تمايزاً واضحاً في تلك اللحظات في تصرفاته ليثبت لله وللناس أنّ له محبوباً حقيقياً يعود الفضل كله إليه من حيث الأصل، وهو لا يقول ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ التي تعني أن الله وحده يملك الحمد والثناء على وجه الحقيقة، فلا يقع في تصرفاته في تضادٍ مع نفسه، بل موقناً بقدرة الله الذي أعطى كل شيء خلقه أن يحرم من يشاء من نعمائه وأفضاله، وأن من ينكر مقام المحبة الإلهية المذكور ولا يسعّ إليه يدخل في زمرة الفاسقين عن أمر ربهم عز وجل، لذلك أنهى الآية بقوله ﴿والله لايهدي القوم الفاسقين﴾.

على هذه الصورة تمثل كلمة المحبة بدلالاتها اللغوية وشروطها التي ذكرناها مرتبةً متقدّمة على مراتب الرغبة والأنس والودّ بأشواط كبيرة. ذلك أنّ للمحبة موضوعها الخاص بها، وبذرتها التي إذا غرسها الله عز وجل في فؤاد عبده من عباده المؤمنين، تنمو بذرة المحبة هذه وتثمر الأعاجيب، وهذا هو سرّ التضحيات المنقطعة النظير التي قدّمها الصحابة الذين تربّوا على يدي رسول الله ﷺ روحياً، وانقلبوا بذلك من رجال عاديين إلى رجال ربانيين.

وإن أهمية مقام المحبة الإلهية تدفعني للإسهاب في موضوعها إذا ما تجاوزت مرحلة الكلام عن هذه الألفاظ التي يُعبّر بها لغةً عن أوجه المحبة وأتى القرآن الكريم على استعمالها في مختلف آي الذكر الحكيم.

٣. مقام الخلّة لغةً وقرآناً :

الخلّة: وكلمة الخلّة المعبرة عن أقصى درجات المحبة هي من كلمات الأضداد فهي في الوقت الذي تحمل هذا المعنى السّامي وهذه الدلالة العظيمة، تعني من جهة أخرى الثقب والفاصلة على حسب ما بينه النحويّون. أي أنّ الخلّة تدلّ على الشرّ كما تدلّ على الخير. فصاحب معجم أقرب الموارد ألقى الضّوء على الوجه الخير لهذه الكلمة فذهب إلى أنّها تعبّر عن هذا القسم من المحبة الذي يؤلف بين أفئدة المتحابين من أي نوع كان من النّاس أودين.

على حين نلاحظ أنّ صاحب معجم المفردات وضّح الوجه الآخر لكلمة الخلّة فيبين أنّها تدلّ على المسام التي في جسم الإنسان والتي يطرد هذا الجسم من خلالها عرقه وسمومه، والخلالة: المودّة، والخلّة: المصادقة والإخاء والثّلمة في الخوض ونحوه.

والخلّة عند السّالّكين أخصّ من المحبة، وهي عندهم تخلية القلب عمّا سوى المحبوب. والخلّة: الصّدق تستعمل للذكر والأنثى والواحد والجمع، تقول: هو وهي وهم وهنّ خلّتي.

لأنّه في الأصل مصدر، لقولك: فلان خليل بين الخلّة والخلولة، والخليل: الصديق المختصّ، جمعه أخلاء، أو الخليل الصّادق، أو من أصفى المودّة وأصحّها، وشيء خليل: أي مثقوب منفوذ. والخليلة مؤنث الخليل.

من أقوال صاحب (محيط المحيط) هذه ندرك صحّة ما بيناه من أنّ الخلّة أخصّ من المحبة، وتنبع من داخل جسم المرء من جميع أعضائه، ولاتأثي كالحة من خارجه.

وقد وردت كلمة الخلّة في كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ، وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ النساء (١٢٥).

والآن نلخص، وبعد أن أتينا على دلالات الرغبة والأنس والود والمحبة والخلّة ونقول: إنّ القرآن الكريم في حين خصّ استعمال لفظي الرغبة والأنس

للتعبير بهما عن محبة العبد ولم يستعملهما لله جل شأنه، فهو استعمل كلمات:
الود والمحبة والخلة لله ولعباده المؤمنين فلم يفرق بينهم في استعمالات هذه
الألفاظ، وهذا الأمر يعدُّ مؤشراً كبيراً على دقة انتقاء الوحي القرآني لألفاظه
العربية، وعلى عظمة بلاغته في أداء معانيه.



الباب الثاني

الفصل الأول

١. الولادة الروحية :

هذا وإنّ ما أتيت على ذكره آنفاً يتفق معي من أنّ هناك ولادة روحية يلدها المؤمن المباع إثر بيعته شبيهة بولادة الأم لجنينها. وألفاظ المحبة المذكورة تعطي فكرة عن الارتقاء والنمو والتقدم الروحي الذي يمرّ المؤمن من خلاله على طريق سعيه لمعرفة ربّه والتعامل معه. فهو يبدأ من مقام الرغبة فالأنس فالودّ فالحبّة فالخلّة. ولكل مرحلة من هذه المراحل مقوماتها وشروطها الموضوعية. ولا يتجاوزها المؤمن السالك إلا ويفاجأ في مرتبة المحبة، بتدخل العناية الإلهية لتغرس بذرة محبة الله جل وعلا في فؤاد هذا المؤمن بشكل يدهش له ويميّز مقامه عمّا دون ذلك من مقامات روحية. هذا ما أفادتنا به هذه الألفاظ من حقائق غابت عن أذهان كثيرين من متدبري أي الذكر الحكيم.

والذي نستخلصه ممّا ذكرناه هو أنّ الولادتين الجسمانية والروحية تخضعان لقوانين واحدة على المستويين.

٢. آثار بعثة آدم عليه السلام :

ولابدّ من التذكير بهذه المناسبة أنّ الناس انقسموا زمن بعثة أوّل نبيّ في منطقتنا العربيّة، وهو آدم عليه السّلام، إلى فريقين متمايزين وشكّل كل فريق منهما أتباعاً له وسلسلة مترابطة الحلقات حتى يومنا هذا. فالفريق الذي آمن بآدم واطّلع على ما في هذا الكون من قوانين قدرية إلى جانب القوانين الطبيعية الماديّة. فقد أضحى هذا الفريق يحلّل ما يواجهه من ظواهر على اختلاف أشكالها، تحليلاً يستند فيه إلى كلا النوعين من القوانين المادية والروحية، أي بات يتّسم تحليل هذا الفريق للظواهر بالتفكير ذي السّمة الروحية القائمة على أساس الإيمان بوجود خالق لهذا العالم، وأنّ حكومة المملكة السماوية وراء أحداث كل شيء في هذا الوجود.

بينما راح الفريق من الذين لم يؤمنوا بآدم ورسالته ولا بما أنت به من حقائق وتعاليم. راح هذا الفريق يفسر ظواهر ما يحدث في هذا العالم تفسيراً مادياً محضاً، وهذا الانقسام الذي حدث هو في حقيقته أساس جميع ما يجري اليوم في عالمنا المعاصر من اضطرابات وانقسامات وصراعات.

فالفريق صاحب التفكير المادي، يعسرُ عليه فهم موضوع العرفان الإلهي الذي يأتي تحت هذا الباب من هذا الكتاب، يعسرُ عليه التسليم بوجود ولايتين جسمانية وروحانية، ويعسر عليه فهم قوانين الولادة الروحية التي دلت عليها الألفاظ المعبرة عن المحبة والتي أتيت على بيان دلالاتها لغوياً وقرآنياً. والمؤمن الذي يعمل على قول ربّه: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة، أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ يوسف ١٠٥، من واجبه ألا يدخل مع الذين يدعوهم هذا المدخل الذي ينطوي تحت عنوان العرفان الإلهي. ذلك أنّ هذا الموضوع يخصّ المؤمنين بصورة مباشرة. ويساعد هذا المؤمن إذا فاز بثمار هذا العرفان الإلهي على التحدّث بنعمة الله إذا جاءت مناسبة ذلك نزولاً عند قول ربّنا: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ الضحى.

أفلم نقرأ قول ربنا عز وجل في سورة الاعراف (١٩٨): ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يُبصرون﴾ فكيف ينظر هؤلاء ولا يبصرون؟

يكمن السبب في التفكير المادي الذي ورثه هؤلاء عن الفريق الذي خالف آدم وقاومه. فالمعنى أنّك تدعوهم إلى الهدى أي تسوقهم إليه. وهم لا يُبصرون أي لا يفهمون حقيقة محاولاتك الجادة النابعة من تفكيرك الروحي ومحاولاتك الجادة الخيرة التي هي في صالحهم لو فكروا تفكيراً روحياً، وهم لا يعقلون محاولاتك هذه وماوراءها من حقائق، لذلك تراهم ينظرون إليك ويتأملونك، (وهم لا يُبصرون) أي لا يساعدهم تفكيرهم المادي على تبين حقيقة شخصيتك ونوعية مساعيها الخيرة وما تحمله أنت من مزايا وصفات.

وصاحب التفكير المادي لا يرى لوجوده في هذا العالم من مقصد، ولا يدري ما تحمله هذه العبادات من خواصّ روحية تفيد في بناء كيانه الروحي.

وأنا عندما أعلن عن هذين النوعين من الولادات، لأستند فيه إلى دلالات هذه الألفاظ التي بحثناها وحسب. بل إنني سأثبت صحّة ماذهبت إليه من زوايا مختلفة أتى القرآن على بيانه لهذه الحقيقة مع ماقدّمه لإثبات طرحه المذكور من حجج وبراهين . سأثبت ذلك في الوقت المناسب والمكان المناسب من هذا الكتاب. فترتيب آيات سورة المؤمنون استندت إلى هذا المنطلق الذي بيّناه. وأنّ جميع الآيات التي بحثت موضوع النفس البشرية بحثته من هذا المنطلق أيضاً.

وأعود الآن إلى موضوع المحبة ومقامها الذي دلّتنا عليه كلمة (محبة) لأتوسّع في الكلام عن مقام المحبة الإلهية هذا الذي استنبطناه من قوله تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) فلا أمرّ عليه مرّ الكرام. لأهميته من جهة، ولدلالات كلمة محبة من جهة أخرى والتي تشير إلى انسياب شيء في شيء آخر وتداخل هذين الشئيين وتشكيل علاقة بينهما لها دلالاتها ونتائجها. والعاقل الذي يسمع أن الذي خلقه يُحبّ، يسعى دون إبطاء إلى كسب محبته سعياً دؤوباً؟



الفصل الثاني : الأصول التي تقوم عليها المحبة الإلهية:

والقرآن الكريم هذا الكتاب الذي أورد لفظ المحبة منسوباً إلى الله ومنسوباً إلى عباده المؤمنين، بحث موضوع المحبة الإلهية بحثاً مستفيضاً وأتى على جميع جوانبه وبشكل يذهل عقول المفكرين الذين يتدبرون آيات هذا القرآن، ويتصيدون من خلالها عناصر هذا الموضوع. وسأبين فيما يلي الأصول التي اشترطها القرآن الكريم والمعتمدة في السماء لتنمية بذرة هذه المحبة فيما إذا فاز عبد مؤمن ببذرها في فؤاده من جانب إلهه ومحوبه وهو يسير على درب عرفانه.

١- القانون الأول : وأول هذه الأصول والقوانين هو ضرورة التزام هذا المؤمن خلال سعيه لمعرفة ربه، التزامه بالسير سيراً طبيعياً ووفق قوانين النشوء والارتقاء. فلا يقفز ولا يتجاوز هذه المراحل التي دلت عليها الألفاظ التي بحثناها.

أي أن من واجب المؤمن بعد إيمانه وبيعته، أن يبدأ من مقام الرغبة صعوداً ومروراً من مقامات الأنس والود والمحبة. ولا يفترض فيه أن يقفر إلى حيث لم يتأهل بعد روحياً لبلوغه .

فلماذا أوجب القرآن الكريم أن يلتزم المؤمن القانون المنصوص عليه في سورة الانشراح من خلال وصية الله عز وجل لرسوله الكريم، قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾؟ الجواب يأتي من خلال فهم مضمون هاتين الآيتين الكريمتين.

تقول فرغ من عمله أي خلا ذرعه منه، وتقول نصبه الهيم أي أتعبه، وتقول رغب فيه أي أحبه وأراد به بالحرص عليه. ورغب إليه: ابتهل وتهل وتضرع وسأله (محيط المحيط).

وعلى ضوء هذه الدلالات لألفاظ هاتين الآيتين يصبح المعنى أن الله عز وجل يخاطب رسوله الكريم وكل مؤمن يتأسى به ويسير على خطواته،

ويقول له ناصحاً أن يا محمد إن أردت أن تستمر في تلقي محبي وأعطيائي فمن واجبك أنك كلما فرغت من أداء واجبات الدعوة والوعظ ووجدت سُنحة راحة، إياك أن تستلم لها كما يفعل من لم يتعرف إلى وجود ربه ولا يطلب محبته . بل إن من واجبك أن (تنصب) أي أن تبدأ بنوع جديد من التعب وإجهاد النفس وهو ﴿وإلى ربك فارغب﴾ أي تعود تتوجه إلى محبوبك بكليتك وأن تحرص على الاستزادة من معرفته ومحبته، وأن تبتهل إليه وتتضرع بين يديه أن يُنمي محبته في قوادك لتزداد قرباً منه وعُرفاناً.

إن هذه المعاني توضح لنا سرّ هذا القانون الأول الذي يتطلبه مقام المحبة الإلهية، فهي تحثّ المؤمن أن ينطلق على درب العرفان الإلهي من مقام الرغبة وبشكل طبيعي.

وهذا القانون الذي استند إليه موضوع المحبة الإلهية، ماهو بشيء جديد أتى به الإسلام. بل أشارت سورة الأنبياء في الآية (٩٠) إلى أن جميع الأنبياء التزموا بهذا القانون وهم يطلبون معرفة الله ومحبته. فالله جل شأنه، وفي معرض كلامه عن استجابته لدعاء زكريا عليه السلام، قال: ﴿فاستجبنا له، ووهبنا له يحيى، وأصلحنا له زوجه، إنهم كانوا يُسارعون في الخيرات، ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾. موضحاً لنا أنّ هؤلاء الصالحين من عباد الله تعالى كانت لاتفارقهم رغبتهم للتعرف على خالقهم، وكانوا يخشون دوماً أن تغيب عن أفئدتهم لحظات لذلك كانوا منطلقين دوماً من مقام الرغبة إلينا والرهبة خشية أن تبذر عنهم مخالفة واحدة لتعاليمنا. فقد كانوا يواظبون على دعائنا من صميم أفئدتهم. هذا على اعتبار الخشوع يعني الخضوع.

وهذا القانون الذي يتطلب من المؤمن الانطلاق خلال سعيه لمعرفة ربه بشكل طبيعي لا تكلف فيه ومن مقام الرغبة للقاء الله عزوجل ونيل قربه ومحبته. هو من الأهمية بمكان، بحيث يؤدي إلى إصابة كل مؤمن لا يأخذ به بأمراض روحية ونفسية قد تحرفه عن ملة أبي الأنبياء إبراهيم الحنيفية التي أعاد محمد رسول الله ﷺ وجهها الحقيقي.

فهاكم راقبوا متصوفة زماننا الذين بُعدوا عن الالتزام بهذا الأصل، ولاحظوا كيف أنهم انغمسوا في أداء رياضات روحية لأصل لها في تعاليم

القرآن، وما أنزل الله بها من سلطان. وليخالط الواحد منكم هؤلاء في زواياهم وتكايأهم، وليدقق مايجري في داخلها، فلا بد أن ينتهي به الأمر إلى الجزم بأن هؤلاء وينتجة تركهم العمل بهذا القانون المذكور انحرفوا عن ملة إبراهيم الخنيفية التي جددناها لنا محمد رسول الله بوحى وأمر من ربه، فسفّوها أنفسهم، وأصابهم ما أصاب أهل الكتاب من قبلهم.

وأنا حين شبّهت الإيمان والبيعة بولادة روحية على شاكلة الولادة الجسمانية. ففي هذا التشبيه إشارة صريحة إلى ضرورة الالتزام بهذا القانون الذي ينظّم وعي هذا المبايع، على شاكلة ما يحتاجه المولود لينمو يبطء وليأخذ أخيراً شكله الطبيعي.

فكما أنّ المولود الرضيع بحاجة إلى ثدي أمه ومايدرّه عليه من حليب. فالمبايع يحتاج إلى ما يشبه حالة الرضاعة هذه. لذلك ابتدأت سورة المؤمنون تشترط لفلاح هذا المؤمن قيامه بصلاة خاشعة بين يدي ربه يرضع عن طريقها محبة ربه ووصاله كما يرضع المولود من حليب أمه. فهذا ما أشار إليه ربنا حين استهل سورة المؤمنون بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾. وهلاً يلاحظ المرء حالة الخشوع التي تهيمن على الرضيع وهو يرشّف غذاءه من ثدي أمه؟

٢- القانون الثاني: والقانون الثاني الذي يتطلبه مقام المحبة الإلهية، هو أن يعود هذا السالك على درزب العرفان الإلهي، لا يفارق خياله ذكر الله عزوجل في جميع حالاته يقظة كانت أو نوماً أو حالة جهد أو راحة أو أي وضع آخر له.

وقد نبّهنا القرآن الكريم إلى هذا الأصل أو القانون الثاني الذي يتطلبه مقام المحبة الإلهية وذلك في الآية (١٩١) من سورة آل عمران حيث قال تعالى فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. وهو تعالى عندما قال (يذكرون الله) من الذكر وهو حفظ الشيء والتفقه به وإجراؤه على اللسان من ثناء ودعاء (محيط المحيط).

أي ليدأب هؤلاء المؤمنون على حفظ ما رغبوا في تعلّمه من علوم الدّين، وأن تظلّ تلك العلوم والمعارف حاضرة في أذهانهم، تهديهم عند كل خطوة يخطونها، وليلتزموا التضرّع والدعاء بين يدي خالقهم والثناء عليه شريطة أن تدوم حالتهم هذه (قياماً) أي ضمن ساعات عملهم. (وقعوداً) أي ساعات لجوئهم إلى الراحة ولتناول الطعام وعلى (جنوبهم) أي ساعات الاستلقاء والإخلاد إلى النوم.

وهذا القانون كما يلاحظ القارئ يعسر أن يلتزم به المؤمن من أوّل أيام بيعته، لذلك كان عليه أن يقطع أولاً مقامات الرغبة فالأنس فالودّ، فإذا ما استكمل متطلباتها وبلغ مرتبة المحبة الإلهية فسيجد نفسه ملتزماً بهذا الأصل الثاني من نفسه وبصورة طبيعيّة جدّاً ودون تكلفٍ أو عناء. على شاكلة المولود ينمو وينمو إلى أن يشبّ وتكتمل قواه ولا يعود يدر منه ضعف الأطفال وعثراتهم وطموهم وعيهم.

والله السّار الغفور الرحيم يتجلى بسره وغفرانه ورحمته على هذا المؤمن في جميع المراحل الروحية التي يقطعها قبل أن يبلغ هذا المقام الذي يجذب إليه محبة ربّه عزوجل إن هو سار سيراً طبيعياً، وبلغ هذا المستوى من ذكر الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم والذي شرحناه. فحين يبلغ هذا المقام يعود ربّه عزوجل يحاسبه حيثنّ حساباً عسيراً على غفلته وزلاته. ذلك أنّ زلّاته عند هذا المقام من المحبة ترك في كيانه الرّوحي أمراضاً يُسأل عنها نفسه لتهاونه بعد بلوغه ورشاده في أمر نفسه وهل بإمكان الفلاح السّكوت عن أيّ خطرٍ يهدّد أشجاره المثمرة؟

وهذا القانون الثاني الذي يستلزمه مقام المحبة الإلهية، استلهمناه ممّا قاله إبراهيم عليه السّلام وهو يقدم لعبدة الكواكب دليله القاطع على كونها مخلوقة وليست خالقة. وذلك في سورة الأنعام حيث قال: ﴿الْأَحِبُّ الْإِلَهِينَ﴾ أي لا يُعقل أن يغيب الخالق عن أعين محبيه في أيّ حالٍ من أحواله قياماً وقعوداً وفي حالة الاستلقاء والنوم.

وهل يحدث أن تفارق الأم رضيعها إلّا مُضطرة؟ وهل يغمض لها جفنٌ إلّا وتظلّ مستوفزة الشعور تجاه رضيعها؟ فهذه هي ظاهرة المحبة الحقيقية.

ألا إن المحبة الحقيقية عاطفة جياشه لاتعرف السكون ولا الانقطاع،
ولاتعلق عاطفة المحبة الحقيقية بدماغ صاحبها وعقله، ولكنها تنبع من فؤاده.

إلى هنا أكون قد وضعت بين يدي قارئ هذا المؤلف قانونين هامين
جداً، إذا ماتفهمها المؤمن وراعاهاما تفتتح له أبواب السماء ويحظى بمعرفة ربه
ومحبته ويدخل زمرة من صرح الله تعالى بحقهم أنه ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾. وهذان
القانونان مُستمدتان كما لاحظ القارئ من آي الذكر الحكيم، ولم أستمدها من
أقوال أحد من المتصوفين أو غير المتصوفين.

فهذا هو سبيل نيل محبة خالقنا عز وجل، هذا السبيل الذي سار عليه
أصحاب رسول الله ﷺ، وصاروا مضرب المثل في حياتهم الإيمانية، الأمر
الذي أذهل أعداءهم بما قدّمه هؤلاء الصحابة من توضيحات في سبيل الإسلام،
وهل يستسيغ العقل أن يصبح المرء محبوب خالقه، ولاتظهر على أيديه
الآعاجيب؟

ولأبذلّي من التنويه هنا إلى أن مقام المحبة الإلهية منه ما يكون كسيئاً
ذكرناه: ومنه ما يكون وهيباً أشارت إليه الآية من سورة التوبة ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ
آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ، ذَلِكَ
فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

ومقام المحبة هذا وبأصوله التي ذكرناها يفسر للمرء موضوع عصمة
الأنبياء والصلحاء. فالذي يبلغ هذا المقام الروحي يعصمه مقامه عن ارتكاب
السيئات، حتى لا يعود يصدر عنه ذنب متعمد. يعني قولي هذا عصمة الأنبياء
والصلحاء من الخطأ والنسيان.

أفلا تلو قوله تعالى بحق آدم ﴿فَنَسِيَ آدَمَ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عِزْماً﴾ وبحق محمد
خاتم النبيين: ﴿لِيَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرُ﴾. والمعلوم من معاجم
النحويين أن الذنب يكون متعمداً ويكون غير متعمد. وقد أشرت إلى هذه
الحقيقة في كتاب الرأي أيضاً.

الفصل الثالث : مراحل العرفان الإلهي

تدرّجنا في بحث العرفان الإلهي، ففهمنا دلالة ألفاظه لغوياً، ودلالات الألفاظ التي تعبّر عن مراحل، وأطلعنا على القانونين اللذين يضبطان مقام (يُحبّهم ويحبّونه)، وهو المقام الأساس الذي يدفعنا كتاب الله القرآن لبلوغه.

أولاً. مقام الرغبة :

وأبدأ بالكلام عن أولى مراحل العرفان وهي مقام الرّغبة إلى الله عزوجلّ الذي يعقب البيعة والانخراط في صفوف المؤمنين . ولأبدّ من التنويه هنا إلى أن البيعة هذه لا تشبه في حقيقتها ورقة انتساب إلى حزبٍ سياسيّ.

بل هي بيعة ذات طابعٍ روحيّ محض لا ينبغي الرجوع عنها إلى أن يفارق المؤمن هذه الحياة. وهي بيعة يدُ الله فوقها، وعهدٌ مع الله أن نسعى للتعرف عليه والتعلّق بأهدابه.

وليعلم المؤمن الرّاغب أنّ الله ربّه رسم له طريقه إلى عرفانه في الآيات الأوائل من سورة المؤمنون. وأقدّم لهذا الرّاغب ثلاثة أدلة تثبت له صحّة ما أقول:

الدليل الأول: فلو عاد هذا الرّاغب إلى الآية قبل الأخيرة من سورة الحجّ، وهي قوله عزوجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. فقد أجمل الله تعالى فيها أوصاف المؤمنين. محمّديّ رسول الله (ﷺ) الذين كتب الله أن يُحقّق على أيديهم التّحول الجذري الذي بعثه من أجل تحقيقه. وهذه الأوصاف وردت مُجملة كما لاحظنا وهي بحاجة إلى التوضيح. ولذلك استهلّ الله تعالى سورة (المؤمنون) التي تأتي بعد سورة الحجّ من حيث ترتيب التلاوة بالآيات التي تشرح ما أجمله وقال: ﴿قد

أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن اتبعي وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون. ﴿١﴾. فقد قال جل شأنه آخر سورة الحج ﴿لعلكم تفلحون﴾. واستهل هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ فربط بين المضمونين ربطاً موضوعياً وفصل هنا ما أجمله هناك. وجاء بترتيب ما يقتضيه سلوك طريق معرفة الله عز وجل. ونبه إلى أن أولى مراحل العرفان - أي مرحلة الرغبة إلى الله - ومن الوجهة الروحية تنحصر فيما تضمنه قوله تعالى: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾. أي أن يتفهم هذا المؤمن الراغب حقيقة الصلاة الإسلامية المفروضة عليه: حركاتها وقراءاتها وأدعيتها وفلسفة العلمية التي قامت عليها هذه الحركات والقراءات والأدعية. وأن يؤدي هذا المؤمن صلواته المفروضة عليه بخشوع وليس كرسيم وتقليد. وأتبع جل شأنه ذلك يقول: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾. ذلك أن اللغو يُبطل الآثار الروحية التي تخلّفها الصلاة الخاشعة، وسأعود في حينه للتوسّع في الشرح. والمهم الآن أن يُدرك القارئ المؤمن هذا الدليل الذي يثبت منه صحة ما ذكرت وهو أن الآيات الأوائل من سورة (المؤمنون) رسمت للمؤمن الراغب الخطوات التي ينبغي عليه أن يحطوها وبشكل طبيعي لتمكّنه من التعرف إلى ربه وخالقه، ويُفلح ويفوز بمطلبه ويحقق ما يهدف إليه.

الدليل الثاني: والدليل الثاني الذي يثبت منه ما ذكرته، هو أن الله عز وجل راح يشرح لهذا المؤمن أطوار ولادته الجسمية، في مقابل أطوار ولادته الروحية بعد هذه الآيات الكريمة مباشرة ويقول: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. هذا وقد سبق لي أن وضّحت أن بيعة

المؤمن هي بمثابة ولادة روحية له. وليفكر أحدنا بالضرورة لذكر مراحل الولادة الجسمية في هذا المقام إلا أن يفسر حقيقة ماذكرته للقارئ ويثبت؟

الدليل الثالث: والدليل الثالث الذي يثبت منه ماذكرته في مقدمة هذا البحث هو أنه جل شأنه لم يقف عند حد بيان المراحل التي تمرّ بها الولادة الروحية والولادة الجسمية، بل راح تعالى وبعد أن وضح لنا من خلال قوله تعالى: ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾. وضح أن هاتين الولادتين تنموان وتبلغان كمال نموهما في هذه الحياة، ويطرأ عليهما الموت وينتقل صاحبهما إلى حياة برزخية، وستبعثان من جديد يوم القيامة، وسيكتب لصاحب هاتين الولادتين حياة جديدة وفي عالم جديد، أقول: إن ربنا وقد انتهى من بيان هذه الحقيقة، عاد إلى أصل الموضوع وقال: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين. وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه في الأرض، وإنا على ذهابٍ به لقادرون﴾. فهو جل شأنه وضح أنه أوجد لتطوير هذا الكيان الروحي وترقيته ﴿سبع طرائق﴾ وعدد السبع هنا للكثرة، أي فتحنا أبواب رقي غير محدود من أجل تطوير هذا المولود الروحي. وأنزلنا من السماء ماءً بقدر لإنبات ما تحتاجه الولادة الجسمية من غذاء يجانسها. وليفكر أحدنا بالضرورة لذكر ذلك كله إلا أن يكون بينه وبين مضمون الآيات الأوائل من هذه السورة ارتباط موضوعي؟.

هذه أدلة ثلاثة تؤكد أن لترتيب آيات سورة (المؤمنون) حكمة بالغة متعلقة بالموضوع الذي نحن بصددده وهو موضوع التعاليم القرآنية التي ترسم للمؤمن طريقة معرفة ربه والتعلق به والاندفاع في محبته والدفاع عن دينه القويم.

وقد بات واضحاً أيضاً أن واجب السالك تفهيم حقيقة الصلاة الإسلامية حركات وقراءات وفلسفات وتأدية هذه الصلاة بخشوع تام، فهذا أهم واجب تقتضيه مرحلة الرغبة إلى الله عز وجل وأن يرافقها ابتعاد هذا المؤمن الرّاغب عن الأمور اللاغية بجميع أنواعها وسلوك طريق جديّ خلال السير على طريق العرفان الإلهي. لينمو كيانه الروحي نمواً طبيعياً خالصاً من شوائب الأمراض التي تهدد هذا الكيان. على شاكلة المولود الذي تلده أمّه يُغذى بحليبها سنتين ومن ثم يُنوع له غذاؤه. فالصلاة الخاشعة هي بمثابة حليب هذا الرضيع،

لذلك وإشارة إليه ورد قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾. لذلك أعمد إلى الكلام عن هذه الصلاة .

٤. ماهي حقيقة الصلاة ؟

الصَّلَاة تعني الدَّعاء. وهي اسمٌ يوضع مَوْضِع المصدر. واشتقاقها من الصَّلَا، وهو العظم الذي عليه الإلتيان. لأنَّ المصليَّ يُحرِّك صَلَوِيه في الركوع والسَّجود. والصَّلَاة مأخوذة من معنى العطف وطلب الإصغاء من الله واستمالته إلى هذا المصلي. أي أنَّ الصَّلَاة في حقيقتها مطيَّة المؤمن الخاشع لجذب محبة الله تعالى إليه. ولا تكون إلَّا في الخير. أما لفظ الدَّعاء فيكون في الخير كما يكون في الشر. يُقال: دعا له، ودعا عليه (يحيط المحيط). وبناءً على ماتحمله الصَّلَاة الخاشعة من دلالة تمكين المؤمن من استماله محبة ربِّه إليه، والفوز بمكان مكين لديه، فقد ورد هذا الطَّور من العرفان الروحي في مقابل الطور الأول للولادة الجسمانية والمُعبر عنه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾.

وليعلم القارئ أنه ماسبق لدين سماوي قبل الإسلام أن أتى بصلاة شبيهة بالصَّلَاة الخاشعة التي أتى بها الإسلام، والتي جعلها مطيَّة قرب المخلوق من خالقه. وساختصر معاني ومقاصد ودلالات حركات الصَّلَاة الإسلامية وقراءاتها ومقامات عليه من فلسفات علمية عظيمة وماتحملة من خواص. أقوم بذلك تسهيلاً للمؤمن الرَّاغب سلوك طريق الصَّلَاة الخاشعة بين يدي ربه عز وجل عن وعي لما يقوم به وإدراك. وليستفيد بصورة عملية من هداية ربِّه القائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.

فليعلم هذا المؤمن الرَّاغب أنَّ الحركات والقراءات التي اشتملت عليها الصلاة الإسلامية الخاشعة، لم تكن هي المقصودة بمحد ذاتها، ذلك أنَّ الله غني عن العالمين. بل المقصود هو ماترئز إليه هذه الحركات والقراءات وماتؤدیه من مقاصد وأغراض. وهل يحتاج القائد إلى تحية مرؤوسه الجندي إلا أن يكون الغرض من هذه التحية إبداء الطاعة والولاء؟

فالإسلام طالب هذا المصلي أن يتوجّه في صلاته قِبَلَ البيت الحرام الذي أعاد بناءه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السَّلام. فلماذا أمرنا الإسلام بذلك؟ أمرنا بهذا

التَّوَجُّه في صلاتنا لتذكّر أنّ إسلامنا هو ملة إبراهيم الحنيف، ومن واجبتنا الاعتصام بمجلد الله جميعاً وتحت قيادة روحية واحدة.

والإسلام إذ طالب هذا المصلّي حين يتوجّه قِبَلَ الكعبة أن يرفع يديه ويقول الله أكبر. لم يأمره بذلك الأمر عبثاً. بل يطالبه بهذه الحركة من يديه ليرمز بها إلى أنه ألقى بهذه الدنيا ومشاعلها وراء ظهره معتقداً أنّ الله الذي وقف بين يديه ضارعاً هو أكبر من كلّ كبير عرفته دُنياه.

والإسلام وقد طالب هذا المؤمن بالوقوف بين يدي ربّه وقفة تأدّب، واحترام وتعظيم. أمره بذلك ليعبّر بذلك عن خضوعه لربّه وإعطاءه حقّ قدره من الإجلال والإكبار. وليعبّر أيضاً عن خضوعه لأوامره وهو أن يسير على طريق عرفانه سيراً طبعياً يتلاءم وقوانين النشوء والارتقاء. لذلك أمره أن يركع بعد ذلك ويقول (سبحان ربّي العظيم) أي أن يعبّر عن تدرّجه في معرفة ربّه فهو ينتقل من حالة الوقوف إلى حالة الانحناء التي هي أعظم دلالة على التعظيم. ومن ثم أمره أن يسجد ويقول (سبحان ربّي الأعلى) أي أن يعبّر عن كامل خضوعه وتوحيده وتنزيهه في آخر مراحل ارتقائه الروحي. وعليه فالحركات الصلّاة وقراءاتها رموزها ودلالاتها ومقاصدها، ولم يسبق لدين سماوي أن أتى بمثل هذه الحركات والقراءات.

والإسلام وقد طالب هذا المؤمن المصلّي أن يجلس ليقرأ التحيّيات والصلّوات الإبراهيمية قبل تسليمه. فقد كان المقصد من التحيّيات أن يؤدي تحيات وداع ربّه الذي وقف بين يديه. وقد كان المقصد من الصلّوات الإبراهيمية الدعاء لمحمد خاتم النبيين (ﷺ) أن يُعطيه ربّه ما أعطى جدّه إبراهيم من عطايات.

والإسلام إذ أمر المؤمن المصلّي أن يتوجّه بوجهه ذات اليمين بعد تحيات الوداع ويقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فليرمز بذلك إلى أنّ يتوجّه إلى إخوانه المؤمنين أصحاب اليمين يبشرهم أنّه تزود بروح المسائلة والمحبة لهم وهو بين يدي ربّه. ومن ثم يلتفت بوجهه ذات الشمال نحو غير المؤمنين من عباد الله تعالى ليعلم لهم أنّه تزود بروح المسائلة والمحبة لهم أيضاً وهو بين يدي ربّه، فلن يؤذي أحداً منهم بلسانه ولا ييديه، ولذلك ما إن ينتهي هذا المؤمن المصلّي من

صلاته حتى يذكر ربّه ويقول: اللهم أنت السّلام ومنك السّلام وإليك يعود السّلام تعاليت ياذا الجلال والإكرام.

والصلاة الإسلامية الخاشعة، المفروضة على هذا المؤمن، تدفعه، بما تفرضه عليه من غسل ووضوء تلازمه أدعيته ومن نظافته ثياب وتزيين مظهر المؤمن حين يسعى إلى صلاته هذه، أقول تدفعه ليكون طاهر الثوب والبدن والنفس.

والصلاة إذا اشترطَ على القائم بها وعيه لما يقول. هذا الشرط الذي تضمّنه قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾. فقد كان المقصد من هذا الشرط وعي عقله وكيانه الروحي ما يتلوه في صلاته تدعيماً لنموه الروحي.

والصلاة الجامعة تعمّق في نفوس المصلّين الرّوح الاجتماعية بينهم على أساس أن الإنسان اجتماعي بفطرته. وتنمّي بذلك روح الأخوة والتعارف بين المصلّين.

والصلاة الإسلامية الخاشعة تنهى عن الفحشاء والمنكر، تربط هذا المصلّي بربّه وتنمّي علاقته به وتغرس في نفسه روح الخير وحُبّ العباد. ولا ننسى أنّ الله عزوجلّ الذي صاغ لنا هذه الصلاة بحركاتها وسكناتها وقراءاتها، قد أسّسها لصالح عباده المؤمنين وعلى أسس علميّة فلسفية. فمن المعلوم أن ظاهر الإنسان يؤثّر في نفسه وباطنه. كما يتأثّر ظاهر هذا الإنسان بحالة نفسه الباطنة. والمثال على ذلك أن الخير المفجع المحزن تكتسب له النفس والجسد معاً ثمّ يُلقيه هذا الخير من ظلال على هذا الجسد. والعكس هو الصحيح. فالذي أودى جسده تكتسب نفسه من جرّاء هذا الإيذاء ويضمحل سروره ونشاطه النفسي. وعليه فقد تأسست حركات وقراءات الصلاة الخاشعة وصيغت على هذا الأساس العلمي، أي على أساس أن يؤثّر ظاهر حركاتها وقراءاتها في باطنه.

ثم إنّ الغسل والوضوء استندا في فرضهما وصياغتهما على أساس قانون علمي أيضاً، وهو تهدئة الأعصاب بالماء وإعادة صاحبها إلى توازنه الطبيعي. تمكينا للمصلّي من أن يعي ما يقوم به ويقرأه في صلاته.

وخلاصة القول هو أن الصلاة الإسلامية الخاشعة التي فرضها الإسلام، تشكّل فيما لها وما عليها مُعجزة غذاء روحيّ لا يعادلها في ذلك أيّ غذاء روحيّ أتى به دين من الأديان السماوية قبل الدين الإسلامي. وتشكّل بذلك مطيّة ومعراجاً لهذا المؤمن على طريق عرفان ربّه وخالقه.

وقد لاحظ القارئ تشديد قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ تشديده على ضرورة الخشوع في الصلّاة. فما معنى الخشوع وما هي أوصافه من كتاب الله عزوجل؟

٥. الخشوع وأحواله :

قال اللغويون إنّ الخشوع من خشع الرّجل إذا سكن وتذلّل. وسكون هذا الخاشع يعني ابتعاده عن وضعيّة الاستهتار والنشوز والتصنع، وليقف بين يدي ربّه مُتذللاً متضرّعاً معبراً عن احتياجه لله الذي وقف بين يديه بخضوع ويقين تام لاستمالة محبّته نحوه ونيل كرمه وعطاءاته.

ثم إنّ القرآن الكريم زوّدنا بمعالم الأوصاف التي تتملّك هذا الخاشع. فأفادنا في سورة الأنفال من خلال قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي أن الوجّل ووقفة الخوف من الله ربّنا الذي نقف بين يديه في صلاتنا هي أوّل صفات هذا الخشوع المطلوب للفلاح.

كما أفادنا القرآن الكريم في سورة الزمر من خلال قوله تعالى : ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، أنّ وقفة الخوف من الله وتهيّبه على وجه الحقيقة لها أثر القشعريرة على جلد هذا المصلّي الخاشع. فإذا تملكته هذه القشعريرة واقعياً تتحول القشعريرة لتصبح كما ورد في الآية الكريمة ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾. أي تنفّرج أسارير هؤلاء الخاشعين، بما يستشعرونه من قربهم من هذا الإله الذي وقفوا بين يديه.

وبنهنّا القرآن الكريم إلى الحالة الأخيرة التي ينتقل إليها المصلّي الخاشع في صلاته وذلك من خلال قوله عزوجل في سورة مريم : ﴿وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجُوداً وَبُكِيّاً﴾.

ولابدّ من التذكير هنا بحال المولود الرضيع، إذ لا تكون كمية الحليب التي يتغذى بها في أوّل أيام ولادته، بمعدّل لا يتغيّر. بل إن الخط البياني لهذه الكمية يتجه صعوداً كلّما نما وكبر وازداد صحّةً ووعياً. كذلك يكون حال هذا المصلّي الرّاغب، لا يشترط فيه أن تتوفر خشيته في صلاته إلّا وفقاً للخطّ البياني المذكور. وتبعاً لقانون النشوء والارتقاء.

فهذا هو المطلوب من هذا المباح السالك الذي يبدأ عرفانه من مقام الرغبة، أن يفهم حقيقة الصلاة الخاشعة، فيصلي خاشعاً لإتناء كيانه الروحي حسب قوله تعالى: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾.

أما على صعيد سلوكه اليومي العملي والذي صرّح به قول ربنا عز وجل: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾، والذي يقابله جسمانياً: ﴿ثم جعلنا النطفة علقة﴾. فإن سورة المؤمنون نبّهت هذا الرّاغب الخاشع إلى ضرورة اعتزال حياة اللغو مبتعداً عن الحركات والأقوال التي لانفع من ورائها ولا جدوى، وهي كل قول وفعل لاغٍ من أقواله وأفعاله.

فاللغو من حيث دلالاته اللغوية مصدرٌ يشير إلى كلّ ما لا يعتدّ به من كلامٍ وحركاتٍ ومُجالساتٍ وصُحباتٍ وعلاقاتٍ (محيط المحيط) أي أنّ المصلّي الرّاغب إلى ربّه الذي يُصلي صلاةً خاشعةً يؤديها خمس مرّاتٍ يومياً، لا يخرج من صلاته الخاشعة ليُبتل مفعولها الروحي باللغو في كلامه وحركاته وصُحباته وعلاقاته.

بل ليسعى هذا الرّاغب الخاشع في صلاته إلى تعديل سلوكه الذي كان يسلكه قبل إيمانه وبيعته. فينتهي عن فعل أيّ شيء لا تثبت فائدته علمياً كي لا يلحق الضرر بنموه الروحي. فليقاطع مجالس اللغو وليمتنع عن مصاحبة الأشرار، ولا يعود يُقدم على أمرٍ إلّا بعد التحقق من فوائده بصورة علمية. وباختصار فإنّه يعود يلتزم بنهج علمي في سلوكه وعلاقاته ليفترق بذلك عن مشابهة الأطفال شيئاً فشيئاً، وتكتمل بذلك نظرته إلى الأشياء من حوله من خلال هذا المنظار العلمي السلوكي. ويبقى بذلك محافظاً على نمو كيانه الروحي، فلا يعرضه لمختلف أنواع الأمراض والأخطار.

ذلك أنَّ الأمراض والأخطار لا تهتد كيان المولود جسدياً فقط، بل تهتد كيان المولود روحياً أيضاً، والقرآن الكريم نبه أذهان المؤمنين إلى ذلك صراحةً، وأطلق على الأمراض التي تهتد الكيان الروحي اسم النفاق.

أفلم نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى، يُرَاوُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء ١٤٢.

٦. مرض النفاق وأثره الروحي القتال :

إنَّ كلمة نفاق على حسب ماورد في معجم محيط المحيط، موضوعة دلالةً على المضي والنفوذ، وباقي المعاني متفرع عنها، والنفق سربٌ في الأرض له مخرجٌ إلى مكان. وقال صاحب معجم المقاييس إنَّ لكلمة النفاق أصلين صحيحين. يدل أحدهما على انقطاع شيءٍ وذهابه، والآخر يدل على إخفاء شيء وإغماضه. تقول: نفقت الذابة أي ماتت. ويكنم صاحب النفاق خلاف ما يظهر. فكان إيمانه يخرج منه أو يخرج هو من الإيمان في خفاء. هذه هي دلالات كلمة نفاق.

ومن واجب المؤمن الرّاعب الذي يسير على درب العرفان الإلهي أن يُحيط علماً بالأمراض النفسية التي تهتد كيانه الروحي وتذهب بنور هدايته، وتحول بذلك دون رغبته بالتعرّف إلى خالقه. خصوصاً أنَّ القرآن الكريم فرض عليه أن يصليّ صلاته بخشوع، فمن واجبه أن يسارع دوماً إلى تلبية نداء المؤذن "حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح" أما إذا أحسّ بالكسل في تلك اللحظات، فليعلم أنّها بوادر مرض النفاق الخطر على كيانه الروحي لقول ربنا عزوجل في سورة النساء ١٤٢ ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾. وليعالج بوادر كسله هذا باستغفار ربّه مرّات عديدة والتوبة إلى الله تعالى سائلاً إياه أن يشفيه من مرض كسله الذي يتهتد صلاته الخاشعة ويحرمه من جنّي ثمارها الروحية.

هذا المنطلق المتعلّق بالمنافقين وعلاماتهم المرضية ابتداءً ربّنا عزوجل من الآية الثامنة وانتهى عند الآية العشرين. أي من قوله تعالى في سورة البقرة :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ، يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ. فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ، فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا، وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى، فَمَا رَجَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ. مِثْلُ مِثْلِ الَّذِينَ اسْتَوْقَدُوا نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ، ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ. صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾. فإلى هنا أنهى الله تعالى كلامه عن الفريق الأول من المنافقين مشيراً بذلك إلى ففة منافقي البعثة الأولى للإسلام. وانتقل تعالى بعد ذلك فأنبأ عن الفريق المنافق الذي سيظهر عند البعثة الثانية للإسلام، وقال: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذِرَ الْمَوْتِ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ. يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فليلاحظ القارئ كاف التشبيه التي أتى الله جل شأنه بها أول الآية. هذه الكاف التي تعني ضرورة توفير عناصر ثلاثة في كل مثال هي المشبه والمشبّه به ونقطة الشبه بينهما. فإن عدنا إلى هذين المثالين الذين أوردتهما الآيات من سورة البقرة، فلنجد انطباقهما على فريق واحد من المنافقين، بل على فريقين مختلفين. وإلى القارئ الأدلة على صدق استنتاجي المذكور:

أولاً - فعلى حين وُصِفَ الفريق الأول بقوله تعالى: ﴿مِثْلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِينَ اسْتَوْقَدُوا نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾. مشيراً بهذا الوصف إلى جماعة المنافقين من أهل المدينة المنورة الذين استوقدوا شعلة الإسلام. فلما انتشر الإسلام على أكتافهم واكتاف المهاجرين، تملك الحسد والبغض قلوب هؤلاء المنافقين من أتباع عبد الله ابن سُلَول، وراحوا يثيرون الإشاعات الكاذبة ضدَّ الرسول، وواددوا أعداء الله وأعداء رسوله واستشروا بذلك مرض النفاق في قلوبهم ﴿فَذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

ثانياً: وقد وُصف الفريق الثاني بقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذِرَ الْمَوْتِ﴾. وأشار بذلك الوصف إلى جماعة المنافقين من جماعة البعثة الثانية للإسلام الذين يخشون ما يتطلبه إيمانهم منهم من توضيحات مالية ومعنوية، في وقت آمنوا فيه بنزول صيب من السماء إنما يخشون ما يرافقه من ظلمات ورعد وبرق. هذه الظواهر التي ترافق على العموم كل صيب أي مطر نافع للمزروعات.

ثالثاً - ثم إننا حين نتناول المثاليين من حيث نتائجهما نلاحظ عدم انطباقهما أيضاً على فريق واحد بل على فريقين. فعلى حين جاءت عاقبة الفريق الأول من المثال الأول: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمًى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾. فقد جاءت عاقبة الفريق الثاني من المثال الثاني: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي كلما استقرت الأمور لصالح الدعوة التي انضموا إليها نشطوا في دعوتهم إلى الله تعالى وكلما اشتدت المقاومة ضد هذه الدعوة قاموا من بين صفوف الدّاعين.

يقول تعالى إنه يراعي ضعفهم فلو يشاء لذهب بسمعهم وأبصارهم كما فعل مع فئة الفريق الأول من منافقي صدر الإسلام.

رابعاً - وعَلَّ الله عز وجل سبب ضعف إيمان الفريق الثاني من المنافقين بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي أنّ هؤلاء لم يسلكوا درب العرفان الإلهي ويصلوا إلى درجة اليقين من أنه جل شأنه هو على كل شيء قدير. بل ظلّ يشوب إيمانهم الشرك الخفي ويخشون الشيطان، ونعذرهم أنهم لا يزالون في بدايات هذا الدرب الطويل لذلك لو شئنا لذهبنا بسمعهم وأبصارهم وسلبنا من قلوبهم نور الإيمان كما فعلنا مع الفريق الأول من المنافقين.

وهكذا يتبين لنا اختلاف هذين المثليين وعدم انطباقهما على فريق واحد من المنافقين: بل انطباقهما على فريقين. فريق منافقي صدر الإسلام وفريق منافقي البعثة الثانية المعاصرة للإسلام. وهاكم القرائن التي تؤيد هذا المنطلق الذي قدّمته لنا الآيات الأوائل من سورة البقرة:

القرينة الأولى: هو أن الله تعالى ابتداءً هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾. وهذا النفي لإيمان هؤلاء ورد عامّ الدلالة غير مُخصص بفريقٍ معيّن. على حين أتى تعالى في آخر هذه الآيات بمثلين متعلّقين بفريقين منافقين ولا ينطبقان على فريقٍ واحد. الأمر الذي يضطر الباحث إلى الرجوع إلى جميع سور القرآن واستلهاها عن حقيقة هذين الفريقين وإلى آية الأزمنة يعودان.

القرينة الثانية: والذي يطالع مؤلف (فن الاختزال) سيدرك لاحالة معالم بعثتين للإسلام. ولابدّ أن يوجد بالتالي فريقٌ منافقٌ في البعثة الأولى للإسلام، وفريقٌ منافقٌ ثانٍ في البعثة الإسلامية الثانية. وهذه القرينة تؤكد أن الله تعالى قصد من هذين المثالين في المنطلقين من سورة البقرة هذين الفريقين من المنافقين.

القرينة الثالثة: والتي تشير وتؤكد ما ذهبت إليه، هو أنّه حل شأنه أتى بحرف العطف (أو) بين هذين المثالين قائلاً: (كذا أو كذا). ولم يأت الله تعالى بهذا الحرف عبثاً دون حكمة بالغة.

فإن نحن عدنا إلى معجم محيط المحيط نجدّه يبيّن إلى أن المتأخرين من النّحاة ذكروا لحرف (أو) أحد عشر معنى. فأو تعني الشك أي تردد المتكلم واشتباهاه في مأخذه به نحو لبثنا يوماً أو بعض يوم. والله تعالى منزّه عن التردّد والاشتباه. فلا يجوز الأخذ بهذا المعنى لحرف أو الوارد بين هذين المثالين. وكمثله دلالة (أو) على التخيير بعد الطلب فلا طلب هنا ولا تخيير. وكمثله معنى الإباحة بعد الطلب فلا طلب هنا ولا إباحة. وكمثله الجمع المطلق فلا يصحّ الجمع المطلق لاختلاف المثالين. وكمثله معنى الإضراب كبل المشترط فيه تقدّم نفسي أو نهبي، فلا نفي تقدّم على هذين المثالين ولانهبي. وكمثله معنى التقسيم نحو: الكلمة اسمٌ أو فعلٌ أو حرفٌ، ولا يوجد في المثالين هذا النوع من التقسيم، وكمثله معنى الاستثناء والاستثناء في هذين المثالين. وكمثله أو بمعنى إلى فلا يصح في هذا المقام. وكمثله معنى التقريب وهو الاشتباه في هذا المقام. وكمثله معنى الشرطية نحو: لأضربنه عاش أو مات، فلا شرط في هذا المقام.

وهكذا فلا يبقى لدينا إلّا معنى واحد نأخذ به لحرف العطف (أو) الوارد بين هذين المثالين، وهو معنى الإبهام على المخاطب لغرضٍ من الأغراض. فقد

شاء جل شأنه أن يُبهم على القارئ دلالة هذين المثالين على فريق منافقي صدر الإسلام وفريق البعثة الثانية للإسلام لحكمتين بالغتين: الحكمة الأولى أنه يأتي هنا بأمر غيبي كمنطلق، لا يحتاج للتخصيص، والحكمة الثانية أنه تعالى أبهم ذلك حثاً منه للقارئ ليتدبر كلام الله يامعان رصين، وهو مافعلناه حتى الآن. ليؤجر هذا القارئ عند ربه، ويثبت بالتالي إعجاز دلالات القرآن العظيم، وأن الله تعالى هو علام الغيوب.

أما وقد فرغنا من الإحاطة بالمنطلق القرآني المنبئ عن ظهور فريقين من المرضى بمرض النفاق. فقد وجب على المؤمن الراغب أن يعي هذه الحقيقة صيانةً لكيانه الروحي من أن يتأكل إن هو فرط في حقه.

ولما كنت أوضحت أن من علامات النفاق كسل هذا المؤمن الراغب حين يسمع نداء المؤذن للصلاة والفلاح. ذلك أن كسله هذا يعقبه مرض نفاق في قلبه. لأن سورة التوبة نبهتنا إلى هذه الحقيقة من خلال قوله تعالى في الآيات (٧٤-٧٦) منها: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لئن آتانا من فضله لنصدقنَّ ولنكوننَّ من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به وهم معرضون. فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون. ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب؟﴾. فقد حذرنا هذه الآيات من أن الإخلاف مع الله يعقبه مرض نفاق يصيب فؤاد هذا المؤمن المخلف لوعدته مع ربه الذي بسط له رزقه استجابة لما وعده به وبسبب أنه عاهد على البذل والعطاء والتصدق والاندفاع على طريق التقوى والعرفان. ذلك أن الإخلاف بالوعد يُصيب قلبه بمرض يأكل كيانه الروحي كما يفعل السوس الذي ينخر في جذوع الأشجار.

ولنعد إلى سورة الحديد التي وضح الله عز وجل في آياتها (١١-١٤) الحرمان الذي يُصاب به المنافقون يوم القيامة، حيث قال تعالى بحق المتصدقين وبحق المنافقين البخلاء: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له، وله أجرٌ كريم، يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، بُشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم. يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم،

قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا. فضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. يُنادونهم ألم نكن معكم؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرّكم الأماني، حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور. ﴿١﴾. فالإنفاق في سبيل الله هو بمثابة إقراض الله قرضاً حسناً، يرده له أضعافاً بتدابير خفية وأسباب، ويكافئه على هذا الإنفاق بأجر كريم نور يسعى بين يدي هذا المنافق وبإيمانه وجناتٍ خالداً فيها. على حين يحرم المنافق البخيل نفسه من هذا الفضل الإلهي وهذا الأجر الكريم. وقد تبّه جل شأنه إلى أن هذا البخل الذي يخله هذا المؤمن المنافق يعود إلى أربعة أسباب رئيسية: الأول منها عبر عنه بقوله تعالى (فتنتم أنفسكم) من فتنه المال استماله إليه وحرص عليه (محيط المحيط). والثاني منها عبر عنه بقوله تعالى (وتربصتم) من ريص بفلان انتظر (محيط المحيط) والثالث من هذه الأسباب قوله تعالى (وارتبتم) من راب تشكك بعود الله تعالى. والسبب الرابع عبر عنه بقوله تعالى (وغرّكم الأماني) أي خدعتكم أمانيتكم أن تصبحوا أصحاب ثروات عظيمة فاوقعتكم في مرض الحرص والنفاق.

كذلك نبّهنا كتاب الله تعالى إلى أن الذين يتغنون العزّة عند غير الله تعالى، ويؤادون الذين يستهزئون بآيات الله عز وجل، يُصابون بأمراض النفاق التي تقضي على إيمانهم فلا يعود بينهم وبين الكافرين من فروق. هذا ما عبرت عنه الآيات (١٣٨-١٤٠) من سورة النساء من خلال قوله تعالى: ﴿يَبْشُرُ الْمُنَافِقِينَ أَنَّ لَهُمْ عِذَاباً أَلِيماً، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، آيَتُغُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ، فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً، وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا، فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ، إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾. ذلك أن الإيمان يُنور قلب المؤمن بإذن ربه. أمّا النفاق المشتق من النفاق الدال على الظلمة، فإنه يأكل نور الإيمان ويورث ظلمة في قلب صاحبه، إلى أن يستشري ويقضي على النور الذي أورثه هذا الإيمان في القلب.

من هذا كله ندرك أنه في حين اختصّ الأطباء البشريون بمعالجة الأمراض التي تصيب الأجساد. فإن معالجة الأمراض التي تصيب الكيان الروحي لا يقدر

على القيام بها إلا الأنبياء والمصلحون الروحانيون بما يتلقونه من علوم علاج لهذه الأمراض من لدن الله عز وجل.

وزبدة الكلام هو أنَّ على المؤمن الراغب سلوك درب العرفان الإلهي أن يُحيط علماً بكل مائه إليه القرآن الكريم بما يتعلّق بأمراض النفاق، ليحذرها ويصون بذلك ولادته الروحية التي تأتت له تلقاء إيمانه وبيعته. هذا وإنني لم أت على ذكر جميع الأمراض التي تؤدي إلى النفاق حصراً خشية الإطالة على هذا الراغب والإطباب. والذي أدعو هذا المؤمن الراغب إليه بل كلّ مؤمن في زماننا هو أن يُحذّر أن يشمله قوله تعالى : ﴿وَأَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ. يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.﴾. أن يظلّ هذا التشبيه القرآني نصب أعين المؤمن الراغب إلى الله من إخواننا أفراد البيعة الثانية للإسلام. ليذكّرهم هذا التشبيه على الدوام أنَّ هذا المؤمن المبايع لمجدّد هذا الزمان لأبّد أن تعرّضه ظلمات ورعد وبرق يخطف الأبصار. فهذه ظواهر طبيعية ترافق نزول كلّ صيّب أي مطر نافع نازل من السماء، وهي مؤشّر صحيّ وبشارة، وليست هذه الظواهر بنذير شؤم وإنذار. ذلك أنَّ على هذا المؤمن الراغب أن يسير قدماً على طريق معرفته لرّبه فيواجه جميع هذه الأخطار بصدر رحبٍ وصبر ومثابرة واحتمال، مُعتقداً من صميم فؤاده أنَّ ربّه يحيط بالكافرين من جهة، وأنّه من جهة أخرى على كلّ شيء قدير. فمثل هذا المؤمن الراغب يبلغ أخيراً مقام جذب محبة ربه إليه ويُدخله ربه في زمرة من يحبّهم ويحبّونه أيضاً.

أعود الآن إلى الآيات الأوائل من سورة (المؤمنون)، حيث طالب الله تعالى المؤمن الراغب أن يُتقن فهم صلاته، ويصليها بخشوع، ويعرض بعد ذلك عن الأمور اللاغيات من أقوال وحركات وعلاقات بالآخرين تبعده عن درب معرفته لرّبه. وأن يتلمس في الوقت نفسه حالة الأنس برّبه ليكسب وده ومحبته. فإذا تقيّد المؤمن السالك بهذه القيود من صلاة خاشعة إلى الابتعاد عن اللاغيات، يتمكّن الأنس بالله من نفسه ويتنقل بذلك إلى مرحلة عبّر الله تعالى عنها:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ أي لا يعود ينجذ في نفسه حرجاً من أن يذل ما يترتب عليه من مال لدعم مسيرته الإيمانية.

ثانياً . مقام الأنس فالود :

نتساءل هنا: لماذا قال تعالى ﴿لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ ولم يقل مؤدّون للزكاة؟ وهذا السؤال أجاب عليه صاحب الكليات حيث قال: (العمل يعمُّ أفعال القلوب والجوارح، ويُستعمل لما كان مع امتداد الزمان. وفعل بخلافه.) (محيط المحيط). أي أنّ أداء زكاة الأموال هو من فعل الجوارح وتتطلب المداومة على أدائها طيلة الحياة. فإلى هذه المعاني ورد قوله تعالى (للزكاة فاعلون).

ونتساءل ثانية عن حكمة تأجيل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ إلى ما بعد قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾. وحكمة ذلك أنّ تزكية المال والتضحية به ليست بالأمر الهين على كل إنسان. فلا يُقدم عليه ولا يلتزم بأحكامه إلا الذي قطع أشواط أداء صلواته بخشوع وابتعد عن الأمور اللاغيات وحاول ربط نفسه برّبه عز وجلّ. ليستحق بذلك الأجر الكريم الذي وعده الله هذا المؤمن السالك درب عرفانه في سورة الحديد بقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له، وله أجرٌ كريم﴾ ثم إنّ المؤمن الذي أنس ربّه وطلب ودّه، يُطالبه ربّه أن يلتزم بأمر جديد عبّر عنه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾. إلا على أزواجهم أو ما مملكت أيمانهم فبأنهم غير ملومين. فهذه المطالبة وهذا المقام الجديد يأتي بعد مرحلة الالتزام بفعل الزكاة، ويقابل ذلك مرحلتي ﴿فَخَلَقْنَا الْمَصْفُوعَ عِظَامًا، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ على صعيد التكوين الجسدي لهذا الإنسان المؤمن.

فإذا ما بلغ المؤمن السالك مقام الود الذي ذكرناه والذي تطلب من هذا السالك حفظ فرجه إلا على أزواجه أو ما مملكت أيمانه. يسمع إنذاراً ربانياً أنذر به ربه في سورة المؤمنون يقول: ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

أي أنّ المؤمن السّالك الذي يبلغ مقام الوَدِّ رهبةً من ربّه ويصون نفسه من جميع أمراض النفاق بصورة موضوعية. من واجبه أن يعاهد ربّه هناك عهداً لا ينكص عنه. وهو أن يثابر على طلب عرفان ربّه ومحبّته، فلا ينكص بعدها على عقبيه مهما واجهته السماء بابتلاءات، بل أن يحضي إليه قُدماً يستعطفه ويطلب محبّته لينشئه الله نشأة ثانية مقابل النشأة الجسمانية التي عبّر تعالى عنها بقوله ﴿ثمّ انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

أمّا إذا لم يتعظ هذا المؤمن بالإنذار الرباني المذكور، وأخلّ بتعهده، يحرمه الله تعالى من ودّه إياه ويصبح من زمرة ﴿فأولئك هم العادون﴾ أي زمرة الظالمين لأنفسهم الخاسرين صداقة ربّهم ووده إياهم وولايتهم لهم. ويكون حال هذا كحال الذي بلغ شاطئ النهر وعاد أدراجه وهويشكو الظمّ والعطش.

ثالثاً . مقام المحبة :

فإن ثبت الله تعالى فؤاد السالك درب عرفانه على هذا الصعيد يجذب بعدها محبة ربّه نحوه، ويدخل بعدها في زمرة الذين قال الله تعالى بحقّهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾. فإذا بلغ هذه المرحلة من العرفان توجب عليه هناك أن يلتزم بالقانونين اللذين يقتضيهما مقام المحبة وقد سبق شرحهما من قبل أيضاً.

هذان القانونان تضمّنتهما الآيات من سورة المؤمنون قوله تعالى: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾.

والآن نلقي نظرةً على مافهمناه من آيات سورة المؤمنون، ونجمل ماأوردّه الله جل شأنه في هذه الآيات التي نوّرت المؤمن الراغب بالمراحل والخطوات التي ينبغي عليه أن يقطعها على طريق عرفانه لربه، والركائز المفروضة عليه ومُرتبة بشكل يتلاءم وتطوره روحياً بشكل طبيعي. فهذه الآيات قسّمت حياة المؤمنين إلى مرحلتين رئيسيتين.

مرحلة ما قبل قوله تعالى: ﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾. ومرحلة ما بعد هذه الآية وماأشارت إليه. أي أنّ المؤمن السالك

درب العرفان الإلهي يبلغ ما بين هاتين المرحلتين حدًا فاصلاً لا رجعة معه. ومن واجبه أن يسير في عرفانه قبل هذه المرحلة الفاصلة بتشكيل طبيعي وفق ترتيب ماتضمنته تلك الآيات، فلا يتجاوز ترتيبه وإلا فإنه يصح من (العادون) من عدا طوره وقدره إذا جاوزه وتركه (محيط المحيط).

فإن سار هذا المؤمن المبايع ضمن هذه الوصية وبلغ مرحلة المحافظة على فرجه يُمسي تطبيقه لهذه الغروض والأوامر طبيعياً جداً لا يُخالطه حرج ولاضعف. ويكون بذلك قد تدرّج من الرغبة فالأنس فالود على طريق معرفته لربه ويكون بذلك من

﴿الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾.

فما معنى لأماناتهم وعهدهم راعون؟

الأمانات جمع أمانة، وخلاف الخيانة. علماً بأن جميع ما فرضه الله تعالى على عبده المؤمن يُعد من قبيل الأمانة. أمّا كلمة (وعهدهم) فمن عهد إليه: أوصاه، وعهد الحرمة رعاها وحفظها. والعهد هو الوفاء والمودة والذمة والضممان. وأمّا (راعون) فمن رعا الرجل أي نزع عن الجهل، وحسن رجوعه عنه (محيط المحيط).

واستناداً إلى هذه المعاني لتلك الألفاظ، يصبح معنى ﴿لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ هو أن المؤمن الذي تدرّج على طريق التعرف إلى ربه من الصلاة الخاشعة إلى الإعراض عن حياة اللغو إلى فعل الزكاة إلى الحفاظ على فرجه، بحيث سار سيراً طبيعياً وأضحى عمله على هذه الفروض دستوراً لحياته اليومية. فابتدأ راغباً إلى الله إلى أن يأنس بوجوده ويجعل الله له ودًا. ويتأهل بذلك ليصبح محباً لربه ومحبباً عند ربه. فيصبح عندئذٍ مستعداً للتخلي عن أي نوع من أنواع الجهالة، ويحسن رجوعه إلى ربه قائماً بجميع أماناته المفروضة عليه وعاملاً على جميع وصاياه التي أوصاه بها محبوبه وإلهه بلا استثناء. على اعتبار أن هذا المؤمن قد بلغ سنّ رشد الروحي، وعاد مسؤولاً عن أقواله وأفعاله وبصورة قانونية.

فإن نحن حاولنا تفسير القرآن بالقرآن. بإمكاننا القول: إن هذا المؤمن صارع نفسه الأمانة بالسوء، فتجاوزها إلى مرحلة النفس اللوامة. حيث كان يدر منه خلال مراحل الرغبة والأنس والودّ سقطاتٍ وضعفٌ دون قصدٍ منه لخدائته كيانه الروحي، فتلومه نفسه على ما يئثر منه من سقطاتٍ وضعف. أقول: إن هذا المؤمن الذي تجاوز مرحلتَي النفس الأمانة بالسوء والنفس اللوامة، وماعاد من (العادون) الذين يتجاوزون حدود الله المرسومة لهم ليسيروا عليها بشكلٍ طبيعي. إذا بلغ هذا المؤمن آخر مراحل نفسه اللوامة. يدخل سنّ رشدّه وتصيح نفسه التي جذبت إليها محبة ربّها عزوجلّ مطمئنة بهذا الربّ الإله المحبوب، فلا يعود يدر عن هذا المؤمن حيّانة لأماناته المفروضة عليه في كتاب الله الفرقان العظيم، ولا يعود يدر عنه آية مخالفة لوصاياّه عزوجلّ التي أوصاه بها في هذا القرآن الكريم. ذلك لأنه بلغ سنّ رشدّه الروحي من جهة. ودخل في الذين يحبهم الله ويحبونه من جهة أخرى. وماعاد له رجوع إلّا إلى ربّه عزوجلّ وفق قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. الفجر ٢٨.

وبإمكاننا تشبيه صاحب النفس المطمئنة بالسّمك الذي لا يعيش إلّا في الماء. أي أنّه يعود على درجة من الانجذاب نحو ربّه بحيث لا يعود يجد سلواناً إلّا في أحضانه. ويعود على درجة من تقوى الله بحيث يُشار إليه بالبنان. لا تبدّل عنه خيانة لأماناته، ولا نكوث عن العمل بوصايا ربّه عزوجلّ، أي أنّ كلمة (راعون) استعملت في هذه الآيات من سورة (المؤمنون) في مقابل كلمة (التقوى) في بقية الآيات من كتاب الله تعالى وتحمل نفس دلالة التقوى من حيث الموضوع والغاية معاً.

وهذا الفريق المؤمن الذي بلغ النفس المطمئنة وهذا الحدّ من تقوى الله تعالى. وصفه جل شأنه أيضاً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. أي أنّه قبل هذه المرحلة قد يدر عنه خلال أدائه لصلواته المفروضة ضعف وترك وتقصير. أمّا إذا بلغ سنّ رشدّه الروحي، فلا يعود يدر منه مثل هذا الضعف والتقصير عن قصد ولا عن غير قصد. ويكون بذلك من الذين هم على صلواتهم يُحافظون.

ولا ينبغي أن نأخذ كلمة (صلواتهم) هنا دلالتها على الصلاة المفروضة وحسب. بل من واجبنا أن نفهم هذه الكلمة هنا بدلالاتها الأشمل. دلالتها على الصلوات المفروضة وعلى الذكر الإلهي المطلوب في الآية (١٩١) من سورة آل عمران: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا، سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. أن نفهم دلالة قوله تعالى ﴿عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ على الصلاة المفروضة وعلى الذكر الإلهي المطلوب من المؤمن من هذه الآية من سورة آل عمران، بقرينة أن مقام المحبة يقتضي ألا يغيب هذا الرب المحبوب عن أعين هذا المؤمن المحب لربه. فهذا قانون أساسي يقوم عليه موضوع المحبة نفسه.

فالمؤمن الذي لا يخون أماناته ولا يترك وصايا ربه دون العمل بها، والذي يؤدي صلواته المفروضة عليه بخشوع تام، ويعيش على ذكر ربه عز وجل، هو من الوارثين الروحانيين الذين نصّت على تسميتهم الآية ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون. وهذا المؤمن وهو في هذا المقام الأخير من عرفان ربه، يحدث الله عز وجل في كيانه الداخلي الروحي تبدلاً محسوساً، ويُنشئه نشأة أخرى روحية في مقابل النشأة الأخرى الجسمية فتبارك الله أحسن الخالقين. وهذا المقام هو المقام الذي اصطلح القرآن على تسميته بالنفخ في الروح.

وحين نصل إلى هذا الحد من البيان، نشعر بضرورة الكلام على الذكر الإلهي الذي يشمل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.



الباب الثالث

الفصل الأول

أولاً - الذكر الإلهي وتعريفه:

لابدّ أننا علمنا من خلال قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أولئك هم الوارثون. ﴿﴾ أنه تعالى وَضَحَ لنا السَّمة التي تُمَيِّز العارفين به ومحبيه عن سواهم من المؤمنين السالكين. كما علمنا أنّ (صلواتهم) كلمة لم يُقصد بها الصلوات الخمس المفروضة وحدها، بل وشملت الذكر الإلهي بجميع أشكاله.

فالصلاة في اللغة تعني الدُّعاء المؤطّر بحركاتٍ وأدعيةٍ وتلاواتٍ وتساييحٍ ورموزٍ وتعابير. فهي شكل من أشكال الذكر الإلهي الذي هو مجرد أدعيةٍ ومناجاةٍ بأشكالٍ متعدّدة تَبَيَّنَّا إليها القرآن المجيد، وميَّزنا بها عن أتباع بقيّة الديانات.

ثم إن القرآن الكريم أطلق على الصلاة مصطلح الذكر الإلهي وذلك في الآية الثامنة من سورة الجمعة التي قال تعالى فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ إِلَى الصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ..﴾ وماقال فاسعوا إلى الصَّلَاةِ. تنبيهاً لذهن هذا المؤمن إلى أن الصَّلَاةَ ماهي إلا شكل مؤطّر من أشكال الذكر الإلهي، ليس إلا. وإلا فللذكر الإلهي أشكال أخرى غير الصَّلَاة. أفلم يُعلِّمنا محمد رسول الله (ﷺ) أن ندعو مع كل حركة وضوء بدعاء؟ مثلاً ندعو مع غسل وجوهنا "اللهم بيض وجهي يوم تسودّ الوجوه" فهذا شكل من أشكال الذكر الإلهي. وأو لم يُعلِّمنا القرآن الكريم ألا نتناول شيئاً لناكله إلا بعد أن نقول "بسم الله الرحمن الرحيم" فهذا شكل ثالث من أشكال الذكر الإلهي. هذا وإن كل دُعاء ندعو الله تعالى به ونتوسّل إليه عن طريقه فهو ذكر إلهي وصلاةٌ أيضاً. على اعتبار أنّ الصلاة هي الدعاء في لغة الضّاد.

ثم إنّ الآية من سورة الجمعة التي استعملت للصلاة مُصطلح الذكر الإلهي، هي نفسها تَبَيَّنَتْ ذهن هذا القارئ إلى وجود أشكالٍ أخرى للذكر

الإلهي. حيث أنّ تمة الآية: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي أنّ هذا طريق الفلاح أيضاً.

وقد ظنّ فريق المتصوّفة أنّ ذكر الله هو أن يجلس المرء يرّد اسم الله بمئات وألوف المرات. في الوقت الذي لم يتدبّروا فيه موضوع الذكر الإلهي على ضوء سيرة سيّد المرسلين محمد (ﷺ) والمُعْتَبَرُ شرعاً أعظم الذاكرين. فلم يرد عنه (ﷺ) أنّه جلس يمضي ساعات يرّد اسم الله عزوجل. بل رسم للمؤمنين منهجاً لذكر الله وكان بهذا المنهج الأسوة الحسنة للذاكرين وهو ماسّاتي على بيانه في حينه.

والمُتصَوِّفُونَ ظَنُّوا مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (٤٥) مِنْ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾، أَفْضَلِيَّةَ الذِّكْرِ وَأَفْضَلِيَّةَ تَرْدِيدِ اسْمِ الْجَلَالَةِ (اللَّهُ) عَلَى الصَّلَاةِ، وَدَلِيلَهُمْ قَوْلُهُ (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ). وَذَهَبُوا هَذَا الْمَذْهَبَ لَعَدَمِ أَخْذِهِمْ بِأَصُولِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ جِهَةٍ، وَلَعَدَمِ تَدَبُّرِهِمْ دَلَالَاتِ الْآيَاتِ مِنْ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ.

فَمَنْ حَيْثُ الْأَصُولُ، لَا بَدَّ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ وَالْأَقْوَمُ الْمَتَدَبِّرُ لآيَاتِ اللَّهِ فِي مَتَاهَاتٍ وَانْخِرَافَاتٍ. فَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ تَفْسِّرُ الْآيَةَ (٤١) مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ وَتَنْبِيَهُ الْمُؤْمِنَ إِلَى أَنَّ الْمَوَاطِبَةَ عَلَى إِقَامَةِ صَلَوَاتِهِ الْخَمْسِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَيْهِ لَيْسَتْ بِكَافِيَةٍ بَلْ وَتَعَدُّ الصَّلَاةَ أَحَدَ أَشْكَالِ الذِّكْرِ الْإِلَهِيِّ.

وَأَنْ مِنْ وَاجِبِهِ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَوَقْفِ الْمَنْهَجِ الْحَمْدِيِّ الَّذِي اسْتَنَّهُ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فَذَكَرَ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الشَّكْلَةِ أَيْ الْجَمْعَ بَيْنَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَةِ وَبَيْنَ الذِّكْرِ وَوَقْفِ الْمَنْهَجِ الْحَمْدِيِّ هُوَ "أكبر" مِنْ اقْتِصَارِ هَذَا الْمُؤْمِنِ عَلَى آدَاءِ صَلَوَاتِهِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَيْهِ.

ثم إن الآيات من سورة المؤمنون، على حين كان أولها ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ جاء آخرها يقول ﴿وَالَّذِينَ هُمْ

على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. ﷻ. ولم يكن المقصد بذلك تذكير المؤمن ضرورة محافظته على صلواته المفروضة. فهذا أمر استوفته آية ﷻ الذين هم في صلاتهم خاشعون. ﷻ لكون المواظبة من مستلزمات أداء الصلاة. بل كان المقصد من قوله: ﷻ والذين هم على صلواتهم يحافظون. ﷻ. المحافظة على "ذكر الله كثيراً" غير الصلوات المفروضة المشار إليها في الشطر الثاني من آية سورة الجمعة التي أوردناها، وليصبح هؤلاء الذين يحافظون على صلواتهم بجميع أشكالها من الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فيستوفون بذلك الأصل الثاني الذي تقوم عليه المحبة الإلهية وهو ألا يعود الله تعالى يغيب عن أعين هؤلاء العارفين له والمحبين والمحبوبين.

واستناداً إلى ما ذكرناه بإمكاننا وضع مفهوم للذكر الإلهي الذي حثّ عليه كتاب الله القرآن، وهو أنّ المقصود بذكر الله هو الدعاء والتوسل بين يدي ربنا عز وجل ومناجاته بوسيلة أسمائه الحسنى بأشكال مختلفة منها الصلاة المفروضة، ومنها الأدعية المسنونة في القرآن وما وصلنا من أدعية رسول الله ﷺ تتعلق بكل وضع من أوضاعنا. معتقدين اعتقاداً يقينياً أنّ ذات الله تعالى تحمل هذه الأسماء الحسنى وتتصف بها، وهي وسيلتنا لاستجابة دعواتنا كلّ حين.

ثانياً. فلسفة الذكر الإلهي :

وقبل أن أتناول بالذكر توضيح الفلسفة التي أُمسّ عليها تعليم الذكر الإلهي في الإسلام. أجد من المناسب التنبيه إلى أنّ الذكر الإلهي لا يؤتي ثماره إلا إذا كان الذّاكر تقيّاً، وأن تتصف سلوكيته اليومية بالصلاح والاستقامة، وفق ما طالبت به الآيات من سورة المؤمنون.

هذه الآيات التي طالبت المؤمن السالك درب معرفة ربه أن يؤدي صلواته المفروضة بخشوع واستطاع، ويتدرّج فيهجر كلّ شكل من أشكال اللغو وحركاته وألفاظه. فإذا ما تميّز بذلك عوّد نفسه على التضحية المالية بجميع أنواعها. فإذا اعتاد فعل الزكاة يسعى لحفظ فرجه إلى حدّ العفة والشرف، محارلاً وقاية نفسه من جميع أمراض النفاق. ويكون بذلك كلّ قد أعدّ نفسه ليصبح

عارفاً بالله، ومحبوياً من محبوبيه، فيحافظ بصورة تامة وقتئذ على أماناته وعهوده التي قطعها مع ربه ويكون من الذاكرين الله، والذين لا يغفلون عن وجود ربهم وملاحظة تصرفاته في جميع أحوالهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم فلا ينبغي للمؤمن أن ينسى مابتهته إليه ووضحته له في هذا المقام.

والآن أتناول الكلام عن فلسفة الذكر الإلهي وأقول: إن كل إنسان بإمكانه إدراك وتبين الأساس والفلسفة التي تأسس عليها موضوع الذكر الإلهي سواء بنفسه أو بالأسلوب العلمي. فبال تجربة الذاتية يتضح لنا أن لأصواتنا وأفكارنا آثارها التي تتركها في مخيلتنا. فالذي يدأب على ذكر شيء بلسانه يعود يفكر به، فتنشأ صورة هذا الشيء في مخيلته إلى أن يأتي عليه وقت يشعر فيه أنه أصبح لهذا الشيء الذي دأب على ذكره والتفكير به صورة في مخيلته. حتى وأنه يترأى هذا الشيء أحياناً لهذا الإنسان في منامه أيضاً.

والعكس هو الصحيح. فالشيء الذي نكره ذكره، نحاول تناسيه، وتغيب مع الأيام صورته من مخيلتنا. فهذه حقيقة لا بد أن يكون قد جربها أكثر الناس بصورة عملية. وعلى هذه الحقيقة العلمية تأسست فلسفة الذكر الإلهي بجميع أشكاله الإسلامية.

هذا وإن الذكر الإلهي يخلق حالة خشوع في نفس الذاكر حالة خشوع على حين أن الأغنيات تترك حالة الطرب. حتى أن الأفاعي تماليل طرباً إذا عودتها هذه العادة على عزف الناي. وقد وصف القرآن الكريم أحوال الذاكرين الخاشعين ، الأمر الذي سبق لي أن وضحته وقت التحدث عن الصلاة الخاشعة.

ولنعد إلى كتب السيرة فمحدث أن رسول الله (ﷺ) جلس يذكر ربه بطريق الإنشاد أو الرقص أو الصياح أو المزمار. ولاعن طريق الإغماء وهزّ الرؤوس وسواها من حركات المتصوفين المعاصرين. ولايتعارض ذكر الله أن يستمع رسول الله (ﷺ) لشعر حسّان بن ثابت الذي كان يعظمه رداً على قصائد المشركين.

ألا إن القرآن الكريم استعمل لحالة الوجد التي يولدها الذكر الإلهي في الصلاة الخاشعة وفي بقية أشكال الذكر في نفس الذاكر عدّة ألفاظ هي :

(وَجَلَّتْ، تقشعر، تلين جلودهم، سُجِّدًا وبكياً). وإن جميع هذه الألفاظ لاتفيد مايفعله الطرب في نفس المطروبين من حركة واضطراب. بل تفيد من حيث دلالاتها اللغوية معاني السكون واللطافة والهدوء. وهذا أمر بإمكان النحويين تدبره بشكل جيد ليدركوا حقيقة ماذكرت.

من هذا ندرك أنَّ مايقوم به المتصوّفون في زماننا من حركات في مجالس ذكرهم، إنّما هو أبعد مايكون عن تعاليم القرآن الكريم. خصوصاً وأنَّ الله عزوجلّ قد أنزل هذا القرآن ليقوم بتعاليمه ضعف عقولنا وليضع أرجلنا على الصراط المستقيم. ولم يُنزل الله هذا القرآن ليذهب بعقولنا وبصوابنا ويُظهرنا بمظهر الجهالة والطيش. ومن ممّا لايدري أن رسول الله (ﷺ) عندما فقد ابنه إبراهيم لم يبلغ حُزنه عليه حدّ الصياح والعويل؟

وهكذا ندرك معالم الفلسفة التي تأسس عليها مبدأ الذكر الإلهي فذكر الله ينقش في مُخيّلة هذا المؤمن الذّاكر صورة زاهية عن الصفات التي تتصفّ بها هذه الذات الإلهية التي يقوم على عبادتها. فترسم أسماء الله الحسنى في مُخيّلة هذا المؤمن الذّاكر صورة لما تحمله الذات الإلهية من قدرات لايطالها خيال المرء، ولاتحدها حدود. ويتعرّف عن هذا الطريق إلى محبوه الذي يسير على درب عرفانه الطويل.

ثالثاً - أشكال الذكر الإلهي :

والذي يتدبر كتاب الله يتبيّن له أنَّ وجود أربعة أشكال لذكر الله عزوجلّ. وقد أمر الله المؤمن السّالك درب عرفانه أن يذكره بهذه الأشكال للذكر. فإن لم يفعل ذلك، وابتدع من عند نفسه طرقاً وأشكالاً أخرى يحسب أنها تؤدي إلى عبادة الله تعالى فقد استوجب الحرمان من معرفته، وإنزال العقاب به على معصيته، وحرمانه من الفوز بالأجر الكريم الذي وعد الله تعالى به عباده المؤمنين المتّقين. أمّا إذا ذكر ربّه بهذه الأشكال من الذكر الإلهي فتحت له أبواب العروج الروحاني، وهذه الأشكال هي:

١. الصلاة ذكر إلهي :

نصّت على هذا الشكل من ذكر الله تعالى الآية الرابعة عشرة من سورة طه، والتي خاطب الله جل شأنه رسوله الكريم فيها أمراً بإياه بقوله: ﴿وَأَنَا اخِزْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ. إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾. ذلك أنّ سورة طه نزلت في مكة المكرمة في السنوات الأولى للدعوة الإسلامية، وأوجب تعالى بها على المؤمنين ذكر الله بالشكل المعروف باسم الصلاة المؤطرة بالحركات والأذكار المعلومة. علماً بأنه تعالى أتى بلام الاختصاص فأدخلها على كلمة ذكري وقال ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ منبهاً بذلك إلى أنّ الصلاة المفروضة تعتبر في نظره تعالى شكلاً من أشكال ذكر الله عز وجل.

وحينما أوجب الله تعالى على المؤمن صلاة خمسة أوقات في اليوم، فكأنه أمر هذا العبد أن يفرغ نفسه في هذه الأوقات ليذكر ربه بهذا الشكل من أشكال الذكر الإلهي وعليه فقد سُميت الصلاة ذكراً إلهياً في سورة طه التي كانت من أوائل منازل من سور قرآنية في مكة المكرمة. هذا النص ورد حسب ترتيب نزول القرآن المجيد. فإن نحن عُدنا إلى ترتيب تلاوة هذا القرآن نلاحظ نفس ملاحظتنا في سورة طه. فقد سُميت الصلاة في سورة البقرة أيضاً ذكراً إلهياً. أفلم نقرأ الآية (٢٣٨) التي يقول تعالى فيها: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ، فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا، فإِذَا أَمْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾؟ فهامو جل شأنه قد استبدل لفظ الصلاة هنا بقوله: ﴿فاذكروا الله كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾. فلم يقل فإذا أمتم فصلّوا. أو أدّوا فرض الصلاة. بل قال (فاذكروا الله) وسُمي الصلاة بذلك ذكراً إلهياً منبهاً جل شأنه إلى أن هذا الشكل من ذكره ما علمت البشرية مثيلاً له في تاريخها الطويل.

٢. تلاوة القرآن ذكر إلهي : وإن نحن عُدنا إلى سورة الحجر، وقرأنا

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. لأبد أن يخطر ببالنا سؤال وهو لماذا أتى الله تعالى في هذه الآية بكلمة الذكر ولم يقل (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْقُرْآنَ) وهو الاسم المشهور لكتابه العزيز؟ والحكمة من ذلك تنبيه عقولنا إلى ضرورة

ذكر الله تعالى عن طريق تلاوة آيات القرآن الكريم. ذلك أد تلاوة القرآن تعدّ وفقاً لهذا النصّ القرآني، شكلاً ثانياً من أشكال الذكر الإلهي.

وهذا الشكل الثاني من الذكر وهو تلاوة شيء من آيات القرآن الكريم يُعدّ شكلاً مباركاً من أشكال الذكر الإلهي. أفلم نقرأ الآية (٥٠) من سورة الأنبياء التي قال تعالى فيها: ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مَبْرُكٍ أَنْزَلْنَاهُ، أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾؟ فها أنّ هذه الآية من سورة الأنبياء صرحت بهذا الشكل الثاني لذكر الله وأطلقت عليه صفة ذكر مبارك أيضاً. وهذا النصّ يؤيد ما أورده الآية من سورة الحجر التي قال تعالى فيها ﴿إِنَّا لَنُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

وعليه فإنّ المؤمن الذي يعتاد أن يتلو شيئاً من القرآن يومياً، فهو يذكر ربّه يومياً بهذه التلاوة وتحفّ به الملائكة أيضاً الأمر الذي تشير إليه كلمة (مبارك)، فهذا من بركات تلاوته لآيات القرآن الكريم. وكثيرة هي أحاديث رسول الله (ﷺ) التي تفيد هذا المعنى الذي ذكرته.

٣ - التوسّل بأسماء الله الحسنى ذكر إلهي: وهناك شكل ثالث لذكر الله نبهتنا إليه آيات كثيرة. إحداها الآية (٢٠٥) من سورة الأعراف التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ، بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ. إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيَسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾. فإنّ تساءل القارئ عن ماهية هذا الذكر؟ تجيبه الآية (١٨٠) من سورة الأعراف: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي إذا تساءل المؤمن: كيف أذكر الله في نفسي تضرّعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال كيلا يُعدّ في نظر ربّه من الغافلين. الجواب هو أن يفترض نفسه في جميع أحواله واقفاً بين يدي ربّه الذي يفتح له خزائن عطائه، فليغتسم هذه الفرص السانحة له وليذكر ربّه بالدعاء منه عن طريق توسّلِهِ بأسماء الله الحسنى طمعاً في عطائه وخيفة أي خشية من بقاءه بعيداً عن ربّه ومن غير المقرّبين، وليكن توسّله ودعاؤه هذا دون الجهر من القول لا يسمعه أحدٌ سواه، وبالغدو والآصال أي في جميع الأوقات السانحة له من الصباح إلى المساء.

وهذا الشكل من الذكر مطلوب من المؤمن بالحاج من الله جلّ شأنه نفسه أفلم نقرأ التهديد الذي وجهه الله تعالى لهؤلاء الغافلين عن هذا الشكل من ذكر الله تعالى وذلك في الآية (٣٦) من سورة الزحرف، قوله: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾؟ وإلى هذا الشكل من الذكر أشار قول الله تعالى في سورة النور: ﴿رَجَالٌ لَا تُلَهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

٤ - الدعوة إلى سبيل الله ذكر إلهي: ونحن إذا عُذنا إلى السور الأوائل التي نزلت في مكة المكرمة، نلاحظ أنّ الله عزوجلّ أمر رسوله الكريم في سورة المدثر قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ ففي (محيط المحيط) كبر الشيء عظمه وجعله كبيراً في أعين المخاطبين. وفي هذه الآية الكريمة توجيه إلى شكل رابع من أشكال الذكر الإلهي وهو القيام بدعوة الناس إلى دين الله والتدليل على عظمته تعالى وما تحمله ذاته من أسماء حسنى، حاثاً الناس على الإيمان بالله والتخلّق بصفاته عزوجلّ. هذا وإنّ كلّ خطوة نقوم بها على طريق الدعوة إلى سبيل الله تعالى، هي بمثابة ذكر الله في عُرف القرآن الكريم. ومن البديهي القول إنه لا يستطيع تعريف الناس على الله تعالى بشكل صحيح إلا المؤمن العارف بالله والمتعامل معه والذي تستجاب أدعيتة، ويحظى ببيشارات الله وتعليمه وأعطياته.

رابعاً - كيف نذكر الله تعالى؟

ومادما قد اطلعنا على الأشكال الأربعة للذكر الإلهي التي أتى بها كتاب الله نفسه، وما كانت من اختلاق أحدٍ من الناس. فلا بد أن تتوق نفس المؤمن لمعرفة الوجه التطبيقي لهذه الأشكال المذكورة. خصوصاً وأنه عاد يعيش في عصرٍ فسدت فيه مجتمعات المسلمين، وفقدت بذلك أسوة سيّد المرسلين (ﷺ).

أولاً - أما ما يتعلق بالشكل الأوّل للذكر وهو المعروف بالصلاة التي هي مجموعة أذكارٍ مؤطرة، بحركاتٍ وقراءاتٍ وتعايير. والمنسقة تنسيقاً فنياً

رائعاً يزيدُها تأثيراً وفعالية. الصَّلَاةُ التي منها الفروض ومنها السُّنَنُ ومنها التَّوَاتُلُ. فإن بعض جهلاء المسلمين المعاصرين يفرِّقون بين صلاة فرض وصلاة سُنَّة، ويتكاسلون في القيام بصلوات السُّنَنُ وكأنَّها تقلُّ منزلةً عن صلاة الفرض. ومُشعراً كأنَّ رسول الله (ﷺ) قد أثقل كاهل أمته بما استثنى من ركعات إضافية على صلوات الفروض.

هذا الأمر يدعوني لتبيان أعظم حكمة في هذا المجال. وهذه الحكمة يدركها المؤمن الذي يوجَّه إلى نفسه سؤالاً وهو: هل يؤدي في حقيقة أمره جميع ركعات صلوات الفروض بخشوع وعلى حسب ماأقره ربه به؟ أم أنه يزيغ في بعض الركعات؟ وقد علم هذا المؤمن أنَّ الصلاة الإسلامية هي غذاء رواحي يتغذى به من بعد ولادته الروحية عن طريق إيمانه وبيعته، على شاكلة مايتغذى الرضيع بحليب ثدي أمه.

فالمؤمن يستحيل عليه في بادئ الطريق أن يخشع بصورة صحيحة في جميع ركعات الفروض. ويكون بذلك مثله كمثل الرضيع الذي لايشبعه حليب أمه ويحتاج إلى وجبة إضافية من حليب البقر أو سواه، ليسدَّ بذلك حاجته من الغذاء كيلا يُصاب بأمراض سوء التغذية.

وقد استن محمد رسول الله (ﷺ) لأمته هذه السُّنَنُ التي وصلتنا بالتواتر عنه؛ لتقوم هذه السُّنَنُ بنفس مايقوم به وجبات الحليب الإضافية، فتسدَّ مسدَّ الزيغ الحاصل في صلاة الفرض، وبما يناسب كل وقت من الأوقات المكتوبة للصلاة، فالسُّنَنُ تساعد المؤمن على صيانة نفسه من سوء التغذية الروحي ومن شرور الأمراض التي يسفر عنها.

هذا هو الأمر الذي أخذه محمد العظيم (ﷺ) بعين الاعتبار، لذلك استن لكل فرض من السُّنَنُ مايعوّض نقص الخشوع المطلوب، وبما يناسب الأوقات أيضاً. أي أنَّ المؤمن الذي خشع في ركعتين من ركعات الفرض، وزاغ فكره على سبيل الفرض في ركعة ثالثة، وعاد فخشع في الركعة الأخيرة، لا يكون كيانه الروحي قد استوفى نصيبه من غذائه الروحي الذي قدره له ربه.

فإذا صَلَّى السَّنَنَ الَّتِي اسْتَنَّاها له رسول الله وهو الأسوة الحسنة له، يعوّض بهذه السَّنَنَ النقص الحاصل، وقد يفيض. ولا يخشى من الغذاء الروحي الفائض، فهو خيرٌ ونافلة. على حين تحدث كمية الغذاء المادي الفائضة تُخمة في المعدة. وهذا الفارق بين الغذاء الروحي والغذاء المادي من حيث الكمية، يحدث بسبب اختلاف الماهيتين والقوانين النازمة لهما. ذلك أنّ النمو الروحي، لن يقف عند حدود، لذلك يكون المؤمن من الخالدين في الحياة الأخروية الجنتية. وإن اختلاف القوانين النازمة لكلا الكيانين يتجلى في حالة النوم، حيث يقوم النائم بما يستطيع القيام به في يقظته.

من هذا ندرك عظمة الحكمة التي دفعت محمداً سيد المرسلين ليستن لنا هذه السَّنَنَ التي هي بمثابة الأجنحة لصلوات الفروض. وبذلك فقد أحسن هذا الرسول إلى أمته إحساناً عظيماً ستمتد آثاره الروحية إلى يوم القيامة. وهذا الإحسان يدفع فؤاد كل مسلم سالك درب عرفان ربه ليلهج بالصلاة والتسليم عليه (ﷺ) مادام حياً اللهم صل وسلم وبارك على محمد إنك حميد مجيد.

هذا وإن لصلاة النافلة نفس فائدة صلاة السنة، وتعين هذا المؤمن أكثر على بلوغ أسمى مراتب الروحانية. وتصح صلاة النوافل في الليل وفي النهار. إنما أكدت سورة المزمل على نافلة الليل حيث قال تعالى فيها: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾. ولفظ (أقوم) من قوم الشيء: عدله وأزال عوجه (محيط المحيط) أي أنّ ناشئة الليل، وهي صلاة نافلة الليل تفيد في تقويم نفس المؤمن وتحدث فيه انقلاباً روحياً، وتكسبه قوة وطاقة روحية لا يستطيع تحصيلها بأسلوب آخر. لذلك كان صحابة رسول الله (ﷺ) رضوان الله عليهم يواظبون على صلاة التهجد. حتى أنه ورد أنّ رسول الله (ﷺ) كان يتفقدهم ليعلم من منهم يقوم للتهجد، ومن منهم يتكاسل عن أدائها. وقد ثبت من أحاديث رسول الله (ﷺ) أنّ الله تعالى يكون أقرب ما يكون من

عباده في آخر حصّة من الليل، حيث يتقبّل وقتها كثيراً من أوعية الصالحين.

ثانياً - وأما الطريق العملي للشكل الثاني لذكر الله، وهو تلاوة القرآن الكريم. فلا بد للمؤمن أن يضع في حُسبانهِ عدّة أمور. منها أنّ الله تعالى قد أمره بتدبّر كتابه العزيز في الآية (٨٢) من سورة النساء حيث قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾. ومعنى تدبّر القرآن: حاول تفهّمه والتفكير فيه والتأمّل فيما يرمي إليه، والتفكير في عواقب إهمال العمل على أوامره. (محيط المحيط).

ومن هذه الأمور التي ينبغي للمؤمن التحسّب لها عند تلاوة شيء من القرآن الكريم هو أن الله الذي أنزل هذا القرآن اشترط توفير أمرين اثنين لاستخراج لآلئ هذا القرآن ومعارفه وعلومه.

الأول تضمّنهُ قوله تعالى في الآية (٧٩) من سورة الواقعة: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وقوله لا يمسه أي لا يصل إلى إدراك حقائقه وأسراره ومعارفه إلا المطهّرون، ولم يقل إلا الطاهرون. إشارة منه تعالى إلى أن هذا المؤمن ينبغي أن يكون سائراً على درب عرفانه تعالى متطهّراً من الوسواس والهواجس والتعلّق بالأغيار، وماعاد يذهل عن الله طرفه عين وأدّى حقوق الحق وحقوق الخلق.

والأساس الثاني تضمّنهُ قوله تعالى في آية الكرسي (٢٥٥) من سورة البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾. وعلوم هذا القرآن من علم الله، فلا يستطيع أن يحيط بشيء من علم القرآن إلا بما شاء صاحب هذا الكتاب. ومعنى أحاط به

علماً أي أدركه بكماله (محيط المحيط). بمعنى أنّ علم القرآن الحقيقي وبكماله لا يتكشف إلا على (المطهّرون).

فإن أخذ المؤمن هذين الأساسين بعين اعتباره، كان عليه وهو يتلو القرآن بتدبّر أن يدعو ربه في قلبه أن يكشف له معارف وعلوم ما يتلوه وعلى حسب مشيئته. وألّا يُعجل في التلاوة لقوله تعالى في الآية (١٦) من سورة القيامة: ﴿لَا تُحْرَكْ بِهِ لِسَانُكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾. فهذا هو أحد أوجه دلالات هذه الآية الكريمة. وأن يترتّل ما يتلوه بصوتٍ يناسب الوقت والمقام لقوله تعالى في الآية الرابعة من سورة المزمل ﴿... وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾.

ثم إنّ الله تعالى لم يحدّد لهذا المؤمن مقدار التلاوة، وترك الخيرة للمؤمن نفسه فالمؤمن هو الذي يقدّر ما تسمح له ظروفه به من تلاوة. وهو حلّ شأنه لم يحدّد وقتاً مُعيّناً للتلاوة. فالمؤمن يحدّد هذا التوقيت، إنما من واجبه أن يواظب على التلاوة كلّ يوم بنفس المقدار ونفس التوقيت إلا أن يحول بينه وبين ذلك عُذرٌ قاهر. والوضوء قبل التلاوة من أبسط ضرورات شرط (المطهّرون)، وهذا لا يعني أنّ التلاوة لاتصحّ بدون وضوء.

ونصيحه شخصية أنصح بها كل مؤمن مُبايع، وهو أن يعتمد إلى مُطالعة مؤلفاتي، وإذا ما أحاط من خلال قراءته لها بمعنى آية، فليدوّن على هامش هذه الآية في نفس القرآن الكريم الذي يحتفظ به للتلاوة، وإضافةً لذلك ليدوّن اسم الكتاب ورقم الصفحة بجانب المعنى للرجوع إليها عند الضرورة، وليعيّنه ذلك في المستقبل على الإحاطة بالتسلسل الموضوعي لآيات القرآن الكريم.

هذا، ولا يعني هذا كلّهُ ألا يُصغي هذا المؤمن لتلاوة سواه. بل لا يمانع القرآن الكريم بذلك وعلى العكس اشترط على هذا المؤمن أن يستمع للتلاوة متدبّراً ما يسمعه وينصتُ فلا يتكلم ولا يلغو، ويحصل بذلك على رحمة من ربه عز وجل أيضاً لقوله تعالى في الآية (٢٠٤) من سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ

تُرحمون. ﴿١﴾. أمرنا تعالى بذلك الإنصات لتلقي الأثر الروحي للتلاوة، بسبب امتياز وحي الله بهذا الأثر على قول البشر.

ثالثاً - أما ما يتعلق بالطريق العملي للشكل الثالث من الذكر الإلهي، الذي هو الدعاء من الله تعالى بتوسط أسمائه الحسنى. فهذا الشكل من الذكر الإلهي قسمان: ذكر فروض وذكر نوافل.

فما يتعلق بذكر الفروض، فمنه ما نصّت عليه الآية (١١٨) من سورة الأنعام التي قال تعالى فيها: ﴿فكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ.. وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ. أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.﴾. وتبعاً لضمون هذه الآيات فلا بد من البسملة على كل مأثريد المؤمن تناوله من الطعام كذكر فرض واجب عليه، لأهميته فهذا النوع من الفروض يفيد في تنمية كيانه الروحي .

وقد شدّد الله تعالى على المؤمن الذي لا يذكر ربّه مبتدئاً باسم الله كلّما تناول طعامه واعتبره فاسقاً عن أمره تعالى، الأمر الذي يوقع هذا الفاسق في مرض الشرك الخفي. ويُحرّم بذلك من فضل البسملة التي تولّد له نوراً مع الأيام يمشي به في الناس.

ومن أنواع ذكر الفروض ما نصّت عليه الآية (٩٨) من سورة البقرة التي قال الله تعالى فيها: ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَادْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ، وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ، ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْاسِكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا. فَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا، وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ. وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ

عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى. واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تُحشرون. ﴿١﴾. وتبعاً لمضمون هذه الآيات فإن من واجب المؤمن أن يدعو ما استطاع: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. والإكثار من هذا الاستغفار والدعاء عند المشعر الحرام، وبعد قضاء مناسك الحج لعدة أيام. وأن يقوم بهذا الاستغفار والدعاء بتضرع بين يدي الله تعالى، وكأن هذا المؤمن يطلب شيئاً من والده أو أشد ضراعة، فهذا ذكر فرض، فرضه الله تعالى على المؤمن الذي يؤدي مناسك الحج. وهذه الآيات نبّهت هذا المؤمن إلى أنه إذا استغلّ حجّه للدعاء لأموال دنياه، ولم يستغفر ولم يدع بالدعاء الذي علّمه إياه، فلا يستفيد من حجّه وهو ماله في الآخرة من خلاق، بسبب أنه حرم نفسه من بركات هذا الذكر الفرض في الحجّ.

أما ما يتعلق بذكر النوافل. فهذه أذكار أوراد خصّها الله عز وجل بأوقات معلومة من كتاب الله تعالى. وهذه الأذكار تصون المؤمن من أن يصبح غافلاً عن ربه عز وجلّ.

والذي يتدبر كتاب الله يفتن إلى ضرورة ذكر الله تعالى في أوقات خمسة حدّدها الآية (١٣٠) من سورة طه، التي يقول تعالى فيها: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى.﴾

فذكر النافلة المشتمل على التسبيح وحمد الله بتوقيته (قبل طلوع الشمس) أي ما بين بزوغ الفجر وحتى طلوع الشمس. والوقت الثاني لهذا النوع من الذكر (وقبل غروبها) أي في فترة ما بين أذان العصر وحتى غياب الشمس. وقد استعملت سورة الذّهر هذين الوقتين كلمتي (بُكْرَة وأصيل). حيث قال تعالى هناك: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا.﴾

والوقت الثالث لهذا النوع من ذكر النافلة تضمنه قوله تعالى ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ والآاء جمع إنو وهو الوقت أو السّاعة من الليل أو نصف الليل أو ما يقاربه (محيط المحيط). أي ليخصّص المؤمن أي وقت من أوقات الليل يشاء لذكر الله وتسبيحه وليداوم كلّ يوم على هذا الذكر.

والوقت المحدد قرآنياً لذكر النافلة أيضاً تضمنه قوله تعالى : ﴿وَاطْرَافِ النَّهَارِ﴾. أي أنَّ الدقائق الأولى من البكرة مع بزوغ الفجر، والدقائق الأخيرة من الأصيل قرب غروب الشمس هي أصلح الأوقات لذكر الله وتسبيحه، وعلى المؤمن أن يستغل هذه الأوقات لذكر الله وتسبيحه.

وأضاف الله تعالى يقول: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ مشيراً بذلك إلى أنَّ ذكر الله في الأوقات الخمسة المذكورة له خواصه الروحية وهي غذاء كيان المؤمن الروحاني، وهي تجذب فضل الله تعالى على هذا الذَّاكر المسبح بحمد ربه عز وجل. ومع توالي الأيام والسنين يقطف ثمار هذا الذكر وفضله ويرضى حينئذ بهذا الذَّاكرون والمسبحون بهذا الفضل الإلهي.

ولانس هنا تدخل محمد رسول الله (ﷺ) كعادته ولصالح أمته في هذا المجال أيضاً فهو حاول سدَّ النقص المحتمل من جراء تفريط المؤمن في هذا الشكل الثالث من الذكر الإلهي، فعلم أمته أذكَّاراً تعوِّض ذلك. من هذه الأذكَّار أنَّ المؤمن إذا فرغ من صلاته، عليه أن يجلس ليذكر ربه ويقول: (اللهم أنت السَّلام ومنك السَّلام يا ذا الجلال والإكرام). ويُتبع ذلك بقول (سبحان الله) ثلاثاً وثلاثين مرَّة. و (الحمد لله) ثلاثاً وثلاثين مرَّة. و (الله أكبر) ثلاثاً وثلاثين مرَّة. هذا بعد فراغه من كلِّ صلاة. إذا كان يتغي وجه الله وعِرفانه.

كما أنَّ رسول الله (ﷺ) علَّم صحابته أن يذكروا ربهم في كلِّ مناسبة من مناسبات تحركاتهم اليومية. فاستنَّ لوقت مغادرة الدار ذكراً دعاءً. ولوقت العودة إليه ذكراً دعاءً. ولدخول الأسواق ذكراً دعاءً. ولدخول المدن والقرى ذكراً دعاءً وغير ذلك. وحثَّ (ﷺ) صحابته على حفظ هذه الأذكَّار والأدعية لتدوم يقظة قلوبهم مع ربهم عز وجل فلا يُكتبون من الغافلين عن ذكره. ولا بدَّ من التذكير في هذه المناسبة أنَّ من واجب المؤمن الراغب معرفة ربه أن يتدرَّج في جميع هذه الأذكَّار بشكلٍ طبيعي وليس دفعة واحدة.

وليعلم أنَّ كلَّ شيء في هذا العالم خاضع لقانون النشوء والارتقاء. فلا يتأتَّى كمال أيِّ شيء دفعة واحدة، ولا يتعلَّم الطالب فنّاً من الفنون في يوم واحد. ولا بدَّ من تعويد المؤمن نفسه وتربيضها لتتسلَّك في هذا الإطار تدريجياً

وحسب استطاعتها. ذلك أنَّ لكل إنسانٍ قدرته واستطاعته وأهليته، كالمعادن لكل منها خواصه واستطاعته.

وإنَّ الذي يرغب التعرّف على ربّه الذي خلقه بخالص العزم والشوق، ويثبت على درب العرفان الإلهي يعوضه الله ربّه عن كل عقبة تحول بينه وبين تحقيق أمنيته هذه حتى ولو كانت عقبة موت وفقدان ذاكرة أو عقل، ذلك أن الله ذو الفضل العظيم. وهذه الحقيقة محتبّة بين ثنايا قوله عز وجل ﴿لعلك ترضى﴾. أمّا إذا ركب القنوط رأس. هذا المؤمن فيئس من رحمة ربّه وعشا عن ذكر الله، يُقيّض له الرحمن شيطاناً فهو له قرين.

ولا ينبغي أن نُعطي أذننا فنصغي إلى متصوّفة زماننا الذين يطلبون الوجد والغرام واللذة بذكر الله تعالى. فلا أصل في كتاب الله لما يطلبونه. بل إنّ الله جل شأنه خلقنا لعبادته تعالى. ومن واجب الذاكر ربّه أن يتعبّد ربّه بهذا الذكر على شاكلة ما يتعبّده في الصلوات الخمس المفروضة. يتعبّد ربه بذكره إياه، موقناً أنّه يؤدي ماعليه من واجب الشكر والثناء على ربّه الذي خلقه وهداه سبيل عبادته ومعرفته.

وقد نبهنا إمام زماننا إلى حقيقة وهي أنّ النفس البشرية لاتستمرّ على وتيرة واحدة، بل تخضع لقانون طبيعي يهيمن على كل شيء في عالمنا الدنيوي. وهو أنّ كل شيء يتراوح دوماً بين مدّ وجزر وانخفاض وارتفاع وتقدّم وجمود. ولهذا السبب لابد أن تمرّ نفس المؤمن السالك درب عرفان ربّه بمراحل انقباض وانسراح يمتد كل منها أياماً تقصر وتطول.

فإن شعر هذا المؤمن بهذه الحالات، فهي مؤشر صحيّ وليس بمؤشّر مرضي، إنّما على هذا المؤمن ألاّ يترك حدوث تفاوتٍ كبير بين هاتين الحالتين، ومن واجبه تدارك ذلك بإعادة النظر في تصرفاته اليومية والمؤثرات الخارجية وإجراء الإصلاح والتغيير اللازمين.

رابعاً - وأمّا ما يتعلق بالطريق العملي للشكل الرابع من الذكر الإلهي المتمثّل في الدّعوة إلى الله عز وجلّ وتعظيمه في أعين عباده، والذي حثّ عليه قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبِّكَ فَكَبِّرُ﴾. هذه

الآيات الكريمة التي تعني أن يا محمد الذي أعددتك قرابة عشر سنوات في غار حراء، قم فأنذر وأعلم الناس بوجود ربك الذي عرفك على نفسه وجعلك العارف الأول بالله خالقك، وحذّرهم أيضاً من عواقب تكذيبهم لما تدعوهم إليه وقبل حلوله مخوّفاً إيّاهم في هذا الإبلاغ. ﴿وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ﴾. أي وضّح للناس ما لله من عظمة وقدرات، هذا على أساس أن الإنسان عدوّ ما جهل.

فإن تساءل امرؤ كيف يعظّم عظيمًا؟ أقول: يعظّمه بإطلاعه على ما يتّصف به هذا العظيم من صفات بإمكانه الاتّصاف بها على سبيل الظليّة ليصبح عظيمًا. ويعدّد له مقام به هذا العظيم من إنجازات، ويصف ما لدى هذا العظيم من خزائن وإمكانات.

وعليه فإن الأمر: ﴿وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ﴾. يُطالب المؤمن السالك درب عرفان ربه، بتحقيق أمرين اثنين. الأمر الأول أن يُعدّ نفسه إعداداً قويمًا فكرياً وسلوكيًا، فيؤهلّ بذلك نفسه لحمل عبء الدعوة إلى الله وتعظيمه. والأمر الثاني، أن نعرّف الناس على ربنا وماله من الأسماء الحسنی. وإثبات أن ربنا هو خالق السموات والأرض ومالكها أيضاً.

وأنه هو الله ربّ العالمين الرحمن الرحيم ومالك يوم الدين. هذه الصفات التي غمدحه وثني عليه جل شأنه بها في كل ركعة من ركعات صلواتنا. وعلى هذا المؤمن السالك أن يعرف الناس على الإنجازات الإلهية التي حصلت بتجلي صفاته الأربع التي ذكرناها. كذلك فإن من واجب هذا المؤمن السالك التّحديث بنعمة الله التي أنعمها ويُنعمها عليه منبهاً إلى أنّ طريق عرفان الله الأكبر هذا مفتوح لجميع الطّالبيين.

ولأنّس أن محمداً رسول الله (ﷺ) وقد تلقى هذه الآيات التي ذكرناها من ربه. تلقاها في زمان لم يكن العلم قد بلغ هذا المبلغ الذي بلغه في زماننا. أمّا في عصرنا هذا فقد توفّرت لنا من الأدلة العلمية والأمثلة الحيّة والأسباب ما ييسر للمؤمن السالك المعظم لرّبه طريقه ووسائله، وهأنّ درب عرفان الله أمسى واضحاً للعيان، فياسعد المؤمن الذي يسخر قلمه وماله لذكر الله بهذا الشكل الرابع من أشكال ذكر الله عزوجلّ، فيعظّم ربه ويكبره ويتقرّب بذلك إليه، ويصبح بالتالي عظيمًا في ظلّ الله الأعزّ الأكبر.

الفصل الثاني : ١- البركات الروحية للذكر الإلهي

حمداً رسول الله ﷺ يتلو علينا آيات الله ربنا ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة ويعلمنا ما لم نكن نعلم عن طريقه. فهو تعالى أضاف بعد ذلك يقول: ﴿فأذكروني أذكركم، واشكروا لي ولا تكفرون﴾. ومعنى اذكروني سبّحوني ومجّدوني (محيط المحيط) وقد علّمنا جل شأنه في كتابه العزيز أشكال الذكر الإلهي الأربعة التي أحطنا بها علماً.

والسؤال الذي يخطر ببال المؤمن هنا: مامعنى وما المقصود من قوله تعالى (أذكركم)؟ والحقيقة هي أنه تعالى أوجز في هذه الكلمة بركات الذكر الإلهي، وراح ففصّل هذه البركات التي يحصل عليها الذّاكرون في مقامات عدّة من كتابه العزيز.

فالصّلاة، التي تمثّل الشكل الأول لذكر الله تعالى. نبّهت الآية (٤٥) من سورة العنكبوت إلى بركات هذا الشكل من الذكر الإلهي، حيث قال تعالى: ﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب، وأقم الصّلاة، إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون﴾.

فإن أمعن المؤمن نظره في ألفاظ هذه الآية الكريمة وتدبّرها، يصل إلى أنّ الله ربّه قد وضع بين يديه عصاً غليظة ليطرد بها الشيطان عن نفسه. فالصّلاة يطرد شرود ذهنه نحو الأمور التافهة، ويطرد بالصّلاة نوازع السّوء، والميول الدنيئة، وبالصّلاة يصدّ هجوم شهوات جسده التي تبعده عن ربه وتقواه. فالؤمن الذي يصلّي صلاة خاشعة بشروطها التي سبق أن بيّنتها، يحصد جميع هذه البركات.

وتلاوة القرآن الكريم التي تمثّل الشكل الثاني للذكر، لها بركاتها أيضاً. ونبهتنا إلى هذه البركات الآية (٥٠) من سورة الأنبياء التي قال تعالى فيها: ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه، أفأنتم له منكرون﴾. بمعنى أن لتلاوة القرآن الكريم

بركاتها. هذه البركات التي تَضَمَّتْها كلمة (مبارك) التي وصف جل شأنه بها كتابه العزيز. والمؤمن الذي يجلس يتلو شيئاً من هذا الذكر بالشروط التي سبق أن بيَّناها، وبحضور ذهنه وفؤاده تحفُّ به ملائكة الله ويقطف من ثمار هذه البركات. وذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى وتسبيحه وتمجيده في الأوقات التي حدَّدها، وهو الشكل الثالث للذكر الإلهي، تعرَّضت لبيان بركاته آيات عدَّة من كتاب الله العزيز.

من هذه البركات أن تسبيح الله وتمجيده يكسب المؤمن الذاكر روح الصمود تجاه الأزمات التي تواجهه في حياته اليومية. فالمؤمن الذي يردد دوماً أسماء الله: العزيز القادر العليم الرزاق والشافي وسواها من الأسماء الحسنى، ويتوسَّع في فهم دلالاتها، تستوعب مخيلته على مرَّ الأيام هذه الدلالات وتنتقل لتصبح تصوُّرات لذات الله عزوجلّ، وبذلك يعود هذا المؤمن يوقن أنه يعبد إلهاً له هذه الأسماء والقدرات، وتتولَّد بذلك في نفسه روح الصمود في الأزمات. فإذا ألَّمت به نائبة من النوائب في وقتٍ من الأوقات، تصمد نفسه في مواجهتها، فلا يهلع ولا يخاف ولا يضطرب عند مواجهتها. وتخطبه نفسه وقتئذٍ قائلة: وكيف تخاف وتضطرب وإلهك المحبوب يحمل هذه الأسماء وهذه القدرات؟

على هذه الشاكلة يهدأ الذاكر في اللَّمَّات وتسكن نفسه بذكر الله تعالى. بذكر ربِّه الذي وعده بالدفاع عن المؤمنين، وأن يكون بهم رؤوفاً رحيماً. وهذه الحقيقة وضَّحها لنا جلَّ شأنه في الآية (٢٧) من سورة الرعد بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. فأتى بحرف (ألا) الذي يفيد التنبيه والإيقاظ وقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. أي تصمد إذا ما ألَّمت بها النوائب والمصائب والمؤذيات.

وقد نبَّه الله عزوجلّ ذهن المؤمن أيضاً إلى أن روح الصمود هذه يجده بركاتها في ساحات القتال أيضاً، حيث لا يُعقد النصر إلَّا للصَّابرين والصَّامدين. نبَّه إلى ذلك في سورة الأنفال حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

والقرآن الكريم قد نبَّه هذا المؤمن إلى أنه إذا دأب على ذكر ربِّه في جميع أحواله وبحضور ذهنه وفؤاده، يعود ذلك على عقله بالبركات وينيره بمعارف وعلوم تُحرِّر المتفكرين. أفلم يقل في الآية (١٩٠) من آل عمران: ﴿إِنَّ

في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. ﴿٢٦﴾ فلا يُلم بأيات وعجائب هذه الأمور إلا العقلاء ﴿٢٧﴾ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً فقنا عذاب النار. ﴿٢٨﴾ فهذا ما يئنه ربنا عزوجل في هذه الآية التي أتى بها بعد الآية السابقة.

ثم إن الدعوة إلى الله وتكبيره وتعظيمه في أعين عباده، والذي يمثل الشكّل الرابع من أشكال الذكر الإلهي، يحمل للمؤمن جميع البركات التي سبق أن ذكرناها، وإضافة إليها فإن من أعظم بركات ذلك هو أن الله عزوجل يثبت هذا المؤمن في المواقف الحرجة بالقول الثابت.

أفلا نقرأ الآية (٢٧) من سورة إبراهيم التي يعد تعالى فيها المؤمن بهذا الوعد؟ يقول تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

والقول الثابت اسم فاعل من ثبت بمعنى دام واستقرّ وتحقق وتأكّد. أي أن الله تعالى يُلهم هذا المؤمن في الموقف الحرج القول الثابت المستقرّ الدائم واليقيني. وذلك بإلقاء الإجابة الصحيحة الأكيدة في ذهنه، ولطالما جرّبت أنا وأمثالي هذا الأمر بأنفسنا. فقد أخرجني شخص في يوم من الأيام بسؤال علمي ما كنت قد حضّرت له ولا طالعت بشأنه كتاباً من الكتب. ودعوت الله في نفسي، وإذ بالله حل شأنه يستجيب لي ويثبتني بإجابة علمية أدهشتني وأفحمت السائل في آن واحد.

٢. علاقة الذكر الإلهي بالدعاء

وهناك حقيقة تتعلّق بموضوع الدعاء، مرتبطة بالذكر الإلهي، نبهتنا إليها الآية الأولى من سورة الفاتحة، وهي قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فهذه الصيغة التي صيغت بها هذه الآية الكريمة هي صيغة ذكر إلهي. إقرار بأن جميع أنواع الحمد والثناء مختصة بذات الله عزوجل. فإن حُمد أي عظيم من دونه سبحانه، فلا يُحمد على سبيل الأصلة، بل على سبيل الظلية. ذلك على اعتبار أن المنّة جميعها لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين.

ونلاحظ أنّ الله تعالى بعد أن أجرى على ألسنتنا ذكره بحمده والثناء عليه وتعداد أسمائه الحسنى، دفعنا لندعوه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فماهي حكمة تقديم ذكر الله وحمده على الدّعاء بين يديه؟
 الجواب هو لتنبهنا إلى حقيقة علاقة الذكر الإلهي بالدّعاء. فالذي يريد أن يدعو ربّه ويسأله عطاءه. ينبغي عليه أن يحمدا الله أولاً ويستغفره ويتوب إليه ويسبّحه ومن ثمّ يدعو ويسأله ما يريد أن يطلب منه جلّ وعلا.
 هذا الأمر على شاكلة مايفعله الشعراء في مجالس الملوك يكيلون لهم المديح ومن ثمّ يسألونهم العطاء والمسألة. فالذكر الإلهي على شاكلة المديح يحرك عواطف المدح نحو السائل ويدفعه إلى إجابة طلبه. علماً بأنّ الله تعالى هو ملك الملوك.

هذه الحكمة التي تشرح لنا علاقة الذكر الإلهي بالدّعاء، تفسّر هذا القانون الطبيعي الذي انتهجه الشعراء، وإليه أشار الحديث القدسي عن الله تعالى: ﴿مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي، أُعْطِيَته أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ﴾. بمعنى أنّ الله تعالى يتفضّل ويستجيب للمؤمن الذاكر ربّه، أفضل مما يستجيب للمؤمن الذي يدعو ربه دون أن يسبق دعاءه بذكره عز وجلّ.
 إلى هنا أكون قد فصلت ماقتضاه قول الله تعالى في الآيتين الأخيرتين من سورة المؤمنون. وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. أقول: فصلت الكلام عن ضرورة تدّرج المؤمن على درب عرفان ربّه بشكل طبيعي جدّاً من جهة. وأن يصل إلى درجة يعود فيها يذكر الله قياماً وقعوداً وعلى جنبه مستريحاً أو نائماً. حتى لا يعود يُعدّ في نظر ربّه من الغافلين منجهة أخرى.



الباب الرابع

الفصل الأول المذمومون في القرآن الكريم

لابد أن يتذكر القارئ الأمور التي نبه القرآن الكريم إلى أنها تورث النفاق، وتأكّل إيمان المرء المؤمن على شاكلة مايفعله السّوس في الأشجار المخضرة المثمرة.

ولقد نبه القرآن الكريم أيضاً إلى صفاتٍ إن اتّصف بها هذا المؤمن يقف تطوّره الروحاني ويعود مكروهاً في نظر ربّه عزوجلّ، حتى ولو واطب على صلواته وابتعد عن اللّاغيات وفعل الزكاة وحفظ الفروج. أي يكرهه الله ربّه ولو عمل على ما تتطلبه منه الآيات الأوائل من سورة المؤمنون. أي أنّ هذه الصفات المذمومة في عين الله تعالى توقف نموّ كيان المؤمن الروحي وتُبطّل مفعول وخواص جميع هذه الأعمال المفروضة.

وهذه الصفات المذمومة، حصرتها القرآن الكريم في عشر صفات وهي: المختال والفخور والمعتدي والخوّان والأثيم والفَرِح والمفسد والكفور والمُسرف والظالم.

فهذه صفات عشر مذمومة في نظر الله تعالى، وتستدعي كره الله تعالى للذي اتّصف بهذه الصفات سواء أكان هذا شخصاً أو مجتمعاً. وليس ضرورياً أن يكون الذي لم يتّصف بإحدى هذه الصفات محبوباً من ربّه أيضاً بالضرورة. ذلك أن الابتعاد عن هذه الصفات تؤهّل المرء لجذب محبة خالقه إن هو اتّصف بصفاتٍ عشر أخرى سأتي على ذكرها في حينه. فالمهم هو أن يعي المؤمن السّالك حقيقة هذه الصفات المذمومة مُعتبراً إيّاها قوى سلبية تحول دونه ودون نيل محبة ربه والخطوة بقربه عزوجل. وأتناول هنا كلّ صفة من هذه الصفات المذمومة، وعلى ضوء ماأرشدنا إليه كتاب الله عزوجلّ:

١. الله لا يحبُّ كلَّ مُختالٍ فخورٍ

هذا ماأكّده لنا وحي الله القرآن من أنه تعالى لا يحبُّ كلَّ مُختالٍ فخورٍ.

فما معنى المُختال؟ قال صاحب (محيط المحيط) المختال هو المتكبر والمعجب بنفسه والمتبخر في سيره. أما الفخور فهو مَنْ تَمَدَّحَ بالخصال وباهي بالمناقب والكرام من حسبٍ ونسبٍ وغير ذلك إمّا فيه أو في آبائه، ويُسمّى هذا فاعراً وفخوراً. وبألفاظٍ أخرى فالذي يُتلى بصفة الاختيال والفخر، يتناقض مع نفسه ولو كان مؤمناً يؤدّي واجباته الدينيّة. وهو باختياله وفخره هذين ينسى أو يتناسى أنّ الألف واللام المعروف بها كلمة الحمد في قوله تعالى ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾، تفيد الاستغراق بمعنى أنّ جميع أنواع الحمد لا يستحقّها على وجه الحقيقة إلّا ذات الله عزوجلّ.

وفيها يكمن سرّ توحيد الله تعالى، ومن الشرك الخفي أن يتكبر المرء مهما بلغ مالاً وولداً وجاهاً وحسباً، وأن يُعجب بنفسه أو يتبخر في سيره أو يتمدّح بالخصال ويتباهى بالمناقب والكرام.

يتناسى هذا المختال الفخور قول ربّه عزوجلّ في سورة النحل وبكلّ صراحة: ﴿وما بكم من نعمٍ من الله ثم إذا مسّكم الضرّ إليه تجأرون. ثم إذا كشف الضرّ عنكم إذا فريقٌ منكم يربّهم يُشركون. ليكفروا بما آتيناهم فتمتّعوا، فسوف تعلمون. ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم، تالله لتُسألنّ عما كنتم تفترون.﴾. فهذا هو جلّ شأنه قد حصر ما بنا من نعمة بعباءة رحمانيته. وهو الذي يكشف عنّا الضرّ، ومن أنكر هذه الحقائق فقد أشرك برّبّه شركاً خفياً وافترى على الله ما ليس له من حقّ، وقد أنذرته جلّ شأنه بقوله: ﴿لتُسألنّ عما كنتم تفترون.﴾، ولذلك فلا يستحق من جانب ربّه، هذا المُختال الفخور إلّا النّبذ والكره، فلا يستحق عنده المحبة والتقريب.

وعليه فمن واجب المؤمن السائر على درب عرفان الله تعالى، والسّاعي لكسب محبته، أن يُحيط علماً بهذه الحقائق، وينأى خلال مسيرته عن الاختيال والفخر، ليظلّ موحداً لله توحيداً مُبرّأ من جميع أنواع الشرك. لكيلا يُعدّ في نظر ربّه مشركاً ومسؤولاً يوم القيامة عن فخره واختياله.

ثم إننا إذا تناولنا صفتي الاختيال والفخر بميزان العقل. نصل عن طريق الملاحظة والتجربة العلميتين إلى نتيجة وهي أن هذا المختال الفخور يُعميه اختياله وفخره عن إدراك إحسان الله عليه ويتناسى عظمته وكبريائه. حيث تتضاءل هذه العظمة الإلهية في نظره.

ثم إننا إذا نظرنا بمنظار الواقع العملي نلاحظ أنه لا يوجد ملك من الملوك يحتمل أن يواجهه أحد رعيته مختالاً وفخوراً. وهكذا فإن صفة الاختيال والفخر صفة ذميمة من الوجهتين الدينية والعقلية في آن واحد.

هذا وإن خطورة هذه الصفة على المؤمنين السالكين استدعت من الله ربهم أن ينهبهم إلى خطرهما من زوايا عدة. فقد نبههم في الآية (٢٣) من سورة الحديد إلى قانون قدري وهو أنه تعالى هو الذي قدر لعمل كل امرئ نأجه. وهذه النتائج هي من عطاء الله أصلاً. فإن أصبح الإنسان ثرياً من جرأ سعيه، فلا ينبغي له أن ينسب لنفسه هذا الإنجاز والعطاء، فلا يختال به مهما كان عبقرياً، ولا يبخل بما آتاه الله ولا يهضم مآل السائل والمحروم من حق في ماله. فهذه الحقيقة تضمنها قوله تعالى من سورة الحديد: ﴿مأصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير. لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور. الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد.﴾

فالؤمن السالك إذا أدرك هذه الحقيقة، ووازن ما بين العطاء المادي الذي أوتيته، وما بين حرمانه من محبة الله خالقه التي سيحرم منها إن هو تفاخر واختال بماله، وفكر ملياً في هذا الأمر، يفضل عطاء محبة الله على عطاء المال المادي الزائل.

وقد وضّح الله عز وجل هذه الحقيقة بأسلوب آخر، وبلسان لقمان الحكيم وهو يعظ ابنه ناصحاً إياه، إذ قال له: ﴿يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور. ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً، إن الله لا يحب كل مختال فخور.واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير.﴾

لقمان (١٨). وصغر حذّه : أماله عن النظر إلى الناس تهاوناً من كبر (محيط المحيط).

أي بابني لاتولّ صفحة وجهك عن الناس على شاكلة مايفعل المختالون المتكبرون، ولاتمش في الأرض مرحاً، أي لاتمش بطراً مختالاً متبخترًا، هذا إن كنت تبغي الفوز بمحبّة ربك عزوجلّ، لأنّ الله لا يحب كل مختال فخور. هذا واشعاراً منه عزوجلّ إيانا بخطورة الاختيال والفخر، راح فوضّح لنا ذلك بأسلوب ثالث في سورة النساء الآية (٣٦) حيث قال: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً، وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم، إنّ الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾. أي أنّ التكبر والعجب بالنفس والتبختر إذا اتصف بها المرء، يفقده ذلك شعوره بمسؤولياته تجاه الوالدين وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار بالجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت يمينه من بهائم ودوابّ.

في الوقت الذي جعل الله تعالى هؤلاء جميعهم حقاً معلوماً في أموال هذا البخيل المتكبر المعجب بنفسه والمتبختر بين الناس. فما دام هذا المختال الفخور قد أصيب بمثل هذا البخل، وحرم هؤلاء من حقهم المعلوم في أمواله، فقد أصبح مكروهاً في نظر خالقه عزوجلّ ومحروماً من محبّته. وزبدة الكلام هو أنّ الله تعالى قد نبّه المؤمن السالك الذي يطلب ودّ ربّه ومحبّته، إلى أن جميع ما يملك إن هي إلّا منن الله عليه، وهذا الأمر لا يمنحه حقاً أن يصبح مختالاً فخوراً، بل يطالبه ذلك العطاء وتلك المنّة أن يصبح متواضعاً ومقرّاً بعطاء ربّه، ويؤدي مالمسائل والمحروم من حق في أمواله. وأن يعترف في الوقت نفسه أنّ الله عزوجلّ وحده يملك الأسماء الحسنى من دون عباده. وهذا هو التوحيد الخالص من جميع شوائب الشرك بالله تعالى.

٢. والله لا يحب المعتدين

والاعتداء يعني تجاوز الحدود، قال صاحب الكليات: العدوّ: التجاوز ومنافاة الالتئام (محيط المحيط) هذا وقد نبّه الله تعالى عباده المؤمنين الذين يحرصون على السير على درب عرفانه ويفوزوا أخيراً بمحبّته حتّم أن يحذروا حدودهم،

فلا يعتدوا على حقوق سواهم من عباده. وقد شرح لهم أخطار الاعتداء وتجاوز الحدود من زوايا ثلاث أيضاً.

فهو جلّ شأنه طلب من المؤمنين الساكنين درب عرفانه أن يلحّظوا إليه ويدعوه تضرّعاً وخفية إن وقع اعتداء على حقوقهم، فلا يردّوا على الاعتداء باعتداء مثله، دفعاً للإفساد في الأرض، وطمعاً في جذب محبة الله وإحسانه نحوهم، هذا ما أكّده تعالى في الآية (٥٥) من سورة الأعراف حيث قال هناك: ﴿ادعوا ربكم تضرّعاً وخفية إنّه لا يحب المعتدين. ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، وادعوه خوفاً وطمعاً، إنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين.﴾. فالمعتدي مكروه في نظر ربّه تعالى، ومحروم من جذب محبة ربّه إليه.

فإن بلغ الحدّ بالمعتدي حدّ استعمال سلاحه ومقاتلة المؤمنين، فقد أوجب الله تعالى على هؤلاء المؤمنين أن يقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونهم ويعتدون عليهم على ألاّ يبلغوا في ذلك حدّ الاعتداء على هؤلاء المعتدين. هذا إن كانوا يريدون وجه ربّهم ومحبّته وقرّبه. وإلى هذا الأمر نزل قول الله تعالى في الآية (١٩٠) من سورة البقرة: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا، إنّ الله لا يحبّ المعتدين.﴾. فهذه ناحية أخرى وضّحها الله تعالى للمؤمنين أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم لتجاوز هؤلاء حدودهم واعتصابهم حقوق المؤمنين. فهذا هو شأن من كان مؤمناً ويريد وجه ربّه ويسعى للفوز بمحبّته.

وتناول جلّ شأنه موضوع الاعتداء من زاوية ثالثة وهي زاوية تقوى الله المطلوب الأخذ بمنهجه حياتياً من قبل المؤمنين. تناول هذا في الآية (٨٧) من سورة المائدة حيث قال: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم. يا أيّها الذين آمنوا لا تحرموا طيّبات ما أحلّ الله لكم ولا تعتدوا، إنّ الله لا يحبّ المعتدين. وكلوا ممّا رزقكم الله طيباً، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون.﴾.

أي أن من المفروغ منه أنّ الذين كفروا بوجود ربّهم وكذبوا رسوله والآيات التي أنزلت عليه، من المفروغ منه أن أولئك فضّلوا الجحيم على رضا ربّهم ومحبّته ورضاه، أمّا أنتم يا من آمنوا بي وبآياتي إياكم أن تحرموا طيّبات ما أحللت لكم، وإياكم تجاوز حدودكم المرسومة لكم في كتاب الله ربّكم. ﴿وكلوا ممّا رزقكم الله طيباً﴾ أي حلالاً ﴿واتقوا الله الذي أنتم به

مؤمنون. ﴿أي ضعوا منهج تقوى الله دوماً نصب أعينكم في كل أمر تقدمون عليه غير متجاوزي حدود الله وحدودكم فهذا هو ما يأمركم به الله الذي أنتم به مؤمنون.

من هذا كله ندرك أن المؤمن الذي يقوم بواجباته العبادية، ويتجاوز حدوده ويعتدي على حقوق الآخرين ولو كانوا من الكافرين المكذبين، يقف نمو كيانه الروحي بسبب اعتدائه، ويمسي مكروهاً في نظر ربه، ويستحيل عليه الفوز بمحبته وقربه ورضاه. هذا على اعتبار أن لفعل الاعتداء آثاره السلبية منها أن الله تعالى يطبع على قلبه فلا يعود بمقدرة هذا القلب يتلمس نور ربه وقربه. فهذا ما ألمح الله عز وجل إليه في الآية (٧٤) من سورة يونس حيث قال هناك: ﴿ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل، كذلك نطبع على قلوب المعتدين.﴾

وزبدة الكلام هي أن الله عز وجل نبه المؤمن السالك درب عرفانه إلى أنه وضّح له في سورة المؤمنون ركائز مسيرته العرفانية، وإلا فمن واجبه أيضاً أن يتخلق بصفات ربه الحق العدل فلا يتجاوز حدوده ولا تبدر عنه أية بادرة اعتداء على سواه مهما كان الداعي إلى ذلك قوياً. هذا إذا أحب أن يكسب ودّ ربه ومحبته ويفوز بقربه ولقاؤه.

٣. الله لا يحب الخوّان

وكلمة الخوّان مبالغة من الخائن، أي كثير الخيانة ومُصراً عليها. والخيانة خلاف الأمانة. وخانه في كذا: أوْثَمَ فلم ينصح. وخان العهد: نقضه. وفي الكلّيات: الخيانة تُقال اعتباراً بالعهد والأمانة. والنفاق يُقال اعتباراً بالدين.

ونلاحظ من خلال دلالات كلمة "الخوّان" تعلقه بالعهد والأمانة. وهي صفة مذمومة لمنافاتها لقوله تعالى في سورة "المؤمنون": ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون.﴾ وهي الأمور المتعلقة بمتطلبات السلوك الروحاني ومن مقتضيات مقام المحبة الإلهية ليصبح السالك من الوارثين.

فالخوّان يخون أماناته وعهده التي قطعها مع ربه عند بيعته، ويُمنسي بالتالي مكروهاً من الله خالقه عز وجل. هذا لأنّ المحبة والخيانة صفتان متناقضتان.

أفلا نلاحظ كيف أنّ المعشوقة إذا ما أحسّت من عشيقها خيانة بصقت في وجهه وأدارت له ظهرها وهجرتة؟ يحدث هذا على اعتبار أن الخوّان يقطع بخيائته لأماناته وعهده أواصر الودّ والمحبة مع ربّه بشكل طبعي جداً.

لهذا السبب الجوهرى راح تعالى، وإشفافاً منه على المؤمنين السالكين، يحثّهم على الحذر من أن يصبحوا من الخّوانين لأماناتهم وعهودهم، ماداموا يسعون للفوز بمحبة ربّهم، وذلك في الآية (٢٧) من سورة الأنفال، حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ، وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي أنكم تعلمون أنّ الفوز بمحبّتي اشتطت له في سورة المؤمنون: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.

كما أنّ الله تعالى وعد هؤلاء المؤمنين السالكين درب معرفته أنّه تعالى كتب على نفسه الدّفاع عنهم في المآزق وحين الأخطار ماداموا يشكرونه على ماأنعم عليهم ولا يخونون أماناتهم وعهدهم معه، هذا الوعد الإلهي نصّت عليه الآية (٣٨) من سورة الحجّ التي قال تعالى فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّ اللَّهَ لَاجِبٌ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٌ﴾.

وراح تعالى فضرب هؤلاء المؤمنين السالكين مثل ماحدث ليوسف عليه السّلام. هذا النبي الذي لم يعرف الخيانة في حياته، وماخان ربيب نعمته في غيابه، وكيف أنّ ربّه كافأه على أمانته بأن هيأ من عالم غيبه أسباب براءته وحرك ربيب نعمته لأن يسند إليه أعظم منصب في حكومته. فهو جلّ شأنه نقل عن لسان يوسف قوله لريبب نعمته وذلك في الآية (٥٢) من سورة يوسف: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾. موضحاً جلّ شأنه من خلال ذلك القول أنّ الله تعالى لا يهدي كيد الخائنين، ولا يجب كلّ خوّانٍ كفور.

وفي سورة الأنفال في الآية (٢٧) حثّ الله تعالى رسوله الكريم على ألاّ يخشى الخّوانين من الكافرين، لأنهم بخياناتهم أضحوا مكروهين في نظر ربّهم. كما حذر الكافرين في الوقت نفسه من أنهم إذا نقضوا عهودهم مع رسوله وخانوا هذا الرسول وحاولوا الغدر به، فلن يعجزوا الله ورسوله مهما تفوّقوا عليه عدّة وعدداً. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبُذْ إِلَيْهِمْ عَلَى

سواء، إنّ الله لا يحبّ الخائنين. ولا تحسّن الذين كفروا سبّوا، إنهم لا يُعجزون. ﴿٦٠﴾

قال تعالى هذا، ونصح رسوله الكريم في الآية (٦١) بالتوكل على الله واحتسابه في وجه الخوانين الكافرين، وقال: ﴿فإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله، إنه هو السميع العليم. وإن يريدوا أن يخدعوك فإنّ حسبك الله، هو الذي آتاك بنصره وبالمؤمنين. وألف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكنّ الله ألف بينهم إنّه عزيز حكيم. يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين.﴾

٤. والله لا يحبّ كل كفّار أثيم

والصفة الخامسة المذمومة جداً في نظر الله عز وجلّ، والتي تحرم من يتصف بها من محبة ربه وعرفانه وقربه هي صفة "الكفّار الأثيم"، الكفار بنعم ربه وعطاءاته بسبب اتصافه بصفة الأثيم. فما معنى الأثيم في لغة الضّاد؟
الأثيم هو الإنسان الذي يعمل ما لا يحلّ له أن يعملهُ ويُقدّم عليه. أي أنّ الأثيم هو الذي يرتكب ذنباً متعمداً ارتكابه ولذلك يستحقّ هذا الإثم عقاباً على فعله. أي أنّ الإثم من حيث الدلالة بخلاف كلمة الذنب التي تُطلق على مطلق الجرم عمداً كان أو سهواً. فهذا هو ما أورده صاحب الكليات في (محيط المحيط).
والإثم بهذا المعنى الذي أورده من السُّخف أن نقول إنّ له ظاهراً وباطناً فهو إثم. وهو مُجرّد معصية ومخالفة لأوامره جلّ وعلا. وعليه فكيف نفهم مضمون الآية (١٢٠) من سورة الأنعام: ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه إنّ الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون.﴾؟

أقول: إنّ لفظ الباطن أتى من بطن الشيء: خفي فهو باطن أي خفي. والخفاء ضدّ الظهور. والمراد من قوله تعالى: ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه..﴾ أي بدّدوا ونقّوا ماتكسبونه من أعمال الظاهر منها لأعين الناس وماخفي منها عن أعينهم، لعدم فالإثم علاقته بالله وبأوامره وبمعصيته لأوامره. والله لا يخفي عليه شيء فهو يعلم مظاهر من الإثم وما أخفاه الآثم عن سواه. فالإثم إثم ظهر للأعين أو خفي عنها.

ثم إن القرآن الكريم، من أصوله أنه يفسّر بعضه بعضاً. فهو صاغ هذا الأمر في الآية (١٥١) من سورة الأنعام نفسها بأسلوب آخر وقال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ عَلَيْكُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ لَحْنٍ نَرْزُقْكُمْ وَآبَاؤَهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، ذَلِكَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. فهاهو تعالى قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي الظاهر من الفواحش والخفي منها عن أعين الناس ولم يقل ولا تقربوا ظاهر الفواحش وبواطنها. ذلك أن الفاحشة فعل شيء وليس شيء بعينه حتى يكون لها ظاهر وباطن.

ولم يدرك الدكتور البوطي هذه الحقيقة التي وضّحتها، وإن جهله بهذه الحقيقة دفعه إلى تأليف كتاب عنوانه: (باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين) ودلّ من خلال عنوانه على جهله بالحقيقة التي ذكرناها. فليس لفعل الإثم أوفعل الفاحشة ظاهر وباطن.

ولأحد أن يتساءل عن سرّ كراهة الله تعالى "للكفّار الأثيم"؟ والجواب على هذا السؤال احتوته الآية الثانية من سورة المائدة حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَتَفَعُونَ فُضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا، وَلَا يَجْرُ مِنْكُمْ شَيْءٌ أَنْ صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. فهو تعالى أتى في هذه الآية الكريمة بلفظ الإثم نقيضاً للفظ البر. والبر من حيث دلالاته اللغوية يعني الطاعة لشريعة الله ظاهراً وباطناً وضدّ العقوق. الأمر الذي يعني أن الإثم هو عدم الالتزام بأوامر الله ظاهراً وباطناً. فالآثم كفور بنعم ربه وإحساناته عليه وعاقب أيضاً. على شاكلة عاقب الوالدين. من هنا أتت حكمة وسرّ كراهية الله تعالى للكفّار الأثيم. وكيف بإمكان الإنسان العاقب ربّه أن يكسب محبّته وعرفانه وقربه ووصاله؟ ذلك أن الله عز وجل أمرنا بإطاعته وإطاعة رسوله وإطاعة أولي الأمر منا. والإنسان المؤمن لا يعصي الله ورسوله وأولي الأمر.

فلا يخالف أحكام شريعة الله ولا قوانين بلاده. وهذا ما نبهنا إليه قوله تعالى في الآية (١٧٣) من سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَأْكُلَ الْغَيْرِ وَاللَّهُ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فكلمة (باغ) تشير إلى البغي على قوانين الوطن. وكلمة (عاد) تشير إلى مخالفة قوانين الشريعة.

ثم إن القرآن الكريم نبه إلى أن مفهوم الإثم يشمل محاولات الغش والرشوة، وهذا التنبيه تضمنته الآية (١٨٨) من سورة البقرة حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لْتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. فالمعلوم أن أكل أموال الناس هو من قبيل الباطل. وأن الرشوة هي التي يُدلى بها إلى الحكّام، في حال مخالفة الشرائع والقوانين النافذة.

وقد نبه القرآن الكريم الأذهان إلى أن الإثم يشكّل باباً للإفساد في الأرض، فهذا ما أشارت إليه الآية (٢٠٦) من سورة البقرة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ، أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ، فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلِبَاسَ الْمُهَادِ﴾. فقوله (إذا تولى) أي إذا تسنّم مقاليد الحكم، ﴿سعى في الأرض لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ ضاراً باقتصاد الدولة التي تسلم مقاليد حكمها ومسبباً إلى أبنائها. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ أي إذا انتقد مواطنوه تصرفاته بشكل ديمقراطي، ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾. وإن مثل هذا الحاكم مكروه من ربّه ومستوجب العقاب ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلِبَاسَ الْمُهَادِ﴾. فلا تنفع مثل هذا الحاكم الآثم صلاته ولا زكاته ولا ما شاكلها من عبادات، ولا يستحق محبة ربّه وقربه ووصاله، ولو كان من المؤمنين.

والقرآن الكريم استعار لاستعمال الأشياء الضارة كلمة الإثم، وذلك في الآية (٢١٨) من سورة البقرة وقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا، وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ، قُلِ الْعَفْوَ، كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. فشرب الخمر فيه إثم كبير أي ضرر كبير. وهذا أمرٌ أثبتته العلم الحديث، فهو يتسبب لشاربه بتشعُّع كبده، وبُحْمول عقله وسواهما من الأمراض. وقوله ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ فقد أتى

بكلمة منافع مقابل ﴿فيه إثم كبير﴾ ولينبه إلى أنّ الخمر ليس بشرّ كلّه. فبإمكان الأطباء إجراء التجارب والتحاليل للاستفادة ممّا في الخمر من منافع للنّاس. واستدرك حلّ شأنه وقال: ﴿وإنّهما أكبر من نفعهما﴾ أي أنّ الغالب على الخمره ضررها وقلة نفعها.

ولنلاحظ أنّه مادام الله عزوجل قد وضّح للمؤمن حقيقة الخمر، فقد استلزم ذلك ألاّ يُنزل آية صريحة تحرّم شرب الخمر، وهذا هو سبب اكتفائه حلّ شأنه بالقول في الآية (٩٠) من سورة المائدة: ﴿يأأيها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان، فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾. فالله عزوجل يخاطب هنا المؤمنين السالكين درب عرفانه والطّامعين بالفوز بمحبّته وقربه ووصاله، ويقول لهم أنّه يكفيهم ماوضّحته لكم حول حقيقة الخمر وكثرة مضارّه، لذلك أنصحكم باجتنابه وعدم احتسائه ﴿لعلكم تفلحون﴾ موضّحاً لهؤلاء المؤمنين أنّ الخمر ﴿رجسٌ من عمل الشيطان﴾، والرجس هو العمل المؤدي إلى العذاب وغضب الله وعقابه على حسب ماورد في (محيط المحيط). وبهذا الأسلوب من البيان يظهر للعيان تكامل الآيات من الوجهة الموضوعية، وهو إعجاز يخلب قلوب أولي الألباب.

ثم إنّ القرآن الكريم حثّ على سلوك سبيل البحث العلمي، واجتناب أخذ الأمور بالظنون حفاظاً على سلامة المحاكمة العقلية للإنسان واجتناباً من الوقوع في متاهات الشرك والأحكام الباطلة. وقد وضّح لنا القرآن هذا الأمر بشكل منقطع النظير، ومُنّبهاً في الوقت نفسه إلى أنّ مخالفة ذلك تدخل في باب الإثم وتستوجب العقاب.

فهو حلّ شأنه قال في الآية (٣٦) من سورة يونس: ﴿وما يتبع أكثرهم إلاّ ظناً، إنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً، إنّ الله عليم بما تفعلون﴾. أي أنّ الصدق والعدل واليقين لا يقوم على أساس من الظنون. بل لا يستقيم إلاّ بالتحقيق العلمي. فهذه حقيقة لا ينبغي أن تغيب عن أذهان المؤمنين السالكين درب العرفان الإلهي، وألاّ يقعوا فيما وقع فيه أكثر أعدائهم من غير المؤمنين.

ولقد اعتبر حلّ شأنه مخالفة المؤمن لهذه القاعدة العامة إمّا يستوجب العقاب. على اعتبار أنّ الظنّ نقیض الحق، وأغلب الظنون لا يقوم على أساس واقعي. لذلك نلاحظه تعالى يخاطب المؤمنين السالكين درب عرفانه في الآية

(١٢) من سورة الحجرات قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾. وإن قوله ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أتبعه تعالى بقوله (وَلَا تَجَسَّسُوا) على اعتبار أن التجسس غالباً ما يعتمد على الظنون. وأتبع تعالى ذلك أيضاً قوله (وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا) على اعتبار أن المغيبة يخالطها كثير من الظنون. وهكذا عُدَّ الظنُّ في نظر الله تعالى إثماً، لا يحل للمؤمن الإقدام عليه والأخذ به منهجياً في حياته اليومية. هذا كيلاً يُحرَم بالتالي من الفوز بحبِّه ربِّه وعِرفانه وكسب قربه والحصول على رضاه.

ولم يكف الله جلَّ شأنه بهذا البيان كلَّه بشأن الإثم وأثره السلبي على نموِّ كيان المؤمن الروحاني، إن هو أضحى من زمرة الآثمين. بل وراح تعالى يوضِّح لهذا المؤمن السَّالك الآثار القتالة التي تخلفها الآثام في الكيان الروحي للمؤمن. وذلك في الآيات (٤٣-٤٦) من سورة الدخان التي قال فيها: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْإِثْمِ كَأَمْهَلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْجَمِيمِ﴾. وكلمة الزَّقُّوم تعني المرارة، كما تعني الطاعون (يحيط المحيط).

فإنَّه حلَّ شأنه قد نبَّه في هذه الآيات إلى أن فعل الإثم فعلٌ مكروه في نظر الله تعالى وشديد المرارة وله تأثير الطاعون في الكيان الروحي للمؤمن الآثم. وتوضيحاً منه جلَّ شأنه لهذا الأمر، أتى بكاف التشبيه ليقرب ذلك من فهمنا وقال: ﴿كَأَمْهَلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْجَمِيمِ﴾ أي أن للإثم في الكيان الروحي مالماء الساخن المغليّ جدّاً من فعل في البطن. فهو يتلف أغشية الجهاز الهضمي وقد يسبب الوفاة. وهل يرضى المؤمن السالك درب عرفان ربِّه إهلاك كيانه الروحي الذي تكون نتيجة لإيمانه بربه وبيعته لرسوله الكريم؟

ولم يقف تعالى عند هذا الحدّ من بيان تأثير الآثام في كياننا الروحي في هذه الحياة الدنيا. بل أضاف تعالى يوضِّح مصير هذا الآثم في الحياة الآخرة وقال أنّه يأمر يومئذ ملائكته ويقول: ﴿خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ. ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وهذه الآية الأخيرة ﴿ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تحمل في طياتها معنى التهكُّم بهذا الآثم المستهتر بإطاعة ربه عز وجلّ في دُنياه.

وهكذا نلاحظ كيف أنّ القرآن الكريم بحث موضوع الإثم من جميع جوانبه، خوفاً على المؤمنين السالكين درب عرفانه من أن تزلّ أقدامهم ويظنّوا أنّهم باكتفائهم بإقامة العبادات تتحقّق لهم النجاة دنيا وآخره ويكونون بذلك من الفائزين المفلحين.

فقد حذر الله تعالى هؤلاء المؤمنين السالكين درب عرفانه من ارتكاب الآثام ومخالفة الأحكام الشرعية والقوانين الوضعية، على أساس أنّ الابن البار لوالديه لا يعصي أوامرهما ولا يخرج عن طاعتهما. فما بالك بالمؤمن الذي يعترف أنّ جميع ما به من منة فمن الله عز وجل؟

وحذر تعالى المؤمنين من الإثم، على اعتبار أنّه يفقد الآثم المناعة ضدّ التعدّي على حقوق سواه من العباد. ويسهّل الإثم على صاحبه غشّ بضاعته وهضم حقوق الآخرين. ولا يعود يرتدع عن القيام برشوة المسؤولين والإدلاء بأمواله إلى الحكّام، ويسعى بذلك إلى تجاوز حدوده وهضم حقوق سواه.

والقرآن الكريم حذّر المؤمنين من الإقدام على ارتكاب الآثام، لأنّ الحاكم الذي تُسندُ إليه مقاليد حكم بلدٍ من البلدان، ولا يكون تقيّاً، ويستمرّ الإثم يفسد في الأرض ويهلك الحرث والنّسل، علماً بأنّ الله لا يحبّ الفساد.

والقرآن الكريم وضّح للمؤمن السّالك حقيقة علمية وهي أنّ كل شيء فيه منافع وفيه مضار، وأنّ من الإثم أن يقدم المؤمن على تناول ما غلبت مضارّه على نفعه. فإنّ هو أقدم على تناول المحرّمات، ينتهي أمر كيانه الجسماني والروحي إلى الهلاك والزوال. ويوء بغضب الله وكرهه إيّاه، ويستحق بالتالي العذاب والعقاب.

ووعى القرآن الكريم المؤمن السّالك، من خطر أخذ الأمور بالظنون. وعاه من أنّ أسلوب محاكمة الأمور بطريق الظنّ، يضعف جهاز المحاكمة العقلية وينأى بالظان عن السبيل العلمي. وينأى به بالتالي عن الحق واليقين.

ولم يدع الله جل شأنه هذا المؤمن السّالك دون أن يُوعيه لما للإثم من مضارّ سلبية تضرّ بكيانه الروحي. فوضّح تعالى لهذا المؤمن السّالك أنّ الإثم يهلك الكيان الروحي للمؤمن على شاكلة ما يفعله الماء الساخن بدرجة عالية، في أحشاء المرء وجهازه الهضمي.

وفي الآية (٤٨) من سورة النساء اعتبر الله عز وجلّ من يشرك به أثماً وقال: ﴿وَمَن يَشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾. علماً بأنّ الشرك أنواع منها ما يُسمى بالشرك الخفي. كذلك فإنّ الله تعالى عدّ الذي يكتم الشهادة أثماً قلبه. وهذا في الآية (٢٨٣) من سورة البقرة بقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ، وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾. كذلك نبّهنا الله عز وجلّ في الآية (٢٢٠) من سورة الشعراء إلى أن الأثيم يحرم نفسه من تنزّل ملائكة الله عليه بالرحمة والبركات، ويكله ربّه إلى همزات الشياطين، وقال: ﴿هَلْ أَنبِتْكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾. والأفّاك من أفك الرّجل كذب. وأفك الرّجل ضعف عقله. أي أن كلّ كذاب يكون ضعيف العقل وكثير الذنوب المتعمّد. ولاشكّ أن من كان هذا حاله يكون كفّاراً بنعم الله وأثيماً ومكروها عند الله والناس معاً.

وزبدة الكلام هو أن المؤمن السّالك الذي بايع وتولّد له كيان روحي لا تراه العين وليحسّ به صاحبه. إنّ هذا المؤمن السّالك سيسعى للتعرف على ربّه الذي آمن به عقلياً، ويطلب محبته وقربه ووصاله ليأخذه وكيله ومُحتسبه في الحياة الدنيا وفي الآخرة. والمؤمن السّالك الذي يكون هذا حاله لا يُدنب متعمّداً مخالفة أوامره ربّه ووصاياه وليجرّ بذلك على نفسه ويلات الإثم والكفر بنعم الله عز وجلّ ليصبح أفّاكاً أثيماً وقربناً للشياطين. ولن تعود تنفعه إن هو مال إلى الإثم : لاصلاته ولازكاته ولأية عبادة من العبادات. إلّا أن يستغفر ربّه ويتوب توبة نصوحاً ومن صميم فؤاده ويعود إلى الالتزام بالطّاعات وتجنّب المخالفات وفق مانصّت عليه آيات كتاب ربّ العالمين.

٥ - والله لا يحبّ الفرحين :

والصفة السادسة المكروهة والمذمومة في نظر ربّنا عز وجلّ هي صفة الفرح بمعنى البطر ومعنى الجمود على الباطل. وليس بمعاني الفرح الأخرى. ذلك أنّ صاحب (محيط المحيط) نبّه إلى عدّة معانٍ يُستعمل لها لفظ الفرح. فقد يستعمل الفرح للبطر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي لا يحبّ البطرين. وقد يستعمل الفرح بمعنى الجمود على الباطل والرّضا به لقوله تعالى ﴿كُلَّ حِزْبٍ بِمَا

لديهم فرحون. ﴿٧٦﴾ وقد يستعمل الفرّح بمعنى السرور لقوله تعالى ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾، إلى جانب استعماله لوصف اللذة القلبية (محيط المحيط).
والمؤمن الذي يتدبر كتاب الله القرآن الكريم يتبين له أنه تعالى حضّ على الفرّح بفضل الله على هذا المؤمن، ونهاه عن الرضا بالباطل وترك سبيل الرقي والعروج. فلا يشابه الذين يلهثون وراء طلب اللذات العارضة الزائلة والبطرين، بما حصلوا عليه من لذات وأولاد وأموال.

ففي الآية (٧٦) من سورة القصص قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ، وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكِنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْفُؤَصَةِ أُولَى الْقُوَّةِ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ.﴾ فقد ضرب الله تعالى في هذه الآية الكريمة مثلاً يُنبّه من خلاله إلى حالة الفرّح والبطر التي تتملك الذي يؤتى وجاهة ومالاً ومركزاً مرموقاً. ضرب مثلاً قارون اليهودي الذي ائتمنه فرعون على بعض خزائنه وعاد بين يديه مفاتيح لهذه الخزائن يصعب على الرجل القوي حملها بسبب أن المفتاح كان قديماً من الخشب وكبير الحجم على عكس ماهو حاله في زماننا. وقد أبطر ذلك هذا اليهودي ودفعه للاستعلاء على قومه المستضعفين المستعبدين.

وقد قال له قومه إنك تسعى لكسب محبة فرعون بما تفعله وتخسر في الوقت نفسه محبة ربك الذي فضّل على جدّك إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهذا الأمر يتأتى عنه خسارة محبة الله ووصاله ورضاه فالله لا يحب الفرّحين.

وضرب الله تعالى للمؤمن السالك في الآية (٨٣) من سورة غافر مثلاً آخر على نوع الفرّح الذي يمتقه ويمتق صاحبه ويحرمه من الفوز بمحبته وقربه، وقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ.﴾ فنبّه تعالى من خلال هذه الآية الكريمة ذهن المؤمن السالك إلى أنّ العلم لاسقف له ولا حدود. دنيوياً كان هذا العلم أو دينياً. على اعتبار أن العلم بنوعيه هو من علم الله تعالى الذي لا تعرف له حدود، والله تعالى لا يسمح بالإحاطة بشيء من العلم إلا بما شاءت به واقتضته ربوبيته لهذا الكون المادي الذي نعيش في ظلاله. والله جل شأنه لفت ذهن هذا المؤمن السالك إلى علماء الأديان الذين لم يدركوا هذه الحقيقة وفرحوا بما عندهم من العلم حين جاءتهم رسل ربهم بالبينات، متناسين ماتقتضيه ربوبيّة ربهم من إرسال رسله

وأنيابته. فهؤلاء العلماء من أصحاب الأديان قزّموا بمواقفهم تلك علم الله ومشيتة. فهذا المثال متعلّق بالصّعيد الديني. أما على الصّعيد الديني فكلّ مثقّف وباحث لابد أن اطلّع على الفارق الكبير ما بين علوم أوربة في القرن التاسع عشر وما بين ما وصلت إليه هذه العلوم في القرن العشرين.

وهكذا يكون القرآن الكريم قد حذّر المؤمن السّالك من مغبة الاتّصاف بصفة الفرح بمعنى البطر والفخر والكبرياء إن هو أمسى ثرياً وذا جاه وسلطان. وقد حضّبه في الوقت نفسه على طلب العلم دون قيود وطلب الرّقي الرّوحي بكل طموحه. علّمه ألاّ يفرح بعلم ولا مال حصل عليه بجهده وقدرته، داعياً ربّه على الدّوام أن ﴿وقل ربّي زدني علماً﴾. أي أن القرآن الكريم غرس روح الطموح في قلب المؤمن السّالك على صعيد الدنيا والدّين، وطلب منه أن يستسهل المستحيل ويحلّق بفكره وروحه في أجواز الفضاء بصورة لاتعرف لها من حدود.

فالمؤمن السّالك درب عرفان ربّه يفرح يقيناً كل آن، ولا يكون وجهه عبوساً قمطريراً. إنّما لا يكون فرحه بمال أو جاه أو ولدٍ أو تحصيل ملذّات. بل يكون فرحه فرحاً بما يتلقّاه من فضل ربّه عليه وبما يسبغه عليه من رحمة يتفرد بها من بين الناس. ذلك أن المال الزائل بالإمكان الحصول عليه بجهده وقوّته. أما الفضل الإلهي والعلم اللدّني والرحمة الإلهية المخصوصة، فلا تفيد في تحصيلها قوّة ولا جهد عضليّ.

وعليه فإن المؤمن السّالك يفرح بهذا النوع الرّوحي الذي حصل عليه من جانب ربه ولا يفرح بالنوع المادي المتحصّل عن جهد وقدره ذاتية. هذا ما أفادت به الآية (٥٨) من سورة يونس التي قال تعالى فيها: ﴿قل بفضل الله وبرحمته، فبذلك فليفرحوا، هو خيرٌ ممّا يجمعون﴾. قال تعالى قوله هذا مُنطلقاً من أنّ الرّقي المادي يكون دوماً تابعاً للرّقي العلمي.

والذي يلقي نظرة عابرة متفحصة على تاريخ البشر، مُنطلقاً من هذا الوعظ القرآني الذي تبيناه. يلاحظ تأييده تأييداً مطلقاً بمنطق هذا التاريخ الطويل. وعليه فالذي يُطهره المال والأولاد ويلهث طالباً الملذّات العارضة المادية، يصبح مكروهاً في نظر ربّه عزوجل ويعسر عليه جذب محبته وعرفانه والتقرّب

منه. ويُصاب بمعرض التقليد الأعمى والجمود الفكري، وينتهي به الأمر إلى العمى الروحي. فمن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً.

٦. والله لا يحب المفسدين :

وصفة المفسد والإفساد، صفة مكروهة في نظر الله ربّ العالمين. والمؤمن السالك درب العرفان الإلهي يتجنب ما يكرهه ربّه، مادام يسعى ليفوز بمحبّة ربه ورضاه.

ذلك وإن الله تعالى قال في كتابه العزيز في سورة البقرة الآية (٢٠٥): ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ.﴾ كذلك قال من جهة أخرى في سورة القصص (٧٧): ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ.﴾

وكلمة المفسد مأخوذة من فَسَدَ اللَّحْمَ إِذَا أَتَنَ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ الْإِنْتِفَاعُ بِهِ عَلَى حَسَبِ مَا وَضَّحَ صَاحِبُ الْكَلَيَاتِ. ففسد ضد صَلَحَ. وأفسد ضد أصلح. وتفاسد القوم قطعوا الأرحام (محيط المحيط).

فمن منطلق دلالة لفظ الفساد والمفسد الواردين في الآيتين اللتين أوردتهما للمؤمن السالك، يسعى هذا المؤمن ليتعرّف على جذور الفساد فيتجنبها، وعلى طريق الصلاح والإصلاح فيسلّكه طلباً للفوز بمحبّة ربّه إياه وليحصل على قربهِ ورضاه. والله تعالى وهو علام الغيوب الذي يعلم سرّ المؤمن وأخفى من ذلك، لا يترك هذا المؤمن يبحث هذا البحث ويتجّه هذا الاتجاه، ولا يبدله على ما يريد معرفته ولا يأخذ بيديه، بل يقيناً يرشده ويأخذ بيديه أيضاً.

والذي يتدبّر القرآن الكريم يلحظ أنّ ربّه قد عرّفه على جذور الفساد ودوافع الإفساد في الأرض. وذلك في الآيات ٢٠ إلى ٢٥ من سورة الرعد، حيث قال هناك:

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ. وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ

بالحسنة السيئة أولئك لهم عُقبى الدار. جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آباءهم وأزواجهم وذرياتهم، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقبى الدار. والذين ينجضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم اللعنة وهم سوء الدار. الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وفرحوا بالحياة الدنيا، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع. ﴿١٠﴾

فالمؤمن الذي يتدبر هذه الآيات الكريمة يدرك أن الله تعالى ربه وضح له من خلالها جذور وأصول الفساد بشكل منقطع النظير. فقد وضع تعالى في الآية الأولى أنه جل شأنه مميّز الإنسان على غيره من مخلوقاته بميزة العقل وجعله بذلك من أولي الألباب. بينما ترك بقية مخلوقاته غريزيين في تصرفاتهم ومسلكتهم في هذه الحياة الدنيا. فما معنى "أولي الألباب"؟

الألباب جمع لبيب وهو الإنسان العاقل الذي لا يفتّر عن مُلازمة أمر ربه (محيط المحيط) ويزيدنا جل شأنه في هذه الآية الأولى توضيحاً ويقول أن من لا يستعمل عقله استعمالاً صحيحاً يكون في هذه الدنيا أعمى لأنه لا يتعظ بما أنزل الله في كتابه العزيز ولا يتذكره، لذلك يظلّ أعمى محروماً من سلوك درب عرفان ربه ومن كسب محبته وقربه ورضاه.

أمّا أولو الألباب الذين يستعملون عقولهم بعيدين عن عواطفهم وميولهم وعن التقليد الأعمى الموروث من عادات مجتمعاتهم ورسومه وتقاليده يتذكرون ويتعظون بما احتواه هذا القرآن الكريم من مواعظ وتعاليم، ويهتدون إلى سبيل الحق الذي أتى به هذا الرسول الصادق الأمين، فيسلكون درب عرفان ربهم ويفوزون بمحبته وقربه ورضاه.

وراح تعالى يعدّد في الآية الثالثة صفة أخرى من صفات أولي الألباب موضحاً أهمّ صفة ويقول: ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ أي أن أصحاب العقول لا تخدعهم القشور بل يتعدون عنها ويغوصون إلى اللباب استجابة منهم لعهد الله الذي أخذه عليهم حين ميّزهم بميزة العقل عن سواهم من المخلوقات. فأصحاب العقول يقدّرون هذه النعمة ويوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق المذكور. لذلك تلاحظهم يسلكون في حياتهم مسلكاً

عقلانيًا، فيوازنون بين الأشياء فيأخذون بما يرضي ربهم، ويحذرون ما يكرهه ويغضبه.

وراح تعالى يعدد في الآية الثالثة صفة أخرى من صفات أولي الألباب وقال: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ أي لاتعود القشور في هذه الحياة الدنيا تلهيهم بل يطيعون الله ربهم في كل ما أمرهم به أن يوصل. ولا يطيعونه ظاهراً وقلوبهم لاهية عن ربهم، بل يطيعونه ﴿ويخشون ربهم﴾ والخشية تعني الخوف من ضياع شيء على حسب ماوضحه صاحب (محيط المحيط) أي يطيع أولو الألباب ربهم خائفين أن يخسروا بعدم اطاعتهم لأوامره محبة وقربه ورضاه. ليس هذا وحسب، بل ﴿ويخافون يوم الحساب﴾ أي يعلمون علم اليقين أن العاقل إن هو لم يقدر نعمة العقل التي أنعم بها ربه عليه، لأبد أن يحاسبه ربه على ذلك يخافون الآخرة ويحسبون ليوم الحساب حسابه، يلتحفون بلباس تقوى الله على الدوام.

وقد أضاف جل شأنه صفة ثالثة من صفات أولي الألباب، وذلك في الآية الرابعة حيث قال: ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾ والصبر معناه المثابرة والدوام على طاعة الله، والثبات في المكاره وتحمل الأذى ابتغاء وجه الله عز وجل فأولو الألباب المؤمنون السالكون درب عرفان الله تعالى يثابرون على طاعة ربهم ويثبتون في المكاره وحين البأس ويتحملون كل أذى على هذا الدرب ابتغاء وجه ربهم يقيناً.

وعلامتهم الرابعة كما عبّرت عنها الآية الرابعة هي ﴿أقاموا الصلاة﴾ ولفظ الإقامة يحمل معنى الصلاة جماعة أي يسعون إلى أداء صلواتهم على أوقاتها، وبشروطها جماعة مع سواهم من المؤمنين وتحت قيادة واحدة.

وعلامتهم الخامسة تضمنها قوله تعالى مضيفاً: ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾. فهم يُنفقون سراً حفاظاً على كرامة من يُحسنون إليه. وينفقون علانية تشجيعاً منهم لسواهم من الناس على فعل الخيرات والتبرع بالصدقات. وراح تعالى في آخر هذه الآية الرابعة يوضح حكمة اتصاف أولي الألباب بهذه الصفات ويقول: ﴿ويدرؤن بالحسنة السيئة﴾ أي أن وجود مثل هؤلاء الناس في المجتمع يدفع عنه سيئاته ونواقصه ومعايبه.

وقد بشر الله تعالى أولي الألباب من المؤمنين السالكين الذين يتصفون بجميع هذه الصفات التي عدّها لهم ، وقال: ﴿أولئك لهم عُقْبَى الدَّارِ﴾. وراح تعالى ففسّر المراد من قوله "عُقْبَى الدار"، بقوله تعالى، في الآية التي بعدها: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

وخلاصة القول إنّ الله تعالى عرّف المؤمن السالك من خلال هذه الآيات من سورة الرعد على جذور الفساد وأصوله، ووسائل تدارك ذلك فردياً واجتماعياً. مُرجعاً الفساد إلى عامل أساسي وهو عدم استعمال الإنسان لعقله بعيداً عن عواطفه وميوله وعادات مجتمعه الموروثة. وأن هذا الإنسان بقدر ما يكون عقلاً في سلوكه وتفكيره وتصرفاته، يتعد عن كل فساد وإفساد يغضب ربه ويحرمه بالتالي من كسب محبته ورضاه. ويهلك جميع مآثره الله خالقه به من مزايا وصفات على ماعداه من المخلوقات.

كذلك نبّهت هذه الآيات الكريمة إلى أنّ الذي يستعمل عقله استعمالاً صحيحاً لاتعود تخدعه سفاسف الأمور وقشورها، بل يحرص إلى أبوابها نزولاً ووفاء لعهد الله وميثاقه وإطاعة لتعاليمه ومواعظه. واضعاً نصب عينيه على الدوام خشية ربه وتحسُّبه ليوم الحساب.

مثابراً على ذلك وصابراً على مايتأتى عنه ابتغاء وجه ربه وكسب محبته وقربه ومرضاته. مقيماً الصلاة، مُنفقاً ممّا رزقه الله ربه سرّاً وعلانية.

فلما انتهى جلّ شأنه من توضيح ذلك كلّ راح يتكلم عن الذين لا يستعملون عقولهم، ولا يكونون من أولي الألباب. أولئك الذين يستسلمون لعواطفهم وميولهم ولتقليد ماورثوه من رسوم وعادات فوسفهم بقوله: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولئك هم اللّٰعنة وهم سوء الدّار﴾. أي أنّ الذين لا يعقلون يعتبرون في نظر ربّهم ناقضي عهد الله وميثاقه خصوصاً وأنهم لا يطيعون الله الذي خلقهم ومنحهم هبة العقل، وهؤلاء وهم على هذه الحال يفسدون في الأرض ويزعمون أنهم مصلحون. أولئك يُحرمون من محبة ربّهم وعرفانه فلهم اللّٰعنة أي البعد عن الله عزوجلّ، ولهم سوء الدّار أي سوء المصير الذي سيصيرون إليه.

وراح تعالى يغمز جانب هؤلاء المفسدين ويقول: ﴿اللَّهُ يَسِطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أي أن هؤلاء المنحرفين عن صراط الله، يجعلون همّهم الحصول على متاع الدنيا أي الحصول على كلّ ما ينتفع به من الخواج كالطعام واللباس وأثاث البيت والأدوات والسّلح. فهذه الأشياء يُطلق عليها اسم المتاع على حسب ماورد في (محيط المحيط). وقال في الكلّيات: المتاع والمتعة مأيتّفع به انتفاعاً قليلاً غير باق، بل ينقضّي عن قريب. يسعون وراء تحصيل متاع الدنيا ظناً منهم أنّهم يحصلون ما يحصلون عليه بسوا عدهم في حين أنّ الله خالقهم هو الذي يمدّهم بهذا الرزق ليلوهم به. فالله يسط الرزق لمن يشاء ويقدر. وإن هؤلاء المنحرفين المكثفين بمتاع الدنيا، يخسرون في الوقت نفسه ما أعدّ الله تعالى لأولي الألباب من جنّات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم كما يُحرّمون من أدعية ملائكة الله الذين يدخلون على أولي الألباب من كلّ باب إشارة إلى أنواع الصالحات التي اشتهروا بأدائها في الحياة الدنيا سعياً وراء كسب محبة ربهم ورضاه.

وبعد أن وضع الله جلّ شأنه لعباده المؤمنين السّالكين درب عرفانه جذور الفساد وأصوله. راح يُعلن لهم في الآيات ٢٧ - ٢٩ من سورة (ن) اختلاف تعامل الله ربهم مع هؤلاء الفريقين من النّاس، وتمييزه المؤمنين أولي الألباب على النّاكثين عهد الله من الذين لا يستعملون عقولهم ويتنهجون نهج تقليد ما هو موروث في مجتمعاتهم، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ. أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ. كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

أي أنّ فريق أولي الألباب يستعملون عقولهم استعمالاً صحيحاً ويتفكّرون في أمر سماء هذا الكون وأرضه وما بينهما، ويحاكمون ما يتفكرون به وما يلاحظونه، ويتبيّن لهم بأسلوب علمي أن الله تعالى هو خالق هذا الكون، وأنّه لم يخلقه باطلاً وبدون مقصد، بل خلقه لمقصد هداهم إليه هذا القرآن العظيم. على حين أن فريق الكافرين النّاكثين لعهد الله والذين لا يستعملون هبة العقل بعيداً عن العواطف والميول والتقليد الأعمى، هؤلاء تختلط عليهم الأمور

ويظنون أن هذا الكون وُجد من نفسه ولا مقصد لوجودهم في هذه الحياة، وبالتالي فلا تعود طاعة أوامر الله تعينهم في شيء ويندفعون وراء قضاء شهواتهم دون وازع ولا ضابط. وهنا أتى جل شأنه بفاء الاستئناف وقال منذراً هذا الفريق الثاني ﴿فويل للذين كفروا من النار﴾ أي أنهم يسلكون بذلك السبيل الموصل إلى نار الندم والفجعة في آخر المطاف. ثم أتى جل شأنه بحرف العطف (أم) الذي يفيد الإضراب وأعلن: ﴿أم لجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم لجعل المتقين كالفجار.﴾ أي أن المنطق يقتضي ألا نسوي بين المؤمنين الذين استجابوا لربهم وعملوا الصالحات، وبين الذين لم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات وكانوا من المفسدين في الأرض. وكيف نسوي بين الفريق الذي كانت تقوى الله تعمر أفقده و بين الفريق المفسد الذين كانوا فجّاراً تفجّرت المعاصي والآثام والافساد في الأرض في أعمالهم وحبّ التّمول والسّحر والتنجم (محيط المحيط) بسبب كفرهم وابتعادهم عن طاعة الله وهدايته. كيف نسوي بين فريقين كان العاقل المؤمن من الفريق الأول يتقي مواقع الزّلل بهدى تعاليمنا، وكان غير العاقل الكافر من الفريق الثاني غافلاً عن خالفه ومنذفاً وراء شهواته وميوله وأهوائه بلا وازع أو ضمير؟

وبعد أن أعلن جلّ شأنه هذا الإعلان الذي تبيّناه، استدرك وقال: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب.﴾ أي أننا أنزلنا إليك يا محمد يأكمل العقلاء وأعظم رجل بين أولي الألباب، أنزلنا هذا الكتاب القرآن المبارك أي المقدّس والمفعم بالبركات (محيط المحيط) أنزلناه إليك ليتدبره جميع الذين وهبناهم هبة العقل وميزناهم عن جميع بقية المخلوقات، ونحن نعلم أنه لا يتعظ بهذا الكتاب وتعاليمه ولا يحصد من بركاته إلا أولو الألباب أي الناس الذين يستعملون عقولهم بعيداً عن عواطفهم وميولهم وعن تقليد ماورثوه من رسوم وتقاليد. فأولو الألباب هؤلاء يستجيبون لك يا محمد يأكمل العقلاء، ويسلكون سبيل عرفان ربهم ويفوزون بحبّته وقربه ورضاه.

والله جل شأنه راح يضرب لرسوله الكريم ﷺ في مختلف سور القرآن الأمثلة على هذا التفريق بين هذين الفريقين من الناس من حيث تجلياته عليهم والعاقبة التي آلا إليها، بشكل مثير ومدهش لعقول المتبصّرين.

ففي الآية (١٠١) من سورة الأعراف، وعلى سبيل المثال قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقِصَّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ. وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ، وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أي أنّ مثال مايجري معك ياسيد العقلاء قد جرى مع من أرسلنا من قبلك من رسلنا بالبينات فيها أن تاريخ تلك القرى شاهد على ما نقول.

وفي الآية (٩٠) من سورة الأعراف ضرب مثل قوم شعيب عليه السلام وقال: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لئنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا خَاسَرُونَ. فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِينَ﴾. أي انظر يا محمد ياسيد العقلاء كيف كانت عاقبة الذين كذبوا شعيباً، ونكثوا عهدهم ولم يستعملوا عقولهم استعمالاً صحيحاً بعيداً عن عواطفهم وميولهم وعن تقليد ماورثوه من رسوم وتقاليد وكانوا بذلك من المفسدين في الأرض ومن الفجار.

بهذا الأسلوب نبّه كتاب الله ذهن المؤمن السالك درب عرفان ربه والأمل أن يفوز بمحبة ربه وكسب قربه ورضاه، نبّهه إلى حقيقة عظيمة وهي أن يكون عقلاً في مسلكه وتعامله وتفكيره، فلا يستسلم إلى عواطفه وميوله ولا إلى ماورثه من رسوم وعادات وتقاليد، وأن يحافظ على صلواته اليومية وذكر ربه، وخشيته وتقوى الله تعمّر فؤاده في كل خطوة يخطوها في حياته، ويحسب للحياة الآخرة حسابها ويتزوّد لها، فيصل ماأمر الله تعالى به أن يوصل، فلا يخالف أوامر ربه ولا يعصيه. فإن داوم هذا المؤمن السالك وصبر على هذا وثبت في الشدائد فلا بدّ أن يفوز بمحبة ربه الذي خلقه لعبادته ومعرفته وقربه. ولا بدّ أن يعرفه على نفسه ولا بدّ أن ينعم عليه بأعطياته، ولا بدّ أن يعصمه من أن يكون من فئة الفجار المفسدين في الأرض.

سابعاً و ثامناً - والله لا يحب الخوان والكفور :

والكفور صيغة مبالغة من الكافر بنعمة الله وجحدها وسخرها، وفي الكليات: الكفر تغطية نعم المنعم بالجحود. ويستعمل الكفر في أمور الدين أكثر. بينما أن لفظ الكفران أكثر استعمالاً في جحود النعمة. ولفظ الكفور يستعمل فيها جميعاً. (يحيط المحيط).

من هذا ندرك أن لفظ كفور الوارد في الآية (٣٨) من سورة الحج، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ المقصد منه دلالة كفور على جحود نعمة الله تعالى وسرّها، بدليل الإتياء بهذا اللفظ في مقابل الإيمان، من جهة، وبسببه بكلمة خَوَّان من جهة أخرى، فالخَوَّان صيغة مبالغة من خان بمعنى لم يؤثمن على نعمة العقل التي ميّز الله تعالى بها الإنسان على مَنْ سواه من المخلوقات. وعدم الائتمان هذا جرّ صاحبه ليكفر بأنعم الله الخالق الذي أنعم عليه بنعمة العقل.

ذلك أن الله تعالى وعد المؤمنين المؤمنين على هبة عقولهم والمستعملين لها استعمالاً صحيحاً، أن يدافع عنهم لأنهم أضحوا من أحبائه ومقربيّه. على حين أنه أسى يكره الذين خانوا أمانة العقل، فلم يستعملوا عقولهم بعيداً عن عواطفهم وماتوارثوه، وكفروا بالتالي بأنعمه عزوجل. فهذا هو معنى قوله تعالى في الآية التي أوردناها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

وإن الحقيقة التي طالما ألمحت إليها في مؤلفاتي، هي أن الناس انقسموا منذ بعثة آدم عليه السلام إلى هذين الفريقين من الناس. وقد ثبت من معطيات تاريخهم صدق ما أعلنت عنه الآية من سورة الحج التي أوردناها.

هذا وإنني نبّهت مراراً وتكراراً إلى قانون الاحتياج العام المهيمن في هذا الكون. والذي يثبت منه وجود الله تعالى ووحدانيته، واحتياج كل شيء إليه سبحانه وتعالى. وأن الله تعالى وفقاً لهذا القانون، قد جعل لكل حاسة من حواس الإنسان عاملاً مساعداً يساعدها على أداء عملها. وقد جعل للعقل عوامل ثلاثة تساعد له على العمل ويصدر أحكاماً صحيحة وسليمة على مستوى الماضي والحاضر والمستقبل. فالعامل الثالث الذي يعمل على مستوى الغيبات، هو الوحي السماوي. وهأنّ الوحي القرآني قد أنبأنا بنصوص صريحة واضحة عن أنّ كل شيء في عالمنا مخلوق ولوجوده مقصد أيضاً. وأن الله تعالى خلق هذا الكون وما فيه بما يساعد على استمرار حياتنا وتحقيق مقصد وجودنا أيضاً.

وقد أنبأ جل شأنه في سورة الدھر عن أنّه صاغ فطرتنا على صورة تدع لكلّ منا حرية التفكير والاختيار ومنحنا الإرادة للسعي لتحقيق هذا المقصد. فالإنسان بإمكانه اختيار أحد طريقين: إما أن يستعمل عقله استعمالاً صحيحاً

فيهديه الله إلى وجوده وإلى الإيمان برسله تعالى وكتبه. وأما أن يُهمل الإنسان استعمال عقله بالأسلوب الذي ذكرناه، فيُضَلّ بالتالي عن سبيل الله ويكفر بوجود خالقه وكتبه ورسله وبكلّ ماأنعم الله تعالى به عليه. وهذا ماعبرت عنه الآية الثالثة من سورة الدهر: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾. كذلك فإن الله عزوجل نبّه أذهان عباده إلى أنّ جميع ما في هذا العالم من أشياء ونعماء فمن عطاء الله الرحمن الرحيم. لقوله تعالى في الآية (٣٤) من سورة إبراهيم: ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها، إن الإنسان لظلوم كفار﴾. أي أن الإنسان الذي لا يستعمل عقله استعمالاً صحيحاً، يبيت كافراً بخالقه وظالماً لنفسه وكفّاراً بأنعم الله تعالى عليه.

وقد نبّه الله تعالى الأذهان في الآية (٤٠) من سورة النمل وعلى لسان سليمان الحكيم إلى أن الله هو في حقيقة أمره غني عن شكرنا إياه. وأنّ من يشكر الله على أنعمه إنّما يشكر لصالح نفسه، ليكسب بهذا الشكر محبة هذا الإله المنعم والمحسن إليه، ويفوز بالتالي بعرفانه وقربه ووصاله. أفلم نقرأ مانطق به سليمان عليه السلام وقال: ﴿.. ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإنّ ربي غني كريم﴾؟

من هذا كله ندرك أن من واجب المؤمن السالك درب عرفان ربه والساعي لكسب محبته تعالى وقربه، أن يحذر عند كل خطوة يخطوها في حياته اليومية من أن يصبح متهماً عند ربه بأنّه أصبح "خواناً كفوراً".

٩ - والله لا يحب المرفين

والصفة التاسعة التي يكره الله عزوجل أن يتصف بها عبده المؤمن السالك درب التعرف إليه والساعي إلى جذب محبته وكسب رضاه، هي صفة الإسراف بسبب العواقب الوخيمة المحتمل وقوعها نتيجة للاتصاف بهذه الصفة الذميمة.

فمن هم المرفون؟ المرفون جمع مسرف من أسرف ماله أي أنفق وبذره في غير طاعة ولا ضابط لإنفاقه. أي أنّ المسرف هو من ينفق حدّ الهدر والتبذير ويشكل هدراً وتبذيراً معصيةً لأوامر ربه عزوجل. أمّا إذا أكل هذا

المؤمن كفاية بطنه وشرب حاجته الطبيعية ولبس ما يستر عورته وييدي حشمته فلا يُسمى إنفاقه هذا من قبيل الإسراف والتبذير.

والسؤال هنا: ماهي حكمة وضرورة هذا التقنين؟ وفي الجواب أقول: لقد أمر الإسلام المؤمنين باحتساب الإسراف دفعاً للنتائج التي يسفر عنها. معناه الذي ذكرناه. وبالإمكان اختصار هذه النتائج حيث تتضمنها الأمور الأربعة التالية:

أولاً - والنتيجة الأولى التي يُسفر عنها الإسراف هي معصية هذا المُسرف ربّه وخسارة محبته إياه. هذه نتيجة نصّ عليها كتاب الله عزوجلّ في سورة الأنعام بألفاظ صريحة حيث قال: ﴿... وَلَا تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ.﴾. وهذه وصيّة لم ينفرد الإسلام بالتوصية بها. بل إنه تعالى وصّى عباده بضرورة الالتزام بهذه الوصيّة وعدم الإسراف منذ بعثة آدم عليه السلام. أولم نقرأ ماتضمّنته الآيات (١٢٣ - ١٢٧) من سورة طه التي خاطب الله تعالى فيها آدم وزوجه قائلاً: (قال اهبطوا منها جميعاً بعضهم لبعض عدوّ فيما يأتينكم مني هدى فمن اتّبع هُداي فلا يضلّ ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكرّي فإنّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى. قال ربّ لمّ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربّه ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى.).

هذا وإن الخطأ الذي ارتكبه آدم وزوجه سُمّي في هذه الآية الكريمة إسرافاً، أي تجاوزاً لكفايتهما إلى حدّ معصية الله تعالى ومخالفتهما لأوامره عن غير قصد.

وحيثما قلت "عن غير قصد" استدلت على ذلك بالقرآن الكريم نفسه حيث ورد في نفس سورة طه الآية (١١٥) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً؟﴾ أي أنّ إسراف آدم وذنبه الذي بدر عنه، صدر عن حُسن نيّة وعن غير قصد منه. فلم يكن يسعى إلى معصية أو امرنا بشكل من الأشكال.

ثانياً - والنتيجة الثانية التي يسفر عنها الإسراف، هي تأثيره الخطر على الاقتصاد الوطني في كلّ دولة من دول الأرض. فالإسراف في كلّ شيء من

الأشياء يُعدّ أحد العوامل الرئيسية التي تزعزع أركان الاقتصاد. وقد أدرك الأوروبيون هذه الحقيقة متأخرين لذلك راح المتخصّصون عندهم يعيدون النظر في معالجة مُعطيات هذا الإسراف وما أسفر عنه حتى الآن. فلو أنّهم رجّعوا إلى تعاليم هذا القرآن الكريم الذي أنزله خالقهم قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، لكانوا وفّروا على أنفسهم ما أضاعوه وكسبوا في الوقت نفسه محبة هذا الخالق الهادي علام الغيوب.

هذا وبمعلّية بسيطة يدرك العاقل أخطار الإسراف على اقتصاده. فلو أسرف كل إنسان في تناول البيض على سبيل المثال، وتناول بيضة واحدة زيادة عن حاجته اليومية.

وكان عدد البالغين في الدولة الواحدة عشرة ملايين، فمعنى ذلك أنّ هذا الشعب يُتلف عشرة ملايين بيضة عن طريق الاستهلاك المخالف للعلم في اليوم الواحد فإن ضُرب هذا العدد في عدد أيام السّنة فإنّ هذا الرقم يبلغ ٣,٦٥٠,٠٠٠,٠٠٠ ثلاثة آلاف وستمئة وخمسين مليون بيضة تستهلك هدراً وإسرافاً. وعلى شاكلة ذلك يقاس كل نوع من أنواع الهدر والإسراف وعلى صعد الطعام والشراب واللباس والتبرّج بالحليّ والتزيّن.. الخ.

فإن وعى البشر ضرورة الابتعاد عن الإسراف والهدر، وبلغوا في ذلك حدّ تقوى الله وخشيته، وردّ هذا المؤمن مأثوفه عن طريق التزامه بهذه الموعظة القرآنية على السائل والمحروم، لاتعود بعد ذلك من ضرورة للحدّ من النسل وسواه من المطالبات.

ثالثاً - والنتيجة الثالثة التي يُسفر عنها الإسراف، هي أنّ الإنسان المليء المُسرف، تتضاءل في نفسه إحساساته بإخوانه من الفقراء والمعوّزين من بني البشر. وبالتالي يتولّد عن ذلك فوارق اجتماعية وإحساس بطبقية وحقد اجتماعي ينخر في جسم الأمة الواحدة إلى درجة تعمل على تفكك مجتمعها، وتولّد بُؤر الثورات والفساد فيتآكل جسم هذا المجتمع كما ينخر السوس والسدود في الأشجار والمزروعات. وذلك لفقدان روح التكامل والتضامن الاجتماعي نتيجة لإسراف الأثرياء أيضاً. وتفقد تلك الأمة محبة ربّها ورضاه فيدعها تتناهبها رياح الزوال.

والإسلام فرض الصيام لتدعيم روح التكافل والتضامن الاجتماعي المذكور. فهذه إحدى فوائد شهر الصيام. إنمّا للمؤمنين الذين يدركون فلسفة الصيام ويصومون لتحقيق حِكْمه وأهدافه المادية والروحية.

رابعاً - ثم إنّ النتيجة الرابعة التي يسفر عنها الإسراف، شديدة الخطورة إلى درجة كبيرة جداً. إذ أنّ من المعلوم أنّ كلّ حال لا يدوم. والأفراد والأمم يتعرّضون بين الحين والحين لنكباتٍ وشدائد ودوا. والإنسان الذي اعتاد الترف والإسراف وواجهته مثل هذه النكبات، يستشعر في تلك الأيام أنّه كان قد فقد المناعة النفسية والجسدية التي يحتاجها المرء لمواجهة نكبة تُلَمُّ به، فيتهالك ويذلّ ويشقى دون أن يسمع صوتاً يقول ارحموا عزيز قوم ذلّ. ولا تغنيه في مداواة حاله تلك الكلمات.

أمّا المؤمنون الأتقياء الذين لم يُسرفوا ولم يَقْتُرُوا وكانوا بين ذلك قواماً. أولئك يأخذ الله بأيديهم، فلا يواجهون ضعف المناعة المذكورة عند الشدائد، بل إنّ الشدائد تزيدهم صقلاً ولعناً وقرباً من ربهم ورضواناً.

فهذه نتائج أربع خطيرة لا بدّ أن يسفر عنها إسراف شعب من الشعوب، أو فرد من الأفراد. ولذلك يدخل موضوع الإسراف في دائرة الإفساد في الأرض، خصوصاً وأنّ جذر الإسراف هو معصية الله وقطع ما أمر الله به أن يوصل، وهذا أحد جذور الإفساد في الأرض كما تبيّناه سابقاً.

وهذه النتائج الخطيرة التي يسفر عنها الإسراف في المأكّل والملبس وسواه من الأمور المعاشية، استدعت من ربّنا عز وجلّ أن ينبهنا إلى ذلك نحن المؤمنون السالكين سبيل عرفانه، إلى تنبيهنا إلى خطورة الإسراف، وبأسلوب علمي رائع عديم المثال، ومنطق ربّنا الرؤوف والرحيم بالمؤمنين.

وليُصغ كلّ مؤمن سالك إلى ما أورده جل شأنه في الآية (١٤١) من سورة الأنعام، فهو قدّم لنا بادیء ذي بدء دليلاً علمياً، يعطيه الحقّ لنُصحنا وإنذارنا وقال وعزّ من قائل: ﴿وهو الذي أنشأ جنّات معروشاتٍ وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه، كلوا من ثمره إذا أثمر، وآتوا حقه يوم حصّاده﴾. وهذه الكلمات تحوي دليلاً علمياً على وجود الله الخالق لهذا الكون وما في هذه الأرض من حياة،

ولهذا الإنسان الذي توجه الله تعالى إليه يهديه بهذه الكلمات وخلاصة هذا الدليل العلمي، هو أن من يزعم وجود هذا الكون من نفسه، يحتج بالصدفة والضرورة التي تتنافى والعلم موضوعياً. ففي هذه الكلمات من هذا الشطر من الآية الكريمة عدد الذي أنزل القرآن الكريم عناصر تعد بالعشرات وتصيب في بوثقة واحدة ولتحقيق غاية سامية. فهو تعالى ابتداء بضمير (هو) تحريكاً لعقول المفكرين، واستعمل فعل (أنشأ) المتعدي ومن نشأ الذي يفيد حيي وحدث وتجدد. ليدفع القارئ ليتساءل عمن أخرج هذه الأشياء وأحيها من الأرض الجامدة الموات وعن حدوثها بهذه الأنواع والألوان والأشكال وما يحمل كل منها من خواص ومنافع.

وليتساءل أيضاً كيف تضمنت أن هذه الأشياء أعضاء تناسلها وتجدها؟ فهذه التساؤلات والمعاني تضمنتها فعل أنشأ وحده على حسب ما أفاده من معان تضمنتها معجم (محيط المحيط) وسواه من المعاجم اللغوية. وأضاف إلى هذا وذاك إصدار الأمر بالقول (كلوا من ثمره إذا أثمر، وآتوا حقه يوم حصاده..). إشعاراً منه عز وجل للقارئ أن جميع هذه النعماء، إنما سخرها الله تعالى لصالح هذا الإنسان. وأن على هذا الإنسان أن يعالج زراعة وحصد وقطف ثمار هذه الأشياء بأسلوب علمي وليس بأسلوب بدائي عشوائي. فلما انتهى جل شأنه من تقديم هذا الدليل العلمي يثبت وجوده، ووجود مقصد من حياة الإنسان ومن وجود هذه الأشياء جميعها، أضاف تعالى ناصحاً ومخبراً وقال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي استعملوا جميع هذه الأشياء بأسلوب علمي وبنهج السالكين درب عرفان ربهم والطالبيين الفوز بمحبته ورضوانه، واعلموا أنكم إذا انتهجتم سبيل الإسراف تخسرون في مقابل ذلك محبة هذا الخالق وعرفانه. فهو لا يحب المسرفين.

وراح جل شأنه يزيدنا إيضاحاً وقال: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمَلَةٌ وَفَرَشٌ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي لاتقولوا إن هذه الثمار وحدها لاتكفي لتأثيث بيوت تقطنونها. وأنكم بحاجة إلى مايساعد على حملها ونقلها إلى دوركم. بل خلق لكم ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمَلَةٌ وَفَرَشٌ﴾ وهذا جميعه رزق سبق أن هيأه الله الخالق من أجل وجودكم ودوامه، ومن أجل تعريفكم على الله الذي رزقكم جميع هذا الرزق الكامل المتكامل لذا

يأمركم ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ﴾ وهنا أتى باسم الجلالة الله الجامع لجميع الأسماء الحسنى تدعيماً منه تعالى لضمير (هو) الذي افتتح به هذا الدليل والكلام على وهذا الرزق كله؟ فمن ينكر هذه الحقائق إلا الشيطان؟ أي إلا الوجود الذي لابد أن يؤول إلى الهلاك والاحتراق بالنار؟

فلما بلغ جل شأنه هذا الحد من البيان حذر هذا المؤمن السالك درب عرفان ربه والطالب ودّه ومحبته، وقال: ﴿... وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وبهذه الألفاظ أعاد إلى ذهن هذا المؤمن السالك ما حدث عند بعثة أول نبي وهو آدم عليه السلام وكيف أنّ من أنكر ما جاء به وقاومه وسلك سبيل الإسراف آل أمره إلى الهلاك والدمار.

وأن جميع من سلك مسلك ذلك الشيطان وكان من ذريته أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، وما أثبتوا في يوم من الأيام إلا أنهم عدّوا للإنسان المؤمن، وعدّوا مبين.

أي أنّه جل شأنه ذكر المؤمن السالك من خلال هذه الألفاظ ما أورده من إنذار وتحذير لآدم ومن سار مساره وذلك في الآية (١٢٣) من سورة طه ﴿وَكَذَلِكَ لِمَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾.

هذا الدليل على وجود الخالق وهذا التحذير من الإسراف وأخطاره يكشف لنا الستار عن سرّ مخاطبة الله عز وجل بني آدم في الآية (٣١) من سورة الأعراف حيث قال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فهو جلّ شأنه ربط موضوع التزيّن ظاهراً وباطناً عند كلّ مسجد في هذه الآية الكريمة بأمرين ظاهرين الأول هو التذكير بعهد بعثة آدم وما أنزله عليه من تعاليم. والأمر الثاني علاقة هذا التزيّن أي نظافة الثياب الظاهرية ونظافة الصفات الباطنة المتعلقة بالقلوب والصّدور بموضوع الطعام والشراب والاعتدال فيهما. بمعنى أنّ الذي يُسرف في طعامه وشرابه يكون عاصياً ربّه ولا يكون نظيفاً معنوياً على كلّ حال. ولو لم يكن المقصود من هذا الربط هذه الدلالة فلا يكون من معنى للجمع بين خذوا زينتكم عند كلّ مسجد وبين كلوا واشربوا ولا تسرفوا في هذا المقام. وبألفاظ أخرى يقول جلّ شأنه لا تكتمل تقوى المؤمن السالك درب عرفان ربّه وزينته إلاّ

إذا امتاز باعتداله في طعامه وشرابه ولم يسرف ولم ييذر ولم يتبّع خطوات الشيطان الذي عادى آدم وكان رأس الحربة لنسل مفسد في الأرض. أما إذا جمع هذا المؤمن السالك بين اتخاذ الزينة ظاهراً وباطناً، وبين الاعتدال في الطعام والشراب وعدم الإسراف فيهما يُعد في نظر ربّه محبوباً ومن المقربين.

وإشارة إلى هذه الحقيقة التي وضّحناها ورد وصف الله عزوجل المؤمنين الصادقين في الآية (٦٧) من سورة الفرقان بقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا، وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾. وإشارة إلى الحقيقة نفسها ذكرنا حلّ شأنه بما كان يدعو به رسله والذين آمنوا معهم دوماً بقوله تعالى : ﴿وَكَايَنَ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ. وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسِّنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وقد بطرح المسرفون سؤالاً ويقولون إننا نتمن أنعم الله عليهم وزادهم سعة في الرزق. ونحن نؤتي السائل والمحروم حقّه في أموالنا، وإذ نحن نبذخ ونسرف لا يكون بذخنا وإسرافنا بقصد التبذير والإسراف وإنما بقصد التمتع بما رزقنا الله من فضله. فهل يشملنا التحذير من الإسراف الذي تضمّنته الآيات التي أوردناها؟

وقد أخذ القرآن الكريم مثل هذا السؤال بعين اعتباره، وأجاب الله تعالى فيه على هذا السؤال في الآية (١٢) من سورة يونس بقوله عزوجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحُتْيِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَاتِمًا، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَانٌ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ، كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. علماً بأن الضّر معناه على حسب ما أورده أصحاب المعاجم: سوء الحال والشدة (محيط المحيط). وورد في الكلّيات: الضّر بالضمّ خاص بما في النفس كمرضٍ ومُزال. وعليه فإنّ الله عزوجلّ يجيب على السؤال الذي ذكرناه بأنّ من سيئات ومخاطر الإسراف على المُسرفين أن يمرضوا ويصابوا بالهزال نتيجة لإسرافهم في طعامهم وشرابهم وعدم تقيّدهم في ذلك كلّه بأسسٍ علمية.

فإذا مسّ مثل هؤلاء الضرّ الناتج عن الإسراف يدعوننا مهما اعتزاهم من مرض ومهما كانوا فيه من حال لتغاضي عن معصيتهم التي أبعدتهم عنا، يدعوننا لجنبهم.

وحين نكشف عنهم هذا الضرّ الذي ألمّ بهم، لا يترددون بل يعودون إلى سابق سيرتهم كأن لم يدعونا إلى ضرّ مسّهم. فإن تساءل أحدهم عن سبب هذا الضرّ وما آل إليه حالهم مع أنهم يتقون ربّهم ولا ينوون معصيته فيما يسرفون به من طعام وشراب فليعلموا أن لادخل للنّية في هذا الأمر على شاكلة القاضي لا يأخذ بعين اعتباره جهل المذنب بالقانون. والحقيقة هي ﴿كذلك زُيِّنَ للمُسْرِفينَ ما كانوا يعملون﴾. بمعنى أنّ الله تعالى لا يحاسب في مجال الإسراف عن النّيّات بل عن مخالفة النهج العلمي في السلوك ومعصية الله على هذا الصعيد. فقد زُيِّنَ للمُسْرِفينَ ما كانوا يعملونه دون سندٍ شرعيّ. ذلك أنّ للإسراف أخطاره الوخيمة على جميع صُعد الحياة ومنها صعيد أجساد المُسْرِفينَ.

وإلى هنا لابدّ أن يكون المؤمن السالك درب عرفان ربّه قد علم بأخطار الإسراف في الطعام والشراب واللباس وسواه من الأمور الحيّاتية، ولابدّ أن يكون قد أدرك أنّ الإسراف يدخل في باب الإفساد في الأرض. على اعتبار أن جذر الإسراف وجذر الفساد واحد وهو قطع ما أمر الله به أن يوصل. ولابدّ لهذا المؤمن السالك أن يكون قد أيقن أن إسرافه سيُبعده عن ربّه ويفقده وده ومحبّته ويحلب عليه كرهه وبغضه والويلات التي تنتظر المُسْرِفينَ. لذلك يحاول هذا المؤمن السالك الحذر كل الحذر من أخطار هذا الوباء الخطر على كيانه الروحاني والجسماني ومجتمعه واقتصاد بلده أينما كان. آخذاً بعين اعتباره الوعد الذي قطعه ربه على نفسه في الآية التاسعة من سورة الأنبياء بحق المؤمنين السالكين درب عرفانه والبعيدين عن الإسراف وعن معصيته تعالى بقوله عزّ وجلّ: ﴿ثم صدّقناهم الوعد، فآلجيناهم ومن نشاء، وأهلكنا المُسْرِفينَ﴾.

١٠. والله لا يحبّ الظالمين :

والصفة العاشرة والمذمومة في نظر الله عزوجلّ، والتي يكره تعالى أن يتصف بها عبده المؤمن السالك درب عرفانه والمجاهد للفوز بمحبّة ربه وكسب رضاه هي صفة الظلم، ذلك أنّ الله تعالى يقول ﴿والله لا يحبّ الظالمين﴾.

فماهي دلالة هذا اللفظ؟ الظلم اشتق من ظلم بمعنى وضع الشيء في غير موضعه. وهو اسمٌ من ظلم، ومصدره الظَلَم (معجم القاموس). ومعنى ظلم فلانٌ فلاناً أي جار عليه وانتقص من حقه. وظلم الأرض: حفرها في غير موضع حفرها. وظلم البعير: نحره من غير داء ولا علة. وكلّ ما عجلته عن أوانه فقد ظلمته. فإن قلت: ما ظلمك أن تفعل أي مامنعك أن تفعل. (محيط المحيط).

وقد يتساءل المرء: لماذا يظلم الإنسان أخاه في الإنسانية؟ والجواب يكمن في مرض الأنانية وحسب الذات وبشكلها المفرط البعيد عن الاعتدال. فالأناني لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه بسبب محبته ذاته أكثر من محبته سواه. فمن كان أنانياً ومحباً لذاته أكثر من محبته لسواه من الناس، تعميه أنانيته وتدفعه على طريق ظلم أخيه. أي تدفعه أنانيته لينقص من حقوق سواه ليضمّ ذلك إلى حقوقه ويظلم بذلك أخاه.

والأناني وهو على هذه الصورة من التعامل يتسبب في كره الناس إياه وبالتالي يجلب كره ربه إياه أيضاً ويخسر محبته وقربه ورضاه.

والظلم بمعنى الانتقاص من حقوق الآخرين يمثل أساساً عاطفة عنفٍ واغتصاب. على حين أن المحبة تمثل عاطفة سلام ومسالمة وأداة تعايش بين الأحباء. فلا يكون محباً حقيقياً من لا يضحّي بشيء ما في سبيل محبوبه. ويستحيل أن يتحابّ مسلم وأناني.

من هذا ندرك أن عاطفتي المحبة والظلم هما على طرفي نقيض تماماً. المحبة تحمل معها روح التعايش والسلام على حين يحمل الظلم روح العنف والاعتصاب لحقوق الآخرين. وعليه فلا سبيل للظالم ليكسب محبة ربه. بل على العكس من ذلك إنّ ظلم وأنانية هذا الشخص تجلب عليه كره خالقه وكره الذين ظلموا على يديه.

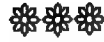
أمّا الإنسان المؤمن السالك درب عرفان ربه وتقوى الله وخشيته، والذي يحاسب نفسه على كل صغيرة وكبيرة تصدر عنه ولا ينقص حق أحد من الناس فهو الإنسان الذي أشار إليه البيان الإلهي في الآيات (١٣٨ - ١٤٠) من سورة آل عمران والتي قال تعالى فيها: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ. وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ

آمنوا، ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين. ﴿١٠٤﴾ أي أنه طالما دأب المؤمن السالك سبيل معرفتي وهو يطلب ودّي ومحبي ورضائي، وطالما تجنب انتقاص حق سواه من الناس فلم يظلم أحداً منهم وطالما وضع خشيتي وتقواي نصب عينيه. فهذا بيان إلهي أعلنه لكل مؤمن سالك ولكل إنسان ليكون هدى وموعظة للمتقين.

ففيه أعلن الله تعالى للناس جميعاً أنه يستحيل أن يفوز بمحبي وقربي إلا الإنسان المؤمن بما أقول والسالك درب عرفاني والذي يكون تقياً. وأتزوج بياني هذا إلى الذي يوقر بياني هذا ويعمل عليه. اعلم يا من استجبت لبياني وندائي أنت وكل مؤمن به أنكم أنتم الذين ستكونون الأعلين والفائزين بمحبي وقربي ورضائي، وستكون لكم وحدكم العاقبة الحميدة دنيا وآخرة، فلا يوهنكم ولا يحزنكم ما ابتليكم به وأمتحنكم وأصيبكم بقرح أي نقص في الأموال والأنفس والثمرات. فقد امتحنت وأصبت بهذا القرح أي بهذا النقص في الأموال والأنفس والثمرات هؤلاء الظالمين أيضاً الذين خسروا ودّي ومحبي وقربي ورضائي وساءت عاقبتهم دنيا وآخرة. ﴿١٠٥﴾ وتلك الأيام نداؤها بين الناس ﴿١٠٦﴾ فهذا قانون استنتته ليهمن على وجود الإنسان الذي خلقته، لأخص به الذي يؤمن بياني هذا يأخذ بهداي وموعظتي، ممن يكفر به ويستغرق في أنانيته وظلمه وانتقاصه من حقوق سواه من العباد.

والله عز وجل الذي أدلى بهذا البيان الإلهي الذي احتوى على هدى وموعظة للمتقين. وبألفاظ موجزة وبليغة. جاء بما يشرح هذا البيان بألفاظ أخرى في سورة (المؤمنون) التي استهلها بالكلام عن المؤمنين الفالحين. وقال في الآيات (٥٧ و ٦٢) منها: ﴿١٠٧﴾ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون. والذين هم بآيات ربهم يؤمنون. والذين هم بربهم لا يشركون. والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجة إنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون. ولا تكلفُ نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون. ﴿١٠٨﴾ أي أن قانون الابتلاء العام الذي نبهنا إليه في الآية (١٣٨) من سورة آل عمران، يضبط ذاك القانون ضابطان: الأول هو أننا لا نكلف نفساً إلا وسعها. والثاني أننا ألزمتنا كل إنسان طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً ينطق بالحق، ويكشف أعمال الإنسان التي عملها في دنياه، بالحق، أي بالعدل

والصّدق وهذا هو معنى "الحق". وإن هؤلاء الأنانيين الذين يظلمون سواهم من الناس ويتقصصون من حقوقهم، "لا يُظلمون" فيما سيلاحظونه مكتوباً في كتابهم الذي أحصى أعمالهم، لأننا لانعامل هؤلاء الظالمين بالموازين التي يعاملون بها إخوانهم من البشر أمثالهم بل إن ميزاننا هو الحق أي يتّصف بالصدق فيما سجّله وبالعدل في إصداره النتائج والأحكام التي يُصدرها ضدّهم.



الفصل الثاني كيف تفوز بمحبة الله تعالى ؟

أولاً - أن تتجنب الاتصاف بالصفات العشر المذمومة في كتاب الله وهي المختال الفخور والمعتدي والخوّان والأثيم والفَرِح والمفسد والخوّان والكفور والمسرف والظالم.

وهي الصفات التي حذّر القرآن الكريم المؤمن السالك سبيل عرفان ربه والطالب بالفوز بمحبّة خالقه ورضوانه، حذّره من أن يتصف بهذه الصفات المذمومة في نظر ربه عزوجل.

ثانياً - أن تتذكّر أنك ستمرّ بمراحل أربع للفوز بمحبة ربك وهي : الرغبة والأنس والودّ والمحبة. هذه الألفاظ التي أتى بها القرآن الكريم ليشير ويعبر بها عن مراحل العرفان الإلهي الذي يوصل المؤمن السالك إلى الفوز بمحبّة الله عزوجل .

ثالثاً - أن تعتمد إلى الذرائع التالية :

١ - تمثين القاعدة : إن أول هذه المراحل وهي مرحلة الرغبة إلى الله تعالى والوارد ذكرها في الآية (٩٠) من سورة الأنبياء، بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾. ومناسبة الكلام عن أنبياء بني اسرائيل. إنّ في ذكر هذه المرحلة إشارة إلى أنّ المؤمن السالك بعد إيمانه وبيعته يمرّ بمرحلة ضبابية تتراوح بين رغبةٍ للتعرف على الخالق، ورهبةٍ من جلال هذا الخالق. وبالإمكان إطلاق عبارة "قاعدة الانطلاق" أو "حالة التحفّز" على هذه المرحلة من العرفان الإلهي.

وكلمة القاعدة أو الحافز، استلهمتُها من قانون طبيعي يسود عمله كل الأصبدة. فلو أننا أمعنا نظرنا في بناء المجتمع، أيّ مجتمع، لاحظنا أنّه عبارة عن مجموعة من الأسر تكوّن منها هذا المجتمع المذكور. فإذا عُدنا إلى الأسرة الواحدة لاحظنا تكوّنهما من اجتماع ذكّر وأنثى وتوالدهما وتكاثرهما عن طريق الجماع.

وإذا ازددنا إمعان نظير نصل إلى وجود قاعدة أو حافز يشكل أساس عملية الجماع وثمارها، وهي هذه الشهوة الجنسية لدى الذكر والأنثى في آن واحد. فلو لا وجود هذه الشهوة وهذه القاعدة التي شكلت الحافز الطبيعي على اجتماع الذكر والأنثى، لاستحالت إمكانية الاستجابة لتشكيل أسرة وبالتالي لكان استحال تشكيل المجتمعات.

ثم إننا لو أمعنا نظرنا في علم الرياضيات نلاحظ أن نفس القانون يعمل على صعيده. فلا بد من إيجاد معادلات لحل أعقد المسائل الرياضية، وتشكل القاعدة والحافز على حلها.

وفي المتاجرة لابد من توفر رأسمال يشكل القاعدة والحافز على صعيد المتاجرة ومضاعفة الأموال.

المهم أن ملامح هذا القانون الطبيعي تراءى للباحث على صعد الحياة جميعها، وليس الذين يمتأى عن هذا القانون الطبيعي. هذا وإن مقام الرغبة الذي يعقب الإيمان والبيعة والذي صرح به الآية (٩٠) من سورة الأنبياء التي أوردناها، إنما يشكل هذه القاعدة وهذا الحافز للانطلاق منه على درب معرفة الخالق والتقرب منه والفوز بمحبته ورضوانه.

ودور الرغبة إلى الله على قدر فعاليته يشكل بمجموع ما يربته على هذا المؤمن المبايع من مسؤوليات، الأساس والقاعدة والحافز الذي يساعد هذا المؤمن على الانطلاق، انطلاقة صحيحة على درب العرفان الإلهي الطويل واللا نهائي.

وكما أن الشهوة الجنسية تثمر تشكيل أسرة ومجتمعات إنسانية. فإن مقام الرغبة ومسؤولياته لابد أن يعطي ثماره اليانعة التي أشارت إليها الآية (٩٦) من سورة مريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ أي ستثمر الفوز بؤد الله ومحبته. ذلك أن صفة الرحمن الواردة في هذه الآية الكريمة تفيد منبع العطاء والكرم والرحمة. وهذه الآية صيغت بأسلوب تصريف معانيها بمختلف الاتجاهات على حسب ما وضحت في حينه من شروح سابقة. فقد أتى تعالى في هذه الآية الكريمة بلام شبه التملك (لهم). وأتى بلفظ (ودًا) غير معرف أيضاً.

وعليه فإن مسؤولية القيام بالصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها من أشكال الذكر الإلهي تشكل وفقاً للقانون الطبيعي الذي ذكرناه القاعدة التي

ينطلق منها المؤمن على درب عرفان ربّه عزوجلّ. فمقام الرغبة يشكّل الحافظ على درب معرفة ربنا عز وجلّ. وبقدر تمتين هذه القاعدة وتأسيسها على خشية الله وتقواه ، يكون الإثمار أعظم وأكثر لذّة ومذاقاً.

فهذا المقام وهذه القاعدة والحافظ تشكّل الذريعة الأولى لجذب محبة الله ورضوانه وبالإمكان تسميته بذريعة الذكر الإلهي. وقد سبق لي أن شبّهت هذا المقام بدرجة طين على طين آخر، لا يتمازجان، بل تلتقط إحدى الكتلتين ذرات طين من جسم الكتلة الأخرى.

أو يشبه ما يصل إلى فم الإنسان من ذرات سكر متطايرة حين يصبّ محتويات كيس من السكر في كيس آخر سواه. وهذا المقام هو مقام مسؤوليات وعمل لا بدّ من الاستعانة بالصبر للثبات عليه لندرة ما يفيد من أثمار. ولذلك فإنّ الذّاكر لا يستشعر الصلة المطلوبة بربّه عزوجلّ. ولا بدّ له من أن يعمد إلى الأخذ بذرائع أخرى غير ذريعة الذكر بأشكاله المختلفة، لتكون له الوسيلة التي تساعده على جذب محبة وكسب قرب ربّه ورضوانه. والذريعة الثانية المساعدة على هذا الطريق، هي مرحلة الفكر والتدبّر لكلّ مانقوم به من ذكر إلهي.

٢- أن تعتاد التفكير وبنهج روعي : إن مرحلة ذريعة الذكر تضمنتها الآية (١٥٢) من سورة البقرة ﴿.. فاذكروني أذكركم..﴾ وكلمة (فاذكروني) أشارت إلى جميع أشكال الذكر الإلهي كما سلف أن بيّناه من صلاة وصيام وحجّ وزكاة وسواها من العبادات. وإن كلمة (أذكركم) نبّهت إلى ثمار هذه الأذكار المحدودة فلم يقل تعالى: فاذكروني أحبكم بل أذكركم وهي كلمة لا تفيد المحبة. بل التوجّه والتذكّر ليس إلّا.

وقد أضاف جل شأنه بعد هذه الآية مباشرة قوله: ﴿ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة، إنّ الله مع الصّابرين﴾. ليشير من خلال ذلك إلى الذريعة الثانية لكسب محبته وهي مرحلة التفكير فيما نقوم به من أشكال ذكر إلهي وأن ندّأوم على ذلك أيضاً. أمّا كيف استنبطت ذلك فأني على بيانه فيما بعد.

والذي أرغب ببيانه أولاً هو أنّه كما أنّ ذريعة مرحلة الذكر استندت إلى قانون طبيعي ذكرته في حينه. فإنّ مرحلة الفكر التي تشكّل الذريعة الثانية قد استندت إلى قانون طبيعي آخر هو أنّ لكلّ فعل ردّ فعل. أي أن كل شيء يترك

آثاره سلباً أو إيجاباً. وإنّ ذريعة الفكر التي تضمنتها الآية التي ذكرتها لها آثارها الإيجابية في أدمغة المؤمنين الذاكرين. ففي حين تُعدّ مسؤوليات الذكر الإلهي أداة تذكير، فإنّ عملية الفكر هي أيضاً عملية جراحية لدماع المؤمن الذاكر بشكل من الأشكال.

أعود إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. وأسأل: لماذا قال تعالى (استعينوا) ولم يقل (صابروا)، بعد أن قال: ﴿..فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾؟ خصوصاً وأن الصبر والصلاة ليسا بشيئين ماديين.

ورأيي هنا أن الله تعالى أراد بفعل (استعينوا) لفت ذهن المؤمن السالك إلى أنّ الذكر الإلهي كذريعة على درب العرفان يحتاج إلى دعمه بذريعة أخرى، وهي أن يداوم هذا المؤمن السالك على حمل المسؤوليات التي ترتبها على كاهله أشكال الذكر العديدة، وأن يركّز على جانب الفكر المأمور بالأخذ به في صلاته خاصة، ليكسبه ذلك قرب ربّه ومعينته، فالله مع الصابرين.

ودليلي على صحّة ما ذهبت إليه من معنى، هو أنّه جل شأنه جاء بقوله هذا استدراكاً منه لدلالة (فاذكروني أذكركم) التي لاتفيد إلا معنى التذكّر وليس المعية والصّحبة.

والأمر الثاني هو أنّ من المعروف أنّ الصلاة في حقيقتها هي ذكر إلهي ولقوله تعالى في سورة طه: ﴿اقم الصلاة للذكرى﴾. لذلك يُعدّ الإتياء بلفظ الصلاة هنا تنبيهاً منه جل شأنه إلى جانب الفكر المأمورين بالأخذ به في صلواتنا. هذا الشرط المطلوب لتصحّ صلواتنا والذي تضمنته الآية (٤٣) من سورة النساء حيث قال تعالى هناك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي حتى تزدادوا علماً بما يحمله ربكم من صفات وأسماء حسنى ودلالات لهذه الصفات والأسماء. ذلك أنّه كلّما ازداد علمكم بهذه الحقائق، ازدادت معرفتكم بربكم الذي تعبّدونه وبشكل طبيعي ووفقاً لقانون طبيعي مسنون من أن لكلّ فعل ردّة فعل وتأثيراً.

والله جل شأنه وقد أنهى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، ولم ينهها بقوله إن الله مع المصلين أو يجب الصابرين المصلين، لم يفعل ذلك دون حكمة ودلالة، بل إنه حين أتى بكلمة (مع) الدالة على الاجتماع والمصاحبة كما

ذكر ذلك صاحب محيط المحيط. أتى جل شأنه بكلمة (مع) هذه تنبيهاً إلى أن الذي يتفكر فيما يقرأه ويذكر به ربه في صلاته، إنما يفيد في تقريب هذا المؤمن من ذات ربه ومصاحبته على طريق السعي الدائب للتعرف إليه عز وجل. فإذا تعود المؤمن السالك درب عرفان ربه على التفكير فيما يقرأه ويسبح به ربه، تعود عادة التفكير هذه ذريعة ثانية لجذب محبة هذا الخلاق والفوز بقربه ورضوانه ويدخله الله تعالى في معيته ويشمله بمحبته.

وعلى هذه الصورة يكون الله جل شأنه قد جعل مرحلة الفكر هذه الذريعة الثانية التي تتلو ذريعة الذكر الإلهي للفوز بمحبة الله وعرفانه وقربه ورضاه أي أن هذا المؤمن السالك إذا جعل ذريعة الذكر قاعدة انطلاق على طريق العرفان الإلهي فعليه أن يجعل مرحلة التفكير في كل ما يذكر به ربه ذريعة ثانية على طريق العرفان الإلهي أيضاً. كيلا يبقى هذا الذاكر يردد قراءات وتساييح وأذكاراً كالبيغاء ولا يفكر فيما تضمنته من معارف ودلالات تفيده على درب العرفان الإلهي. ذلك أن الله تعالى لا يقصد من وراء تحميلنا مسؤوليات العبادات والذكر الإلهي، إنهاك أجسادنا وإتلاف أموالنا.

ولنما يهدف بها دفعنا للتفكير والبحث في كل جزئياتها ترويضاً منه تعالى لعقولنا، وتنمية منه تعالى للقوة المفكرة لدينا، لنقطع بذلك أشواطاً على درب معرفتنا لرَبِّنا بأسلوب علمي وعن قناعة ودراية وأسلوبٍ مثمر فعال. وإننا إذا رددت ألسنتنا المطلوب من قراءات وتساييح وحمد ربنا عز وجل بمثابة أوراد أذكار وبشكل تقليديّ دون الانتقال من ذلك إلى مرحلة الفكر هذه، فلا نعود نحنيّ كما نقرأه ونذكر ربنا به شيئاً من محبة ربنا عز وجل إلا بقدر ماتركه هذه من آثار هامشية لا قيمة لها، ولا تؤدي الغرض الذي أوجدت وفرضت علينا من أجل تحقيقه.

فالمؤمن الذي يذكر ربه بكلمات يرددها لمجرد التزديد. والذي يصلي ويقرأ ما يقرأه في صلاته من قراءات وأدعية وتساييح لمجرد التزديد. فإن انطوى على نفسه بعد ذلك يستشعر ما فعلته هذه القراءات والأذكار التقليدية في نفسه من آثار، فلا يحس أنها فعلت شيئاً مما أريد لها أن تفعله في فؤاده من زيادة في اليقين بوجود ربه وجذب لمحبة ربه وتوسيع في معرفة هذا الخالق الخلاق العظيم. بل لا يتحسس إلا شيئاً يسيراً جدلاً من ذلك ومُتصنعاً لأيجديه فتيلاً. أي أن هذه

الأذكار والتساييح التي تُردّد دون إعمال الفكر لا تُجدي إلّا عمليّة تذكير بالله الخالق ولذلك سُمّيت أذكّاراً.

وعليه فإنّ هذا الشرط الذي اشترطه الله عز وجل لصحّة صلاتنا من خلال قوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾، وهو شرط التفكير فيما نتلوه في صلواتنا من قراءات وتساييح، كان الغرض منه ألا نكتفي بمرحلة ذكر الله لجذب محبة الله وسيراً على درب عرفانه.

بل كان الغرض من هذا الشرط أن نستعين بذريعة أخرى هي ماسمّيها ذريعة الفكر والتي تسند وتدعم ذريعة الفكر على طريق العرفان الإلهي. فتوسّع ذريعة الفكر هذه مدارك الذّاكرين، وتصبغ تفكيرهم بصبغة روحية وتعوّدهم في حياتهم اليومية على التفكير بأسلوب روحاني، وليس التفكير بأسلوب ماديّ محض، لا يقربهم من الحقيقة شيئاً.

ألا إنّ الناس انقسموا إلى فريقين من البشر منذ بعثة آدم: فريق يحلّل الأمور والظواهر ويبحث ويفكر بأسلوب روحاني. والفريق الآخر يحلّل نفس الأمور والظواهر، ويبحث ويفكر إنّما بأسلوب ماديّ محض. هذه الحقيقة التي طالما لفت إليها أنظار القراء فيما كتبت وألفته. فما انقسموا إلى هذين الفريقين إلّا بداعي هذه الذريعة الفكرية التي تطلبتها الأديان من فئات المؤمنين.

فهذا كتاب الله القرآن الكريم إذا تدبرنا آياته الكريمة، نصل من خلال ماتضمنته إلى هذه الحقيقة التي ذكرناها. لذلك عودوا بأذهانكم إلى ما أورده الله تعالى عن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السّلام الذي قال الله تعالى بحقه في الآية (٦٨) من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ...﴾. والذي قال تعالى عنه أيضاً في سورة البقرة الآية (١٣٠): ﴿وَمَنْ يَرْغُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَاةٍ لِنَفْسِهِ...﴾.

أفلم يقل الله تعالى في سياق كلامه عن هذا النبي في الآيات (٧٤) وما بعدها من سورة الأنعام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْنَمُوا آلِهَةً، إِنِّي أَرَاكُمْ وَقَوْمَكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مُلْكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا، قَالَ هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا

أَفَلَا قَالَ لئن لم يهْدني رَبِّي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة، قال هذا رَبِّي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين؟ وهل يُعقل أن يأتي الله تعالى في وحيه العظيم بهذه المعلومات التاريخية مجرد الرواية إلا أن تكون له من ورائها مقاصد وحكم تنفع المؤمنين؟

ويكفي أن تكون من جملة مقاصد إنزال هذه الآيات الكريمة التذكير أولاً أن القوة الفكرية كانت نامية جداً لدى إبراهيم عليه السلام. وأن إبراهيم كان يفكر بأسلوب روحاني غير مادي ثانياً. وأن ذريعة الفكر هذه غرست في نفس إبراهيم اليقين الكامل بوجود خالقه ثالثاً لقوله تعالى عنه ﴿وَلْيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾. وأن إبراهيم انطلق في مجال تطوره الفكري هذا من فرضية أن يكون لهذا الكون خالق وليس من فرضية أن يكون هذا الكون قد أوجد نفسه بنفسه رابعاً. والله عز وجل إذ أضاف بعد ذلك قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، قد نبّه أذهاننا خامساً إلى أن طريق الفوز والعروج ونيل القرب والخطوة عند الله الخالق، إنما يكمن في هذا الأسلوب من التفكير الروحاني. وأن في هذا النمط من التفكير تجلّت عظمة حكمة الله عز وجل وواسع علمه أيضاً.

وليلاحظ القارئ معي جيّداً. أفلا يرى كيف أن مفكّري أوربة وأمريكا الذين اتّصف تفكيرهم بصفة التفكير المادي المحض، أنهم بلغوا شأواً كبيراً على مستوى الرقي المادي، هذا التقدّم الكبير الذي أحرزوه فيما أضافوه من علوم وإبداعات تقنية لا تُنكر عظمتها.

فهل أفاد أسلوب التفكير المادي أصحابه من هؤلاء في التوصل إلى معرفة الله الخالق والاستيقان بوجوده، وطلب وده ومحبته وعرفانه؟ هذا في الوقت الذي لاحظناه من خلال الآيات التي تلونها من أن إبراهيم عليه السلام، وهو الجد الأكبر لأنبياء شعوب أمريكا وأوربا، قد أيقن بوجود ربه وفاز بمحبته وقربه، وفي زمان لم يكن عصر إبراهيم عصر تقدّم علمي، بل كان عصر تحجّر عقليّ وجاهليّ. فلماذا يحدث هذا الفرق الكبير ما بين هذه الشعوب الأوربية وبين جدّ أنبيائهم إبراهيم عليه السلام. إلا أن يكمن سرّ ذلك في اختلاف نمطي تفكير هذين الفريقين من الناس؟

ثم إنَّ الذي ينظر إلى عظمة أمريكا المادية وإلى عظمة هيمنتها على عالم اليوم، وينظر بمنظار مادّي محض، يظنُّ أنَّ أسلوب التفكير المادي المحض الذي انتهجته شعوب أوربة وأمريكا هو الأسلوب الأمثل لتقدّم الإنسان ورقيه، على حين أنَّ تلك الشُّعوب انغمست من جرّاء هذا الأسلوب في التفكير وهذا التقدّم المادي الذي أحرزوه، أقول: إن شعوبهم انغمست في بلبال الحياة الدُّنيا والاستسلام للرغبات والميول والشهوات الجنسية وإلى درجة تناست معها أنَّ خالقها اقتضت مشيئته أن يحقّق على أيديهم مايساعد إمام هذا الزّمان على تيسير نشر تعاليم الإسلام ورفع راية توحيد الله في المستقبل القريب كما تبين لنا من الآيات الأواخر من سورة الكهف، وهو الأمر الذي تضمنه تفسيره لها في مؤلف " في ظلال دلالات سورة الكهف " .

أي أنَّ الذي يتدبّر حال أمريكا المعاصرة وبأسلوب التفكير الروحاني يصل إلى نتيجة هامة وهي أنَّ مشيئة الله الخالق اقتضت في عصرنا أن يحقق على أيديها أشياء وأشياء. وستثبت الأعوام القادمة صحّة هذه النتيجة الهامة التي توصل إليها من يتدبّر ويفكر بأسلوب تفكير روحاني.

وهكذا يتبين لنا أنَّ ذريعة الذّكر الإلهي بأشكاله العديدة لاتفي المؤمن السالك ولاتكفيه لبلوغ مرحلة اليقين بوجود ربّه ومعرفته وكسب محبته وقربه ورضاه. بل لابدّ له من الأخذ بذريعة الفكر، والتفكير بأسلوب روحاني. وإشارة إلى هذه الحقيقة خاطب الله تعالى المؤمنين في سورة المائدة وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ، فَكَفَّ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ.﴾.

وكانه جلّ شأنه قد قال للمؤمنين السالكين درب عرفانه ألاّ يكفوا بذريعة تذكّر نعمة الله عليهم. بل من واجبه الانتقال منها إلى ذريعة الفكر التي تشدّهم أكثر من ذريعة الذّكر إلى التعرّف على خالقهم والفوز بمحبّته. وتجزئة عملية هذه النعمة التي أنعمها الله عليكم إلى مكوناتها ودواعيها. فقد جمع عدوّكم يومها كلّ مالدیه من قوّة وعتاد وهدفه من ذلك مهاجمةكم والقضاء عليكم لإثبات صدق معتقده وكذب معتقداتكم. فلو أنَّ الله ترك هذا العدوّ يفلح فيما خطّط له وسعى إليه. لانتقلت الموازين ولانقلب الحقّ باطلاً. وقد تدخل ربّكم في الوقت المناسب وكف أيدي أعداءكم عنكم وفشل مخطّطه

الجهنمي. فإن تم تجاوز مرحلة الذكر إلى مرحلة الفكر هذه وفكرتم جيداً بالأوجه والأسباب التي استدعت نزول هذه النعمة الإلهية فستردادون معرفة ربكم وبما يتصف به من جلال وجمال. وتنشأ أنفسكم إلى طلب محبته أكثر فأكثر وتنالون بذلك قربة ورضاه.

وهو جل شأنه عندما أضاف قوله تعالى هنا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ نَبّه هؤلاء المؤمنين السالكين درب عرفانه إلى أنّه جل شأنه لا يقلل بذلك في أعينهم من منزلة ذريعة الذكر، بل يؤكد على ضرورة الأخذ بجميع أشكال ذكره تعالى بقوة تدعمها تقوى الله وخشيته. على اعتبار أنّ مرحلة الذكر هذه تشكل القاعدة والحافز والأساس على طريق العرفان الإلهي.

وهو جل شأنه وقد أنهى هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. فهو جل شأنه يكون قد نَبّه هؤلاء المؤمنين السالكين درب عرفانه إلى مسألة هامة وهي أنّ عملية التفكير هذه تحدث في أدمغتهم وبصورة من الصّور عملية جراحية يتولّد من جراحاتها الجذابهم إلى ربهم أكثر فأكثر، وينشدون بذلك ليتوكلوا على الله خالقهم وهاديهم سبيل معرفته، فيزدادوا يقيناً بوجوده وبنصرتة وتأيدته، ويترسّخ عندهم بالتالي أسلوب التفكير الروحاني.

وعليه فإنّ ذريعة الفكر هي أسمى من ذريعة الذكر، وإن كانت الأخيرة هي القاعدة والحافز والأساس للذريعة الفكر. ذلك أنّ في عملية ذكر الله تعالى شيئاً من المسؤولية والعناء، على حين أنّ عملية الفكر لاتصنع فيها ولاعناء ولاتمثيل، وهي عملية تُبرز الحقائق لتمثل هذه الحقائق أمام أعين المفكرين.

هذا، وإنّ أهمية ذريعة الفكر على درب العرفان الإلهي اقتضت منه تعالى أن يأتي بعشرات بل بمئات الآيات من كتابه العزيز بأسلوب الاستفهام تحريكاً منه جل شأنه لعقول البشر من عباده. فهو جل شأنه كان قد خاطب الإسرائيليين الذين اتخلّوا من حليهم عجلاً جسداً له خوار وعادوا بذلك إلى الشرك، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا، اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ الاعراف ١٤٨. وهو جلّ شأنه خاطب مشركي مكة الذين قاوموا

محمدًا ﷺ وقال لهم بصيغة الاستفهام تحريكاً منه جل شأنه للملكة الفكر لديهم وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكُمْ، وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ،

فأهلكناهم بذنوبهم، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴿٦﴾؟ الأنعام (٦). وهو جلّ شأنه مخاطب هؤلاء المتغطرسين من علماء أمريكا وأوربة الذين يعاصروننا بأسلوب الاستفهام قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وذلك في الآية (٣٠) من سورة الأنبياء، وقد أوردت هذا الأمر في النظرية القرآنية الكونية، وقال تعالى هناك: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففلقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حيّ، أفلا يؤمنون؟﴾.

ولا ينبغي للمؤمن السالك درب عرفان ربّه أن يظنّ أن ذريعتي الذكر والفكر تكفيان للفوز بحبة الله وعرفانه ورضوانه بل هناك ذرائع أخرى نصّ عليها هذا القرآن العظيم.

٣- الإحسان إلى الناس جميعاً دون تفریق : وبعد أن بيّني هذا المؤمن السالك درب عرفان ربّه قاعدة الذكر التي يترشّح من خلالها بحبة الله تعالى إياه. وبعد أن يعتاد استعمال ملكة فكره التي ميّزه بها ربه عمّن سواه من المخلوقات وأخذ عليه الميثاق ليكون من أولي الألباب. فيعتاد التفكير فيما يقرأه في صلواته ويتدبّر جزئيات وحكّم وفلسفات كل شيء يقرأه وتقع عليه عيناه عليه. وخاصة أسماء الله الحسنى كي تتجسّم لمخيلته عظمة الإله الذي يسعى إلى معرفته، ويعود يحلّل الأمور بفكر روحاني. أقول بعد أن يعمد هذا المؤمن للأخذ بذريعتي الذكر والفكر هاتين اللتين نصّ عليهما كتاب الله العزيز. من واجبه حينئذ أن يأخذ بذريعة الإحسان التي نبه ربنا إليها في الآية (١٣٤) من سورة آل عمران بقوله تعالى: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون. وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. الذين ينفقون في السراء والضراء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين.﴾.

هذه الآيات الكريمة التي وكأنه جلّ شأنه قال فيها بالفاظٍ أخرى أن أيّها المؤمنون السالكون درب التعرف إلىّ، والسّاعون للفوز بمحبتي ورضاي وقربي إن أنتم أطمعتموني ورسولي فيما أنزلته لهدايتكم وتطويركم من أوامر وتعاليم ومواعظ فبلغتم في ذلك حدّ التقوى في العمل على أوامري التي تشكّل قاعدة الانطلاق على درب التعرف إلىّ، وأصبحتم من أولي الألباب في ذلك. من واجبك حينئذ أن تستعينوا بذريعة الإحسان التي تتفاعل مع ذريعتي الذكر والفكر ليقذف الله بالتالي محبته في أفئدتكم على شاكلة ما يحدث لقلوب

المتحايين. ويسر الله تعالى نتيجة لذلك أشكال ضعفكم ويؤهلكم بذلك للفوز
بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

فإن تساءل عبدي المؤمن السالك عن معالم ذريعة الإحسان هذه فليعلم
أنها: أولاً إنفاق وإحسان إلى السائل والمحروم بمن خلقت في السراء والضراء.
ثانياً - وأن تكظموا غيظكم إن أغاظكم من يتعامل معكم. ثالثاً - وأن تأخذوا
بمبدأ العفو إذا اعتدى أحد عليكم. فإن عملتم على هذه الأمور كلها فلکم
البشرى فلا بد أن أحبكم وأقذف محبي في أفئدتكم والله يحب المحسنين.

والآن إن نحن تدبرنا في صياغة ودلالات هذه الآيات الكريمة، لاحظنا
أن الله عز وجل لم يخص الإحسان بمؤمن أو غير مؤمن بمن يأمرنا بالإحسان
إليه. بل جاء تعالى بأوامره هذه مطلقة غير مقيدة. أي أنه لم يفرق في موضوع
الإحسان بين دين ودين أو عرق ولون أو لغة وقوم. أي أن الإحسان ينبغي أن
يشمل جميع مخلوقات الله عز وجل.

كذلك فإننا إن نحن تدبرنا هذه الآيات الكريمة لاحظنا أن الله تعالى لم
يفرق في موضوع الإحسان بين غني وفقير، بل أوجه على فئة الفقراء أيضاً لقوله
تعالى: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾، ولا شك أن الله تعالى لا يكلف
نفساً إلا وسعها.

كذلك إن نحن تدبرنا هذه الآيات الكريمة لاحظنا أن الإحسان لا يكون
في المال وحده. بل يكون في سواه أيضاً فكظم الغيظ والعفو عن المسيء والكلمة
الطيبة جميعها أفعال تدخل في باب الإحسان في نظر ربنا عز وجل.

والآن إن نحن تناولنا كل فقرة من فقرات هذه الآيات الكريمة، فنتناول
قوله تعالى: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾. فالسراء والضراء تعني الرخاء
والشدة (محيط المحيط) أي أن المؤمنين السالكين ينفق أحدهم سواء أكان ميسوراً
في رخاء أو كان مُعسراً في شدة. فلماذا شمل أمر الإنفاق الفريقين معاً؟ أجيب
على هذا السؤال في الآية (٢٩) من سورة البقرة حيث قال تعالى هناك: ﴿هو
الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع
سموات وهو بكل شيء عليم﴾. أي أن لكل إنسان حقاً فيما خلق الله تعالى في
هذه الكرة الأرضية. وهذا مبدأ اشتراك الناس جميعاً في الفائدة المرجوة من كل
أشياء هذه الأرض. ويستحيل أن يتحقق هذا المبدأ الاشتراكي بدون تقنين

وتنظيم. هذا وإن ربنا نظم أمر هذا الاشتراك العام. وذلك في الآية (٢٤) من سورة المعارج التي قال تعالى فيها: ﴿الذين على صلاتهم دالّمون. والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم.﴾ أي أنّ للسائل والمحروم حقاً في مال كل إنسان آخر يمتلك مالا ومتاعاً. وعليه فمن واجب المؤمن السالك الانصياع إلى أمر الإنفاق في سرّائه وضرّائه.

وأنّ السائل له حق معلوم فيما يملكه كلّ مؤمن وأن المحروم من النطق حيواناً كان أم نباتاً له حق معلوم فيما يملك كلّ مؤمن أيضاً، أمّا كميّة الإنفاق المطلوبة، فأمرٌ حدّدته الأسوة العملية لسيد المرسلين محمد صلوات الله عليه.

ونتناول قوله تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ والكاظمين من كظم غيظه: ردّه وحبسه وأمسك على ما في نفسه منه على صفح أو غيظ. ولا يكون الغيظ إلا بوصول مكروه إلى المغتاض. (محيط المحيط) أي أن الإحسان لا يقتصر على الإنفاق في السراء والضراء، بل ويشمل حبس النفس وإمساكها عند التأذي ووصول مكروه من جانب شخص من الأشخاص. فالمؤمن السالك إذا ما أغاظه إنسان لا يثور على الذي أغاظه بل يكظم غيظه ليتعد بذلك عن حالة ردود الفعل التي تتملك المخلوقات الغريزية من جهة، وليثبت من جهة أخرى أنّه أقوى من أن يُغيظه سواه. وبهذا الموقف يُحسن إلى أن من أغاظه ويستحق الأجر من ربه على إحسانه.

وأضاف تعالى يقول: ﴿والعاقين عن الناس﴾ أي أنّ الإحسان لا يقتصر على الإنفاق بالمال ولا على كظم الغيظ، بل ويشمل العفو عن الناس المسيئين. وشيعة العفو هذه نابعة من ميل المؤمن السالك إلى السلام والمسالمة، نزولاً عند قول ربه في الآية (٣٤) من سورة فصلت: ﴿ومن أحسن قولاً لمن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين. ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا كل ذي حظٍ عظيم. وإما ينزغَنَّك من الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إنّهُ هو السميع العليم.﴾

وقد أنهى جل شأنه هذه الآيات الكريمة بقوله تعالى: ﴿والله يحب المحسنين.﴾ فما هي دلالة كلمه المحسنين؟ المحسنون على حسب ما أورده صاحب المعجم (محيط المحيط) من حَسُنَ أي جَمُلَ وأحسن معناه أتى بالحسن، وضدّه

أسماء. وأحسن الشيء: علمه. يقال فلان يحسن القراءة أي يعلمها. وأحسن إليه معناه أعطاه الحسنة. والحاسن اسم فاعل، يراد به معنى الحدث. فإن أريد معنى الثبوت قيل حسن من باب الصفة المشبهة باسم الفاعل. وعلى هذا يقال: هذا الأمر حاسنٌ عندي أن أفعله، وهو حسنٌ في الحقيقة. والحسن ضد السوإى، والعاقبة الحسنة والظفر والشهادة. والأسماء الحسنى صفات الله عزوجل وأسمائه. والحسن هو تناسب الأعضاء على حسب قول صاحب الكليات جمعه محاسن.

فإن نحن أخذنا هذه المعاني بعين اعتبارنا وعُدنا إلى قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. ندرك أنه تعالى ينبّه ذهن المؤمن السالك إذ يأمره الأخذ بذريعة الإحسان، إلى أنه تعالى يحبّ جميع من يُحسن إلى مخلوقاته دون تفريق بين دين ودين أو لون أو عرق ينتسبون إليه ولا تفريق بين إنسان وحيوان ونبات في مجال هذا الإحسان. فالإحسان ذريعة كسب محبة الله والفوز بقربه ورضاه لمن كان سالكاً درب عرفانه.

والله عزوجلّ إذ نبّه أذهان السالكين إلى ذريعة الإحسان هذه. يكون قد نبّههم إلى قانون طبيعيّ تقوم عليه هذه الوسيلة. وهو أنّ القلوب جبلت أصلاً على حبّ من أحسن إليها، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ والله الذي جبل قلوب عباده على هذه الجبلّة هو أوّل من يواجه الإحسان بالإحسان. ولذلك نلاحظ أن المُحسن إذا لاحظ عدم تجاوب المُحسن إليه بإحسان، يحتقره ويقول اتق شرّاً من أحسنت إليه.

وعليه فإن الله ربنا يكون قد نبّه المؤمنين السالكين إلى هذا القانون الطبيعيّ حينما قال: ﴿وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. ونبّههم إلى أنّه تعالى ينجذب إلى محبة عبده المحسن، على شاكلة ماتنجذب القلوب إلى حبّ من أحسن إليها. وبما أنه حدّد إطار الإحسان في عملية الإنفاق في السراء والضراء، وفي كظم الغيظ، وفي العفو عن المسيء، يكون بذلك قد وضع في أيدي عباده المؤمنين السالكين ذريعة ثالثة لجناب محبته وهي ذريعة الإحسان.

وقد راح جلّ شأنه في سورة الصافات (٧٥ — ٨٢) يعدّد الأمثلة التي يثبت منها أنّ الله يرّد من جانبه على الإحسان بإحسان منه ومحبة. فأعاد إلى ذاكرة المؤمن السالك إحسانه إلى نوح عليه السلام الذي عمل على ذريعة الإحسان هذه، وقال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾. ونبيّناه وأهله من

الكرب العظيم. وجعلنا ذريته هم الباقين. وتركنا عليه في الآخرين. سلام على نوح في العالمين. إنا كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين. ثم أغرقنا الآخرين. ﴿١٠٨﴾

كذلك ذكر جل شأنه المؤمن السالك بمثال إبراهيم عليه السلام في نفس سورة الصافات الآيات (١٠٨ - ١١٠) وقال: ﴿وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. ﴿١٠٩﴾

وذكر جل شأنه بمثال ثالث وهو مثال موسى وهارون عليهما السلام وقال في الآيات (١١٤-١٢٢) من نفس السورة: ﴿ولقد منّا على موسى وهارون. ونجّيناهما وقومهما من الكرب العظيم. ونصرناهم فكانوا همّ الغالبين. وآتيناهم الكتاب المستبين. وهديناهما الصراط المستقيم. وتركنا عليهما في الآخرين. سلام على موسى وهارون. إنا كذلك نجزي المحسنين. إنهما من عبادنا المؤمنين. ﴿١٢٣﴾

واتبع الله جل شأنه هذه الأمثلة الثلاثة بمثال رابع هو مثال النبي إلياس عليه السلام، وذلك في الآيات (١٢٩ - ١٣١) من سورة الصافات وقال: ﴿وإن إلياس لمن المرسلين.. وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إلياس. إنا كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين. ﴿١٣٢﴾

وهو جلّ شأنه وقد راح ينهي كل مثال من هذه الأمثلة الأربعة بقوله تعالى: ﴿إنّه من عبادنا المؤمنين﴾ فقد كان يقصد أنّ كلّ واحدٍ من هؤلاء المرسلين كان يؤمن بذريعة الإحسان. كذريعة تجذب محبة الله إلى المحسن وتزيده عرفاناً برّيه على وجه اليقين.

والمهمّ من هذه الأمثلة التي احتوتها سورة الصافات هو تذكير المؤمن السالك درب عرفان ربّه والطالب الفوز بمحبّته تعالى ورضوانه، أنّ ذريعة الإحسان هي إحدى الذرائع المهمّة والفعّالة على هذا الدرب الطويل. هذه الأمثلة التي يثبت منها أنّ إحسان المؤمن يلقى عند الله الاستحسان ويكافأ صاحبه بإحسان إلهي عظيم. فالله يحبّ المحسنين الذين متّوا قاعدة الذكر، وقطعوا أشواطاً من مرحلة الفكر، ويفكرون بتفكير روحاني ويحسبون للآخرة حسابها وكانوا من المتّقين.

وإن الله عز وجل إذ حثَّ على الإحسان كذريعة جذبٍ لمحبه. حذَّر في الوقت نفسه غير المحسنين من مغبة إهمالهم طريق الإحسان المذكور. حيث أنَّه تعالى قال في الآية (١٩٥) من سورة البقرة: ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْحَسَنِينَ﴾ أي أن من لا ينفق في سبيل جذب محبة ربه على السائل والمحروم، ولا يحسن تصرفه فيكظم غيظه ويعفو عن الناس، يكون كمن يلقي بنفسه إلى التهلكة ويكون أخيراً من جراء يخله وهضم حقوق السائل والمحروم من الخاسرين. بسبب أنه يفقد تأييد ربه له، ويخسر محبته، ذلك أن الله تعالى لا يكون إلا مع المحسنين.

والله عز وجل، حين نبه إلى أنَّ عدم الالتزام بمبدأ الإحسان هو بمثابة إلقاء لهذه النفس إلى التهلكة. ووضَّح حكمة قوله هذا وتنبيهه المذكور في الآية (٧٧) من سورة القصص وقال: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾. فوضح لهذا المؤمن السالك سبيل ربه ودرب عرفانه، أنَّ الإحجام عن مبدأ الإحسان المذكور ينتج عنه إفساد في الأرض، فمن أعرض عن الإنفاق في سبيل كسب رضى ربه وترك مبدأ كظم الغيظ والعفو عن الناس فكأنه ليبغى بموقفه هذا الفساد في الأرض، بسبب ماينتج عن هذا الإحجام من مفاسد لا تحمد عقباه.

ذلك أنَّ الله عز وجل سخر للناس مافي الأرض جميعاً، فأشرك في إحسانه إلى عباده كلَّ مخلوق منهم. وإنَّ مبدأ الإحسان أوجده الله تعالى وأمر به أصلاً لتوزيع ثروات الأرض إحساناً منه تعالى على هذه المخلوقات بشكل عادل يحقق المساواة بينهم فيما أحسن الله وفضل عليهم. فإن امتنع المؤمن السالك عن أداء ما عليه من حق إنفاق على السائل والمحروم، يتولد عن ذلك شعور بطبقيةٍ بحقيقة ظالمٍ وينتج عن هذا الشعور حقاً طبعياً في نفوس المظلومين وثورات وفساد في الأرض.

ولا يعني هذا الإحسان أن يحرم المؤمن نصيبه من الدنيا، بل ليأخذ نصيبه من الدنيا على شرط أن يتبغى فيما آتاه الله الدار الآخرة وأن يحسن وينفق ويكظم غيظه ويعفو كما أحسن الله تعالى إليه على ضعفه ونقائصه.

فإن أحجم هذا المؤمن عن العمل على مبدأ الإحسان المذكور، لا يعود طالباً عرفان ربّه ولا الفوز بمحبته ورضاه، بل يعود مفسداً في الأرض وإن الله لا يحبّ المفسدين.

هذا وإنّ هذه المواعظ جميعها، إذا تفهّمها هذا المؤمن السالك درب عرفان ربّه، تمنحه هذه المواعظ سعة أفق تساعد على إدراك سرّ افتتاح الله جلّ شأنه سورة لقمان بقوله تعالى ﴿ألم. تلك آيات الكتاب الحكيم. هدى ورحمة للمحسنين. الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.﴾ والأحرف (ألم) تعني أنا الله العليم. وأنى تعالى باسم الإشارة (تلك) بدل (هذه) هنا، تعظيماً لشأن آيات الكتاب الحكيم البالغ في العظمة والمتقن للأمور. ونبه من خلال قوله تعالى بحقّ آيات الكتاب الحكيم ﴿هدى ورحمة للمحسنين﴾ إلى أنّ الناس الذين انقسموا منذ بعثة آدم عليه السلام إلى فريق مؤمن محسن وفريق كافر مفسد في الأرض، لا يستفيد من هداية التعاليم العظيمة التي احتوت عليها آيات هذا الكتاب الحكيم إلاّ الفريق الذي يفكر بأسلوب روحاني. ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون﴾. وأكد جلّ شأنه على أن هذا الفريق يعملون ﴿على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾.

كذلك تساعد هذه المواعظ على إدراك حكمة كلامه جلّ شأنه الذي أعقب هذه الآيات التي افتتح بها سورة لقمان، حكمة قوله تعالى بعدها مباشرة: ﴿ومن الناس من يشري الحديث ليضلّ عن سبيل الله يغير علم ويتخذها هذواً، أولئك لهم عذابٌ مُّهِين، وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها، كأن في أذنيه وقراً، فبشره بعذابٍ أليم﴾.

فهو جلّ شأنه رح يتكلّم عن الفريق الذين لا يلتزمون بمبدأ الإحسان وعظّمته ويتسبّبون في الفساد الذي يحدث في الأرض فيصفهم بصفات من صميم حياتهم أنهم يتصنعون زخرف القول ويتاجرون بذلك عن سبيل الله الذي خلّقهم وأنزل هذا القرآن هدايتهم، يفعلون ذلك كله دون أن يستندوا في ذلك إلى علم يقين أو حجة وبرهان.

ولقد وضّح القرآن الكريم للمؤمن السالك ما بين ذريعتي الذكر والإحسان من علاقة ورابطة تربطهما على درب العرفان الإلهي. وهذه الرابطة

أتى الله جل شأنه على بيانها في الآية (١١٤) من سورة هود حيث قال هناك: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ. ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ. وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وكلمة طرف الواردة في هذه الآية الكريمة تعني حرف الشيء ونهايته والناحية والطائفة من الشيء. وكلمة زُلْفًا جمع زُلْفَة وهو الطائفة من الليل أو ساعات الليل الآخذة من النهار كما يحدث في فصل الشتاء. وساعات النهار الآخذة من الليل كما يحدث في أيام الصيف. (محيط المحيط). وقد جعل الله جل شأنه قوله ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ قرينة تنبه ذهن المؤمن الذَّاكِر ربه إلى العلاقة الكائنة ما بين ذريعة الذكر وذريعة الإحسان. وهو أنَّ التركيز على الدَّعاء في الأوقات المشار إليها ضروري جدًّا لدعم مايقدم هذا المؤمن الذَّاكِر عليه من إحسان.

فلايكفي الإحسان وحده فلا بدَّ من التَّدَلُّل والدَّعاء بين يدي الخالق يستجديه بحبته وقربه وعرفانه. ليس هذا وحسب، بل وأن يصبر هذا الذَّاكِر على هذا النهج ويثابر عليه منتظراً ظهور ثماره الروحية وموقناً أنَّ الله لا يُضِيع أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وموقناً أيضاً أنَّه بمثابة على الدَّعاء والإحسان، تذهبُ حسناته سيئاته، ويعود مع الأيام في نظر ربه من المحسنين. فيقذف الله عز وجل بحبته في فؤاده، على شاكلة ما يحدث في أفئدة العاشقين والمحبين. فهذه الحقيقة يوضِّحها جل شأنه لهؤلاء المؤمنين السالكين كذكرى للذَّاكِرِينَ.

وعلى هذه الصورة، فلا بدَّ للمؤمن السالك أن يأخذ بذريعة الإحسان التي ذكرناها ويعمل على مضمونها في حياته اليومية، ومثابراً في مجاهدته هذه للتعرف إلى خالقه وجذب محبته وكسب رضاه. خصوصاً وأنَّ ربه عز وجل قد بشره في الآية (٢٩) من سورة العنكبوت أنَّه سيهديه سبيله ويتولاه ويكون معه حيث قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

كذلك فإن الله تعالى بشر المحسنين بالحسنى والخلود في الجنة في الآية (٢٦) من سورة يونس حيث قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذُلٌّ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم إن الذي يتفحص أي الذكر الحكيم يتوضح له مال الإحسان من أهمية على درب العرفان الإلهي. فهناك آيات حددت للمحسن سبل إنفاق ماله للسائل والمحروم في ماله من حق معلوم. كآية (٦٠) من سورة التوبة التي قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. كذلك وضع ذلك في الآيات (٣٦-٣٧) من سورة النساء بقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا. الَّذِينَ يَخْلَوْنَ بِأَمْرٍ مِنَ النَّاسِ بِالْخُلُوعِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾. فالمقصود بما ملكت الأيمان هنا ما يكون تحت تصرف هذا الإنسان المؤمن السالك من خدم وأنعام ونبات. ثم إن المقصود بلفظ الكافرين هنا في هذه الآيات الفئة المنكرة لمبدأ الإحسان الذي طالبنا به كتاب الله العظيم وليس الكافرين إطلاقاً.

هذا وإن الذي يتفحص أي الذكر الحكيم أيضاً تراءى لعينه آيات وآيات بحثت موضوع الإحسان وألقت الضوء على أهميته. وبيّنت الجهات التي ينبغي على المحسن أن ينفق عليها. حتى وركزت الآيات الكريمة على ضرورة أن ينفق المحسن من ماله الحلال.

لأن يجني مالا بطريق غير مشروع وينفق منه. على اعتبار أن هذا أصبح من المال الخبيث المشبوه غير الحلال، فلا يُؤتي الإحسان من مثل هذا المال الخبيث ثماره الروحية المرجوة.

فهذا هو ما نبه إليه الله تعالى في الآية (٢٦٧) من سورة البقرة التي قال فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ، تَنْفَقُونَ وَلَسْتُمْ بِأَخَذِهِ، إِلَّا أَنْ تَغْمُضُوا فِيهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ. الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ، وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. أي أن الله تعالى لا يتقبل الإحسان من المال الخبيث الذي جُمع بطريق غير مشروع. بل يتقبل الإحسان والإنفاق من المال الطيب الحلال، شريطة ألا يتبع إحسانه من

وأذى، وشريطة أن يُحسن من المال الذي يحبه لنفسه، وليس من فضلات طعامه ومتاعه. هذا مانصت عليه الآية (٩٢) من سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

هذا وقد شبه ما يحدثه الإحسان من أثر في نفس المؤمن السالك المحسن بشراب كافوري وقال في سورة النهر: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَظْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتِلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا. إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا. إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا. عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا. يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا. وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لُوحَهُ اللَّهِ لَنُرِيدَ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾.

وهو جل شأنه قد أشار في هذه الآيات إلى الفريقين من الناس الفريق الحسن والفريق الكافر. عبداً للإحسان. وأن الفريق الحسن هو الفريق البارّ لخالقه والذي يفكر بأسلوب روحاني. فيشكر ربه دوماً على إحسانه إليه، ويشرب هؤلاء الأبرار من المؤمنين بإحسانهم إلى خلق الله تعالى من كأس كان مزاجها كافوراً. أي أنّ عملية إحسانهم هذه تُطفئ لواعج الشهوات في نفوسهم، وتُحمد بها شهواتهم الخبيثة ونار الحرص التي تدفع إلى تكديس المال أكداً. علماً بأنّ كلمة كافور قد اشتقت من الكفر. بمعنى التغطية والإخفاء للواعج الحياة والحرص والشهوات. وكأنّ الله تعالى نبّه بهذا التشبيه إلى أنّ عملية الإحسان تطهر باطن المحسن إلى خلق الله، وتُسري فيه الطمأنينة نبيه إلى مصيره وإلى حتمية فوزه بعرفان ربه ومحبه وقربه ووصاله. وإنّ هذه الحقيقة التي أشارت إليها هذه الألفاظ ستجلى حقيقة ماثلة لأعين المحسنين في الدار الآخرة، تتمثل لأعينهم ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾. أي أن ألفاظ هذه الآية الكريمة تناولت بالكلام سرّاً غامضاً من أسرار الجنة الموعودة ما بعد الموت. لذلك لا يدرك حقيقة ما أشارت إليه وتكلّمت عنه إلا فئة المؤمنين السالكين درب العرفان الإلهي والعاملين على ذريعة ووسيلة الإحسان التي أتينا على بيانها وتوضيح جوانبها. وعليه فإن هذه الآيات التي اقتبسناها من سورة النهر، قد

أنت على خلاصة جميع مايتعلق بذريعة مبدأ الإحسان ووسيلته، وبإعجاز بياني عديم المثال.

٤ . وعي الفطرة والكيان الروحي والمسار التوحيدي

مضينا في موضوع العرفان الإلهي فوضحنا ما يكره الله تعالى أن يتصف به عبده المؤمن السالك من صفات تبعده عنه وتُخسرهُ محبته. ونمضي نوضح الذرائع التي يمتدحها كتاب الله العزيز والتي تجذب محبة الله تعالى ورضوانه وقربه. هذه الذرائع التي تُعتبر في حقيقتها الغذاء الروحي المطلوب لرعاية وتنمية هذا الكيان الروحي الذي يكسبه المرء حين إيمانه وبيعته.

وقد أحطنا علماً حتى الآن بذرائع الذكر والفكر والإحسان، هذه الذرائع التي تفيد في تدرج هذا المولود الروحي من حالة الرغبة إلى لقاء وعرفان ربه، إلى الأُنس به ثم طلب ودّه ومحبته. وأتكلم الآن عن ذريعة رابعة أُسميتها ذريعة وعي المؤمن السالك لفطرته التي فطره الله تعالى عليها، ولحقيقة ولادة كيانه الروحي ومساره التوحيدي.

ذلك أن من العلوم والثابت علمياً أنّ جسد المرء كياناً وأعضاء وقوى، ذو أصل مادي، وأن القرآن الكريم نبّه أذهاننا إلى أنّ كياننا الجسدي هذا ماهو إلا عبارة عن وسيلة مرحلية لولادتنا الروحية التي سيمرّرها الخالق جلّ وعلا بعد الموت عبر حياة برزخية إلى يوم يبعثها بعثاً جديداً متشابهاً مع خلقنا المادي الحالي شكلاً وموضوعاً، إنما بمواصفات لا يعجزها النقص الحاصل في هذا العالم المادي المحدود والمقيد بقوانين تنظمه وتحدّد حركته أيضاً.

ومابعت الله عزوجل الأنبياء والمرسلين، وما أنزل الشرائع السماوية إلّا ليحدث هذا التطوّر النوعي عند الإنسان، فيخلقه خلقاً روحياً جديداً عن طريق تعريفه بوجود ربه ودفعه للإيمان به عزوجل وإلى بيعة مرسليه وتغليب كيانه الروحي الجديد بتعاليم ما أنزل من وحي سماوي يهدف إلى تحقيق هذه الغاية وهذا المقصد الأسمى، وهو أن يوهّل هذا المولود الروحي لمعرفة ربه وجذب محبته إليه والتقرّب منه والتمتع بمشاهدة حُسنه تعالى وإحسانه.

هذا، مع العلم أنني دلّلت حتى اللحظة على صدق ما وضّحته من هاتين الحقيقتين، ليس من أقوال زيد وعمرو من الناس، بل من آي الذكر الحكيم. أي من نصوص قرآنية لا تقبل المراجعة ولا التأويل.

وكما جهّز الله الخالق هذه النفس البشرية بالأجساد ذات الحواس للرؤية وسماع أصوات ماحولها، كذلك لا يقوم هذا الكيان الروحي بدون حواس من ماهيته تعينه على رؤية جمال ربّه والاستماع إلى كلامه. وإلى هذه الحقيقة جاءت الإشارة من خلال قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلَّ سَبِيلًا﴾ [الاسراء ٧٢] - وقوله تعالى في سورة طه (١٢٥): ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾. ذلك أنّ المقصود بالعمى في هذه الآيات الكريمة هو عمى الكيان الروحي وليس عمى هذا الكيان المادّي.

وقد أتى تعالى بدليل ضمني نطق به هذا الجهنمي للتدليل على ما ذكرته. فهذا اعتراف ضمنيّاً من خلال قوله ﴿وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ أنّه مات وعينه تبصران، ثمّ يثبت أنّ العمى الذي بُعث به هو عمى حاسة كيانه المبعوث به يوم القيامة.

ألا إنّ عيوننا الجسمانية تساعد على رؤية جمال الطبيعة المادية. وأذاننا تُشغفها الأصوات المنبعثة من كل مكان في هذا الكون. لكن عيوننا وأذاننا لا تساعد على رؤية الجمال الإلهي ولا على سماع الكلام الإلهي المقدّس. الأمر الذي يعني أنّه لا بدّ أن يهب خالقنا كياننا الروحي حواس ممائلة لتساعد على هذه الرؤية وهذا السّماع. أمّا الذين كفروا برسّله الله وكتبه، فمصيبرهم سيكون وفق قوله تعالى في الآية السادسة من سورة البقرة: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي أنّ أعمالهم ستؤدي إلى خلقهم خلقاً جديداً، وبحواس جديدة لكنّ هذه الحواسّ مختوم عليها بغشاوة كفرهم وسيكونون في حال من عذابٍ أليم.

وهذا كله يُلزم المؤمن السالك درب عرفان ربّه ضرورة وعيه لهاتين الحقيقتين: حقيقة فطرته التي فطره الله تعالى عليها، وحقيقة كيانه الروحي، يوجّهه إلى ذلك كتاب الله تعالى، ومن منظار علمي رصين. فإنّ تحقق لهذا المؤمن السالك وضوح رؤية على هذين الصّعيدين، ووضعها في عين اعتباره عند عمله على تعاليم ربّه، يكون قد أخذ بذريعة رابعة على الدّرب المؤدي إلى معرفة

ربه، ويجذب بهذا الوعي ووضوح الرؤية التي تحققت له محبة ربه إليه، ويفوز برضاه جل شأنه ونصرته وتأييده.

هذا وإن الذي يساعد هذا المؤمن على وعي الحقيقة الأولى أي الفطرة وما إليها، يساعده على ذلك ما وفقني ربي إليه من علوم احتواها مؤلف "نظرية جذور الأخلاق". هذا الكتاب الفريد في طرحه ومعلوماته وأدلته. والذي يطالعه بإمعان يكسبه ذلك وضوح رؤية في هذا السبيل. وقد انطلقت في جميع ما أدرجته في المؤلف المذكور، بما ذهب إليه قول ربنا في الآيات (٣٢-٢٩) من سورة الروم، قوله تعالى: ﴿يَلِ اتَّبِع الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ. مُنْيِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ.﴾

علماً بأن ما أورده كتب الأحاديث كالبخاري ومسلم وسواهما من أحاديث حول الفطرة البشرية، فلا تعدو تلك الأحاديث في بيانها التنبيه إلى الفطرة البشرية، لكنها لا تجدي في فهم حقيقة هذه الفطرة في شيء. فماذا يفهم من يقرأ: ﴿مَنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبْوَاهُ يُهَيِّدَانَهُ أَوْ يَنْصُرَانَهُ أَوْ يُمَجِّسَانَهُ.﴾ ماذا يفهم إلا التوجيه إلى وجود هذه الفطرة البشرية لأقل ولا أكثر.

أما الذي يطالع كتاب "نظرية جذور الأخلاق"، لابد أن تساعده معلوماته على تفهم هذه الفطرة وبأسلوب علمي.

والآن لنعد إلى الآيات من سورة الروم التي ذكرناها، نتدبرها بعناية ووفق أصول تفسير القرآن الكريم، لنرى ما احتوته هذه الآيات من معلومات تساعد على تفهم هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والتي لن يطرأ عليها في المستقبل أيّ تبديل.

وأبدأ أشرح معاني ألفاظ الآية على هدى ما بينه لنا أصحاب المعاجم من معان ومعلومات ودلالات. ذلك على اعتبار أن هذه الآيات أنزلها ربنا بلسان عربي مبين.

قال تعالى ﴿أَقِمَّ وَجْهَكَ﴾ فأقم من أقام بالمكان اتخذه وطناً دائماً. وأقام الشيء: أدامه. وأقام الصلاة: أدام فعلها. وأما (وجهك) فمن الوجه وهو أول ما يبدو للناظر من البدن ومنه العينان والأنف والفم. والوجه مُستقبل كل شيء ونفس الشيء. و (للدِّين) فالدين يعني الطاعة وجنساً من الانقياد والذل. يقال: دان له يدين ديناً: إذا انقاد وطاع وصاحب واللام الداخلة تفيد التمليك. أما (حنيفاً) أي غير منحرف (محيط المحيط). و (الفطرة) هي: الخلقة والجبلة المهيأة في الإنسان لقبول الدين (محيط المحيط). وقد ورد في مفردات الراغب: الفطرة هي الصفة التي يتصف بها كل موجود في أول زمان خلقته.

ونعود إلى تفسير ابن كثير لنلاحظ ما فهمه من هذه الآيات الكريمة قال: ﴿يقول تعالى فسدد وجهك، واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم التي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره..﴾ ج ٣ ص ٤٣٢.

وأوجه أنا إلى فهم هذه الآيات الكريمة على ضوء معاني مفرداتها السالفة الذكر وأقول: إن الله عز وجل نبه أذهاننا قبل هذه الآيات إلى هيئته على السماء والأرض، وإلى أنه سبق أن قرّر بعثنا من مرقدنا بعد موتنا أيضاً. كذلك نبه إلى أنّ حياتنا الدنيوية ماهي إلا مرحلة أولى على هذا الطريق. وانتهى من ذلك كله إلى القول: ﴿بل اتبع الدين ظلّموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدي من أضلّ الله وما لهم من ناصرين﴾. بمعنى أن الذين يكذبون رسولنا محمداً وما أنزل عليه يظلمونه ويظلمون أنفسهم في آن واحد، لقوله تعالى بحقهم (ظلموا) مبهماً تعالى الجهة الظالملة. فهؤلاء صدر عنهم هذا الظلم الشنيع بدافع ماذا؟ وأجاب على هذا السؤال الذي طرح نفسه وقال: إنّ ما وقع من جانبهم من ظلم لم يستند إلى وحي من الله، ولا على أساس من علم، بل اتبعوا.. أهواءهم بغير علم، وماداموا قد اختاروا طريق الضلالة المذكور فقد تركتهم يضلون، ولن يجدوا من دوني من يهديهم سبيل الحق إلا أن يعودوا عن اتباع أهوائهم ومحاوروا بأسلوب علمي. وإنهم ما لهم من ناصرين من دوني أيضاً.

فلما انتهى حلّ شأنه من ذلك، قال مخاطباً رسوله محمداً ﷺ والذين اتبعوه ولم يقصر خطابه على رسوله الكريم بدليل أنه لم يأت بذكر اسمه وأطلق

خطابه وقال: ﴿فَاقم وجهك للدين حنيفاً﴾. وهذه الألفاظ تحمل أمراً موجّهاً إليهم جميعهم، لكنّه جلّ شأنه أتى بأمره هذا بصيغة ضمير المفرد تبييناً للذين المؤمن السالك درب عرفان ربّه وبعد أن آمن وبايع أن يداوم على طاعة تعاليم هذا الدين الذي انقاد له، وأن لا ينحرف عنه قيد أنملة. أن يُداوم بشكل تأخذ تعاليم هذا الدين منه كلّ مشاعره واهتماماته. ذلك أنّه تعالى لم يستعمل لفظ (وجهك) هنا بمعناه المادي بقريّة أنّ الدّين وتعاليمه ليست بشيء مادي. بل بمعناه الذي ذكرته ليمنّكه اهتمامه الدائب وطاعته المستمرة والثبات على هذا الأمر والصبر عليه من التمتع أخيراً بثمار الدين المرجوة من الالتزام بما جاء به من تعاليم وأوامر إلهية ومواعظ.

ثم إنّ الله عزوجلّ شاء أن يستدرك فلا يدع مجالاً للظنّ بأنّ في أمره هذا استبعاداً لهذا المؤمن السالك لا مبرّر له ومظهراً من مظاهر الدكتاتورية. فاستدرك جلّ شأنه وقدّم حيثيات ومبررات أمره المذكور ليذكر هذا المؤمن من وراء ذلك أنّ العمل على أمر ربه فيه فائده وزيادة علمه، لذلك أضاف قائلاً: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله...﴾.

فالله عزوجلّ أتى في أمره بلام التملك في كلمة (للدين) تشديداً على ضرورة الالتزام بأمره والعمل بكلّ توجه على تعاليم هذا الدين الإسلامي. ثم ألحق بهذا اللفظ كلمة (حنيفاً) للتنبيه إلى ضرورة اليقظة المستمرة في حياته كيلا يحرفه عن هذا الصراط أيّ تشييع إلى جهةٍ ما وأي تمذهبٍ على قول ورأيٍ ما وأي انحراف وانخراط في مسلّكٍ سياسي. بل أن يظلّ يقظاً (حنيفاً) لا يميل عن طلب عرفان ربه وكسب محبته ورضاه وقربه ووصاله. وقال منبّهاً أيضاً إلى أنه إذا أراد أن يصون نفسه عن الانحراف عن هذا الدّرب فليعلم أنّ تعاليم هذا الدين قد صدرت على أساس ملاءمتها لأرضية فطرته التي فطر الله الناس عليها، والتي لن يطرأ في المستقبل عليها أيّ تبديل في هذا الخلق، وهو جلّ شأنه بقوله ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾. قد شاء أن يثبت أنّ أمره الصادر إلى هذا المؤمن السالك قد قام على علمٍ حقيقي، وليس اتباعاً لهوى. بمعنى أنه ليس بأمر دكتاتور يستعبد المؤمنين.

ولنلاحظ أنّه جلّ شأنه أتى هنا بلفظ (فطر) ولم يأت بلفظ (خلق). وإنّ وراء ذلك حكمةً بالغة. فانت تقول فطر الشيء. بمعنى شقّه وأخرج ما فيه.

وفطر الناس خلقهم وابتدعهم (محيط المحيط). وهو جل شأنه بإيتائه لفظ (فطر) يكون قد أشار ونبه إلى أنه عندما شاء الله خلق الناس من هذه المادة الكونية لتحقيق هذا المقصد، شق هذه الذرة المادية وشكل من قواها، هذه الفطرة البشرية التي تُعرف أنها مجموعة قوى هذا الإنسان الباطنة أو صفاته الطبيعية التي يتصف بها كالشجاعة والكرم وما إلى ذلك من صفات، ليشكل بهذه القوى والصفات أرضية الأعمال التي سيقوم بها هذا المخلوق شراً كان أو خيراً.

أي أن الله عز وجل راح يبرر أمره الصادر إلى عبده المؤمن السالك درب عرفان ربه، بأسلوب علمي مُدهش أورده ببلاغة كلامية مابعداها بلاغة. ليحثه على البحث العلمي، وللتوصل إلى وعي فطرته هذه وعياً علمياً يتسم بوضوح رؤية علمية أيضاً.

وكان الله تعالى إذ أتى بلفظ (فطر) هنا قد ردّ على الذين يزعمون أن الله تعالى يخلق الجنين ومن ثم يلقي فيه روحاً من خارجه. فهو تعالى ينبّه إلى أن قوى النفس البشرية المسماة (فطرة) قد أتى جل شأنه بها بتركيبة معقدة من القوى الست التي تحتوي عليها الذرة المستندة في وجودها إلى هذه الجهات الست أيضاً. وهو الأمر الذي أتيت على تفصيله في نظرية جذور الأخلاق.

وقد نبّه جل شأنه العلماء أيضاً في الوقت نفسه ومن خلال قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾ نبيههم إلى أنهم عندما يسلّمون بالتركيب الذري الذي يستحيل أن يتبدل، يعترفون من خلال ذلك بصدق قوله تعالى ﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾ ومن حيث لا يشعرون.

فلما انتهى الله جلّ شأنه من تقديم المبررات العلمية لأمره ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ الذي أصدره إلى هذا المؤمن السالك درب عرفانه أضاف قائلاً: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾. فأتى باسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ ولم يقل هذا الدين القيم، بل ذلك الدين القيم. تنبيهاً إلى عظمة تعاليم هذا الدين الذي أتى به محمد ﷺ، هذه التعاليم التي استندت إلى هذه الأرضية التي فطر الله الناس عليها والتي لن يطرأ عليها أي تبدل أو تغير مهما امتدّ الزمان وتغيرت الأحوال. أي أن ملازمة التعاليم الإسلامية للفطرة البشرية أكسبتها دوامها على مرّ الزمن. وقد حققت هذه الملازمة لتعاليم الإسلام مكانة وعظمة لاتعلو عليها عظمة أي تعليم آخر قد أتى به رسول من رسل الله قبل بعث محمد الصادق الأمين ﷺ.

وهو جلّ شأنه عندما وصف دين الإسلام بالقيّم في هذا المقام. من القيّم على الأمر متولّيه (محيط المحيط) قد أضاف معلومة جديدة لهذا المؤمن السّالك، وهو أنّه جلّ شأنه أشار إلى مقاله في الآية السابعة من سورة الشمس: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا.﴾. هذه الآيات الكريمة التي وضّحت أنّ النفس البشرية أو الفطرة هي مجرد أرضية لخلق روعي جديد.

والذي يلتزم بأوامر الخلق العظيم لتبدو بلباسها الجديد متناسبة مع ما يحمله خالقها ومبدعها من أسماء وصفات. فتعاليم هذا الدين هي القيّم أي المتولّي أمر تطوير هذه الفطرة البشرية بهذا الخلق الجديد. هذا وقد عرف جلّ شأنه لفظ القيّم بالألف واللام ليشير بذلك إلى معهود ذهني، وهو أن جميع ما أنزله الله تعالى من شرائع سابقة، إنما كانت تنقل البشر خطوة بعد خطوة لتعبّد الأنفس لتلقّي هذا الدين القيّم العظيم. ووفق ما أنبأت به تلك الأديان الغابرة على حينه.

وقد أضاف جلّ شأنه بعد ذلك يقول: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مؤكداً صفة العلمية التي تمتعت بها تعاليم الإسلام، التي تجهلها أكثرية الناس وتبتعد بذلك عن هذا الفهم العظيم.

فلما انتهى الله جلّ شأنه من جميع ما ذكرناه، أضاف يقول موضحاً مضمون أمره الذي أصدره إلى هذا الرسول والذين آمنوا معه وقال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ، وَاتَّقُوهُ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.﴾ فأتى بصيغة الجمع (مُنِيبِينَ) ليؤكد أنّ أمره الذي أصدره وهو (فأقم وجهك) لم يكن المقصود به رسول الله وحسب بل ويشمل جميع المؤمنين السالكين درب عرفان ربهم أيضاً.

وراح تعالى يشرح مضمون أمره ويقول ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ من ناب إلى الله بمعنى تاب. أي أنّ على هؤلاء المؤمنين المبايعين أن يتوبوا عمّا سلف قبل بيعتهم هذه، وأن يلتزموا بنهج التقوى الذي أتى به القرآن الكريم وهذه هي دلالة (واتّقوه). ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أن ذكر ربكم الذي تمثله الصلاة الإسلامية وقراءاتها وأدعيّتها وتساييحها، هي عماد هذا الدين الإسلامي، فالتزموا بالمداومة على هذه الوسيلة الأساس لرفقكم الروحي. ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي احذروا أسلوب التفكير المادّي الذي اتصف به من كان من

المشركين وفكروا خلال مسيرتكم الإيمانية هذه بأسلوب التفكير الروحاني النابع من الإيمان بوجود خالق كل شيء والذي له الأسماء الحسنى. وهو جلّ شأنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ راح يضيف إليه معنى أوسع حين أضاف يقول: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فهو تعالى نبّه الأذهان من خلال هذه الإضافة إلى أنّ من يفكر بأسلوب ماديّ، مهملاً التفكير بأسلوب روحاني، سيؤدي انحرافه هذا إلى التّسبب بفرقة أتباع هذا الدّين وانقسامهم إلى شيع وأحزاب، كلّ حزب بما لديهم فرحون. ويخسر بذلك العمل بأمر ربّه ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ ويخسر بالتالي روح التوحيد التي حملته إليها تعاليم الإسلام، ولا يعود من طلاب معرفة الله الذي خلقه، ولا من السّاعين إلى كسب محبته ونصرته وقربه ورضوانه.

وبإمكانني الآن تلخيص مافهمته من هذه الآيات من سورة الروم بالتالي: أولاً - أنّ هذه الآيات أرشدت المؤمنين السالكين الالتزام بطاعة أوامر ربهم وطلب عرفانه مادام لهم في هذه الحياة الدنيا من نصيب. على أنّ يتملك هذا الدّين والعمل على تعاليمه كلّ اهتماماتهم ومشاعرهم مادامت قلوبهم تنبض بالحياة.

ثانياً - كما أرشدت هذه الآيات المؤمنين إلى أنّ مافطروا عليه من قوى وميول وعواطف، كان لها أصل ماديّ، ولم تأت من خارج هذا الكون الماديّ لذلك عليهم سلوك سبيل البحث العلمي.

ثالثاً - ونبهت وأرشدت هذه الآيات إلى حقيقة استمرارية العمل بتعاليم الإسلام على مرّ الزمان من منطلق ملاءمتها للفطرة البشرية التي لن يطرأ عليها أيّ تبديل مهما طال الزّمان.

رابعاً - كما نبهت هذه الآيات إلى أنّ تطوير الفطرة البشرية لا يتحقق إلا عن طريق الأخذ بتعاليم هذا الدّين القيم والمتولي القيام بهذه المهمة الجليلة القدر.

خامساً - وأن التزام المؤمن بالعمل على تعاليم الإسلام يحقّق لصالحه خلقاً روحياً جديداً وبحواس جديدة تؤهله للحياة الخالدة التي خلقه الله تعالى من أجل الفوز بها، ليتمتع برؤية جمال ربّه وسماع كلامه.

سادساً - وأن نهج التقوى الذي أتت به تعاليم الإسلام هو السبيل إلى تحقيق هذا الأمل الكبير.

سابعاً - وأن الصلاة الإسلامية هي عماد تعاليم هذا الدين الإسلامي الذي جعله الله تعالى قيماً على تطوير الفطرة البشرية. ثامناً - وأن الله ورسوله يبرآن ممن يفكرون بأسلوب التفكير المادي، والذين يكونون بذلك من المشركين الذين يفرقون دينهم شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون.

فهذه هي خلاصة مافهمته من آيات سورة الروم المذكورة، والتي لاحظنا سطحية وحرقيته مافهمه منها ابن كثير علي حسب ما أورده من تفسيره من أقوال منسوبة إليه. ولأدرك هذه الأمور للأبوعي حقيقة الفطرة البشرية المشروحة في نظرية جذور الأخلاق. هذا وإن جميع ما أتكلّم عنه في باب العرفان الإلهي من هذا الكتاب إنما يتعلّق بالحقيقة الثانية وهي كيفية رعاية وتطوير هذا الكيان الروحي الذي اكتسبه المؤمن عن طريق إيمانه وبيعته. هذا وإن من يعي هاتين الحقيقتين يكون قد أخذ بالذريعة الرابعة التي تساعد على جذب محبة ربه وعرفانه والفوز بنصرته وتأييده والحصول على قربه ورضوانه.

قلت إنّ الذريعة الرابعة التي تجذب محبة الله هي وعي هذا المؤمن السالك لحقيقة فطرته وحقيقة كيانه الروحي، وفقاً لمضمون الآيات التي ذكرتها من سورة الروم. وأضيف هنا أنّ هذه الآيات طالبت ونبّهت كذلك إلى ضرورة وعي المسار التوحيدي المطلوب من المؤمنين الموحّدين.

وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ، وَاتَّقُوهُ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾. فإن غفل هذا المؤمن عن وعي معالم التوحيد، زلت قدماء نحو هاوية الشرك بالله والتفرّق عن سبيله. ولا يقصد بالشرك هنا الشرك الجليّ كعبادة الأصنام وغيرها، بل جاء التحذير في هاتين الآيتين الكريميتين من الشرك الخفيّ الذي تكلمت عنه في حينه. فهو المقصود من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

هذا وإنّ خفاء هذا النوع من الشرك، وخطورته، إشفاقاً من الله تعالى ورحمة بعباده المؤمنين السالكين، دعتهم لتعليمهم دعاء سورة الفاتحة وألزمهم

بتلاوتها في كل ركعة من ركعات صلواتهم المفروضة عليهم، واشتملت الفاتحة على مشاعل منيرة تنير لهم معالم هذا المسار التوحيدي. وعلى صورة تبدو إعجازية صياغة ومضموناً. وقد فعل ربنا ذلك على شاكلة ماتفعله شركات الكهرباء تغرس على طول الطريق أعمدة على رؤوسها مصابيح مضيئة تنير لهؤلاء المارة طريقهم ليصلوا بذلك إلى هدفهم المقصود سالمين. وإن المؤمن الذي لا يهتدي بهدي هذه المعالم والمنارات التي تضمنتها سورة الفاتحة، يسقط نتيجة لذلك في مطبات الشرك الخفي وينحرف بذلك عن الصراط المستقيم، ويكون ﴿من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾.

ولا يعود يملك ناصية التفكير الروحاني، وتنقطع صلته بربه ولا يعود له من ناصرين. هذا وإن الآية (١٠٥) من سورة يوسف التي أتيت على شرحها في حينه، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. تدور حول بيان هذا الشرك الخفي الذي حذرت منه آيات سورة الروم التي ذكرناها.

وبشوق بالغ من هذا المؤمن السالك يسأل ليتعرف على هذه المعالم والمنارات التي أشعلها الله عز وجل من أجل توطيد أقدام هؤلاء المؤمنين السالكين وتثبيتها على صراطه المستقيم، والتي تضمنتها هذه الآيات السبع من سورة الفاتحة أم الكتاب المبين.

وأساعد هذا المؤمن السالك بما فتحه الله عز وجل علي من هذه المعالم والمنارات، ووفقاً لأصول التفسير فأقول: من المعلوم أن من أسماء سورة الفاتحة "أم الكتاب" و "فاتحة الكتاب" لتنبيهنا إلى أنها مقدمة للقرآن العظيم. لذلك فلا بد للذي يتدبر القرآن الكريم أن يرجع إلى آيات هذه الفاتحة يستهديها هذا المفتاح وهذه المعالم والمنارات. من منطلق أن هذا البحر القرآني على سعته، وكأنه قد ضُفِط وحُصر في كوب صغير، هو آيات سورة الفاتحة. فقد ألفت هذه السورة وبإيجاز معجز الضوء على موضوع خلق هذا الإنسان، وعلى علاقته بخالقه، ووضحت المقصد من خلق الإنسان، كما وضحت علاقته بخالقه من

حيث أنّ هذه العلاقة تدور حول فضل الله ورحمته، كذلك بحثت سورة الفاتحة جميع الأمور المتعلقة بالذات الإنسانية بشكل معجز أيضاً. لذلك سُميت سورة الفاتحة ضمن آيات القرآن الكريم "بالسبع المثاني" تأكيداً منه جلّ شأنه للحقيقة التي ذكرتها وعلى اعتبارها المرجع المتكرر لهذا الكتاب العزيز.

أتناول أول ماأتناوله البسملة أي بسم الله الرحمن الرحيم. هذه البسملة التي جعلت في حدّ ذاتها مفتاحاً لسورة الفاتحة نفسها ولكلّ سورة من سور القرآن الكريم وأصل من أصول تفسيره فقد ابتدأت البسملة بحرف الباء كحرف ذي معنى، وليس كحرف هجاء لدخول هذه الباء على آلة الفعل وهو اسم الله عزوجل. ليكون التقدير أبداً مُستعينا باسم الله ومعنى الاستعانة. كذلك التقدير أبداً ملتزماً بمسار التوحيد الذي أتى به الإسلام ومعنى المصاحبة والالتزام.

وتلاحظون أنّ هذه الباء في "بسم الله" حملت لنا أول معلّم ومشعل على مسار التوحيد. الأمر الذي يُستنتج منه أنّ الذي يعصي ربّه، ويُسمل حين يشرب الخمر مثلاً، يتناقض فعله مع دلالة باء البسملة، ذلك أن المصاحبة والمعصية لايجتمعان ولايتجانسان.

وكأنّ الله عزوجل حين علمنا أن نبدأ بالبسملة، يكون قد نبّهنا إلى أنه لايجزى للعاصي أن يستعين بالله على معصية ربّه وعلى ارتكاب أي نوع من أنواع الشرّ التي تخالف مسار التوحيد الذي أتى به الإسلام. وكأنّ الله تعالى نبّه ذهن المؤمن السالك من خلال هذه الباء إلى أنّه تعالى لايقبّل دُعاء من لا يكون بارّاً مع ربّه ولايكون بعيداً عن ارتكاب الفواحش والآثام.

فهذا هو أول معلّم لبسم الله الرحمن الرحيم. والمعلّم الثاني أو المنارة الثانية يستنبط من أداة الفعل (بسم). فالاستعانة بالله ومعرفته لانتحقق عن طريق الذات الإلهية، بل عن طريق أسماء الله الحسنى وصفاته. يؤيد ذلك قول الله تعالى في الآية (١٨٠) من سورة الأعراف: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ، سَيُجْزَوْنَ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقد أضاف لنا الله جلّ شأنه معلماً ثالثاً حين أضاف صفتي الرحمن الرحيم على (بسم) وقال (بسم الله الرحمن الرحيم). وهو أنّ من يزعم أنّ القوة الباطنة عند الإنسان هي جزء الذات الإلهية، فهو مُخطيء، فالذات الإلهية منفصلة

عن وجود الإنسان، وتتصف بصفتين أساسيتين هما (الرحمن الرحيم). على حين لا يتصف هذا الإنسان من حيث فطرته بهاتين الصفتين العظيمتين.

والمعلم الرابع الذي تضمنته البسملة هو تنبيه أذهاننا إلى أنّ الله تعالى هو مسبب الأسباب في عالمنا الدنيوي لذلك يستعين به المؤمن في المآزق ولتعويض ضعف جبلته. أي أنّ هذا العالم يسير وفق مشيئة الله عزوجل، ولايسير من نفسه على حسب ماينذهب إليه الطبيعيون.

ثم إنّ تركيز البسملة على لفظ الجلالة (الله) جل جلاله أضافت للمؤمن السالك معلماً خامساً وهو أنّ هذا الاسم ذاتي وجامد لايصح اشتقاقه من لاه يلوه. فالله اسم هذه الذات المقدسة الأزلي الأبدى الحي القيوم المالك الخالق ورب العالمين.

والمعلم أو المنارة السادسة التي نصبت لنا عن طريق بسم الله الرحمن الرحيم هو أنّ صفة الرحمن صيغت على وزن فعّالان الدال على الامتلاء والغلبة، لنقول أننا علّمنا أن ندعو الله مالك الرحمة الواسعة التي يشمل فيضها كل شيء في هذا الوجود، دونما مبادلة معنا أو استحقاق لعلّنا وفعلنا.

كذلك فقد صيغت صفة الرحيم على وزن فعّالان على التكرار والاستحقاق وفقاً للسلوك، الأمر الذي يضيف معلماً ومنارة سابعة على مسار توحيد الله عزوجل، لتشير هذه الصفة إلى أن الله الرحيم الذي نعبد ونسعى إلى معرفته يجزي المستحقّ جزاءً مكرراً وحسنًا ويتكرّر هذا العطاء على مرّ الزمان. أي أنّه في حين تتّصف صفة الرحمن بالعمومية والشمولية، فإنّ صفة الرحيمية يختصّ عطاؤها بالمؤمنين السالكين خاصّة، فهذا هو ماوضّحه لنا العلامة اللغوي أبو علي الفارسي.

وأهمّ معلّم ومنارة أتت بها البسملة كمنارة ثامنة لتقي المؤمن السالك من الوقوع في الشّرك الخفي يبدو من خلال التأكيد على ضرورة قراءتها قبل شروعه بأي فعل من أفعاله ولو كان طعاماً أو شراباً، لنظّل نحن المؤمنين واعيّين لجميع المعالم والمنارات والمعاني والدلالات التي تضمنتها البسملة ومن خلال قولنا: بسم الله الرحمن الرحيم. فكّم هو واسع علم وقدرات هذا الإله الذي آمنا به ونحاول التعرّف إليه، الله الذي استطاع أن يضغط هذه المصاييح الثمانية في أربعة ألفاظ؟

وأعرج الآن على سورة الفاتحة، متناولاً أول آية من آياتها وهي ﴿الحمد لله رب العالمين﴾. إن هذه الآية الكريمة ابتدأها ربنا عز وجل بكلمة (الحمد)، في وقت نلاحظ منه أن هناك ألفاظاً عدّة كألفاظ الثناء والمديح والشكر والرضا (محيط المحيط) تضمّنتها معاجم اللغة، وجميعها يدور حول معنى الحمد. فالسؤال الذي يُواجهنا: لماذا اختار الله ربنا لفظ الحمد، ولم يختَر الثناء والمديح والشكر والرضا ولنقول الثناء لله أو نقول المديح لله أو نقول الشكر لله؟ فلماذا بصطفي ربنا جل شأنه كلمة الحمد؟ ولماذا أتى بهذا اللفظ مُعرّفاً بالألف واللام؟ ولماذا أتى بالحمد بصيغة المصدر، لا بصيغة الفعل فقد كان بالإمكان دفعنا لنقول حمداً لله رب العالمين.

فأنا أجب على ذلك باختصار وأقول: لقد فعل الله ذلك ليضع بين أيدينا ويضيف إلى منارات البسمة منارات جديدة تهدي المؤمن السالك سبيل عرفانه ومسار توحيد الله تعالى وصراطه المستقيم. وليصونه إن هو اهتدى بهذه العالم والمصاييح من أن تغوص قدماء في مُستنقع الشرك الخفي، فيُفرّق بالتالي أُمته إلى مذاهب وشيع وأحزاب ولا يفوز بمقاصده.

إن لفظ الحمد من حيث دلالاته اللغوية أعمّ دلالة من الشكر من حيث أنه يزيد عليه معنى: الإحساس بالفضل والإحساس بالإقرار بكليهما معاً. أي أن الحمد يزيد على معنى الشكر دلالة على إحساس الحامد بجمال هذا المحسن، والرضا به إلهاماً مُحسناً.

كذلك وإن دلّ الثناء على المديح ونشر الذكر الحسن بين الناس كما أفاد بذلك صاحب معجم (المفردات). فإنّ الثناء يُفيد التكرار لتجربة ذاتية مع المحسن يُذيعها مرّة تلو مرّة بين الناس، من هذا تتضح لنا سعة دلالة الحمد وشموليته وواقعية تعبيره.

ولفظ المديح يُستعمل أصلاً للأفعال اللاإرادية، أي للتعبير به عن الأفعال العفوية للمادح. على حين يُعبّر بلفظ الحمد عن الأفعال الإرادية والاختيارية كما وضّح ذلك صاحب معجم المفردات. وعليه فلو قلنا المديح لله، لانكون قد عبّرنا عن حمد الله بحريّة واختيار.

وأما لفظ الرضا فلا يفيد إلا التعبير عن رضا المحسن إليه، ولا يدل على شعور بجمال هذا الذي أحسن. أي أنه يحمل دلالة محدودة الأبعاد وفردية في مقابل لفظ الحمد الواسع الدلالات.

من هذا كله ندرك المعلم ومصباح الهدى الأول الذي ارتكز إلى اختياره جل شأنه للفظ الحمد من بين بقية الألفاظ التي تشترك معه في موضوعه. فقد علمنا هذا الاختيار أن ندأب على الإقرار في كل ركعة من صلواتنا با لله الذي وسع إحسانه كل شيء، الإقرار من صميم أفقدتنا بدافع إيماننا بذلك عن علم، وبإرادتنا غير مكرهين على هذا الإقرار، الإقرار أن ربنا الذي نعبد يتجلى جماله في كونه الرحمن والرحيم، ومقرّين بأن الذي خلقنا حكيم لم يخلقنا عبثاً بل لمقصد سام وهو أن نتعرف إليه ولنكون من عباده الأبرار، وأن حياتنا الدنيوية ماهي إلا إحدى ظواهر إحسانه.

والمعلم والمنارة الثانية الذي حملها لنا لفظ (الحمد) تضمّنتها صياغة لفظ الحمد بصيغة المصدر، لا بصيغة الفعل. فالمصدر يحمل معنى الشمولية، على حين أن الفعل يحدّد زمن الحمد. ذلك أن المصدر هو اسم الحدث الجاري على الفعل.

وصياغة الحمد بصيغة المصدر أفادتنا معلماً ومنارة ثالثة، وهو أننا لانحمد الله على ما علمنا من إحسانه وحسب، بل نحمده على ما نعلمه وعلى ما نجهله من إحسان ربنا عز وجلّ ماضياً كان هذا الإحسان وحاضراً، أو يأتي مستقبلاً. فهذا ما يفيد صياغة الحمد بصيغة المصدر. وهذا المعلم والمنارة يعني بألفاظ أخرى أن ذات الله تعالى منزّهة عن كل نقص، وأن أسمائه الحسنى لا تحمل إلا دلالة الخير. فالله هو خير كلّ.

ثم إن تعريف (الحمد) بالألف واللام أعطانا معلماً ومنارة رابعة. فقد استعمل ال التعريف هنا للاستغراق لأنه يصحّ أن يقال الحمد كلّ الله. يصحّ الاء بكلمة (كله) هنا مجازاً كما أفادتنا به المعاجم اللغوية. فقد أوتي بأل التعريف على سبيل الاستغراق في شمولية لفظ الحمد هنا لجميع خصائصه. فهذه الألف واللام لاستغراق جنس الحمد بجميع خصائصه. وهذه المنارة تهدينا سبيل التوحيد الكامل، وتقينا من فهم الألوهية ممزوجاً بالشرك الخفي.

ذلك أنّ المؤمن السالك سبيل عرفان ربه والمدرّك دلالة الألف واللام في الحمد، يستحيل عليه أن ينسب إحساناً لما دون الله الخلاق إلا على سبيل الظلية وعلى اعتبار أن الله رحمن رحيم.

وهذا المَعْلَم الرابع يضمّ منارة خامسة معه، وهو أنّ علم الإنسان وفهمه وما يحمله من أدوات تحصيل علم، لا تكفي هذا الإنسان ولا تساعد على الإحاطة بقدرات الذات الإلهية وواسع علمها لرضوخ هذا الإنسان لقانون الاحتياج العام. فلا يعلم ولن يعلم ولن يُحيط بشيء من علم الله إلا بما يشاء الله تعالى أن يُعلّمه إياه. لذلك فإنّ من واجب هذا المؤمن السالك أن يدأب على الدعاء قياماً وقعوداً وفي جميع حالاته التي يمرّ بها يومياً أن ربي زدني علماً.

وهأنّ ما أسفر عنه التّقدم العلمي في جميع مجالات الحياة راح يؤكد هذه الحقيقة التي كشف عنها هذا المَعْلَم الرابع الغطاء. فجميع علماء المادة المعاصرين كلّما مكّنهم الله تعالى من فكّ أحد رموزها وألغازها، راحوا يُلاحظون أنهم لايزالون يواجهون رموزاً للمادة وأسراراً تستدعي منهم مشابرة البحث والاستقصاء، وكأنهم يعترفون بألفاظ أخرى بما تضمنته هذه المنارة الخامسة التي احتواها عليها أوّل لفظ من ألفاظ أوّل آية من آيات سورة الفاتحة، وهو كلمة الحمد.

والمَعْلَم السادس ومشعل الهدى يتجلّى من خلال قوله تعالى: ﴿الحمد لله﴾ أي من خلال الجار والمجرور (الله). فاللام استعملت هنا بمعنى الاستحقاق لأنها وردت بين معنى وذات. فاللام أضيفت للفظ الجلالة (الله) الجامع لجميع الأسماء الحسنى. لتؤكد هذه اللام استحقاق الله عز وجلّ لجميع خصائص الحمد لذاته على سبيل الأصالة وهكذا فإنّ تنبيه الأذهان إلى حكمة اختيار لفظ الحمد، وصياغته وبصيغة المصدر الذي صيغ بها، وشمولية الله لخصائص الحمد كلها، والاستغراق في جنس هذه الخصائص يوضح أن علم الإنسان مهما ارتقى وتسامى يظلّ دون مستوى إدراك علم الله وقدراته.

والمعلم والمشعل السّابع يتجلّى في إضافة لفظ (الرّب) بعد الله. هذا اللفظ الذي يعني على حسب ما أورده صاحب المفردات في معجمه أنّه الذات الذي ينشئ الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ التمام أي ينشئه وفق ما يُسمونه بقانون الارتقاء. وهذا المعلم يقضي أن يأخذ المؤمن السالك بقانون الارتقاء كأساس

لتفسير جميع ظواهر الحياة على أساس هذا القانون الطبيعي الذي سنّه الله الخالق لكلّ شيء، ليصون فهمه من كل جمود يخالف العلم ومايكشف عنه من حقائق كونية، فالله جل شأنه لا يتنافى مع قدره أن يكون ربّاً بالمعنى اللغوي.

وقد أضيفت إلى كلمة الربّ كلمة (العالمين) لتضيف معلماً ومنازة ثامنة للمؤمنين السالكين، من أنّ ربوبية الله تعالى لا تشمل الإنسان وحده، بل تشمل كلّ موجود سوى الله تعالى، سواء أكان هذا الموجود من عالم المادة والأجسام أو كان من عالم الأنفس والأرواح. أو كان جُرمًا سماويًا كالشمس والقمر والنجوم والمجرات وغيرها من الأجرام (إعجاز المسيح ص ٤٨).

وهذه المعلومة أفادنا بها صاحب معجم المفردات حين ذهب إلى أن (العالمين) جمع عالم، وهو كلّ نوع من أنواع المخلوقات. هذا الرأي الذي أكّدته الآيات من سورة الشعراء: ﴿قال فرعون وماربّ العالمين. قال ربّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. قال لمن حوله ألا تسمعون. قال ربّكم وربّ آبائكم الأولين. قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون. قال ربّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾.

وبقوله تعالى (رب العالمين) يكون قد نبّه ذهن المؤمن السالك درب عرفانه إلى وجود قانونين قد سنّهما الله جلّ شأنه لتطویر مخلوقاته كلّها، قانوناً طبيعياً لتطویر الأجساد المادية وقانوناً روحياً لتطویر الأنفس والأرواح. ويعمل هذان القانونان جنباً إلى جنب وفي آن واحد.

والمؤمن الذي لا يعي هذه الحقيقة التاسعة ولا يلتزم بمعطياتها المفصلة ضمن سور القرآن الكريم لا يكون موحّداً كاملاً التوحيد، بل يشوب إيمانه شرك خفيّ ويخشى عليه أن يفرق أمته ويهدم وحدتها.

فإذا أمعنا نظرنا في العلاقة والربط الذي حدث ما بين (الحمد لله) و (رب العالمين). تبرز أضواء معلم ومنازة عاشرة على مسار التوحيد وهو صفة العالمية التي تتصف بها دعوة الإسلام، فلم يقل جلّ شأنه "ربّ المؤمنين" بل قال الحمد لله رب العالمين. وكأنّه تعالى وبهذين اللفظين "ربّ العالمين" قد بعث في نفس المؤمن السالك حسّه الإنساني ودفعه لينهج في سلوكه نهجاً إنسانياً فينظر إلى جميع خلقه والإحسان إليهم دون تفریق بين دين ودين ولون ولون وعرقٍ

وعرق، إلا أن يكونوا أعداءً لخالفهم ولعباده المؤمنين. وماعظم هذا المعلم والمنارة العاشرة على درب المسار التوحيدي الإلهي.

وهذه المنارة العاشرة، ترى بجانبها المنارة الحادية عشرة وهي تنبيه الله عز وجلّ ذهن المؤمن السالك إلى خضوع كلّ ماعدا الله تعالى إلى قانون التطور والارتقاء. أي يستحيل أن تستوي بداية أي شيء مع نهايته. بل يخضع كل شيء للتطور والارتقاء من حالته الدنيا الأولى، باتجاه التمام وتبعاً لتجلي ربوبية رب العالمين. أي أن جميع أشياء هذا العالم مخلوقة، إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً، وأنّ كلّاً منها تُمرّرها الربوبية خلال أدوار تطوّر عديدة، وإن بدت ظاهراً مارةً من خلال دور واحد، فهذا هو الفهم الذي يقتضيه توحيد الله تعالى وفق معطيات هذه المنارة الحادية عشرة التي جلاها الارتباط الموضوعي ما بين الحمد لله وما بين ربّ العالمين.

والرابطة الموضوعية ما بين الحمد لله ورب العالمين تُبرز لنا المعلم والمشعل الثاني عشر. وهو أن المادة وخلق الله لمخلوقاته عن طريق هذه الأداة يعني أنّ هذا العالم الدنيوي لن يكون الأول والأخير، بل هو الطور الأول على درب عطاء ربوبية ربّ العالمين وبديل أنه خلق الموت والحياة أيضاً، لنتنقل إلى الطور البرزخي الذي سيكون أكمل وأسعد من عالمنا المادي، فهو طور أرقى وأسمى، ولا بدّ أن يبعث هذا الإنسان يوم القيامة بكيان متطور أرقى وأسمى من كلاً الكيانيين الدنيوي والبرزخي، وأنّ حلقات هذا التطور لن تقف عند حدود وفي ظلّ تجليات هذا الرّب العظيم رب العالمين. والمؤمن الذي يحيط علماً بمعطيات هذه المنارة الثانية عشرة يسير في دنياه قدماً منشراح الفؤاد وكله أمل وسعادة بمستقبله أيضاً. وهو يسير على مسار توحيد الله الذي خلقه وهداه إلى هذه المعلومة العاشرة بأسلوب بياني مُعجز يأخذ بالألباب ويدهش أعظم المفكرين.

والمعلومة الثالثة عشرة التي تأتت عن الربط الموضوعي ما بين الحمد لله رب العالمين هي أنّ مصدر جميع الأديان السماوية واحد وهو الله الذي هوربّ العالمين. وأنّ هذا الخالق الرّب هو الذي هدى عباده إلى وجوده منذ فجر وعيهم وبدأ يهديهم الصراط المستقيم عن طريق وحيه ورسله لذلك ورد في كتاب الله تعالى قوله: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾. وإن جميع الأديان إنما تشكّل حلقات متكاملة على طريق هذا التطور والارتقاء اللانهائي. أي أنّ المؤمن

السالك درب عرفان ربه يستحيل عليه أن يقول بتوقف الله عن مكالمته الله مع عباده في يوم من الأيام مع الاعتقاد أن شريعة الإسلام هي آخر الشرائع وأن محمداً ﷺ خاتم النبيين.

فلا تضاد في نظر هذا المؤمن الموحد ما بين استمرارية مكالمته الله مع عباده، وما بين اكتمال حلقات الدين، وهكذا يكون قد صادفنا من خلال قراءتنا بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين واحد وعشرون معلماً ومنارة على مسار التوحيد الإلهي.

ونفتح مضمته الآية الثانية من سورة الفاتحة من معالم ومشاعل على مسار التوحيد الذي أتى به الإسلام، والتي قال تعالى فيها ﴿الرحمن الرحيم﴾. فالذي نلاحظه أنها آية لم تتجاوز لفظين، كانت البسملة قد اشتملت عليهما في بسم الله الرحمن الرحيم. فهل حدث هذا الأمر من قبيل التكرار، ونحن نعلم أن كلام الله تعالى معجز بيانياً ومنزه عن التكرار.

٥- البسملة تعد أحد أصول التفسير

هذا وإن الظن بأنه تكرر يعود في نظري إلى الجهل بحقيقة البسملة. فالبسملة، وإن افتتحنا بها سورة الفاتحة، فليست هي جزء الفاتحة، بل هي مفتاحها ومفتاح كل سورة من سور القرآن الكريم. وبدون تفهم مضمون الفاتحة لا تتفتح علوم ومعارف السور القرآنية على وجهها الصحيح. فالبسملة لها استقلاليتها، وهي في حد ذاتها معتبرة أحد أصول تفسير القرآن العظيم. وهذا الطرح الذي أطرحه، لا يتضح إلا بعد تقديم مثال من داخل سورة من السور وبشكل موضوعي.

فمن هذا المنطلق، سأضرب للقارئ مثلاً يثبت منه ما ذهبت إليه، ومن ثم أعود لأصل موضوعي وهو إبراز ما في ﴿الرحمن الرحيم﴾ من معالم ومشاعل تنير مسار توحيد الله للمؤمنين الموحدين.

دونكم سورة الحاقة وقد تكلمت عما سيحدث للأنفس بعد بعثها من مراقدها. فقد تكلمت عن مصير الفريقين المؤمن والكافر وعما هو مخبأ لهم يوم القيامة من نتائج تتأتى عن أعمالهم التي عملوها في حياتهم الدنيا. ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابه. إني طنت أني ملاق حسابه. فهو في عيشة راضية. في جنّة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئاً بما

أسلفتم في الآيات الخالية. ﴿ هذا عن مصير فريق المؤمنين. أما عن مصير الفريق الكافر، فقد جاء: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِي كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابِيهِ. ولم أذر ماحسابيه. ياليتها كانت القاضية. ما أغنى عني ماليه. هلك عني سلطانيه. ﴿

وإلى هنا لا يواجه متدبر الآيات غموضاً، وتزلزلاً في فهمه لهذه الآيات الكريمة. والغموض الذي يحتاج إلى مفتاح يوجه هذا المتدبر ويعينه على الفهم، هو قوله تعالى بعدها مباشرة: ﴿خَذُوهُ فَعْلُوهُ. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوه. ﴿

فما المقصود بفعلوه؟ وكيف يفعلونه؟ وما المقصود بثم الجحيم صلوه؟ وكيف يصلونه؟ وما المقصود بسلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوه؟ وكيف يسلكونه؟

وقبل أن أجيب على هذه التساؤلات مستعيناً بالله تعالى وبمضمون بسم الله الرحمن الرحيم الذي يشكل أحد أصول تفسير الآيات المذكورة. أتلو على مسامع القارئ ما فهمه ابن كثير من هذه الآيات الكريمة، ليساعد ذلك هذا القارئ على الموازنة وإصدار الأحكام.

فقد أورد ابن كثير على الصفحة ٤١٦ من الجزء الرابع من تفسيره أن الفضل بن عياض قال: (إذا قال الرب خذوه فعّلوه، ابتدره سبعون ألف ملك أيهم يجعل الغلّ في عنقه). كذلك نقل عن كعب الأحبار قوله: (في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوه، كل حلقة منها قدر حديد الدنيا). كذلك نقل عن ابن عباس حول معنى (فاسلكوه) قوله: (تدخل في أسته، ثم تخرج من فيه، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يُشوى). كذلك نسب إلى ابن عباس قول آخر أنه قال: (يسلك في دبره حتى يخرج من منخريه، حتى لا يقوم على رجليه).

فلم يذهب ابن كثير مذهب هذه الأقوال التي لا يستسيغها عقل ولا منطق فتصور الله عز وجل وكأنه مُستبدّ جزار؟ إن نقطة الزيف عن المعاني الحقيقية، انطلقت من الميل إلى معنى دون المعنى الآخر لكلمة (غلوه). فلفظ الغلّ له معنيان: الأول العطش الشديد الذي ترافقه حرارة جوف شديدة. والثاني طوق من حديد (محيط المحيط). فالمعنى الأول أتى من تخلل شيء في شيء على حسب

ماأورده صاحب المقاييس، حيث تقول العَرَبُ: غَلَّتْ الشيء في الشيء: إذا أثبتته فيه كأنما غرزته، من هذا أتى معنى العطش للغة والغليل، فهذا العطش ينغل في الجوف وترافقه حرارة. حيث يقال: بعيرٌ غلان أي ظمآن. والغِلُّ هو الحقد والضغن ينغل في صدر صاحبه.

فابن كثير أخذ بمعنى (طوق من حديد) للفظ الغلّ، وأعرض عن المعنى الآخر، فلماذا فعل ذلك وانتهى إلى هذه المعاني المضحكة؟ جواب ذلك أنه لم يضع في حُسابه مضمون بسم الله الرحمن الرحيم كأصل من أصول تفسير هذه الآيات. أي لم يعتبر صفتي الرحمن الرحيم اللتين افتتحت بهما سورة الحاقة كقرينة تدفعه إلى الأخذ بالمعنى الأول، والإعراض عن المعنى الآخر وهو الطوق من حديد.

ومادام قد زاع من أول الطريق وأخذ لفعل (غَلَّوه) معنى ضعوا الطوق الحديدي في عُنُق هذا الكافر، فقد راحت مخيلته تصوّر له أن سبعين ألف ملك من ملائكة الله راحوا يتسابقون لتنفيذ أمر ربهم لأنه تعالى قد خلقهم ﴿يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ دون أن يقدم على هذا التصوّر الساذج أي دليل قرآني أو عقلي. فصوّر بلبله وهرجاً عظيماً يحدث عند تلقي الأمر الإلهي، فالذي يذهب مذهب ابن كثير دون إعمال عقله ومراعاة أصول التفسير، يحشو دماغه بتصورات طفيليات تأكل محاكمته وتقتل فيه روح الحوار. هذا وإن بقية ماأوردته من أقوال ابن كثير هي من هذا الباب والقبيل. ممّا لا حاجة بي للإفاضة فيه.

والذي أقوله في هذا السياق هو أنّ معنى الطوق من حديد، ومعنى السلسلة الحديديّة لا يؤخذ به في هذا المقام لمنافاته مع ماتضمنته البسملة ومع ماحملته من مضمون صفتي الرحمن الرحيم.

وهل يصدّق عقلاً أن يقدم ملائكة الله على فعل ماصوره لنا ابن كثير من فعلها، في وقتٍ نعتقد فيه أنّ الله الذي حاشاه أن يأمر بهذه الأوامر يتصف بصفتي الرحمن الرحيم؟ وهل لمخيلة عاقل أن تتصوّر إمكانية إدخال حلقات حديدية كل واحدة منها بقدر حجم حديد الدنيا، إدخالها من أسّت إنسان ودُّبّر لا يتجاوز قطر فتحة سنتيمترات؟ فالغلّ بمعنى الطوق من حديد لا يؤخذ به في هذا المقام بأيّ شكلٍ من الأشكال، فهذا ماوجهتنا إليه صفتا الرحمن الرحيم من

بسم الله الرحمن الرحيم، وهذا ماوجهنا ربنا جل شأنه إليه في عدة مواضع من سورة الحاقة نفسها.

لنعد إلى الآية (١٨) الثامنة عشرة فالله عز وجل قال هناك: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾. وقد وجهنا جل شأنه بهذه الألفاظ إلى أن الإنسان لا يبدو في الحياة الدنيا على حقيقته، بل تظل هناك خافية عن أعين سواه من الناس. ولا يعني هذا أن هذه الخافية تخفى أيضاً عن علم الله عز وجل. فهو تعالى وجهنا بألفاظ هذه الآية الكريمة إلى أن عالم المعاد هو عالم تجسّد لما يخفيه الإنسان في نفسه عن أخيه الإنسان. وعندما قال تعالى (غُلّوه) فقد نبّه إلى أن هذه الخافية هو ماأخفته صدور هؤلاء الذين كفروا بالله وبرسله وناصبوهم العداء. فقد أضرموا في صدورهم غلاً أي حقداً دفيناً وضيغنة دون مبرر، أي أخفوا حرارة هذا الحقد وناره الملتهبة المتأججة شوقاً للقضاء على فئة المؤمنين بالله عز وجل.

وكما أن ملائكة الله موكلة على تهيئة أسباب كل شيء في الحياة الدنيا. كذلك فالله تعالى أوكل إلى ملائكته أن تجسّد هذه الأحقاد وهيها في عالم المعاد، وتبدي ماكان يعمر أفئدة أعداء الله من نار حقدٍ ونار ضغينة دفينين، وهي بعد أن تجسّد هذا الغلّ بهذا الغلّ لا تعود تخفى منكم خافية ويُعرض المجرمون على حقيقتهم. فهذا هو المعنى هو الذي عبّر عنه فعل ﴿خَلّوه فغُلّوه﴾ أي هيئوا أسباب تجسيم ما في صدره من غلّ. وليس أن يضعوا في عنق أو يد هذا الكافر طوقاً من حديد.

وهو جلّ شأنه حين نقل لنا ماينطق به هذا الكافر بعد بعثه من مرقده، وهو: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أَوْتَ كِتَابِيهِ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ. يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ. مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ﴾. فقد نقل جل شأنه هذه الأقوال ليساعدنا على إدراك مابلغه هذا الكافر من شدة الظمّ حين بُوغت بهذا المصير الذي آل إليه. فكل إنسان يحفّ ريق فمه في مثل هذه المواقف الحرجة، ويتأجج صدره يأساً وقنوطاً وفقدان معنويات. ولا يحتاج في تلك اللحظات إلا إلى ملكٍ يجسّد مايدور في فؤاده وغلّده ليبدو جحيماً يحرق صاحبه. وهذه الآيات نقلها لنا ربنا لتساعدنا على فهم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلّوه﴾ أي جسّدوا أوار نار الجحيم المستعرة في فؤاده بعد بعثه من مرقده.

وبعد ذلك وعند هذه النقطة الأخيرة يطرح سؤال نفسه وهو: إذا جسدت ملائكة الله ما في صدور الكفار من جحيم راح يحترق الواحد بأوارها. فكم هي المدة التي سيرك الله تعالى هؤلاء على هذه الحال البالغة التعس؟ وقد أجاب جل شأنه على هذا السؤال وقال: ﴿ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾. وليس معنى هذا أن تأتي الملائكة بسلاسل حديدية كل واحدة منها مؤلفة من سبعين حلقة. الأمر الذي يعني أن للعدد (سبعون) هنا مفهوماً آخر غير المتبادر إلى أذهاننا.

وهذا المعنى الآخر توجهنا إليه عدالة الله عز وجل. فمتوسط عمر الإنسان يدور أصلاً حول رقم السبعين المذكور يزيد تارة ويقل أخرى تبعاً للعوامل والمسببات. هذا وإن الله عز وجل أشارت عدالته البالغة إلى أن العذاب الجهنمي الذي سيصير إليه هذا الكافر ستناسب مدته مع السنوات التي قضاها هذا الكافر بربه وبرسل ربه، منغمساً في مشاغل الدنيا ومُنساقاً مع رغباته وميوله وأهوائه غير مُبال بالمقصد الذي خلقه الله ربه من أجل تحقيقه، وبعيداً عن فئة المؤمنين. وإلى هذا ورد قوله (فاسلكوه) أي فاسلكوه في جحيم يتناسب طول زمنه مع مآمضاه من سنوات عمره بعيداً عن ربه.

وراح جل شأنه بعد ذلك يؤكد جميع مآذركته من حقائق منبهاً إلى أن يوم المعاد هو يوم تجسيد لأعمال الإنسان وأفعاله الدنيوية وقال بحق ماجرى لهذا الكافر ويعلّل أسبابه: ﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحضّ على طعام المسكين. فليس له اليوم ههنا حميم. ولا طعام إلا من غسلين. لا يأكله إلا الخاطئون﴾. أي أن أحقاده وكفره وانغماسه في بلبال الدنيا، لم يثمر له إلا هذا الجحيم الذي تجسّم ناراً تحرقه ويتلظى بأوارها. على حين أن المؤمن الذي كان يؤمن بالله العظيم، وكان يحضّ على طعام المسكين قد تجسّمت نتائج أعماله الصالحة ﴿فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾.

ولم يقف جل شأنه عند هذا الحد من البيان وتقريب للأذهان وتوجيهها إلى هذه المعاني التي ذكرتها. بل أضاف يقول: ﴿فلا أقسم بما تبصرون. وما لا تبصرون. إنه لبقول رسول كريم. وما هو بقول شاعر، قليلاً ما تؤمنون. ولا بقول كاهن، قليلاً ما تذكرون. تنزيل من رب العالمين﴾.

فقد راح جلّ شأنه يُقسم - والقسم تقديم شهادة - أي راح تعالى يوجّه ذهننا إلى مآنبه إليه في البداية من خلال قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ وليؤكّد على أن ما يكتمه المرء في صدره وما يخفيه يجعله ظاهراً، يظهر شيء يُبصره الناظر إليه. ويجعله غير ظاهر بما يخفيه في أعين سواه، لكنّ الله مطلع على سرّه هذا وأخفى منه. وأن محمداً ﷺ الذي تكلم عن نتائج الأعمال وعن هاتين الحقيقتين ظاهر الإنسان وما يخفيه وعن أنه لابدّ أن يأتي يوم المعاد تتجسّم خلاله آثار الأعمال الخفية، هو رسول صادق فيما يقول ويدعيه.

وأنتم أيها الغافلون عن هذه الحقائق كلّها والتي أتى بها محمد الصادق الأمين، قليلاً ماتدبرونها وتؤمنون بها، ولذلك قليلاً ماتذكّرون. وكأنّ الله عز وجلّ قد أراد أن يقول لنا بالفاظٍ أخرى أنّ على الإنسان أن يكون طاهراً ومتخلّفاً بصفات الرحمن الرحيم، فلا يحمل في صدره حقداً ولا ضغينة على أحد من خلق الله تعالى، وأن يبقى بعيداً عن اتباع أهوائه وميوله وشهوته فلا يغمس في بلبال المشاغل الدنيوية إلى أحصى قدميه، وأن يؤمن برّبّه ويقدم دينه على دُنياه.

بهذا المثال من تفسير بعض آيات سورة الحاقة وبهداية مضمون صفتي الرحمن الرحيم من البسملة بسم الله الرحمن الرحيم أكون قد أثبت ووضّحت أنّ للبسملة استقلاليتها، وأن في استقلاليتها يكمن أحد أصول تفسير القرآن الكريم. وأنّ الآية الثانية من سورة الفاتحة لم يحدث فيها تكرار لصفتي الرحمن الرحيم. بل جيء بهاتين الصفتين هنا لحكمة بالغة اقتضاها التسلسل الموضوعي.

هذا وتوضيحاً للصلة الموضوعية ما بين ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وآية (الرحمن الرحيم) كمعلم ومنازة أولى أقول: إن جميع المريّين لا يستوون علماً ووسائل بيان وقدرات. وإن كلّ مُربّ من المريّين يؤدي مهمّته على قدر مآلديه من هذه الصّفات. فإذا تدبّرنا قوله تعالى في الآية الأولى ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ نلاحظ الإعلان عن أنّ ربوبية الله لكوننا الدنيوي الذي نعيش فيه تشمل العالمين أي جميع المخلوقات إنساناً وحيواناً ونباتاً وجماداً على حسب ماسبق أن بيّناه. والسؤال الذي يطرح نفسه بعد سماع هذا الإعلان، هو: ماهي حدود قدرات وعلم ووسائل هذا الإله الخالق والتي ممكّنه من أن يصبح ربّاً للعالمين؟

وقد أجاب الله جلّ شأنه بتعليم جديد على مسار توحيد ذاته تعالى، وقال إنه جلّ شأنه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، لاتصاف ذاته بصفتي الرحمن الرحيم. وواقع هذا الكون يؤكد ذلك ويثبت، فما هذا الكون ومافيه إلا عطاء هذا الإله الرحمن. وإنّ جميع ما بعث الله من رسل وأنزل من شرائع وطوّر في جميع أنواع الخلق الذي أبدعه لشاهد حيٍّ على أنه هو الإله الرحيم أيضاً. الرحيم الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً. وأنّ ربوبيته وعطاءه سيتكرّران في عالم البزخ بعد الممات، وفي عالم ما بعد بعث الأنفس من مراقدها. فهذه منارة ومعلم لا ينبغي للمؤمن السالك الموحّد أن يتجاهله على مسار توحيدهِ لبارئهِ عز وجل.

والمعلم والمنارة الثانية التي أنارت لنا طريق توحيد بارئنا عز وجلّ، هذه المنارة التي لفتت أنظارنا إليها الآية ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، هو أنّه لا يحقّ لأيّ وجود اتّخذهُ الناس ربّاً لهم وقدّسوه، لا يحقّ لهم أن يُطلقوا عليه صفتي الرحمن الرحيم. من منطلق أنّ ماسوى الله الخالق فهو وجود مخلوق ومحتاج في قيامه إلى الله الذي خلقه وهو الرحمن الرحيم. فهذه حقيقة ومعلم ومنارة على مسار التوحيد الذي يسير عليه المؤمنون السالكون.

والمعلم والمنارة الثالثة التي تضمّنتها آية ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ هو حملها للحجّة القاطعة التي يثبت من خلالها بطلان كفارة المسيح الناصري التي يعتقدها المسيحيون. وهذه الحجّة تتمثّل في أنّ الله الرحمن الرحيم لا يُسمّى كذلك إذا كان عاجزاً عن غفران ذنوب عباده. لذلك فهو بالتالي لا يحتاج لإرسال ابنه الوحيد الذي يزعمونه ليقتله ويفتدي به خطايا المذنبين. فالذي يقدم على هذه الخطوة يكون محدود العلم والقدرات : هو بحاجة إلى ابن يرثه من جهة، وهو بحاجة للتضحية بهذا الابن تكفيراً عن ذنوب المذنبين، ولا يتفق ذلك مع دلالات صفتي الرحمن الرحيم.

وعلى هذه الصّورة فلا يكون في آية ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تكرار لصفتين احتوتهما البسملة، بل فيها إظهار لتسلسل موضوعي اقتضته صفة رب العالمين. وأن هذه الآية حملت للمؤمنين الموحّدين معالم ثلاثة تهديهم على مسار التوحيد. ولتصون هؤلاء المؤمنين السالكين من أن يشركوا بربهم شركاً خفياً ينتهي بهم إلى البعد عن خالقهم وإلى تفريق أمتهم إلى شيع وأحزاب كلّ حزب منهم بما لديهم فرحون.

والآية الثالثة التي يكملُ بها حمد الله والثناء عليه هي قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. ومعلوم أنه لا يُسمَّى مالِكاً من كان لا يملك صفة الاقتدار. ثم إنَّ لفظ اليوم يعني مُطلق الوقت من حيث أصل وضعه على حسب ماورد في معجم لسان العرب. كذلك فيوم الدين يوصف به زمن محاسبة الناس على ماقدّموه من أعمال، فهو يوم المكافآت، كما أنه يوم الغلبة والحكم والاستعلاء والسلطان، وليوم الدين معنى آخر وهو زمن الشريعة على حسب ماورد في معجم (أقرب الموارد).

وقد حملت لنا هذه الآية الثالثة ثلاث منارات على مسار التوحيد إضافة إلى ماسبق من منارات. فالمعلم والمنازة الأولى تتجلى من خلال لفظ (مالك) فلم يؤت بدلاً عنه بلفظ (ملك) مثلاً. تنبيهاً لأذهان المؤمنين السالكين إلى أن زمن بعث الأنفس من مرقدها يكون الأمر فيه لله الواحد القهار. الذي يقدر على محاسبة كل نفس بما عملت. فيعاقب أو يغفر لمن يشاء ويقدر. والمعلم والمنازة الثانية التي أضيئت عن طريق انتخاب لفظ (مالك) أيضاً. الإشارة إلى أنَّ الله رب العالمين الرحمن الرحيم بيده مقاليد الترغيب والترهيب من منطلق كونه مالك يوم الدين. وبهذا المعلم والمنازة يكون قد تحقق الربط والتسلسل الموضوعي بين هذه الآيات الثلاث من سورة الفاتحة. وتكمل بذلك معالم حمد الله والثناء عليه.

ثم إننا إذا أخذنا للدين معنى الشريعة، وهو المعنى الذي ورد في معجم أقرب الموارد، تتجلى لنا من خلال ذلك معلم ومنازة ثالثة على مسار توحيد الله عزوجل. هذه المنازة التي تعني بالفاظٍ أخرى أنَّ الله عزوجل يتجلى بجلال وجمال كاملين في كلِّ زمان يُنزل فيه شريعة جديدة لهداية عباده المؤمنين السالكين وتطويرهم باتجاه التمام. حيث تتجلى عند إنزاله تعالى صفة الشرائع مالكية الله بأوضح صورها، وعلى صورة تدهش الباحثين والمفكرين. أي أن القانون القدري العام الذي تطرقتُ إلى ذكره في (القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة) والذي تضمنه قوله تعالى من الآية ٢٠/٢١ من سورة المجادلة: ﴿إِنَّ الدِّينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلَئِكَ فِي الْأَذْلَلِينَ. كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. هذا القانون تبدو معالمه أزمنة إنزال الشرائع السماوية، إثباتاً من الله جلَّ شأنه أنه ربَّ العالمين. والرحمن الرحيم. ومالك يوم الدين، أي مالك أزمنة

إنزال شرائعه لوضعها موضع التنفيذ. وهذه حقيقة أكدها منطق تاريخ جمع الأديان السماوية. ومن لا يذكر نجاة نوح من الطوفان ونجاة موسى من فرعون والانتصار الساحق الذي حققه محمد المصطفى ﷺ سيد الأنبياء وخاتمهم على جميع الذين ناصبوه العدا؟

والمفسرون على حد علمي لم يأخذوا ليوم الدين معنى مالك يوم الشريعة لأسباب لا مجال هنا للخوض فيها. أما إمام زماننا فقد تميز بتوضيح هذا المعنى على ضوء القوانين القدريّة العامة. وقد وضحت في كتاب القضاء والقدر أنّ الله تعالى يتعامل مع عباده في هذه الحياة الدنيا كمالك وليس كمالك، وعلى أساس من القوانين الطبيعية التي سنّها لهذه المادة التي فوّض إليها خواصّها على شاكلة ما يفوّض القاضي بعض صلاحياته لشرطة المرور، ويظلّ مع ذلك المرجع الأخير في كلّ الأمور.

أما زمان إنزال الله لأية شريعة سماوية، فيختلف الأمر عنده حيث يتجلّى الله بصفة المالكية ليحمي عباده المرسلين من جهل الجاهلين. وقد دلّ تاريخ جميع رسل الله تعالى أنّهم ووجهوا دوماً من أقوامهم بالسّخرية والتكذيب والاستضعاف. والله عزوجلّ، وغيره منه على مرسله، يتجلّى على العالم زمن بعث هؤلاء المرسلين بصفة مالكيته لهذا العالم، ليظهر بهذا التجلي صدق مرسله وليهلك أعداءهم الظالمين. ويحقق من خلال تجلّي مالكيته على أيدي الذين يرسلهم إلى هؤلاء أظهر المعجزات، حتى يُحير الذين يكفرون به وبشرائعه وبرسله ويبهتهم ويثبت لهم بالتالي أنّه جل شأنه هو المالك الحقيقي لهذا الكون وربّ العالمين الرحمن الرحيم ومالك يوم الدين.

أفلم نقرأ في كتاب الله العزيز وعد الله لرسوله محمد ﷺ ﴿وَاللَّهُ يَعصمك من الناس﴾؟ وهذا تاريخ محمد بن عبد الله ﷺ يشهد على صدق هذا الوعد الإلهي، وعلى تجلّي الله تعالى بصفة مالك يوم الشريعة. فقد هيأ جل شأنه وبصورة معجزة جميع الأسباب لحماية رسوله خاتم النبيين ولتأييده ولاستجابة أذعته، ولإظهار المعجزات على يديه. خصوصاً وأنه تعالى بعث محمداً ﷺ إلى الناس كافّة أيضاً.

ويثبت من ذلك أنّ الله عزوجلّ هو مالك هذا العالم على وجه الحقيقة، وإن كان يتجلّى بصفة الملك من خلال النواميس الطبيعية ومن خواصّ ماتمّله العناصر المادية التي تتجاوز المائة عُنصر من تجلّيات.

ومن واجبنا أن نعلم أن لترتيب الصفات الإلهية المذكورة في هذه الآيات الثلاث من سورة الفاتحة حكمة بالغة، فالله في الطور لوجه ربوبيته من خلال هذين الوالدين فإذا ما شبّ الطفل عن الطوق يتجلّى عليه بصفة رحاميّته ليستفيد عن طريق إعماله لعقله الناضج من التعاليم التي ينزلها في شرائعه. فإذا استيقن وجود ربّه وآمن به يتجلّى عليه بصفة رحيميّته، ليظهر له ثمار أعماله الصالحات. وأخيراً يطوّره روحياً إلى درجة الفوز على أعدائه متجلّياً عليه بصفة يوم الدين.

ولاجمال لي للتوسّع في شرح هذه الحقيقة التي اختصرت لكم معالمها في هذا المقام. فالمقام يقتضي مني إظهار المَعلّـمات والمنارات الهامة التي أضاءتها لنا هذه الآيات الثلاث من سورة الفاتحة لتتبيّن مواقع أقدامنا على مسار توحيد ربّنا عزوجلّ، ونصون أنفسنا من أن نكون من المشركين.

ومن واجب المؤمن السالك سبيل عرفان ربه والسّاعي للفوز بمحبته وقربه ورضوانه أن يعي مسار توحيد الله تعالى على ضوء هذه المنارات السبع والعشرين التي أبرزناها. والآن الخُص هذه المنارات لتبرز مجتمعة وبشكلها الموجز فأقول :

أولاً - وردت الباء في بسم الله بمعنى الاستعانة والمصاحبة والالتزام بأوامره تعالى تنبيهاً للعصاة إلى أنهم مرفوضون فلا يحقّ لهم البسملة.
ثانياً - وهذه الاستعانة بالله لا تكون إلّا عن طريق دعاء الله بأسمائه الحسنی.

ثالثاً - والذات الإلهية مستقلة عن وجودنا بدلالة اتصاف الله بصفتي الرحمن الرحيم.

رابعاً - وإن الاستعانة بالله وأسمائه الحسنی تعني أنّ الله عزوجلّ هو مسبب الأسباب في عالمنا الدنيوي.

خامساً - وإيراد لفظ الجلالة (الله) في بسم الله، فللدلالة على أن (الله) هو الاسم الأعظم للذات الإلهية.

سادساً - وقد صيغت صفة الرحمن على وزن فعالن لتفيد الامتلاء والغلبة والسعة والشمولية.

سابعاً - وقد صيغت صفة الرحيم على وزن فعيل لتفيد الاستحقاق وتكرار العطاء وشمولها فئة المؤمنين خاصة.

ثامناً - ثم إنَّ قراءة البسملة وافتتاح كل سورة بها، حكمته أن يتدبر المؤمن معانيها لتقيه شرّ الوقوع في الشرك الخفي.

تاسعاً - واختيار لفظ الحمد للدلالة على أن الإسلام لا يكره أحداً على شيء، بل إن المؤمن يحمد الله عن علم وإرادة وهو يعلم أن مقصد حياته هو التعرف على ربّه عز وجلّ.

عاشراً - وعند صوغ الحمد بصيغة المصدر فللدلالة على شمولية دلالة إحسان الله تعالى على مخلوقه في عوالم الدنيا والبرزخ والمعاد.

أحد عشر - وكذلك فإن صياغة الحمد بصيغة المصدر فللدلالة على أن أسماء الحسنی لا تحمل إلا معاني الخير والله منزّه عن كل نقص.

اثنتا عشر - وتعريف الحمد بالألف واللام فالاستغراق جنس الحمد وخصائصه على وجه الحقيقة تعبيراً عن التوحيد الكامل.

ثلاثة عشر - كذلك فإن تعريف الحمد بالألف واللام فللدلالة على أن فهم الإنسان قاصر عن أن يُحيط بوسع علم الله عز وجلّ.

أربعة عشر - أما إضافة الجارّ والمجرور بعد الحمد فلتؤكد استحقاق الله لحمد عباده أصالة وليس على سبيل المجاز.

خمسة عشر - ثم إن إيراد لفظ الرّب بعد ذلك فللإشارة إلى خضوع عالم المادة ومخلوقاتنا لقانون التطوّر والارتقاء.

سته عشر - أما إضافة العالمين في (رب العالمين) فللدلالة على أن تجلّي الربوبية يشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد أيضاً.

سبعة عشر - وللدلالة أيضاً على أن الله تعالى سنّ القوانين الطبيعية لتطویر الأجساد كما سنّ القوانين الروحية القدريّة لتطویر الأنفس.

ثمانية عشر - وللدلالة أيضاً على سمة إنسانية الدعوة الإسلامية وعالميتها.

تسعة عشر - وللدلالة أيضاً أن كل شيء لا تستوي بدايته مع نهايته، بل إنّ كل شيء يتطوّر باستمرار.

عشرون - وهناك رابطة موضوعية ما بين الحمد لله وما بين رب العالمين وهي أن جميع الخلق لن يمرّ بطور الدنيا وحدها بل وبطوري البزرخ والمعاد.

واحد وعشرون - ورابطة موضوعية أخرى وهي الإشارة إلى أن جميع الأديان السماوية تشكّل حلقات على درب تطوير الإنسان.

اثنان وعشرون - والرابطة الموضوعية ما بين الرحمن الرحيم وما بين رب العالمين فللدلالة على أنّ قدرات رب العالمين لا تقف عند حدود.

ثلاثة وعشرون - كما أنّ هذه الرابطة الموضوعية تجزم عدم إمكانية واستحقاق أيّ مخلوق أن يسمى رَحْمَاناً رَحِيماً.

أربع وعشرون - وتتضمّن صفتا الرحمن والرحيم حُجّة قاطعة على بُطلان عقيدة كفارة المسيح التي يعتقدّها المسيحيّون.

خمسة وعشرون - واختيار لفظ مالك يوم الدين للدلالة على تجلّي الله عزوجلّ في الآخرة إلهاً واحداً قهاراً.

ستة وعشرون - وأنّه أي مالك يوم الدين يملك حقّ الترغيب

والترهيب.

سبعة وعشرون - كذلك فإنّ لفظ (مالك) اختير بمعنى مالك يوم إنزال

الشرائع ولتكون العاقبة يومها للمؤمنين المتّقين.

وأنا وقد أبرزت هذه المنارات على درب توحيد الله عزوجلّ، وبما فتحه الله تعالى عليّ من بينات ومعارف فلا تُثبت أيضاً أنّ سورة الفاتحة تشكّل أصلاً هاماً من أصول تفسير كتاب الله القرآن.

ولا ينبغي أن يظنّ ظانّ أنّ ما أبرزته من هذه المنارات هو عدد قطعي، بل هو الأهمّ على مسار التوحيد وإلاّ فإنّ ما أتت به هذه الآيات الثلاث من سورة الفاتحة من معارف وبيّنات هو أكثر من ذلك بكثير.

وبإمكاننا القول بالفاظ أخرى إن سورة الفاتحة جمعت جميع مطالب القرآن الكريم تحت جناحيها وبأحسن البيان. فمن تدبّر آيات هذه السورة الفريدة، فكأنّه غاص في بحر القرآن يجمع دُرر علومه ومعارفه سواء بما يتعلق بعلم

المبدأ وعلم المعاد، وسواء ما يتعلق بعلم النبوة وعلم نوحيد الله في الذات والصفات. فالفاتحة تُشبه إلى حدٍ كبير عَشْرَ طير العِرْفان الإلهي، وإلى هذه الحقيقة وردت تسميتها على لسان محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم "أم الكتاب".

٦. التَعَبُّدُ بالدُّعَاءِ :

فرغنا من تبيين المنارات التي أضاءها لنا الله عزَّ وجلَّ على مسار توحيده تعالى، وذلك من خلال ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. ﴿فقد حمدنا الله تعالى وأثنينا عليه وعدَّدنا صفاته في هذه الآيات الكريمة من سورة الفاتحة. وأسألونها في هذا الحمد وكأنه تعالى غائب عن أعيننا فلانراه، مُعْتَقِدِينَ أنه تعالى يرانا ويسمع حمدنا وثناءنا عليه. وانقلب الأمر بعد هذه الآيات الثلاث ففي الآية الرابعة أصبحت صيغة خطابنا وكأننا ننظر إلى ربنا عزَّ وجلَّ ونقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وقد كان ينبغي على حدِّ قول بعض البلاغيين أن نقول ﴿لِحَمْدِكَ وَنَسْتَعِينُكَ﴾. فما هو سرُّ هذا التبدل الذي لاحظناه؟

نتدبر أولاً معاني ألفاظ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. إنَّ كلمة (إِيَّاكَ) مركبة من "يَا" وتعني اسماً مبهماً. ومضافاً إليها كاف الخطاب بياناً ولتحديد خطابنا الموجه إلى الذات الإلهية. وقد أوردناها للنصب لتحديد ذاتها تعالى (محيط المحيط)، هذا التبدل في أسلوب الخطاب كانت الغاية منه إبراز تعليم إسلامي تروبيّ سآتي على بيانه، لذا يُعدّ هذا التبدل في أسلوب الخطاب في غاية البلاغة وحسن الكلام.



ثم إن كلمة (نعبد) مشتقة من عبد الله : أي طاع له وخضع وذلّ وخدمه والتزم شرائع دينه ووحده (أقرب الموارد). وهذه المعاني لا يستحقّها أحد إلا الله عز وجلّ لتفرد ذاته تعالى في كمالها. فالله الخالق حقيقاً بالطاعة والعبادة وهو الله الذي لا إله إلا هو.

أمّا كلمة (نستعين) فمشتقة من الاستعانة وتعني طلباً مخصوصاً بمن هو جدير ومستحقّ للإعانة. وعلى ضوء ما بيناه من معاني ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ نحاول تفسير سرّ هذا التبديل الحادث في أسلوب خطاب قارئ آيات سورة الفاتحة. إنّنا حين نقول ﴿إياك نعبد﴾ كأننا ننظر إلى ذات الله تعالى ونقول : إنّنا نلتزم بإلهنا بطاعتك والخضوع لك والتذلّل بين يديك وخدمة مقاصد دينك، ونلتزم بشرائع هذا الدّين، ونوحّدك لاشريك لك.

هذا وحين نكمل ونقول ﴿وإياك نستعين﴾ كأننا ننظر إلى ذات الله تعالى ونقول : يا إلهنا وخالقنا أنت تعلم أنّ تعهدنا الذي تعهدناه بقولنا ﴿إياك نعبد﴾ هو فوق طاقتنا، إلّا أنّ تعيننا على ذلك، ونحن مُستحقّون إلى إعانتك على وجه الأصالة لأنّك خلقتنا محتاجين إلى معونتك.

بهذا التبديل في أسلوب الخطاب والصياغة، يكون الله جلّ شأنه قد وجّهنا إلى الذريعة الخامسة وهي وسيلة الدّعاء، طلباً لحبّة الله وقربه ورضوانه، وكأنه جلّ شأنه لفت أنظارنا إلى آخر آية من سورة الفرقان وهي قوله تعالى: ﴿قل ما يعبا بكم ربّي لولا دعاؤكم﴾.

لذلك لا بدّ أن يتساءل المرء : ما معنى الدّعاء؟ وماهي حقيقته العلمية والدينية؟

وقبل التوجّه للإجابة على هذا السؤال. لا بدّ من التذكير أنّ ذات الله تعالى يستحيل أن تراها العين المجردة، فالله وراء الوراء، فكيف نخاطبه تعالى وكأننا نراه ونقول إياك نعبد وإياك نستعين؟

وتوضيحاً من جانبي لهذا الأمر أقول : أفلا نلاحظ أنّ القرآن الكريم قد ركّز في آياته الكريمة على بيان أوصاف الله وأسمائه الحسنى، وقد كان لهذا التركيز حكمة بالغة. وهو أنّ الله عز وجلّ مادامت لا تراه أعيننا، فقد كان من الضروري إعطاء المؤمن العابد ملائحة الله وأوصافه. لتتولّد صورته شيئاً فشيئاً في مخيلة هذا المؤمن الذي يعبد ربّه، ويتحقّق له رؤية قلبية تعوّضه عن رؤيته العينية.

من هذا كان من واجب المؤمن الذي يقف يدعو ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ أن يُحيط علماً بأسماء الله الحسنی وصفاته ودقائق ما يتعلق بها من قوانين ومعلومات. ليستعين بذلك على الوفاء بعهد عبوديته لله عزوجل.

وبالأفاظ أخرى فإن دأب المؤمن السالك على تدبر أسماء الله وراح يدعوها بها عن علم ومعرفة تتسرب محبة الله إلى فؤاد هذا المؤمن العابد، ويتجلى عليه ربه بأنواره، ولا بد أن يبلغ هذا المؤمن في يوم من الأيام مرتبة مخاطبة ربه مباشرة وفق دعاء ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. وعلى هذه الصورة نكون قد أدركنا عظمة دلالة الأسلوب التعبيري من خلال تبدل الضمائر من صيغة الغائب من (الحمد لله) إلى صيغة المخاطب في ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

ففي هذا التبديل لفت نظر الباحث المتدبر إلى أن تعاليم الإسلام تبتدىء من صيغة الغالب عن الأنظار لتصل بالمؤمن السالك درب عرفان ربه إلى مرحلة لقاء هذا المؤمن ربه وجهاً لوجه، ولتلقى أنوار رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين.

ورب سائل يسأل عن حكمة تقديم (إياك نعبد) و(إياك نستعين). مُطلقاً من أن الهداية لا تكون في الأصل إلا بمعونة الله رب العالمين.

ومن واجب هذا السائل أن يعلم أن الفاتحة لم تعلم في هذه الآية الكريمة طلب المعونة، بل علمتنا طلب الاستعانة، وبين المعونة والاستعانة فرق لغوي دقيق. ذلك أن العون اشتق من أعانه أي ساعده، على حين أن الاستعانة تعني طلب هذا العون، حيث يقول المرء: استعنته فأعاني، فالإعانة مصدر أعان، بينما الاستعانة مصدر استعان، وعليه فلا يستعين العابد ويطلب معونة ربه إلا بعد أن يصبح عابداً ربه عزوجل، بإرادة العبادة تعقب الإيمان والبيعة، أما التوفيق على مسار التوحيد والعرفان الإلهي، فلا يتحقق إلا بالاستعانة بالله وأسمائه، وهذا هو سر أن سورة الفاتحة علمتنا أن نظهر هذه الإرادة الشخصية من جانبنا أولاً من خلال قولنا ﴿إياك نعبد﴾. ومن ثم نستعين بالله وأسمائه أن يثبتنا على هذه الإرادة والقرار الشخصي الذي اتخذته المؤمن السالك سبيل عرفان ربه بالدعاء ﴿وإياك نستعين﴾. أي أتوسل إليك يا إلهي أن تثبتني على إرادتي ومسلكي وقراري، فتجذبني بمحبتك إليك، ولا تدعني أتشتع إلى سواك، علماً بأن العبادة كما سبق أن وضعناها لغوياً، تعني الخضوع لله تعالى والتذلل تذللاً تاماً بين يديه عزوجل.

وإنه لا يمكن أن يتم مثل هذا الخضوع والتذلل التامين إلا بالاستعانة بأسماء الله عزوجل وتبيين دلائلها والقوانين النازمة لها إلى جانب محاولة الاتصاف بهذه الصفات ليتحقق التجانس بين العبودية والألوهية. وهذه هي الحقيقة التي عبر الله تعالى عنها في مقام آخر من كتابه العزيز وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي ليعرفوني وليتخلقوا بأسمائي وصفاتي.

وهذه الحقيقة تدلنا على أنّ ظواهر العبادة إن هي إلا وسيلة وليست غاية في حد ذاتها. فالعبادات تهدف أصلاً لإحداث تغيير في قوى النفس الباطنة للمؤمن السالك وهي تمثل في حقيقتها هذه الكيفية الباطنة التي بلغها هذا المؤمن على درج عرّفانه لربه عزوجل.

أمّا الأفعال التي تتطلبها هذه العبادات والمتعلقة بتعيين مواعيد العبادات كالتوجه إلى القبلة في الصلاة، والتأدّب حين الصلّة وضّم اليدين إلى صدر المصلّي، وهذه الحركات من وقوفٍ وركوعٍ وسجودٍ وهذه التساييح وعددها وسواها من الأفعال فلا تدخل في أصل مفهوم العبادة ومحتواها، وهي بمثابة غلاف هذه العبادات وقشرتها تغلف لب العبادة وجوهرها الذي هو لبّ وماهية معرفة الله عزوجل. هذا وإنّ الذي يتمسك بهذه الأفعال وكأنّها الأصل، يكون كالذي تمسك بالقشور وأهمل اللبّاب.

ولا يعني قولي هذا الاستهانة بهذه الأفعال، لابل إن هذه الأفعال لا يجوز التخلّي عنها بصورة من الصّور إلا في حدود ما أذن ربنا عزوجل من حالات مرض وسفر وضرورات، والحكمة من هذه الأفعال، هو أنّها استندت في صياغتها إلى قوانين وفلسفات تتعلّق بتأثير ظاهر المرء في باطنه، إلى تأثير أفعاله وحركاته في قلب هذا العابد وتركيبه الباطنيّ، ولتساعد هذا العابد على الاستفادة بما يعيه من دعائه وقراءاته في عباداته. فتنفيذه في زيادة توجّهه نحو خالقه من حيث الواقع والنتيجة.

وقد يعترض مُعترضٌ على صيغة الجمع التي صيغت بها آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، هذه الصيغة التي يدعو بها فرد عابدٌ وليس أكثر من فردٍ واحد. وأجيب على هذا المعترض وأقول: إنّ تعليم الدّعاء بصيغة الجمع كان له حكمة عظيمة وبالغة، فقد انطوت على الإعلان بأنّ الإسلام وتعاليمه هو دين اجتماعي هادف لتطوير البشر كافة وترقيتهم، فلم ينزل الإسلام لتطوير فردٍ بعينه من

المؤمنين. ونزل الإسلام ليحث المؤمنين به لئلا ينفرد كل واحد بنفسه وينزوي وحيداً يتعبد خالقه، بل وإن من واجبه عدم مفارقة صفوف جماعة المؤمنين، بل ومن واجبه النصيح لهم والرقابة للواحد منهم على سواه كيلا ينحرف أحدهم عن مسار توحيد الله عزوجلّ وكيلا تزلّ قدماه فلا يواسيه أحد من إخوانه المؤمنين.

إن صيغة الجمع التي صيغ بها دعاء ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ تدفع المؤمنين ليقموا صلواتهم جماعة ولا يتفرقوا، وليتفانوا جميعهم في طلب عرفان ربهم والسعي للفوز بمحبته ولقائه وتحصيل رضوانه، ولينبذوا أنانيتهم الفردية وليؤثروا لإخوانهم على أنفسهم، وليعمّ خير تعاليم الإسلام الناس أجمعين.

فصيغة الجمع التي أمرت بها آية سورة الفاتحة في ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وردت معبرة عن روح دعوة الاسلام الاجتماعية والإنسانية والتربوية، هذه الروح التي كانت قد شكلت العامل الأساس الذي دفع زمرة المؤمنين بالاسلام وتعاليمه إلى قمة ما بلغوه من تقدّم ورقّي في صدر البعثة الإسلامية الأولى، وهي التي تشكّل اليوم نفس الدافع ونفس العامل الأساس لتقدّم زمرة المؤمنين المبايعين لإمام زماننا، هؤلاء الذين ستتحقق على سواعدهم نشأة الاسلام الثانية من جديد.

فإذا بلغنا هذا الحدّ من البيان، ربّ سائل يسأل : ماهي نوعية الاستعانة التي يطلبها المؤمن السائل من ربّه حين يدعو ﴿وإياك نستعين﴾؟

وأعود بهذا السائل إلى ما نبهنا إليه ربنا جل شأنه في مفصل كتابه العزيز، أفلم يقل في الآية ٣٢ من سورة النجم: ﴿وَاللَّهُ مَالِي السَّمَوَاتِ وَمَالِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى، الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ، هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكَّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾؟ فهو جل شأنه نبّهنا في هذه الآيات الكريمة إلى نوعية الاستعانة المطلوبة في ﴿وإياك نستعين﴾. إنه تعالى نبّهنا أولاً إلى أنّه المالك الحقيقي لهذا الكون، فأنّت أيها المؤمن الداعي، ينبغي عليك أن تضع في حُسبانك حين تدعوني وتستعين بي أن تضع هذه المعلومة في حُسبانك، من أنني قادرٌ على أن أجزي الذين أسأوا بما عملوا، وأجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

ثانياً - ومادمت أيها المؤمن السالك تسعى لتكون من الذين أحسنوا فاعلم أنّ ربك واسع المغفرة، ومن واجبك اجتناب كبائر الاثم والفواحش، علماً بأنّ الإثم هو الذنب المتعمّد.

ثالثاً - واستثنى جل شأنه هنا "اللّم" فما هي دلالتة؟ اللّم في اللغة صغار الذنوب، وآلم بالذنب : فعّله. وآلم يفعل كذا : أي كاد، فاللّم من أفعال المقاربة. (محيط المحيط)، فما معنى هذا الإستثناء يلاً؟

رابعاً - وقد وردت الإجابة على ذلك من خلال قوله تعالى : ﴿وهو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض﴾، بمعنى أنني أعلم أنكم عرضة لمختلف المؤثرات ومنها ماتركه أغذية الأرض في قواكم الباطنة من تأثيرات. ﴿وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾، بمعنى أنني أعلم أنكم وأنتم أجنة في بطون أمهاتكم خالطت قواكم الباطنة مؤثرات ومؤثرات، فأنفسكم فيها خليط من هذه المؤثرات الأرضية ومن هذه المؤثرات في البطون.

خامساً - يقول تعالى إنّ اللّم الذي أستثنيه يعود إلى هذه المؤثرات وماينتج عنها من أفعال غير متعمّدة ﴿فلا تركوا أنفسكم﴾، بمعنى أنكم إذا سعيتم لتكونوا من الذين أحسنوا فإياكم أن تعملوا على أوامري دون الاستعانة بي، ذلك أنّه تعالى : ﴿وهو أعلم بمن اتقى﴾.

فتقدير تقوى العمل وميزانه لا يملكه إلا الله الذي ﴿له ما في السموات والأرض﴾. فمن واجب المؤمن أن يعمل على أوامر ربّه ويستعينه في جميع مايعمله لتأتي نتائج أعماله كاملة العطاء مُنقاة من جميع هذه الشوائب والمؤثرات التي ذُكرت في هذه الآيات. وهذه هي نوعية الاستعانة المطلوبة من المؤمن السّالك حين يقف بين يدي ربه يدعوه ويقول: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

من هذا كلّ لا بدّ أن يكون المؤمن السّالك درب عرفان ربه قد أحاط علماً بالذريعة الخامسة المطلوبة منه لجذب محبة ربه عزوجل، ألا وهي ذريعة الدّعاء. هذه الذريعة التي تَبْهِنُ إليها قوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. أي أنّ كلّ عمل لا يدعُو فاعله فيه ربّه ولا يستعين به على أدائه، لا يؤتي ثماره المرجوة منه لمخالطة فعل هذا العمل هذه الشوائب التي تَبْهَتُ إليها سورة النجم، وصاحب العمل غير عالم بما وراء عمله وفعله من مؤثرات .

وعلى المؤمن الدّاعي أن يأخذ دوماً مضمون آيات سورة النجم بحسبانه :
يدعوه ربه على أنه مالك السّموات والأرض، ويدعوه على أنه واسع المغفرة
ويدعوه على أنه لا يجهل ما يحمله من مؤثرات ومورثات.

والآن أعود لأتناول السؤال المطروح : مامعنى الدّعاء؟ وماهي حقيقة
الدّعاء علمياً وإسلامياً؟ أمّا عن معنى الدّعاء فقد وضّح لنا صاحب (محيط المحيط)
أنّ الدّعاء من دعا الله يدعوه دُعاءً : إذا رغب إلى الله تعالى وابتهل إليه
بالسؤال، واستعان به ورغب فيما عنده من الخير، فالدّعاء يحمل هذه المعاني
جميعها.

أمّا عن حقيقة العلمية، فإنه يتجلّى لأعين متدبّر آيات القرآن الحكيم أنّ
الله عزوجلّ قد سنّ لتطويع مخلوقه نظامين : النظام الأول هو هذا النظام الطبيعي
وقوانينه الذي ينظم كل شيء مادّي في هذا الكون. فهناك قوانين طبيعية تسيّر
هذا النظام الطبيعي وتضبط تطويعه. والنظام الثاني روعي، تخضع له الأنفس
البشرية خاصة ويشتمل على قوانين تضبط كل شيء روعي .

فمن بين القوانين الطبيعية، مايتعلّق بالماء وبتبخره بالحرارة، وتشكّل
السحب المُمطرة من أبخرته المتصاعدة، وهطول أمطار هذه السحب ليحيي بها
الله تعالى الأرض الميتة.

ومن بين القوانين الرّوحية، مايتعلّق بالدّعاء، وتفاعل آهات الصدور
وصعودها إلى بارئها عن طريق طرق الدّعاء ووسائله، وتشكيلها سُحباً من جِراء
تراكم أبخرة هذه الأدعية المتفاعلة في الصدور، ومن ثمّ بدء دور تجلّي الاستجابة
لهذه الأدعية فيستجيب الله تعالى أدعية عباده المتوسّلين على أعتابه وفق مايقضيه
علمه غير المحدود. على شاكلة ما يحدث عند هطول الأمطار، فقد يكون التبخّر
في مكان ونزول هذه الأبخرة المتجمعة على شكل سُحب يكون في مكانٍ غير
المكان التي تبخرت منه.

والله عزوجلّ على حين أجمل لنا مايتعلّق بالنظام المائي في الآية (٣٠)
من سورة الأنبياء وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. فهو
جلّ شأنه قد أجمل لنا مايتعلّق بالنظام الدّعائي أي بالأدعية وقوانين استجابتها في
الآية ١٨٦ من سورة البقرة وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي، فَإِنِّي قَرِيبٌ
أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

فالدَّعاء قدرٌ روحيٌّ كالماء قدرٌ ماديٌّ له خواصه وتأثيراته. وقد امتاز الإسلام بما جسّم لنا من حقائق هذه الوسيلة الروحية وبما أطلعنا عليه من قوانينها النازمة لها.

ونبهنا القرآن الكريم إلى عظمة وأهمية ماوضّح لنا ومانبّه إليه من خلال قول الله عزوجلّ في الآية (٧٧) من سورة الفرقان: ﴿قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ لَفَقَدَ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لَكُمْ أَلَامًا﴾.

فليتأمّل الباحثون فيما يبيّنه وقلته، وليوازنوا ما بين نظام الدّعاء الروحي وما بين النظام الطبيعي المائي، وعلى ضوء ماوضّحه لنا كتاب الله العزيز، فلأبذلّ لهذا الباحث أن يحيط علماً بحقيقة الدّعاء العلمية نظرياً، فإن انتقل مرحلة تجريبية على ضوء ماوضّحه القرآن الكريم من أمثلة استجابة أدعيه الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وتجربة ذاتية منه إن هو تفقّد بما استفاده من كتاب الله العزيز من معلومات، أقول: إن انتقل هذا الباحث هذه المرحلة التجريبية بضوابطها، يحيط علماً بحقيقة الدّعاء العلمية عملياً أيضاً. وسيتجلّى لهذا الباحث أنّ الماء محور النظام الحياتي المادي. وأنّ الدّعاء محور النظام الروحي الحياتي أيضاً. وبدون تفاعل أهات الصدور وطلباتها لاتدور عجلة نظام الدّعاء الروحي. وهذا هو سرّ أنّ الأديان السماوية جميعها تبهت إلى أقدار الدّعاء الروحية وعلمت مختلف الأدعية على حسب الضرورات الزمنية والمكانية إلى أن نزل القرآن المجيد وعلمنا الله تعالى الذي أنزله سورة السّبع المثاني وفرض علينا الدّعاء بها في كل ركعة من ركعات صلواتنا الخمس المفروضة. ونبهنا من خلال دُعائنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى هذه الذريعة الخامسة لجذب محبة ربنا إلينا نحن المؤمنون المبايعون السالكون والموحدون. هذا وإنّي سأضمّن كتابي الذي سأكتبه حول الدّعاء كقدر روحي تفاصيل مادعوت الباحثين لتقصّيه في هذا المقام، إن شاء الله العزيز. ذلك أنّ للمقام الآن لايتسع لسرد هذه التفاصيل.

وأخلص إلى القول : إنّ من واجب المؤمن السّالك فهم دعاء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بهذا الفهم الذي وضّحه له سورة الفاتحة من خلال التغيير الذي أحدثه ربنا ما بين صياغته للحمد لله رب العالمين على صيغة الغائب، وبين صياغته تعالى للآية الرابعة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بصيغة الخطاب المباشر

لذات الله عزوجل الذي بيده مقاليد النظامين المادي والروحي على أنهما أداة تجلّي ربوبيّته جل شأنه في هذا الكون العظيم.

وإذ نحن فهمنا معنى الدّعاء لغويّاً. وأخطأ علماً بحقيقته العلمية فقد توجّب علينا أخيراً أن نفهم الدّعاء بوجهه الإسلامي. منطلقين من فهمنا العلميّ له الذي شرحناه، ومن منطلق قول الله عزوجلّ من سورة الفرقان (٧٧): ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾. وقبل الاسترسال في البيان لأبّد من الإحاطة بمعاني كلمة (مايعبأ). تقول: ماأعبأ به: أي ماأصنع به، كأنك تحتقره. قال الزّجاج شارحاً: أي وزن لكم عنده لولا توحيدكم إيّاه. يُقال: ماعبأت به أي ماكان له عندي وزن ولأقدر. والعبء هو الثّقل. وماأعبأ بفلان أي مأبالي به. والعبء مصدر. والعبوء هو الحمل والثّقل من أيّ شيء كان (محيط المحيط).

هذه المعاني جميعها تؤكد صحّة المنطلق الذي نبهنا القرآن الكريم إليه. وتساعد على فهم حقيقة الدّعاء علمياً وإسلامياً. فالدّعاء في النظام الروحي، شبيه بالماء في النظام المادي الحيّاتي، وترتبط به جميع تعاليم الإسلام، فهو اللّولب، والتعاليم هي الأدوات والقوالب والأطر والقشور. وبدون عنصر الدّعاء تنقلب هذه التعاليم لغواً لا حراك فيها ولا تأثير.

وهل يُفيد وجود الحبّ بأنواعه المختلفة، والغراس بأشكالها العديدة، وهل تجدي الأرض وأدوات الزراعة بدون واجد الماء ونظامه الحيّاتي؟ هكذا حال تعاليم الدّين تفقد مصداقيّتها إذا خلت من قدر الدّعاء وضوابطه وشروطه.

هذا وإنّ الذي يتدبّر ماقصّه القرآن الكريم علينا من قصص الأنبياء والصالحين من عباد الله تعالى يُلاحظ ذلك، فقد كانت حكمته البالغة توجيه أنظارنا إلى حقيقة الدّعاء، ومايحمله من قوى خلق وتكوين، فبالدّعاء تغيب أسباب وتتولد أسباب، وبالدّعاء تتغيّر مجريات الأمور. وهأنّ سيد رسل الله محمد اليّتم الأمي قد ضرب للبشر قاطبة أسوة حسنة للاستفادة من الدّعاء. فقد أمضى سنواتٍ من عمره قبل الدّعوة في غار حراء يوم ماكان يدري ماالإيمان ولاالكتاب (شورى ٥٢) ماين تفكير ودعاء. وبعد الدّعوة كان يتضرّع بين يدي ربه عزوجلّ يومياً فيقوم الساعات الطوال من ليله يتضرّع ويدرف الدموع لصالح أمته والعالم حتى تتورّم قدماه. هذا وقد كان نجاحه في توحيد أمته إحدى

بركات تلك الدعوات. فليجرب المؤمن السالك اللجوء إلى هذه الذريعة الخامسة
ذريعة الدعاء ليصبح صاحب تجربة في هذا المضمار. فأنا من جهتي صاحب تجربة
والحمد لله.

إنَّ الدَّعاء بكلمات موجزة أداة تناعم وتجادب ما بين المؤمن السالك
وما بين تجليات ربوبية الله رب العالمين. وبالدَّعاء يتدارك الدَّاعي سدَّ الفجوة
ما بين الأسباب وأخطائه. والدَّعاء له قوانينه وضوابطه وشروط قبوله. والدَّعاء
المستجاب لذَّة ونشوة لاتعادلها لذَّة أرضية، والدَّعاء قوة شاحنة لأمفرغة، والدَّعاء
الحقيقي منشط، لأمضعف، وهو قدرٌ إيجابي لاسلي، وبالدَّعاء المستوفي شروط
قبوله، تنجذب محبة الله إلى هذا العبد ويتشرف بالتالي بقربه ولقائه عزوجل.
وبالدَّعاء ينمو كيان المؤمن الروحي، وتفتح قواه الروحية من عيون مُبصرة إلى
آذان تتشرف بسماع كلام الله اللّذيذ. وبالدَّعاء يزداد المؤمن علماً لديناً من الله
تعالى مباشرة.

إنَّ حرارة صدر المؤمن التي يولدها الدعاء بتفاعلاته، ينشأ عنها سُحب
ثقالٌ في السَّماء الروحانيَّة، وتوجّه ربوبية الله هذه السَّحب بعلم الله لتحقيق
ما هو في صالح صاحب هذه الآهات الحارة. أفلا يُلاحظ هذا المؤمن مايجري من
تناغم بين الأم وولدها؟

فمن المعلوم أنَّ بُكاء الرضيع يستدرّ الحليب إلى ثدي أمّه. وبُكاء الطفل
يستدر عطف والدته عليه، فإن هو بكى وشكا البرد سارعت أمّه إلى إلباسه
معطفه. وإن هو شكوا الجوع سارعت تقدّم له طعاماً يسه رمقه حفاظاً على
سلامته. فبكاء الطفل يحدث هذا التناغم كله ما بين الولد وأمّه. كذلك فبالدَّعاء
يحدث هذا التناغم ما بين العبد وربّه عزوجل. وهذا هو الصراط المستقيم الذي
سار عليه الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهو
الصراط المستقيم الذي دفعتنا سورة الفاتحة لطلبه ﴿اهدنا الصراط المستقيم.
صراط الذين أنعمت عليهم﴾. وذلك بعد أن علمتنا سورة الفاتحة أن ندعو
﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

فالدَّعاء قدر روحي كقدر الماء في النظام الطبيعي، وقد تميّز الإسلام
بتسليح المؤمنين بهذه الذريعة المنتجة الفعالة، عمّا قبله من الديانات، سلّحهم
بالصلّاة التي هي عماد هذا الدِّين، وقد أتى جل شأنه بها ذات قوى ومكوّنات.

أفلا يلاحظ المرء أنَّ الكيميائيين يرمزون للماء بالعلاقة (H₂O) التي تعني أن عنصر الماء لا يتكون إلا من تفاعل عنصرين من أوكسجين مع عنصر واحد من الهيدروجين. فهذه الصلاة الإسلامية قد شابهت ذلك. أفلا نلاحظ كيف رُكِّبت الركعة الواحدة من الصلاة من وقوفين وركوع واحد وسجودين كإطار حركي. ومن دعاء الفاتحة الذي أجمل ما في القرآن الكريم من مواضع. وقد قرن الركوع بثلاثة من الذكر سبحانه ربي العظيم، كذلك قرن السجود بثلاثة من الذكر سبحانه ربي الأعلى. فكل ركعة من ركعات الصلاة الإسلامية مؤلفة من ذراتٍ عدّة أقدار وعناصر روحية، وبقوى متناسبة حتى إذا تفاعلت هذه مع حرارة صدر المصلي وآهاته، ينتج عنها هذا القدر الروحي الذي هو أساس النظام الحياتي الروحي في مقابلة الماء الذي هو أساس النظام الحياتي المادي.

ثم أفلا نلاحظ كيف أنَّ للقاضي حقّ إصدار أحكام مع وقف التنفيذ. وهذه الصلاة الإسلامية، إن صلاها المؤمن بشروطها وبأدعيتها الحارة تحرك ربوبية الله عزوجلّ التي تتحلّى فتوقف تنفيذ عمل كل الأسباب الضارة بهذا المصلي والتي توشك أن تهدد كيانه.

بل وتخلق لأجل فائدته ولصالحه أسباباً من عالم الغيب، لأتري بالعين المجردة، بل ترى بنتائجها العملية والتي يتحسّسها هذا المصلي بعد صلاته.

وعليه فلا يجوز لمسلم أن يُجري أيّ تعديل على الصلاة الإسلامية التي وصلتنا جيلاً بعد جيل وبالتواتر عن الأسوة المحمدية الطاهرة. فإن أقدم أي مسلم على مثل هذا التبديل على أوقات هذه الصلاة، وعلى قوى حركاتها وقوى تساييحها وحذف منها دعاء الفاتحة، فلا تعود هذه الصلاة الدعاء الفعال، ولا تثمر الثمر المطلوب الذي ذكرناه.

من هذا كلّهُ ندرك أهمية توفر عنصر الخشوع الذي اشترطه ربنا عزوجلّ في أول آية من سورة المؤمنون وهو ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾. هذا الشرط يوازي الحرارة الضرورية التي يتطلبها الماء ليتبخّر ويتصعد في السماء. وبدون عنصر الخشوع في الصلاة الإسلامية، لا تتصعد ماتضمنته من أدعية إلى سماء الربوبية.

لذلك لاحظناه جل شأنه يقول في الآية (٥٨) من سورة مريم: ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَنَحْنُ حَمَلْنَا مَع نُوحٍ

ومن ذرية إبراهيم واسرائيل، ونحن هدينا واجتينا، إذا تلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجّداً وبُكياً، فخلّف من بعدهم خلفاً أضاعوا الصلاة وآتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً. إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً. ﴿١٠٠﴾ وقوله عز وجل ﴿أضاعوا الصلاة﴾ لا يعني أنهم تركوا الصلاة. بل يعني أضاعوا الصلاة كقدر روحي وسلاح بّار. وعادت صلواتهم تقليدية وشكلية ومجرّد قشور لألباب فيها. وإلا فإنّ جميع أتباع الديانات يُصلّون في معابدهم وفي كلّ مكان. فمعابد هؤلاء عامرة، ومساجد المسلمين المعاصرين عامرة أيضاً، لكنها جميعها خرابٌ من الهدى، فلا تثمر أديعتهم ولا تُستجاب.

لذلك صلّوا بكامل الخشوع والتضرّع في صلواتكم، ولا تمسكوا دموعكم إذا هدرت وخروا سُجّداً وبُكياً، لتثمر صلواتكم أفانين الأعاجيب، ولتصبّحوا مستجابي الدّعوات بإذن الله الذي أرسل إمام زماننا ليعث فينا روح الصلاة الإسلامية من جديد.

ولابد لمن طالع مؤلفاتي أن علم بالمعادلة التي تربط ما بين جسد المرء ونفسه. فهي معادلة عكسية بالاصطلاح الرياضي. أي أن حالة النفس البشرية تتناسب عكساً مع حالته الجسمانية. فكلما ضُعُفَت حواس الإنسان وأعضاؤه، ضعف سلطانها على النفس التي تبدأ تتخلّص من إسارها. فإذا غلب النوم على الإنسان فاستلقى ونامت حواسه وأعضاؤه، تنطلق نفسه من إसार هذا الجسد في عالم برزخيّ هو أشبه بحالة الموت، وحينذاك تعود هذه النفس ترى وتسمع وتأكّل من دون هذه الأعضاء والحواس الماديّة.

وصاحب تجارب الدّعاء، يدري أنّ نفس المعادلة العكسية تفعل فعلها حين سجود المُصلّي الذي يخرّ ساجداً وبُكياً. وأنا بفضل الله تعالى صاحب تجربة في هذا الموضوع. ففي لحظات السجود والتوسّل والتضرّع يحدث ما يحدث للنائم، فيتراخي سلطان هذه الأعضاء والحواس الجسمانية وتنطلق نفس المؤمن فترى وتسمع بغير هذه العيون وهذه الآذان، وكثيراً ما تُستجاب الدّعوات في تلك اللّحظات. ويقطف هذا السّاجد ثماراً روحية ولذّة ونشوة وسلواناً بما يشبه حال الطفل الرضيع الباكي بحرارة، إذا ما احتضنته أمّه يتهدى ويجد سلوانه ويستسلم

إلى النوم في حضن أمه. وهذا أحد أسرار ماتضمنه قول ربنا عز وجل في كتابه العزيز: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾. أي لابد في الصلاة من توفر شرط الوعي، وشرط الوعي هذا أشبه مايكون بالتواء الذي يُخَدَّر أعضاء المصلِّي ويُنَشِّط كيانه النفسي. فعلى قدر مايستغرق المصلي في حالة وعي مايقروؤه في صلواته من أدعية وتساييح وأذكار ويتوسَّع في فهم دلالاتها تتخَدَّر حواسه العضوية لاشعورياً وتنشط حواسه الروحية، وتأخذ حالة الحمد لله رب العالمين.

ثم أفلا يلاحظ المرء كيف أن مفعول حبوب الأدوية يتراوح بين أربع وست ساعات. وهذه الحقيقة تفسر قوله عز وجل ﴿إِنْ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾. فهأنَّ بين الصلوات الخمس فواصل زمنية شبيهة بتلك الفواصل المادية للحبوب الدوائية، من ذلك ندرك أنَّ مفعول حالة الخشوع التي تنتجها الصلاة لايدوم إلا ساعات معدودات، ولا بد من المداومة على الصلاة طيلة الحياة وفي أوقاتها المفروضة، فما الصلاة بمجرد عبء على كاهل المصلي وضريبة مفروضة عليه. فالله جل جلاله مُسْتَعْنٍ عن كل شيء. وهذه الصلاة قدر روحي في صالح وفائدة الإنسان نفسه، وسلاح يتار بين يديه مسخر لتحقيق حاجاته، وآه ثم آه على المسلم الذي يقف على شاطئ النبع الصافي، ويرجع من هناك وهو عطشان.

وسبق لي أن قلت: إنَّ حركات وأذكار وقراءات الصلاة الإسلامية، هي بمنزلة القشرة للْب هذه الصلاة، ولتجعلها قدراً روحياً مثمراً فعلاً، فلم تأت صياغة الصلاة على الشكل المذكور عبثاً. بل كانت صياغة مدروسة ومؤسَّسة على أسس علمية مُستندة إلى قانون تأثير ظاهر الإنسان في تكوينه الباطن وخلقه. ففي حالات المرض والسفر يجوز التخفيف من هذا القشر الظاهر، والدعاء بدونه. أما في حالة الإنسان الطبيعية، فلايجوز فعل ذلك بحال من الأحوال.

أفلا نلاحظ كيف أن خالقنا عز وجل قد جعل لكل ثمرة قشرة تحميها وتناسب معها سماكة ولوناً ونسيجاً؟ وهذا هو حال هذه القشرة التي تغلف قدر الدعاء المطلوب والمؤلفة من حركات وقراءات وتساييح وأذكار. وهذه الصياغة لأطر الصلاة امتازت أنها قامت على أصول علمية ولتحقيق أهداف سامية هي في صالح الفرد والمجتمع وفي آن واحد.

إلى جانب أنّ هذه الصياغة جاءت متوافقة مع مقتضيات الفطرة البشرية وحاجاتها أيضاً. وبالإمكان التوسّع في هذا الفهم بالرجوع إلى مؤلفي (الصلاة الإسلامية دراسة وتحليل بالأسلوب العلمي).

ولا يحسب المؤمن أنّ بإمكان الكافرين بالله تعالى وأعدائه أن يستفيدوا من قدر الدّعاء هذا لإيذاء المؤمنين وهدم مايعمرونه. لا فليس بإمكان هؤلاء تسخير الدّعاء لأغراضهم ولمايشتهون. فالدعاء سلاح خاصّ سلّح به جنود الله في الأرض، وهو بمنزلة الرّداء الذي لا يخترقه الرّصاص.

فهذه البحيرات والبحار تتبخّر بكميّات أبخرة، وتشكّل منها سحب ممطرة تغطي السّماء. فهل تلاحظون أن تلك السّحب لاينظم هطولها قوانين طبيعية من منخفضات جويّة ومرتفعات؟ وقد تسير الرياح تلك السّحب الممطرة إلى أمكنة لا تمت لأمكنة تبخرها بصلّة من الصّلات. فإن كان هذا هو حال النظام المائي الحيائي. فما بالكم بنظام قدر الدعاء الروحيّ وهو الذي يوازيه في عالم النظام الروحيّ؟

ولنعد إلى كتاب الله العزيز نتدبره على هذا الصعيد. فإننا سنلاحظ أنّ ربّنا يشرّ المؤمنين السالكين سبيل عرفانه ويقول في الآية (١٤) من سورة الرّعد: ﴿له دعوة الحقّ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلاّ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه، ومادعاء الكافرين إلاّ في ضلال﴾. فما معنى ﴿له دعوة الحقّ﴾؟ اللّام في له تفيد الملك ودعوة مصدر دعاء. والحقّ ضدّ الباطل. أي أن ملكية التصرف بسحب الخير المتأتية عن أدعية الناس هي في يد الله وحده. فالله وحده يملك إخراج نتائجها الخيرة. وهو وحده يملك تضليل مايدعو إليه الدّاعي من العباد. ذلك أن الله عزوجلّ مهيمّن على القوانين النازمة لكل دعاء مهما كان مصدره. فهو قادر بذلك على تحويل سحب الدعاء بالاتجاه الذي يشاء. فالله غالب في ذلك على الدّوام. فلايستجيب من الأدعية إلا ماكان منها في صالح الحقّ، وليس في صالح الباطل فهو تعالى يستجيب ماكان منها في صالح الصدق والعدل فهذا معنى ﴿له دعوة الحقّ﴾. فما أبلغ هذه الكلمات وماعظم دلالاتها.

وأضاف جل شأنه يقول: ﴿والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلاّ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه﴾. أي أنّ أعداء الحقّ

من المشركين لن يستفيدوا من أدعيتهم وآهات صدورهم التي يذلونها على غير عتبة الله الحق إلا بقدر ما يستفيده الذي ييسط كفيّه إلى الماء يدعوه أن يتحرك هذا الماء من نفسه ويسارع إلى فمه ليروي عطشه. فهل يفيد دُعاء هذا في جذب الماء إلى فمه مهما طال وقوفه أمام الماء ومهما طال دعاؤه؟ لاشك أن الماء المستخر لإرواء عطش الإنسان مفيدٌ ويروي العطش. لكنّه لا يتحرّك من نفسه ولا يفيد من تلقائه إلا إذا انضبط هذا العطشان بالقوانين التي سنّها الباري لتحقيق ذلك. فالإنسان الذي لا يلتزم بهذه القوانين المسنونة لا يستفيد من دعائه الماء إليه مهما أكثر من دعائه، فلن يأتي الماء إلى فمه ليطفئ ظمأه ولن يبلغ الماء فاهُ بدعائه المذكور، مهما ثابر على هذا الدُعاء، ويبقى محروماً من الخير العميم الذي تكون منه هذا الماء.

فالله جلّ شأنه يملك القوانين النازمة لأجرة صدور الداعين على شاكلة ما يملك من القوانين النازمة لأجرة المياه المتصاعدة من تجمّعات المياه. فله دعوة الحق وهو يملك نتائجها وبركاتها.

ويتساءل المرء هنا: وإلى أيّ مصير تؤول أجرة صدور أدعية الداعين من غير المؤمنين؟ وقد أجاب الله عزوجلّ على هذا السؤال في آخر الآية الكريمة وقال: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي أنّ أجرة صدور أدعية الداعين من غير المؤمنين لن تثمر ولن تصل هدفها بل ستظلّ في ضلال عن هذا الهدف. لأن تلك الأدعية لا تهدف لنصرة الحق وتأييده، بل لنصرة الشرك والباطل وتأييده. وهذا هو السبب في ضلال تلك الأدعية عن سبيل التناغم مع تجلّيات ربوبية الله رب العالمين الذي بيده مقاليد كل شيء، والذي يهيمن على القوانين النازمة لاستجابة دعوات الداعين من عباده.

وإنّ الله عزوجلّ عندما قال بحق دعاء الكافرين إنّهُ "في ضلال". فقد شبه دعاء الكافرين برسالةٍ مرسلّةٍ إلى عنوان مجهول، فهل بالإمكان أن تصل إلى المرسل إليه؟ أي أنّ دعاء الباطل لا يثمر عطاءً المرجو منه. فله دعوة الحق لأنّ تبديل الأسباب وخلق الأقدار، أمر كائن في قبضة مالك السموات والأرض. وإنّ كلّ إنسان لا يؤمن بالله تعالى ولا يربط مصيره به عزوجلّ يستحيل أن تتحقق آهات صدره وأدعيته أقداراً وأسباباً تخالف مشيئة هذا الإله المالك لكل شيء.

ولم يكتف الله جل شأنه بهذا التبشير الذي بشره المؤمنين السالكين في هذه الآية الكريمة. بل أتبعها بآية أخرى تؤثّق مضمون هذه البشارة وتؤكدّه وقال: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً، وظلالُهُمْ بالغدو والآصال﴾. أي اعلّموا أنّ كلّ من في السموات والأرض مطيع ومتذلّل أمام الله خالقه (طَوْعاً وَكَرْهاً). إشارة إلى أن كلّ إنسان مستسلم للقوانين الطبيعية التي سنّها الله الخالق لتسيير هذا الكون، طَوْعاً وَكَرْهاً.

فكيف يسجدون ويطيعون (كرهاً)؟ يسجدون ويطيعون كرهاً من جهة تكوينهم الجسماني. فلسان الإنسان مكرّة على تذوّق الأشياء. وأذنه مكرّة على سماع ذبذبات الأصوات. وعينه مكرّة على نقل صور هذه الأشياء إلى دماغ هذا الإنسان وهكذا دواليك. فهذه الأحوال جميعها تفسّر معنى خضوع من في الأرض "كرهاً". أما خضوع هذا الإنسان طَوْعاً ويارادته، فتفسّره حالة معدته إذا أشعرته بالجوع، يسارع إلى تناول طعامه لإشباعها وإسكاتها يارادته الشخصية. وإذا آله سنّه أو ضرره يسارع إلى طبيب الأسنان يسأله فحص سنّه ووصف الدواء لمعالجته. ويارادته الشخصية أيضاً. وجميع هذه الحالات وأمثالها تفسّر جميعها معنى خضوع من في الأرض "طَوْعاً". أما ملائكة الله الذين في السّماء فيفعلون ما يؤمرون.

والله جلّ شأنه بهذا الشطر من الآية يكون قد أفحم الكافرين الذين يدعون لإيذاء المؤمنين الصادقين وقدم لهم دليلاً عملياً على أنه ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ وعلى أن ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كِبَاسُ طَرَفٍ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فِيهِمْ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ وإلى أن ﴿وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾. وهذه المعاني جميعها تؤكد صحّة ما بشر الله تعالى به عباده المؤمنين من أنه جلّ شأنه يستجيب أديعتهم إن هم استجابوا له وساروا على درب عرفانه وسعّوا للتناغم مع تحلّيات ربوبيته وجذب محبته وكسب قربه ورضاه.

أما قوله تعالى ﴿وَوَظِلَّاهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالْآصَالِ﴾. فالظلال جمع ظلّ. وفي أقرب الموارد: إن الظل هو كلّ موضع زالت عنه الشمس فهو ظلّ. وظل الشباب أوله. والظل هو الفيء الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس مطلقاً. ويقال: هو في عيش ظليل: أي في ظلّ الكرامة، وقال صاحب معجم المفردات: إن الظلّ يقال لكل موضع لم تصل إليه الشمس.

فالمقصود من (وظلالهم) بناء على المعاني التي ذكرناها هو أن جميع الكائنات تستظل بالقانون الطبيعي المسنون في هذا الكون. والكافر من الناس بربه وبإحساناته يشكل جزء من هذه الكائنات.

وقد أضاف تعالى يقول (بالغدو والآصال) فليعطي هذا الظل أبعاده التي لا تكون إلا في الغدو والآصال. والمهم هو أن الله عز وجل قد نبه الكافرين به وبدينه إلى أن أدعيتهم وتدابيرهم لن تفيدهم شيئاً في مجال مقاومة دينه ورسوله والمؤمنين.

وقد بشر في الوقت نفسه المؤمنين السالكين درب عرفانه أن ذرية الدعاء التي حسنها لهم في هذه الصلاة الإسلامية الموروثة بالتواتر هي الذريعة الناجعة في جذب محبته وكسب قربه ورضوانه.

٧- التوبة والاستغفار (مفهومها وفلسفتها) :

والذريعة السابعة التي يوجهنا إليها كتاب الله العزيز لنجذب بحبة ربنا إلينا على درب عرفانه، تضمّنتها الآيات التي تدفع المؤمن السالك ليتخذ ديدنه اليومي اقتناص الدقائق من أوقات فراغه للتوبة والاستغفار، ومنبهة هذه الآيات الكريمة إلى أن الذين أنعم الله عليهم بمحبته وعرفانه وقربه من قبلنا من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كانوا من الذين يعمدون إلى ذريعة التوبة والاستغفار كلما سنحت لهم دقائق فراغ ضمن حياتهم اليومية.

ولذلك قال تعالى في الآية (٢٢٢) من سورة البقرة: ﴿... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾. وقال في الآية (١٧) من سورة آل عمران: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

من هذا لا بد أن أدرك المؤمن السالك ضرورة استعانتة بالله تعالى على جذب محبة ربه بذريعة الإكثار من التوبة والاستغفار ومتذكراً جدّه إبراهيم عليه السلام الأبواب والذي وقى وكان أباً لأنبيا عديدين، يوم كان يرفع قواعد البيت العتيق وابنه اسماعيل وهما يدعوان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. البقرة ١٢٨ - وهل كان إبراهيم مُذنباً في شيء حتى يدعو ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ إلا أن كان من

أوراده التوبة والاستغفار على التَّوَاب؟ الأمر الذي يعني أنَّ النَّاسَ في غفلةٍ عن فلسفة التَّوْبَةِ والاستغفار.

وقبل أنْ أخوض في موضوع التوبة والاستغفار، أحاول إبراز دلالات هذين اللفظين من معاجم اللغويين. ففي (محيط المحيط): تاب المؤمن إلى الله: رجع عن المعصية أو ندم على الذنب، مستقراً ومعتزاً بأن لا عُذر له في إيتائه، وهو تائب وتواب، وتاب الله عليه معناه وفقه الله للتوبة ورجع عليه بفضلِهِ وقبوله. فالله تَوَّابٌ على عباده. وقال في الكليات، إذا استعملت التوبة مقرونة بصلة "على" أي تاب عليّ، دلَّت على معنى القبول.

وتَوَّابٌ اسم فاعل من تاب، يُستعمل في الله لكثرة قبول الله التوبة من العباد. أما إذا استعملت بعن كان اسم الفاعل تائباً. وتاب إليه معناه أناب. والتوبة مصدر تاب. والتَّوْبَةُ النَّصُوحُ عند ابن عباس: هي الندم بالقلب والاستغفار باللسان والإقلاع بالبدن وإضمار أنه لا يعود.

من هذا ندرك أنَّ التوبة هي الندم على الذنب أي على الخطأ غير المتعمد. ومادام من أسماء الله تعالى التَّوَاب، فإنه تعالى يقبل توبة التائبين بكثرة لا مثيل لها. وأنَّ التوبة النَّصُوحُ هي التوبة من فعل معصية واضحة المعالم لذلك سُمِّيَتْ بالنَّصُوح. أمَّا التوبة مجردة فهي إقرار بضعف التائب وكونه مركباً من الخطأ والنسيان، ويدعو لرَّبه باستمرار طالباً عفوه ومغفرته ومقرراً بضعفه بين يدي ربه عز وجل.

ولفظ الاستغفار تعرَّض له صاحب معجم (محيط المحيط) بقوله: غفر الشيء معناه ستره. وغفر الله له ذنبه: غطَّى عليه وعفا عنه. واستغفر المؤمن الله من ذنبه: طلب أن يغفره له.

والغُفْران مصدر غفر، وهو يقتضي إسقاط العقاب ونيل الثواب، ولا يستعمل إلا في الباري تعالى. لذلك فلا يستعمل الغفران للعبد، ويستعمل لفظ العفو بدلاً عنه. إذ يجوز لمن يُطلب العفو منه أن يستر ولا يغفر ولا يصفح التجاوز عن الذنب. فالعفو يقتضي إسقاط اللوم والذم، ولا يقتضي نيل الثواب. وصفة الله الغُفَّار للمبالغة، والغفور بمعنى فاعل كثير المغفرة، ولفظ الغُفَّار أبلغ من الغفور لزيادة بنائه وقوة تفعيلته. وقيل إن الغفار اسم معبرٍ من جهة كمية الغفران. أما الغفور فإسم معبرٍ من جهة كيفية الغفران.

والاستغفار مصدر استغفر وطلب المغفرة. وفي التعريفات : الاستغفار استقلال الصالحات والإقبال عليها واستكبار الفاسدة والإعراض عنها. والاستغفار عند أهل الكلام : طلب المغفرة بعد رؤية قُبْح المعصية والإعراض عنها، والمغفرة مصدر واسم من غفر. قال في الكلّيات : المغفرة صيانة العبد عمّا استحقّه من العقاب بالتجاوز عن ذنوبه، وهي من الغفر أي إلّباس الشيء ما يصبونه من الدّنس، وقال في التعريفات : المغفرة هي أن يستر القادر القبيح الصّادر من تحت قدرته، حتّى وإنّ العبد الذي يستر عيب سيّده مخافة عتابه لأيقال له غفر له.

ندرك من هذا كله أنّ كلمة الاستغفار تضمنت أولاً طلب ستر ما بدر عن المستغفر. ثانياً وعلى أساس أن المغفرة لا تكون إلاّ الله عزوجلّ الذي بيده إسقاط العقاب وكتابة الثواب. فالغفّار اسم من أسماء الله الحسنى. ثالثاً: ويعني استغفار العبد إعراضه عن معصية ربّه بعد رؤيته قُبْح هذه المعصية. رابعاً : ولا يجوز تسمية الإنسان غفّاراً، وإن ستر عيب سيّده ذلك لأن الإنسان لا يملك حقّ إسقاط العقاب : فلا يُسمّى غفّاراً إلاّ الله عزوجلّ.

أعود الآن إلى موضوع ذريعة التوبة والاستغفار التي تجذب محبة الله تعالى فأقول : أفلاً نلاحظ كيف أنّ الله تعالى حين راح يعدّد صفات المؤمنين المبشرين بمحبته وقربه ورضوانه وذلك في الآية (١١٢) من سورة التوبة، كيف قال: ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ويشرّ المؤمنون﴾؟

فهو جل شأنه استهلّ هذه الصفات بصفة (التائبون). والتائبون جمع تائب، وقد جعل بذلك ورد التوبة والاستغفار ذريعة هامة على طريق هذا التبشير الموجّه لهؤلاء المؤمنين.

أي أنّ دعاء سورة الفاتحة ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قد فرض أن يدعو به المؤمن السّالك في كل ركعة من ركعات صلواته وأذكاره لعلاقته المباشرة بالشوائب اللاحقة بتكوينه الفطري عن طريق غذائه ومورثات والديه. وهذا المؤمن بعد أن يترعرع تلحق به شوائب جديدة ومتنوّعة، لذلك فإنّ عليه أن يجعل التوبة والاستغفار ديدناً له في لحظات فراغه، تداركاً لهذه الشوائب المستحدّة، كيلا تحول دون رُقّي كيانه الروحي.

فالتوبة والاستغفار بفلسفتيهما الإسلامية تكمل لهذا المؤمن ما يطلب من ربه من الإعانة لمعالجة ضعفه من هذه الشوائب جميعها. فيتوب ويستغفر على الدوام طالباً من ربه عز وجل أن يُنقِط عنه عقاب كل معصية تصدر عنه: مقصودة كانت أو غير مقصودة، وبعد زوَّيْتِه لِقَبْحِهَا الذَّاتِي، ذلك أن نهج التوبة والاستغفار المطالب به هذا المؤمن السالك ارتكز إلى فلسفة وحكمة عظيمتين وهما:

لذلك يتساءل المرء هنا عن هذه الفلسفة والحكمة التي ارتكزت إليها مُطالِبَةُ اللَّهِ لهذا المؤمن السالك بالدأب على التوبة والاستغفار. فما هي معالم فلسفة النهج المذكور؟

أقول : أفلا يلاحظ قارئ القرآن الكريم تركيزه جلّ شأنه على كلمتين في كلّ مناسبة حضّ المؤمن فيها على التقدّم والتقرب من ربه عز وجلّ وهذان اللفظان هما : الفوز والفلاح ؟ فهو جلّ شأنه راح في سورة الاحزاب يقول في نهاية الآية (٧١) "فقد فاز فوزاً عظيماً". وفي آخر الآية (٧٢) من سورة التوبة قال: "وذلك الفوز العظيم".

وقال في آخر الآية (٣٠) من سورة الجاثية: "وذلك هو الفوز المبين". وفي آخر الآية الحادية عشرة من سورة البروج قال: "وذلك هو الفوز الكبير". كذلك يركز على لفظ الفلاح أيضاً فإله عز وجلّ يقول: "لعلكم تفلحون" و "قد أفلح المؤمنون" في سور وآيات عديدة. وفي مقابل ذلك قال تعالى في آخر الآية (١٣٥) من سورة الأنعام: "لا يفلح الظالمون".

وفي آخر الآية (١٧) من سورة يونس: "ولا يفلح المجرمون". وفي آخر الآية (٧٧) من سورة يونس أيضاً: "ولا يفلح الساحرون". وقال في آخر الآية (٨٢) من سورة القصص: "ولا يفلح الكافرون". كذلك قال في الآية (١١٦) من سورة النحل: "وإنّ الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون". وهل يظنّ القارئ أن هذا التركيز على استعمال لفظي الفوز والفلاح في كتاب الله العزيز وعلى الصّور التي لاحظناها قد أتى من غير حكمة ولا فلسفة بالغين؟

فالسؤال الآن هو: ماهي فلسفة كلمة أفلح التي تعني لغةً : ظفر بما طلب ونجح في سعيه وأصاب في عمله؟ وماهي فلسفة كلمة فاز التي تعني نجح وظفر بالخير؟ أي ماهي الفلسفة التي ارتكز كتاب الله العزيز إليها حين اختار استعمال

هذين اللفظين أفصح وفاز؟ وماهو وجه الإعجاز اللغوي باختيار هذين اللفظين لتحقيق المقاصد التي نزل القرآن الكريم لتحقيقها؟
أقول جواباً على ذلك : إنّ الله عزوجل أنزل تعاليم الإسلام موافقة لمقتضيات الفطرة البشرية. وهذا أمر سبق أن بحثناه. ومن مقومات هذه الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، أنّ صاحبها الإنسان ينزع بشكل فطري إلى حياة الخلود والرقى الأبدى. ذلك أن الإنسان حين يتصور أنه سيموت تكتسب نفسه ويتمنى الخلود. ولذلك تنشّد جميع الأمم إطالة أعمار مواطنيها.
وقد جاءت تعاليم الإسلام موافقة لهذه الفطرة، وتعدّ بالحياة بعد الموت وبالخلود والبرقي اللانهائي. ولتؤكد أنّ الموت لايعني إلا انتهاء أول مرحلة من مراحل التطور على طريق الخلود والرقى اللانهائي. وأنّ الإنسان إذا آمن بالله خالقه وبأبى مرسله، يتولد له كيان روحيّ هو حصيلة حياته الدنّيا. وهذا الكيان خالد لا يأتي عليه الموت، ويرتبط غمّه وتطوره بمدى ارتباط صاحبه بتعاليم دينه.
فمن كفر وكذب لايفلح ولايفوز في تحقيق نزوع فطرته إلى حياة الخلود. بل لابدّ له أن يُعاقب ويُعالج في عالم البرزخ إلى أن يستعيد هذا الكيان الروحي المطلوب.

هذه حقيقة كامنة وراء اختيار القرآن الكريم للفظي الفوز والفلاح. وهي حقيقة لمحت إليها الآية الثامنة من سورة التحريم التي تقول على لسان المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اقْصِمْنَا بِكَ نَفْسَنَا وَنُورَنَا وَاقْصِرْ لَنَا بِكَ كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾. بمعنى أنّ الواحد من المؤمنين كلما تحقّق له رقي درجة روحية من درجات النور، تراءت له درجة أرفع وأكمل منها، ويحسّ بإحساس النزوع إلى هذه الدرجة الأرفع والأكمل، ويطمح أن يتمّ له ربّه نوره الذي يسعى بين يديه.

فإذا استحباب له ربه ورقاه هذه الدرجة الروحية، يتحسّس نفس الواقع ونفس النزوع، ويتوسل أن يتمّ الله ربّه له نوره الذي يسعى بين يديه. ويستجيب له ربّه وتظلّ تراءى له درجات أرقى من درجته الروحية وهكذا دواليك يظلّ يترقى إلى ما لا نهاية ويحيا حياة الخلود الأبدى.

فهذه هي فلسفة اختيار القرآن الكريم للفظي الفوز والفلاح من دون تعيين وتحديد ماهية هذا الفوز والفلاح. وقد ترك أمر اكتناه هذه الفلسفة وهذه الحقيقة للإنسان المؤمن الطاهر والمتدبر للقرآن الكريم.

وليلاحظ القارئ آية سورة التحريم هذه كيف أن المؤمنين لا يكتفون بقولهم ﴿أقم لنا نورنا﴾ بل يضيفون قائلين ﴿واغفر لنا﴾ أي استر ضعف درجاتنا التي نحن فيها وأقم لنا هذا النور. مُنطلقين في طلبهم المتكرر المذكور من منطلق اعتقادهم بربهم ﴿إنك على كل شيء قدير﴾. فالتوبة والغفران إذن تحملان هذه الفلسفة العظيمة. وإن المؤمن الذي يسعى للفوز والفلاح، لا يتوانى أن يستغفر ربه على التوأم ويتوب إليه طمعاً منه أن يتمي كيانه الروحاني وليجعل الله له نوراً يمشي به بين الناس. ومعتقداً بأن حياته الدنيا التي يحياها، إنما تشكل أول محطة على طريق الخلود والرقى النهائي أي على طريق الفوز والفلاح في تحقيق المقصد الحقيقي من وجوده على سطح هذه الكرة الأرضية.

ثم إن المؤمن إذا جلس يقول (أستغفر الله ربي من كل ذنب وأتوب إليه ربي إني ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) وواضعاً نصب عينيه فلسفة وحكمة ماتهتد به التوبة والاستغفار إلى تحقيقه في نفس هذا المؤمن التائب المستغفر. إذا دأب المؤمن على هذا الورد يعود شيئاً فشيئاً على محاسبة نفسه على ما يبدل عنها من ضعف على درب طاعته الله والانصياع لأوامره عز وجل. ويبدأ هذا المؤمن يتحسس حسن الأشياء وقيمتها. فإذا قويت عنده هذه الحاسة وأضحت رؤيته حقائق الأشياء واقعية وعلمية، تعود تصرفاته أيضاً واقعية وعلمية، وتسمو أحاسيسه لتصبح لائقة وفيها جاذبية محبة ربه إليه. أي أنه يسير حينذاك على مسار الخلق العظيم الذي بلغه محمد خاتم النبيين (ﷺ)، ويتميز بالتالي عن البشر أقرانه، وتلوح لعينيه حينئذ معالم جمال الله خالقه، بعد أن كانت رؤياه مقتصره على رؤية معالم جلال الله عز وجل.

وهذا يحدث على اعتبار أن جمال الله تعالى أخفى من جلاله وإحسانه. فالمؤمن الذي يسير على درب العرفان الإلهي يتحسس من حوله إحسانات ربه في جميع أحواله، يتحسس هذا الإحسان من خلال وجوده، ومن خلال ماسخره الله تعالى لصالحه في الأرض والسما. لكنه يتوق دوماً إلى رؤية جمال الله،

ولذلك يسير على درب عرفانه ليتعرف إلى ما يحمله إلهه من جمال يخلب الأفئدة والأبصار.

أفلم يقل ربنا في سورة الأنعام عن نفسه: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾؟ فعين هذا الجسم تدرك إحسانات الله المتجسمة من حوله، لكن أتى لها أن تدرك جمال هذا المحسن الأعظم صاحب الأسماء الحسنى والجمال الأتم؟ فالله تعالى يدرك الأبصار. لكن هذه الأبصار لا تدركه للطافته عزوجل. لذلك يسعى المؤمن ليتعرف على جمال ربه بمحاولة إطاعته لتعاليمه واتخاذ ذرائع جذب محبة الله إليه. فإذا ما أحب الله جل شأنه هذا العبد السالك المطيع يأخذ جل شأنه يكشف جماله عليه شيئاً فشيئاً، حتى تعود محبته عزوجل تغلي في صدر هذا المؤمن السالك درب العرفان الإلهي. وهذه الحقيقة لا يدركها إلا المؤمنون الذين قطعوا أشواطاً كبيرة على درب هذا العرفان، أولئك الذين رأوا من آيات هذا الجمال الإلهي وشواهد وعلاقاته ما جعلهم ساجدين وبكياً على أعتاب ربهم عزوجل.

كذلك فإن المؤمن الذي يتعود التوبة والاستغفار، تضرع قوة الاستكبار والزهو لديه. وتنمو قوة التواضع في جميع تصرفاته، علماً بأن التواضع صفة لازمة لكل من يسعى على طريق التقدم والارتقاء. لذلك يقولون أنه كلما ازداد الإنسان علماً ازداد بالتالي تواضعاً. وهذه سمة طبيعية نتحسسها في كل شيء من حولنا. فسنابل القمح كلما نمت بما تحمله من حبوب ترنحت هذه السنابل تحت وطأة أثقالها. والأشجار كذلك كلما أثمرت وأينعت ثمارها ترنحت أغصانها تحت وطأة أثقال هذه الثمار البانعة.

لذلك فإن المؤمن السالك الذي يستعين بربه على مالحق فطرته من شوائب. والذي يجلس يتوب إلى الله ويستغفره في الأسحار، يترقى روحانياً ويتعلم ما لا يعلمه المستكبرون البطرون، وكلما ازداد علمه وازداد قرباً وعرفاناً لخالقه، شعر بتواضع نفسه أمام عظمة مكوّن هذا الكون العظيم.

وأقول بالفاظ أخرى إن المؤمن الذي يتوب ويستغفر وبفلسفة التوبة والاستغفار التي وضحتها، يصبح لسان حاله في دعاء مستمر بين يدي ربه ليطور له كيانه الروحي ويخلصه من ضعفه ووهنه الموروث ومن مؤثرات الوسواس الخناس من حوله. وهذه الحال تجذب إليه محبة ربه، وتنغرس بالتالي محبة ربه في

فؤاده، وحينذاك يطير بجناحي الشوق إلى عرفان ربه وقربه ولقائه ويُسمي مُحَلَقاً في سماء الروحانية على شاكلة الطيور المحلقة في السماء. ولا يعود يومذاك يجذبه إلى عالمنا المادي إلا بضع لقيمات تسدّ جوعه، وجرّق تقيه عوامل الجوّ المحيطة به. أما بقية الأشياء فتعود في نظره من باب الكماليات.

ولا أقصد من قولي هذا أن هذا المؤمن السالك سيصبح رجلاً صوفياً يتفوق في إحدى الزوايا وينزوي عن الناس على شاكلة مايفعله المتصوفون في عصرنا، بل إنّ الذي أرمي إليه هو أنّ هذا المؤمن التائب المستغفر سيصبح في منتهى التواضع ومنذفعاً في خدمة الناس وتبليغهم رسالة ربّه بشوق زائدٍ يثير الدهشة والإعجاب. متحرراً من كل ماورثه من أعراف وتقاليد مزيفة وعاداتٍ بالية. ويقدم في سبيل خدمة دينه أعظم الأعباء والتضحيات.

ولا يكون سبيله إلى ذلك تقليد أعمى موروث، بل علم يرتكز إلى حقائق وحجج وبراهين قاطعة يزوّده بها هذا الدين الاسلامي، وبثبته الله في الحياة الدنيا بالقول الثابت. ويظل هكذا يترقى روحياً باتجاه التخلق بالخلق العظيم الذي تخلق به محمد المصطفى خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم. لذلك فلا يحسب أمرؤ أنّ في التوبة والاستغفار مهانه للإنسان وإذلاً. بل اعلّموا أنه ذريعة رقيّ روحي وخلقي عظيم، لما يحمله من فلسفة وحكمة عظيمتين. أما الذي يردّد ألفاظ التوبة والاستغفار كالبيغاء فتلك حالة المهانة والإذلال بلا جدال.

التوكل على الله : منهاج التوكل

والذريعة السابعة التي تمكّن المؤمن السالك درب عرفان ربّه عزوجلّ هي أن يتفهم هذا المؤمن موضوع التوكل على الله تعالى، ويحاول بالتالي الاتصاف بصفة التوكل هذه التي تؤكد له عملياً وجود ربّه جل شأنه وماله من قدراتٍ لاتحدها حدود. فإن اتصف بهذه الصفة وأثبت هذا المؤمن لربّه عملياً أنه يتوكل عليه في كلّ أمر نصّ عليه كتاب الله العزيز، يجذب محبة ربّه إليه ويصبح محبوباً لديه عزوجلّ، ويقطع أشواطاً على درب عرفانه تعالى.

هذه الحقيقة نبهنا إليها الله ربنا نفسه حيث قال في الآية (١٥٩) من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي يحب تعالى المؤمنين الذين تحلوا بصفة التوكل عليه.

وهذه الألفاظ مررها جلّ جلاله ضمن آيتين طويلتين ضمّنها منهجاً سلوكياً يختصّ بتعاليم الإسلام وحدها، وتعطي فكرة عن نوع الديمقراطية التي أتى بها هذا الدين الحنيف. فقد قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم وكلّ من ينوب عنه: ﴿فَمَا رَحْمَةُ اللَّهِ لِبَنَاتِهِمْ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ، إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. ولنلاحظ أنّ الله تعالى وضع من خلال هاتين الآيتين الكريمتين منهجاً لا بدّ من الأخذ به عند اتخاذ القرارات الصعبة، وعند مواجهة المواقف الحرجة. ويتألف هذا المنهاج من عناصر ثلاثة، الأول منها عبّر تعالى بقوله: ﴿شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾. أي أنّ المؤمنين تكمل عقولهم وأساليب تفكيرهم بعضها البعض الآخر، لاختلاف زوايا النظر التي ينظرون منها، لذلك شاوَرهم في أي أمر قبل اتخاذ القرارات الحاسمة في العضلات والمواقف الحرجة، دون النظر لأي اعتبار إلا اعتبار الإيمان.

والعنصر الثاني لهذا المنهاج عبّر عنه تعالى بقوله ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾. وعزم على الأمر على حسب ماورد في معجم محيط المحيط معناه أرادته أي قرّره بإرادته وعقد ضميره على فعله وقطع عليه وأمضاه من دون تردّد فيه. ولا يجوز استعمال هذا اللفظ منسوباً إلى الله تعالى لعدم احتياجه تعالى إلى المشورة، لاتخاذ القرار، وهذا العنصر الثاني لهذا المنهاج يعطي الرسول أو من ينوب عنه حقّ اتخاذ القرار الصّعب بعد استشارة المؤمنين سواء أرحّج رأي واحد منهم أو رحّج رأيه الشخصي، كما حدث في صلح الحديبية حيث خالف رسول الله ﷺ آراء جميع من كانوا معه. أما العنصر الثالث لهذا المنهاج فقد عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾. أي أنّ القرار المتخذ على الأسس التي ذمّتمل يظلّ يحتمل النقص الموضوعي ويتسبّب بالتالي بنتائج وخيمة، ولايسدّ هذا النقص إلا أن تتخذ الله ربك وكيالك لتتهيئة الأسباب المناسبة والملائمة وإخراج ارتباط صاحبه

بتعاليم دينه.

فمن كفلتي ترجوها من هذا القرار.

فربك وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (الأعراف ٨٩) وهو الرَّحْمَنُ (الملك ٢٩) وهو الهادي (إبراهيم ١٢) وهو العزيز الحكيم (الأنفال ٤٩) والله مافي السموات والأرض (النساء ١٣٢) وهو ربّ المشرق والمغرب (المزمل ٩)، وهو الله الذي لا إله إلا هو (التوبة ١٢٩) والله هو الحيّ الذي لا يموت (الفرقان ٥٨) وهو الذي قال واعداء ووعده الحق: ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الإسراء ٦٥). لذلك فتوكل على الله بعد اتخاذ أي قرار صعب وعلى الأسس التي جعلناها لك شريعةً ومنهاجاً ديمقراطياً يمتاز عن بقية مناهج الديمقراطيين. هذا علماً بأنك إن التزمت بهذا المنهج فأنت من المحبوبين والمقرّين لدينا، أنت ومن يتبع مسلكك وهذا المنهاج، وبقيناً إنّ الله يحبّ المتوكلين.

وقد يختلط الأمر على المرء هنا ويتساءل : فلربما سلك أعداء الاسلام نفس المنهاج وعناصره إن كانوا من أتباع دين سابق، فهل يُجديهم هذا المنهاج إن هم جابهوا محمداً ﷺ وأتباعه؟ وقد أخذ الله عز وجل بعين اعتباره مثل هذا التساؤل الذي يمكن أن يخطر ببال أحد من المؤمنين، وأجاب عليه وقال: ﴿وَإِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟﴾ أي أنّ المنهاج المذكور متعلق أصلاً بمصالح هذا الدين الإسلامي.

وليس بمصالح الأديان المنسوخة السابقة. فالله وليّ المسلمين، والنصر يأتي من عنده عز وجلّ فما دتم ترفعون راية هذا الدين الخفيف، فإنّ الذي يتخذ قرارات صعبة على هذا الطريق، وفق المنهاج المذكور، أنا وليّه وأهّيه له أسباب النصر من وراء حجاب. أمّا إذا خالف المسلم هذا المنهاج، ولم يُرِدْ مصلحة هذا الدين، فالله جل شأنه يخذله، ﴿وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟﴾

ولنلاحظ دقّة ألفاظ الآية الكريمة، فالله تعالى استعمل هنا لفظ (ينصركم) وأعرض عن لفظ (يعينكم). ذلك لأنّ اللّغويين وضّحوا لنا في معاجهم أنّ دلالة لفظ نصّر أحصّ من دلالة لفظ أعان. فالنصر مُختصّ بالمعونة ودفع الضّر أيضاً. فهو جلّ شأنه حين قال ﴿وَإِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ﴾ أتى بعد ذلك بفاء الاستئناف وأضاف قوله ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي أنّ الغلبة ستكون لقراركم

الصَّعْبُ فلا يصيبكم من جرّائه أي ضرر. ذلك أنّ لفظ (غالب) اسم فاعل من غلبه. بمعنى قهره واعتز عليه وامتنع.

بهذا التبشير، وبهذا الأسلوب البليغ راح تعالى يحثّ المؤمن السالك سبيل عرفانه ويسعى لجذب محبة ربه إليه ويفوز بقربه ورضوانه وينبئه إلى هذه الذريعة السابعة التي نحن بصددّها، ومعبراً عن ذلك بقوله: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

وهنا سؤال يطرح نفسه : كيف ستجري الأمور في مملكة الله، بعد اتّخاذ أي قرار صعب من طرف أي مؤمن صادق في إيمانه ومتوكل على ربه عزوجل؟ فالأمور جميعها ستجري في خفاء عن الأعين. فهل أجاب جلّ شأنه على هذا السؤال لتطمئن به أفئدة المؤمنين؟

أقول نعم قد أجاب تعالى على هذا السؤال في الآية الثالثة من سورة الطلاق، وذلك في معرض نصحه للزوج الذي توترت علاقاته مع رفيقة حياته وأحسّ منها نشوذاً شديداً.

فقد أوصى الله تعالى هذا الزوج بإمساك معروف أو بتسريح بإحسان، إن كان يؤمن بالله وباليوم الآخر. وأوصاه بتقوى الله حين يتخذ قراره بشأنها. وليس أن يتخذ قراره الصّعب عن هوى أو مصلحة لا تُقرّها تعاليم هذا الدين الحنيف. وعبر جلّ شأنه عن نصيحته هذه بقوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً. ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ أي أن يتقي الله ويخشاه في قراره الصّعب، ولا يكون مخالفاً لتعاليم ومقاصد هذا الدين، ويعزم بعد المشورة ويتوكل على الله ﴿يجعل له مخرجاً﴾. والمخرج مصدر واسم مكان ومنفذ البراز من البدن.

والمعنى أن ربه عزوجل يعده بأنّه سيهيء له في عالم الغيب أسباب إظهار النتائج الصحيحة لقراره المذكور. فيهييء له ما يريجه ويوصل إليه رزقاً يفك ضائقته. علماً بأن الرزق لغة هو كل ما ينتفع به لذلك استعمل الرزق في سورة يونس للمطر حيث جاء: ﴿ما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض﴾ (محيط المحيط). ولنلاحظ أن الله عزوجل لم يقل "يرزقه رزقاً حسناً". فلماذا؟ لأن الرزق الحسن هو كلّ ما يصل إلى صاحبه بلا كدٍ في طلبه، وما وجد غير مُرتقب ولا محتسب ولا مكتسب، فلم يقل تعالى "رزقاً حسناً"، حصناً منه جل

شأنه لهذا المؤمن على مثابة السعي موقناً أنّ أسباب إنجاح مساعيه سيهيئها الله له من وراء ستار. وقد يرزقه أيضاً رزقاً حسناً فضلاً منه تعالى وإحساناً.

فلما انتهى حل شأنه من ذلك كلّ راح ينيء المؤمنين السالكين سبيل عرفانه عما يجري في مملكة السماء إثر اتخاذ أي قرار صعب من جانب المتوكلين على الله عزوجلّ، وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، إنّ الله بالغ أمره، قد جعل الله لكلّ شيء قدراً. ﴿﴾.

أي أنّ المؤمن الذي يتوكّل على الله تعالى ويسلّم أمره إليه وفق هذه التعاليم ويعتمد عليه ويثق بما عند الله من خير، وبما الله من علم وقدرات. ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي أنّ الله تعالى يكفيه عمّن سواه فيما يتّخذ من قرارات صعبة. ها أننا ننبئه عما يجري حيثلّ في مملكة السماء، فالذي يجري هو أنّ ربّ هذا المؤمن يتّخذ القرار المناسب لصالحه، ويصدر قراره إلى ملائكته المتوكلين على أسباب كلّ شيء في هذا الكون. وقراره تعالى هذا لا بدّ أن تظهر نتائجه إلى حيز التنفيذ والواقع، فالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. عبّر عن هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْغَيْبِ أَمْرٌ﴾.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو: هل ستهيئ أسباب خفية من وراء الغيب لصالح القرار الصعب ووفقاً لأمر الله عزوجلّ خلافاً للقوانين الطبيعية التي سنّها خالق هذا الكون لتسيير هذا الكون؟ أم أنّ الأسباب الخفية هذه ستهيئ وفقاً لهذه القوانين الطبيعية نفسها دون أن يدري أحد بخفايا مُحريات الأمور؟

وقد أجاب الله عزوجلّ على هذا السؤال مُنبهاً الأذهان إلى أنّ هذه الأسباب الخفية ستهيئ وفقاً للقوانين المسنونة، بحيث تزيد هذا المؤمن السالك إيماناً بالله ربّه المتوكل عليه، وتزيد الكافر بهذه الحقيقة دهشة وضلالاً، وعبّر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾. وقدراً مصدر يعني مبلغ الشيء، وكون الشيء مساوياً لغيره بلا زيادة أو نقصان. يُقال هذا قدر هذا أي مُماثله ومساو له. والقادر اسم فاعل ويعني الطابخ بالقدر. وعليه فمعنى ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي جعل الله عزوجلّ لتحقيق كل أمر يُصدره إلى ملائكته ليحقّقوه وينفذوه مبلغ شيء مساوياً للحاجة الملّحة بلا زيادة ولا نقصان، وبحيث لا يترك هذا الأمر أي أثر خارج مصلحة صاحبه.

ومن خلال ألفاظ هذه الإجابة يتعين على المؤمن السالك المتوكل على ربه عند اتخاذ القرارات الصعبة ألا ينتظر تقلب الأمور لصالح قراره كالمح بالبحر. بل يتعين عليه الصبر وانتظار النتائج المرجوة بيقين لا يشوبه شك ولا ريب مهما طال الأمد وتقلب الأحوال. بل أن يظل ربه عند حسن ظنه، وموقناً أن الله تعالى سيجعل له مخرجاً. فباليقين في هذه المناسبات، وبأسلوب التفكير الروحي المطلوب، يحصد هذا المؤمن السالك ثمار صبره وتقواه و يقينه وحسن ظنه بربه، ويجذب إليه محبة ربه عز وجل وينال قربه ورضاه ويزداد بربه عرفانا على عرفانه.

ولنلاحظ القارئ كيف أن هذه الآيات الكريمة من سورة الطلاق قد تضمنت معلومة هامة متعلقة بعملية السماء. فقد نبهتنا هذه الآيات الكريمة إلى أن هذا الكون المادي من حولنا، وإن كانت تنظمه نوااميس وقوانين طبيعية. إلا أنه لايسير من نفسه، بل أوكل الله تعالى إلى ملائكته أمر تسييره وتهيته ما يحدث فيه من أسباب في مختلف المجالات، أو لم يقرأ أحدنا الآية الحادية عشرة من سورة السجدة والتي قال تعالى فيها: ﴿قُلْ يَتُوقَاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾. فهذا أن لعملية التوفي ملكاً موكل إليه القيام بها.

وهذا الأمر يفسر عملية تهية الله تعالى للأسباب الخفية لتحقيق ماوعده به المؤمنين السالكين. والمتقين المتوكلين عليه عز وجل. فالله جل شأنه يصدر أوامره، وتسارع ملائكته لتهيئة مايحقق أمره من أسباب تؤثر في مجريات ما يحدث في هذا الكون وبما لا يخالف نوااميس الكون وقوانينه.

هذا الأمر حدث في الماضي عند بعثة كل نبي ورسول. وحدث زمن بعثة محمد النبي الصادق الأمين الذي خالفه قومه وبكل مآلديهم من قوة. وهو النبي المصطفى الذي خاطبه ربه يأمره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً. وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ يَازِّنُهُ وَسَرَاجاً مُنِيراً. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً. وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾. ومحمد المصطفى (ﷺ) رضى لأمر ربه عز وجل دعا إلى سبيل ربه بمآلديه من أسباب مادية لا تذكر في مقابل ماكان لدى قومه من أسباب، ولم يطع الكافرين ولم يَلْنْ معهم بالرغم من جميع المغريات التي حاولوا إغراءه بها. ولم يُحاول أذاهم، بل توكل على الله مالك الملك، واكتفى بالله

وكيلاً. وهأنّ صفة التوكّل على الله هذه التي اتّصف بها محمد والذين كانوا معه والتي ارتكزت إلى أسباب خفيّة أسفرت عن أسباب هجرته وبيعة أهل المدينة على يديه وتأسيس دولة إسلامية برئاسته وانتهت بذلك إلى فتح مكّة ورفع راية الاسلام على صّارياتها. وإنّ الباحث الذي يدقّق في دقائق كلّ ماجرى وحدث بعد توكّل محمد (ﷺ) على الله ربّه بعد اتّخاذه مآلديه من أسباب، ستترأى لعينيه عجائب القدرة الإلهية، وظواهر إعجاز الله تعالى في جميع مآصده من أوامر للملائكة وماهيّاه ملائكة الله من أسباب خفيّة من وراء حجاب. وهل لا يدهش الباحث عندما يدقّق النظر فيما حدث ليلة الهجرة؟ وهلاً يدهش لما جرى على مدخل غار ثور حيث كان محمد (ﷺ) بداخله ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ قال لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا؟ وهل تأمل الباحث فيما جرى لسراقة وهو يطارد هذين الرجلين المتوكّلين على ربّهما؟ وهل تابع هذا الباحث ظواهر البهجة التي استقبل بها رجال ونساء المدينة المنورة وهم يهتفون :

طلع البدر علينا	من ثيّبات الوداع
وجب الشكر علينا	مادعاً الله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع

وهل تابع هذا الباحث ماجرى قبل بدء معركة بدر الكبرى وكيف أنّ صبيّين من صبية المدينة انقضّاً من بين صفوف المسلمين على أبي جهل قائد جيش المشركين وكيف تحقّق قتله على يديهما؟.

ولم تر البشرية نتائج هذا التوكّل على الله في زمن بعثة محمد المصطفى (ﷺ) فقط. بل هذا ماحدث عند بعثة كل نبي من أنبياء الله ومرسليه. فليشنف المؤمن السالك درب عرفان ربّه آذانه بسماع الآيات ٨٦/٨٨ من سورة هود على سبيل المثال حيث ورد ما يُصوّر ماجرى بين النبي شعيب وقومه: ﴿قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء، إنّك لآنت الحليم الرشيد.﴾ وهذه ألفاظ استهزاء بالنبي شعيب وحاله أنّه كان مُكبّاً على عبادة ربّه والدعاء بين يديه، فلم يكن تاجراً ولا ثرياً. فقد استهزؤا به أن نهاهم عن أن يفعلوا بأموالهم ما يشاؤون أي نهاهم عن أكل المال

الحرام وحثهم على العطف على الفقراء والمساكين والإحسان إليهم، وأن يُعرضوا عن عبادة الأصنام ليعبدوا الله الواحد القهار. وقد أجاب شعيب: ﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ورزقي منه رزقاً حسناً﴾ أي حبذا لو رأيتم ما أثمرته عبادتي لله الواحد القهار، وما أسفر عنه سيرتي على درب عرفانه عز وجل. فقد رزقني ربي رزقاً حسناً لا يقابله أي جهد بذلته على أعتابه عز وجل ولا يوازيه شيء مما تملكونه وتفعلونه. وأضاف يقول: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾ أي لا أقصد بما وعظتكم به مخالفتكم ولا مناصبتكم العداء، فكيف أفعل هذا وأنا أحد أفراد عشيرتكم، بل إن ما أعظمتكم به هو لصالحكم فأنا أدعوكم لتعرفوا على إلهكم الحقيقي الذي رزقني هذا الرزق الحسن. ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾ أي أنني رجل مُرسَل من ربي وربكم لإصلاح مجتمعكم. ولفائدتكم، فإن أنتم لم تستيقنوا بهذه الحقيقة واستهنتم بي وبضعف حالي. فما أنا بتارك ما أمرت به من ربي ﴿وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب﴾. أي أنني آخذ بما توفر بين يدي من أسباب لأداء رسالة ربي معتقداً أن التوفيق لا يأتي إلا بمشيئة الله ونصرته وتأيده. فعليه توكلت ليهيئ لي من عالم الغيب من الأسباب التي تنصرنني لأداء رسالتي وإكمال دعوتي ﴿والله أنيب﴾ فلا أستعين بسواه في هذا المجال وعلى هذا الصعید. بل إليه أنيب أي أرجع إليه مرة بعد أخرى في جميع ما يصادفني من عقبات وأتوب من ذنوبي وأخطائي غير المتعمدة فلا يفتّر بذلك لساني وهذا هو معني الإنابة كما وردت في معجم (محيط المحيط).

إن هذين المثالين المؤكدين أهمية التوكل على الله تعالى والحائتين على التزام جانب التفكير الروحاني في سلوك المؤمن السالك درب عرفان ربه عز وجل ليؤكدان أن التوكل على الله تعالى هو في حقيقته ذريعة من ذرائع جذب محبة الله تعالى والفوز بقربه ورضوانه. فالله جل شأنه صدق حينما قال: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدراً﴾. وصدق تعالى حين وعظنا أيضاً قائلًا: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾. فليتوكل المؤمنون على ربهم بعد أخذهم بما لديهم من الأسباب طامعين بالتعويض عما لا يملكونه بما يهيئه الله جل شأنه من عالم غيبه من أسباب. وموقنين أن ربهم وسع كل شيء علماً، وهو الرحمن، والهادي والعزيز الحكيم وله ما في السموات

وما في الأرض وهو رب المشرق والمغرب، لا إله إلا هو، وليس بضار المؤمنين أحد إلا بإذنه، وعنده الخير، وهو الحي الذي لا يموت، خصوصاً وأنه تعالى وعد المؤمنين الصادقين بقوله: ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾.

وتتناول موضوع التوكل على الله تعالى من زاوية علمية تاريخية. فالمعلوم أن بإمكان الإنسان المفكر تقسيم ما يجري في هذا الكون إلى قسمين: القسم الأول ينحصر في وجود هذه السماء ومحتوياتها من الكواكب والنجوم والسيارات ومالها من تأثيرات على الأرض وعلى ما فيها بشكل عام، كذلك النظام الشمسي وماله على الأرض من تأثيرات بشكل خاص وعلى ما يوجد على الأرض من مخلوقات ونباتات.

والقسم الثاني هو هذه المخلوقات نفسها والنباتات من حولها، وقد تبين للعلماء أن هذا الكون يسير وفق نوايس وقوانين طبيعية مسنونة بغض النظر عما خلق هذا الكون وعمن سنّ قوانينه.

فإذا نظر هذا الإنسان المفكر من زاوية نظر أخرى إلى هذا الكون، وإلى الإنسان خاصة، أتضح لعينه قسمان أيضاً. القسم الأول هذا الإنسان نفسه الذي تتصارع وجوده أسباب ومسببات.

والقسم الثاني كيان هذا الإنسان الباطن الذي يتصارع عاملان: افعل أو لا تفعل. وهذان العاملان يؤثران أيضاً في السلوك اليومي لهذا الإنسان.

هذان التقسيمان إن صحّا فقد أتضح للإنسان المفكر أن الأسباب والمسببات هي محور ما يدور في هذا الكون الذي تنظّم حركته قوانين طبيعية مسنونة. وبالتالي بإمكان هذا المفكر أن يخرج بالنتيجة التالية وهو أن الذات التي تستطيع الهيمنة على هذه الأسباب والمسببات خارج كيان الإنسان ودخله، فلا بد أن تكون هذه الذات القادرة الهيمنة على الإنسان وعلى كل ما في هذا الكون من مخلوقات ونباتات وجماد، ويكون بالتالي بيده مقاليد كل شيء يقيناً.

وبنظرة متفحّصة خاطفة لتاريخ البشر يتبين وجود نوعين من المفكرين: الأول كان يفكر تفكيراً مادياً محضاً من منطلق أن هذا الكون يجري من نفسه وفقاً لقوانين طبيعية مسنونة. ونوع آخر كان يفكر تفكيراً روحانياً من منطلق أن لهذا الكون خالقاً سنّ لتسييره هذه القوانين.

والذي دفع هذا القسم المفكر الروحاني إلى هذا الأسلوب من التفكير هم سلسلة الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله الخالق نفسه لإصلاح الناس وصيغهم بهذه الصبغة من التفكير.

فإذا اجتمع مُفكران معاً. الأول صاحب تفكير مادي والثاني صاحب تفكير روحي. وطلبنا إليهما تحليل ظاهرة حدثت أثناء هجرة محمد رسول الله (ﷺ) من مكة إلى المدينة حيث لجأ محمد وصاحبه إلى غار ثور، واختبأ فيه، فالمعلوم هو أن قريشاً أعلنت حينذاك عن جائزة كبرى للذين يدلّهم على مكان محمد وصاحبه. وقد سارع أمهر قفائي الآثار يومئذٍ يقتفي آثار أقدام هذين المهاجرين الهاربين محمد وصاحبه أبو بكر الصديق. حتى ووصل القفء بالمطاردين من قريش إلى باب غار ثور المذكور، وقال لهم مقلته الشهيرة: "إمّا أن يكون محمد بداخل هذا الغار، وإمّا أن يكون قد صعد إلى السماء".

وضحك لجملته هذه جميع من كان معه من قريش بل وسخروا من قوله. ولم يكلف أحدٌ منهم عناء النظر إلى داخل الغار يتفحصه.

فالسؤال الذي نوجهه إلى هذين المفكرين صاحب التفكير المادي وصاحب التفكير الروحي تجاه هذه الظاهرة هو: لماذا ضلّت وزاغت عقول الذين سمعوا مقولة هذا القفء؟ ولماذا لم يكلف أي واحدٍ منهم عناء النظر إلى داخل الغار؟ ولماذا تبسمرت عقول هؤلاء باتّجاه واحد وهو تكذيب هذا القفء؟

ثم من المعلوم أن أبا بكر كاد يفقد صوابه حين شاهد أقدام هؤلاء تتحرك خارج غار ثور وهو ومحبوبه محمد رسول الله إلى جانبه. فلم يكن من خاتم النبيين (ﷺ) المتوكّل على ربّه وعلى حمايته تعالى لهما إلا أن قال لصاحبه: لا تخزن إن الله معنا. وجملة هذه تعني أن الله تعالى هو مسبب الأسباب وهو إلى جانب الدفاع عنّا وحمايتنا لأننا متوكّلين عليه. فقد أخذنا بما لدينا من الأسباب المتوفرة لدفع شرّ هؤلاء الأعداء، وبقي أن يهيئ الله حلّ شأنه بقيّة أسباب نحتاجنا حسب وعده للمتوكّلين من المؤمنين.

فماذا حدث بعد ذلك؟ هل أفاد القفء ومهارته وجملة الشهيرة أعداء محمد الشّرّسين؟

سيحجب على هذا السؤال الذي يفكر بأسلوب مادي فيقول: إنها مجرد صدقة حدثت، وسيحجب على هذا السؤال الذي يفكر بأسلوب روحاني ويقول: أزاغ قلوب هؤلاء رب محمد مسبب الأسباب والمسلم من وراء ستار. وقد ورد جواب الأول على اعتبار أنه لا يؤمن بمبدأ التوكل على الله عزوجل.

وقد ورد جواب الثاني على اعتبار أنه يؤمن بمبدأ التوكل على الله عزوجل.

وأقول: يابشرى هذا المؤمن الذي يفكر بأسلوب روحاني، ويأخذ في سلوكه اليومي بذريعة التوكل على الله عزوجل. لأن هذا المؤمن السالك درب عرفان ربه سيفوز بمحبة ربه ويكون من الناجين المفلحين، في الحياة الدنيا ويوم يقوم الناس لرب العالمين.

٩. الانصاف بتقوى الله تعالى:

ومناسبة دخول شهر رمضان المبارك، ولأزال أحاضر في باب العرفان الإلهي، هذا الشهر المبارك الذي فرضه الله عزوجل على المؤمنين به السالكين سبيل عرفانه ففرض أن ينقطعوا في نهارهم عن تناول الطعام والشراب إلى جانب الوفاء بما عاهدوا الله عليه، ففي الآية (١٨٤) من سورة البقرة قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وموضحاً الحكمة من فرض صوم شهر رمضان من خلال ما أنهى به الآية ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. ولا بد أن يكون كل مؤمن قد قرأ هذه الآية الكريمة وتساءل في نفسه عن معنى ودلالة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. أي تساءل عن دلالة "لعل" وحكمة إيرادها. وتساءل عن معنى تتقون، وكلمة التقوى التي وردت ضمن خمس عشرة آية من آيات كتاب الله العزيز؟

فقد وضح اللغويون أن (لعل) مثلها مثل إن تنصب الاسم وترفع الخير. وذهب الفراء وأصحابه إلى أن لعل هذه تنصب الاسم والخير في آن واحد، كما بينوا أن الظرف (لعل) يستعمل بعدة دلالات: توقع شيء كما في الآية المذكورة، وتعليل شيء وللإستفهام، وعليه فإن معنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي توقعوا من صيامكم شهر رمضان إذا صمتموه بشروطه أن تصبحوا من المتقين.

وتفوزوا بمحبة ربكم لقوله في الآية (٧٦) من سورة آل عمران: ﴿يَلَىٰ مِنْ أَوْفَىٰ
بِعَهْدِهِ وَأَتَّقَىٰ، فَإِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

بقي علينا أن نطلع على دلالات كلمة (تتقون). فهي من اتقى الله أي
حذره وخافه وأصل الكلمة من وقى بمعنى صان وحفظ، وعلى ضوء معنى
(تتقون) يصبح معنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ : أي توقّعوا أن تتصفوا بحذر الله
ومخافته، وأن تتدرّعوا بحفظ الله ورعايته، وتصبحوا بذلك محبوبين عند الله ربكم
﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

من هذا كان لابد أن يدرك المؤمن دلالة صفة (التقوى) وهي أن يحذر
المتقي الله ويخشاه ويتدرّع به ليحفظه ويصونه.

ومن هذا ندرك أيضاً أن (التقوى) صفة لابد للمؤمن أن يتّصف بها في
سلوكه اليومي، لاستنادها إلى أحد قوانين علم النفس. فنحن نلاحظ أن الشخص
الذي اعتاد العمل لصالح إنسان محترم، يشعر أن محبة هذا المحترم تسرّب على مرّ
الأيام إلى فؤاده شيئاً فشيئاً، يحبه ويصبح من محبوبيه. ثم إن رابطة المحبة هذه
يكتب لها الدوام أيضاً.

فالتقوى أن يقرن المؤمن طاعته بحذره وخشيته من ربه فيصوم ويفعل
الخيرات ويجتنب السيئات، وثبته كسب محبة ربه والحذر من غضبه. أي أن الذي
يصوم ويفعل الخير ليشتهر بين الناس أنه رجل صالح وفعل للخير، يفقد حكمة
الصّوم ولا يصبح تقيّاً. ذلك أن تقوى الله تعالى تدور حول محور أساسي وهو
احتساب الله تعالى وخشيته، أملاً في جذب محبته وأملاً في تلقي عطائه الروحي.

والآن ليعد هذا المؤمن إلى سورة الفاتحة التي علّمه ربه من خلالها دعاء
﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ ثم ليتلو الآيات الأرائل من سورة البقرة، فقد نبّهت
هذه الآيات إلى أن الله تعالى أنزل كتابه العزيز أصلاً ﴿هُدًىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ استجابة
منه تعالى لدعاء ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾. وقد اشترط الله تعالى أول
ما اشترط على هؤلاء المتقين الذين يحذرونه ويخشونه أن يؤمنوا بالغيب ﴿الذين
يؤمنون بالغيب﴾ أي يؤمنوا بوجود ربهم الغائب عن أبصارهم، فيحذرون الله
الذي لا تدركه أبصارهم وهو يدرك هذه الأبصار، ويتصفون بتقوى الله
ويكونون من المتقين الذين يحذرون ربهم بالغيب ويخشونه في كلّ ما يفعلونه. فإن
أصبحوا من المتقين، تعود تعاليم هذا الكتاب العظيم المنزل هدىً لهم تجذب محبة

الله نحوهم ويصبحوا بالتالي من محبويه ويتشرفوا بعباء هذا المحبوب. فهذه هي الرابطة الموضعية ما بين دُعاء ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ وما بين قوله تعالى ﴿هدى للمتقين﴾. فالصراط المستقيم المطلوب هو الدال على طاعة الله وعلى الصفة التي ينبغي أن تلازم هذه الطاعة وهي صفة التقوى. لذلك ورد في معجم المقاييس قوله عن الصراط أنه اشتق من سَرَطَ ويدل على غيبة في مر وذهاب.

تقول : سَرَطَتِ الطعام إذا بلعته، والسراط أو الصراط مشتق من ذلك فهو الطريق الذي يغيب فيه المؤمن السالك وهو يحذر الله ويخشاه ويطلب محبته. فهذا هو الفرق في المعنى ما بين الصراط والطريق، فالله تعالى علمنا دُعاء ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ ولم يعلمنا دُعاء (اهدنا الطريق المستقيم).

من هذا ندرك أن دُعاء ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ لم يكن الهدف منه طلب الهداية إلى الإيمان، فالمؤمن لا بد أن يكون مؤمناً بالله قبل أن يتوجه للدُعاء بهذا الدُعاء. بل إن الهداية التي يطلبها هنا هي طلب عرفان ربه والفوز بقربه ومحبته ورضاه. فهذه هي الحقيقة التي تضمنها لفظ ﴿هدى﴾ ولفظ الدُعاء ﴿اهدنا﴾. وهذه الحقيقة هي من الأهمية بمكان. فالمؤمن الذي لا يدرك هذه الحقيقة التي تضمنها لفظ (هدى)، يعود حين يعمل على أوامر شريعة الله كالذي كُبل بالأصفاد، وأثقل كاهله بالأثقال، فلا يعود يرى معنى لأوامر الله وأحكامه. ويفقد بالتالي روح التقوى المطلوب توفرها فيما يفعله ويُقدم عليه. كما يفقد المقصد الحقيقي من إنزال مختلف الأديان السماوية.

لذلك لا بد من فهم دلالة لفظ (هدى) الوارد في ﴿هدى للمتقين﴾. إن لفظ هدى اشتق من هداه أي أرشده وأقامه على طريق الحق مع تصلب فيه. فالهداية تعني الدلالة على ما يوصل هذا الإنسان إلى مطلوبه. فالهدى يعني بيان ما يوصل المرء إلى بُغيته ومطلوبه، ويستعمل ضد الضلال (يحيط المحيط). وعليه فإن قوله تعالى الذي يصف كتابه المنزل ﴿هدى للمتقين﴾ يعني أن تعاليم هذا الكتاب العزيز ترشد المؤمن بالله تعالى الذي أنزله إلى ما يوصله إلى مطلوبه وهو سعيه الدائب للتعرف إلى ربه الذي هداه إلى هذا الإيمان والفوز بجنته. أي أن ما يُطالب هذا الكتاب به المؤمن من صوم وصلاة وغيرها من المطالبات وفعل الخيرات، يطالبه بها لتكون وسيلة هذا المتقي ليضع أقدامه على الطريق الموصل إلى الحق وليحقق النتيجة التي ذكرناها، وهي التعرف على خالقه والفوز بمحبته

وجنته، مع تصلُّب في الثبات على طريق الحق المذكور. بحيث لا يعود هذا المؤمن بعدها يخاف الشيطان وهمزاته ولا يتهيب العقبات التي يضعها هذا الشيطان على طريق عرفانه.

وعليه فإن لفظي ﴿هدى للمتقين﴾ أشارا إلى ما انطوت عليه فطرة المؤمن السالك سبيل عرفان ربه من جنوح شديد للقاء الله والتعرف عليه والفوز بمحبته ورضوانه. هذا الشوق الشديد الذي تضمّنه دأب هذا المؤمن السالك على الدعاء في كل ركعة من ركعات صلواته وأذكاره ﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين. آمين﴾.

وكان لفظي ﴿هدى للمتقين﴾ فيه إشعار لهذا المؤمن السالك بالفرق الكائن ما بين تعاليم الفلاسفة وتعاليم هذا الكتاب العظيم. وكأنه جلّ شأنه يخاطب هذا المؤمن السالك ويقول له: دع عنك أقوال الفلاسفة، وكتبهم وفلسفاتهم، لأنها لا تدلك على الصراط المستقيم الذي يعرفك على خالقك ولا يروي ظمأ نفسك التواق إلى الاهتداء إلى هذا الحق القائم بذاته. فأنت إذا طالعت ما يكتبه الفلاسفة في كل عصر، فلا تحني من قراءاتك هذه إلا الرفاه العقلي ليس إلا. هذا الرفاه العقلي الذي إن أفاد في تبيان الضار من الأشياء من نافعها، فلا يحمل فائدة تزيد على ذلك، ولا يملك جاذبية أكثر من جاذبية هذه الفوائد، ويظلّ توفان الفطرة البشرية إلى معرفة خالقها في فوران شديد وظمئ لا يرويه إلا تعاليم هذا القرآن المجيد فهذا ما نبّهت إليه كلمتا ﴿هدى للمتقين﴾.

وعليه فإن أدرك هذا المؤمن السالك هذه الميزة المشار إليها من خلال قوله تعالى ﴿آلم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب..﴾ إن أدرك ذلك، انساق إلى فعل الخير وانتهى عن فعل الشر، باندفاع ذاتي من داخله. يحدوه الأمل بالفوز بمحبة ربه عز وجلّ والتعرف عليه بأقدام ثابتة لا تهزها همزات الشياطين.

ألا إنّ الذي يتلو الآيات الأوائل من سورة البقرة، التي تنتهي عند قوله تعالى : ﴿هدى للمتقين﴾ تهتزّ مشاعره الفطرية طرباً أن عثر على الكتاب الذي تهديه تعاليمه الصراط المستقيم الذي سار عليه جميع من قبله من النعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. ويندفع ذاتياً يحذر ربه ويخشاه عند كل خطوة يخطوها أملًا في أن يلبس لباس التقوى، ويتقبله ربه في عداد المتقين.

ولا يغرنّ عن هن قارئ القرآن الكريم ومتدبر آياته أنّ هذه الهداية القرآنية الموصوفة بقوله تعالى: ﴿هَدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لا تشمل إلاّ المؤمنين بعد إيمانهم. بل وتخصّ بالأخذ بأيدي المؤمنين السالكين درب عرفان ربهم من بين سواهم من الناس. وإلاّ فإنّ هداية الله ترافق تجليات ربوبيته عز وجلّ، هذا ما أفادتنا به آيات هذا الكتاب المبين.

أولاً - لا يلد مخلوق إلاّ وتلقاه هداية الله خالقه من أوّل لحظة يعرف فيها نور هذه الحياة الدّنيا. وهذه حقيقة أشار إليها قول الله عز وجلّ في سورة طه حيث قال فيها: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾. فالنطفة تنمو في رَحِمِ المرأة وتغرّ من ظلمات ويرى نور الحياة. فماذا يحدث لهذا الجنين بعد ولادته؟ الجنين قد جهّز الخالق بجهاز تنفسي كامل القدرة على التنفس، ولا يحتاج إلاّ إلى الهواء لتشغيله - وقد أوجد الله الخالق هذا الهواء وهدى هذا الجهاز ليعمل فيستنشق هذا الهواء ويؤدي بالتالي طيفته الطبيعيّة، فلولاً الهواء لبطلت الحكمة من وجود جهاز التنفس، ولكان هذا المولود أضحى في خير كان وكأنه لم ينمو ولم يولد ولم يعرف نور الحياة، فهذه هي خطوة الهداية الربانية الأولى لهذا المخلوق، والتي عبّر جلّ شأنه عنها بقوله في سورة طه: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ مستعملاً صفة الربوبية وتجليها في هذه المرحلة الأولى من نزول كلّ مخلوق إلى نور الحياة الدّنيا.

ثانياً - ومرحلة الهداية الثانية التي تتجلى بها ربوبية الله رب العالمين، أشار إليها قول ربنا عز وجلّ في سورة السجدة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ﴾ أي أنّ الله عز وجلّ لم يدع مخلوقه هذا تتصارعه مؤثرات وأفكار تبعده عن خالقه. بل أرسل أنبياءه ورسله تترى ففي كلّ أمة جعلنا أمة للناس يهدونهم بأمر الله كما فعلنا مع نبي اسرائيل. وقد ترك الله جلّ شأنه لهذا الإنسان الراشد العاقل حريّة أن يستجيب لصوت وهداية رسله وأنبيائه تحت طائلة العقاب الشديد لمن لا يستعمل عقله استعمالاً صحيحاً، ويضلّ عن سبيل ربّه الذي خلقه وهداه في هاتين المرحلتين المذكورتين.

ثالثاً - ثمّ إنّ الذي يستجيب لصوت يحتاج إلى هدايتين : إلى هداية فكرية وإلى هداية عملية. ويزيد الله هذا المؤمن الذي اهتدى إلى صوت خالقه هدى على هداة، فينير عقله ويقوّم فكره ويوفّقه على الصّعيد العملي. فإلى هذه

الهداية الثالثة التي تتجلى بها ربوبية الله الخالق جاء النصّ عليها في سورة محمد حيث قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾. أي سما الله تعالى بأفكارهم ووقفهم للعمل الصالح بعد أن ربطوا أنفسهم برّبهم برابطة الإيمان والبيعة لهذا الرسول.

رابعاً - ولاتقف هداية الله لهذا المخلوق عند هذا الحدّ من مراحل الهدايات الثلاث الآتية الذكر. بل إنه جلّ شأنه نبّه في نفس سورة محمد إلى شكل رابع من هدايته التي يتجلى بها على هذا المخلوق، وذلك من خلال قوله عز وجلّ: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ﴾. فما معنى هذه الكلمات؟ البال في اللغة يعني حال المرء وشأنه وخاطره وقلبه. تقول ما يخطر فلاناً ببالي أي ما يخطر بخاطري وقلبي. ثم إنّ فعل يُصْلِح بآلهم يعني يزيل عنه الفساد ويقممه (يحيط المحيط). ويصبح بالتالي معنى ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ﴾ أنّ هذا الكتاب القرآن سيهدي هؤلاء المؤمنين السالكين الصراط المستقيم إلى ما يزيد كل فساد في خوطرهم وأفئدتهم وأحوالهم وشؤونهم الحياتية. إلى وقت يتملّك الاطمئنان افتقدتهم ويهدأ بالهم على درب عرفان ربّهم والفوز بمحبته وقربه ورضوانه. أي تصبح سمة التقوى سيماهم في جميع أحوالهم.

وبناء على ماسلف ذكره، فإنّ آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تكون قد نبّهت أذهان المؤمنين الصائمين إلى ضرورة تفهم دلالة التقوى وحقيقتها كذريعة ثامنة لجذب محبة ربّهم إليهم. فلم يقل تعالى في هذه الآية أنّه كتب على المؤمنين الصيام من باب التقوى، بل قال ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي توقّعوا إن أمسكنم عن تناول الطعام والشراب حذراً وخشية من غضب الله عليكم أن يعود عليكم هذا الحذر وهذه الخشية بثمرة لباس التقوى الذي يجذب محبة بارئكم إليكم، فالله يحبّ المتّقين.

ولنلاحظ أنّ الله عز وجلّ أتى بكاف التشبيه وقال ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ إظهاراً عن طريق هذه الكاف مدى أهمية الصيام في نظر الله الذي أنزل هذا الدين وفرض فيه صيام شهر رمضان. فهو تعالى نبّه إلى أنّه لم يُنزل في السابق أي دين من الأديان إلا وفرض فيه الصّوم على المؤمنين. هذا

بغض النظر عن أنواع الطعام والشراب التي أمر الله تعالى بالإمساك عنها مرحلياً وتبعاً للضرورات الموضوعية.

علماً بأن الإباحة هي الأصل في الأحكام الشرعية على حين أن الإمساك والحرمان هو الأصل في الصيام في كل دين من الأديان السماوية. فالذي يصوم ترى أعينه لذائد الأطعمة وأنواع الشراب، وتصل إلى أنفه مختلف الروائح التي تفوح من هذه الأطعمة، ومع ذلك يمسك عن تناولها حذراً وخشية من غضب ربه عليه إن هو خالف ما فرضه عليه من هذا الصيام. فإذا تأبر هذا الصائم على هذه الحال شهراً كاملاً، يكتب عند ربه تقياً، وتحقق الحكمة من الصيام التي توقعها الصائم منه، ويفوز بمحبة ربه وعطائه الرّجحي على اعتبار أنه تعالى قال: ﴿بلى من أوفى بعهده وأتقى، فإن الله يحب المتقين﴾.

ولم يقتصر الإتياء بكاف التشبيه في آية الصيام على الحكمة التي ذكرناها وحسب. بل أتى جلّ شأنه بها مظهرًا من مظاهر رأفته ورحمته بالمؤمنين السالكين درب عرفانه. أفلا يلاحظ المرء كيف أنّ من يموت له عزيز أو يُصاب بمُصاب، يلتف أصدقاؤه وأحباؤه من حوله يخففون عنه وقع مُصابه قائلين: هذه هي سنة هذا الكون فهذه الأمور تمرّ على رأس كلّ مخلوق؟ وقد أتى جلّ شأنه بكاف التشبيه هنا على هذا النسق من التعاطف مع الصائمين الممسكين عن تناول الطعام والشراب قائلاً ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾.

وزبدة الكلام هو أنّ لفظ التقوى وأن اشتق من اتقى، فأصله من وقى بمعنى صان وحفظ من غضب الله تعالى، ولفظ وقى هذا قلب العرب واوه تاءً وأدغموها من كثرة الاستعمال، وجعلوه اتقى، وجعلوا الاسم منه التقوى. فلمّا لم يجدوا للفظ التقوى مثلاً في لسانهم، راحوا يقولون تقى وفعل الأمر منه قوا. وقد سلك القرآن الكريم مسلكهم وأقرهم عليه. فقد ورد في سورة التحريم (٦): ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾.

المهم أن كلمة التقوى تعني الحذر من غضب الله والخشية من مخالفة أوامره عز وجل. والمؤمن السالك درب عرفان ربه أولى الناس أن يكون تقياً.

ذلك أن أوامر الله ومنهياته تدور فوائدها لصالح هذا المؤمن السالك وفي إطار مصلحته.

ألا إن الله تعالى لا يطالب أصلاً إلا بهذه التقوى من هذا العبد المطيع. فهذا ما أشار الله تعالى إليه حين قال: ﴿بلى من أوفى بعهده وأتقى فإن الله يحب المتقين﴾.

فهو جل شأنه أتى في هذه الآية بفاء الاستئناف تنبيهاً لذهن هذا المؤمن الصائم القائم بفروض دينه، والمنتهى عن منهياته، وهو حذر من مخالفة أحكام ربه ويخشى مخالفة أوامره، أنه يكتب بذلك عند ربه تقياً والله يحب المتقين. أي أنه يفوز من جراء جذوره وخشيته بمحبة ربه وقربه ورضاه.

وهذه حقيقة نبأ الله تعالى أذهان المؤمنين السالكين إليها من خلال قوله في الآية (٣٧) من سورة الحج: ﴿لن ينال الله لحومها ولادماؤها، ولكن يناله التقوى منكم، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشروا المحسنين﴾.

فتقوى الله في كل شيء تُقدم عليه أو تتجنبه، هو الزاد المطلوب من هذا المؤمن السالك أن يتزوّد به في هذه الحياة الدنيا. فهذا الحذر وهذه الخشية، تُساعد على تسرب محبة ربه عز وجل إلى فؤاده شيئاً فشيئاً، ويعود حباً حقيقياً لرّبه ويجذب بالتالي محبة ربه إليه ويصبح من محبوبيه. لهذا ورد أمر الله إلى المؤمنين السالكين في الآية (١٩٧) من سورة البقرة: ﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، وما تفعلوا من خير يعلمه الله، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، واتقون يا أولي الألباب﴾. أي أن من أراد الحج في أشهر الحج فليؤده بكل حذر وخشية من ربه في الحج، فلا ينبغي له خلال أيام الحج ملامسة زوجته ولا ارتكاب أي معصية كانت، ومن واجبه تجنب الخصومة في الحج. وأن يُقدّم خلال الحج على فعل الخير متزوداً خلال ذلك كلّ بزاد التقوى أي بزاد الحذر والخشية من إغصاب ربه عز وجل فإن خير الزاد التقوى لمن كان سالكاً من المؤمنين درب عرفان ربه وطالباً للفوز بمحبته. لذلك أنهى تعالى هذه الآية بقوله حاثاً على التزود بزاد التقوى أي حاثاً الحذر من غضب الله وخشيته، والسعي للفوز بمحبة الله وقربه ورضوانه.

وهذا الأمر الإلهي يفسر قول ربنا عز وجل في الآية (٢٦) من سورة الأعراف :

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سِوَاتِكُمْ وَرِيشًا، وَلِبَاسَ التَّقْوَى، ذَلِكَ خَيْرٌ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾. ولا يقصد بالإنزال هنا، النزول من أعلى إلى أسفل، بل أريد به ما أريد من قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي تبيان أهميته.

فهو تعالى استعار لفظ أنزلنا تنبيهاً لأذهاننا إلى أن ماتنبته الأرض حدث بتخطيط سابق من ربكم، ولم ينبت نبات من نفسه وقد أنبتنا ما أنبتناه ليساعد على دوام حياتكم. فهذا النبات هو بمثابة لباس يُؤاري سِوَاتِكُمْ. إلى جانب ماتلقونه عن طريق مرسلينا من مواعظ وتعاليم، فالسورة في اللغة هي العورة والفاحشة والخلة القبيحة. أي أن هذا الغذاء المادي وهذا الغذاء الروحي يستر نقائصكم ويصونكم عن فعل الفواحش وعن مصاحبة الخلة القبيحة. وإن اجتماع هذين الغذائين هو بمثابة الريش الذي تتزين به الطيور وتحلق بواسطته في أجواز الفضاء. فإن تدثرتم بلباس التقوى عند الأخذ بهذين النوعين من الأغذية ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ وقد استبدل هذا هنا باسم الإشارة ذلك تعظيماً للباس التقوى ورفعاً لمكانته في نظر الله عز وجل. وأضاف قائلاً: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي أن هذين الغذائين ولباس التقوى تشكل مجتمعة دلائل وجود الله الخالق وتؤكد على النتائج المتوقعة من الصيام وغيره. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي ليتوقع هؤلاء المؤمنون السالكون درب عرفان ربهم ظهور النتائج المتوخاة من أكل الطيبات وعمل الصالحات والحذر من غضب الله وخشيته في كل أمر. فهذه التقوى إن اتصفوا بها تصبح إحدى ذرائعهم التي وفرتها لهم ربهم لجذب محبته وقربه والفوز برضوانه وجنته. اللهم اجعلنا كذلك ياسميع الدعاء، اللهم آمين.

١٠. محاولة التخلق بالخلق المحمدي العظيم

سبق لي أن ذكرت أن الإباحة هي الأصل في الأحكام الشرعية، على حين أن الحرمان والإمساك هو الأصل في شعيرة صوم شهر رمضان المبارك. فشهر رمضان هو شهر الإمساك عن مختلف أنواع الطعام والشراب منذ الفجر

وحتى أذان المغرب. ومن هنا تأتت أهمية الصيام وعظمة أجره. لذلك أنهى الله جلّ شأنه الآية التي فرض بها الصيام بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

والذي يتدبر الآية (٢٢٢) من سورة البقرة، والتي ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ، وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾. فالذي يتدبر هذه الآية الكريمة يلاحظ اشتغالها على الحرمان والإمساك المنصوص عنه فيها، إنما من نوع يغاير ما شملت عليه فريضة الصوم من نوع إمساك وحرمان.

فالمعلوم من كتاب الله القرآن أنّ الإباحة هي الأصل في موضوع مباشرة الزوجين لعلاقتهم الزوجية، على حين ورد الحرمان والإمساك عن هذه العلاقة الجنسية أثناء مدة الحيض.

ثم إنّ الله تعالى لم يثب هذه الآية بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ على شاكلة مافعله في آخر آية الصوم. بل أنهاها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾. إشارة إلى حكمة هذا النوع من الإمساك المطلوب والمتعلق بألفاظ ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾ هذه الألفاظ التي نُبّهت إلى حقائق علمية كشف عنها الطب بما يتعلق بأخطار مباشرة النساء أيام محيضها. وهذا الأذى المحتمل سيكون ظاهراً وباطناً أيضاً.

إنّ الإمساك المطلوب عن الطعام والشراب نهائياً لا تتجاوز مدته شهر رمضان. بينما يتكرّر هذا الإمساك المطلوب أيام الحيض كلّ شهر وعلى مدى العام. فهو تعالى نَبّه المؤمنين الذين يلتزمون بأمر ربّهم لدفع هذا الأذى الظاهر والباطن عن أنفسهم، أنّه سيثمر في أنفسهم روح التوبة والأوبة إليه، ويفيد في تحقيق تجانس بين تكوينهم الباطني وبين صفة ربّهم القدّوس، ويجذب بالتالي محبة ربهم إليهم ويفوزون بذلك بقربه ورضوانه.

فمن خلال قوله تعالى إذن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾. نترأى لعين متدبر القرآن الكريم ملامح الذريعة التاسعة التي تجذب محبة الله تعالى على درب عرفانه. ولكسب قربه ورضوانه. فكلمة ﴿المتطهرين﴾ من طهر ضد نجس، واطهر معناه تنزه عن الأدناس وكفّ عن الإثم وأصبح طاهراً معصوماً عن المعاصي والمخالفات ظاهراً وباطناً. (محيط المحيط)

فهذه الآية من سورة البقرة تحث المؤمن السالك درب عرفان ربه ليكون طاهراً معصوماً عن معصية أوامر ربه عزوجل، وليتزم بأوامر ربه ظاهراً وباطناً. فإن هو سلك هذا المسلك، يُجانس بذلك صفة ربه القدوس، ويجذب إليه بهذه الوسيلة محبة ربه ويفوز بقربه ورضوانه. من هنا ندرك المقصد الذي قصده محمد رسول الله ﷺ من خلال حديثه الشريف: (تخلّقوا بأخلاق الله) أي اتصفوا بصفاته. فلهذا الحديث أساس فيما نصبت عليه ألفاظ آية سورة البقرة التي أوردناها. وعلى ضوء ذلك نفهم دلالة ما أجابت به أم المؤمنين عائشة (رضي) بقولها حين سئلت عن خلق رسول الله ﷺ :

قالت: "كان خلقه القرآن". وعليه فقد كانت سيرة محمد بن عبد الله النبي الأمي أتمودجاً يُحتذى به من قبل المؤمنين السالكين درب عرفان ربهم بما يتعلق بعملية محاولة التجانس مع أسماء الله وصفاته، وليتحوّل خلقهم ليكون خلق القرآن الكريم ويفوزون بذلك بنظير ما خاطب به ربهم رسوله الكريم قائلاً: ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾.

فالمؤمن السالك إذا تطهر من الأدناس وكفّ عن الإثم وعصم نفسه وقواه الباطنة من أن تدفعه إلى معصية ربه ومخالفة أوامره ظاهراً وباطناً، لابد أن يحدث في قواه الباطنة تحول نوعي باتجاه التخلّق بالخلق العظيم الذي هو مظهر صفة الله القدوس. من هنا توجّب علينا تدبّر ألفاظ ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ والنظر في ارتباطها بسياق الآيات من سورة نون. والتي استهلها جل شأنه بقوله: ﴿ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإنك لعلی خلق عظیم . فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون .﴾ فآية ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ وردت في معرض دفاع الله تعالى عن كمال عقل رسوله الكريم ﷺ الذي أرسله ربه رحمة للعالمين، وفي معرض نفي الجنون عنه، فما معنى هذه الآية الكريمة؟

سبق لي أن بينت أنّ الخلق في اللغة العربية يُطلق على تكوين الإنسان الباطني أي على ما يحمله من قوى وميول وعواطف وشهوات. الأمر الذي توسّعت في شرحه في (نظرية جذور الأخلاق) وكلمة (عظيم) اشتقت من عظم الشيء فهو عظيم بخلاف صغّر أو حقّر. والعظمة تستعمل في الأجسام كما

تستعمل في غير الأجسام. وقد يطلق لفظ العظيم على كل أمر استعظمه عقلنا خيراً كان أو شراً (محيط المحيط).

وبهذا المعنى ورد لفظ عظيم في عشرات الآيات القرآنية. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله: ﴿وَإِلَّا لَكُمُ الْعَذَابُ عَظِيمٌ﴾ و﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ و﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ و﴿جَاوَزُوا بِسَحَرٍ عَظِيمٍ﴾ و﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ وما إلى ذلك من أقوال أنهيت بها مختلف آيات كتاب الله العزيز.

واستناداً إلى معنى عظيم، فإن الله عز وجل حين قال مخاطباً رسوله محمداً (ﷺ): ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ خاطب عقول أعدائه الذين كانوا يصفونه بالصّادق الأمين من قبل الرّسالة منبهاً إياهم إلى التناقض الذي وقعوا فيه مع أنفسهم حين اتهموه بالجنون، وقال إنّ الذي يراقب صفات هذا الرسول المتطهرة من الدّنس، والمتجانسة مع قوى الخير التي تمثلها الذات الإلهية، يستعظم عقله هذه الظاهرة الدالة على التركيب الباطني الذي تولّد عن صفات هذا الرسول الكريم بشكل طبيعي لا تكلف فيه. وهذه الظاهرة، ظاهرة الاتصاف بصفات الخير والتطهر من صفات الشر لا تحدث لرجل مجنونٍ فاقد عقله. بل هي ظاهرة عقل متزن يقيناً.

فكل إنسان ركّبت قواه الباطنة من قوى متضادة: شجاعه يقابلها جبن. وحب يقابله كره وقوة إثارة تقابلها قوة أنانيه. وهل يُسمّى الإنسان الذي يسعى بل سعى لتنمية قواه الخير وتزكيتها، وتدسية قوى الشر في نفسه، وتخلّق بذلك بأخلاق ربّه وصفاته العظيمة الخير، وأحدث مع صفات ربّه تجانساً ظاهراً، هل يصحّ وصمّ هذا الإنسان بالجنون؟

من دلالة هذه الآية الكريمة ندرك أنّ التطهر من معصية الله تعالى ومن مخالفة أوامره التي نصّ عليها كتابه العزيز. إنّما هي عملية ضرورية جدّاً لكل مؤمن سالك درب عرفان ربه عز وجل، ليحدث عن طريق ذلك تجانساً بين قواه الباطنة وبين ما لله عز وجل من أسماء حسنى، ليحذّب عن طريق عملية التحويل هذه محبة ربه إليه ويفوز بالتالي بقربه ورضوانه.

هذا وإن عملية التحويل هذه ومحاولة الاتصاف بصفات الله وأسمائه الحسنى، التي أمر بها رسول الله (ﷺ) ونصّ عليها كتاب الله العزيز، قد

جاءت من صلب قوانين الطبيعة من حولنا. هذه القوانين التي سنّها الخالق البارئ لتسير دفة هذا الكون العظيم.

ليلاحظ المرء كيف أنّ مواطني الوطن الواحد الذين تجمعهم اللغة والجنسية والمواطنة، إذا تلاقوا في الغربية بعيداً عن أوطانهم، عن غير سابق معرفة، يتجمعون لاشعورياً، ويتحابون متناسين مابين عائلاتهم أو قبائلهم في الوطن الأم من عداوات أو خصومات؟

وإذا راقب المرء مختلف أنواع الحيوانات، سيلاحظ أنّ الغربان شكّلوا وبصورة طبيعية مجتمعاً يخصّهم لأخوالهم فيه طيرٌ من نوع آخر. وللبط مجتمعهم، وللخيل مجتمعهم، وحتى الحمير أمسى لهم مجتمعهم أيضاً.

وليقيم هذا المراقب باطلاق سراح غرابٍ أمسك به، فلا يتجه هذا الغراب إلا إلى حيث اجتمعت الغربان، وإذا أطلق سراح فرسٍ عنده، فلا ينضمّ هذا الفرس إلا إلى مجتمع الخيل. من هذا كان علينا أن ندرك وجود قانون طبيعي يهيمن على جميع الأحياء في هذا الكون الفسيح، وهو أنّ التجانس في الصفات أساس تكوين المجتمعات. فالماء إذا سُكب على الأرض لأخواله قطع الحديد المتناثرة، بل ينضمّ إلى برك الماء إن وجدت من حوله.

وعلى أساس من هذا القانون الطبيعي الذي سنّه الخالق جلّ وعلا وردت أوامر الله عزّ وجلّ التي تحثّ المؤمن السالك على التطهّر من معصية ربّه ومخالفة أوامره. فالله تعالى هو قدّوس طاهر وهو مصدر الخير كلّّه، فلا يجب إلاّ التوايبن من عباده ولا يجب إلاّ المتطهّرين، الذين يسعون ليل نهار للتخلّق بأخلاق ربهم وأسمائه الحسنی، والذين يبدلون قواهم الباطنة باتجاه إحداث هذا التجانس مع أسماء الله العظيمة متأسّين بأسوة محمد بن عبد الله (ﷺ) الذي شهد له ربه أنه أصبح أسوة حسنة في تلك العملية وخاطبه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

لذلك لا يستغرب قارئ القرآن الكريم أن يقول ربنا عز وجل في معرض توصية الزوجين بالإمساك عن معاشرة بعضهما البعض الآخر أيام الحيض، الذي هو أذى، أن يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾. وليعد هذا المتدبّر إلى سورة الفاتحة التي هي أم الكتاب وخلاصته، ليستدلّ منها عن كيفة القيام بعملية التخلّق بأخلاق الله وصفاته. ذلك أن هذه

العملية تشكل جزءاً من طلب الهداية إلى الصراط المستقيم التي يطلبها هذا المؤمن في كل ركعة من ركعات صلواته.

أفلا نلاحظ أننا عندما نقف نحمد الله في سورة الفاتحة قائلين: ﴿الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين.﴾ أفلا نلاحظ أنّ لفظ الجلالة (الله) سبق ذكر هذه الصفات. وأنّ لفظ ﴿إياك نعبد﴾ ورد بعد هذه الصفات الإلهية مباشرة؟

فالؤمن المتدبّر لا يأخذ هذه الظاهرة على أنّها حدثت عبثاً ومصادفة. بل لابدّ أن يكون من ورائها سرٌّ مكنون وحكمة عظيمة بالغة الأهمية، ذلك لأن سورة الفاتحة وترتيب آياتها وألفاظها قد صدرت عن إله حكيم عزيز. وأنا أفهم من هذا التقديم والتأخير لهُذين اللفظين "الله وإياك"، الإشارة إلى سموّ مقام الألوهية في مقابل مقام العبودية من جهة وتوجيه لهذا المؤمن السالك درب عرفان ربّه عزوجلّ، والطالب هدايته سبيل عملية التخلّق بأخلاقه تعالى وصفاته، سبيل كيفية التدرُّج في هذه العملية على طريق أحداث التجانس مع ربه عزوجلّ من جهة ثانية أي من أين يبدأ وماهي درجات هذا السُّلم، كيلا يضلّ الصراط المستقيم.

أقول : إنّ الحكمة من هذا التقديم والتأخير، توجيه هذا العبد ليبدأ بالاتصاف بهذه الصفات من حيث انتهت ترتباً، أي أن يبدأ بالتخلّق بخلق الله مالك يوم الدين والشرعية، ويتقدم درجة ثانية ليتخلّق بخلق رحيمية الله ومن ثم درجة ثالثة فيتخلّق بخلق رحمانية ربه عزوجلّ. والمقصود من ذلك أن يتطوّر على هذا الدرب تطوّراً طبيعياً تتأصل جذوره في نفسه خطوة خطوة، فلايسير على هذا الدرب فوضوياً لايمحي من خطواته الثمار المرجوة بشكل علمي.

ذلك أنّ عمليّة الخلق اقتضت أن يرعى هذا الخالق ماخلق ويطوّره حالاً بعد حال باتجاه الكمال والتمام. لذلك توجّه الخالق إلى هذا المؤمن فهيئاً له محيطاً ملائماً لنشأته وازدهاره روحياً. ثم تجلّى عليه بصفة رحمانية فوضع بين يديه من التعاليم مايساعده في أمر عروجه الروحي. ثم تجلّى عليه بصفة رحيمية بعد أن استفاد هذا المؤمن ممّا آتاه الله من تعاليم ومواعظ استفادة حقيقية فحصد أفضل نتائج هذه التعاليم، لتكون له العاقبة الحسنة دنيا وآخره. ثم يتجلّى ربّه عليه أخيراً بصفته مالك يوم الشريعة فيؤيده وينصره على أعداء الله وأعدائه في جميع

الميادين. وبصفته مالك يوم القيامة، فينعم عليه بثمار جنته التي أعدها أصلاً للمتقين، والمتطهرين.

فترتيب تجلّي هذه الصفات هي عثابة تجلّي هابطٍ من مقام الألوهية الأعلى ضمن عملية الخلق والتطوير هذه. لذلك تقدّم اسم الجلالة (الله) في ﴿الحمد لله﴾ على هذه الصفات. ومادام قد تأخر لفظ (إِيَّاكَ) الذي يفيد مخاطبة الله ذاته فالحكمة منه أن يبحث هذا المؤمن على التدرّج في الاتصاف بهذه الصفات الأربعة المُجملة والتي تحوي كل صفة منها عدداً من صفات الله لا يُستهان به الأمر الذي لا مجال للخوض فيه هنا. الحكمة أن يبحث الله هذا العبد المؤمن أن يتدرّج في عملية تخلقه بأخلاق ربه وصفاته بأسلوب صاعد من آخر هذه الصفات وإلى أولها على درب مسيرة عرفانه وطلب قرب الله ورضوانه.

وسؤال يطرح نفسه هنا وهو كيف بالامكان الاتصاف والتجانس مع آخر صفة وهي صفة المالكية؟ أقول ما لم يحط هذا المؤمن السالك علماً بمظهر تجلّي مالكية الله عزوجلّ، يعسر عليه إيجاد الجواب على السؤال المذكور.

ألا إننا سبق أن بيّنا فيما سبق أنّ الله تعالى يتجلّى في عالمنا كملكٍ سنّ قوانين لتسيير أمور مملكته، ويجري ويعاقب ضمن معطيات هذه القوانين الطبيعية المسنونة فلا يتجلّى الله تعالى كمالك يفعل ما يشاء إلا حين يُنزل الله شريعة ليكتب لها الثبات والبقاء، فيتجلّى حينئذٍ بأقدار روحية خاصة، فصُلّت الكلام فيها في كتاب (القضاء والقدر حقيقة كونه ثابتة). والصفة العامة التي تتجلّى حين تجلّي صفة المالكية هذه، هي صفة عدالته المقرونة بالحلم والعفو والتسامح والغفران للمسيئين من عباده.

ونفس صفة مالكية يوم الدين ستجلى متصفة أيضاً بصفة العدالة هذه المقرونة بالحلم والعفو والتسامح والغفران مع الذين لم ينصاعوا لتعاليمه في حياتهم الدنيا وماتوا وهم كُفّار.

وعليه فلا بد أن يكون هذا المؤمن السالك قد أدرك حين يسير على طريق التجانس مع صفة ربه المالك ليوم الشريعة ويوم الدين، أن يسعى طاقة جهده ليكون عادلاً في جميع تصرفاته مع المؤمنين وغير المؤمنين آخذاً بالحلم والانصاف والتسامح والغفران في مواجهة الذي يُحاول الاعتداء عليه وعلى حقوقه ويدفع بالتي هي أحسن السيئة. ولا ينزل إلى مصاف هؤلاء الظالمين. فعليه

أن ينبذ العنف سلوكياً ويبرز كخادم أمين لشريعة الله تعالى ويتفانى في نشر كلمة الله بين الناس مضحياً بكل نفيس يملكه تقريباً من ربه وهو يطلب عرفانه وقربه ورضوانه. كذلك يحاول الانصباع بصبغة الله المالك ليوم الشريعة والدين حتى يشار إليه في ذلك الأمر بالبنان وحتى يشهد الخاص والعام على عداله سلوكيته مع سواه وعلى حلمه وانصافه وتسامحه وغفرانه.

ويتقدم خطوة أخرى على درب عرفان ربه ليتخلق بصورة بارزة بصفة الرحيمية للتجانس معها. فإن تساءل هذا المؤمن : وكيف بالامكان الاتصاف بصفة الله الرحيم؟ فأمامه الآيات الكريمة من كتاب ربه العزيز التي تفيد في الإجابة على تساؤله المذكور. فالله تعالى يتصف في حالة تجليه بصفة رحيميته بصفة الرأفة والرحمة والدفاع عن فئة المؤمنين، وعليه فليتصف هذا المؤمن السالك وليتجانس مع هذه التجليات بأن يؤثر إخوانه المؤمنين على نفسه ويرأف بهم ويرحمهم ويدافع عنهم إلى أن يصبح متميزاً في ذلك بحيث يشار إليه بالبنان.

ومن ثم يتقدم خطوة ثالثة على درب عرفان ربه عز وجل، ليتخلق بصورة بارزة بصفة الرحمانية ويتجانس معها. فإن تساءل هذا المؤمن : وكيف يتحلى بصفة الرحمانية؟ فأمامه آيات كتاب الله العزيز ترشده في الإجابة على تساؤله المذكور. ذلك أن صفة رحمانية الله تتجلى بعباءة لا يقتصر على فئة دون فئة من عباده ومخلوقاته. بل يمد بعبائه كلاً من هؤلاء وهؤلاء، ويستجيب للمضطرب إذا دعاه ويكشف السوء. وعليه فليتصف هذا المؤمن السالك وليتجانس مع هذه التجليات بأن يستوي عنده في عطائه وإحسانه جميع الناس بلا تفریق من جانبهم بينهم: لاني اللون ولا في العرق ولا في اللغة ولا في الدين. وينقلب بذلك خيراً كله لبني جنسه وللإنسانية جمعاء يحسن إليهم دون طلب أجر منهم أو جزاء. وبحيث يعود يُشار إليه حين يتصف ويتجانس مع صفة الرحمانية هذه بالبنان ويصبح في ذلك كنار على رأس علم تضئ ماحولها بكل وضوح وجللاء. فإذا ما قطع هذا المؤمن هذه الاشواط الثلاثة بالترتيب المشار إليه يتقدم

خطوة رابعة على درب عرفان ربه عز وجل لينصبغ بصبغة ربوبية ربه ويتجانس معها. فإن تساءل هذا المؤمن أن كيف بإمكانه الاتصاف والتجانس مع ربوبية رب العالمين؟ فلا بد وأنه يعلم دلالة لفظ (الرب) الذي يعني الذي يُطور الشيء حالاً بعد حال حتى يصل به مرحلة التمام. فالله الرب بعد أن خلق الخلق هداهم

إلى سبيله وسعى إلى تطويرهم روحياً ليصلوا إلى مرحلة يتعرفون فيها عليه عز وجل ويفوزون بحبته وقربه ورضوانه. ويعود مشعل تحلي ربوبية الله هذه مشعلاً بين يديه يهتدي بهديه ويتجانس معه وينصبغ بصبغته. فيسعى جاهداً تحت قيادة رسل الله وخلفائهم لتطوير المجتمع الإنساني نحو الأفضل وعلى هدى تعاليم هذا الدين الخفيف التي بين يديه. فيحمل راية الإسلام ينشرها على جميع أصقاع المعمورة بسلاح البينة والحجة والبرهان والأسوة العملية الحسنة والله من وراء القصد. فهذه معالم ما أشارت إليه سورة الفاتحة وقدمته من أسرار.

فالألوهية تتجلى بتجليات نازلة، والعبودية تتجانس معها بتجانس صاعد، ووفقاً لهذه الصفات التي تضمنتها سورة الفاتحة . وهذا السر المكنون لا يدركه إلا المؤمنون السالكون درب عرفان ربهم، هؤلاء المتقون اللاهفون لجذب محبة ربهم إليهم والفوز بقربه ورضوانه. وإن توبة المؤمن المتكررة وتطهره من المعاصي والأدناس هو المقصود من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

ثم إن الأمر الذي الذي يساعد هذا المؤمن على درب محاولة التعرف إلى ربه ولتجانس مع أسمائه الحسنى وليكون مستحقاً لقب الخلق العظيم. هو أن من واجبه تدبر كل صفة من أسماء الله تعالى تدبراً حقيقياً على ضوء معطيات آيات القرآن العظيم. فليتناول صفة الله الخلاق على سبيل المثال. فالله الخلاق هو الذي يخلق خلقاً بعد آخر وباتقان مدهش يدهش عقول المتفكرين.

هذا ولا يكون التخلق بصفة الخلاق والتجانس معها، إلا بهذه الوسيلة المتوفرة بين يديه. وهي وسيلة الزواج الشرعي وإنجاب الأولاد والانكباب على العناية بهم وتربيتهم التربية الصالحة ليعودوا مظهراً لمدى أبعاد ماتحملة ربوبيته لهم من إمكانيات وقدرات ومعلومات.

ورب الأسرة هذا لا ينقصه لتحقيق هذا التجانس مع رب العالمين إلا العاطفة التي تدعم بذله وإحسانه وعناؤه. ولم يخل رب العالمين على هذا العبد بهذه العاطفة، بل يتحسس كل والد ووالدة أن عاطفة الأبوة والأمومة مغروسة في فطرته تجاه أبنائه. وهي ظل العاطفة المطلقة التي تحملها ربوبية رب العالمين.

فإذا حاول هذا المؤمن السالك التخلق والتجانس مع صفة الله الخلاق، فليتزوّج زواجاً شرعياً يكمل به دينه، ولينكب على الانفاق على ما ينجمه من

أولاد وتربيتهم تربية صالحة فيطورهم طوراً بعد طور إلى أن يصبحوا أخيراً لبنات اجتماعية صالحة. وليعاملهم بأسلوب الترغيب والترهيب الذي تعامل به ربوبية الله مخلوقه الإنسان. وليكون سلوكه مع ماينجبه من أولاد باطنه فيه الرحمة وظاهره العذاب. وبذلك يجذب محبة ربه إليه ويفوز بالفراسة الايمانية على هذا الطريق، وحينئذ يكشف ربه عليه أسرار ربوبيته عن طريق الالتقاء والتعليم اللدني.

ثم إنه لولا هذه العاطفة المغروسة في فطرة كل مخلوق، أنى كان يحق لله محاسبة هذين الوالدين إن قصراً في واجبات تربية أولادهم . وكم هي عظيمة عاطفة الأمومة ومدهشة، فلن يجد الباحث أمّا تكره ابنها بسبب بشاعته. بل ترى كلّ أم وليدها أجمل الأطفال.

وهيّا ليتوجّه أي باحث إلى آية والدّة بالسؤال : لم تُحبّين طفلك؟ فسيلاحظ أنّ هذه الأم لا تجيبه على سؤاله، بل تبتسم وتقول للسائل : وهل فكّرت قبل أن تطرح هذا السؤال الذي لا يُعد سؤالاً؟

ودونكم هذه الأم التي أنجبت طفلاً فاحم اللون وغير متناسق أعضاء الوجه وذو شفتان سميكتان وله أنف أفطس، فهل تقصّر هذه الأم بحق هذا الوليد، وتطرّحه بعيداً عنها.

بل تتحمل وتتجشّم كل عناء لتحافظ عليه . فإذا توجّع في منتصف الليل تَضُمّه إلى صدرها وتطوف به أرجاء الغرفة وتقول دون شعور منها : ياليتني كنت فذاك. وهل أنّ عاطفة الأمومة هذه إلا الدليل البين على ماتحمّله ربوبية الله من عاطفة جيّاشة هي أساس تحمّل مايدُر عن الناشزين و الصبر عليهم وإمّهم لهم والتسامح معهم والشفقة عليهم، والاستمرار في تطويرهم طوراً بعد طور. فمن لم ينصلح في دنياه، ففي عالم البرزخ، وإلا ففي عالم ما بعد البعث والنشور وهو آخر طور لإصلاح هؤلاء الناشزين من عباد الله، وليصبحوا أخيراً مستحقين جنة الله ويكونون من المتخلّقين بأسماء الله الخالق؟ فمن هذا كلّ ندرك أهمية هذه الذريعة التاسعة لجذب محبة الله تعالى والفوز بقربه ورضوانه على درب عرفانه.

١١. الانصاف بصفتي العدل والإنصاف خاصة

استقيننا من آي الذكر الحكيم حتى الآن ذرائع تسعاً نبهنا إليها ربنا في كتابه العزيز إن نحن عملنا عليها تساعداً عليّ جذب محبة ربنا نحوسا على درب عرفانه. وأتناول بالذكر الذريعة العاشرة التي تعدّ في مقابل تلك الذرائع الأساس والأرضية التي تقوم عليها تلك الذرائع جميعها. وبدون توفر هذه الذريعة العاشرة والأخيرة تفقد جميع الذرائع الماضية مصداقيتها وفماها. هذه الذريعة العاشرة التي إن أخذ المؤمن السالك بها بشكل جدّي وصارم لا بد أن يلاحظ في نفسه أنه يقطع مراحل العرفان الإلهي من الرغبة إلى الأُنس فالوُدّ، ومن ثمّ يجذب محبة ربّه إليه ويفوز بقربه وعرفانه ورضوانه. حتى يبلغ هذا المؤمن السالك مرحلة لا يعود بعدها يجد سُلوأته إلّا فيما فتحه الله تعالى عليه من تجلّيات، وتأخذ حيثنّذ عظمة ربّه وجلاله بجميع جوارحه ولا يعود للشيطان عليه من سبيل ولا سلطان. ولا أطرح هذه الحقيقة بشكل نظريّ غير تجريبيّ. بل هو حقيقة تكشّفت لنا نظرياً وتجريبياً وعلى هدى آي الذكر الحكيم.

والمؤسف أنّ هذه الذريعة العاشرة باتت مفقودة في زماننا على الصعيد الإسلامي بل وعلى الصعيد العالميّ. لذلك نلاحظ أنّ الفوضى والإضطراب يعمّان عالم اليوم بشكل لم يسبق له مثيل. والسبب الوحيد في ذلك كلّ جهل المسلمين بتعاليم دينهم، وجهلهم بحقيقة هذا المسيح الدّجال الذي يصول ويجول ويعيثُ فساداً في الأرض، ويلبس الحقّ بالباطل والمسلمون يغطّون في سُبات عميق.

هذه الذريعة العاشرة تتمثّل في مبدأ العدالة والإنصاف الذي ينبغي أن ينصبغ بصبغتها سلوك الأفراد وسلوك الجماعات وسلوك الحاكّمين. وكيف بإمكان المؤمن أن يجذب محبة ربّه إليه إن كان لأثراعي مبدأ العدل والإنصاف في سلوكه مع سواه من المؤمنين وغير المؤمنين؟ ذلك أنّ الله عزوجلّ نّه في أكثر من موضع من كتابه العزيز أنه يحبّ المقسطين ولا يحبّ الظالمين. فهذه سورة الرّحمن قد لفت فيها أذهان المفكرين إلى ظاهرتين في هذا الكون؟ وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ فهو تعالى نّه إلى ظاهرة السّمو اللانهائي وظاهرة الميزان. وربط بين هاتين الظاهرتين وقال: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ فنهى عن الطّغيان في الميزان. والطّغيان من طغى أي جاوز الحدّ. والميزان يعني العدل

والمقدار (محيط المحيط). أي أنه جلّ شأنه نهى مخلوقه عن تجاوز حدوده وليصبغ سلوكه اليومي بصبغة العدل والإنصاف إن كان يسعى للسمو والرفي الروحيّ وجذب محبة ربه إليه والفوز بقربه ورضاه. ولذلك أضاف تعالى أمراً عباده : ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي زنوا كل تصرف من تصرفاتكم بالقسط والعدل والإنصاف. ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ وتخسروا من خسر الميزان أي نقصه (محيط المحيط) أي لاتتصرفوا بما يخالف العدل والإنصاف وتنقصوا بذلك من أهمية العدل والقسط والإنصاف.

والمعلوم هو أن الإنسان ينحاز عن جادة العدل والإنصاف لدوافع عديدة : فهو لا يعدل أحياناً بداعي مصلحة ذاتية، وهو يجنح عن ميزان العدالة أحياناً تحيزاً لأقربائه أو أصدقائه أو أعزائه. وقد يجحد عن سبيل العدل وبدافع عداوته لأحد من الناس . أي أنّ مُحاباة الأصدقاء، وبغض الأعداء يدفع الإنسان ليجحد عن جادة العدل والإنصاف في أقواله وتصرفاته. أمّا إذا كان هذا الإنسان مؤمناً بوجود الله الذي رفع السماء ووضع الميزان، وهو يطلب ودّ هذا الإله ومحبة وقربه ورضاه، ويحمل لهذه الذات الإلهية مالها من عظمة في فؤاده ويحسبها فلا تؤثر فيه مصالحة الذاتية، ولا يتحيز لأقربائه وأصدقائه وأعزائه، ولا يعميه معاداة عدوه إياه، ويلتزم جادة العدل والإنصاف والقسط في جميع أقواله وتصرفاته اليومية سواء كان حاكماً أو كان محكوماً ومن عامة الناس. فهذا المقسط والعدل والمنصف في سلوكه اليومي، هو المؤمن الذي يستفيد من جميع الذرائع السابقة التي ذكرناها ويفوز بمحبة ربه وقربه ورضوانه، ويشمله حيثنذ قول الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. الحجرات (٩) والمائدة (٤٢).

وإننا إذا تساءلنا عن دلالة لفظ العدل. فقد أورد صاحب (محيط المحيط) أن العدل يعني أمراً يتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، ويمثل الاستقامة أيضاً. تقول عدل القاضي: عدلاً وعدالة أي أنصف. والعدالة مصدر، والعدل اسم فاعل جمعه عدول.

أما لفظ القسط والإنصاف فيمثلان العدل والاستقامة، وعلى ضوء معنى العدل والقسط والإنصاف أقول : إنّ المؤمن الذي يصلي ويصوم ويحج ويحج ويعمل على جميع الذرائع التي سبق لنا أن شرحناها، وهي الذرائع التي اشترطها القرآن الكريم لجذب محبة الله ورضوانه. إنّ هذه الذرائع جميعها لاتجدي

صاحبها نفعاً إن هو لم يلتزم في سلوكه اليومي جانب العدل في أقواله وتصرفاته. فالعدل هو الاستقامة كما نبّه إلى ذلك اللغويون، والعدل هو الأمر الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط لذلك يشكّل العدل والإنصاف الأرضية التي تنمو في تربتها جميع الذرائع المذكورة فتثمر ويقوم عليها هرم بناء العرفان الإلهي. أفلا يُلاحظ المصلّون صلاة الجمعة كيف أنّ الخطيب لا يفتأ يردّد في الخطبة الثانية من خطبته الآية (٩٠) من سورة النحل وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؟ وأولم يتساءل السامع أنّ ماحكمة تقديم الأمر بالعدل على الأمر بالإحسان وإيتاء ذي القربى؟ إن حكمة هذا التقديم والتأخير تتجلّى فيما أوضحه في هذه الذريعة العاشرة وهي أنّ العدل في السلوك هو الأساس وهو الأرضية لقبول الإحسان وإيتاء ذي القربى والانتفاء عن الفحشاء والمنكر والبغي. فالمؤمن السالك الذي يتجنّب العدل في تصرفاته ويبتعد نحو الإفراط والتفريط فيها، لا يُسمّى مستقيماً، وتكون عباداته مهتزة من أساسها. وكيف بإمكان هذا أن تُقبل أذعيته وتوكّله وتقواه إذا كان كلّ ذلك لا يقوم على هذا الأساس من العدل والإنصاف في تصرفاته مع بني جنسه؟ فهو إن لم يكن عادلاً يكون ظالماً لسواه من عباد الله وكيف يتقبّل الله عبادة هذا الظالم وكيف بالإمكان النظر إليه بحمّة وتقريب؟ إنه لا يتصف بصفة الاستقامة لذلك لا تؤتيه جميع الذرائع أكلها وثمارها المرجوة منها. فلا بدّ للمؤمن السالك درب عرفان ربّه أن يكون عادلاً ومنصفاً في تصرفاته مع بني جنسه حتى يستفيد من ذرائع جذب محبة الله عز وجل، وهذه هي حكمة تقديم العدل على الإحسان وغيره في الآية (٩٠) من سورة النحل. خصوصاً وأنّ الله تعالى قد أتى بهذه الآية الكريمة بصدد التّذليل على عظمة ما أنزل على محمد رسول الله ﷺ من كتاب.

فالله تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَؤُلَاءِ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾. فقول الله تعالى هنا ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ يُشكّل ادّعاءً ضخماً هو بحاجة للتّذليل عليه. ونعلم أنّ من أصول تفسير هذا القرآن العظيم أنّ

الله تعالى لا يأتي بأدعاء إلا ويقدم هناك الدليل القاطع على صحته. وقد أتى جل شأنه بهذا الدليل عندما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي أن كون هذا الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، يتمثل في هذه التعاليم التي جاء الله تعالى يأمر بالتقيد بها في هذا الكتاب. وخلاصة هذه التعاليم أنها تحضُّ على الاستقامة، وقد اختصر هذه الحقيقة بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾.

كما تلخصُّ تعاليم هذا الكتاب في الحضر على الإحسان. والإحسان يشمل الصَّفح عن المسيء ومساعدة الفقراء والمساكين والانفاق على مايتطلبه الوطن من مال، وعلى مايرقي العلوم وتدوينها وتعليمها كما يشمل على جميع مايفيد في ترقية الإنسان جسماً وروحاً، فجميع هذه المعاني تدخل في دلالات كلمة الإحسان. فالله يأمر في كتابه العزيز ﴿بِالْإِحْسَانِ﴾.

كما تلخصُّ تعاليم هذا الكتاب المنزل في حضَّها على إيتاء ذي القربى. ويُقصد بإيتاء ذي القربى هنا معنى الإحسان إلى ذوي القربى، بسبب أن كلمة الإحسان اشتملت على المعنى المذكور وهذه قرينة تدل على أن المراد من ذي القربى هنا أوسع وأشمل دلالة من المعنى المذكور فالبشر جميعهم ذوي قربى من حيث كونهم من بني نوع الإنسان جسماً وتكويناً باطنياً.

لذلك فالمقصود من قوله إن الله يأمر بإيتاء ذي القربى هو أن تعاليم هذا الكتاب مبرأة من سماتِ النعرات القومية والعنصرية واللونية وماشابه ذلك، وتتصف هذه التعاليم بِسِمَةِ كونها تعاليم إنسانية لاتفرق بين لون ولون ولا بين لسان ولسان ولا بين دين ودين من الأديان. أي أنه تعالى لخص تعاليم الإسلام في هذه الأوامر الثلاثة الإيجابية، وفي الأوامر الثلاثة السلبية وهي ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ وتشكل مجموعها الدليل على أن هذا الكتاب المنزل على محمد رسول الله (ﷺ) فيه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين.

وهو جل شأنه حين أنهى هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أتى بفعل تذكرون المشتق من كلمة الذكر التي تعني حفظ الشيء والتفوه به كما تعني الصَّيت والثناء والشرف والصلاة لله تعالى والدعاء كما ورد

ذلك في معجم (محيط المحيط) وكأنه تعالى قد قال: إن المسلم الذي يحفظ هذه التعاليم المنزلة في هذا الكتاب العظيم، ويقوم بالتبشير بها والدعوة إليها، يرتفع ذكره بين الناس، ويثني الناس عليه، ويحظى بشرف عرفان ربه ويفوز بمحبته، فهذه هي دلالات قوله تعالى هنا ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. فهو جل شأنه يبشر المسلمين بتوقع هذه الثمار جميعها إن هو عمل على هذه التعاليم أيضاً.

فإن تساءل امرؤ أنه مادامت آية ﴿إِنْ أَلَّهِ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ قد أوتى بها كدليل يثبت عن طريقه إدعاء الآية التي قبلها، فأين هي الآيات التي أمرت بالعدل والانصاف وأكدت عليه؟

ولهذا السائل أن يعود إلى الآية الثامنة من سورة المائدة حيث قال الله تعالى فيها مؤكداً على ذلك من خلال خطابه الموجه إلى الذين آمنوا به وبرسوله وبكتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ، شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ إِلَّا تَعَدَّلُوا، أَعْدِلُوا، هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. فالله جل شأنه يحث المؤمنين السالكين درب عرفانه في هذه الآية الكريمة ألا تملكهم الغفلة، بل أن يظلوا يقظين يشهدون على ماتعلموا بالقسط. وألا تحملهم عداوة حاقدة عليهم على مخالفة العدل. بل أمرهم أن يعدلوا مع مثل هذا العدو الحاقد المبغض، فالعدل هو أقرب لتقوى الله وخشيته إن كان الفوز بمحبة الله وقربه هو مايسعون إليه، وأنهى هذه الوصية بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مؤكداً ضرورة بقائهم يقظين مع ربهم يرهبون جانبه متيقنين أنه جل شأنه خبير بما يعملون.

وحكمة هذا التأكيد على العدل والإنصاف هو كما بينت سابقاً لكون عدل المؤمن في جميع تصرفاته اليومية يشكل أرضية جميع الذرائع المؤدية إلى جذب محبة الله عز وجل.

ثم إن على هذا السائل أن يراجع الآية (٤٢) من نفس سورة المائدة ليلاحظ كيف أن الله عز وجل أكد على رسوله الكريم ألا يمانف العدالة فيما إذا حكمه المنافقون في أمر من الأمور بالرغم من إدراكه حقيقة نفاقهم. حيث قال تعالى موصياً بحق هؤلاء: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ، أَكْثَالُونَ لِلْسُّحْتِ، فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ، وَإِنْ تُعْرَضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً، وَإِنْ

حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. ﴿٥٨﴾ فمن خلال قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ لفت نظر رسوله والمؤمنين أن يجعلوا همهم جذب محبة ربهم وإليهم غير مبالين بأي دافع آخر يدفعهم لمجانفة جانب العدل. وإن على هذا السائل أن يُراجع الآية (٥٨) من سورة النساء لينظر كيف أن الله تعالى وعظ الذين تنتخبهم شعوبهم ليحكموها ويسيروا شؤون دولتهم ألا يخدمهم كراسي الحكم وألا يغتروا بما حصلوا عليه من الزعامة. بل إن من واجبهم أن يحكموا بين الذين انتخبوهم بالعدل والإنصاف. فهو جل شأنه قال هناك: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

فالخطاب وجهه الله تعالى أولاً إلى الناجحين وقال يعظ هؤلاء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ أي يأمركم بانتخاب من هو أهل لهذا المنصب الذي ترشحونه له. لأن ترتشوا من هؤلاء المرشحين، ولا أن تنتخبوا من كانت لكم به علاقة مصلحة.

ثم توجه جل شأنه يُخاطب الذين انتخبهم الشعب وقال يعظهم: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أي أن الله تعالى يأمر الذين انتخبهم شعوبهم وتربعوا على كراسي الحكم أن يتناسوا كل اعتبار غير اعتبار العدل والإنصاف فيما يؤدونه. فلا تتسلط عليهم منافعهم الذاتية ولا مصالح أقربائهم وأصدقائهم وتدفعهم إلى مجانفة العدل والإنصاف فيما يحكمون. ويزيد جل شأنه على عطته هذه قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أي أن موعظة ربكم هذه تستحق منكم الانصياع والشكر والثناء. ذلك أنها استندت إلى منطق تاريخي تعلمونه وهو أن الدكتاتوريات لاتدوم وأن العدل أساس الملك.

وقد أنهى جل شأنه هذه الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي اعلمو أن صرخات المظلومين وآهاتهم يسمعها ربكم الذي يعظكم أن تعدلوا بين الناس، والله يُبصر أيضاً ما تنصرفون به من تصرفات. والله مع المظلومين ضد الظالمين الذين لا يحكمون بالعدل والإنصاف وهم على كراسي الحكم. فهذا هو ما أثبتته تجارب السنين الماضية والآيام الغابرة.

ولهذا السائل أن يُراجع الآية (٧٦) من سورة النحل التي ضرب الله تعالى فيها مثال الفريقين: الفريق الظالم والفريق العادل المنصف من الناس، فهو تعالى قال هناك: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ، أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

فقد شبه الله عز وجلّ الناس والأشخاص الذي يظنون فلا يعدلون في أحكامهم وتصرفاتهم شبههم بالرجل الأكم الذي لا ينطق بالحق وبالرجل الضعيف الذي يعجز عن إحقاق الحق . وأضاف يقول إن مثل هذا الرجل الذي وهبناه ملكة العقل وهديناه السبيل ومع ذلك يميل عن صراط العدل ويظغى فهو إنسان عبء على موله أي أن الله تعالى لا يبالي بمثل هذا الإنسان ويعتبر بقاءه في هذه الدنيا وعدمه سيان لأنه لا يكون مصدر خير أينما وجهه ربه، بل يأت بشر على شر. وفي مقابل ذلك شبه الله عز وجلّ الحاكم العادل المنصف بين الناس، والذي لا يظغى في تصرفاته ويعدل مع الذي يتعامل معهم، ويستعمل عقله استعمالاً صحيحاً، ويستجيب لوعظ ربه ونصحه، أقول شبهةً بالإنسان الذي يسير على صراط مستقيم من جراء عدله وقسطه مع بني نوعه وانصافه في تعامله معهم. ولا يستوي هذا العادل وذاك الظالم بشكل من الأشكال.

ولهذا السائل أن يراجع الآية التاسعة من سورة الحجرا ليلاحظ هناك كيف أن الله تعالى يأمر بالعدل مهما تطورت الأحوال وتبدلت الظروف. فلو أنّ طائفتين من المسلمين اقتتلتا يوصي الله جل شأنه معالجة ذلك ويقول: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. وبذلك يكون قد وضع الله تعالى من خلال قوله هذا قوانين لنظام عالمي، إن عمل الناس عليها وأخذوا بها يعم بينهم الأمن والسلام. فهو تعالى يأمر بالتدخل بين المتقاتلين دون تحيز إلى جانب واحد منهم، وبغاية الإصلاح بينهم، فإن تبين أنّ هاتين الطائفتين لاتعطي بالاً لهذا التدخل ومحاولة الإصلاح، وأنهم لا يلتزمون بالأعراف والقوانين، وبغت إحداهما على الأخرى اعتزازاً بقوتها وكثرة عددها وعددها مثلاً. فالله تعالى يسمح للفريق المحاييد الذي يمثل هذا القانون الدولي أن يتدخل بالقوة للفصل بين

الطائفتين المتقاتلتين، فيقاتل الطائفة الباغية لتعود عن بغيتها ولتفيء إلى أمر الله أي إلى ماسنّه وشرعّه الله ربّهم من قوانين. فإن توقفت هذه الطائفة الباغية عن بغيتها وتراجعت وتوقفت عن القتال، فلم يأمر الله تعالى بإنزال العقوبات بها وحرمان أفرادها وشعبها من قوتهم، كما تفعل أمة المسيح الدّجال في عصرنا. بل أمر الله تعالى أن تعالج نقاط الخلاف بين الطائفتين ويسعى المتدخلون إلى الإصلاح بينهما ﴿بالعدل﴾ وبالقسط والإنصاف.

ويؤكد جل شأنه ضرورة حلّ هذا النزاع بالعدل والانصاف وليس بالقهر وإنزال العقوبات، ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. أي لا ينبغي للنظام العالمي أن يكون تابعا لهوى من يقومون عليه، بل ينبغي تحديد هدف سام عام وهو السّعي من وراء ذلك للفوز بمحبّة الله الذي علّمهم هذا النظام وأمرهم بالعدل والقسط والإنصاف. فأين هذا التعليم من هذا النظام العالمي الجديد الذي أسّسه هذا المسيح الدّجال؟ إنّ التعليم القرآني ماهو وليد هذا القرن من الزمان، بل مضى عليه أربعة عشر قرناً من الزمان، يوم لم تكن البشرية قد فكّرت بإقامة نظام عالمي، على حين أنّ النظام الجديد تؤسسه أمة تزعم أنها تمثّل قِمة الحضارة والتقدّم العلمي. فتعاليم الإسلام شتان ما بين عدالتها وما بين عدالة هؤلاء "المتحضّرين".

من هذا كلّ ندرك أنّ القرآن الكريم حضّ المؤمن السّالك على العدل والقسط والإنصاف في أقواله وتصرفاته مع بني جنسه، ليشكّل عدله وإنصافه أَرْضِيَّة تقدّمه على درب عرفانه لرّبه عزوجلّ، وأن يكون هادفاً جذب محبة ربّه أيضاً من وراء عدله وإنصافه وسلوكه هذا، وليس بمجرد أن يكون عادلاً. فيضع في حُسبانِه أنّه إنسانٌ مخلوقٌ، ويلتزم بأوامر خالقه أيضاً. هذا الخالق الذي لم يخلقه ربّه عبثاً، بل ليعرّفه على نفسه وعلى ما يتّصف به من علم وقُدراتٍ لا تحدّها حدود. وأنّ هذا الخالق هو ربّه الذي أعطاه كل شيء تستلزمه حياته وبقاؤه في حياته الدنّيا، وأنه هو ربّه يطرّره من هذه الحياة إلى حياة برزخية، ومن ورائها إلى حياة جنّة وخلود يسعد فيها بلقاء ربّه ومشاهدة أنواره وتلقي لألاءه وأفعاله ورحمته بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فمن هذا تتأتّى أهميّة هذه الذريعة العاشرة كأرضيّة لجميع مآذكرناه من ذرائع حتى الآن.



الفصل الثالث أولاً - المحبة ومضمونها

قد تبين لنا حتى الآن أنَّ تعاليم القرآن الكريم حثَّت المؤمن المبايع على التعرف إلى خالقه والتدرُّج على درب عرفان ربِّه من مقام الرغبة فالأنس فالوَدِّ، ومن ثم يسعى لطلب محبة ربِّه حتى تتلاقى المحبتان: محبته ومحبة ربِّه إياه، وينال بذلك حياة الخلود مع خالقه.

هذا وإنَّ أهمية هذا الموضوع تدفع بنا لإلقاء الضوء على مضمون المحبة موضوعياً. هذه المحبة المغروسة أصلاً في جبلة الإنسان بصورة فطرية وتشكَّل أساس لقاء العبد بربِّه.

فما هي المحبة؟ لا بدَّ أن يذكر القارئ أنني أجبت على هذا السؤال من الوجهة اللغوية، حيث تبين من معاجم اللغويين أنَّ المحبة تمثِّل حركة تداخل مودة طرف بمودة طرفٍ آخر محبِّ. فالمحبة عبارة عن انسياب عاطفي بين طرفين أحبَّ أحدهما الآخر. وهذا الانسياب العاطفي يشكِّل رابطة بين هذين الطرفين المتحائنين. ثمَّ إنَّ هذه المحبة تقوى وتضعف حسب نوعيتها. من هذا ندرك أن عاطفة المحبة تشكِّل كياناً ينمو ويثمر. فالمحبة كالبررة المغروسة في تربة صالحة، تتفاعل وتنمو على شكل نبتة تزدهر على حسب ما تملك من قوى ومقومات.

فالمقصد الأسمى من التعاليم الإسلامية يتحدَّد في إطار تنمية عاطفة هذا المؤمن نحو ربِّه عزَّ وجلَّ لتلتقي مع عاطفة ومحبة ربِّه إياه. فيحدث بالتالي بين هاتين المحبتين إنسيابٌ وعلاقة تداخل أشارت إليها الدلالة اللغوية. هذا وإنَّ ما ذكرناه حتى الآن من ذرائع هدايا إليها كتاب الله العزيز تساعدنا على جذب محبة الله نحونا، كذلك تمثِّل هذه الذرائع الوجه الذي تبيّناه وجربناه وأوتينا من ثمراته المرجوة منه، علماً بأنَّ التجربة تعد في نظر علماء عصرنا ذريعة حقيقية لتحصيل علم من العلوم.

أضف إلى ذلك أنَّ هذه المحبة التي فطرت عليها جبلة الإنسان ذات أساس مادي تمثلها قوة الجذب التي يحملها أصغر جسيم ذري من جسمه. ويدور

ذلك أكثر وضوحاً في الثّبات كدوّار الشّمس مثلاً. وعند الحيوان وهي هذه الغريزة الجنسيّة لديه. وتبدو أكثر غموضاً عند الإنسان وتمثّل في عاطفة المحبّة الكامنة في جبلة هذا الإنسان كمون النّار في الرّماد، ولا تحتاج إلّا إلى من يذب الرّماد عنها ويؤكّيها. ولنلاحظ كيف أن عاطفة المحبة هذه تحرّكها المناظر الخلابة والأزهار الجميلة والنسيم العليل والهدوء والسكينة، وما تحمله أنثى البشر والذكر من مفاتن تجذب الواحد منهما إلى الآخر كجذب المغناطيس لبرادة الحديد؟ ونتيجة لذلك ظهر الكتاب والشعراء وقصص الحب والغرام، فيكتب الكتاب في مواضيع الحب والمحبّة. ويتغنّى الشعراء بما يحسّونه في هذه المجالات التي ذكرناها.

وتبرز هنا وهناك قصص حب تأخذ بجوارح المحبوب ومحبوته. وليست قصّة قيس وليلى ببعيدة عن مسامع كلّ إنسان. حتى وقد قسّم الكتاب والشعراء المحبّة إلى محبتين: محبة جسدية شهوانية ومحبّة عذريّة تسمو عن العلاقة الجسدية وتحلّق في سماء الروح.

والحقيقة هي أن فطرة الإنسان وتكوينه الباطن يتألّف من مزيج من قوى متضادة، ومن ميول مختلفة، ومن شهوات جسديّة، وقد نزلت تعاليم الإسلام تنميّ قوّة المحبة وعاطفتها الكامنة في الفطرة البشريّة لتتلاقى وعاطفة ومحبّة الخالق لتثمر حياة الخلود.

وهذا هو السبب في أن القرآن الكريم أضاف إلى الاسم الحقيقي للخالق وهو لفظ الجلالة (الله)، أضاف أسماء وصفية من أبرزها (الإله) المشتق من الوله أي من المحبة وراحت الآيات الكريمة تنبّهنا المرّة تلو المرّة إلى أنه لا إله إلّا الله الحيّ القيوم الذي لاتأخذه سنة ولا نوم. وهذه الآي تدفع العاقل إلى محاولة الإحاطة بمعالم الفطرة البشريّة ليدرك أن المحبة وعاطفتها تكوّن جزءاً أساسياً من فطرة هذا الإنسان، وهي وراء هذا التشتت الحادث في تصرّفات هذا الإنسان الذي تجذبه المناظر الخلابة والأزهار الجميلة والنسيم العليل والهدوء والسكينة، ومفاتن المرأة والرجل. فيتيه الإنسان وسط هذه الأمور الجذابة ويحبّها ويهوّاها.

ويتناسى الإنسان من جرّاء ذلك وجود ربّه الرحمن الرحيم الذي ينبغي له أن يعطيه منزلة الألوهيّة والمحبّة، وبشكل يفوق محبته لأيّ شيء آخر سواه. فإن أحبّ الإنسان أيّ شيء، فليحبّ، فهذا شيء طبيعي، لكن الواجب على هذا

الحب أن يحيط علماً بمحبوبه الحقيقي، فلا يحب شيئاً إلا في ظلال مشيئة إلهه وتبعاً لإرادته عز وجل. وإلى هذه الحقيقة أشار الله تعالى في الآية (٢٤) من سورة التوبة قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ فاطلق تعالى على كل محبة تفوق محبة العبد لربه كلمة "الفسق" أي الخروج والتمرد على مشيئة الله وإرادته.

فالحبة إذن شيء عاطفي روحي، غير مادي. هذا وإن مأوتيه الإنسان من فكر وحواس إن هي إلا وسائل، إن استعملت استعمالاً صحيحاً ووفقاً لتعاليم القرآن الكريم تعود أداة طيعة لتنمية عاطفة المحبة لتتلاقى ومحبة وعاطفة خالق هذه العاطفة وتتفاعل معها لتكتسب حياة الخلود التي هي الله جل شأنه الذي يجسم المحبة والعاطفة المطلقة. فالحواس ووسائل وأدوات مادية تفنى مع فناء هذا الجسد بعد موته. أما عاطفة المحبة التي تلاقت مع محبة خالقها، فلا تفنى بل تخلد خلود هذا الخالق الذي تلاقت معه.

إن حواس هذا الإنسان مرتبطة بفكره. تنام إذا استسلم للنوم، فإن تسَلَّتْ أفعى ولا مست جسد هذا النائم يستيقظ، ولا ينتبه إلى خطر هذه الأفعى إلا بعد ثوان من يقظته. ففكره محتاج إلى تلك الثواني المحدودات لتقدير الخطر الذي يتهدد صاحبه. فهي ثواني فكر وتأمل. وهذا دليل من واقع الإنسان يثبت أن حواس الإنسان مادية وترتبط بالفكر أيضاً.

على حين أن عاطفة الإنسان التي تكمن في جبلته الباطنة ليست كحواس جسده. بل لها حقيقة تنصف بالدوام. ويستمر عملها في يقظة الإنسان وفي حالة نومه أيضاً. ودون أي انقطاع. والمثال على ذلك هذه الأمّ النائمة وإلى جانبها رضيعها. فإن احتاج إلى الرضاعة من ثدي أمه وأبدى هذه الحاجة. يُلاحظ أن هذه الأمّ تضم رضيعها إلى ثديها وهي نائمة غير واعية إلى ماتفعله. بل وتلاطف رضيعها أيضاً وهي نائمة وتربت على صدره دون وعي منها أو يقظه. تفعل ماتفعله بدافع ماتحملة لهذا الرضيع من عاطفة جياشة في صدرها. فإن أقدم إنساناً ما، وبخفة ظاهرة، على سرقة هذا الرضيع النائم إلى جانب أمه، لا تشعر هذه الأمّ بما حدث لرضيعها، لماذا؟ الجواب هو أن سرقة الجسد مرتبط

بالفكر والحواس. وليس بالعاطفة. فالجوع حالة باطنة مرتبطة بعاطفة الأم، ولا يرتبط الجسد بهذه العاطفة إلا عن طريق الفكر والحواس، الأمر الذي يثبت منه دوام فعالية العاطفة في حالتي النوم واليقظة يقيناً.

وبإمكاننا تقديم مثال آخر يثبت منه دوام عمل العاطفة وعدم دوام الحالة الفكرية. وهو أنّ الملاحظ عن الإنسان أنه إذا ماراحت ذبابة تزعجه وهو يقظ غير نائم يسارع إلى ذبّ هذه الذبابة عنه وإلى طردها بل وإلى محاولة قتلها. على حين أنه إذا جاءت ذبابة ووقفت على جسد هذا الإنسان وهو نائم، لا يرعش، ولا يحاول طردها عنه إلا إذا وقفت على مناطق حساسة من جسده وتسببت له بمركات غير واعية وغير إرادية. فما هو سبب هذا الفارق في سلوك هذا الإنسان المتحلي في حالتي نومه ويقظته؟ الجواب هو أنّ خطر الذبابة متعلق بفكر هذا الإنسان وليس بعاطفته.

وأقدم مثلاً ثالثاً تثبت منه حقيقة دوام عمل عاطفة الإنسان ودون أيّ انقطاع في حالتي نومه ويقظته. فلو نام ثلاثة أشخاص والد ووالدة وابن لهما. وتسلب مجرمٌ ليعتدي على أحد هؤلاء دون إحداث أية ضجة كانت. وقام هذا المجرم بفعلته بعد أن كمّم المعتدى عليه. واستيقظ الوالد بعد فوات الأوان. نلاحظ أنّ هذا الوالد يقدم على معاقبة هذا المعتدى عليه من أنه لم يحدث أيّ جلبة أو حركة أو صوت يوقظه لمساعدته ضدّ هذا المجرم.

فلماذا لا يستيقظ هذا الوالد في الوقت المناسب لمساعدة المعتدى عليه سواء أكان هذا زوجته أو ولده؟ السبب في ذلك هو أنّ ماجرى لايمسّ عاطفة الوالد وهو نائم ويتعلّق بفكره وحده.

وهذه العاطفة الفطرية عند الإنسان والتي تعمل في يقظته وفي نومه، هي المستهدفة بالتطوير من الذرائع العشرة التي أتيت على ذكرها لجذب محبة الخالق عز وجلّ. أي أنّ هذه الذرائع تفيد في إيجاد الجوّ والحالة المناسبة لتنمية عاطفة هذا المؤمن السالك درب عرفان ربّه، لتصبح مع مرور الزمن عاطفة جياشةً بحبّ خالقها من خلال وعيها لتكوينها الفطري، ومن خلال عمليتي ذكرها ربّها عن طريق عبادته، وتفكرها في إحساناته، وعن طريق التوبة والاستغفار والدعاء بين يديه وعن طريق تقوى الله وخشيته والتخلّق بصفاته وعن طريق الالتزام بخدمة مخلوقاته والعدل والانصاف معهم خلال تصرّفاته. فإذا تحقّق لعاطفة المحبة هذه

أن تنمو وتزدهر وتثمر جذب محبة الله عز وجل نحوها. يُوهبُ صاحبها حواساً روحية غير حواسه الجسدية وموازية لها، وعن طريق هذه الحواس تبدأ محبة هذا المؤمن تتفاعل مع المحبة الإلهية ويعود هذا المؤمن يرى مالا يراه سواه ويسمع مالا يسمع سواه، ويتلقى مالا يتلقى سواه من الناس. لأقول هذا من منطلق نظري، بل عن تجربة شخصية وعرفان. ذلك أن الطاعات أمورٌ فلسفية وفكرية، فلا تثمر ما ذكرته إلا إذا استوفت الإيمان عن علم وبيعة لرسول الله ولخلفائه. وهناك يكون الإثمار والعطاء. ويؤكد ذلك قول الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي أن الطاعات المجردة لا تثمر بغير هذه الوسيلة وبغير هذه البيعة.

من هذا نكون قد أدركنا أن الطاعات المجردة كفاءات عقلية نابعة عن فلسفة معينة، ومتعلقة بحالة يقظة الإنسان. أما العاطفة والمحبة فلا تعرفان الفتور ولا الانقطاع لا ليلاً ولا نهاراً.

فالمؤمن السالك درب عرفان ربه الذي استوفى شرط الإيمان والبيعة وأخذ بالذرائع العشرة المذكورة ليحذب محبة ربه إليه، لا بد أن تتفاعل عاطفته ومحبته مع عاطفة ربه ومحبته، ويتقرب بذلك إلى خالقه ويفوز بقربه ورضاه. وإلا فإن طاعاته المجردة لا تغنيه إلا نصباً وعناءً. وهو حال من لم يتخذ الإسلام ديناً، ولم يستجب لصوت مرسله عز وجل.

إن هذا الإنسان العابد على أساس عقلائي مُجرّد قد يصل مرحلة يتشكك فيها بوجود خالقه الغائب عن عينيه. ذلك أن أول وحي قرآني نبه الإنسان إلى ضرورة الاستجابة للذي أرسله الله عز وجل ليحقق هذا اللقاء وهذه العلاقة ما بين العبد وخالقه وبصريح العبارة أيضاً. فهو ما نزل في غار حراء من وحي سماوي وهو قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. فما هي دلالة العلق على حسب ما أورده اللغويون : دلالة العلق على التعلق بالحبوب ودلالته على خاصيته. فالعلق مصدر. فإذا قلت : نظر فلان أو فلانة نظرة من ذي علق أي نظرة من ذي حب. وإذا قلت علق فلان بفلانة أي هويها وأحبها. والعلق يحمل معنى الخصومة أيضاً والجدل بخصومه. وبهذا المعنى ورد قول الله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

وعليه فالله عز وجلّ إذ أمر رسوله محمداً (ﷺ) في هذه الآية الكريمة أن يحمل رسالة ربّه وليبلغها إلى مخلوقه الإنسان. فقد لفت تعالى نظر هذا الرسول الكريم من أوّل الطريق وقال: ﴿خلق الإنسان من علق﴾ أي أن الله تعالى غرس في جبلّة هذا الإنسان عاطفة المحبة منذ أن صورّه هذا وإنّ تعاليم هذا الدين القويم تهدف إلى تنمية هذه المحبة في فؤاد هذا الإنسان لتعود حيّاشة بحبّ خالقها لتهواه وتستमित في طلب محبته عزّ وجلّ.

هذا علماً بأنّ كلمة ﴿من علق﴾ أغفل فيه ذكر الجهة المقصود التعلّق بها. هذا الإغفال ليفيد سعة في دلالة العلق وفي وجهات تصرفها. أي أودع الله جل شأنه عاطفة العلق هذه لتكون أساساً لعلاقة الأبناء بوالديهم، والتلاميذ بأساتذتهم ومعلّميهم، والمؤمنين بإخوانهم من المؤمنين، وصاحب المال بماله وتجارته، هذا كلّه وليتعلّق هذا الإنسان بخالقه ولْيحبّه حبّاً يفوق محبته لجميع ما ذكر.

وزيدة القول : إن تعاليم الإسلام نزلت تهدف إلى تنمية عاطفة محبة الإنسان التي تكمن بين أضلعه وفي جبلّته. تنميها باتجاه محبة هذا الإله الخالق لتتلاقى مع محبة ربّها وعاطفته. وحين أقول : إنّ الله محبّ وعاطفيّ، لأقول ذلك تصوّراً بل من منطلق أن فاقده الشّيء لا يعطيه.

فالله جل شأنه يحمل في ذاته عاطفة مُطلقة. وهو الذي جبل الإنسان على صورته وغرس في جبلّته شيئاً من عاطفته. لذلك نلاحظ أن الله تعالى قال في مستهلّ سورة البقرة وهي السورة الأولى منه، قال : ﴿الم﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتّقين. ﴿ففي ألقاظ﴾ هدى للمتّقين ﴿تكن دلالة﴾ من علق ﴿أي أنّ تعاليم هذا الكتاب ستثمر محبة الإنسان لخالقه. وليصبح لقاء المحبّين﴾ هدى ﴿لهذا المؤمن السالك درب عرفان ربّه فيهتدي إلى وجود ربّه بأسلوب التعامل معه، ويفوز هذا المتّقني نتيجة لذلك بقربه من خالقه فيحصل على رضاه ويحقق بذلك الغاية من خلق الله إيّاه. وكثيرة هي الآيات التي تفسّر قوله عز وجلّ ﴿هدى للمتّقين﴾. وقد سبق لي أن القيمت الضوء على الهدايات الأربعة فيما سبق من البيان.

ويكفي أن ينتبه القارئ عند قوله تعالى ﴿هَدَى لِلْمُتَّقِينَ﴾، إلى أنَّ التقوى ليست هي المقصودة في حدِّ ذاتها. بل هي وسيلة تحصيل هداية الله فيأخذ الله بيد هذا المتقي يهديه درب التعرف إليه ليفوز بمحبته وقربه ورضوانه. وقد لفتت آيات سورة الفاتحة أنظارنا إلى مسار توحيد الله عزوجل. فأخبرت أنه ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فلماذا أمرنا ربنا عزوجل أن نكرر تلاوة ذلك في كل ركعة من ركعات صلواتنا بين يديه، ومبتدئين بالثناء عليه وبحمده ومعترفين أنه تعالى يستحقُّ منا جميع أنواع الحمد وأنَّ الحمد كله يعود إليه؟

إنَّ الجواب المختصر هو أنه جلَّ شأنه فعل ذلك لتوجيه أنظارنا إلى مايجلب أفئدتنا ويحرك فينا عاطفة محبته. هذه العاطفة التي تتأثر بمعالم الجلال والجمال. حتى إذا اكتمل وعينا لما يحمله ربنا من صفات الحسن والإحسان والجلال والجمال، انجذبنا إليه بصورة فطرية وسألناه محبته وعاطفته نخونا. وهذا هو ما تفعله فينا تعاليم القرآن الكريم، فإذا ما جاشت محبتنا لربنا عزوجل تتلاقى ومحبّة هذا الرّب الخالق، ويتحقّق لنا عرفانٌ ولقاء.

وعلينا ألا ننسى هنا أنَّ عين الإنسان ترى الجمال الظاهر من الأشياء الماديّة المحدودة المريّة. أي أنَّ رؤية جمال الأشياء في عالم المادة تسبق رؤية إحساناتها على الإنسان على حين أن هذه المعادلة يتبدل طرفاها في عالم الروح غير المرنّي وغير المحدود. فيلاحظ الإنسان السّالك إحسان الله تعالى عليه أولا ومن ثم تتراءى لهذا السّالك معالم جماله عزوجل فنحن نلاحظ إحسان ربنا إلينا أولاً وقبل أن نتبيّن معالم جماله. فالذات الإلهية لا ترى للطفاتها، ولا ترى أعيننا إلا إحسانات هذه الذات المقدسة. وذلك وفق قول ربنا في سورة الانعام: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

كذلك علينا ألا ننسى أنَّ عاطفتنا ومحبّتنا لا تجيش ولا تفور إلا إذا حرّكتها مايجذبها. والاحسان والجمال يُعتبران مُحركان أساسيان لهذه العاطفة وهذه المحبة الكامنة في فطرتنا. لذلك نبهنا الخالق عزوجل إلى صفتيه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ولنتدبّر دلالة هاتين الصفتين الجذابتين. ولنتلمس معالمهما في هذا الكون المحيط بنا. فإذا تلمسنا إحسانات ربنا المنبثّة في كل مكان، وتحسّسنا معالم رحيمته النابعة من جماله خصوصاً وأنه تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿وَاللَّهُ بِالْمُؤْمِنِينَ

رؤوف رحيم. إذا قمنا بهذه الخطوة الثانية نجيش محبتنا نحو خالقنا، ونصل إلى حد الولي بهذا المعبود الذي لانعود نعرف لنا محبوباً وإله سواه في هذا الكون المتواجدين فيه. ذلك أن إحسان الله وجماله حرك فينا عاطفة محبتنا لذاته جللاً وعلاً ودون حدود.

ولاشك أن المناظر الخلابة، والأصوات الجميلة والنسيم العليل والنزه في ضوء القمر. إن جميع هذه الأمور محركات لعواطفنا ومحبتنا، بل وإن علاقات الزوجين الجنسية تؤجج هذه العاطفة والمحبة الكامنة في أفئدة هؤلاء الأزواج، أما الله الخالق الذي لاتراه أعيننا، فلا يحرك عاطفتنا ومحبتنا نحوه إلا مُحَرِّكاً بارزان هما، حُسنُ الله وإحسانه. وإن جميع تعاليم الإسلام قد نزلت لتدفع هذا المؤمن المبايع ليتعرف ربه ويجذب محبته ويفوز بقربه ورضاه. لهذا يلاحظ الذي يراجع مابلغنا من أدعية رسول الله (ﷺ) دعاء يكشف هذه الحقيقة بكلّ جلاء. فرسول الله (ﷺ) كان يدعو: (اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إليك، واجعل حبك أحب إليّ من الماء البارد).

وقد نبهنا هذا الدعاء إلى حقيقتين لاينبغي للمؤمن إغفالهما. الحقيقة الأولى أن طلب محبة الله هي مدار التعاليم الإسلامية. والحقيقة الثانية هي أهمية سعي المؤمن لتحصيل محبة الله والتلاقي معه والفوز بقربه ورضاه.

هذا وإن محمداً (ﷺ) عندما أنهى هذا الدعاء بقوله (أحب إليّ من الماء البارد). فقد أشار من خلال لفظ (الماء) إلى ماتصمّنه قول ربه عزوجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي أن السعي إلى الفوز بمحبة الله، وتلاقي محبة العبد بمحبة الله الخالق هو أساس الحياة الروحية ومدارها، على شاكلة مايمثل الماء المادي من دو أساسي في وجود كل شيء حي. فكل شيء متعطش بالفطرة إلى الماء البارد الذي يروي العطشان. فالماء المادي جعل لحياء كل شيء مادي. وماء المحبة الإلهية قد جعله الله لإحياء فطرة السالكين درب عرفان خالقهم عزوجل.

إن عيوننا التي تحملها أجسادنا المادية تساعدنا على رؤية جمال الأشياء المادية. كذلك فأذاننا تساعدنا على سماع الأصوات والأنغام المطربة. فكيف بإمكاننا رؤية جمال هذا الخالق الذي لاتستطيع أعيننا رؤيته ولاتستطيع أذاننا

سماع كلامه اللّذيذ؟ وقد حلّ ربّنا هذا الإشكال بأن بعث رُسُلَهُ وأنبياءه ومجدّديه لنُبايعهم ونعمل على ما يأتونا به من تعاليم سماوية. فيخلق الله لنا كيّاناً روحياً غير كيّان أجسادنا، ونؤثى بالتالي حواساً باطنة غير حواس أجسادنا. فإذا ما اكتمل خلق وعوّر معالِم تلك الحواس الباطنة، نتمكن حينذاك من رؤية جمال الله وأنواره، ونتمكّن من سماع كلامه اللّذيذ أيضاً. ويعود تحسُّسنا لوجود ربّنا يبلغ عين اليقين.

ألا إن ذريعتيّ الذكر والفكر تخلّص أنفسنا من حالة سبوتها وغفلتها، وتنقلها إلى عالم اليقظة لنُدرك وجود خالقنا ونسعى للحضور بين يديه. فإن نحن أخذنا بجميع الذرائع العشرة التي ذكرناها وانتبهنا عن منيَّاتها، تجيش عاطفتنا ومحبتنا لربّنا عزّوجلّ وتنجذب عاطفة ربّنا إلينا ومحبتّه. ومن تلاقى هاتين المحبتين تُكتب لنا حياة الخلود.

أفلم نقرأ قول ربّنا عزّوجلّ من سورة الفتح: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله، وتعزّروه وتوقّروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾. فقوله أرسلناك شاهداً دون تعيين ما يشهد عليه، ورد كذلك لتصريف كلمة شاهداً بجميع الاتجاهات. أي شاهداً على وجود ربّك أمام عباده، ومعاييناً لجماله وقدراته وشاهداً على من استجاب لك وآمن.

ثم إن كلمة مبشراً تحتمل أيضاً التصريف إلى جميع هذه الاتجاهات. أي مبشراً كلّ من يؤمن ويستجيب يصبح من محبوبينا ويعاين جمالنا ويطلع على مالنا من قدرات. إلى جانب أنه سيصبح شاهداً ومبشراً على سواه من المؤمنين. كذلك كلمة (ونذيراً) تحتمل التصريف إلى جميع هذه الاتجاهات. أي تكون نذيراً ومُحذّراً كلّ إنسان ينكر وجودنا، ولا يسعى للتعرف إلينا.

وأبى الله جلّ شأنه بعد ذلك بلام التعليل ليعلّل فعله هذا وقال: ﴿لُعزّروه وتوقّروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾. أي أن الغاية من ذلك كله: لتتعرفوا على ربّكم فتعظّمونه وتفخّمونه وتنصّبونه وتوقّروه من خلال عبادتكم إيّاه وسلوككم مع عباده، وأن تسبحوه فتتزهّوه عمّا ينسب إليه المشركون والكافرون.

والهمّه أنّ هذه الآية الكريمة نبّهت أذهاننا إلى ضرورة التعرف إلى جمال خالقنا وذلك بالعمل على أحكام كتابه العزيز لنعود بنتيجة ذلك أصحاب كيّان

روحِيَّ وحواسِ روحيَّةِ نعاين عن طريقها ما عاينه محمد بن عبد الله الصادق
الأمين عليه الصَّلَاة والتسليم.

ثانياً ـ معالم حُسن الله وإحسانه

والسؤال الآن : أين كشف الله الخالق عن معالم حُسنه وإحسانه في كتابه العزيز؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال ينبغي لنا ألا ننس أن جمال الله أخفى من جلاله وإحسانه وعلى عكس الأشياء المادية يبدو جمالها قبل تذوق إحسانها على اعتبار أنها أشياء مادية مجسمة ومحدودة. فالله يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير.

من هذه المعادلة انطلق الله عز وجل يكشف وينبئ إلى إحساناته، في أوّل سورة من سور كتابه العزيز. حتى إذا ما آمن المرء بوجود الله وأيقن بإحساناته هذه، أمكن أن يُعَمَّن نظره فيما كشفه الله تعالى عليه من أسمائه الحسنی، ومن خلال قوانين تعامل الله مع عباده ويكتشف بالتالي وجه جمال ربّه الأخاذ بمجامع القلوب.

١ـ وجه الإحسان الإلهي :

أفلم يلاحظ قارئ القرآن الكريم كيف أن الله تعالى ما أن انتهى من مقدّمة مضمون سورة البقرة التي اشتملت على إحدى وعشرين آية كريمة حتى توجه بخطابه جل شأنه إلى الناس كافة وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.﴾؟ فهو تعالى دعا الناس قاطبة لعبادته مقدّماً الدليل على استحقاقه ذلك من خلال معالم إحساناته عليهم وعلى الذين من قبلهم، وموضّحاً المقصد من هذه العبادة وأنه مقصد سام في صالح الناس أنفسهم وأنه يستند في ذلك إلى أساس علمي.

فلم يقل الله تعالى "يا أيها الناس اعبدوني" أو "اعبدوا الله"، بل قال ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ وبالنظر لدلالة هذين اللفظين يكون قد قال: "يا أيها الناس جنّاً وإنساً ذكوراً وإناثاً، ومختلف ألوانكم وألستكم وقومياتكم استجبوا لصوتي

هذا الذي تسمعون من خلال كتابي هذا وأطيعوني واخضعوا لي وتذللوا بين يدي واحمدوا دين الإسلام والتزموا ما أنزلته من تعاليم وشرعته فيه من تشريع ووحدوني، فأنا خالقكم وربكم ورب آبائكم وأجدادكم من قبلكم أشرفت على تربيتكم وتطويركم جميعاً إلى أن أوصلتكم إلى ما أنتم عليه. وأنتم معترين بمصائر الناس الذين لم يستجيبوا لصوتي السماوي.

فبهذه الألفاظ المحدودات، وبهذا الأسلوب البلاغي المدهش حرك الله عز وجل عاطفة الناس ولعب بأوتار أفئدتهم، فذكرهم أنه تعالى هو الذي خلقهم والذين من قبلهم، وأنه تعالى هو الذي رباهم وطورهم والذين من قبلهم. أي ذكرهم إلى أنه هو المحسن الأعظم الذي كان له فضل وجودهم وفضل تطويرهم وفضل المحافظة على وجودهم من قبل ومن بعد. ذكرهم كيف أنه هو الذي أخرج أجدادهم من سكنى المغاور والكهوف وأنه هو الذي علمهم سكنى السهول وهذبهم وحضرهم، ولولا تدخل ربوبيته في أمرهم لظلوا يعيشون حتى اليوم عيشة الأنعام ولا يعرفون شريعة إلا شريعة الغاب.

وثبه جل شأنه الإنسان في الوقت نفسه إلى المقصد الأسمى من دعوته الناس إلى عبادته، فنبه إلى أنه لا يخالطها أنانية شخصية ولا حاجة يبتغيها منهم، وكل ما يرمي إليه طلبه هذا فهو في صالحهم، لذلك أضاف : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. مذكراً بالغاية من انزال هذا الكتاب وهو أن يجعله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. وقد حذف هنا مفعول "تتقون" تمكيناً منه للقارئ أن يُصرف الفعل إلى جميع دلالاته وبجميع الاتجاهات. أي إن أنتم عبدتم الله ربكم يهديكم درب التعرف إليه ودرب الفوز بمحبته وقربه ورضاه. وإن أنتم عبدتم الله تتجنبون بتعاليمه هذه مواقع الإضرار بأنفسكم وأجسادكم. وإن أنتم عبدتم الله ربكم يقيكم الله شرور أعمالكم ويكتب لكم حياة الخلود.

وهو جل شأنه ووفقاً للأصول التي صاغ كتابه العزيز على أساسها، والتي منها أنه لا يأتي بادعاء إلا ويُقرنه بدليل من نوعه يؤيده ويثبته. فقد راح هنا يُدلي بدليل علمي يثبت منه كون الله موجود وأنه هو الخالق والرب والمحسن الأعظم. فقال : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. فأسس جل شأنه دليله العلمي هذا على أركان متعددة، يستحيل أن

تجتمع وبهذه الغائية دون تصوّر سابق من جانبه تعالى وتخطيط وحُسيان. فالركن الأول لهذا الدليل قوله ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا﴾ أي لاحظوا كيف أن كوكب الأرض تمهد للعيش على سطحه وبما يلائم الناس خاصّة ومذلل لخدمتكم وقد مكّنتكم من استخدامه كفرش تفرّشونه، وقد خلق فيه ما يساعدكم على التنقل في أرجائه.

والرّكن الثاني لهذا الدليل عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ أي لاحظوا كيف أنّ الذي جعل لكم الأرض فراشاً، لم يتركها دون سقفٍ يحميكم وأنتم على فراشها. بل جعل فوقكم سقفاً يحفظ ويصون كلّ مايتعلّق بأعمالكم وإطالة أعماركم، فلولا هذا السّقف البناء أنّى كان لزراعتكم وصناعتكم وتجارتكم وسعيكم في هذه الأرض وسياحتكم فيها أن تحفظ من المؤثرات الخارجية. فللسماء البناء دخلٌ كبيرٌ في حفظ ذلك كلّهِ ودوامه. خصوصاً وأنّ هذا السّقف احتوى على الهواء والضّوء المنبث من الشمس والنجوم، وعلى مايفيد في تأمين اتّصالاتكم السّلكية واللاسلكية، وعلى طبقة الأوزون التي تحميكم من أضرار الأشعة فوق البنفسجية القادمة من هذه الشّمس.

والرّكن الثالث لهذا الدّليل أفاده تعالى بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي لولا أن أبدع خالقكم هذا النظام الجوّي من تبخير للمياه وإنزالها على شكل أمطار فمن أين كنتم ستحصلون على هذا الرزق وهذه الثمرات؟ فماء السّماء ومايرافقه من عواصف ورياح وفيضانات هو وراء ماأنبته لكم الأرض من أشجار مثمرة ونباتات.

ولو أمعن المفكّر نظره في عظمة هذا الدليل العلمي الذي صيغ على أرقى مايقدمه علماء عصرنا من حجج وبراهين. لاكتفى به وحده تدليلاً على وجود الله الخالق الرّب، وعلى صدق هذا الوحي القرآني وللهج لسانه وقلبه بحمد الله تعالى على احساناته، ولاندفع يستجيب لهذا النداء الإلهي فيطيع ربّه ويخضع له ويتذلّل بين يديه ويخدم دينه ويلتزم بشرائعه ويكون من الموحّدين، ويصبح من المتّقين، ويهتدي بهدي الله ويتعرف إليه ويفوز بحبّه وقربه ورضاه.

فقد صيغت هاتان الآيتان بلسان عربي هو في مُنتهى البلاغة صياغة وفي مُنتهى عظمة الدلالة مضموناً. وقد احتوت على دعوة لعباد الله مع بيان المقصد الأسنى منها، وقدمت الدليل العلمي القاطع الذي يؤيدها، وبأسلوبٍ تلاعب

بأوتار الأفتدة والعقول، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أنهيت هاتان الآيتان بدعوة أخرى تقوم كنتيجة طبيعية للدعوة الأولى وللتسليم بها بشكل علمي أيضاً. فقد أضاف تعالى يقول: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. حيث أتى جل شأنه بفاء الاستئناف ليقدم هذه الدعوة الثانية الموجهة إلى الناس قائللاً أيها الناس وهل بإمكان أحد سوى هذا الخالق نفسه أن يحيط علماً بجميع هذه العناصر التي ذكرناها من أرض فراش وسماء بناء وسماء وماء وما ينتج عن ذلك من ثمرات وما تحتوي عليه من أنواع الغذاء وأنواع الدواء وأنواع الأمور الضارة أيضاً، هل بإمكان ند لهذا الإله الخالق أن يضارعه في مضمار إحاطته بعلم ذلك كله ويكون هذا الند مخلوقاً أيضاً؟ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ أي أن من الحماقة بمكان أن تفكروا بوجود أنداد لهذا الخالق خصوصاً ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ولنلاحظ كيف أنه تعالى حذف مفعول تعلمون ليتمكن القارئ من تصريف الفعل بمختلف الاتجاهات.

أي خصوصاً وأنتم تعلمون أن دعوة الله إياكم لعبادته وتوحيده ليست هي دعوة حديثة، بل هي دعوة وجهها الله الخالق الرب للذين من قبلكم أيضاً. كذلك أنتم تعلمون أن الناس انقسموا نتيجة لذلك إلى فريق مؤمن يفكر بأسلوب تفكير روحي، وإلى فريق كافر يفكر بأسلوب تفكير مادي محض. كذلك أنتم تعلمون أن المنطق العلمي يقول إن اجتماع عناصر عديدة يستحيل أن تجتمع بعامل الصدفة والضرورة، وهأنذا لفتنا أنظاركم إلى هذه العناصر الضخمة المحتويات والتي تشكل موازينكم العلمية دليلاً علمياً على صدق مادعونكم إليه، فعودوا عن اتخاذ الأنداد لله وعودوا إلى عبادة الله الواحد القهار. وهكذا يكون الله تعالى قد أتى من خلال هاتين الآيتين الكريمتين بإعجاز صياغة وإعجاز مضمون يستحيل أن يقدر أي إنسان مهما طال باعه في لغة الضاد أن يضاهي هذه الصياغة وهذا المضمون.

والذي يؤكد ماذهب إليه من بيان دار حول صياغة ومضمون هاتين الآيتين الكريمتين هو أن الله جل شأنه قال بعدهما وبتحديد صارخ: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾. أي أيها الناس الذين دعوناكم إلى عبادة

ربكم لا تتسرعوا بتكذيب دعوتنا التي وجهناها إليكم، فدليلنا العلمي الذي قدّمناه لإثبات مقولتنا هو دليل من العظمة. يمكن، لا يجوز للعقل المتزن أن يرفضه دون مبالاة وبأسلوب غير علمي، فإن ارتبتم في حقيقة مادعونناكم إليه وماقدّمناه لكم من خلال هذا الإنشاء البياني الذي تضمنته هاتان الآيتان من سورة البقرة، فأتوا بسورة وإنشاء بياني من مثله أي بقوة حجته العلمية ومضمونه تثبتون فيها أن ما اتخذتموه من أنداد لله الخالق هو الأمر الحق وأن هؤلاء الأنداد يحيطون علماً بجميع ما في هذه السماء والأرض من أشياء وقادرون على هدايتكم وحفظكم من كل سوء، إن كنتم صادقين في تكذيبكم لدعوتنا، وتكذيبكم لدليلنا العلمي وصادقين فيما تعبدونه من دون الله عز وجل.

ولم يكف الله جلّ شأنه ببيان وجه إحسانه والتدليل عليه، ودعوة المكذّبين لذلك كلّه ليقارعوا الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، بل راح يُرهبُ المكذّبين بما سيؤولون إليه بسبب هذا التكذيب وقال: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾. ولنلاحظ تلكم اللفظين اللذين تضمّنهما هذا النصّ القرآني: فاللفظ الأول هو كلمة (الوقود) وهو ما توقّد به النار. أي لا نار بدون وقود. أي لا وجود لنار الجحيم إن توقّف الناس عن الكفر بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر. أي أن الناس الكافرين هم وقود نارٍ، من جرّاء ما يقومون به من عداواتٍ ضدّ رسل الله وأتباعهم، فلهذه الأعمال آثارها النارية في كيانه الباطني، وبما تنطوي عليه نفوس الكافرين من نار الحقد يأكل أكبادهم ويتجلّى يوم القيامة ناراً تخرج من صدورهم، وإلا فليس لجحيم من وجود أصلاً بدون وجود مكذّبين وكافرين. واللفظ الثاني المستعمل في هذه الآية الكريمة هو لفظ (الحجارة) فقد كنى الله تعالى به عن زعماء هؤلاء الكافرين وعمّا اتخذوه من آلهة أصنام وأرباب.

ثم إن قوله تعالى في هذه الآية ﴿ولن تفعلوا﴾ قصد به التحدي الكامل لهؤلاء المكذّبين أي لن يكون باستطاعتكم مواجهة هذا الحوار العلمي. مثله ولا هذا الإنشاء البياني المعجز. مثله. وهذه حقيقة أثبتتها أربعة عشر قرناً مضت لم يبرز فيها إلى الميدان من جانب المكذّبين الكافرين من تصدّى إلى ماتخذاه الله جلّ شأنه به من هذا النوع من التحدي الذي ذكرناه.

وبما أنه ما كان هذا الكلام ليكمل دون ذكر ماعدته الله جل شأنه للذين يستجيبون لدعوته فيؤمنون به ويعبدونه وبكامل ما اشتمل عليه لفظ العبادة من دلالات أتينا على ذكرها، فقد أخذ جل شأنه يذكُر ويعتد ماعدته هؤلاء المؤمنين العاملين وقال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا، قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ، وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا، وَلَهُمْ فِيهِ أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ولا يتسع المقام هنا لشرح مضمون هذه الآية الكريمة. واكتفى بالتنبيه إلى ماتصمتته من نقاط: فقد نبّهت أولاً إلى أن للأعمال الصالحة ثمارها الروحية. ونبّهت ثانياً إلى أن ماهية هذه الثمار تختلف عن ماهية الثمار الدنيوية ونبّهت ثالثاً إلى أن ظاهرة زوجية كل شيء تستمر في الحياة الآخرة، فسيكون هناك ذكر وأنثى يجتمعان، أما كيف وماهي الأسس فأمر مخفي لا يعلمه إلا الله عز وجل. ونبّهت رابعاً إلى أن هذه الأزواج مطهرة. ونبّهت خامساً وأخيراً إلى أن اختلاف ماهية الأشياء في الآخرة أكسبتها حياة الخلود.

وخلاصة ما ذكرناه هو أن الله عز وجل كشف في هذه الآيات من سورة البقرة عن وجه جلاله وإحسانه، تفسيراً منه جل شأنه لصفة (الرّحمن) التي أوردتها سورة الفاتحة. فالذي يتدبر كتاب الله العزيز سيلحظ أمثلة لا تحصى من هذا النوع من التذكير وموافقاً للتسلسل الموضوعي. وأنا اكتفي بهذا المثال وانتقل منه لبيان ما يشرح صفة (الرّحيم) التي تعني الوجه الجمالي لهذا الخالق العظيم.

٢. وجه الجمال الإلهي :

أقول : إن الله عز وجل لم يخل على عباده ببيان وجه جماله الأخاذ. بل ترك لنا أن نستشعر جماله من طريقين اثنين : من خلال أسمائه الحسنی ودلالاتها وتجلياتها، ومن خلال أقواله عز وجل. ضمن آيات كتابه العزيز. فإذا استعرضنا أسماء الله الحسنی، نلاحظ أن الله تعالى قال من جهة أن رحمته وسعت كل شيء. وأتى بمثال على سعة رحمته وجماله وهو صفته "الستار". من سر الشيء غطاه (يحيط المحيط) ومعلوم أن الإنسان يعمد إلى سر أي شيء كان إما لنفاسة قيمته أو لدنائه وحقارته أو صيانة لهذا الشيء من

الفساد. والمهم أن صفة الستارية هي صفة حميدة وشيعة فاضلة وتكشف عن جمال وجه صاحبها. والله تعالى لم يصف نفسه أنه ساتر بل ستار على صيغة المبالغة والاستغراق، بمعنى أنه يستحيل أن يضارعه أحد في صفة ستاريته هذه. والآن لننطق هذه الأشياء المادية التي احتوى عليها كوننا المادي من جماد إلى نبات إلى حيوان وإنسان. ولننمّن نظرنا في النواميس الكونية التي استند إليها خلق الله لهذه الأشياء جميعها. فسيتراءى لنا جمال صفة الله الستار المتجلية من خلال خلق جميع هذه الأشياء. أي أنه لولا أن كان الله الخالق ستاراً فما كان لصفة الستارية أن تبدو فعاليتها عند خلق الله تعالى لهذه الأشياء ذلك أن فاقده الشيء لا يعطيه.

نتناول وجودنا نحن البشر. فقد ميزنا الخالق على سوانا من مخلوقاته بجمهرة العقل. فإن نحن دققنا نظرنا في تقنية إيجاد هذا العقل البشري لاحظنا تجلي هذه الصفة الجميلة وهي صفة الله الستار قد لعبت دوراً مهماً في تقنية هذا العقل. فالعقل أوجده تعالى أصلاً كأداة فكر ومحاكمة.

فالخالق قد خلق هذا الإنسان إذا جلس يفكر في أمر من الأمور، خلقه لأمر ما يدور في خلد من أفكار خيرة ومن أفكار شريرة. فإذا وجد زوج وزوجته على سبيل المثال ومرّ من أمام أعينهما منظر رجل أو امرأة أو شيئاً له جاذبيته. فكل طرف من هذين الزوجين يتأثر بما رآه تأثراً يختلف عن تأثر الطرف الآخر. وقد يكون الذي جال في رأس كل منهما صور أفكار حسنة، أو صور أفكار سيئة. وقد يتمنى أحدهما على سبيل المثال أن يخون زوجته ليحصل على ما شاهده وراه. فلو اطلع كل طرف على ما يجول في رأس الطرف الآخر لانتهى الأمر بهما إلى فصم عرى محبتهم وعلاقتهم الزوجية ولربما انتهى الأمر بهما أيضاً إلى الاقتتال والطلاق. وعلى هذه الشاكلة تقاس أمور كل إنسان يجتمع بإنسان آخر. فلولا أن تدخلت صفة الله الستار التي تمثل هذا الوجه الجميل الذي يتجلي به ربنا الستار. أقول لولا أن كان لهذه الصفة الالهية الجميلة دخل في تقنية تركيبة عقل الإنسان، فلوعاد كل إنسان يرى ويشاهد ما يجول في رأس الآخرين من أفكار خيرة وأفكار شريرة، لكان انتهى الأمر بالاجتماعات الإنسانية إلى الاختلال والاقتتال، ولكان انتهى بالعلاقات الأسرية إلى الاختلال أيضاً، لكن الذي حدث هو أن الله الخالق المبدع المصور الذي أبدع لهذا الإنسان عقله،

أبدعه وبدافع من كونه ستاراً لا يتسرع في تعرية من يعصيه من أول مرة يعصيه فيها، أبدع له عقله وصاغه على صورة لأثرى معها ما يدور في خلده من أنواع الصُّور والأفكار لأعين إنسان آخر يجلس في مقابله وينظر إليه، فما أجمل خالقنا الستار الذي صاغ عقولنا لتعمل على هذه الصورة من الخفاء، وبحيث تخفي جميع أنواع الأفكار التي تدور في خللنا، وجميع ما تمرّ خلاله من صورٍ جيّدة أو غير جيّدة

ونتناول جانباً آخر من تقنيّة خالقيّة الله الستار. فقد لاحظ الأطباء وجود أجهزة مناعة، وأجهزة إنذار، في جسم الإنسان وتقنيّة مذهشة جداً بعد تشريحهم لجسم الإنسان ودراساتهم إياه دراسة علميّة تجرّيبية، فالكريّات البيضاء المتواجدة في دم الإنسان، كان من مهمّاتها، التصديّ لهجمات الجراثيم التي تدخل جهاز الإنسان الهضمي لدى تناوله أطعمته وأشربته بأسلوب غير علمي. فالتفريط يحدث من قبل الإنسان نفسه. ولولا وجود جهاز المناعة المذكور، لانتهى الأمر إلى هلاك هذا الإنسان البدائي الذي تغذى بطريق غير علمي. فالله الخالق، ووفقاً بهذا الإنسان، وستراً منه لظواهر ضعف هذا الإنسان وصيانة له من محاذير تناول وجبات غذائه بأسلوب وطريقة غير علميين، فقد اقتضت هذه الصفة الجميلة "الستار" التي يتحلّى بها هذا الخالق المبدع ليبدع داخل جسم الإنسان جهاز المناعة المذكور ليسترّ منه جلّ شأنه ماسيدير عن مخلوقه الإنسان من ضعفٍ وتفريطٍ بحقّ جسده. فصاغ جسم هذا الإنسان على صورة يدافع الجسم بنفسه عن نفسه، ويقي صاحبه شرور عدم اعتداله في تناول طعامه وشرابه اليومي وعدم تصرّفه تصرّفاً علمياً. وهل يشكّ المدقق الباحث، وهو يصل إلى علمه وجود أجهزة المناعة هذه، هل يشكّ بعدئذٍ ولو للحظة واحدة في موضوع اتّصاف الذات الإلهية بصفة الستارية الأخاذة بمجامع القلوب وتدخل صفة الستارية هذه لحظة عمليّة الخلق وعلى الشاكلة التي ذكرناها؟ فلا يشكّ المدقق العاقل يقيناً في ذلك لاعتقاده أنّ فاقد الشيء لا يعطيه، فهذه ظاهرة جمال تجلّي رحمة الله ومظهر ستارته التي تشكّل أحد وجوه هذه الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء بذلاً وعطاءً. علماً بأنّه قد ثبت علمياً أنّ تسعاً وتسعين في المائة من الأمراض التي تنتاب جسم الإنسان تنبأه نتيجة لإهماله وعدم التزامه بالنهج العلميّ عند تناوله طعامه وشرابه، ثمّ إنّ جميع هذه الأمراض، تعالجها أجهزة

الدِّفاع التي جُهِّزَ بها جسم الإنسان نفسه وبصورة تلقائيةٍ وخفيةٍ عن أنظار صاحب هذا الجسم وفي داخله، وبشكلٍ يأخذ بالباب علماء التشريح أياً كانوا. فما أجمل خالقنا السَّتر الذي يستر ضعفنا الذي يتأتى عنَّا حين تناولنا لوجبات طعامنا وشرابنا. ومأرحمه بنا إذ خلقنا على هذه الحال.

وقد تبيَّن للعلماء الدارسين المُحقِّقِينَ أنَّ صفة ستارية الله الجميلة هذه قد تجلَّت أيضاً فيما جُهِّزَ الله الخالق أعضاء جسم الإنسان من أجهزة إنذار، تنذر صاحبها كلما أخطق خطر بهذه الأعضاء.

فالألسان والقلب ومختلف أعضاء الأحشاء مُجهَّزة بأجهزة إنذار تنذر صاحبها عند وقوع أيِّ خللٍ في هذه الأحشاء والأعضاء، ليبادر إلى علاج هذا الخلل الطارئ، ويتداركه بالدواء الناجع. والخلل في هذه الأعضاء والأحشاء يتأتَّى أصلاً عن إهمال الإنسان نفسه وليس لنقص في تقنية خلق الله تعالى لهذه الأشياء. والإنسان يستحقَّ العقاب عن إهماله هذا، ولكن رحمة الله تعالى به وصفة ستاريته اقتضت تسليح جسم الإنسان بأجهزة الإنذار المذكورة سراً لظاهرة ضعف هذا الإنسان، على شاكلة ما تفعله الأم الحنون تلفّ رضيعها بما يصون كيانه من خطر العوامل الخارجة عنه، وهو لا يدري بما تقوم به هذه الأم ولا بما تفعله.

وهل بإمكان أحدٍ يقوم بمراقبة امرأةٍ فقيرةٍ لا تملك ثمن قماش جميل تحفظ به رضيعها، هل بإمكان هذا المراقب إن شاهد هذه الأم تلفَّ هذا الرضيع بجلد ثور مثلاً أو بكيس من الخيش، أن يهزأ بها؟ أم أنه سيتأثر بجمال فعلها ويعذرها ويقول مأرحم هذه الأم التي سترت وليدها بهذه الأشياء؟ فإنَّ نحن نظرنا إلى أجهزة الإنذار التي سلَّح الله الخالق بها أجسامنا منذ نعومة أظفارنا بهذا المنظار وبهذه المعايير، يتجلَّى لأعيننا جمال ربِّنا الأخاذ الذي يسلب الافتدة والعقول بسموه وعظمته. ولأيقنا بصورة لارجعة معها أنَّ ربَّنا وخالقنا وإلهنا ومعبودنا جميل، وجماله أخاذ أيضاً إلى جانب كونه هو المحسن الأعظم وهو ربِّ العالمين الرحمن الرحيم.

ولنلاحظ أيضاً أنَّ أجهزة الإنذار والمناعة التي تكلمنا عنها لا تفتر تعمل ليل نهار وبلا انقطاع، ولم تُصمَّم على صورة تضطرُّها إلى طلب الراحة من مشقة العناية. أي أنَّ أجهزة المناعة والإنذار هذه أبدعها الله الذي لاتأخذه سنة

ولانوم. وهل يقبل عقلنا ومنطقنا أن يُبدع الخالق هذه الأجهزة المستمرة العطاء، لو لم يكن خالقنا رباً رحيماً لاتأخذه سينة ولانوم. فكم هي عظيمة حكمة القائل: **إِنْ فَاقَدَ الشَّيْءُ لِأَيْعُطِيهِ؟**

على هذه الشاكلة أكون قد قدّمت أتمودجاً من أسماء الله الحسنى وبما يكشف عن جمال الله الذي يملك هذه الأسماء ويتّصف بها، ولانجد له ندّاً يماثله فيما اتّصف به أيضاً من صفات. وانتقل خطوة ثانية لأكشف عن جمال خالقنا من خلال أقواله في كتابه العزيز. فكلام المرء يكشف عن حقيقة ما يحمله من صفات.

دونكم عاطفة الوالدين لأبنائهما. فمن ذا الذي يجهل ما يتحمّله الوالدان من أخطاء أبنائهم ومن نتائجها ومما يرتكبونه من ذنوبٍ أمام أعينهم ومع ذلك يغضّ هذان الوالدان الطرف عن أبنائهم وكأنهم لم يشاهدوا شيئاً؟
فما الذي يحملهم على تحمّل كلّ هذا العناء إلا العاطفة والمحبة التي تجيش في صدور هؤلاء الآباء تجاه هؤلاء الأبناء؟ ومع ذلك نلاحظ أنّ الوالدين إذا لاحظوا عقوقاً من أحد أبنائهما، قد يطردونه من دارهما.

والآن استمعوا إلى ما يقوله ربنا عز وجلّ بحقّ المذنبين من عباده فستستتجون منه أنّ عاطفة ومحبة الله لعبادة أعظم من عاطفة الوالدين على أبنائهما بكثير، وأنها عاطفة مطلقة لاتحدّها حدود، فهو تعالى قال في الآية (٥٣) من سورة الزمر: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، إِنَّهُ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي اعلموا يا عبادي أنّ محبتي لكم ورحمتي بكم لاتحدّها حدود لأنّ من أسمائي الحسنى أنّي أنا الغفور الرحيم. الغفور الذي يستر والرحيم الذي يرأف ويحب. فما أجمل هذا الوجه الجمالي الصّفاتي الغفور الرحيم، وأين منه رأفه ومحبة الآباء لأبنائهم؟

كذلك دقّقوا في تصرّفات الوالدين. فقد يعمدان إلى حرمان ابنهما العاق من إرثه، ويقاطعانه اقتصادياً، ويجرمانه من عطاءاتهما.

والآن دقّقوا فيما يقوله ربنا عز وجلّ بحقّ من يعقه ويكفر به ويكذب بآياته، فستستتجون من هذا أنّ عاطفة ومحبة الله لعباده تحوّل بين الله وبين أن يعمد إلى حرمان الكافرين العاقين من عطاءاته الماديّة، فهو يعطي البارّ والعاق ولا يفرّق حين عطائه الماديّ بين مؤمن وكافر، فالله عز وجلّ قال في الآية (١٩)

من سورة الإسراء: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا. كُلًّا نَّمُكُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا.﴾ أي وما كان عطاء ربك محظوراً على غير المؤمنين. فهو جل شأنه يعطي ويرزق المؤمن والكافر ويمدّه بعطائه المادي. وإن كان يُبدي شكره لعبده المؤمن الذي يبتغي عطاء الآخرة ويسعى لنيل ذاك العطاء، ومن مظاهر شكره لهذا المؤمن أنه يعطيه في الآخرة ويعدّ له مالا يُعدّ لذلك الكافر من شكر وعطاء. فما أجمل هذا الوجه السلوكي وما أعظم هذه الرأفة وتلك العاطفة التي يحملها الله الخالق الرب لعباده. وأين منه رأفة ومحبة الآباء لأبنائهم؟

هذا، وإن الذي يدقّق فيما قاله الله تعالى في سورة الحديد يتبيّن له أنّ العذاب الذي يتوعّد به الكافرين من عباده، وإن كان ظاهره من قبله العذاب لكن باطنه فيه الرحمة والرأفة والحجة فهو تعالى قال في الآية (١٣) من سورة الحديد: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ، قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا - أَي عودوا إلى الحياة الدنيا إن استطعتم فالتمسوا من أعمالكم نوراً، فنورنا هذا ثمرة أعمالنا الصالحة هناك - فضرب بينهم بسور له بابٌ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، يُنادونهم ألم لكن معكم؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرّكم الأماني حتى جاء أمر الله، وغرّكم بالله الغرور، فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا، مأواكم النار، هي مولاكم، وبئس المصير.﴾

ألا إنّ الله عزّ وجلّ نبه أذهان عباده هنا إلى أنّ عذاب جهنم ما هو من قبيح العذاب المادي المعروف في هذه الدنيا، بل هو مجرد آثار أفكارهم وأعمالهم التي فكروا بها وعملوها في دنياهم. فللكفر بالله وللحقّد على رسل الله ولمشاققة هؤلاء ومعاداتهم آثارها النارية التي تتمثل لهم في الآخرة على شكل عذاب ناري. أي لاتظنوا أيها الكافرون والعاقون ربكم أنّ عاطفته نحوكم ومحبتة لكم تنقطع يوم القيامة، فها أن الجدار الذي يُضرب بينكم وبين الذين آمنوا في الآخرة، وإن كان ظاهره من قبله العذاب إلا أنه باب باطنه فيه الرحمة، أي فيه الرأفة بكم والحجة.

المبحث الثالث
طريق الاتصال بالله عز وجل
الباب الأول

الفصل الأول ١- تقديم للمبحث :

دار الكلام في باب العرفان الإلهي حول مفهومه اللغوي وعن الألفاظ القرآنية المعبرة عن مراحلها التي تنتهي بالفوز بمحبة الله وقربه ورضاه. كما دار الكلام هناك حول الأصول التي تقوم عليها المحبة الإلهية، ثم شرحت تعاليم القرآن الكريم المتعلقة بكل مرحلة من مراحل العرفان الإلهي. وتوسعت بعدها فاستعرضت ذرائع تحصيل محبة الله تعالى، وحذرت من المحظورات على الدرب المذكور. ومن ثم تكلمت عن مضمون المحبة كعاطفة فطرية، وعمّا لفست القرآن الكريم أنظارنا إليه من معالم حسنه وإحسانه لتحريك عواطفنا نحوه عز وجلّ، كل ذلك وفق معطيات كتاب الله العزيز. والآن انتقل إلى الكلام في المبحث الثالث لهذا الكتاب، عن طريقة الاتصال بالله عز وجلّ، وما إليه من أمور.

وأجد من المناسب هنا التنبيه والتذكير بأن فلسفة التعاليم الإسلامية تدور أصلاً حول الفطرة البشرية التي فطر الله تعالى الناس عليها. فهذه التعاليم تساعد الإنسان على مايزكي به نفسه، وعلى مايجنبه عملية تدثيثها. وهو الأمر الذي تضمنته قول ربنا في كتابه العزيز: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾. بمعنى أن المسلم يجد في كتاب الله العزيز مايعين هذا المسلم على مصارعة ميوله وشهواته وقواه الباطنة وعلى مايجذب بواسطته عاطفة ربه ومحبة إليه فيسعى بالتالي إلى تطويرها. بما ينسجم ويوافق أسماء ربه وصفاته. هذه الأسماء الحسنى التي يتخذها معيار تطوير ومثلاً أعلى يحتذي به. يُقدم على ذلك ليصبح لائقاً لجذب أنوار هذه الأسماء الحسنى في نفسه وليلتقى تجلياتها. هذه التجليات الذي تنمي قواه الباطنة وتعدها، وذلك تأسيساً برسول الله (ﷺ) الذي استحق نتيجة لهذه العملية هذه التي حققها في نفسه أن يخاطبه ربه عز وجل بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ سورة نون.

هذا وقد شبه إمام زماننا مات فعله تجليات الأسماء الحسنى في فطرة الإنسان وقواه الباطنة، شبه النفس بالحديدة التي توضع في كور الحداد، فإن هذه الحديدة تأخذ درجة حرارتها بالارتفاع وتحمّر شيئاً فشيئاً، لتعود هذه الحديدة تشعّ ناراً وهاجة وهج النار التي وضعت فيها، وتظهر بالتالي من هذه الحديدة نفس خواص النار التي وضعت فيها. فالتجليات الإلهية لها في جبلة الإنسان ما يشبه هذا التأثير. فتحدث تغييراً في تفكير المتجلى عليه وتبدل نفسيته وسلوكه اليومي، حتى يعود هذا الإنسان، ذكراً كان أو أنثى إنساناً مباركاً وغير عادي.

ثانياً - المحدود لا يرى غير المحدود والعكس صحيح

عندما أقول إنّ الشيء المحدود يستحيل عليه رؤية غير المحدود. إنّما أبسط حقيقة يتلمسها كل واحد منا في هذه الحياة الدنيا. فالذي يختبئ في غار ما، يستحيل عليه رؤية الجبل الذي هو في باطنه. حتى إذا خرج هذا الإنسان من هذا الغار، وابتعد عنه عدة أمتار يأخذ هذا الإنسان يرى جزءاً من هذا الجبل. وكلما ابتعد عنه تراءى له الجبل أكثر فأكثر. إلى أن يبتعد عن الجبل مسافة ليست بالقليلة، فيعود يشاهد حينذاك جزء كبيراً من وجه الجبل المقابل له، لكنه لا يراه بأكمله إلا إذا نظر إليه من مسافة بعيدة جداً ومن مختلف الاتجاهات. فهذا هو حال هذا الإنسان المحدود الكيان مع كلّ شيء محدود مثله. أما حاله مع الشيء غير المحدود فيستحيل عليه أن يراه.

ومثالاً آخر هذه الشمس المتوهجة في كبد السماء. فقد ثبت علمياً أنّ حجمها يفوق حجم الأرض بمئات عدّة. إذ يبلغ قطرها ما يزيد عن مليوني كيلو متر وثيف. وتبعد عن كوكبنا الأرضي ما يزيد عن مائة وخمسين ألف كيلو متر. فالشمس بالرغم من حجمها الهائل تبدو لأعيننا في أجواز الفضاء بحجم كرة المضرب، فإذا تضاعف بعدها عنا، فقد يأتي وقت لا يعود باستطاعتنا رؤيتها، إلا بمساعدة منظار مقرب، وهذا كله يحدث لأنّ إنساناً محدوداً يراقب شيئاً محدوداً مثله. أمّا الكيان غير المحدود، فتستحيل رؤيته من قريب ولا من بعيد.

وقد أنبأنا القرآن الكريم أنّ الله تعالى ليس كمثله شيء. أي أنه ليس بمادة من جهة، وهو غير محدود من جهة ثانية، ولا بماثله شيء لاوصفاً ولا ذاتاً من

جهة ثالثة. ولذلك اكتفى كتاب الله العزيز بانباتنا بهذه المعلومة عن ذات الله عزوجل. ولم يتعرض للكلام عن تلك الذات الإلهية المقدسة بعد هذه المعلومة من قريب ولا من بعيد. وراح هذا الكتاب العظيم يُنبئ عن أسماء هذه الذات الإلهية وأوصافها. حاثاً إيانا على استلها منا منها مثُلنا العُلُيا ومفاهيم الخير والشر. كما حثنا على التفكير فيما خلق الله تعالى من مخلوقات بأسلوب علمي لإدراك تجليات هذه الأسماء الحُسنى وفق تقنيّة خلقه تعالى لكلّ شيء من هذه المخلوقات. وقدم لنا هذا الكتاب العزيز تعاليم تؤهّلنا لتلقّي تجليات هذه الأسماء الحُسنى في أنفسنا، ليمكننا ذلك من الإتصال بخالقنا عزوجل، وعن طريق تضرّعنا بين يديه بهذه الأسماء الحُسنى التي صرّح بها القرآن الكريم.

وهناك حقيقة وهي أنّ الأشياء البعيدة عنا بُعداً لا يُقاس إلّا بالثواني الضوئية. لا تعود أعيننا ترى منه إلّا ماتركه هذه الأشياء من آثار، أمّا ذات هذه الأشياء، فلا يعود بالإمكان رؤيتها بالعين المجردة بل من خلال آثارها وبأسلوب علمي وبُحسبان أيضاً.

نعود إلى مثال الشّمس، فالذي ينظر إلى هذا القرص المتوهج في كبد السّماء يظنّ أنّه يمثّل الشمس نفسها. والحقيقة التي كشف عنها العلم في عصرنا، هو أنّ ماتراه أعيننا ليس هو الشمس ذاتها، بل ماتركه هذه الشمس من وهج ونور قبل ثماني دقائق. فالشمس الحقيقية تكون قد ابتعدت عن أعيننا بمسافة توازي هذه الدقائق الثمانية التي يستغرقها وصول نور وأشعة الشمس إلينا وبسبب دوران كوكبنا الأرضي وبالنظر إلى المسافة التي يحتاج ضوء الشمس أن يقطعها ليصل إلى حيث نقف ننتظر وصوله، إذن نحن نرى تجليات الشّمس، ولا نرى ذات الشمس نفسها، كذلك فما نظنه أنّها الشّمس تغرب وراء الأفق آخر النهار، ما هو بالشمس الحقيقية، بل هو وهجها ونورها المتجلّي كقرص نورٍ مشتعلي يغرب وراء الأفق.

بل قولوا : إنّهُ لم يشاهد إنسانٌ ما يعيش على سطح كوكبنا الأرضي، ومنذ وجود الأرض هذه الشّمس الحقيقية. فالناس جميعهم يغلف عقولهم القاصرة وحواسهم المحدودة العطاء حاجزٌ وغشاوةٌ يمنعانهم عن إدراك هذه الحقيقة، لولا أن كشفت عنها الحسابات والوسائل العلميّة المعاصرة.

وبناءً عليه يستحيل رؤية ذات الله عز وجل، لكون الذات الإلهية غير محدودة من جهه، ولتبعدها عنا بما لا يقدر أحد إثباته بطريق علمي. فالعلم بالذات الإلهية الخالقة شأن غيبي، ليس باستطاعة عقلنا الإحاطة به إلا بمساعدة عامل مساعد هو وحي الله تعالى نفسه ليكشف لنا عن حقيقة ذلك. والذي استفدناه من الوحي القرآني أنه أنبأنا بقوله تعالى: ﴿تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، ولم يوضح هل أنها سنوات تعادل سنواتنا، أم أنها سنوات ضوئية بحساب الفلكيين. ويكفيها الاستنتاج من مُعطيات هذه الآية القرآنية مدى بعد الذات الإلهية الهائل عن كوكبنا الأرضي، وانطلاقاً من مصداقية ما ينبتا به القرآن الكريم.

من هذا ندرك استحالة امكانية رؤيتنا لذات الله عز وجل ولو بالمنطق العلمي، فإن شئنا رؤيتها، فلا سبيل أمامنا إلا سبيل رؤية تجليات هذه الذات الإلهية المقدسة، وبوسيلة تطوير ما نحمله من قوى باطنة وإحداث تجانس مع أسماء الله الحسنى تأسيساً بصاحب الخلق العظيم محمد سيد المرسلين أجمعين (ﷺ).
وحيثناك لن نرى تجليات الأسماء الحسنى بأمر أعيننا هذه، بل سنتلقاها ونراها بأعين كياناتنا الروحية وبمختلف حواسه التي أوتيناها كثمرة لإيماننا بالله وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى، وثمره لمبايعتنا هذا الرسول الكريم خاتم النبيين، وثمره لعبادتنا ربنا الذي أنزل على قلب محمد ﷺ تعاليم مانقوم به من أعمال صالحات، وموازين روحية كشف عنها الغطاء كتاب الله العزيز. وهي موازين من ماهية تختلف عن ماهية الموازين المادية، كما تختلف عنها بقوانينها الناظمة لها أيضاً. وهذا هو السر الكامن وراء تركيز القرآن الكريم على موضوع أسماء الله تعالى الحسنى وإهماله الكلام عن ذاته عز وجل.

ثالثاً - إمكانية الإتصال بالله تعالى :

فمن هذا المنطلق وعلى ضوء هذا الفهم أقول: إن موضوع الإتصال بالله الخالق ممكن ولكن عن طريق تجليات أسمائه الحسنى، وبوسيلة ما استفدناه من علوم وذرائع تضمنها باب العرفان الإلهي، هذا وإن كل إنسان يزعم خلاف ذلك، هو مطالب بالدليل اليقيني وبالأسوة العملية التجريبية. وإن على هذا

الإنسان ألا ينسى ما تحدى به هذا القرآن الكريم من خلال قوله تعالى : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً، فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ آل عمران ٨٥ -

ذلك أن ما أنزله الله تعالى من تعاليم تضمنتها كتابه العزيز الفرقان، هي التي نزلت لتساعد المؤمن المبايع السالك على التعرف إلى هذا الإله الخالق. أقول لتساعده ولتأخذ بأيديه لتقربه من ربه روحياً، وليس جسدياً، فالجسد هو في حقيقته مجرد أداة مادية، ولتمكنه من الفوز بمحبة الله تعالى وبلقائه عن طريق تجليات أسمائه الحسنى، وإن كل من يفهم من أي الذكر الحكيم غير ما ذكرته، يتناقض بشكل تلقائي مع نواميس الكون، ومع معطيات العلم ومع أصول فهم القرآن المجيد، ومع حقيقة الأسوة الحسنة التي قدمها لنا محمد بن عبد الله الصادق الأمين (عليه السلام).

لذلك وضعت أول عنوان لأول فصل من باب موضوع الاتصال بالله تعالى عنوان : (المحدود لا يرى غير المحدود، والعكس صحيح). بمعنى أن ذات الله تعالى غير المحدودة قادرة على رؤية كل ذرة من عالمنا المحدود بقدراتها الخاصة وبما تحمله من قوى ذاتية وامكانيات غير محدودة وإحاطتها بعلم كل شيء. وهذا الأمر نبهنا إليه قول ربنا عز وجل: ﴿يَدْرِكُ الْبَصَارَ، وَلَا تَدْرِكُهُ الْبَصَارُ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ صدق الله العظيم. فنحن يستحيل علينا رؤية الذات الإلهية الخالقة لكوننا محدودين، ولكون تلك الذات المقدسة لطيفة وخبيرة وغير محدودة.

أما إن نحن استوفينا ما تضمنه القرآن الكريم من شروط وتعاليم فكرية وعملية، يعود بإمكاننا بعد مائتاته من كيان روحي باطن له حواسه وإمكانياته، أن نشرع نتلقى تجليات وتمثلات أسماء الله الحسنى وأنوارها وبركاتها، ويكون هذا التلقي نابعا في حقيقة أمره، من ذات صاحب هذه الأسماء الحسنى بالأصالة. ويكون حالنا شبيه بحالنا مع هذه الشمس المتألفة في كبد السماء، مع الفارق الكبير، نستفيد من نورها وضياءها ووهجها وحرارتها وغذائها في وقت لا تكون ذات الشمس بمرآى من أعيننا الجسدية، بل بمرآى من وسائلنا العلمية.

أفلا نلاحظ كيف نعجز على الصّعيد العملي عن أن نحيط برؤية الأجسام الضخمة؟ ونُسلي أنفسنا بتخيّل وجودها ورؤية أبعادها وبضوابط

علمية؟ فما بالنسبة تجاه ذات الله المقدسة التي لا تحدها حدود بمقاييسنا العلمية المادية. هذه الذات التي تنأى عن أن تأتي ضمن نطاق عمل رؤية أعيننا ووسائلنا العلمية؟ ليتساءل أحدنا : هل بإمكانه رؤية جسم ملاصق لعينه؟ أو رؤية جسم في منتهى البعد عنه؟

ألا إن شاشات أعيننا ترى الشمس كقرص ملتهب يسبح في الفضاء، وقد ثبت علمياً أن ما نراه ليس هو نفس الشمس، بل ما تركته هذه الشمس وراءها من نور ووهج وضياء. أما ذات الشمس فهي لم يرها أحد من البشر حتى الساعة منذ وجود هذا البشر على سطح كوكبنا الأرضي، فهذا مثال مُصغّر من واقع كوننا المادي، إن وعيناه، ووضعناه في حُسابنا، عند توجيهنا إلى فهم موضوع الاتصال بالله خالقنا، يُلهمنا هذا المثال ويساعدنا كثيراً لتفهّم مأسأقدمه من معلومات.

هذا ولا ينبغي لأحد أن يعترض على هذه المعلومة التي قدّمناها ويقول: مافائدة الاكتفاء برؤية تجليات أسماء الله الحسنى، إن كان الإسلام لا يدلنا على رؤية ذات الله نفسه؟ فلا ينبغي لأحد الاعتراض على ذلك الأمر، لأنه يكون باعتراضه هذا متمرداً على واقعه المادي.

وهل لهذا العترض أن يرفض رؤية نور الشمس ويرفض الاستفادة من وهجها وضياؤها، لجرّد أنه لا يستطيع رؤية ذات الشمس بعينه هاتين؟ فلاظن أن أحداً يفعل ذلك. فواقعنا المادي يفرض علينا الاستفادة من نور الشمس ومن اشعاعاتها، وإن استحالت علينا رؤية الشمس ذاتها.

فالعبرة، كما هو معلوم، بالنتائج، وليست العبارة بالمقدمات. هذا ومادُمنا من حيث النتيجة نستفيد من نور الشمس ووهجها، فنحن نستفيد إذن من الشمس ذاتها وبأسلوب يفرضه علينا واقع عظمة حجمها وواقع بُعدها الشّاهق عنا. وهأنّ وسائلنا العلمية اكتشفت أن ذات الشمس تظلّ سابقة مانراه في كبد السّماء بثمان دقائق، لكون الشمس مادّة ومحدودة الحجم أيضاً. أمّا الذات الإلهية المقدسة فتناهى عن وسائلنا العلمية هذه. هذا وإنّ المؤمن المبايع المعتقد بمصداقية التعاليم المنزلة في كتاب الله والذي يعمل على هذه التعاليم، يتلقّى تجليات الأسماء الحسنى التي تتحلّى بها الذات الإلهية المقدسة، ويكون بتلقّيه هذا قد حقّق الإتّصال بذات الله المقدسة بمعنى من المعاني يقيناً. على اعتبار أن

تجلیات الأسماء الحُسنى تكون صادرة عن هذه الذات الخالقة نفسها. فهذه حقيقةٌ
لا خصومة فيها ولا جدال.



الفصل الثاني

تجليات أسماء الله الحسنى

١ - المفهوم اللغوي للتمثل والتجلي :

ومادامنا قد سلّمنا أنّ رؤية نور الشمس ووهج أشعتها هو بمثابة رؤية ذات الشمس نفسها. ومادامنا قد سلّمنا أيضاً باستحالة رؤية الذات الإلهية المقدّسة، وأنّ طريق الاتّصال بهذه الذات ينحصر في رؤية وتلقّي تمثّلاتها وتجليّاتها. فقد اقتضى منّا هذا التسليم التقدّم خطوة أخرى على هذا الطريق، ومحاولة فهم كلمتي التمثّل والتجليّ عن طريق تحقيق لغوي نقوم به من خلال ماقدمه لنا أصحاب المعاجم من دلالات هذين اللَّفظين المذكورين، وليكون فهمنا لدلالاتهما فهماً موضوعياً أيضاً.

فما تعلّق بلفظ التجليّ فقد أفادنا معجم (محيط المحيط) أنّه مصدر من تجلّى. وتجلّى تجليّاً أي تكشّف وظهر. فالله تعالى يُجلّي السّاعة أي يظهرها. وفلان يُجلّي عن نفسه أي يُعبّر عما في ضميره. وتجلّى الله تعالى لفلان أي استعلنَ وظهّر له. والجلّي نقيض الخفي وهو الأمر الواضح. والجلية مؤنث الجليّ والخير اليقين. يُقال تكلم عن جليلة أي عن خير يقين. وجلّى عن فلان الأمر كشفه عنه. وجلية الأمر حقيقته. يُقال أطلعني على جليلة أمر أي على حقيقته (محيط المحيط).

وماتعلّق بلفظ التمثّل، فقد أفادنا معجم (محيط المحيط) أيضاً أنّه من مثّل فلاناً بفلان شَبَّهه، واسم الفاعل منه المائل. ومثّل لفلان الشيء والمقدار والقصاص. جمعه أمثلة ومثّل ومثّل. وليس كمثله شيء أي ليس كذاته ووصفه شيء. ومن معاني المثل الحجة والبرهان. يُقال أقام له مثلاً أي أقام حجة وبرهاناً، وبسط له مثلاً أي حدّثه حديثاً، وتمثّل الشيطان : تشابهاً. والتمثيل عند أهل البيان يُطلق على المجاز المركّب وعلى التشبيه.

والآن إن نحن تدبّرنا القرآن الكريم نلاحظ أنّه أتى على استعمال لفظي التمثّل والتجليّ بالمعاني التي أوردها صاحب معجم (محيط المحيط) وغيره. ففي

سورة الليل قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى﴾. أي أقدم النهار شهادةً إذا تكشف وظهر. وفي سورة الشمس قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّاهَا﴾. أي إذا كشف النهار الشمس وأظهرها. وفي الآية ١٨٧ من سورة الأعراف قال تعالى بحق الساعة ﴿قُلْ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يَجْلِيهَا لَوْقَتُهَا إِلَّا هُوَ﴾. أي لا يكشف الساعة لوقتها ويظهرها إلا الله عز وجل. وفي الآية ١٤٣ من سورة الأعراف أيضاً، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا، وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾. ويُستفاد من هذه الآية الكريمة أنّ الله عز وجل إذا شاء أن يكشف عن نفسه ووجوده، يكشف ذلك ويُظهره من خلال تجليات أسمائه الحسنى ومن خلال ما يتجلى به من صفات. فمن خلال التجليات المذكورة وعن طريق مشاهدة آثارها وفعالياتها يُثبِتُ لصاحب العقل السليم وجود الذات الإلهية المقدسة التي تجلّت بهذه التجليات لناظريه، فموسى عليه السلام رأى ربه وأيقن بوجوده من خلال ما تجلّى به ربه على الجبل. وإلا فلو كان يصح رؤية ذات الله تعالى، فما كانت هناك من ضرورة لتلك التجليات.

ثم إن القرآن الكريم أتى على استعمال لفظ التمثّل في الآية (١٧) من سورة مريم حيث قال فيها: ﴿فَارْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾. أي تشبّه الملك لمريم وهو يحمل رسالة ربه وبشارته على شكل بشرٍ سوي المنظر والقامة.

ولابدّ أن يكون القارئ قد أدرك أنّ لفظي التمثّل والتجليّ ماهما بغريبين عن ألفاظ القرآن الكريم. بل هما من الألفاظ المستعملة في آياته الكريمة، حتى وقد أوردتهما القرآن الكريم بصدد إثبات وجوده وللتدليل على موضوع إمكانية الإتصال به جلّ شأنه، وعليه فلا ينبغي لقارئ هذا الكتاب أن يظنّ أنّي من المتصوّفين، أو أنّي أنقل ممّا أورده المتصوّفون في مؤلفاتهم، فانا استعملت هذين اللفظين بدلالاتهما ومعهومهما العربيّ المبين.

٢ - مضمون تجليات الأسماء الحسنى:

إنّ لفظ التجليّ الذي درسناه لغوياً، يشكّل في حقيقة أمره إطاراً لفظياً معبراً عن وسيلة الإتصال بالله عز وجل، فذات الله لا تُرى، على حسب

ما وضّحناه سابقاً، بل تُرى تجلّياتها، على شاكلة الشمس لأُرى منها إلا وهجها ونورها، فالله تعالى يتجلّى عن طريق أسمائه الحسنَى. ويتحقّق اتصال العبد المؤمن به عزّ وجلّ عن طريق هذه التجلّيات التي يُثبّت منها وجود الله تعالى وكونه الحيّ القيوم الذي لاتأخذه سنة ولا نوم.

هذه الحقيقة التي ذكرتها دلّتنا عليها ما نتلوه في كل ركعة من ركعات صلواتنا وهو ﴿الحمد لله ربّ العالمين الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين﴾. إنّ كلمتي ﴿الحمد لله﴾ تعنيان أنّ جميع أنواع الحمد والثناء تستحقّها ذات الله على وجه الأصالة. فلماذا هذا الاستحقاق؟ هذا بسبب أنّ الله هو (ربّ العالمين) حيث تبدّوا تجلّيات ربوبيّته في كل ذرة من ذرات عالمنا المادي، أي أنّ الله عزّ وجلّ هو على اتصال دائم بمخلوقاته عن طريق تجلّيات أسمائه الحسنَى على هذه المخلوقات.

هذا وقد سبق لي أن شرحت ظواهر هذه التجلّيات الإلهيّة من خلال تكوين الجسم البشريّ، حيث يبدو هذا الجسم مُسلّحاً بأجهزة مُنوعة وأجهزة إنذار ومضخّة قلبيّة تضخّ شلّالاً من الدم لتجري في عروق أجسامنا لتغذية أعضاء هذه الأجسام وتعمل ليل نهار في حالة وعينا وفي حالة غيوبتنا. كما يبدو هذا الجسم ذو جهاز هضمي وجهاز تنفّسي وحواسّ تساعد على الاتّصال بالعالم الخارج عنه.

ثمّ تلاحظ هناك ظاهرة التوازن الطبعيّ بين المخلوقات والنباتات وسواها من الأشياء وعلى صورة مدهشة للغاية، بحيث لا يخلو هذا التوازن الطبعيّ أن يحدث فيه أيّ خلل ماء، وإلا تعرّض وجودنا للأخطار والويلات، أضف إلى ذلك كلّ أنّ الله تعالى تجلّى على العناصر المادية بخواصها المعروفة ففرض إلى خواصها صلاحية الإفادة والإضرار، وألزم الإنسان باستعمالها بأسلوب علمي وشرعيّ أيضاً.

فهذه كلّها ظواهر اتصال الله بمخلوقاته عن طريق أسمائه الحسنَى. وهناك ظاهرة متعلّقة بتزيّة وتطوير هذا الكائن البشريّ أيضاً، وتمثّل هذه الظاهرة بعثات أنبياء الله ورسله، أفلم يبعث الله جلّ شأنه آدم ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً خاتم النبيين وسواهم من أنبياء الله ورسله؟ وأوّلهم يُنزل عليهم شرائع وتعاليم لتطوير البشر من حالٍ إلى حالٍ؟ وهل انتصر رسل الله وأتباعهم

على أعداء الله وأعدائهم من الكفار والمشرّكين إلّا عن طريق اتصال هؤلاء الرّسل بربهم وتأييد الله إياهم بوسيلة تجلّي أسمائه الحسنی حفاظاً عليهم ودحراً لأعدائهم.

فنحن كمسلمين نؤمن بوجود الله خالقنا، ونؤمن باستحالة رؤية ذاته عزوجلّ وبامكانية الإتصال به بوسيلة تجلّيات أسمائه الحسنی، هذا مانفهمه من تلاوتنا ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾.

أما الإنسان الكافر بوجود الله وبأنبيائه وبرسله وبكتبه، فهو محروم من نعمة هذا الإيمان ومن نعمة هذه التجلّيات الإلهية وتأييدها، وهو في عمى عن رؤية وإدراك معالم اتصال الله تعالى بمخلوقاته وعن ظواهر تجلّياته ضمن تكوين تلك المخلوقات. وإلى هذا الأمر أشارت الآية (١٠٥) من سورة يوسف: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

ألا إنّ مضمون لفظ التجلّي الإلهي يشتمل على هذه الحقائق المذكورة جميعها. ذلك أنّ الله عزوجلّ هو على اتصال دائم بمخلوقاته، ويتجلّى هذا الإتصال ويظهر عن طريق تجلّيات أسمائه الحسنی التي لا يفتّر عملها ولو للَحظة من اللّحظات، فظواهر تجلّي أسماء الله الحسنی تبدو داخل أجسام الأشياء وخارجها، كما تبدو من خلال تجارب المؤمنين العاملين.

فالتجلّي الإلهي والاتصال بالله تعالى بواسطة هذا التجلي يشكّل حقيقةً كونيةً ثابتةً من خلال هذين الطريقتين المذكورين : تقنية خلق كل شيء، في هذا الوجود وثمار الإيمان والأعمال الصّالحات بوجهها التجريبي الموضوعي.

فمضمون التجلّي الإلهي بالمعاني المذكورة توصّلنا إلى وجود طريقتين لاثالث هما للاتصال بالله الخالق عزوجلّ : الطريق الأول طريق التعامل مع القوانين الطبيعية وخواص الأشياء تعاملًا علميًا. ونكون حينذاك نتعامل مع ظواهر تجلّيات الله نفسه، والطريق الآخر هو طريق عبادة الله والانصياع لأوامره وما أنزله من تعاليم في كتابه العزيز والدّعاء من هذا الخالق وبالتدّلل بين يديه مستمطرين تجلّي أسمائه الحسنی علينا. فبالدّعاء المستجاب يتمّ الاتصال بالله عزوجلّ. إنّ الطريق الأوّل نصّ عليه قوله تعالى في الآية (١٥) من سورة الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلَاهُمْ بِالْغُدُوِّ

والآصال. ﴿ والآية (٤٩) من سورة النحل: ﴿ والله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون. ﴿ والسجود يعني الطاعة والخضوع. والطريق الثاني نصّ عليه قوله تعالى في سورة غافر الآية (٦٠): ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين. ﴿.

فنحن نتعامل مع كل شيء موجود ومع النواميس الكونية النازمة له على اعتبار أنهم جميعهم يحلون تجليات أسماء الله خالقنا ويخضعون طوعاً وكرهاً لمشيئته. ونحن نعبد الله ونطيعه وندعوه ونتذلّل بين يديه لنستمطر تجليات أسماء ربنا مباشرة ولتحقق لنا بذلك الاتصال بربنا عزّ وجلّ بهذين الطريقين. فهذا هو منهجنا الحياتي وأسلوب تفكيرنا الروحي.

أما الذين يكفرون بوجود ربهم ويقنطون من امكانية الاتصال به عزوجلّ ويفكّرون بأسلوبٍ ماديٍّ تحض ويسلكون منهجاً حياتياً مادياً محضاً. يصفّ حالهم هذا قول الله تعالى في الآية (١٤) من سورة الرعد: ﴿ له دعوة الحق، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلاّ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه، وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال. ﴿.

هذا علماً بأنّ الله تعالى فتح لعباده المؤمنين باب الدعاء والتذلّل بين يديه، على اعتبار أنّ الله هو في حقيقته غنيّ عن العالمين. ولذلك قال: ﴿ ما يعباؤكم ربّي لولا دعاؤكم. ﴿.

وصفوة القول هو أننا لانعتقد بامكانية رؤية ذات الله عزوجلّ هذا في وقت نعتقد فيه بامكانية الإتصال بهذه الذات الإلهية المقدسة عن طريق تجليات الأسماء الحسنى. فهذا هو مضمون لفظ التجلي الذي نوره في كتبنا وتعايرنا وخلال حواراتنا.

٣. مضمون تمثّلات هذه التجليات :

نتناول لفظ التمثّل الذي أجرينا عليه دراسة لغوية. إنّ لفظ التمثّل هذا يُشكّل إطاراً لفظياً يحتوي مضموناً هاماً جدّاً، ففي حين دلّ لفظ التجلي على

كيفية كلام الله تعالى مع عباده، أتى لفظ التمثّل ليدلنا على كيفية انتقال هذا التجلي إلى هؤلاء العباد. أي على كيفية تكلم ذات الله اللامحدود مع الإنسان المحدود.

فإذا تذكرنا أنّ من معاني لفظ تمثّل هو التصوّر. وأنّ معنى مثل لفلان الشيء يعني صورته. نستنبط أنّ التصوّر والتمثّل يفيدان ظهور شيء مظهر جديد. أي أنّ لفظ التمثّل يشتمل مضمونه على نقل كلام الله تعالى إلى عباده على صورة تمثّل وتصوير، وهي حقيقة وضحتنا لنا الآية من سورة مريم: ﴿فأرسلنا إليها روحنا، فتمثل لها بشراً سوياً﴾ مريم ١٧ - أي أن ملاك الله الذي حمل إلى مريم بشارة ربّها عز وجل، تصوّر لها هذا الملاك وتمثله على هيئة إنسان مكتمل الهيئة والقوام ولكن ليس بماهيته الأصلية، من هذا نكون قد أدركنا كيف أنّ مضمون لفظ التمثّل قد وضّح لنا الكيفية التي ينتقل بواسطتها كلام الذات الإلهية اللامحدوده، إلى كيان الإنسان المادي المحدود، هذا الكيان المركّب من جسد وروح. ولا ينبغي أن نظنّ من الآية المذكورة أنّ مريم قد رأت ملاك الله المتمثل بشراً سوياً، بأنّ عينيها الجسمائيتين، بل بخواس كيانها الباطني. أفلا نتذكّر كيف أنّ جبريل كان يتمثل لعيني محمد رسول الله (ﷺ) الروحيتين وليس لعينيها الجسمائيتين؟ فلو أنّ عيونه الجسمائية هما اللتان كانتا ترى وتشاهد جبريل عليه السّلام لكان جميع من يحضر في مجلسه (ﷺ) من أصحابه قد رأوا جبريل على شاكلة ما رآه رسول الله (ﷺ) نفسه. والحقيقة هي أنّ تجلّي أسماء الله الحسنی وتجلّي ملائكة الله وتمثلاتهم تتوافق شدة وضعفاً، سموّاً وتدنياً على حسب مستوى التجلّي عليه والمتمثّل له وعلى قدر ستموم مقامه الروحي.

هذه الحقيقة الروحية التي ذكرتها تتطلّب منّي الشرح والتوضيح بمثال مادي مع وجود فارق بين الأمرين. وأضرب لهذا القارئ مثالا مادياً، فلنتصوّر عظيماً - مُترَبِّعاً على عرشه المنشأ على مكان مرتفع من الأرض، فالإنسان الذي يمرّ من أمامه لا يقدر على مصافحته لانخفاض المكان الذي يقف عليه. فماذا يحدث حينئذ؟ إنّ أبسط ما يحدث هو أن ينحني هذا العظيم ليدنو من هذا الشخص مادّاً يده نحو الذي يرفع يده لمصافحته وهنا تتلاقى اليَدان ويتصافحا.

فهذا مثال ماديّ مع الفارق يعطينا فكرة تقرّيبية عمّا يحدث حين يكلم الكيان الإلهي اللامحدود، الكيان البشريّ المحدود.

فكلام الله تعالى يتجلّى ويتمثّل لهذا العبد الذي يريد ربّه أن يكلمه وذلك عن طريق تجلّي أسمائه الحسنی المختصّة بذلك الكلام ومضمونه. وهذا التمثّل والتصور يأتي على قدر مرتبة هذا العبد الروحية، ولا يراه هذا العبد بأمّ عيني جسمه، بل بعيني كيانه الروحي، وبذلك يتحقّق كلام الذات غير المحدودة، مع المحدود.

أي أنّ تجلّيات أسماء الله الحسنی الناقلة كلام الذات الإلهية المقدّسة غير المحدودة إلى الإنسان المحدود، تتعاضد وتتضاءل ضمن أشكال تمثّلها بما يوافق منزلة المتجلّي عليه ومقامه الروحي، فيقدر مايسمو مقام هذا الشيء بقدر ما يكون تمثّل تجلّي ربّه عليه أرفع وأعظم.

ولنعدّ إلى الأمثلة ممّا احتوت عليه الكتب السماوية المأخوذ بها في عصرنا الحاضر. فلقد ورد فيما نقله إلينا متى من روايات وصلت إليه ونسّقها على شكل إنجيل مقدس عند المسيحيين. ورد في الإصحاح $\frac{3}{16}$ منه مايلي : (فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء. وإذا السّموات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه، وصوت من السّموات قائلاً : هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت.). ونحن لنضرب صفحاً عمّا احتواه هذا النصّ وعن مدى صحته وعدم صحته. ونكتفي بتأمل وتدبّر جُملته (فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه..). فهذه الألفاظ، ومن خلال قوله (نازلاً مثل حمامة) نستشّف المقام الروحي الذي كان المسيح يحتله عند ربّه في أوائل سنيّ دعوته. فلم يتجلّى روح الله أي ملاكه أعظم من حجم حمامة.

فإذا قارنا ذلك بما رآه موسى ضمن كشفٍ روحيّ تجلّى ربّه به على شكل نار مضيئة، ومن ثمّ تجلّى على الجبل فجعله دكاً، وقيل له اخلع نعليك إنّك بالوَاد المقدّس طوى. وهذه حقيقة أوردتها سفر الخروج من التّوراة المعاصرة في الإصحاح $\frac{3}{6-2}$ كمايلي : (وجاء موسى) إلى جبل الله حوريب، وظهر له ملاك الرّب بلهيب نار من وَسَطِ غُليقة. فنظر وإذا الغُليقة تتوقّد بالنار، والغُليقة لم تكن تحترق. فقال موسى أميل الآن لأنظرُ هذا المنظر العظيم. لماذا لا تحترق

العَلِيَّة؟ فَلَمَّا رَأَى الرَّبُّ أَنَّهُ مَالٌ لِيَنْظُرَ نَادَاهُ اللَّهُ مِنْ وَسْطِ الْعُلْيَةِ، وَقَالَ : مُوسَى مُوسَى، فَقَالَ : هَاأَنْدَا. فَقَالَ لَا تَقْرُبْ إِلَى هُنَا. إِيخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رَجْلَيْكَ، لِأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ. ثُمَّ قَالَ : أَنَا إِلَهُ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ اسْحَقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ. فَغَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لِأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللَّهِ.. فَإِنْ نَحْنُ ضَرْبْنَا صَفْحًا عَنْ مَنَاقِشَةِ هَذَا النَّصِّ وَعَنْ مَدَى صَحَّتِهِ أَوْ عَدَمِهَا، نَسْتَشْفِ مِنْ مَضْمُونِهِ مَقَامَ مُوسَى الرُّوحِيِّ وَمَرْتَبَتِهِ مِنْ خِلَالِ فَقْرَةٍ: (وَيُظْهِرُ لَهُ مَلَكُ الرَّبِّ بِلَهِيَّةٍ نَارٍ مِنْ وَسْطِ عُلْيَةٍ..) فَمَلَاكَ اللَّهُ لَمْ يَتَمَثَّلْ "بَشَرًا سَوِيًّا"، وَلَمْ يَحْمِلْ هَذَا الْمَلَاكُ وَحِيًّا لَفْظِيًّا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. لَكِنَّا إِذَا قَارَنَاهُ بِتَجَلِّي مَلَاكَ اللَّهِ عَلَى الْمَسِيحِ النَّاصِرِيِّ بِحُجْمِ حَمَامَةٍ، نَسْتَشْفِ عُلُوَّ مَرْتَبَةِ مُوسَى عَلَى مَرْتَبَةِ الْمَسِيحِ الرُّوحِيِّ بِدَرَجَاتٍ.

فَإِنْ نَحْنُ نَعُدُّنَا إِلَى تَارِيخِ الرِّسَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَإِلَى مَا حَدَثَ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنْ ذَلِكَ التَّارِيخِ، لَنَحْظُنَا أَنَّ رُوحَ اللَّهِ أَيْ مَلَاكَهُ تَجَلَّى لِأَعْيُنِ مُحَمَّدٍ عَلَى هَيْئَةِ بَشَرٍ سَوِيٍّ مِنْ جِهَةٍ، وَيَحْمِلُ لَهُ وَحِيًّا لَفْظِيًّا أَيْضًا مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ فَكَانَ هَذَا وَحِيًّا أَوَّلَ آيَاتِ سُورَةِ إِقْرَأْ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ وَمَوْثُوقٌ وَغَيْرُ مُخْتَلَفٍ فِيهِ. فَأَيْنَ هَذَا التَّجَلِّيُّ مِنْ تَجَلِّيِ مَلَاكَ اللَّهِ فِي نَارٍ فِي عُلْيَتِهِ، وَمَنْ تَجَلَّى مَلَاكَ اللَّهِ عَلَى شَكْلِ حَمَامَةٍ؟ فَمِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْمَقَارَنَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ نَدْرِكُ صَحَّةَ مَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ تَجَلِّيَاتِ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنَى النَّاظِلَةِ كَلَامَ ذَاتِ اللَّهِ غَيْرِ الْمَحْلُودَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ الْمَحْدُودِ تَتَعَاظَمُ تُمَثِّلَاتُهَا وَتَتَضَاعَلُ بِمَا يَتَوَافَقُ مَعَ مَنْزِلَةِ الْمُتَجَلِّيِّ عَلَيْهِ وَمَقَامِهِ الرُّوحِيِّ.

أَفَلَمْ نَتْلُو قَوْلَ رَبِّنَا عَزَّوَجَلَّ فِي سُورَةِ النَّجْمِ: ﴿ثُمَّ دَنَى فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾. فَهَذِهِ الْكَلِمَاتُ تُفْهَمُ عَلَى ضَوْءِ مُعْطِيَّاتٍ مِثَالِي الْمَادِّيِّ الَّذِي ضَرْبَتُهُ لِلْقَارِئِ وَلَيْسَ سَاعِدُهُ ذَلِكَ عَلَى إِدْرَاكِ حَقِيقَةِ أَنَّ تَجَلِّيَ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَتُمَثِّلَاتِهِ تَتَوَافَقُ وَالْمُسْتَوَى الرُّوحِيِّ لِلْمُتَجَلِّيِّ عَلَيْهِ وَالتَّمَثُّلُ لَهُ شِدَّةٌ وَضَعْفٌ، وَتَدَنِيًّا وَسُمُوءٌ، فَقَدْ أُورِدَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لَفْظَ (تَدَلَّى) نِسْبَةً لِتَجَلِّيِّ وَتَمَثُّلِ الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ. أَيْ أَنَّ الْمَقَامَ الْحَمْدِيَّ كَانَ دُونَ مُسْتَوَى هَذِهِ الذَّاتِ الْمُرْتَبِعَةِ عَلَى عَرْشِهَا، ثُمَّ إِنَّ الْآيَةَ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾. تَعْبَّرُ عَنِ الْمَقَامِ الرُّوحِيِّ الَّذِي بَلَغَهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خِلَالِ سُلُوكِهِ وَعُرُوجِهِ الرُّوحِيِّ. وَهُوَ مَقَامٌ رُوحِيٌّ تَسَامَى عَنْ مَقَامَاتٍ جَمِيعٍ

الأنبياء والمرسلين الذين خلّوا من قبله ولذلك استحق لقب ﴿خاتم النبيين﴾. بمعنى أعظمهم شأنًا ومقامًا. إضافة إلى كونه آخرهم على شاكله قول الشاعر :
 فجع القريض بخاتم الشعراء
 وغدير روضته حبيب الطائي
 بمعنى أن الشاعر القريض يعطي الشاعر حبيب الطائي الدرجة الأولى
 الأسمى من بين الشعراء. وبهذا المعنى قالوا : فلان خاتمة المحققين، وخاتمة المحدثين
 وخاتمة المجددين.

والخلاصة هي أن لتجليات كلام الله تعالى وتمثلاته مدارج روحية
 لانهائية، لأنها تصدر عن ذات الله المقدسة التي لاتحدّها حدودٌ بمفهومنا المادي.
 ويتجلى ويتمثل هذا الكلام للإنسان وفق مرتبته الروحية وبذلك فلاتحدث هذه
 التجليات والتمثلات على مستوى واحد.

وأنا سبق لي أن قلت إن أعين الإنسان الجسدية عاجزة عن رؤية تجليات
 كلام الله وتمثلاته فالإنسان لا يراها إلاّ بأعينه وحواسه الباطنية، فهذا القول بحاجة
 إلى التوضيح والإثبات. ودليلنا على ذلك أن كل إنسان يتلمس هذه الحقيقة
 يومياً، خصوصاً عندما يستلقي ليأخذ نصيبه من الراحة ويهيمن عليه سبات نوم
 عميق. أفلا يلاحظ هذا الإنسان كيف أن عينيه الجسمائيتين اللتين كانتا في حالة
 يقظة لاتعودان تريان شيئاً بسبب انطباق جفونها على بعضها فلا تعود تنعكس
 صور الأشياء على شاشتيهما. وفي لحظات هذا السبات العميق يدب نشاط
 وحركة غير عاديّتين في كيان هذا الإنسان النائم، وينقلب يرى أشياء وأشياء
 ويأكل ويسافر ويقوم بأفعال شبيهة بما يقوم به هذا الإنسان قبل أن ينام.
 فمادامت أعينه مغمضة الجفون، فبأيّة العيون يرى هذا الإنسان النائم ما يراه؟
 فلو لا أن كان لكيانه الباطني حواساً مثل حواس جسمه، لاستحالت على هذا
 الإنسان رؤية ما يراه خلال نومه. فهذا واقع لامهرب للمفكر منه، بالرغم من
 جميع التفسيرات التي قدّمها علماء النفس وسواهم ممن خاضوا هذا المجال، وسأتي
 فيما بعد على خلاصة مذهب هؤلاء إليه. والمهم في الأمر هو أن النائم يرى دون
 وساطة عينيه الجسمائيتين.

٤. فروق مابين الرؤيتين : اليقظة والنوم :

فإن نحن وازنا ما بين الرؤيتين : رؤية اليقظة ورؤية المنام، تتجلى لنا
 فروقٌ جوهريةٌ بينهما وإن تماثلتا وتشابهتا. فالفرق الأول هو انعدام الزمان

والمكان في المنام. والفرق الثاني هو أن القوانين الناطمة للرؤى المنامية تختلف عن القوانين الناطمة لرؤى اليقظة. والفرق الثالث يبدو من خلالي بث يحدث من عدة جهات يستقبله كيان هذا النائم وكأنه جهاز استقبال تلفزيوني، فهو يستقبل مؤثرات فكرية، ويستقبل مؤثرات فيزيولوجية عضوية ويستقبل ويضخم ما يصل إلى سمعه من أصوات وموسيقى، ويستقبل ويضخم ما نام عليه من مؤثرات قوى كحقد أو حسد أو بخل أو هوى وعشق وما إليه.

والآن فباعتبار الفرق الأول بإمكاننا القول إن كيان هذا النائم الداخلي، يدخل عالم اللا محدود الذي ينعدم فيه الزمان والمكان. هذا الزمان والمكان الذي لا يتبقى منه إلا أسماءه أي أن هذا العالم اللا محدود الذي انخرط فيه كيان الإنسان النائم تأتي أشياؤه متشابهة مع أشياء حالة يقظته، إنما بالأسماء وليس بالماهية. وأترك الكلام عما نستنتجه من الفروق الأخرى لمناسبتها. وأكتفي هنا بالقول لولا أن كان للكيان النفسي للإنسان حواس روحية شبيهة بالحواس المادية، لاستحال على هذا النائم أن يرى جميع ما يراه. فهذه حقيقة تشكل دليلاً يتلسمه كل إنسان ويركن إلى صدقه من خلال تجربته اليومية المذكورة.

ولنعلم أن الله تعالى الذي هو رب العالمين، ومن منطلق دلالة كلمة الرب الذي يعني أن الله تعالى يطور هذا الإنسان المخلوق طوراً بعد طور، فيرقبه باتجاه التمام. فلنعلم أنه تعالى أنزل التعاليم التي تضمنها كتابه العزيز ليؤتينا كياناً روحياً جديداً وبحواس جديدة باطنة تمكّننا من استقبال تجليات وتمثيلات الكلام الذي يخاطبنا به ربنا عز وجل. فيؤتي المؤمن عيوناً روحية غير عيونه، وأذاناً روحية غير أذانه وحواس روحية غير حواس جسده، أي أن هذا الإنسان الذي آمن وباع وسلك درب عرفان ربه وسعى للفوز بمحبة ربه وبقربه وبلقائه ويؤتى كياناً روحياً تنمو حواسه شيئاً فشيئاً، ليصبح هذا الكيان الروحي الجديد هو أساس حياته القادمة الخالدة اللا محدودة والتي ينعدم فيها المكان والزمان، ولا يبقى منهما ومن أشياء هذا العالم المادي إلا الأسماء والأشكال فقط وبما هي تختلف عن ماهية الحياة الدنيا المادية.

فإشارة إلى هذه الحقيقة ورد قول ربنا عز وجل في الآية (٢٥) من سورة البقرة: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الأنهار، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ، وَأَتُوا بِهِ
مُتَشَابِهًا، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. ﴿١٠﴾

ففي قوله تعالى ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ كان فيه الإشارة إلى الحقيقة التي
ذكرناها، ولفظ التشابه يعني اختلاف الماهيتين، ماهية أشياء الدنيا المادية وماهية
أشياء حياة الخلود. ولا يربط بين هذه وتلك إلا الأسماء والأشكال، لذلك لا ينبغي
للقارئ أن يعجب لعالم ما يراه في منامه، فهو عالم نموذجي عن عالم الخلود
واللا محدود، يعطينا خالقنا به يوميًا، ويشوقنا عن طريقه إلى معرفة ما أعدت لنا
رحمة الله من نعماء. أو لم نقرأ قول ربنا عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ
حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، فِيمَسْكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ
الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى.﴾؟

وعلى هذه الصورة نكون قد أحطنا علمًا بمضمون التمثيل، وبمفهوم
اللا محدود، إلى جانب ما علمناه من قبل فيما يتعلق بمضمون التجلي، هذه الألفاظ
الثلاثة المتصلة بكلام الله مع عباده المرتبطة به ارتباطاً موضوعياً وعضوياً.

والذي نستنتجه من دلالات هذه الألفاظ، وبشهادة الآية من سورة
مريم وهي قوله تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا.﴾. أقول إن
الأمر الذي نستنتجه من ذلك كله هو أن التجلي يسبق التمثيل. فالتجلي بداية
والتمثيل نهاية. ويحدثان في عالم لا محلّ فيه للزمان والمكان.



الفصل الثالث الله الخالق كان ولا يزال يتكلم مع البشر :

وسبق لي أن أثبت في القسم الأول من هذا الكتاب أن عقيدة وجود الخالق وتوحيده سبقت وجود عقائد الشرك، وبذلك أثبت بطلان النظريات المضادة المعاصرة. وبحث الآن لأثبت بالدليل القرآني والعلمي والتاريخي صحة ما ذهبت إليه، وهو أن الله جل شأنه ما يزال يتصل بعباده ويكلمهم منذ خلقهم وأوجدهم على سطح كوكبنا الأرضي وإلى الآن.

فليمعن قارئ القرآن الكريم في صياغة قول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسولاً فَيُوحِي بِأُذُنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ شورى ٥١ - فهل تساءل في نفسه في يوم من الأيام عن حكمة إirاده تعالى لكلمة بشر في هذه الآية بدل كلمة إنسان؟

١- مفهوم إنس وبشر لغوياً :

تعال معي أيها القارئ إلى ما أورده صاحب معجم (المقاييس) من دلالات للفظي إنس وبشر. فقد كتب يقول : بشر أحرف بأصل واحد وتدلّ على ظهور الشيء مع حُسن وجمال. وسُمّي البشر بشراً لظهورهم. والبشارة الجمال، والبشير الحُسن الوجه. وتباشير الصُبح أوائله وكذلك أوائل كلّ شيء. والمبشرات الرياح التي تبشّر بالغيث.

أمّا كلمة إنس فهي أحرف بأصل واحد أيضاً . وهو كلّ شيء خالف طريقة التوحش. وعليه فإنّ كلمة "بشر" تشير إلى التاريخ الذي ظهر فيه الإنسان على سطح كوكبنا الأرضي. وإنّ كلمة إنس تشير إلى انتقال هذا المخلوق من حالة التوحش إلى حالة الأنسنة والتحضّر. وهذه المعاني تعني بالفاظ أخرى أنّ صياغة الآية المذكورة، قصّدت بها التّداييل على أنّ الله الخالق كان يشرف على هذا المخلوق الذي خلقه ليطوّره بتجليات ربوبيّته. فكان الله الخالق

يُكَلِّمُهُ أيضاً وَيَتَّصِلُ بِهِ مُدَّ كَانَ هَذَا الْإِنْسَانُ يَعِيشُ حَالَةً مِنَ التَّوَحُّشِ. فَهَذِهِ مَعْلُومَاتُ أَفَادَتِنَا بِهَا صِبْغَةُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ. أَيْ أَنَّهَا نَبَّهَتْ أَذْهَانَ الْبَاحِثِينَ وَالْمُفَكِّرِينَ إِلَى أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنَى "الْمُتَكَلِّمُ" لِذَلِكَ فَقَدْ كَانَ طَبِيعِيًّا جَدًّا أَنْ يُكَلِّمَ مَخْلُوقَهُ الْإِنْسَانَ فِي زَمَنِ كَانَ الْبَشَرُ فِيهِ بِأَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى هُدَايِهِ رَبُّهُ الَّذِي خَلَقَهُ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ مَقْصِدٍ عَظِيمٍ.

٢- الْبَشَرُ الْقَدِيمُ "جَنَّ" بِمِصْطَلَحِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

وَالْحَقُّ أَنَّهُ ثَبَتَ عِلْمِيًّا أَنَّ الْبَشَرَ كَانُوا يَعِيشُونَ حَالَةً تَوَحُّشٍ قَبْلَ تَحْضُرِهِمْ، فَكَانُوا يَأْوُونَ إِلَى الْكَهُوفِ وَالْمَغَاوِرِ يَخْتَفُونَ فِيهَا عَنْ أَعْيُنِ الْحَيَوَانَاتِ الْمَفْزَسَةِ وَيَحْمُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ تَقْلِبَاتِ الْعَوَامِلِ الطَّبِيعِيَّةِ وَيَقْتَاتُونَ بِمَا يَحْصِلُونَ عَلَيْهِ مِنْ صَيْلِهِمْ لِلْحَيَوَانِ أَوْ الطَّيْرِ الَّذِي يَقْدِرُونَ عَلَى اصْطِيَادِهِ بَوَسَائِلِهِمُ الْبَدَائِيَّةَ جَدًّا. فَكَانَتْ حَالَتُهُمْ هَذِهِ حَالَةُ تَوَحُّشٍ غَرِيزِيَّةٍ شَابَهُوا بِهَا حَالَةَ أَنْوَاعِ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ مِنْ حَوْلِهِمُ الَّذِينَ يَحْيَوْنَ شَرِيعَةَ الْغَابِ يَأْكُلُ قَوِيُّهُمْ ضَعِيفَهُمْ بَوَسِيلَةٍ صَيَدِهِ إِيَّاهُ بَعْدَ الْإِنْقِضَاضِ عَلَيْهِ. ثُمَّ إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ اسْتَعْمَلَ لِلْبَشَرِ فِي فِتْرَةِ تَارِيخِهِمُ الْمَذْكُورِ لِسْمَ "الْجَنَّ". اسْتِثْقَاقًا مِنْ جَنَّ بِمَعْنَى اسْتَرَى فِي الْكَهُوفِ وَالْمَغَاوِرِ عَلَى حَسَبِ مَا ثَبَتَ تَارِيخِيًّا. فَقَدْ أَتَى جَلَّ شَأْنُهُ بِهَذَا الْمَعْنَى فِي الْآيَتَيْنِ (٢٦ - ٢٧) مِنْ سُورَةِ الْحَجَرِ، حَيْثُ قَالَ هُنَا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾. فَلَمْ يَكُنِ الْمَقْصُودُ هُنَا التَّمْيِيزُ بَيْنَ مَخْلُوقَيْنِ اثْنَيْنِ، بَلْ بَيْنَ دَوْرَيْنِ مَرَّ بِهِمَا إِنْسَانُنَا الْمَعَاصِرُ. فَالْمَقْصُودُ مِنَ الْجَانِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْبَشَرُ فِي حَالَةِ تَوَحُّشِهِ "مِنْ قَبْلِ" أَنْ يَتَحَضَّرَ عَنْ طَرِيقِ بَعْثَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ الْفَافِظِ (نَارِ السَّمُومِ) مَعَانِيهَا الْحَقِيقِيَّةُ بَلْ الْجَازِيَّةُ بِقَرِينَةِ حَالَةِ التَّوَحُّشِ. أَيْ أَنَّ طَبَائِعَ الْبَشَرِ فِي تِلْكَ الْحَقْبَةِ مِنَ الزَّمَانِ كَانَتْ طَبَائِعَ نَارِيَّةٍ تَلْتَهَبُ لِأَتْفَةِ الْأَسْبَابِ، فَهِيَ طَبَائِعُ حَارَّةٍ شَبِيهِةٍ بِرِيَّاحِ السَّمُومِ النَّافِذَةِ فِي الْمَسَامِ، فَهِيَ تَقْتُلُ أَصْحَابَهَا وَتَحْمِلُ دُونَهُمْ وَدُونَ تَحْضُرِهِمْ وَلِذَلِكَ تَأْخُرُ بَعَثُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْحَقْبَةِ مِنْ تَارِيخِهِمُ السَّابِقِ لِبَعْثَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَسَيَجِدُ الْقَارِئُ فِي كِتَابِي الَّذِي هُوَ تَحْتَ الطَّبَاعَةِ وَعَنْوَانُهُ (الْجَنَّ حَقِيقَةُ أَمْ خَيَالٌ) سَيَجِدُ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِشَرْحِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ وَمَا قَبْلَهُمَا وَمَا بَعْدَهُمَا شَرْحًا مُسْتَفِيدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْعَزِيزُ.

أفلا حظت أيها القارئ أهمية وعظمة وإعجاز ما دلّتنا عليه صياغة قول ربنا عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسَلْ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾؟ فقد كان من مفترض أن يُقال: "كان الله يكلّم البشر وحياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسَلْ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ". لكنّ الواقع أن الله عز وجل المعجز في كلامه أعرض عن الصياغة البسيطة هذه. وصاغ الآية المذكورة مُفعمةً بالمعاني والدلالات. فهو تعالى شاء أن ينبّه أولاً إلى الفترتين التاريخيتين اللتين قطعتهما هذا المخلوق. وأن يُقلّل من شأنه يوم كان بشراً متوحّشاً ثانياً. وشاء ثالثاً التنبية إلى أنه كان يتصل بهذا المخلوق ويكلّمه وهو على حاله تلك لتطويرة منها إلى حال أفضل. وشاء رابعاً التنبية إلى أنّ اتصال الله تعالى بهذا المخلوق بعد أنستته وتحضيره وتمدينه هو حقيقة من باب أولى. وشاء خامساً التنبية إلى أن اتصال الله تعالى ومكالمته لا تنحصر في أشخاص الذين يصطفيهم من أنبيائه ورسله والذين ينزل عليهم شرائعه وتعاليمه، بل بالناس كافة من أي لون أو لسان أو قومية انتسبوا إليها، ذلك أنّ الله تعالى هو ربّ الناس أجمعين.

هذا وقد عمد جل شأنه إلى أسلوبه المعجز والتميّز لتضمين هذه الآية الكريمة جميع هذه المعاني الواسعة فأتى بحرف (ما) الموصولة الحرفية التي لا تعمل إن أدخلها على الجملة الفعلية. خصوصاً وأنها هنا مصدرية غير زمانية، فأدخلها على فعل (كان) فقلّل جل شأنه بذلك من شأن الإنسان يوم كان بشراً يعيش حالة توحّشه، فقال (ما كان لبشر). ثم إنه عز وجل أتى بالحرف المصدرية (أن) فأدخله على فعل يكلّم المضارع لينصبه، ويظلّ هذا المضارع في موضع رفع فقال "أن يكلّمه" وأحدث بذلك انسجاماً بلاغياً موسيقياً ما بين هاتين الصيغتين لتمسياً: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ﴾. ومن ثم أتى جل شأنه بحرف الاستثناء (إلا) ليخصّر أخيراً طرق كلامه مع عباده فقال ﴿إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسَلْ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾.

فالله تعالى وبهذا الأسلوب في صياغة هذه الآية من كتابه العزيز أمكنه أن يضمنها جميع المعاني الخمسة التي ذكرتها آنفاً، وبأسلوب معجز يعجز عن أن يخطر ببال إنس أو جان.

فإن تساءل القارئ بعد أن كشفت له عن واسع دلالة هذه الآية الكريمة المذكورة، أقول : لئن تساءل في نفسه : وهل كان الله جل شأنه يتصل بالبشر ويكلّمهم بهذه الطرق الثلاث التي تضمّنتها هذه الآية الكريمة ثم ما هو دليلنا على ذلك؟

٣- أدلّتنا على أن الله تعالى كان يكلّم البشر قبل آدم وبعده:

فأجيب على هذا وأقول : لقد كان منطقياً جداً أن يُكلّم الله تعالى مخلوقه هذا والذي كان لا يزال متوحّشاً ووفق جبلّته وحالته البدائية أي من وراء حجاب ثم إنّ تكلم الله تعالى مع البشر خلال أدوار تاريخه الحجرية من وراء حجاب كانت ضرورة أيضاً. فقد كان كلّ واحدٍ من البشر يومئذٍ يستلقي وينام ويروح في سبات عميق، على شاكلة ما يحدث لكلّ إنسان في عصرنا. فإذا لخصّنا ما وضّحته قبل هذا من أنّ كلام الله مع عباده يتحقّق بتوسّط تجلّيات وتمثّلات أسمائه الحسنى. هذه التجليات والتمثّلات التي تعجز أعيننا هذه عن مشاهدتها، لكننا نراها ونستقبلها بحواس كياننا الباطنيّ، هذا الكيان الذي هو أشبه بمحطّة استقبال تلفزيونية مع الفارق، فإن نحن سلّمنا بهذه الحقيقة وبواقع أنّ البشر كانوا ينامون ويرون في منامهم ما يوافق بيّتهم وحالة توحشهم، فقد كان طريق مخاطبتهم في حالة نومهم أي من وراء حجاب كان هو الطريق الأنسب لاتصال خالقهم بهم ، والكلام معهم من وراء حجاب. هذا وإنّ الذي يُعيد النظر في تاريخ الشعوب من هذه الزاوية ومن هذا المنظار ستزأى له صحّة مذهبته إليه. فالرؤى الرحمانية كانت دوماً مشغلة أذهان الناس زمن توحشهم حتى وبعد تحضّرهم وإلى هذه الأيام.

ليعد القارئ الكريم إلى سورة يوسف الآيات (٤٣ -) : ﴿وقال المَلِكُ إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَرَاتٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عَجَافٍ، وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابَسَاتٍ، يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رَأْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ. قالوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ.﴾. فقد نبّهت هذه الآيات الكريمة من جُملة منبّهت إليه، هو أنّ الناس أيام الفراعنة كانوا يرون ما يرونه في حالة

نومهم، وكانوا يقسمون ما يرونه إلى قسمين : قسم يُسمونه أضغاث أحلام، من ضَعَثَ الحديث خلطه، وأضغث الحالمُ الرؤيا جاء بها مُلتبسة. فأضغاث أحلام ما التبس من الأحلام بما لا يصح تأويلها لاختلاطها. والقسم الثاني من الرؤى كان بالإمكان تأويلها فهي رؤى صادقة ورحمانية ومظهر تجلّي وتمثل كلام الله مع رائيها (محيط المحيط).

فالملك حين قال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رَأْيَا إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ فقد كان يخاطب مستشاريه وعلماء مجلسه. فالملأ يعني التشاور، ويطلق على الذين يُلتمس عندهم جودة الرأي والمعروف (محيط المحيط) فالملك عرض مارآه في منامه على مستشارية يستفتيهم في أمر تأويل مارآه. فلو كان الناس بما فيهم الملك ينظرون إلى ما يرونه خلال نومهم على أنه مجرد أضغاث أحلام وحسب لا يصح تأويل شيء منه لالتباسه واختلاطه. فلو كان الأمر كذلك يومذاك، فما كان للملك أن يستفتي مستشاريه.

وكيف صدّق هذا الملك مأوّل له يوسف عليه السّلام الذي : ﴿قال تزرعون سبع سنين دأباً، فما حصدتم فلدوه في سنبله إلا قليلاً بما تأكلون، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شدة يأكلن ما قدّمتم هنّ إلا قليلاً بما تحصنون. ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يفاث الناس وفيه يعصرون﴾. فكيف قبل الملك هذا التأويل الذي أوّل له يوسف وأيقن أنه نبأ وكلام إلهي معه؟ فهذه حادثة تاريخية أخبرنا بها كتاب الله العزيز، ولتحمل لنا حقيقة بما ذكرناه آنفاً، ولا ينكرها إلا من كان يجهل تاريخ مصر، وتاريخ هذه الرؤيا، وما حدث بسببها في مصر من أحداث هامة.

الا إنّ أوّل علم عرفه البشر وتعلّموه من واقع ما كانوا يرونه في منامهم هو علم الرؤيا. هذا العلم الذي أصبح مشغلة أذهانهم في كلّ زمان ومكان. ذلك أن حالة النوم، كانت تشكّل وسيلة تكلم الله مع هذا النائم من وراء حجاب. فلو تقصينا تلك الحقيقة من خلال ماعثر عليه الباحثون من الآثار واللقى والمخطوطات لجمعنا مجلّدات حول هذه الحقيقة ومجلّدات.

ولأقصد من كلماتي هذه أنّ البشر ما قبل التاريخ كانوا ينقشون على كهوفهم ما كانوا يرونه في منامهم. بل الذي أقصده، هو أنّ البشر وبعد بعثة آدم عليه السّلام قد استمرّ اتصال خالقهم بهم بهذه الوسيلة من الإتصال وهو الأمر

الذي وضع جلّ شأنه أساسه وقاعدته في جبلتهم الباطنية وبشكل مدهش وملفت
للأنظار. فقد صاغ الله الإنسان محتاجاً إلى النوم والراحة وإلاّ فسينتهي الأمر به
إلى المرض والموت يقيناً. وهذا أمر أثبتته الأبحاث العلمية وبات أمراً مفروغاً منه.
فإذا استسلم هذا الإنسان إلى النوم واستغرق فيه، ينطلق كيانه الباطني في عالم
ينعدم فيه الزمان والمكان ويعود هذا الكيان الباطن كشاشة استقبال لتلفزيونية
يلتقط ماتبته أعماله اليومية من آثار في أعماقه من جهة كما يلتقط ماتبته عضوية
جسمه من تأثيراتٍ من جهة ثانية وما كان يدور في خلدِه نهاراً من محاکماتٍ
وتصوراتٍ من جهة ثالثة وما يحدثُ الضجيج حول هذا النائم من بثٍّ للأصوات
من جهة رابعة . فإلى جانب استقبال شاشة كيانه الباطنيّ لجميع ماتبته محطّات
البثّ المذكورة، فإن هذه الشاشة الباطنة كانت تستقبل ماتبته تجليات وتمثّلات
أسماء الله الحسنی من تجليات وتمثّلات موجهة إليه ومعبرة عما يريد خالق هذا
البشر منه وما يشاء مكالمته به من كلام من وراء حجاب.

هذا وهل يظنّ قارئ القرآن الكريم حينما يمرّ على تلك الآيات التي
نقلت لنا أخبار مختلف الرؤى التي رآها إبراهيم ويوسف وحزقيال وملك مصر
وغيرهم، هل يظنّ هذا القارئ أنّ الله عز وجلّ يسرد لنا هذه الرؤى عبثاً ودون
حكمةٍ يُريدها وهو الخبير الحكيم؟ بل كان يقصد منها تنبيهنا إلى أن كلامه مع
عباده بطريق الرؤى هو كلام من وراء حجاب. وقد ذكر لنا أبرز هذه الرؤى
المؤثرة في تاريخ هذا الإنسان، وما أحدثه الله عز وجلّ عن هذا الطريق في تاريخ
هذا الإنسان من انقلابات ردّتها الألسن في كلّ مكان.

وبإمكان كلّ باحثٍ أن يتقصّى هذه الحقيقة على حسب مذكرته من
خلال ماتضمّنته جميع الكتب السماوية المعاصرة ليتحقّق من صدق ما ذهبت إليه.
فأنا أتناول التوراة المعاصرة على علائها، وأترك ما أورده عن تاريخ موسى وعن
اتّصاله برّبه. فنحن نؤمن بقول ربّنا في كتابه العزيز : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
تَكْلِيمًا﴾ أي كلّمه بجميع طرق كلامه المقرّره مع عباده الصالحين فقد كلّّم الله
موسى وحياً ومن وراء حجاب وأرسل إليه رسولا من ملائكته ينقل إليه ما شاء
أن يكلّمه به. فهذا هو ما أفهمه أنا من ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾. فقد حملت
لنا هذه الألفاظ هذه الحقيقة التي ذكرتها وهو أنّ موسى كان قد بلغ مرحلة من

النضوج العقلي أهله لتلقي كلام ربه بهذه الطرق الثلاث المنصوص عليها في الآية (٥١) من سورة الشورى.

لذلك أعود بالقارىء إلى التاريخ الذي سبق بعثة موسى عليه السلام وهو ما تضمنته التوراة المعاصرة عنه من نصوص متعلقة بكلام الله مع أبرز عباده الصالحين ومن وراء حجاب.

فقد ورد في سفر التكوين $\frac{32}{24}$ ورد حرفياً : (وأتى الله إلى لابان الأرامي في حلم الليل وقال له احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر). ويروي سفر التكوين المذكور أن لابان المذكور اجتمع بعد هذه الرؤيا يعقوب عليه السلام وقال له : (ولكن إله أبيكم كلمني البارحة قائلاً : احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر). وهذا النص التوراتي إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن الناس زمن النبي يعقوب كانوا يُعطون ما يرونه في منامهم أهمية بالغة ويعتقدون أن الله الخالق يتصلّ عن يمينه أن يكلمه بهذا الطريق وهو طريق ما وراء حجاب.

وهذه التوراة المعاصرة تقصّ علينا في سفر التكوين $\frac{37}{9}$ مارآه يوسف عليه السلام في منامه، فقد أوردت حرفياً : (فقال — يوسف — إنني قد حلمت حلماً أيضاً وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي. وقصته على أبيه وإخوته. فانتهره أبوه وقال ما هذا الحلم الذي حلمت. هل نأتى أنا وأممك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض. فحسده إخوته، وأما أبوه فحفظ الأمر).

فبغض النظر عن الاختلاف الواقع ما بين هذه الرواية التوراتية وما بين الرواية القرآنية، فيكفي أن نستنتج من هذا النص التوراتي أن ما كان يراه الإنسان النائم في منامه من رؤى صادقة كان يُعدّ في نظر أهل ذلك الزمان من قبيل كلام الله مع صاحب الرؤيا ومن وراء حجاب . إضافة إلى أن أصحاب تلك الرؤى كانوا موقنين أن هذا النوع من الرؤى الصادقة يشتمل أيضاً على كلام الله الموجه إلى الرائي بطريق التجلي والتمثل ، وأن هذا التمثيل يحتاج إلى تأويله أيضاً.

وفي سفر التكوين الأصحاح $\frac{40}{1}$ أوردت التوراة المعاصرة مارآه ملك مصر ومأوله له يوسف عليه السلام حيث ورد فيها : (وحدث بعد هذه الأمور أن ساقى ملك مصر والحجاز أذنيا إلى سيدهما ملك مصر.. فوضعهما في حبس بيت رئيس الشرط في بيت السجن المكان الذي كان يوسف محبوساً فيه..

وحلما كلاهما حلماً في ليلة واحدة.. فقال لهما يوسف أليست لله التعابير. قصاً عليّ). وبقية القصة معروفة توراتياً وقرآنياً. والمهم أننا نستنبط من هذا النص أن يوسف حينما قال للمسجونين اللذين معه (أليست لله التعابير؟) أخذ منهما إقراراً بأنهما يعتقدان بأن الله يكلم الإنسان من وراء حجاب عن طريق ما يراه في منامه. وهذا الأمر أقر به ملك مصر لذلك لاحظناه قد أخذ بتأويل يوسف لما رآه في منامه شخصياً، وقد أثبت الأيام مصداقية ما أوله يوسف لرؤيا ملك مصر. وهذا الأمر وهذا النص التوراتي يثبت منه صدق ما ذهب إليه من أن كلام الله تعالى ينتقل إلى من يريد الله تعالى الاتصال به ومكالمته من وراء حجاب بطريق تجلّي أسماء الله الحسنى المختصّة وتمثلاتها في منام من شاء الله عز وجلّ مكالمته.

وأورد لنا سفر التكوين في الإصحاح $\frac{46}{1}$: (فكلم الله إسرائيل (أي يعقوب) في رؤى الليل وقال: يعقوب يعقوب! فقال : هاأنذا. فقال أنا الله إله أبيك لا تخف من النزول إلى مصر..).

ومن خلال هذا النص نستنتج أيضاً أن الله عز وجلّ ظلّ يكلم أنبياءه ورسله الكرام من وراء حجاب وبطريق منامهم إلى أن اكتمل نضج عقول عباده واستحقوا من الله تعالى أن يكلمهم بجميع الطرق الثلاثة المنصوص عليها في الآية (٥١) من سورة الشورى، وهذا الأمر إن تقصيناه من خلال معطيات تاريخ جميع الأمم فسنصل إلى هذه النتيجة التي توصلنا إليها آنفاً وبصورة يقينية. أيضاً وبإمكاننا أن نجتمع بذلك مجلّدات تشتمل على هذه الحقيقة ومجلّدات.

٤- الأدلة القرآنية التي تؤكد مكالمته الله مع البشر قبل آدم :

ولسائل أن يسأل : من آية الآيات القرآنية استدلت على أن الله تعالى كان يكلم هذا الإنسان يوم كان بشراً وفي حالة توحّش، وخلال فترة ما قبل التاريخ وأنه كان يكلمه من وراء حجاب؟

وجواباً على هذا السؤال أقول : إنّ الذي يتدبّر الآيات القرآنية التالية سيوقن بما تيقّنته أنا شخصياً من مدلولاتها ويُقرّ بالتالي أن الله الخالق لم يقطع صلته بمخلوقه البشر بعد خلقه إياه، بل ظلّ يرعاه ويطوره بكلامه من وراء

حجاب. فقد استهلّ الله عزوجل سورة الذّهر بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِنَ الذّهِرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مذكوراً. إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَظْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً.﴾

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ.﴾ وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سُوِّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ.﴾

إن الله عزوجل قد أنبأنا في الآيات من سورة الذّهر عن الدّورين اللّذين مرّر هذا الإنسان خلالهما فرّباه وطوّره إلى أن بلغ مرحلته المعاصرة. كذلك نبّه الباحثين في الوقت نفسه إلى أنّ هذا البشر لم تكن له طوال دوره الأول الحجري حضارة ولا تهذيب، فهو في تلك الحقبة من الزمان ﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾. كما نبّه جلّ شأنه الباحثين إلى أنّ هذا الإنسان المتوحّش كان ربّه قد طوّره بعد أن أكمل له قواه العقلية وذاكرته فجعله "سميعاً بصيراً". أي طوّره ملكاته العقلية فمكّنه بالتالي من التزوّد بإمكانيات رويّة فوق إمكانيّاته المحدودة.

كما أنبأنا تعالى في الوقت نفسه بأنّ الذي يعجب لبقاء هذا البشر في دوره الأول هذه المدة الطويلة من الزّمان. سيزول عجبه إن هو انتبه إلى الفارق العظيم ما بين نطفة الإنسان ونطفة الحيوان. فالله عزّ وجل خلق هذا الإنسان من نطفة أمشاج أي من نطفة ذات قوى متقابلة ومتضادة (وهو الأمر الذي وضحته في نظرية جذور الأخلاق). وأنّ هذه النطفة الأمشاج كانت الغاية منها، أن تؤهّل هذا الإنسان إذا ما فتحت عند نشوئه ونموّه ليدخل عن طريقها حياته الدّنيا حرّ الإرادة والقرار والمصير. وليبتليه خالقه عن طريق ذلك ليكرم أو يهان بعد مماته.

ثم إنّ الآية من سورة الأعراف التي قال تعالى فيها ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ.﴾ قد وضّح تعالى لنا من خلال فصله بين كلمتي خلقناكم وصوّرناكم بالحرف (ثم) وهو الحرف الذي يستعمل للترتيب. وضّح بكلّ جلاء أنّ البشر كان محتاجاً أصلاً إلى هذه المدة الطويلة التي استغرقها دور وجوده ماقبل

التاريخ. فقد كان الخالق عزّ وجلّ يُخضع البشر لعملية (تصويره) ليس تصويراً جسمانياً بل حواسياً على اعتبار أن التصوير الجسماني يسبق الخلق ترتیباً.

وهذه قرينة تنقل معنى ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ من معناها المتبادر للذهن إلى معنى النوع والصفة (محيط المحيط). فالبشر كانوا شابهوا ماحولهم من الأنعام في بداية خلق الله إياهم. ومن ثم أخذ خالقهم يعلمهم مايمتازون به عن الأنعام صفةً ونوعاً سواء على صعيد أسلوب حياتهم ووسائلها وسواء على صعيد استخدامهم لعقولهم وسواء على صعيد نظرتهم إلى أنفسهم أيضاً. (راجع مؤلف خلق الإنسان)

أما في الآيات من سورة الحجر فقد نبّه الله تعالى أذهاننا إلى أنه صاغ جبلتنا الباطنة فيها الإستعداد لتلبية صوته السماوي، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾. فالصلصال اشتقّ من صلّ الشيء يصل صليلاً أي صوت. والحما المسنون الطين الأسود الملتن (محيط المحيط) فهو تعالى نبّه إلى هذه الحقيقة الفطرية في معرض كلامه عن بعثة آدم عليه السلام.

فإن نحن قمنا باستعراض ماتضمنته هذه الآيات جميعها من معلومات وهي أنّ إنسان ما قبل التاريخ لم يكن شيئاً مذكوراً بعده عن التهذيب والحضارة، وأنّ الله علّمه وعلى طول تلك الحقبة من الزمان مايميّزه عن الكائنات الحية من حوله صفةً ونوعاً، وأنه جل شأنه كان يقوم بعملية تسوية لهذا المخلوق بوسيلة مايعلمه إياه في حالة نومه ليحوّله من بشر إلى إنسان وهو ماأشار به تعالى من خلال قوله مخاطباً ملائكته ﴿فَإِذَا سَوَّيْتَهُ﴾ وليؤهله من خلال تسويته لمرحلة النفخ فيه من روح الله أي لإنزال تعاليمه عليه وليجعله إنساناً روحانياً (محيط المحيط) ليتعرّف إلى خالقه ليفوز بقربه ورضاه وليستحقّ الحياة الخالدة.

ألا إنّ هذه المعلومات التي أفادتنا بها هذه الآيات الكريمة لاتبدو في ظاهرها ذات شأن كبير. لكننا إذا كنّا ملّمين بأصول تفسير القرآن الكريم تبدّل نظرتنا إلى هذه المعلومات بصورة جذرية. ونذكر أنها تشكّل بين أيدي الباحثين منارات تهديهم على طريق بحثهم عن تاريخ إنسان ما قبل التاريخ. أي تفسّر لهم أطوار العصور الحجرية القديمة .

فمن أصول تفسير كتاب الله العزيز أن تفسّروا آياته من منطلق أنّه كلام الله عزوجلّ، وتفسّر هذه الآيات بما لا يخالف صنّع الله وإبداعه وذلك

بالتوفيق بين دلالاتها و بما يتفق ومايكشف عنه العلم، إذ لأيعقل أن يتضارب كلام الصّانع مع ماصنعه هذا الصّانع وأبدعه. وانطلاقاً من هذا الأصل، فمن واجب المتدبّر لآيات القرآن الكريم وقد أحاط علماً بما زودتنا به الآيات التي أوردناها من منارات هدى تهدينا على طريق محاولة الإحاطة بتاريخ الإنسان لما يعود لفترة ما قبل التاريخ يوم كان بشراً أقرب إلى حالة التوحّش منه إلى حالة إنسان مُهذّب و متمدّن. فمن واجب هذا المتدبّر أن يعود إلى ماتكّشف عنه الحفريات من آثار البشر القديم، ولتهديه إلى النتائج الصّحيحة.

هذه المنارات من المعلومات التي زودتنا بها هذه الآيات القرآنية، لأنّ نضرب عن هذه المنارات صفحاً، ويذهب ذهننا باتجاه وضع نظريات تعتمد التخيل والفرضية والاحتمال. فإن أخذ متدبّر آيات هذا الكتاب العزيز بهذا الأصل التفسيري، يكون كمن وضع النقاط على الأحرف ووافق دلالات هذا الفرقان.

هذا على اعتبار أن مازودتنا به هذه الآيات من نقاط رئيسية على طريق بحث تاريخ البشر قديماً، تلزمن الاعتقاد بأنّ ربّ العالمين ماخلق أجدادنا الأوائل وتركهم لشأنهم، بل لابدّ أن اظلتهم تجليات وتمثلات ربوبيته عن طريق المنام ومن وراء حجاب، فهو جل شأنه الذي مهّد هذا السبيل ليكون وسيلة للاتصال بهم وهم على حالة التوحّش تلك، فلا بدّ أن يكون الله ربهم قد علّمهم آنذاك كلّ ما يحتاجونه إبقاءً على وجودهم ولتسوية عقولهم وتصويرهم فلم يخلقهم عبثاً حتى يتركهم لشأنهم تتناهبهم الأمراض والآفات وتقضي عليهم وتبطل المقصد من وجودهم على سطح هذا الكوكب الأرضي. فقد ثبت على سبيل المثال أن دلت التحريات على أن البشر تعلموا إيقاد النار منذ أكثر من (٦٠٠ ٠٠٠) عام تقريباً، وراح أصحاب العقول المادية يضعون النظريات حول تحقيق الحدس المذكور في مثل ذاك الزمان الغابر السّحيق، على حين أنّ الذي يحيط علماً بما وضّحته وما بينته له من خلال معطيات هذه الآيات القرآنية ينتهي به الأمر إلى الاعتقاد أنّ الله الخالق الربّ هو الذي علّم بشر ذاك الزمان إيقاد النار ليشوي ما يصطاده فلا يأكله نيئاً على شاكلة ما يفعله الحيوان من حوله، وأنّ هذا التعليم قد تحقّق بطريق ما يراه بشر ذاك الزمان حين ينام أي من وراء حجاب، وعلى هذه الشاكلة تقاس بقية الأمور.

ولا ينبغي أن يستغرب الباحث من طول المدة التي قضها البشر في حالة من التوحش، فالإنسان من طبيعة تكوينه وأسلوب تفكيره أنه لا يتغير بسرعة، بل يتغير ويتحول وفقاً لقوانين التطور، فهو عدو ما جهل من جهة، وهو لا يقتنع بفائدة شيء إلا بعد القيام بتجربته والإقناع بصحته.

فإن اقنعتة بتجاربه يسارع إلى الأخذ بهذا الجديد ويعمل عليه. أي أنه يحتاج إلى فترة عدة عقود من الزمان ليأخذ بشيء جديد، وذلك على حسب ما أثبتته تجارب العلماء والباحثين.

فقد ثبت من منطق تاريخ هذا الإنسان أن تقليده لما نشأ عليه تشكل أحد سماته، وليس من السهولة بمكان أن تطوّر هذا الإنسان وتجري تغييراً فيما نشأ عليه. أفلم يخبرنا كتاب الله العزيز أنه كلما كان يعث الله تعالى رسولاً، كيف كانوا يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ الزخرف ٢٣ - فهذا حال الإنسان من بعد بعثة آدم عليه السلام. فبالأحرى أن يكون حالهم في زمن توحشهم أسوأ من ذلك بكثير. أما وصلت إلينا أشعار إحدى زوجات معاوية رضي الله عنه وقد تزوجها من أهل البدو. فبالرغم من حياة الزحف التي لمستها عنده فقد ألبسها أفضل الثياب في رفقة معها لاحظها تقف في شرفة قصره وتنشد وتقول :

أحبّ إليّ من قصرٍ منيف	لبيتٍ تجري الرياح فيه
إليّ من لبس الشفوف	ولبس عباءةٍ وتقرّ عيني أحبّ

إلى آخر الأبيات. فهذا هو سرّ احتياج البشر قبل بعثة آدم عليه السلام إلى هذه المدة البالغة في القدام. ذلك أن الله عز وجلّ نبّه وقال ﴿من نطفةٍ أمشاجٍ نبثليه﴾ أي نمتحن إرادته واستعماله لعقله فقد أنشأنا الإنسان حرّ الإرادة لتمريره من هذه التجارب وهذه الامتحانات. وإلا فقد كان بإمكان الله الخالق عز وجلّ أن يطوّر هذا الإنسان خلال أيام معدودات، وأن يجعل الناس أمة واحدة أيضاً. فالخالق لم يترك هذا المخلوق دون معونةٍ منه وهداية، بل كان يعلمه من وراء حجاب.



الباب الثاني
آدم النبي الأول

الفصل الأول أخطاء وإشكالات المفسرين :

فإلى هنا نكون قد أحطنا علماً بموضوع اتصال الله ببشر ما قبل التاريخ ومكالمته خالقه إياه من وراء حجاب. لذلك نتقدم بخطوه أخرى على هذا الطريق لتبيين معالم النقلة النوعية التي أحدثها ربنا عز وجل عن طريق اصطفاائه آدم، وبعد أن سواه وأعدّه لحمل رسالته إلى لكنني أرى من الضروري هنا حلّ بعض الاشكالات التي وقع فيها المفسرون في موضوع آدم.

١- ظنّهم أنّ آدم هو أول مخلوق :

فقد ذهب ذهن بعضهم، وبتأثير ماسمعه من المعتقدين بالتوراة من اليهود، ذهب ذهنهم إلى أنّ آدم كان أول مخلوق خلقه الله عز وجلّ. على حين لو أنّهم تدبّروا الآيات القرآنية جيداً بعيداً عن الإسرائيليات، لتبين لهم أن القرآن الكريم يسفّه ماورد في سفر التكوين من التوراة المعاصرة. ويُعلن في الوقت نفسه أنّ آدم لم يكن أول البشر بل أول نبيّ اصطفاه ربّه على شاكلة ما اصطفى نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. هذه الحقيقة قد أوردها ربنا عز وجلّ في الآية (٣٣) من سورة آل عمران : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

فهو جلّ شأنه استعمل في هذه الآية الكريمة كلمة (اصطفى) التي تعني على حسب ما أورده صاحب المعجم (محيط المحيط) وغيره من المعاجم تعني اختار من خلقه. أي أن الله تعالى كان قد خلق الإنسان، ومن ثمّ اختار آدم من صفوة هؤلاء الخلق. وذلك على شاكلة اصطفاائه نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران، وقد فضّل هؤلاء الذين اختارهم واصطفاهم على العالمين من حولهم ، وليس على الناس أجمعين . وهذه المعاني تؤكد وجود بشر قبل آدم عليه السلام.

كذلك نبهنا ربنا جلّ شأنه في الآية (١١) من سورة الأعراف بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. فنلاحظ كيف أنّ الله عز وجلّ راح يُنبّه ذهن القارىء إلى ترتيب مافعله ربّه، وذلك بوسيلة الحرف (ثمّ) الذي استعمله تعالى في هذه الآية الكريمة ليفيد العطف والترتيب أيضاً (محيط المحيط) فنّبّه جلّ شأنه بذلك إلى أنّ عمليّة اصطفاؤه آدم لم تحدث كبداية، بل حدثت كنهاية سبقها عمليّة الخلق ثم عمليّة التصوير للهيئة والصّفة. أي سبق زمنّ طويل على عمليّة اصطفاء الله تعالى آدم فهو تعالى طوّر البشر خلال تلك المدة وميّزه عما حوله من الأنعام.

فهاتان الآيتان صريحتا الدلالة على أنّ آدم لم يكن أوّل الخلق بل كان أوّل نبيّ اصطفاؤه ربّه عزّ وجلّ من بين خلقه. وهذه الدلالة تسفّه ما أورده سفر التكوين من التوراة المعاصرة. في وقتٍ وتفقّ في الوقت نفسه مع ما كشف عنه علم المستحاثات وغيره من العلوم .

٢- ظنّهم أنّ جنّة آدم سماويّة :

وأشكل على بعض المفسرين موضوع جنّة آدم أكانت في السّماء أو كانت على الأرض. فلو أنّ هؤلاء قارنوا ما بين أوصاف الجنّة الأرضيّة وما بين أوصاف الجنّة التي وعد بها المتقون فلما كانوا قد وقعوا في الإشكال المذكور. ذلك أنّ الله تعالى وصف الجنّة السّماوية الموعودة تارةً بقوله ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ الفرقان (١٦) وتارةً بقوله ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ الحجر (٤٨). على حين يتبيّن أن الجنّة التي أسكنها الله تعالى آدم عليه السلام كان فيها ممنوعات ، فهو تعالى خاطب آدم وقال ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة (٣٥)، وقال ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً﴾ البقرة (٣٨) وكلمة اهبطوا هذه لاتعني لغةً وبالضرورة النزول من فوق إلى تحت، بل تعني الأمر بالانتقال من مكان إلى مكان. وبهذا المعنى ورد قول ربنا آمراً بني اسرائيل: ﴿... اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَاسَأَلْتُمْ...﴾ البقرة (٦١).

وهناك فروق أخرى بين أوصاف الجنّتين لاجمال لتعدادها جميعها في هذا المقام. وبإمكان القارىء تفصيلها في السّور هنا وهناك. فلو أنّ الله تعالى كان قد

أَسْكَنَ آدَمَ الْجَنَّةَ الْمَوْعُودَةَ لِاسْتِحَالِ أَنْ يَنْهَاهُ عَنْ أَحَدِ أَشْيَائِهَا أَوْ يَطْرُدَهُ مِنْهَا. بَلْ كَانَ آدَمُ أَوَّلَ نَبِيٍّ، وَكَانَتْ جَنَّتُهُ أَرْضِيَّةً وَسُمِّيَتْ كَذَلِكَ لِشِدَّةِ خَصْبِهَا وَكَثْرَةِ مِيَاهِهَا. هَذَا مَا تَفِيدُهُ آيَةُ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ.

وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ حَوْلَ حَقِيقَةِ إِبْلِيسَ أَكَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَاسْتَشْنَى بِحَرْفِ (إِلَّا) مِنَ السَّجُودِ، بِسَبَبِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (٣٤) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. أَمْ أَنَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنْ مَخْلُوقِ آخَرٍ غَيْرِ الْإِنْسِ وَيُسَمَّى (جَنَّ) بِحَسَبِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (٥٠) مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

أَقُولُ إِنَّ مُرَدَّ هَذَا الْإِشْكَالِ يَعُودُ إِلَى سَبَبَيْنِ اثْنَيْنِ : السَّبَبُ الْأَوَّلُ هُوَ عَدَمُ انْتِبَاهِ هَؤُلَاءِ النَّاسِ إِلَى أَنَّ لَفْظَ (الْجَنَّ) الْوَاردَ فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الْعَزِيزِ، وَإِنْ اسْتَعْمَلَهُ جَلَّ شَأْنُهُ فِي مَوْضِعٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ بِمَعْنَى مَخْلُوقٍ آخَرَ غَيْرِ الْإِنْسَانِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَسْتَعْمَلْهُ كَذَلِكَ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى، بَلْ اسْتَعْمَلَهُ بِمَعْنَى مُخْتَلَفَةٍ وَعَلَى حَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ السِّيَاقُ وَالسِّيَاقُ. وَقَدْ اسْتَعْمَلَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ لَفْظَ الْجَنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ بِمَعْنَى الْبَشَرِ الَّذِي كَانَ يَتَخَفَّى فِي الْكَهُوفِ تَحْسِبًا مِنْ هَجَمَاتِ الْوَحُوشِ الْكَاسِرَةِ عَلَيْهِ وَهُوَ نَائِمٌ. وَهُوَ أَمْرٌ أَتَيْتُ عَلَى ذِكْرِهِ فِيمَا سَبَقَ.

وَالسَّبَبُ الثَّانِي أَنَّ هَؤُلَاءِ اعْتَبَرُوا حَرْفَ (إِلَّا) الْوَاردَ فِي الْآيَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِسَجُودِ الْمَلَائِكَةِ حَرْفَ اسْتِثْنَاءٍ عَلَى حِينٍ لَوْ أَنَّهُمْ أَمَعَنُوا نَظَرَهُمْ جَيِّدًا وَتَدَبَّرُوا الصَّيْغَةَ الَّتِي صَاغَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا هَذِهِ الْآيَاتِ لِأَدْرَكَوا أَنَّ حَرْفَ (إِلَّا) اسْتَعْمَلَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ بِمَعْنَى (غَيْرِ)، وَلَمْ يُسْتَعْمَلَ لِلْإِسْتِثْنَاءِ.

فَالْمَعْلُومُ أَنَّ مِنْ أَصُولِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّ آيَاتِهِ يَفْسَّرُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَلَا يَجُوزُ تَفْسِيرُ آيَةٍ دُونَ الرَّجُوعِ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِمَوْضُوعِهَا مِنْ آيَاتٍ مُوزَعَةٍ عَلَى السُّورِ هُنَا وَهَنَّاكَ.. وَبِالنَّظَرِ إِلَى هَذَا الْأَصْلِ فِي التَّفْسِيرِ نَعُودُ إِلَى مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَجَرِ. فَقَدْ قَالَ هُنَاكَ : ﴿فَسَجِدِ الْمَلَائِكَةَ كُلَّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

والآن إن نحن تدبرنا ماورد قبل حرف (إلا). نلاحظ أن كلمتي ﴿فسجد الملائكة﴾ كافيتان أصلاً للدلالة على سجود جميع الملائكة لقوله تعالى في موضع آخر بحق الملائكة ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾. فالسؤال الذي ينبغي أن يُجاب عليه إجابة مقنعة هو : لماذا أتبع الله جل شأنه قوله هذا بكلمتي تأكيد وقال ﴿كلّهم أجمعون﴾. فما كان هناك من ضرورة في هذا المقام للتوكيد. فالملائكة ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾. وهذا الأمر يُعدُّ قرينة في حد ذاته أن حرف (إلا) قد استعمل في الآية المذكورة من سورة الحجر بمعنى يغير معنى الاستثناء يقيناً.

ففي المعاجم اللغوية ورد أن (كلّ) هي اسم موضوع لاستغراق أفراد المعرف والمنكر حتى واجزاءهما وتستعمل (كلّ) للمبالغة والتكثير أيضاً. ولا تستعمل إلا مضافة لفظاً أو تقديرًا، وترد باعتبار ما قبلها : فقد تكون نعتاً لنكرة أو معرفة لتدلّ على كمال هذه النكرة أو المعرفة، وحينئذ تضاف إلى اسم ظاهر يماثلها لفظاً أو معنى (محيط المحيط). فإن نحن تدبرنا الآية من سورة الحجر نصل إلى أن كلمة (كلّهم) قد استوفت جميع هذه الأمور. فقد استغرق بها ذكر الملائكة كمعرفة، وأضيف لفظاً، ونعت بها الملائكة أيضاً، ودلت على كمالهم وأضيفت إلى اسم ظاهر يماثلها معنى، فأية حاجة بعد هذا التوكيد ليورد الله تعالى تأكيداً آخر وهو (أجمعون)؟ فكلمة أجمعون سدّ باب الاستثناء من جميع جهاته.

نعود إلى المعاجم، لنلاحظ أن حرف (إلا) يستعمل بأكثر من معنى، فهو يستعمل بمعنى (غير) فتقول (عندي رجل إلا زيد). كما تقول : عندي رجال إلا رجالك أي أن جمع المنكر أو شبهه يوصف بحرف إلا أو لا يوصف، وتكون دلالة بمعنى (غير) (محيط المحيط).

ومادام توكيد سجود ملائكة الله قد أكدّه ربنا عزّ وجلّ بكلمتين هما (كلّهم أجمعون) وانسدّ بذلك باب الاستثناء. فهذا الأمر يقضي أن نأخذ حرف (إلا) في الآية من سورة الحجر بمعنى غير أي غير إبليس. وتكون صفة الغيرية قد اتضحت لأذهاننا بهذا الأسلوب، فلا نعود نعتبر إبليس فرداً من ملائكة الله عزّ وجلّ.

أما كون إبليس من الجنّ أي من مخلوق آخر غير الإنسان، فأمرٌ كنت أتيت على شرحه. فلفظ (الجنّ) استعمل في الآية المذكورة بمعنى أنّ إبليس كان من سكّان الكهوف. وبهذا لا يعود أمام قارئ هذه الآيات القرآنية أي إشكال كان أو التباس. ويكون حرف (مع) من قوله تعالى ﴿إِلَّا ابليسُ أبى أن يكون مع الساجدين﴾ يكون حرف (مع) المذكور هنا قد استعمل بمعنى (من) ومثلي هذا الاستعمال شائع في كتاب الله العزيز. فإن جلس أحدنا يدعو قائلًا ﴿وتوفّنا مع الأبرار﴾ فلا يقصد أن يتوفاه الله حين يموت الأبرار بل يقصد بدعائه هذا أن يتوفاه الله من الأبرار.

٣- تأثرهم بقصة آدم التوراتية :

ومن عجائب إعجاز القرآن الكريم، وهو الذي ورد في إحدى آياته قول الله تعالى : ﴿إنّهُ لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون﴾ وقوله تعالى أيضاً: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾. أقول : إنّ من ظواهر هذا الإعجاز القرآني أن تاه المفسّرون والعلماء خلال محاولات فهم قصة آدم القرآنية، فذهبوا مذاهب شتى، متأثرين فيها بما نقله إليهم أهل الكتاب من معلومات تتعلق بقصة آدم من سفر التكوين التوراتي. وذلك خلال الأربعة عشر قرناً الماضية. فلم ينتبه أحدٌ منهم إلى الفروق الجذرية الواقعة ما بين الروايتين التوراتية والقرآنية. (راجع مؤلف خلق الإنسان)

فالعجيب أنّهم ظنوا أنّ القرآن الكريم يؤيد مذهباً إليه التوراة من أنّ آدم كان أوّل مخلوق خلقه الله عزوجلّ على سطح كوكبنا الأرضي - على حين أنّ النصوص القرآنية ما أفادت ذلك في أيّ موضع من كتاب الله العزيز. بل دلّت هذه النصوص القرآنية على أنّ آدم عليه السلام اصطفاؤه الله ربّه كأول نبيّ وليس كأول مخلوق. فقد خلق الله تعالى البشر الذي عاش ما قبل بعثة آدم حالة توحّش تتنافى والمقصد من وجوده. وقد بعث الله آدم ليُحدّث عن طريقه في حياة البشر نقلة نوعية فيزيّة ويهدّبه نفسياً وأخلاقياً، ويعدّه بالتالي ليحقّق المقصد من وجوده وهو التعرف إلى خالقه وليفوز بمحبته وقربه ووصاله، خصوصاً وأنّ الله عزوجلّ كان يتّصل بالبشر من وراء حجاب لإكمال إنضاج عقله ليصبح مستعدّاً بذلك لإدراك الفرق ما بين مفاهيم العصيان والطاعة والنظام والقانون.

فلم يفتن مفسروا الأمة وعلماءها إلى هذه الحقيقة الناصعة المنصوص عليها في كتاب الله العزيز لوقوعهم تحت تأثير الأفكار التوراتية. فكم وكم تلوا قول ربنا جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. ومرّوا على كلمة (اصطفى) مرور الكرام فلم توجي إليهم خطأ ما ذهبوا إليه. خصوصاً وأنهم كانوا ينظرون إلى الآيات التي تضمنت قصة آدم بطواهر دلالاتها المتبادرة إلى أذهانهم، فلم يتدبروها حتى تدبرها، ووقعوا تبعاً لذلك في أعظم إشكال واجهوه. هذا إلى أن كشفت التحريات في عصرنا على أنّ وجود البشر هو قديمٌ وقديمٌ جداً على سطح كوكبنا الأرضي، وتضاربت بذلك أفهامهم تلك مع ما كشف عنه العلم الحديث.

إنّ أسلافنا ظلوا حتى اليوم يتصوّرون أنّ الله تعالى شاء أن يخلق آدم كأول إنسان فخلقه ومن ثمّ جمع من حوله : الملائكة والجنّ، وأمرهم بالسجود لآدم. فأطاع الملائكة أمر ربهم إلّا إبليس الذي كان من الجنّ فعصاه ولم يسجد لآدم، فأبى وكان من الكافرين، وأنّ الله لعن إبليس وأمهله إلى يوم الدين. ليُضِلّ من يستطيع إضلاله، الأمر الذي دفع المفكرين والباحثين الذين يُصغون إلى هذه القصة وبهذه المعاني، أن يعتبروها مأخذاً على الدين.



الفصل الثاني قصة آدم القرآنية وردت بلسان الحال لابلسان القال :

أقول إنّ ظاهرة هذه الإشكالات ، إن دلّت على شيء، فإنّما تدلّ على إعجاز الصياغة القرآنية هذه التي لا يدرك عظمتها إلا الذي يتدبّر آيات هذا القرآن العظيم. وليثبت بالتالي صدق قول الله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ وصدق قوله تعالى: ﴿لَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾. فقد آن أن يكشف الله عزوجل عن خفايا ماتضمنته الآيات التي تضمنت قصة آدم، هذه القصة التي وردت في سبع مواضع من كتاب الله العزيز. أقول : لقد آن لهذا المكنون أن يظهر من كنهه، ليثبت للعلماء الذين كشفوا عن تاريخ البشر، أنّ هذا الكتاب تكلم وأبان الحقائق العلمية في هذا المجال في ثوب أدبي هو في غاية الإعجاز والتحدّي أيضاً.

فقد أطلع الله عزوجل إمام زماننا على خفايا ماتضمنته آيات قصة آدم المذكورة وبما يوافق وماكشف عنه العلم الحديث. وثبت بالتالي إعجاز هذا القرآن الذي أنزله الله تعالى ليوافق كل زمان ومكان.

فالله عزوجل نبّه إلى أنّ قصة آدم القرآنية قد صيغت بلسان الحال وليس بلسان القال. وأنّ الفهم السابق المتأثر بالعطاء التوراتي هو أبعد شيء عمّا تضمنته هذه الايات. وكل ما يحتاجه المتدبّر لهذه الآيات الكريمة هو أن يلتزم بأصول تفسير هذا الكتاب العزيز.

فآدم عليه السلام ماكان أول مخلوق، بل كان من الجنّ أي من سكان الكهوف على شاكلة ماكان عليه إبليس الذي كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه. هذه الحقيقة تضمّنّها قول الله عزوجل ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فلم يقل تعالى هنا ﴿إِنِّي خَالِقٌ إِنْسَانًا﴾ بل قال ﴿بَشَرًا﴾. وقد سبق أن وضّحت الفرق مابين لفظي بشر وإنسان. ولأغرّنا لفظ (خالق) الوارد في هذه الآية. فالخلق في اللغة من معانيه التقدير أي إنّي

قدّرت اصطفاً أحد البشر. ولذلك قال تعالى في موضع آخر : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ..﴾ فما أعظم هذا الإعجاز في الصياغة والتعبير.

والملاحظ أنّ الله تعالى قال ﴿فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَلَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوْحِي﴾. وهل يحتاج إلى التسوية مخلوق خلقه الله تعالى بيديه؟ فهل كانت عملية الخلق هذه عملية نحتٍ على شاكلة مايقوم به النحاتون حيث يقومون بعمليةٍ أخيرةٍ لما نَحْتُوهُ وهي عمليةٌ تسوية أخيرة؟ إنّ دلالة كلمة البشر تجيب على ذلك. فالبشر هو الإنسان الذي كان يعيش حالة توحُّش. ويحتاج إلى تسوية دماغه وطبيعته وسلوكه ليصبح بالتالي إنساناً. وهذه التسوية بأبعادها اكتملت بعد النفخ في هذا البشر من روح الله وذلك عن طريق ماأنزله على آدم من تعاليم سماوية هذبته وحوّلته من بشر متوحِّش إلى إنسان مهذبٍ متمدّن نتيجة هذا النفخ التعليمي.

ثم إنّ كلمة (آدم) تعني اللون الحنطيّ. وهي اسمٌ وصفيٌ لهذا البشر الذي اصطفاه ربّه وأخرجه من كهفه وحمله رسالته، ليعيش في السهل تلفحه أشعة الشمس ويصبح بالتالي آدمي اللون.

كذلك فإنّ كلمة (إبليس) تعني البشر الذي قنط من رحمة ربّه التي تلقّاها آدم عليه السّلام. فلم يتقبّل هذا البشر ماحملته إليه رسالة آدم من تعاليم، فكفر به وبما جاء به وكان من الكافرين.

١- قصّة الإيمان الأوّل والكفر الأوّل :

فإن نحن انطلقنا ممّا فتحه الله تعالى على إمام زماننا، فانطلقنا نفهم قصّة آدم القرآنية على أنّها صيغت بلسان الحال وتبعاً لأصول تفسير القرآن أي محاولة التوفيق بين دلالات هذه الآيات وبين ماكشف عنه العلم الحديث. نتخلّص بالتالي ممّا تركه سفر التكوين من آثار صرفت أسلافنا عن دلالاتها. وتحتلّ لنا قصّة آدم وهي مُشكّلة الدليل القاطع على عظمة كتاب الله العزيز.

ألا إنّ قصّة آدم القرآنية هي قصّة أوّل إيمان وأوّل كفر حدث في تاريخ البشر وهيّهات أن يتفق ذلك مع ماأوردته التوراة المعاصرة من أباطيل. فقصّة آدم القرآنية ترسّخ في أذهاننا أنّ الله الذي خلق البشر، ظلّ على اتّصال بهذا المخلوق من وراء حجاب. فكان يعلمه عن طريق مأيّريه إياه من منامه ليصطاد ويقطف الثمار ويوقد النار وينحت الأدوات اللازمة، ويرشده إلى مايفيده من الأعشاب

من حوله ليستشفى بها إن هو حلّ به المرض. وعلمه أن يدفن موته ومالئ ذلك من أمور بدائية ساعدت على تنمية قواه العقلية التي تختزن هذه المعلومات، إلى أن حان الوقت ليصطفى الله من بين هؤلاء البشر من ينقلهم نقلة تهذيب نوعيّة فاصطفى الله تعالى من بينهم هذا البشر الذي أطلق عليه اسماً وصفيّاً يلائم ماسيحيته ربّه على يديه وهو آدم كما ورد في كتاب الله العزيز.

٢. المقاصد الموضوعية لقصة آدم :

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : وهل كانت الله عزوجل مقاصد عظيمة من وراء صياغته قصة آدم بلسان الحال وبهذا الأسلوب المجازي؟ وجوابي الذي استنبطته من دلالات آيات هذه القصة هو أنه تعالى كان يرمي بذلك إلى تحقيق خمس مقاصد موضوعيّة عظيمة، بالغة الأهميّة. فما كان الله تعالى ليحييها لنا إلّا بعد أن يكشف العلم عمّا يساعد على فهم هذه المقاصد وما تخفي من ورائها من حقائق. ليثبت بذلك صحّة إدعائه تعالى بحق كتابه العزيز ﴿إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون﴾ وصحّة تحديه ﴿لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾.

وأوجز للقارئ هذه المقاصد وأقول :

المقصد الأول : تنبيه أذهاننا إلى أنّ الخالق الرّب كان على اتصال دائم بمخلوقه لتطويره طوراً بعد طور. وهو حلّ شأنه نبيه من خلال ماتضمنته قصة آدم إلى ما يحدث في مملكة الله السماوية من أحداث عندما تقتضي مشيئته بعث نبيّ ليحدث عن طريق التعاليم التي يعلمه إيّاها مباشرة ويزوده بها ليحدث بها نقلة نوعيّة في مسيرة هذا المخلوق الحيّاتية.

والمقصد الثاني : من وراء ذلك ليعظّ الله تعالى بهذه القصة إلى ما يتولّد عن بعثة أيّ نبيّ كان في الأرض من أحداث. حيث ينقسم الناس إلى مؤمن بهذا النبيّ وإلى مناصير لدعوته. وإلى كافر بهذا النبيّ وإلى مكذب بدعوته. مع بيان عاقبة كلّ فريق من هؤلاء وهؤلاء.

والمقصد الثالث : الذي رمت هذه القصة إلى تحقيقه هو تنبيه الأذهان إلى أنّ الله عزوجل الذي يتجلّى في هذه الحياة الدنيا بصفته الملك الذي سنّ لتسيير مملكته الدنيوية قوانين طبيعية ثابتة. يعود يتجلّى عند إرادته بعث أيّ نبيّ

كان بصفته المالك يفعل مايشاء فعله ليثبت من خلال ذلك أنه هو الخالق الربّ
الفعال لما يريد.

والمقصد الرابع : الذي أراد الله تفهيمنا إيّاه من خلال ماتضمّنته قصّة
آدم المصاغة بلسان الحال ، أن يُعلّمنا أنه تعالى خلقنا في عالمنا المادي الحاضر
أحراراً ليمتحننا، خلقنا أحرار الإرادة وأحرار التفكير وأحرار العمل والتصرف.
فهذا ما يقتضيه وجودنا في هذا الطّور الأوّل على طريق حياة الخلود.

والمقصد الخامس من صياغة قصّة آدم بهذا الأسلوب كان تلقين هذا
الإنسان درساً عظيماً لا ينبغي له أن يغرب عن باله، ليساعده على التّمييز به بين
مفاهيم التهذيب ومفاهيم المدينة والحضارة. فيدرك بالتالي أنّ لاقيمة الحضارة
لا تستند إلى تهذيب. وأنّ عمليّة تهذيب الإنسان يعجز عن أدائها إلّا الخالق الربّ
الذي خلق هذا الإنسان والذي يَعْلَمُ ما تُؤسّس به نفسه ويعلم سرّه وجهره
وماتخفي الصدور.

ولا ينبغي للقارئ أن يظنّ بأنّي اختلقت هذه المقاصد الخمسة الكبرى
من مخيلتي. بل ليعلم أنّي استنبطتها من بين ثنايا ماتضمّنته الآيات الكريمة التي
روت لنا قصة آدم عليه السلام.

وتما حمّله إلينا أسلوب صياغتها البلاغي المعجز الذي تحدّى الله عزوجلّ
به أعظم أدباء وشعراء الجنّ والإنس وعلى مدى الدهر أيضاً. ويكفي القارئ
دليلاً قاطعاً على عظمة صياغة هذه القصّة أنّها وردت على صورة لم ينكشف
ماتضمّنته من حقائق إلّا بعد أن كشفت الآثار عن حقائق تاريخ البشر نفسه.

هذا وإنّي سأوضح للقارئ معالم هذه المقاصد الخمس الكبرى من
خلال ماتضمّنته صياغة الآيات التي حملتها إلينا قصّة آدم وما أحدثته بعثته من
نقلة نوعيّة في حياة سكان الكهوف، الذين كان خالقهم يكلمهم من وراء
حجاب. علماً بأنّ قصّة آدم وبعثته تعود إلى مابين ثمانية إلى عشرة آلاف من
الأعوام. وهذه المعلومة استقيتها من مصدرين معتمدين علمياً : المصدر الأول هو
التواريخ التي ذكرتها التوراة المعاصرة، وهي تحتمل الزيادة والنقصان، والمصدر
الثاني هو دليل علمي. فقد دلّت آثار البشر القديم على أن تاريخه المعروف لدى
المؤرخين يعود إلى ما قبل (٨٣٠٠) عام.

من هذا ندرك أن بعثة آدم التي أسست تاريخ الإنسان المعاصر لا بد وأن تاريخها يعود لزمن يتراوح ما بين المئتين اللتين أفادتتا بهما التوراة وهذه الآثار.

٣. قصة آدم من الزاوية الموضوعية

والآن تعالى معي أيها القارئ لتتدبر قصة آدم من المنطلقات التي ذكرناها. من مُنطلق أن آدم كان أول نبي اصطفاه الله تعالى من بين سكان الكهوف ليحدث عن طريق ما أنزل عليه ربّه عزّ وجلّ من تعاليم هذه النقلة النوعية في حياة البشر. ومن مُنطلق أن قصة آدم قد صيغت بأسلوب مجازي ولسان الحال وليس بلسان القول. ولنفقّسم مضامين آيات قصة آدم إلى مجموعات. مجموعة مايتعلّق بإبليس وأقوله بلسان حالة. ومجموعة مايتعلّق بآدم عليه السّلام. ومجموعة مايتعلّق بملائكة الله عزّ وجلّ. ومجموعة مايتعلّق بالله جلّ شأنه الذي صاغ قصة آدم هذه الصياغة البلاغية المعجزة أيضاً.

٤. أقوال إبليس بلسان حاله :

نتناول إبليس وما صدر عنه من أقوال بلسان حاله ومجازياً. فقد نقلت لنا الآية (١١) من سورة الأعراف أنه قال: ﴿قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾. ونقلت لنا سورة الحجر الآية (٣٣) قول إبليس : ﴿قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمأ مسنون﴾. وسورة الأسراء نقلت لنا في الآية (٦١) من آياتها قولاً ثالثاً لإبليس وهو : ﴿قال أسجد لمن خلقت طيناً﴾ والآية (٥٠) من سورة الكهف معلومة عبّر تعالى عنها بقوله عزّ وجلّ: ﴿إلا إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه، أفتتخذونه وذريّته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ، بئس للظالمين بدلاً﴾. أما سورة (سورة النازعات) فقد أوردت في الآية (٧٤) من آياتها قولاً رابعاً لإبليس: ﴿قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

فلو أن قصة آدم قد رواها لنا كتاب الله العزيز بلسان كل طرف من أطراف القصة، فهل يستسيغ عقل المرء أن يقول الله عزّ وجلّ بحق آدم تارة أنه خلقه من طين، وتارة أخرى أنه خلقته من صلصال من حمأ مسنون؟ وفي مجلس

واحد؟ أفلم يطالع القارئ فرق دلالة الطين عن دلالة الصلصال؟ إلا أن تكون لهاتين الجملتين لكل واحدة منهما دلالاته المتعلقة بسياق الكلام، وأنهما وردتا بأسلوبٍ مجازيٍّ ولسان حال إبليس وليس بالفاظه؟

ثم أفلم يلاحظ القارئ كيف أن إبليس الذي قال في سورة الأعراف ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ فلم لم يكررها في مقام آخر بالفاظٍ مغيرة؟

فإن نحن انطلقنا للإجابة على هذه التساؤلات من المنطلق الذي انطلق من أسلافنا فلن نعثر على إجابات صحيحة وشفافة على هذه الاعتراضات. أمّا إذا انطلقنا من المنطوقات التي ذكرناها، وهو أن هذه الأقوال أوردتها القرآن الكريم بلسان الحال وليس بلسان القول فإنها تتضح لأعيننا حقائق دللنا عليها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وجاءت التحريات العلمية تؤكد ماتضمنه كلام الله علام الغيوب.

فإبليس عندما قال بلسان حاله ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ كان القصد من ذلك التنبيه إلى طبيعة التوحّش الناريّة التي كان يحياها سكان الكهوف ماقبل التاريخ أي زمن بعثة آدم عليه السلام. فقد كان الواحد من البشر ناريّ الطبيعة بسبب توحّشه وخلوّه من التهذيب والتحضّر ويتصرّف بردود الفعل. ولم تكن تصطبغ تصبغات عقلانية أو تهذيب. فجملة ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ وردت ليس على سبيل الحقيقة من أن إبليس كان مخلوقاً نارياً كما يتبادر لذهن السامع لأوّل وهلة. بل وردت جملة (خلقتني من نار) بمعنى مجازي. بدليل أن الله تعالى قال بحق آدم ﴿إِنِّي خَالِقُ بَشَرٍ﴾ أي إنني خالق إنساناً أقرب إلى حالة التوحّش منه إلى حالة التهذيب والإنسانية وهو بحاجة إلى تسوية طبعه وسلوكه.

وقد قال تعالى من جهة أخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ فالخلق هنا بمعنى التقدير والاصطفاء ذلك أن القرآن يفسّر بعضه بعضاً. أي أن الله تعالى اصطفى بشراً من بين سكان الكهف الذي كان قاطنوه ذوو طبيعة نارية أبعد ماتكون عن التهذيب والعقلانية. وكان القصد من اصطفاء الله هذا البشر، آدم، لتسوية طبعه عن طريق توجّه تجلّيات وتمثلات أسماء الله الحسنى إليه من وراء حجاب. فإذا جاء آدم على قدر يريد الله تحقيقه، على شاكله ماخاطب به موسى وقال ﴿الآن جئت على قدرٍ يا موسى﴾، إذا بلغ آدم مرحلة التسوية هذه

ينفخ فيه من روحه أي من تعاليمه الروحية والأخلاقية، ليكون طليعه تهذيب البشر من حوله، ليمتازوا بذلك عن الأنعام من حولهم أيضاً.

فجملة ﴿خلقتني من نار﴾ تحمل حقيقة أثبت صحتها ماكشف عنه علم المستحاثات بما يتعلق بالبشر ما قبل التاريخ. فلفظ ﴿من نار﴾ استعمل هنا بدلالته المجازية، وليس بدلالته الحقيقية، فللنار خاصية التمرد والإتلاف، ولا تستعمل بمعنى البناء والإعمار. وقد كان القصد من بعث آدم بعد تسوية طبيعته، أن يصبح أسوة عملية للبناء والإعمار، بعد أن كانت طبيعته شأنها التمرد والإتلاف. أي أنّ الله عزوجل أراد أن يفجر طاقات البشر العقلية والعضلية بهذا الإتجاه الذي ينقله نقلة نوعية فيهدبه ويؤنسه أي ينقله من بشر إلى إنسان. فهذا هو المقصد الإلهي الذي استنبطته من قول إبليس ولسان حاله ﴿خلقتني من نار﴾.

فلقد ثبت علمياً أن عقل الإنسان ويداه تحمل من الطاقات ما يستحيل تفجير هذه الطاقات في زمن واحد. بل لابد من تمرير عقل الإنسان ويداه من خلال أدوار كثيرة تتطلب ملايين السنوات. فالإنسان بالرغم من بلوغه في زماننا هذا المستوى من الرقي العلمي فقد ثبت علمياً أنه لا يستعمل من طاقاته العقلية إلا اليسير. هذا وإن قصة آدم، ولسان حال إبليس ﴿خلقتني من نار﴾ تبّهت إلى هذه الحقيقة التي كشف عنها العلم وتشير في الوقت نفسه إلى أنّ الله عزوجل هو الذي بعث آدم لينقل البشر عن طريق ما أنزل عليه من تعاليم نقلة نوعية من حالته النارية إلى حالة طينية. فالبشر قبل آدم احتاج إلى ملايين السنوات ليكمل نمو طاقاته العقلية والعضلية. فلم بلغ حالة النضج المطلوبة بعث الله تعالى آدم واصطفاه من بين البشر ليقوم بإحداث طور جديد في حياة هذا البشر.

فهذا هو أحد المقاصد الكبرى الخمسة المرجوة من صياغة قصة آدم ولسان الحال وبأسلوب مجازي. والله علام الغيوب شاء بذلك أن ينبّه أذهان علماء القرن العشرين إلى الجواب الشافي على سؤالهم الذي مافتوا يطرحونه في مؤلفاتهم. وهو : كيف تم انتقال البشر من حالة التوحش إلى سن الرشد؟ ذلك أنّ علماء أوربة المعاصرين طرحوا هذا السؤال وحاولوا الإجابة عليه ضمن عشرات مؤلفاتهم. فهم قد وضعوا نظريات ونظريات للإجابة على السؤال المذكور. لكن آيا من هؤلاء العلماء لم يستطع أن يجزم بجواب تركن إليه العقول

وتطمئن إليه الأئمة. لماذا؟ السبب في ذلك أنهم يفكرون في هذا المجال الغيبي بأسلوب بتفكير مادي محض. حاذفين من معادلاتهم وجود الخالق، وموضوع اتصاله بمخلوقه البشر في مختلف أدوار حياته ومن منطلق أنه الخالق ورب العالمين. على حين أن قصة آدم القرآنية المصاغة مجازياً وبلسان الحال قد أجابتهم إجابة قاطعة الدلالة على هذا السؤال الذي طالما شغل أذهان هؤلاء العلماء.

فإبليس في هذه القصة يرمز إلى الإنسان غير المهذب بتهذيب سماوي. وإذا عمل هذا الإنسان فكره، فهو يفكر بأسلوب مادي محض لا يخالطه أي عنصر روحي مستقى من تعليم سماوي. أما شخصية آدم عليه السلام في هذه القصة فترمز إلى الإنسان المهذب بتهذيب سماوي. هذا الإنسان الذي إذا عمل فكره، فهو يفكر بأسلوب روحاني يخالطه ما استقاه هذا الإنسان من تعاليم الدين السماوي. أي أنه يفكر على أساس معتقداته الإيمانية ومطلقاتها النظرية.

فالمسلم على سبيل المثال، إن فكر في أمر تكوين أي شيء من الأشياء، يدقق نظره في تكوينه هذا الشيء من منطلق إيمانه بوجود خالق هذا الشيء، وأنه لابد أن يكون الله تعالى قد خلق هذا الشيء لمقصد معلوم، ومثل هذا المسلم بإمكاننا أن ندعي أنه يفكر بتفكير روحاني، وأنه مهذب بتهذيب سماوي.

أي أن الذي يفكر مادياً ينظر إلى الأشياء بظواهرها. على عكس الذي يفكر تفكيراً روحانياً لا يقع في هذا المطب الموحل. ويكون منطلق تفكيره أعمق من ذاك الإنسان بكثير. هذا وقد حذرنا الله عز وجل في سورة الكهف الآية (٥٠) من أصحاب التفكير المادي، وهم إبليس وذريته، ومن تولاهم من البشر، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي، وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. فإلى الله عز وجل نبيه أولاً إلى أن إبليس كان من الجن أي كان من سكان الكهوف وكان في حالة غريزية أقرب إلى التوحش. ونبيه ثانياً إلى أن إبليس فسق عن أمر ربّه واستحق بذلك لعنته، بسبب تجاهله وجود ربّه وتجاهل المقصد من وجود نفسه فلم يتهدّب بالتهذيب الذي بعث الله آدم ليهذبه به وينقله طوراً نحو أنستته. ثالثاً — وحذر الله تعالى الذين آمنوا بآدم ومن سار على خطاهم من بعدهم من بني آدم، أي حذر الله تعالى أبناء آدم الروحانيين تجنب الخط المادي الذي اختطه إبليس وذريته كأسلوب

لتفكيرهم، فلا ينبغي لهم أن يتخذونهم أولياء من دون الله عزوجل، بل إن من واجبهم أن يكون جُل همهم أن يتولاهم الله تعالى بعنايته. كما نبه الله تعالى أذهان بني آدم إلى العداوة الفكرية المستأصلة ما بينهم وبين ذريته إبليس وذريته غير المهذّبين بتهذيب سماوي، فهم لهم عدو.

وقد نبّه جل شأنه من جهة خامسة إلى أن المؤمن الذي يستبدل توحيد الله تعالى بالشرك به والجحود بوجوده ويسير على خطى إبليس وذريته، أن الذي يفعل ذلك يظلم نفسه وبمس للظالمين بدلاً.

إنّ هذا الصراع الفكري المتأني عن هذين الأسلوبين المختلفين في التفكير المادي منهما والروحاني والذي أشارت إليه قصّة آدم، يعني بألفاظ أخرى أنّه لولا اتصال الله بمخلوقاته البشر وتدخّله في شؤونهم منذ ابتداء تاريخ هذا البشر، لظلّ الناس أمة واحدة لا يلوون على شيء. وهو الأمر الذي أشارت إليه الآيات (٢١٢ - ٢١٣) من سورة البقرة التي قال تعالى فيها: ﴿رَبِّينَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ لِإِذْنِهِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وهذا الصراع الفكري الذي نشأ عن بعثة آدم كأوّل نبي أشارت إليه الألفاظ التي نطق بها إبليس بلسان حاله، ففي سورة الإسراء قال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ، لَنْ أَخُوّنَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَكِنَ ذَرْيَتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾. فألفاظه ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أي هذا الذي عظّمته ونزّهته (محيط المحيط) ولفظ (كَرَّمْتَ) هذا كرّره تعالى في نفس سورة الإسراء بعده بعدّه آيات وقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ..﴾ أي عظّمناهم عمّا وقع فيه إبليس وذريته، فلم يقل تعالى هنا (ولق كَرَّمْنَا البشر) أو الإنسان بل كَرَّمْنَا بني آدم. وحكمة ذلك واضحة الدلالة.

أقول إنّ بروز هذين النمطين من التفكير ومالحق ذلك من صراع بين ذرية آدم وذريته إبليس مرجعه إلى أن آدم وذريته هذّيبهم الله تعالى بما أنزله عليهم

من تعاليم كرمّتهم على الذين رفضوا هذا التّهذيب السماوي الصّبيغة فعظّمّتهم ونزّهتهم عمّا وقع فيه إبليس مرجعه إلى أنّ آدم وذريّته هذّيبهم الله تعالى بما أنزله عليهم من تعاليم كرمّتهم على الذين رفضوا هذا التّهذيب السماوي الصّبيغة فعظّمّتهم ونزّهتهم عمّا وقع فيه إبليس وذريّته من سقطاتٍ في مُستنقع الشرك والجنود بوجود الله عز وجلّ.

٥- الفرق ما بين مفهومي الحضارة والتّهذيب موضوعياً :

وأرى من المناسب في هذا المقام أن أعمد إلى إعطاء القارئ مايساعده على التّمييز بين مفهوم التّهذيب، وبين مفهوم الحضارة والمدينة. وليتمكّن من إدراك معالم النقلة النوعية التي أحدثتها بعثة آدم في حياة البشر في نهاية الفترة التي كان البشر خلالها يقطنون الكهوف والمغاور ويتخذون ما بين أعضان الأشجار الضخمة مأوى لهم من هجمات الوحوش الكاسرة آنذاك.

فإن أحبّ القارئ تمكّينه من هذا التفريق ما بين مُهذّب ومتحضّر. فما عليه إلّا أن يتأمل مايجري من حوله في عصرنا هذا، وماتنقله إليه وسائل الإعلام من أمور. أفلا تصل إلى مسامعه اصطلاحات عديدة فيقولون أوربا شعوبها متحضّرة، أما شعوب آسيا وأفريقيا فشعوبها متخلّفة؟ وتسعى للحاق بركب حضارة الغرب. وأنت تسمع من جهة ثانية أنّ أكثر أنظمة دول الغرب قد تبنّت العلمانية منهجاً وتركت أمر الدين للإنسان بصفته الشخصية. أي أنّ أوربه وأمريكا لاترتبط حضارتهما بالمسيح ابن مريم إلّا بالإسم، وإن تعاليم المسيح منهم بُراء لذلك أطلقت أحاديث محمد رسول الله (ﷺ) عليهم اسم المسيح الدّجال. فهم يدعّون في كنائسهم بالدّعاء الذي علّمهم إياه المسيح: (أبانا الذي في السماوات آتنا كفافنا..). فلما ترقب مايسعون إليه تلاحظ أنهم يجعلون همّهم تكديس الأموال وأن يصبحوا يملكون ملايين الملايين من الدولارات.

فما هي دعائم هذه الحضارة المعاصرة؟ تقوم حضارة الغرب على العمل ووحداته ومقاييسه، وعلى ماينتج عن ذلك من كشوفٍ وإيجاداتٍ ومخترعات ووسائل تسهّل على الناس أعمالهم وهم يتقدّمون على طريق تفكيرٍ ماديٍّ محض،

ودعم نظام رأسمالي. فحضارة الغرب إذن جلّ همّها الانتاج ومقداره ووفرته. وما يلحق به من تطوير أدوات النقل من سيارات إلى قطارات إلى مركب بحارية وطائرات..

كما اعتمدت حضارة الغرب هذه نظاماً مالياً يساعد على تداول أموال الأفراد فيما بينهم داخل البلد الذي يقطنونه وخارجه. إلى جانب أنّ حضارة الغرب هذه قد سنت دساتير تحمي أنظمتها وقوانين تنظّم وحدة العمل ووسائل الإنتاج وأطره وأدواته، وحرفه وصناعاته، دون الرجوع في ذلك كلّه إلى تعاليم سماويّ محدّد. وركّزت هذه القوانين على حماية مؤسسات البحث العلمية لترقية العلوم الطبيعيّة في حقل المادّيات، وليس من مُنطلق تفكير روحاني. وقد أنشأت حضارة الغرب جيوشاً سلّحتها بأبشع الأسلحة الفتاكة، وأنظمة أمن لا تتقيّد بمعايير أخلاقية سماوية كل ذلك لتأمين حالة الاستقرار في نطاق حدودها، ولتزيد في رفاهيّة شعوبها، حاذفة من معادلاتها الحضارية أيّ تهذيب سماوي. لذلك لا يلاحظ المتجول في ربوع الدّول الغربية أيّة دلائل تشير إلى أن الشعوب الغربية قد أدركت المقصد من وجودها على سطح هذا الكوكب الأرضي. فحياة حضارة الغرب مجرد لعب ولهو وتفاخر وزينة وتفكير بأسلوب مادّي محض. ألا إنّ مثل هذه الحضارة لاعلاقة لها بمفهوم التهذيب الذي أوردناه. فالغرب متحضّر لكنه غير مهذب بتعاليم أنزلها رب العالمين. خصوصاً وأنّ كلمة حضارة هي مصدر تعني الإقامة في المدن وليس في البادية. بعكس البدويّ يعيش في البادية حياة ترحال. (محيط المحيط). فالإنسان المتحضّر من حيث دلالاته اللغويّة هو الإنسان المستقرّ في المدن والريف، والمتقدّم على البدويّ في مجالات مسكنه ومأكله ومشربه ووحدة عمله ووسائل إنتاجه وتنقله ونظامه المالي والسياسي وسواه من الأنظمة. وبهذه المعايير يُقاس تحضّر شعب من الشعوب أو تخلفه في مجالات الصناعة والزراعة والعلوم والمنتجات الاستهلاكية. وهذا كلّه لا يدخل أصلاً في مفهوم التهذيب الذي أوردناه.

فالتهذيب لغة مشتقّ من هذب الشجر قطعه ونقّاه وأصلح أغصانه (محيط المحيط). فالتهذيب هو عمليّة تشذيب وتسوية للقوى النفسيّة التي تحملها الفطرة البشرية. هذه الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها بغضّ النظر عن ألوانهم وجنسياتهم ولغاتهم وقومياتهم. علماً بأنّ ماهيّة هذه الفطرة البشرية من

ماهيّة لانعلمها إلا بآثارها. كالمغناطيس لايعرف إلا بالأثر الذي يتركه على برادة الحديد من حوله. وهذه الحقيقة تؤكد لنا أنّ مهمة اصلاح نفس الإنسان وتطويره يستحيل أن يؤدي حقّها إلا الله خالق هذه الفطرة البشرية. فإن أهملنا مازودنا الله الخالق به من تعاليم على هذا الصعيد، ورُحنا نفكر بتفكير ماديّ محض، ونعزل عن هذه التعاليم السماوية. فلا نبلغ مرتبة التهذيب النفسي الذي يقوم به وحي السماء.

فمفهوم التهذيب الذي ذكرناه، هو عملية إصلاح للنفس البشرية وتفجير لطاقت الإنسان العقلية والعضلية عن طريق هذه التعاليم السماوية التي احتُمت بهذا الكتاب السماوي الذي وُصف بأنه قرآن وفرقان. وبالتعاليم الأولى التي أنزلت من قِبَلِ الله عزوجلّ على آدم عليه السلام. أيّ أنّ الحضارة بغير تهذيب هي بمثابة جسد بلاروح. وهل يغني جسدٌ أوتي بسطةً وجمالاً، إذا فارق روحه؟ فهذا هو حال الحضارة الغربية المعاصرة جسد بلا روح، تبهر بما أنتجته الأَبصار، لكنّ ذلك كلّهُ مجرداً عن روح التهذيب بتعاليم أنزلها البارئ عزوجلّ. لذلك راح العالم يئنّ من وطأة ما أنتجته حضارة الغرب. فلا عدالة ولا كَيْل بمكيال واحد ولا احترام لمشاعر الآخرين.

أما التهذيب والحال هذه فهو مجموعة الأفكار والتصورات والأخلاقيات والروحانيات التي أتى بها دينٌ سماويّ. وبإمكان حامل هذا التهذيب أن يؤسّس على قاعدته الفكرية حضارةً تصبح مضرب الأمثال.

ألا إنّ الإنسان البدويّ الذي يعيش متنقلاً من مكان إلى مكان في البادية. هذا البدويّ الذي ينتقل حذاءً صنّعه يده من جلود مَاشيته. والذي يرتدي رداءً خَشِيناً غير مراعى فيه ماتأني به أزياء المناطق المتحضرة. إنّ هذا الإنسان الذي سُميه بدويّاً نسبةً إلى حياة البداوة الصحراوية. فلو استجاب هذا البدويّ للتعاليم والأفكار التي يزودها به كتاب الله الفرقان، وسعى سعيه لعرفان ربّه وللغُز. بمحبته وقربه ورضوانه واتّصف بمكارم الأخلاق.

فهذا البدويّ في مفهومنا مهذبٌ لكنّه غير متحضّر. أيّ أنه روح ينقصه جسد. والذي طالع تاريخ بعثة محمد (ﷺ) لابدّ أن يكون قد أدرك أنّ محمّداً عليه الصلاة والسلام هذب أمّته الأميّة بتهذيب تعاليم ماأنزله الله تعالى عليه من

وحى سماوي. فشكّل بذلك قوّة لم تصمد في وجهها حضارتا فارس وروما العظمتين. ذلك أنّ الرّوح أقوى من الجسد ولاقيمة لجسد بدون روح. ويكون الانتصار والغلبة دوماً لديناميكية الحركة التطويرية التي يقوم بها التعليم السماوي على مدى الدهر.

فالمهمة الأساسية لبعثة الأنبياء والمرسلين ومما يُنزلُ الله تعالى عليهم من تعاليم سماوية، هو قيامهم بتهديب النفس البشرية وتزكيتها وتفجير طاقاتها العقلية والعضلية بما يتناسب والطّور الذي بلغه الإنسان في زمن من تاريخه الطويل. فإن انطلقنا ننظر إلى مجاء به آدم وماقصده قصّة المجازية من مقاصد عظيمة، وإلى النقلة النوعية التي شاء لخالت إحدائها في حياة البشر الأقرب إلى التوحش والذي كان يقطن المغاور والكهوف. إن نحن نظرنا بهذا المنظار إلى قصّة آدم يعود بإمكاننا إدراك أبعاد النقلة النوعية التي أحدثتها بعثة خاتم النبيين في حياة العرب الأميين.

فبعثة محمد (ﷺ) وإنزال تعاليم القرآن الكريم حوّلت أنظار الإنسانية ودفعها دفعاً لتبيين أنموذج الإنسان الكامل التهذيب، والذي أضحى رحمةً للعالمين، والذي فجر طاقات أمتنا العربية العقلية منها والعضلية في صدر الإسلام وعلى صورة أدهشت الباحثين والمفكرين والمؤرخين.

لذلك لا ينبغي لقارئ قصّة آدم القرآنية أن يدهش لسماع إبليس يقول بلسان حاله : ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ وقوله بحق آدم ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾. فقد صيغت هذه الأقوال بدلالاتها المجازية وبلسان الحال، وليس بلسان القول، هذه الصياغة لتعطي المفكر الباحث درساً بالغ الأهمية تختفي وراء أحد المقاصد العظيمة الخمسة المرجوة من قصّة آدم عليه السّلام المُصاغه مجازياً وبلسان الحال. ويتلخّص هذا الدرس في أنّ تفجير طاقات الإنسان العقلية والعضلية مهمّة مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالتهذيب الذي تأتي به التعاليم السّماوية. هذا وإنّ كلّ خطوة على الدّرب الذي تأتي به التعاليم السّماوية. هذا وإنّ كلّ خطوة على هذا الدّرب لم تستند إلى دعامة هذا التهذيب، تنقلب في نهاية المطاف وبالأبلى وبلاءً على أصحابها، فهذا ماأيده منطق تاريخ الحضارات السّالفة كما هو ثابت في كتب التاريخ، فالتفكير المادّي المحض يفيد في تفجير طاقات عقلية وعضلية، ويساعد على تأسيس حضارة، لكنّ شيعاً من ذلك لن يدوم بل لابدّ أن يؤول

الأمر أخيراً إلى الدمار والزوال لتصادم تلك العملية مع القانون القديري. فهذه هي خلاصة موضوع المقصد الأول العظيم من قصة آدم عليه السلام.

٦. المقصد الثاني الكبير لقصة آدم :

أما المقصد الثاني الكبير الذي ابتغاه الله جل شأنه من وراء صياغته قصة آدم عليه السلام هذه الصياغة الجازية وبلسان الحال. فهو تنبيه عقل الإنسان إلى أن الله الذي خلقه، لم يخلقه مُسيّراً، بل خلقه حُرّاً والإرادة والتفكير والتصرف والسلوك. وهذا المقصد الكبير الثاني دللنا عليه أقوال إبليس بلسان حاله في ثلاث سور هي الحجر والأعراف وسورة (سورة). فإبليس ورد قوله في هذه السور: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُعْثُونَ﴾. وكان جواب الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ وفي سورتَي الحجر و (سورة): ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾. والذي فهمه أسلافنا من العلماء والمفسرين لهذه الأقوال هو أن إبليس استمهل ربّه، فأمهله إلى يوم الدين. والحقيقة تختلف عمّا تبادر لأذهان أئلك العلماء والمفسرين.

فإبليس طالب بفسحة تأمل وتجربة على أساس تفكير مادي محض. والله عز وجلّ نبّه ذهنه إلى أنه جلّ شأنه لا يُكره أحداً في الدين. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وحذّره في الوقت نفسه من عاقبة اللعنة التي تحلّ بالذي يختطّ خطّ تفكير ماديّ بمعزل عن تهذيب تعاليم الدين.

إنّ لفظ أنظرني اشتق من نظر بمعنى أبصر وتأمل بعينه. وعليه فمعنى (أنظرني) أي افسح لي مجال التبصّر والتأمّل الشّخصي، وبأسلوب المادي لا تأخذ قرار المستقل عن قرار آدم الذي قبل أن تحدّ تعاليمك من حريته، فأنظر بالتالي وأوازن بين ماحققه آدم وماأحققه أنا شخصياً في مضمار التّقدم وتفجير طاقاتي العقلية والعضلية. وأفلا نلاحظ أنّ مفعول (أنظرني) هو كيان إبليس الحيّ؟ فلو قلت : أنظرني دَيْنَكَ. فالدين مادة، والمقصود حينئذٍ يكون طلب الإمهال مدّة من الزّمان. أمّا وقد كان مفعول (أنظرني) هو إبليس نفسه وهو كائن حيّ، فلا يكون المراد في أنظرني إلا طلب السّماح بالتّبصر والتأمّل بأسلوب تفكير ماديّ وليس بأسلوب تفكير روحاني، ومن منطلق قول إبليس من قبل : ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ أي خلقتني من طبيعة حرّة لا ترضخ للقيود.

ثم إنَّ جواب الله تعالى يؤيد هذا المعنى الذي ذهبنا إليه. فإِنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ولم يقل "أمهلتك". فمن هم (الْمُنْظَرِينَ)؟ ولماذا عرَّف الله تعالى لفظ (الْمُنْظَرِينَ) بالألف واللام؟ فهذا سؤال وجيه لا بدَّ من الإجابة عليه.

ففي نظري أَنَّ صيغة ﴿مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ قُصِدَ بِهَا النَّاسُ كَافَّةً. أي أَنَّهُ تعالى أَيْدَ قول إبليس من أَنَّ الإنسان خُلِقَ حُرّاً الإرادة والتفكير والسلوك. فإلْبَشَر جميعهم مِنَ الْمُنْظَرِينَ، أي مفسومح لهم بِمَجَالِ التَّبَصُّرِ والتأمل إتخاذ القرار الشَّخْصِي فهذه الصَّيْغَةُ المَثَلَةُ في طلب إبليس وفي جواب الله عليه هي صيغٌ مجازيَّةٌ وبلسان الحال، وتقرِّر حقيقةً أساسيةً وهي أَنَّ الإنسان خلقه الله رَبَّهُ عزوجلَّ حُرّاً غير مُسَيَّرٍ في نطاق تفكيره وسلوكه، وليس خارج هذا النطاق، فهذا هو المقصد الثاني المتبقي تلقين أذهاننا درسه العظيم. وهو يفسِّر قوله تعالى في سورة الدهر ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَطْفَةٍ أَشَاجٍ نَبْتِهَا﴾ أي خلقناه حُرّاً نمتحنه ليتأمل ويتبصر ويتخذ القرار.

بهذه المعاني يستقيم تسلسل آيات قصَّة آدم الموضوعية، وليس بالمعاني التي ذَهَبَتْ إليها أفكار المفسرين القدماء. وأيَّ داع يدفع إبليس ليطلب من رَبِّهِ أن يمهلَه إلى يوم الدين؟ فسباق طلب إبليس لم يشتمل على تهديدٍ إِيَّاهُ بعذابٍ محدَّد الأبعاد. بل إِنَّ كُلَّ ما قاله جل شأنه بلسان الحال والقرار في سورة الأعراف : ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ وفي سورة (النَّازِعَاتِ) : ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَنِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾. فهو تعالى استعمل في هاتين الآيتين لفظين متقاربي المعاني والدلالات. فكلمة ﴿مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي من المُهَانِينَ الرَّاغِبِينَ بالذل. فهي اشتقت من صَغُرَ أي هَانَ ورَضِيَ بالذلِّ. ثم إن كلمة ﴿عَلَيْكَ لعَنِي﴾ أي تُحْرَم من الخير وتُخْزَى وتُسَبَّ وتُحْتَقَر. فاللعنة اشتقت من لعنة أي حرمة من الخير وأخزاه وسبَّه واحتقره (محيط المحيط). هذا وإنَّ مُؤدَّى هذين اللفظين واحد على حسب ملاحظناه. ولا تحمل هذه المعاني أيَّ تهديدٍ بضربٍ أو إحراقٍ بنار. وإلى جانب ذلك فالله تعالى قال ﴿عَلَيْكَ لعَنِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي لَا أَهْدُكَ بِأَيِّ عَذَابٍ مَادِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

ومادام الأمر كذلك فلم يكن هناك أي داعٍ موضوعي يدعو إبليس ليمهل من ربه إنزال عذابه عليه. وهذه الحقيقة تشكّل في حدّ ذاتها قرينة تؤيد مذهبنا إليه من معني، وتردّ مذهب إليه ذهن المفسرين القدماء.

والصَّغَارُ واللَّعْنَةُ بالمعاني التي أوردها صاحب محيط المخطوط أعلاه. تنطبق على عاقبة كل من يسير على خطى إبليس وينتهج لنفسه خطّ التفكير بأسلوب مادّي محض. بعيداً عن مخالطته بأيّ عنصر روحيّ تضمنته تعاليم أي دين سماوي. وهذه الحقيقة أيّدها أحداث التاريخ. فقد ذلّ وهان وخزى واحتقر وحُرم من الخير كلّ من انتهج في تاريخ الإنسانية هذا النهج من التفكير المادّي فرداً كان أو جماعة من الجماعات. فأين فرعون والمصير الذي آل إليه؟ وأين أبو جهل ومصيره المشؤوم؟

فلو كان إبليس قد طلب من ربه تأجيل لعنته إياه. لكان لا يحقّ لإحدى من المؤمنين شتم إبليس وذريته أو سبه واحتقاره والدعاء عليه بحرمانه من الخير. على حين أنّ المعاني التي ذهبت إليها، تبقى لحاق الصَّغَارُ واللَّعْنَةُ بإبليس وذريته. وهكذا يتضح لأعيننا هذا المقصد الثاني العظيم الذي قصده الله جلّ شأنه من خلال صياغته جلّ شأنه أقوال إبليس والتعقيب عليها بصياغة مجازية وبلسان الحال، وهو التذكير بأنّ الله عز وجلّ خلق الإنسان حرّاً مُخَيَّراً على التفكير بأسلوب روحيّ إن كان يتغى أن يؤتّى في الآخرة كتابه يمينه، ونهاه وحذّره من التفكير بأسلوب مادّي محض وإلاّ فسيعود صاغراً تحلّ عليه لعنة خالقه، ويوم القيامة يؤتى كتابه بشماله أيضاً ويحيا هنا أعمى تتناوشه نيران الندامة والعذاب.

٧. المقصد الثالث لقصة آدم :

والمقصد الثالث العظيم الذي ابتغاه الله جلّ شأنه من وراء صياغته قصة آدم بأسلوب مجازي وبلسان الحال، هو تنبيه عقول المؤمنين وتحذيرهم أينما كانوا وفي أيّ زمان تواجدوا، من خطر اقتفاء خطى إبليس وذريته وأسلوبه الحيثي ونهج تفكيره المادّي. فإن فعلوا ذلك يصدّقون ظنّه بصورة عملية ويخسرون قرب ربّهم ورضوانه.

فالمعلوم أنه كلما بعث الله رسولا ليُطَوِّر عن طريقه عباده وينقلهم إلى طور جديد، ينقسم الناس أيام بعثة هذا الرسول إلى فريق مؤمن وفريق كافر. والذي يتدبّر كتاب الله العزيز يُلاحظ أن الله تعالى اصطلح للفريق المؤمن خطاب (يا بني آدم). والمقصود بهذا الخطاب كل مؤمن يتبّع خطوات آدم ومساره الروحاني. فيلبي الصّوت السّمائي الذي يرفعه كل نبي مُرسل من عند الله عز وجلّ، وبطبيعة طينية بعيدة عن الفسوق والعصيان. كما أنّ هذا المتدبّر لكتاب الله تعالى يُلاحظ أنه جل شأنه قد اصطلح للفريق الكافر الذي يسير على خطى إبليس ويقيظ ممّا نزل من السّماء من تعاليم رحمة، اصطلح له خطاب (ذرية إبليس). هذا الفريق الذي حدّرنا جل شأنه منهم في الآية (٥٠) من سورة الكهف إذ قال : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ أَمْرَ رَبِّهِ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ، بئس للظّالّمين بدلًا.﴾

ولابدّ للعاقل وقد قرأ هذا التحذير الوارد في سورة الكهف، من أن يتساءل عن أهميته، فيتساءل في الوقت نفسه عن معالم مسار إبليس وذريته أيضاً.

هذا وإنّ الذي يتدبر تهديدات إبليس وتوعّداته المُعبر عنها بلسان حاله وبأسلوب مجازي في قصّة آدم هذه . لابدّ أن يدرك من خلال تلك التهديدات والتوعّدات أهمية هذا التحذير الإلهي . فيتبيّن بالتالي معالم المسار الإبليسي الذي سيختاره كلّ إنسان يكفرُ مهمّة داعي السماء قانطاً من رحمة ربّه عزّ وجلّ . لذلك أجدني مضطراً لاستعراض ما أوردته قصّة آدم من تهديدات وتوعّدات وردت في مختلف المقامات من سور القرآن الكريم. ومذكراً القارئ في الوقت نفسه بالكلمة التي تفوّه بها إبليس بلسان حاله وهي ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. فكلمة أنظرني هذه قصد بها طلب إمهاله للتأمل ويتبصّر بحريّة تامين وبأسلوب تفكير مادّي محض ، مجرداً عن كلّ تعليم روحي .

فقد أوردت سورة البقرة القول : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا، فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾. فصورّ تعالى بذلك مايفعله الفريق الكافر زمن بعثة كلّ مُرسلٍ من عند الله تعالى.

وهذا الإجمال أورده سورة (ص) بالفاظٍ أخرى مختلفة حيث نقلت قول إبليس ولسان حاله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾. أي أنّ إبليس قد هدّد أن ينقلب نفسه إلى شيطانٍ يزلّ أقدام كلّ مؤمن يستجيب لأيّ صوتٍ سماوي.

وقد راحت الآيات من سورة الأعراف تُلفت نظر المؤمن وتنبّه ذهنه إلى الشّعار الذي سرفعه إبليس وذريّته حين ينقلبون إلى شياطين يعادون الفريق المؤمن كلّ حين. فشعار هؤلاء سيكون "الغاية تبرّر الوسيلة والواسطة" أي أنّهم لن يتورعوا عن اللّجوء لأيّة وسيلة تمكّنهم من زلزلة أقدام المؤمنين عن صراط الله المستقيم. هذه الحقيقة جاء التعبير عنها بلسان حال إبليس متوعّداً في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَ الْمُسْتَقِيمِ. ثُمَّ لَا يَأْتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

أما في سورة (طه) فقد نُبّهت بما نقلته بلسان حال إبليس من تهديدات وتوعّادات، أنّ إبليس وذريّته سيعمدون إلى الطروحات الفكرية الفلسفية يُوسوسون بها في صدور المؤمنين، موهمين أيّاهم أنّ طرحهم الفكري أهمّ ممّا طرحه تعاليم الدّين المستندة إلى أساس روحاني. وهذه الحقيقة أوردها الآيات من سورة (طه) ولسان حال إبليس ومُنقلباً إلى صفة شيطان : ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَلْفُي. فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْضَعَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى. قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

وراحت قصّة آدم المجازية فوضّحت للمؤمنين أمراً هاماً في سورة الحجر. وهو أنّ كلّ حضارة مادّية يُقيمها إبليس وذريّته من بعده وعلى أساس من فكر مادي خالٍ من التهذيب السّماوي. ستكون أشياء تلك الحضارات جذابة في ظواهرها، تزيّن للمؤمنين فوقيّتها وضرورة الأخذ بها متناسين مايكمن وراء ذلك من سموم قتالة مهلكة لهؤلاء المؤمنين. وهذا الأمر الهام الذي أورده الآيات من سورة الحجر بلسان حال إبليس : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾.

أمّا قصّة آدم المجازية الواردة في سورة الإسراء. فقد نبّهت إلى ضرورة عدم الاستهانة بتهديدات إبليس وتوعّداته. فذريّته ستبلغ حدّاً مُرعباً من الرقيّ المادّي يلفت إليها الأنظار : عدداً وعدّداً، بحيث تعود تشارك ذريّة آدم في الأموال والأولاد. وقد نبّهت الآيات من سورة الإسراء إلى أنّ هذا كلّه سيكون من عمل ذريّة إبليس مُنقلبةً إلى شياطين مغرورة ومُستكبرة ولا تفني بالوعود. وهذه الحقيقة وردت بلسان حال إبليس في سورة الإسراء قوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْت عَلَيَّ، لئنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً. قَالَ إِذْهَبْ فَمَنْ تَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ مَوْفُوراً. وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ مِنْ أَسْأَلْتَهُمْ بِصُوتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجَلَكَ وَشَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتَهُمْ، وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً.﴾

فهذا هو ما أجمَلته هذه السور القرآنية وماتضمّنته من حقائق احتوتها قصّة آدم المجازية وبلسان حال إبليس. وسأعمد الآن إلى تفصيل ما أوردته مُجَمّلاً، ومن خلال ما أوردته سُور البقرة و (ص) والأعراف وطه والحجر والإسراء. من أقوال. وسيرى القارئ كيف أنّ أقوال إبليس هذه نبّهت إلى المقصد الثالث العظيم من إيراد قصّة آدم بلسان المجاز. وهو تحذير المؤمنين في كل زمان ومكان إلى أنّ ذريّة إبليس سيكونوا دوماً المتسببين بالشّرور في أنحاء المعمورة، وسيكونون على الدوام سبباً رئيساً يُضِلُّ الناس المؤمنين ويعدّهم عن توحيد ربّهم وعن صراطه المستقيم.

أتناول ما أوردته سورة البقرة حيث قال تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ.﴾. ولفظ الشيطان هنا اسم وصفيّ ثانٍ لإبليس. فالذي يُبلس أي يقنط من رحمة ربّه ويكفر، إذا أقدم على مقاومة الشّيء الذي كفر به وقنط من خيره، يستحق وصفه بالشيطان من شاط أي احترق. إشارة إلى أنّ الذي يعادي رُسُل الله تعالى يكون مصيره إلى النَّار في نهاية المطاف.

ولنلاحظ أنّ الله عزوجلّ أجمل ما أقدم عليه إبليس وماسعى إليه وهو حرف آدم عن صراط ربّه، وذلك من خلال لفظ (فَأَزَلَّهُمَا). فمعنى أزله أماله عن خطّه الذي يسير عليه.

فلم يقل جل شأنه دفعهما إلى معصية أمر ربهما. لأنّ فعل (فأزلهما) يحمل دلالات أوسع من ذلك بكثير. وكأنه جلّ شأنه نُبّه أذهان المؤمنين عن طريق ما أجمله إلى أنّ الفريق الكافر والذي يفكر بتفكير ماديّ بحث يسعى دوماً لإمالة المؤمنين الذين يفكرون بتفكير روحاني، إمالتهم عن صراط ربّهم المستقيم. وبهذا الإجمال يكون الله عز وجلّ قد نُبّه إلى المقصد الثالث العظيم الذي صاغ قصّة آدم من أجل لفت أنظار المؤمنين إليه.

ولقد سبق هذا الإجمال المتعلّق بالغاية القصوى التي يسعى إبليس وذريّته إلى تحقيقها. سبقه إجمال آخر. فقد ورد قبل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

فقد نُبّهت ألفاظ هذه الآية الكريمة إلى أنّ الأصل هو إباحة تناول كلّ شيء من أشياء هذه الكرة الأرضية. وأنّ نسبة المحرّمات منها نسبة ضئيلة تكاد لا تذكر أي نسبة شجرة واحدة إلى ما في هذه الجنة من أشجار. ولم يكن المقصد من هذا التحريم إلّا فائدة الإنسان نفسه. وأنّ إبليس سيركّز على إمالة المؤمنين لتناول هذه المحرّمات وعدم التزامهم بما نهوا عنه. وأنا حين قلت إنّ المقصد من تحريم هذه المنهيات هو فائدة الإنسان نفسه، فقد استنبطت ذلك من قوله تعالى: ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي الظالمين لأنفسكم من جرّاء هذه المخالفات.

وقد فتح الله عز وجلّ باب التوبة لكل مؤمن يستزله الشيطان فيخطيء غير متعمّد الخطأ والعصيان. هذا الأمر صرّح به جلّ شأنه بقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

والمهمّ هو أنّ سورة البقرة أتت على ذكر قصّة آدم عليه السلام بأسلوب مجازي ولبسان الحال فأجملت مواضيع القصّة، ولم تدخل في تفاصيل ما يتعلّق بكل طرفٍ من أطرافها. ونُبّهت في الوقت نفسه إلى أنّ بعثة آدم كانت أساس الصّراع الدائر ما بين المؤمنين. أصحاب التفكير الروحاني وما بين الأبالسة الكافرين برسالات السّماء وأصحاب التفكير المادي، وأنّه من واجب كلّ مؤمن أن يحذر ما يأتي به أعداء الدّين. فهو لاء أي إبليس وذريّته يسعون دوماً لإبطال مفعول كلّ محاولة يحاولها ربّ العالمين لتطوير عباده الذين خلقهم، ولنقلهم نقلاتٍ نوعية باتجاه السّموات والكمال.

والمعلوم أن سورة البقرة هي أول سورة من سور القرآن الكريم، وقد استلزم تسلسل آياتها الموضوعي هذا الإجمال الذي ذكرناه المتعلق بقصة آدم عليه السلام، كذلك فإن سورة (ص) تعبر آخر سورة اقتضى تسلسل آياتها الموضوعي عرض قصة آدم وبالإجمال أيضاً، إنما بالفاظ غير الألفاظ التي أوردتها سورة البقرة.

فقد نقلت سورة (ص) الآية (٨٣) قول إبليس بلسان حاله، وإثر طلبه (انظرني) أي دعني أتأمل وأتبصر بتفكيري المادي : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾. وكلمة فَبِعِزَّتِكَ هي كلمة تحدي ضد ما يخططه الله الرب لتطوير عباده. فالفاء الاستئناف والباء باء القسم وعزتك إشارة إلى اسم الله العزيز. بمعنى المنيع الذي لا يغالب. وانطلاقاً من أن القسم هو عبارة عن تقديم شهادة.

فكلمة فَبِعِزَّتِكَ أي أنني وبأسلوب تفكيري المادي وبعيداً عن تهذيب تعاليم الدين سأثبت إمكانية إغواء هؤلاء المؤمنين الذين يفكرون بتفكير روحي. أي لأتمكن من إضلال هؤلاء المؤمنين وتخيب ظنهم بربهم العزيز وأدفع بهم نحو الجهالة والهلاك. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ.

ألا إن هذه المعاني التي تحملها جملة ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تحمل نفس دلالة ماورد في سورة البقرة ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأُخْرِجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾. فسورة البقرة بهذه الألفاظ حذرت من أن إبليس وذريته لهم من الأساليب الشيطانية ما يمكن من إزلال وإمالة أقدام المؤمنين عن صراط الله المستقيم. أما سورة (ص) فقد نبهت إلى ما وراء هذه الأساليب الشيطانية من حقدٍ دفين على المؤمنين بالله عز وجل. هذا الحقد الذي يدفعهم للتفنن في أساليب إغواء المؤمنين. فالموضوع واحد في سورتي البقرة و (ص) والفارق في زاوية النظر إلى هذا الموضوع.

إن قصة آدم المجازية الواردة في سورة البقرة، نبهت إلى أن من لم تكن له تجربة سابقة في تعامله من إبليس وذريته ستزلّ قدماءه عن غير قصد. كما حدث مع آدم عليه السلام الذي عصى ربه وغوى، عن غير قصدٍ منه، لذلك تاب الله تعالى عليه، وإنه تعالى أوصى بعد آية ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ..﴾ وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ مَتًى هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي أن من يتمسك بما أنزل من تعاليم سماوية حقّ التمسك فلاخوف عليهم من أحييل إبليس وذريته وليس له عليهم من سلطان. فلن تنزل أقدامهم ويحزنون على ما بدر منهم، بحال من الأحوال.

فهذا هو ماتعلق بقصة آدم المجازية وماأوردته من أقوال إبليس وتوعداته في سورتي البقرة و (ص) هذه الأقوال التي تعبّر عن المقصد الثالث العظيم من صياغة الله تعالى لهذه الأقوال بلسان الحال. هذا المقصد الذي ينبّه أذهان المؤمنين إلى الحقد الدفين الذي تولّد عن بعثة آدم عليه السلام في أفئدة أصحاب الطبائع النارية والذين يأبون الطبيعة الطينية التي تلتزم بنظام وقانون سماويّ.

فإن نحن تناولنا ماأوردته سورة الأعراف من هذه الأقوال، نلاحظ أنّها كشفت للقارئ عن الشعار الذي سيرفعه إبليس وذريته، وهو شعار الغاية تبرّر الوسيلة والواسطة. أي أنّ هؤلاء الكفّار لن يتورّعوا عن اللّجوء إلى أدنى وأحقّر الأساليب لتحقيق غاياتهم الدنيئة التي يسعون إليها، وهي إغواء المؤمنين وإضلالهم وتخيب ظنّهم بربّهم العزيز ودفعهم نحو الجهالة والهلاك.

فقد أوردت سورة الأعراف هذه الحقيقة وبلسان حال إبليس: ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ماورّي عنهما من سوآتهما، وقال مانهماكما ربكما عن هذه الشجرة إلّا أن تكونا ملكين، أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما أني لكما لمن النصّاحين، فدلّاهما بغرور...﴾. فالله عزّ وجلّ سمّي إبليس، وهو يحاول الإغواء شيطاناً، على شاكلة ما فعله في سورة البقرة. وقال ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾. والوسوسة تعني التّحديث بحديث لا نفع فيه ولاخير (محيط المحيط). كما أنّ الوسوسة تأتي خفية وليس جهاراً. فهي حديث ما يخطر للإنسان في صدره. والغاية من هذا الأسلوب في التّحديث إصابة الموسوس إليه في عقله، ليندفع يتكلّم بلا ضوابط ونظام، بما دفعته وساوسه إلى ذلك (محيط المحيط).

أي أنّ الله عزّ وجلّ استعمل هنا في سورة الأعراف لفظ (فوسوس)، إظهاراً منه جلّ شأنه لِحُبّ إبليس ودناءة أساليبه التي يعمد إليها لإغواء المؤمنين. أي أنّ الغاية في نظر إبليس تُبرّر الوسيلة التي يعمد إليها لتحقيق أغراضه لإغواء أصحاب التفكير الرّوحاني وإهلاكهم، وإثبات صدق ما عبّر عنه إبليس متحدثاً ﴿فبعرّزت لك لأغوينهم أجمعين﴾.

وهو جلّ شأنه إذ قال: ﴿لِيُذَيِّبَهُمَا مَآوَرِي عَنْهُمَا مِنْ سِوَاتِهِمَا﴾ فقد أتى بكلمة (سِوَاتِهِمَا) وهي جمع سوءه ومعناها الخلة والصدّاقه القبيحة والفاحشة والعورة (محيط المحيط). فالمعنى أنّ غاية الشيطان من أسلوب وسوسته هو أن يدفع بهؤلاء المؤمنين لاتباع ميولهم الفاسدة وشهواتهم الجنسية ويكشف بذلك عن ضعفهم وعوراتهم ونقائصهم. فإن شاء القارىء توضيح ما ذكرته، فليعمد إلى ملاحظة ما أتى به وسائل إعلام شيطان زماننا من أمور القصد منها حرف شباب أمّتنا الإسلامية عن صراط الله المستقيم.

وهكذا يكون الله تعالى قد نبّه أذهاننا في سورة الأعراف ومن خلال مانسبه لإبليس من أقوال وأفعال، نبّه أذهاننا إلى أنّ هذا الشيطان رفع شعار الغاية تُبرّر الوسيلة والواسطة لإضلال المؤمنين منذ بداية صراع إبليس مع آدم وإلى نهاية الزّمان. ومن هذا يتضح المقصد العظيم الثالث الذي ابتغى الله جلّ شأنه تحقيقه من خلال صياغته لقصة آدم صياغةً مجازيةً ولبسان الحال.

وما يوضح أكثر فأكثر هذا الشّعار الذي رفعه إبليس وذريته هو قوله تعالى قبل ذلك عن لسان حال إبليس متوعداً ومهدداً. قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أي لن أَدع وسيلة أو أسلوباً لإضلال المؤمنين إلّا وسأسلّكه لتخريب وتشويه ما بين أيديهم من تعاليم والتشكيك بما خلفهم من آمال ومعتقدات يوم الحساب. وسأعمد إلى تفتيت وحدتهم فأتيهم عن أيمانهم. وأفتت اقتصادهم فأتيهم عن شمائلهم، وأنتهى من ذلك كلّه لنسيان شكرك والثناء عليك وحمدك كرّبي للعالمين.

أي سأبذل قصارى جهدي وبشتّى الوسائل الرفيعة والدّنيّة لأبشع في مجتمع المؤمنين الفواحش ولباس النّاصحين.

وقد نبّه الله جلّ شأنه في سورة (طه) إلى أن من وسائل الوسوسة التي يعمد إليها إبليس وذريته الوسيلة الفكرية الفلسفية يبيّنها ويوسوس بها بوسائل إعلامه تحقيقاً منه لأهدافه الشريرة في إضلال المؤمنين. فعبر عن هذه الحقيقة في سورة طه بقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ، قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَازِلٍ﴾. فتعبير ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ هو تعبير بلاغيّ فالشجرة حجازاً قصد بها الأفكار الفلسفية لاقترانها بكلمة الخلد والتي تعني المدة

الطويلة دامت أم لم تدم. أي أن إبليس يطرح أفكاراً فلسفية يوهم بها أنها الأفكار التي إن أخذت بها أمة من الأمم يُكتب لها الرقي والدوام. وبهذين اللفظين عبرَ جلّ شأنه عن حقيقة طالما أيدها الواقع التاريخي. ففي القرن التاسع عشر على سبيل المثال طُرح موضوع الإلحاد بوجود الله تعالى بشكل فلسفي. وليست نظرية دارون ببيعة عن أذهان المتابعين لمجريات ذاك القرن. ثم إن الفلسفة المادية الماركسية التي طُرحت ولاقت إقبالا من جماهير روسيا وماجاورها من شعوب تشكّل أكبر برهان على صحة دلالة مُصطلح قصّة آدم المجازية (شجرة الخلد). فالماركسيون كانوا يوهمون أتباعهم أن تعاليم ماركس تمثل "شجرة الخلد" التي ستضع أقدامهم على مسار النهضة والتّقدم إلى أبد الآبدين.

فهذه أمثلة حيّة على صحة مانبّهت إليه قصّة آدم المجازية من خلال ماأتت به من أقوال بلسان حال إبليس وذلك في سورة (طه) التي ذكرناها. فإبليس وذريته يسعون منذ بداية صراعهم مع رسالات السّماء التي ابتدأت ببعثة آدم عليه السّلام، كانوا يسعون دوماً لطرح فلسفات فكرية في مواجهة ماكانت تأتي به هذه الرسالات السّماوية، فيوسوسون بهذه الأفكار والفلسفات في صدور المؤمنين، وكانهم يقدّمون لهم "شجرة الخلد" ليميلون بهم عن صراط الله المستقيم. فهذا واقع تاريخي لا يكذّبه إلاّ المعاندون.

وإبليس لم يكتف بلسان حاله أن يقول ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ بل أضاف قائلاً: ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ أي أن هذه الأفكار الفلسفية تمكّن من إقامة حضارة ومُلْكٍ لا يبلى أي يدوم فلا يزول.

وأعجب من ذلك هو قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَاكْلًا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهَا سَوَاتِرُهَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. أي كما أن استحابة آدم لإبليس وبلسان حالهما قد أدّى إلى عصيانه ربّه وغوايته. واضطرّ بعدها للعودة إلى الأخذ بمجربته تعاليم ربّه وإلى التّوبة بكلّ حرّية وهو ماعبّر عنه بالقول: ﴿فَأَخَذَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾. فإنّ كلّ مؤمن لا يضع بحسبانه حقيقة أنّ إبليس وذريته سيطرحون أفكاراً فلسفية على الدوام يوسوسون بها في صدور المؤمنين موهمين أنها أساس التّقدم والحضارة فلا بدّ أن ينتهي الأمر بهذا المؤمن الذي لم يتعظ بمعطيات قصّة آدم المجازية، إلى الغواية وعصيان ربّه وبالتالي بُعده عن خالقه عزوجلّ.

وقد وضح جلّ شأنه في سورة الحجر أمراً هاماً، وهو أنّ الحضارات المادّية التي سيقمها إبليس وذريته على أفكار فلسفية مختلفة ومزيفة، ستأتي بأشياء مزينة جذابة في ظاهرها، تجذب النفوس البشرية إليها بشكل آلي وطبيعي، وعلى صورة تنسي الناس أنّ هذه الأشياء من صنع إبليس وذريته وأنّ وراءها ما وراء الأكمة من أسرار .

هذا الأمر الهام الذي أتت به الآيات من سورة الحجر بشأن قصّة آدم المجازية تضمّنه قول الله عزوجل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾. فقول إبليس بلسان حاله هنا ﴿لَأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قصد به إبداع حضارات تنافسي الحضارات التي تقيمها التعاليم الدينيّة. وتكون أشياء هذه الحضارات مزينة أي مزخرفة جذابة. هذه الحقيقة التي يلاحظها كلّ مؤمن يتأمّل ما أتت به حضارة أوربة وأمريكا من مختلف الأنواع والأشكال. حتى باتت هذه الأشياء بمثابة جنّة المسيح الدجال أتى بها لإغواء جماعة المؤمنين في كلّ مكان، وهي التي حذرنا من شرورها محمد سيد المرسلين (ﷺ) حيث ورد في أحاديثه (ﷺ): (من دخل جنّة المسيح الدجال فقد دخل النار). أفلا نلاحظ الجاذبيّة التي توسوسها في نفوس أبناء الجيل المسلم ما أبدعته هذه الحضارة العلمانية المادّية الغربيّة والتي أبعدت هؤلاء عن صراط الله، وأمالتهم إلى اتباع الشهوات في كلّ مكان؟

وليلاحظ القارئ لكتاب الله العزيز أنّ إبليس ظلّ يقول بلسان حاله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص) والحجر ويقول: ﴿وَلَا تُجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾. الاعراف. ويقول: ﴿لَأُحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾. سورة الإسراء. فكيف يستثنى إبليس فئة من المؤمنين المخلصين دوماً في أقواله. وهل هو علام الغيوب؟ بل هي قرينة دالة على أنّ أقوال إبليس الواردة في قصّة آدم المجازية إنّما وردت بلسان حال إبليس ومن يسير على خطاه ومن ذريته وليس بلسان فمه. وأنّ المقصد الثالث العظيم المقصود من هذه الأقوال الابليسية واستثناءاتها فيها التحذير كلّ التحذير من ذريّة إبليس وفيها التبشير من أنّ من يدرك حقيقة هذه القصة المجازية ودلالاتها وأغراضها ومقاصدها لا يضلّ عن صراط الله المستقيم في يوم من الأيام.

والسورة السابعة التي احتوت قصة آدم المجازية هي سورة الإسراء. وقد تبّهت إلى هذا المقصد الثالث العظيم من خلال ما استجدّ فيها من أقوال بلسان حال إبليس. فهو ﴿قال أرايتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾. فتهديد إبليس وتوعّده في سورة الإسراء متعلّق بذريّة آدم، وليس بآدم نفسه. هذا من جهة، ثم إنّ إبليس لم يقل هنا (أنظرنني) بل قال: ﴿لئن أخرتن إلى يوم القيامة﴾ فما دلالة "يوم القيامة" في هذا المقام؟ ولماذا لم يقل (إلى يوم يعيشون) بالفاظه هذه الواردة في سورة الأعراف والحجر وسورة (ص)؟

فهل تحمل هاتان الجملتان معنى واحداً؟ أم تحملون معنيين مختلفين؟ فإن كان الجواب سلباً، فما هو الدّاعي لهذا الاختلاف ومادالاته؟ فهذه أسئلة لا بدّ من الإجابة عليها لإجابات وافية وشافية. وبما أنّ كلام الله في كتابه العزيز يمتاز بتسلسله الموضوعي. فلا بدّ أن يوجّهنا سياق هذه الآية من سورة الإسراء إلى المقصود من ذريّة آدم المشار إليها هنا، وإلى دلالة يوم القيامة أيضاً.

وعليه فلنعدّ معاً إلى السّباق عدّة آيات سابقة. فنلاحظ تحذيراً من الله عزوجلّ موجهّاً إلى المؤمنين بصورة خاصّة يقول الله تعالى فيه: ﴿وقل لعبادي التي هي أحسن، إنّ الشيطان ينزغ بينهم، إنّ الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾. وخطاب "عبادي" مختصّ بفئة المؤمنين ففي الزمر (٥٣) ﴿قل يا عبادي الذين آمنوا إنّ أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾. وفي سورة الفجر (٢٩): ﴿يا أيّها النّفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾. وأمثالها من الآيات.

وتتضمّن الآية ﴿وقل يا عبادي..﴾ أمرين واضحين الأول منهما ﴿يقولوا التي هي أحسن﴾ كمقدمة لا بدّ من الأخذ بها. فإن تقاعس المؤمنين عن التقيّد بها، فإنّ النتيجة التي تنتظرهم ﴿إنّ الشيطان ينزغ بينهم﴾. وهذان الأمران يستندان إلى حقيقة ﴿إنّ الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾. ولأهمية ماتضمنته هذه الآية الكريمة، يجدر بنا تفهّم معنى ودلالة ﴿يقولوا التي هي أحسن﴾ فما هو المقصود بالفاظ هذا الشطر من الآية المذكورة؟ فهي من الأهمية بمكان.

والحقّ هو أنّ الله عزّ وجلّ الذي نبّه في السّورة السّابقة لسورة الإسراء أي نبّه في الآيات الأخيرة من سورة النحل إلى ما يوضّح ﴿يقولوا التي هي أحسن﴾ وبالألفاظ صريحة واضحة الدلالات تمهيداً منه جلّ شأنه لينبّه هذا التنبيه المذكور. فهو تعالى أمر المؤمنين هناك بقوله: ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين. وإن عاقبتُم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم هو خيرٌ للصّابرين. واصبر وصابرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون. إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة:

أولاً- أن يلتزم الفريق المؤمن بالدّعوة إلى سبيل الله.
ثانياً- وأن تركز هذه الدّعوة المنظّمة على أسسٍ حكيمة وبيّناتٍ حسنة قاطعة الدلالات.

ثالثاً- وأن يجري حوار هذا الفريق المؤمن مع أعداء الذين ﴿بالتّي هي أحسن﴾ أي بأحسن المقالات وأكملها حجماً وبراهين قاطعة.
رابعاً- وأن يبتعد الفريق المؤمن عن القيام ومبادرة عدوّهم بأيّ اعتداءٍ من أيّ نوع كان، والصّبر على اعتداءات هؤلاء الأعداء.
خامساً- وأن يعتمد الفريق المؤمن وسيلة الصّبر وتحمل كلّ عناء كوسيلة استراتيجية في دعوتهم إلى سبيل الله تعالى وصابرهم إلا بالله وتأيده.
سادساً- وينبّه جلّ شأنه إلى أن أعداءهم يتصفّون بصفة المكر والذّهاء في وسائل مناهضتهم للإسلام، ولا يعتمدون الحجّة والبرهان وسيلة لتحقيق أهدافهم الدنيئة لذلك يوصي الله تعالى المؤمنين بالتزام الدعوة إلى سبيل الله على هذه الأسس شرط أن يكونوا أتقياء فلا يقولوا مالا يفعلون وأن يُحسنوا سلوكهم ودلائلهم ووسائلهم، ليجذبوا بذلك محبة الله وتأيده إلى جانبهم وهذا معنى ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾.

على هذه الصّورة نكون قد أدركنا المقصود من قول ربّنا عزّ وجلّ: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾. ففي هذه الألفاظ الموجزة تذكير للمؤمنين بالوصيّة التي كان الله تعالى قد اختتم بها سورة النحل السابقة للإسراء. تذكير لهم بضرورة الالتزام بالدعوة إلى سبيل الله تعالى، وتحذير في الوقت نفسه

من التنازع على الثروة والحكم. وما يؤكد صحة هذا التذكير وذاك التحذير، هو إضافته تعالى قوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مَبِينًا. فهو تعالى أتى بلفظ الشيطان وهو الاسم الوصفي الثاني لإبليس، يطلقه هنا على أعداء الإسلام، مذكراً من طرف خفي بما تضمنه قصة آدم المجازية وبلسان الحال.

والملاحظ أنّ الله عز وجل أتبع تنبيهه وتحذيره هذا، يقول: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾، إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم، وما أرسلناك عليهم وكيلًا. وهذه الآية الكريمة دلّت على أنّ الله علام الغيوب، كان في واسع علمه أنّ المسلمين سيُغفلون العمل على هذا التنبيه والتحذير، ويُصيبهم ما أصاب الأمم السابقة، ويفسحون بذلك المجال للشيطان أن ينزغ بينهم. فما معنى "ينزغ بينهم" الوارد في الآية السابقة؟ فعل ينزغ من نزغ الشيطان إذا حثّه على المعاصي، وطعن فيه واغتابه وأفسد بين أفرادهِ ووسوس وحرك بعضهم على بعض (محيط المحيط وأقرب الموارد). أي كان في علم الله الغيبي أنّ المسلمين سيهملون أمر تنظيم الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

الأمر الذي سيؤول بهم إلى إلهائهم بالمال والسلطة والجاه وتنازعهم فيما بينهم، وإفساح المجال لعدوهم الشيطان أن يغتنم ضعفهم هذا وتخلفهم، فيطعن فيهم ويذكرهم بالقبيح من الأقوال ويفسد بينهم بتحريض بعضهم على بعض ويوسوس في صدورهم يحثهم على ارتكاب المعاصي والآثام.

فقد كان هذا المصير كله في علم الله الغيبي لذلك لاحظناه جل شأنه قد أضاف يقول إنّ لكلّ مقدّماتٍ نتائجها، وإن الأمة الإسلامية التي ستهمّل الدعوة إلى سبيل الله وتتنازع، ستفقد تأييد الله ومحبته، وتستحقّ بالتالي العذاب. وقد عبّر جل شأنه عن هذا بقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾، أو إن يشأ يعذبكم، وما أرسلناك عليهم وكيلًا. مُسقِطاً المسؤولية في الوقت نفسه عن اكتساف رسوله الأمين محمد خاتم النبيّين (ص)، هذا الرسول العظيم الذي لم يترك سبيلاً إلى وعظ أمته إلّا سلكه بأحسن ما يعظ به الإنسان قومه. والذي كان خلقه القرآن وأسوة للمؤمنين.

إلى هنا نكون قد أدركنا من خلال الآيات الكريمة التي أوردناها دلالتها وإنباؤها عن زمن تخلف المسلمين وانحطاطهم واستحقاقهم لعذاب الله.

وإنبأها أيضاً عن أن علو الإسلام سيقوى ساعده، وينزغ بين صفوف هؤلاء المسلمين. وينشأ بالتالي سؤال هام وهو كيف سيعالج الله جل شأنه هذا الحال الذي سيصير إليه دين نبيّه الحنيف؟

ويُجيب الله جل شأنه على هذا السؤال هنا بأسلوبٍ بلاغي يدهش العقول ومُدعم بالحجج والبراهين فيقول: ﴿وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾. فهو تعالى قال من قبل مخاطباً المسلمين ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾. والآن راح يقول مخاطباً رسوله الكريم وبعد أن رفع عن أكتافه مسؤوليته عما سيؤول إليه حال أمته، يقول بلسان عالم الغيب والشهادة ﴿وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مشيراً إلى الأموات والأحياء من عباده. ومذكراً بتفاوت مرتبة الذين أرسلهم الله تعالى من النبيين، وملمّحاً إلى أن محمداً هو سيّد المرسلين، وهو الذي أنبا جميع من سبقه من الأنبياء عن بعثته ومقامه السامي بينهم. يقول تعالى ﴿وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي أعلم بهذه الأمور جميعها لأنه جل شأنه هو المرجع الأول والأخير فيها. فهل يُعقل أن يترك الله أمته وهو ربك، هذه الأمة التي شابها ما حدث في أمة موسى عليه السلام من قبلك؟ خصوصاً وأن هؤلاء الأنبياء قد انبؤوا أيضاً في كتبهم عن مصير أمته؟

فذكر جل شأنه نبيّه الكريم بحال بني اسرائيل قوم موسى بعد بعثه داوود بينهم، وبمصيرهم الذي آلوا إليه وقال ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾. وفي هذه إشارة أخرى أيضاً إلى الدمار الذي لحق ببغداد على أيدي هولاكو خان إثر تنازع المسلمين فيما بينهم أيضاً لتماثل الحاليين والزّمانين. يوم ألهاهم ما حصلوا عليه من الملك والثروة وتناسوا الإلتزام بتنظيم الدّعوة إلى سبيل الله. فانقسموا إلى شيع وأحزاب يطلبون ودّ ورضا زعماءهم، مُتناسين طلب ودّ ربهم ومحبتة ورضاه أي أنهم كانوا انغمسوا في مستنقع الشرك الخفي.

لذلك توجه الله عز وجلّ إلى هؤلاء بخطابه بعد أن طمأن رسوله وبرآه من مسؤولية عما سيحدث لأمته. توجه إلى هؤلاء يقول: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ، فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾. أي أن انسياقكم وراء هذه الزّعامات انتهى بعاصمتكم بغداد إلى هذا الدمار الذي شابها فترة ما حدث بعد داوود عليه السّلام. أي أنكم سيؤول حالكم من جرّاء إهمال

الدعوة إلى سبيل الله والانسحاق وراء هذه الزعامات سيؤول حالكم إلى (الضُر) والضُر لغة يعني الشدة وسوء الحال، وضدّ النفع (محيط المحيط) أي سيأخذ الوهن والضعف سبيله إلى أمتكم. ولن تملك زعاماتكم يومئذ إمكانية كشف الضُر عنكم ولا تحويله بشكل من الأشكال. فأنتم تناسيتم الدعوة إلى سبيل الله وتناسيتم أسوة رسولكم الأمين وحال جميع من سبقه من النبيين، وقال: ﴿أولئك الذين يدعون، يتغنون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، إنَّ عذاب ربك كان محذوراً﴾. أي كان أحرى بكم بعد الدمار الذي لحق ببغداد أن تعودوا إلى تنظيم الدعوة إلى سبيل الله وابتغاء قرب الله ومحبة راجين رحمته خائفين من عذابه الذي توعدكم به إن أنتم تقاعستم عن الدعوة إلى سبيل الله تعالى.

وليس أن تسعوا إلى هذه الزعامات السياسية ترجون منها كشف الضُر عنكم. فالذي كان عليكم أن تخشوه هو عذاب الله ربكم. لذلك أنهى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إنَّ عذاب ربك كان محذوراً﴾.

ومادام الله تعالى قد نبّه إلى الدمار الذي لحق بهيكل سليمان بعد بعثة داود عليه السلام. حذر المسلمين كلّ هذا التحذير. فلا بدّ أن يكون قد أشار إلى بعثة مسيح بن مريم آخر كالذي بُعث أيام بني إسرائيل ومن طرف خفي. وأشار بذلك إلى ماسيحدث من مماثلة له في آخر أيام انحطاط المسلمين وتخلّفهم. أي أنّها ستقوم قيامة هؤلاء المسلمين، على شاكلة ما قامت به قيامة بني اسرائيل زمن بعثة المسيح عليه السلام. وهذه إشارة إلى بعثة المسيح الموعود المجدّد والحكم العدل بين المسلمين في زمن بمائل المدة التي بُعث فيها المسيح الناصري وإلى بني اسرائيل. فلا اليهود آمنوا بالمسيح الأول، ولا المسلمون المتخلّفون سيؤمنون بالمسيح المثل، لذلك يستحق العالم أجمع عذاباً شديداً ودماراً شاملاً. هذه الحقيقة هي التي استدعت من الله عز وجلّ أن يضيف قائلاً: ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة، أو معذبوها عذاباً شديداً، كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾.

هذا وإنّ قوله تعالى بحقّ العذاب الشامل المنتظر ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾. ورد هنا مجملاً، بسبب أنّ الله تعالى قد خصص السورة التي تلي سورة الإسراء وهي سورة الكهف لتفصيل هذا الكلام المُجمل، فيما بعد.

والمعلوم من كتاب الله العزيز أنّ الله تعالى دأب على إنذار الناس الذين قرّر سبحانه إنزال عذابه الشديد بهم وتخويفهم بإراءة الآيات السماوية، لعلهم يرجعون عن تكذيبهم ومعاصيهم. فهذه سنة إلهية في هذا المجال. فالسؤال هو: مادام الله عزوجلّ قد قال هنا منبئاً عن عذاب شامل: ﴿وإن من قرية إلاّ نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً﴾. فهل سينزل هذا العذاب الشامل بعد التخويف وإراءة الآيات السماوية حسب السنة الإلهية المذكورة أم أنّ الله عزوجلّ قد بدّل سنته بعد ظهور الإسلام؟ فهذا سؤال وجيه لا بدّ من الإجابة عنه في هذا المقام.

والحقيقة هي أنّ ربنا عزوجلّ لم يغفل الإجابة عن هذا السؤال هنا وضمن التسلسل الموضوعي لهذه الآيات الكريمة. فأجاب وقال: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلاّ أن كذب بها الأولون، وآتينا ثمود الناقة مبصرة، فظلموا بها، وما نرسل بالآيات إلاّ تخويفاً﴾. ولم يتدبّر المفسرون هذه الإجابة حقّ التدبّر، وذهبوا إلى أنّها تفيد تبديل سنة الله عزوجلّ وانقطاع إظهار الآيات السماوية. مع وجود قول ربنا في مقام آخر ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾. هذا وقد اختلق هؤلاء المفسرون روايات من عند أنفسهم لتأييد رأيهم الباطل، بما لا حاجة لإيراد ذلك كلّ في هذا المقام.

ألاّ إنه عزوجلّ مادام قد أنهى هذه الآية الكريمة ببيان المقصد الأسمى من إرسال الآيات السماوية وحدّه بقوله ﴿إلاّ تخويفاً﴾ من خوف بمعنى علم ففزع فحذر فاتقى وضدّ أمن (محيط المحيط) فهو تعالى يقرّر إذن أنّ هناك فريق من الناس يفيدهم رؤية الآيات السماوية في مجال علم الحق والفرع منه والحذر من عذاب الله واتقائه. ويعود هذا الفريق من الناس بالتالي عن عنادهم وتكذيبهم لما نزل من السماء من وحي إلهي. ويكون الله عزوجلّ قد قرر بذلك عدم تبديل سنته القديمة، وهذه قرينة تدفع متدبّر هذه الآية الكريمة ليفهم منها عكس ما فهمه هؤلاء المفسرون.

والذي أشكل على هؤلاء ورود حرف (إلاّ) هنا، فلم يفتنوا إلى أن الله عزوجلّ، قد أنهى هذه الآية بما لاحظناه ليوفّر قرينة تؤكد أنّه تعالى استعمل (إلاّ) هنا زائدة لأعمل لها. فهذا أحد أشكال استعمال (إلاّ) على حسب ما وضح ذلك النحويون. فانت تقول: لا يزال الدهر إلاّ متقلّباً. أي لا يزال الدهر متقلّباً.

فعلى هذه الشاكلة أورد الله تعالى حرف إلا في هذه المقام. ويكون معنى الآية أنه مامن فريق من الأولين لم يكذب رسل الله تعالى بالرغم من رؤيته للآيات السماوية منذ زمن بعثة آدم ونوح وسواهما من أنبياء الله الكرام. فهل تبدلت سنة الله هذه بسبب هذا التكذيب المتواتر؟ فلو كانت هذه السنة الإلهية قد تبدلت زمن آدم أو زمن نوح وسواهما فكيف آتينا لمود الناقة مبصرة أي آتينا آية سماوية؟ ولمود هذه قبيلة عربية معروفة من قوم محمد (ص) ومن أهل الكتاب أيضاً؟ فالله عز وجل لم يبدل سنته هذه بعد إنزال وحى هذا الكتاب العزيز.

فلما انتهى جل شأنه من إجابته على السؤال المطروح، راح يؤكد جوابه ويقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾، وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس، والشجرة الملعونة في القرآن، ونخوفهم، فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً. أي وها أننا نؤكد دوام سنتنا في إراءة الآيات السماوية ونخوف بها. فما أن رؤيا الإسراء التي أريناك والتي جعلناها فتنة وامتحاناً وتخويفاً لهؤلاء الذين قررنا إنزال عذابنا الشديد الشامل بهم قد أكدت أننا لم نسد باب إراءة الآيات السماوية. فمعنى ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي قرر إهلاكهم أو تعذيبهم بعذاب شامل. أي أن رؤيا الإسراء تحمل نبوءة ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَحُنَّ مَهْلُكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مَعَذَّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً﴾.. بذلك أن عمداً (ص) قد صلى بجميع الأنبياء في رؤيا الإسراء. وتأويل ذلك أن عذاب الله سيشمل جميع أتباع هؤلاء الأنبياء فيخاف من يتبقى منهم بعد ذلك ويتقبلون الإسلام ديناً، ويتبعون ماجاء به (ﷺ).

ولم يقدم الله جل شأنه هذا الدليل وحسب بل أتبعه بدليل آخر تضمنه قوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ وقصد به شجرة نسل بنو إسرائيل الذين ورد تهديد الله تعالى إليهم في الآيات الأوائل سورة الإسراء أيضاً. فاليهود لعنوا في مواضع كثيرة من سورة المائدة. فقد ورد هناك: ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ﴾. كما ورد: ﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ كذلك ورد بحقهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ فأتباع حزب ليكود قروود مقلدون، وأتباع حزب العمل خنازير أنجاس. هذا وإن استعمال لفظ شجرة كناية عن النسب والنسل هو أمر شائع الاستعمال في جميع بلاد العرب.

ولنلاحظ أنّ الله عزوجل ما إن انتهى من تقديم هذين المثالين على أنّهما يشكّلان آياتٍ سماويةً مرعبة، أتبع ذلك بقوله تعالى ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي أنّ المقصد من إيراد ذكر هاتين الآيتين السماويتين في بداية سورة الإسراء هو تخويف جميع أعداء الإسلام بما تضمنتهما من نبوءات متعلّقة بمصير اليهود والنصارى وسواهم من أتباع باقي الديانات السّماوية.

ولنلاحظ أيضاً أنّ الله عزوجلّ أضاف على كلمة ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ نبوءةً ثالثة وقال بحقّ هؤلاء جميعهم: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ فقد أتى بفاء الاستئناف لينبّه إلى مضمون هذه الآية السّماوية الثالثة وهي أنّ هذا التّخويف الوارد في سورة الإسراء وفي الآية التي قررت عاقبة ومصير اليهود لن يفيدهم في بحال تقبّل دين محمد (ﷺ) بل مايزيدهم هذا التّخويف إلا طغياناً أي ثباتاً على عقائدهم وتجاوزاً للحدود والأعراف والقوانين، ولايكون طغيانهم هذا عادياً بل كبيراً يطال جميع الصّعد والأزمنة، وكأنه جل شأنه يصوّر وبهذه الألفاظ المعدودات مكائد اليهود التي اشتمل عليها تاريخهم الطّويل. فلم تحدث فتنة في مكان ما من العالم إلا ويكون لليهود فيها يدٌ ومكيدةٌ وتجاوزٌ للحدود. وستؤلّف هذه المكائد في المستقبل آيةً ودليلاً على صدق هذا الذي أنبأ به القرآن المجيد عن مكائد وطغيان اليهود الكبير فتوضع بحقّها عشرات المجلّدات.

وهكذا يكون التسلسل الموضوعي لهذه الآيات من سورة الإسراء: من ضرورة تنظيم الدعوة إلى سبيل الله، إلى التّحذير من الشّيطان ومكائده، وإلى الإنباء عن دمار شامل سيحلّ بالعالم إلى توجيه أنظارنا نحو هذه الآيات السّماوية المخوفة والمفرّعة. أقول: إنّ جميع هذه الأمور اقتضت في هذا المقام التّذكير بقصّة آدم المجازية وبما تضمّنته من أقوال على لسان إبليس وبلسان حاله لتؤكد على المقصد الثالث الكبير من هذه القصّة وهو التّحذير من الفريق الكافر الذي يفكّر بتفكير مادّي في مواجهة ذريّة آدم الذين يفكرون بتفكير روحاني. والتّحذير من ذريّة إبليس المتمثلة باليهود والنصارى خاصّةً والمتواجدين أيّام انحطاط المسلمين المتخلّفين المهملين الدعوة إلى سبيل الله عزوجلّ بشكل منظمّ والمنقسمين على أنفسهم إلى مذاهب وأحزاب والتواكلين على زعمائهم السياسيين لإعادة مجد الإسلام ورفع الضّر عن العالم الاسلامي. مُتناسين أنّ زمانهم بمائل زمن بعثة

المسيح الناصري، وأنه يقتضي ظهور المسيح الموعود. خصوصاً وأنّ تدمير بغداد على أيدي هولوكوخان يُماثل ما حدث لليهود بعد بعثة داوود عليه السلام.

فهذا كله يكشف عن تسلسل موضوعي بالغ السبك بلاغياً ضمن هذه الآيات جميعها وبين المقصد الثالث العظيم لقصة آدم المجازية، ويفسّر لنا بكامل الوضوح سرّ طلب إبليس في سورة الإسراء ﴿لَنُؤَخِّرَنَّهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فهو طلبٌ بلسان حاله وفيه الدلالة على ماسيقوم به زمن تخلف المسلمين وقيام قيامتهم وهو الزمان الذي نَعاصره يقيناً. فقد أهمل المسلمون اليوم الدعوة إلى سبيل الله ونزغ الشيطان بينهم. لذلك راح هذا الشيطان يستغيهم ويطعن في أخلاقهم ويذكرهم بالقبيح من القول، ويُغري بعضهم على البعض الآخر، وأتى هذا الشيطان باليهود الذين يمثلون هذه الشجرة الملعونة في القرآن أتى بهم إلى فلسطين بوعده من بلفور. وها أنّ اليهود والنصارى ماتزيدهم نبوءات القرآن الكريم بحرقهم إلا طغياناً كبيراً. كما يكشف هذا التسلسل الموضوعي عن سرّ قول إبليس في سورة الإسراء أيضاً: ﴿لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾. فالقصد من ذرية آدم هنا هم أتباع محمد رسول الله ﷺ. والمراد من ﴿إلا قليلاً﴾ هنا الإشارة إلى ماورد في سورة الواقعة (١٤) ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾. فليعد القارئ إلى ماكتبته في فصل سورة الواقعة من كتاب ﴿فن الاختزال﴾. فقد كتبت هناك أقول: "استهلّ الله جل شأنه هذه السورة بقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ. خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾. والواقعة في اللغة تفيد المصادمة والحرب والنازلة الشديدة. (محيط المحيط) وقد ربط تعالى بهذا الاستهلال ماين سورتي (الرحمن والواقعة) وكأنّه قال: إنّ ماأنبأت عنه سورة الرحمن من عذابٍ ودمار سيحلّ بمعسكري الأمم الغربية هو واقعٌ لاهمّالة، ولايحيد عنه. وسيُسفر عن اختلال موازين القوى في العالم، فتزول قوى وتبرز قوى جديدة إلى مسرح الأحداث.. وانطلق الله عزوجلّ يعطي فكرة في سورة الواقعة - وبلغت الدلالة عمّا ستسفر عنه هذه الحرب الضروس التي أنبأ تعالى عنها. فقال: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا. وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا. فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾.. وقد أنبأ جلّ شأنه في سورة الواقعة أيضاً - بعد ذلك عمّا ستسفر عنه هذه الواقعة وقال: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً: فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ. وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ.. وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

ثَلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ. ﴿١٠﴾ وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْأَنْبَاءُ الْغَيْبَةَ تَحِيْطُهَا هَالَةٌ مِنَ الْأَعْجَازِ الْغَيْبِيِّ، وَلَمْ تَكُنْ لِتُدْرِكَ مِنْ دُونِ مُعْطِيَّاتٍ. فَقَدْ عَمِدَ تَعَالَى إِلَى الْقَسَمِ فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ - وَقَالَ: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ؟﴾.

وهذه الحقائق جميعها تفسّر لنا ما أجاب به الله عزوجلّ وبلسان حال إبليس، فهو قال: ﴿قَالَ إِذْ هَبْ فَمَنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ فَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ﴾. أي أنّ ما يخوّف الله تعالى به اليهود والنصارى ذرية إبليس من هذا العذاب الشامل الذي أحاط بالناس سيحمل منظرًا جهنميًا هؤلاء ولّذين اتبعوهم وتولّوهم من مسلمي عصرنا، وسيكون هذا العذاب الأرضي هؤلاء جميعهم ﴿جَزَاءٌ مَوْفُورًا﴾. أي موفراً موجلاً لإنزاله بساحتهم.

ولم يكف الله عزوجلّ بهذه الإجابة بلسان الحال والتي تحمل هذه النبوءات المخفية. بل أضاف معلومة غيبية عظيمة أخرى وقال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ مِنْ أَسْأَلِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدِّهِمْ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾. منوها بذلك إلى أنّ أعداء الإسلام الذين يمثلون الاسم الوصفى الثاني لإبليس وهو اسم الشيطان، سيبلغون زمن تخلف ذرية آدم أي زمن تخلف وانحطاط وانقسام أمة محمد رسول الله (ﷺ)، سيبلغون شأواً بعيداً في القوة والمنعة ويعودون يفوقون المسلمين عدداً وعُدداً، ويعودون يهدّدون الإسلام في عُقْرِ داره. وما سيكون لهم من صوتٍ مسموعٍ في العالم (بصوتك) وما سيكون لهم من جيوشٍ جرّارة ومجهّزة بأسلحة فتّاكة (واجلب عليهم بخيلك ورجلك). وما سيكون لهم من هيمنة اقتصادية على مصادر ثروات المسلمين كالنفط مثلاً (وشاركهم في الأموال والأولاد)، وما ستعُدُّ هؤلاء المتخلفين من وعودٍ مغريةٍ إن هم استسلموا لمخططات مؤمّراتهم على الصّعيد الاقتصادي (وعِدِّهِمْ). ويُنهى الله تعالى هذه الأنباء التي تحققت جميعها في زماننا هذا، بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾. أي أنّ وعود هؤلاء الذين يمثلون ذرية الشيطان الذي تكلمت عنه قصّة آدم الحجازية وبلسان الحال لن تكون إلّا من قبيل الكذب والخداع والتّضليل وذر الرّماد في الأعين، وإلّا فهم يهدفون من وراء تلك الوعود إلى تأمين استنزاف ثروات

المسلمين لصالحهم أنفسهم وليس لصالح المسلمين، لكنهم يمثلون المسيح الدجال الذي أنبأ رسول الله (ﷺ) عن ظهوره في آخر الزمان، أي زمان قيام قيامة المسلمين وهم أمة محمد خاتم النبيين (ﷺ).

ولنلاحظ كيف أن قول إبليس ولسان حاله الذي استثنى ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذا القليل من المؤمنين الذين استعملت لهم سورة الواقعة تعبير ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾.

عقب عليه جل شأنه قائلاً ولسان حاله أيضاً، قال: ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾. فهو جل شأنه عاد فكرر هنا كلمة (عبادي) التي أوردها من قبل في آية ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ..﴾. هذه الكلمة المشتقة من عبد الله أي أطاعه وخضع له وذلّ بين يديه وخدم دينه والتزم بأوامر شريعته ووحدته فلم يتخذ له شريكاً في ملكه.

وعليه فمعنى ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ المقصود به الإشارة إلى جماعة هذا المجدد المسيح الموعود المبعوث في زمن قيامة هؤلاء المسلمين. هذا المبعوث الذي سيعيد للإسلام حياته الروحية، فيشكل عبادة لله جلّ همهم إطاعة ربهم والخضوع له والتذلّل بين يديه وخدمة دينه والتزام أحكام الشريعة الإسلامية الواردة في هذا القرآن العظيم، وتوحيد هذا الإله الذي عبده آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران والذي بعث الله تعالى محمداً حنيفاً يعيد الناس إلى عبادة هذا الإله الذي لا إله سواه. أقول: إن هذا المجدد بعثه الله تعالى ليعيد عن طريق جماعته الوجه الحقيقي للتوحيد الخالص من شوائب الشرك الجلي والحفي.

فالله عز وجل قرّر من خلال ماضئته قصّة آدم المجازية الواردة ألفاظها في سورة الإسراء تحقيق المقصد الثالث العظيم الذي ابتغاه جل شأنه منها هنا، وهو الإعلان أن أعظم المعارك التي ستخوضها ذرية آدم، وذرية الشيطان فيما بينهما ستكون زمن انحطاط المسلمين وتخلّفهم وظهور المسيح الدجال كذلك زمن ظهور هذا المسيح الموعود الذي يكسر صليب المسيح الدجال ويقتل خنزيره، وسيحلّ عذاب الله الشامل يومئذ بذرية الشيطان ويحيط الله بهم بعذابه الشامل، ويصير الأمر يومئذ لله الواحد القهار.

فما أخوف هذه النبوءات، وما أعظم هذه البشارات المرتبطة بهذا المقصد الثالث العظيم المرتجى من صياغة قصة آدم بأسلوب مجازي ولسان الحال أيضاً.

٨. المقصد الرابع لقصة آدم :

أما المقصد الرابع العظيم الذي ابتغى الله عز وجل تحقيقه من خلال صياغته لقصة آدم صياغة مجازية ولسان الحال، فقد كان للتنبيه إلى وجود نظامين كونيين، لكل نظام منهما قوانينه الخاصة به. نظام قوانين طبيعية لتسيير هذا العالم المادي ونظم مسيرته، وفق الخواص المفوضة إلى عناصره المادية، من قبل الخالق عز وجل تفويضاً محدد الفعالية والدائرة. ونظام قوانين قدرية روحية تختص بالعالم الروحاني ونظم مسيرته، وفق المشيئة الإلهية المباشرة. وهذا النظام القدري تعود إليه قصة آدم وبعثات جميع الأنبياء والمرسلين والجماعات المؤمنة الصادقة في إيمانها، وأداته التنفيذية الروحية أيضاً وهم ملائكة الله وجنوده الذين لا يعلمهم إلا الله عز وجل وحده.

هذا وإن قصة آدم المجازية نُبّهت إلى أن إبليس الذي تمرد على رسالة آدم وكفر بها، كان سبب ضلّالته نظرته السطحية إلى هذا الكون المادي . وظنه هو وذريته أنّ هذا الكون لا ينظمه إلا قوانين نظام واحد طبيعي، فهذا ما أثمر عنه تفكير هذا الفريق بتفكير مادي محض.

على حين أنّ الفريق الذي آمن بآدم ولم يكفر برسالته، انطلق انطلاقاً أعمق من هذه النظرة السطحية بكثير، انطلق من وجود الخالق لهذا الكون ويُسيّره بقوانين نظام قدري روحي يهيمن وسيطر على القوانين الطبيعية ونظامها الكوني المفوض إلى خواص المادة والمحدد الدائرة والفعالية. وأنّ هذه الانطلاقة الأعمق التي انطلقتها الفريق الذي آمن بآدم مكنته من الاستغلال بهذا النظام القدري الروحي، وعاد يفكر في كل أموره بتفكير روحاني.

هذه الحقائق استنبطتها من أقوال الله عز وجل الواردة في قصة آدم بلسان حاله، والمتناثرة هنا وهناك في هذه المواضع السبع التي تعرّضت لإيراد قصة آدم بالفاظ مختلفة وفق ما اقتضاه تسلسل السور الموضوعي.

فهذه سورة البقرة أوردت قصّة آدم المجازية بالفاظ مُحَمَّلة، فأشارت إلى الفريقين المؤمن والكافر، وإلى عاقبة كلّ منهما، إشعاراً منه جلّ شأنه لفكر الباحث المتدبّر إلى وجود هذين النظاميين الكونيين والنّاطمين لنتائج أعمال كلّ فريق من هذين الفريقين. حيث أوردت قصّة آدم في سورة البقرة قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. فهو جلّ شأنه عبّر هنا عن حال الفريق المؤمن قائلاً ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. والمعلوم أنّ خوف الإنسان يتأتّى عن الأمور الآتية المُستقبلية، فهي التي تحمل له المفاجآت السّارة وغير السّارة. أمّا حُزن الإنسان فلا يكون إلاّ على مافات. وهذه الجملة ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والواردة بلسان حال الله عزّ وجلّ، تنطبق على الفريق المؤمن والذي يفكّر بتفكير روحانيّ ويخضع لسلطان قانون قدريّ مسنونٍ لصالحه. ولا ينطبق على الفريق الكافر الذي لا يخضع لسلطان هذا القانون.

فالذي يعيش حياته بعيداً عن الاعتقاد بوجود خالقه، والذي لا يلتزم بشرائع هذا الخالق وتعاليمه ويفكّر تفكيراً مادياً محضاً يحرم نفسه من هذه الميزات التي اختصت بالمؤمنين.

وكانّ الله عزّ وجلّ يقول هنا بالفاظٍ أخرى إنّ إبليس وذريّته إذا نظروا إلى الماء على سبيل المثال يلاحظون كونه سائلاً وبالتّجربة يتعرّفون على خواصّه، فلا يرون ضمن هذه الدائرة آيةً يدّ خارجةً عن هذين الأمرين المذكورين - فلا يفكرون بتفكير أعمق ولا ينطلقون من أنّ هذا الماء مخلوق وأنّ خالقه قد فوّض إليه خواصّه وأنّ الله الخالق قادرٌ على سلب الماء خواصّه في أيّ وقت أو مكان يشاء. هذا الأمر الذي يؤمن به الفريق المؤمن الذي يُفكّر بتفكير روحانيّ ويؤمن بوجود نظامين كونيين. وكانّ الله عزّ وجلّ قال بالفاظٍ أخرى هنا أيضاً أنّ لهذا الاختلاف في المنطلق العقائديّ نتائجهُ أيضاً وعواقبه. وهذه النتائج والعواقب التي يحصدها الفريق المؤمن أنّه يحيا حياة اطمئنان وسعادة ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. أمّا الفريق الكافر فيحصده نتائج وعواقب مُنطلقه هذا أيضاً فلا يَسْعُدُ ولا يجد الطمأنينة في حياته الدنيا، بل يظلّ يخشى ما سيفاجئه به مستقبله وتراه دوماً يحزن على مافات. فهو في حقيقة أمره يحيا حياة خلودٍ في نارٍ مُستعرةٍ في

صدره. فهذا إجمال مأتى به قول ربنا عز وجل في قصّة آدم المجازية في سورة البقرة. فالألفاظ المصاغة هنا أتت لتعطي القارئ نظرةً شاملةً عن الفريقين المؤمن والكافر: فالمؤمن يحيا في حياته الدنيا حياة اطمئنان برّبه وسعادةً كاملةً. والكافر يحيا حياته الدّنيا لا يعرف فيها ضمناً لاسعادةً ولا اطمئنان.

فإن نحن انتقلنا إلى سورة الحجر التي أوردت قصّة آدم المجازية هذه. نلاحظه جلّ شأنه أنّه حذف جملة ﴿فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾. وقال هناك : ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ إلّا من اتبعك من الغاوين. وإن جهنّم لموعدهم أجمعين﴾. كذلك فإنه قال في سورة الإسراء: ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى برّك وكيلاً﴾. فإن انطلق القارئ مُنطلقاً من أنّ قصّة آدم مجازيّة وبلسان الحال. وراح يتدبّر هذه الأقوال الثلاثة، فلا يجد بينها من فارق موضوعي إلّا فارق الإجمال والتفصيل واختلاف الألفاظ. إلى جانب أنّها تكمل بعضها بعضاً ضمن إطار موضوعي عام.

فإذا دققنا فيما أوردناه من سورتي الحجر والإسراء نلاحظ ورود ألفاظٍ ثلاثةٍ جديدةٍ فيها هي (عبادي ووكيلا وليس لك عليهم سلطان). فهيّا تتدبّر دلالات هذه الألفاظ لغويّاً وعطاءاتها موضوعيّاً.

إنّ كلمة (عبادي) اشتقت من عبد الله أي آمن به وخضع له وأطاع وذلك بين يديه والتزم دينه وخدم هذا الدّين وتبرأ من جميع أنواع الشرك وعاد من موحدية. أي أن موضوع كلام الله هنا يدور حول زمرة المؤمنين الذين استحقوا من جانب ربّهم تسميتهم بعباده والذين استوفوا فكرياً وسلوكياً جميع دلالات هذا اللفظ. فكلمة عبادي لاتعني المؤمنين المصلّين أو الصائمين أو المؤدّين لأحد أو لمجموع مانسُميه عبادات. بل إن مدلول كلمة عبادي أوسع دلالة من ذلك بكثير. فلا يُسمّى عبدٌ لله تعالى إلّا المؤمن الذي زاد على أداء هذه العبادات المنصوص عليها في كتاب الله تعالى عدّة أمور أخرى أهمّها التزام جانب طائفة المؤمنين وأداء الواجبات المترتبة على هذا الإلتزام والتذلّل والخضوع والدعاء بين يدي الإله الذي آمن به، واجتناب كلّ خطوة وسلوك يُستشَم منه رائحة الشرك بالله عز وجل، فكلّ مؤمن اتّصف بهذه الصفات لايعود للشيطان عليه من سبيل وبالتالي فلا خوفٌ على أمثاله من المؤمنين ولاهم يحزنون.

والكلمة الجديدة الثانية التي احتوتها الآية من سورة الإسراء هي كلمة (وكيلاً). هذه الكلمة التي صيغت على وزن فعيل بمعنى فاعل، وحفيظ موكول إليه أمر الحفاظ على من احتسبه ليتّخذهُ وكيلاً بصورة عملية واحتسبه في كلّ مايعرض له من أحوال. أي أنّ الجلّة في موضوع كلمة (وكيلاً) أن تضيف إلى دلالات كلمة عبادي معنى وهو أنّ هذا المؤمن الذي استوفى دلالات كلمة العبودية، لا ينطلق في ذلك بعقل تقليدي بل ييقن قلبي راسخ أن معبوده يملك القدرة غير المحدودة على حماية عبده من مكائد الشيطان والحفاظة عليه بشكل مُلفتٍ للأُنظار. أي أنّ المعنى الذي يضيفه لفظ "وكيلاً" على دلالة ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ هو أنّ هذا النوع من المؤمنين احتسبوا ربّهم وتوكّلوا عليه في كلّ مايقدمون عليه، وتكون نتيجة ذلك أنّ الله تعالى أضحى يدافع عن هؤلاء المؤمنين ويجنّبهم كلّ ما يؤذيهم ويحول دون تطوّرهم وارتقائهم الرّوحاني. أي أنّهم بلغوا مرحلة النفس المطمئنة برّبها والرّاضية بكل شيء تتعرض له وتواجهه في طريقها. ولا تشكُّ للحظة واحدة أنّها بمنأى عن ربّها الذي يراها بحفظه ورعايته.

والكلمة الثالثة الجديدة التي احتوتها الآية من سورة الحجر هي كلمة (سلطان) إذ ورد هناك: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ إلّا من أتبعك من الغاوين﴾.

وكلمة سلطان تعني الحجّة كما تعني التسلّط والشدّة والقدرة والملك. أي أنّ الجلّة التي أضافتها هذه الكلمة على دلالة ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ هو أنّ الذي يستوفي دلالات كلمة العبودية فكراً وسلوكاً، وبفؤادٍ راسخ اليقين بقُدّرات ربّه الذي احتسبه وتوكّل عليه.

إنّ هذا العبد الصالح يثبته الله عزوجلّ في المواقف الحرجة بالقول الثابت أي بالحجّة والبرهان القاطعين. أي يهبه الله ربّه العزّة على صعيد الفكر والحوار، على شاكلة ماوّه السعادة والاطمئنان القلبين. وبذلك ينجو في المواقف الحرجة والشدائد النازلة من جميع أنواع التسلّط وأحاييل إبليس وذريته التي إياه يكيدون. فإن نحن استعرضنا جميع هذه الدلالات التي أفادتها بها هذه الألفاظ الثلاثة نخلص منها إلى القول: إن الفريق المؤمن العابد ماعاد للقوانين الطبيعيّة الجردّة العائدة لهذا النظام الكونيّ المادّي، ماعاد هذه القوانين وحدها السلطان

عليه على شاكلة ماها على إبليس وذريته من أصحاب التفكير المادي. بل تدلّ هذه الدلالات مجتمعة على أن هذا الفريق المؤمن العابد عاد يخضع في الوقت نفسه لقوانين النظام الكوني الثاني، وهي القوانين القدريّة الروحية التي تمثل إرادة ومشية الله المباشرة والتي أوجدت لصالح هؤلاء العابدين. إرادة ومشية الله تعالى التي فوّضت إلى العناصر المادية خواصّها والقادرة على تحويلها وجهتها بما يكون في صالح هؤلاء المؤمنين.

ولا يغفّر القارئ أنّ الفريقين المؤمن والكافر عرضة للتأثر على حدٍ سواء بالمتغيّرات الجوية وتأثيرات الكواكب والنجوم وبالأعاصير والزلازل وغيرها من المؤثرات. فالتأثر بهذه العوامل الطبيعية هو أمر طبيعي ولا علاقة له بمدلول ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾. ذلك أن هذه الألفاظ لا علاقة لها بالمؤثرات الطبيعية، بل بالعاقبة ومكائد إبليس وذريته، فلا ينبغي أن يخلط المرء بين هذا وذاك.

ثم إنّ هذه الظاهرة لا تنتقص من قيمة العاقبة الحسنة التي تبشّر بها هذه الألفاظ ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾. ذلك أنّ هناك فرق واضح ما بين مفهوم التأثير بالعوامل الطبيعية وما بين مفهوم السيطرة والسلطان. وهل هناك حاكم في هذه الكرة الأرضية لا يتأثر بالأعاصير وأمثالها من هذه المؤثرات الطبيعية؟ ومع ذلك فلا ينتقص هذا الواقع من شأن أيّ حاكم وسيادته ولا يعييه أحدٌ في ذلك. ويظلّ حاكماً لرعيته. على اعتبار أنّ الجميع بشرٌ ويستوون على صعيد تلقّي هذه المؤثرات. فالله تعالى وبهذه الألفاظ ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ يتكلّم عن عاقبة العباد المؤمنين وليس عن علاقتهم بهذه المؤثرات الطبيعيّة.

والمهمّ في الأمر هو أنّ الفريق المؤمن الذي يفكر بتفكير روحانيّ، ومُدركاً أنّ تأثره بالعوامل الطبيعية من حوله هو شيء طبيعي بالنسبة له ويستوي فيه والفريق الكافر الذي يفكر بتفكير ماديّ، يدفعه فهمه وإدراكه هذا للتصرّف في سلوكه اليوميّ على أسسٍ ومنهجٍ علميّ. منطلقاً من أن الخالق الذي خلق العناصر المادية قد فوّض إليها خواصّها ومؤثراتها، ومن واجبه التعامل معها بأسلوبٍ علميّ.

لكنّ هذا العبد المؤمن نفسه إذا واجهه فريقاً كافراً و يُهدّده بكثرة عدّده وعُدده وأحاييل مكائده. لا يخشى مواجهة هذا الفريق وإن كان هو أقلّ منه عدّة واعتاداً. ليقينه بخضوعه لنظام كوني قدرّي على هذا الصّعيد. مدركاً حكمة ما قصّه عليه كتاب الله العزيز بشأن ابراهيم عليه السلام الذي حكم عليه قومه بالإعدام حرقاً. فلم يخش ابراهيم ما قرّره قومه لتقرير مصيره. وبالتالي قال الله تعالى : ﴿يَانَا كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾. فالله جل شأنه قال هذا من منطلق كونه يتجلّى كمالك لهذا الكون لحماية رسله وجماعات المؤمنين. أما دون ذلك فلا يتجلّى إلا كمالك في نطاق هذه القوانين الطبيعيّة الكونيّة المسنونة.

وهذه الحقيقة وجهتنا إليها سورة الفاتحة من خلال جواز قراءة آية ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قراءتها ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. وقد كان من جملة مقاصد جواز هاتين القراءتين، تنبيه أذهاننا إلى ماتضمنته قصّة آدم المجازية بحقّ عقابته كلّ من هذين الفريقين: الفريق المؤمن الذي يمثل ذريّة آدم، والفريق الكافر الذي يمثل ذريّة إبليس. فالله إذ يبعث رسولاً لتطوير البشر، يتجلّى وقتئذٍ كمالك ليتصرّف في هذا الكون المادي كما يشاء، ولينصر رسوله والمؤمنين، ويظلّ في الوقت نفسه يتجلّى كمالك ليتصرّف في هذا الكون المادي ضمن القوانين الطبيعيّة المسنونة بالنسبة لأعداء رسوله والذين آمنوا معه. وبذلك يحقق للفريق المؤمن ما وعدهم به في كتابه العزيز.

فبهذا الفهم لأقوال الله عز وجلّ الواردة في قصّة آدم المجازية وبلسان حاله جل شأنه، يتجلّى لنا المقصد الرابع العظيم الذي ابتغى ربّنا تحقيقه من وراء هذا الأسلوب في صياغة قصّة آدم عليه السّلام. فهو جل شأنه قصد توعيتنا بأمر وجود هذين النظامين الكونيين، وأنّه لا يدرك وجودهما إلاّ العبد المؤمن الذي يفكر بتفكيرٍ روحيّ.

أي أنّ هذه الأقوال الإلهية الواردة بلسان الحال تنبّه ذهن المؤمن المتدبّر إلى أنّ هذا الكون المادي لا يسير من نفسه، وإنّ بدا كذلك ظاهريّاً. بل تحكم مسيرة هذا العالم المادي حكومةً سماويّةً تفعل ماثاء وقادرةً على ماثشاء ولا يخفى عنها شيءٌ في الأرض ولا في السّماء. وهذه الحكومة السّماوية هي التي تتخذ القرارات النافذة وتقرر عقابته المؤمنين من ذريّة آدم وعاقبة الكافرين من ذريّة

إبليس . وإشارةً إلى هذه الحقيقة وردت هذه الأقوال التي أوردناها وشرحناها واستنبطنا منها هذه الحقيقة وهذه الدلالات.

٩ - المقصد الخامس لقصة آدم :

ثم إنَّ الجملات الواردة في قصة آدم المجازية ولبسان حال الله عزوجلّ والموجهة إلى ملائكته، تعبّر عن المقصد الخامس العظيم الذي ابتغى جل شأنه تفهمينا إياه من وراء صياغتها بهذا الأسلوب المجازي.

أي أنّ ألفاظ مخاطبة الله للملائكة كان المقصود به تنبيه أذهان المؤمنين إلى ما يحدث في هذه المملكة السماوية كلّما قرر الله الربّ إرسال رسول لينقل البشر نقلة نوعية تطوّرهم من حال إلى حال.

فهذه سورة البقرة التي أجمل الله عزوجلّ فيها قصة آدم المجازية، استهلّها بقوله عزوجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. أي أنّ أوّل ما يحدث في هذا المملكة السماوية هو إبداء صاحب هذه المملكة السماوية مشيئته على جنوده التنفيذيين من ملائكته.

وهو تعالى نبّه أذهاننا من خلال قوله تعالى (إِنِّي جَاعِلٌ) إلى أنّ القضيّة هي قضية اصطفاء أحد البشر، وجعله ينوب عنه في تحقيق مشيئته بينهم. ذلك أنّ الله عزوجلّ فسّر هذين اللفظين في مقام آخر من كتابه العزيز حيث قال هناك: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ﴾. أي أنه ليس المقصود من هذه الألفاظ إبداء الإرادة القاضية بإيجاد مخلوق جديد. بل دلالتها على الإصطفاء من بين أفراد المخلوق الموجود أصلاً خليفة لله من بينهم. ليحكم وينفذ إرادة ربّه بالعدل بين الناس. ذلك أنّ الخلافة تعني الأمانة والنيابة عن الغير بين الناس الموجودين لسبب من الأسباب (محيط المحيط).

أمّا في سورة (ص) فقد استهلّ جل شأنه إبداء هذه المشيئة بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾. فبين هذين الاستهلالين المجملين تغيير في انتقاء الألفاظ ودلالتهما وإن كانت واحدة الدلالة منهما تختلف عن الأخرى من حيث زاوية النظر المنظور بها لإبداء هذه المشيئة الإلهية.

فجملة سورة البقرة انطلقت من بيان الغاية وهي الاستنابة برسول عادل. بينما انطلقت جملة سورة (ص) من زاوية توضيح الوسيلة، وهي اصطفاء الشخصية

المطابقة مطاوعة الطين لأيدي النحاتين، وهو تشبيه مجازي. أما المضمون في كلتا الآيتين فواحد وهو التعبير عن مشيئة الاصطفاء.

وهذا الاستهلال وجّه الخطاب فيه إلى الملائكة في كلتا الآيتين. لتنبيه الأذهان إلى أنّ الملائكة هم الجنود التنفيذيون المكلفون بتنفيذ مشيئة الله والمخلوقين على هذه الحال، أي يفعلون ما يؤمرون.

ثم إنّ هذه الإستهلال افتتح بجملة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واستعمل فيها صفة ﴿رَبُّكَ﴾ فلم يأت جلّ شأنه عوضاً عن صفة الربوبية هنا بصفة أخرى؟ الجواب إنّ انتخاب هذه الصفة تحمل ملاءمة تامّة مع التسلسل الموضوعي. فالله عزّ وجلّ أراد تنبيه أذهاننا إلى أنّ قصة آدم المجازية ترتبط ارتباطاً وثيقاً وموضوعياً بصلته الله بمخلوقه البشر، وبالنقلات النوعية التي يحدّثها هذا الخالق في مسار تطوّر هذا المخلوق، ومن مُنطلق أنه تعالى هو ربّ العالمين.

وهو جلّ شأنه من خلال لفظي و "إذ قال" نبّه أذهاننا أيضاً إلى أنّ حكومة الله السماوية تختلف عن الحكومات الأرضية اختلافاً جذرياً. فالقوة التنفيذية في الحكومة السماوية مخلوقة على صورة تنتظر صدور إشارة الخالق معبراً عن مشيئته وإرادته فمعنى وإذ قال أي وإذ عبّر بلسان حاله عن مشيئته وإرادته لملائكته، ولا حاجة هناك للرجوع إلى دساتير ومجالس برلمانية وتشريعات واتخاذ قرارات وانزال عقوبات بالمخالفين. فملائكة الله عزّ وجلّ (يفعلون ما يؤمرون) طوعية على أساس أنّ خالقهم قد خلقهم على هذه الشاكلة لأنّه المالك وفعال لما يريد، وليس الله تعالى وهو في حكومته السماوية بمالك يتقيّد بدساتير ومجالس تشريع ولا اتخاذ قرارات، كما هو الحال في الحكومات الأرضية. الأمر الذي يجليّ البون الواسع الكائن ما بين حكومة السّماء وحكومات الأرض.

فهو جلّ شأنه حين يشاء إحداث نقلة نوعية في حياة هذا المخلوق البشر، يتجلّى في العالم المادّي بصفته المالك وليس بصفته الملك. لذلك يفلح في الوصول إلى تحقيق ما يريد، ويفشل إبليس وذريته فيما يعدّونه خلاف مشيئته تعالى وفيما يخطّطون له ويسعون إليه. فهذا هو ما أراد الله عزّ وجلّ تفهيمنا إيّاه، بلسان الحال ومن خلال هذا السّبك البلاغي الواسع الدلالات.

وبلسان الحال نفسه صاغ ربّنا عزّ وجلّ ما شاء أن يُطلّعنا عليه من حال ملائكته وإمكانياتهم الفكرية والغيبية وقال: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

الدِّماء ونحن نسبِّح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴿١﴾. وليشير جلّ شأنه بهذه الألفاظ المسبوكة سبكاً بلاغياً إلى أنّ القوة التنفيذية السّماوية، تدرك مهمّتها إدراكاً لا يفسح المجال لوقوع أيّ خطأ كان تنفيذاً لمشيقة الله عزوجلّ. ولا تشبه في ذلك القوّات التنفيذية الأرضية التي لا تتحلى بتلك اللّياقة المدهشة. ويصدر عنها بالتالي أخطاء قد تسيء أحياناً للحاكم الذي أصدر تلك التعليمات.

فقول الملائكة صيغ بلسان حاطم ليعبّر لنا أن الملائكة فهموا من لفظ "خليفة" أنّ الله عزوجلّ سيصطفي بشراً فيطوّره ويؤسّد إليه مهمّة إحداث النقلة النوعية التي شاء أن يحدثها في مسار البشر وحياتهم.

وأنّ الرّسالة التي سيحمّلها الله تعالى هذا البشر الذي اصطفاه خليفة له اقتضت طرح أفكار وتشريع ومن ثمّ وتجميع طائفة من المؤمنين الملتزمين كما اقتضت ظهور طائفة مخالفين مكذّبين وبدء صراع أيديولوجي وحضاري وبالتّالي حدوث إفساد في الأرض وسفك دماء. فهذه المعلومات جميعها أمكن للملائكة إدراكها بداعي ما كانت تحمله من مؤهّلات تؤهلها لفهم مرامي وأبعاد مشيئة الله خالقها والذي خلقها وأودعها جميع هذه المؤهّلات. ولتكون قوة تنفيذيّة تسبِّح بحمد الله ربّها وتقدره فلا تتمرد عليه بشكل من الأشكال.

لكنّ الملائكة أبدت عجزها عن إدراك ما وراء ذلك من علم فالعنى أننا أدركنا مشيقتك واستؤدي إليه ولا نعلم شيئاً ممّا وراء ذلك. فما كانت الملائكة تعلم علم الغيب الذي يؤهلها لتنظيم البعد الكبير الذي كان يرمي إليه الله جلّ شأنه من تطوير البشر الذين كانوا يحيون حياة أشبه ماتكون بحياة الأنعام من حولهم، وإشارة إلى هذه الحقيقة وإلى بيان محدوديّة علم الغيب لديهم راح جلّ شأنه يوضّح ذلك بلسان حاله: ﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾.

وبما أنه كان من مهمّة ملائكة الله أن ينفذوا مشيئة ربهم كلّما شاء الله عزوجلّ إحداث نقلة نوعية جديدة في حياة البشر لتطويرهم باتجاه تحقيق المقصد من خلقهم. وكان هذا الخليفة الأوّل هو آدم عليه السّلام. فقد شاء ربنا تنبيه أذهاننا إلى أن علم المخطّط السّماوي الغيبيّ الذي كانت تقتضيه ربوبيّته عزوجلّ لتحقيق ذلك المقصد من خلق البشر، كان جاهزاً بكامل عناصره، بالرّغم من كون الله قد خلق هذا البشر حرّاً الفكر والإرادة والتصرّف. وأنّه جلّ

شأنه أطلع خليفته آدم وهو النبي الأول ضمن سلسلة هؤلاء الأنبياء الذين سيبعثهم الله جلّ شأنه خلفاء له ليحققوا ما يقتضيه هذا المقصد الأسمى من خلق الله هؤلاء البشر من نقالاتٍ نوعيات. ولذلك لاحظناه جلّ شأنه يضيف قائلاً: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. أي ها أني أطلعت هذا الخليفة آدم على أبرز أسماء هؤلاء الأنبياء الذين سأبعثهم من بعده ليكملوا مهمته كخليفة لربه عز وجلّ. فهيا أنبؤني بأسماء هؤلاء الأنبياء في وقتٍ ستكلفون أنتم أيضاً بمهمة مساعدتهم على تحقيق مهماتهم إن كنتم صادقين فيما ستنبؤني به. وراح جلّ شأنه يزيدنا علماً بمؤهلات واستعدادات قوة مملكته السماوية التنفيذية، ويقول ولسان حالهم أيضاً: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. ونبئنا من خلال قول ملائكتهم ولسان حالهم إلى حقيقة أنهم لا يعلمون الغيب إلا ما علمهم الله تعالى إياه. وأنا قلت آنفاً (أبرز أسماء هؤلاء الأنبياء) من منطلق أنه تعالى استعمل صيغة (الأسماء كلها) ولم يقل جميعها فالكل يحتمل الاستثناء. وبما أنّ قصة آدم المجازية وردت جملة في سورة البقرة، فقد اقتضى ذلك أن ينبئنا أيضاً إلى أنّ آدم سينبئ عن أسماء هؤلاء الأنبياء الذين سيبعثهم الله تعالى من بعده، وبالتالي ستطلع الملائكة على أسماء هؤلاء الأنبياء والمرسلين. لذلك أضاف يقول ولسان الحال أيضاً:

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، أَيَّ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَاءِ أَهْلِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ سَأَصْطَلِفِيهِمْ مِنْ بَعْدِكَ - فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ؟﴾. فلمّح جلّ شأنه من خلال قوله هذا ولسان حاله إلى أنه لم يخلق الملائكة فقط كقوة تنفيذية سماوية تقوم بتنفيذ مشيئته عز وجلّ، بل إنه خلق أيضاً هذه السماوات والأرض وما تحمله من أسرار غائبة عن أذهان الملائكة والبشر، وكلّها مسخرة وبما تحمله من أسرار ومؤثرات، لتأييد هذه السلسلة التي سيبعث رجالاتها خلفاء له كأنبياء ومرسلين لتحقيق ما اقتضته ربوبيته تعالى لتطویر البشر إلى مرتبة المقصد من خلقه أيّاهم في هذه الحياة الدنيا وذلك كمرحلة أولى من ضمن المراحل القادمة من بعد موتهم جميعاً لإمرارهم بمرحلة متوسطة برزخية قبل بعثهم للمرة الثالثة على درب حياة

الخلود. وهكذا تتضح لأعيننا ملامح التسلسل الموضوعي لقصة آدم ودلالاتها بأسلوب مجازي وبلسان الحال.

فإن نحن عُدنا إلى ما استهلّ الله تعالى به قصة آدم المجازية الواردة في سورة الأعراف، نلاحظ اختلافاً بيناً بين هذا الاستهلال وبين استهلاكي سورتي البقرة و(ص) الاحمالين. ففي الأعراف قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ..﴾ فدخل جل شأنه في بيان تفاصيل ما أحمله منها الأذهان إلى أنّ قوله تعالى في سورة البقرة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ لا يعني بحال من الأحوال أنّه تعالى يتكلّم عن بداية خلق البشر. بل يتكلّم عن أوّل نبي يريد الله تعالى اصطفاؤه لينوب عنه في موضوع إحداث عمليّة أوّل نقلة نوعيّة في حياة البشر المخلوقين من قبل آدم ومنذ ملايين السنوات والذين كانوا يحيون حياةً أشبه بحياة العجماوات.

هذه المعلومة أضافها جلّ شأنه من خلال جملة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ وبصيغة الجمع، والكلام فيها موضوعه البشر كافة. وقد نبّه الله جلّ شأنه من خلال هذه الألفاظ أيضاً أذهان الباحثين إلى أمرين بارزين: الأوّل منهما الرّد على أصحاب النظريات الزاعمة أنّ قفزة نوعيّة حدثت لأحد أنواع القرد الذي تطوّر من جرائها إلى بشر. هذا ما يُستفاد من قوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾. والأمر الآخر هو أنّ هذا المخلوق البشر والذي تميّز عن بقية المخلوقات. بموهبة العقل احتاج لتنمية عقله ووعيه إلى ملايين السنوات حتى تمكّن هذا البشر من وعي النظام والقانون والخطأ والصواب. فهذا ما يُستفاد من قوله ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ فالحرف (ثم) يفيد الترتيب. وتأخير صورناكم عن خلقناكم يشكّل قرينة لغوية تنقل معنى التصوير هنا من معناه الحقيقي المتبادر إلى ذهن القارئ إلى معناه المجازي، ذلك أنّ إعطاء الشكل والصورة يسبق عمليّة الخلق أصلاً ولا يكون بعده.

وكأنه جلّ شأنه بهذا الاستهلال من سورة الأعراف قال باللفاظ أخرى: لا يظنّ ظانّاً أنّ آدم كان أوّل بشر خلقناه بل أوّل نبي اصطفيناه، من بين هؤلاء البشر الذين مرّ على خلقهم ملايين الأعوام تشملهم ربوبيّة خالقهم وتصوّرهم أيّ تكمّل عقولهم وأفهامهم ووسائل معيشتهم.

ونتقل إلى ما استهلّ الله تعالى به قصّة آدم المجازيّة في سورة الحجر. فهو تعالى شرع هناك يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدَمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. أي أنه جلّ شأنه أضاف هنا معلومة جديدة، تتمثل في تقسيمه تاريخ خلق هؤلاء البشر إلى قسمين: المستقدمين والمستأخرين. مُعتبراً جعل آدم خليفة له الحدّ الزمني الفاصل بين المتقدمين من البشر والمتأخرين عنه. والله تعالى بهذا التقسيم وافق آراء مؤرخي تاريخ البشر كلّ الموافقة.

فالعلماء من هؤلاء اعتبروا أنّ البشر ترك آثاره التاريخية منذ ما يعود إلى ما قبل عشرة آلاف عام تقريباً. أما قبل هذه المدة فلم يترك هذا البشر أثراً تاريخياً تدل على أنه كان يحيا حياة حضارية. وقد سبق لي أن وضّحت أنّ تاريخ بعثة آدم قد تحقق خلال هذه المدة المذكورة على وجه التقريب.

ومن ثمّ راح جلّ شأنه يقسم الطبائع إلى قسمين أيضاً... طبائع البشر ما قبل آدم أنّها كانت طبائع نارية. وطبائع آدم هذا الإنسان الأول وذريته كانت طبائع صلصالية أي تستجيب لصوت ربّها المتمثل ببعثة آدم ومأتى به من تعاليم. أي أنّ لفظي من نار ومن صلصال، لا يقصد بهما ما يتبادر لذهن القارئ من دالاتهما الحقيقية، بل يقصد تعالى معانيهما المجازية.

فهو تعالى راح يقول بعد التقسيم الأوّل الذي ذكرناه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾. فالمقصود بالإنسان هنا آدم خليفة الله في الأرض، لتعريفه جلّ شأنه لفظ إنسان هنا بالآلف واللام المشيرين إلى معهود ذهني هو آدم عليه السلام. فطبيعة آدم كانت صلصالية كالفخار المشويّ إذا قرع المرء بإصبعه عليه يسمع صدور صدئ عنه. فشبه الله تعالى بذلك الطبيعة الآدمية بهذا التشبيه على اعتبار أنّه استجاب لصوت ربّه وردّد صدها.

والمقصود بالجآنّ هنا البشر المتقدمين في وجودهم على زمن بعثة آدم. فطبيعة أولئك المتقدمين الذين كانوا يعيشون في الكهوف، كانت طبيعة نارية أي طبيعة ردود أفعال، لا تتصف بالعقلانية ولا بالإنزان. وهذا معنى ما عبّر عنه جلّ شأنه بقوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾.

والله جلّ شأنه أضاف يقول إضافة إلى ما ذكرناه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ

من روجي فقعوا له ساجدين ﴿٤٠﴾. فأضاف من خلال قوله هذا معلومة جديدة. وهي أن آدم قد خضع لتوجه ربوبية الله نحوه منذ نعومة أظفاره، فراح يصطنعه لنفسه ويسوي طباعه، قبل أن يؤتیه الرسالة. وهذه المعلومة تُفيد أن عملية التربية والتسوية والتطوير هذه يحظى كل نبي بنعمتها إذا ما أراد الله عز وجل أن يصطفيه لتكليفه بحمل رسالة سماوية، وهذه المعلومة تفسر ماخاطب الله تعالى به موسى وقال في سورة طه (٤٠/٤٢): ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَكَلَّمْتُ نَفْسًا فَجَعِلْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفُتِنًا ۖ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ۚ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۚ إِذْ هَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾. والذي يُراجع سيرة محمد خاتم النبيين من زاوية نظر هذه المعلومة التي وضّحت قصّة آدم المجازية هنا في سورة الحجر ستأخذ الدهشة من كثرة ما يلاحظه من واقعات تؤيد ما ذكرناه.

فإن نحن عدنا إلى ما استهلّ الله تعالى به قصّة آدم المجازية التي أوردنا في سورة طه). نلاحظه جلّ شأنه قد قال هناك: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ فَنسِي ۖ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عِزْمًا ۚ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾. وقد أضفنا جلّ شأنه في هذا الموضع ومن خلال هذا الاستهلال معلومة جديدة أيضاً، وهي أن لا تحسبوا أن الإنسان الذي يصطفيه الله تعالى لرسالته، يعود بعد بعثته شخصاً معصوماً عن الخطأ كلاً فكل إنسان خطّاء. لكن هناك فرق بين الذي يُخطئ متعمداً الخطأ والمعصية، وبين الذي يُخطئ غير متعمداً ما أخطأ به، فالخطأ المتعمد إثم، على حين أن الخطأ غير المتعمد ذنب لا يرقى إلى مرتبة الإثم. وها أن قصّة آدم المجازية قد نُبّهت إلى هذه المعلومة سلفاً. ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ فَنسِي ۖ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عِزْمًا﴾. وقد أكدّ جلّ شأنه صحّة معلومته هذه، مشيراً إلى أن هذه الحقيقة هي التي استدعت من الله الخالق فتح باب الاستغفار والتوبة لجميع الناس بما فيهم الأنبياء أنفسهم. وإشارة إلى ذلك أضفنا بعد ذلك قوله: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

فإن نحن استعرضنا ما أوردته جلّ شأنه في سورة الكهف من قصّة آدم المجازية، حيث قال هناك: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي

وهم لكم عدوٌ بنس للظالمين بدلاً. وقد كنت أوردتُ تفسير هذه الآية الكريمة ضمن تفسير سورة الكهف، وربطت بينها وبين التسلسل الموضوعي للسورة هناك.

أقول: لقد تضمّن هذا الاستهلال هنا معلومة تحذير شديد من خطر الانسياق وراء ماتأتي به ذرية إبليس من حضارات وإنجازات علمية، وتناسى استعمال هذه الأشياء بأسلوب تفكير روحاني.

أي أنّ الله عزوجلّ ينهى هنا عن أنّ ذرية إبليس التي تفكر بأسلوب تفكير مادي، لا بدّ أن يتحقّق على أيديهم قيام حضارات، وإنجازات علمية. وهم بسبب تفكيرهم الماديّ لن يسخروا هذه الإنجازات لصالح البشرية، بل لصالحهم أنفسهم، ولبسط هيمنتهم على غيرهم من شعوب الأرض. وهذا الأمر يتنافى والغاية من تسخير كلّ شيء لصالح الإنسانية جميعها ضمن حدود وقوانين نصّ عليها هذا الكتاب السماوي العزيز. أي أنّ سورة الكهف أوردت تحذيراً سماوياً لصالح المؤمنين أنفسهم الذين يمثلون ذرية آدم في مواجهة ذرية إبليس.

وسورة الإسراء، على حسب ما وضّحته من قبل وعلى ضوء تسلسل الآيات الموضوعي، راح الله عزوجلّ يصوّر ما أورده فيها من قصّة آدم المجازية النتائج الوخيمة التي ستحلّ بالمسلمين زمن ظهور المسيح الدجال، نتيجة عدم تدبّرهم قصّة آدم تدبّراً موضوعياً، ولتجاهلهم جميع التحذيرات التي حذرت منها قصّة آدم المجازية من الأخطاء المتوقعة على أيدي ذرية إبليس. أي أنّ المسلمين لم يفتنوا إلى أنّ قصّة آدم وردت بأسلوب مجازي وبلسان الحال، وبالتالي لم يفتن هؤلاء المسلمون إلى المقاصد الخمسة الكبرى المضمرة في هذه القصّة أيضاً. لذلك يؤول حال هؤلاء المسلمين إلى الإنحطاط والتخلف بصورة طبيعية.

وعلى هذه الصّورة يكون القارئ قد أدرك دلالات قصّة آدم المجازية ومقاصدها الكبرى وهي القصّة المسبوكة بأسلوب بلاغي معجز يدهش عقول المتدبّرين، هذه القصّة القرآنية التي وُزعت معلوماتها ومقاصدها ودلالاتها هنا وهناك في سبع سور من كتاب الله العزيز. ووفق ما كان يقتضيه التسلسل الموضوعي لكلّ سورة من هذه السّور السّبع.

فالمفسّرون القدماء الذين تأثروا بأراء أهل الكتاب وبما نقلوه إليهم من معلومات حول قصّة آدم - هؤلاء المفسّرون الذين لم يتدبّروا النصوص القرآنية

بمعزل عن التأثير المذكور - يحبطوا في أمر شرح الآيات التي تكلمت عن آدم بحبط ناقة عشواء، وشوهوا بذلك الوجه البلاغي لهذه الآيات، وتركوا الباب مفتوحاً على مصراعيه لتهجمات أعداء الإسلام على مضمون هذه الآيات. حتى عادوا ينسبون إلى كتاب الله العزيز اشتماله على الأساطير الخرافية.

١٠ - قصّة آدم مجازية وبلسان الحال في التوراة والقرآن :

وقد يسأل امرؤ هنا: مامعنى أن ترد قصّة آدم في هذه التوراة المعاصرة بدلالاتها الحقيقية، وترد نفس هذه القصّة في كتاب الله العزيز بدلالاتها المجازية وبلسان الحال، ولتسبّب بالتالي بجميع هذه الوليات؟

وجوابي المجل هو أنّ قصّة آدم وردت مجازيّة في التوراة وليس في القرآن الكريم وحده، ولم ترد هنا مجازيّة وهناك بدلالات الألفاظ الحقيقية. لكنّ رجال الدّين والمفسرون هنا وهناك وقعوا في خطأ واحد، وتسبّبوا بنفس النتائج الوخيمة التي أسفرت عن خطئهم جميعهم. فإن عاد القارئ وتدبّر ماأوردته التوراة المعاصرة من هذا المنطلق وبهذا المنظار، سيتوصّل يقيناً إلى صحّة ماذهبت أنا إليه. علماً بأنّ هذه التوراة لم تكتب في حياة موسى نفسه، بل كتبت بعده بعدة قرون وعلى السّماع وبدون توثيق.

وهو أمر سبق لي أن أثبتّه في فصل مصداقيّة القرآن الكريم من هذا الكتاب. هذا وإنّي سأثبت طرحي هذا من أنّ قصّة آدم الواردة في التوراة المعاصرة مجازيّة أيضاً وذلك في الكتاب الذي سأصدره بعنوان (خلق الإنسان) إن شاء الله العزيز.

والذي أريد لفت النظر إليه في هذا المقام هو أن أقوال الأنبياء ما قبل الإسلام كانت ترد بأساليب التشبيه والمجاز وضرب الأمثلة بصورة عامة. والقليل من أقوالهم تلك كانت ترد بدلالاتها الحقيقية. وحكمة ذلك أنّ عقل الإنسان ما كان من النّضوج إلى درجة تساعد على إدراك كلّ ما يأتي به نبيّ عصره. خصوصاً وأنّ المعطيات العلميّة كانت غير متوفّرة أيضاً في أزمنة ما قبل نزول القرآن الكريم.

أما النصوص القرآنية فقد أوردها الله عز وجل بدلالاتها الحقيقية إلا القليل النادر منها، بعكس ما كان يجري قبل بعثة محمد خاتم النبيين (ص). وهذا النادر القليل كانت تعمل وراءه نفس الحكمة التي ذكرناها أيضاً. ولا مجال هنا لضرب الأمثلة والشرح والتبيان.

ونعود إلى أصل بحثنا وهو الكلام عن اتصال الله بمخلوقه البشر منذ أن خلق الله تعالى هذا المخلوق على سطح كوكبنا الأرضي. وقد ثبت لدينا حتى الآن أنه جل شأنه كان يكلم البشر من وراء حجاب طوال ملايين السنوات، ليساعد عقل هذا المخلوق على التطور والنضوج فلما بلغ هذا العقل المستوى اللائق لإدراك مفاهيم الذنب والنظام والقانون، اصطفى الله تعالى من بين هؤلاء البشر (الجان) الذين كانوا يقطنون الكهوف، أكملهم عقلاً واتزاناً، وهو آدم عليه السلام، واختصه برسالته ليحدث نقلة نوعية في حياة هؤلاء البشر، وذلك منذ ما يقارب سبعة إلى عشرة آلاف عام، وابتدأ بذلك تاريخ الإنسان بعد أن نقله آدم من حياة التوحش إلى حياة التهذيب والتحضّر. وانقسم الناس بذلك إلى فريقين: فريق مؤمن يفكر بأسلوب تفكير روحاني، وفريق كافر يفكر بأسلوب تفكير مادي محض لا يحسب لوجود خالقه ولا للحياة القادمة بعد الموت أيّ حساب.



الباب الثالث

الفصل الأول صلة الله بالبشر بعد آدم

والسؤال الآن: ماهي معالم اتصال الله تعالى بهذا الإنسان منذ بعثة آدم وحتى يومنا هذا؟ وماهي معالم ماحققته ذرية إبليس أيضاً خلال المدة نفسها؟

١ - شعار رسالة آدم الحوار لا العنف:

وقبل الإجابة على طرفي معادلة هذا السؤال. أرى من المناسب لفت نظر القارئ إلى أن آدم عليه السلام، لم يعتمد إلى العنف وسفك الدماء من أجل نشر رسالته. أي أن الرسالة السماوية تلك رفعت شعار السلام والحوار بالحجة والإقناع. ولم يحدث أن بعث الله عز وجل بعد آدم نبياً رفع شعاراً مغايراً للشعار الذي رفعه آدم. إلا أن يضطر النبي لمقاتلة الذين يقاتلونه وبإذن من الله علام الغيوب والقادر على نصرته رسله وتأبيدهم من وراء حجاب ولا تقع مسؤولية الرد على العدوان ومقاتلة المعتدين في تلك الحال على أكثاف النبي والذين أتبعوه. بل تقع مسؤولية ذلك على المعتدين. فهذا هو المسار الذي التزم بمبادئه وشعاراته آدم وذريته. هذا على حين أن إبليس وذريته لم يرفعوا هذا الشعار في يوم من الأيام.

٢ - حركات انقلابية مادية كبرى

والآن إن نحن استعرضنا الانجازات التي تحققت في الجانب الذي راح يفكر دوماً بتفكير مادي من ذرية إبليس، تتجلى لأعين المحقق معالم خمس حركات انقلابية كبرى وهامة تركت أطلالها هنا وهناك. وكانت حاملة فلسفات خاصة بها، وتحقق على أيادي أصحابها إنجازات علمية أيضاً. فالحركة الآرية ظهرت في شبه القارة الهندية، وكانت دوماً تشكل لولب أحداث تلك المنطقة من العالم. كذلك ظهرت حركة رومانية من شبه الجزيرة الإيطالية، وكانت ولا تزال تشكل لولب أحداث الدول الأوروبية وحتى يومنا هذا. كذلك

ظهرت الحركة الفارسية التي ظهرت في فارس، وشكّلت لولب أحداث آسيا والصين.

والحركة الرابعة ظهرت في أرض بابل من العراق، فكان منشؤها بلاد ما بين دجلة والفرات، وكانت تشكّل لولب أحداث غربي آسيا وشمال أفريقيا، أمّا الحركة الانقلاية الخامسة فكانت ماُنطلق عليه في أيامنا هذه مصطلح الحضارة الأوربية - هذه الحركة التي اتّسمت بسمة التأثير العالمي. فهذه حركات انقلاية كبرى برزت معالمها عبّر تاريخ البشرية من بعد بعثة آدم عليه السّلام. هذا وإن جميع ما حدث خارج أطر هذه الحركات فقد كانت أنطلاً لهذه الحركات وثمّاراً. وإن تكن هذه الحركات قد بادت واندثرت وزال أعلامها ورموزها ومؤسّسوها من الوجود.

ثم إن الباحث المتعمّق في تاريخ البشر يُلاحظ أنّ هذه الحركات لم تظهر إلى المسرح، إلّا بسبب ما كانت تحمله من أفكار جديدة وفلسفات.

٣ - الحضارة الآرية وطروحاتها :

فالحضارة الآرية طرحت فلسفةً طبقيّة، وهو أنّ البشر لايشكّلون طبقةً واحدةً تتساوى في صفاتها ومقوماتها. بل يشكّلون طبقات منها العليا ومنها الدنيا ومنها الغنيّة ومنها الفقيرة ومنها القوية ومنها الضعيفة، ومنها الذّكية ومنها الغنيّة. وأنّ روح الإنسان الميّت تعود إلى الحياة وتتقمّص مولوداً آخر ومن طبقة أخرى غير طبقته، وعقيدة التّقمّص هذه أثّرتها الفلسفة الطبقيّة المطروحة من قبل الذين أسّسوا الحضارة الآرية. ولاتزال شبه القارة الهندية تعاني من مساوئ هذا الطرح الفلسفيّ الآري حتى يومنا هذا.

٤ - الحضارة الرومانية وطروحاتها :

ثم إن الحضارة الرومانية ارتكزت إلى فلسفة القانون وحقوق الإنسان. وأنّ الإنسان يملك بالفطرة حقوقاً إنسانيةً ثابتة. الأمر الذي يقتضي سنّ القوانين لحماية هذه الحقوق الثابتة للإنسان. هذا وإنّ الباحث الذي يتفحص الحضارة الغربية المعاصرة تراءى له معالم استنادها في سنّ قوانينها وتشريعاتها، إلى القوانين الرومانية القديمة هذه وبصورة بارزة أيضاً.

٥ - الحضارة الفارسية وطروحاتها :

والحضارة الفارسية تميّزت بفلسفتين بارزتين على صعيد السياسة والأخلاق، فقد انطلق مؤسسوها من وجود ظاهرتي الخير والشر في هذا العالم. فزعموا وجود إلهين هما إله الخير وإله الشر. وشكّلت فلسفتهم تلك ركيزة أخلاقية لحضارتهم القديمة. وقد أثمرت فلسفتهم المذكورة عن نظام سياسي متميّز، وهو نظام الشاهنشاهية أي ملك الملوك، الذي يمثل إله الخير، هذا وإن نظام الشاهنشاهية المذكور يتّأسس عدّة حكومات مستقلة. يستعين بالخاضعة لسلطانه من الحكومات على التمرد على هذا النظام، وقد قضت الثورة الخمينية على نظام الشاهنشاهية المذكور.

٦ - الحضارة البابلية وطروحاتها :

والحضارة البابلية اهتم أصحابها بعلمي الهندسة والفلك. وكانت فلسفتهم في هذه الانطلاقة هو أنّ الشمس والقمر والنجوم تسير بنظام طبيعي أساسه علما الهندسة والفلك. الأمر الذي كان يعني في نظر مؤسسي الحضارة البابلية أنّ علمي الهندسة والفلك لا بدّ أن يشكّلا مفتاح تقدم أمتهم وفلاحها ولتأسيس حضارة تتباهى بها بين جيرانها من الأقوام المحيطة بها. كما أنّ تطوير هذين العلمين سيساعدهم على اكتناه أسرار الفضاء أيضاً.

٧ - الحضارة الغربية المعاصرة وطروحاتها :

ونأت أخيراً إلى الحضارة الغربية المعاصرة، فنلاحظ استنادها إلى فلسفتين بارزتين الأولى منهما ضرورة التفكير بأسلوب تفكير مادّي علمانيّ، أي الالتزام بأسلوب البحث العلمي المنطلق من قواعد ثلاث هي الملاحظة والتجربة والاستنتاج. وقد أسفرت هذه الفلسفة المادية عن فلسفة لاحقة وهي فلسفة القومية. أي لا يتأتّى نجاح الفلسفة المادية هذه إلّا تحت شعار القومية. ولا شكّ أنّ الذي يفكر بتفكير مادّي محض وبهذا الأسلوب العلمي، ولا يحسب للموت والآخرة حسابها، لا بدّ أن تغلب على هذا الإنسان روح الأنانية الضيقة، ومن هنا تولّدت فلسفة القوميات عند الغربيين. ثم إنّ هذا الإنسان المادّي الأناني، سيميل بشكل طبيعي إلى الأخذ بأسباب التمتع والرفاهية، والبذخ والترف بلا حدود، ولا بدّ للذي يسافر إلى بلاد الغرب أن يرى ويشاهد

ما آلت إليه تلك المجتمعات الغربية التي تمثل هذه الحضارة الغربية المعاصرة، فلن يطعن في أمر واحد ذكرته هنا للقارئ فيما يتعلق بحضارة الغرب هذه. وبالإضافة إلى هذا وذاك فسيلاحظ هذا المسافر تأثر تلك الشعوب بالحضارة الرومانية القديمة أيضاً.

فهذه حركات انقلابية كبرى تأتت على أيدي ذرية إبليس وشكلت على ممر الأيام غذاءً فكرياً وعلمياً استمر عطاؤه وبصور وأشكال مختلفة لكنها جميعها ترجع إلى هذه الجنور الخمسة الكبرى بالرغم من أنها تأسست على العنف بمختلف أشكاله وليس على الإقناع والحوار، ورافقها سفك دماء وتوسع في الأرض بالقوة. فالسؤال الذي يواجه الباحث هنا: أن كيف تحققت لها هذه النجاحات والاستمرارية؟ بالرغم من كونها من عمل ذرية إبليس، وبعيدة عن التفكير الروحاني؟

٨ - سرّ نجاح هذه الانقلابات الكبرى :

الجواب يعثر عليه الباحث المتفحص، أن هذه الحركات جميعها انتحلت صفة الرسالة تقليداً لصفة الرّسالات السّماوية، فقد حاول أصحابها خداع الناس زاعمين أنهم يحملون رسالة فلسفية نابغة من واقع الحياة وقوانينها الطبيعية، وليست الفلسفة المادية الماركسية ببعيدة عن أذهان الناس وذاكرتهم أيضاً. فالذي يتنحل صفة رسالة ويدعم رسالته الفلسفية المزعومة هذه بالعنف وسفك الدماء بعيداً عن الحوار والإقناع بالحجة والبرهان، فيأمكنه تضليل الشعوب ولكن إلى حين. وقد حذرت قصّة آدم المجازية من الأخطار الناجمة عن الانقسام الأول الحادث زمن آدم كلّ التحذير. وهذه القصّة الآدمية وتحذيراتها تناقلها جميع الأنبياء وحذروا بها أقوامهم. وها أن التوراة شاهدة على هذه الحقيقة ومع ذلك يميل اليهود إلى الفكر المادي.

كذلك فبالرغم من أن القرآن الكريم نبه عقولنا إلى هذه الحقائق التي تضمنتها قصّة آدم المجازية، والذي أنزله ربنا عزوجل منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، فمع ذلك يميل أكثر مسلمي عصرنا إلى تجاهل هذا التحذير الإلهي، ويهرول أكثرهم وراء المسيح الدجال صاحب الفكر المادي العلماني. ويصدق عليهم قول ربنا عزوجل: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا

به يستهزئون ﴿١﴾. أي يستهزئون بما يحمله إليهم قول ربهم عز وجل من حوارٍ مقنع وتحذيرات من ذريته إبليس وتوعداته. فالعداوة التي ابتدأها إبليس القانط من رحمة ربه، توارثها أبنائه وذريته جيلاً بعد جيل. فتشكلت من جرّاء ذلك سلسلتان في سجل تاريخ هذا البشر من بعد بعثة آدم: سلسلة ذرية آدم الروحانية وسلسلة ذرية إبليس التي تفكّر بتفكير مادي بعيداً عن كل شيء روحانيّ .

وها أنني بصدد استعراض ما أحدثه آدم ورسالته في حياة البشر من انقلابٍ حقيقي، وما أحدثته رسالات الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى من بعده أيضاً من انقلابات حقيقية، ومن ثم فأوازن للقارئ ما بين هذه الانقلابات ذات السّمة الرّوحية وبين هذه الانقلابات الخمس الكبرى المادية، إن شاء الله العزيز، فقد أحدثت الرسالات السماوية ستّة انقلابات عظمت في تاريخ البشر، وأثمرت عن هذا الفكر التوحيديّ العظيم الذي تضمّنته آيات هذا القرآن العظيم بين دفتيه. هذا في مقابل الانقلابات الخمسة المادية التي أتينا على ذكرها. تلك الانقلابات الدّموية، وصاحبة الرّسالات المزعومة والتي لاتزال البشرية تمسّ تحت وطأة زيفها وبُطلانها.



الفصل الثاني الانقلاب العظيم الذي أحدثته بعثة آدم

نتناول بالذكر أول انقلاب حقيقي أحدثته بعثة آدم في حياة البشر الذين ظلوا يَجْتَبِهُونَ في الكهوف أكثر من أربعة ملايين عام وثيف ، على حسب ما دلت على ذلك آثاره التي عُثِرَ عليها حتى الآن.

١ - الفطرة البشرية واحدة :

وقبل الدخول في تفاصيل ذلك أتبه وأقول: لم تكن فطرة البشر القديم تختلف عن فطرتنا المعاصرة، فالنطقة كانت ولا تزال "نطقة أمشاج" ومغايرة لنطقة جميع الحيوان، فهذه حقيقة تبطل ضمنياً الزعم الدارويني من أن الإنسان حصيلة طفرة نوعية. وهذا مفتاح علمي أضعه بين أيدي الباحثين. ثم إن هذه الفطرة البشرية مؤلفة من مزيج قوى باطنية أخلاقية متضادة كقوتي الحب والبغض والشجاعة والجبن والكرم والبخل والتضحية وحب الذات، إلى جانب ميول خيرة وميول فاسدة وإلى جانب شهوات جنسية جسدية، ولولا التعاليم السماوية لما كان قد وُجِدَ تمايز ما بين خير وشر. فالذين لا ينصبغون بصبغة الله، ومن أحسن منها صبغة؟ لا بد أن يحيا حياة غير سعيدة، لأنها تصير إلى حياة حرص على المال، وحرص على الأولاد، وحرص على الجاه وحرص على حسد الأغيار. وهذا الحرص كله ينقلب إلى عداوات تنغص سعادة المرء وتحرفه عن المقصد من خلقه.

فهذا هو ما حدث للبشر الذين لم يستجيبوا لآدم ولتعاليمه ولصوته السماوي. فقد أكل الحسد أكادهم للفارق الكبير الذي تمايز به آدم والذين اتبعوه عن أولئك الذين فضّلوا البقاء في كهوفهم.

وهذا الحسد والحقد الدفين تجلّى من خلال ألفاظ: ﴿فوسوس إليه الشيطان﴾ فوسوس معناه: حدّثه بما لانفع فيه ولاخير (محيط المحيط). فأدم كان يبتغي هداية جميع البشر في منطقته. وهؤلاء جماعة إبليس الذين ناصبوا آدم العداء ماكانوا يملكون يومئذٍ إلاّ انتحال لباس المنافقين، والوسوسة بما لانفع فيه ولاخير. لذلك لم يتسنّ لإبليس أن يُحدث زمن آدم أكثر ممّا أحدثه. فبماذا وسوس هذا الشيطان إلى آدم من أمور لانفع فيها ولاخير؟ لم يتطرّق القرآن الكريم إلى ذكر ذلك.

مكتفياً بالقول: ﴿قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلْكٍ لا يلى﴾. وهذا كلام مجازيّ عامّ متعلّق بالأمور المنهيات وليس بالأمور المباحات. والقصد منه التنبيه إلى أنّ ذريّة إبليس سيكون جُلّ همّهم أن يشيعوا الفاحشة بين المؤمنين ليشتككهم بتعاليم ربّهم وليحرّمهم بالتالي من أسلوب التفكير الروحاني ومن تأييد الله الذي أمرهم أن يفكّروا بهذا الأسلوب من التفكير، وكأنّ هذه الألفاظ من هذه القصّة المجازية تصوّر حال غير المؤمنين تصويراً شنيعاً. فتعظّ بأنّ ذرية إبليس خربّون ليس إلاّ. فلا يكفي أن يؤثّر الإنسان خربة التفكير والعمل، بل لابدّ له من واعظٍ وهاجٍ يهديه سبيل استعمال ما أوتيّه في فطرته من قوى كيلا تتصارعه قواه وميوله وشهوته ويتنزّل بالتالي إلى أسفل سافلين.

أفلم يتبّه القارئ إلى هذه الحقيقة التي تضمّنها قول ربّنا عز وجل: ﴿ونفسٍ وماسواها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها. وقد خاب من دساها. كذّبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها﴾. (الشمس ٧ - ١٢). فكلّ من يكذب هذه الحقيقة وطغواها، تنبعث من باطنه الشقاوة ويتعدّد عن السعادة كلّ البعد ولا يعود إلاّ خرباً في هذه المرحلة من حياته الدنيا.

٢- نقله نوعية أحدثها آدم :

والآن أحاول إبراز معالم هذه النقلة النوعية وذاك الانقلاب الكبير الذي أحدثته بعثة آدم عليه السلام في حياة "الجن" أي في حياة البشر سُكَّان الكهوف، والذين كان قد مضى عليهم في حالة التوحش تلك مايزيد عن الأربعة ملايين ونصف من الأعوام .

هذا الأمر ورد في سورة البقرة بصورة مُجمله من خلال قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً. قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

وورد هذا الأمر مفصلاً وذلك في سورة طه ومن خلال قوله عز وجل: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى، إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى. فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَذْكَ عَلَى شَجَرَةِ الْجَنَّةِ وَمُلْكُ لَا يَلِي. فَاكْلًا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.

فإنه جل شأنه إذ أجمل في سورة البقرة ماأنجزته بعثة آدم عليه السلام، وهو تنبيه أذهاننا من خلال قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ تنبيهنا إلى أن البشر سُكَّان الكهوف كانوا قد نضجت عقولهم وتمايزوا في أسلوب معاشهم عما حولهم من الأنعام في أواخر طور عبورهم الحجرية وعادوا بأشد الحاجة إلى من ينقلهم نقلة نوعية ويُحدث في حياتهم انقلاباً شاملاً واقتضت صفة الربوبية التي يتصف بها خالقهم أن يرعاهم ويراعي ضرورات واقعهم الذي وصلوا إليه، فقرر الله تعالى جعل خليفة له من بينهم في الأرض يُسَوِّي له عقله ويقوِّم له سلوكه ويُعَدِّه ليُصبح هذا الخليفة أسوة لهؤلاء البشر يحتذون به ويمنحهم بذلك الحركة والتغيير ويحضّرهم.

والله جلّ شأنه قصد بمناقله عن الملائكة وبلسان حالهم: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ قصد تنبيهنا إلى أن هذا الخليفة سيقم نظاماً تحميه تعاليم وقوانين، تقتضي بالتالي سفك دماء وإنزال عقوبات

بالمخالفين. أو قولوا إن هذه الحملات من سورة البقرة كانت تشير إلى ظهور آدم كنبى مُشرّع وصاحب فكر إنقلابي.

وقد راح الله عزوجلّ في سورة طه يفصّل لنا مقام به آدم من نقلة نوعية وانقلاب كبير في حياة هؤلاء البشر من سُكّان الكهوف. وهنا يتوجّب عليّ أن ألخص للقارئ ما استشفّه علماء الآثار وغيرهم من علماء الطبيعة من المعلومات المتعلقة بحالة البشر قبيل زماننا مايقارب العشرة آلاف عام أي حالهم الذي بلغوه بعد بقائهم في كهوفهم مايزيد عن أربعة ملايين ونصف من الأعوام. وعلى اعتبار أنّ تاريخ البشر يعود إلى عشرة آلاف عام على وجه التقريب. وقصدي من تلخيص ذلك هو تمكين القارئ من معرفة وإدراك معالم اللحمة الكائنة ماين واقع هؤلاء البشر المذكورين وبين ماأتى به آدم لتحضيرهم.

ألا إنّ الذي يطالع جميع ما ألفه العلماء حول البشر وأحوالهم في عصورهم الحجرية القديمة يتبيّن له من خلال تلك المؤلفات أنّ تاريخ وجود البشر على سطح كوكبنا الأرضي يعود إلى أكثر من أربعة ملايين ونصف من الأعوام على وجه التقريب. وظلّ البشر خلال هذه المدة الطويلة يحيون حياة بدائية وبأدوات بدائية وعلى حالة واحدة يتغذّون بالصيّد الذي يصطادونه وبالثمار التي يجنونها من الأشجار البرية. ويصنعون من أغصان الأشجار عُصيّات يتكوّن عليها ويستعملونها كهراوة وحربات. ويستغلّون العظام والحصى لنفس الغاية أيضاً وأنهم تعلموا إيقاد النار منذ سبعمائة ألف عام تقريباً.

كما راحوا يلتقطون الأحجار الصوانية التي تنجلي عنها السيول، فيتخذونها قذائف مقلّاع وسكاكين وماشابه ذلك، ثم تمكّنوا من صنع الثاقبات والفؤوس والمقادح والسكاكين بأنواعها المختلفة.

وإنّ البشر سكان الكهوف أخذت تنمو مواهبهم الفنية منذ مائتي ألف عام فراحوا يرسمون وينحتون على جدران كهوفهم مايكشف عن هذه المواهب الفنية البدائية. كما تعلموا منذ مايقارب مائة وخمسين ألف عام دفن موتاهم في حفريات يحفرونها لهذه الغاية. وقد دلّت آثار البشر على أنّ البشر الذي يعود تاريخهم إلى فترة دفن الأموات كانوا يُشبهون الإنسان المعاصر كلّ الشبه في شكله الخارجي. وأنّ البشر قد بلغ قبل ماينوف عن عشرة آلاف عام حدّاً متميّزاً من حيث وعيه وأدواته وأطعمته ودفن موتاه ومعالم فنونه، وأصوات تفاهم أفرادها

فيما بينهم أيضاً. أو قولوا بالفاظٍ أخرى أنّ البشر قبل عشرة آلاف عام كانوا يطالبون بلسان حالهم أن يظهر الذي ينقلهم من حالهم تلك إلى حال أفضل من حالهم وليحدث في حياتهم انقلاباً كبيراً متميزاً.

ولكن كيف ومن سيقوم بهذه النقلة النوعية وهذا الانقلاب الكبير؟ فقد جاءت الآيات من سورتي البقرة وطه تكشف عن ذلك وبأسلوبٍ بلاغيٍّ معجز ويتفق مع معطيات التاريخ.

وبما ثبت أنّ الله الرّب الخالق هو الذي كان يطوّر هذا البشر من حال إلى حال طوال تلك الفترة الماضية ووسيلته كانت التكلّم مع بعضهم من وراء حجاب. وما أن هذا الخالق الرّب قد بعث آدم عند حاجة البشر إليه يوم راح لسان حال البشر يطالب الخالق ببعثه لإحداث هذا الانقلاب الكبير. والذي لولاه لظلّ البشر في كهوفهم إلى هذا الزمان. فنحن مدينون لما أحده آدم في حياة البشر من تغيير وتبديل ، ودليلنا على ذلك أنّ العلماء الذين يفكرون تفكيراً مادياً ولا يعودون إلى معطيات الآيات القرآنية قد وضعوا حتى الآن نظريات ونظريات، وجميع هذه النظريات يُخمنون فيها ما حدث لبشر الكهوف تخميناً ولا يدرون شيئاً عمّن أخرج البشر من كهوفهم وطوّرهم وعلمهم وحضرهم؟ ولم يستطيعوا الحسم والجزم في هذا الأمر حتى هذه الأيام.

ففي سورة البقرة حيث ورد: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ..﴾ دلّتنا هذه الألفاظ على أنّ الله عز وجلّ اتخذ آدم خليفة له من جهة، وحضّر على يديه من آمن معه من سكان الكهوف أي أوجد الله تعالى من أجل تطوير سكّان الكهوف قيادةً وقانون. أي أنّه تعالى أوجد عن طريق بعثه آدم نظاماً سياسياً وتعاليم حضّارية، وبكلمة موجزة فإنّ مهمّة آدم انحصرت في أمرين اثنين: الأول منهما تبديل القيادة السياسيّة وقد كانت هذه القيادة تعتمد من قبل آدم على شريعة الغاب السائدة في الكهوف والتي استبدلت بقيادة آدم الروحية. وتمثّل الأمر الثاني في تأسيس مجتمع تعاوني تابع لهذه القيادة الروحية، وتنظّمه تعاليم وقوانين حضّارية ويعمل عليها خارج الكهوف أيضاً. وقد لخصّ الله جلّ شأنه ذلك كلّ من خلال قوله تعالى في سورة البقرة وبالأجمال أيضاً: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ

اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين».

أي أننا أمرنا بإجراء انقلاب حقيقي في حياة البشر سكان الكهوف، وهو أن يُغادروا آدم والذين آمنوا معه ليقطن خارج كهفه وفي منطقة خصبة رغيدة العطاء أي في جنة من الأرض دللناه عليها، لتعريفه تعالى كلمة جنة بالآلف واللام العهدية. وقلت «والذين آمنوا معه» ذلك أن لفظ الزوج لا يعني الزوجة فقط بل ويعني الجماعة والأتباع أيضاً (أقرب الموارد). ففي قوله تعالى «اسكن أنت وزوجك الجنة» دلالة على الخروج من الكهف ودلالة على تنظيم أسرة وبدء نظام زواج، فالعنيان يصحان في هذا المقام، وهو جل شأنه عندما أجمل أمره هنا وقال: «وكلا منها رغداً حيث شئتما» فقد نبّه إلى أنه تعالى جعل إباحة استعمال كل ما في الجنة هو الأصل في تشريع هذه التعاونية.

أمّا التحريم فعبّر عنه بصورة مجملة ولبسان المجاز «ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين». فهو استعمال لفظ (الشجرة) مُعرّفه بالآلف واللام ولم يوضح آية شجرة هذه الممنوعة فهذا تعبير مجازي شبة فيه الأمر المحرم بالشجرة المحرم عليهم الدنو منها. فلم يقل جل شأنه [ولا تأكلا من هذه الشجرة]. فلو فعل لبطل معنى المجاز. فهو تعالى قال (ولا تقربا) وهو أمر نهى عن الدنو منها يُفسّر ذلك قوله تعالى في مقام آخر: «تلك حدود الله فلا تقربوها». ثم إن قوله تعالى: «فتكونا من الظالمين». الظلم في اللغة يعني وضع الشيء في غير موضعه (محيط المحيط) أي إذا أقدمتم على ما نهيتكم عنه وعصيتم أمري، ووضعت الأمور في غير مواضعها، تعودون في نظر ربكم مُتمردين على أوامره القاضية بإطاعة هذه القيادة وذاك النظام الذي شرّعه لكم. وعلى هذه الصورة تتجلى معالم هذا الانقلاب الكبير الذي تحقق على يدي آدم عليه السلام وبصورة مجملة وغير مفصلة.

وقد زوّدنا ربنا عزوجلّ في سورة طه ببعض التفصيلات بما يتعلّق بتعاونية آدم هذه حيث قال هناك مخاطباً آدم: «إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى». فصاغ تلك المعلومات صياغة بلاغية مُعجزة حقاً، ليفيد من خلال دلالات هذه الألفاظ دلالات تملأ عدّة صفحات.

فلنمعن نظرنا في قوله تعالى ﴿إِنْ لَكَ إِلَّا﴾. فالحرف (إن) يستعمل للتوكيد، وقد قرنه تعالى بلا الناهية وأفاد النهي عما يريد لفت نظر آدم إليه من خلال ذلك مؤكداً على آدم ضرورة الالتزام بتفاصيله.

وأتى بأداة النهي مقترنة بأن فقال (إلا). وأن هذا حرف توكيد آخر أتى به بين الكاف من (لك) ومخفوضها، وهو استعمال نادر على حسب ماوضح صاحب (محيط المحيط)، فأبطل عمل (أن) بهذا الأسلوب وتركه للتوكيد فقط، وبذلك يكون جلّ شأنه قد أتى بتأكيدين على آدم إشعاراً منه تعالى بإياه بأهمية ماراح يأمره بالقيام به من أوامر ربانية مرتبطة بأمر تنظيم هذه التعاونية.

وبعد أن عمد جلّ شأنه إلى هذه الصياغة النادرة الاستعمال، أضاف قوله : (الأتجوع فيها) فأضحى النهي مركزاً على موضوع الجوع ومايلحق به من تأمين الحاجات الغذائية في هذه التعاونية. فالجنة تحتوي على أنواع الثمار والحبوب والمياه كمرحلة أولى، لكن هذا لا يكفي، بل أكد تعالى على آدم تأكيدين على ضرورة تأسيس نظام تغذية تعاوني يساعد هذه الجماعة المؤمنة على مواجهة الأخطار الطارئة.

وأضاف جلّ شأنه أمراً آخر وقال: ﴿وَلَا تَعْرَى﴾ فركز ثانية على موضوع الكساء ومايلحق به من تأمين وتنظيم إيجاد لوازم الكساء، وشمل التأكيدان السالفين الذكر موضوع الكساء أيضاً، لعطف (لا تعرى) على (تجوع) بواو العطف الفاصلة بينهما. وكأنه جلّ شأنه ألزم آدم بتنظيم أمر تدبير لباس يستر عورات كل فرد انضم إلى تعاونيته.

ثم أضاف جلّ شأنه يقول: ﴿وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا﴾ فحذف (إلا) الناهية وأبقى على حرف التوكيد (أنّ) مضيفاً إليها كاف الخطاب وقائلاً ﴿وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا﴾ فأتى بلا النافية وليس الناهية، بدليل رفع الفعل تظماً الظاهر على آخره. أي أنّ هذه الجنة التي أمرك بإقامة هذا النظام التعاوني فيها، تجري من تحتها الأنهار ومياهها غزيرة، ولا تحتاج منكم إلا إلى تنظيم موضوع السقاية بأسلوب تعاوني.

وأضاف جلّ شأنه أمراً رابعاً وقال: ﴿وَلَا تَضْحَى﴾ فأتى بلا النافية أيضاً بدليل الحركة المقدرة على الياء المقصورة في فعل تضحى، أي إنني إذ أمرك أن تنشئ مسكناً لك ولزوجك فقد كنت أقصد به أن تبدأ بتأسيس نظام الأسرة

وعقد زواج كل فتى مؤمن على فتاة مؤمنة يلتحقون بك وينضمون إلى نظام تعاونيتك المذكورة ، فلا تعود تضحي أنت ومن معك. وكلمة تضحي من ضحا الرجل إذا برز للشمس وأصابته الشمس بلظي حرّها بعد أن كان في ستر (محيط المحيط). بمعنى يا آدم أنت وجميع من معك فقد كان الكهف يستركم من لظي حرّ الشمس، وها أني إذ أمرتكم بإنشاء مساكن لكم تأوون إليها، فستستركم هذه المساكن في هذه الجنة التعاونية من لظي حرّ الشمس أيضاً، فلا تعودون تشعرون بفرق جوهرى بين ما كنتم فيه بالأمس وبين ما صرتم إليه في هذه الجنة .
وبإمكاننا تلخيص ما أفادته سورتا البقرة وطه بالنقاط التالية فيما يتعلق بتعاونيه آدم عليه السلام:

أولاً - أن يقيم قيادة سياسية تشريعية في منطقة سماها "جنة لكونها عصبية ورغيدة الثمار والمياه والأشجار.

ثانياً - وأن ينشئ آدم والذين آمنوا معه مساكن لهم في هذه الجنة.

ثالثاً - وأن يبدؤوا نظاماً أسروياً قائماً على عقد مابين كل فتى وفتاة مؤمنين.

رابعاً - وأن كل ما في الجنة فحلال غير محرم على آدم ومن معه بصورة عامة.

خامساً - وأن المنهي عنه قليل نادر، ودون ذكر لهذا المنهي عنه في الآيات القرآنية.

سادساً - وأمر الله تعالى آدم بتنظيم أمر تأمين إطعام جماعته المؤمنة بشكل تعاوني.

سابعاً - وأمره أيضاً بتنظيم أمر تأمين كساء كل فرد من جماعته المؤمنة وبشكل تعاوني

ثامناً - كما أمره بتنظيم أمر الشرب والسقاية لهم جميعهم وبشكل تعاوني أيضاً.

تاسعاً - وأمره بتنظيم تأمين مسكن لكل أسرة من جماعته المؤمنة وبشكل يتعاونون جميعاً على إنشائه.

عاشراً - والأمر الخطير الذي حذر الله عز وجلّ آدم، منه قدّمه جلّ شأنه على جميع هذه الأوامر في سورة (طه) قائلاً: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ

ولزوجك فلا يخرجكما من الجنة فتشقى﴾. وهو تحذير متعلق بالناذر المنهي عنه.

فليتصور القارئ مدى عظمة هذه الصياغة القرآنية المعجزة التي صاغ الله جل شأنه بها هذه التعاليم العشرة التي تأسست عليها تعاونية آدم عليه السلام. فالتحذير من عداوة إبليس لآدم ولجماعته تقدّم ذكره على بقية التعاليم التسعة وبأسلوبٍ بلاغيٍّ مدهش. كما أن هذه التعاليم استهلت بتوكيدين وليس بتوكيدٍ واحد اشعاراً من جانبه تعالى إلى بدائية الامكانيات العقلية التي كان يحملها آدم وسواه من سكان الكهوف يومئذ، ودليل ذلك أنه بدر عن آدم النسيان لبعض ما أكده الله تعالى عليه، ولم يجد الله لآدم عزمًا على مخالفة ربه بسبب تكوين عقله البدائي.

ثم إن هذا القارئ، لو يستعرض جميع الآيات المتضمنة قصّة آدم هذه وفي جميع مواضعها السبعة، فلن يعثر في أي منها على لفظ الجلالة (الله). بل يعثر على صفة الرب وحسب. فلم يحدث ذلك الأمر صدفة أو اعتباطاً. بل كانت الحكمة من ذلك تنبيه عقولنا إلى أن الله عز وجلّ راح يكشف عن وجوده بوسيلة ما تحلّى به من صفات في الرسائل السماوية الأولى واختصّ بكشف هذا الاسم الجلالى (الله) وبكامل دلالاته اختصّ به محمداً ورسالته على اعتبار أنها أكمل الرسائل السماوية.

ثم إن هذا القارئ، لو يستعرض هذه النصوص من زاوية الذين وما يقتضيه من عبادات، فلن يعثر في أي منها على ذكر لصلاة أو صوم أو زكاة أو حجّ. فهي وردت خالية من اشتغالها على أي نوع من أنواع الذكر الإلهي أو مانسميه عبادات. وهذا أمرٌ يؤكّد للقارئ أن البشر من سكان الكهوف لم يكونوا زمن بعثة آدم عليه السلام قد ارتقوا إلى مستوى عقلي يساعدهم على التعرف إلى أمور ما وراء هذه الطبيعة، وبالتالي فلم يبلغوا حدّ إمكانيه تعرفهم على خالقهم وفوزهم بحبّته وهم نيام. فإذا شاء الله تعالى مكالمه أحدهم وتعليمه أمراً جديداً، فقد كانت تتجلّى أسماؤه الحسنى بهذه المعلومة وتتمثّل لهذا البشر النائم وفق منهاج، سأعرض لبيان ما تعلّمته منه فيما بعد إن شاء الله العزيز.

ويستفاد من قصة آدم المجازية موعظة عامة وهو ضرورة مخاطبتنا كلّ إنسان على حسب مستواه العقلي، وهو ما أشار إليه محمد رسول الله (ﷺ)

بقوله: أمرت أن أحاطب الناس على قدر عقولهم، فهذا أن الله تعالى لم يخاطب البشر الذين عاصروا آدم بما خاطب به محمداً (ﷺ)، ولأنزل وفرض على آدم ما فرضه على خاتم النبيين (ﷺ)، وبالرغم من ذلك فإنّ التعاليم التي زود الله تعالى بها آدم عليه السلام قد أحدثت أعظم انقلاب حقيقي في تاريخ البشر الذين كان قد مضى على وجودهم على سطح كوكبنا الأرضي ما ينوف عن أربعة ملايين ونصف من الأعوام .

وأنا عندما قلت من قبل إنّ الله تعالى ماخاطب البشر الذين عاصروا آدم بما يشبه التعاليم التي أنزلها على محمد (ﷺ)، فإشارة إلى أن آدم أسس تعاونية منظمّة ولم يلزم أعضائها من المؤمنين بشيء من العبادات، فلانقلاب الكبير الذي أحدثه ينحصر في هذا التغيير في حياة البشر سكان الكهوف. فهو استبدلهم حياة كهفهم الرتيبة، بحياة السهل التعاونية والتي افتتح بها حياة التحضر والسعي والإبداع.

وأنا عندما طرحت معنى لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ وهو أن الله تعالى علّم آدم أسماء أبرز الأنبياء الذين سيعثهم الله تعالى من بعده لإكمال مهمته ولتحضير البشر وتهذيبه في المستقبل.

فلا بد أن يتساءل أحدنا: وبأية لغة علّم الله تعالى آدم هذه الأسماء؟ أقول في الجواب: إنّ الله عزوجلّ أجاب على تساؤلنا هذا في سورة الرحمن، على اعتبار أن كلّ موضوع يأتي متناثراً في ثنايا مختلف السور القرآنية وبما يفيد تسلسل موضوعها العام، والذي يريد التوسّع في الإجابة المذكورة فليراجع (فنّ الاختزال في القرآن الكريم) صفحة ٢١٢. فقد سبق لي أن كتبت هناك:

(والمُنطلق الفكري النظريّ الأوّل الذي طرحه تعالى، طرحه بقوله: ﴿الرحمن، علّم القرآن. خلق الإنسان. علّمه البيان﴾ فأعلن من خلاله أن الإنسان مخلوق وأنّ خالقه هو الذي علّمه البيان في أوائل سني وعيه، وهما هو يعلم القرآن أواخر مراحل نضجه العقلي، وبلغة البيان ذاتها التي علّمه إياها من قبل، ليثبت لمخلوقه أنّه جلّ شأنه هو المليك الرحمن المقنن الذي أعطاه كلّ هذا العطاء). ورحت بعد ذلك فشرحت الدليل الفلسفي الذي قدّمه الله عزوجلّ، تأكيدا لصدق الحقيقة التي ذكرناها.

فالمهمّ هو أنّ موضوع تعلّم آدم اللّغة العربية قد ورد ضمن قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ من باب الاستنباط، وليس انطلاقاً من التسلسل الموضوعي لهذه الآيات من سورة البقرة، ولا يتّسع شرح ذلك في هذا المقام. والذي أريد لفت النظر إليه هنا هو أنّ الله عزوجلّ حين يقول تارة ﴿وَمَا نَرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مِبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ وتارة ﴿رَسُولًا مِبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ حاذفاً مفعول لفظي مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، فهو تعالى يسلك هذا الأسلوب في التعبير ليفتح باب تصريف هذين اللفظين بمختلف الاتجاهات، وليفيد بذلك سعة في دلالاتهما. فمن هذه الدلالات المقصودة أنّ المقصد من بعث الله للأنبياء والمرسلين أن يُنبهوا أذهان الناس إلى أنّ خالقهم حيٌّ قيّوم، ويُبشّر الذين يسلكون درب التعرّف عليه أنهم بالغوا هذا المقصد يقيناً وملاقوه. وليلقي خالقنا حُجَّتَه على الناس فلا يعود لأحدهم على الله حُجّة من بعد الرّسل من أنه لم يُعلّم أحداً ولا أعلمه بوجود خالقه في يوم من الأيام. على أساس من هذا الفهم نعود ندرك أنّ بعثة آدم وتعاونيته قد كانت الخطوة الأولى على طريق إلقاء حُجّة الله على الناس من جهة، ولتحضيرهم بتوجّه من ربوبية هذا الخالق نحوهم على مدى الأيام. ألا إنّ قيام تعاونية آدم وإحداث هذه النقلة الكبرى في تاريخ بشر الكهوف، إنّ ذلك على شيء فقد أشعرت هذا البشر على الأقل بوجود خالقهم وربّهم. أمّا أين يتواجد هذا الرّب الخالق، وكيف، وماهي أسماؤه الحسنی. فهي التساؤلات التي لم تأت بها بعثة آدم عليه السلام لسببين رئيسيين: الأول أن عقل بشر تلك الفترة من الزّمان ما كان يملك إمكانيات بحث هذه الأمور. والسبب الآخر هو مهمّة آدم نفسه فقد انحصرت في إحداث هذه النقلة النوعية وهذا الانقلاب الكبير فقط في حياة سكان الكهوف. حتى وأنّ ذاكرة آدم نفسه كانت مازالت بدائية ودليلاً هو قول ربنا عزوجلّ بحقّ آدم: ﴿فَنَسِيَ آدَمُ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾. يعني أنّ ضعف ذاكرته كانت عُذْره فيما بدر عنه من خطأ غير متعمّد. ولا ينبغي للقارئ استغراب هذا الأمر. بل لاتزال هناك بعض القبائل المتخلّفة في بقاع من أفريقيا يشكون ضعف ذاكرتهم. وهذا الأمر احتوته مؤلفات كثير من الباحثين.

٣- أول مُشاعةٍ تعاونية

لاحظنا أنّ آدم كان مُنظماً، وليس نبياً مُسرّعاً بالمفهوم المتعارف عليه. فكل مقام به آدم هو قيامه بتأسيس أول مُشاعةٍ تعاونيةٍ خارج الكهوف في منطقتنا، ولأوّل مرّة في تاريخها، ولم تتجاوز مُقوّمات هذه التعاونية إيجاد قيادةٍ سياسيةٍ لها تشرف على التعاون على بناء مساكن لأفرادها، لتعليمهم الزراعة والرّي ولتنظيم أمر معاشهم وشربهم ولباسهم وبشكلٍ تعاونيٍّ. ولم يطالب آدم هؤلاء المؤمنين لابطلا ولا بصيام ولا بسواها من العبادات.

والمعلوم هو أنّ لكلّ خطوة نتائجها، وقد أسفرت خطوة تأسيس هذه التعاونية عن شعور بشر يومئذٍ أنّ كلّ شيءٍ على سطح هذه الأرض هو مُسرّحٌ من أجل الإنسان، ومباحٌ له استغلاله والاستفادة منه. وقد سبق أن وضّحت أنّ الآثار التي تركها سُكّان الكهوف وضّحت للباحثين أنّ أدوات البشر قبل عشرة آلاف عام والتي كانوا يستعملونها كانت قد تعدّدت من أجل طبخهم وصيدهم ووسائل تدفئتهم حتى وأنّ معالم الفنّ قد بدت آثارها على جدران الكهوف، حتى أنّ فنّ نحت رؤوس مشابهة لرؤوس بعض الحيوانات قد نما، وترك بعض فنانيهم ماخوته أيضاً، فالْبشر يومئذٍ أمسوا مؤهلين عملياً لاستغلال خيرات هذا الكوكب الأرضي، وكانت تعاونية آدم قد فتحت لهم هذا الباب على مصراعيه. وزالت بذلك معالم آثار الحياة الرّتيبة الواحدة التي كان يسير عليها البشر داخل الكهف طوال عصوره الحجرية القديمة وبدأت تظهر معالم نشاطٍ غير عادي وعلى مختلف صُعد الحياة. خصوصاً وأنّ انقسام هؤلاء إلى فريقين: فريق آمن وفريق كفر برسالة آدم، فقد أوجد هذا الانقسام روح المنافسة بين أفراد الفريقين.



الفصل الثالث نتائج تولدت عن هذه المشاعة :

١- منافسة بين الذريتين: والآية (٢٠) من سورة الحديد وضحت معالم تلك المنافسة المذكورة من خلال قوله تعالى : ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ وهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم في الأموال والأولاد، كمثل غيثٍ أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مضغراً، ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاعٌ الغرور﴾. فالمنافسة حدثت على مرّ السنين بين البشر يومئذٍ في مجالات اللعب واللهو واستغلال خيرات الأرض واستعمارها وفي بناء المساكن والتفاخر بالأموال والأولاد، وعلى حين امتازت ذرية آدم بالتضحية ببعض حُرّيّاتها الشخصية في سبيل الإبقاء على كيانهم الروحي الجماعي. فقد اندفع أصحاب الطبائع النارية من ذرية إبليس ويدافع من تفكيرهم المادي المحض، اندفعوا وراء جمع الأموال كما تزعم الأذكىاء الأقل منهم ذكاءً ولياقات ومُستغلين يَياهم في حقل التفاخر بالأموال والأولاد و بـمميّزاتٍ طبقيّةٍ انتهت بهم ليزعموا لهؤلاء الأتباع أنهم من سلالة الآلهة، وليسوا كبقية الناس وإن تشابهوا مع غيرهم من الناس في مظهرهم الخارجي، ومُستغلين لياقاتهم النادرة وذكاءهم الخارق وعِلْمهم المتميّز وحكمة تدبيرهم للأمور. لينافسوا ذرية الفريق المؤمن، طناً منهم أنّ آدم كان يحمل ما يحملونه من امتيازات وقدرات، وأنّ ما زعمه من أنه كان رسول خالقهم كان من قبيل دهائه وذكائه ولا حقيقة وراءه. فراح يترسّخ في ذرية هذه الطبقة من الأذكىاء جيلاً بعد جيل، أنهم يختلفون عمّن سواهم من البشر، وأوهموا سواهم أنهم من سلالة الألوهة وليس من سلالة بقية الناس.

٢- التماثيل كأول ظواهر الشرك الجلي: وقد تولّد عن ذلك في منطقنا أوّل ظواهر الشرك بالله عزوجلّ. وبدأ فنانونا تلك الحُقب من الزّمان تحت تماثيل لأولئك الأذكىاء الزعماء من أصحاب اللياقات والوجاهات،

فابتدؤوا بذلك حقل فنّ نحتٍ لم يعتاده الفنانون في حياة الكهوف. وانقلبت هذه التماثيل على مرّ السنين إلى أصنام يسجد أمامها عامة الناس وبذلك ظهر الشرك الجليّ بأجلى أشكاله على أيدي ذرية إبليس في هذه المنطقة من العالم التي لم يكن سُكَّانها بالكثرة التي كانت عليه في أواسط آسيا. حيث قامت هناك الحضارة الآرية التي سبق أن تعرضنا لذكرها والتي قامت على فلسفة طبقية، وعلى عبادة الأوثان. أي على عبادة تماثيل هذا النفر الذكي من الناس أصحاب اللياقات الخارقة والذكاء المفرط والذين ظنوا وأوهموا أنهم من سلالة الآلهة. فإن نظر المحقّق من منظاري هذا الذي وضعته بين يديه بإمكانه أن يدرك بالتالي أنّ تماثيل أفيونس وعشتار وسواها من التماثيل التي يزعم الباحثون أنّها تمثّل الآلهة، فما هي في حقيقتها إلّا تماثيل لأولئك النفر الاذكياء الذين ذكرناهم والذين برزوا على المسرح السياسي في مختلف الأزمنة والأمكنة مُتميّزين عمّن سواهم من الناس وكأنّهم من سلالة الآلهة.

هذا الطرح الذي طرحته اقتبست معلوماته من مصدرين رئيسيين: المصدر الأول هو مانبهتنا اليه الآي من الذكر الحكيم في مختلف مواضعه وبأسلوب بلاغي رائع متميّز ومعجز أيضاً. والمصدر الآخر هو ماانتهى إليه الباحثون الطبيعيون ومانضمته مؤلفاتهم من أبحاث.

٣- أدلة قرآنية مؤيدة: ذلك أنّ القرآن الكريم لفت أذهاننا إلى هذه المعلومة في الآية (٢٦) من سورة نوح، وفي الآية (١٦٣) من سورة النساء، فليراجع القارئ مانقله ربّنا عزوجل على لسان نوح حيث أورد هناك: ﴿قَالَ نوحُ ربِّ إِنِّهٖم عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خُسَارًا. وَمَكُرُوا مَكْرًا كَبِيرًا، وَقَالُوا لَا تَنْذِرُنَا وَلَا سُلَاطَةَ عَلَيْنَا بَلِ الْأَمْرُ الْأَكْبَرُ. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾. وكأنّ نوحاً قد قال هنا وبالفاظ أخرى تحمل دلالات ماصرّحت به وأشارت إليه .

أي أنّه قال ياإلهي، ياامن أشرفت على تربيّتي وإعدادي منذ نعومة أظفاري لتكلّفني برسالة إحداث انقلابٍ عظيم في هذا المجتمع الغائص في مُستنقع الشرك بالله، إنّ قومي هؤلاء (اتَّبَعُوا). معني أسلموا قيادتهم من حيث واقعهم الذي يعيشونه أسلموها إلى الأثرياء منهم (الضالين) السّاثرين على طريق الهلاك هؤلاء الذين لم يزدهم مالهم وولدهم إلّا خساراً، أسلموها إلى هؤلاء الماكرين

الذين خدعوهم وأوهموهم أنهم من سلالة الآلهة وأرباباً من دون الله تعالى، فصرفوهم بذلك عن تحقيق المقصد من وجودهم في هذا العالم الدنيوي فمكروا بذلك مكرًا كُباراً. فقد أكد هؤلاء الماكرون على أتباعهم ألا يدعوا هذه التماثيل التي تمثل أبرز شخصيات السلف من الماكرين وعلى أنها آلهة من دونك ياربّي، على حين أنها تماثيل صنعتها أيدي بعض النحاتين ولتمثل أبرز قياديتهم هؤلاء الذين اشتهروا بأسماء: وُدًا وسُواعًا ويغوث ويعوق ونسراً.

فنوح عليه السلام ناجى ربّه شاكيًا هذا النفر من ذرية إبليس الذين كفروا به من قومه الحائدين عن الطريق الذي اختطّه آدم عليه السلام فعدلوا عن الصراط المستقيم إلى الشرك بالله وعبادة الأصنام التي نحتتها أيديهم لهذا النفر من أصحاب اللياقات النادرة والذكاء الخارق والعلم المادي المتميّز والحكمة والتدبير في تصريف أمور رعيّتهم. هذا النفر الذي أوهم العامة في ذاك الزمان الغابر ومنذ ألوف السنوات ومن قبل بعثة نوح أنهم منحدرون من سلالة الآلهة، وأنهم يتصفون بصفة أصحاب رسالاتٍ في مواجهة ماقدمته رسالة آدم عليه السلام من انجازات عظيمة لاتزال البشرية تتمنّي لها عملياً.

وعليه فإن جُمُلات هذه الآيات الكريمة من سورة نوح والتي آتيناه على ذكرها حملت إلينا حقائق تاريخية بارزة تُعين الباحث على فهم تاريخ البشر ما بين زمن بعثة آدم وبعثة نوح عليهما السلام ، فالأمر الأهم ضمن هذه الحقائق التي شرحتها الآية المذكورة كان لتوجيه أنظار الباحثين إلى الأصل الذي نشأت عنه عبادة الأصنام المنحوتة على شكل رجال أو نساء اشتهروا بين قومهم بهذه الصفات المتميزة التي ذكرناها، أي أنّ ظاهرة الشرك بالله تعالى كانت قد استأصلت زمن نوح عليه السلام في نفوس العامة في زمنه ، الأمر الذي صدّهم عن أن يستجيبوا لرسالة نوح عليه السلام، هذا الذي رفع شكواه بسبب ذلك إلى خالقه الذي اصطفاه رسولاً لاستئصال جذور الشرك هذه بصورة جذرية. فهذه الآيات الكريمة نظّرت للباحث المرض الحقيقي الذي استشرى داؤه زمن بعثة نوح عليه السلام. وقد علمنا أنّ المهمة الأساسية لبعثات جميع الأنبياء والمرسلين تدور حول كونهم ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ مُبَشِّرِينَ بوجود الإله الحقيقي، فهم أعلام انقلاباتٍ روحية ، ومنذرين المنحرفين والضالين عن هذا الصراط بالعقاب الذي ينتظرهم في الدنيا ويوم الدين. فصحيح أنّ الله عزوجلّ

خلق الإنسان حُرَّ التفكير والإرادة ولتقرير مصير نفسه بنفسه، لكن هذه الحرية إذا اصطدمت بهذا الخط العام، المتمثل في ضرورة القاء حجة الله على عباده من أنه موجود وأنه فعّال لما يريد، فهناك وعلى تلك الصخرة القويّة من التقدير العام المذكور تتحطّم تلك الحرّيات ويلقى أصحابها أشدّ العقوبات، ذلك أنّ الملك الله تعالى وحده وهو الذي يقرّر مسار هذا الإنسان، وليس الإنسان نفسه. وهذه الحقيقة، محملها والتي تضمّنتها هذه الآيات من سورة نوح على أنّ نوحاً كان قد كُلف بالقيام بانقلابٍ روحانيّ كبير. فقد بعثه ربّه لمحاربة ذاك الشرك الجليّ الذي استأصلت جذوره في صدور العامة من قومه وبمكر من زعمائهم المضلّين. أي أنّ مهمّة نوح المذكورة كانت قد انحصرت في عمليّة تهذيب النفس البشريّة التي عاصرتها، وليس لإنشاء حضارة ماديّة تنافس حضارة هؤلاء الماكرين من ذرية ابليس.

ولنتناول الآية (١٦٣) من سورة النساء والتي سبق لي أن قلت إنّها يُستشفّ منها المهمة الأساسية التي كُلف بها نوح عليه السلام. فقد قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا. وَرَسُولًا قَدْ قُصَصْنَا عَنْكَ مِنْ قَبْلُ، وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا، رَسُولًا مَبْشُرِينَ وَمُنْذِرِينَ لئَلَّاءَ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. لَكِنْ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ، أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

وأول ما انتسأله كمتدبرين لهذه الآيات هو: لماذا لم يبتدئ الله عز وجلّ الآية بذكر آدم، وابتدأ بذكر نوح المبعوث من بعده، بمدة ليست بالقليلة؟ أقول يُستنبط الجواب على تساؤلنا هذا من خلال حرف التشبيه ودلالته. فلا بدّ في موضوع التشبيه من توفر عناصر ثلاثة المُشَبَّه والمُشَبَّه به وموضوع التشبيه نفسه. فلو قال تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى آدَمَ وَنُوحٍ﴾.. فلا يصحّ التشبيه هنا لعدم تشابه موضوع التشبيه بين رسالة آدم ورسالة محمد خاتم النبيين (ﷺ). فأدم كان منظماً ولم يأت بشرع على شاكلة ما أتى به سيد المرسلين. وأمّا نوح فيصح له كاف التشبيه على اعتبار أنه كان أول نبي مشرّع وقد استند

تشريعه إلى توحيد الله تعالى ومحاربة الشرك الجلي الذي كان قد استشرى مرضه بين قومه عليه السلام. لذلك فقد كان حال قوم نوح يستدعي من الخالق بعث نبي مشرّع وليحدث انقلاباً روحانياً عظيماً، وسط هذا القوم الذي ضلّ عن صراط ربّه وتاه في أوحاك مستنقع الشرك الجلي.

ثم إنّ الحقيقة الثانية التي دلّتنا عليها هذه الآيات هو أنّ عذاب الطوفان الذي حلّ بقوم نوح ساعد على دوام شرعه الذي بعثه الله تعالى به قرابة ألف إلا خمسين عاماً. وأنّ الله عزوجلّ قد بعث أنبياءاً خداماً لشرع نوح ضمن المدة المذكورة، إنّما أعرض جلّ شأنه عن ذكر أسمائهم لكونهم مجتدين تابعين. هذه المعلومة دلّتنا عليها الألفاظ (كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده. هؤلاء الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى ما بين بعثة نوح وبعثة إبراهيم عليه السلام). لذلك نلاحظه تعالى أتى بالواو العاطفة بعد ذلك وأضاف يقول: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾. وقد وضّح جلّ شأنه موضوع قوله ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي الذين أرسلهم بعده نوح وقال: ﴿وَرَسُولًا قَدْ قُصَصْنَا عَنْكَ مِنْ قَبْلٍ﴾ إشارة إلى إبراهيم ومن ورد ذكر اسمه بعده مباشرة، وأضاف: ﴿وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ إشارة إلى هؤلاء الرسل الذين ما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام. وبهذا الأسلوب البلاغي المعجز يكون جلّ شأنه قد فسّر لنا قوله تعالى الوارد في الآية (١٤) من سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾. فلم يأخذ الطوفان قوم نوح حين وفاته بل في حياته. وهو قد عاش بعد الطوفان أيضاً ليكمل رسالة ربّه ويهذب ويعلم الذين نجوا معه من عذاب الله الشديد، فإذا تناولنا هذه الآيات الكريمة مجتمعة، تصير قرائن بين أيدي المتدبرين لكتاب الله العزيز، تبّه إلى أنّ المراد من ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ أي لبث شرع نوح وليس نوحاً نفسه، وقد أخطأ هنا المفسرون القدماء فلم يفتنوا إلى ما ذكرناه، وظنّوا أنّ نوحاً عاش ألفاً إلا خمسين عاماً، وكأنّ نوحاً قد كان تركيب جسده يختلف عن تركيب أجسادنا. فخطوهم المذكور أساء كثيراً إلى القرآن الكريم من حيث مخالفته المعطيات العلمية والواقع المنظور بهذا التفسير.

والحقيقة الثالثة التي تبّهت إليها هذه الآيات الكريمة تضمّنها قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾. فما الداعي لهذا الاختصاص وإلى إعطاء الله تعالى

هذه الميزة لموسى في هذا المقام إلا أن يكون القصد من ذلك أن الله تعالى كلم موسى بجميع طرق كلامه مع عباده، وليس كالذين سبقوه من العباد فقد كان يوحى إليهم بوحى الإشارة وبوحى من وراء حجاب؟ وعلى ضوء هذه الحقيقة ندرك قيمة الوصايا العشر التي اختص الله تعالى بها موسى، فهي وحي كلام مباشر لذلك أمر الله تعالى موسى أن يدون هذه الوصايا على ألواح. وظلت هذه الوصايا العشر أساس كل ما أتى به أنبياء بنو إسرائيل من بعده.

والحقيقة الرابعة التي نبهت إليها هذه الآيات الكريمة من سورة النساء إبرازها لصفتي الله **﴿العزیز الحکیم﴾** أي أن الإله الذي يتصف بهاتين الصفتين يستحيل عليه إهمال أمر عباده، فلا يشترهم بوجوده ولا يندرهم بعذابه. ولهذا السبب نفسه ورد قوله تعالى هنا: **﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾**، وكان الله عزيزاً حكيمًا. وكأنه جل شأنه قد نبه أذهاننا من خلال قوله هذا إلى أن الله تعالى أرسل جميع هؤلاء الرسل الذي أورد أسماءهم وأولئك الذين أهمل ذكر أسمائهم، قد بعثهم الله تعالى جميعهم بقصد إثبات وجوده، وتبشير عباده إلى أن باب معرفته وقربه ورضوانه مفتوح على مصراعيه، لذلك فلا يحق لأحد من الناس الاحتجاج يوم القيامة على خالقه ويقول: مابعت الله أي رسول في حياتنا الدنيا، ولا أطلعنا على وجوده لذلك فلا يحق لله محاسبة أحد على أعماله وشركه بالله عز وجل.

والحقيقة الخامسة التي أفادتنا بها هذه الآيات من سورة النساء التأكيد لنا على أن الله عز وجل لم ينزل أي كتاب قبل هذا القرآن الكريم الذي هو بين أيدينا، مشابهاً له بلفظه ومضمونه، بل كان ينزل الكتب السماوية السابقة وحيًا مباشرًا ومُتضمنًا العلوم المختصة بأزمة إنزال تلك الكتب على اعتبار أن تعاليمها كانت مرحلية ومختصة بأقوام وأزمنة محدودة. ومشافهة لذلك ما كان يأمر بتدوين ما يتلقاه النبي من وحيها على حين أن هذا القرآن الكريم إن هو إلا كلام الله نفسه الذي أوحاه إلى عبده محمد رسول الله **﴿ﷺ﴾**، وقد اشتمل هذا القرآن على علم الله الذي لا تقف دونه حدود، فهو كتاب بحر من العلوم زخار، ولا ينفذ إلى يوم الدين. هذه الحقيقة الخامسة تضمنها قوله تعالى **﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً﴾**.

والحقيقة السادسة الواضحة التي أشارت إليها هذه الآيات الكريمة تضمّنها قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. وقد أشار تعالى بلفظ (كفروا) هنا إلى أهل الكتاب يهوداً كانوا أو نصارى، فهذا ما يحدّد التسلسل الموضوعي لهذه الآيات الكريمة، أي أنّ الذين كفروا من هؤلاء بهذه الحقائق التي تضمّنتها هذه الآيات الكريمة ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾، مؤكّداً جل شأنه ذلك بالحرف (قد) أي أنّ هؤلاء إن رفضوا هذه الحقائق وتكفّروا لها ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ أي يكونون قد عدلوا وجاروا عن الطريق المستقيم متعمّدين. وأي ضلال هذا؟ ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي بعيدة آثاره المستقبلية. وهذه إشارة خفية إلى ما تحدّث عنه سورة الكهف والى إنذارها هؤلاء بما أنذرتهم.

وزبدة الكلام هو أن هذه الآيات من سورتي نوح والنساء نهّيت الباحثين إلى أنّ هذا النّفر من أصحاب اللياقات النادرة والذكاء الخارق والعلم المادّي المتميّز وقد شكّلوا ذريّة إبليس الذي وسوس إلى آدم وأزّله، وقد حاول هذا النّفر منافسة فريق المؤمنين من ذريّة آدم، وأقبلوا على متاع الدنيا يطوّرونه، وأنشؤوا حضارة شكّلوا فيها طبقة ممتازة عن العامة وعلى أنها من سلالة غير سلالتهم ولها صفة الألوهة: في المدارك والامكانيات والذكاء وعلى أنّهم من سلالة الآلهة، فاشتهرت بذلك تماثيل: [وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً]، كآلهة تمثّل الإله في نظر الذين هم من سلالته، وظهر بذلك الشّرك بالله تعالى جليّاً وعلى أبسط أشكاله، ومن ثم بدأت عبادة الأصنام.

وقد صوّرت لنا الآية (٢٣) من سورة المؤمنون أعداء نوح عليه السّلام، فحصرتهم في هذا النّفر من ذريّة إبليس حيث ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فالطلب الذي طلبه نوح من قومه هو أن يدعوا عبادة هذه الأصنام، فيخشون الله وحده. وأضاف تعالى يقول: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ. إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرَتَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾. وكلمة الملاء الواردة هنا تعني الطبقة العليّة من أشرف القوم التي تبهر العامة بجودة رأيها وبهيبتها وأبهرتها. فالملاء ذوو شارة محدّدة على حسب ما أورده صاحب

معجم (محيط المحيط). وهذا النفر إذ قالوا لأتباعهم ﴿ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ فقد أشاروا بقولهم هذا إلى أن نوحاً هو كبقية العامة من الأتباع، لا ينحدر من سلالة الآلهة على شاكلة هؤلاء النفر الذين هم من سلالة الآلهة، وأن نوحاً يدعي ما يدعيه لأنه ﴿يريد أن يتفضل عليكم﴾. والله الذي انحدرنا منه إن شاء إرسال رسول ﴿لأنزل ملائكة، ماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين، إن هو إلا رجلٌ به جنة - وليس هو برسول - أي بعقله لوثة جنون عظمة - فربصوا به حتى حين﴾. أي دعوا أمر نوح للأيام تكشف لوثة عقله. وبهذه الأساليب الماكرة ضلّوا الجماهير الرعية، وأبعدوها عن التوحيد الذي بعث الله تعالى به نوحاً عليه السلام.

٤- دليل من قول مؤرخ: ولا يظنّ القارئ أن ما استشفّيته من هذه الآيات فيما يتعلق بالأوثان وهذا النفر من ذريه إبليس يتنافى وتاريخ البشر في منطقتنا. بل إن الذي يطالع كتب تاريخ مختلف الأمم وفي مختلف أرجاء المعمورة، سيتبيّن له أن جميع الأقوام حدث في تاريخهم القديم ما حدث في منطقتنا من بعد آدم وقبيل بعثة نوح.

وعلى سبيل المثال فإنّ مؤلف كتاب (الإنسان الأول) جول كارلس والمترجم إلى العربية والمطبوع في بيروت عام ١٩٨٨م، قد كتب هذا المؤلف على صفحة ١٤٦ يقول: (يبدو أنّ مشكلة نوع الإنسان لم تكن لتخطر بالبال كثيراً زمن الإغريق والرومان، فقد ظنّ الإغريق أنّ لسلالتهم أصلٌ خاصّ فيه شيء من الألوهة. وأن هذا الأصل يختلف كل الاختلاف على أيّ حال، عن أصل البربر الذين قال أرسطو عنهم بأنّ حرباً يقومون بها لمنع الإغريق من استعبادهم ستكون حرباً غير مُحقّقة. فوسط كلّ هذه التشكيكات كانت التوراة تؤكد أنّ جميع اليهود يتحدّثون من إبراهيم، وأنّ كل الناس يتحدّثون من آدم).

فهذه أقوال رجلٍ غربي مجاور لبلاد الإغريق والرومان، وتستند شهادته إلى حقائق تلمسها، ولا مصلحة له في ابتداع مثل هذا الافتراء. وقد سبق لي أن وضّحت أنّ هذا النفر قد لعب نفس الدور في آسيا وأبدع فلسفة الطبقات. هذه الفلسفة التي تمخّض عنها حضارة الآريين. فالبشر الأذكياء من أعداء الأنبياء في ذاك الزمن الغابر، والذين سلكوا مسلك إبليس، ضلّوا شعوبهم مثل هذا التضليل الذي قام به قوم نوح عليه السلام.

فإن نحن عُدنّا إلى الآية (٧١) من سورة يونس حيث ورد: ﴿وَاتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ، فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ، ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْتَظِرُوا، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، يتضح لأعيننا أنّ ما حدث من طوفان في زمن نوح، دَلَّلَ تدليلاً جليّاً على وجود الله الذي أرسل نوحاً مُشْتَرَعاً، ليعالج ظاهرة الشُّرك الجليّ التي كانت استشرت في زمنه . هذا وإنّ ذلك الانقلاب الحقيقي الذي أحدثته بعثة نوح عليه السلام في تاريخ البشر، مازال أصداءه تدوي في كل مكان من هذه الأرض. ذلك أن نوحاً عليه السَّلام ابتداءً الله تعالى ببعثته حضارةً وتهذيباً أسمى ممّا تحقّق على أيدي آدم ، لاحتواء رسالة نوح على تشريع وقانون ونظام يُلبّون احتياج عقل أهل ذلك الزمان، الأمر الذي يجزم بأنّ الله الخالق هو رب العالمين.

الله الذي تتجلى ربوبيّته في الوقت المناسب وبالتعليم المناسب وبالأسلوب المناسب، وتبدو حينئذٍ ظاهرة اتصال هذا الإله وتكلّمه مع عباده بجلال مابعد من جلال، من ذلك ندرك أنّ الانقلاب الثاني العظيم الذي حدث على أيدي نوح قد شكّل الحلقة الثانية من سلسلة الانقلابات الروحية التي تُحدثها الأديان في كل مكان.

فقد ظهر في كلّ بُقعة من الأرض مثيل آدم ومثيل نوح كحلفتين أوليتين على درب الإصلاح الروحاني، كما أنّ ظاهرة نحت تماثيل لزعماء سادة الفريق الكافر برسالة آدم عليه السلام هؤلاء الذين أوهموا شعوبهم أنّهم من سلالة الآلهة. إنّ هذه الظاهرة أودت بالناس البدائيين على مرّ الأيام إلى السَّجود لهذه التماثيل التي حملت أسماء أولئك السادة الزعماء الأذكىاء. فظهر بذلك شرك جليّ بالله تعالى استدعى منه تعالى أن يبعث نوحاً، ينبّه هؤلاء البشر إلى حقيقة أمر هذه التماثيل ويشدّهم إلى عبادة خالقهم عز وجلّ.

٥- بؤادر الشُّرك الخفيّ : إنّ هذا النوع من الزعماء السادة، الأذكىاء لم يتعظّوا بطوفان نوح خصوصاً منهم الذين تزعموا أقواماً أخرى غير قوم نوح كعاديّ وثود وغيرهم. فقد راح هذا النّفر من الزعماء يدعّمون مراكزهم في أعين أتباعهم بأسلوبٍ فلسفيّ، فصوروا لهم أنّ الذي يعبد هذه التماثيل لا يعبد

لنفسها، بل يعبدها كوسيلةٍ تقربه من خالقه الحقيقي الذي لا يرونه، أي تقربهم زُلفى من الله عزوجل. فخدعوا هؤلاء الأتباع البسطاء التفكير ورسخوا بذلك أقدام هيمتهم على تلك الجماهير التي لم يحض على هجرها كهوفها وحياة توحشها ألوف السّنوات. هذه المدة التي لا تكفي لإنضاج عقل الفرد من هؤلاء البشر، ليتصرّف بإرادته وحرّيته وليقرّر مصيره بنفسه، فطبقة أصحاب الياقات والذكاء النادر من زعماء تلك الفترة من الزّمان استغلّوا ضعف عقول أتباعهم يومذاك وجاؤوهم بهذه الفلسفة المبتدعة التي أسلفت ذكرها، وانقلب الناس يعبدون هذه التماثيل التي تنحتها أيدي فنانيهم على أنّها تُقربهم زُلفى من ربهم عزوجل وتفسّث بذلك ظاهرة الشرك الخفي إلى جانب ظاهرة الشرك الجلي. والمعلوم تاريخياً أنّ ظاهرتي الشرك هذه امتدت أظلالها إلى زمن بعثة محمد خاتم النبيين (ﷺ).

إنّ تعاليم نوح عليه السّلام ماعادت تكفي لقمع ظاهرة الشرك الخفيّ المذكوره، فقد كانت تعاليم رسالة نوح تدور حول ضرورة تجنب المؤمن السجود للأصنام مع إلزام بسيط بمبادئ التّوحيد، وبما يتناسب مع نوعيّة الشرك التي ظهرت إلى زمن نوح، أمّا وقد ظهر شركٌ خفيٌّ مُدغم بفلسفةٍ أيضاً، فقد اقتضى ذلك الأمر بعث نبي كإبراهيم عليه السّلام وبفهمٍ توحيدٍ أسمى وبأدلةٍ أعظم لتفنيد دقائق هذا الشرك الفلسفيّ الذي انتشر من بعد الطوفان وتبلور في زمن بعثة إبراهيم عليه السّلام، ولا أقصد أنّ توحيد نوح يُغيّر توحيد إبراهيم، بل أقصد الاختصاص الذي اختصّ به إبراهيم. واضرب على ذلك مثلاً فإنّ ربّة المنزل تعرف استعمال الإبرة. إنّما السيّدة التي برعت في استعمال هذه الإبرة يُقال لها خياطة أيضاً. فهذه تخطّ وهذه تخطّ ولكن الأخرى أفلح في مجال هذه الخياطة.

وعليه فإنّ بعثة إبراهيم عليه السّلام رافقها التّسلح بالأدلة التي تفنّد الشرك الخفيّ المتمثّل في الفلسفة التي روّجتها ذرية إبليس من أولئك النّفر من الرّعاء السياسيين الذين تزعموا أقوامهم من بعد طوفان نوح. وإلى هذه الحقيقة أشار قول الله تعالى في الآية (١٢٣) من سورة الأنعام: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مَّجْرِمِينَ لِيَمْكُرُوا فِيهَا، وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾. فقد ذكر هؤلاء النّفر من السياسيين من

خلال لفظي (أكابر مُجرميها) وأتى تعالى بلام العاقبة وقال ﴿لِيَمَكُرُوا فِيهَا﴾ أي ليخدعوا أتباعهم حفاظاً على مكانتهم بينهم.

وراح جلّ شأنه فصور حال هؤلاء العامة البسطاء المخدوعين بقوله في الآية (٦٧) من سورة الأحزاب وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا. يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾. فنحن بغض النظر عن أنّ هذه الآيات الكريمة متعلّقة أصلاً بأهل الكتاب وبصيرهم القادم المختوم. فقد حملت لنا هذه الآيات قول هذه الجماهير قديماً وحديثاً وهو: ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل﴾. بمعنى أنّ هذه الجماهير لا تتفحص كلّ كلمة ينطق بها حُكّامهم وزعمائهم بعقلٍ نيرٍ، بل إنّ هؤلاء الناس يسرون على دين ملوكهم دون ترو ولا تمحيص. بسبب تخلف عقولهم بصورة عامة من جهة، وبسبب مكر سادتهم هؤلاء وأساليب خداعهم التي يخدعونهم بها من جهة أخرى.

ثم إنّ الله عز وجلّ لخصّ فلسفة الشرك الخفي التي أتيت على ذكرها في الآيات الأوائل من سورة الزمر وقال: ﴿أَلَا لِلَّذِينَ خَالَصُوا﴾ أي الخالص من شوائب الشرك الخفيّ وأضاف يقول ﴿والذين اتّخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلّا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ أي أنّ هؤلاء المشركين الذين اعرضوا عن ولاية ربّهم لهم، واتّخذوا من دونه أولياء فهؤلاء السادة أولياؤهم لقنواهم فلسفة الشرك الخفي الذي ابتلوا به، فلقنواهم عبادة هذه الأصنام على أنّها وسيلة تقربهم من الله زلفى.

وأضاف تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾. أي لن يكتب الله تعالى الهداية للذي هو كاذبٌ في فلسفته هذه ومخادعٌ مكرٌ كفّارٌ بنعمة ربّه عز وجلّ.

من هذه الآيات ندرك أنّ الشرك الجليّ الذي عاصر زمن بعثة نوح عليه السلام، دُعِمَ بفلسفة قلبته إلى شرك خفيّ اقتضت من الله تعالى إرسال إبراهيم

عليه السلام لتنفيذ هذا النوع الجديد من الشرك، ولتحرير عقيدة التوحيد منها ولتدعيمها بالحجج والبراهين.

على اعتبار أنّ العقل البشري قد بلغ زمن ابراهيم مرحلة من النضج تؤهله لتقبل وفهم هذا التوحيد الخالص من جميع شوائب الشرك والذي بُعث لإظهاره ابراهيم عليه السلام، ولكيلا يبقى للناس حجة على الله بعد بعثة ابراهيم. فالوثنية الفلسفية التي تفتشت بعد الطوفان في مختلف الأقوام كعاد وممود وغيرهم. هذه الوثنية التي غاير طابعها طابع الوثنية التي عاصرت زمن نوح، إنّ ظاهرة الوثنية الفلسفية هذه، اقتضت كما ذكرت إرسال ابراهيم بدين توحيديّ في موازاة تلك الظاهرة وبتعاليم توحيدية تناسب المرحلة التي كان يمرّ بها عقل هذا الإنسان رقيّاً ونضوجاً. هذا وإنّ جميع الأنبياء من بعد إبراهيم كانوا يحملون نفس التوحيد الابراهيمي إنّما برياضات روحية وأدلة أكثر رُقياً ممّا أتى به ابراهيم إلى أن أنزل الله عز وجل هذا القرآن العظيم بأكمل تعاليم التوحيد والعبادات والأدلة والحجج والبراهين. وعليه أصبح بإمكاننا أن ندرك سرّ تسمية إبراهيم "أبو الأنبياء" على حين يُسمّى آدم بإسم "أبو البشر".

فإن تدبّر القارئ أي الذكر الحكيم من زاوية النظر التي قدّمناها، يلاحظ امتيازاً امتاز به ابراهيم ولم ينل شرف امتيازه هذا آدم ولانوح من قبله. وهذا الامتياز تضمّنه الآية (١٢٠) من سورة النحل التي ورد فيها: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. فلماذا وردت فقرة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ التي اختصّ بها ابراهيم حين يرد ذكره في كتاب الله العزيز، على حين لم يختصّ بها أحد من الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى من قبله كآدم ونوح عليه السلام؟ الجواب المختصر هو أنّ الشرك الخفيّ ما كان منتشرّاً زمن آدم ونوح. بل انتشر هذا النوع من الشرك الخفيّ الفلسفيّ زمن ابراهيم، وقد برأ الله تعالى ابراهيم من هذا الشرك الخفيّ الذي ابتلي به قومه فما كان ابراهيم من هؤلاء بل كان موحداً ظاهراً وباطناً.

ولتدبّر ألفاظ هذه الآية التي أوردناها من سورة النحل، فقوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ فلفظ أمة يعني الإمام والرجل الذي لانظير له ومعلّم الخير والجامع للخير (تاج العروس) ثم إن كلمة (قانتاً لله) بمعنى مطيعاً. فقننت أي أطاع وذلّ ودعا وقام في الصلاة وأمسك عن الكلام وداوم على الطاعة

والصلاة (أقرب الموارد)، ثم إن كلمة (حنيفاً) من الحنيف أي الصحيح الميل إلى الاسلام الثابت عليه والمائل من دين إلى دين، وجمعه حُنفاء (أقرب الموارد)، ومادام الله عزوجل قد وصف ابراهيم بهذه الصفات التي تحمل كُلّ هذه الدلالات، فلا يُعقل أن يكون من المشركين. فما معنى أن يُضاف على هذه الصفات فقرة ﴿وما كان من المشركين﴾ إلا أن يكون لهذه الإضافة دلالتها الخاصة على نفي الشرك الخفي أيضاً، هذا الشرك الفلسفي الذي روجه الماكرون من سادة القوم من ذرية إبليس؟ وكأنّ الله عزوجل قال في هذه الآية الكريمة، وبألفاظ أخرى: هاأنّ ابراهيم كان من أصحاب اللياقات فكان أمة أي إماماً ومُعلماً الخير وقائماً لله وحنيفاً ومع ذلك لم يزعم لنفسه آية صفة من صفات القداسة والامتياز على أحدٍ من البشر من بني قومه، وهذا هو السبب في أن الله تعالى خاطب محمداً (ﷺ) بعد هذه الآية بثلاث آيات قائلاً: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ ومازاد الله تعالى فقرة [وما كان من المشركين] هنا عبثاً، بل شاء تنبيه أمة محمد (ﷺ) وبصورة خاصة الى ضرورة تجنبها الشرك الخفي والى ضرورة توكلها على الله عزوجل في جميع أحوالها كيلا تفقد هذه الأمة إيمانها وهداها الذي هداها الله تعالى إليه.

ولا ينبغي للذي يتلو هذه الآية الكريمة أن يذهب من خلال تلاوته فقرة ﴿أن اتبع ملة إبراهيم﴾ أن يذهب مذهب بعض المستشرقين الذين استنبطوا من هذه الفقرة أنّ محمداً (ﷺ) كان نبياً تابِعاً لجده ابراهيم في تعاليم دينه. بل إنّ المقصود من هذه الألفاظ هو حث محمد رسول الله على طلب الكمال الذي سعى إليه ابراهيم. أي أن يأخذ بالإطار العام والأسس العامة لدعوة ابراهيم وليس بما جاء به دينه من تعاليم تفصيلية، ذلك أنّ تعاليم الاسلام هي أكمل هذه التعاليم.

٦- خلاصة حول ظهور الشرك وتطوره : ألا إنّ ظواهر الشرك بدأت بعد آدم بأبسط أشكالها، ومن ثم انقلبت إلى عبادة التماثيل التي ولّدها أبرز الزعماء السياسيين قبيل زمن بعثة نوح عليه السلام. ولاشك أنّ قمع تلك الظاهرة يومذاك ماكانت تتطلب عقلاً ناضجاً وعناءً كبيراً. أمّا حين ظهر الشرك الخفيّ الفلسفيّ الذي نوّهت عنه والذي عاصر بعثة ابراهيم فقد احتاج إلى عقلٍ أنضج وحججٍ وبراهين أدقّ وأقوى لقمعه واقتلاعه من أذهان البشر. لذلك جاءت بعثة

ابراهيم لتحقق هذا الانقلاب الروحي الكبير المذكور في حياة إنسان ذاك الزمان ،
وبذلك أضحي ابراهيم عليه السلام علماً من أعلام التوحيد الالهي وأباً لجميع
الأنبياء الموحدين الذين بعثهم الله تعالى من بعده.



الفصل الرابع

أدرك الإنسان مكانته على أيدي ابراهيم :

ولم يتحقق موضوع فلسفة توحيد الذات الالهية على أيدي ابراهيم عليه السلام وحسب. بل إن الله عزوجل حقق على يديه أمراً آخر وبنفس الأهمية، وهو أن أعطى البشر مكانته السامية بين مختلف المخلوقات، وقد وضحت لنا تلك الحقيقة الآيات (١٠٢-١١١) من سورة الصافات، حيث ورد دعاء ابراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ - أَي لَمَّا أَصْبَحَ هَذَا الْغُلَامُ الْحَلِيمُ شَاباً قَابِلاً لِلسَّعْيِ وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاقَبْتُ الْفِعْلَ مَا تَوَقَّرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا - أَي أَطَاعَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ مَا أَوْحَى رَبُّهُمَا إِلَيْهِمَا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ - وَتَلَّهِ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

فأول ما تلفت نظرنا في هذه الآيات الكريمة أن الله تعالى اختتمها بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ...﴾. وهذه الألفاظ تذكرنا أو إن لفظ «الآخرين» خاصة يُذكرنا بما استهل به سورة الجمعة من آيات: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فالآخرين المنبأ عنهم في هذه الآيات هم جماعة مثيل المسيح كما سبق لي أن وضحت ذلك بالأدلة ودلالات الفاظ هذه الآيات في (فن الاختزال في القرآن الكريم) ضمن الصفحات (٢٢٦ - ٢٣١). فإن أحب القارئ فليراجعها فيه.

ثم إن آية ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ ما ارتبطت ألفاظها بألفاظ آيات سورة الجمعة لجرّد الصّدفة، بل وردت هذه العلاقة مصداقاً لدعاء إبراهيم عليه السلام نفسه في الآيات (٨٤) من سورة الشعراء، فقد قال تعالى هناك: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ. قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلَ عَلَيْهَا بَاقُونَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، قَالَ أَفَأُرِيدُ أَنْ مَمْلَكَتُهُ تَعْبُدُونَ، أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرَضْتُ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ، رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ...﴾. فإبراهيم دعا ربّه في هذه الآيات وقال ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾. وللتدليل على استحابة الله تعالى دعاءه المذكور الذي دعاه به إبراهيم، فقد أوردت الآيات من سورة الصّافات قول ربّنا عزوجل: ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ لِحُزْنِي الْحَسِينِ﴾. وقد أنبأ الله عزوجل أنّ هؤلاء الآخرين هم أصحاب مثل المسيح وذلك في سورة الجمعة ضمن قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وقد شرحت ذلك في (فن الاختزال) ثم إنّ سورة الواقعة التي أنبأت عن مصير «المسيح الدّجال» وما سيحلّ بمعسكره الغربي، وأنبأت: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ وهي نبوءة لخصّت ما أوردته سورة الكهف من قبل عن ذي القرنين وعن تأليفه جماعة مؤمنة للخلاص من يأجوج ومأجوج، وهذا ما قصد بقوله تعالى ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي يأجوج ومأجوج، وجماعة الآخرين التي ألّفها مثل المسيح. وقد حثنا ربّنا في سورة الواقعة أن نكون من ﴿السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾، لنحظى بشرف أن نكون ثمن أنبأت عنهم سورة الواقعة ضمن قوله تعالى ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولِينَ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾.

أعود إلى الآيات من سورة الصّافات، حيث قال: فأول مايلفت نظرنا قوله تعالى: ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾. فوضّحت أنّ هذا ورد استحابة لدعاء إبراهيم في الآيات من سورة الشعراء وهو أن الآخرين هم

أصحاب مثيل المسيح وهم الذي أنبأت عنهم سورة الجمعة، وكذلك من قبلها سورة الكهف.

فالسؤال الذي يخطر ببال القارئ هنا، هو: هل أن إبراهيم كان يعلمُ الغيب حتى دعا بهذا الدعاء؟ الجواب على هذا السؤال جد بسيط، دلنا عليه قول ربنا عز وجل في قصة آدم الحجازية حيث قال هناك: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. وكنت وضحت أن المقصود بلفظ الأسماء معرفاً، هو أسماء أبرز الأنبياء الذين سيبعثهم الله تعالى كحلقات ليكملوا مابدأته بعثة آدم عليه السلام.

هذا ولما كانت آخر حلقة من هذه الحلقات، هي بعثة محمد خاتم النبيين (ﷺ)، وقد ثبت لدينا أن الله تعالى قلّر أن يبعث مثيل المسيح من أمته (ﷺ)، ليقتل هذا المسيح الدجال الذي أنبأت عن ظهوره سورة الكهف وأجملت موضوع هلاكه سورة الواقعة، علماً بأن هذا يحدث مصداقاً لطلب إبليس نفسه وبلسان حاله أن يمهل ربه إلى زمن «اليوم المعلوم». فاليوم المعلوم هذا هو اليوم الذي أنبأت عنه سورة الواقعة، وهو يوم هلاك المسيح الدجال، الذي تنتهي بهلاكه الولايات التي تأتت على أيدي ذرية إبليس. أقول: فقد كان طبيعياً جداً أن يكون ربنا جل شأنه قد أنبأ إبراهيم عليه السلام عن هذه الأحداث القادمة من بعده، لذلك لاحظناه قد دعا ربه عز وجل وقال في سورة الشعراء: ﴿وَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ خصوصاً وأن الله تعالى أنبأ موسى ضمن إسرائه الموسوي عن مصير أمته أيضاً. فإبراهيم ما كان يعلم الغيب، إنما أظهر ربه عليه هذه الأمور الغيبية المتعلقة بأمته، وبالأخريين من أمة المسلمين أصحاب مثيل المسيح فضلاً ومنه تعالى على إبراهيم عليه السلام.

ولا ينبغي للقارئ أن يستغرب ذلك ويظن أنني أزعم أمراً لا دليل عليه. لا فليعلم هذا القارئ أن هذا الغيب نفسه اطلع عليه موسى وهارون والياس ونصّت سورة الصافات نفسها عليه فهو تعالى قال فيها أيضاً: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ.. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ كذلك ذكر تعالى إلياس وقال: ﴿وَإِن إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامًا عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

والأمر الثاني الذي يُلفت أنظارنا فيما تَضَمَّنَتْه الآيات التي أوردناها من سورة الصافات، هو قول ربِّنا عز وجل بِحَقِّ إِسْمَاعِيلَ: ﴿وَلَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾، مُخَالَفاً بِذَلِكَ مَا يَعْتَقِدُهُ يَهُودُ زَمَانِنَا وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى افْتَدَى إِسْحَاقَ بِهَذَا الذَّبْحِ وَلَيْسَ إِسْمَاعِيلُ، زَاعِمِينَ أَنَّ إِسْحَاقَ هُوَ الْإِبْنُ الْبَكْرُ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. يَضِيفُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى افْتَدَى إِسْمَاعِيلَ بِضَفْدَعَةٍ وَلَيْسَ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ. فَمَا هُوَ دَلِيلُنَا عَلَى صَدَقِ مَا أَنْزَلَهُ رَبُّنَا عَزَّوَجَلَّ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ مِنْ أَنَّهُ تَعَالَى افْتَدَى إِسْمَاعِيلَ وَلَيْسَ إِسْحَاقَ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ؟

الدَّلِيلُ يُسْتَفَادُ مِنْ نصوص هذه التوراة المعاصرة المَحَرَّفةِ نَفْسَهَا. فَالَّذِي يَثْبُتُ مِنْهَا أَنَّ إِسْمَاعِيلَ هُوَ الْإِبْنُ الْبَكْرُ، وَهُوَ الَّذِي ذَهَبَتْ بِهِ أُمُّهُ هَاجِرٌ إِلَى أَرْضِ الْحِجَازِ الَّتِي أَطْلَقَتْ التَّوْرَةَ وَالْمُؤَرِّخُونَ الْقَدَمَاءُ عَلَيْهَا اسْمَ أَرْضِ فَارَانَ، أَيْ الْأَرْضِ الَّتِي فَرَّ إِلَيْهَا هَاجِرٌ وَابْنُهَا إِسْمَاعِيلُ، وَأَنَّ نَسْلَ إِسْمَاعِيلَ لَنْ يُعَدَّ مِنْ كَثْرَتِهِ، فَفِي الْإِصْحَاحِ السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ سَفَرِ التَّكْوِينِ وَرَدَ: (وَأَمَّا سَارَايُ امْرَأَةُ أَبِرَامَ فَلَمْ تَلِدْ لَهُ. وَكَانَتْ لَهَا جَارِيَةٌ مِصْرِيَّةٌ اسْمُهَا هَاجِرُ، فَقَالَتْ سَارَايُ لِأَبِرَامَ: هُوَ ذَا الرَّبِّ قَدْ أَمْسَكَنِي مِنَ الْوِلَادَةِ، أَدْخَلَ عَلَيَّ جَارِيَتِي لَعَلِّي أَرْزُقُ مِنْهَا بَنِينَ. فَسَمِعَ أَبِرَامُ لِقَوْلِ سَارَايَ... فَدَخَلَ عَلَى هَاجِرَ فَحَبَلَتْ وَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبَلَتْ صَغُرَتْ مَوْلَاتُهَا فِي عَيْنَيْهَا.. فَأَذَلَّتْهَا سَارَايُ، فَهَرَبَتْ مِنْ وَجْهَهَا، فَوَجَدَهَا مَلَكَ الرَّبِّ عَلَى عَيْنِ الْمَاءِ فِي الْبَرِّيَّةِ.. وَقَالَ يَا هَاجِرُ جَارِيَةُ سَارَايَ.. ارْجِعِي إِلَى مَوْلَاتِكَ وَاخْضَعِي تَحْتَ يَدَيْهَا، وَقَالَ لَهَا مَلَكَ الرَّبِّ: تَكْثِيرًا أَكْثَرَ نَسْلِكَ فَلَا يُعَدُّ مِنْ الْكَثْرَةِ، وَقَالَ لَهَا مَلَكَ الرَّبِّ: هَأَنْتِ حُبْلَى فَتَلِدِينَ ابْنًا. وَتَدْعِينَ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ لِأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمِذَلَّتِكَ.. فَوَلَدَتْ هَاجِرُ لِأَبِرَامَ ابْنًا وَدَعَا أَبِرَامُ اسْمَ ابْنِهِ الَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجِرُ إِسْمَاعِيلَ. كَانَ أَبِرَامُ ابْنُ سِتٍّ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْ هَاجِرُ إِسْمَاعِيلَ لِأَبِرَامَ. وَلَمَّا كَانَ أَبِرَامُ ابْنُ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لِأَبِرَامَ وَتَكَلَّمَ اللَّهُ مَعَهُ قَائِلًا: أَمَّا أَنَا فَهُوَ ذَا عَهْدِي مَعَكَ، وَتَكُونُ أَبَا الْجُمْهُورِ مِنَ الْأُمَمِ. فَلَا يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدُ أَبِرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ، لِأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبَا الْجُمْهُورِ مِنَ الْأُمَمِ. وَالْمَمْرُكَ كَثِيرًا جَدًّا وَأَجْعَلُكَ أُمَمًا، وَمَلُوكًا مِنْكَ يَخْرُجُونَ).

فهذا النص التوراتي المعاصر يفيد عدَّةَ أمورٍ: يفيد أولاً أَنَّ إِسْمَاعِيلَ هُوَ الْإِبْنُ الْبَكْرُ لِإِبْرَاهِيمَ، وَيَفِيدُ ثَانِيًا أَنَّ أَبِرَامَ سُمِّيَ بَعْدَ وِلَادَةِ إِسْمَاعِيلَ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ بِاسْمِ إِبْرَاهِيمَ. وَيَفِيدُ ثَالِثًا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَشَّرَ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ سَيَكُونُ أَبًا

لجمهور من الأمم، وليس أباً لبني اسرائيل وحدهم، ويفيد رابعاً أنّ نسل هاجر من اسماعيل على حسب ما قال ملاك الرب: (تكثيراً أكثر نسلك فلا يُعدّ من الكثرة) فهي أنّ عدد نسل اسماعيل أضعاف أضعاف نسل اسحاق وبنوا اسرائيل الذين لا يتجاوز عددهم حتى الآن العشرين مليوناً في العالم. أمّا العرب من نسل اسماعيل فيتجاوزون مئة مليون نسمة.

وللقارئ أن يعود إلى الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين نفسه ليلاحظ التناقض الواقع مع هذا النص السابق، والذي يستشمن منه تدخل يد التعصّب الاسرائيلي وتحريفاته، فقد ورد هناك: (فلما أتيا - أي ابراهيم وابنه اسحاق - إلى الموضع الذي قال له الله، بنى هناك ابراهيم المذبح ورتب الحطب وربط اسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب، ثم مدّ ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء وقال: ابراهيم ابراهيم. فقال: ها أنذا، فقال لا تمتد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً. لأنني الآن علمت أنّك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني، فرفع ابراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه مسكاً في الغابة القريبة. فذهب ابراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه ونادى ملاك الرب ابراهيم ثانية من السماء وقال.. من أجل أنّك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة، وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر.. ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض..).

فهذا النص التوراتي المعاصر يفيد عدّة أمور تناقض الأمور الأربعة المستفادة من النص التوراتي السابق، فهذا النص يفيد أولاً أنّ اسحاق هو الابن الوحيد لإبراهيم، ويفيد ثانياً أنّ اسحاق هو الذي افتداه الله بالكبش دون تعيين أكان كبشاً سمياً أو كان صغيراً هزياً. ويفيد ثالثاً أن نسل ابراهيم من اسحاق سيكون مباركاً وكثيراً كثرة نجوم السماء وكثرة الرمل الذي على شاطئ البحر. ويفيد رابعاً أنّ جميع أمم الأرض يتباركون من نسل اسحاق الابن الوحيد لابراهيم.

فالقارئ الذي يطالع هذين النصين التوراتيين يلاحظ التناقض بين مُعطياتهما صراحةً وبوضوح تام. فإذا كان هذا القارئ غير يهودي وكان محايداً وواقعياً، فإنّ هذا القارئ الذي قرأ النص القرآني من آيات سورة الصافات

سيميل لتصديق مضمون النص التوراتي الأول يقيناً. ذلك لأنّ ذلك النص صرّح أن هاجر وابنها اسماعيل هاجراً إلى أرض فاران وهي أرض الحجاز الأمر الذي أثبتناه من قبل.

وها أنّ نسل اسماعيل تكاثّر أضعاف تكاثّر نسل اسحاق. ولأنّ النص الأول يثبت منه أنّ اسماعيل هو الابن البكر لابراهيم. فمن أرض الحجاز بعث الله محمداً رسول الله بتعاليم الاسلام وأمره تعالى في هذا القرآن الذي اشتمل على تلك التعاليم، أمره بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ النحل ١٢٣. وبشره أيضاً بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الصف ٩. أي أنّ جميع الأقوام ستؤمن بهذا الرسول الذي هو من نسل اسماعيل وستتبارك به أيضاً. وهذا أمرٌ يُلاحظ المحقّق أنّه يتحقّق الآن على أيدي هذه الثلثة من الآخرين من أصحاب مثيل المسيح عليه السلام وهم خدام محمد سيد المرسلين (ﷺ)، فأين نسل إسحاق الذين لعنه الله بعد بعثة المسيح الناصري واصطلح له اسم «الشجرة الملعونة» في القرآن الكريم في سورة الإسراء؟ أين نسل اسحاق الذي شتته الله تعالى تحت كلّ كوكب، وعاد اليوم إلى أرض كنعان بجبل من المسيح الدجال الذي ترعّم شعوبه أنّهم هم الناس وحدهم من دون شعوب الأرض؟ هذه العودة التي ستكون القاضية عليهم وفق نبوءات سورة الإسراء؟ فإسماعيل هو الابن البكر. أما اسحاق فولدته أمّه سارة في شيخوختها بعد ولادة اسماعيل، من بطن هاجر. يثبت هذا من الاصحاح الحادي والعشرون من سفر التكوين الذي ورد فيه: (وافتقد الرب سارة.. فحبلت سارة وولدت لابراهيم ابناً في شيخوخته.. ودعا ابراهيم اسم ابنه المولود له الذي ولدته سارة «اسحاق».. وكان ابراهيم ابن مائة سنة حين وُلد له اسحاق ابنه وقالت سارة قد صنع إليّ الله ضحكاً، كل من يسمع يضحك لي..)، على حين أنّ عمر ابراهيم حين ولد له اسماعيل كان ابن ست وثمانين سنة كما تبين من النص التوراتي الأول. وها أنّ القرآن يؤيد أنّ سارة ولدت اسحاق وهي عجوز. ففي الآيات (٧٠-٧٤) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى.. وَامْرَأَتُهُ قَانِئَةٌ فَضَحِكَتْ، فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ يَا وَيْلَتَا

أألد وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً، إن هذا لشيء عجيب، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميدٌ مجيدٌ.

أعود لأصل الموضوع وأقول إن حادثة اسماعيل عليه السلام توضح الشبهة الثانية للانقلاب الروحاني الكبير الذي حققه الله تعالى على أيدي ابراهيم عليه السلام، فما هي دلالة ﴿وفدينا به بذبحٍ عظيم﴾؟ ولمَ لم يقل جلَّ شأنه (وفدينا به بكبشٍ كبير).

وحتى يتبين لنا الجواب المقنع، نعود مع القارئ إلى الآية (١٣٢) من سورة البقرة فقد خاطب تعالى فيها ابراهيم: ﴿إذ قال له ربه أسلم، قال أسلمت لرب العالمين﴾ فالقصد بكلمة (أسلم) هنا، ليس كما يتبادر منها للذهن أن آمن وكن مسلماً، بل يأمر الله تعالى ابراهيم أن يتميز عن قومه فيسلم ويستخر عقله وعمله وذكاءه وجميع قواه لخدمة رسالة رب العالمين أي أن يمثل التوحيد الكامل العملي، فينصاع لأمر ربه في مأكله ومشربه ويقظته ومنامه، ولقد راح الله تعالى ينظر مدى انصياع ابراهيم لأمر ربه، فأوحى إليه في منامه ومن وراء حجاب هذه الرؤيا التي عبر ابراهيم عنها ومخاطباً ابنه اسماعيل: ﴿قال يا بني إني أرى في المنام أنني أذبحك فانظر ماذا ترى؟﴾ وأجابه ابنه اسماعيل: ﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾. فلمَ لم يستغرب ابراهيم واسماعيل ماتضمنته هذه الرؤيا؟ جوابه أنهما لم يستغربا ذلك لأن البشر من حولهم كانوا يقدمون الضحايا والقرايين لأهنتهم، ولا يفرقون في ذلك بين تقديمهم إنساناً أو حيواناً ضحيةً وقرباناً. فيضحون بالفتى أو الفتاة كما يضحون ببقرة أو شاة. فلا يُعطون حياة الإنسان من قيمةٍ تمتاز عن حياة الحيوان، لأنهم يرون أن الإنسان والحيوان يشتركان في المأكل والمشرب والمسعى والتناسل.

ولقد نجح ابراهيم في استحبابته لربه الذي كان أمره أن أسلم جميع قواك لربك، لذلك أضاف تعالى يقول: ﴿فلما أسلما وتلّاه للجبين، نادينا به أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا - أي نجحت في الامتحان المقصود بها - إنا كذلك نجزي المحسنين﴾. أي على هذه الشاكلة نمتحن عبادنا المحسنين التصرف والاستجابة لأوامرنا. وأضاف تعالى يقول: ﴿إن هذا هو البلاء المبين﴾. أي أن مثل هذا الامتحان البلاء يصلح لتمييز المحسنين عملاً. وأضاف تعالى ثانية وقال:

﴿وفديناه بذبح عظيم﴾. أي استنقذناه بذبح عظيم، ولم يقل بكبش كبير، أي أننا استبدلنا مادرج عليه الناس من تضحية للنفس البشرية استبدلناه بذبح ذا مغزى عظيم أعطى للنفس البشرية مكانتها بين بقية المخلوقات.

إن كلمة «عظيم» على حسب ماورد في معجم (محيط المحيط) هي نقيض «حقير». كما أن كلمة «كبير» نقيض صغير. والعظيم فوق الكبير، ذلك لأن العظيم لا يكون حقيراً، أما الكبير فقد يكون حقيراً، كما أن الصغير قد يكون عظيماً. إذ ليس كل منهما ضد الآخر. وقد يُطلق العظيم على الأمر المُستعظم عقلاً كما هو وارد في قوله تعالى ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ أي فديناه واستنقذناه بذبح ذي مغزى مُستعظم عقلاً لدى المتفكرين، ويتأتى استعظام هذا الذبح من جهة أن البشر قد أدرك ولأول مرة في تاريخه ومن خلال رؤيا ابراهيم عليه السلام وتأويلها، أن البشر مخلوقٌ مكرمٌ من دون بقية المخلوقات، وتكرمه هذا امتاز به. بمبدأ هذا الذبح العظيم.

فالله عزوجل أشار من خلال هذه الألفاظ ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ إلى الانقلاب الكبير الذي حققه على أيدي رسوله ابراهيم عليه السلام، كما نبه عقول هؤلاء الناس إلى أن ربهم لم يخلقهم عبثاً، بل خلقهم لتحقيق مقصدٍ عظيم من حياتهم ألا وهو أن يتعرفوا على خالقهم ويسعوا إلى جذب محبته ليفوزوا بقربه ورضوانه. وعلى هذه الصورة تكون رسالة ابراهيم قد أتت بفلسفةٍ لا مثيل لها من قبل بعثته عليه السلام. فساعدت فلسفة هذا الإنسان على تصوّر عالم ماوراء الطبيعة، وتصور عالم الآخرة وحياة ما بعد الموت.

وعاد هذا الإنسان يستنكر التضحية بالنفس البشرية، إلا في حالة الانصياع للقانون الطبيعي الذي سنّه الخالق عزوجل وهو تضحية الأدنى في سبيل بقاء الأسمى، لذلك أقرّ هذا الإنسان مبدأ التضحية بنفسه دفاعاً عن دينه. وعلى اعتبار أن الدين هو الذي طور عقل هذا الإنسان وكرّمه وفتح له سبيل معرفة خالقه وللتعرف عليه والفوز بقربه ورضوانه.

فهذه هي دلالة قول ربنا: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾، دلالتها على أن الانقلاب الكبير الذي حققه الله تعالى على أيدي رسوله ابراهيم، قد تمثّل في إبطال ابراهيم لهذا التقليد المتوارث البالي الذي كان لا يفرّق فيه المرء مابين إنسان وحيوان عند تقديم القرابين. وبذلك ربط تعليم ابراهيم مابين وجود البشر ومابين

فلسفة وجودهم الذي ذكرناه. وهذا الانقلاب الذي قام به إبراهيم عليه السلام أثبت بصورة عملية أنّ رب العالمين، هو الذي كان يدري بالمرحلة المتقدمة التي كان قد بلغها عقل البشر يومذاك، وأنّه جلّ شأنه، وبصفته ربّ هذا البشر قد بعث نبيّه إبراهيم ليحقّق على يديه هذا الانقلاب الكبير وليحفظ للبشر إنسانيّته القائمة على فلسفة ومعنى ومقصدٍ أسمى، وليدفعه على طريق رُقي لا يقف عند حدود، فأين هذه الدلالات القرآنية لهذه الرؤيا، وأين ماوضحته التوراة المعاصرة فيما أوردناه.

والمهمّ في الأمر هو أنّ هذا القارئ لابدّ أن يكون قد ميّز بين معالم إطار التّوحيد الذي بُعث به نوح عليه السلام، وبين معالم إطار التّوحيد الذي بُعث به إبراهيم عليه السلام، ذلك أن الابتلاءات التي مرّ بها إبراهيم بنجاح لم يُمرّر الله نوحاً بمثلها، لذلك ظهر هذا الفارق بين الإطارين التّوحيديّين، فكلّ ماوضحه القرآن الكريم بما يتعلق بابتلاءات نوح أنّه أمره بصنع السفينة، للنّجاة. على حين أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذهب بابنه إسماعيل وزوجته هاجر ليتركهما في وادٍ غير ذي زرع من أرض فاران أي في مكة، أن يتركهما متوكّلاً على عون ربّه الذي أمره بذلك الأمر. فلم ينظر في أمر تأمين طعام وشراب هذين معتقداً أن ربّه قد أخذ على عاتقه مسؤولية ذلك. فلما بلغ إسماعيل سنّ السعي والنشاط، ابتلى الله تعالى إبراهيم بهذه الرؤيا ليظهر عملياً مدى توكل إبراهيم على ربّه ومدى انصياعه لأوامره. وكان هذا الامتحان بلائاً مبيّناً لنفسية إبراهيم وحقيقة توكله على الله الذي اصطفاه لرسالته. ونتيجة لهذا الفارق الكبير ما بين ما ابتلي به نوح وما ابتلي به إبراهيم فقد ظهر هذا الفارق الكبير بين إطاريّ التّوحيد الذي بُعثا به عليهما السلام، وظهر علوّ مقام إبراهيم على مقام نوح عليهما السلام روحانيّاً. ولنأت الآن إلى ماحقّق على أيدي موسى من انقلابات.

الانقلاب العظيم الذي أحدثته بعثة موسى عليه السلام:

لقد وضّح لنا كتاب الله العزيز الانقلاب الكبير الذي حققه على يدي نبيّه موسى عليه السلام. فأضاف بذلك أموراً لم تأت بها بعثات آدم ونوح

وإبراهيم . فقد سبق أن تبين لنا أن الله تعالى قد أسس على يدي آدم أول نظام تعاوني خارج الكهوف . وأن نوحاً قد فرّق الله تعالى على يديه ما بين مفهومي الشرك والتوحيد . وأن إبراهيم وضّح الله تعالى على يديه مفهوم التوحيد الخالص من شوائب الشرك ، فميّز بواسطته ما بين المجتمع الإيماني والمجتمع غير الإيماني دون الدخول في بيان الفروق التفصيلية ما بين حالات الكفر ، وحالة الاستسلام فكرياً وعملياً لله عز وجل وعلى جميع صُعد الحياة .

وأقول بالفاظٍ أخرى : إن الذي يستعرض الخطّ البيانيّ لتطوّر عقل البشر وعموّه ، من بعد إخراج هؤلاء البشر من حياة الكهوف ، لابدّ أن يدرك هذا الباحث أن ما أتت به بعثات آدم ونوح وإبراهيم من انقلابات كبرى في حياة هذا البشر ، إنما كانت حقائقها تتناسب وسير هذا الخطّ البياني . فقد أتت ماحملته تلك الإنقلابات الروحية الفكرية والفلسفية بما كان يتناسب مع مستوى النضوج العقلي للإنسان . أي أن تعاليم كلّ نبيّ من الأنبياء الذين ذكرناهم قد خاطبت أفراد كلّ قوم في ذاك الزمان كلا على قدر ما وصل إليه عقله من نضوج . وثبت من خلال ذلك تدخل ربوبيّة الله في الوقت المناسب والزمن المناسب لإحداث التغيير اللازم أيضاً . من هذا ندرك أنّ تعاليم آدم ونوحاً وإبراهيم قد انطوت على ظاهرة تدرّج عمودي نحو الأفضل ، ويكمل بعضها بعضها الآخر أيضاً .

فإن نحن تدبرنا كتاب الله العزيز من وجهة النظر هذه ، يتّضح لأعيننا سرّ ما تضمّنته الآية (٤٢) من سورة هود : ﴿ ونادى نوح ابنه ، وكان في معزل يابني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموحّ فكان من المغرّقين ﴾ . ذلك أن ألفاظ هذه الآية الكريمة قد كشفت لنا حقيقة أن التعاليم التي كان قد بُعث بها نوح عليه السلام كانت إجمالية غير تفصيلية شاملة ، فلم توضح علائق الأفراد بالأفراد بل كانت تعاليم نوح تدور حول بيان الفرق بين الشرك والتوحيد بصورة عامة وحذرت من السجود أمام هذه التماثيل التي كان قومه عليها عاكفون . ولهذا وقع نوح فيما وقع فيه من دافع عاطفيّ فنادى ابنه بهذا الدافع وليس بدافع تعليم إيماني . ولذلك عذّره ربه وناداه قائلاً : ﴿ قال يانوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلاتسألنّ ما ليس لك به علم ، إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ ذلك أن الله تعالى وعظ نوحاً ألا

يقف بين يديه ليدعوه طالباً منه تحقيق أمور خارجة عن دائرة ما أطلعه عليه من علوم ، ووعظه بذلك ألا يكون من الجاهلين . فلفظ الجاهل ضد العالم . وجهل ضد علم (محيط المحيط) أي حذر الله تعالى ألا يتجاوز في طلباته وأدعيته حدود ما علمه الله إياه من علوم . أي أنّ نوحاً أراد أن يسأل ربّه شيئاً ، فلا ينبغي أن يسأل عن أمر لم يُعط الله نوحاً قوّة فهمه . لذلك قال تعالى لنوح ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ وهذا القول الرباني ورد بجملاً أيضاً ولم يدخل في التفاصيل ، فلم يوضح كيف لا يكون ابن نوح من أهله ، ولا وضح كيف أنه كان يمثل عملاً غير صالح . فهذه الحقيقة التي دللتنا عليها هذه الآية الكريمة عظيمة جداً ، ولم نكن لنذكرها لولا التعرض لحادثة ابن نوح المذكورة . كذلك كانت رسالة ابراهيم تدور تعاليمها حول بيان معالم التوحيد الخالص من شوائب الشرك بأنواعه، فكانت أحكام مواضعها عامة غير مفصلة كما هو في هذا القرآن الكريم ولهذا السبب فلم يكن الأنبياء من قبل بعثة موسى عليه السلام يتحرّجون من تزويج بناتهم لغير المؤمنين أو تزويج غير المؤمنين . والأدلة على ذلك كثيرة في كتاب الله العزيز، ثمّا لا حاجة للتبسّط في شرحه في هذا المقام.

١- تعاليم موسى قومية شاملة :

وانطلاقاً من هذا الفهم الذي بيّناه، فقد امتازت تعاليم رسالة موسى على تعاليم الرّسالات السّماوية التي سبقتها، أنّها جاءت بتعاليم تشمل جميع نواحي الحياة : سياسياً ومدنياً واقتصادياً وروحياً.. فأمرسي المؤمن بموسى يفرّق بين النّظافة والنّجاسة، ويعرف حدود تعامله مع حُكامه ومع الأفراد أمثاله، وتوضّحت للمؤمن طريقته التي يتعبّد بها ربّه ليرضيه وليحصل على محبّته ورضاه، وهذه الأحكام المفصلة جعلت من موسى قائداً رمزاً، وحاكماً سياسياً، ونبياً مُرسلاً، وفي آن واحد، أي أنّ مشيئة الله تعالى اقتضت أن تقدّم للعقل البشري تجربة روحية على هذه المستويات جميعها. تتناسب مع مستوى النضوج العقلي في تلك الفترة الزمنية. فالضرورة الزمنية ومستوى فهم البشر قد اقتضيا يومذاك الجمع ما بين تعاليم آدم ونوحا و ابراهيم مُضافاً إليها تفصيلات متعلّقة بمختلف صعد الحياة. وهكذا أحدثت تعاليم موسى انقلاباً حقيقياً كبيراً ماسبق أن تحقّق على يدي أيّ نبي من قبله، وقد شمل هذا الانقلاب الرّوحي النواحي السياسيّة والمدنية والروحية في آن واحد، إنّما بما يتناسب مع حال قوم موسى وهم بنو اسرائيل.

ففي حين منحت رسالة ابراهيم عليه السلام جسد البشر مكانة سامية تفضّل بها الإنسان عن بقية الأنعام فقد أتت رسالة موسى فوضّحت علاقة هذا الجسد بالروح، ففتحت بذلك باب التدرّج على سُلّم الرقي الروحاني. وهذه حقيقة وضّحتها وثبّتها إليها الآية (١٥٤) من سورة الأنعام التي قال تعالى فيها: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ، وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى، وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ وقد جاءت صياغة هذه الآية مُعجزةً جقاً وبجاجة للتدبّر وبشكل موضوعي.

فالخطاب في سباق هذه الآية الكريمة كان موجّهاً أصلاً إلى المشركين خاصة، حيث خاطبوا: ﴿وَإِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذَلِكَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. ومن ثمّ برّر جلّ شأنه طلبه هذا الذي طلبه من المشركين وقال: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا، وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾. وأشار بكلمة الطائفتين إلى اليهود والنصارى وإهمال قريش دراسة مالدی هاتين الطائفتين من تعاليم سماوية.

فالخطاب في السياق إذن موجّه إلى المشركين، ويحثهم على اتباع صراط الله المستقيم الذي أنزله ربهم لصالحهم، وليكونوا من زمرة المتّقين. وهذا الأمر استدعى منه جلّ شأنه تقديم مثال موسى ومحمد صلوات الله عليهما، كمثال يحتذى في تقوى الله تعالى واتباع صراطه المستقيم. فقال تعالى فيما يتعلّق بمثال موسى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي أنّ موسى كان محسناً وتقياً ومُتّبِعاً صراط ربّه المستقيم، لذلك أنعم الله تعالى عليه بالكتاب المسمّى توراة، (تماماً) أي وفقاً لحالة التقوى التي كان موسى قد بلغها، فقد كان موسى مُفعماً بالعصبيّة لقومه. فأشار جلّ شأنه من خلال كلمة (تماماً) إلى أنّ تعاليم التوراة كانت مُنصبغة بصيغة قوميّة موسى نفسه، فلم تكن عالميّة الصبغة ولا كانت تصلح لكل زمان ومكان. فهذا ما أشارت إليه كلمة تماماً في هذا المقام، خصوصاً وأنّ النحويين وضّحوا أنّ التام لا يعني الكمال بل يحتاج إلى تكميل، فالكمال يكون أمراً زائداً على التمام، لأنّ التمام يقابل نقصان الأصل ولا يقابل الكمال. أمّا الكمال فيقابل نقصان الوصف بعد تمام الأصل، فهذا ماورد في معجم (محيط المحيط)، وهكذا تكون كلمة (تماماً) دالة على انحصار تعاليم التوراة في نطاق إصلاح بني اسرائيل من دون سائر الأمم ونفي أن تكون تعاليم التوراة

عالمية الصبغة والغاية. أي أنّ تعاليم التوراة هي (تماماً) بما يلائم الوضع القومي لقوم موسى - وهي تعاليم ناقصة الوصف وباجة إلى التكميل لتصبح ذات صبغة عالمية. وهذا هو سرّ أنّ التوراة تخاطب قوم موسى وحدهم من دون سائر الأقوام المجاورة، على حين أنّ تعاليم القرآن الكريم الذي أنزله الله جلّ شأنه على محمد خاتم النبيين خاطب الناس كافة يهوداً ونصارى وقريشاً وسواهم من الأقوام لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾.

والله تعالى إذ أضاف بعد كلمة (تماماً) قوله: ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ، وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، فقد أشار بقوله هذا إلى أنّ تعاليم موسى وردت قومية وعلى قدر إحسان موسى وتقواه. وهذه التعاليم ورد فيها ﴿تَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي لكلّ شيء أنزله الله تعالى من قبل موسى على آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام.

فقد نزلت تعاليم التوراة تفصّل ما كان مُجَمَّلاً في تعاليم أولئك الأنبياء السابقين. بمعنى أنّ التوراة تجاوزت مرحلة الإجمال في التعاليم. ففصلت تعاليم التوراة أمور العبادات وأمور أساليب الحكم وما يتعلق بالمرأة وشؤونها والاقتصاد وضوابطه، وبما يتعلق بصلة الأفراد بعضهم ببعضهم الآخر، وبصلتهم بحكامهم. إنّما ظلّ النقص يعتري تعاليم التوراة هذه على اعتبار أنها تعاليم قومية هي بحاجة إلى التكميل لتصبح تعاليم شاملة وعالمية.

والله تعالى إذ أضاف على ذلك كلمة (وهدي) فبمعنى أنّ هذه التعاليم "التمام" التي أنزلناها على موسى والتي لم يسبق لنا أن أنزلناها على نبيّ من قبله، فقد أضحت هذه التعاليم (هدي) لموسى نفسه يهتدي بهداها، وليهدي بها قومه أيضاً.

وأضاف جلّ شأنه على ذلك كله قوله: ﴿وَرَحْمَةً لِّعَلَّهِمْ بَلْقَاءَ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾. أي أضحت تعاليم التوراة رحمة من الله تعالى أنزلها على قوم موسى لعلهم يستفيدون من هذه التعاليم ويعملون عليها وعلّهم يعملون وهم يؤمنون أنّها وسيلة لقايتهم مع ربّهم وتقريبهم منه جلّ وعلا. هذا وإن استضعاف فرعون لبني إسرائيل هو الذي جذب رحمة الله نحوهم، على الوجه الذي وضّحناه إذ لا بد لكلّ مقدّمة نتائجها، فهذا هو مُجْمَل قول ربّنا عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى

الكتاب تماماً على الذي أحسن، وتفصيلاً لكل شيء، وهدى، ورحمة لعلمهم بلقاء ربهم يؤمنون ﴿١٤٥﴾.

ولما كان القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، فقد فسر الله تعالى هذه الآية في الآية (١٤٥) من سورة الأعراف حيث قال: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلاً لكل شيء﴾. بمعنى أن وصايا العشر التي كتبناها لموسى في الألواح قد وردت متضمنة موعظة من كل شيء تطلبت بيانه حالة قومه عليه السلام سواء منها السياسية أو المدنية أو الروحية لذلك عاد موسى من جرأ ما أنزلناه عليه من تعاليم قائداً وحاكماً ونبيّاً. أو قولوا بالفاظ أخرى أن تعاليم التوراة كانت أول تعاليم سماوية مُنزلة لبّت احتياجات عقل البشر في مرحلة نضجه يومذاك وبشكل تفصيلي، لأنه عاد يومذاك مؤهلاً لإدراك قيمة مواعظ تلك التعاليم ومؤهلاً للعمل عليها أيضاً.

ولنعُد إلى آية سورة الأنعام، فبعد أن ذُكر الله تعالى المشركين بنعمة تعاليم موسى الموافقة لتقواه، راح يذكرهم بأنّ النقص الذي اشتملت عليه تعاليم التوراة، بسبب أنها تعاليم قومية قد تداركه الله عز وجلّ عن طريق هذا النبي العربي الأمي الذي اصطفاه الله تعالى من بينهم وهذه التعاليم التي احتواها هذا الكتاب الذي أنزله الله تعالى عليه، فأُنزل تعاليمه عالمية الصبغة وتصلح لكل زمان ومكان. فهذا ما عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه، واتّقوا لعلكم تُرحمون﴾ أي لعلكم تُرحمون به كما رحمنا بني إسرائيل بتعاليم التوراة التي أنزلناها على موسى عليه السلام.

وليلاحظ القارئ كيف أنّ الله تعالى وصف هذا الكتاب القرآن أنه (مبارك)، بمعنى أنّ تعاليمه تتصف بالبركة والقداسة فهي شاملة وتتصف بصفة دوام العطاء في كل زمان ومكان، فهذا هو معنى مبارك كما ورد في (محيط المحيط).

والله تعالى إذ قال ﴿فاتبعوه﴾ فقد أمر المشركين بهذا الأمر لتتقلب تعاليم هذا الكتاب رحمة لهم من جرأ إيمانهم به وعملهم على تعاليمه. وأضاف قائلاً: ﴿واتّقوا لعلكم تُرحمون﴾. مشروطاً على المشركين اتباع تعاليم القرآن الكريم بتقوى الله، وليس لمجرد التقليد ﴿لعلكم تُرحمون﴾. أي أنّ العمل على هذه التعاليم عملاً خائوياً من روح تقوى الله وخشيته ومن روح الاندفاع للتقرب من

الله تعالى وطلب قربه ورضوانه، إنَّ هذا النوع من العمل الخاوي من تقوى الله وحشيشته، هو بمثابة جسد بلا روح فلا تنجذب رحمة الله إلى هذا الإنسان.

وراح تعالى يبرّر طلبه وأمره هذا الذي وجهه إلى المشركين وقال: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا، وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسِهِمْ لَغَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدَفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدَفُونَ﴾.

فإذا شئنا تلخيص ماذكرته وبيّنته حتى الآن، أقول: إنَّ الله عز وجلّ راح في هذه الآيات يصفّر لنا اطار الانقلاب الكبير الروحي الذي أحدثته بعثة موسى عليه السلام. من حيث أنَّ التعاليم التي أنزلها ربّه عليه قد احتوت من جهة على الأسس العامة لما أنزله الله تعالى من تعاليم على آدم ونوح وإبراهيم من قبله، وأنَّ تعاليم التوراة أكملت تلك الأطر والأسس وفصلتها من جهة أخرى فربطت بذلك مابين الدّين والدّنيا، ووضّحت التعاليم الروحية المتعلقة بعبادة الله ومعرفته، ووضّحت قواعد ومبادئ تعامل الإنسان الفرد مع أخيه الإنسان فرداً كان أو جماعة أو حاكماً، وتعاليم تشمل جميع صُعد الحياة. لذلك لم يعد الدّين زمن بعثة موسى مقتصرأ على تعاليم روحية وحسب، بل ومشتملاً على تعاليم مادّية ربطت مابين الدّين والدّنيا، وبفلسفة حياة كاملة ومنظمة، إنما على مستوى إصلاح قوم معين وليس على مستوى عالمي.

٢- بعثة موسى وضّحت ماكان مجملاً من قبله :

فهذه هي أوّل شعبة هذا الانقلاب الكبير الذي أحدثته بعثة موسى في منطقتنا، أمّا الشعبة الثانية الهامة التي يتألف منها هذا الانقلاب الروحي اشتملت عليها الآية (١٤٣) من سورة الأعراف، والتي ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ أَرْنِي أَنْظِرْ لِيكَ، قَالَ لَنْ تَرَانِي، وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا، وَخَرَّ مُوسَى صَبَقًا، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولا بدّ لي قبل الافاضة في تبيان الحقائق التي تضمنتها هذه الآية الكريمة من أن ألفت نظر القارئ مرّة تلو مرّة وهو أنّ صياغة أي الذكر الحكيم تكون دوماً بليغة ومعجزة وتكمن وراءها حكم إلهية بالغة، يستحيل على القارئ إدراكها والإحاطة بدلالاتها ما لم يتدبّر النصوص القرآنية بقلب خاشع وبأصول تفسير القرآن، ويتوافق هذا التدبّر مع مشيئة الله الذي أنزل هذا الكتاب العزيز المعجز، وذلك لقوله تعالى: ﴿لَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾.

ولنأت الآن إلى هذه الآية من سورة الأعراف فهي مُصاغة صياغة إعجازية ومُعمّمة بالمعاني والحقائق والدلالات، وقد أثيرت عن أحداثٍ حدثت لموسى على جبل الطّور، بدليل ما بعدها وهو قوله تعالى: ﴿وَكُتِبَ لَهُ فِي الْأَلْوَا حِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةٌ وَتَفْصِيلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، فخذها بقوة، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين.

فإن نحن تدبّرنا طلب موسى من ربّه: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظِرْ إِلَيْكَ﴾، فالأمر الذي نستنبطه من طلب موسى المذكور هو أنه اطّلع على أسماء الله المتعلّقة بزمانه، وشاهد تجلياتها، ولم يبق أمامه إلّا أن يرّ الذّات الإلهية التي تحمل تلك الأسماء، لذلك راح يسأل ربّه أن يدعه ينظر إليه.

على حين أنّ الله عزوجلّ لم يورد لنا مثل هذا الطلب الذي طلبه موسى على لسان أيّ نبي بعثه من قبله. أي أنّ الله تعالى كان يكلم من سبق موسى من أنبياء من وراء حجاب كشف أو في حالة نوم أحد أولئك الأنبياء. وليسست قصّة رؤيا ابراهيم وهو يذبح ابنه اسماعيل ببعيدة عن أذهاننا، بالرغم من أنّها كان لها هذا الشأن الكبير من خلال دلالتها على الانقلاب الروحي الكبير الذي أحدثه الله تعالى في حياة البشر عن طريق بعثة ابراهيم عليه السلام، فلماذا لم يورد الله تعالى مثل هذا الطّلب الذي طلبه موسى من ربّه على لسان أيّ من الأنبياء من قبله؟ الجواب المنطقي هو أنّ ما اطّلع موسى عليه من أسماء الله الحسنى، لم يسبق أن اطّلع على مثل ذاك الكمّ من أسماء الله الحسنى أيّ نبيّ قبله.

فلماذا أطلّع الله تعالى موسى على أسمائه الحسنى بهذا الكمّ؟ أطلّعه بسبب أنّ تعاليم رسالته جاءت تفصّل أمور الدين والدنيا، ولم تردّ مُحمّلة كما كانت تنزل على من سبقه من أنبياء الله الكرام.

ذلك أنّ شريعة موسى نزلت تحمل فلسفة كاملة للحياة الدنيا، واشتملت على تعاليم تنظم الأمور الروحية والمادية في آن واحد الأمر الذي استدعى من الله جلّ شأنه إطلاع موسى على أسمائه كلّها، والمتعلقة بهذه التعاليم. حتى راح موسى بعد ذلك يطلب من ربه: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾.

هذا وقد نبّه الله تعالى موسى إلى استحالة إمكانية رؤية ذاته عزوجلّ في هذا الطّور من الحياة الدّنيا، الذي لا تمكّن قوى الإنسان هذا الإنسان إلا مشاهدة تجليات ما تنصّف به الذات الإلهية من صفات وأسماء، وعلى حسب المؤهلات والضرورات الزمانية والمكانية أيضاً.

ألا إنّ فهمنا وإدراكنا لهذه الحقيقة استنبطناه من هذه الآية من سورة الأعراف، التي بيّنتنا في الوقت نفسه إلى حقيقة أنّ عقل البشر زمن بعثة موسى، كان قد بلغ مرحلة متقدمة من التطور والنضوج، وتأهّل بذلك للإطلاع على ما تمحله الذات الإلهية الخالقة من أسماء تنصّف بها، ليس بصورة إجمالية ولكن بصورة تفصيلية، الأمر الذي لم يكن متوقفاً في الأزمنة التي سبقت بعثة موسى عليه السلام، فهذا هو سرّ أنّ مفهوم أحديّة الله الخالق تلقاه آدم ونوح وإبراهيم بصورة مُحمّلة، على حين ورد هذا المفهوم التوحيدي الخالص على موسى بصورة تفصيلية.

فهذه الحقيقة بإمكان القارئ أن يُلمّ بها بأسلوب وطريق آخر، فيستنبطه من أقوال قوم موسى أنفسهم، ففي الآية (٥٥) من سورة البقرة، أورد لنا ربنا عزوجلّ قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْتَكُمُ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

فلم يطلب بنو إسرائيل من نبيهم موسى هذا الطلب الذي تضمنته هذه الآية الكريمة؟ طلبوا من موسى هذا الطلب على اعتبار أنّه أدهشهم إدعاؤه أنّه رأى ربه في جلوة النار. فهم لم يسبق لأحد منهم أن سمع أنّ مثل هذا الأمر حدث لجدهم إبراهيم عليه السلام. فقد كان هذا الطرح الذي طرحه موسى أمامهم جديداً عليهم كلّ الجدة، فاستكروه على عادة الإنسان الذي يستنكر كل ما يجده عليه من أمر ويستغربه، وكان لطلب بنو إسرائيل المذكور معناه ودلالته فكانهم قالوا لموسى بالفاظٍ أخرى: وهل كان جدّنا إبراهيم أقلّ منك

مكانة وقرباً من الله عزوجل؟ فلم يؤثر عن جدنا إبراهيم أن أدعى أنه رأى جلوة ربه عزوجل.

وعليه ندرك أن بعثة موسى عليه السلام كانت قد أحدثت انقلاباً روحياً كبيراً أيضاً على صعيد علم أسماء الله الحسنى، فقلب بذلك التوحيد الإجمالي إلى توحيد تفصيلي وعلى قدر ما بلغه عقل البشر في تلك الفترة الزمنية من تطوّر ونضوج. الأمر الذي ساعد من بعثهم الله تعالى من أنبياء بعد موسى على أن يظلّوا تابعين لشريعة موسى ومحدّدين يهتدون بهدي ما احتوته التوراة من علوم على صعيد أسماء الله الحسنى.

٣. الجديد في مضمار الاتصال بالله تعالى :

وقد طرأت زمن بعثة موسى عليه السلام ضرورةً زمنيّةً وتشريعيّةً اقتضت من الله عزوجل أن يحدث قفزةً نوعيةً على صعيد مكانته مع عباده، وكان موسى أوّل مظهر لهذه القفزة النوعية فقد علمنا حتى الآن كيف أن الله تعالى كان يكلم عباده من أفراد البشر من وراء حجاب. وظلّ الأمر كذلك بصورة عامة منذ أن بعث الله تعالى آدم وأتبعه بنوح وإبراهيم. أي كانت ظاهرة اتصاله جلّ شأنه مع هؤلاء الأنبياء والصالحين من أتباعهم من وراء حجاب وفي مناهمهم، وفي الكشف الروحية التي كانوا يتلقونها. وسبق أن بينت أن تجليات أسماء الله الحسنى تتجلّى وتمثّل في رؤى وكشوف الصالحين من عباد الله تعالى من وراء حجاب أي في حالة النوم التي هي عبارة عن استرخاء يحصل للحواس الجسديّة لكلّ إنسان. ولا شك أن الرؤى الصادقة مرات ودرجات وتأتي على مستوى صفاء نفس هذا الإنسان الذي يتلقاها.

هذا الأسلوب السّابق على مستوى مكالمة الله لعباده، كانت تقتضيه عوامل عدّة، منها تخلف عقل البشر في ذاك الزّمان ، ومن تلك العوامل أن التعاليم السماوية التي كانت تنزل على رسل الله وأنبيائه كانت تعاليم تتصّف بالإجمال والعموميّة في الأمور الروحية والمعاشيّة .

وبعد أن كان عقل البشر قد تطوّر ونضج واتّسع أفقه نتيجةً للانقلابات الروحية الكبيرة التي أحدثتها بعثات الأنبياء التي حدثت قبل موسى عليه السلام. وهذه حقيقة استقيناها من أي الذكر الحكيم وخلال أبحاثنا الماضية. فقد عاد

البشر بإمكانهم تصوّر حقيقة أنّ كلّ فرد منهم مؤلّف كيانه من جسد وروح. وتصور حقيقة وجود عالم الآخرة والكلام في أمور فلسفة ماوراء الطبيعة، وبعد أن شكّل هذا النضوج في نظر ربوبية الله تعالى، ضرورة زمنية استدعت إنزال تعاليم سماوية لاتقف عند حدود الإجمال، بل تتجاوزه إلى التفصيل في أمور معاش الناس. فقد اصطفى الله تعالى موسى وأنزل عليه كتاباً فيه تفصيل كلّ شيء من أمور الدنيا والدين - وتاماً على حسب ما بلغه إنسان زمنه وما اقتضته أحوال قومه بنو إسرائيل. وقد اقتضت تلك الضرورة الزمنية والتشريعية أن يعمد الله تعالى إلى مكالمة موسى، ليس فقط كالسابق من وراء حجاب. بل ومشافهة وعن طريق ملائكة من ملائكته، أي أن يعمد جل شأنه إلى مكالمة موسى بجميع طرق كلامه مع البشر، كوسائل لإبلاغه تفصيلات كل شيء تضمّنته تعاليم رسالته، وهذه القفزة النوعية أشار الله تعالى إلى حقيقتها ضمن ألفاظ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ أي كلمه مشافهة : بالإشارة السريعة ومن وراء حجاب وبارسال ملك من ملائكته . فليس في قوله تعالى ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ أي امتياز لشخص موسى بالذات على غيره من أنبياء الله الكرام، بل وردت هذه الألفاظ تنبيهاً لأذهاننا إلى القفزة النوعية التي سبق أن تكلمنا عنها واقتضتها الضرورتان الزمنية والتشريعية المذكورتين.

ولا ينبغي للقارئ أن يظنّ أنّ تكلم الله تعالى مع موسى بصورة شفهيّة ، كان يمثل أرفع درجات مكالمة الله مع البشر، كلاً فالكلام مشافهة لا يحمل هذه الدرجة من السمو وإلاّ لكان الله عز وجلّ قد أمر موسى يومذاك بتدوين ما كان يكلمه به مشافهة. فلم يؤمر موسى إلاّ بتدوين الوصايا العشر، هذه الكلمات التي تحتاج هي أيضاً للشرح والتوضيح ووفق كل زمان ومكان.

فما هو الداعي الذي دعا ربنا عز وجلّ ألاّ يأمر بتدوين كلامه مع موسى مع أنه كان كلاماً تشريعياً؟ على حين أنه جل شأنه قد أمر محمداً بتدوين ما أوحى إليه من وحي القرآن الكريم؟ تأتي الإجابة على هذا السؤال بسبب الفارق بين تشريعي التوراة والقرآن، فتلك كانت شريعة عارضة تختصّ بزمان وقوم معين هم بنو إسرائيل، أما شريعة القرآن فهي شاملة وكاملة التعاليم وتصلح لكلّ زمان ومكان، هذا الأمر الذي تبيّنت إليه كلمة (تاماً) الواردة في الآية (١٥٤) من سورة الأنعام، وقد شرحتها في حينها، ولاداعي لل تكرار هنا.

ثم إنّ السَّبب الثاني هو من أجل أن تعاليم التوراة وردت بألفاظ موسى نفسه وعلى حسب ما تلقّاها مشافهةً من ربّه عزوجلّ. على حين أن تعاليم القرآن الكريم دُوِّنت بذات ألفاظ الكلام الإلهي الذي كلّم الله به محمداً رسول الله ﷺ وبنفس حرّكاته وسكّاته وتوقيفاته، ووفقاً لما كان جبريل يُملّيه على رسول الله ﷺ من كلام ربّه عزوجلّ، وليس بكلام محمّد رسول الله ﷺ.

كذلك بإمكان القارئ إدراك أنّ كلام الله تعالى مع موسى مُشافهةً، ماكان يمثّل أرفع درجات تكلم الله مع البشر، من المثال المتعارف عليه بين جميع الأمم، وهو أنّ أيّ ملك أو رئيس دولة إذا بعث برسالة إلى ملك أو رئيس مثله، فإنّه يبعث برسالة شفهيّة يحملها مندوبه وبألفاظه، فإذا كان للرسالة شأنها التوثيقي وأهمّيّتها، فيبعث بها مُدوَّنةً بألفاظه الملكيّة وبرفقه مندوبه، وتكون الرسالة المكتوبة دوماً أرفع مستوى من الرسالة الشفهيّة.

كذلك بإمكان القارئ إدراك هذا الأمر ممّا تعارف عليه الناس فيما بينهم، فكلّ إنسان يُطلع سواه على ما يريد إطلاعه عليه مشافهةً ووجهاً لوجهه، أمّا إذا أراد إنسان تحفيظ إنساناً آخر ما يريد إطلاعه عليه يستكتبه إيّاه وبألفاظٍ جليّة واضحة ليكتب لهذا الأمر الثبات والدوام.

وهكذا فإنّ قوله تعالى ﴿وكلّم الله موسى تكليماً﴾ أي مشافهةً، لايعطي موسى مميّزة خاصّة يمتاز بها على سواه من الأنبياء، بل كان القصد من ذلك أنّ طرق كلام الله مع البشر لم تعد مقتصرةً على طريق من وراء حجاب وحده، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالدلالة الثانية لهذه الجملة هو أنّ الشريعة الموسوية كانت ذات صبغة قومية ومرحليّة، ولم ترق إلى حدّ أن ينزلها ربّها عزوجلّ بألفاظه على موسى عليه السلام.

لذلك اقتضت المشافهة ما بين الله ونبيّه موسى بهذا التشريع التوراتي المفصّل على حاسة السّمع لدى موسى، وليس أكثر من ذلك. وهذه الحقيقة نُبّهت إليها الآية المعلومة من سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿مانسخ من آية أو نُسخها، نأت بخير منها أو بمثلها ألم تعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير﴾. ذلك أن الكلام الشفهيّ قابل للنسخ والنسيان، على حين أنّ الكلام المدوّن غالباً ما يكتب له الدوام. خصوصاً إذا تعهّد قائله ومدوّنه بالمحافظة عليه.

وعليه فتشريع موسى نزل بطريق مكالمة الله إياه مشافهة، لاحتوائه على تفصيل كل شيء يتعلق بالأمور الروحية والمدنية والسياسية. لاشتغال تشريع موسى على أمور الدنيا والدين. وما كان الوحي من وراء حجاب كافياً لأداء هذا النوع من التشريع المفصل. وبالتالي فقد أحدثت مكالمة الله تعالى مع نبيه موسى مشافهة قفزة نوعية على طريق تكلم الله مع البشر، بسبب أن عقل هذا البشر الذي أخرجه آدم من كهفه، قد نضج وعاد لائقاً لتلقي مكالمة ربه مشافهة خصوصاً وأن توسع أمور معاشه قد تنوعت إلى حدٍ اقتضى من خالقه أن يشرع له أمور معاشه، وبتشريع مُنصبغ بتوحيد الله عز وجل.

الانقلاب الخامس الروحي الكبير الذي أحدثته بعثه المسيح الناصري :

إن الانقلابات الروحية الكبيرة التي ذكرتها حتى الآن رسمت للقارئ خطاً بيانياً وضّح ظواهر تدخل صفة ربوبية الله تعالى في حياة البشر لتطوير عقله وتهذيبه وتمدينه منذ أن أخرجه من الكهف على أيدي آدم عليه السلام. وهذا الخطّ البيانيّ يمثّل حالة التدرج فيما يتعلّق بتعاليم الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى منذ بعثة آدم وحتى بعثة موسى، تلك التعاليم التي كانت تدور حول توحيد الله عز وجل، إلى جانب التحذير من الشرك بالله تعالى بصورة مجملة وليس بصورة تفصيلية، أي أنّ تعاليم الأنبياء قبل موسى كانت تقتصر على الجانب الروحي لحياة البشر، ولا تتدخل في أمور معاشهم اليومي.

وبعد أن طوّر الله الخالق الرّب عقل البشر وأنضجه وأعلمه بوجوده وضرورة عبادته وحذّره من الشرك به، عمد جل شأنه بعد ذلك إلى تقويم سلوكه اليومي بما يتفق وهذا التوحيد الخالص الذي علّمه إياه فبعث الله تعالى موسى عليه السلام كما رأينا، وبتعاليم ربط بواسطتها ما بين الدين والدنيا وتفصيلاً لكل شيء، لكن الأمر الذي ما كان ينبغي أن يغيب عن ذهن البشر من بعد بعثته هو أنّ التعاليم الروحي الذي كان قد اكتمل على أيدي إبراهيم الذي لُقّب لهذا السبب بأبو الأنبياء، ويمثّل التوحيد الخالص من شوائب الشرك بالله ما كان ينبغي أن يتناساه البشر بعد موت موسى عليه السلام ، وتعود تفصيلاته

من قبيل القشور، والمؤسف هو أنّ هذا هو ما حدث لقوم موسى الذين اختصّهم الله تعالى بشرعه المذكور.

وأوضح للقارئ ما أجملته فأقول: إنّ المؤمن الذي يدين بالتوحيد الإبراهيمي الخفيف الخالص من جميع شوائب الشرك، يقول بلسان حاله «إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين». يقول هذا ملتزماً بمضمونه قولاً وعملاً، كفره من عزل عمّن حوله من الأفراد، فإذا أخذ هذا المؤمن الموحد يخالط سواه من الأفراد ويتعامل معهم على جميع صعد الحياة، يشعر أنّه أمسى بحاجة إلى خطف فكري يساعده على ذلك وإلى خطف تشريعي. فهذا المؤمن الموحد يعود بحاجة إلى التعامل بتفكير روحي ومنضبط بتعاليم ربّه عز وجل. هذا وإنّ الشريعة التفصيليّة التي تلقّاها موسى من ربّه قد وفّرت لكلّ إسرائيلي في زمانه عنصر التفكير الروحاني والعنصر التشريعي السلوكي، وبما كان يتناسب زمانياً وتشريعياً مع تطور عقل البشر ومقتضياته السلوكية القومية.

١- زوال روح الطهارة ودماران يحلّان باليهود:

فلما انتقل موسى إلى بارئته الأعلى، وناب عنه من ناب، راحت حقيقة وجوه ما أنزل الله تعالى على موسى من توحيد وطهارة تغيب عن أذهان قومه وبالتدريج، فحقّ عليهم ما وصفهم به القرآن الكريم في الآية (٨٧) من سورة البقرة: ﴿.. أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذبتم، وفريقاً تقتلون؟﴾، وعاد بنو إسرائيل متناسين تعاليم التوحيد الخالص الذي بُعث به إبراهيم عليه السلام عاد أكثرهم يفكر بتفكير ماديّ محض، الأمر الذي ترك آثاره البليغة على سلوكهم اليومي، فشابهوا حينئذ غير المؤمنين بمن حولهم من الأقوام، وماعادوا ينتسبون إلى موسى وشريعته زمن بعثة المسيح الناصري إلّا بالاسم فقط، فكانوا بذلك من الوجهتين الفكرية والعملية أبعد ما يكون عن التعاليم الموسوية التي تضمّنتها ماسميّ بالتوراة.

وعليه فلا بدّ أن يكون القارئ قد أدرك أنّ التوحيد الخالص من جميع شوائب الشرك هو لبّ لباب ما أنزله الله تعالى من تعاليم سماوية. أما ماعاد هذا اللب وهذا الجوهر وهذه الحقيقة، فهو من قبيل الأطر والقشور التي تساعد على

تغليظ هذا الجوهر وتحافظ عليه. وهذه حقيقة طبيعية يُدركها الإنسان بأسلوب الملاحظة العلمي. فالإنسان نفسه صاغه خالقه من جسد وروح، والثمار لها قشورها التي تحفظ لبابها، فما الدين بخارج إطار هذا القانون الطبيعي، هذا وإن جميع أوامر الدين من أحكام وعبادات وغيرها، فهي مجرد أطر وقشور صيغت لتحفظ للمؤمن إيمانه بربه وتوحيده توحيداً خالصاً من جميع أنواع الشرك بالله الذي لا إله إلا هو.

وبما أن التجربة الاسرائيلية لم تكن التجربة الأخيرة لتطوير عقل البشر وتهذيبه وتدينه، ولما كان في علم الله الغيبي أن بني اسرائيل سيشتطون عن سبيل موسى وشريعته هذا الشطط، فلذلك كان قد أنذرهم جلّ شأنه على لسان موسى وتوعدهم، وبشرهم ببعثة المسيح ابن مريم ليردهم إلى جوهر دينهم التوحيدي. وقد نبهتنا آيات سورة الإسراء إلى هذا الأمر الذي كان الله تعالى قد توعد به بنو اسرائيل، حيث ورد قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ - أَيِ أَعْلَمْنَا وَبَلَّغْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ - لَتَفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّةً - وَلَيْسَ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَقَدْ وَضَحَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ فَتَرْتِي هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ﴾ أَيِ مَرَّةٍ بَعْدَ دَاوُدَ وَمَرَّةٍ بَعْدَ عِيسَى النَّاصِرِيِّ - وَلَتُعْلَنَ عُظُومُ كَبِيرٍ أَيِ سَيَمْلِكُكُمْ التَّكْبِيرُ وَالتَّجَبُّرُ وَالْغُرُورُ خِلَالَ تِلْكَ الْفَتْرَتَيْنِ الزَّمْنِيَّتَيْنِ وَبِشَكْلِ وَاضِحٍ لَا بُسَ فِيهِ فَلَا تَعُودُونَ مُوَحِّدِينَ اللَّهَ تَعَالَى وَلَا خَاضِعِينَ لَتَعَالِيمِهِ وَلَا مُتَذَلِّلِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ.

وهذه الحقيقة التاريخية التي نبهتنا إليها هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء، ماهي مجرد إدعاء لأصل له في التوراة، بل تؤيده نصوص التوراة المعاصرة المحرّفة وبشكل مدهش. فقد ورد في سفر التثنية الاصحاح الثامن والعشرون هذا الإنذار والرعيذ الذي نبّهت إليه سورة الإسراء بالألفاظ التالية: (وَإِذَا سَمِعْتَ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلَهِكَ، حَافِظاً جَمِيعَ وَصَايَاهُ الَّتِي أَنَا أَمْرُكَ بِهَا الْيَوْمَ، وَعَامِلاً بِهَا، يَجْعَلُكَ الرَّبُّ إِلَهَكَ فَوْقَ جَمِيعِ أُمَمِ الْأَرْضِ وَتَحُلَّ عَلَيْكَ هَذِهِ الْبَرَكَاتُ كُلُّهَا وَتَدْرُكُكَ، لِأَنَّكَ سَمِعْتَ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلَهِكَ.. وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلَهِكَ، حَافِظاً وَصَايَاهُ وَفَرَائِضَهُ الَّتِي أَنَا أَمْرُكَ بِهَا الْيَوْمَ، وَلَمْ تَعْمَلْ بِهَا، تَأْتِي عَلَيْكَ هَذِهِ اللَّعْنَاتُ كُلُّهَا وَتَدْرُكُكَ: فَتَكُونُ مَلْعُوناً فِي الْمَدِينَةِ وَمَلْعُوناً فِي الْبَرِّيَّةِ.. يَجْعَلُكَ

الرَّبّ تنهزم أمام أعدائك تخرج عليهم من طريق واحدة وتهرب من أمامهم من سبع طرق. وتكون قلقاً في جميع ممالك الأرض ٢٥-٢٦.

يذهب الربّ بك وملكك الذي تقيمه عليك إلى أمة لم تعرفها أنت ولا أبائك ٣٦ ويجلب الربّ عليك أمة من بعيد من أقاصي الأرض كالعقاب المحلّق، أمة لاتفهم لغتها، أمة صلبة الوجوه، لاتهاب وجه شيخ ولا ترأف الفتى ٤٩-٥١ حتى تهلكك وتحاصر بك في مدّنتك كلّها حتى تسقط أسوارك الشاخنة الحصينة التي أنت تعتمد عليها في أرضك كلها في كلّ أرضك التي يُعطيك الربّ إياها ٥٣ لأنّك لم تسمع لصوت الربّ إلهك، يكون، أنّ الربّ كان يُسرُّ إذا أحسن إليكم وكثركم، أنّه يُسرُّ أيضاً إذا أهلككم وأبادكم فتقتلّعون من على الأرض التي أنت داخل إليها لثرتها، ويشتكّ الربّ في الشعوب كلّها من أقاصي الأرض إلى أقاصيها ٦٣-٦٤ هذه هي كلمات العهد الذي أمر الربّ موسى بأن يقطعه مع بني اسرائيل في أرض موآب، عهد العهد الذي قطعه معهم في حوريب الاصحاح ٢٩ فتقول الأمم كلّها: لماذا صنع الربّ كهذا بهذه الأرض وماشدة هذا الغضب العظيم؟ فيقال: لأنهم تركوا عهد الربّ إله آبائهم، الذي قطعه معهم حين أخرجهم من أرض مصر ٢٤-٢٥).

وهكذا يدرك القارئ أنّ الآية من سورة الإسراء ﴿وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن غلواً كبيراً﴾ وردت بمعناها في التوراة، وليس بالفاظها بل إنّ النصّ التوراتي الذي أوردت للقارئ بعض فقراته، يثبت منه أنّ الله تعالى كان أنذر بني اسرائيل وتوعّدهم على لسان موسى قبل استيلائهم على أرض كنعان، وبصورة واضحة الألفاظ ومفصلة كلّ التفصيل، ويكون الله تعالى بذلك قد أثبت من جهة أنّه علام الغيوب، ويكون قد ألقى حجته في الوقت نفسه على بني اسرائيل.

فبنوا اسرائيل أفسدوا في الأرض بعد النبي داود، فأرسل الله تعالى ملك بابل نبوخذ نصر فاستولى على فلسطين وهدم هيكل سليمان وسبى أسباط اليهود إلى بابل، وقد أوردت التوراة هذه الحقيقة مفصلة في سفر الملوك الأصحاح (٢٥) وفي سفر نحemia النبي الاصحاح ١٣/١٧ مما لاحاجة بنا لإيراده في هذا المقام، وهو الأمر الذي أشارت إليه الآية من سورة الإسراء: ﴿فلما جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ شديد، فجاسوا خلال الديار

وكان وعداً مفعولاً. فمعنى جاسوا خلال الدّيار أي حوالي حدودها وما بين بيوتها^(الرب). ومعنى ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾ أي وعيداً وإنذاراً كنّا قد توعدنا وأنذرنا بني اسرائيل به من قبل على لسان نبيّهم موسى عليه السّلام.

وقد بعث الله تعالى المسيح الناصري من بين الاسباط الاسرائيلية التي أعادهم إلى فلسطين بعد الدمار المذكور والسّي الرّهيب، أعادهم مصداق ماأوردته سورة الإسراء أيضاً من خلال قوله تعالى: ﴿ثمّ رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً. إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وقف، وإن أسأتم فلها، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبرأوا ماعلوا تتبرأ﴾. وقد تحقّق وعد الآخرة، أي وعيد المرّة الثانية الآخرة، بعد بعثة المسيح الناصري بسبعين عاماً على أيدي الرّومان، وفي حياة المسيح نفسه الذي كان قد عاش مائة وعشرون عاماً، ولأحاجة بنا للخوض في تفاصيل جميع هذه الأمور في هذا المقام. والذي يهمّنا التّعرّض له هنا هو أنّ روح تعاليم التوحيد الإلهي الخالص الذي ضرب النبي ابراهيم عليه السلام عليه أعظم مثال عملي عليه، والذي جاءت شريعة موسى تكمل الناحية الدنيوية المعاشية منه، فقد غابت روح ذاك التوحيد وحقائقه زمن بعثة المسيح الناصري، وعاد بنو اسرائيل لايفهمون من شريعة موسى إلّا ظواهر تعاليمها وقشورها. وإشارة إلى هذه الحقيقة ورد قول ربّنا عزوجلّ في الآية (٨٧) من سورة البقرة: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب، وقفينا من بعده بالرّسل، وآتينا عيسى ابن مريم البينات، وآيدناه بروح القدس، أفكلّمنا جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾. فهذه الآية الكريمة تحدّد المهمّة الأساسيّة لبعثة المسيح الناصري التي هي إعادة روح تعاليم الشريعة الموسوية إلى الوسط اليهودي بعد أن غابت روح تلك التعاليم عن أذهان الإسرائيليين.

٢. دلالة وآيدناه بروح القدس :

والذي يؤسف له هو أنّ مفسّرينا القدماء الذين لم ينطلقوا من منطلق فهمي هذا لتاريخ الرسالات السّماوية، والذين لم يتدبّروا هذه الآية التي أوردناها حقّ تدبّرها، اختلفوا على عاداتهم في فهم جُملة ﴿وآيدناه بروح القدس﴾،

فمنهم من أولها بجبريل ومنهم من أولها باسم الله الأعظم، ومنهم من أولها بالإنجيل، ومنهم من أولها بالروح القدس كما تقول حاتم الجود ورجل صادق. حال أنّ هذه الجملة بعيدة كل البعد من حيث دلالتها عمّا أولها به المفسرون القدماء؛ بعيدة من حيث دلالتها اللغوية، وبعيدة من حيث ارتباطها الموضوعي.

لذلك أتناول جملة ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بادئ ذي بدء، وأناقشها على ضوء دلالات ألفاظها لغوياً، مُستعيناً في ذلك بمعاجم اللغويين، وأول ما أتناوله ففعل (وَأَيَّدْنَاهُ)، هذا الفعل الذي أتى من آد الشيء إذا قوي هذا الشيء وصلّب واشتد. فمعنى (وَأَيَّدْنَاهُ) أي وقّيناه وشدّدناه.

ونأت إلى كلمتي (بروح القدس)، فالباء استعملت هنا للاستعانة، أمّا كلمة (روح) فقد قال أبو البقاء في الكليات وعلى حسب ما أورده صاحب معجم محيط المحيط، قال إنّ كلمة روح لها عدّة معاني. فهي تستعمل بمعنى نفس الإنسان، وتستعمل بمعنى استحلاب المنافع واستلفاع المضار، وتستعمل لِمَا بِهِ حياة البدن، وتستعمل بمعنى الأمر الإلهي كما: وروح منه، وتستعمل بمعنى الوحي نحو: تنزل الملائكة والروح. وسُمّي القرآن الكريم نفسه روحاً نحو: وأوحينا إليك روحاً من أمرنا. وتستعمل الرّوح بمعنى الرّحمة نحو: وأيدهم بروح منه. وقد يكتنى بالروح عن جبريل نحو: فأرسلنا إليها روحنا - ثم إنّ كلمة الروح هي خلاف كلمة الجسد، كذلك فإنّ الروح من كل شيء تعني باطنه وحقيقته، أمّا كلمة القدس فلا تعني إلّا الطهارة ومُشتقة من القداسة.

وعلى أساس من هذه الدلالات لألفاظ ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، وانطلاقاً من موضوعيّة مُهمّة بعثة المسيح الناصري التي كانت تنحصر في محاولة توضيح جوهر وحقيقة التعاليم الموسويّة النابعة من عقيدة توحيد الذات الإلهية توحيداً خالصاً، هذه الأمور التي غابت عن أفهام الاسرائيليين قبيل بعثة المسيح الناصري، يعود معنى جملة ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي قوّيناه دلائل صدق المسيح الناصري بما كشفناه عليه من حقائق وجوهر الطهارة التي نزلت بها تعاليم موسى ولنفرسها في أفئدة المؤمنين بالله عزوجل، تلك الحقائق والطهارة التي فقدوها بنو اسرائيل والذين باتوا لا يفهمون من تعاليم موسى إلّا ظواهرها وقشورها.

فهذه هي دلالة قوله الله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾. وتأكيذاً للمعنى الذي ذهب إليه، فلنعد إلى الآية (١١٠) من سورة المائدة، فهي فسّرت جملة ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بنفس هذا التفسير الذي بيّنته، ومعلوم أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً.

قال الله تعالى في الآية (١١٠) من سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾. فقد أتى محلّ شأنه هنا بحرف (إذ) كإسم للزمان الماضي مرتين ﴿إِذْ قَالَ﴾ و ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ﴾، ومذكراً عيسى ابن مريم بما أنعمه الله تعالى عليه وعلى والدته، فحصر هذه النعمة التي أنعمها الله عليهما بجملة ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ولنلاحظ وجود إشارة (قف) على آخر كلمة القدس، هذه الإشارة التي يراد بها إعلام قارئ كتاب الله العزيز بانتهاء مضمون ما أراد الله تعالى إطلاعنا عليه. هذا وإنّ وجود إشارة الوقف هذه تلزمنّا أن ننظر إلى ما يرد بعدها على أنّه تفسير لما قبلها. وقد أضاف تعالى يوضّح للقارئ دلالة ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ فقال: ﴿تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا﴾ وهذا كلامٌ مجملٌ أيضاً ويعني أنّ تقويتنا إياك بروح القدس ساعدتك على أن تصبح واعظاً لامثيل لوعظه في شبابتك أي في سنّ المهد. وكهلاً أي في سنّ الشيخوخة، أي قبل حادثة الصلب وبعدها، وعلى اعتبار ما نبّه إليه الحديث الشريف الذي أورده البخاري من أنّ عيسى عاش مائة وعشرون عاماً.

والمهمّ هو أنّ ﴿تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا﴾ على حين أنّها جملة أجملت تفسير ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، فهي قد حدّدت دلالة (روح القدس) أنّ مضمونه هو ما كان يكلم عيسى ابن مريم به الناس من تعاليم ويعظهم بها في المهد وكهلاً. ونفت بذلك جميع المعاني التي تأولها المفسرون ونسبوها لهذين اللفظين. وعليه فمعنى (تكلم الناس) أي تعظهم بحقائق وجوهر التعاليم الموسوية.

ومن ثمّ راح تعالى يزيدنا شرحاً، وأتى بظروف الزمان (إذ) للمرة الثالثة وأضاف يقول: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي أنه لولا أن علّمتك روح وجوهر وحقائق كتاب موسى ولولا أن أظهرت عليك حكمة وفلسفة كل تعليم من تعاليم الكتاب المذكور، ولولا أن كشفت عليك

أنّ حكمة وفلسفة تلك التعاليم كان الغرض منها تطهير النفس البشرية وصبغها بصبغة التوحيد الخالص من شوائب الشرك بأنواعه، فما كان باستطاعتك أن تزعم أنّك تعظ بحقيقة التوراة، ولا أن تزعم أنّك أتيت بالإنجيل أي بالبشارة التي بشرت بها التوراة، فهو تعالى عندما عطف كلمتي التوراة والإنجيل هنا على الكتاب والحكمة، فقد أصبح الكتاب والحكمة قرينة في حدّ ذاتها تنفي أن يكون المراد من لفظ التوراة هنا هو الكتاب نفسه بل وللتنبية بهذا الأسلوب البلاغي إلى ماتضمنه كتاب موسى من بشارة متعلّقة ببعثة المسيح الناصري . فالإنجيل معناه البشارة هنا، ولا يُقصد بالإنجيل في هذا الموقع سوى ما ذكرت، خصوصاً وأنّ عيسى ابن مريم كان مصدّقاً لما بين يديه من التوراة.

٣- دلالة تُخلق من الطين كهيئة الطير :

ولنلاحظ منطقية تسلسل أفكار هذه الآية الكريمة من سورة المائدة، فقد تدرّج عرض مضمونها بشكل يتصّف بمنتهى المنطقية ، فقد تدرّج من الإجمال إلى التفصيل وعلى مراحل، فلما أتمّ الله تعالى عرض وشرح الناحية النظرية من الموضوع، انتقل إلى عرض وشروح الناحية التطبيقية العملية، أي انتقل ليعطينا فكرة عمّا أثمرته تلك النعمة التي أنعمها الله تعالى على عيسى ووالدته، لذلك أضاف تعالى يقول: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي، فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾، فلنلاحظ أولاً أنه تعالى أورد في هذه الفقرات كلمة (بإذني) مرتين، فللإشارة إلى أن ما يتحقق على أيدي المسيح لا يتحقق على أيدي رجال الدين اليهودي الذين عاصروه، لكونهم منتحلين صفة الممثلين للدين ولا يمثلون الله ولا يعظون بإذنه على حين أنّ المسيح الناصري هو الذي كانت له صلته بربه ويمثّل تعاليم موسي عليه السلام ويعظ الناس بإذن الله عزوجلّ.

والملاحظة الثانية تتجلى من خلال إيراد تعالى كلمتي تخلق والطين. وقد وردتا في سورة الأعراف على لسان إبليس ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، وقد استعملتا هناك بدالتهما المجازية، وهي دلالة الطين على النفس البشرية ذات الطبيعة الطينية التي تستجيب طواعية للوعظ والإرشاد الروحاني.

والملاحظة الثالثة تتجلى في كاف التشبيه الواردة في (كهية الطير)، فالتنبية إلى أنّ ربنا عزوجلّ يعمد في كلامه هذا إلى الكناية والتشبيه وبأسلوب بلاغي، فلم يورد جل شأنه ألفاظ هذه الفقرات بمعانيها الحقيقية.

فإن نظر القارئ بمنظار هذه الملاحظات الثلاث يُدرك من فوره أنّ الله عزوجل يَبْنِي أذهاننا من خلال هذه الفقرات وبصورة غير مباشرة إلى الغاية القصوى التي نزلت تعاليم موسى لتحقيقها، ألا وهي مساعدة النفوس ذات الطبيعة الطينين لتتطور روحانياً، ولتصبح طيوراً محلقة في سماء الروحانية، فكراً وعملاً وثماراً، وقد نبّه الله جل شأنه أذهاننا أنّه بعث المسيح بهذه الحقيقة ولذلك تطوّر حواريوه الذين آمنوا بالله تعالى على يديه روحانياً، بينما لم يتحقق هذا الأمر على أيدي كهنة اليهود. وبذلك تعود هذه الظاهرة دليلاً عملياً تطبيقياً يثبت منه صدق المسيح الناصري.

٤. دلالة تبرئ الأكمه والأبرص بإذني :

ولفت جل شأنه أذهاننا إلى ظاهرة تطبيقية ثانية عبّر عنها بقوله تعالى: ﴿وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني﴾. فالأكمه هو من اعترت عينيه ظلمة فأمسى أعمى وأعشى (محيط المحيط). ولم يُقصد بالأكمه والأبرص هنا، العمى الذي يحصل للعين المادية، ولا البرص أي بياض بشرة الجسد المادي، بل استعمل اللفظان هنا بدلالتهما المجازية أيضاً، وعلى شاكلة قوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً﴾. فالعمى كُنِيَ به هنا عن ضلالة سبيل الله عزوجل. ثم إنّ الأبرص فكناية عمّن تناسى صلته القومية مع بني جنسه وشذّ عن تعاليم موسى، فلم يعد يلدو اسرائيلياً أي فقد هويته الموسوية فالله عزوجل إذ يقول:

﴿وتبرئ الأكمه والأبرص﴾ يوضّح لنا ظاهرة عملية كانت تتحقق على أيدي المسيح، وهو أنّ من كان يستجيب له ويؤمن بالله تعالى على يديه، يشفى بما اعترى بصيرته من ظلمة كانت قد أحدثتها سيئات أعماله، ويشفى على يدي المسيح أيضاً ممّا ظهر منه على المستوى السلوكي من برص أي من وهن وفقدان لهويته القومية، وليس العكس، فلو أنّ المسيح كان كاذباً في دعواه، فما كان لهذه الظاهرة العملية أن تبدو بنتيجة وعظه لقومه .

٥. دلالة تخرج الموتى بإذني :

وقد لفت الله جل شأنه أذهاننا إلى ظاهرة تطبيقية ثلاثة ظهرت على أيدي المسيح، فقال: ﴿وَإِذْ تَخْرُجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾. والمراد من الموتى موتى النفوس وبجازاء، وكأنه تعالى يعيد إلى أذهاننا حقيقة أنَّ جميع الأنبياء إنما يبعثهم الله تعالى لإحياء النفوس الموتى، فمهمتهم جميعهم كانت مهمة روحانية وليست مادية. وهذا شبيهه بقوله تعالى بحق محمد سيد المرسلين ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وكأنه جلَّ شأنه لفت الأنظار إلى أنه كان المقصد من تعاليم موسى هو إصلاح النفوس وتطهيرها، لذلك يعتبر إصلاح الأمور المعاشية التي تضمنتها تعاليم ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ من قبيل تحصيل حاصل.

٦. دلالة كفت بني إسرائيل عنك :

ولقد لفت الله تعالى أذهاننا إلى ظاهرة عملية تطبيقية رابعة تجلّت لأعين الباحثين، وعبر تعالى عنها بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾. فكلمة كفت عنك من كفّه عنه أي دفعة وصرفه ومنعه، فالله تعالى يشير من خلال هذه الألفاظ إلى النتيجة التي آلت إليها حادثة محاولة قتل المسيح على الصليب، فالله عز وجل كفّ عن المسيح ما دبره بنو إسرائيل للقضاء عليه، فدفع عنه ضررهم، وصرفهم، ومنعه حيال مؤامرتهم الشنيعة تلك، فمن أراد التوسّع في فهم هذه الظاهرة الرابعة فليراجع مؤلّفي (هل مات المسيح على الصليب؟)، فقد يجد فيه ما يشفي غليله.

وخلاصة القول هو أنّ قول الله عز وجل بحق المسيح الناصري ﴿وَإِذْ نَادَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ لا يعني هذا الكلام امتيازاً له على سائر أنبياء الله الكرام، بل كان المقصود منه هو التنبيه إلى المهمة الأساسية لبعثة المسيح ألا وهي إعادة الوجه الحقيقي لتعاليم موسى عليه السلام، ذاك الوجه الروحاني الذي كان يمثل التوحيد الإبراهيمي الخالص من جميع شوائب الشرك، فهو التعليم الذي جلاّه الله تعالى على أيدي أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فالضرورة الزمنية اقتضت من ربنا بعث المسيح وتأييده بروح الطهارة تلك وفلسفتها وعلى اعتبار أن بني إسرائيل زمن بعثة المسيح الناصري كانت قد غابت عن أذهانهم حقائق تعاليم موسى

تلك، نظرياً وعملياً. فعاد رجال كهنوتهم لا يفهمون من تعاليم كتاب موسى إلا ظواهرها وقشورها. وعادوا مُنتحلين صفة الممثلين لله تعالى وأنهم يعظون بإذنه، فكذبهم الله جلّ وشأنه وسفه علومهم، موضحاً أن الذي يفهم حقائق علوم التوراة وتبدو على أيديه ثمارها الروحية أيضاً، فهو المسيح ابن مريم وحده الذي كان مؤيداً من الله تعالى ويعظ ويشفي روحانياً بإذن الله عز وجل أيضاً.

٧- كانت ضرورة زمنية لإحياء شريعة موسى:

ثم إنَّ شريعة موسى التي كانت حُرِّفت وشوَّهت وغاب بريق وجهها زمن بعثة المسيح الناصري، أضحت يومذاك ضرورة زمنية وموضوعية في نظر الله عز وجل، الله الذي بعث المسيح الناصري يومذاك لإحياء ما اندثر من تعاليم موسى، ولإعطائها وجهها الحقيقي، ولإلقاء حُجَّة الله تعالى على بني إسرائيل الذين كانوا قد أفسدوا للمرة الثانية، ولإنذارهم بالعذاب وباستبدالهم بأمة أخرى غيرهم تعمل ثمار ما أنزل الله تعالى من تعاليم على من بعث من رسل وأنبياء.

هذا وإن ظاهرة بعث المسيح الناصري، ما كانت تخالف منطق تاريخ الإصلاح الديني، بل هي ظاهرة تكررت من قبله كلما شاء الله عز وجل تجديد شريعة سماوية حرَّفت أهلها وغاب عن الأنظار لمعانها وحقيقتها. وإلى نفس هذه الحقيقة أشار المسيح الناصري نفسه في إنجيل متى ١٧/٥: (ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمل). ذلك أنَّ مهمة المسيح الناصري اقتضت على تطهير باطن الإنسان المؤمن، وتأهيله لإقامة حكومة الله تعالى السماوية على فؤاده، وليصبح مهبطاً لتجليات كلام الله معه. وما كان من مهمة المسيح الناصري إصلاح معيشة الناس لذلك ورد عنه قوله: (اعط مالم يقصر لقيصر وما لله لله).

ألا إنَّ مهمة تعاليم آية رسالة سماوية، ومغزاها ومقصدتها الحقيقي، منذ آدم وإلى يومنا هذا، هو الأخذ بأيدي هذا الإنسان لتعريفه على ربه، وليفوز بحبة ربه ويحقق لقاءه معه ويكسب رضاه، أمّا ما هو خارج هذا المضمون، فتعاليم أطر وذرائع وقشور لتحفظ هذا الجوهر والحقيقة وتديم بقاءه. لذلك ما أن تفقد تعاليم هذه الأطر والذرائع والقشور ما بضمنها من جوهر وحقيقة. يستدعي ذلك من الله تعالى بعث من يجدد تلك التعاليم ويعيد إليها حياتها ولعانها.

ولكي أساعد القارئ على إدراك دلالة قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، أقتبس لهذا القارئ نماذج مما كان المسيح الناصري يعظ به قومه قبل حادثة صلبه التي تعرّض لها في حياته بينهم.

فقد كان المسيح الناصري لا يكتفي ببينة اسرائيلي على يديه، بل يؤكد على هذا المباح ضرورة الأخذ بتقوى الله في سلوكه اليومي، وعلى صورة تنافس وتسمو على تقوى الكتبة والفريسيين من كهنة اليهود، فالمسيح يخاطب أتباعه ويقول على حسب ما أورده إنجيل متى ٢٠/٥ (فإني أقول لكم إن لم يزد برّكم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات). ويضيف بعدها في ٤٨/٥ ويقول: (فكونوا أنتم كاملين كما أنّ أباكم الذي في السموات هو كامل). ثم إنّ المسيح الناصري كان يحذّر حواريه من الإنفاق والتصدق مراعاةً وتغطيةً، فكان يعظهم أن ينفقوا سرّاً، وبغاية جذب محبة ربهم ويقول في إنجيل متى ١٩/٦-٤: (احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات.. فأبوك الذي يرى في الخفاء، هو بمازيك علانية.. ويضيف ناصحاً ١٩/١٦) (لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون، بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون). ثم إنّ المسيح الناصري كان يحذّر من الدجالين المدّعين بأمور كذاباً وبُهتاناً، فيحث حواريه على التحقق من دجلهم وإدعاءاتهم من خلال الثمار الروحية والبركات التي تتأتى على أيديهم، مُلفتاً أنظارهم إلى قانون طبيعي وهو أنّ الأشجار تعرف بأثمارها ويقول في إنجيل متى ١٥/٧-١٩: (احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحُمَلاَن ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة، من ثمارهم تعرفونهم، هل تحنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً، هكذا كلّ شجرة جيّدة تصنع أثماراً جيّدة.. كل شجرة لا تصنع ثمراً جيّداً تُقطع وتُلقى في النار. فإذا من ثمارهم تعرفونهم).

ولنصغ إلى وصايا المسيح الناصري الموجهة إلى حواريه والتي نقلها إنجيل متى ١٠/١-١٠/٥ بالفاظ كاتبه الذي ما كان يدرك حقيقة تلك الوصايا، وقد جاء القرآن الكريم يوضّح ما كانت تحمله من حقائق ودلالات، فكاتب إنجيل متى يروي: (هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: إلى طريق أمم

لأتمضوا، وإلى مدينة السامريين لاندخلوا، بل اذهبوا بالحرّي إلى خراف بيت إسرائيل الضّالة، وبينما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين: إنّه قد اقترب ملكوت السموات، اشفوا مرضى، طهّروا بُرصاً، أخرجوا شياطين، بجاناً أخذتم بجاناً اعطوا بجاناً، لاتقتنوا ذهباً ولافضّة ولانحاساً في مناطقكم، ولاميزوداً للطريق ولاثوبين ولاأحذية ولاعصا، لأن الفاعل مستحقّ طعامه). وهكذا يُلاحظ القارئ أنّ كاتب الإنجيل متى لايدري دلالة شفاء المرضى ولا دلالة تطهير الأبرص ولا دلالة إحياء الموتى ولا دلالة إخراج شياطين، بل يفهم هذه الأمور على ظواهر دلائلها المادية وكأنّ المسيح الناصري في نظره كان طبيباً شرعياً حاذقاً وليس مُعلماً روحياً.

والذي نستخلصه ممّا أوردناه من مواعظ المسيح الناصري أنّ شريعة موسى كانت في زمنه قد حرّفتها أهلها وشوهوا تعاليمها، وأفقدوا تعاليمها حقيقتها وجوهرها، لذلك كانت مواعظ المسيح الناصري تركز على ضرورة فهم حقيقة وجوهر تعاليم موسى والعمل عليها من ذاك المنظار، وليس على ظواهرها وقشورها التي أوصلها إليه كهنة بنو إسرائيل. فكيف أمكن المسيح أن يعظ بهذا الوعظ، وكيف أمكن له إعادة إثمار تعاليم التوراة؟ أمكنه ذلك لتأييد وتقوية الله تعالى بيّناته ودلائله بتعليمه روح تلك التعاليم.

والذي يهّمنا من ذلك كله هو أن نعلم أنّ شريعة موسى التي كانت قد جمعت ولأول مرّة في تاريخ البشر تفصيل كلّ شيء يتعلق بالدنيا والدين، ومؤسّسة ذلك كلّهُ على أساس من التوحيد الإبراهيمي الحنيف الخالص من جميع شوائب الشرك بالله عزوجلّ، وبما يُلائم وأحوال بني إسرائيل. أقول إنّ شريعة موسى تلك أفقدها تجّار الدّين ومتحلّوا صفة الممثّلين لتلك الشريعة، أفقدوها لمعانها وأفرغوها من حقيقتها وجوهرها. لذلك اقتضى ذلك تجديد تلك الشريعة وبعث حقائقها وإعادة لمعانها، فاصطفى الله عزوجلّ لتصحيح ذلك كلّهُ المسيح الناصري، وأحدث بواسطته انقلاباً روحياً كبيراً في تاريخ البشر، مقوّياً إياه ومؤيده بروح القدس أي بروح حقائق الطهارة التي نزلت شريعة موسى لتمثّلها، وفتح الله تعالى بذلك لبني إسرائيل وللمرّة الأخيرة باب معرفته وقربه ورضوانه، فأضلّ تجّار الدّين من كهنة اليهود شعبهم، وانتحلوا صفة ممثّلي الدّين لدى أتباعهم، وصدّوهم بذلك عن الإصغاء للصوت السماويّ الذي مثّله بعثة المسيح

الناصرى، فاستحقوا بذلك عذاب الله الذى أنزله بهم ربهم بعد سبعين عاماً على أيدي الرومان، ونجى الله تعالى المسيح مما كاده له هؤلاء وكف أيديهم عنه، وأمره بالهجرة لتبشير بقية السبي من أسباط اليهود.

ثم إن المسيح الناصري أدرك واقع قومه السبي، والذى كان مُطْلَعاً على ماتصمته النبوءات التوراتية عن مصير قومه بنو إسرائيل، قد بشره الله تعالى بأحمد أي. محمد رسول الله المسمى بصيغة التفصيل أحمد أي أكمل الناس حمداً لله الذى سيكون أكمل توحيداً لله تعالى من جميع من سبقه من أنبياء الله ورسله، وأنقل هنا بعض ماأوردته الأناجيل المعاصرة من معالم تلك البشارة التى بشر بها المسيح ابن مريم قومه بحقّ النبي الذى سيبعثه الله تعالى من بعده من أبناء عمومة قومه ووفق نبوءة سفر التثنية الاصحاح ١٨/١٨ الذى سبق أن أوردناها.

فها أنّا إنجيل متى ٢٣/٣٨-٣٩ ينقل لنا قول المسيح الناصري مُحذراً قومه ومبشراً. عن سيأتي بعده، فهو يقول: (ياأورشليم ياأورشليم ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها: كم مرّة أردت أن أجمع أولادك، كما تجتمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، ولم تريدوا. هو ذا بيتكم يُترك لكم خراباً، لأنى أقول لكم: إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب..). وهل يُلاحظ القارئ توافق قول المسيح الناصري: (ياأورشليم ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين) مع ماورد في الآية (٨٧) من سورة البقرة التى ورد فيها قوله تعالى: ﴿.. أفكلمنا جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم، استكبرتم، ففريقاً كذبتم، وفريقاً تقتلون﴾؟ وأفلا يلاحظ القارئ ماينذر به المسيح قومه في هذا النص ويقول: (هو ذا بيتكم يُترك لكم خراباً). هذا الخراب الذى ألحقه بهم الرومان بعد سبعين عاماً من بعثة المسيح، وهو الخراب الثانى الذى أوردته سورة الإسراء؟

ثم أفلا يلاحظ القارئ كيف أن المسيح الناصري ينبئ في هذا النص المذكور عن بعثة النبي الآتي (باسم الرب) هذا النبي الذى سيبعثه الله مباركاً ومهبطاً لتحليات الله عزوجل. أي أنّ هذا الآتي سيمثل ذروة الارتقاء الروحاني. وهل يُلاحظ القارئ كيف أنّ كلمات هذا النص الانجيلي، انطبقت عملياً على بعثة محمد بن عبد الله ﷺ؟

وأنقل للقارئ نصاً آخر ينسبه إنجيل يوحنا إلى المسيح الناصري في ٢٦/١٤ وهو قوله: (وأما المعزي، الروح القدس، الذي سيرسله الآب بإسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم) فهذا أن المسيح يبشّر ببعثة (المعزي) الذي سيأتي بتعليم كامل فيعلم كل شيء، ولا يكون المسيح نفسه بل نبياً آخر غيره لقوله (ويذكركم بكل ما قلته لكم). فلو كان المعزي المسيح نفسه، فكيف يقول عنه "ويذكركم بكل ما قلته لكم؟" ثم إن «المعزي» هو النبي الذي يبعث الغزاة في نفوس الناس، فيلوم اليهود ويصدق المسيح، ويمثل (روح القدس) أي يمثل بأسوته العملية وبتعاليم شريعته روح الطهارة وروح التوحيد الذي أتى به ابراهيم الخليل عليه السلام.

وللاحظ القارئ كيف أن كاتب الإنجيل يوحنا نقل لنا في ١٦/٧-١٤ أقوال المسيح التي يُطَمِّتَن فيها حواريه، ويبشّر بالمعزي من بعده ويقول: (لكني أقول لكم إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق، لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله لكم، ومتى جاء ذاك، يبكت العالم على خطيئته وعلى بر وعلى دينونه: أما على خطيئته فلأنهم لا يؤمنون بي، وأما على بر فلأنني ذاهبٌ إلى أبي ولا ترونني أيضاً.. وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين. إن لي أموراً كثيرة لأقول لكم، ولكن لا أستطيعون أن نحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمر آتية. ذاك يمجّدني).

أفلم يلاحظ القارئ كيف اطلق المسيح على الآتي باسم الرب في هذا النص للمرة الثانية صفة «المعزي» الذي كان ينبئ عنه المسيح أنه لن يكون يهودياً بل من قومية أخرى غير بني اسرائيل؟ ثم هل بعث الله تعالى بعد موت المسيح من مجده، وبرأه من الموت الصليبي، ونزّه عن دعوى الألوهه، ودفع عنه اعتراضات اليهود إلا محمد بن عبد الله رسول الله وخاتم النبيين ﷺ؟ وأفلم يلاحظ القارئ كيف أن القرآن الكريم الذي أنزله ربنا على قلب محمد ﷺ أنزله مفعماً بالأنباء الغيبية وفق قول المسيح (ويخبركم بأمر آتية)؟ وهكذا فلا تنطبق أقوال المسيح الناصري المذكور إلا على محمد رسول الله ﷺ فهو «المعزي» وهو الذي مجّد المسيح وأبقى ذكره على مدى الأيام .

من هذا كله نكون قد أحطنا بمعالم الانقلاب الروحي الكبير الذي أحدثه الله تعالى على أيدي المسيح ابن مريم والذي تحدّد في عمليّة إعادة الوجه التوحيديّ الإبراهيميّ الذي احتوته تعاليم شريعته موسى عليه السّلام. فلولا بعثه المسيح الناصري لكانت انقطعت السلسلة ما بين ابراهيم وما بين محمد ﷺ وما بعثه الله تعالى به من تعاليم، ولكان استحال على الباحث الذي يتناول حال اليهود الفكري والعملي أن يعثر على اللّحمة التي تربط ما بين توحيد ابراهيم الخنيف وتوحيد سيّد المرسلين. ولعاد هؤلاء الباحثون يوقنون بوجود حلقة مُفرغة بين التوحيدين. وهكذا أثبت الله تعالى أنه علام الغيوب وأنه رب العالمين.

الانقلاب السادس الروحي الكبير الذي أحدثته بعثة محمد ﷺ :

لابدّ أن أتّضح لأعين القارئ ممّا ذكرناه حتى الآن أنّ الله تعالى الذي كان قد بعث آدم ليخرج البشر من كهوفهم، هذا الإله الرّب الذي راح يبعث رسلاً وأنبياء بتعاليم على قدر عقل البشر ولتطوير تلك العقول وللمساعدة على تهذيب البشر وتمدينهم. هذا الإله الذي وصل بالبشر إلى مرحله ربط الدّين بالدنيا عن طريق شريعة موسى، ووضّح جوهر تلك التعاليم على أيدي المسيح ابن مريم، فبيّن أنّها قامت على أساس من توحيد الله وطلب رضوانه، فلا بدّ لهذا القارئ أن يكون قد أدرك أنّ بناء الدّين الشامخ لم تعد تنقصه إلّا لبنة واحدة، ولقد شكلت بعثة محمد وقرآنه هذه اللبنة التي أكملت بناء هذا الدين التوحيديّ العظيم. وأحدث الله عز وجل ببعثة محمد ﷺ بالتالي أعظم انقلاب روحي في تاريخ البشر الطويل.

١. القرآن كلام الله تعالى :

وبدافع أهمية هذا الانقلاب الروحي الكبير الأخير، يتساءل القارئ بالبدهة عن معالمة وموضعه من الرسالات السماويّة التي سبقت حدوثه. وأجيب أنا بالإيجاز على هذا التساؤل وأقول:

أتناول هذا الموضوع من جانب كلام الله مع عباده، وما استجدّ على هذا الصعيد ببعثة محمد خاتم النبيين ﷺ. فلم يحدث في تاريخ البشر أن أنزل الله تعالى كتاباً بألفاظه نفسها، إلا كلمات الوصايا العشر التي أنزلها على موسى من قبل. فكتاب الله العزيز الذي أنزله على قلب محمد ﷺ، أنزله الله تعالى لفظاً وحركاتٍ وتوقيفات، ووعد بالمحافظة عليه ولم يُنزل الله عز وجل كتابه هذا لإنجاز مهمة واحدة، بل لإنجاز مهمّات عديدة. لذلك اصطلح له عدّة تسميات: فوصفه بإسم «القرآن» وبناء منه حل شأنه على أنّ هذا الكتاب سيُستسخَرُ ويُطَبَّعُ بأعدادٍ هائلة، ويتداوله الناس ويتلونونه صباح مساء في مجالسهم محفوظاً ومُكرّماً، ووصفه حلّ شأنه بإسم «الفرقان» من مُنطلق أنّ ما احتوى عليه كتابه العزيز من علوم، سيفرق بها الحق عن الباطل فيكون مُهيماً بذلك على جميع ما بين أيدي الناس من تعاليم ينسبونها إلى الله عز وجل. ووصف الله تعالى كتابه العزيز هذا باسم «الحكيم» من مُنطلق أنه تعالى لم يورد فيه حكماً إلا وأتبعه بفلسفته العلميّة التي أُسس ذاك الحكم على أساس منها.. ووصف الله جلّ شأنه كتابه هذا باسم «الذكر» من مُنطلق أنّ في العمل على تعاليمه رفعة هذا المؤمن وسرّ تقدّمه ورقّته الروحي. وهذه الأوصاف تميّز بها الكتاب الذي أنزله الله تعالى على قلب محمد خاتم النبيين ﷺ.

فهذه الخطوة التي حدثت عن طريق إنزال هذا الكتاب السماوي الأخير تجاوزت جميع طرق كلام الله مع عباده التي لاحظنا معالمها فيما مضى من بيان. تجاوزت مكالمة الله مع البشر من وراء حجاب، كما تجاوزت مستوى الكلام المشافهة الذي حدث ببعثة موسى عليه السلام. تجاوزت كلّ هذه الطرق، إلى مرحلة جديدة أُسمي من جميع تلك الطرق، وقد تمثلت في وحي القرآن المُدَوّن والموعود بالمحافظة عليه إلى يوم الدين.

وَبُيِّنَتْ أَدْعَاؤُنَا هَذَا مِنْ طَرِيقَيْنِ: الْأَوَّلُ عَمَلِيٌّ وَهُوَ وَجُودُ هَذَا الْكِتَابِ بِالرَّغْمِ مِنْ مَضْيِ أَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا عَلَى إِنْزَالِهِ، وَقَدْ سَبَقَ لِي أَنْ أَثْبِتَ فِي الْمَبْحَثِ الْأَوَّلِ مِنْ مُؤَلَّفِي هَذَا مَصْدَاقِهِ الْقُرْآنَ الْحَمِيدَ - وَالطَّرِيقَ الثَّانِي الَّذِي يُثْبِتُ صَدَقَ إِدْعَاؤُنَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، هُوَ مَا نَبَّهَتْ إِلَيْهِ آيَاتُ الْوَحْيِ الْقُرْآنِيِّ مِنْ أَنَّ مُوسَى طَلِبَ مِنْ رَبِّهِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾. فَلَمْ يَسْتَجِبْ رَبُّهُ لَطَلْبِهِ، عَلَى حِينِ صَرَحَتْ سُورَةُ النَّجْمِ بِحَقِّ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ دَنَا

فتدلّني، فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى. هذا وإنَّ جُملة ﴿ثم دنى فتدلى﴾. فكان قاب قوسين أو أدنى. تُنبّه إلى سَمَوِ مقام محمد على مقام موسى عند الله عز وجلّ، وقد قابل هذا التمايز ما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ من وحي القرآن في مقابل ما أوحى إلى موسى من وصايا عشر. والذي نستخلصه من ذلك كلّهُ هو أنَّ الانقلاب الروحي العظيم الذي تحقّق على أيدي محمد رسول الله ﷺ، على صعيد كلام الله مع عباده فاق جميع ماسبقه من انقلاباتٍ روحيةٍ تحقّقت على أيدي المرسلين من قبله.

٢. التشريع الكامل :

وأنسأل الإجابة على التساؤل الذي ذكرناه على صعيد الأحكام والتشريع، وما استجدّ على هذا الصّعيد بإنزال ما تضمّنه كتاب الله القرآن المنزل على محمد ﷺ فأقول: أفلم يلاحظ القارئ كيف أنَّ هذا القرآن قد نسخ جميع ماسبقه من كتب سماوية، وكيف أنّه تضمّن أحكاماً وتشريعاً كاملاً ويصلح لكل زمان ومكان؟ فهل نسخ القرآن الكريم التوراة والإنجيل وغيرها عبثاً ودون حكمه؟ أفلم يلاحظ القارئ كيف أن تعاليم تلك الكتب كانت قومية الصبغة ولا تصلح أحكامها وتشريعاتها لإقامة مجتمع ونظام عالمي؟ ثم إنَّ كمال رقي الإنسان روحياً يرتبط ارتباطاً عضوياً بكمال الأحكام والتعليم الذي يعمل عليه. وعليه فلم تكن أحكام وتعاليم الكتب السابقة تفي بهذه الضرورة الموضوعية، على قدر ما جاءت مدرسة أحكام وتشريع وتعاليم القرآن لتفي بهذه الضرورة الموضوعية ولتخرّج مدرسة القرآن الكريم رجالاً على مستوى النبيين والصّديقين والشهداء والصالحين. ألا إن كتاب الله العزيز لفت أنظارنا إلى هذه الحقيقة التي ذكرناها في الآية (١٥٤) من سورة الأنعام فيما يتعلّق بأحكام وشريعة موسى فقال: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن، وتفصيلاً لكلّ شيء، وهدي، ورحمة لعلهم بقاء ربهم يؤمنون﴾. أي أن التّرجى بالحصول على لقاء الله عز وجلّ ارتبط عضوياً بأحكام وتعاليم الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى، على اعتبار أنها أحكام وتعاليم ذات صبغة قومية فلا تفي بترقية الإنسان الذي يعمل عليها ترقية روحية كاملة تؤهّله للتشرف بلقاء ربّه عز وجلّ وجذب محبّته وقربه ورضوانه .

هذا وقد لفت الله تعالى أنظارنا في الوقت نفسه إلى كمال أحكام وتعاليم القرآن التي توصل الإنسان إلى لقاء ربه حاذفاً هذا الترجي. حيث أنه جل شأنه قال في الآية (١١١) من سورة يوسف بحق مدرسة أحكام وتعاليم القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. فهو جل شأنه على حين أنهى الآية الأولى المتعلقة بالشرعية الموسوية بقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾. فإنه جل شأنه أنهى الآية الثانية المتعلقة بالشرعية الحمدية بقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. وبذلك ربط عزوجلّ التعليل والترجي بمدرسة موسى، وحذف هذا التعليل والترجي فيما يتعلق بمدرسة القرآن الكريم. كذلك حذف كلمة (تماماً) من الآية المتعلقة بمدرسة القرآن الكريم على اعتبار كمال ماتضمنته من أحكام وتشريع. فأعظم بهذا الأسلوب البلاغي المعبر، وبهذه الدقة في التعابير والتي لا يلاحظها إلا المتدبرون.

أما هذا الكمال الذي أتصفت به أحكام وتشريع كتاب الله القرآن، فقد صرح به الله عزوجلّ في الآية الثالثة من سورة المائدة، وضمن مراح يفرضه على المسلم من أحكام. فهو تعالى قال ضمن تلك الآية ﴿.. اليوم ينس الذين كفروا من دينكم، فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً، فمن اضطرّ في مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فهو تعالى صرح هنا أن اكتمال بناء الدين الشاهق الذي تتبنونه وتؤمنون بأحكامه وتعاليمه، ألقى اكتمال هذا البناء الديني اليأس والقنوط في قلوب الذين كذبوه وكفروا به، لموازنتهم ما بين تشريعه وأحكامه وما بين مآلديهم من أحكام وتشريع. وبذلك سدّ في وجوه الذين كفروا بشرية الإسلام باب التفاخر والتباهي بما في كتبهم من أحكام وتشريع. فلما انتهى تعالى من التنبيه إلى ذلك، راح يخاطب الذين آمنوا بشرع الإسلام وينبّه إلى أنّ واجبه بعد اكتمال بناء الدين بهذا التشريع أن يضعوا خوف الله وخشيته نصب أعينهم في كلّ أمر من أمور حياتهم اليومية، فهنا يكمن سرّ قوتهم ومظهر تعلقهم برّبهم عزوجلّ، لذلك فلا ينبغي أن تبدر عنهم الخشية والخوف من هؤلاء المكذبين الكفار، وإلا فقد ثبت ضعف إيمانهم برّبهم وقدراته عزوجلّ، برّبهم الذي أكمل

لهم بناء هذا الدِّين الذي راحوا يدينون بشرعه وتعاليمه. برَّبهم الذي أتمَّ بذلك نعمته عليهم ورضي لهم الإسلام ديناً.

ألا إنَّ ألفاظ ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ تشير صراحة إلى كمال التشريع الإسلامي، وإلى أنه تعالى وضع هذا التشريع موضع التنفيذ لإكمال تعاليمه، ثم إنَّ ألفاظ ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ تُشير إلى أنَّ الثمار الروحية لهذا التشريع اكتملت أيضاً مادياً وروحياً، أي أنَّ مدرسة القرآن أضحت تُدرِّس هنا التشريع الكامل التعاليم نظرياً كما راحت تُدرِّسه تطبيقياً ليجني الدارس من ثماره الروحية أعظم الثمار.

وهكذا تكون هذه الآية من سورة المائدة قد نُبِّهت إلى حقيقة اكتمال بناء الدين وإلى كمال ما أنزل الله تعالى في هذا الكتاب العزيز، وليُحدث محمد رسول الله ﷺ، وهو المبعوث إلى النَّاس كافة، ليحدث انقلاباً روحياً عظيماً هو أعظم انقلاب روحي في تاريخ البشر قاطبة وعبر تاريخه الطويل.

وأتناول هذا الموضوع من جانب ثالث وهو جانب معالم التَّوحيد الذي بُعث به محمد رسول الله ﷺ، فإنَّ تدبُّر القارئ أي الذكر الحكيم يلاحظ أن الله تعالى وصف هذين النبيين إبراهيم ومحمداً عليهما السلام بوصف واحد. لذلك أورد ربنا عز وجل قوله في سورة النحل الآية (١٢٣) يساوي بين وصف إبراهيم ووصف محمد سيد المرسلين وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ، ثُمَّ وَحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. فهو جلَّ شأنه خاطب قوم محمداً فيما أنهى به الآية الأخيرة من أنكم تعلمون أنَّ محمداً لم يكن مشركاً قبل أن يؤت هذا الكتاب العظيم فما كان محمد من المشركين، بل كان موحداً على شاكلة جدِّه إبراهيم.

وأكد الله عز وجل اشتراك إبراهيم ومحمد في توحيدهما، في الآية (١٠٥) من سورة يوسف أيضاً حيث قال فيها: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَفِي، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

لكنَّ هذا القارئ إذا تدبَّر أي الذكر الحكيم من منظار مابين محمد وإبراهيم من فرقٍ في مقامهما الروحي، فلا بد له من أن يلاحظ علوَّ مقام محمد

على مقام ابراهيم من خلال ماأنهى الله تعالى به الآيات الكريمة في موضعين من كتاب الله العزيز، فعلى حين نلاحظ قول ربنا في الآية (١٣١) من سورة البقرة: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَاهَةٍ نَفْسِهِ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فهو تعالى أنهى هذه الآية بجملة أسلمت لله رب العالمين. ولا نلاحظ وصفاً آخر لابراهيم في موضع آخر من كتاب الله العزيز يزيد على وصفه أن أسلم لله رب العالمين.

فعلى حين نلاحظ ذلك، تواجهنا الآية (١٦١) من سورة الأنعام بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، دِينًا قِيمًا، مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾. فهو جل شأنه قد وصف رسوليه هنا ابراهيم ومحمداً بوصف واحدٍ من جهة. وميز محمداً في الفقرة الأخيرة من هذه الآية، من جهة ثانية على ابراهيم لقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾. فابراهيم أسلم نفسه لله رب العالمين، أما محمد خاتم النبيين ﷺ فقد كان أول من أسلم نفسه من نفسه لله رب العالمين. ليس أولهم زماناً، إذ المعلوم أنَّ ابراهيم هو السابق زماناً، وهذه قرينة لغوية تصرف لفظ (أول) هنا من الزمانية إلى الدلالة على أولوية مقام محمد ﷺ، وسموه. فمحمد بن عبد الله يأتي في ذروة هرم التوحيد، لذلك فهو أول المسلمين وكأنَّ الله عز وجل ينقل لنا عن لسان محمد ﷺ قوله بالفاظٍ أخرى منبهاً إلى الفارق بين مقامه ومقام ابراهيم جدّه من حيث التطبيق، وليس من حيث النظرية والاعتقاد، قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ بمعنى أنَّ المقام الروحي الذي حصل عليه محمد ﷺ من حيث فرص إثبات توحده لرَبِّه، أعلى وأرفع من المقام الروحي الذي حصل عليه جدّه ابراهيم عليه السلام، لذلك يُعدّ محمد ﷺ في نظر ربّه (أول المسلمين) فالسَّبقُ الزماني لابراهيم ولاشك، لكنَّ الأولوية في المقام الروحي فلمحمد سيد المرسلين ﷺ. وهكذا تكون بعثة محمد رسول الله ﷺ قد أحدثت انقلاباً روحياً عظيماً أيضاً على الصعيد التطبيقي للتوحيد الذي بُعث به ابراهيم عليه السلام. ذلك أنَّه لم يتحقق من إنجازات على أيدي ابراهيم تماثل ماتحقق من إنجازات تحققت على أيدي خاتم النبيين. اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على محمد وعلى آل محمد إنك حميد مجيد.

من هذا كله ندرك أن الله تعالى قد أحدث انقلاباتٍ روحيةً عظيمةً جداً على صعيد كلامه مع عباده وعلى صعيد التشريع وعلى صعيد الأمور الروحية من خلال بعثة محمد ﷺ. فأكملت هذه الانقلابات ما اعترى من قبل أمور كلام الله والتشريع والحياة الروحية في الرسائل السماوية السابقة من نقص، كان سببه الضرورات القومية والمرحلية الزمنية. وهكذا أكملت بعثة محمد ﷺ ومعها هذا القرآن بناء الدين فعاد الدين بالتالي مُحْكَمًا وشاعراً وجذاباً يأخذ بمجامع أئمة الباحثين والمحققين. وبذلك رسخت قواعد الدين في عالما الديني في أفئدة بني آدم الذي كان قد أخرج أجدادهم من حياة الكهوف إلى حياة السهول والتحضر. وهذا كله جلّى لأعين الباحثين والمحققين مظاهر تجليات ربوبية الله رب العالمين وتدخلها في حياة البشر، مُد خلق تعالى هذا البشر وإلى زمن بعثة محمد ﷺ وإنزال هذا القرآن العظيم.

٣. العبادات هادفة :

على هذه الصورة، فلا بد أن يكون قد أدرك هذا القارئ موضع الرسالة الإسلامية ومكانتها بين الرسائل السماوية جميعها دون أي استثناء. وذلك من خلال ما وضّحتُه لهذا القارئ في الصفحات الماضية بما يتعلق بجميع صُعد الدين: تشريعاً، ووحياً، وحياةً روحية.

لكنني أستشعر مع ذلك تشوّق هذا القارئ ليطلع بشيء من التفصيل على معالم ما أحدثته تعاليم القرآن الكريم من تغيير جذري إمتازت به عما سبقتها من تعاليم. لذلك أتناول كلّ أمرٍ من تلك الأمور، فأقول: هذا مجال العبادات، وطقوسها وأشكالها، فقد أحدثت تعاليم الإسلام في مجال العبادات إصلاحاً وتطويراً، بما يتناسب ومرحلة النضوج العقلي الذي بلغه عقل البشر وإدراكه.

فقد كانت الأقوام في الماضي أقرب إلى حياة البداوة منها إلى حياة التحضر والتمدّن. فكانت طقوس العبادات وأشكالها تتناسب وحالة الأقوام في أزمنتها تلك. وللقارئ أن يطالع على سبيل المثال سفر اللاويين من التوراة المعاصرة، فسيلاحظ من خلال مطالعته للسفر المذكور أن التعاليم التي جاء بها موسى عليه السلام، كانت أوجدت طبقة كهنة كما أوصت بتحديد إمكانية للعبادة لا تجوز العبادة خارجها، وأوسد أمر الإشراف عليها وإقامة الشعائر الدينية

فيها إلى طبقة الكهنة المذكورة، ولتوسط طبقة الكهّان هذه ما بين الله تعالى وما بين الذين يعبدونه من عامة بني إسرائيل، ووفق طقوس نصّ عليها سفر اللاويين المذكور.

والآن إن تدبّر هذا القارئ ماتضمنته تعاليم القرآن الكريم، فسيلاحظ أنّ القرآن الكريم نصّ صراحةً على إلغاء نظام الرّهبة والكهانة تلك، وألغى بذلك كلّ وساطة ما بين الله عزّوجلّ وبين الذين يعبدونه، وأمر بإقامة شعائر الدّين دون توسّط أحدٍ من طبقة رجال الدّين. فخفّفت تعاليم القرآن الكريم عن كاهل المؤمنين ما اشترطته الرسالات السّماوية السابقة من أثقالٍ وقيدٍ. وعادت الأرض كلّها مسجداً وظهوراً.

ثم إنّ هذا التّبديل والإصلاح الذي أحدثته تعاليم القرآن الكريم على صعيد العبادات أذهل طبقة الرّهبان من أهل الكتاب. حيث راح الرّاهب يتساءل في صدر بعثة الرّسول الكريم ﷺ: وهل يصحّ للؤمن أن يتعبّد دون توسّط راهبٍ يرعى مكاناً مخصّصاً للعبادة؟ وأين بقي المذبح والقرايين وإشعال البخور؟

ثم إنّ القرآن الكريم لم تلغ تعاليمه نظام الرّهبة وتوابعه وحسب، بل واشترطت إقامة العبادة وفق نظام جماعي. الأمر الذي اقتضى من المسلمين تشييد مساجد، لتفي بالحاجة التي يقتضيها نظام العبادة المذكور، وإقامة الصلوات جامعةً في هذه المساجد بسهولةٍ ويسرٍ تامّين.

وقد أوجبت تعاليم القرآن الكريم إقامة خمس صلوات يوميّه بصورة جماعية. مُركّزة في ذلك على ضرورة خشوع المصلّي في صلواته. وربط القرآن الكريم موضوع فلاح هذا المؤمن وفوزه بمحبّة ربّه وقربه، بحالة الخشوع المطلوبة منه في صلاته. مُعرضاً عن التّفصيل في شكل الصلاة ذاتها، وتاركاً أمر ذلك إلى الأسوة العملية لرسوله الكريم ﷺ بشكل مقصود والحكمة منه إشعار المؤمن بأهميّة الخشوع وبأهمية مضمون الصلاة ذاته، وأنّ حركات الصلاة المطلوبة هي مجرد أطر وقشور ولم تكن هي المقصود بعينها في أصل تعاليم الدّين الإسلامي. علماً بأنّ الحركات والتلاوة المطلوبة إنّما في الصلاة، قد أسّسها ربّنا عزّوجلّ على أسس علميّة وفلسفية أيضاً لتساعد هذا المصلّي على استحضار حالة الخشوع بين يدي ربّه عزّوجلّ.

هذا وقد حدّدت تعاليم القرآن الكريم المقصد من العبادة، فأطرته في نطاق محاولته التعرف إلى خالق هذا العابد وجذب محبته والفوز بقربه ورضوانه، منوهة أنّ شكل العبادة لم يكن هو المقصود من عبادة الله عزوجلّ، فإله الخالق لا ينظر إلى شكل عابده وصورته، بل ينظر إلى ما انطوى عليه فؤاده، لذلك عاد بإمكاننا القول جازمين: إنّ الصلاة الإسلامية وبقية أشكال العبادات الإسلامية قد فتحت للعابد باب تعرفه إلى ربه بصورة يقينية، وهو أمرٌ فصلتُ الكلام عنه في المبحث الثاني من هذا الكتاب، كما فتحت تعاليم القرآن الكريم بذلك لهذا العابد باب التّرقى الروحاني على مختلف درجات سلّمة وحثه دعاء الفاتحة أن يسعى ليكون مع النّبيين والصّديقين والشهداء والصّالحين، وإعداداً إياه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصّٰدِقِينَ وَالشَّٰهِدَةِ وَالصّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

ولما كان موضوع محاولة التعرف على هذا الخالق، يقتضي تعرّف المؤمن العابد على ماتّصف به ذات خالقه من صفات، ومانحله من أسماء حسنى فلا بدّ أن لاحظ هذا المؤمن كيف أنّ هذا الكتاب الحكيم قد اشتمل على جميع أسماء الله الحسنى المطلوب معرفتها، موضّحاً ما بين هذه الأسماء من روابط وعلاقات، كما وضّح كيفيّة عمل كلّ صفة من هذه الصفات. وأغنت تعاليم القرآن الكريم بذلك المؤمن السالك درب عرفان ربّه، أغنته عن مراجعة ماتّصفتها الكتب السماوية السّابقة المنسوخة، من معلومات تختصّ بهذا المجال.

وقد أعطى القرآن الكريم نظريّة متكاملة فيما يتعلّق بهذا الكون من حولنا وأشيع تساؤلات الإنسان عن المقصد من وجوده، من أين أتى وإلى أين المصير، وقدم القرآن الكريم لهذا الإنسان الأدلّة العلميّة التي تثبت طروحاته، فأضحى لدى هذا الإنسان فكرة واضحة عن مرحلة حياته الدنيا، وفكرة مُجملّة عن حياة ما بعد الموت، ووضّح القرآن الكريم لهذا الإنسان أنّ لأعماله الدنيوية ثمارها الروحية نوراً أو ناراً، ودعّم له هذه الحقيقة من خلال ما أنبأه عن تفصيلات ما سبلاقيه يوم البعث والنّشور، وبأسلوب مجازي رائع السّبك والدّلالة، وبتدعيم من حقائق علميّة يواجهها في حياته الدنيا هذه، وهذه الحقائق وهذه المعلومات التي قدّمها القرآن الكريم على هذا الصّعيد، لا يجد الباحث أيّ أصل لها في الكتب المنزلة المنسوخة، وعليه يُعد القرآن الكريم أوّل كتاب سماوي يتطرّق لهذه

الأبحاث وبأسلوبٍ علمي. وبذلك تكون تعاليم القرآن الكريم قد أحدثت انقلاباً جذرياً على صعيد العبادات والأُمُور الروحية.

وبنفس روح التصحيح والأسلوب العلمي وبما يناسب مرحلة النضوج العقلي التي بلغها البشر قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وبما يناسب كل زمان ومكان وبروح الشمولية، أحدثت تعاليم القرآن الكريم انقلاباً جذرياً في بُنية الأحكام الشرعية والتشريع، ممّا لا نجد له أصلٌ في سفري التكوين والثنية من التّوراة المعاصرة. فتعاليم هذين السّفرين الشرعية اتصفت بشدّة تتناسب وحال قوم موسى الذين كانوا أقرب إلى البداوة منهم إلى روح الحضّر والتمدّن والتهذيب. خصوصاً وأنّ روح العبوديّة كانت قد سرّت في دم كلّ إسرائيلي نتيجة لاستعبادهم من قبل ملك مصر آنذاك. وهذه حقيقة تساعد القارئ على إدراك سرّ نسخ القرآن الكريم لتعاليم التّوراة والإنجيل خاصة.

وقد أتت أحكام الشريعة الإسلامية التي شرّعها القرآن الكريم ممتازة بكمالها وبشموليتها وبمرونة أحكامها. فشملت جميع مجالات الحياة: أخلاقاً واقتصاداً وتعليماً وثقافةً سياسية. فقدّمت لجميع هذه المجالات الحياتيّة حلولاً شافيةً ووافيةً وصالحةً للعمل عليها في كلّ زمان ومكان - وهكذا أغنى التشريع الذي أتى به القرآن الكريم الحياة الإنسانية في جميع جوانبها بما لاقتضاه من هذا التشريع الإسلامي من رعاية كاملة وحلول واقعية ملائمة ومؤسّسة على أسسٍ علمية.

ولابدّ من التنويه هنا إلى أنّ تأسيس أحكام التشريع الإسلامي الذي تضمّنهُ القرآن الكريم، على أسس وأصول علميّة فلسفية، ساعدت على إنهاء الصّراع الذي كان دائراً ما بين العلم والدين قبل إنزال هذا الكتاب السّماوي العظيم. فقد نبّهت آي هذا الذّكر الحكيم أذهان البشر إلى أن القرآن الكريم إنّما هو كلام الله تعالى الذي خلق هذا العالم المادي من حولنا. وأنّه بذلك يستحيل وجود خلافٍ أو تضادٍّ ما بين قول الله تعالى وصنّعه. وهذه حقيقة تعني بالفاظٍ أخرى أن لاتضاد ما بين العلم والدين. فإن فهم أيّ إنسان أي حكم تشريعي بما يُغاير هذا النّطلق، فمردّد ذلك يعود إلى ضعف إدراكه نفسه. وهكذا قفز التشريع الإسلامي قفزةً نوعيةً، من حيث أنّه نقل الدّين من مجال المُغيّبات إلى مجال العلم القائم على الملاحظة والتجربة والاستنتاج، لذلك يتوجّب على كلّ امرئٍ باحثٍ

في أمور التشريع الإسلامي إجراء مطابقة ما بين قول الله وفعله، ليتمكن بتلك العملية من الوصول إلى حقيقة الأمر الذي تناوله بالبحث والتدقيق. وعلى هذا الباحث أن يضع نصب عينيه أنه إذا لم يوفق إلى المطابقة ما بين قول الله وفعله، فمعنى ذلك أنه لا يزال فهمه بعيداً عن إدراك الحقيقة التي أتى بها التشريع الإسلامي. وبهذا المنطلق الذي انطلقت منه أحكام التشريع الإسلامي، تكون قد قطعت على أعداء الدين الإسلامي خط رجعتهم، وتكون في الوقت نفسه قد سلحت المؤمنين بسلاح بئار لا يقدر أن يفله أي سلاح آخر يقوم في مواجهته. ثم إن الذي يدقق في أسفار التوراة المعاصرة، يجدها خالية من التعاريف الشرعية لكل مما تمت للدّين بصلّة من الصّلات، فإذا شاء الباحث تعريف كلمة (نبي) على سبيل المثال، أي إذا استقصى تعريف كلمة (نبي) وعلامات ظهور نبيّ ، ومعايير صدق نبي وحدود عمل نبيّ وتعريف صلة هذا النبيّ برّبّه، وتعريف حدود صلة هذا النبيّ بنوعه المرسل إليهم. إذا تقصّى هذا الباحث جميع تعاريف هذه الأمور في التوراة المعاصرة، فلا يعثر على تعريف أي منها على الإطلاق.

على حين أنّ أنه إذا تقصّى هذا الباحث تعريف لفظ نبي أو سواه مما تمت لأمر الدّين في أي الذكر الحكيم، يصل لاحالة إلى هذه التعاريف مع شيء من التدبّر والتمحيص. وبذلك يكون الإسلام وبهذه المصطلحات الشرعية التي وضعها، قد امتاز على جميع ماسبقه من أديان، ويكون قد أتى بأمر جديد كل الجدة على صعيد الدّين. وساعد بذلك على استحضر كلّ أمر عرفه، على شاكلة ما يستحضر الباحث أي أمر متعلّق بالعلوم الماديّة. وبهذه المزيّة يكون القرآن الكريم قد حفظ تعاليمه من الضّياح، وصان من جهة أخرى أذهان المؤمنين من التشويش، وهاتان فضيلتان تحلى بهما التعليم القرآني، ولا يعرف قدرهما إلا أفاضل الباحثين والعلماء.

ثم إنّ المدقق الباحث يلاحظ أنّ هذا الكتاب العزيز مانصّ على أيّ حكم تشريعي، إلّا وقّره ببيان الحكمة منه وبما وراءه من فوائد مرجوة منه. وهذه مزيّة لم يتصف بها أي كتاب سماوي سابق لنزول القرآن الكريم. وهذه مزيّة منحت تعاليم هذا الكتاب السماوي استقلاليتها، وأغنت الإسلام عن بعث نبي جديد

يُكمل تعاليمه. هذا إلى جانب اتّصاف أحكام الشريعة الإسلامية بصفة المرونة والاعتدال الأمر الذي يُكسبها القدرة على مواجهة المتغيرات والتطورات التي تُؤول إليها قوى هذا الإنسان وطاقاته العقلية على مرّ الزّمان. فهذه المعلومات المحملة أكون قد أعطيت القارئ فكرة موجزة عن معالم الانقلاب الروحيّ الكبير الذي أحدثته بعثة محمد رسول الله ﷺ، على صعيد التشريع الذي زوّده به هذا الكتاب السماوي .

٤. معالم الشمولية والعالمية :

كذلك لا ينبغي أن يغرب عن ذهن القارئ صفة الشمولية والعالمية التي اتّصفت بها تعاليم القرآن المجيد. فالإسلام وبواسطة هذه التعاليم التي تضمّنها كتابه السماوي، يكون قد وضع أساساً لوحده عالمية: تشريعية وروحية، ليتسابق أصحاب مختلف القوميات، وعلى قدر نضوجهم العقلي، ليتسابقوا في السعي على درب التعرف إلى ربّهم الذي خلقهم وأنعم عليهم بهذا الإنعام، فيتسابقون طلباً لحبة ربّهم وقربه ورضوانه، فلا تستعلي ضمن هذا السباق قومية على قومية، ولا لون على لون، ولا لسان على لسان. فهذه الوحدة التشريعية والروحية يتأنسون بها يهذبهم به الإسلام ويمدّنهم بتعاليمه. ذلك أنّ من مقاصد تعاليم الإسلام أنسنة البشر وتهذيبهم وتمدينهم بأكمل التعاليم وأعظمها تأثيراً نفسياً. ويوم يتحقّق هذا المقصد العظيم، يكون الإسلام قد أكمل ما بدأه آدم عليه السلام، وما طوّره نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من أنبياء الله ورسله الكرام، وتجلّى بالتالي ظاهرة ربوبية الله لهذا البشر كالشمس في رابعة النهار.

فهذا ما أنبأت به الآيات (٢٧ - ٣٠) من سورة سبأ التي قال الله تعالى فيها: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أُحِقُّمَ بِهِ شُرَكَاءَ كَلًّا، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾. فهذه الأنبياء التي تضمّنتها هذه الآيات من سورة سبأ، لا ينبغي للقارئ أن يمرّ عليها مرور الكرام، بل عليه أن يتدبّر بها حقّ التدبّر، وأن يعطيها حقّها من التّبصر في أسلوب صياغتها ومنزلتها من التسلسل الموضوعي للسورة التي تضمّنتها.

فقد أنبأت آيات سورة سبأ هذه عن المستقبل المُشرف الذي ينتظر البشر بعد أن يؤمنوا بالاسلام ويعملوا على تعاليمه. وقد تَضَمَّنَت هذه الآيات الإشارة إلى الأخطبوط المسيح الدجال الذي يعربد في آيامنا هذه منذرةً ومتوعدةً إِيَّاه، وواعدةً البشر بتحقيق وحدةٍ عالميةٍ شاملةٍ في الأمور التشريعية والروحية كنتيجةٍ حتميةٍ لبعثة محمد الأمين ﷺ الذي بعثه الله تعالى للناس كافة بشيراً ونذيراً. وليكمل عن طريق بعثته مبادئه الله تعالى ببعثه آدم عليه السلام وماطوره على أيدي نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من رسل الله الكرام. فالله عزوجل أنبأ في هذه الآيات عن اليوم الذي ستعرف فيه راية الإسلام على جميع أنحاء كوكبنا الأرضي. ثم إنَّ عظمة ماتضمنت هذه الآيات من نبوءات استدعت من الله عزوجل أن يتبع قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾. أن يُتبعه بقوله تعالى: ﴿وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ولا ينبغي للقارئ أن ينسى حالة الحيرة والدهشة التي تملكتم قوم محمد ﷺ يوم سمعوا هذه الآيات الكريمة تتداولها ألسنة المؤمنين، فلم تستوعب عقول مفكرى قريش وسواهم من العرب إمكانية حدوث مثل هذا الانقلاب العالمي الشامل، في عالم كان العرب لا وزن لهم فيه ولا شأن يذكر.

فبعثة محمد ﷺ ومراميها حيّرت معاصريه، على شاكلة ماحيّرت بعثة آدم معاصريه من البشر أيضاً، فما كان يخطر للبشر الذين كانوا يقطنون الكهوف، أن ينقلب أمر نظامهم المعاشي من حال إلى حال، وماكانوا يتخيلون أن يأتي من يتدخل في شؤون مسلكهم اليومي ويحد من حرياتهم لصالحهم جميعاً. على هذه الشاكلة تحيّر قوم محمد ﷺ وأذهلهم ماأنبأت عنه هذه الآيات الكريم ونسبوا بذلك إلى شخصه حالة جنون. ذلك لأنهم تصوّروا استحالة قبول الإيرانيين والرومان والهنود والصينيين والأوريين وسواهم من سكان الأرض تعاليم هذا الدين الذي تلقاه محمد بن عبد الله ﷺ.

هذا وإنَّ هذا الإدعاء النظري الذي تنبأت به هذه الآيات من سورة سبأ، توالى الأحداث ليثبتته بصورة عملية. فها أن الإسلام قد رفرت راياته على كثير من بقاع الأرض، وها أن صفة عالمية نظامه التشريعي والروحي قد عمّت الأقطار التي تقبل أهلها هذا الدين القويم، وها أن روح المساواة والإخاء قد برزت في تلك المجتمعات التي تقبل أهلها الإسلام ديناً. وهكذا تحقّق حتى آيامنا

هذه ماكان يستحيل تصوّره في أذهان قريش ومن حولهم من قبائل العرب. فتحقق الأمر النظريّ على الصّعيد التطبيقي، وثبتت بذلك مرحلياً صحّة ماأنبأت عنه الآيات من سورة سبأ المذكورة، هذا وإنّ الزّمان المقبل كفيل بتحقيق مايتعلق بمصير هذا المسيح الدّجال يقيناً، وعش رجياً ترى عجباً.

٥. انقلاب عملي :

ألا لو تقصّى القارئ تاريخ الأمم التي تقبّلت الإسلام ديناً، للاحظ أنّ تعاليم الإسلام النظرية قد أحدثت على صعيد واقع هذه الأمم انقلاباً جذرياً شمل جميع صُعد الحياة لدى أفراد تلك الأمم. فالإسلام قلب فكر وعلم وفلسفة وعواطف وأخلاق وتهذيب واقتصاد وثقافة تلك الأقوام من حال إلى حال، وهل كان لمثل هذ التأثير والانقلاب الجذريّ ليحدث على الصّعيد العمليّ لولا أن كانت تعاليم الإسلام تتّصف بصفة المرونة والشمولية والعالمية، هذه الصفات التي لفتت هذه الآيات من سورة سبأ أذهان القراء والباحثين إليها؟

٦. عملية تلخيص واستنتاجات :

وأخصّ للقارئ أخيراً ماذكرته وأحدثته بعثة محمد خاتم النبيين ﷺ في حياة البشر ولتطوير عقولهم، وما أكملته من تعاليم الرّسالات السماوية التي ابتدأها ربّ العالمين بآدم وتعاونيته، أخصه في الأمور التالية:

أولاً - ألغى الإسلام الرهبانية، وألغى بذلك الوساطة ما بين الإنسان وخالقه.

ثانياً - نزلت تعاليم الإسلام عالمية الصّفة وشاملة وتمتاز بالمرونة والاعتدال، وتصلح لكلّ زمان ومكان.

ثالثاً - وامتازت تعاليم الإسلام بدعم أحكامها بأدلّتها وفلسفتها إلى جانب بيان فوائدها.

رابعاً - وحرّرت تعاليم الإسلام العبادة من ارتباطها بمكان عبادة محدّد، وربطت العبادة بنظام الجماعة.

خامساً - وقد تضمّن القرآن الكريم جميع تعاليم الإسلام. على اعتباره كلام الله المقدس بألفاظه وحركاته وتوقيفاته.

سادساً - وقد زوّد هذا القرآن الكريم المؤمن بالله تعالى بما تحمله ذات الله تعالى من أسماء حسنى، شارحاً إيّاها وموضحاً ما بين أسماء الله من روابط وعلاقات.

سابعاً - ثم إنّ القرآن الكريم هو أوّل كتاب سماويّ تكلم عن حياة مابعد الموت وحياة المعاد يبحث مفصّل وبأسلوب علمي وفلسفي.

ثامناً - وامتاز القرآن الكريم بوضوح اصطلاحاته الشرعية للمواضيع التي تناولها بالبحث، وحفّظ بذلك علومه من الضياع.

تاسعاً - وتناولت تعاليم القرآن الكريم جميع نواحي الحياة المدنية منها والسياسية والاقتصادية والثقافية والروحية.

عاشراً - ثم إنّ تعاليم القرآن الكريم وفّقت ما بين العلم والدين، من حيث تأسيسها أحكامها على أسس علمية.

إحدى عشر - وقد وضعت تعاليم هذا الكتاب العزيز حجر الأساس لتكوين وحدة عالمية تشريعية وروحية لاتفرّق ما بين قومية وقومية، ولا بين لون ولون، ولا بين لسان ولسان.

اثناً عشر - كما قدّمت تعاليم هذا الكتاب العزيز مبادئ لتكوين هيئة أمم تساعد على تثبيت دعائم الأمن والسلام في العالم. وبهذا التلخيص أكون قد وضّحت لأعين القارئ معالم هذا الانقلاب الروحي الكبير الذي تحقّق ببعثه محمد سيد المرسلين ﷺ. اللهم صل عليه وسلم وبارك إنك حميد مجيد.

استنتاجات

والآن وقد فرغنا من استعراض الانقلابات الكبرى الروحية التي حدثت في الجانب الذي يفكر بتفكير روحانيّ على المنهج الذي ابتدأه الله عز وجلّ بآدم عليه السلام، وذلك في مقابل الحركات الانقلابية الكبرى المادية التي سبق لنا أن استعرضناها، تلك التي حدثت في جانب ذرية آدم وقنط من رحمة ربّه عز وجلّ والذي دأب على التفكير بتفكير ماديّ محض وبما يخالف المنهج

الآدمي. فنحن إذ فرغنا من استعراض ذلك كله، نحاول، وبصورة تلقائية استخلاص النتائج من خلال مقارنة بين هذين النوعين الانقلابيين، فأقول:

أولاً - وأول ما يترأى لأعيننا هو أنَّ الانقلابات المادية الكبرى المذكورة، لاتتواصل فيما بينها، ولاتربط، على حين أنَّ الانقلابات الروحية الكبرى مُرابطة ويُكَمِّل بعضها بعضاً الآخر، وانتهت إلى تشكيل هذا البناء الكامل الشامخ المتمثل في الدين الإسلامي الحنيف.

ذلك أننا لاحظنا كيف أنَّ الحركة الآرية في شبه القارة الهندية كانت قد طرحت فلسفةً طبقيةً لاتزال تعاني تلك المنطقة من ويلاتها، ولاحظنا كيف أنَّ الحركة الفارسية كانت قد تميّزت بفلسفتي السياسة والأخلاق. ولاحظنا كيف أنَّ الحركة البابلية كانت قد اهتمت بعلمي الهندسة والفلك. ولاحظنا كيف أنَّ الحركة الرومانية كان محورها فلسفتا القانون وحقوق الإنسان. ولاحظنا كيف أنَّ الحضارة الغربية المعاصرة تميّزت بفلسفة القومية وفلسفة الرفاه غير المحدود.

هذا على حين أننا نلاحظ انعدام ظاهرة التشبث تلك من بين مذكراته من انقلاباتٍ روحيةٍ كبرى، وأنَّ الوحدة في المنطلق والهدف والفلسفة محلّ محلّ ظاهرة التشبث تلك. وتبدو تلك الانقلابات الروحية صادرةً عن جهةٍ واحدةٍ مُخطّطةٍ وقادرةٍ وهادفةٍ. فهل يستسيغ عقل الباحث أن يحدث ذلك كله عبثاً وصُدفةً؟

ثانياً - والأمر الثاني الذي نلاحظه من خلال تاريخ هذه الانقلابات جميعها. هو أنه في الوقت الذي كانت جميع الانقلابات المادية الكبرى قد اختار مؤسّسوها سبيل العنف والإرهاب وسفك الدماء لتحقيق أهدافهم وفلسفاتهم؛ فإننا نلاحظ أنَّ مؤسسي هذه الانقلابات الروحية الكبرى كانوا قد اختاروا دوماً سبيل الدّعوة بالحُجّة والبرهان لتحقيق ماُبعضوا لتحقيقه من أهدافٍ وفلسفةٍ.

فلانذهب بعيداً، فهذه حضارة الغرب قد قامت على الثورات وسفك الدماء في مختلف أرجاء القارة الأوربية - وليست الثورة الفرنسية، ولا الثورة الألمانية، ولا الثورة الإيطالية التي حدثت ومهدت لقيام هذه الحضارة ببعيدة عن أذهان الباحثين؟

ثالثاً - والأمر الثالث الذي نستخلصه من خلال موازنتنا ما بين هذين النوعين من الانقلابات الكبرى التي أتينا على ذكرها سابقاً، هو أنَّ أصحاب

ومؤسسي كل حركة انقلابية من تلك الحركات الانقلابية الكبرى المادية، كانوا يحاولون منافسة وتسفيه ما كان قد تحقق على أيدي أصحاب ومؤسسي ماسبقهم من حركات، مع الإدعاء بفوقية ما أتوا به، أي أن حالهم ذاك بالإمكان أن يوصف بما وصفهم به كلام الله عز وجل من أنه كلما جاءت أمة لعنت أختها.

على حين أن هذه الظاهرة البشعة تغيب حين يستعرض الباحث حال أصحاب ومؤسسي الحركات الروحية الكبرى، ولا تغيب هذه الظاهرة وحسب، بل تحل محلها ظاهرة اعتراف أصحاب ومؤسسي كل حركة روحية حدثت بما أتى به أصحاب ومؤسسوا الحركة الروحية التي تسبقهم زماناً.

ويكفي الباحث أن يراجع آيات سورة الصفات التي تنبه أذهاننا إلى هذه الظاهرة، ففي سورة الصفات هذه تتوالى قصص الذين أحدثوا انقلابات روحية في أزمنتهم، ويعترف بهم هذا الكتاب القرآن العظيم، ويورد على مسامعنا أقوال الله الذي أرسل أولئك الرسل جميعهم، أقواله جل شأنه: ﴿وتركنا عليه في الآخرين سلاماً على نوح في العالمين﴾ ﴿وتركنا عليه في الآخرين سلاماً على إبراهيم﴾ ﴿وتركنا عليه في الآخرين سلاماً على موسى وهارون﴾ ﴿وتركنا عليه في الآخرين سلاماً على إلياسين﴾. ويقول تعالى أخيراً ﴿وسلاماً على المرسلين، والحمد لله رب العالمين﴾. وبمعنى أن ظاهرة الترابط هذه وظاهرة اعتراف جميع أصحاب ومؤسسوا هذه الانقلابات الكبرى الروحية بعضهم ببعضهم الآخر، يُستدل منه على تدخل تجليات ربوبية الله الأحد طوال تاريخ البشر الطويل على تدخلها في شؤون هذا البشر المخلوق، وعلى تدخلها لتطوير عقله ووضع أقدامه على صراط الله المستقيم، ليتعرف إلى خالقه وليطلب وده ومحبتة وقربه ورضوانه، ويثبت بالتالي أن الحمد كله يرجع في ذلك كله إلى الله رب العالمين، فهذه هي دلالة هاتين الفقرتين الأخيرتين من سورة الصفات ﴿وسلاماً على المرسلين، والحمد لله رب العالمين﴾.

إن ما استخلصناه من خلال استعراضنا لهذين النوعين من الانقلابات الكبرى التي حدثت في تاريخ البشر، منذ ما يقارب الثمانية آلاف عام وحتى يومنا هذا، أقول إن هذه الاستنتاجات التي أضحت بين أيدي قارئ هذا الكتاب، وهذا المبحث الثالث منه خاصة، إن دلت هذه الأمور على شيء، فهي تؤيد ما ذهبت إليه في هذا المبحث الثالث من أن البشر مخلوق منذ ملايين السنوات،

وأنّ خالق البشر، ظلّ يكلمهم من وراء حجاب في حالات نومهم، وقد هداهم إلى استعمال النار ودفن موتاهم وأسلوب ونوعية غذائهم، إلى أن بعث الله تعالى لهؤلاء البشر آدم قبل ماينوف عن عشرة آلاف عام فأخرج هؤلاء البشر من كهوفهم وأسس معهم أول تعاونية ومُشاعة في الأرض ووفق مستواهم العقلي، وراح يبعث الله برسله ترى يطور عقول هؤلاء البشر ويعرفهم على وجوده ويطلعهم على المقصد من حياتهم إلى أن اكتمل بناء هذا الدّين على أيدي آخر من أرسله الله تعالى سيّداً وخاتماً، ومعه هذا القرآن وبتعاليم تساعد البشر على استمرار التطور في كلّ زمانٍ ومكان.



الفصل الخامس الله جلّ جلاله يُحدثُ في عصرنا انقلاباً سابعاً روحياً كبيراً

إنّ القارئ الذي تابع كل مانظّرت له فيما يتعلّق بالانقلابات الماديّة والروحيّة الكبرى التي حدثت منذ بعثة آدم، والتي انتهت ببعثة محمد خاتم النبيين ﷺ، لابد أن يكون قد ابتهج لتلك المعلومات، لكنّ بهجته تلك تأخذ في التراجع، وسروره ذاك يأخذ في الذبول ما إن تُعاوِذه الصّورة القائمة التي يعرفها عن حال المسلمين المعاصرين، ويتوق إلى معرفة ماتضمّنه كتاب الله العزيز من علاج لهذا الواقع المؤلم، وليمنح ذلك هذا القارئ بصيص نور يبشّره بمستقبل الإسلام خاصة والعالم بصورة عامة، ويتوق في نفسه لرؤية معالم انقلابٍ روحي سابع يغيّر بخرى الأحداث ويُجلّي بالتالي وجه تدخّل صفة ربوبية الله عزوجلّ.

فالسؤال الهام هنا: هل كان أنبأ القرآن الكريم عمّا آل إليه حال المسلمين من تخلف وانحطاط، وهل أنّ آي الذكر الحكيم قد تضمّنت معالم طريق الخلاص وبشّرت بانقلاب سابع روحيّ كبير؟

وأجيب على هذا السؤال مطمئناً هذا القارئ، ولن أتجاوز في جوابي دلالات آي الذكر الحكيم. لكنني أجد ضرورياً تذكير هذا القارئ بقول ربّنا عزوجلّ: ﴿وَإِنَّهُ لَقُرْآنُ الْكَرِيمِ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾. ذلك أنّ الله عزوجلّ ربط بيان ماتضمّنته آيات القرآن المجيد من علوم ونبوءات غيبية بالمستقبل، وأنّه لأجلّيتها لوقتها إلّا هو حل شأنه وبأساليب تجلّياته الربّانية.

وبهذه المناسبة أرى من المناسب أن أطمئن هذا القارئ أيضاً، أنّ ما سأطلعه عليه من حقائق قرآنية ومعلومات خبّأها ربّنا عزوجلّ في ثنايا آيات كتابه العزيز، تلك الحقائق والمعلومات المكنونة وبما يتعلّق بهذا السؤال العريض

الذي طرحناه، قد كشفها ربنا عزوجلّ على هذا العبد الضعيف العاجز، بفضل منه ومِنَّة، حينما جلست أتناول هذا العنوان بالإجابة عليه، وبصورة موضوعية مُنسقة والحمد لله رب العالمين ذلك أنّ جميع من سبقني من الكتاب الذين تناولوا السؤال المذكور، كانت الأحاديث الشريفة هي مرجعهم في كتاباتهم، على حين أنّ مرجعي الأساسي هو آي هذا القرآن الحكيم.

أولاً. الإجابة القرآنية موزعة على حلقات :

فكلُّ منّا يعلم أنّ لكلّ كاتب أسلوبه المميّز في عرض ما يريد الكتابة عنه، وهل يستطيع عقلاً ألا يكون لله عزوجلّ أسلوبه الخاص المميّز فيما أنزله في كتابه العزيز الذي تحدّى به الإنس والجان؟ أجل لقد كشف الله تعالى عليّ أنّه قد أجاب على السؤال الذي طرحناه، بأسلوبٍ رائعٍ مميّزٍ ومعجز. وبدء من سورة هود خاصة، لذلك استعرض للقارئ معالم الحلقة الأولى للإجابة القرآنية المذكورة، هذه الحلقة الأولى التي تضمّنتها الآيات الأوائل من سورة هود التي افتتحت بالأحرف المقطّعة (الر) والمختزلة من جملة (أنا الله أرى) والرؤية هنا مُستقبلية كما سنرى، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ عندما تلقى آيات سورة هود، ورد عنه قوله عليه الصلاة والسلام: (شيبني سورة هود) وهذه محاوره تستعمل عند استعظام أمرٍ من الأمور.

١. حلقة سورة هود :

أفلم يلاحظ القارئ كيف أنّ الله تعالى تحدّى الذين كفروا أن يأتوا بعشر سور من مثل سور القرآن وخاصة من مثل سورة هود، وذلك في الآية الثالثة عشرة حيث قال: ﴿إِنَّمَا يَقُولُونَ افْعَازْ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفَعِّلَاتٍ، وَادْعُوا مِنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وأردف تعالى بعد تحدّيه المذكور يقول: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟﴾. فحكمة ومناسبة هذا التحدي هنا، لاتنبع علاقته بالإعجاز البلاغي الذي تتصفّ به آيات سورة هود وحسب، بل وتنبع من عظمة ماتضمّنته هذه السورة من أنباء غيبية يثبت منها أنّ الله يرى ماستتطور

إليه مُجريات الأحداث في المستقبل البعيد، وهو جلّ شأنه راح يخاطب الناس الذين سيتواجدون يوم تتحقّق تلك النبوءات، خاطبهم في هذا المقام خاصة وقال: ﴿فهل أنتم مسلمون؟﴾. والذي يؤكّد ذلك، أن راح جلّ شأنه يقول بعد ذلك: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار. وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾. فهذا الكلام متعلّق بالناس المكذّبين يوم تتحقّق نبوءات سورة هود خاصّة منها مايتعلّق بالذين يريدون زينة الحياة الدنيا، فباطل ما يصنعون وليس لهم في الآخرة أي في الزمن الذي اصطلح القرآن له لفظ الآخرة في مقامات عديدة، ليس لهم يومئذٍ إلا النار التي لا تبقي ولا تذرّ بما يصنعون.

وقد راح جلّ شأنه يحدّد المستقبل المشار إليه، ويعطي القارئ إحدى علاماته الكبرى، وبأسلوب بلاغيّ معجز لا يدرك مضمونه إلا من شاء الله جلّ شأنه أن يكشف له عن حقيقته المكنونة، بدليل أنّ أحداً من المفسرين القدماء، لم يستطع ذهنه الإحاطة بهذه الحقيقة إلى أن تحققت النبوءة والعلامة الكبرى المقصودة هذه والتي سبق أن قلت إنّ الله تعالى قد كشفها على شخصي الضعيف بصورة موضوعية.

هذه العلامة الكبرى، نُبّه إليها ربّنا عز وجلّ من خلال دليل قاطع الدلالة أتى تعالى به بعد آية التحدي المذكورة وتوابعها، ودليله تعالى مُكوّن من عناصر ثلاث ماإن اجتمعت في شخص أيّ مدّع للنّبوة، يستحيل إلا أن تعدّ دليلاً قاطعاً على صدق نبوّته. وهذه العناصر الثلاث منها مايتعلّق بالماضي ومنها مايتعلّق بحاضر زمن المدّعي، ومنها مايتعلّق بالمستقبل. وقد جمع الله جلّ شأنه هذه العناصر الثلاث ضمن قوله تعالى بعد الآيات التي ذكرناها وقال: ﴿أفمن كان على بينة من ربّه، ويتلوه شاهداً منه، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده، فلاتك في مِرية منه، إنّ الحق من ربك، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾. وهو جلّ شأنه قدّم دليله القاطع الدلالة هذا بأسلوب الاستفهام ﴿أفمن كان...﴾، وحذف جواب هذا الاستفهام لضرورة بلاغية، وتقديره: كمن هو كاذب لا تتوفّر فيه هذه العناصر الثلاث المذكورة والمتعلقة بأزمة ثلاثة؟

فالعنصر الأول من هذا الدليل استوفاه قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾. والمتعلّق بزمن نزول القرآن الكريم. والعنصر الثاني من هذا الدليل استوفاه قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ والمتعلّق بالزّمان المستقبل. والعنصر الثالث من هذا الدليل استوفاه قوله تعالى ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ والمتعلّق بالزمن الماضي، أي كأنّ الله عزّ وجلّ راح يقول بالفاظٍ أخرى، ومخاطباً المقصودين بقوله من قبل ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟﴾، أولئك الذين سيأتون في المستقبل، الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها، الذين ليس لهم في الزمن «الآخرة» إلاّ النار - إشارة إلى الذين قالوا اتّخذوا الله ولداً، ومن لفّ لفهم، أولئك الذين كان يراهم الله تعالى من خلال علمه الغيبي الدالّ عليه أحرف المقطعات ﴿الر﴾. أي أنّه تعالى يقدّم هؤلاء البّين سيزعمون أنّ محمداً ﷺ هو الذي افترى هذا القرآن العظيم واختلقه من عند نفسه، يقدّم لهم هذا الدليل القاطع والمؤلف من هذه العناصر الثلاث والتي يثبت من خلالها صدق رسوله الأمين ويقول: يامن اتّخذتم الله ولداً أنتم ومن وراءكم من اليهود هاأنّ كتاب موسى الذي تؤمنون به يحمل من النبوءات الدالة على صدق هذا الرسول الأمين مايشكّل لكم إماماً، يقودكم ويرشدكم إلى صدق رسولنا هذا، وبذلك يشكّل كتاب موسى ودلالات نبوءاته رحمةً لهدايتكم أيضاً إن أنتم اتّخذتم تلك النبوءات إماماً لتبين صدق هذا الرسول الأمين. فهذا هو مايتعلّق بعنصر الزّمن الماضي. ويخاطبهم جل شأنه بشأن العنصر الثاني المتعلّق بزمن بعثة محمد رسول الله ﷺ، فيذكّرهم أنّه كان على بيّنة من ربّه، فهذا ماأثبتته أحداث تلك الفترة من الزمان. والبيّنة هي الحجّة والبرهان، فقد أثبتت وقائع حياة رسولنا الكريم أنّه مأتنبأ بشيء إلاّ وتحققت نبوءته وعصمه الله تعالى من كيد الكائدين من مكذّبي زمانه ونصره على أعدائه نصراً مؤزراً. كما يخاطب الله تعالى الذين اتّخذوا الله ولداً وهيمنوا على العالم زمن تخلف المسلمين والمخطاطهم، ومن منطلق (الر) أي رؤيته المستقبلية ويقول ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي سأبعث في زمن عروجكم ﴿شاهداً مِنْهُ﴾ يأتي من بعد هذا الرسول الكريم، يشهد على صدق رسولنا وصدق كتابنا، ويكون هذا الشاهد (منه) أي من أمة محمد ﷺ، وليس من قوم آخر سواها، فهذا هو مايتعلّق بعنصر الزمن المستقبل.

وليلاحظ القارئ كيف أن الله عز وجل ما إن انتهى من تقديم هذا الدليل القاطع المؤلف من هذه العناصر الثلاث، إلا وراح يقول جازماً ﴿أولئك يؤمنون به﴾ أي أن الباحثين عن الحقيقة يقنعهم هذا الدليل القاطع فيؤمنون بمحمد ودينه، وأضاف يقول : ﴿ومن يكفر به من الأحزاب، فالنار موعده﴾ إشارة إلى قوله تعالى قبل ذلك: ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾.

وليلاحظ القارئ أن الله جلّ شأنه ما إن انتهى من تقديم هذا الدليل، وهذا الإنذار بالنار، إلا وعاد يوجّه خطابه إلى محمد رسوله الأمين، مُطمئناً إياه من أنه سيبعث بهذا الشاهد من أمته يوم طغيان هؤلاء وهيمتهم على العالم وأضاف ناهياً إياه ومطمئناً: ﴿فلاتك في مريّة منه، إنه الحق من ربك، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾.

فلماذا هذا النهي وهذا التطمين في هذا الموضع بالذات وماهي مناسبتة؟ إلا أن ينحصر ذلك في العنصر المستقبليّ المعبر عنه بقوله تعالى: ﴿ويتلوه شاهداً منه﴾؟ فالله جلّ شأنه إذ قدّم دليلاً قاطعاً على صدق رسوله وصدق كتابه هؤلاء الذين تحدّاهم من قبل أن يأتوا بعشر سور من مثل سورة هود، يوم تُكتب لهم الميمنة على العالم، ويتهمون محمداً أنه كان قد افترى هذا القرآن، فالله جلّ شأنه نفسه راح ينبئ أن هؤلاء المكذبين سيعجزون عن قبول هذا التحديّ، فيستغلّون هيمتهم وسلطانهم ليوجهوا إلى رسوله وكتابه العزيز مثل هذا الإتهام فيقولون "افترأه". فيبعث الله هذا الشاهد من أمته، ليشهد على صدق رسوله وصدق كتابه العزيز ويؤيده وينصره ليكمل ومن خلال بعثه هذه العناصر الثلاث التي تؤلّف هذا الدليل القاطع على صحّة الإسلام وصدقه. فهذا هو سرّ هذا النهي والطمأننة المعبر عنها في هذا المقام : ﴿فلاتك في مريّة منه، إنه الحق من ربك﴾، وقد أنهى الله تعالى قوله هذا بجملة ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾. وهي جملة مُفعمة ألفاظها أيضاً بالحقائق والدلالات.

فحرف

(لكنّ) على حسب ما أورده (محيط المحيط) المشهور أنه للإستدراك، ينسب لما بعده حكماً مخالفاً لما قبله أي لا بدّ أن يتقدّم (لكنّ) كلام مناقض لما بعدها. وها أنه تعالى أثبت صدق الإسلام وأتى بحرف لكنّ للاستدراك فأتى

بكلامٍ مناقض وهو أنَّ أكثر الناس لا يؤمنون بهذا التحدي وهذا الدليل القاطع الذي قدّمناه.

وهو تعالى إذ استعمل صيغة (أكثر الناس) فإشارةً خفيةً إلى أنَّ هؤلاء المكذّبين الذين سيُهيّمون على العالم سيزعمون أنهم المتمدّنون وحدهم، وكلّ ماعداهم من البشر لا يستحق أن نسميه إنساناً، هذا المعنى دلّ عليه تعريف كلمة الناس بالألف واللام. وليصبح معناه أنَّ أكثرية هؤلاء المكذّبين من أدعاء المدّنية والتحضرّ لن يؤمنوا بهذا الدين، ولن يكونوا بالتالي مسلمين. وبهذا الأسلوب البلاغي المعجز ربط الله جل شأنه بين مضمون هذا الدليل، وبين ماأنهى به تحدّيه بعشر سور من قبل وقال: فهل أنتم مسلمون؟

ألا إنّ هذه الحقائق التي تضمنتها هذه الآيات من سورة هود خاصة، ألا إن هذه الحقائق الغيبية تجلّي إعجاز آيات سورة هود صياغةً ومضموناً. وهذه الحقائق الغيبية هي التي دفعت محمداً رسول الله ﷺ ليقول مقولته الشهيرة (شيتني سورة هود)، وبهذا الفهم الذي كشفه الله عزوجلّ على شخصي الضعيف يعود الترابط والتسلسل الموضوعي لهذه الآيات الكريمة واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار.

والذي يهّمنا من جميع ماذكرناه هو أنَّ الله عزوجلّ أتى في سورة هود بأوّل حلقة من حلقات إجابته على السؤال الهام المتعلّق بحال المسلمين المعاصرين والعالم من حولنا، من أنَّ الانقلاب الروحي السّابع الكبير مرتبطٌ ببعثة هذا «الشّاهد» الذي تكلمت عنه سورة هود والذي سيكون من أمة محمد خاتم النبيين ﷺ. وليثبت الله تعالى ببعثه هذا الشّاهد وبما يكلفه به الله تعالى من مهامٍ صديق قول ربّنا عزوجلّ بحق محمّد وبحق رسالته: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. هذا وإنّ هذا الشاهد هو نفس الشخص الذي أوردت جميع كتب الحديث أنباءً عن ظهوره في آخر الزمان.

ألا لقد اختلف المفسّرون القدماء في أمر هذا الشاهد اختلافاً كبيراً. ذلك لأنّ حكمة الله تعالى اقتضت أن تظلّ حقيقته خافيةً إلى حين بعثته وظهوره. خصوصاً وأنهم لم يلتزموا بأصول تفسير القرآن الكريم. ولا يظنّ ظاناً أنَّ الله تعالى لم يُطّلع محمداً ﷺ على شخصية هذا الشاهد بل أطلعه يقيناً خصوصاً وأننا لاحظنا أنّه قد حدّره ربّه وطمأنه عنه أيضاً في هذه الآيات من سورة هود، ولهذا

السَّبب نفسه يُلاحظ دارس الأحاديث، أنَّ علامات هذا الشاهد وعلامات متغيّرات زمانه تملأ كتب الأحاديث.

وهكذا أكون قد وضعت بين أيدي القارئ مفتاحَ خلاصِ أمّنا وخلاصِ العالم من حولنا من خلال ما استنبطته من هذه الآيات الأوائل من سورة هود التي أنبأت بصورة غير مباشرة عن المستقبل التي سيحتاج المسلمون والعالم فيه إلى ظهور شاهدٍ من محمد ﷺ نفسه يشهد على صدق نبوّته وعلى صدق ما جاء به من كتاب .

وسيتساءل هذا القارئ بصورة تلقائية بعد قراءة ما ذكرته له، فيعجب ويتساءل في نفسه: وهل أنَّ بعثة هذا الشاهد لا تصادم ومفهوم خاتم النبيّين؟ وأجيبه وأقول: لنمعن نظرنا في كلمة «شاهد»، فدلالاتها ترشد إلى الإجابة الصحيحة، ففي محيط المحيط تقول: أشْهَدُ أي أعلم وأبَيّن، وشاهدَه عاينه، وشهد الجمعة: أدركها، والشاهد في المحكمة هو المُخبر بِحقِّ للغير عن آخر عن يقين في مجلس الحكم. والمؤدّن يؤدّن مقدّمًا نفسَه شاهدًا على وجود الله وعلى وحدانيّته وعلى صدق رسوله الكريم. وهذه الدلالات جميعها تزوّدنا بحقائق: الأول منها أن الشاهد لا يُطلب أصلاً إلا في حالة الحاجة إليه. والثاني منها هو ضرورة توفّر عنصرين لدى الشاهد: العلم والقدرة على توضيحه. ثالثاً: ومن الضروري جداً أن يكون هذا الشاهد مُعائناً للحقيقة التي جاء يشهد على صحتها. رابعاً - وأن تكون شهادته تتضمن إخبار حقّ وبقيني في نظر المحكمة. ألا إنّ هذه الأمور الأربعة تعني بالفاظ أخرى أنّه سيأتي زمان على أمة محمد خاتم النبيّين لا يبقى فيه من الإسلام إلا اسمه، ومن القرآن إلا رسمه، مساجدهم عامرة ولكنّها خرابٌ من الهدى، وعلماءهم ليسوا على مستوى علماء. وهذا زمان نعاصره، لذلك يسمع المصلّون في المساجد مناشدة خطباء المساجد لهؤلاء المصلّين أن يرجعوا إلى دينهم، وعاد دين الإسلام بالتالي بحاجة إلى هذا الشاهد الذي أشارت إلى بعثته سورة هود، ثم إنّ هذا الشاهد سيكون (منه) (شاهد منه) أي من أمة محمد خاتم النبيّين، ومن فيض نبوّته، وليس هو بنبي مستقل عن نبوّته، وتأتي أهميّة بعثه هذا الشاهد أنْ ذُكِرَ والإنباء عنه اقترن بتحدّي الله تعالى مكذّبي الإسلام أن يأتوا بعشر سور من مثل سورة هود، فهذا التحدي مهّد الله تعالى به للإعلان عن بعثة هذا الشاهد في المستقبل. وقلت: في

المستقبل، بسبب أن الله تعالى افتتح سورة هود بأحرف المقطعات (آلر). بمعنى أنني أنا الله أرى غيب المستقبل ولا يخفي منه علي شيء من الأشياء.

ألا فليتنبه هذا القارئ إلى أن موضوع هذا الشاهد، هو مقدمة لموضوع واسع يشمل أحداث المتغيرات التي نواجهها في عصرنا بالذات، هذه الأيام التي تعطي المراقب لمجرياتنا صورة قائمة عن مستقبل الاسلام والعالم أيضاً، هذا الصورة التي دعيتي لأحبر هذه الكلمات، ولأرسم لقارئ كتابي هذا طريق الخلاص الذي نبهنا إليه عز وجل في كتابه العزيز.

ومن المعلوم أن الكاتب بعد أن يأتي بمقدمة كتابه يعتمد بعد ذلك إلى تفصيل ماتضمنته مقدمته، وهذا الأسلوب نفسه اختار سلوكه رب العالمين الذي أنزل هذا القرآن الفرقان، فهو جل شأنه أتى في سورة هود بما أتى به، وأنبا بصورة مُحَمَّلة أن طريق خلاص المسلمين والعالم سيتحقق على أيدي (شاهد منه) أي على أيدي شاهد يعثه الله تعالى من فيض محمد ﷺ نفسه، وراح جل شأنه يفصل ماتضمنته مقدمة هذا الموضوع في سورة الكهف. موضحاً في آيات مُقَدِّمتها أنه تعالى كان قد بعث محمداً ﷺ مُحَمَّلاً بإنذارين وليس بإنذار واحد، وبتبشيرين وليس بتبشير واحد، فهو كان مُكَلِّفاً بإنذار وتبشير معاصريه، كما كان مُكَلِّفاً لإنذار وتبشير ﴿الَّذِي قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً﴾ الَّذِينَ سُبُعَاوُونَ تَخَلَّفَ أمة محمد واطحاطها في المستقبل الذي أشارت إليه الأحرف (آلر) في سورة هود.

٢. حلقة سورة الكهف :

فقد هال محمداً ﷺ ماسيول إليه حال أمته وقال (شيتني سورة هود) لذلك خاطبه تعالى هناك مُحَذِّراً وَمُطْمَئِناً: ﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيةٍ مِنْهُ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وهال محمداً أن يؤول أكثر الذين اتَّخَذُوا لله ولداً إلى النار والهلاك، فلا يؤمن أكثرهم بالإسلام على أيدي هذا الشاهد الذي سيبعثه الله تعالى زمن هيمنة هؤلاء على العالم. لذلك يُلاحِظ القارئ كيف

أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَاحِ يُوَاسِي رَسُولَهُ الْكَرِيمَ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَيَقُولُ: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ
نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾. فَأَيَّ حَدِيثٍ هَذَا الْمَشَارِ
إِلَيْهِ هُنَا، إِلَّا مَا يُحَدِّثُ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ الْكَرِيمَ بِمُخْصَصٍ مَاسِي فَصْلَهُ ضَمِنَ
سُورَةَ الْكَهْفِ؟

وَكُلٌّ مِنْ طَالَعِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْكَهْفِ الَّذِي أَضْحَى مُتَدَاوِلًا بِهِ بَيْنَ أَيْدِي
النَّاسِ سَيْلًا حَظَّ كَيْفَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اسْتَعْرَضَ لِلْقَارِئِ الْأَدْوَارَ التَّارِيخِيَّةَ الثَّلَاثَةَ
الَّتِي مَرَّ بِهَا الَّذِينَ اتَّخَذُوا اللَّهَ وَلَدًا، وَالَّتِي انْتَهَتْ بِدَوْرِهِمُ الْمَعَاصِرَ الَّذِي «يَصْنَعُونَ»
فِيهِ عَجَائِبَ سَلَبَتْ عَقُولَ النَّاسِ وَأَفْطَدَتْهُمْ. مُتَنَاسِلِينَ الْمَقْصِدَ مِنْ حَيَاتِهِمْ وَالْمَقْصِدَ
مِنْ جَعَلِ مَاعَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَلْبُوا اللَّهَ تَعَالَى بِهَا أَيَّ النَّاسِ يُحَسِّنُ عَمَلًا. فَقَدْ
صَنَعَ هَؤُلَاءِ الْعَجَائِبَ، وَتَنَاسَوْا الْمَقْصِدَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خُلِقَتْ زِينَةُ الْأَرْضِ
وَالْمَقْصِدَ مِنْ حَيَاتِهِمْ، كَمَا تَنَاسَوْا هَذَا التَّحْدِيَّ الْإِلَهِيَّ وَهُوَ أَنْ يَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ
مِنْ مِثْلِ سُورَةِ هُودٍ وَمِثْلِهِ مِنْ عِلْمٍ وَأَنْبَاءٍ، خُصُوصًا إِنْبَاءَهَا عَنْ بَعْثَةِ هَذَا
الشَّاهِدِ الَّذِي سَتَسْفِرُ عَنْهُ فَيُوضُّ مُحَمَّدٌ ﷺ الرُّوحِيَّةَ. وَثَابَرُوا عَلَى تَوْجِيهِ إِتِهَامِهِمْ
مُحَمَّدًا أَنَّهُ افْتَرَى هَذَا الْكِتَابَ الْعَزِيزَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. لِذَلِكَ أَضْحَحُوا فِي نَظَرِ
اللَّهِ تَعَالَى لَمْ يُحَسِّنُوا صُنْعًا. فَأَنْذَرَهُمْ جَلَّ شَأْنُهُ فِي مَقْدَمَةِ سُورَةِ الْكَهْفِ وَقَالَ:
﴿وَأَنَا لَجَاعِلُونَ مَاعَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾. أَيَّ قَاعًا صَفِيفًا لَا تَرَى فِيهِ عِوَجًا.

وَأِنِّي أَنُشِدُ هَذَا السَّائِلَ، وَكُلَّ قَارِئٍ، أَنْ يُطَالَعَ مَا أَتَتْ بِهِ أَضْلالُ دَلَالَاتِ
سُورَةِ الْكَهْفِ هَذِهِ مِنْ مَعْلُومَاتٍ وَلَيْسَتْ قَلْبُهُ حَوْلَ مَدَى مَصْدَاقِيَّتِهَا —
فَسَيْلًا حَظَّ هَذَا الْقَارِئُ يَقِينًا أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ لَمْ تَنْبِئْ عَنْ حَالِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا اللَّهَ
وَلَدًا الْمَعَاصِرَ، بَلْ وَأَنْبَأَتْ عَنْ حَالِ تَخَلُّفِ الْمُسْلِمِينَ الْمَعَاصِرَ أَيْضًا، كَمَا أَنْبَأَتْ أَنَّ
طَرِيقَ الْخِلَاصِ مُنْعَقِدٌ عَلَى أَيْدِي «الشَّاهِدِ» الْمُنْبَأِ عَنْهُ فِي سُورَةِ هُودٍ. هَذَا الشَّاهِدُ
الَّذِي وَصَفَ هُنَا فِي سُورَةِ الْكَهْفِ بِاسْمِ «ذُو الْقَرْنَيْنِ». فَالشَّاهِدُ الَّذِي يَعْنِي
لِغَوِيًّا الْمَهْدِيَّ وَالْحَكَمَ الْعَدْلَ. هُوَ نَفْسُهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ. بِمَعْنَى أَنَّهُ سَيَصْبِحُ مُجَدِّدًا
لِقَرْنَيْنِ زَمَنِيَّيْنِ مِنْ تَارِيخِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَيْسَ كِبَقِيَّةِ الْمُجَدِّدِينَ الَّذِينَ سَبَقُوهُ. هَذَا
وَإِنَّ الْآيَاتِ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ قَدْ حَدَّدَتْ مَهْمَةَ هَذَا الشَّاهِدِ ذُو الْقَرْنَيْنِ، وَهُوَ أَنْ
يُؤَسِّسَ جَمَاعَةً مِنْ طَالِبِي الْحَقِيقَةِ، الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْخِلَاصَ مِنْ شُرُورِ مَا صَنَعَهُ الَّذِينَ
اتَّخَذُوا اللَّهَ وَلَدًا، جَمَاعَةً مُؤْمِنِينَ يَرْجُونَ التَّعَرُّفَ إِلَى رَبِّهِمْ لِيَفُوزُوا بِمَحَبَّتِهِ وَقُرْبِهِ
وَرِضْوَانِهِ. وَيَقِيمُ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِذَلِكَ سَدًّا بَيْنَ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الْمُفْسِدِينَ

الذين استعمل الله تعالى لهم اسم يأجوج ومأجوج، هذا الاسم المشتق من أجج النار أشعلها، وأجج الفتنة أثارها، فهذه هي صفات المعاصرين من الذين اتخذوا لله ولداً. يقيم ذو القرنين هذا السد، ويُقيم بذلك جدار الإسلام الذي يريد أن ينقض.

وعلى هذه الصورة يكون ربنا عز وجل الذي أتى في سورة هود بمقدمة موضوع جوابنا على السؤال المطروح في مستهل هذا البحث، تلك المقدمة التي تلخصت الجواب من خلال إنبائها عن (شاهد منه). يكون تعالى قد فصل وشرح لنا في سورة الكهف كل ما يحدد شخصية هذا الشاهد وزمن بعثته وماسيتحقق على يديه وسمائه «ذو القرنين» أيضاً. ويكون جل شأنه قد وضع بذلك بين أيدي القارئ السائل مفتاح دراية جميع ما وصله من أحاديث تتعلق بهذا الشاهد ذو القرنين. انطلاقاً من أن القرآن الكريم هو المرجع الأساس لكل مسلم، لذلك كان من واجب هذا المسلم معرفة الأصل الذي استندت إليه أحاديث رسول الله ﷺ ضمن كتاب الله العزيز.

وأقول، والأسف يتملكني، هو أن علماء ومفسري أمتنا لم ينتهجوا المنهج الذي بينته، فذهبوا من خلال ما وصلهم من أحاديث مذاهب شتى، واتخذوا هذا القرآن مهجوراً في أمر هذا الشخص الذي أنبأت عنه أحاديث رسول الله ﷺ. فظنوا أنه المسيح الناصري، قد أبعده الله تعالى إلى السماء، وأنه سينزل هو نفسه زمن تخلف المسلمين وهيمنة الأمم عليهم، ليقوم بما أنبأت عنه الأحاديث من مهام.

٣. حلقة سورة الزخرف:

ولما كان فهم المسلمين المشار إليه ساذجاً ويخالف صريح القرآن الكريم، وكان من الضروري أن يبيحه الله تعالى ضمن جوابه على السؤال المطروح، فلم يأت جل شأنه على بحث هذا الأمر في سورة الكهف بل راح جل شأنه في سورة الزخرف يوضح ما التبس أمره على علماء المسلمين ومفسريهم، وثبّه أذهاننا فيها إلى أن هذا الشاهد ذو القرنين سيكون مثيلاً ونظيراً للمسيح بن مريم في مهمته وبُعده الزماني عن زمن موسى عليه السلام، ولن يكون هذا الشاهد ذو القرنين هو المسيح بن مريم نفسه.

هذا الأمر أورده الله جلّ شأنه في الآية (٥٧) من سورة الزخرف التي قال تعالى فيها: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾. فالمثل في اللغة يستعمل للشبه والنظير ويجمع على أمثال (حيط المحيط) أي أنّ ماتضمنته سورة الزخرف من معلومات تشكل حلقة ثالثة من موضوع ماأجاب به ربنا جلّ شأنه على السؤال المطروح في بداية بحثنا هذا، بحث طريق الخلاص من حال تخلف المسلمين المعاصر وهيمنة الذين اتخذوا الله ولداً عليهم وعلى بقية أمم العالم .

وبما أنني تعرّضت لبيان هذه الحلقة الثالثة في (فن الاختزال)، لذلك اقتبس للقارئ ممّا كتبت هناك بعض الشذرات لتعطي فكرة واضحة عن ذلك وعن علاقته بالتسلسل الموضوعي لآيات سورة الزخرف: قلت على الصفحات (١٧١ - ١٧٤): (يلاحظ القارئ أنه تعالى أوصى رسوله الكريم في الآية (٤٣) بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ، إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾. فلماذا أتى بسوف في هذا المقام؟ وهي تستعمل للمستقبل البعيد، ولم يقل ستسألون؟ حكمة ذلك أنه تعالى يحمل الأمة الإسلامية مسؤولية حمل دعوة الإسلام إلى العالم قاطبة، فإن قصّرت هذه الأمة في هذه المسؤولية، وقعد أفرادها عن الدعوة إلى الإسلام والتبشير به، لا يكونون قد أدّوا هذه المسؤولية، فيعتبرون في نظر ربهم مقصّرين ومُدّانين، لأن الهدف من دين الإسلام قد حدّده قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. ففي هذا التحذير ﴿وسوف تسألون﴾ نبوءة غيبية عن مستقبل الأمة الإسلامية من أنها ستشابه في المستقبل، من سبقها من أمم الأرض، الذين عادوا يقولون مالا يفعلون. فلما انتهى الله عزوجل بعد عدّة آيات ذكّر فيها الأمة الإسلامية بزمن موسى وفرعون، انتقل ليقول في الآية (٥٧): ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا، إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾. فالمثل في اللغة يستعمل للشبه والنظير كما يستعمل للحجة ويصدّون أي يضجّون ويميلون عن هذا النظير ويعرضون.. فالله تعالى يُنذر المسلمين في هذه الآية الكريمة أنّهم إذا تقاعسوا في المستقبل عن التبشير بالإسلام ونشره على العالم، ينذرهم بيعث نظير للمسيح بن مريم وشبيه لإحياء شريعة الإسلام على شاكلة مابعث به ابن مريم لإحياء شريعة موسى من قبل، فإن علّمنا أنّ بعثة ابن مريم قد تمت بعد موسى بثلاثة عشر قرناً من الزمان، فهي نفس المدّة التي انقضت على

زمن بعثة محمد ﷺ أي أن الله تعالى ينبيء هنا عن بعثة نظير وشبيه لابن مريم وذلك بعد ثلاثة عشر قرناً من بعثة محمد رسول الله ﷺ، وتكون مهمته على شاكلة مهمة ابن مريم وكان القصد منها محاولة إحياء شريعة محمد ﷺ. وهي المدّة النبأ عنها في سورة السجدة أيضاً.. فالآية المذكورة تنبيء إذن عمّن تحدثت عنه أحاديث رسول الله ﷺ الوارد فيها نزول المسيح في آخر الزمان والوارد في الحديث (وإمامكم منكم) بمعنى أن الذي سينزل، والنزول هنا للتشريف كما تقول نزل رئيس الدولة في دار الضيافة، فالذي سينزل هو مثيل المسيح ابن مريم ونظيره، وهو أحد أفراد أمة محمد رسول الله ﷺ.. فإن تذكرنا تنديد الله تعالى بالمنافقين في سورة الأحزاب من قبل، فقد اقتضى التسلسل الموضوعي أن يعث الله عز وجل مثيل ابن مريم لإصلاح حال المسلمين، الذين تفشّى النفاق بينهم، ولقيادة مسيرة الدعوة إلى الإسلام من جديد.. وليلاحظ هذا القارئ كيف أن الله تعالى قال بعد ذلك وفي الآية (٦١) ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا، وَاتَّبِعُون هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾. فضمير (وإنه) يعود على القرآن الذي يُعلمنا في هذه الآيات عن ساعة زوال الذين اتخذوا لله ولداً، والذين هيمنوا على العالم إثر تخلف المسلمين وانحطاطهم، وهامو ذا جلّ شأنه يتوجّه بعد ذلك للكلام عن هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً ويقول: ﴿أَمْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرَمُونَ. أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَنَسْمَعَ سُرَّتْهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ. قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَّا أَوَّلَ الْعَابِدِينَ. سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ. فَلَرَّهْمَ يَخْضَوْنَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ٧٩-٨٣ وهذه الآيات الكريمة واضحة الدلالة على أن الله عز وجل سبق أن خصّص ساعة لزوال هؤلاء الغربيين المشركين وأنه جلّ شأنه يسمع نجواهم ومأبرموه، ويعلم سرهم وما يبرمون.

فبهذا الذي أتت به سورة الزخرف، يكون جلّ شأنه قد وضّح للعلماء والمفسرين ما التبس عليهم أمره بشأن هذا الشاهد ذو القرنين، فوضّح تعالى لهؤلاء أن هذا المثل ما هو المسيح ابن مريم نفسه، بل سنيكون نظيراً له وشبيهاً من حيث مهمته ومن حيث بُعد بعثته الزمنية عن موسى عليه السلام، فهذا النص القرآني يشكل أصل الحديث القائل (كيف أنتم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم وإمامكم منكم). فالنزول هنا استعمل للتكريم. ثم إن استحقاق هذا الشاهد ذو القرنين

لإسم ابن مريم، فليكونه مثيلاً له ونظيراً كذلك ألفاظ (وإمامكم منكم) وفي رواية (وَأَمَّكُمْ مِنْكُمْ) قد صرَّح ﷺ من خلالها بأن هذا الشاهد ذو القرنين مثيل ابن مريم سيكون أحد أفراد أمة محمد خاتم النبيين ﷺ نفسه .

ويكون الله جل شأنه قد وضح الحلقة الثالثة المختصة بموضوع هذا الانقلاب الروحي السَّابع الكبير الذي يقف العالم على عَتَبَتِهِ. هذه الحلقة التي تضمَّنْها قول الله تعالى في سورة الزحرف: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُلُّونَ﴾. فليمعن القارئ نظره في حرف (لَمَّا) الذي افتتحت به هذه الآية الكريمة. ففيه الإنباء والدلالة على أنَّ ظهور مثيل ابن مريم أمرٌ متوقَّعٌ ومفروغٌ منه. ذلك أنَّ اللغويين قالوا إنَّ منفيَّ حرف لم غير متوقَّع ثبوته على عكس منفيَّ حرف (لَمَّا) فهو متوقَّع ثبوته. على شاكلة القول (لَمَّا يذوقوا عذاب النار) أي أنَّ ذوقهم للنَّار مُتَوَقَّعٌ وإن لم يذوقوه إلى الآن (محيط المحيط) فمضمون الآية التي نحن بصددِها ورد في سياق الكلام عن امكانية تخلف المسلمين وتقصيرهم في أداء المسؤولية الملقاة على عاتقهم وهي ضرورة استمرارهم بمهمة التبشير بالإسلام ولنشره على العالم كله. فمن خلال الإتياء بحرف (لَمَّا) نبَّه ربَّنَا أذهاننا بأسلوبٍ بلاغيٍّ مُعْجَزٍ إلى أن هذا التقصير من جانب المسلمين مُتَوَقَّعٌ في المستقبل، لذلك فمتوقَّع أيضاً احتياج هؤلاء إلى بعثة نظير لابن مريم وشبيهه به من بينهم وليعيد بذلك إلى الإسلام حيويَّته.

٤ - حلقة سورة الصِّف :

والذي يتدبَّر تسلسل مضامين السُّور القرآنية تدبَّراً حقيقياً، ومن زاوية نظر الكلام عن حلقات هذا الانقلاب الروحي السَّابع الكبير المقبل. ستواجهه سورة الصِّف التي تتناول حال المسلمين يوم يتخلَّون عن مسؤولية الدعوة إلى الإسلام، ويُصابون بالتخلف والانحطاط من جرَّاء ذلك، ويفقدون بالتالي تأييد ربِّهم عزَّ وجلَّ ونصرته، بل ويعود الله تعالى ينظر إليهم نظرة مقتٍ شديد لإساءتهم إلى الله ورسوله عملياً. ويحتاج الإسلام يومئذٍ إلى بعثة مثيل ابن مريم ونظيره، حيث يُطالب الله أولئك بنصرة هذا الشاهد النظير لابن مريم وتأييده والانضمام تحت جناحيه، لكنَّ مسلمي عصر التخلف المذكورين سيكون موقفهم خلاف ماتطالِبهم به سورة الصِّف، فيكذبون مثيل ابن مريم الذي يأتيهم بالبيِّنات

علي شاكلة ما أتى به المسيح ابن مريم فيما مضى في أمة موسى بالبينات، ويتهمونهم بالافتراء على الله. ضارين عرض الحائط كونه لا يدعوههم إلا إلى الإسلام .

وقبل تناولي آيات سورة الصف لإثبات صحة ما زعمته من مضمونها، أجد لزماً عليّ أولاً العودة بالقارئ إلى التسلسل الموضوعي للسور الذي أشرت إليه. فقد قال تعالى في سورة الأحزاب من قبل ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾. فحرف (لكن) يفيد ما بعده نقيض ما قبله على حسب ما أورده اللغويون. أي أن الله عز وجل نفى عن رسوله الكريم أبوته الجسدية، وأثبت في الوقت نفسه نقيض ذلك أي أثبت أبوته الروحية لأُمَّته. لذلك قال بعد ذلك بحق زوجات رسوله الكريم ﴿وَزَوْجَاتِهِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي أمهاتكم الروحيات. وقد اشترط الله جلّ شأنه على المؤمنين ألا يؤذوا محمداً وزوجاته، فإن فعلوا هذا يجرّئون أنفسهم من جرّاء ذلك من هذه الآبوة الروحية التي هي لرسوله الكريم، فهذا ما أنهى الله تعالى به سورة الأحزاب حيث قال هناك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً، إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ - أي أمانة الدعوة إلى الإسلام بهذا القرآن - على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان - أي حملها هذا البشر الذي هذبناه بتعاليم هذا القرآن - إله كان ظلوماً جهولاً. لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ، وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَكَانَ اللَّهُ غَفوراً رَحِيماً﴾. فقد حذر الله تعالى المسلمين في هذه الآيات الأخيرة من سورة الأحزاب من مغبة إهمالهم لمسؤوليتهم المتعلقة بحمل الأمانة المتعلقة بنشر تعاليم القرآن الكريم على العالم كله. كما حذرهم من ترك تقوى الله والقول السديد، وحذرهم من معصية الله ورسوله، كيلا يؤذوا رسوله محمداً خاتم النبيين، وكيلا يُعدّوا في نظر ربهم منافقين ويستحقّون بالتالي عذاب الله تعالى ويفقدون محبته وتأييده ونصرته.

ما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ من وحي القرآن في مقابل ما أوحى إلى موسى من وصايا عشر. والذي نستخلصه من ذلك كله هو أن الانقلاب الروحي العظيم الذي تحقق على أيدي محمد رسول الله ﷺ، على صعيد كلام الله مع عباده فاق جميع ماسبقه من انقلابات روحية تحققت على أيدي المرسلين من قبله. وأتناول الإجابة على التساؤل الذي ذكرناه على صعيد الأحكام والتشريع، وما استجدّ على هذا الصعيد بإنزال ما تضمنه كتاب الله القرآن المنزل على محمد ﷺ فأقول: أفلم يلاحظ القارئ كيف أن هذا القرآن قد نسخ جميع ماسبقه من كتب سماوية، وكيف أنه تضمن أحكاماً وتشريعاً كاملاً ويصلح لكل زمان ومكان؟ فهل نسخ القرآن الكريم التوراة والإنجيل وغيرها عبثاً ودون حكمه؟ أفلم يلاحظ القارئ كيف أن تعاليم تلك الكتب كانت قومية الصبغة ولا تصلح أحكامها وتشريعاتها لإقامة مجتمع ونظام عالمي؟ ثم إن كمال رقي الإنسان روحياً يرتبط ارتباطاً عضوياً بكمال الأحكام والتعليم الذي يعمل عليه. وعليه فلم تكن أحكام وتعالم الكتب السابقة تفي بهذه الضرورة الموضوعية، على قدر ماجاءت مدرسة أحكام وتشريع وتعالم القرآن لتفي بهذه الضرورة الموضوعية ولتخرج مدرسة القرآن الكريم رجالاً على مستوى النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. ألا إن كتاب الله العزيز لفت أنظارنا إلى هذه الحقيقة التي ذكرناها في الآية (١٥٤) من سورة الأنعام فيما يتعلق بأحكام وشريعة موسى فقال: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ، وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى، وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾. أي أن التّرجى بالحصول على لقاء الله عز وجلّ ارتبط عضوياً بأحكام وتعالم الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى، على اعتبار أنها أحكام وتعالم ذات صبغة قومية فلا تفي بترقية الإنسان الذي يعمل عليها ترقية روحية كاملة تؤهله للتشرف بلقاء ربه عز وجلّ وجذب محبته وقربه ورضوانه .

هذا وقد لفت الله تعالى أنظارنا في الوقت نفسه إلى كمال أحكام وتعالم القرآن التي توصل الإنسان إلى لقاء ربه حاذفاً هذا التّرجى. حيث أنه جل شأنه قال في الآية (١١١) من سورة يوسف بحق مدرسة أحكام وتعالم القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى، وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى، وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ

يؤمنون ﴿﴾. فهو جل شأنه على حين أنهى الآية الأولى المتعلقة بالشرعية الموسوية بقوله: ﴿هَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَلَّاهُمْ بَلِّغُوا لَهُمْ بَلَّاءَهُمُ يَوْمُئِذٍ﴾. فإنه جل شأنه أنهى الآية الثانية المتعلقة بالشرعية الحمديدية بقوله: ﴿هَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَلَّاهُمْ يَوْمُئِذٍ﴾. وبذلك ربط عزوجلّ التعليل والترجي بمدرسة موسى، وحذف هذا التعليل والترجي فيما يتعلق بمدرسة القرآن الكريم. كذلك حذف كلمة (تماماً) من الآية المتعلقة بمدرسة القرآن الكريم على اعتبار كمال ماتصمته من أحكام وتشريع. فأعظم بهذا الأسلوب البلاغي المعبر، وبهذه الدقة في التعبير والتي لايلحظها إلا المتدبرون.

أما هذا الكمال الذي أتصفت به أحكام وتشريع كتاب الله القرآن، فقد صرح به الله عزوجلّ في الآية الثالثة من سورة المائدة، وضمن مراح يفرضه على المسلم من أحكام. فهو تعالى قال ضمن تلك الآية ﴿.. اليوم يئس الذين كفروا من دينكم، فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً، فمن اضطرو في مخصصة غير متجانف لإثم، فإن الله غفور رحيم﴾. فهو تعالى صرح هنا أن اكتمال بناء الدين الشاهق الذي تبنيونه وتؤمنون بأحكامه وتعاليمه، ألقى اكتمال هذا البناء الديني اليأس والقنوط في قلوب الذين كذبوه وكفروا به، لموازنهم ماين تشريعه وأحكامه وماين مالداهم من أحكام وتشريع. وبذلك سدّ في وجه الذين كفروا بشرية الإسلام باب التفاخر والتباهي بما في كتبهم من أحكام وتشريع. فلما انتهى تعالى من التنبيه إلى ذلك، راح يخاطب الذين آمنوا بشرع الإسلام وبنه إلى أنّ واجبه بعد اكتمال بناء الدين بهذا التشريع أن يضعوا خوف الله وخشيته نصب أعينهم في كلّ أمر من أمور حياتهم اليومية، فهنا يكمن سرّ قوتهم ومظهر تعلّهم برّهم عزوجلّ، لذلك فلا ينبغي أن تبدر عنهم الخشية والخوف من هؤلاء المكذبين الكفار، وإلاّ فقد ثبت ضعف إيمانهم برّهم وقدراته عزوجلّ، برّهم الذي أكمل لهم بناء هذا الدين الذي راحوا يدينون بشرعه وتعاليمه. برّهم الذي أمّ بذلك نعمته عليهم ورضي لهم الإسلام ديناً.

ألا إنّ ألفاظ ﴿أكملت لكم دينكم﴾ تشير صراحة إلى كمال التشريع الإسلامي، وإلى أنه تعالى وضع هذا التشريع موضع التنفيذ لإكتمال تعاليمه، ثم إنّ ألفاظ ﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ تشير إلى أنّ الثمار الروحية لهذا التشريع

اكتملت أيضاً مادياً وروحياً، أي أنّ مدرسة القرآن أضحت تدرّس هنا التشريع الكامل التعاليم نظرياً كما راحت تُدرّسه تطبيقياً ليحني الدارس من ثماره الروحية أعظم الثمار.

وهكذا تكون هذه الآية من سورة المائدة قد نُبّهت إلى حقيقة اكتمال بناء الدين وإلى كمال ما أنزل الله تعالى في هذا الكتاب العزيز، وليُحدث محمد رسول الله ﷺ، وهو المبعوث إلى الناس كافة، ليحدث انقلاباً روحياً عظيماً هو أعظم انقلاب روحي في تاريخ البشر قاطبة وعبر تاريخه الطويل.

وأتناول هذا الموضوع من جانب ثالث وهو جانب معالم التوحيد الذي بُعث به محمد رسول الله ﷺ، فإن تدبّر القارئ أي الذكر الحكيم يلاحظ أن الله تعالى وصف هذين النبيين إبراهيم ومحمداً عليهما السلام بوصف واحد. لذلك أورد ربنا عز وجل قوله في سورة النحل الآية (١٢٣) يساوي بين وصف إبراهيم ووصف محمد سيد المرسلين وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ، ثُمَّ وَاحِينَا إِيكَ أَنْ أَتْبِعَ مَلَكًا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. فهو جلّ شأنه خاطب قوم محمداً فيما أنهى به الآية الأخيرة من أنكم تعلمون أنّ محمداً لم يكن مشركاً قبل أن يؤت هذا الكتاب العظيم فما كان محمد من المشركين، بل كان موحّداً على شاكلة جدّه إبراهيم.

وأكد الله عز وجل اشتراك إبراهيم ومحمد في توحيدهما، في الآية (١٠٥) من سورة يوسف أيضاً حيث قال فيها: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَنُفٍّ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

لكنّ هذا القارئ إذا تدبّر أي الذكر الحكيم من منظار مابين محمد وإبراهيم من فرق في مقامهما الروحي، فلا بد له من أن يلاحظ علوّ مقام محمد على مقام إبراهيم من خلال ماأنهى الله تعالى به الآيات الكريمة في موضعين من كتاب الله العزيز، فعلى حين نلاحظ قول ربنا في الآية (١٣١) من سورة البقرة: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَةٍ نَفْسِهِ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فهو تعالى أنهى هذه الآية بجملة أسلمت لله ربّ العالمين. ولا نلاحظ

وصفاً آخر لابراهيم في موضع آخر من كتاب الله العزيز يزيد على وصفه أن أسلم لله رب العالمين.

فعلى حين نلاحظ ذلك، تواجهنا الآية (١٦١) من سورة الأنعام بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، دِينًا قِيَمًا، مِلَّةَ اِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾. فهو جلّ شأنه قد وصف رسوليه هنا ابراهيم ومحمدا بوصف واحدٍ من جهة. وميّز محمداً في الفقرة الأخيرة من هذه الآية، من جهة ثانية على ابراهيم لقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾. فابراهيم أسلم نفسه لربّ العالمين، أمّا محمد خاتم النبيين ﷺ فقد كان أوّل من أسلم نفسه من نفسه لله ربّ العالمين. ليس أولهم زماناً، إذ المعلوم أنّ ابراهيم هو السّابق زماناً، وهذه قرينة لغوية تصرف لفظ (أوّل) هنا من الزّمانية إلى الدّلالة على أولويّة مقام محمد ﷺ، وسمّوه. فمحمد بن عبد الله يأتي في ذروة هرم التّوحيد، لذلك فهو أوّل المسلمين وكأنّ الله عزوجلّ ينقل لنا عن لسان محمد ﷺ قوله بالفاظٍ أخرى منبهاً إلى الفارق بين مقامه ومقام ابراهيم جدّه من حيث التّطبيق، وليس من حيث النّظرية والاعتقاد، قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ بمعنى أنّ المقام الروحي الذي حصل عليه محمد ﷺ من حيث فرص إثبات توحيده لرّبّه، أعلى وأرفع من المقام الروحي الذي حصل عليه جدّه ابراهيم عليه السلام، لذلك يُعدّ محمد ﷺ في نظر ربّه (أول المسلمين) فالسّبق الزماني لابراهيم ولاشكّ، لكنّ الأولوية في المقام الروحي فلمحمد سيد المرسلين ﷺ. وهكذا تكون بعثة محمد رسول الله ﷺ قد أحدثت انقلاباً روحياً عظيماً أيضاً على الصعيد التّطبيقيّ للتّوحيد الذي بُعث به ابراهيم عليه السلام. ذلك أنّه لم يتحقّق من إنجازات على أيدي ابراهيم تماثل ماحقّق من إنجازات تحقّقت على أيدي خاتم النبيّين. اللهم صلّ وسلّم وبارك على محمد وعلى آل محمد إنك حميد مجيد.

الأقل أهمية من المقصد الذي ذكرناه، هو محاولة تنبيه أذهان المسلمين المعاصرين الذين اعتقدوا برفع المسيح ابن مريم إلى السماء بجسده العنصري وبنزوله آخر الزمان. تنبيه عقول هؤلاء إلى أن ابن مريم نفسه قد مات، وها أنه قد بشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ومثل المسيح ابن مريم. فلو كان المسيح حياً في السماء وسينزل آخر الزمان، فلا معنى لتبشيريه بأحمد، بل كان ينبغي له أن يبشر ببعثة رسول من بعده اسمه محمد. والمقصد الثالث من وراء إيراد هذا التبشير بأحمد هنا، هو تنبيه عقول المسلمين المعاصرين إلى أن عودة عيسى ابن مريم إلى الأرض بعد محمد خاتم النبيين، يتناقض ودلالة ألفاظ خاتم النبيين. فلا نبي يأتي من بعد محمد من خارج أمته. فإن حدث وأتى ينقض جميعه ختم نبوة سيد المرسلين. حتى ولو كانت نبوة هذا المبعوث سابقة زمنياً ببعثة محمد خاتم النبيين. فلا نبي يأتي من خارج أمة محمد من بعده ولو كانت نبوته سابقة لبعثته الثانية. هذه هي دلالة خاتم النبيين.

هذا وقد سبق لي أن وضحت عند الكلام عن قوله تعالى ﴿وشاهد منه﴾ أن هذا الشاهد سيمثل فيض محمد الروحاني ومن أمته، فهو منه، وليس من أمة أخرى غير أمة محمد خاتم النبيين ﷺ.

فهذه هي الحقائق الكامنة وراء التبشير بإسم أحمد على لسان مريم في هذا المقام. ذلك أن المخاطبين هنا هم مسلموا عصر التخلف والانحطاط، وليس اليهود أو المسيحيين. ودليلنا على ذلك ما أورده الله جل شأنه بعد ذلك من أقوال. فهو تعالى قال بعد ذلك: ﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾.

ومن المعلوم أن القاعدة العربية تقول: إن الضمير لا يعود إلى شيء غائب عن النص. وهذه الآيات التي ذكرناها تخلو من ذكر المسيحيين، والمخاطب فيها، هم مسلموا عصر التخلف والانحطاط. لذلك فإن ضمير ﴿فلما جاءهم﴾ يعود على هؤلاء المسلمين المعاصرين. والذي جاءهم هو أحمد مثل ابن مريم ونظيره الذي جاءهم ببيئات القرآن الكريم التي غابت عن أذهان هؤلاء المسلمين المعاصرين.

وليعد هذا القارئ بذاكرته إلى الآية من سورة الزخرف قوله تعالى : ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾. أي أن حال المسلمين من

قومك، إذا بعث الله تعالى فيهم مثل ابن مريم، لايؤمن أكثرهم به، بل يضحّون منه ويكذبونه ويميلون عنه ويُعرضون (محيط المحيط). وهأنه جلّ شأنه ثبت مقولته الغيبية هذه من خلال قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. وهو جلّ شأنه استهّل هاتين الآيتين أيضاً بحرف (لما) الذي يفيد مابعده نقيض ما قبله. كذلك أتى بفعل جاء وفعل قالوا بصيغة الماضي وليس بصيغة المضارع ليفيدا الجزم بعد بعثة هذا الشاهد المثليل لابن مريم والموعود بظهوره، وبعد أن تتضح دلالات الآيات الواردة في سورة الصف. فصياغة أفعال الآية وردت بصيغة الماضي لتساعد أيضاً كلّ مؤمن بهذا المثليل ويقف مدافعاً عن صدق بعثة هذا المثليل لابن مريم.

وليلاحظ القارئ أنّ الله عزوجلّ لم يكتف بإثبات مقولته الغيبية بدليل واحدٍ على حسب ماوضّحناه. بل قدّم بعد ذلك دليلاً آخر أقوى من الأوّل، ومُصاغاً بأسلوب بلاغيّ معجز أيضاً، فقد راح تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. فقوله تعالى (ومن أظلم) المقصود به هؤلاء المسلمين المعاصرين الذين كذبوا مثل ابن مريم وقالوا هذا سحرٌ مبين. يقول تعالى وهل يُتصور أن يأتي غيرهم بظلم أعظم من ظلمهم هذا الذي يرتكبونه؟ فهم يتهمون الله ربهم بالكذب والجنوح عن الحقيقة من خلال تكذيبهم لهذا الشاهد مثل ابن مريم، فهم يكذبون ماأنبأ الله به عن ظهوره وعن علامات ظهوره. ويضيف جلّ شأنه يقول ﴿وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ أي أنّ مايزيد في بشاعة ظلم هؤلاء المسلمين هو أنّهم يكذبون هذا الشاهد المثليل الذي يدعوهم إلى العودة إلى تعاليم دينهم الإسلام وقد أتى لهم ببيّنات دينهم الإسلام. فقد كان من واجبهم مناقشة مايدعوههم إليه، لأنّ يتهمونه بالسحر أي بالخداع والتّمويه وإخراج الأشياء في أحسن معارضها ليُفتنَ بها الناس (محيط المحيط)، والمعنى أفلا يحجل هذا الظالم أن يُدعى من قِبَلِ هذا الشاهد النظير لابن مريم إلى الإسلام ويتغافل عن دعوته تلك ؟ وهو جلّ شأنه عندما أنهى الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. جزم بحقيقة ظلم المسلمين المعاصرين الكبير، كما جزم بإبقائهم على ظلمهم وزيفانهم عن الصراط المستقيم.

وقد راح جلّ شأنه ييدي مقتته هؤلاء الذين آذوا رسوله محمداً ﷺ، وافترؤا على ربهم كذباً، وقال بلهجة الإله العزيز الفعّال لما يريد: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ، وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. أي أنّ تكذيب مسلمي عصر التخلّف والاضطّاط هذا المبعوث الشاهد مثيل ابن مريم، يُعدّ في جوهره محاولة لإطفاء نور الله الذي راح ينور به العالم لهداية عباده الضّالّين. ثم إنّ محاولتهم هذه تأتي (بأفواههم) وليس بأداة أقوى من ذلك. أي أنّهم يعتمدون على نشر الإتهامات والأكاذيب والتخويف من هذا المبعوث، ولا يقابلونه بسلاح الحجّة والبرهان والحوار المنطقيّ. فسلّاحهم هذا لا وزن له ولا شأن ولا قوة له على مغالبة نور الله. لذلك ندعهم لشأنهم ولحاولتهم تلك، لكن ليعلموا أنّ الله العزيز الذي لا يُغالب والفعّال لما يريد ﴿مُتِمُّ نُورِهِ﴾ أي لا يترّاجع عن خطوته التي خطاها لهداية العالم ﴿ولو كره الكافرون﴾ أي ولو كره هؤلاء الذين يكذبون هذا الشاهد المثيل لابن مريم، والذين يكذبون كلامي ونبوءاتي، هذه المعاني جميعها محتملة هنا، بسبب أنّ الله تعالى عرّف كلمة (الكافرون) بالألف واللام.

وراح جلّ شأنه يبرّر عمليّة ﴿مُتِمُّ نُورِهِ﴾ أي يبرّر مثابرتة على تأييد مثيل ابن مريم، موضحاً المقصد الأسمى من بعثه إياه، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. أي أنّ تخاذل مسلمي عصر التخلّف والاضطّاط عن أداء مهمتهم التي حدّدتها لهم آيات سورة الأحزاب وهو ضرورة الاستمرار في القيام بالتبشير بالإسلام ونشره على العالم كله.

فقد استدعى هذا التّخاذل الذي أبدوه، أن يبعث الله تعالى مثيل ابن مريم، خصوصاً وأنّ حال هؤلاء قد شابه حال أمة موسى من قبلهم. أن يبعثه ليكمل مسيرة الدعوة الإسلامية، فقد كان من مهمّة صاحب دعوة الإسلام وهو محمد ﷺ أن يظهر دين الإسلام على جميع الأديان، لأنّ يظلّ أتباعه أقلّ من هؤلاء المشركين الذين اتّخذوا لله ولداً وهمنوا على العالم الإسلامي، هذا المعنى دلّ عليه تعريف كلمة (المشركون) بالألف واللام والعهدتين، ولمناسبة التسلسل الموضوعي لهذه الآيات الكريمة. فلم يكن المقصود هنا مشركي قريش.

وبعدما فرغ الله جلّ شأنه من تقديم هذه الحقائق التي أتت بها آيات سورة الصّفّ، وبسببك بلاغيّ معجز وأخاذ، راح تعالى يخاطب هؤلاء المسلمين الذين ينسبون أنفسهم إلى رسوله الأمين محمد خاتم النبيين ﷺ. راح يخاطبهم بأسلوب الناصح الأمين ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. تُوْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ - يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا، نَصْرٌ مِنَ اللّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فالله عز وجلّ غمز جانب هؤلاء المسلمين المعاصرين مُشعراً إياهم أنّه لاحظ غلبة الرّوح المادّية على تفكيرهم وسلوكهم اليومي وهم من جرّاء ذلك ينتظرهم عذابٌ من الله أليم، فنصحهم أن يفكروا تفكيراً روحانياً وأن يقدّموا مصلحة الدين على جشعهم المادّي الدنيويّ وعبر عن ذلك كله بقوله تعالى ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾. كذلك نصّحهم بتحديد إيمانهم بالله ورسوله والمجاهدة لنشر الإسلام على العالم تحت راية هذا الشاهد المثيل لابن مريم. وأنهى هذا الجانب الثاني من نصيحته تعالى هؤلاء المسلمين المعاصرين بقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وحذف مفعول تعلمون توسيعاً لدلالة هذا اللفظ ولتصريفه إلى مختلف الاتجاهات. والتقدير هذا إن كنتم تعلمون قيمة نصيحة ربّكم هذه، وإن كنتم تعلمون ماتضمنته التّوراة والإنجيل من نبوءات تتعلّق ببعثة محمّد ﷺ وبعثة مثيل ابن مريم، وإن كنتم تعلمون معايير صدق المصلحين السماويّين. ومن ثم لاحظ أيّها القارئ كيف بَشَّرَ الله تعالى الذين سيأخذون بنصيحة ربّهم هذه وقال: ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. فأشار تعالى بهذه الألفاظ عدّة إشارات: أشار إلى أنّه واسع المغفرة فهو سيغفر لمن يستجيب لنصح ربّه ذنوبه التي بدرت عنه قبل تجديد بيعته لله ورسوله، وأشار إلى أنّ هذا المستجيب والملتزم سيفوز بقرب ربّه ومحبّته وتحسّن بذلك عاقبته، وأشار إلى أنّ هذا المستجيب سيفوز بعود سورة الكهف، ويرث مساكن الذين اتّخذوا الله ولداً بعد أن تأتي ساعة دمارهم. وهذا بمجموعه يشكّل فوزاً عظيماً.

وأضاف جلّ شأنه يبشّر المسلم المتخلّف المعاصر إن هو استجاب لنصيحة ربّه هذه، من أنه حلّ شأنه قد بعث بمثل ابن مريم لينصر دين محمد ﷺ وليحقّق الفتح على بقيّة الأديان، وقد عبّر عن ذلك وقال: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، وَبَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وأثبت الله عزّ وجلّ من خلال ما تضمّنته نصيحته هذه وبشاراته، أثبت أنه يعمد إلى هذا النصّح والتبشير كلّ من ينسب نفسه إلى رسوله الأمين محمد خاتم النبيين ﷺ، كما عمّقت كلّ من يؤذي هذا الرسول الأمين ولو زعم هذا المؤذي إيمانه بالله ورسوله، ذلك أنّ الله تعالى لا يؤيّل الأقوال الأهميّة التي يوليها للأفعال.

وقد أنهى جلّ شأنه سورة الصّفّ بآية صريحة الدلالات، ولا تختمل التأويلات، وتكشف عن صدق جميع ما فهمناه من آيات سورة الصّفّ من دلالات أثبتنا على ذكرها آنفاً. ومن واجب القارئ أن يُصغي إلى هذه الآية الأخيرة إصغاء المتدبّر اللاهف لكشف دلالاتها. ذلك أنّ الله عزّ وجلّ راح يخاطب مسلمي عصر التخلّف والإنحطاط الذين باتوا يقولون مالا يفعلون. راح يخاطبهم للمرّة الثالثة والأخيرة، حاثّاً إياهم على الانضمام إلى جماعة مثل ابن مريم بالفاظٍ صريحة وواضحة وراح يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مِنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ، قَالَ الْخَوَارِيُّونَ لَنَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ، فَأَمَنَت طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي يا أيّها الذين آمنوا بي وبرسولي ناصرُوا مثل ابن مريم هذا، على شاكلة ما فعل بعض أفراد قوم موسى الذين استجابوا لصوت المسيح الناصري. تلك الأحداث التي أدّت إلى إنقسام بنو إسرائيل إلى طائفتين طائفة مؤمنة، وطائفة مكذّبة، بالمسيح الناصري، وكانت النتيجة أن أيّد الله تعالى الذي استجابوا لنصح ربّهم وآمنوا بصدق المسيح الناصري وأعرضوا عن تكذيبه، أن أيّدهم الله على الطائفة المعادية لهم، وتقلّبت الظروف والأحوال والأسباب فكتب الله للذين آمنوا بالمسيح الناصري ونصروه الغلبة على اليهود الذين أصرّوا على تكذيبه فأصبحوا ظاهرين عليهم عدداً وعُدّة وعتاداً وأموالاً وأولاداً. فهذا هو مصير الذين يناصرون مثل ابن مريم المذكور، فستكون لهم الغلبة أخيراً لا محالة بإذن الله تعالى.

على هذه الشاكلة تكون سورة (الصف) قد شكّلت الحلقة الرابعة من موضوع الانقلاب الروحي السابع الكبير الذي يهيئ الله عز وجل أسباب تحقيقه، للإكمال نشر الإسلام على العالم ولتثبيت الأمن والسلام في ربوع هذا الكوكب الأرضي.

وإنّ القارئ الذي تابع هذه الحلقات الأربع المتعلقة بموضوع بعثة (شاهدٍ منه)، هذا الذي سُمّي في سورة الكهف باسم ذو القرنين، كما سُمّي في سورة الزخرف باسم مثيل ابن مريم، لابدّ أن لاحظ هذا القارئ كيف أنّ الحلقة الرابعة قد صوّرت وبأسلوب معجز ماسيؤول إليه حال مسلمي آخر الزمان وذلك في سورة الصف. هؤلاء المسلمون الذين تناسوا قدرات ربهم عز وجل، فتناسوا ما أحدثه من انقلاباتٍ روحية على أيدي الذين اصطفاهم من أنبيائه ومرسله.

٥ - حلقة سورة الجمعة

فإن تدبّر هذا القارئ سورة الجمعة يتضح له أنّها أنبأت عن بعثه هذا الشاهد المثيل وعن الجماعة المؤمنة التي ستشكل على يديه، فإن راجع هذا القارئ ما أورده محمد رسول الله ﷺ من قول في تفسير ذلك يتطابق قوله ﷺ مع سائر هذه القارئ من دلالات آيات سورة الجمعة بإذن الله تعالى.

ليتبيّن عن طريق ذلك معالم الحلقة الخامسة من موضوع هذا الانقلاب الروحي السابع الكبير الذي لازلنا في بداياته، والذي ستثبت منه بعد اكتماله ما لله الخالق من قدراتٍ وعلم غيبي لا تقف دونهما حدود. ذلك أنّ سورتي الصف والجمعة هي جزء لا يتجزأ من السور السبع عشرة التابعة لمضمون سورة (ق) على حسب ما بيناه في (فن الاختزال القرآني) وقد جلّى الله عز وجل في هذه السور التابعة لسورة (ق) قدراته وعلمه الغيبي بشكل لا يدركه إلا المتدبرون لآيات هذا القرآن العظيم.

أفلم يتذكّر القارئ كيف استهلّ الله تعالى سورة الصف بفعل سبّح بصيغة الماضي إشارة إلى ما أحدثه من انقلاباتٍ روحية كبرى قبل بعثة محمد ﷺ. فليلاحظ هذا القارئ كيف أنّه تعالى استهلّ سورة الجمعة بالتسبيح أي التنزيه أيضاً. لكنّه استبدل صيغة الماضي سبّح بصيغة المضارع يسبّح، ليشير إلى ماسيحدثه من انقلاباتٍ روحية كبرى في المستقبل. ليشير إلى الانقلاب السادس

الذي تحقّق على أيدي رسوله محمد ﷺ ويشير بالتالي إلى الانقلاب السّابع الذي نقف نحن والعالم على أعتابه.

فهو جلّ شأنه راح يقول بالفاظٍ مجلجلة: ﴿يَسْبَحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. بهذه الألفاظ التي أنزلها في المدينة المنورة ليباهي أعداء الإسلام في حينه أن أمعنوا نظرهم في ثمار تجليات ربّكم الملك القدوس العزيز الحكيم. هذه التجليات التي تحقّقت وتتحقّق على أيدي هذا الرسول الأمّي الذي اصطفاه الله من بينكم فالله ﷻ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾. أي لاحظوا كيف يتلو هذا الرسول آيات الله الملك على صحابته، وكيف يزكيهم ويطهر نفوسهم بتعالّم هذا الملك القدوس الطاهر. وكيف يعلمهم الكتاب أي الأحكام والقوانين التي سنّها هذا الملك العزيز الذي لا يغالب، والغالب على أمره، وكيف يعلمهم رسولنا الأمّي هذا الحكمة أي يعلمهم كيف يتقنون أمور دولتهم، وكيف يجمعون بين معتقدتهم ومسلكتهم اليومي، وكيف يزودهم بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، فهذه هي دلالات الحكيم، فمن أين له أن يعلمهم الحكمة لولا أنّه كان مهبط تجليات صفة الله الحكيم؟

ومن خلال صيغة المضارع (يسبح الله) الدّالة على المستقبل أيضاً، راح جلّ شأنه ينبي عن مستقبل أمة محمد ﷺ يوم يتخلف أفرادها، ويعودون يقولون مالا يفعلون، ويهملون مسؤوليتهم في نشر الدعوة الإسلامية على العالم. راح جلّ شأنه ينبي عن أنّه في ذاك الزّمن سيبعث مثيلاً لابن مريم شاهداً من أمة محمد ﷺ لكنه من قومية غير عربيّة، ليشكّل طائفةً مؤمنةً جديدة تسير على نهج الطّائفة التي ألفها محمد رسول الله ﷺ، وتحمل مسؤولية الدعوة الإسلامية على أكتافها لإكمال مسيرة الإسلام وإظهاره على الدين كلّه وبفضل من الله وتأييده، فهو جلّ شأنه أضاف قائلاً: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾. فليلاحظ القارئ كيف أنّ الله عز وجل قد أنبا عمّا ذكرناه بهذه الألفاظ المعدودات.

إنه جلّ شأنه حذف فعل (وسيبعث). فقد كان ضرورياً أن يقول (هو الذي بعث في الأميين.. وسيبعث في آخرين)، حذف فعل سيبعث لتدلّ عليه

جملة (لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ). فالتقدير «وهو الذي سيبحث في آخرين رجلاً منهم يحمل نفس مبادئ الأولين من الأميين».

ثم إنه حل شأنه أتى بحرف (لَمَّا) من (لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ). وقد علمنا سابقاً أنَّ ما بعد حرف لَمَّا يكون مغايراً دوماً لما قبلها، والحكمة من إيتائه بحرف (لَمَّا) هنا، هو تنبيه أذهاننا إلى أنَّ الآخرين المذكورين سيكونون غير الصحابة الأولين ويكون هذا المبعوث من بينهم غير عربي أيضاً.

ثم إنه حل شأنه أتى بعد حرف (لَمَّا) بفعل (يلحقوا) من لحق به أدركه ولصق به (يحيط المحيط) تنبيهاً لأذهاننا إلى أنَّ جماعة هذا المبعوث هي التي قدّر لها أن تلحق بركب مسيرة الإسلام التي ابتدأها صحابة محمد رسول الله ﷺ، وليس هؤلاء المسلمون المتخلفون الذين يقولون مالا يفعلون. وأكدت هذه الحقيقة الجار والمجرور (بهم) من (يلحقوا بهم) التي تعود إلى صحابة الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه.

وليلاحظ القارئ أنَّ الله تعالى لم يُنه نبأه المتعلق ببعثه الشاهد مثل ابن مريم والذي سيحقق الله تعالى على يديه الانقلاب السابع الروحي الكبير، لم ينه بالصفات الأربع: الملك القدوس العزيز الحكيم. بل أنهى الآية هذه بصفيتين فقط من هذه الصفات هما (العزيز الحكيم). تأكيداً من جانبه عز وجل على أنَّ هذا المبعوث لن يأتي بتعاليم جديدة بل يتقيد بتعاليم القرآن المجيد المنزل من قبل الله الملك، كما أنه سيزكي طائفته بنفس التعاليم القرآنية المتعلقة بتزكية النفس المؤمنة وتطهيرها. فلن يأتي على صعيدي صفتي (الملك القدوس) بشيء جديد. لكن الجديد يتمثل في تجلي صفتي (العزيز الحكيم) عليه. هاتان الصفتان اللتان غاب هريقهما من وسط المسلمين المتخلفين اللذين فقدوا تأييد ونصرة ربهم العزيز الذي لا يُغالب، وفقدوا الحكمة بخصوص إكمال مسيرة دعوة الإسلام.

إنَّ المعاني التي أفادنا بها قول الله جل شأنه ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تؤيدها الروايات المنقولة عن رسول الله ﷺ، والتي وصلتنا بطريق كتب الحديث والتفسير. فقد أورد ابن كثير الحديث والتفسير. فقد أورد ابن كثير تحت تفسير هذه الآية الكريمة ص ٣٦٣ الجزء الرابع دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه في القطر المصري الشقيق: (قال الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله،

حدثنا سليمان بن بلال عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة ؓ، قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾. قالوا من هم يارسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً. وفيما سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال «لو كان الإيمان عند الثريا، لنا له رجال - أو رجل - من هؤلاء». ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير من طرق عن ثور بن يزيد الديلمي عن سالم أبي الغيث عن أبي هريرة به).

وقد أضاف جلّ شأنه بعد ذلك يقول: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم﴾. وهو تعالى أتى هنا بحرف الإشارة للبعيد (ذلك)، عوضاً عن (هذا) وهو للقريب، تعظيماً منه تعالى لهذا الفضل الإلهي الذي سيتفضل به على الشاهد الذي سيبعثه في «الآخرين». هذا الشاهد الذي ستتشكل على يديه هذه الطائفة من المؤمنين على نسق ونهج الطائفة الأولى من صحابة محمد سيّد المرسلين ﷺ. وبألفاظ هذه الآية الكريمة يكون الله جلّ شأنه قد أتى على الحلقة الخامسة من موضوع الحديث عن هذا الانقلاب الروحي الكبير السابغ الذي نقف والعالم على أعتابه يقيناً.

وقد كان في علم الله الغيبي أنّ مُسلمي عصر التخلف والانحطاط، لن يفهموا من سورة الجمعة مافهمناه، وأنهم سيكذبون هذا الشاهد الذي سيبعثه الله (في آخرين منهم). فلا يغيّرون حالهم في شيء ويظلّ حالهم ﴿يقولون ما لا يفعلون﴾. لذلك راح جلّ شأنه بعد هذا الإنباء العظيم يذكرهم بحال قوم موسى أولئك الذين بعث الله تعالى فيهم عيسى ابن مريم بالبينات لإحيائهم، فلم يستجيبوا لصوت الله تعالى وكذبوه، وبقوا على حالتهم التعيسة المتخلفة تلك، فقد كان في علم الله الغيبي ذلك كلّ فذكر هؤلاء المسلمين المتخلفين بأولئك وقال: ﴿مثل الذين حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا، كمثل الحمار يحمل أسفاراً، بئس مثلُ القوم الذين كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. أي وهل يستفيد الحمار من الكتب التي توضع على ظهره؟ فقد كان هذا هو حال قوم موسى يوم بعث الله تعالى فيهم عيسى ابن مريم، لم يرجعوا إلى مافي التّوراة من نبوءات تنبئ عن حالهم وعن علامات ظهور عيسى ابن مريم من بينهم، وما أنّ حال مسلمي آخر الزّمان قد شابه حال المذكورين، وكذبوا هذا الشاهد المثيل

لابن مريم والذي بعثه الله تعالى من بينهم، ضارين عرض الحائط بجميع مآثباته عنه القرآن المجيد عنه، وعن جميع علامات ظهوره، ولم يؤازروه في دفاعه عن الإسلام مُتَنَاسِينَ أنهم يقولون مالا يفعلون وقد باتوا من جراء ذلك في نظر ربهم من الظالمين المحرومين من نعمة هداية الله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وليلاحظ القارئ هنا هذه النتيجة العملية التي يستخلصها ربنا عز وجل من واقع هؤلاء المسلمين المتخلفين. فهو حلّ شأنه تَبَّه إلى أن الذي يَقلَّد شيئاً عملياً، يعود محسوباً على هذا الشيء، ومادام هؤلاء المسلمون قد شابهوا اليهود عملياً من خلال الحال الذي آلوا إليه، فقد هادوا في نظر ربهم عز وجل، وإن لم يصرّحوا بهذا الأمر بالسنتهم، وحدث هذا مصداق ما أثبت به محمد رسول الله ﷺ نفسه أمته بقوله: (لَتَتَّبِعَنَّ سُنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شَيْئاً بَشِيراً وَذُرَاعاً بَذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا حُجْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ).

فمن هذا المنطلق راح حل شأنه يقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ فالكلام موجّه هنا إلى المسلمين الذين لا يرجعون إلى ماتضمّنه القرآن الكريم من نبوءات وتعاليم، كحال اليهود الذين شبّههم الله تعالى بالحمار يحمل أسفاراً. وليس الكلام موجّهاً هنا إلى قوم موسى. فهذا ما يقتضيه التسلسل الموضوعي. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. أي يا أيها المسلمون الذين ساروا على نهج اليهود إن زعمتُمْ أَنَّ الله عز وجل لا يزال يتولاكم بنصرته وتأييده وينظر إليكم على أنكم تمثلون هذا الدين الخفيف من دون سائر الناس ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تزعمون. فما معنى ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾؟ هذه محاوره كلامية تدخل في معنى المباهلة التي شرحها القرآن الكريم من خلال قوله تعالى في الآية (٦١) من سورة آل عمران: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾. فالقرآن يفسّر بعضه بعضاً. ثم إن كلمة (فَتَمَنَّوْا)، بينها وبين فَرَّجُوا فرق في المعنى. أي أن التَمَنَّى هو غير التَرْجِي، ولا يقصد بالتَمَنَّى هنا التَرْجِي. ذلك أن التَمَنَّى مصدر تَمَنَّى. ويُطلق عند أهل العربية على طلب حصول الشيء على سبيل المحبة، وعلى الكلام الدال على هذا الطلب، وهو بهذا المعنى من أقسام الإنشاء، لذلك أورد تعالى هنا ﴿فَتَمَنَّوْا

الموت إن كنتم صادقين». بأسلوب المحاوره، أي إن كنتم أيها المسلمون الذين تقولون مالا تفعلون تحبون إثبات أنكم أولياء لله من دون الناس وأنكم أنتم الذين تمثلون الإسلام في عصركم، وأن هذا الذي يزعم أنه الشاهد النبأ عنه في كتاب الله تعالى هو كاذب في دعواه فادخلوا معه في مباحلة بين يدي الله عز وجل فتمنوا الموت إن كنتم صادقون فيما تزعمونه من جانبكم. ويجزم الله جلّ شأنه في أمر هؤلاء المكذّبين، فيضيف قائلاً: ﴿ولا يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. فهذا الأسلوب البلاغي ذو السبك المعجز أفادتنا آياته الكريمة التي أوردناها من سورة الجمعة بهذه الحقائق وتلك الدلالات.

فلما يصل جلّ شأنه إلى هذا الحدّ من البيان، يأمر: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. أي إن كنتم تحجمون عن مباحلة هذا الشاهد المثل لابن مريم، فلن ينجيكم هذا من الموت الذي ينتظركم، فتُردُّون بعده إلى الله العالم بأحوالكم وعالم الغيب الذي هو خاف عنكم، حيث يُبدي هناك إعلانكم وإسراركم وينبئكم بذلك بما كنتم تعملون.

ألا إن من عجائب إعجاز القرآن الكريم أنه صيغ على صورة تصلح لكل زمان ومكان. ففعل (قل) الوارد في هذه الآيات الكريمة يرجع بالأصالة إلى محمد رسول الله ﷺ. وفي الوقت نفسه يرجع إلى مثيل ابن مريم كشاهد ظلّ لمحمد ﷺ والذي ينوب عنه أيام بعثته، فهو منه وليس بخارج عنه، وتأكيذاً من الله الذي أنزل هذه السورة، فقد أضاف جلّ شأنه خطاباً موجّهاً أيضاً إلى الطائفتين التابعتين لهاتين الشخصيتين: طائفة صحابة محمد رسول الله، وطائفة مثيل ابن مريم، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا - وَالْخُطَابَ مَشْرُكَ هُنَا بَيْنَ طَائِفَتِي الْمُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّدٍ وَالشَّاهِدِ الَّذِي هُوَ مِنْهُ، قَالَ - إِذَا لُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ، وَذَرُوا الْبَيْعَ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. فما هي مناسبة الإتياء بهذا الحكم الشرعي هنا إلا أن يكون مرتبطاً موضوعياً بسياقه وسباقه وللغاية التي ذكرتها، ومُنسجماً بذلك مع التسلسل الموضوعي لسورة الجمعة؟ فهذه إحدى ظواهر إعجاز القرآن الكريم أنّ القارئ في كل زمان ومكان لا يشعر شعور غربة وهو يتلو آيات هذا الكتاب

العظيم المعجز العزيز. فأيات سورة الجمعة عاجلت أحوال وظروف سنوات البعثة الأولى وذلك بترتيب نزولها، كما تعالج أحوال وظروف سنوات هذه البعثة الثانية للإسلام. فما أعظم هذا السبك البلاغي المعجز للإنس والجان.

قد يقول قائل هنا: الملاحظ أنَّ هؤلاء المسلمين المتخلفين الذين يرفضون مثيل ابن مريم المذكور، يلبّون نداء الجمعة ويسعون إلى ذكر الله في المساجد ويذرون البيع. فما الفرق بينهم وبين أفراد الطائفة التي لبّت صوت هذا الشاهد المثل لابن مريم من حيث الشكل والجوهر؟ والجواب الموجز أنَّ الفرق بين الفريقين هو ما كان من فرق بين أتباع موسى وأتباع عيسى الذي كان منه أيضاً. أما الجواب الحقيقي فهو أنَّ الذي أضحي ممقوتاً في نظر ربّه، ورافضاً تلبية صوته، فهو وإن أدّى صلاة الجمعة من حيث الشكل على حسب ما هو مطلوب منه، فإنّ صلاته من حيث جوهرها لا تثمر في نفسه روحياً ما هو مطلوب منها إثمارة. فإلى هذه الحقيقة ورد قول محمد رسول الله ﷺ: (كم من مصلٍ ليس له من صلاته إلا النصب).

وتأكيداً لهذه الحقيقة التي ذكرناها، فقد أنهى جلّ شأنه سورة الجمعة واصفاً الحالة النفسية والعملية للفريق المكذّب، وقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا، قُلْ مَاعِنَدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ، وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾. فلتدبّر معاً أيّها القارئ ألفاظ هذه الآية الكريمة التي فهم المفسرون منها أنها صورت حال منافقي البعثة الأولى للإسلام. فهل تعني هذه الآية الكريمة ما ذهبت إليه روايات المفسرين من أنَّ المنافقين كانوا إذا سمعوا بطبول تجارة، كانوا يتركون صلاة الجمعة ويتركون محمداً قائماً لوحده؟

فإن نحن عُدنّا إلى معاجم اللّغويين، فقد قالوا: إنّ الرؤية تكون بالعين كما تكون بالقلب. وسماع طبول التجارة لا يكون برؤية العين والقلب إنّما يكون عن طريق حاسة الأذن. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن كلمة تركوك قائماً، فقد وردت محذوفاً فعلها، فلم يقل جلّ شأنه وتركوك قائماً تصلي، ولا قائماً تخطب ولا قائماً بأمر آخر من الأمور، ولا بدّ في هذه الحالة أن نقدّر فعل (تركوك) على أساس من معطيات التسلسل الموضوعي للسورة، الدائر حول (وآخرين منهم) المصرّح بهم في مُستهل سورة الجمعة، فالتسلسل الموضوعي

للسورة يدور حول بعثة مثيل ابن مريم في آخر الزمان يوم يعود المسلمون يقولون
مالا يفعلون.

ثم إنه جلّ شأنه وقد أتى بكلمة قائماً، ومخدوفاً فعله لا يخلو ذلك من
حكمة بالغة. تقول: قام بأمر: أي تولاه. ومن منطلق أن مهمّة مثيل ابن مريم
هي القيام بتجديد أمر الدّعوة إلى الإسلام فهو القائم بهذا الأمر. وبهذا المعنى
ورد قول حكيم بن حزام على حسب ماورد في محيط المحيط وغيره: بايعت
رسول الله ﷺ أن لا أختّر إلا قائماً - أي لا أموت إلا ثابتاً على الإسلام. فهذه
الدّلالة إلى جانب قرائن التسلسل الموضوعي لسورة الجمعة، ومرتبطة بسورة
الصّف التي قبلها، كلّ ذلك يرجّح معنى الرؤية هنا رؤية الفؤاد. خصوصاً وأنّه
جلّ شأنه قد أتى بحرف إذا وقال (وإذا رأوا..). هذا الحرف الدّال على ما هو
مُقبل من الزمان. فلم يأت بحرف (إذ) الدّال على الزمن الماضي. ليصوّر عن
طريقه أحداثاً أو حادثه بدرت عن فئة منافقي صدر البعثة الأولى للإسلام.

فإذا تدبّرنا أيها القارئ ألفاظ هذه الآية الأخيرة من آيات سورة الجمعة،
وعلى ضوء دلالاتها التي بينها اللّغويون في معاجهم، فلا أظنّ إلا وأنك تتفق
معني أنّ موضوع هذه الآية لا يصوّر حادثاً بعينها، لكنه يُصوّر الحالة القلبية
لمسلمي آخر الزمان، والمشغولة دوماً بالبحث عن اللّهُ والتّجاره، والتي لا تكون
مشغلتها مناصرة هذا الشّاهد القائم بمسؤولية الدّعوة الإسلامية، ولا ذكر الله
ومحاولة التعرّف إليه والفوز بحبّه وقربه ورضوانه، وإن كانوا من حيث ظاهريهم
مسلمين.

إنّ ألفاظ هذه الآية الكريمة صوّرت بدقّة متناهية كيف عاد مسلموا
عصرنا يسرون على نهج الذين كذبوا عيسى ابن مريم، فما عاد لهم من هم إلا
تجارة المال، والبحث عن اللّهُ اشباعاً لميوهم وشهواتهم التي سيطرت عليهم -
لذلك نلاحظه جلّ شأنه قد أنهى هذه الآية الأخيرة بقوله: ﴿فَلَمَّا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ
مِّنَ اللّٰهِ وَمِنَ التَّجَارَةِ﴾. فالخطاب موجه هنا إلى هذا
القائم بمسؤوليّة الدّعوة إلى الإسلام يقيناً. هذا الذي ورد بحقه: (وتركوك قائماً).
فلا تعني هذه الآية والحال هذه مذهب إليه ذهن المفسّرين منها، فالرؤية
المقصودة هنا قلبية، هنا وإلا لكان تعالى قد قال (وإذا سمعوا) وليس (وإذا رأوا).
ثم إنّ موضوع السورة يدور حول بعثة مثيل ابن مريم في (وآخرين منهم)، وهو

المشار إليه أنه يكون يومئذ قائماً أي قائماً بمسؤولية الدعوة إلى الإسلام ويكون المسلمون في الوقت نفسه تاركين الدعوة إلى الإسلام فلا يناصرونه ولا يؤازرونه. فهذه هي حكمة حذف فعل قائماً في هذا المقام.

كذلك فإن الله عز وجل قال في مستهل هذه الآية الكريمة: (وإذا رأوا) ولم يقل (وإذا رأوا) بصيغة الماضي والحكمة من ذلك هو الإخبار والإنباء عن هذه الحالة القلبية المادية التي سيكون عليها مسلموا عصر التخلف والانحطاط.

على هذه الصورة فلا بد أن تكون قد اتضحت معالم الحلقة الخامسة من موضوع هذا الانقلاب الروحي السابع الكبير الذي نبهت إليه سورة الجمعة، التي وصفت حال التخلف والانحطاط الذي يؤول إليها حال المسلمين زمن البدء بإحداث هذا الانقلاب الروحي السابع الكبير على أيدي (شاهد منه) ومثيل لابن مريم، هذا الذي ستتشكل على أيديه جماعة (الآخرين) على نسق الأولين من صحابة الله الكرام.

فالله عز وجل يعطي القارئ الذي يعاصر هذه الأحداث التي تنبئ عنها سورتا الصّف والجمعة، يعطيه فكرة تقريبية عما لرّبه من قدرات لاتقف دونها حدود، خصوصاً وأنّ سورتي الصّف والجمعة هاتين هما جزء لا يتجزأ من السور السبع عشرة التابعة لمضمون سورة (ق) على حسب ما وضحت ذلك في (فنّ الاختزال)، فهذه السور شكّلت فصلاً تكمل دلالات الحرف (ق) المختزل من اسم الله القادر والقدير.

٦- حلقة سورة المنافقون والتغابن والطلاق :

ومن واجب هذا القارئ أن يتساءل عن حكمة ورود سورة (المنافقون) مباشرة بعد سورتي الصّف والجمعة، كذلك عن حكمة أن يتبع الله تعالى سورة المنافقون بسورتي التغابن والطلاق.

والحقيقة هي أنّ من الصفات البارزة للمنافقين أنهم يقولون مالا يفعلون. ومادام هذا هو الحال الذي سيؤول إليه حال مسلمي عصر التخلف والانحطاط. فقد استدعى ذلك من الله جل شأنه وشفقة منه على أمّة رسوله الكريم محمد خاتم النبيين أن يأتي جل شأنه بهذه السور الثلاث: المنافقون والتغابن والطلاق، ينذر فيها هؤلاء المسلمين الذين عادوا يقولون مالا يفعلون، ينذرهم ويتوعدهم،

ويضرب لهم الأمثال من مصائر الأمم التي سبقتهم، لعلمهم يتعظون بها ويعودون إلى حمل مسؤولية الدعوة إلى سبيل الله بكلّ أمانة وإخلاص ولیدفعهم على تقديم دينهم على دنياهم.

بل وأتى جلّ شأنه بعد هذه السور الثلاث بسورة التحريم، فخطب فيها مسلمي عصر التخلف والانحطاط بصورة خاصة هؤلاء الذين زعموا إيمانهم بالله وبرسوله، فقال بالفاظٍ مُفعمةٍ بالنصح والانذار معاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. وبما أنه كان في علم الله أن أكثرية هؤلاء لاهية قلوبهم باللهو والتجارة، ولن يتعظوا بجميع مانصحتهم به وما أنذرهم به، فقد أضاف بعد ذلك يضيف وبالفاظٍ لم تتكرر في كتاب الله العزيز، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا - وَالْخُطَابُ مَوْجِهٌ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِنِعْمَةِ هَذَا الدِّينِ الْخَفِيفِ الَّذِي وَصَلَ أَرْضِيهِمْ وَنَشَوْا عَلَيْهِ قَالَ - لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. أي أنكم كفرتم بفضل الإسلام ونعمته، وتقاعستم عن أداء مسؤولية العمل على تعاليمه وإظهاره على الدين كله، هذا بالرغم من جميع هذا التحذير الذي حذرناكم به، وأمسيتم تقولون مالا تفعلون، فأية قيمة لإيمانكم بي وبرسولي بالنسبة واللسان؟

ومن ثم أتى الله جلّ شأنه بسورة الملك وهي السورة السابعة عشرة والتابعة لمضمون سورة (ق). أقول أتى الله جلّ شأنه بهذه السورة هنا تنبيهاً لأذهان مسلمي عصر التخلف والانحطاط إلى عظمة الله وقدراته التي لا تتحدّها تحدد، وعلى أنه جلّ شأنه هو مالك هذا الكون من حولنا، وأنه قادرٌ على تحقيق جميع ما أنبأ به وشاء تحقيقه، إشارة إلى إرادة تحقيق هذا الانقلاب الروحي السامع الكبير على أيدي هذا الشاهد مثيل ابن مريم، ولم يكتف جلّ شأنه بهذا الإدعاء المذكور بل دَعَمَ مقولته تلك بدليلين عظيمين قاطعي الدلالة: الأولُ منهما دليلٌ كونيٌّ احتواه قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾. وتفصيل وشرح معالم هذا الدليل الكوني احتواه مؤلف (فن الاختزال في القرآن الكريم).

وأتبع الله جلّ شأنه هذا الدليل الكوني بدليل آخر متعلّق بالنظام الروحي الكوني المشابه للنظام المادي الكوني عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ. وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وبئس المصير﴾. ولا مجال لشرح هذا الدليل الثاني أيضاً في هذا المقام. والمهم هو أنّ الله عز وجل قدّم هذين الدليلين إثباتاً منه جلّ شأنه ملكيته لهذا الكون، وتدليلاً على أنه تعالى قادرٌ على تحقيق هذا الانقلاب الروحي السابع الذي نقف ويقف العالم على عتباته. وبذلك أكمل الله عز وجل تقديم الحلقة السادسة من موضوع هذا الانقلاب المذكور. هذه الحلقة التي أنبأ فيها عن تشكّل ثلّة من المؤمنين في عصر انحطاط وتخلّف المسلمين، تماثل وتضارع ثلّة الأوّلين من صحابة الرسول الكريم، كما أنبأ فيها عن موقف هؤلاء المتخلّفين من هذا الشاهد مثيل ابن مريم وجماعته المنبأ عنها. وأعلن جلّ شأنه وبالألفاظ صريحة أنّ مسلمي تلك الفترة الزمنية سيشابه حالهم حال قوم موسى الذين كذبوا عيسى ابن مريم الذي لم يأتهم بدين جديد بل بيّنا ما احتوته تعاليم موسى نفسها. كما حذّر تعالى هؤلاء من نار العذاب الذي سينزله بالذين اتّخذوا لله ولداً، ولا بدّ أن تمسّهم تلك النار إن هم لم يناصروا هذا الشاهد المثيل لابن مريم ولم يقروا بذلك أنفسهم وأهليهم من لظى تلك النار التي ستنزل بساحة المكذّبين، والتي سيكون وقودها ﴿النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ فالنّاس إشارة إلى أمم المسيح الدّجال الذين يحسبون أنفسهم أنّهم وحدهم النّاس المتحضرون. والحجارة إشارة إلى زعمائهم الذّين عادوا كالأصنام تعبدهم الجماهير.

٧- حلقات أخرى أنبأت وقررت مصير أعداء الإسلام :

وآخذ الآن بيد هذا القارئ الذي تابع هذه الحلقات الستة التي أبرزتها لعينيه والتي بحثت موضوع هذا الانقلاب الروحي السابع الكبير المقبل، هذا الانقلاب الروحي الذي يحدّثه الله عز وجل على أيدي شاهدٍ من أمة محمد ﷺ، ومثيل لابن مريم، إحياءً للذين الإسلامي، ولاظهاره على الذين كله بسلاح الحجّة والبرهان وإثباتاً منه عز وجل أنّه هو الحي القيوم، آخذ بيد هذا القارئ وأدلة على المقامات التي تشكّل الحلقة السابعة والأخيرة من هذا الموضوع،

والمتعلقة بمصير هذه الأمم الغربية التي سبق أن أنبأت سورة الكهف عن نهضتها، منذرة أهلها الذين لم يعودوا عن شركهم عن اتخاذهم المسيح ابن مريم رباً وولداً لله الملك المقتدر الرحمن وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾. علماً بأن الله العزيز الحكيم قد وزّع حلقات هذا البحث، وحسب أسلوبه المتميز المعجز، في طرحه للمواضيع التي يبحثها في كتاب العزيز، وزّعها على سور وبما يتناسب والتسلسل الموضوعي للمضامين هذه السور القرآنية فوزّع الحلقة السابعة هذه ابتداءً من سورة الكهف فالرحمن فالمعارج فسورة القيامة.

فالجزء الذي تضمنته سورة الكهف، بإمكان القارئ الرجوع إليه في (ظلال دلالات سورة الكهف). لذلك أتناول ماتضمنته سورة الرحمن بشأن ذلك. حيث نبه الله عز وجلّ ذهن القارئ ضمن آياتها إلى أنه سيفرغ بعد إنزاله هذا القرآن الكريم بثلاث عشر قرناً من الزمان، يوم بعثه مثيل ابن مريم ذو القرنين، سيفرغ لمعالجة أمر هؤلاء الذين اتخذوا الله ولداً، الذين ضلّوا وكذبوا رسوله محمداً ﷺ واستهزؤوا ببيّنات هذا الكتاب السماوي الذي أنزله الله تعالى على قلبه. وليثبت الله بذلك عظمة قدراته وعظمة علمه الغيبي. ذلك أن سورة الرحمن تتبع موضوعياً سورة (ق)، وجاء ترتيب تلاوتها بعد سورة القمر التي أنجاها الله جلّ شأنه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صَدَقٍ عِنْدَ مُلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾. ولينبّه تعالى ذهن القارئ إلى أن من الأسماء البارزة لهذا الإله الملك المقتدر، إسم «الرحمن» الدالّ على عطاءاته التي لا تنضب وعلى رحمته الشاملة. وكانت الحكمة من ذلك أيضاً أن يتساءل القارئ: وماعلاقة صيغة الرحمن هذه بالإنذار الذي أُنذرت به سورة الكهف هؤلاء الذين اتخذوا الله ولداً. هؤلاء الذين همينوا اليوم على العالم وعلى العالم الإسلامي خاصة بعد أن تقاعس مسلموا عصرنا عن حمل مسؤوليتهم المتعلقة بالدعوة إلى الإسلام لإظهاره على الدين كلّ، وعادوا يقولون مالا يفعلون على حسب ما وضّحته الآيات من سورتي الجمعة والصف.

وقد انطلق هذا الملك المقتدر في سورة الرحمن يجيب على هذا التساؤل مبتدئاً من الكلام عن مُصطلح جغرافي اصططلحته هذه الأمم الغربية في عصرنا بالذات، وراح يتداوله الناس في كلّ مكان من سكان كوكبنا الأرضي، وهو

تقسيم هذا الكوكب إلى مشرقين ومغربين: أدنى وأقصى فنبه جل شأنه أذهان هؤلاء إلى أن هذا المليك المقتدر، الرحمن، هو ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ سَكَّانِ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ ولو أنكم حاولتم وتحاولون يامن اتَّخذتم الله ولداً أن تفرضوا مشييتكم على أهل هذين المشرقين وهذين المغربين.

وإثباتاً من طرف هذا المليك المقتدر الرحمن لحقيقة ادّعاءه المذكور، راح فقدم دليلين عظيمين يثبتان صحة هذا الإدعاء، وعلى شكل نبوءتين عظيمتين، فأنبأ أولاً عن أن هؤلاء الذين اصطالحوا للأرض اصطلاح المشرقين والمغربين، سيعمدون إلى حفر ترع تصل ما بين البحار لتيسير نقل بضائعهم وترويج تجارتهم، وللتقليل من نفقاتهم، مشيراً إلى ترعتي بناما والسويس وقال: ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وأنبأ ثانياً عن أن هؤلاء الذين اصطالحوا للأرض اصطلاح المشرقين والمغربين سيخترعون الآلة البخارية وينشؤون أساطيل بحرية تسير على البحار، فترى من بعيد من عظمة حجورها وكأنها المنشآت كالأعلام. وقال ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. وهو جل شأنه وقد أتى هنا بالجار والمجرور (وَلَهُ) لتفيد اللام الملك، أي أنهم انشؤوا هذه الأساطيل البخارية الضخمة للسيطرة على البحار ولتأمين مصالحهم الاستعمارية، على حين أنه جل شأنه هو الذي ألهمهم صناعتها ولتحقيق إرادته وهو لتسهيل إيصال دعوته إلى أطراف الأرض. والمهم هو أنه جل شأنه عرض موضوع ظهور هذه الأساطيل البخارية زمن هيمنة الذين اتخذوا الله ولداً على العالم، فأنبأ عن ظهورها لتشكّل هذه النبوءة دليلاً ثانياً على أنه الإله الحقيقي المليك المقتدر الرحمن الفعّال لما يريد.

وقد راح جل شأنه في الآية (٣١) من سورة الرحمن هذه، وبعد إثباته هؤلاء كونه المليك المقتدر. الرحمن، أقول راح يتكلم عن هؤلاء الغربيين الذين فتحوا ترعتي السويس وبناما وانشؤوا هذه الأساطيل البخارية واستغلّوا تخلف المسلمين ونفاقهم ليزدادوا استهانة بالإسلام وتكديماً لكتابه العزيز، راح يخاطبهم ويقول قبل أن يبلغوا ما بلغوه بثلاثة عشر قرناً من الزمان: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ واستهلّ قوله هذا بحرف السين الذي أدخله على فعل نفرغ من فرغ له إذا توجّه إليه وقصده. أدخل حرف السين عليه ليفيد أمراً واقعاً لا محالة، ولو تأخر

إلى حين، على حسب قول الرخنشري - أي أنه جلّ شأنه نبّه من خلال قوله هذا إلى أنه سيعمد يومئذٍ إلى حسم قضية هؤلاء الضالين المكذّبين، مخاطباً إياهم بأية الثقلان، إشارة منه تعالى إلى أنّ هذه الأمم المسيحية ستتنقسم يومئذٍ إلى معسكرين وإلى مركزي ثقل في العالم. وأضاف تعالى بعد هذا التنبيه يقول: ﴿فَبَايَ آلاءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ هذه الآية التي راح يكررها في كل مرة بدلالة موضوعية جديدة تتناسب مع مقامها، وهو جلّ شأنه أتى بهذه الآية هنا ليقول هؤلاء: إنّ ما أسبغناه عليكم من نعمة تجلّت في هذه النهضة العلميّة التي نهضتوها، لا نرى أنّكم قدّرتُم نعمتنا هذه، فلم تنجذبوا إلى معرفة هذا الإله المليك المقتردر الرحمن. وثابرتُم بالتالي على تكذيبكم هذا الدّين القويم والاستهتار ببيّنات هذا القرآن العظيم، لذلك سنفرغ لكم أيّها الثقلان لننزل بكم العقاب الشديد الذي تضمّنهُ إنذارنا في سورة الكهف ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

ولابدّ أن يتساءل القارئ هنا فيطالب بعلامة مُميّزة يتحدّد له من خلالها توقّيت نزول العذاب الموعود بهؤلاء، ولو على وجه التّقريب. ويتحوّل الله جلّ شأنه للإجابة على هذا التّساؤل بأسلوبٍ بلاغيٍّ معجز. وعلى شكل خطاب يخاطب به أهل هذين الثقلين، ويقول: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا، لَآتِنَفْذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾. أي يا أهل هذين المعسكرين الذين شكّلتُم مركزيّ هذين الثقلين في الأرض، شعوباً كانوا أو زعماء: لا ريب أنّكم ستبلغون يومئذٍ حدّاً كبيراً من التّقدم العلميّ إلى درجة تتمكّنون معه من صنع مركبات فضائية تمتطونها عبر الفضاء، وتتجاوزون أقطار جاذبيّة الأرض وغيرها، ميّمين اكتشاف مجاهل السّماء من فوقكم لعلكم تبسطون هناك هيمنتكم على شاكلة ما بسطتموه من هيمنة على أهل المشرقين وأهل المغربين. فاعلموا أيّها الثقلان أنّ رقيكم العلميّ المذكور، لا يخرج عن نطاق علمنا الغيبيّ. ﴿فَإِنْفُذُوا لَآتِنَفْذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي حاولوا ذلك لتثبتوا من خلاله تفوّقكم وقدرتكم، وهذا ما أتى به الإسلام. لكن اعلموا أنّ ما تبلّغونه من تقدّم لن يصل إلى حدّ تشكيّل هذا الدّليل الذي تريدونه، ولو أنّكم قطعتم مثل هذا الشوط من النّفاذ من أقطار جاذبيّة الأرض وسواها. وهنا قطع جلّ شأنه كلامه بعد أن أتى بفاء الاستئناف وقال: ﴿فَبَايَ آلاءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ أي ها أننا أنبأناكم بما سيحقق على أيديكم يومئذٍ نعمة من طرفنا. فلا نراكم قد قدّرتُم

نعمتنا هذه، بل تابرتم على ضلالتكم وتكذيبكم بنعم الله الملك المقنن الرحمن،
فبأي هذه النعماء تكذبون؟

وبعدما خاطبهم جل شأنه بخطابه المذكور، مذكراً إياهم بكفرانهم
لنعمائه، أورد كلام ربنا وأنبأ نبأاً ترثف لوقعه الأوصال، وقال: ﴿يُرْسِلُ
عَلَيْكُمَا شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾، فأبهم مصدر الشوَاطِئ المؤلف من
نار ونحاس وذلك من خلال إتيائه فعل «يُرْسِلُ» مبنياً للمجهول. هذه النار
والنحاس الذي سيشكل قوام عذاب هذين الثقلين وعنصره الأساسي. وأتى بهذا
الإبهام ليزيد في حيرة وخوف أهل هذين الثقلين. ومن ثم أنهى قوله تعالى جازماً
وحاسماً موضوع محاولة هؤلاء الذين اتخذوا الله ولداً وشككوا مركزه في
العالم لاكتشاف مجاهل الفضاء ولبسط هيمنتهم عليه أيضاً، أنهى قوله بلفظين
بالغني الدلالة وقال: ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ أي سينزل بكم العذاب فيرسل عليكم
شواطئ من نار ونحاس قبل أن تفلحوا مخططاتكم هذه، فلا تنتصرا. وأضاف من
جديد يقول: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي وهل ينبغى لكم مثل هذا النبأ الخطير
إلا الله الملك المقنن الرحمن؟ فبأي هذه النعماء تكذبون بأهل هذين الثقلين؟
وكانه جل شأنه لفت أذهان هؤلاء إلى ما توصل إليه علماءهم من أن عظمة هذا
الكون لا بد أن تكون دالة على موجد هذا الكون، وأنه يشكل العقل المطلق
المتواري وراء عظمة هذا الكون.

وهنا أتى جل شأنه بفاء الاستئناف من جديد وقال: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ
السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالذَّهَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. فكفى بلفظ السماء
في هذا المقام عن حال الذين الذي بعث به محمداً ﷺ، وحال بينات هذا القرآن
المنزل عليه. وأتى بحرف إذا وهو ظرف لما يستقبل من الزمان، ولقد فهمنا من
لفظ السماء هنا الدلالة به على الذين لقرينة قوله تعالى ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾
والسما فضاء لا ينشق، خصوصاً وأن الانشقاق فيه الدلالة على شق عصا
الطاعة، أي إذا أتى الزمان الذي تشق البشرية فيه عصا طاعة هذا الملك المقنن
الرحمن، بسبب ما دبرتموه من مؤامرات ضد الإسلام وما زورتموه من عقيدة ضلال
فاتخذتم الله ولداً من دون حجة وبرهان، حتى عاد هذا الذين وتعاليم كتابه
العزیز كالوردة الباهت لونها، كالذهان الباهت اللون المائل للإصفرار.

وأضاف جل شأنه يستأنف كلامه ويكرّر ألفاظ: ﴿فَبَايَ آلاءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ أي وآية جريمة هي أعظم من جريمتكم هذه أنكم ماقدّرتُم نعماء هذا المليك المقتدر الرَّحْمَن، حتى بلغ حال دين الله تعالى هذا الحال المأساوي.

وهنا راح تعالى ينوّه بضرورة إنزال عذابه بهذين الثقلين، فعذابهما أضحى أمراً مفروغاً منه، فأعمال السّوء التي قام بها هؤلاء، وهذه النتائج التي أسفرت عنها، استدعت إنزال الله تعالى عذابه بهؤلاء الضّالّين المكذّبين الأشرار وبما لا يحتاج إلى مرّير يبرّره. فهذا ما أراد الله جل شأنه التعبير عنه بقوله بعد ذلك: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾. أي لا حاجة يومئذ لإجراء آية محاسبة هؤلاء، فقد تبيّنت مساوئ أفعالهم على الصّعيد العمليّ، لذلك أضاف جل شأنه يقول: ﴿فَبَايَ آلاءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ أي وهل يحتاج ذلك كله إلى البرهنة عليه، فبأيّ دليل من هذه الدلائل التي ينبئكم بها هذا المليك المقتدر الرَّحْمَن، تكذّبان؟

وأضاف جلّ شأنه يقول: ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسَيِّمَاهُمَا فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾. أي أنّ هؤلاء زرق العيون المنبأ عنهم في سورة الكهف والمنبأ عن جرائمهم الشّنيعة تسهّل معرفتهم، وقوله تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ وهذه محاورّة كلاميّة يكتنّى بها عن الشّلل والعجز التام. فالإنسان الذي يؤخذ بناصيته وأقدامه، لا تعود له القدرة على مقاومة مهاجميه، وينبئ تعالى بالفاظ هذه المحاورّة عن النّهاية البشعة المحزنة التي سيؤول إليها هؤلاء المجرمون. وأضاف نفس ألفاظ تلك الآية التي راح يكررها بدلالات مختلفة وقال: ﴿فَبَايَ آلاءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾، أي إن تحققت نبوءتنا هذه فيكم، وانتهيتم إلى هذه النّهاية البشعة المحزنة، فهل يعود لمن يتبقّى منكم من مرّير ليكذّب بهذه الآلاء التي جلاها ربكم المليك المقتدر الرَّحْمَن؟

وهنا أطلق جلّ شأنه على هذه النّهاية التي سيؤول إليها هؤلاء المجرمون، اسم جهنّم وقال: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ، يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾. أي أنّه ونتيجة لأخذ الملائكة هؤلاء بالنّواصي والأقدام، سيشكّل مصيرهم هذا ونهايتهم تلك نهاية جهنميّة لهم لا تقوم لهم من بعدها نهضة أو قيامة، فيطوفون بين هذه النّهاية الجهنميّة، وبين حميم آتٍ وهو الماء المغليّ إلى درجة كبيرة جدّاً، كناية عن المشكلات الاقتصادية التي سترافق هذه النّهاية الجهنميّة. وهي المشكلات التي سيقدّر أسبابها هذا المليك المقتدر، الرَّحْمَن، من

قبل إنزاله هذا العذاب بساحتهم. وهو تعالى إذ قال ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾، فقد قال مضيفاً قوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾. أي وهل بإمكانكم أيها الثقلان تكذيب آلاء ربكما هذه التي تجلّت لكم في إطار النهاية الجهنمية، وهذه المشكلات الاقتصادية التي أوقعكم بها هذا الملك المقتدر؟ فهذا هو ما أورده الله جلّ شأنه في سورة الرحمن بما يتعلّق بإنذار سورة الكهف بحقّ الذين اتخذوا لله ولداً. ولاحظوا كيف أنّ الله عزّ وجلّ قد خصّص لتحقيقه الزمن الذي يبعث فيه (شاهد منه) ومثيل لابن مريم وليحدث على يديه هذا الانقلاب الروحي السابع الكبير.

٨ - حلقة سورة الواقعة خاصّة:

وفرز الله جلّ شأنه سورة أخرى تأتي بعد سورة الرحمن مباشرة، وتنطوي تحت مضمون سورة (ق) الدالة على الله القدير على تحقيق كل أمر يشاؤه، وهي سورة الواقعة، خصّصها للكلام على نوعيّة هذا العذاب الذي أنذرت به سورة الكهف هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً والذين ضلّوا وكذبوا محمداً رسول الله وسخّروا من بينات ماجاء به القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على قلبه.

فاستهلّ الله عزّ وجلّ سورة الواقعة هذه بقوله تعالى: ﴿إذا وقعت الواقعة، ليس لوقعتها كاذبة، خافضة رافعة﴾. بمعنى أنّ الله الملك المقتدر، هذا الرحمن الذي سيفرغ لمعالجة أمر هذين الثقلين إثر نهضتهم الثالثة وبعد هيمتهم على العالم من حولهم، وسعيهم للهيمنة على ما في السّماء أيضاً، إنّ جلّ شأنه سيسبّب أسباب وقوع حرب ضروس بينهم، تنتهي بتدمير جميع ما أوجدوه، ذلك أنّ كلمة الواقعة تعني الحرب الضروس الشديدة (محيط المحيط).

فهو جلّ شأنه أتى بحرف (إذا) الدال على هذا الزمان المقبل الذي سيفرغ الله تعالى فيه لمعالجة أمر هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً وقال ﴿إذا وقعت الواقعة﴾ فأتى بكلمة الواقعة مُعرّفة بالألف واللام إشارة إلى العذاب المعهود ذهنيّاً والمُنذر به في سورة الكهف. أي إذا حلّ زمن حدوث تلك الحرب الضروس المقدّرة أسبابها لإهلاك أهل هذين الثقلين. ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾، أي أنّها حرب ضروس يستحيل منع وقوعها وتكذيبه من أيّ طرفٍ كان، هذا وإنّ

الموازنين في عالم يومئذٍ ستختلّ، بسبب أنّ الله الملك المقنن، الرحمن، قدّر لتلك الحرب أن تُخلّ بقوى الثقل المعهودة، وتكون الحرب المذكورة ﴿خافضة رافعة﴾ خافضة لمعسكري هذين الثقلين، ورافعة للطائفة التي ستتشكّل على أيدي مثل ابن مريم في الزمن المذكور.

ومن ثم أتى جل شأنه بحرف (إذا) الدال على الزمن الآتي الذي تكلمت عنه سورة الرحمن، وراح يصف تعالى للقارئ ما ستسفر عنه الواقعة أي تلك الحرب الضروس التي ستحدث يومئذٍ، وقال: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا. وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا. فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا. وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾. أي أنّ هذه الكرة الأرضية التي يبدو ارتجاجها مستحيلًا ستزج ارتجاجاً شديداً لهُول أسلحة الدمار التي ستستعمل في الحرب المشار إليها والتي جعل الله تعالى الغاية من تقدير وقوعها هو إهلاك هذين الثقلين المجرمين المعريدين في الأرض والذين يكذبون رسالة رسولي الأمين ويبنات كتابي العزيز. علماً بأنّ كلمة (رُجَّت) من رجّ الشيء - يرجّه رجًا حركة وهزه ويأتي هذا الفعل لازماً ومتعدّياً، (محيط المحيط) فهذه هي دلالة ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾. يقول تعالى، لن يحدث هذا وحسب، بل ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾. أي أن وقع أسلحة الدمار الفتاكة التي ستعمل في الحرب الضروس المنبأ عنها، إذا ما أصاب الجبال فستفتت ترابها وحجارتها، من بسّ أي فتت. ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ أي يتناثر تراب الجبال وحجارتها، فتثور وتهيج وتصبح هباءً أي ذرات مفتّنة منتشرة في كل مكان (محيط المحيط).

وهو جلّ شأنه وقد سبق وقال ﴿خافضة رافعة﴾ فقد جاء يوضح هذه النتيجة ويقول: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي أنّ الثقلان المهيمنان على العالم يومئذٍ. هؤلاء اللذان كانا قبل وقوع هذه الحرب الضروس يشكّلان مركزي ثقل في العالم من دون بقية شعوب الأرض. سيفقدان هذه المزية بعد وقوعها ويظهر إلى الوجود مركز ثقل جديد يمثل الدين الإسلامي، هذا الذي سيتشكّل على أيدي شاهديّ منه ومثليّ لابن مريم.

وراح تعالى يصنف هذه الأزواج الثلاثة فيقول: ﴿فَأَصْحَابُ الْمِيْمَنَةِ - إِيَّاهُ يَرْجُونَ﴾. إشارة إلى المعسكر الديني المذكور - ما أصحاب الميمنة. تفخيماً وتعظيماً لوزن هذا المعسكر الديني الإسلامي. وأضاف: ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ - إِيَّاهُ يَرْجُونَ﴾.

معسكر الثقلين المتمردين فهو تعالى يطلق عليهم اسم أصحاب المشأمة أي أنهم نقيض أصحاب الميمنة - مأصحاب المشأمة ﴿﴾. وهذا التكرار فيه إظهار غلبة الشؤم عليهم. ﴿والسابقون السابقون﴾ أولئك المقربون ﴿﴾ أي أنَّ السابقين في الإلتحاق بمثل ابن مريم والمضحين بأموالهم وأنفسهم معه في سبيل إحياء الإسلام وإظهاره على الدين كله - ﴿أولئك المقربون﴾ ولنا لحظ أنَّ الله عز وجل لم يبين الجهة المقربون إليها، لتمكين القارئ من تصريف ذلك إلى جهة الخالق وإلى جهة المخلوق في وقت واحد. بمعنى أن هؤلاء السابقون في الإيمان وخدمة هذا الدين الحنيف سيفوزون بمقام القرب والمحبة عند ربهم، كما سيفوزون بمقام القرب والمحبة عند مثل ابن مريم وخلفائه، كما سيفوزون بمقام الاحترام والمحبة من جميع خلق الله تعالى. فأولئك السابقون في الإيمان وخدمة هذا الدين سيكونون في ﴿جنات النعيم﴾ أي في نعماء جنتيه من جميع الجهات.

وأضاف جلَّ شأنه يخبر عن السابقين ويقول: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾. أي أنَّ عدد المقربين من الآخرين - إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾. يكون بالموازنة مع ثلثة أي عدد المقربين من الأولين - وهم صحابة رسول الله ﷺ - يكون أقل، وإن جاز إطلاق لفظ ثلثة عليهم. وتأكيداً لهذا المعنى الذي ذكرته فقد راح جلَّ شأنه يقول بحق هذين الفريقين من السابقين المقربين، وذلك في الآية (٣٩): ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى، وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾.

ومن ثم عاد جلَّ شأنه يخبر عن كتلة أصحاب المشأمة فجاء بعلامات تؤكد أنه تعالى يريد بهذه التسمية الإشارة إلى هؤلاء الذين اتخذوا الله ولداً، والمنذرين في سورة الكهف وسورة الرحمن بهذا المصير المشؤوم وقال في الآية (٤٥) يصفهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ - أي قبل وقوع هذه الحرب الضروس والدمار المروع - كَانُوا مُتَوَفِينَ - وَكَانُوا يُصَرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾.

والحنث العظيم معناه الشرك بالله تعالى. أي أنهم غرهم ما بلغوه من ترفٍ عم جميع نواحي حياتهم، فلم يعودوا يُعيرون أدناً صاغيةً لبيئات كتابنا العزيز، وأصرروا على شركهم وعلى اتخاذهم المسيح ابن مريم ولداً لله دون أن يقدموا على شركهم هذا أي دليل أو برهان.

وقد أنهى جلّ شأنه سورة الواقعة مؤكداً الأمر الآنف ذكره وقال: ﴿وَأَمَّا
 إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ. فَنُزِّلْ مِنْ حَمِيمٍ. وَتَصْلِيَةٍ جَحِيمٍ. إِنَّ هَذَا لَهُ حَقٌّ
 الْيَقِينِ. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾. فأكد تعالى على أنّ هذه الحرب الضروس
 واقعة لا محالة كعذاب يُنزلُ ربّ العالمين بهؤلاء الضّالّين عن الصراط المستقيم،
 والمكذّبين محمّداً رسول الله والقرآن العظيم . حادثاً جلّ شأنه كلّ من يُعاصر تلك
 الواقعة ونتائجها أن يعود إلى توحيد ربّه وتنزيهه. وهذه هي دلالة قوله تعالى:
 ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي نزّه أيّها الإنسان الذي ستشهد تحقّق هذه
 الأنباء كلّها نزّه ربّك المليك المقتدر - الرّحمن الفعّال لما يريد.

وقد توجه الله جلّ شأنه بعد سورة الحاقة يتكلّم عن حال أمة محمد ﷺ
 هؤلاء الذي سيصبرون إليه زمن نهضة هذين الثقلين وهمنتهم على العالم. وقد
 لحّصنا ذلك فيما مضى، إلى أن عاود جلّ شأنه في سورة المعارج الكلام عن
 هذين الثقلين الذين أصروا على الحنث العظيم بالمليك المقتدر الرّحمن. فاستهلّ
 هذه السورة بقوله تعالى: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ. لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ.
 مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾. والسؤال هنا بمعنى الاستخبار، لتعديّة لفظ العذاب بالبلاء
 والمعنى أن الذي قرأ سورة الواقعة سيحاول تقصّي أخبار هذا العذاب الواقع
 لا محالة في المستقبل. ليهلك الله تعالى به الكافرين بدعوة الإسلام - هذا العذاب
 الذي أنبأ عنه الله ذي المعارج. أي المليك المقتدر. الرّحمن. صاحب السّمو
 والعظمة الذي إن أرادت الملائكة المشول بين يديه، تعرج إليه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ
 مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. ومعقاييس هؤلاء الكافرين أنفسهم.

وأضاف تعالى في الآية الثامنة يضيف إلى ما أنبأ عنه من حال ما سيحدث
 يوم وقوع ذلك العذاب بهؤلاء الكافرين في المستقبل وهو الواقعة أي الحرب
 الضروس المقبلة. أضاف قوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ. وَتَكُونُ الْجِبَالُ
 كَالْعِهْنِ، وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً. يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَ الْمَجْزَمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ
 يَوْمَئِذٍ بَنِيهِ، وَصَاحِبَتَهُ وَأَخِيهِ. وَفَصِيلَتَهُ الَّتِي تُقْوِيهِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً، ثُمَّ
 يُنْجِيهِ، كَلَّا إِنَّهَا لَلْظَى - نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى. تَدْعُو مِنْ أَدْبُرٍ مُتَوَلَّى. وَجَمْعٌ فَاعِي﴾.
 وألفاظ هذه الآيات واضحة الدلالات - وبإمكان القارئ مراجعتها في (فن
 الاختزال القرآني).

ومن ثم عمد الله الملك المقندر. الرحمن. ذو المعارج إلى الكلام عن مصير هؤلاء الذين اتخذوا الله ولداً وأصرّوا على الحنث العظيم، وبأسلوبٍ ساخر، وذلك في الآيات (٣٦ - ٤٤) وقال: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا مُهْطِعِينَ - أَي مَادِّينَ أَعْنَاقَهُمْ يُدْبِمُونَ النُّظَرَ حَافِّينَ فِي حَالَةِ ذُلٍّ وَخُضُوعٍ بَعْدَ بُلُوغِهِمْ هَذِهِ النِّهَايَةَ الْمَاسَاوِيَةَ - عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ - أَي جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ هُنَا وَهَنَاكَ - أَيْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ، كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ، فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ. عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرَ مَنْهُمْ وَمَنْحَنَ بِمَسْبُوقِينَ. فَدَرَهُمْ خَوْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ. يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سَرَاعاً كَانَتْهُمْ إِلَى نُصُوبٍ يَوْفُضُونَ - خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذِلَّةً، ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ﴾. أَي هَذَا هُوَ الْيَوْمُ الرَّهِيْبُ الَّذِي سَبَقَ أَنْ أُنْذِرْتَهُمْ بِهِ سُورَةُ الْكَهْفِ وَسُورَةُ الرَّحْمَنِ وَالْوَاقِعَةِ.

وبعد أن ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا اللهُ وَلَدًا بِمَصِيرِ قَوْمِ نُوحٍ، وَذَلِكَ فِي سُورَةِ نُوحٍ. وَبِالْوَفْدِ الَّذِي قَدِمَ إِلَى مَكَّةَ وَحَقَّقَ فِي صَحَّةِ دَعْوَى هَذَا الرَّسُولِ الْأَمِينِ وَأَمَّنَ وَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْهُدَى. وَذَلِكَ فِي سُورَةِ الْجِنِّ. تَنْبِيْهُاً لِأَذْهَانِ هَؤُلَاءِ الضَّالِّينَ الْمَكْذِبِينَ وَتَذْكِيراً بِالنَّبَوَاتِ الْوَارِدَةِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالدَّالَّةِ عَلَى هَذَا الرَّسُولِ الْكَرِيمِ. وَبَعْدَ أَنْ فَرَّغَ جَلَّ شَأْنُهُ مِنْ تَوْجِيهِ رَسُولِهِ الْأَمِينِ ﷺ نَحْوَ مَهْمَّتِهِ الْآتِيَةِ، وَذَلِكَ فِي سُورَتِي الزَّمَلِ وَالْمَدَنِيِّ، رَاحَ جَلَّ شَأْنُهُ فَخَصَّصَ سُورَةَ الْقِيَامَةِ، تَعْبِيراً عَنْ هَذِهِ النِّهَايَةِ الْبَشَعَةِ الَّتِي سَيُؤَوَّلُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَصْرَوْا عَلَى الْحَنْثِ الْعَظِيمِ.

فَأَتَى فِي الْآيَةِ السَّابِعَةِ بِعَلَامَةٍ مُمَيَّزَةٍ تَحْدُثُ زَمَنَ بَعْثَةِ شَاهِدٍ مِنْهُ الْمَثِيلُ لِابْنِ مَرْيَمَ الَّذِي سَتَحَقِّقُ هَذِهِ الْأَنْبَاءُ السَّالِفَةَ بَعْدَ بَعَثَتِهِ، وَيَتَحَقَّقُ هَذَا الْإِنْقِلَابُ الرُّوحِي السَّابِعُ الْكَبِيرُ عَلَى يَدَيْهِ، وَقَالَ، جَلَّ مَنْ قَائِلٌ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ. وَخَسَفَ الْقَمَرُ. وَجُمُعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ. كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ. يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ. بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾. وَالْمَعْنَى إِذَا بَرَقَ بَصَرُ النَّاسِ الَّذِينَ سَيُعَاصِرُونَ أُمَمَ هَذَا الْمَسِيحِ الدَّجَالِ مُتَحَيِّرِينَ وَدَهْشِينَ مِنْ رُوعَةِ مَا يَشَاهِدُونَهُ مِنْ عِلْمٍ وَاعْتِرَاعَاتٍ وَوَسَائِلِ رَفَاهِيَةٍ جَذَابَةٍ تَحَقَّقَتْ عَلَى أَيْدِي هَؤُلَاءِ، تَجْذِبُهُمْ نَحْوَهُمْ.

ويضيف الله الملك المقتدر. الرحمن، ذي المعارج مُنبأً عن ظهور علامة سماوية تُعاصر زمن بعثة مثل ابن مريم الذي يكون من مهمته قتل حالة هؤلاء الخنزيرية وكسر صليبيهم أي إبطال دينهم بالحجة والبرهان، يضيف تعالى مُنبأً عن ظهور هذه العلامة السماوية التي أوردتها كتاب حديث الدار قطني بالفاظ: (إنّ لمهدينا آيتين لم تكونا لبشر منذ خلّق الله السموات والأرض، ينخسف القمر لأوّل ليلة من رمضان وتتكسّف الشمس في النّصف منه). أنبأ تعالى عن هذه العلامة التي حدثت عام (١٣١١هـ الموافق لعام ١٨٩٤م) وذلك شرقي الكرة الأرضية في أوربة وأفريقية، كما تكرّر ظهور هذه العلامة السماوية بعد عام، أي عام ١٨٩٥م غربي الكرة الأرضية في أمريكا - وفقاً لما سجّلته مؤسسات الرّصد الفلكية في عدّة أقطار من العالم. وهذه هي دلالة: ﴿وَنُخَسَفَ الْقَمَرَ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾. ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾. أي يضحّج الناس بعد زمن ظهور هذه العلامة السماوية الدّالة على بعثة المهدي المنتظر. يضحّجون من شرور وخطرة هذين الثّقليين، ولا يجدون لأنفسهم مهرباً ممّا يُعانونه من ظلمهم ومكائدهم، وهنا ينبّه الله الملك المقتدر. الرحمن، ذو المعارج أذهان النّاس الذين وصفهم بالوصف المذكور. ويقول: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ. يَنْبَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾. وكلاً أداة زجر وتوبيخ يوجّهها جلّ شأنه إلى الذين سيسلمون بسيادة الذين اتّخذوا الله ولداً على العالم، ويقول ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي خستتم، فلا بدّ أن ينزل عذاب الله بهؤلاء، فلا يستطيع أن يحول بينهم وبين مصيرهم المقدّر لهم أيّ حائل، وستؤول أحوال يومئذٍ إلى صالح دين الله الملك المقتدر ووفقاً لمشيئته عزّ وجلّ. وهذه هي دلالة قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾. أي سيتحقّق نتيجة لجميع التطوّرات القادمة يومئذٍ إظهار الدّين الإسلامي على الدّين كلّ ولو كره المشركون.

وهذا هو مادفع هذا الملك المقتدر الرحمن ذو المعارج أن يُنهي سورة القيامة. هذه بقوله تعالى: ﴿يَحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنًى يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخُلِقَ فُسُوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى، أليس ذلك بقادر على أن يُحيي الموتى﴾. أي يُحيي موتى النّفوس، هذا الموت الروحاني الذي تسبّب به هذان الثّقلان؟

فكم هي عظيمة أنباء سورة القيامة هذه التي أشعرت القارئ أن موضوع هؤلاء الضالين المكذّبين محسوم منذ زمن نزول سورة الكهف. فسبحان الله وبحمده سبحانه الله العظيم اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم وبارك إنك حميد مجيد.

فإلى هنا يكون القارئ قد ألم من جهة بالانقلابات الكبرى التي تحققت على أيدي الفريق الذي أبلس من رحمة ربه، وكذب بما أنزل الله تعالى على آدم والأنبياء الذين بعثهم الله من بعده، هذا الفريق الذي اصطلاح له القرآن الكريم تسمية إبليس والشیطان وذرية الشيطان، كما يكون هذا القارئ قد ألم من جهة أخرى بالانقلابات الروحية الكبرى التي أحدثها رب العالمين، لتطویر عقل هذا البشر الذي أخرجه آدم من كهفه لتهديه وتحضيره، هذا البشر الذي آمن بآدم وما أنزله ربه عليه وعلى الأنبياء الذين بعثهم الله من بعده، والذين اصطلاح القرآن لهم تسمية مؤمنين ومسلمين وذرية آدم أيضاً. كما يكون هذا القارئ ألم من جهة ثالثة بالانقلاب الروحي الكبير الذي يحدثه رب العالمين منذ بعث "شاهداً منه" مثيل ابن مريم، هذا الانقلاب الذي نقف نحن والعالم على أعتابه.



الفصل السادس اتصال الله بالبشر ومنهاجه :

وهذه الانقلابات جميعها يثبت منها صدق ما استهلّ الله تعالى به دعاء الفاتحة وهو: ﴿الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم مالك يوم الدين﴾. ذلك أنّ جميع أنواع الحمد لا يستحقها على وجه الأصالة إلا هذه الذات العظيمة التي تحمل هذه الأسماء الحسنى، والمرتبة لجميع ما أوجدته من عوالم ومخلوقات، هذه الذات التي كانت تكلم البشر وستظلّ تكلمه بطرق ثلاث وحيّاً، ومن وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، هذا وإنّ كل إنسان يتنكّر لهذه الحقيقة، حقيقة استمرار نزول كلام الله بهذه الطرق الثلاث، يكون كالذي ينكر وجود الشمس وهي ساطعة بأشعتها الذهبية في رابعة النهار، ولا بدّ لمن يطالع البحث الثاني من هذا الكتاب والمسمّى دربُ العرفان الإلهي، لا بدّ له أن يجرب العمل على ماتضمنه من تعاليم قرآنية تؤهله لمعرفة ربّه وخالقه والفوز بمحبته ورضاه وقربه والاتصال به وتلقي بشارات كلامه المبارك الذي يثبت فؤاده على الإيمان، ويدفعه قدماً على درب العرفان، ويأوي إلى حصن ربّه الحصين.

أي أننا أثبتنا حتى الآن أنّ كلام الله تعالى رافق وجود البشر على كوكبنا الأرضي، ولولا ذلك لظلّ البشر مخلوقاً يشبه بقية العجماوات، فالله عز وجلّ ميّز هذا المخلوق البشر عن غيره بنعمة العقل، فتوّج تعالى بالعقل النفس البشرية التي أوجدها الخالق من نطفة أمشاج، ليهب خالقنا هذا الإنسان إمكانيّة وعيه لما يدور من حوله، وعيه لما يتلقاه من كلام ربّه، وعيه لحقيقة حياته الدّنيا فمأهية إلا الطّور الأوّل على طريق تطوّر طويل لانهاية له. يؤهله في النهاية ليشكّل شريحة من شرائح المملكة السماوية التي تملكها هذه الذات الإلهية الخالقة، ويكسب بذلك حياة الخلود.

ألا وإنني سبق لي أن تكلمت عن الكيفيّة التي يُكلم الله البشر بواسطتها من وراء حجاب وأثبت ذلك بأدلة من كتاب الله العزيز. فوضّحت في حينه أن هذا النوع من المكالمة الإلهية يتم وفق منهج مُعيّن، أجلّت الكلام عليه إلى حين.

وها أنها قد حانت ساعة الكلام عن المنهج المذكور. لكنني أرى من الضروريّ قبل ذلك تلخيص ما أتيت على بيانه وبأسلوبٍ علميٍّ مدللٍّ عليه فيما يتعلق بكيان هذا البشر الذي يكلمه الله تعالى من وراء حجاب، مُساعدةً مني لهذا القارئ على إدراك حقيقة ما يراه الإنسان في منامه، وما يتلقاه من كلام ربّه من وراء حجاب.

١- ممّ يتألف كيان الإنسان ؟

فلقد أثبت حتى الآن أنّ الإنسان قد رُكّب من نفس وجسدٍ وعقل. فالنفس، وبوسيلة هذا العقل، تتبادل التأثير مع هذا الجسد المجهزٌ بالحواس الخمس، ووفق قوانين مسنونة. لتحظى بالوعي والإدراك لما حوله. وتستفيد من جرّاء ذلك من تلقى هذا البثّ الخارج عنها، فتتعامل معه وفق مابغته من وعي وإدراك. ويعزل عن دوافع غرائزها وميوها وشهواتها.

وبما أنّ هذا الجسد المادّي وما يملكه من حواسّ كان محدود الاستطاعة. فقد سنّ الله بحالقه من أجل تجديد نشاطه نظام الليل والنهار، فجعل نهار هذا الإنسان معاشاً وليله سباتاً. والذي يحدث خلال فترة السبات هذه أن تتحرّر النفس البشرية إلى حِلْمٍ ما من إसार جسدها، فتنتقل في عالمٍ برزخي تحصد فيه يومياً ثمار مابغته من وعي وإدراك، وثمار آثار ما تركه سعيها الذائب اليومي وما أقدمت عليه من أعمال وما انتهت عنه من نواهي، وما التزمت به من تعاليم، أي أنّ هذه النفس البشرية تعود تواجه بثاً من نوع جديد غير البثّ الخارجي الذي كانت تتلقاه في حالة يقظة جسدها ونشاطه وحيويّته. وهذا البثّ الذي تتلقاه النفس في حالة خمول جسدها وراحته، يتمثّل في هذه المشاهد التي يراها النائم والتي تأتي على شاكلة ما يراه الإنسان في يقظته إنما مع اختلافٍ في القوانين النّاطمة لكلا الحالتين.

ويتوقّف الباحث هنا لحظات يتساءل: وكيف ترى هذه النفس بحواسٍ في اليقظة وبغير حواسٍ في حالة النوم؟

أقول في الإجابة على هذا السؤال: أنّه سؤال قد حيرَ الباحثين، وعلماء النفس منهم خاصّة، فذهبوا في ذلك مذاهب شتى، نحن بغنى عن سردها في هذا المقام، فليس المقام مقام الكلام عن عالم المنام، هذا العالم الذي أورد القرآن

الكريم بحقه قول ربنا عزوجل: ﴿هو الذي يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت، ويُرسل الأخرى إلى أجلٍ مُسمى﴾. ففعل الله عزوجل يوفقي يوماً ما لأكتب كتاباً عن حقيقة عالم المنام. وأضيف على هذا الذي ذكرته هو ما توصل إليه علمي في مضممار الإجابة على السؤال المطروح، أن سر ذلك يعود إلى ملكة العقل نفسه، فهذا هو ما أثبتته العلم في القرن العشرين. وهو الأمر الذي يتفق مع الطرح القرآني. فما لم يتوصل إليه العلماء من حقائق طرحها القرآن الكريم حول هذا الموضوع، فلنقصير المادة وقوانينها ووسائلها عن بحث تلك الحقائق القرآنية التي طرحها تعالى، قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، ذلك أن كتاب الله العزيز قسم ما يراه النائم إلى قسمين متميزين: أضغاث أحلام، وكلام الله من وراء حجاب، وأضغاث الأحلام مصدرها ما يثبته ما اخترته العقل من معلومات إلى جانب ما يثبته أعضاء الجسم من إحساسات، وإلى جانب ما يرنّ في أذن النائم من أصوات. أما القسم الثاني، وهو كلام الله من وراء حجاب، فيشكّل في حد ذاته محطة بثّ خارجيّة تتجلى من خلالها أسماء الله الحسنى على هذا النائم بتمثلاتٍ ووفق المنهج الذي سنتكلّم عنه إنشاء الله العزيز. وأنّى للأبحاث العلميّة أن تطال هذه التجلّيات الإلهية وتمثلاتها، إلّا عن طريق آثارها التي تظهر على أيدي المؤمنين السالكين درب العرفان الإلهي؟

٣- حقيقة العقل ومحطة بثّ أضغاث الأحلام:

فيتساءل القارئ: وكيف يكون العقل مصدر ما يراه النائم من أضغاث أحلام؟ وكيف يحيط هذا السائل علماً بالإجابة الصحيحة العلميّة - الخّص من أجله ما توصل إليه العلم بشأن حقيقة العقل.

ففي حين ذهب علماء القرن التاسع عشر إلى أنّ الدّماغ يفنى بعد الموت ويفنى معه بالتالي عقل الإنسان، فقد خلّصت أبحاث العالم شرنغتون مؤسس علم فسيولوجيا الأعصاب الحديثة في القرن العشرين إلى أنّ العقل يستعصي على الكيمياء والفيزياء في مجال أنشطته وآليات علمه، ووافقه على ذلك السيرجون إكلس العالم المتخصّص في مبحث الأعصاب. فهذان العالمان وأمثالهما ذهباً إلى

أنّ البصر يُعطينا ولاشكّ وفي كلّ لحظة صورةً ثلاثية الأبعاد لعالم خارجي، ويأتي دور العقل فيُعطِي هذه الصُّور التي يتلقاها بطريق البصر سمات ألوانها ومعانها وبطريقة مجهولة عن المعلومات المنقولة بالرموز التي ترسلها شبكية العين إلى الدماغ. وأنّ عملية الترجمة المزروجة التي يقوم بها الإدراك الحسيّ تشكّل أعجوبة تبعث على الدهول، ولقد راح هؤلاء العلماء يضربون أمثلة عملية من واقع الإنسان تضرب عنه صفحا في هذا المقام، أي أنهم حاولوا إثبات أنّ المادة وحدها لا تستطيع تفسير الإدراك الحسيّ الذي يقوم به عقل الإنسان. فجميع العمليات التي يقوم بها العقل للإبصار والشمّ والذوق والسمع واللمس لا تملك التجارب المادية تفسيراً لها وإجاباتٍ صحيحة لها، وبألفاظ أخرى فقد سلّم علماء القرن العشرين بوجود جوهر العقل واستقلاليته.

كذلك توصلوا إلى أنّ إدراك الإنسان للأشياء لا يتحقّق بوحدةٍ من الحواس الخمس بل بتضافر أكثر من حاسةٍ واحدة وفي وقت واحد، إلى جانب هذا الإحساس الداخلي الذي يوفّره العقل الذي يخزّن المعلومات ويملك قدرات تذكّر وهذه المعلومات وتخيل أشياءها أيضاً، وتساعد على ذلك ما تحمله النفس البشرية من قوى متضادة كالحبّ والغضب والفرح والخوف والأمل والرغبة والحزن، وعلى اعتبار أنّ هذه القوى النفسية لا تندرج تحت عمليات الإدراك السمعي والشمّي والذوقي والإبصاري واللمسي، وبكلمة مختصرة فالقوة العقلية تمكّن الإنسان من إدراك ماهية الأشياء، وفهم عللها وحكمها. هذه الأمور التي تعجز عن أدائها الحواس الخمس، كذلك تمكّنه من الربط ما بين المكان والزمان الرباعي الأبعاد وفقاً لنظرية آينشتاين النسبية. كذلك يخلق العقل إرادة شخص صاحبه والتي قد تغلب أحياناً على عاطفته. ومن هنا ندرك سبب إطلاق العالم ويلدر بنفليد المتخصص بجراحة الأعصاب عنوان (لغز العقل) على مؤلفه المشهور الصادر عام ١٩٧٥م، والذي أثبت فيه أن العقل لا يعمل عملاً آلياً مادياً. بل يُراقب بعزلة تامّة عن ذلك كلّ. فالإدراك لا يتوقّف على النشاط العصبي.

٤. العقل يقع خارج الدماغ وليس داخله :

كذلك لا مقرّر ولا مركز للعقل والإرادة في دماغ الإنسان، أي أنّ العقل البشري وإرادة الإنسان لا يملكان أعضاء مادية ضمن جسم الإنسان صاحب هذا

العقل وهذه الإرادة، لذلك فبإمكان العقل والإرادة التحكم بالأفعال التي يقوم بها جسد الإنسان، وبإمكانه توجيه أنشطة الدماغ، فالعقل، لا الدماغ، هو الذي يراقب ويوجه ذلك كله وفي آن معاً. فالعقل إذن جوهرٌ متميِّزٌ ومختلفٌ عن الجسم، وقد أعلن أخيراً العالم الفيزيائي بنفليد «أن ملكي العقل والإرادة خالدتان ولا تفنيان بعد فناء جسد الإنسان الترابي».

ألا إن هذه النتائج والحقائق التي توصّل إليها علماء القرن العشرين، تتوافق مع ما طرحه القرآن الكريم من طروحات متعلّقة بعقل الإنسان وإرادته، لذلك قلت آنفاً أن فهم موضوع العقل يساعد على فهم حقائق ما يراه الإنسان في منامه من أضغاث أحلام. فمن سلّمت محاكمات عقله، ومُحتزنات علومه، وسلوكه اليومي، يسلم من رؤية أضغاث الأحلام، ويعود مستعداً وعلى حسب صلاحيته، لتلقي بثّ تجليات أسماء الله الحسنى وتمثلاتها خالصة في الساعات التي يخلد فيها إلى النوم والراحة بعد أن يبلغ حسُّ جسده مبلغه من الجهد والإعياء.

وهناك سؤال يفرض على الباحث نفسه: وهو هل يُخطئ العقل في عمليّات وعيه وإدراكه؟ وما أثر ذلك على تصرفاته في يقظته وفي منامه؟ والجواب يلخص بكلمة نعم، وفي إمكانية خطئه، إمكانية التأثير على تصرفاته في يقظته وفي منامه.

٥. العقل يخطئ في اليقظة وفي حالة النوم :

فالنفس البشرية تتحرك إقداماً وإحجاماً، برفقة جسدها في حالة اليقظة بتوجيه من عقلها وإرادتها وأحياناً بدافع من ميولها وغرائزها وشهواتها. وإن هذه النفس البشرية ما إن يطراً على جسدها هذا الموت الظاهري، وتستقل نوعاً ما، تظلّ تتحرك بتوجيه من عقلها وإرادتها وبدوافع ميولها وغرائزها وشهواتها، بسبب عدم انفصالها انفصالاً كلياً عن جسدها.

ومادام عقلها مُعرّضاً للخطأ في حالة يقظتها، ويترك ذلك أثره على تصرفاتها، فالأولى أن تزداد الأخطاء التي يقع فيها هذا العقل في حالة نوم صاحبه لاختلال مصادر البث الخارج عنه في تلك اللحظات. فالحواس خاملة، والنائم تكون مصادر البث لديه من داخله ومن خارجه، ووفق ما اختزنه عقله من معلوماتٍ وذكرياتٍ لذلك تتحرك هذه النفس النائمة وفق معطيات هذا البث

الجديد الناقص المعطيات فيتزأى لهذا النائم ما يراه من أضغاث أحلام وفق اصلاح القرآن الكريم.

وأضرب للقارئ أمثلة تفسر ما يقع فيه العقل من أخطاء في حالتي اليقظة والنوم. فلو أدخل هذا القارئ في حالة يقظته النائمة عصا مستقيمة في بركة ماء. ينكسر منظر هذه العصا داخل الماء ولا تعود تُرى مُستقيمة في عينيه. فهذا خطأ يقع إدراك الإنسان فيه في حاله يقظته، ويصحح العقل مأخوفاً في وعيه عن طريق التجربة والملاحظة والاستنتاج العلميين. فهذا مثال يمثل خطأ إدراك عقل الإنسان في حالة يقظة صاحبه.

أما إذا كان صاحب هذا العقل نائماً، وحدث أن طنّ في أذنه صوت حشرة أو قرع باب أو أي صوت من نوع آخر، فلا يملك هذا العقل لتفسير ذلك إلا مُعطيات ما أدخره من معلومات في ذاكرته، وما يملكه من قدرات تساعده على محاكاة ما سمعه من أصوات، ووفق عالم برزخيّ ينعلم فيه الزمان والمكان وتنعلم فيه الحاجة إلى العوامل المساعدة التي تساعد الحواس على أداء وظائفها في حالة يقظتها. إلى جانب ما بلغته إرادة هذا الإنسان من استقلالية وقدرة على تصريف أموره. فهذه العوامل جميعها تلعب أدواراً رئيسة في موضوع الأخطاء التي يقع فيها عقل هذا الإنسان النائم وإرادته، ويُلقى هذا كله بالتالي بآثاره على ما تراه هذه النفس البشرية أثناء الفترات التي يستلقي فيه جسدها إلى الحمول والنوم بسبات عميق. وهذا هو سرّ تسمية القرآن الكريم لما تراه النفس البشرية بدوافع هذا النوع من البثّ الذي ذكرناه تسميتها أضغاث أحلام، فأضغاث جمع ضغث، من ضغث الحديث: خلطه (محيط المحيط).

٦- تأويل الرؤى يحتاج صاحبه إلى لياقات :

فالذي يهمنّا من جميع ما ذكرناه هو أن نعلم بأنّ قوى النفس البشرية يلازمها جهاز العقل في حالتي يقظتها ومنامها، وبشكل معها كياناً واحداً لا ينقسم بحال من الأحوال، ولا تستطيع العين المادّية إدراك هذا الكيان، إلاّ بآثاره. كالمغناطيس لا يدرى بوجوده إلاّ من خلال جاذبه لبرادة الحديد. ويشبه حال هذا الكيان النفسي حال الشاشة التلفزيونية مع الفارق بينهما فيستقبل هذا الكيان النفسي البثّ الخارج عنه، والذي يأتيه من طرف ميوله وغرائزه وشهوته

أيضاً. ويقوم جهاز العقل بتحليل ما يرد إليه ويحاول إدراكه، وتتدخل الإرادة للاستفادة من كل ذلك وللعمل عليه على قدر استطاعتها. فهذا هو تشخيصي لحال هذه النفس البشرية والتي يأتيها أحياناً بث من نوع مغاير لجميع أنواع البث التي ذكرناها، ألا وهو ما تبثه تجليات أسماء الله الحسنى، التي يراها النائم على شكل تمثيلات مغايرة للقوانين العقلية والإرادية وما تشكّله من أضغاث أحلام يراها هذا النائم في منامه. أقول يُرى تمثيلات هذا البث الرحماني أحياناً صافية، وأحياناً ممزوجة بأضغاث الأحلام، وبشكل يتناسب طرذاً مع الشفافية الروحية لهذه النفس البشرية وصفاتها بما يشوبها من أدران معصيتها لمشيتها خالقها عز وجل. ويحدث ذلك كله وفق نهج معلوم اختطه البارئ جل شأنه حين يشاء مكاملة عبده من عباده من وراء حجاب، وهكذا يكون القارئ قد أصبحت رؤيته الموضوعية لموضوع الأحلام التي تعرض له في نومه، رؤية علمية الجوانب، ومن صميم دلالات آيات كتاب الله العزيز، لكن ذلك لا يكفي هذا القارئ ولا يساعده على تأويل وتفسير ما يراه في منامه. بل لابد له من أن يُحيط علماً بالمنهج الإلهي وتوابعه هذا الذي ترتبط به هذه التمثيلات أي هذه النظائر والتشابه التي تشكّل كلام الله مع من يراها من وراء حجاب. ذلك أنّ كلمة التمثيلات والمثل جمع مثل ومعناه الشبه والنظير، ويجمع على أمثال أيضاً (محيط المحيط). فمن جرّاء إحاطة المؤمن علماً بهذا المنهج الإلهي وتوابعه الذي ترتبط به تمثيلات ما يكلمه الله ربّه به في منامه، يحيط هذا المؤمن علماً بدلالات ما يراه من نظائر وتشابه. ومن هذا يتضح للقارئ الواجب الملقى على عاتق كل مؤمن، وهو أن يسعى جاهداً لفهم هذا المنهج الإلهي وما يتبعه من أمور، فالموضوع يتطلّب من كل مؤمن يصبح عالماً بتأويل ما يتمثل له في منامه، يتطلّب منه التحلي بلياقات روحية وعلوم واستعدادات مُحَاكِمِيَّة ومهارات.

وهذه البلياقات لا تتوفر لكل إنسان مؤمن لذلك قال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ كَانَ بِهِ خَبِيرًا﴾. خصوصاً وأنّ الرؤيا الصالحة لا تأتي دوماً نبياً مُستقبلي. بل قد تمثّل حالة مضت تفيد رضي الله تعالى عن فاعلها، أو قد تمثّل حالة ستحدث في المستقبل، أو تمثّل حالة يهّم صاحبها على أن يُقدم عليها، ويحمّثه الله ربّه ويشيره بنجاحه إن هو أقدم عليها.

فإن تحلّى هذا المؤمن بتلك الّياقات الرّوحية وتلك العلوم والاستعدادات من المحاكمات والمهارات، يعود بإمكانه التّفريق بين مايشه عقله وإرادته من أضغاث أحلام في نومه، وماين ماتّبه تجلّيات أسماء ربّ العالمين، حيث أنّ الفارق بين هذا وذاك يكون كبيراً من حيث ماهيّة ومن حيث القوانين الناظمة لكلّ نوع من هذين النوعين المذكورين من الأحلام.

فأضغاث الأحلام التي يثّها عقل الإنسان وإرادته لاشعورياً تطلّ تنظّمها القوانين التي تنظّم المشاهد المادّية المترائية في حالات اليقظة. أمّا تجلّيات وتمثّلات أسماء الله الحسنى، فلا تتبع تلك القوانين. بل لها قوانينها الناظمة لها، والتي تخالف تلك القوانين المادّية.

وقد يعجب القارئ ممّا ذكرته له آنفاً، ويرجو توضيح ذلك بمثال علمي. لذلك أعمد هنا لتقديم هذا المثال، فأقول: إنّ من المتعارف عليه في بيتنا أن تختصّ المرأة وحدها بوضع عقد زينة حول رقبتها، تحلّي به مظهر من جيدها. فإن شاهد امرؤ نفسه أنّه يضع عقد لؤلؤ على سبيل المثال حول رقبته. وهو الأمر الذي لا يحدث في أضغاث الأحلام.

بل في الرّؤى التي هي من قبيل كلام الله مع عباده من وراء حجاب. توجّب على الإنسان الذي يتصدّى لتأويل ذلك أن يستفسر من هذا الرّجل عن حاله، ذلك أنّ الله عزوجلّ يكلم كلّ عبد من عباده على قدر عقله وحاله. فإن تبين أنّ الذي رأى هذه الرّؤيا هو طالب علم ديني وبصدد حفظ آيات كتاب الله جميعها عن ظهر قلب. فإنّ تأويل هذا التمثّل النّظير يحمل بشارة لهذا الطّالب أنّ ربّه يبشّره أنّه سيوفقه إلى حفظ كتابه العزيز، فيجعله عقد زينة يحلّي به جيده على شاكلة ماتّحلي المرأة به جيدها من عقد.

أو تبين لهذا العالم صاحب الّياقات المذكورة أنّ صاحب هذه الرّؤيا يسعى ليكون فقيهاً في الدين. فإنّ ماآه يحمل له بشارة من ربّه يبشّره فيها أنّه سيجعله في نهاية المطاف فقيهاً في دينه. ويجعل علم فقه دينه هذا عقداً يحلّي به جيده على شاكلة ماتّحلي المرأة جيدها من عقد.

أو كان بين صاحب هذه الرّؤيا وبين قومه أو فريق من الناس عهد وعقد يجد أنّ من العسير عليه الوفاء به ويدعو ربه أن يوفّقه لوفائه، فإنّ هذه الرّؤيا تحمل لرائيها المذكور جواب دعائه، وهو أنّ ربّه سيوفقه في نهاية المطاف للوفاء

بعهده المذكور، معتزاً بذلك الوفاء على شاكلة ماتعتر المرأة بعقدها الذي تحلّي به جيدها، هذا وعلى هذه الشاكلة تدرك دلالات البشارات السماوية التي تحمل تجليات وتمثلات أسماء الله الحسنى من وراء حجاب، فشتان ما بين رؤى أضغاث الأحلام التي لا تختلف القوانين الناطمة لها عن القوانين المادية المعروفة في شيء يُذكر، وما بين الرؤى الصادقة التي تنظمها قوانين تختلف عن تلك القوانين كلّ الاختلاف.

والآن وبعد أن وضّحت جميع ماسبق توضيحه أتوجّه بالكلام عن النهج الإلهي وتوابعه، هذا النهج الذي اختطه البارئ تعالى نهجاً متميّزاً، يمتاز به كلام الله تعالى من وراء حجاب عن جميع ما يراه النائم في منامه من أضغاث أحلام بثها عقل الرائي وإرادته وبصورة لا شعورية، عمّا يراه متشابهاً مع ما يراه هذا الرائي في يقظته.

٧- منهج الكلام الربّاني من وراء حجاب:

فإن أمعن هذا القارئ فيما قدّمته له من مثال آنف ذكره، يتحسّس لامحالة بوجود منهجية وراء هذا المثال تنظم قوانين تمثلاته. وأنّ هذه المنهجية هي التي تساعد العالم المفسّر على إمكانية تأويل ماتضمّنه المثال من أحوال. فلولاً وجود هذه المنهجية لعاد ما يقوم به هذا العالم لا يعدو كونه هذاراً أو خبط عشواء.

والحقّ الذي لا مرأى فيه هو أنّ كلام الله تعالى من وراء حجاب، يستند إلى نهج محدّد عناصره، وإلى أسلوب منطقيّ سليم، وهل يمثّل أحدنا مثلاً لإنسان يقف في مقابله من خارج علمه وكلامه؟ وهذه المنطقية في عملية تقديم النّظير والشّبه من جانب تجليات أسماء الله الحسنى يتّسم بها هذا النهج الربّاني. ولولا ذلك لناه العالم والجاهل في وقت واحد في خضمّ ما يراه الناس في حالات نومهم، من كلام ربّاني موجه إليهم خاصة.

ولنعلم أنّ كتاب الله العزيز يشكّل مرجعنا الأول والأخير لفهم عناصر هذه المنهجية لذلك يطالب كلّ عالم يسعى إلى تأويل تمثلات تجليات أسماء الله الحسنى، أن يرجع إلى هذا الكتاب العزيز، وأن يكون في الوقت نفسه محيطاً علماً بعلوم هذا القرآن الكريم وبدلالات آياته، وبما تضمّنه من حكم وأمثال تناسرت بين سطور آيات هذا الكتاب هنا وهناك. كذلك يشترط على هذا العالم أن يتبين

أولاً حال صاحب الرؤيا المطلوب منه تأويلها والتي جاء صاحبها يستفتيه في أمرها.

هذا على اعتبار أن الله ربنا يكلم كل عبد من عباده على قدر مؤهلاته العقلية، وهذا هو سرّ مضمون الحديث الشريف القائل: (أمرت أن أكلّم الناس على قدر عقولهم). ومن باب الإتيان بهذه الصفة الربانية التي ذكرتها آنفاً. وكذا يلتبس أمر فهم هذه اللياقة التي تتطلبها هذه المنهجية، أعمد إلى توضيح ذلك بأمثلة تزيل كل لبس يكتنفه.

فليفترض هذا القارئ أن إنساناً ما تمثّل له هذا القرآن في منامه فلينظر هذا العالم وليتبيّن أولاً حالة ما تمثّل، وحال الذي تمثّل له، فإن تبين له أنّ بين صاحب الرؤيا، وبين خصم له دعوى دائرة حول خلاف بينهما، على سبيل المثال فلا بدّ وأن يكون هذا الإنسان قد شاهد نفسه يقرأ القرآن عن ظهر قلب ومن دون وساطة مصحف بين يديه. وبذلك يبدو هذا التمثّل الذي شاهده في منامه حيثشذ مرتبطاً ارتباطاً موضوعياً بحال صاحب هذه الرؤيا. ويكون هذا التمثّل يحمل لصاحب هذه الرؤيا بشارة من ربه يزفّها إليه، وهو أنّه على حق في ادّعائه وأنّ خصمه على باطل، وأنّ هذا المبشّر سيفوز في دعواه.

أمّا إذا لاحظ القارئ أنّ صاحب الرؤيا شاهد نفسه يتلو آيات قرآنية مخصوصة بعينها وأنّه حفظ تلك الآيات بعد يقظته. فلينظر القارئ وليتدبّر مضمونها، فإن لاحظ أنّها تحمل دلالات مبشرة، فإنّها تحمل لصاحبها بشارة يصيبها في أمر من شؤون دنياه، وإن لاحظ أنّها تحمل وعيداً بعذاب وإنذاراً، فإنّها تحمل لصاحبها وعيداً وإنذاراً بعذاب ينزله الله تعالى به من جرّاء معصية ارتكبها أو إثم صدر عنه - وقس على ذلك بقية الحالات - وهذا يعني أنّ تمثّل هذا القرآن الكريم للإنسان في آية حاله كانت، لابدّ وأن تكون لها دلالتها وتفسيرها ومنهجيتها.

فعقل الإنسان وإرادته لادخل لهما في العالم البرزخي المذكور، لذلك فإنّ الذي يكون عدواً لله وللإسلام قد يرى أنّه يكتب آيات قرآنية على الأرض، ويكون تأويل رؤياه هذه أنّه في نظر ربه زنديق. أو قد يرى نفسه أنّه يكتب الآيات القرآنية على خزف أو صدف أو كساء. فدلالة ذلك أنّ ربه يفهم هذا

العدو أنه يجهل دلالات هذه الآيات البينات، فلا يفهم منها إلا ما توسوس به نفسه.

فلو سعى القارئ إلى إحصاء ما يراه الناس على صعيد تمثيلات تجليات الأسماء الحسنى في حالات النوم، لتوصل من خلالها إلى تصديق ما ذكرته له. لكن الأمر المؤسف هو أن الناس لا يقومون حتى اليوم بمثل هذه الإحصاءات. لذلك لاندلا حظهم ينطلقون بما انطلقت منه.

ثم إن كل من طالع كتب الحديث الشريف لابد أن لاحظ قول رسول الله ﷺ أن الشيطان لا يقدر أن يتمثل في شخصية رسول الله ﷺ، فمن رأى رسول الله ﷺ في منامه فقد رآه حقاً، ولو كان ذلك وفق حالة الرائي فلماذا نبه رسول الله ﷺ أذهاننا إلى هذه الحقيقة؟ نبهها بسبب ما لشخصه من قداسة عند ربه، فلا يقدر عقل الإنسان وإرادته تمثل ذلك من جانبهما.

هذا، ولقد ألقى الله عز وجل في روعي وأنا قائم أصلي بين يديه أن لكتابه العزيز نفس القداسة عنده جل شأنه، وإلى هذا الأمر وردت الإشارة في قوله تعالى من سورة الحجر: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ نُزَلُّ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. لذلك يعجز عقل الإنسان وإرادته أيضاً على أن يتمثل هذا القرآن في منامه على حسب هواه. فإن تمثل هذا القرآن لعدو في منامه، فلا بد أن تكون لتلك الرؤيا دلالتها التي يفقهها العاملون بتأويل الأحاديث، فليأخذ القارئ عني هذه المعلومة التي كشفها الله تعالى علي، ولتقصرها على بساط الواقع.

وليس هذا وحسب، بل إن الله جل شأنه، إعزازاً جانب له هذا القرآن الكريم، لا تتمثل تجليات أسمائه الحسنى إلا بما يوافق دلالات هذا الكتاب العظيم أيضاً. فلنترض أن إنساناً رأى نفسه ممسكاً بإنسان، وينزل به ضرباً مبرحاً ويقضي عليه، فليعد إلى قول الله عز وجل في كتابه العزيز القائل: ﴿وَإِذْ قَتَلْتَ نَفْساً فَجِئْنَاكَ مِنَ الِهِمِّ﴾. فبدلالة هذه الآية يؤول ما رآه. أي أنه مهموم لسبب من الأسباب، وربه يشتره أنه سينجيه من همّ المذكور.

وعليه فإن في هذه الظاهرة، ظاهرة منهجية متعلقة بمكاملة الله تعالى مع عباده من وراء حجاب، علماً بأن الله عز وجل يخاطب كل إنسان على حسب ما يحمله هذا الإنسان من عقل وعلم وقدرات، فالرؤيا الواحدة يراها اثنان أو ثلاثة، وتكون لتمثلاتها دلالات تختلف باختلاف الواحد منهم عن الآخر،

ولا يدرك هذه الفروق إلا عالمٌ علّمه الله تعالى تأويل ثَمَلاتٍ ماتتجلى به أسماءُه الحسنى به من تجليات، وقد تكون إرادة ربنا عزوجل حينئذٍ أن يفهم صاحب الرؤيا ما قصده ربه مما أراه في منامه، فيلقي في روعه تأويل ما أراه إياه في منامه أيضاً.

والظاهرة الثانية لهذه المنهجية المتعلقة بموضوع مكالة الله تعالى مع عباده من وراء حجاب، هو تمثيل تجليات أسمائه الحسنى أحياناً بما يوافق دلالات أحاديث رسول الكريم ﷺ تكريماً منه لرسوله الكريم، فعلى سبيل المثال ورد عن رسول الله ﷺ قوله بحق المرأة (إنّ النساء خلقتن من ضلع). فقد يحدث بين رجل وإمرأته خلاف يشتد إلى درجة كبيرة، ويتوجّه هذا الزوج بالدعاء ليصلح له زوجته، فيجيبه ربه لطلبه، وتمثّل هذه الإجابة التي تتجلى بها أسماء الله الحسنى، تتمثّل لهذا الرجل فيرى نفسه وقد أمسك بضلع من أضلاع زوجته بيديه وراح يقومه، فإذا استيقظ هذا الرجل يدهش ممّا رآه في منامه — لكنه إذا عاد إلى هذا الحديث الشريف الذي ذكرناه، وإلى دلالاته، يستنبط منه أن ربه يقول له إنّ سعيك شبيه بعملية تقويم ضلعٍ معوج فهل يستقيم هذا الضلع إن أنت حاولت تقويمه أو أنّ هذه العملية ستنتهي بكسر هذا الضلع المعوج؟ وكأنّ الله عزوجل يقول له بالفاظٍ أخرى إمّا إمساكاً. معروف أو تسريحاً بإحسان، وعليه فإنّ هذا النوع من الرؤى الصادقة تبدو في ظاهرها مخالفة للقوانين الطبيعية من جهة وتابعة لقوانين أخرى تختصّ بها من جهةٍ أخرى، وتأتي تمثّلها نابعة من دلالات أحاديث رسول الله ﷺ المتداولة على ألسنة المؤمنين، ويشكّل هذا النوع من الرؤى العنصر الثاني لهذا النهج الرباني المتعلّق بمكالة الله عباده من وراء حجاب. والأصل الثالث لهذا النهج، هو أن تأتي ثَمَلاتٍ تجليات أسماء الله الحسنى بما يُوافق ما اشتهر بين الناس من أقوال الأنبياء السابقين وحكمهم وأمثالهم، إعزازاً منه جلّ شأنه هؤلاء الأنبياء الذين كان قد بعثهم لإصلاح عباده الضالين. فعالم تأويل الأحاديث إذا عُرِضت عليه رؤيا لها صلتها بأقوال هؤلاء الأنبياء السابقين وحكمهم وأمثالهم، وكان مُلمّاً بها، يساعده ذلك على تأويل ما طلب صاحب الرؤيا منه تأويله.

والأصل الرابع لهذا النهج الرباني المتعلّق بمكالة الله تعالى عباده من وراء حجاب، هو أن تأتي ثَمَلاتٍ تجليات أسماء الله الحسنى بما يُوافق ما اشتهر بين

الناس من أشعار الأدباء، وبما تحمله هذه الأشعار من حِكْم وأمثال. من مُنطلق أنّه جل شأنه هو ربّ العالمين، وأنّه يخاطب عباده على قدر عقولهم وعلمهم وقدراتهم، فعالم تأويل الأحاديث يكون له أيضاً إمامه بتلك الأشعار وأمثالها وحكمها. ويساعده ذلك على تأويل ماطلب صاحب الرؤيا منه تأويله.

والأصل الخامس لهذه المنهجية ينبع من دلالات الأسماء والألفاظ اللغوية، لما يراه النائم في منامه فالرؤيا التي رآها النائم تفسّر حينئذ وفق دلالة اسم الشخص أو المكان أو الشيء الذي تمثّل له في منامه، ويكون اسم هذا الشخص أو المكان مستودعاً لما تحمله الرؤيا من دلالات. وعالم تأويل الأحاديث يوتى القدرة على التمييز المذكور، فيؤول التمثيلات بدلالات تلك الأسماء والأمكنة هذا إذا كانت الرؤيا صادقة، وعلامة صدقها أن تخالف قوانينها القوانين الطبيعية وأنت جواباً على دعاء الداعي بين يدي الله عزوجلّ.

والأصل السادس لهذه المنهجية المتعلقة بكلام الله تعالى مع عباده من وراء حجاب، ينبع من توافق خواص ما يراه النائم مع خواص الأشياء من فواكه وخضار وحبوب، فالذي تمثّل له تجليات أسماء الله الحسنى بما يماثل فاكهة أو خضراً أو حبوباً، من حيث الشكل فلينظر عالم تأويل الأحاديث فيما تحمله هذه الأشياء من خواص وفوائد ومضار، وليراعي حال الذي رأى شيئاً من هذه الأشياء أيضاً، وليتأكد من مخالفة القوانين النازمة لهذه الرؤيا مع القوانين الطبيعية التي تنظم أضغاث الأحلام، فإن أخذ بعين اعتباره هذه الاحتياطات جميعها، ساعده ذلك على تأويل ماطلب منه تأويله.

هذه هي أبرز عناصر هذا النهج الرباني الذي انتهجه ربنا عزوجلّ عند مخاطبته عبداً من عباده من وراء حجاب. وهناك عناصر أخرى غضضت الطرف عن ذكرها خشية الإطغاب. كذلك أعرضت عن ضرب الأمثلة لهذا السبب نفسه. خصوصاً وأنّ مكثبات أمتنا تضمّ بين الألوف المؤلفة ممّا احتوته من كتب، أقول تضمّ مؤلفات كتبها أشهر الأئمة المطهرون، ممّا فتحه الله عزوجلّ عليهم من علوم تأويل ما تمثّل به تجليات أسمائه الحسنى وفق المنهج الذي أتينا على أبرز أصوله. فمن هذه المؤلفات كتاب تعطير الأنام في تعبير المنام لمؤلفه الإمام الرباني عبد الغني النابلسي رحمه الله تعالى، وكتاب مُنتخب الكلام في تفسير الأحلام لمؤلفه الإمام الرباني محمد بن سيرين رحمه الله تعالى، فمؤلفات هذين الإمامين

تَمَثَّل خِزَائِنَ مَعْرِفَةٍ لَمْ تَأْتِ عَنْ اجْتِهَادٍ شَخْصِيٍّ بَلْ عَنْ فَتُوحَاتٍ عِلْمِيَّةٍ فَتَحَهَا اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمَا. وَلَا أَقُولُ أَنَّ مَوْلفَاتِ هَؤُلَاءِ الْأَبْرَارِ تُعَدُّ مَرَجَعاً نَهَائِيّاً، بَلْ هِيَ مَرَاجِعٌ أَوَّلِيَّةٌ، عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ مُعْطِيَاتِهِ، وَأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ هُوَ فِي كُلِّ يَوْمٍ فِي شَأْنٍ.

وَأُنْصَحُ بِهِذِهِ الْمُنَاسِبَةِ صَاحِبَ الرُّؤْيَا أَلَّا يَتَعَجَّلَ فِي تَأْوِيلِ مَرَاةٍ، وَأَلَّا يَتَعَجَّلَ أَيْضاً فِي أَمْرِ الْاِكْتِفَاءِ بِرُجُوعِهِ إِلَى الْمَوْلفَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، بَلْ لِيَدْعُو رَبَّهُ أَنْ يُلْهِمَهُ تَأْوِيلَ مَا رَأَاهُ إِيَّاهُ فِي مَنَامِهِ، وَلِيَقْصِّرَ رُؤْيَاهُ عَلَى صَاحِبِ خَبِيرَةٍ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ. أَوْ لِيَكْتُبَ مَرَاةً فِي مَنَامِهِ وَلِيَنْتَظِرَ مَاذَا تَأْتِي بِهِ الْآيَامُ تَصْدِيقاً وَتَفْسِيراً لِلَّذِي رَأَاهُ.

أَلَا إِنَّ مَكَالِمَةَ اللهِ لِلْبَشَرِ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ يَشْكُلُ عَالِماً مُسْتَقِلاً لَهُ مِنْهَجِيَّتُهُ وَمَقَوِّمَاتُهُ، وَهُوَ عَالَمٌ لَهُ مِنَ السَّعَةِ مَا يَجْعَلُهُ يَسْتَعْصِي فَهْمُهُ أحياناً عَلَى كِبَارِ الْأُئِمَّةِ الْمُخْتَصِّينَ بِتَأْوِيلِ هَذَا الْكَلَامِ الرَّبَّانِيِّ الَّتِي تَتَجَلَّى بِهِ أَسْمَاءُ اللهِ الْحُسْنَى وَتَتَمَثَّلُ تَجَلِيَّاتِهِ فِي حَالَاتِ نَوْمِ النَّائِمِينَ، وَالسَّبِيلُ حِينَئِذٍ أَنْ يَنْتَظِرَ صَاحِبُ الرُّؤْيَا إِلَى أَنْ يَرَى تَأْوِيلَ مَرَاةٍ عَلَى بَسَاطَةِ الْوَاقِعِ بِمُشِيئَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَلَا يَنْبَغِي لِلْقَارِئِ أَنْ يَظُنَّ أَنِّي انْفَرَدْتُ بِالْاِدْعَاءِ بِوُجُودِ هَذِهِ الْمُنْهَجِيَّةِ وَأَصُولِهَا الَّتِي ذَكَرْتُهَا آنَفًا، فَمَا جِئْتُ أَنَا بِأَمْرِ جَدِيدٍ فِي هَذَا الْحَقْلِ، بَلْ إِنَّ جَمِيعَ الْأُئِمَّةِ الرَّبَّانِيِّينَ الَّذِينَ أَلْفَوْا كِتَاباً فِي تَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ، أَحَاطُوا عِلْماً بِوُجُودِ هَذَا النِّهَجِ الرَّبَّانِيِّ، وَذَهَبُوا فِي ذَلِكَ مَذْهَبِيٍّ، وَالَّذِي يَطَالِعُ مَوْلفَاتِهِمْ يَتَحَقَّقُ لِاحْتِمَالِ مَنْ صَدَّقَ مَا زَعَمْتُ، أَمَّا الْأَمْرُ الْجَدِيدُ مِنْ جَانِبِي فَهُوَ طَرَحُ ذَلِكَ بِأَسْلُوبٍ عِلْمِيٍّ وَمَوْضُوعِيٍّ، وَهَذَا فَضْلٌ مِنْ رَبِّي اخْتَصَّنِي بِهِ لِأَمْرٍ هُوَ يَعْلَمُهُ، وَإِلَّا فَلَسْتُ تَمُنُّ بِزَعْمِ أَنِّي أَفُوقُ أَوْلَئِكَ الْأَبْرَارِ عِلْماً وَمَعْرِفَةً بِتَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ.

٨- من الخطأ الفاحش الزعم بانقطاع نزول الوحي الإلهي:

عَلَى هَذِهِ الشَّاكِلَةِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْقَارِئُ قَدْ أَحَاطَ عِلْماً بِمَا ذَكَرْنَاهُ، وَمِمَّا تَضَمَّنَتْهُ مَوْلفَاتُ هَؤُلَاءِ الْأُئِمَّةِ الرَّبَّانِيِّينَ الَّذِينَ أَتَيْتُ عَلَى ذِكْرِ أَسْمَائِهِمْ، أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمُؤْمِنِ الْمُسْلِمِ، بِمَا أَتَى بِهِ مُحَمَّدٌ الْأَمِينُ ﷺ أَنْ يَذْهَبَ مَذْهَبٌ مِنْ قَالِ بِانْقِطَاعِ نَزُولِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ بَعْدَ نَزُولِ الْقُرْآنِ الْحَمِيدِ. ذَلِكَ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ صَرَّحَ فِي كِتَابِهِ

العزیز وقال : ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم﴾. سورة الشورى (٥١)
 فليلاحظ القارئ كيف أنّ الله عزوجل قد أنهى هذه الآية الكريمة بجملة ﴿إنه عليّ حكيم﴾. فالذي وضّحته مراراً وتكراراً هو أنّ هذه النهايات التي يختم الله تعالى بها آيات كتابه العزيز والتي يمتاز بها هذا الكتاب عن غيره من الكتب إنما هي أسلوبٌ بلاغيٌّ لتوجيه أنظار القراء إلى الأصول التي صيغت على أساس منها مضامين وعلوم القرآن الكريم. وهو جلّ شأنه تبه ذهن القارئ في قوله (إنه عليّ حكيم) إلى الأصل الذي يميّز كلام الله تعالى مع البشر المخلوق، وهو أنه جلّ شأنه يكلم البشر من مُنطلق وعلى أساس أنه تعالى ﴿عليّ حكيم﴾. فما هي دلالة ﴿إنه عليّ حكيم﴾؟

حرف إنّ جيء به هنا للتأكيد، وعليّ معناه الرفيع والشريف وشديد القوى، والأعلى صيغة تفضيل من كلمة عليّ، أما حكيمٌ فمعناه صاحب الحكمة المُتقن للأمور، الجامع بين القول والعمل وصاحب الحجة القطعية (محيط المحيط). والمعنى أن كيف لا يكلم الله تعالى البشر وله مثل هذه الرفعة والقوى واتقان الأمور وجمعه بين العلم والعمل، وامتلاكه للحجة القاطعة. فالذات التي تتصف بهذه الصفات، يستحيل عليها أن تخلق البشر الأقرب إلى التوحّش، فتدعهم يهيمون على وجوههم، وتتقطع بهم السبل. إنّ اتصاف ذات الله تعالى بكونه عليّ حكيم يستلزم منه جلّ شأنه أن يكلم هؤلاء البشر ويهديهم الصراط المستقيم وبالطرق الثلاث المذكورة التي تتلاءم مع عقل كلّ فردٍ منهم وعلمه وقدراته، واستناداً إلى هذا الأصل والأساس يستحيل على الله العليّ الحكيم أن ينقطع عن التكلم مع البشر وبهذه الطرق الثلاث: وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء.

والملاحظ أنّ الله عزوجلّ راح فدعّم هذا الأصل وهذا المعنى الذي ذهبنا إليه وأضاف يقول: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم. صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، ألا إلى الله تصير الأمور﴾. والملاحظ أيضاً أنّه جلّ شأنه راح فأنهى هذه الآية الأخيرة بقوله: ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾. فحرف (ألا) للتنبيه.

أي انتبه أيها القارئ، ولا تتسرع في حكمك ورأيك، ولا تنقل بإنقطاع الوحي وتوقف الله عن التكلم مع عباده بالطرق الثلاث المذكورة أعلاه، فإن وقعت في هذا الخطأ وذهبت هذا المذهب، تعود كالذي يُنكر صيرورة جميع الأمور إلى الله عز وجل. فبداية كل شيء ونهايته ففسي قبضة هذا الخالق العليّ الحكيم، وليس في قبضة أحدٍ سواه، فالله العليّ الحكيم هو ربّ العالمين وإليه يعود الحمد كله بالأصالة وهو الحيّ القيوم.

هذا وإنّ مؤلفات هؤلاء الأئمة الربّانيين الذين ذكرناهم هي شواهد إيجابية تؤكد صحة الاعتقاد بعدم انقطاع الله جلّ شأنه عن التكلم مع عباده من بعد إنزاله هذا الكتاب الموعود بحفظه إلى يوم الدين، فأصحاب هذه المؤلفات ألقوا الضوء على النهج الربّاني وأسلوبه المتعلّق بمكالمته البشر من وراء حجاب، مُعرضين عن الكلام حول الطريقتين الآخرين وهو طريق مكالمة الله البشر وحيّاً وطريق مكالمته عن طريق إرسال رسول أي ملكٍ من ملائكته عز وجلّ.

ذلك لأنّ الكلام عن طريقي الكلام الإلهي المذكورين محتاج في حدّ ذاته إلى كتاب يُغاير المضامين، التي بحثتها مؤلفات هؤلاء الأئمة والمتعلّقة بمكالمة الله البشر من وراء حجاب.

والخصّ الآن للقارئ جميع ما ذكرته بما يتعلّق بموضوع تكلم الله تعالى مع البشر من وراء حجاب، فأقول: إذا شاء الله تعالى أن يكلم أيّ فرد من البشر، تتجلّى حينئذٍ أسماؤه الحسنَى المختصّة بموضوع الكلام المذكور، فتتمثّل تلك الكلمات المتجلّى بها، بتمثّلات وفق منهجيّة متعدّدة العناصر. وتشكّل هذه التمثّلات بشارات الرّؤى الصّادقة التي يراها المتّقون، أو إنذارات الرّؤى المنذرة التي يراها المذنبون العُصاة.

فالرّؤى الصّادقة تختلف في ماهيّتها وفي القوانين النّاطمة لها عن ماهيّة وقوانين رّؤى أضغاث الأحلام – ولا يعني قولي هذا، أنّ جميع رّؤى أضغاث الأحلام لا تحمّل في طيّاتها أنباءً مستقبلية، بل تخالطها في بعض الأحيان نبوءة لأسبابٍ منها أن بإمكان عقل الإنسان وإرادته التنبؤ بأمر مُقبل على شاكلة ما يقوم به الرّاصدون الجوّيون. وموهّلات العقل هذه هي التي أطلق علماء النّفس عليها اصطلاح الحاسّة السّادسة، لكن تبقى هذه الموهّلات عاجزة أن تأتي بما تأتي به الرّؤى الصّادقة من نبوءاتٍ وبشاراتٍ وإنذارات.

٩- الفروق الجوهرية ما بين الرؤى الصادقة وما بين أضغاث الأحلام :

إن قولي هذا يستدعي مبي تبيان الفروق الجوهرية ما بين هذين القسمين من الرؤى، وتبيان هذه الفروق بأسلوب علمي أيضاً أستند فيه إلى الملاحظة والتجربة والاستنتاج.

والحقيقة هو أننا ومن خلال إحصائياتنا استخلصنا وجود ثلاثة فروق جوهرية تمتاز بها الرؤى الصادقة عن رؤى أضغاث أحلام. فبغض النظر عن قام بهذه الاحصائيات والنتائج المستخلصة منها دفعاً للإطالة، فقد تبين أن الفرق الأول بين هذين القسمين من الرؤى، هو أن ماتأتي به أضغاث الأحلام، تكون له جذور مادية من واقع الإنسان الذي يراها. على حين أن ماتأتي به الرؤى الصادقة لا يكون لها مثل هذه الجذور المادية. بل تأتي بما يعجز العقل والدوافع المادية عن صياغته والتدخل فيه. وأما الفرق الثاني بينهما فهو أن رؤى أضغاث الأحلام يغلب عليها أنها لا تحمل أكثر من عنصر مستقبلي. كأن تحمل خبر قدوم إنسان بعينه على سبيل المثال. على حين أن الرؤى الصادقة كثيراً ما تحمل أكثر من نبوءة مستقبلية فهي تمون متعددة العناصر وبشكل ملفت للأنظار. كأن تخبر عن قدوم شخص يلبس كذا ويحمل كذا وبرفته فلان وفلان.

والفرق الثالث الكائن ما بين هذين القسمين من الرؤى، هو أن الصادقة قد يرى مضمونها أكثر من شخص واحد. على حين لا يحدث هذا في رؤى أضغاث الأحلام.

فهذه هي خلاصة ما يتعلق بموضوع مكالمة الله تعالى مع عباده، بأسلوب تمثيلات تجليات أسمائه الحسنی فيما يراه النائم من وراء حجاب. وأرى من الضروري الكلام عن أمر سبق لي أن بحثته في مبحث درب العرفان الإلهي. وهو أن من سار على درب عرفان ربه بإخلاص واندفاع ذاتي، ووفقاً لتعاليم هذا القرآن العظيم، يجعل الله عز وجل له حواساً روحية في مقابل كل حاسة من حواسه الخمس، ويعود هذا السالك مؤهلاً لتلقي تمثيلات تجليات أسماء ربه الحسنی في حالة يقظته أيضاً وهو ما اصطلاح له الرانينون اسم «الكشف الروحاني». وهذا موضوع يجهله من لم يسر على التعاليم القرآنية الموصلة بصاحبها إلى مرحلة عرفان ربه عز وجل.

ويأتي الكشف الروحي مشابهاً لما يراه النائم في منامه، ووفقاً للنهج الربّاني وأصوله التي تنظم ذلك. فيرى هذا الإنسان المكاشف من المناظر الكشفية والتمثلات مالا يقدر أن يراه أحد من الجالسين حوله. وتحمل تلك المناظر والتمثلات لهذا المكاشف بشاراتٍ أو تحذيرات، تشكّل في مضمونها كلام ربّه الموجه إليه من وراء حجاب.

ولا يظنّ ظانٌّ أنّ ما ذكرته هو مجرد إدعاء. بل إنني قد استقيت هذه الحقيقة من طريقين: من تجربتي الشخصية، ومن دلالات ماتضمنته آيات القرآن الكريم. ذلك أن هذا القرآن قد قصّ علينا عدّة مكاشفات روحية رآها بعض أنبياء الله ورسله الكرام، وحملت تلك المكاشفات بشاراتٍ وتحذيراتٍ أيضاً، على شاكلة ماتحملة الرؤى الصادقة من بشاراتٍ وتحذيرات.

أفلم يستهمل ربنا عزوجلّ سورة الإسراء بقوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنُريه من آياتنا، إنه هو السميع الصبير﴾؟ ففعل أسرى معناه: سار به ليلاً وليس نهاراً، وقد أتى جل شأنه بكلمة ليلاً بعده بدلالته الروحية تنبيهاً من الله عزوجلّ لأذهاننا إلى أنّ هذا الإسراء شبيه بما يحدث للنائم في منامه، أي أنّ الإسراء هو عبارة عن كشفٍ روحيّ، وليس هو بأمر حادثٍ مادياً بهذا الجسم العنصري، وشبيه بهذا الكشف، إسراء موسى في حالة الكشف، وهو ماتطرقت إلى ذكره سورة الكهف المتداول تفسيرها الآن، ويامكان كلّ قارئ مراجعة ماورد فيها بهذا الخصوص.

وقد يسألني المؤمن الذي لم يبلغ بعد مرتبة المكاشفة الروحية أن كيف يحدث هذا الكشف الروحي الذي تتحدّثون عنه؟ وأجيب هذا السائل من خلال تجربتي الشخصية وأقول: أفلم تلاحظ أنّ المستسلم للنوم تتعطلّ حواسّه الخمس عن عملها إلى حدٍ بعيد، ولا ترى تمثلات تجلّيات أسماء الله الحسنى إلا بعد حدوث ذلك كلّهُ؟ فالمؤمن الذي أوتي حواساً روحية في مقابل حواسّه الجسمانية يشعر في حالة يقظته أحياناً أنّ قوّة خفيفة هيمنت على جسده وعطلت قواه، وهو في كامل وعيه وإدراكه، وتزأى له تمثلات شبيهة بتمثلات منامه يراها بحواسّه الروحية بما لا يتجاوز ثواني معدودات. وتحمل له هذه التمثلات تجلّيات أسماء ربّه الحسنى بما يشاء ربّه أن يطلعه عليه من أمور مستقبلية وبشارات، ثم تزول عنه هذه الحالة الطارئة وهو في أحسن حال حيوية ونشاطاً.

هذا وإن هذه المكاشفات تترك أثرها البالغ في نفس المؤمن المكاشف، فتدفعه إلى الزهد في طلب الدنيا، وإلى التفاني في طلب محبة ربه وقربه، وإلى التفاني في خدمة دينه ليلاً ونهاراً، وبصورة لا يعود يكل ولا يسأم من هذه المواظبة والدأب على خدمه الإسلام من طاعة لله وخضوع وتذلل بين يديه، والتزام لشرائع دينه، وتوحيد ربه توحيداً لا يشوبه شائبة شرك، أي أن تعدد المكاشفات الروحية يُرسخ في فؤاد هذا المكاشف وفي سلوكه العبودية الحقيقية لله عز وجل. فيها سعد من يحظى بهذه المرتبة، فهذا هو المؤمن الذي يتأهل لتمثيل تعاليم القرآن المجيد بصورة عملية، وهذا هو الذي يحظى بأبوة محمد خاتم النبيين الروحية، وهذا هو المؤمن الذي يعود يشرب من معين السرمدي.

والخلاصة هو أن الرؤى الصادقة المبشرة، والكشوف الروحية تدخل في باب تكلم الله تعالى مع عباده وفق منطوق الآية (٥١) من سورة الشورى. وهذه الرؤى المبشرة والكشوف الروحية تُصنّف تحت صنف كلام الله مع عباده من وراء حجاب. وتعتبر في الوقت نفسه دليلاً حسيّاً يثبت منه عدم انقطاع نزول وحي الله وكلامه، من بعد زمن انزال الله تعالى آيات هذا القرآن العظيم. وكيف بإمكان المؤمن العاقل أن يتصور ولو للحظة واحدة انقطاع الوحي بعد انتهاء انزال القرآن الكريم، وهو يتلو الآية (٦٠) من سورة غافر التي يأمره ربه فيها قائلاً ﴿ادعوني استجب لكم﴾؟ فكلمة ادعوني جاءت من دعا الله إذا رغب إليه وابتهل إليه بالسؤال، ورغب فيما عنده من الخير، أما كلمة (استجب) فقد جاءت من استجاب وليس من أجاب، والاستجابة أخص من الإجابة على حسب رأى النحاة. فمعنى استجاب الله لفلان: قبل دعاءه من جهة، ورد له الجواب من جهة ثانية، وقضى حاجته من جهة ثالثة. (محيط المحيط)

والمهم في الأمر هو أن المؤمن العاقل لا يتصور ولو للحظة واحدة الزعم بانقطاع نزول وحي الله وكلامه بعد نزول القرآن الكريم بعد أن يتلو قول ربه تعالى ﴿ادعوني استجب لكم﴾. فهذه الألفاظ تؤكد سماع الله تعالى كل دعاء وابتهل يبتهل به بين يدي ربه عز وجل، كما يؤكد وعد ربه بقبول هذا الابتهل، وإجابة سؤال السائل وقضاء حاجته، أي أن هذه الألفاظ تعني أنه ونتيجة هذا الدعاء يحدث تناغم بين العبد الداعي وبين ربه عز وجل، وهذا الأمر يدحض زعم من يقول بانقطاع نزول الوحي بعد نزول القرآن المجيد، فهذا

التناغم يتضمّن سؤالاً من طرف المؤمن، واستجابةً من طرف الله عزوجلّ، ينتهي بإجابة سؤال الدّاعي وقضاء حاجته.

وهل بإمكان المؤمن العاقل أن يتصوّر حدوث توقّف الله تعالى عن التكلّم مع البشر بعد نزول القرآن الكريم، في وقت يجد نفسه فيه يتلو ضمن آيات القرآن الكريم نماذج عمّا حدث في الماضي من تضرّعات من جانب عباد الله الصالحين، واستجابة الله تعالى لتلك التضرّعات، وقضاء ماطلبوه من حاجات؟ وعليه فإنّ هذه الألفاظ من الآية المذكورة من سورة غافر تؤكّد لقارئ القرآن الكريم عدم انقطاع مكالمه الله البشر بالطرق الثلاث المنصوص عليها في سورة الشّورى. خصوصاً وأنّ ألفاظ (ادعوني استجب لكم) قد وردت بصيغة فعل الأمر «ادعوني». هذا الأمر الذي يضع موضوع الدّعاء في مرتبة فرض العبادة، كبقية فروض العبادات المنصوص عليها في الدّين الإسلامي. وبدليل من الآية نفسها، ذلك أنّ كامل نصّ ألفاظ الآية المذكورة هو: ﴿وقال ربّكم ادعوني استجب لكم، إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين﴾. فالأمر بالابتهاال إلى الله تعالى ورد كواجب عبادةً بدليل ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين﴾. أي صاغرين. فجملة ﴿يستكبرون عن عبادتي﴾ فسّرت الأمر بالدّعاء، أي أنّ الدّعاء واجب على العبد وجوب عبادة، فالذي يستكبر عن القيام بالدّعاء والابتهاال بين يدي ربّه عز وجلّ، وليقضي له حاجته، يُعتبر مستكبراً ومستعلياً في نظر الله عزوجلّ، فيعد من جملة الذين يفكّرون تفكيراً مادياً بعيداً عن نهج التفكير الروحاني. وبهذا الاستكبار يحرم هذا الإنسان نفسه من ثمار إيمانه بالله تعالى، وبالتالي يدخل جهنّم صاغراً مُهاناً، لاعتقاده بصورة عمليّة انقطاع نزول الوحي، وانقطاع الله عن التكلّم مع عباده، مُتجاهلاً أنّ مصير كلّ شيء صائر إلى الله عزوجلّ.

ومادامت ضرورة الدّعاء للمؤمنين بها في هذه الآية الكريمة وردت من باب العبادة، فلا يعني هذا بالضرورة استجابة الله جلّ شأنه كلّ دُعاء يدعو به العبد المؤمن. ذلك لأنّ هذا الأمر غير منصوص عليه في هذه الآية الكريمة، فلم يقل تعالى: «ادعوني أجيب جميع دعواتكم» بل قال ﴿ادعوني استجب لكم﴾ وهذا كلام عامّ غير مُخصّص. فواجب الاستعانة بالله تعالى في أمورنا اليوميّة،

هو عمليّة فرض عبادة. أمّا إجابة كلّ مطلبٍ نطلبه فهذا أمر يعود إلى مشيئة الله عزوجلّ.

ولا ينبغي للقارئ أن يستغرب ما أقوله، فهذا أنّ القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً، وإليه الآية. (١٥٦) من سورة البقرة التي يقول الله عزوجلّ فيها: ﴿وَلْيَبْلُوكُمْ بَشْيَءٌ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾. فهذا أنّ الله تعالى قد وصف ضمن هذه الآيات الكريمة المؤمنين الممتحنين بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وصفهم أنّهم يتقبّلون هذه الابتلاءات بالرضى والتسليم بقضاء ربّهم، ولم ينههم عن فعل ذلك، ولا حتّمهم على الدّعاء بين يديه ليرفع عنهم هذه الابتلاءات، هذا يحدث لاعتقاد هؤلاء أنّ ربّهم هو الذي وعد أن يدافع عنهم وأن يرزقهم ويهبهم الأولاد والذرية ويبارك مزروعاتهم. فإن ابتلاههم ربّهم بشيء مما نصّت عليه هذه الآية الكريمة يتقبّلون حدوث ذلك من باب امتحان الله إيمانهم وليس من باب إيدائهم، لذلك يقولون إنّنا لله وإنّا إليه راجعون، فلا يدعّون ربّهم ليرفع الغمّة عنهم ولا يلجّون في ذلك، بل يتأدّبون أمام ربّهم بأدب العارف بالله عزوجلّ. فمن هذا لا بدّ أن يتعظ المؤمن بمضمون هذه الآية الكريمة مدرّكاً أن دلالة «ادعوني استجب لكم» لا تتجاوز كونها أمراً واجب التقيّد به ومن باب (ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم ..).

وإلى القارئ مثلاً آخر يدعّم وجهة نظري التي ذكرتها آنفاً، وفي هذا المثال ينهى الله تعالى فيه عبده عن الدّعاء، فقد أوردت الآيات (٤٦) من سورة هود قول ربّنا عزوجلّ: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ: يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. فهذا أنّ نوحاً عمل على فريضة العبادة ودعا ربّه لينقذ له ابنه، وقد زجره ربّه ونهاه عن مثل هذا الدّعاء، لنستنبط من ذلك أنّ هناك من الأمور مالا يجوز فيها الدّعاء، فالأمور التي تتجاوز حدود علمنا وفهمنا، لا يحقّ لنا المطالبة بها بالدّعاء بين يدي ربّنا عزوجلّ. بل إنّ من واجبنا حينئذٍ أن نتوجّه بدعاء ماثور

عن محمد رسول الله ﷺ فندعو: (اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فأقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفه عني واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به). فما أبلغه وأكمله من دعاء .

وأنصح المؤمن في هذه الأمور أن يستفتي قلبه قبل أن يقدم على أيّ دعاء من أيّ نوع كان، فهذه نصيحة إمام الزمان، ومعتقداً أن الله عزوجل يصحح له ماخطأ به على شاكلة ماصحح لنوح عليه السلام اجتهاده.

إن وجود المثالين الأنفي الذكر بنبه عقولنا إلى أن الدعاء كفرض عبادة، لا ينبغي لنا الأخذ به عند كل أمر من أمور حياتنا - فالذي من الله تعالى عليه بواسطة نقل خاصة، على سبيل المثال لايدعو طالباً واسطة نقل ، بل يمتطي ناقلته وهو يذكر ربه ويقول: ﴿الحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾. وعليه فإن من واجب المؤمن أن يتبصر في الأمر قبل اتخاذ القرار بالدعاء، ذلك لأن الله تعالى لم يعد عبده بالاستجابة لجميع أدعيته من جهة، بل ونهاه من جهة أخرى عن الدعاء للأمور التي لا يصل إليها فهمه وإدراكه.

هذا والذي يتدبر الآية (٤٠) من سورة الأنعام يتضح له جلياً أن الله عزوجل ربط موضوع استجابته تعالى لدعاء عبده، بمشيئة ذاته جل شأنه وليس بمشيئة عبده، ذلك أن الله تعالى يقول في هذه الآية من سورة الأنعام: ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة، أغير الله تدعون إن كنتم صادقين؟ بل إياه تدعون، فكشف ما تدعون إليه إن شاء، وتنسون ما تشركون﴾. وهو جل شأنه ربط استجابة الداعي هنا بمشيئته عزوجل وليس بشيء آخر. فهو تعالى لم يعد عبده بالاستجابة لطلبه في هذه الحالة بالضرورة. بل وعد بالاستجابة وفق مشيئة ربه عزوجل تنبيهاً للأذهان إلى أن القرار في كل شيء في هذا الكون يعود إلى مشيئة الله تعالى وإرادته ووفق تقديره، فالله تعالى قادر على تسيير الأمور بحيث تصير جميع الأمور وعواقبها وفق ما قدره وقضاه، هذا وإن بدت هذه الأمور في ظاهرها لها استقلاليتها ولها أن تقرر مصائرهما.

والذي يهمننا هنا من جميع ما ذكرناه هو أن الدعاء كعبادة يشكّل دليلاً حسيّاً حياً يؤكد عدم انقطاع الله تعالى عن مكالمة عباده من بعد زمن إنزاله

تعالى لهذا الكتاب العزيز ، وهذه المكاملة تتم أيضاً بالطرق الثلاث المنصوص عليها في الآية (٥١) من سورة شورى.

وهذه الأدلة التي قدمتها لأثبت من خلالها عدم انقطاع نزول الوحي بعد نزول القرآن المجيد هي أدلة نظرية لاتكتمل معطياتها إلا إذا ثبت ذلك على صعيد الواقع العملي. فإن عاد القارئ إلى تاريخ هذه الأمة الإسلامية تصادفه عشرات بل مئات الكتب المخطوطة الموروثة تحذثه عن صلة أصحابها بالله عز وجل ومكاملته تعالى إياهم بهذه الطرق الثلاث، مما لا حاجة بي هنا لتعداد أسماء هذه المؤلفات وأسماء أصحابها، بل يكفيني الاستدلال بوجود هؤلاء الأبرار الصالحين للتدليل بصورة عملية وتطبيقية على مصداقية الطرح النظري.

وليحكم القارئ عقله انطلاقاً من أن الأمر السلبي لا قيمة له في مواجهة الأمر الإيجابي، فوجود فئة «الزاعمين تكلم الله تعالى معهم هو أمر إيجابي، على حين أن القول بانقطاع الله تعالى عن التكلم مع عباده بعد نزول القرآن الكريم هو أمر سلبي، ولا يتساوى هذا الأمر وذاك في ميزان عقل العاقل، بل إن الظاهرة الإيجابية مقدمة على الظاهرة السلبية منطقياً، وهي تُعيد الكرة إلى الطرف السالب مطالبة بالدليل، وليس العكس من ذلك، فإن كنت أرى فلا يحق لأعمى البصيرة تكذيب ما أرى، وقد طرح القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾.

ألا إنني ألحمت فيما مضى إلى وجود قانونين مسنونين لتسيير دفة هذا الكون، الأول قانون طبيعى والثاني قانون روحى أو شرعى. فقوانين القضاء والقدر التي وضعتها في مؤلف «القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة» هي التي يكون لها القرار في مصائر الأمور.

١٠. الدعاء وحقيقته :

ولقد أودع الله جل شأنه خواصاً روحية في الأمور الروحية العبادية، كذلك أودع جل شأنه خواصاً مادية في الأشياء المادية المتداولة كالماء والنار وغير المتداولة. وما التعبّد بالدعاء إلا من هذا القبيل. فالدعاء أودع الله تعالى فيه خواصاً ذات تأثير تفوق خواص جميع العبادات الأخرى. فللدعاء خواصه المؤثرة، على شاكلة ما للأدوية وغيرها من خواص. وهل يستسيغ عقلنا أن يأمرنا الله

تعالى باللجوء إلى التعبد بالدعاء في وقت لا يكون فيه لهذا الدعاء من خواص مؤثرة على شاكلة ما يكون للأدوية من خواص مؤثره؟ فللدعاء خواصه وللدواء خواصه، لكن لخواص الأشياء حدوداً تقف عندها، وأزمة تنقضي وتبطل فعاليتها بعد مرورها، لذلك تلزم الحكومات في مختلف الدول مصانع الأدوية بتسجيل تاريخ الصنع وتاريخ إنتهاء مفعول الدواء فيكتبون هذا الدواء ينفع من تاريخ كذا إلى تاريخ كذا، وهذا الأمر نفسه يحدث بالنسبة إلى الأدوية ومواقيت التعبد بها أو عدمه.

فلماذا يقرر أصحاب المصانع تحديد مدة فعالية الدواء؟ يحددونها من منطلق قانون تقدير ذلك، كذلك فإن الأدعية تتبع قوانين التقدير أي قوانين القضاء والقدر. هذه القوانين التي تعمل بمشيئة الله عز وجل مالك الملك وصاحب القرار الأخير والأعلى. فالؤمن الذي لا يدرك هذه الحقيقة، يعسر عليه فهم حقيقة الدعاء، فما هي حقيقة الدعاء؟ نتساءل عن حقيقة الدعاء لتمكّننا معرفتنا لحقيقته من فهم موضوع استجابة الدعاء.

الدعاء في حقيقته هو عبارة عن مناجاة تقوم ما بين المؤمن الداعي وما بين خالقه، فالعبد المؤمن، ينطلق بدافع من إيمانه و يقينه بوجود الله خالقه الرحمن الذي لا تقف دون عطاءاته ورحمته حدود، فهذا الاعتقاد وهذا اليقين برحمانية الله يجذب هذا العبد المؤمن ليسأل هذا الرحمن عطاءه وقضاء حاجته، ويشعر العبد وهو يدعو بحالة القرب من خالقه الرحمن. فإن اندفع هذا الداعي يدعو بحرارة وحرقة وتضرع، يبلغ مرتبة قرب روحية من خالقه تتولد عنها خواص عجيبة، أي أنّ حالة الداعي المنطلقة من كامل اليقين بعطاء الرحمن وكامل الأمل بعطاءه، وكامل الوفاء والهمة، إن مثل هذه الحالة ترفع عن عيني هذا الداعي ستائر الغفلة، وتكسبه صحوّة كاملة يتفانى معها بين يدي ربه عز وجل، ويعود بالتالي يشعر أنه على أعتاب هذا الإله الأحد الذي لا شريك له، فتسجد نفس هذا الداعي حينئذٍ على أعتاب قدس الأقداس، وهذه الحالة تجذب تلطف الله وعنايته نحو هذا المؤمن الساجد الذي يدعو لقضاء حاجة، فتوجه ذات الله الأعلى لقضاء حاجته، وبالتالي يتولد عن هذا التوجه الرحماني تخلق أسباب ضرورية تستلزمها قضاء الحاجة المذكورة، وكثيراً ما تتجلى أسماء الله الحسنى وتمثّل لهذا الداعي مُنبئة إياه ومُبشرة بقرار ربه جلّ شأنه من وراء حجاب في المنام أو كشفاً إن قطع

أشواط معرفة ربّه الضرورية، أو تأتية هذه البشارة وحيّاً أي بطريق الإشارة السريعة التي لا يعلم سرّها إلاّ المحرّبون.

فلنفرض أنّ مؤمناً دعا بدعاء الاستسقاء طلباً للغيث. فإن حصلت له هذه الحالة التي ذكرتها، تتولّد من جانب عالم الغيب والشهادة الله الرحمن المقتدر أسبابٌ طبيعِيّةٌ لتسبّب بنزول هذا الغيث المطلوب، ويشاهد الناس عملياً مالدعاء الاستسقاء من خواصّ تتجلّى على الصّعيد العمليّ، وهذا هو السّبب في أنّ أرباب الكشف الرّوحي قد ثبت لديهم من خلال تجاربهم الشخصية، وجود هذه العناصر المتوفرة في أدعيتهم، وجود خواص خلق وتكوين في هذا العالم السّفليّ بإذن الله الواحد الأحد جلّ جلاله، والذي يراجع مؤلفات هؤلاء المكاشفين يجدونها طافحة بعشرات الأمثلة التي تتكلّم عن استجابة الدّعوات.

وأنصح القارئ ألاّ يذهب بعيداً في هذا الموضوع، بل إنّ من واجبه أن يتذكّر ماجرى من انقلاب مُعجز في شبه جزيرة العرب على أيدي محمّد النبي الأميّ ﷺ، فإنّ لآيالي الطويلة التي كان يتعبّد فيها هذا الرسول الكريم ساعاتٍ طوال يدعو فيها لأمتّه، قد أحدثت خواصّ تلك الأدعية تلك المعجزة التي وحدّت أبناء شبه جزيرة العرب بما يضاهي معجزة القرآن العظيم.

هذا وإنّ تجربتي الشخصية وضّحت لي ما ذكرته آنفاً من حقائق ما يحتوي عليه الدعاء من خواصّ عجيبة تفوق خواصّ أي شيء من الأشياء المادية من حولنا، ولا يعني هذا أنّ جميع الأدعية تحقّق أهدافها، بل منها ما لا يُثمر الثمر المرجو منها، على شاكلة الأدوية منها النافع المؤثر، ومنها ما لا يحقّق أهدافه، وهل سدّت الأدوية باب الموت في زمن من الأزمان؟

فالمهمّ أن يدرك القارئ أنّ التقدير الإلهي يحيط بكلّ أمر من الأمور. لكنّ هذا التقدير لا يستحلّ حرمة العلوم، ولا يبطل قانون الأخذ بالأسباب، بل إنّ كل ما يحدث هو حالة تيسير أو حالة تعسير. فما كان مقدراً تيسّر أسبابه، وما كان غير مقدّر تنعّس أسبابه بشكل ملحوظ. فإن بدت حالة التيسير، يُلاحظ المرء أنّ الدّواء يترك أثره الشّافي السّريع على المريض، ونفس هذه الحالة تبدو في حالات الأدعية أيضاً، حيث يُلاحظ الدّاعي تجمع أسباب قبوليّة الدّعاء، يحدث هذا في حالة موافقة هذا الدّعاء لمشية الله الأحد الفعّال لما يريد. أي أنّ سلسلة الأسباب المادّية والرّوحية مرتبطة بمشيئة الله عز وجل، لذلك كان من الواجب الحذر وعدم انكار وجود هذين القانونين المادّي والرّوحي.

وسبق لي أن نَهِت سابقاً إلى أنْ تكَلَّمَ اللهُ مع البشر من وراء حجاب هو الطريق الأقدم والأمثل للملاءمة لمستوى عقل هذا لإنسان، وقد ساعد ذلك البشر في بداية زمان وجودهم على تلقي كلام ربهم من وراء حجاب، كما ساعدهم ذلك على تلقي نور الهداية التي كانت تقتضيها مراحل تطوُّرهم عبر الزمان إلى أن بعث الله تعالى آدم عليه السَّلام، فنقل البشر من حياة الكهوف إلى حياة السَّهول وعلمهم بدايات الحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة.

وقد جعل الله عزوجلَّ لكلامه من وراء حجاب علاماتٍ يتميَّز بها عن أضغاث الأحلام التي يأتي بثها من جهاتٍ عديدة، ويتمثلها عقل الإنسان وإراداته في حالة النوم أيضاً، أي أنْ للرؤى الصادقة من التأثير الواضح على صاحب الرؤيا، مالا يكون لرؤى أضغاث الأحلام، وهذه هي حكمة ما قصَّه القرآن الكريم علينا لما رآه ملك مصر في منامه، فالملك تأثَّر برؤياه إلى درجة دفعته ليسأل تأويلها من جميع أركان دولته، ففي سورة يوسف: ﴿وقال الملك إنني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، يأبها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون. قالوا أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾. فلولا شدَّة تأثير هذه الرؤيا الصادقة على ملك مصر والتي تمثِّل كلام الله تعالى إليه من وراء حجاب، فما كان ليندفع هذا الإندفاع ويطلب من أركان حكومته الطَّلب المذكور، وإلى جانب ذلك فقد عجز جميع أركان هذا الملك عن تأويل هذا التمثِّل الذي تمثَّلته تجلِّيات أسماء الله الحسنی من وراء حجاب.

ولم يؤت تأويل كلام الله يومئذٍ إلا يوسف عليه السَّلام، الذي أوَّله وقال: ﴿قال تزرعون سبع سنين دأباً، فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون، ثم يأتي بعد ذلك سبع شدةٍ يأكلن ما قدامكم هنَّ إلا قليلاً مما تحصنون، ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يُغاثُ الناس وفيه يعصرون﴾. وقد تطوَّرت الأمور وفق ما أوَّله يوسف عليه السَّلام.

فكلام الله تعالى من وراء حجاب غير مرتبط بالنبوة ومقامها، وإلا فكيف حدث لملك مصر أن رأى مثل هذه الرؤيا الصادقة العظيمة؟ فكلام الله يرد من طرف تجلِّيات أسمائه الحسنی إلى البشر بصورة عامة، على اعتبار أنه جلَّ شأنه هو ربَّ الناس قاطبة، وليس ربَّ المؤمنين وحدهم، فلو كان الذين يزعمون انقطاع

نزول وحي الله تعالى من بعد إنزال هذا القرآن، لو كانوا مُحيطين علماً بالحقيقة التي ذكرتها، لردعتهم هذه الحقيقة عن زعمهم المذكور الذي قطعوا به أنفسهم عن خالقهم، فماتوا روحانيًا، وجفّت بالتالي عقولُهم، وابتلوا بعمى البصيرة، وأسأوا سُمعة هذا الدين الذي ينبض بالحياة.

فالله عز وجلّ لم يقلْ في الآية (٥١) من سورة الشورى «وما كان لنيّ» بل قال «وما كان لبشر أن يكلمه الله».. وتبعاً لذلك فالله تعالى يكلم البشر قبل إنزال القرآن الكريم، وبعد إنزاله هذا الكتاب العزيز، هذا ماتقتضيه صفة الربوبية العامة والخاصة، فالله ربّ العالمين، بمعنى أنّ ربوبيّته تشمل جميع العوالم والجنّ والإنس، والله ربّ العالمين بمعنى أنّ ربوبيّته تشمل كل إنسان بشر في هذا الوجود، سواء أكان هذا الإنسان مسلماً أو كان غير مسلم، فالجميع عباد الله عز وجلّ، وتجلّى هذه الربوبية على المؤمن بالبشارات على حين تتجلّى فتتذر غير المؤمنين.

وأنا إذ أقول بعدم انقطاع الله تعالى عن التكلّم مع عباده بعد نزول هذا القرآن العظيم، أقدم تجاربي الشخصية وتجارب أصدقائي الروحانيين دليلاً عملياً وحسباً كدليل إيجابي يثبت منه مدّعاي، أمّا الذين يزعمون انقطاع الوحي فلا يملكون ما يملك من تجارب حسّية ومشاهدات، فهل يستوي الأعمى والبصير؟ كلا لا يستويان فنحن نمثل طرفاً موجباً، وهؤلاء يمثلون طرفاً سالباً في هذا الأمر الدّيني.

ألا إنّ حياة الإسلام مرتبطة موضوعياً بهذه الحياة الروحية، على شاکلة الأرض فإن حياتها مرتبطة بماء السماء. فهذا ماء روحانيّ سماويّ وذاك ماء مادّيّ سماويّ. وهو مرتبط أولاً وأخيراً، بأعمال المؤمنين، وإصلاح الأرض وتهيتها لتلقّي ماء الحياة .

بسم الله

أَسْمَاءُ اللَّهِ الْحُسْنَى

الملك	العدل	المتين	العفو
القدوس	صادق الوعد	الولي	الرؤوف
السلام	اللطيف	الحميد	مالك الملك
المؤمن	الخبير	المُحصي	ذي الجلال والإكرام
المُهَيِّم	الحليم	المُبْدئ	المُقْسِط
العزیز	العظيم	المُعِد	الجامع
الجبار	الغفور	المُحيي	الغني
المتكبر	الشكور	المُميت	المُغني
الخالق	العلي	الحي	المانع
البارئ	الكبير	القيوم	الضار
المُصَوِّر	الحفيظ	الواجد	النافع
الغفار	المُقيت	الماجد	النور
القهار	الحسيب	القادر	الهادي
الوهاب	الجليل	المُقتدر	البدیع
الرزاق	الكریم	المُقَدِّم	الباقی
الفتاح	الرقیب	المُؤَخِّر	الوارث
العليم	المُجيب	الأول	الرَّشيد
القابض	الواسع	الآخر	الصبور
الباسط	الحكيم	الظاهر	ذو العرش
الخافض	الودود	الباطن	ذو الوقار
الرافع	المجيد	الوالي	المتكلم
المُعز	الباعث	المتعالي	الشافی
المذل	الشهيد	البر	الكافي
السميع	الحق	التواب	الفاطر
البصير	الوكيل	المنعم	الأحد
الحَكَم	القوي	المنتقم	الصمد

**الصفات الرئيسية الجامعة في سورة الطه
وهي خلاصة أسماء الله الحسنى المختصة بالخلقوات**

ربّ العالمين : معناه الخالق ويُنشئ المخلوق ويُطوِّره ويُرقِّيه من أدنى حالة إلى أعلاها .

الرحمن : معناه أنّه تعالى مصدر كلّ عطاء ، فهو الذي خلق كلّ شيء من لدنه ، وهو الذي أعان كلّ شيء على التطوُّر من لدنه ، ورزقهم ورحمهم من لدنه .

الرحيم : معناه أنّه تعالى قد كتب على نفسه أن يهب حياة الخلود كلّ مالكٍ للعقل والإرادة ينتهج التقوى مسلِكاً بعيداً عن الرذيلة والشرّ بإرادة وتصميم .

مالك يوم الدين : معناه أنّه تعالى ينتهي إليه كلّ شيء ، ويعود الحكم الأخير له ، ويشفع بين يديه من أذن له الرحمن .

الفهرس

مقدمة الكتاب

المبحث الأول

٧	• مصداقية وجود الله تعالى	الباب الأول
٨	تمهيد ضروري	
١١	١- منزلة العقل والفكر	الفصل الأول
١٥	٢- اسم الذات الإلهية الأعظم	
١٦	١- قدم الرحي والتوحيد	الفصل الثاني
١٨	٢- مناقشة النظرية المادية تاريخياً ومنطقياً	
٢١	٣- مناقشة النظرية عقلانياً	
٢٤	١- الطرح القرآني	الفصل الثالث
٢٩	٢- مثال من واقعنا المعاصر	
٣١	٣- التوراة والإنجيل المعاصران مُحَرَّفَان	
٣٦	• مصداقية القرآن العظيم ومرجعيته	الباب الثاني
٣٧	١- القرآن الكريم ومزاياه كمرجع موثوق	الفصل الأول
٣٩	٢- مزية القرآن الكريم الثانية	
٤٢	١- دليلٌ ضمنيٌّ على مصداقية القرآن العظيم	الفصل الثاني
٤٣	٢- دليلٌ من خارج القرآن الكريم على مصداقيته	
٤٦	١- جمع وتدوين القرآن العظيم	الفصل الثالث

- ٤٨ - ٢- نُسخُ رِقَاعِ القرآنِ زمنَ عثمان (رضي الله عنه)
- ٥٣ - ١- هل اختلق محمد (ﷺ) القرآن الكريم
- ٥٧ - ٢- اعتبار المفكرين محمداً (ﷺ) عبقرياً ومحاكمة ذلك
- ٦١ - ٣- ما معنى كلمة عبقرِيٍّ وأثر العبقرية
- ٦٣ - ٤- أدلة مصداقية القرآن العظيم العشرة
- ٨٦ - ٥- ما بين تعاليم القرآن وما بين تعاليم التوراة والانجيل
- من فروق
- ١٢٣ - ٦- خلاصة أدلة المصداقية

الفصل الرابع

- ١٢٨ - **• وجود الله تعالى وأدلة وجوده**
- ١٢٩ - ١- المنهاج القرآني للتدليل على وجود الله تعالى
- ١٣١ - ٢- الإلحاد مُدانٌ بأقلام رموزه
- ١٣٣ - الفصل الثاني
- ١٣٤ - أولاً - الأدلة الترجيحية الذهنية
- ١٣٥ - ١- دليل الإجماع العام
- ١٣٦ - ٢- دليل التعدد اللوني
- ١٤٤ - ٣- دليل الوحدانية في الذات والصفات
- ١٥٣ - ٤- دليل العلة والمعلول أو السبب والمسبب
- ١٥٥ - ٥- دليل الغائية والتكامل
- ١٦١ - ٦- دليل النظام والمنظّم
- ١٦٥ - ٧- دليل القدرة
- ١٦٩ - **الفصل الثالث**
- ١٦٩ - ثانياً - أدلة مُستمدة من أسماء الله الحسنى

- ١٦٩ ١- ثبوت أن الله هو الحي
١٧٧ ٢- ثبوت أن الله هو العزيز
١٨٥ ٣- ثبوت أن الله هو المتكلم
١٩٢ ٤- ثبوت أن الله هو الحفيظ

الفصل الرابع

- ٢٠٠ ثالثاً - أدلة سلوكية مطمئنة
٢٠٢ ١- دليل الانتظار والترقب
٢٠٧ ٢- دليل الاستعانة بالدعاء
٢١٠ ٣- دليل حقّ اليقين

الفصل الخامس

- ٢١٧ المقصد من خلق الإنسان
٢١٧ ١- مُحصلة الأدلة السلوكية
٢٢٤ ٢- المقصد من خلق الإنسان وأدلة الثلاث

الباب الرابع

- ٢٣٢ • **الشرك والتوحيد**
٢٣٤ الشرك والتوحيد وحدودهما
٢٣٨ ١- الشرك الخفي
٢٤٦ ٢- العقل وتدليله على أن الله مُسبب الأسباب
٢٥٣ ٣- عقل الإنسان وأسس صيانة محاكمته

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل السادس

- ٢٥٦ • **العرفان الإلهي**
٢٥٧ ١- أهمية الموضوع
٢٥٩ ٢- مفهوم العرفان لغوياً

الباب الأول

الفصل الأول

٢٦١ ٣- ألفاظ معبرة عن العرفان :

٢٦١ الشوق

٢٦٢ العشق

٢٦٣ الرّغبة

٢٦٤ الأنس

٢٦٦ الودّ

٢٦٩ المحبّة

٢٧١ ١- قانون المحبة الطبيعي **الفصل الثاني**

٢٧٣ ٢- المحبة وتعاليم القرآن العظيم

٢٧٦ ٣- مقام الخلّة لغةً وقرآناً

الباب الثاني

٢٧٩ ١- الولادة الروحيّة **الفصل الأول**

٢٧٩ ٢- آثار بعثة آدم عليه السلام

٢٨٢ المحبة الإلهية وأصولها **الفصل الثاني**

٢٨٢ ١- القانون أو الأصل الأول

٢٨٤ ٢- القانون أو الأصل الثاني

٢٨٧ مراحل العرفان الإلهي **الفصل الثالث**

٢٨٧ أولاً- مقام الرّغبة وأدلّته الثلاث

٢٨٧ ١- الدليل الأول

٢٨٨ ٢- الدليل الثاني

٢٨٩ ٣- الدليل الثالث

٢٩٠ ٤- حقيقة الصلّاة الإسلامية

٢٩٣ ٥- الخشوع وأحواله

- ٢٩٥ - النفاق وأثره الروحي القتال
 ٣٠٢ ثانياً - مقام الأنس والود
 ٣٠٣ ثالثاً - مقام المحبة

الباب الثالث

الفصل الأول

- ٣٠٨ أولاً - الذكر الإلهي وتعريفه
 ٣١٠ ثانياً - فلسفة الذكر الإلهي
 ٣١٢ ثالثاً - أشكال الذكر الإلهي
 ٣١٣ ١- الصلاة
 ٣١٣ ٢- تلاوة القرآن الكريم
 ٣١٤ ٣- التوسل بأسماء الله الحسنى
 ٣١٥ ٤- الدعوة إلى سبيل الله تعالى
 ٣١٥ رابعاً - كيف نذكر الله تعالى ؟
 ٣٢٥ ١- بركات الذكر الإلهي الروحية
 ٣٢٧ ٢- علاقة الذكر الإلهي بالدعاء

الفصل الثاني

الباب الرابع

الفصل الأول

- ٣٣٠ من هم المذمومين في كتاب الله العزيز ؟
 ٣٣١ ١- الله لا يحب كل مختال فخور
 ٣٣٣ ٢- الله لا يحب المعتدين
 ٣٣٥ ٣- الله لا يحب الخوان
 ٣٣٧ ٤- الله لا يحب كل كفار أثيم
 ٣٤٣ ٥- الله لا يحب الفرحين
 ٣٤٦ ٦- الله لا يحب المفسدين

- ٣٥٢ ٨٠٧- الله لا يحب الخَوَّان والكفور
 ٣٥٤ ٩- الله لا يحب المسرفين
 ٣٦١ ١٠- الله لا يحب الظَّالِمين

الفصل الثاني

- ٣٦٥ كيف تفوز بمحبة الله جلّ شأنه ؟
 ٣٦٥ ١- ممتين القاعدة
 ٣٦٧ ٢- اعتياد التفكير بنهج رُوحِيّ
 ٣٧٤ ٣- الإحسان إلى الناس دون تمييز بينهم
 ٣٨٤ ٤- وعي مفهوم الفطرة والكيان الرُّوحِيّ والمسار
 التَّوْحِيدِيّ
 ٤٠١ ٥- فهم البسملة كأحد أصول التفسير
 ٤١٣ ٦- التَّعَبُّد بالدَّعَاء .
 ٤٢٩ ٧- التَّوْبَةُ والاستغفار : مفهومها وفلسفتها .
 ٤٣٦ ٨- التَّوَكَّل على الله تعالى ومنهاجه
 ٤٤٦ ٩- محاولة التحلي بتقوى الله تعالى .
 ٤٥٤ ١٠- محاولة التخلُّق بالخلق المحمديّ العظيم
 ٤٦٤ ١١- الإلتزام بصفتي العدل والإنصاف خاصّة

الفصل الثالث

- ٤٧٢ أولاً - المحبة ومضمونها
 ٤٨١ ثانياً - معالم حُسن الله وإحسانه
 ٤٨١ ١- وجه الإحسان الإلهيّ
 ٤٨٦ ٢- وجه الجمال الإلهيّ

المبحث الثالث

- ٤٩٢ طريقة الاتصال بالله عزّ وجلّ

الباب الأول

الفصل الأول

- ١ - تمهيد ٤٩٣
٢ - المحدود لا يرى غير المحدود والعكس صحيح ٤٩٤
٣ - إمكانية الاتصال بالله عز وجل . ٤٩٦

الفصل الثاني

- تجليات أسماء الله تعالى ٥٠٠
١ - المفهوم اللغوي للتجلي والتمثل . ٥٠٠
٢ - مضمون تجليات الأسماء الحسنى . ٥٠١
٣ - مضمون تمثلات هذه التجليات الإلهية . ٥٠٤
٤ - فروق الرؤية ما بين اليقظة والنام . ٥٠٨

الفصل الثالث

- الله لا ينقطع يوماً عن مكاملة عباده ٥١١
١ - الفرق ما بين كلمتي إنس وبشر لغوياً ٥١١
٢ - البشر القديم وتسميته في القرآن الكريم . ٥١٢
٣ - التأثيل على تكلم الخالق مع البشر قبل آدم ٥١٤
وبعده .
٤ - تكلم الخالق مع البشر قبل آدم ٥١٨

الباب الثاني

الفصل الأول

- آدم أول نبي ٥٢٣
أخطاء المفسرين وإشكالاتهم ٥٢٤
١ - ظنهم أن آدم كان أول مخلوق ٥٢٤
٢ - ظنهم أن جنة آدم كانت سماوية ٥٢٥
٣ - تأثرهم بقصة آدم التوراتية ٥٢٨

الفصل الثاني

- قصة آدم مزيج ما بين الحقيقة والحجاز ولسان الحال ٥٣٠
١ - قصة الإيمان الأول والكفر الأول ٥٣١
٢ - المقاصد الموضوعية من قصة آدم ٥٣٢

- ٣ - قصة آدم من الوجهة الموضوعية ٥٣٤
- ٤ - أقوال إبليس بلسان حاله ٥٣٤
- ٥ - مفهوما التهذيب والحضارة وما بينهما من فروق ٥٣٩
- ٦ - المقصد الثاني الكبير لقصة آدم ٥٤٣
- ٧ - المقصد الثالث لقصة آدم ٥٤٥
- ٨ - المقصد الرابع لقصة آدم ٥٦٦
- ٩ - المقصد الخامس لقصة آدم ٥٧٢
- ١٠ - قصة آدم بلسان الحال ٥٨٠

الباب الثالث

الفصل الأول

- صلة الله بالبشر من بعد آدم ٥٨٢
- ١ - رسالة آدم رفعت شعار الحوار لا العنف ٥٨٣
- ٢ - حركات انقلاية مادية بعد آدم ٥٨٣
- ٣ - الحركة الآرية وطروحاتها ٥٨٤
- ٤ - الحركة الرومانية وطروحاتها ٥٨٣
- ٥ - الحركة الفارسية وطروحاتها ٥٨٣
- ٦ - الحركة البابلية وطروحاتها ٥٨٥
- ٧ - الحضارة الغربية المعاصرة وطروحاتها ٥٨٥
- ٨ - سر نجاح هذه الانقلابات الكبرى ٥٨٦

الفصل الثاني

- بعثة آدم والانقلاب العظيم الذي أحدثته ٥٨٨
- ١ - الفطرة البشرية واحدة لم تتغير ٥٨٨
- ٢ - النقلة النوعية التي أحدثتها بعثة آدم عليه السلام ٥٩٠
- ٣ - أول مشاعة تعاونية ٥٩٩

الفصل الثالث

- ٦٠٠ ما تولد عن المُشاعة من نتائج
٦٠٠ ١- مُنافسة بين الذَّريَّين
٦٠٠ ٢- ظهور التَّمائيل كظاهرة شركٍ جليّ
٦٠١ ٣- أدلة قرآنية مؤيِّدة
٦٠٧ ٤- دليلٌ مُستمدٌّ من قولٍ مؤرَّخٍ
٦٠٨ ٥- بوادر ظهور الشُّرك الخفِّي
٦١٢ ٦- تلخيص معلومات ظهور الشُّرك وتطوُّره

الفصل الرابع

- ٦١٤ أدرك الإنسان مكانته على أيدي إبراهيم عليه السَّلام
٦٢٢ الإنقلاب العظيم الذي أحدثته بعثته موسى عليه السَّلام
٦٢٤ ١- تعاليم موسى كانت قوميَّةً شاملة
٦٢٨ ٢- فصلت بعثة موسى ما كان مُجملاً من تعاليم
٦٣١ ٣- ما استجدَّ في مضممار الاتصال بالله تعالى
٦٣٤ الإنقلاب الخامس الرُّوحي الكبير الذي أحدثته بعثة المسيح
الناصرى

- ٦٣٥ ١- زوال روح الطهارة ودماران حلاً باليهود
٦٣٨ ٢- دلالة وأيدئناه بروح القدس
٦٤١ ٣- دلالة "تخلق من الطَّين كهيئة الطير"
٦٤٢ ٤- دلالة "تبرئ الأكمه والأبرص بإذني"
٦٤٣ ٥- دلالة "تخرج الموتى بإذني"
٦٤٣ ٦- دلالة "كففت بني اسرائيل عنك"
٦٤٤ ٧- ضرورةٌ زمنيَّة استلذت إحياء شريعة موسى
٦٤٩ الإنقلاب السادس الرُّوحي الكبير الذي أحدثته بعثة محمد (ص)
٦٤٩ ١- القرآن العظيم كلام الله تعالى
٦٥١ ٢- التَّشريع الكامل

- ٦٥٥ ٣- العبادات هادفة
٦٦٠ ٤- معالم الشمولية والعلمية
٦٦٢ ٥- انقلاب عملي
٦٦٣ ٦- تلخيص واستنتاجات

الفصل الخامس

- ٦٦٧ يُحدث الخالق في عصرنا انقلاباً روحياً سابغاً كبيراً
٦٦٨ أولاً - الإجابة القرآنية موزعة على حلقات
٦٦٨ ١- حلقة سورة هود
٦٧٤ ٢- حلقة سورة الكهف
٦٧٦ ٣- حلقة سورة الزخرف
٦٧٩ ٤- حلقة سورة الصّاف
٦٩٠ ٥- حلقة سورة الجمعة
٦٩٨ ٦- حلقة سورة المنافقون والتّغابن والطلاق
٧٠٠ ٧- حلقات أخرى أنبات وقرّرت مصير أعداء الإسلام

- ٧٠٦ ٨- حلقة سورة الواقعة خاصّة
٧١٣ اتصال الله بمخلوقه البشر ومنهاجه

الفصل السادس

- ٧١٤ ١- ممّ يتألف كيان الإنسان ؟
٧١٥ ٣- العقل: حقيقته كمحطة بثّ أضغاث أحلام
٧١٦ ٤- العقل يقع خارج دماغ الإنسان وليس داخله
٧١٧ ٥- العقل يخطئ في حالة يقظة الإنسان وفي حالة نومه
٧١٨ ٦- تأويل الرؤى يحتاج صاحبه إلى لياقات
٧٢١ ٧- منهج الكلام الرّبانيّ من وراء حجاب
٧٢٦ ٨- من الخطأ الفاحش الرّغم بانقطاع الوحي الإلهي
٩- الفروق الجوهرية ما بين الرؤى الصّادقة وما بين

٧٢٩	أضغاث الأحلام
٧٣٥	١٠- اللُّعاء وحقيقته
٧٤٠	أسماء الله الحسنى
	الصفات الرئيسية الجامعة في سورة الفاتحة وهي خلاصة
٧٤١	أسماء الله الحسنى المختصة بالمخلوقات
٧٥٠	الفهرس

